رومولا

طبعت مع مقدمة ل : أندرو ساندرز

تأليف : جورج إليوت

ترجمة : عيسى سمعان

منشورات وزارة الثقافة . الهيئة العامة السورية للكتاب 2010

العنوان الأصلي للكتاب:

GEORGE ELIOT

ROMOLA

المؤلفة في سطور

جورج إليوت هو الاسم المستعار للروائية الإنكليزية ماري آن إيفانز (1819–1880). ولدت في الريف الإنكليزي وترعرعت في كنف عائلة تراعي التعاليم البروتسانتية الصارمة. فقدت ماري إيفانز حماسها الأرثوذوكسي (ليس نسبة للمذهب المعروف– م) الديني في عقدها العشريني وأصبحت واحدة من أوائل الذين (اللواتي) تبنّوا المواقف العلمية التي تتطلب المنطق السليم والموضوعية في المسائل الدينية. لكن دون أن تتخلّى عن الحسّ الأخلاقي المتجذّر الذي كرز بالإذعان للواجب والإقرار بمبدأ الجزاء.

بدأت أولى محاولاتها بترجمة " حياة يسوع " (1846) لـ: ديفيد شتراوس. في عام 1851 أصبحت مساعدة محرر " ويستمنستر ريفيو ". وبعد فترة قصيرة عقب ذلك تساكنت مع الناقد جورج هنري لويس الذي لم يتمكن من الحصول على طلاق من زوجته. وقد حوّل مسارها من الفلسفة إلى الفن الروائي. ظهرت أولى ثلاث روايات لها في شكل " مشاهد من حياة إكليركية ". أما قصصها الثلاث التالية التي تدور أحداثها على خلفية الحياة الريفية التي ألمّت بها جيداً – " آدم بيد(1859)، " الطاحونة على الجدول " (1860)، "سايلاس مارنر" (1861) فقد رسّخت شهرتها كروائية تتميز بدفء العاطفة والمشاركة الوجدانية نحو الفقراء والمحرومين. وقد سافرت إلى إيطاليا لتقف

مباشرة على خلفية روايتها التاريخية " روмولا " التي تصوّر فلورانسة عصر النهضة. وقد وفّرت حركة الإصلاح عام 1832 خلفية إحدى مغامراتها في الرواية السياسية، " فيليكس هولت " (1866). في كلتا روايتيها " ميدل مارش "(1872) ودانييل ديروندا " (1876) نشاهد الصنعة الماهرة في جدل الحبكتين الرئيستين. في تصويرها الحياة الاجتماعية غالباً ما تذهب المقارنة باتجاه بلزاك وتصويرها لحياة القرية باتجاه فلوبير في " مدام بوفاري ".

جاءت مساهمة جورج إليوت في الرواية من تجربتها في الواقعية، وخاصة في سبر أغوار الشخصية والأوضاع الاجتماعية في حياة الريف. وقد توفّرت على المقدرة على تحليل تفاعل الناس وعلاقاتهم المتشابكة في مجتمع محدود، وتقييم دوافعهم، ومعالجة التأثيرات المتشابكة للوسط الاجتماعي على الشخصية. صحيح أنها عندما تكتب تبين كمن يعطي دروساً في الأخلاق وعلم النفس مما يترك أثره على بطء الحدث في القصة إلا أنها، رغم ذلك، لا بد أن توضع في مصاف أولى الروائيين الهامين

الذين كتبوا الرواية النفسية – الاجتماعية (السيكولوجية– السوسيولوجية).

من هو سافونارولا إحدى الشخصيات الرئيسة في الرواية؟

جيرولامو سافونارولا (1452–1498)، راهب وشهيد إيطالي،

ولد في فيرارا في 21 أيلول 1452. أظهر جيرولامو ولعاً مبكراً بالعلم. وكان معلمه الأول جده الطبيب. وقد أراد له والداه أن يدرس الطب. لكنه حتى عندما كان غلاماً فقد كان يستمتع أيما استمتاع بقراءة توما الأكويني والشراح العرب لأرسطو. كتب أشعاراً، ودرس الموسيقى والتصميم. ولربما تقررت مسيرته المهنية من الصدمة التي نجمت عن رفض عائلة ستروتزي له عندما طلب يد ابنتهم، وكان عليه أن يتحمل سنتين من البؤس والصراع النفسي قبل أن يقرر ترك دراسة الطب ويصبح راهباً. دخل سلك الرهبنة في دير سان دومينيكو، وكان زاهداً بالحياة وكتب عن انتصار الشر في العالم وسيادة الفساد وتنبأ بالعقاب الإلهي (يرجع إلى متن الكتاب في عظاته التي حذّر فيها من السعير القادم). تعبر أشعاره التي كتبت أثناء إقامته في الدير عن السخط المستعر في داخله على فساد الكنيسة والأسى العميق للمصائب التي حلّت ببلده.

وقد أدى النزاع بين فيرارا والبندقية الذي أجج أوراه البابا سيكستوس الرابع إلى استدعائه إلى بولونا. ومن هناك أرسل إلى دير سان مارك (سان ماركو) في فلورانسة. أصبح واعظاً منتظماً في كنيسة سان لورينزو لكن عظاته البسيطة والرصينة والجادة لم تجذب إلا القليل من مستمعيه حيث احتشد معظم الناس في كنيسة سانتو سبيريتو للاستمتاع بالخطابة البلاغية للأخ ماريانو دا غاناتزانو. وقد أدى به هذه الفشل إلى تكريسه وقته للتعليم في الدير لكن حماسه لخلاص أبناء شعبه سرعان ما دفعه إلى بذل جهد متجدد. وإذ كان مقتنعاً بأنه

موحى له فقد بدأ يرى رؤىً، وتنبأ بالعقاب الإلهي للشعب المثقل بالخطيئة. وفي ترنيمة للمخلص كتبت في حوالي هذا الوقت أطلق العنان لهلعه التنبؤي. في هذه الآونة شغل الكرسي البابوي البابا إنوسنت الثامن الذي كان عهده أسوأ من عهد سلفه البابا سيكستوس الرابع. وقد ظهرت، في هذه الأثناء، مواهبه الخطابية، وهذا ما دفع بيكو ديلا ميراندولا الشخصية الشهيرة إلى أن يطلب من لورينزو دي ميديتشي أن يستدعيه من لومباردي.

عندما عاد سافونارولا إلى فلورانسة عام 1490 كانت شهرته كخطيب مفوّه قد سبقته. وقد ألقى معظم عظاته في كنيسة سان ماركو. وقد كتب عظاته في كتاب ليرد على منتقديه من العلماء والمتحذلقين. من أشهر كتاباته " انتصار الصليب ". كان هدف سافونارولا الوحيد أن يقرّب الناس أكثر من الله.

في تموز من عام 1491 انتخب رئيساً لدير سان ماركو.

ازداد تأثير سافونارولا في هذه الآونة وتحول إليه العديد من أتباع الأمير بييرو دي ميديتشي بسبب عنف هذا الأخير وعدم كفاءته. في العام نفسه تحققت نبوءة سافونارولا بموت البابا إنوسنت الثامن.

العام 1492اعترى الناس الكثير من القلق بسبب الانتخاب المسربل بالفضائح للكاردينال بورجيا إلى سدة الكرسي البابوي. وقد ازدادت عظات الراهب سافونا حدة وأخذ يحذّر من العقاب الإلهي الذي سيحل عما قريب. وقد ابتلي العالم بمزيد من المجاعات وسفك الدماء والأوبئة. ولربما كان الضجيج المتأتي عن هذه العظات وصداها هو

الذي حفز بييرو دي ميديتشي على إبعاده مؤقتاً عن فلورانسة. وقد استأنف عظاته النارية في براتو وبولونا. عاد سيراً على الأقدام إلى دير سان ماركو في فلورانسة وشرع في إعادة تأسيس النظام والقضاء على الرذيلة،وأبقى معه في دير سان ماركو الرهبان المؤهلين للعمل الفكري. فتح المدارس لتدريس معظم فروع الفن وشجع فرع دراسات اللغات الشرقية. وعلى أثر نجاحاته في هذه الميادين، غدا سان ماركو أشهر دير في فلورانسة وتقاطر إليه الكثيرون منذرين أنفسهم لهذه الطريقة الدينية. استمر سافونارولا في عظاته النارية وتحذيره من قدوم العقاب الإلهي الذي سيقتصّ من الخطأة والأشرار. العام 1494 طلب دوق ميلانو مساعدة فرنسا، والملك تشارلز الثامن الذي عبر جبال الألب بجيشه. وقد عقد بييرو دي ميديتشي حلفاً مع ملك نابولي الذي كان الملك الفرنسي يسعى لاحتلال مملكته. لكنه سرعان ما عاد ليكفر عن خطيئته وارتمى عند قدمي الملك الفرنسي في بييترا سانتا. حتى إنه وصل إلى حد الوعد بتقديم الأموال وتسليم المعقلين الهامين في بيزا وليغهورن. وقد أدت هذه الأخبار إلى نشوب ثورة في فلورانسة. وحتى هنا بقي نفوذ سافونارولا مؤثراً. وقد أعلن بييرو كابوني أنه قد حان الوقت لوضع حد لهذه الحكومة غير المؤهلة لحمل المسؤولية ما حدا إلى الإطاحة السريعة بحكم بييرو دي ميديتشي. وسرعان ما أرسلت الجمهورية التي بعثت فيها الحياة بالرسل إلى الملك الفرنسي لترتيب شروط استقباله في فلورانسة. وكان سافونارولا واحداً من هؤلاء المبعوثين. دخل تشارلز فلورانسة في السابع عشر من ت2 1494.

لكن كثرة مطاليبه سرعان ما أظهرت أنه جاء كعدو. وقد اندلعت الاضطرابات ولاحت نذر الصدام مع القوات الفرنسية. وقد صمم الإقطاعيون على الخلاص من ضيوفهم الخطرين. وعندما هدد تشارلز بإعلان الحرب ما لم تدفع له الأتاوات مزق كابوني المعاهدة في وجهه ورد عليه برده الشهير.

بعد سبعين سنة من الخضوع للميديتشيين نسيت فلورانسة فن الحكم الذاتي وشعرت بالحاجة ليد تقودها وترشدها. ولذلك اتجه الشعب إلى الراهب الوطني الذي حررتهم كلماته من الملك تشارلز، وأصبح سافونارولا مشرّع فلورانسة، واتخذت سلسلة من الإجراءات في صالح الطبقات الفقيرة. دفع سافونارولا باتجاه اقتراح سوديريني بوجوب إنشاء حكومة شاملة أو عامة، ومجلس كبير على المنوال البندقي (الفينيسي). وقد تألف المجلس الكبير من 3200 مواطن من ذوي السمعة الحسنة، وكان ثلثهم ينتخب لمدة ستة أشهر. كذلك كان هناك مجلس أعلى من ثمانين عضواً كان بالتضافر مع السينوريا (الإقطاعيين) يبت في المسائل ذات الطبيعة الحساسة والهامة. ومع أنه لم يتسلم أي منصب في الكومنولث الذي أنشأه فقد بدا رئيس دير سان ماركو الرأس الحقيقي للدولة، وديكتاتور فلورانسة. في هذا النجاح الباهر والاستقطاب الكبير لعامة الشعب بفعل عظاته وتحذيراته من فساد الكنيسة أثارت كلمات سافونارولا الحماسية حفيظة غرمائه السياسيين إضافة إلى بلاط روما الذي انحدر مقامه إلى الحضيض. وحتى في هذه الآونة، حين كانت سلطته في أوجها، وكان الحماس على أشدّه وطبقت شهرته الآفاق ولم

تسع الكاتدرائيات على رحبها المصلين الذين تقاطروا لسماعه، كان أعداؤه يخططون سراً لإسقاطه.

ذلك أن فلورانسة المحبة للذّات تغيّرت وحرّمت مظاهر الأبهة وأدوات الزينة الفارغة (يرجع إلى المتن) وقلة من الناس تجرأت على عدم مراعاة الواجبات الدينية في الصوم وغيره، ولبس الناس من كلا الجنسين ملابس على الطريقة التطهرية (البيوريتانية) البسيطة، وندرت الزيجات. لا بل وصل تأثير سافونارولا إلى الأولاد مما أثبت تأثيره المغناطيسي بسبب طيبته ونقائه حيث نظم منهم ميليشيات مقدسة (نوع من جمهورية داخلية). وبمساعدة هؤلاء الشباب تم إعداد وتنفيذ الكرنفال الديني لعام 1496عندما قدم المواطنون نفائسهم للفقراء وأنشد الرهبان المدائح وعقدوا الرقصات تمجيداً لله. وبالروح نفسها تم الاحتفال بكرنفال عام 1497 بإحراق أدوات الزينة التافهة (أي الأقنعة من كرنفالات احتفالية سابقة، والكتب غير اللائقة والصور الخ (يرجع إلى المتن) في ساحة السينوريا (بياتزا ديلا سينوريا) لكن ليس هناك من دليل على أن نفائس الكتب قد أحرق ذلك أن سافونارولا لم يكن عدواً لا للفن ولا للعلم.

في الوقت ذاته كانت الأحداث تتخذ منعطفاً معادياً لرئيس الدير سافونارولا ذلك أن البابا ألكسندر السادس قد صمم على إسكات هذا الراهب المتجرئ. وكان أول سلاح استخدم هو الرشوة، واستخدمت قلنسوة الكاردينالية كطعم لكن سافونارولا أبى أن يرتدي أية قلنسوة سوى قلنسوة الشهادة. في عام 1495 انتهى إيجاز بابوي إلى دعوة

سافونارولا إلى روما، لكن الراهب رفض الدعوة واستمر في دعوته لإصلاح الكنيسة. وفي بداية عام 1497 تسنّم الـ Piagnoni مرة ثانية سدة السلطة وعلى رأسهم أخلص أصدقاء الراهب شخص يدعى فرانشيسكو فالوري. في آذار تغيّر مجرى الأحداث حيث اتحدت جماعة الأرابياتيArrabiati والميديتشيين في كراهيتهم المشتركة للراهب. أخفقت محاولة بييرو دي ميديتشي الجديدة لدخول فلورانسة، ورغم ذلك فقد استمر أتباعه في حياكة الدسائس. وكان المواطنون قد ضاقوا ذرعاً بالتقشف الذي فرض عليهم وشعر ألكسندر أن انتصاره وشيك. صدر الحرم الكنسي بحق الراهب. في الآن ذاته همدت النزاعات الحزبية من جرّاء انتشار الوباء. وبعد انتهاء الوباء دخلت فلورانسة في نزاعات متجددة بسبب دسائس الميديتشيين، واكتشفت مؤامرة لإعادة بييرو إلى الحكم. ومن بين الخمسة المتهمين كان برناردو ديل نيرو (عرّاب رومولا في الرواية). وقد وظّف حامل اللواء gonfalonier، فرانشيسكو فالوري، كل إمكاناته للحصول على إدانتهم وأعدم الخمسة جميعهم. وقد قيل إن حياة برناردو ديل نيرو كان يمكن إنقاذها لو رفع سافونارولا صوته (انظر لقاءه الساخن مع رومولا). وقد أثبت صمته ذاك أنه شكّل خطراً مميتاً على شعبيته في أوساط المعتدلين، وأسهم في زيادة عدد مناصري جماعة الأرابياتي، وشحذ حنق البابا.

بدت سنة 1498، عام استشهاد سافونارولا، أنها حسنة الطالع وكانت جماعة الـ Piagnoni مرة أخرى في قمة هرم السلطة وبناء على طلبهم استأنف الراهب عظاته بعد أن كان حرم منها. لكن

الإيجازات التي تهدد وتتوعد كان تتدفق من روما، وهددت المدينة بأجمعها بالحرم، ولم يعد جماعة الـ Piagnoni في السلطة وكان السينوريا الجديد أقل وداً مع الراهب، وتم إقناع الراهب بأن يعتزل في دير سان ماركو. حاولت جماعة الـ Piagnoni تهدئة البابا لكنه استمر في عناده. فالفلورانسيون يجب إما أن يسكتوا هذا الراهب بأنفسهم أو أن يرسلوه إلى روما لمحاكمته.

لكن سافونارولا لم تلن له قناة وصمم على إرسال الرسائل إلى كل أنحاء العالم المسيحي وإلى حكام أوربا داعياً إياهم إلى عقد مجلس لإدانة الحبر الأعظم. وقد تم اعتراض إحدى هذه الرسائل وأرسلت إلى روما مما شكل خطراً مميتاً على حياة الراهب (انظر مؤامرة تيتو وخداعه الراهب في متن الرواية). حاول السينوريا الخائف أن يقنع سافونارولا بوضع حد لعظاته. وقد استجاب على مضض. واعتقدت الحكومة الآن أن البابا ألكسندر ستهدأ ثائرته. لكن رغم سكوت الراهب فقد عملت الأحداث وحماقة مريديه على سرعة لقائه مصيره. إذ تحدى راهب فرانسيسكاني من جماعة الأرابياتي، واسمه فرانشيسكو دي بوغليا، سافونارولا على إثبات صحة معتقداته بما عرف بمحنة النار. في البدء تعامل الراهب مع هذا التحريض بازدراء لكن تلميذه المتحمس الراهب دومينيكو قبل

التحدي. وقبل هذا الراهب دخول النار مع أي شخص دفاعاً عن قضية معلّمه. وعندما استنكف سافونارولا بكل حزم عن دخول التجربة انتدبت جماعة الأرابياتي أحد المرتدين، جوليانو دي رونديتيلي،

لدخول التجربة مع الراهب دومينيكو. نشأت نزاعات مطولة. واذ لاحظ سافونارولا أن فخاً كان ينصب له فقد رفض التجربة إلى أن تخلّى أخيراً عن قراره الصائب وانصاع في النهاية لتعصّب أتباعه. وبمساعدة السينوريا الذي كانت تصب مساعيه بالنتيجة لصالح روما استمرت جماعتا الأرابياتي والـ Compagnacci في دفع المسألة قدماً وأصبح طريق القضاء على سافونارولا الآن مفتوحاً وخالياً من أية عقبات.

في 7 نيسان 1498 تجمع حشد عظيم في ساحة السينوريا (بياتزا ديلا سينوريا) للتمتع بالمشهد البربري. أحضر الوقود ونصبت كومة منه أمام القصر يحيط بها الجنود. وعلى جانب مشى الفرنسيسكان في موكب مهيب وعلى الجانب الآخر الدومينيكان. وكان يمشي على رأس الدومينيكان سافونارولا يحمل القربان الذي وضعه بكل وقار على المذبح. أشار القضاة إلى المتبارزين الاثنين بالتقدم، وقد تقدم أولاً الراهب دومينيكو لكن لم يظهر لا روندينيلي ولا الراهب فرانشيسكو. بدأ الفرانسيسكان يثيرون اعتراضات مغالية. وعندما ألح سافونارولا أن بطله يجب أن يحمل القربان صرخوا ضد تدنيس جسد المخلص (أي القربان) في النار. علا الضجيج والصخب واهتاجت الجموع. ورغم أن روندينيلي لم يحضر فقد أرسل السينوريا رسائل غاضبة يستفسرون فيها عن سبب تأخير الدومينيكان للتجربة. أصبح الوقت الآن متأخراً وأعطى هبوب عاصفة السلطات ذريعة للإعلان بأن السماء كانت ضد التجربة. انسحب الفرانسيسكان خلسة لكن سافونارولا حاول، وهو يرفع القربان، أن يقود أتباعه بالشكل المهيب عينه الذي

حدث من قبل. وعلى أثر هذا انفجرت الجموع في صياح غاضب لخسرانهم متعة ما جاؤوا يشهدونه من سفك للدماء. انسحب سافونارولا تحت حماية سالفياتي ورجاله، ولم يطل المذنبين الحقيقيين أي ضيم وأصبح الراهب الغيور، والنبي ومشرّع قوانين فلورانسة كبش الفداء. ورغم هذا الحيف فقد احتفظ الرجل فاقد الحظوة بإبائه وهدوئه، وأخبر المؤمنين المحتشدين في الكنيسة بحوادث ذلك اليوم، ثم انكفأ إلى حجرته في الدير بينما كانت الجموع في الساحة خارجاً تطالب بدمه.

في الصباح التالي بعد أن أعلن السينوريا نفي الراهب بادر فرانشيسكو فالوري وغيره من زعماء الـ Piagnoni إلى توحيد الجهود لضمان سلامته.

في الآن ذاته عزمت الحكومة على القبض عليه، وما إن علمت الجموع بذلك حتى اندفعت تهاجم الدير. أغلقت أبواب الدير على الفور واكتشف الراهب أن مريديه قد أحضروا سراً أسلحة وذخائر وتأهبوا للدفاع. أرسل السينوريا أوامر إلى كل الناس بأن يغادروا الدير واستدعي فالوري إلى القصر. لكنه اغتيل في الشارع ونهب الغوغاء قصره. وقد استمات الرهبان والمتبقون من الأصدقاء في الدفاع عن سافونارولا. حاول الراهب أن يقنعهم بإلقاء سلاحهم لكن دون جدوى. وعندما اكتسحت الجموع الكنيسة أخيراً شوهد سافونارولا يصلي عند المذبح والراهب دومينيكو يحميه بشمعدان ضخم من هجوم الغوغاء. وقد قام نفر من أصدقاءه الخلّص بجرّ معلمهم المحبوب إلى المكتبة الداخلية وألحّوا عليه بأن ينجو بنفسه. تردد سافونارولا، وبدا عليه في

لحظـة مـن اللحظـات أنـه سـيذعن لكـن راهبـاً جبانـاً اسـمه مالاتيسـتا ساكرامورو صرخ بأن الراعي يجب أن يجود بنفسه في سبيل قطيعه. وعلى أثر ذلك التفت سافونارولا وودّع إخوانه واستسلم يصحبه صديقه المخلص دومينيكو إلى أعدائه. وبعد ذلك، وبخيانة من مالاتيستا نفسه، قبض أيضاً على الراهب سيلفيستر و. اقتيد المساجين إلى قصر فيتشيو (بالاتزيو فيتشيو) وأودع سافونارولا في زنزانة البرج التي ضمت بين جوانبها في وقت من الأوقات كوسيمو دي ميديتشي.

في هذه الأثناء وصل إيجاز بابوي اتسم بالفرح والغبطة يحيّي أبناء الكنيسة البررة لكن يجب عليهم، كما قال الإيجاز، أن يتوّجوا أفعالهم الطيبة بإرسال المجرمين إلى روما. وقد ابتهج لهذه الأخبار كذلك سفورزا، والعاهل الوحيد الذي كان بمقدوره إنقاذ حياة سافونارولا، الملك تشارلز، توفي يوم محنة (تجربة) النار. وهكذا تحققت نبوءة ثانية من نبوءات الراهب، وقدكلّفه تحققها الحامي الوحيد له. رفض السينوريا إرسال المسجونين إلى روما، لكنه امتثل لأوامر روما. اختير قضاة سافونارولا من ألد أعدائه. وقد تعرض يوماً بيوم للتعذيب ونتيجة لذلك وللعذاب النفسي الذي أخضع له اعترف بكل ما طلب منه. لكنه ما إن تحرر من آلة التعذيب حتى سحب اعترافاته التي أدلى بها تحت وطأة الألم والعذاب. بيد أن تقريراً مزوراً عن اعترافات الراهب كان كتب ونشر.

أصر ألكسندر على رؤية عدوه يلقى حتفه في روما لكن السينوريا أصر على أن النبي المزيف يجب أن يعاني سكرات الموت

أمام الفلورانسيين الذي قادهم ولمدة طويلة في الطريق الخطأ. وأخيراً تم الوصول إلى حل وسط. إذ عقدت محكمة صورية أخرى من قبل مبعوثين رسوليين معينين خصيصاً من قبل البابا. في الآن ذاته تواصلت محاكمة الراهبين دومينيكو وسيلفيسترو. بقي الأول وفياً لمعلمه ولنفسه، وكرر مراراً وتكراراً إيمانه بألوهية الدعوة التي جاء بها الراهب. وعلى العكس من ذلك فقد استسلم الراهب سيلفيسترو ما إن شاهد آلة التعذيب وأقرّ بذنبه وذنب معلمه في كل ما نسب إليهما من تهم.

لكن المبعوثين الرسوليين سرعان ما أنهيا مهمتهما، وكان بحوزتهما أمر من البابا بوجوب القضاء على سافونارولا حتى ولو كان يوحنا معمدان ثانياً. وعادا من جديد يسومان الراهب العذاب، لكنه أصبح الآن متمرّساً بتحمّل الألم. وصدر الحكم بالموت بحقه وحق الراهبين يوم الاثنين 22 أيار.

كانت آخر أمنية لسافونارولا أن يجتمع بأخويه الراهبين الضحيتين وكانوا جميعاً قد تلقوا روايات كاذبة عن اعترافات كل واحد منهم. وقف الجميع الآن وجهاً لوجه أمام بعضهم للمرة الأولى (بقي الراهب دومينيكو على ثباته أما حماس سيلفيسترو فقد اشتعل ثانية عند رؤية معلمه). صلى سافونارولا مع الرجلين ومنحهما بركاته وطلب إليهما، اقتداء بالمخلص الفادي يسوع، أن يستسلما لقدرهما.

يقول جاكوبو نيقوليني، واحد من الأخوية الدينية، الذي جاء للتعزية في آخر سويعاته إنه طلب، بعد أن أضناه التعب والضعف، أن

يسند رأسه على حضن زميليه وسرعان ما غفا. وكما يخبرنا نيقوليني بدا وجه الشهيد هادئاً ومبتسماً مثل وجه طفل. عند استيقاظه خاطب الأخ المعزّي بكلمات مؤثرة متعاطفة، ومن ثمّ تنبّأ بأن مصائب عظيمة ستحل بفلورانسة أثناء فترة ولاية البابا المدعو كليمنت. وقد تحققت النبوءة بحصار 1529.

تم تنفيذ الإعدام في صباح اليوم التالي. في البداية جرى تنفيذ مشهد التحقير والإذلال بوسائل عدة. كان سافونا رولا آخر المعَذّبين. وقد تدلت جثتا تلميذيه من ذراعي الصليب قبل أن يعلّق هو على العارضة الرئيسة. ثم أضرمت النار في الكومة. ولبرهة حرفت الريح ألسنة اللهب عن مكانها تاركة الجثث سليمة من دون أن تمسّ . صاح الـ Piagnoni الباكون " إنها معجزة "، لكن النار اشرأبت بألسنتها للأعلى وسمعت صيحات الانتصار تنطلق من أفواه الغوغاء. وفي المساء جمعت رفات الشهداء في عربة ونثرت في مياه نهر آرنو.

من الواضح أن حزب سافونارولا قد انتهى بموته لكن عندما تعرضت فلورانسة للحصار في 1529–1530 كان أكثر المدافعين بسالة عن مدينته الحبيبة، وإن الناكرة الجميل، هم الـ Piagnoni الذين حافظوا على ذكراه كقديس.

هذا، ويمكن تصنيف كتابات سافونارولا في ثلاث مجموعات 1) عظات متعددة تم جمعها 2) عدد كبير من المقالات الدينية والأخلاقية 3) بضع قصائد قصيرة ومقالة سياسية عن حكومة فلورانسة. ورغم أن إيمانه بعقائد الكنيسة الكاثوليكية لم يهن فإن احتجاجاته الشديدة ضد

الفساد البابوي، واتكاله على الإنجيل كمرشده الأكيد، ومثابرته الأخلاقية العنيدة لترتبط دون شك بالحركة التي آذنت بحركة الإصلاح الديني في أوربا في القرن 16.

والآن هل لنا أن نمضي ونقرأ هذا السفر وهذه الملحمة المجسدة في رواية فنية كتبتها الروائية جورج إليوت في شكل روايتها " رومولا "؟ هيا!

نهاية آب، 2005

مقدمة

بالنسبة للكثير من الفيكتوريين المدققين كانت جورج إليوت ببساطة " مؤلفة رومولا ". وما إن ظهرت الرواية لأول مرة حتى مدحها وبشكل شامل تقريباً الخبراء المختصون cognoscenti. فروبرت براوننغ، كواحد من هؤلاء، وجد صعوبة في الحصول على نسخة من طبعة 1863 ذات الثلاثة مجلدات من مكتبة مودي الجوّالة Circulating Library بسبب إقبال الجمهور عليها، لكنه ما إن قرأها حتى كتب إلى مؤلفتها، مدفوعاً بالحماس الشخصي، معلناً أن "رومولا" "هي القصيدة النثرية الأكثر نبلاً والأكثر بطولة" من بين كل ما قرأه في حياته". أما أنتوني ترولوب فقد شعر أن شخصية البطلة لم تبزّها " أية فتاة عرفتُها في أية رواية "، وأخبر جورج إليوت لاحقاً أنه لو قُدّر لها أن تموت قبل أوانها فبإمكانها أن تمضي راضية مرضية لأنها كتبت العمل الأوحد الذي لن يموت بموتها دون ريب. كما قرأها وأعجب بها كل من تينيسون والوطني الإيطالي، ماتزيني. وقد أُثِرَ أن غلادستون قد مدحها على الملأ في حفلة عشاء. أما ف. د. موريس فقد كتب بصورة حماسية وباستفاضة عن استحسانه، ولم يتردد الناقد في مجلة " ويستمنستر ريفيو " في الإعلان بأنها رائعة جورج إليوت. وحتى وقت يرقى إلى عام 1885، مع كل الرهافة التي اتسمت بها أحكامه النقدية، أعاد هنري جيمس تأكيد الرأي، الذي تشكل عند أول قراءة له للكتاب قبل عشرين سنة، بأن "رومولا " كانت " بالإجمال أجمل ما كتَبَتْ (المؤلفة) ".

"رومولا" هي الرابعة بين روايات جورج إليوت الكاملة. ورغم أنها تحتل موقعاً مركزياً في عملها كروائية من حيث دلالات تتعدى دلالة التسلسل الزمني فإنها تتفرد عن سابقاتها ولاحقاتها لسببين هامين. فقبل كل شيء هي رواية تاريخية طموحة تدور أحداثها في فلورانسة عصر النهضة وليس في ريف إنجلترة الذي شكل الخبرة الخاصة أو المكتسبة لجورج إليوت، – أي إنجلترة "ميدل مارش " أو " آدم بيد ". ولا يقل أهمية عن ذلك القرار بنشر الرواية في شكل مسلسل. فقد ظهرت "رومولا" أول ما ظهرت في أجزاء شهرية بين تموز 1862 وآب 1863في أرفع صحيفة أدبية في ذلك العقد، " كورنهيل ماغازين ". إن الحقيقة المتمثلة في مقدرة صاحب "كورنهيل "، جورج سميث، على إغراء جورج إليوت كي تتخلى عن ناشرها المعتاد، في دار بلاكوود، مقابل المبلغ المعتبر إذ ذاك وقدره 10 000 جنيه لهو دليل كاف على مدى شساعة شعبيتها لدى القراء. على أن من المحتمل أيضاً أن حقيقة هذه الشعبية بالذات قد أوحت للروائية بأن الوقت قد حان لمدّ أفقها هي والآفاق الفنية لقرائها بالمباشرة بكتابة رواية تاريخية. وفي منتصف ستينيات القرن التاسع عشر كانت الرواية التاريخية قد حققت الرسوخ والاحترام الجيدين معاً في إنجلترا. كانت روايات ويفرلي لسكوت – وكانت جورج إليوت من المعجبات الدائمات بها – لا تزال تحتفظ بظاهرة رواجها بعد ثلاثين سنة من وفاة سكوت، ومن بين الروائيين المعاصرين، كان الاثنان الأكثر شهرة بينهم، ديكنز وثاكري، قد نشرا روايتين تدور أحداثهما في فترات تاريخية. وخارج إنجلترا كان فلوبير قد

أكمل تقريباً "سالامبو"، وكان تولستوي يشتغل على روايته " الحرب والسلم ". لكن، كما نوّه ج. هـ. لويس عندما احتضن هو وزوجه لأول مرة مشروع "روmولا " بينما كانا يمضيان إجازة في إيطاليا صيف 1860، كانت جورج إليوت مهيأة لـ " فعل شيء ما في الرومانس التاريخية يختلف في طابعه " عما تم إنجازه من قبل.

هذا المشروع " الطموح " نحي جانباً لفترة مؤقتة لصالح " رواية إنجليزية " أخرى، " سايلاس مارنر " والتي "اعترضت " خططها الأخرى " بإلهام فجائي "، لكن استؤنف العمل عليها بحماس في الصيف التالي عندما عاد آل لويس إلى فلورانسة ومكتباتها. ويبدو أنه حتى المعاناة الخاصة المتصلة بتأليف " روmولا " قد خففت جزئياً من هذا الحماس. والحق أن صداع الرأس العصبي المتكرر، والشكوك، ونوبات الكآبة التي عانت منها بينما كانت منهمكة في اشتغالها على المخطوطة قد عادت، كما يبدو، بالشدة نفسها بينما كانت تكتب " ميدل مارش " ولاحقاً " دانييل ديروندا ". وقد أخبرت زوجها الثاني أن " روmولا " قد تغلغلت فيها أكثر من أي من كتبها الأخرى " وشكلت "نقلة واضحة المعالم في حياتها "، فقد بدأتها، كما قالت، في شبابها وأنهتها عندما شاخ بها العمر. وقد اتُخذت هذه الفكرة كدليل على حقيقة أن " روmولا " هي من بين رواياتها الأكثر توتراً، والأكثر توتيراً. وكذا يمكن أن توحي أنها كانت بالنسبة لجورج إليوت، الرواية التي آذنت بنضوجها الفني. ومن المؤكد أنها كانت تعني لمؤلفتها أكثر من أي من أعمالها الأخرى. إن الكَلَف الزائد بالتفاصيل، والبحث والتخطيط قد أوحى لها

بأنها كانت تستحق الجهد، ذلك أن الأجزاء استدعت صياغتها الحاذقة في كل إجمالي .قالت لاحقاً للسيد ر.هـ.هاتن: "قلما تعثر على عبارة وحادثة، وتلميح لم تكتسب قيمتها بالنسبة لي من تبعيتها المفترضة لهدفي الفني الرئيس ". هذا وقد عزز نشر " رومولا " من سمعة جورج إليوت كأكثر الروائيين وزناً في ذلك العصر، لكن الرواية كسبت لنفسها من المهابة أكثر مما كسبت من الشعبية.

هذا وقد ترسخ الشك الذي أعرب عنه الكثير من أوائل النقاد بأن من غير المحتمل أن تضاهي الرواية النجاحات الجماهيرية لروايتي " آدم بيد " و" الطاحونة على الجدول " في القرن العشرين. لكن "رومولا" لقيت من الإهمال ما لم تلقه روايات جورج إليوت الرئيسة الأخرى. على أن أياً من الروايات اللاحقة، بما فيها " ميدل مارش " لم تحدث قط ذلك التعاطف الذي كيل للروايات السابقة لـ " رومولا ". فهي الأولى من بين الروايات الأخيرة، تلك الروايات التي تبرز فيها بتوكيد أكبر السمة الأخلاقية والفكرية. ومهما يكن شعور المرء بخطأ تعيير النقاد فإن وَصْفَ السيد و. هـ. هينلي لجورج إليوت بأنها " بالاس Pallas (إلهة الحكمة عند الإغريق –م) ذات تحيزات ومشد ضيق corset " يوحي بقدر من الضيق الذي شعر به بعض القراء بسبب إلحاحها على الأخلاق. وبدءاً من "رومولا" وما تلاها تم طرق أرض روائية جديدة بالرغم من أن هذه التجارب اللاحقة لم تلاق دوماً استحساناً شاملاً. وقد اعتبر الكثير من القراء الأوائل أن الحدث في "ميدل مارش " بطيء، ومعالجة موضوعتها (ثيمتها) فكرية بإفراط. وحتى وقت متأخر نسبياً

فقد اعتُقد أن " فيلكس هولت " و" دانييل ديروندا " كلتيهما، مثلما الحال مع بيضة دي موريبه الأسقفية الشهيرة[*]، ليستا ممتازتين إلا بشكل جزئي. ومنذ القرن 19تعرضت "رومولا" للاستخفاف، وعلى الغالب بشكل لا يعدم البلاغة، أو وسمت باستعلاء على أنها غير جديرة وغير قابلة للقراءة.

من الخطأ بمكان أن نعمي أبصارنا عن العيوب الواضحة في "رومولا"، لكن مثل هذه العيوب يجدر ألا يسمح لها بأن تغطي على ميزاتها الحقيقية الكافية. فهنري جيمس، ذلك المعجب الدائم بالوحدة الفنية والصدق (الأمانة) integrity في الرواية، قد سلّم برضى وعن طيبة خاطر بأن عيوب الرواية " تكاد تكون بحجم جمالياتها "، لكنه كان مستعداً أيضاً للتأكيد بخصوص تلك الجماليات بأن أجمل الصفحات في الرواية " تنتمي إلى أجمل جزء في أدبنا ". إن "رومولا" هي الأكثر إتقاناً وتطلباً للتفكّر بين روايات جورج إليوت، وإذا قصرت عن أن تكون أعظم رواياتها فإنها تبقى، لدى بعضهم، من بين أكثر رواياتها التزاماً، وفصاحة، وإقناعاً. وعندما قرأتها المؤلفة ذاتها مرة ثانية عام 1877، بعد تأليفها بأربع عشرة سنة، كتبت إلى جون بلاكوود:

ليس هناك من بين مؤلفاتي ما أشعر نحوه شعوراً فياضاً أكثر منها حتى إنني أقسم بأن كل جملة قد كتبت بأعز قطرة من دمي.. وبأقصى ما في مكنة طبعي من حرص متوهج بالحماس لتحقيق الصدق. لقد جعلتني مراراً أنشج بنوع من الفرح المؤلم وأنا أقرأ الجمل التي تلاشت من ذاكرتي.

لا سبيل إلى الإنكار بأن الدم قد اعتصر منها، لكنه يبقى، مع ذلك، " أعزّ دمائها ".

II

من بعض النواحي يمكن النظر إلى "رومولا" على أنها أكثر روايات جورج إليوت " فيكتورية ". فالذائقة المحبذة للرواية الجادة، البحثية، التاريخية كانت بحد ذاتها فيكتورية، لكن "رومولا"، رغم أحداثها التي تقارب الميلودراما، وفخامتها، قد تقع على القارئ الحديث وكأنها، كالكثير من مجايلاتها، مصطنعة ونوعاً ما مفرطة في الاعتداد الذاتي. لكنها بمعنى هام آخر بنت عصرها، ذلك أنها، استجابة لإيطاليا، وإيطاليا عصر النهضة، كانت محط اهتمام نشط بالنسبة للفيكتوريين. فبينما نظر الرومانتيكيون الإنجليز، والكلاسيكيون المحدثون بقدر ما نظر الثوريون، إلى الكفاح لنيل الاستقلال اليوناني كبؤرة خارجية استقطبت مطامحهم السياسية فإن خلفاءهم الفيكتوريين، المدفوعين بإعجاب رومانتيكي أيضاً بالماضي، قد التفتوا إلى مشكلة توحيد إيطاليا. وإن كان بايرون وشيلي قد لعنا الاضطهاد التركي لليونان، فإن براوننغ وتينيسون قد توجها باهتمامهما نحو الشؤون الإيطالية، نحو شن الهجمات على سوء الحكم النمساوي أو البابوي، وإلى تقريظ جامح للروح الوطنية المفترضة للإيطاليين. وقد ربط التطلع إلى إيطاليا ديمقراطية وموحدة الليبراليين الإنكليز والمحافظين الإنكليز في قضية

مشتركة، كما وجدت عواطف طلاب المدارس بشأن فضائل روما الجمهورية صدى لها في الإيمان الجديد الأدبي والسياسي بأبطال القرون الوسطى الإيطاليين، أشباه رينتزي أودانتي. وقد عنى الاهتمام المتزايد ببواكير الفن والأدب الإيطاليين أن توسكاني، وفلورانسة، بشكل خاص، كانت تقع في مركز اهتمام الشماليين الثقافي بثقافة الجنوب. وقد ألهمت رؤية أمجاد الماضي الضائعة الأمل بأن خلق دولة جديدة من بين الخراب سيعيد إيطاليا إلى تفوقها الفني في أوروبا. ويمكن أن يصل الحد إلى أن النهضة الإيطالية Risorgimento قد يثبت أنها نهضة ثانية .

هذا وقد أعاد كونغرس فيينا الذي أعقب سقوط نابوليون عام 1815 تأكيد الحقوق التاريخية للبابا في إيطاليا الوسطى وآل بوربون النابوليون في الجنوب. وقد قسم الشمال، بما فيه توسكاني، إلى سبع وحدات منفصلة. ومع السيطرة النمساوية في لومباردي وفينيسيا، ومع حكم آل هابسبورغ في توسكاني، وبارما، ومودينا، بدا أن مصائر الأمة ستتقرر من الآن فصاعداً في فيينا. وقد علّق المستشار النمساوي، مترلينك، قائلاً: " الشؤون الإيطالية لا وجود لها ". لكن الروح الوطنية الإيطالية قد وُجدت حقاً وبكل تأكيد. إذ هناك ما يكفي من الأدلة على الروح الوطنية المتعاظمة في روايات مانزوني وستندال، والتعاطف الإنجليزي معها يلقى تعبيراً عنه في شعر براوننغ، وكلاو وسوينبيرن الشاب. إن الطريقة التي توحدت بها إيطاليا ليس لها صلة مباشرة بقارئ "رومولا" إلا بقدر ما تلامس ثروات توسكاني في عقد الستينيات

(ق19) القضايا الحيوية التاريخية والأخلاقية التي تطرقت إليها الرواية.

وبحدود عام 1860، العام الذي زارت فيه جورج إليوت وج.هـ. لويس لأول مرة إيطاليا معاً كانت توجد في فلورانسة جالية لا بأس بها تتحدث الإنكليزية، وقد جذبها إلى هناك رخص الأسعار في المدينة والمناخ بقدر ما جذبها تاريخها وفنها. وكانت هناك كنيسة إنكليزية لتلبية حاجات الجالية الروحية، وأربعة من الدكاترة الإنكليز، وصيدلاني إنكليزي وخياط إنكليزي لتلبية الحاجات الجسدية. كذلك كان هناك تدفق مستمر للسياح. ومن بين أعضاء الجالية الأكثر بروزاً وشهرة روبرت وإليزابيث براوننغ، وأخو أنتوني ترولوب، وتوماس أدولفوس، وهو روائي له خصوصيته. ولا غرو أن أصبحت الكلمة " إنكليزي " "inglese" تطلق على كل الأجانب في المدينة.

عندما وصل آل لويس من روما ذهلوا، شأنهم شأن معظم الزوار، لجمال فلورانسة ولحقيقة أن الكثير قد بقي صامداً ليذكر السائح بمدينة النهضة، وهذا تطرقت إليه مقدمة "رومولا" باستفاضة. شعرت جورج إليوت أنها " دفعت إلى حالة من السلبية المذلّة لمنظر الأشياء الباهرة من صنع الماضي الغابر "، وقد كانت هذه" السلبية " عينها الموخّطة بالدهشة ما أشرط (حدّد) ردود فعلها الأولى. ويبدو أن روعة الماضي قد كسفت الوضع الراهن للشؤون السياسية الإيطالية. ومع ذلك، فرسالتها الأولى إلى وطنها ذكرت أن توسكاني كانت "في أعلى روحها المعنوية السياسية " وأن صور الملك فيكتور عمانوئيل كانت تطالعها عند كل منعطف وتحدق بها "بأكثر المبالغات صدقاً من

ناحيـة الشـوارب والمعنـى الـذكي". كانـت توسـكاني فـي أعلـى درجـات روحها المعنوية لأن ذلك يعود في معظمه إلى أنها ضُمّت إلى مملكة فيكتور عمانوئيل الإيطالية في آذار الفائت، وقد تأكدت هذه الحقيقة واقعياً علـى مستوى الشعب بوساطة الاقتراع. وذلك الصيف، أيضاً، كـان أصـحاب " القمصـان الحمـراء " مـن أنصـار غاريبالـدي قـد غـزوا صقلية بنجـاح بـاهر وعبروا إلـى البر الرئيسـي دافعين القوات النابوليـة (نسبة إلـى نـابولي–م) أمـامهم. وبحلـول آذار مـن عـام 1861، السـنة التـي عـادت فيهـا الكاتبـة إلـى فلورانسـة لكـي " تجمـع " مـادة "رومـولا"، كانت كل إيطاليا، باستثناء روما وفينيسيا، قد توحدت في مملكة واحدة. وكان مقرراً أن تصبح فلورانسة نفسها عاصمة المملكة الجديدة في عام 1865، وهذا الموقع شغلته حتى سقوط روما بعد خمس سنوات. وليس مستغرباً علـى الإطـلاق أن يكون عدد صحيفة " كورنهيل " الذي حوى الفصـول 6 إلـى 10 مـن "رومـولا" قـد أشـار إلـى " المشـاهد المليئـة بالأحـداث لأعـوام 1859، 60، 61 " فـي مراجعـة للكونـت أريفـابيني عنوانها " إيطاليا في عهد فيكتور عمانوئيل "، هذه السنوات التي فيها " ولـدت أمـة قويـة مـن بـين بضـع دويـلات " والتـي فيهـا " جعلتنـا حملـة غاريبالدي الرائعة في صقلية نعي أن الإنجازات السابقة للرومانس ربما كانت تاريخاً جاداً ".

تحـاول "رومـولا" أن تصـنع رومانسـاً جـاداً مـن بـين الحـوادث التاريخيـة التـي طالت بتأثيرها مصير إيطاليا القرن 19. تعنـى الروايـة بإعـادة ترسـيخ النزعـة الجمهوريـة الفلورانسـية فـي أواخـر القـرن 15

وبالحملة الأخلاقية التي كرز بها سافونا رولا في المدينة. وهي تقدم الوعي المتبلور لشخصياتها المركزية على خلفية فيها السياسة والدين من الأمور الحيوية. وحسب تعبير جورج إليوت " إن عصر فلورانسة الذهبي ليس يتمثل في حكم لورينزو العظيم (أو المعظّم)، بل في فترة الصرامة البيوريتانية التي جاءت كرد عليه. يبين سافونا رولا في الرواية كبطل موضع شك. فهو أناني، صارم، غير محبوب وأحياناً أخرق، لكن يبقى بإمكاننا أن نشعر بالقوة الأخلاقية لرسالته ونرى، من خلال تأثيره على رومولا نفسها، شيئاً من أثره الخيّر. ولئن كانت الرواية أبلغ تأثيراً باعتبارها وصفاً لتطور شخصي وروحاني، فإن ذلك التطور يمثل مجتمعاً بأكمله وبالتالي يشمل ذلك الجزء من الحياة الذي لا بد من تسميته بالسياسي. إن الصلات بين الماضي والحاضر التي يتم التشديد عليها عن عمد في مقدمة الكتاب كانت واقعية بما فيه الكفاية بالنسبة للقراء الفيكتوريين، وعندهم ما عندهم من وعي أفكار التطور التاريخي أو الاستمرارية التاريخية. عندما عادت جورج إليوت إلى فلورانسة في أيار 1861 حضرت هي ولويس احتفالاً في ذكرى أولئك الذين قضوا في اضطرابات عام 1848 في كنيسة سان كروتشه (الكنيسة التي تمت فيها خطوبة تيتو ورومولا والتي تم فيها دفن باردو). وصف ج.هـ.لويس الحادثة في رسالة إلى ابنه، تشارلز:

الكنيسة الكبيرة... كانت تحف بها الرايات، والنعوش، والألواح، والعصابات السوداء التي تلف على الكم حداداً، والتي أضفت عليها جواً احتفالياً مهيباً.. كل مذبح كان مضاءً بالشموع. وقد عزفت فرقتان

رائعتان، إحداهما عسكرية، والأخرى جوقة كبيرة لكن مرتفعة العقيرة موسيقى قداس الموت وبعض المقطوعات الأخرى. وبعد حوالي ساعة على هذا جاء الأب أنجيليكو، وهو واعظ ذائع الصيت، ليلقي عظة سياسية–دينية بفصاحة مؤثرة وفن خطابة هو الأشد وقعاً على النفس... كان من الروعة أن يجلس المرء (جورج إليوت) وينظر إلى وجهه ويسمعه ينطق بكلمات شجاعة حكيمة موجهة إلى الفلورانسيين.

وكما يوحي لويس كانت جورج إليوت، دون ريب، تسجل ملاحظات في ذهنها استندت إليها في وصفها لسافونا رولا وهو يلقي عظاته "السياسية–الدينية " في الكنيسة. على أن الأب أنجيليكو لم يكن بالضرورة الأنموذج الذي تحتذيه، كما لم ينقل الاحتفال في سان كروتشه حرفياً في الرواية (كان إحساس الكاتبة التاريخي أذكى من أن يقع في هذا المطب)، بل إن الحاضر قد بدا، دون ريب، ترجيعاً لصدى الماضي الذي كان آخذاً بملء فطنتها المبدعة.

على أن جورج إليوت ليست بالكاتبة السياسية المنقبة أو التحليلية على نحو خاص. فمفهوماتها السياسية واسعة وتشمل أفكاراً كان يمكن أن ينظر إليها، خلافاً لذلك، على أنها " روحانية " أو "ثقافية " أو "أخلاقية " لكن رواياتها لا تبدي سوى القليل من الأدلة على اهتمامها بـ " السياسة " بالمعنى الأضيق للمصطلح. توحي " فيلكس هولت " في عام 1866 و" خطاب فيلكس هولت للطبقة العاملة " في عام 1868 أن الكاتبة كانت تؤثر الحل الوسط عندما كانت القضايا تقسيمية. فبالنسبة لفيلكس هولت الراديكالي، كما بالنسبة لدوروثيا بروك

أو رومولا دي باردي، كي يكون المجتمع " في حالة وفرة مادية " يجب أن" يتشكل بشكل رئيس من أناس يأخذون بالحسبان المصلحة العامة كما مصلحتهم الخاصة ". وبهذا المعنى، لا تحاول "رومولا" أن تعطينا تحليلاً منهجياً لأزمة سياسية وأن تربط نتيجة مستخلصة بوضع حديث. فهي تبيّن لنا ثوابت إنسانية على خلفية تاريخية محددة وتلحظ تقابلاً بين أنانية ضيقة وغيرية اجتماعية منفتحة. وعلى المنوال نفسه لا توحي الرواية بأن التاريخ هو قوة "تقدمية " على نحو جلي. إن ضروب التقدم الحضارية، والفهم البشري ينموان، مع نبذ البشرية للعادات والعقائد البالية، لكن محاجة جورج إليوت لا تحوي إلا القليل مما يمكن أن يعكس نظرة هيغلية للتاريخ. فهي مهتمة بنجاح الفرد أكثر من اهتمامها بنجاح المجتمع ككل، ما لم يُعكس نجاح مجتمع أكبر في تطور الشخصية الفردية. ففي "رومولا"، على سبيل المثال، تبقى إصلاحات سافونارولا السياسية في الخلفية. فتأثيره الأخلاقي الذي يلقى استحساناً فورياً من كاتبة تربت على أخلاقيات المذهب الإنجيلي الإنكليزي بميله المتأصل نحو المحافظة، يلحظ بشكل رئيس من خلال الوعي المتنامي للبطلة. والرسالة الأخلاقية تحرف أي محاجة سياسية ضيقة. وإذا ما كانت رومولا تنمّ عن أي شيء بهذا الصدد فإنها تنمّ عن كونها بطلة وضعية لا بطلة مناصرة للجمهورية. وقضيتها، مثلما هي قضية سافورنارولا، روحية، بيد أنها تنسحب من الالتزام السياسي الذي يعتبره هو جوهرياً لدعم رسالته، إلى رؤية أكثر تحرراً.

وتبقى "رومولا" رواية تاريخية على منوال روايات ويفرلي

لسكوت(*)، لكنها لا تحوي نسبياً إلا القليل من الشبه مع فهم سكوت السياسي للتوترات التي تنطوي عليها المجتمعات المنقسمة. هذا، ويوحي اختيار جورج إليوت للموضوع شيئاً من عدم ارتياحها للثورة أو صراع الطبقات. وهي على النقيض من كتاب "رينتزي" لبالوار ليتون عام 1835 تجعل الشخصيات الروائية مركزية في حبكتها، وهي تعرّضها لخيارات أخلاقية متعارضة وليس لخيارات سياسية متعارضة. وقد زودها التاريخ بنوع من الحرية مغاير لما أخذ به بالوار أو سكوت. هذا ويتم النظر إلى الخيار الأخلاقي كمشكلة دائمة وليس كمشكلة مرتبطة بشروط تاريخية محددة، بل لقد تعلمت ما يكفي من سابقيها لتفهم أن الشخصية مشروطة بمحيطها التاريخي، والاجتماعي والجغرافي. ونلمس خلل الرواية عيفاً لازدواجية السياسيين الفلورانسيين، لكن تقليد مثل هذه الازدواجية، كما توحي هي، يرقى في التاريخ، على الأقل، إلى صراعات الـ Guelfs و Ghibellines(*) وإلى نفي دانتي

(*) عرفت روايات سكوت بروايات ويفرلي على اسم أول رواية نشرها عام1814 وكانت غفلاً من الاسم فأصبحت رواياته اللاحقة في مجموعها تعرف بروايات ويفرلي (م).

(*) (انظر حاشية 3 فصل 8 أيضاً) : اسمان لفئتين أو فرقتين سياسيتين في شمال ووسط إيطاليا من القرن 12حتى15 . نشأتا أولاً في ألمانيا في غمرة الصراع من أجل عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين أسرتين بارزتين الـ Welfs، من نبلاء ساكسوني وبافاريا وال Hohenstaufens حكام

من مسقط رأسه. هذا والمفروض بنا أن ننظر إلى النواحي الإيجابية التي تعلمتها بمشقة وألم رومولا أكثر منه إلى النواحي السلبية التي يكتشفها تيتو في لعبته السياسية الأنانية، المضخمة للذات. إن الرسالة الأخلاقية بالنسبة لإيطاليا الحديثة تكمن ضمنياً في انهيار الجمهورية الفلورانسية وفي سحق سافونارولا، لكن الرسالة الأوسع، والمتجسدة في رومولا " غير التاريخية " هي للجنس البشري ككل. ورغم أن جزءاً كبيراً من الرواية مكرّس للعرض المكثف والمتأني لخلفية القصة الاجتماعية والثقافية، فإن التوكيد النهائي ينصب على تطور الشخصيات الروائية. هذا وإن الخطة المتقنة جزئياً في "رومولا" أصبحت متوافرة لتحقق النجاحات اللاحقة في "ميدل مارش".

III

لا بد من الاعتراف بأن مقدمة "رومولا"، والفصول الثمانية

Swabia. وقد انتقل الصراع بين الفئتين إلى إيطاليا . والاسم Guelf هو تحريف ل Welf و Gibelline تحريف لـHohenstaufens . في إيطاليا أصبح ال Guelfs الحزب المناوئ لسلطة أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأيدوا السلطة البابوية بينما ساند ال Gibellines السلطة الإمبراطورية . في غمرة الصراع في إيطاليا القروسطية وقفت العائلات النبيلة بجانب ال Gibellines والمدن الكبيرة بجانب ال Guelfs. وأخيراً أصبح الصراع جغرافياً حيث كانت مدن بيزا، فيرونا، أريتزو معاقل لل Gibellines بينما كانت بولونا، ميلانو، وخاصة فلورانسة تساند ال Guelfs (م) .

الأولى في الرواية تحوي الكثير مما ينبغي تحمله كيما تتأسس الخلفية التاريخية، لقاء القليل مما يمكن الاستمتاع به على نحو إيجابي. على أن السبب الكامن وراء هذا يمكن استخلاصه من مقارنة افتتاحية "رومولا" مع افتتاحيات روايات جورج إليوت الأخرى. فـ "رومولا"، شأنها شأن "فيلكس هولت " و" ميدل مارش " تبدأ بـ " مقدمة " أو " تمهيد ". يصور تمهيد " ميدل مارش " بشكل موجز الموضوعات المستعرضة والمحددة في السرد اللاحق. هذا وإن الإشارات لسانتا تيريزا وإلى " الحياة الملحمية حيث الكشف المستمر للحدث المدوي " يتم التطرق إليها ثانية في نهاية القصة بالذات حيث نتيقن بأن " الخير المتنامي في العالم يعتمد في جزء منه على الأفعال غير التاريخية ". هذا وإن مقدمة "رومولا" لأكثر تفصيلاً،

وفخامة، في توكيدها الملحمي الاعتدادي، لكنها هي أيضاً تتطرق إلى موضوعات، وتضع الثوابت الإنسانية في مقابل فكرة التاريخ كنهر متدفق. إن " التماثل الواسع في قسمة البشر، والذي لا يتغير أبداً في خطوط تاريخه الرئيسة " سيسمح للكاتبة بأن ترى إلى فترة تاريخية بالطريقة عينها التي ترى إلى عالم معاصريها، ذلك أن الإنسان ما يزال يواجه تناقضات " الجوع والعمل، أوان البذار والحصاد، الحب والموت". ومع انبلاج الصباح بشكل تدريجي خلل الصفحات الأولى للرواية يوحى إلينا بأننا نطل على فلورانسة إبّان فترة تغير كبير بالنسبة للإنسان الأوربي. فكولومبوس على وشك أن يبحر من أسبانيا، بينما تدخل فلورانسة فترة تتسم بعدم اليقين على أثر موت

مرشدها، لورينزو دي ميديتشي. لكن المقدمة تزعم أن المدينة إبّان عصر النهضة والعالم الحديث يشتركان في نقاط تماس، وأن الاستمرارية البشرية تحسب حساب ما هو أهم من خسارة أشياء أو أهواء مألوفة في الماضي.

ورغم هذا الزعم بالألفة تزودنا الفصول الافتتاحية للرواية بعناية، وغالباً بعناية مفرطة في التفاصيل، بمعلومات عن السمة المميزة للحياة في عصر النهضة. " فاللون المحلي " يوضع بمسواة أو مالج (أداة يطيّن بها –م) لكي يتم البرهنة على أن الكاتبة مدركة للتفاصيل التي قد يأخذها شخوصها على محمل البديهة. وبعد فراغها من روايتها شرحت أسبابها لمثل هذا العمل للسيد ر.هـ.هاتون. قالت لهاتون إن خيالها تعوّد على أن " يجهد وراء رؤية كاملة للوسط الذي تتحرك ضمنه الشخصية بقدر ما جهد وراء الشخصية ذاتها "، وكان القصد من تفاصيل الحياة الفلورانسية في "رومولا" أن تؤدي بالضبط وظيفة التفاصيل المنزلية عينها لآل دودسون أو حياة القرية في رواية "سايلاس مارنر". لقد انبثقت روايتا " آدم بيد "و" الطاحونة على الجدول" من التصميم على وصف حياة البسطاء، رجالاً ونساء، بشكل صادق ودقيق. أما في "رومولا" فهي تصعد في السلم الاجتماعي، وتغيّر المشهد بشكل جذري، لكنها بعملها هذا تحاول أن تحوّر طريقتها الروائية عن طريق تحويلها عالماً اجتماعياً غير مألوف إلى عالم مألوف، وجعلها الدخيل يبدو لصيقاً. هذا وقد أفضى المثال الروائي المستعرض بإيجاز في المقال عن الكاتب الواقعي الألماني، ريهل، عام

1856 مباشرة إلى تصور " مشاهد من الحياة الكنسية " و" آدم بيد "، لكن البرنامج كان لا بد من تنفيذه، وغالباً على غير توقع، في آخر أربع روايات لجورج إليوت.

في مقالة عام 1856 كانت جورج إليوت قد رأت فكرة ريهل عن التطور البشري من زاوية تفاعل القوى الداخلية والخارجية:

إن الشروط الخارجية التي ورثها المجتمع من الماضي ليست سوى تجل للشروط الداخلية الموروثة لدى الكائنات البشرية التي تكونه. إن الشروط الداخلية والخارجية مرتبطة ببعضها كما العضوية ومحيطها، ولا يمكن أن يحدث التطور إلا عن طريق التطور التدريجي الموافق لكليهما.

إن هذا التفاعل الثابت والمتجانس عينه، ورؤية ريهل للمجتمع الأوربي على أنه "تاريخ متجسد واقعياً"، هما ما يصوغ رواية جورج إليوت من البداية حتى النهاية وما ساعد على تحديد الشكل والمحاجة في "رومولا ". والحق أن المقدمة في الرواية هي إعادة طرح، بـ " إملال مشابه " للمحاجة التي تبلورت قبل بضع سنوات في المقالة.

ورغم أن فلورانسة المقدمة لنا في مطلع "رومولا" تعالج كما تمّت معالجة هايسلوب أو سان أوغ في الروايات الأولى فالواضح أن جورج إليوت غير مرتاحة لتنقيبها الزائد. ففلورانسة هي مدينة أوربية، وليست قرية أو بلدة صغيرة في الوسط الإنكليزي، وهي مركز ثقافة متأرجحة، مميزة وغير إنكليزية. إن الجهد المتصل بمحاولة تصيّد اللغة العامية التوسكانية واضح في خطاب براتي فيرافيتشي الافتتاحي في

الفصل 1:

أيها الشاب... عندما يصبح ذقنك أكثر قساوة قم بجزّه، ستكون ملمّاً بذلك بشكل أفضل من أن تأخذ قيلولتك عند زوايا الشارع وعلى سبابتك خاتم كهذا. وحق "الملايكة " القديسين! لو كان أحد غيري يقف فوقك منذ دقيقتين – لكن براتي فيرافيتشي ليس هو الشخص الذي يسرق. ولو لم تمسك القطة فأرها حياً لما أكلتهً، وبراتي لا يمكن أن يستطيب الكسب إذا لم يكن له طعم الصفقة. ياه، أيها الشاب، في عيد سان جيوفاني منذ ثلاث سنوات، وضع القديس جثة في طريقي – شحاذ كفيف، وقبعته تطرزها جيداً القطع النقدية – لكن أصدقك القول،لقد عافت نفسي المال الذي لم أساوم بشأنه قط، حتى طرأت لي فكرة مفادها أن سان جيوفاني كان مديناً لي بالنقود التي أنفقها سنوياً في العيد. أضف إلى أنني واريت الجثة الثرى ودفعت أجرة قداس – ولذا فقد رأيت في ذلك صفقة عادلة. لكن كيف لشاب مثلك أن يأتي وله وجه السيد سان ميشيل ليغفو على سرير حجري ستارته الريح؟

من الواضح أن هذا ليس التعبير الطبيعي لبائع جوال إنكليزي، وليس هو إيطالياً بشكل مقنع، بالرغم من الاستحضار المتكرر للقديسين. مثل هذه اللحظات تكاد تقنع المرء بأن الكاتبة ليست في كامل عمقها، بقدر ما يبدو ديكنز في محاولاته لنقل الإنكليزية الشمالية في روايته " أوقات عصيبة ". وخلال كامل رواية "رومولا" نحن نفتقد التصريفات في اللغة التي تأتي بها سيدة بويزر أو عمة دادسون في لهجة الطبقات الدنيا والوسطى، وشخصية مونا بريجيدا لدى جورج

إليوت هي بديل غير متقن لمثيلاتها من النوع الصعب الإرضاء، واللطيف، والمتدفق الكلام في الروايات الإنكليزية. ولحسن الحظ فالتجربة محدودة، وبعد بضعة الفصول الأولى يقابل مثل هذا النقل المتكلف للهجة الفلورانسية اللهجة الانكليزية البسيطة نسبياً التي يتحدث بها الشخصيات الأكثر ثقافة. ولا واحدة من الشخصيات الرئيسة، باستثناء تيسا، صورت بمثل هذه الطرق الشعبية المتكلفة المعقدة، وذلك يعود في قسم كبير منه إلى أنه للمرة الأولى في رواية لجورج إليوت، يؤخذ الأبطال من الطبقات العليا في المجتمع. وحتى إذا تهيّأ لبعض القراء من غير الأنكلو ساكسون أن بعض الشخصيات الرئيسة، ولا سيما رومولا نفسها، هي أقرب إلى شخصيات إنكليزية مطلينة (من الإيطالية –م) منها إلى شخصيات فلورانسية من عصر النهضة فمن السهولة بمكان إبطال أي شك متبق في الحوار الذي يليق بجورج إليوت وهي في أوج طلاقتها.

ورغم ذلك، كانت الكاتبة متحرزة في " وضع " قصتها في أوانها وفي وسطها الثقافي والجغرافي. هذا وإن موضوع الحديث الرئيس الأول في الرواية يعنى بموت لورينزو دي ميديتشي وبالنذر الغريبة التي تواكب مثل هذه الحادثة البالغة الأهمية. وقد تضاعفت الثرثرة في دكان حلاقة نيلو الفلورانسي على نحو خاص، ذلك أن نيلو هو من نوع الحلاقين الذي يتأبى على التصور في موقع سان أوغ أو حتى ميدل مارش. إنه شاعر، ومنصرف لرعاية العلم والأدب بقدر ما هم كذلك أولئك الذين يعلونه في السلم الاجتماعي. فهو يتبّل حديثه بملاحظات

ساخرة كلاسيكية وأدبية، وهو يستقبل قطاعاً من النخبة من بين زبائنه في " حرمه أو معبده المقدس الصغير "، وهو فخور بشكل مغال بمدينته. ففلورانسة بالنسبة لنيلو هي أثينا ثانية، ولورينزو المتوفى حديثاً قد أثبت أنه بركليس أثينا. وفي موقع آخر في الرواية تبدو محاولات مشابهة لتقديم بؤر من " اللون المحلي " معوزة في الفاعلية، كما في الفصل غير المتقن وغير الضروري المعنون " مزحة فلورانسية ". لكن حتى هذا الفصل، كما قالت جورج إليوت لألكسندر مين، كان القصد منه أن يكون " عيّنة... للمزاح العملي الذي كان يوفر تسلية لأكثر العجائز الفلورانسيين جدية، والذي لولاه لما كان لديهم أي تصور تاريخي ". وكان القصد من المشهد أن يوفر مقابلاً ضدياً بين " الصبيانية التي كانت تمثل سرعة البديهة وخفة الدم في الجمهورية القديمة، وجلال المرموقين فيها في المسائل الأكثر خطورة ".

وقد نقل هذا " الجلال " بصورة أكثر تأثيراً من " الصبيانية ". إن لوذعية فلورانسة القرن 15، وتأنقها، كما هو سأمها، موحى به معاً بالمشاهد المصورة في مكتبة باردو وفصل" عشاء في جنائن روسيلي " الموقّع جيداً والدرامي، العشاء الذي خرقه بشكل فاعل ومؤثر بالداسار المحسوب مجنوناً. إن اللقاء الأول بين باردو وتيتو والفصل التالي (" مشاجرة مثقفين ") يظهران معاً مدى الثقافة المعاصرة وتفاهتها العارضة، ورغم أن العديد من الإشارات قد تبدو الآن متكلفة recherché على نحو مفرط فإن الفصلين يخدمان هدفاً محدداً في تأسيس طبيعة الثقافة النهضوية. هذا ويركّز تفكير باردو بالحصر على

دراساته وعلى حقيقة أن علمه لم يلق التقدير. وحماسه للآثار الأدبية القديمة واضح أيما وضوح، لكن ليس يقل وضوحاً عن ذلك نزقه الأناني وعماه الروحي. ومن المؤكد أن إعادة صياغة عناصر منه في سياق قرن كالتاسع عشر، كانت لتتدرج في خانة السيد كاساوبون. لقد تم توكيد محدودية باردو عن طريق عماه الفيزيائي وبالصور المنكسرة التي تزين مكتبته. إن "جذع التمثال الأنثوي الجميل " و" الذراع العضلية المرفوعة التي تمسك " سيفاً دون نصل " تشهد على حياة أخفقت في أن تجد تحققاً لها، حياة كفت، وهي تعيش وسط أجزاء مفككة، عن أن تستجيب للعالم الخارجي.

تمثل مكتبة باردي ضيق أفق الإنسانية المعاصرة، لكن يوجد في مكان آخر في الرواية الكثير الذي يوحي بالصحة الحقة الظاهرة الثقافة المتزاوجة مع الأخلاق الاجتماعية المجددة للحياة. فباردو رفض المسيحية لصالح مذهب يتمثل في وحدة وجودٍ وثنية متجددة الحياة، لكن الثقافة التي يمثلها تلقى مواجهة من لدن قوة الخطاب المفعمة بالعاطفة لدى سافونارولا والإنسانية المسيحية لمريديه من أمثال بيكو ديلا ميراندولا. بالنسبة لرومولا، تقدم حملة سافونارولا الأخلاقية الحرية من خلال المسؤولية، والالتزام من خلال الحب، وهنا تثوي على الأقل فلسفة عصر نهضة تلامس فلسفة جورج إليوت. مرة ثانية، يجب أن نتذكر أن فلورانسة سافونارولا وليس مدينة لورينزو دي ميديتشي هي التي جذبت الكاتبة، حتى مع شعورنا بالتوترات بين نظامين في السرد ورؤيتنا شخوصاً تتكسر بسبب عجزها عن المصالحة بين تناقضات

متبدية.

تستخدم جورج إليوت خلال كامل الرواية مصنوعات عصر النهضة، مثل أثريات باردو المكسورة، كصور موحدة (بتشديد وكسر الحاء). فعندما يشتري بالداسار مخطوطة إغريقية رخيصة الثمن لكي يجرب مهارته في قراءة لغة محتها آلامه من ذهنه يتفق أن يحصل على مجلد غريب لباوسانياس، ويفتحه عند مقطع يصف " كيف أن الزمن قد جلب العدالة للمظلومين " (الفصل 38). وفي الفصل التالي يصبح "هوميروس الجميل " الذي ذُكر في المقدمة وسيلة اختبار لمقدرة بالداسار التي ما زالت مرتبكة ومخبولة. ويطلب إليه أن يحدد الموضوع الهوميري لواحد من الخواتم المنقوشة المبيعة من قبل تيتو، لكن إخفاقه في هذا العمل ينحدر به إلى أعماق جديدة من اليأس، يأس قلما نصادفه في فلسفة الفلورانسيين الذين يشبعون رغباتهم ويشهدون ارتباكه. وعلى نحو أكثر دلالة، يستخدم الرسم الفلورانسي، ولا سيما شغل بييرو دي كوسيمو، للتنويه بجوانب محددة من السرد. فبييرو هو الذي يرى رومولا شبيهة أنتيغون، ووالدها الكفيف شبه أوديب، وإن غريزة بييرو كرسام هي التي توحي بملاءمة الطلب إلى تيتو لاتخاذ وضعية الخائن في صورة لـ " سينون يخدع برايام العجوز ". إن الرسم الأولي الذي يصنعه الفنان والذي يصوّر إمساكة بالداسار بذراع تيتو المذعور خارج الكنيسة يعطي رومولا لأول مرة تلميحاً بأن هناك صلة بين الرجلين، حتى وإن كان تيتو مهتماً بإقناعها أنه باخوس لأريادنها Ariadne عن طريق رسم مثل هذا الموضوع كهدية لخطوبتهما.

يشير هذا التوظيف للصورة البصرية والرمزية إلى العناية التي بذلت في تخطيط وتشكيل الرواية. وشأنها شأن "دانييل ديروندا"، التي هي في الكثير من النواحي أقرب الروايات لـ " رومولا"، توظّف أيضاً وبشكل بارز المصادفة والمشاهد المتوازية لإسباغ الوحدة على مادة معقدة وغالباً متفاوتة. إن رؤيا دينو عن أخته وهي في قبضة عبودية الشيطان الأكبر، على سبيل المثال، تتحقق بشكل غريب وفاعل عند ذروة الحدث في الكتاب الأول، عندما يلتقي تيتو ورومولا المخطوبان حديثاً الموكب المتنكر، موكب " انتصار الزمن "، وهما خارجان من كنيسة سان كروتشه.

"ذعر بارد " ينتاب رومولا، لكن تيتو، وبطريقة نموذجية، يحاول أن يبدد مخاوفها عن طريق تذكيرها بتصويره للعاشقين كباخوس وأريادن. فالوثني يقابل المسيحي، لكننا نشعر بتساكن الشيطان وطارد الهموم. فتيتو قد سبق وخدع باردو الأعمى بقبوله كابن ثان. والآن فهو، بطريقته اللامبالية والساحرة يطمئن ابنة باردو بينما يخفي عنها حقيقة "زواجه " مسبقاً من تيسا الجاهلة التي تمحضه ثقتها. إن الحوادث من مثل الظل الملقى على الخطوبة من قبل القناع، والمشاهد التي تجمع الشخصيات إلى بعضها على غير توقع أو التي تضع الثيمات المتباينة جنباً إلى جنب، مستخدمة بشكل فعال في موضع آخر. وبينما تصغي رومولا إلى سافونارولا وهو يعظ في الكنيسة، بعد أن يممت شطر ذلك المكان للمرة الأولى بسبب خيبة الأمل التي تشعر بها في زواجها، يندفع بالداسار بحثاً عن مكان يلتجئ إليه هرباً من

معتقليه الفرنسيين. وكلاهما يدهشان فجأة، لكن بصورة مغايرة، لقوة كلمات الواعظ، رغم أن وعد الانتقام الإلهي يلبي بالنسبة لبالداسار توقاً خاصاً ويعد بـ " وعد السعادة والهناء". عندما يلتقي الأب المنبوذ والزوجة المنبوذة على سان مينياتو في مكان لاحق في القصة (الفصل53) يترقب العجوز استكمال تلك السعادة وتمامها –"هناك لحظة عقب الطعن يشاهد فيها الناس وجه الموت، – وسيكون ما يراه هو وجهي ". إنه وعد يلبى على نحو غامض عندما يجلب نهر آرنو تيتو الفاقد الوعي تقريباً إلى الضفة حيث ينتظر والده المهووس:

من المؤكد أخيراً أن الجفنين كانا يرتعشان: لم تعد العينان جامدتين. كان فيهما نور مرتعش: انفتحتا على آخرهما.

" آه، أجل! أنت تراني– أنت تعرفني! "

تيتو عرفه، لكنه لم يعرف ما إذا كان ما أحضره إلى حضرة والده المصاب هي الحياة أو هو الموت. لربما هو الموت – والموت قد يعني هذه الكآبة الباعثة على القشعريرة ووجه الماضي المرعب الذي يتدلى فوقه للأبد.

لكن خوف بالداسار الوحيد الآن تمثل في الخوف من خذلان أعضائه الشابة له. ضغط عُقل أصابعه على الحنجرة المستديرة، وركع على الصدر بكل القوة التي اختزنها كيانه الهرم. فليأت الموت الآن!

على الرغم من المسحة الميلودرامية التي يخلفها فينا هذا المشهد فهي تفيد في تحقق الإيحاء في كل روايات جورج إليوت تقريباً بأن " الانتقام، الذي ليس لديه ما يعتمد عليه، والعصي على المقاومة "

مستقر في الأنفس البشرية، وأنه يؤول إلى تحقق مع مرور الزمن. تستخدم المصادفة، كما في "سايلاس مارنر " و" دانييل ديروندا " للأثر الدرامي ولتوكيد مسألة أخلاقية سواء بسواء. " إن علاقاتنا بأبناء جلدتنا " – تعلق الكاتبة في الفصل 59 –" تحددها في غالب الأحيان مجريات المصادفة ".

إن التمثيل المركزي لـ " مجريات المصادفة " هذه في "رومولا" هي قصة انحدار تيتو البطيء إلى الأنانية والاستخفاف. تشكل نهاية تيتو التحقق الحقيقي للقرارات التي اتخذها، أو التي أخفق في اتخاذها، في مطالع الرواية. وحيث إنه هدف إلى احتواء مساحات من خبرته داخل حدود حاصرة، الواحدة بمعزل عن الأخرى، فإنه يُسحق أخيراً بفعل التقاء واحتشاد عناصر لم يعد قادراً على تحويل خط سيرها أو السيطرة عليها. مثل هذه العلاقة بين الإنسان وعالمه، وبين الفعل العام والخاص يتم تأكيدها في واحدة من التعليقات العديدة للكاتبة والتي تنكّه هذه الرواية الأكثر فلسفية بين روايات جورج إليوت:

حيواتنا تصنع تقليداً أخلاقياً لذواتنا الفردية، كما تصنع حياة الجنس البشري في مجموعه تقليداً أخلاقياً للعرق (الجنس): وأن يتصرف المرء مرة واحدة بنبالة ليبدو سبباً يحدونا دائماً لأن نكون نبلاء. (الفصل 39)

هذا وقد تم العرض الموجز لفكرة متصلة بهذا في مقبوسة من أسخيلوس وفي تعليق الكاتبة ذاتها عنها:

" إنه لأمر جيد "، ينشد يومينيدس العجوز عند أسخيلوس، "

أن يجلس الخوف كوصي على النفس، مجبراً إياها على التحول إلى حكمة –جيد أن يحمل الناس ظلاً تهديدياً في أفئدتهم في عز النهار، وإلا، كيف لهم أن يتعلموا أن يحترموا النور؟ " تلك الوصاية قد تصبح لا لزوم لها. لكن فقط عندما تصبح كل القوانين الخارجية لا داعي لها – فقط عندما يتحد الواجب والحب في تيار واحد ويصنعان قوة مشتركة (الفصل11).

تعتبر "رومولا" اتحاد الحب والواجب معاً مطلباً شخصياً للبطلة، وفكرة دينية وأخلاقية منشّطة للمجتمع بالمعنى الأوسع. فهي تؤكد تقليداً أخلاقياً يرفضه تيتو، لكن رفضه يستجر عقوبته الحتمية داخل روحه هو. ولئن كانت رومولا تنمو نحو التفاني واليقين، فإن تيتو تتأكّله نفسه الداخلية، وجوعها للخير لا يرتوي.

في "رومولا"، كما في روايات جورج إليوت الأخرى، تتجسد الثيمات الكبرى في الدرامات الأخلاقية للشخصيات، لكن ها هنا، أيضاً، تعطى الشخصيات سياقاً تاريخياً مكثفاً ومعتبراً. ففلورانسة عصر النهضة، بأمجادها المقترنة بها كما مآسيها، تشكل مركزاً سياسياً وثقافياً أكثر مما تشكله أماكن: سان أوغ، أو تريبي أو حتى ميدل مارش. فسياساتها ليست إقليمية، وحياتها الدينية تسيطر عليها شخصية ذات أهمية دولية، وثقافتها الفنية أثرت في كل الحضارات التالية. وتيتو ورومولا يقعان، كل على طريقته، في شرك حياة الدولة المدينة في وقت الأزمة، وخياراتهما المتباينة تبعدهما أكثر عن بعضهما حتى وإن كان

تاريخا كليهما يعبران عن بعض مآزق الأوقات التي يعيشان فيها.

يشكل تيتو أكثر شخصيات جورج إليوت اكتمالاً في الصنعة وعناية في التطور. فهو يشترك في فتنته ولامبالاته مع آرثر دونيثورن، وميله للكذب مع غودفري كاس، وفرط حساسيته الذي يتجلى كأنانية حامية مع السيد كاساوبون، وحبه للسيادة مع السيد غراندكورت، لكنه يبقى ابتكاراً فردياً ومؤثراً بالكامل. وعندما يصل أولاً إلى فلورانسة لا يكون متيقناً تماماً من نفسه، أو مطامحه، وهو وحيد. لكنه يعرف أن بإمكانه أن يعيش على نباهته، وهو طموح. إن الطريق للأمان الذي يسلكه يصطدم باكراً بعاملين غير متوقعين، ذكرى التزامه نحو والده لا تفارقه، وهو يقع في الغرام. هذان العاملان اللذان يجب أن يقوداه إلى حكمة " اتحاد الحب والواجب "، يثبت أنهما عقبتان في مهنة يسعى تيتو لأن يمارسها بعيداً عن كل التزام. وعندما يبيع مجوهرات والده، ويتذوق طعم أول نجاح له في فلورانسة، يجد نفسه يواجه على نحو مزعج " أزمة أول صراع جاد عرفته طبيعته المطواعة المرحة". تصف جورج إليوت هذه الأزمة بمقدرة لم نشهد مثيلتها قبلاً في الرواية:

أضف إلى أنه في هذا الحديث الواضح الأول مع نفسه تركّزت الآن الأفكار التي كانت فيما مضى مشتتة ومتقطعة .فالغدران الصغيرة للأنانية تجمّعت وشكلت قناة، بشكل لم تعد قادرة مرة ثانية على أن تلتقي ولها المقاومة نفسها. حتى الآن كان تيتو قد تخلّى، وبتردد ملتبس، عن مسألة عودته، والتأكد من مصير والده بالوسائل التي أتيحت له. الآن قدم تبريراً محدداً لنفسه لعدم سلوكه ذلك المسار، لقد

أقر لنفسه خياراً كان سيخجل من أن يقر به لآخرين، والذي كان سيجعله يشعر بالخجل في حضور والده الذي ظهر للوجود ثانية. لكن الخجل الجواني، منعكس ذلك القانون الخارجي الذي يصنعه القلب العظيم للجنس البشري لكل فرد، منعكس سيوجد حتى مع غياب الدوافع التعاطفية التي لا تحتاج إلى قانون،بل تندفع إلى فعل الإخلاص والعطف بشكل محتوم كما الأم المتوحشة تحمي صغارها من هجوم العدو بالوراثة – ذلك الخجل الجواني كان يُظهر علامات خجله في تأكيد تيتو لنفسه بأن والده كان ميتاً، أو أن البحث، على الأقل، كان لا طائل تحته.(الفصل 9).

تفصح العبارة الأخيرة لنا عن شك تيتو الحقيقي، حتى وإن كان قد نجح مسبقاً في تبرير أنانيته عن طريق وضع الراحة والطموح الحاليين قبل الالتزامات المنغّصة. تتبدى لنا عملية مماثلة من خلال "حديث" جواني كاشف مماثل، سيسمح له أن يتصرف بشكل مضاعف في المستقبل. سيكون قادراً على خداع كل من رومولا وتيسا وسيلعب في الختام بلعبة الواحد ضد الآخر في لعبة سياسية كريهة وغير أخلاقية.

يحافظ تيتو طيلة سيرته الحياتية على " كرهه الذي لا يُقهر لكل شيء غير مستحب "، وحتى عندما يقوده طموحه للتصرف بشكل غير مستحب، فإنه يتفادى التفكير في العواقب، ويستبعد التحديات التي تواجهها صحة رأيه. إن الحجج التي يسوقها لنفسه تتنامى صحتها في الظاهر فقط. فعندما يتمعّن مرة ثانية في الخيار بين البحث عن والده

والإقامة براحة ودعة في فلورانسة، في الفصل 11، يصرف النظر عن تصوّر أخلاقية اجتماعية معهودة:

لكن ما الذي كانته عاطفة المجتمع؟ – مجرد تشابك من تقاليد وآراء متنافرة، والتي لا يتخذها أي إنسان عاقل دليلاً له، إلا بقدر ما يتعلق الأمر براحته الشخصية... أية أقوال مأثورة تتطلب من الإنسان أن يطيح بالجيد اللازم لتكون العيشة حلوة، إنما هي بطانة الأنانية البشرية بشكل مقلوب: لقد صنعها أناس يريدون من الآخرين أن يضحوا بأنفسهم كرمى لهم.

يتصف تيتو بسرعة البديهة، والحجة المنطقية تنقاد له. ما يخفق في ملاحظته هو أنه يورّط نفسه على نحو مطرد في شرك، ويكوّن رأياً عن العالم حوله على أساس الزيف تاركاً الكذبة الواحدة تقوده بسهولة لأخرى. ونحن نرى هذه السرعة، بقدر ما نرى ميله للكذب، عندما يلتقي على غير توقع بأبيه الضائع على درجات الكنيسة ويصرفه بالكلمات " رجل معتوه، دون ريب ":

لم يعرف حق المعرفة كيف أتت الكلمات إلى شفتيه: هناك لحظات تتحدث فيها عواطفنا وتقرر نيابة عنا، ويبدو علينا أننا نقف جانباً ونتساءل متحيرين. وهي تحمل بداخلها وحياً بالجريمة، حتى إنها تفعل في لحظة واحدة ما يلزم لفعله تفكّراً مسبقاً لفترة طويلة من الزمن (الفصل 22).

توسّع ملاحظة الكاتبة ردة فعل تيتو لتصل إلى واحدة نتشارك فيها جميعاً، رغم أننا قد نأمل حماية " التقليد الأخلاقي " الذي كان تيتو

قد رفضه عند كبحه أي " ايحاء بالجريمة " مماثل. تفصح عواطفه عن ذاتها وتقرر ثانية عندما يتهمه بالداسار بأنه خائن في حفلة العشاء التي أقامها برناردو روسيلي في الفصل 39، تماماً كما تفعل عندما يوحى له فجأة بالحل لمشكلة كيف ينجو بنفسه من جماعة الغوغاء في الفصل 6600 لكن هذه الغريزة، وحضور البديهة الحقيقية الكافية التي تدعمها، لا تسمح له بعد الآن بإدراك، أو على الأقل تدبر، ماذا يفعل الخداع به. ونظراً لأنها لا تسأله أسئلة محرجة فإن تيتو يؤثر صحبة تيسا على صحبة رومولا، لكن عند مطلع الكتاب الثاني بإمكانه أن يخبر زوجه كذبة سهلة عن السبب الذي حدا به لبيع خاتمه، وبإمكانه فتح حديث عن الشؤون السياسية معها بملاحظة حاضرة لديه عن التهكم. وحتى مع هذا، فقد بدأ وجهه يعكس التغير الذي طرأ " شيء ما تواري– شيء ما عصي على التحديد كما هي التغيرات في غَلَس الصباح ". في الفصل 48 عندما تتجلي الأزمة الكبيرة التي تعصف بحياته الزوجية، يتبدى ثانيةً على نحو خارجي:

لقد طفا في هذه الأثناء عزم الزوج على السيادة،و الذي ثوى عميقاً أسفل كل دماثة وتوسل، بشكل دائم إلى السطح، وبدا وقد غيّر سحنته، كما يتغير الوجه بفعل توتر عضلي خفي به يخنق الإنسان في السر الحياة الثاوية في شيء واه لكنه خطر.

وفي نهاية هذا المشهد المتوتر والمعبر، مشهد يضعه المرء بجانب تصادمات الكاساوبونيين والغراندكورتيين (نسبة إلى شخصيتي كاساوبون وغراندكورت – م)، يلاحظ تيتو أخيراً أنه لم تعد هناك

إمكانية أخرى ل " علاقة سهلة بينهما دون صدق من جانبه "، بل إن ذلك الصدق يتلوه مطالب لم يعد تيتو بعد الآن قادراً على تقبّلها. لم يعد بعد الآن يعرف كيف يقبل، ذلك أن شبكة الكذب قد شبكته وهي تقيد تحركاته. مرة أخرى يسلك الطريق السهل، الطريق الذي لا يفرز إلا أقل ما يمكن من الإزعاج. يصمم على ترك كل من زوجه وفلورانسة، ويفتش عن عمل في مكان آخر، آخذاً تيسا الخانعة وولديه معه، إلا أنه ليس بوسعه أن يكسر قيود ماضيه العام والخاص. فتاريخه ذو الصلة هو الآن مرتبط على نحو تام بالخبرة السياسية المريرة في فلورانسة. ومثلما ورط نفسه بشكل منفصل بالضبط في مؤامرات للتخلص من الأعداء فإنه يجد الآن نفسه ذاك العدو. وبعد أن يكسر بطيبة خاطر الروابط البنوية والزوجية، وبعد أن يتخلف عن واجبه ككابح للسياسي، يجد نفسه دون أصدقاء ومنهكاً بفعل الحاجة ليبزّ أعداءه في الذكاء . لقد شارك تيتو في ذلك النوع من الحياة العامة المتنوعة والخطرة التي لا يضاهيها شيء في روايات جورج إليوت الأخرى، وهو يتدمر من جرائها، بعد أن أخفق في ترتيب حياته الداخلية وفقاً لدستور أخلاقي استيفائي واستجابي.

إن تيتو ميليما هو أكثر شخصيات "رومولا" حيوية، لكن نقيضه الرئيس، رومولا نفسها، هي بطلة جورج إليوتية رزينة وإن شكلت نموذجاً نمطياً أصلياً.ربما تعوزها العيوب الملحوظة بعناية والتي تعطي كلاً من ماغي توليفر وغويندولن هارليث حيوتيهما المميزة، وربما ليست تتوفر على التشبّث العنيد بالمبدأ الذي يضفي على

دوروثيا بروك مضاءها، لكنها تضاهيهن كشخصية أنثوية مركزية نرى تفتح حياتها أمامها، شخصية تشكل أخطاؤها جزءاً من عملية تعلم معقدة. لقد تصورتها خالقتها على أنها مثالية، لكنها اعترفت بكل حرية للسيد ر.هـ.هاتون الذي وجد رومولا " أقل الشخوص مثالية " في الكتاب، " أن المصاعب الكثيرة التي تعود لمعالجة مثل هذه الشخصية " لم يتم تذليلها. إن رومولا مثالٌ، المطلوب منها كثيرٌ، وهي يمكن أن تترك قارئ القرن العشرين جائعاً في أكثر المواضع إشباعاً له، ذلك أن قرننا قد مال للريبة في المثاليات، ولا سيما إناث العصر الفيكتوري. لكن رومولا ليست أغنيس ويكفيلد، كما وليست هي دينا موريس ثانية في إهاب بيانونية piagnone. هي بالتأكيد لها جمال وجلال التمثال وهي تميل نحو الخنوع، لكن عناصر الحماس المتقد، والتصميم والاستقلالية المتأصلة فيها لا تحتاج إلى إلا فرصتها لكي تؤكد ذاتها. وإذا لم تعط، شأنها شأن دوروثيا بروك، طيف سانتا تيريزا أو أنتيغون فإنها تشابههما في حيازة بعض صفات كلتيهما النبيلة في عالم محدود. لكن حتى دوروثيا لم تواجه المشكلات التي تواجهها رومولا، كما أن ميدل مارش ليست فلورانسة سافونارولا. وشأنها شأن غويندولن هارليث تقف وحيدة في نهاية الرواية، لكنها تخالفها في أنها أبعد ما تكون عن الوحدة. فخبرتها قادتها مسافة بعيدة على درب استكشاف الذات، الأبواب فتحت وأغلقت ثانية، حاولت مرتين إطفاء شعلة ماضيها ومرة تدمير نفسها، لكننا نلمحها في نهاية قصتها على رأس إدارة منزل، راعية أطفال تيتو، وبطريقتها غير الاتكالية، لا تزال تلميذة سافونارولا.

إن مسيرة رومولا أكثر بطولية من بطلات جورج إليوت الأخريات، وإذا توقفنا عند المثل الأعلى في القرن 19 ينبغي أن نرى أيضاً أنها تبقى نوعاً من مثل أعلى أنثوي وإنساني.

كان ر.هـ.هاتون، وهو معجب بروايتها بشكل ثابت بما فيه الكفاية، مخطئاً بالتأكيد في رأيه أن الخاتمة " ضعيفة وأنثوية ". بالتأكيد تنتهي القصة بشأن منزلي، وبعائلة موسعة ينبغي إعالتها، وتعليمها، وهدايتها على يد امرأة، لكنها شأن منزلي يتطلّع إلى أبعد من المكان المحصور الذي نربطه عادة مع البيوت الفيكتورية المثالية. والمؤكد، أيضاً، أنها ليست الأخلاقية الفلورانسية وحدها هي التي أملت على نحو خاص هذا الاتحاد المحدد ل " الحب والواجب "، ذلك أن رومولا كافحت حفاظاً على هويتها وتحققها الذاتي، وتنتهي قصتها وهي متحررة من كل القيود باستثناء تلك التي ارتضتها بمحبة وعن طيب خاطر. تطرح خاتمة "رومولا " ثيمة جديدة تبلورت من خبرة بطلتها ومن التقليد المسيحي الإنساني لعصر النهضة. إنها ثيمة تتطلع نحو المستقبل، ولها صلة، تماماً مثل خاتمتي "ميدل مارش " و" دانييل ديروندا "، بالأسباب الكامنة وراء الفعل الخيّر. ابن تيتو، ليلو، نراه يقرأ قصيدة غنائية لبترارك، تلك التي خاطب فيها " روحاً لطيفة "، الروح النبيلة لبطل، ورومولا، معلمة نيلو، تلتقط الفكرة البيتراركية بإشارة إلى الرجال الثلاثة الذين أثروا في نمو وعيها. تقول للولد، إن العظمة ترتبط بالسعادة البشرية، وهي تتشكل بحق من العيش بشكل تام وأخلاقي:

إنها ليست سوى سعادة هزيلة تلك التي تتمخض عن العناية

الزائدة بملذاتنا الضيقة. لا يمكننا أن نتوفر على أعلى أنواع السعادة، مثل تلك التي تواكب كون الإنسان عظيماً، إلا عن طريق التوفر على أفكار رحيبة، والكثير من التعاطف مع بقية العالم وأيضاً مع أنفسنا. وهذا النوع من السعادة غالباً ما يواكبه الكثير من الألم، حتى إننا لا نقوى على تمييزه من الألم إلا عن طريق كونه هو الذي نختاره قبل كل شيء آخر، لأن أرواحنا تراه خيّراً. هناك الكثير من الأشياء الخاطئة والعسرة في العالم، بشكل لا يمكن لأي إنسان أن يكون عظيماً – إذ بالكاد يستطيع أن يردع نفسه عن الشر – ما لم يقلع عن التفكير كثيراً باللذة أو المكافآت، ويتحلى بالقوة التي تمكنه من تحمّل ما هو عسر ومؤلم.

إنها إعادة طرح توكيدية لذلك النوع من الحجج الأخلاقية الذي يسري في كل روايات جورج إليوت، لكن معارضة الغيرية بالأنانية في "رومولا" قد كان لها ملاءمة خاصة بالنسبة للبطلة سواء في عالمها الخاص أوفي العالم الأكبر، فلورانسة سافونارولا. لقد عرفت ثلاثة أنوع من الأنانية، كل واحد فيها له عنصره البطولي ومجاهدته في سبيل العظمة. وفنون تيتو اللافنية، ولامبالاته اللامبالية وقفت ضد ألقه وسممت طبيعته الأمثل، لكن مطامح باردو وسافونارولا كانت أكثر كرماً، وأكثر نبالة بحق. وإذا كان باردو قد خنق عبقريته وسط مخطوطاته وتماثيله المكسورة فإن سافونارولا قد توفر على الأقل على العظمة "التي تعود إلى حياة صُرفت في الكفاح ضد الظلم المقتدر، وفي المحاولة لرفع الناس إلى أرفع الأعمال التي يقدرون عليها". إن

تأثير الأخ الراهب هو الذي يتخلل هذا المشهد الختامي في الرواية.

وكبطلة فإن رومولا تستجيب وتتعلم الاستجابة لكنها تحتاج إلى مرشدين قبل أن تقوى على اكتشاف معنى الحرية التي تسعى وراءها. بالنسبة لليزلي ستيفن الذي وجد المكان التاريخي في الرواية مشتتاً للانتباه(رغم أن كرهه، على ما يبدو، لـ "فيلكس هولت " و" دانييل ديروندا " فاق كرهه لها)، لم تكن أية بطلة منذ كلاريسا (لريتشاردسون) على مثل هذه الدرجة من الاستقطاب الفعال للاهتمام ". وعلى اليقين فإن رومولا هي بؤرة الكتاب المسمى على اسمها، واسمها، وهو صيغة تأنيث إيطالية ل "رومولوس "، يوحي بدورها المعتبر والذي يقارب الملحمي. فهي تتحول من فتاة متوترة مقموعة علمها والدها لتخدم كناسخة له إلى زوجة شابة، استيقظت على حياة جديدة حسية بفعل تيتو الدايونيسي. لكن زواجها، مثلما هي بطلات جورج إليوت الأخريات اللاحقات، يفشل في أن يوفر لها التحقق أو الوعد الذي طمحت إليه. يجلب الزواج لتيتو حصراً جديداً وألماً غير متوقع فاقمه استيقاظها على الحب. ويصبح الزوج والزوجة بعيدين عن بعضهما حيث يلجان مجالين منفصلين من السلوك في مدينة تمور بالنشاط العام المكثف، وتاريخ هذا الزواج يسمه الانفصال، ليس بسبب توترات العيش المشترك. إن الإهمال لدى تيتو، وكثرة صمته وإخفاءه للسر، مثلما هي طلعته ذات الاستجابة الباسمة، يقودها للبحث عن مخارج جديدة أبعد من الزواج تنفس بها عن طاقة الحب لديها. هذا، وتفيد تعاليم سافونارولا في أن تملأ فراغها جزئياً، منادية إياها لتعود إلى

الواجب وطالبة التزامها نحو المجتمع. تلقى محاولتها الأولى للهرب من فلورانسة ومن تيتو الصدّ، في نهاية الكتاب الثاني، من قبل الأخ الراهب نفسه، وقد كان هو من أرغمها على الاعتراف بالأنانية ولاجدوى هروبها من حقيقة وضعها الضاغط. (تتكرها العرضي كراهبة فرانسيسكانية يغضب سافونارولا، ويذكرنا أيضاً بشبهها لأخيها الذي هرب أيضاً من المسؤولية إلى حياة دينية ضيقة سلبية).

هذا وتغدو مشاكل فلورانسة التي أصبحت جمهورية حديثاً مجال عمل رومولا والرابط بين البتّ الخاص والعام في الأمور. وإذ هي من دون ولد، وفي الواقع من دون زوج، فإنها تقوم برعاية ضحايا الوباء، وتوزع الطعام على الجياع، بل وتوسع دائرة حمايتها، في البداية في غفلة منها، لتشمل "زوجة تيتو الأخرى ". وعلى هذا النحو فإننا ننقاد إلى مضاهاتها بالعذراء، وهذا انعكاس ملموس ومرئي لل " العذراء الخفية " التي تُحمل صورتها عبر الشوارع الفلورانسية عينها. هذا الدور أيضاً كان لا بد من تجربته عن طريق خبرة مؤلمة وأخيراً ينتهي تتلمذها عندما تُستكمل خيبة أملها من ضيق أفق سافونارولا بإحساسها الخاص بالحرية والحب. وإذا كانت مدينة له بـ " حياتها الأخلاقية العليا " فإن ثقتها مشروطة بمقدرتها الفردية على التعلم والحب. وعندما تتوسل إليه في المشهد القوي في الفصل 39 للمساعدة في شأن عرّابها المدان، برناردو، فإنها تواجَه بمطالب تدعوها للإذعان من دون سؤال لإرادته. لكن رومولا، التي نشأت على تقليد مغاير، والمنزعجة من جو الدير الدومينيكاني حيث كان أخوها المتعصب قد توفي، تجد نفسها

مرة أخرى مكبوحة ب " صلابة الرخام " التي تميز مبادئ سافونارولا. إن حاجة الأخ الراهب العميقة لتبرير موقفه ضد أزمنة الشر تصبح واضحة في زعمه المتعجرف بأن قضيته هي قضية مملكة الله. وبثقة عثرت عليها حديثاً، يغذيها الحنق والإحباط يكون رد فعلها على مطالبه بالتصميم الفوري:

" لست أصدق ذلك! " قالت رومولا، وكيانها بأكمله يهتز من القرف المفعم بالانفعال. " مملكة الله هي شيء أوسع- آخر، دعني أقف خارجها مع الكائنات التي أحب " (الفصل59).

لكل واحد منهما " عاطفة مناقضة "، و"يقين مناقض". تتطلب حماسة سافونارولا الإنجيلية المجترئة التزاماً كلياً، وخنوعاً. فهي لا يمكن أن تقبل بالمعارضة. ورومولا تقابلها بمقاومة أخلاقية تضاهيها حماساً تؤذن باستقلاليتها الحقة.

إن هذه اليقينية المستقلة هي التي تعيد أخيراً رومولا المطهرة والمكتسبة قوة إلى فلورانسة. لكن يلزمها أولاً أن تمر عبر معاناة أخرى، شعور ثان بالهجران اليائس. فرغبتها المؤقتة في الامحاء بعد إعدام برناردو يجعلها "تنساق " على القارب روحياً كما رمزياً إلى أن تستيقظ في القرية المبتلاة بالوباء على ساحل المتوسط نحو إحساس جديد بالواجب ونحو استجابة جديدة لحاجات الآخرين. مرة أخرى يتم تشبيهها بمريم العذراء، التي يعظمها ويمجدها القرويون السذج، إلى أن تقنعهم مساعدتها العملية بحقيقة شخصها.في القرية التي " انساقت على القارب " إليها على الماء تكتشف معاً حاجتهم لها وكذلك الجواب على

حاجاتها العميقة غير المشبعة. وعندما تعود إلى فلورانسة، وتواجه سحق سافونارولا على يد معارضيه السياسيين وعلى يد كنيسة انتقامية، تصبح قادرة على مصالحة تتلمذها السابق مع حرية جديدة. فتفانيها في سبيل الآخرين تقرره الآن استجابتها الشخصية، ولم تعد بحاجة لأن تفرض عليها سلطة خارجية،إلهية كانت أو بشرية. إن الخبرة التي توفرت لها في القرية المصابة بالوباء هي نوع من معمودية جديدة:

في فلورانسة العلاقات الأبسط للكائن البشري مع أبناء جلدته قد تعقدت بالنسبة إليها مع وجود كل روابط الزواج الخاصة، والدولة والتتلمذ الديني، وعندما خيبت هذه الأشياء ثقتها بدت الصدمة وقد هزتها بعيداً عن الحياة وصعقت تعاطفها. لكنها الآن قالت، " لقد كانت مجرد دناءة مني أن أشتهي الموت. إذا كان كل شيء آخر مشكوكاً به، فإن هذه المعاناة التي يمكنني أن أقدم لها يد العون لهي حقيقة مؤكدة. وإذا كان مجد الصليب وهماً فمن المؤكد أن الحزن هو الأصدق. وما دامت القوة تكمن في ذراعي فإنني سأمدها لتصل إلى المتضورين، وما دام النور يغشى عيني فإنهما ستسعيان بحثاً عن المنبوذين ". (الفصل 69)

رومولا تجددت. فتفانيها أيقظها تماماً لتلج حياة جديدة تقودها إلى أبعد من مجرد الإحساس بـ "ضغط حركة شاسعة وغامضة" والتي ستزعزع فيما بعد أولاً " سيادة " غويندولن هارليث " في عالمها الخاص "، ذلك أنها، شأنها شأن " روح (دوروثيا بروك) المرسومة بشكل دقيق " نحن مدركون أنها تتوفر مسبقاً على تأثير " انتشاري على نطاق واسع

" على الخير المتنامي في العالم من حولها.

إن " أفعال رومولا اللاتاريخية " تحدث في مكان تاريخي، ولسوف تسهم في عملية تاريخية آخذة بالتطور يشكل جزءاً منها القرنان الخامس عشر والتاسع عشر معاً. في رسالة لها إلى ر.ه.هاتون مؤرخة في آب 1863 وهي رسالة تخبرنا الكثير عن موقفها من روايتها، أشارت جورج إليوت إلى "شعورها الطاغي " بأن في "رومولا" " جاهدت حقائق عظيمة، عظيمة لتجد لها صوتاً " لكن لربما هذه الحقائق " لم تقو إلا على الكلام بلغة عرجاء ". من المؤكد أن صوت الكاتبة المكين عادة يبدو أنه ناء أحياناً بالعبء المتأتي عن طموحاتها الأخلاقية والجمالية، لكن "رومولا" تستحق أن تلقى إقراراً بأنها ضربة معلم من قبل القراء الحديثين الذين يشاركون قراءها الأوائل حساسية أعدّ لها " ذلك التعاطف الديني والأخلاقي مع الحياة التاريخية للإنسان والذي هو نصف الثقافة الأكبر ".

أندرو ساندرز

كلمة عن النص

ظهرت"رومولا" أول ما ظهرت بدون توقيع، بصورة متسلسلة في مجلة "كورنهيل ماغازين " من تموز عام 1862 حتى آب 1863، مع ثلاث وعشرين صورة لفريدريك لايتون. الفصول التي نشرت مع كل عدد شهري لمجلة "كورنهيل " معلّمة في الطبعة الحالية بأرقام رومانية في أقواس مربعة في مستهل كل فصل. وعندما بدأت "رومولا" تظهر

في شكل مسلسل اتفق ظهورها في المجلة مع اكتمال رواية ثاكري الأخيرة، " مغامرات فيليب في رحلته حول العالم ". وقد كان صاحب "كورنهيل "، جورج سميث، متلهفاً لكي تبدأ رواية جورج إليوت في نيسان أو أيار 1862 إذ كما كتب ج.هـ.لويس كانت هذه هي الأشهر " التي ستكون المجلة فيها بحاجة لبعض الدعم ذلك لأن قصة ثاكري ليس كافية إطلاقاً للمحافظة على المبيعات ". وطيلة فترة نشرها، كانت "رومولا" تطبع مع بداية كل عدد شهري. وعندما انتهى ظهور "فيليب " لثاكري أعقبها في أيلول 1862 رواية ترولوب " البيت الصغير في ألنغتون ".

وقد نشرت نسخة للرواية منقحة بشكل طفيف في ثلاثة مجلدات من قبل سميث، إلدر وشركاه في تموز 1863 بدون صور لايتون. وقد أعيد طباعتها في العام نفسه، وتلا ذلك " طبعة مصورة "، وفيها أربع فقط من اللوحات الأصلية، في عام 1865.

يستند النص الحالي إلى نص "طبعة كابينيت " لعام 1878، وهو آخر نص نقحته جورج إليوت نفسها. وقد تم تدقيقه بمقارنته مع طبعة المجلدات الثلاثة لعام 1863، وبمخطوطة الرواية التي هي الآن في المكتبة البريطانية. أما علامات الترقيم والتهجئة فهي تلك التي وردت في طبعة " كابينيت ". توجد تغييرات هامة بين نصوص الرواية تتضمنها حواشي الطبعة الحالية حيث إن من المؤكد أن بعض الفقرات المهمة قد تعرضت إما للحذف في المخطوطة أو حذفت من نصوص "رومولا" المنشورة. وقد تم تصحيح أغلاط برنتر دونما ضجة. والعبارات

التصديرية غير المستعملة في مقدمة الفصول الافتتاحية أعيد طباعتها في شكل ملحق ب. تحمل المخطوطة الإهداء بخط يد جورج إليوت " إلى الزوج الذي كان حبه الأمثل خير مصدر لبصيرتها وقوتها، هذه المخطوطة من زوجته المخلصة، المؤلفة. بدئ بالمخطوطة في الأول من كانون الثاني عام 1862 وأنهيت في 9 حزيران 1863 ".

بيبليوغرافيا منتقاة

George Eliot's Life and Letters

Cross,J.W., *George Eliot's Life ,as related in her Letters and Journals*, Blackwood's ,1885

Haight,Gordon S., *The George Eliot Letters* ,Yale University Press,1954-6

Haight,Gordon S., *George Eliot , A Biography*, Oxford University Press,1968

Pinney,Thomas(ed.), *Essays of George Eliot*,Rouledge,1963.

Victorian Criticism of Romola

Carroll,David (ed.), *George Eliot:the Critical Heritage*,Routledge,1971.

Haight,Gordon S.(ed.) *A Century of George Eliot Criticism*,Methuen,1966.

Stephen,Leslie,*George Eliot*, Egnlish Men of Letters Series, Macmillan,1902.

Modern Studies

Bullen,J.B.,"George Eliot's *Romola* as a Positivist Allegory" , Review of English Studies 26,1975

Hardy, Barbara, *The Novels of George Eliot* Athlone Press,1959

Levin,George, "*Romola* as Fable" ,published in Hardy,Barbara (ed.),*Critical Essays on George Eliot*,Routledge,1970.

Paris,Bernard J., "*George Eliot's Religion of Humanity*" ,E L H 29 , 1962

Robisnson, Carole, "*Romola*:A Reading of the Novel ",*Victorian Studies* 6, 1962

Snaders, Andrew, *The Victorian Historical Novel 1840-1880* , Macmillan, 1979.

Sullivan, William, J., "Piero di Cosimo and the Higher Primitivism in *Romola*" , *Nineteenth-Century Fiction* 26,1972

Witemeyer, Hugh, *George Eliot and the Visual Arts*, Yale University Press, 1979.

استهلال

نحن على يقين أن ملاك الفجر[1]، منذ ما ينوف عن ثلاثة قرون ونصف، منتصف ربيع عام 1492، بينا كان ينتقل بجناح عريض متهاد من المشرق إلى أعمدة هرقل[2]، ومن ذرى القوقاس عبر مجمل سلاسل الألب الثلجية إلى العراء الأسود للجزائر الغربية، قد شاهد المعالم الإجمالية نفسها تقريباً للأرض الثابتة الوطيدة والبحر غير المستقر على حال – شاهد ظلال الجبال العظيمة نفسها التي ناخت على الوديان نفسها كما يراها في هذا اليوم – شاهد جبال الزيتون وغابات الصنوبر، والسهوب الشاسعة وقد اكتست بخضرة القمح الغض أو العشب الذي أينعه المطر – شاهد القباب والأبراج المستدقة للمدن وهي تسمق بحذاء ضفاف الأنهر أو تختلط بالصواري التي تشبه النجيل الأحمر على الساحل البحري الشديد المنعرجات، في البقعة عينها التي تسمق فيها اليوم. وعند اختراق ضوء مساره الواهن مساكن الناس، فإنه قد استقر، كما الآن، على الدفء الوردي للأطفال المستكينين المتكورين في أسرّتهم، وعلى الاستيقاظ المضنى للحزن والمرض، وعلى النهوض العجل للعامل خشن اليد، وعلى الأوي آخر هزيع الليل للطالب السهران، الذي كان يسائل النجوم أو الحكماء، أو روحه، عن تلك المعرفة المستورة التي ستخترق حجب حياة الإنسان القصيرة، لتكشف أن دربها المظلم الذي لم يعرف الانعطاف في أي مكان، هو قوس في دائرة من ضياء وبهاء عصية على القياس. إن

مسارات الأنهر العظيمة التي أعطت حيوات الناس أشكالها لم تتغير إلا بالكاد، وتلك الجداول الأخرى، تيارات الحياة التي تمتد وتجزر في أفئدة البشر، إنما تنبض في تناغم مع الحاجات الكبرى عينها، وحكايا الحب والهلع عينها. وبينا يتقفى تفكيرنا انبلاج الفجر الوئيد فإن الانطباع نفسه يعترينا بسبب الشبه الواسع في قسمة البشر، والتي لا يعتريها أبداً تبدل في عناوين تاريخها الرئيسة – المسغبة والكدح، موسم البذار والحصاد، الحب والموت.

وحتى لو أننا، عوضاً عن تقفي الانبلاج الخافت للفجر، توقفنا بخيالنا على بقعة تاريخية بعينها بانتظار اكتمال الصباح، فإننا نرى مدينة طبقت شهرتها العالم، مدينة قلما تغيرت معالمها الرئيسة منذ أيام كولومبوس، وقد بدت تقف كرمز لم يدنّس تقريباً، وسط سريان الأشياء البشرية، ليذكرنا أننا لا نزال نشابه ناس أيام زمان أكثر مما نختلف عنهم، ذلك لأن تلك القواعد الميكانيكية العظيمة التي رُفعت عليها تلك القباب والأبراج لا بد أن تجد شبهاً في البناء البشري الذي سيكون أكبر في شساعته وعمقه من كل تغير محتمل. وما من شك في أنه لو أمكن لروح مواطن فلورنسي، أغمض عينيه للمرة الأخيرة بينا كان كولومبوس ما يزال ينتظر ويجادل سعياً وراء تأمين السفن الفقيرة الثلاث التي كان سيبحر بوساطتها من مرفأ بالوس(3)، لو أمكنها أن تعود من عالم ظلمات القبر وتتوقف حيث يتوقف تفكيرنا، فما من شك في أنها ستؤمن بأنه ما يزال هناك أخوّة

وتفهم لهذا المواطن في أوساط ورثة مسقط رأسه.

دعنا نفترض أن طيفاً كهذا قد أذن له بأن يعود ليزور لمحات الصباح الذهبي، وأنه هوذا يقف مرة أخرى على هضبة سان مينياتو الشهيرة التي تطل على فلورانسة من الجنوب.

والطيف يدّثر باللباس الذي ألفه: طيات ردائه الحريري الأسود المطـرَز أو lucco [4] تتدلى في شكل خطوط رصينة متصلة من العنق حتى الكاحل، وقلنسوته القماشية البسيطة، ذات البيشيتو[4]، أو الشريط الجوخي المتدلي طويلاً، ليفيد كمنديل عند الاقتضاء، يعلو وجهاً نفاذاً، يجوز أنه ليس مليحاً جداً، لكنه يتسم بثغر رصين مرسوم بعناية، حافظ على بشريته بكل وضوح بوساطة شفة وذقن حليق بكل ما هنالك من اعتناء. هو وجه مشحون بذكريات حياة متنوعة وحادة تصرّمت هناك في تلك البقعة السفلى على ضفاف النهر المتلألئ، وبينا هو يتملّى المشهد أمامه يتولد إحساس بالألفة أقوى بكثير من إدراك التغير، حتى إنه يخال أن من الممكن الهبوط كرة أخرى وسط الشوارع، والانغماس في لجة تلك الحياة المزدحمة حيث تركها. ذلك أن ما يتعرف عليه ليس الجبال فقط والنهر المنعطف غرباً، ليس الجوانب السوداء لجبل موريلو المنتصب قبالته، والوادي المترامي في الطول وادي آرنو الذي يلوح ماداً خصبه الرمادي قصير الأعشاب النامية على ضفافه إلى أقصى سلاسل جبال كارارا، والسفح الشديد الانحدار للفيزول، تعلو هامته جدرانه الصومعية وسروه، وكل المنحدرات الخضر والرمادية التي تنتثر عليها في غير مكان الفيلات التي بمقدوره أن يسميها وهو ينظر إليها. وهو يرى أشياء أليفة أخرى هي إلى جولاته

اليومية أكثر قرباً بكثير. ذلك أنه رغم افتقاده للأبراج(5) السبعين أو نيف التي امتطت صهوات هذه الجدران ذات مرة، وأحاطت بالمدينة مثل تاج ملكي شرقي، فإن بصره لن يمكث طويلا على ذلك الخواء، فهو منجذب بشكل عصي على المقاومة إلى ذلك الانتصاب البرجي الفريد، مثله مثل ساق زهرة طويلة تتجه هامتها إلى الشمس، من كتلة القصر العتيق البرجية المربعة في مركز المدينة بالذات – ذاك البرج الذي لا يضيره تلك القرون الأربعة التي تصرّمت منذ أن تعوّد على المشي أسفله. والقبة العظيمة، أيضا، الأعظم في المعمورة، والتي كانت يوم فتوته الباكرة مجرد فكرة جريئة في بال إنسان صغير الحجم سريع النظرات – ها هي ما تزال تسمق هناك بأقواسها الضخمة حاجبة التلال. وأبراج الأجراس التي يعرفها الجميع جيداً – أبراج الجيوتو، التي تلوح من بعيد بغنى ألوانها، والباديا Badia التي تنتصب هامة رشيقة مستدقة، وما تبقى – مسحها كلها بنظراته من منكب تدبره وعنايته.

يجول بخاطره: " من المؤكد أن فلورانسة ما يزال بمكنتها أن تقرع أجراسها بصوت المطرقة الرصين المهيب الذي كان في العادة يطرق أفئدة مواطنيها ويؤجج تلك النار فيها. وهنا، على اليمين، تنتصب الكتلة السوداء الطويلة لسانتا كروتشه، حيث وارينا مشاهيرنا، بعد أن كللنا جباههم الباردة بالغار ونفحنا عليها نفحات التقريظ والرايات. لكن سانتا كروتشه كانت تعدم الهامة البرجية المستدقة إذ ذاك (6): نحن معشر الفلورانسيين كنا نمور إلى حد الامتلاء بمشاريع بناء عظيمة ما حال دون أن ننفذها جميعاً بالحجر والرخام، فقد كان

لنا زخارفنا الفريسكو ومزاراتنا لدفع ما يتوجب نحوها، ناهيك عن الكوندوتييري (7) المفترس، والملكية المرتشاة، والأصقاع المشتراة، وواجهات نصبنا وأبراجنا المستدقة التي تحتاج العناية بها. إنما أي مهندس معماري، ترى، استخدمه الفراتي مينوري(8) لبناء تلك المسلّة لهم؟ إذ لو كانت بنيت في عصري، لكان فيليبو برونيلليتشي أو مايكلوتزو (9) قد استنبطا موديلاً آخر – شيئاً يليق بتتويج هامة كنيسة أرنولفو ".

وعند هذه المرحلة، يدع الطيف، بتنهيدة تحسر، بصره يجول على أسوار المدينة، ونراه الآن يركّز على التغير الحاصل في تلك البقعة مدهوشاً لهذه الأزمنة الحديثة. لمَ أغلقت خمسة مداخل من بين الأحد عشر مدخلاً؟ ولم، فوق كل هذا وذاك، لزم تسوية الأبراج بالأرض، تلك التي شكّلت فيما مضى أبهة ودفاعاً؟ هل أن العالم أصبح مسالماً جداً، ثم، هل أن الفلورانسيين يتساكنون بتناغم تام بشكل انتفت معه المؤامرات لإعادة المنفيين الطموحين إلى الوطن وبركابهم العصابات المسلحة؟ إنها أسئلة صعبة: من الأسهل والأمتع أن نتعرف العتيق من أن نسأل عن الجديد. وآرنو، ها هو يجري هناك، بجسوره، التي بقيت في موضعها السابق عينه – جسر بونت فيتشيو، لا يوجد قرينه في العالم، مثقل بالمتاجر الغريبة عينها حيث يتذكر طيفنا التسكع لبعض الوقت وهو في طريقه لإلقاء نظرة، ربما على مسيرة ذاك القصر العظيم الذي شرع السيد لوكا بيتي في بنائه بالحجارة الضخمة التي اقتلعها من ربوة بوغولي (10) في مكان قريب خلف هذه البقعة،

أو ربما لإنجاز عمل صغير مع الخياطين في أولترارنو. إن الخط الباذخ لسطح بيتي Pitti مخفي عن سان مينياتو، لكن لا ينصبُّ توق الفلورانسي الشيخ على مشاهدة قصر السيد لوكا المغالي في طموحه الذي شاده لنفسه، بل على النزول إلى وسط تلك الشوارع الضيقة والساحة المزدحمة التي تمور بالضجيج حيث ورث عن أسلافه الحياة التواقة. أليس التصويت المتلهف لاختيار الحبّات البيض والسود (انظر الشرح في مكان لاحق–م) ما يزال سارياً هناك في تلك البقعة السفلى على قدم وساق؟ ومن هم البرايوري(11) Priori في أشهر السنة هذه، يتناولون عشاءهم الرسمي المنظم بهدوء ورزانة في بالاتزو فيتشيو، من الكروش المنظفة وطيور الحجل المسلوقة، وتوابل من النكات العملية (المقالب) ضد المستهدفين من السخرية المنكودي الحظ وسط أولئك السادة المقتدرين؟ أما تزال الرايات المعتبرة تتدلى من النوافذ – أما تزال توزع بكل ما هنالك من أبهة محتشمة تحت لوجيا الأوركاغنا(12) كل شهرين؟

كانت الحياة تمورهمة ونشاطاً بالنسبة للفلورانسي العريق عندما كان،كذلك الأمر، يخطو متثاقلاً على الدرجات الرخامية ويشارك في تلك الرسميات. كان لسياسته شساعة تجارته، والتي امتدت من سوريا إلى بريطانيا، لكن كان لها أيضا تلك الحدة العاطفية، والمصلحة العملية حتى في أدق تفاصيلها، والتي لا تنتمي إلا إلى مشهد ضيق من العمل التجاري المشترك، وإلى أعضاء مجتمع محاصر تماماً بهضاب وأسوار تمتد دائرتها لستة أميال، حيث يعرف الناس بعضهم

بعضا عند مرورهم في الشارع، وتقع أبصارهم يومياً على النصب التذكارية لدولتهم، ويدركون بأنهم لا يملكون حق الاقتراع فحسب بل أن هناك فرصة سانحة لأن يقترع لصالحهم. كانت تستهويه ألقابه ومكاسبه، أعمال شركة حساباته، وعمل نقابته، وغرفة جلسات المجلس البلدي. كان يحب عداواته أيضاً، ويتحسس بأصابعه الدولار الأبيض الذي كان سيبقى اسماً مكروها خارج البورصة ويشعر برضى أكبر مما لو كان فلوريناً (*)ذهبياً.كان يحب أن يشد أواصر عائلته بحلف متين، ومضى إلى بيته ونور الانتصار في عينيه بعد عقد زواج مرض لابنه أو ابنته تحت شرفته (لوجيا) المفضلة في برودة المساء العليلة. كان يحب لعبته الشطرنج تحت الشرفة عينها، ومزاحه اللاذع، وحتى مزحته الخشنة، لأنها لا تسف إلى ما دون كرامة إنسان مؤهل لأعلى منصب حكومي. لقد اكتسب نفاذ بصيرة حيال كل أنواع المسائل والشؤون الداخلية والخارجية: فقد كان واحداً من "العشرة " الذين أداروا دائرة الحرب، ومن بين "الثمانية" الذين تكفّلوا بالانضباط الوطني، ومن رؤساء الأديرة أوالسادة الذين كانوا على رأس الحكومة التنفيذية. بل إنه ارتقى إلى سدة السلطة العليا في الغونفالونيير Gonfaloniere(13). وترأس سفارة إلى البابا وأهل البندقية. وكان مبعوثاً إلى جيش المرتزقة في الجمهورية، حيث أدار المعارك المخزية غير الدموية التي لم يلق أي إنسان فيها حتفه من جراء جراح تنمّ عن الجسارة تلقاها في الصدر– virtuosi colpi – بل فقط بفعل سقطات ودوس بالأرجل عارض. وعلى هذا النحو فقد تعلم كيف لا يثق بالناس

دون مرارة، حيث الحياة في نظره هي بصورة رئيسة لعبة مهارات، لكن دون انتفاء الإحساس بتقاليد البطولة والشرف النظيف.ذلك لأن النفس البشرية مضيافة، وعلى استعداد لتحتضن أحاسيس متضاربة وآراء متضادة بكثير من الحيدة. زد على أن من دواعي فخره أنه قد حبي أصولاً بمعرفة وعلم عصره، ولم يحكم عليه كلية جنباً إلى جنب مع الأجلاف بل بما يتسق مع القدامى: هو، أيضاً، في ريعان شبابه كان يتوق إلى أكثر المخطوطات صحة، وكان قد دفع الكثير من الفلورينات (المال) ثمن أصص أثرية وتماثيل نصفية لخالدين عريقين أهيل التراب عنها – بعضها ربما، truncis naribus (14)كان يفتقد الأنف، لكنه لم يعدم المصداقية والأصالة. وفي شيخوخته كان يستعجل الاطلاع على الصحائف الأولى لذاك الرائع هوميروس(15) والتي كانت من بين الأمجاد الأولى للمطبعة الفلورانسية. لكنه لم يغفل، رغم كل ذلك، عن تعليق صورة شمعية أوصورة شخصية له تحت رعاية وحماية عذراء أنونتزياتا، أو التكفير عن معاصيه في شكل أضاحٍ سخية يقدمها لأضرحة القديسين الذين لم تتكون حيواتهم على ذاك النموذج المستقى من دراسة الآثار الكلاسيكية . حتى إنه لم يفتْه أن يترك وصية سخية لأبنية ال Frati التي ما عدم يوماً أن يسدد نحوها الكثير من سهام مزاحه.

ذلك لأن القوى الخفية كانت جبارة. من يكن يدري – من كان على يقين – أنه لم يكن هناك *أي* اسم سميت (القوى) به لم يكن تحركه قوة غاضبة لا بد من تهدئة ثائرتها، أو شفقة شفيع لا بد من

الفوز بها؟ أليست هي الجواهر طبية (الدراهم مراهم) رغم أنها لم تفعل سوى أن تضغط على الإصبع؟ ألم تكن الأشياء جميعها مشحونة بفضائل مستورة؟ ربما كان لوكريتيوس مصيباً – كان شاعراً عريقاً وعظيماً. ولويجي بولتشي، أيضاً (16)، الذي اتهم بأنه لم يؤمن بأي شيء ابتداء بالسطح وما فوق (dal tetto in su)، كان يبدو من سيمائه أنه كان محقاً على طاولة العشاء، حين كان الخمر والمزاح يتداولان بأريحية، رغم أنه لم يعدُ كونه شاعراً باللغة العامية. حتى إنه وجدت شخصيات مثقفة كانت تعتقد أن أرسطو، أحكم حكماء الناس (ما لم يكن أفلاطون، في الحقيقة، أكثر حكمة؟) كان فيلسوفاً ملحداً بالكامل.وعلى المثقف الليبرالي أن يفتح صدره لكل التخمينات. لكن السلبيات سيثبت، في النهاية، زيفها، لا، فقد بدت مزيفة بشكل لا لبس فيه، بينما كانت الساعات الدوارة تنصرم بحذائه، وتقفل عائدة بوجوه أكثر جهامة. إذ ألم يصبح العالم مسيحياً؟ ألم يتعمد هو نفسه في سان جيوفاني(17)، حيث تزخر القبة برموز الدينونة القادمة، وحيث يحمل المذبح الصورة، صورة الصلب التي تنغّص المرء توصلاً إلى السكينة التامة في نفس المرء والعالم؟ طيفنا المعاد إلى الحياة لم يكن فيلسوفاً ملحداً، ولا شاعراً متفلسفاً ملحداً، لكن إنساناً من القرن الخامس عشر وارثاً لشبكته (القرن) الغريبة من الإيمان والشك، ذا طيش إبيقوري وهلع فيتشي (*)، ذا أخلاقيات متحذلقة مستحيلة يفوه بها بعد حفظها بصماً، وعواطف فجة كانت موضع تصرف طفولي متهور، ذا ميل إلى وثنية شهوانية، وإخضاع محتوم لذاك الضمير البشري الذي، في غمرة

اضطراب نمو جديد، كان يملأ الجو بنبوءات وهواجس غريبة.

لعله كان ابتسم وهز رأسه بشكل غامض، وهو يسمع حديث بسطاء القوم عن البابا أنجيليكو(18) الذي كان سيأتي رويداً رويداً ويرسّخ نظاماً للأشياء جديداً، لينقي الكنيسة من السيمونية (شراء المنصب الكهنوتي – م) وحيوات رجال الإكليروس من الفضيحة – وضع لأمور يختلف جداً عما وجد في ظل إنوسنت الثامن بشكل لا يجعل تاجراً وسياسياً حاذقاً يرى المستقبل جديراً بأن يدخل في حساباته. بيد أنه شعر، رغماً عن ذلك، بشرور الزمن ذلك لأنه كان إنسان المصلحة العامة، ولا يمكن أن تكون المصلحة العامة لاأخلاقية بالكامل، ذلك لأن جوهرها هو رعاية الخير العام. في ذاك الصوم الكبير بالذات في عام 1492 الذي فيه توفي وهو ما يزال في قامة شيخوخته المنتصبة، كان استمع في سان لورينزو، ليس دون أن يخالط ذلك الرضى، إلى موعظة راهب دومينيكاني، اسمه جيرولامو سافونارولا، الذي فضح بجرأة نادرة دنيوية رجال الإكليروس وعاداتهم الشريرة، وشدد على واجب المسيحيين في ألا يعيشوا في نشدان لراحتهم بينما يكون النصر معقوداً للظلم في المقامات العالية، وألا يبددوا ثرواتهم في المظاهر الخارجية حتى في الكنائس، حيث يكون إخوانهم وأخواتهم يقاسون الإملاق والمرض. لقد حمل الأخ الراهب عقيدته أبعد من مرمى آذان الشيوخ، ومع ذلك فقد كانت رؤية واعظ يحرك مشاعر مستمعيه إلى درجة خلعت معها النسوة زينتهن، وسلمنها لكي تباع لمصلحة المعوزين، مشهداً لا ينسى.

كـان تفكيـر طيفنـا:" كـان شخصـاً متميـزاً، رئـيس ديـر سـان مـاركو ذاك، لعلـه متعجـرف ومتطـرف نوعـاً مـا، ولا سـيما فـي تنديداتـه بالانتقام السريع. آه، Iddio non paga il Sabato (19) – غالبا ما تتأخر خطايا الناس في دفع مستحقاتها، وأنا نفسي شاهدت الكثير من الشـرور الراسـخة التـي شـهدت ازدهـاراً طويل الأمد .لكن الراهـب الـواعظ (Frate Predicatore) (20) الـذي أراد أن يحـرك مشـاعر الجمهـور – كيـف يمكـن لـه أن يكـون معتـدلاً؟ كـان مـن الممكـن، رغـم ذلك، أن يكون أقل تحدياً وفظاظـة بقليل، نحـو لـورينزو دي ميديتشـي، الذي كانت أسرته البناة الحقيقيين لسان ماركو: هل أن ذاك النزاع قد سوي قط؟ ولورينزو صاحبنا نفسه بعينيه الباهتتين الجاحظتين والبصيرة الحاذقة، هل تغلب على ذاك المرض في كاريجي؟ لم يكن سوى وجه حزين قلق ذاك الذي يتأتى لـه من العالم الذي أعطـاه الكثير، وكانت هنـــاك شـــكوك قويـــة بـــأن ابنـــه الوســـيم ســـيلعب دور رهبعـــام Rehoboam(21). كيف حصل كل هذا؟ أي حزب من المحتمل أن يُنفى وتتعرض مساكنه للنهب فـي هذه الآونـة بالذات؟ هل هنالك من خلف للورينزو الذي لا يضاهى والذي يتوجه إليه التركي العظيم (22) بسخاء بهداياه من نادر الحيوان، ونادر الأثريات، ونـادر المخطوطـات، أو الأعداء الهاربين، بما يـلاءم ذوق نبيل مسيحي من البندقية هو فـي الآن نفسه مثقف ومتعبد – وأيضا بداخلـه قليل من الحقد والانتقام؟ وأي رجـل مشـــهور مـــن رجـــالات المعرفـــة يملـــي الأحـــرف اللاتينيـــة للجمهوريـة – أي فيلسـوف متحمس يعظ دانتـي فـي الكنيسـة Duomo،

ويمضي إلى البيت ليكتب كلمات القدح اللاذعة ضد والد ووالدة الناقد السيئ الذي ربما يكون قد نبش أخطاء في تهجئته الكلاسيكية؟ هل أن رؤساءنا الأكثر تعقلاً وحكمة يميلون نحو تحالف مع البابا وال Regno (23)، أو هم بالأحرى يميلون بأسماعهم إلى خطباء فرنسا وميلانو؟

" هناك معرفة بهذه الأشياء تستقى من الشوارع هناك تحت، على الـ marmi المحبوب أمام الكنائس وتحت الشرفات الواقية حيث من المؤكد أن مواطنينا ما يزالون يحتفظون بثرثرتهم ونقاشاتهم، ومزاحهم اللاذع والمرح كما في أيام مضت. إذ أليست الأبنية التي لا تنسى كلها هناك؟ لم تحدث تغيرات ذات شأن في تلك السنوات غير المحسوبة. سأنزل إلى أسفل وأصيخ السمع – ستطأ قدماي الرصيف المألوف، وأسمع من جديد كلام الفلورانسيين ".

لا تنزل أيها الطيف الطيب! فالتغييرات كبيرة وكلام الفلورانسيين سيقع على سمعك كأحجية. أو، إذا نزلت، لا تعاشر السياسيين على الـ marmi، أو في أي مكان آخر. إياك والسؤال عن التجارة في كاليمارا (24)، لا تربك نفسك بالأسئلة عن المعرفة، أكانت لدى الحكومة أم الدير. انظر فقط إلى ضوء الشمس والظلال على الأسوار العظيمة المتينة البنيان، والتي استمرت عظمتها إلى اليوم . انظر إلى وجوه الصغار التي تتجسد ضوء شمس آخر وسط ظلال العمر. انظر , إن شئت، داخل الكنائس، واستمع إلى التراتيل عينها، شاهد الصور نفسها كما من أيام زمان – صور الألم التوّاق إلى

هدف عظيم، صور الحب الخيّر والمجد الناهض. شاهد الوجوه الحية المشرئبة، والشفاه التي تتمتم بالصلوات القديمة طلباً للغوث. هذه الأشياء لم تطلها يد التغيير. فضوء الشمس والظلال تأتي بجمالها العريق وتوقظ شغاف القلوب العريقة عند الصباح، والظهر، والمساء. الصغار ما يزالون رمز الزيجة الأبدية بين الحب والواجب. والناس ما يزالون يتوقون لسيادة السلام والحق – ما يزالون يقرون بأن الحياة الأسمى هي حيث التضحية الطوعية الواعية. ذلك لأن البابا أنجيليكو لم يأت بعد.

الكتاب الأول

الفصل 1

الغريب من السفينة الغارقة

انتصبت شرفة سيرتشي Loggia de' Cerchi وسط فلورانسة القديمة، داخل متاهة من الشوارع الضيقة خلف الباديا، التي قلما يرتادها الغريب الآن ما لم يكن ذلك لبحث غامض عن لوحة باب بسيطة للغاية تحمل هذا النقش:

QUI NACQUE IL DIVINO
POETA (1)

رددت الشوارع نفسها على مسامع دانتي صيحات وصدامات المعركة الشرسة بين الأسر المتنافسة، لكنها لم تكن تضج في القرن الخامس عشر إلا بالمشاجرات غير التاريخية والدعابات العريضة لعاملي تمشيط الصوف في الأنحاء المنتجة للقماش في سان مارتينو وغاربو.

تحت هذه الشرفة في الصباح الباكر من التاسع من نيسان عام 1492 (2) تسمَر بصر رجلين كل على الآخر : أحدهما كان ينحني قليلا، وينظر إلى تحت بتدقيق الفضولي، أما الآخر، المستلقي على الرصيف فكان ينظر للأعلى يحدّق مجفلاً كالمستيقظ لتوه من حلم.

وقد ابتدأ الشخص الواقف الكلام. كان أشيب الشعر عريض المنكبين، من النوع الذي قدّ بقبضة اليد وصقل بالمعول،حسب العبارة

التوسكانية، لكن بدا أن القصد من الصرامة المدّعيه التي ارتسمت في الخطوط الغائرة حول حاجبه وأنفه هو تصحيح أية استنتاجات مزدرية يمكن أن تُستخلص من الصنعة المتعجلة التي أسبغتها الطبيعة على شكله الخارجي. كان وضع كيساً كبيراً جلدياً مملوءاً حتى آخره على الرصيف، وأمامه تدلت سلة بائع جوال مزخرفة جزئياً بتطريز نسائي دقيق كما بخيط وإبر، وجزئياً بنتف من زجاج، والتي ربما جاءت من مقايضة مع تلك السلع. " أيها الشاب "، قال وهو يشير بإصبعه إلى خاتم على إصبع الشخص المضطجع، " عندما تنبت ذقنك ستعرف ما هو أفضل من أن تأخذ رقدة نوم في زوايا الشوارع وعلى سبابتك خاتم بهذا الشكل. وحق الملايكة (قصداً باللغة العامية –م) الأقداس! لو كان غيري يقف فوقك منذ دقيقتين – لكن براتي فيرافيتشي (3) ليس بالرجل الذي يسرق. فالقطة ما كانت لتأكل فأرها لولم تصطده حياً، وبراتي ما كان ليستطيب نكهة الكسب لو لم يكن له مذاق الصفقة. ياه، أيها الشاب، في عيد سان جيوفاني (4) منذ ثلاث سنوات، طرح القديس في طريقي جثة ميت– شحاذ كفيف قبعته مطرزة جيدا بقطع نقدية – لكن، إذا صدقت ما أقوله لم تستسغ معدتي المال الذي لم أساوم بشأنه إلى أن خطر لي أن سان جيوفاني كان مديناً لي بقطع النقود لقاء ما أنفقه سنويا في العيد، أضف إلى أنني واريت الجثة التراب ودفعت أجرة قداس – وهكذا اتضح لي أنها كانت صفقة رابحة. لكن كيف يتسنى لشاب مثلك، له وجه السيد سان ميشيل (5) أن ينام على سرير حجري متخذاً الريح كستارة؟"

لم تكن الأصوات العميقة الصادرة عن حلق المتكلم واضحة إلا بالكاد بالنسبة للمستمع المخبول حديث الاستيقاظ، لكنه فهم الإشارة الموجهة إلى خاتمه: نظر إليه وخلعه، بما يشبه إذعاناً نصف آلي للتحذير، وقذف به داخل سترته، وفي هذه الأثناء نهض وفرد جسمه.

قال براتي متعمداً: " إن سترتك وسروالك لا يتلاءمان مع تلك الجوهرة، أيها الشاب. أي شخص سيقول إن القديسين قد بعثوا لك بجسد ميت، لكن إذا أخذت الجواهر، آمل أن تكون دفنته – ويمكنك أن تقدم له من ضمن الصفقة قداسا أو اثنين ".

بدا أن شيئاً أشبه بهزّة مؤلمة اعترت المستمع، وشنّجت ذراعيه المبسوطتين بلا اكتراث وصدره . التفت لبرهة من الوقت صوب براتي وتجهم حاد يعلو محياه، لكنه سرعان ما استرد سيماء عدم الاكتراث ونزع عن رأسه قبعة الحرير الحمراء التي تدلت كمحفظة كبيرة فوق أذنه اليسرى، ودفع للخلف بخصلات شعره الطويلة ذات اللون البني القاتم ونظر إلى ثيابه وقال مبتسماً –

" ما تقوله حق، يا صاح: فملابسي ترك عليها الطقس آثاره كما على شراع عتيق، وهي ليست عتيقة فحسب، إنما عليها رذاذ من البحر وكذلك المطر مثل شراع عتيق. والحقيقة هي أنني غريب في فلورانسة، وعندما أتيت متقرح القدمين الليلة الفائتة آثرت أن أرمي بنفسي في ركن من هذا المدخل المسقوف المضياف على أن أسعى وراء نزل قد يعرض لي، والذي يمكن أن يكون عشاً لمصاصي الدماء من هذا النوع أو ذاك ".

قال براتي: " غريب، حقاً، فالكلمات تخرج جميعها من حلقك وهي تذوب ذوباً بحيث لا يمكن لمسيحي وفلورانسي أن يميز حرف السين من الكلاّب المعقوف (6). لكنك لست من جنوة؟ الأرجح من البندقية، كما يبين من تفصيلة ثيابك؟"

قال الغريب مبتسماً: " في الوقت الحالي لا يهم من أين جئت بقدر ما إلى أين أذهب لأتناول لقمة فطور. فمدينتكم هذه تستقبلني بوجه عابس: هل لك أن تدلني على ناحية تمور بنشاط أكبر يمكن لي فيها أن أصيب طعاماً وأبيت ليلتي؟"

قال براتي: " بالطبع، وإنه لمن حسن طالعك، أيها الشاب، أني أتيت بالمصادفة من روفتزانو هذا الصباح، وخرجت عن قصدي فاتجهت إلى ميركاتو فيتشيو لأتلو الصلاة المريمية في البادیا (7). أقول إن هذا من حسن حظك، لكن يبقى أن أعرف ما هو ربحي (تشديد على ضمير المتكلم) في هذه المسألة. لاشيء مقابل لا شيء، يا صاح. فإذا قدتك إلى سوق (ميركاتو) فيتشيو فستقسم بشفيعك أنك ستدعني أدخل في مزايدة على بدلتك الملطخة عندما تنصّب نفسك مراهناً – ولا بد أنك ستفعل ".

قال الآخر وهو يضحك: " موافق وحق سان نيقولو . لكن دعنا ننطلق إلى هذه السوق إذ أنني أشعر بحاجة إلى لباس أفضل من هذه السترة التي تحسدني عليها ".

" أحسدك؟ لا " قال براتي، رافعاً كيسه إلى ظهره ومنطلقاً. لكنه قطع جوابه وانفجر بصوت عال أجش ليس بعيد الشبه عن

صرير عجلات عربة: " Chi abbaratta – baratta – b’ratta- chi abbaratta cenci e vetri- b’ratta ferri vecchi?"(8)

قال من فوره منكفئا إلى لهجته الحوارية: " لا يساوي إلا القليل، السروال وإلى ما هنالك، فثيابك لا تساوي شيئاً. ومع هذا إذا رغبت أن تزود نفسك بآلة عود قيمتها تفوق أية واحدة أخرى جديدة، أو بسيف تقلّده أحد أفراد عائلة ريدولفي، أو بسبحة (9) من أفضل الموديلات فسأسهل عليك التوصل إلى صفقة رابحة بوضع علاوة على الثياب، إذ رغم بساطتي التي أبدو عليها الآن إلا أنني أمتلك أفضل المتاجر المؤثثة في فيرافيتشي، وهو على مقربة من السوق. وحق العذراء! هذه ليست يقطينة التي تعلو منكبي. لكنني لا أتحمل البقاء مسجوناً في متجري طوال اليوم: لدي زوجة وفم شره ما يحملني على البقاء في البيت والعناية بالقطيع. Chi abbaratta – baratta – b’ratta? والآن، يا صاح، من أين أنت، وما بغيتك في فلورانسة ".

قال الغريب: " اعتقدت أنك لا تحب أي شيء إذا لم تكن فيه صفقة. لم تقدم لي إلى الآن شيئاً مقابل تلك المعلومات ".

" حسن، حسن، لا يجد الفلورانسي بأساً من عرض سعر مغر مقابل معلومات: قد يهضم ذلك قليلاً رغم أنه قد لا يفوز بجورب مقابل ذلك (10) إذا قدتك إلى أجمل الفتيات في السوق (الميركاتو) لتشرب كوباً من الحليب – فهذه ستكون صفقة رابحة".

"لا، بإمكاني العثور عليها بنفسي إذا كانت حقاً في الميركاتو، إذ أن الرؤوس المليحة ميالة إلى البروز من الأبواب والنوافذ. لا، لا.

أضف إلى أن تاجراً خبيراً مثلك يجب أن يعرف أن من يساوم على ثمرات جوز ومعلومات فقد يتفق أن يجدها فارغة ".

قال براتي وهو ينظر من زاوية عينه نظرة تنمّ عن بعض الإعجاب: " آه! يا صاح، لم تولد من يوم أحد – فقد كانت متاجر الملح مفتوحة عندما جئت إلى هذا العالم. أنت لست عبرياً، إه؟ – من إسبانيا أو نابولي، إه؟ دعني أخبرك أن الفراتي مينيوري يحاولون أن يجعلوا فلورانسة حارّة جداً كما إسبانيا بالنسبة لكلاب جهنم أولئك الذين يرغبون في الحصول على كل مرابح الربا لأنفسهم دون أن يتركوا شيئاً للمسيحيين. وعندما تتمشى على الكاليمارا وقماشة صفراء في قبعتك فإن هذا سيفسد جمالك أكثر من شَرطة سيفٍ على وجنتك الناعمة الزيتونية اللون تلك. Abbaratta,baratta- chi abbaratta? أصدقك القول، يا صاح، الثوب الرمادي يقف على النقيض من الثوب الأصفر (11) وهناك في فلورانسة من كمية الثياب الرمادية ما يخيط ثوباً وقلنسوة تكفي كنيسة بحالها، ومن القماش الأصفر ما لا يكفي لخياطة سروال لسان كريستوفر – فليبارك الله اسمه، وليته يدعني ألمح طرفاً منه هذا اليوم! – Abbaratta,baratta-b’ratta - chi abbaratta?"

قال الغريب بنوع من الازدراء: " كل هذه المعلومات التي تتخلى عنها دون مقابل هي معلومات مسلية جداً. لكن من دواعي المصادفة أنها لا تعنيني، أنا لست عبرياً ".

قال براتي مزهواً بالانتصار: " أرأيت، الآن! لقد عقدت صفقة

رابحة من مجردكلمات. لقد حملتك على أن تقول لي شيئاً، يا صاح، رغم أن إمساكك صعب كالحنكليس. فليتمجّد سان جيوفاني! فلورانسي كفيف يضاهي اثنين بعين واحدة. لكن ها قد وصلنا إلى الميركاتو ".

في هذه الأثناء كانا قد خرجا من الشوارع الضيقة إلى الساحة الفسيحة، والمعروفة بالنسبة للكتاب الفلورانسيين الأكبر سناً بالميركاتو فيتشيو، أو السوق القديم. ورغم أن هذه الساحة كانت مكاناً لسوق التموين منذ الأزل، وربما، كما يقول الخيال المتيم، هو المكان عينه الذي هبط إليه الأسلاف الفيسوليون للفلورانسيين(12) بسرعة كبيرة عند اتّجارهم مع الريفيين في الوادي، فلم يتجنّب الفلورانسيون الأثرياء الإقامة فيه. وفي العقود الأولى للقرن الخامس عشر، والذي أوشك الآن على نهايته، ابتنت عائلة ميديتشي والعوائل القوية الأخرى من طبقة النبلاء التجاريين مساكنهم هناك، دون أن تتأذى، على الأرجح، أسماعهم بالضجة المتعالية لاختلاط اللكنات، أو أبصارهم بأكشاك الجزارين التي يعتبرها الشاعر القديم أنطونيو بوتشي(13) أبهة ما بعدها أبهة لسوق غطى، حسب تقديره، على كل الأسواق في المنطقة المجاورة. لكن أبهة لحم الضأن والعجل (الثابت بعد حسن اختبار أنه لحم الحيوانات الملائمة، إذ ألم تلق الجلود والرؤوس معلقة بها حسن العرض، حسب مرسوم السينوريا؟) كانت هي بالذات المفقودة من السوق الآن، فوقت الصوم الكبير لما ينته بعد. ذلك أن شركة، أو " نقابة " (14) الجزارين الفخورة كانت في عطلة مؤقتة، وكان موسم القطاف الكبير بالنسبة لزارعي الخضر والفواكه، وتجار الجبنة، وبائعي

المعكرونـة، والقمـح، والبـيض، والحليـب، والفواكـه المجففـة: تبـدل كـان كافياً ليجعل صوت النسوة يعلو في الجوقة، لكن في كل المواسم كانت هناك دائما الجلبة المتسمة بالخبرة لقرع الطناجر والمقالي، وخشخشة صراف العملات، والعروض المغرية برخص الأسعار في أكشاك البالة، وتحدي ضاربي النرد، وتبجح الأقمشة الكتانية والصوفية، والمصنوعات الخشـبية الممتـازة، والغلايـات، والمقـالي. كـان هنـاك اختنـاق المنافذ الضيقة بالبغال والعربات، إلى جانب الكثير من الاحتجاجات الفظة في شكل عبارات تشابه بشكل لافت عبارات التحقير الدارجة على لسان الجـنس النـاعم فـي يومنـا هـذا، فـي ظـل الظـروف السـاخنة عينهـا. السيدات والسادة الذين وفدوا إلى السوق تسنت لهم فرصة مراقبة قدر من الاقتتال الأخرق أكبر مما أمكن مشاهدته بسهولة في هذه الأزمنة الأخيرة، ورأوا من الثياب العتيقة، والشحاذين، والأوغاد المتمردين أكثر مما يستطيع أرباب البيوت الحديثة تصوره. ومع تصرّم النهار يمكن رؤية دراما نادي القمار الشنيعة هنا من قبل أي مشاهد يتفق مروره فـي الخـارج – التـوق المتـأرجح، اليـأس الخـاوي، التنهـدات، الشـتائم، واللكمات:

“E vedesi chi perde con gran soffi
E bestimmiar colla mano alla mascella,
E ricever e dar di molti ingoffi " (15)

لكن رغم ذلك فقد يتأتى ارتياح من مناظر أجمل: كانت هناك صغار الأرانب، لا يقللن براءة ودهشة عن أرانب حقبتنا، وكان هناك

حمام وعصافير شادية تشرى كهدايا للأطفال، بل وكان هناك قطيطات صغار للبيع، وهنا وهناك "هر " جميل يتمتع بأسمى الخصال لصيد الفئران، وقبل كل شيء وأحسن منه، كنت ترى الوجنات الشابة المدورة بنعومة والأعين البراقة التي اكتسبت نضرتها من الانطلاق من castello (16) (القرية المسورة) النائية عند انبلاج الفجر، ناهيك عن وجوه الأكبر سناً ذوات الفتنة التي لا تخبو، فتنة حسن النية الشريفة، من تلك التي لا تعدمها أبداً مشاهد الصنعة البشرية. وكان ينتصب على عمود عال وسط المكان – عمود موقّر أحضر من كنيسة سان جيوفاني – تمثال دوناتيللو الحجري من بلينتي (17)، وبجانبه نافورة ماء، حيث كانت الزوجات الطيبات في السوق، يقول بوتشي العجوز ،يجدّدن رونق أوانيهن، وأيضا حلوقهن، ليس لعدم قدرتهن على شراء الخمر، بل لرغبتهن في توفير المال لأزواجهن.

لكن في هذا الصباح الخاص طرأ تغيّر على مظهر السوق. فال deschi، أو الأكشاك، قد عمرت في الواقع جزئياً بمختلف السلع، وكان المشترون قد احتشدوا من قبل، متوفزين لتأمين أحلى الخضر وأينعها والزبدة التي لا تضاهى. لكن عندما دخل براتي وزميله الساحة ظهر أن الانشغال العام قد شتت لتلك اللحظة انتباه كل من المشترين والبائعين عن عملهم المناسب. فمعظم التجار أداروا ظهورهم لسلعهم، وانضموا لشلل المتكلمين الذين اتخذوا مراكزهم في نقاط شتى من الساحة. وكان بائع بالة في محاولته تعليق زوج من السراويل الطويلة لعرضها، قد علّقها في تشتت للذهن حول رقبته في غمرة لهفته

للانضمام إلى المجموعة الأقرب إليه، وكان تاجر أجبان مفوه وبيده قطعة جبن في يد وسكين في الأخرى يعلّق تعليقات خرقاء عندما يتوقف لتأكيد حجته على ذلك النوع الممتاز من جبنة marzolino (18)، ونساء السوق الكبار في السن، ومعهن سلال البيض يملنها بشكل خطر كن يشاركن بتوليفة دعوات نادبة.

في غمرة هذا التشتت العام رأى الأولاد الفلورانسيون الذين لم يفتهم أي مشهد في الشارع، وكانوا من ذوي الطباع السيئة – كما يذهب القول سرطانات حرّيفة فعلاً – رأوا فرصة سانحة. فبعضهم اندفع إلى ثمرات الجوز والتين المجفف، بينما آثر آخرون لذائذ المعجنات في أكشاك المواد المطهوة – أطعمة لذيذة تشممها بأنوف مميزة بعض ذوات القوائم الأربع من الكلاب التي تعلمت أن تقصد بكل لطف معرض الصوم الكبير،، ومن ثم اختفت بكثير من العجلة تحت أقرب مخبأ، بينما كانت البغال، دون أن تعدم بعض الرفس ودس الأنوف بين السلال المعترضة، تمد خطومها صوب لب الثمار الأخضر العطري.

"ديافولو! " قال براتي، عندما اقترب هو وزميله دون أن يفطن إليهما أحد من هذا المشهد الصاخب، " لقد حل بالسوق ذلك السعير كما لو أن الآب المقدس قد أصدر مرة أخرى حرماناً كنسياً بحقنا. يجب أن أعلم حقيقة هذا. لكن لا تخش أبداً: سيبدو أن أمامك ألف عام قبل أن ترى تيسّا الجميلة وتحصل على كوبك من الحليب، لكن حافظ على الإمساك بي وسألتزم بصفقتي. لا تنس، ستكون المزايدة

الأولى على بدلتك من نصيبي، ولا سيما السروال الضّيق، والذي رغم كل اتساخه هو أفضل panno di garbo(19) (ثياب على الموضة) – جيد رغم ما لحقه من ضرر بفعل الطين واللطخ من الجو الخارجي ".

" أولا، مونا تريتشا "، قال براتي وهو ينعطف صوب امرأة عجوز تقف على طرف المجموعة الأقرب، والتي كانت قد توقفت في هذه الأثناء عن العويل لتصغي. وبعد أن صرخ مباشرة في أذنها:" هاهي البغال ترفس كل باقاتك من البقدونس: هل هي القيامة، إذن؟"

" مونا تريتشا "(وتعني " السيدة بائعة الخضر ") استدارت عند سماعها هذا الزعيق المفاجئ في أذنها اليمنى، بنظرة نصف حانقة، نصف مشوشة، أولاً نحو المتكلم، ثم إلى سلعها المبعثرة، ثم إلى المتكلم ثانية.

" فصح سيئ وعام سيئ لك، والله يميتك بضربة سيف!" صاحت وهي تعدو صوب كشكها، لكن مصوّبة هذه الرشقة الأولى من سخطها إلى براتي الذي، دون أن يعير اهتماماً للعناتها، انسل بهدوء إلى داخل المكان على مسافة يسمع منها الرواية التي كانت تستحوذ على اهتمامها مشيراً في الوقت ذاته للغريب الشاب أن يبقى بجانبه.

قال رجل بدين في يده رزمة كرّاث اشتراها للتو: " اسمعوا لقد شاهدته بنفسي. فقد كنت في سانتا ماريا نوفيلا وشاهدت ذلك بنفسي. فجأة قفزت المرأة وفتحت ذراعيها وصرخت قائلة إنها شاهدت ثوراً ضخماً بقرون من نار نازلاً على الكنيسة ليسحقها. شاهدت ذلك بأم

عيني ".

" شاهدت ماذا، يا غورو؟ " قال رجل نحيل البنية تبرق عينه كوغد. كان يرتدي سترة ضيقة دون أكمام، ويعتمر فوق أذنه اليسرى بدون ترتيب قبعة رأس كما لو أنها سقطت عليه بالمصادفة، ومئزراً كتانياً ناعماً طوي للأعلى على جنبه، وفي حزامه دس موسى. " شاهدت الثور، أو المرأة فحسب؟"

" ياه، المرأة دون ريب. لكن ما الفرق، (20) mi pare، لا يغير في المعنى شيئاً – امض!" أجاب البدين بنوع من الازدراء.

" المعنى؟ لا، لا. هذا واضح كفاية "، انطلقت عدة أصوات سوية، ثم تلا ذلك بلبلة ألسن فيها " كانت الشهب تلمع فوق سان لورينزو لثلاث ليال دون توقف " – قصف رعد في تلألؤ نجمي صاف "– "سراج الكنيسة ضرب بسيف سان ميشيل ! – "palle(21)"– كل هذا سُحق – " أُسُود تمزق بعضها إرباً إرباً إرباً "– " آه! وكادوا أن – "Boto caduto in Santissima Nunziata!(22)" – مات كأفضل مسيحي "– كان الله سيعفو عنه " – كل هذه العبارات تكررت مراراً، وكانت تقذف متقاطعة مع بعضها مثل بَرَدٍ مسوق بالعاصفة، وكل متكلم يشعر بضرورة قذف عباراته أكثر من أن يكترث بإيجاد مستمع له. ولعل الصامتين الوحيدين في الجمع كانوا براتي الذي – لكونه وافداً جديداً –كان مشغولاً بلملمة شعث العبارات المتطايرة، والرجل صاحب الموسى، وشخصاً يضع نظارتين على عينيه رقيق الشفتين ينظر بفضول، ويتمنطق بمحفظة من قلم وحبر.

"Ebbene (23) "، قال براتي محاذياً الجمع حتى أصبح من الحلاق على مرمى السمع. " يبدو أن العظيم قد قضى – الرحمة على روحه!– وسترتفع أسعار الشمع؟"

أجاب نيلّو:" حتى وإن كنت مصيباً ". ثم أضاف بمزيد من الجدية لكن بسرعة فائقة، " وصورته الشمعية في نونزياتا هَوَت في اللحظة نفسها، كما يقولون. أو في وقت آخر، كلما يرضي ذلك الـ Frati Serviti(24)، وهم خير من يعرف. وعديد من البقرات والنساء ولدن عجولاً ميتة هذا الموسم، وعن البيض الفاسد الذي انكسر منذ الكرنفال، دون أن يعدده أحد. آه! إنسان عظيم – سياسي عظيم – شاعر أعظم من دانتي. ورغم ذلك فلم تسقط القبة، فقط السراج. Che miracolo!(25) (يا للأعجوبة!)

وفجأة انطلقت عبارة حادة وطويلة " بست! " بين هذه العاصفة من انقذاف الكلمات من الحلوق. فقد ندّت عن الرجل الشاحب ذي النظارتين، ووقعت من الجمع الموقع الذي قصده، ذلك أن الضجة هدأت، وكل الأعين في الجمع كانت مسمّرة عليه بنظرة ترقّب.

بدأ بصوت مرتفع حاد:" حسن ما قيل أنتم معشر الفلورانسيين عميٌ. يبدو لي أنكم لستم بحاجة سوى إلى طعام من التبن لتصيروا ماشية. ماذا! أتحسبون أن موت لورينزو هو المحرقة التي أعدها الله لفلورانسة؟ هيا! إن أنتم إلا عصافير دوري تبربر بالمديح فوق الباشق الميت. ماذا! إنسان كان يحاول أن يرمي بأنشوطة لتلتف حول كل عنق في الجمهورية على أمل أن يشدها عندما يشاء! أنتم تحبون ذلك،

تحبـون أن يتحـول انتخـاب حكـامكم إلــى عمـل سـري، ومـا مـن أحـد يسـتعمل حق المواطنيـة مـا لـم يكـن ميديتشـياً. هـذا هـو المقصـود الآن بالتأهل:(26) netto di specchio لم تعد تعني أن يدفع الشخص مسـتحقاته إلــى الجمهوريــة: تعنــي أن يشـيح ببصـره عـن سـرقة أمـوال الشـعب – سـرقة مهـر زواج بنـاتهم، أن يلعـب علـى التـوالي دور رئـيس الهيئة التشريعية والفيلسوف – اصغوا إلى الأناشيد الداعرة في الكرنفال وصيحوا " بيليسيمي! " –Bellissimi واصغوا إلى التقريظات المقدسة وصـيحوا ثانيـة " بيليسـيمي " لكـن هـذا مـا يسـتهويكم: فـأنتم تغمغمـون وتفتعلون الشغب على قروشكم البيضاء

(quattrini bianchi)، لكنكم لا تأبهون عندما ينفتح ثقب أسفل الخزينة العامة كي يتسرب الذهب إلى داخل بلاليع لورينزو. أنتم يستهويكم أن تكتروا تبّعاً ليسيروا أمام وخلف أحد مواطنيكم عسى أن يكون باشّاً ومتواضعاً معكم. تقولون:" انظروا أي رجل بيزاي (نسبة إلى بيزا–م) طويل القامة لدينا، كي نسير أمامه وفي أعيننا يبرق السيف المجرّد! – ورغم ذلك فلورينزو يتبسم لنا. يا للسماء!" وتحسبون أن موت إنسان، كان سيسرجكم حالا ويلجمكم مثلما سرجت الـ Sforza (اسم عائلة –م) ولجمت ميلانو (27).

تحسبون أن موته هو نذير محرقة الله لكم. الحق أقول لكم يلوح في الجو نوع آخر من المحارق ".

قال نيلو: " لا، لا، سيد سيوني، ابق علومك السياسية منفرجة الساقين، ولا تمتط أبدا نبوءتك. فالسياسة هي الجواد الأمثل. لكن إذا

كنت تتحدث عن الوعيد، فأي وعيد يمكن أن يكون أفدح من كاتب عدل تقي؟ لم يكن جحش بلعام ليساوي شيئاً تجاهه"(28)

قال متفرج آخر رث الملابس جداً: " آي، لكن كاتب عدل عاطل عن العمل ومحبرته جفّ مدادها. خير لك أن ترتدي قلنسوة على الفور، يا سيد سيوني. الجميع سيؤمنون بصيامك ".

استدار كاتب العدل وانصرف عن الجمع تعلو محياه نظرة ازدراء وحنق، مبيناً، عند استدارته، وجهاً ممتقعاً لكن لطيفاً لرجل قصير القامة كان يقف خلفه يعلوه منكبان مقوسان يشيان بأنه صاحب مهنة جليسة.

قال شاري الكرّاث البدين وعليه سيماء رجل فقد الإيمان بنظرياته: " وحق سان جيوفاني، رغم ذلك فلست متأكداً من أن ما يقوله سير سيوني لا ينطوي على بعض الصدق. ذلك أنني أعرف أنني أملك سبباً وجيهاً عندما أنتقد القروش البيضاء. غمغمة، قال هو؟ اختناق! أحسبني أننا نحن نغمغم فعلاً. ولينطق أيٌ من كان بالكلمة. سأخرج إلى الساحة على الفور، بأسرع من تبدل نقودنا في أيدينا كما لو أن الهيئة الحاكمة أو القاضية كانت كثرة من مستحضري الأرواح. وصحيح أن لورينزو ربما كان أعاق مثل هذا العمل لو أراد – أما بالنسبة للثور ذي القرون النارية، فلا عجب، كما يقول سير سيوني، فقد تكون قصة حبلى بالمعاني، من ناحية تلك المسألة. قد يكون لها علاقة أكبر مما نعتقد بالضرائب. إذ لمّا يرسل الله في الأعالي إشارة فليس من المفروض أن يُعتقَد أنه يقصد معنى واحداً فحسب ".

قال الحلّاق: " تتحدث كالواعظ، يا غورو! ما العجب، عندما يمكننا نحن البشر المساكين أن نحشر في جملة واحدة معنيين أو ثلاثة فسيكون تجديفاً خالصاً ألا نعتقد بأن ثوركم العجائبي يعني كل شيء قد يرغب أي شخص في فلورانسة أن يعنيه ".

قال الرجل ممتقع الوجه، مستدير المنكبين، بعد أن لم يعد كاتب العدل يحجبه عن البصر: " أنت تحب الهزء، يا نيلّو. لكن يبقى مع ذلك صحيحاً أن كل وحي، سواء عن طريق الرؤى، أو الأحلام، أو نذر الوعيد، أو الكلمة المكتوبة، له معان كثيرة،لا تعطى إلا للمتنورين لفك معانيها".

أجاب نيلو: " مؤكد، ألم أذهب لسماع الأخ الراهب في سان لورينزو؟ لكنني عندئذ ذهبت لأستمع للأخ مينيكو في الكنيسة أيضاً. ووفقاً له، فإن راهبكم جيرولامو، بما له من رؤىً وتفسيرات، يجري مع ريح مونجيبيللو، وأولئك الذين يتبعونه من المحتمل أن يلاقوا مصير بعض الخنازير التي قفزت مباشرة في البحر – أو مكان أكثر حرارة. ومع سان دومينيكو يصرخ في أذن واحدة è vero (صحيح – م)، وسان فرانسيسكو يصرخ è falso (كذب – م)في الأذن الأخرى، ماذا سيفعل حلاق مسكين – ما لم يهبط عليه الوحي؟ (29) لكن الواضح أن صاحبنا غورو هنا قد بدأ ينزل عليه الوحي ذلك لأنه قد شرع يرى أن الثور ذا القرون النارية يعني، أولاً، هو، وثانياً جميع دافعي الضرائب الآخرين المظلومين في فلورانسة، العازمين على أن ينطحوا الهيئة الحاكمة عند أول سانحة ".

" إن غورو لأحمق! " قال صوت جهوري ذو رنة وقعت على الأسماع كجرس عظيم وسط قرعٍ جمّ. " دعوه يحمل كرّاثه إلى بيته ويهز خاصرتيه عند ما يدق الصوف. على هذا النحو سيصلح الأمور بشكل أفضل من أن يعرض بدنه البرميلي في الساحة كما لو أن كل شخص سيقيس مظالمه على أساس حجم كرشه. إن الأعباء التي تلحق أكبر أذى به هي جثته الضخمة وتبطّله ".

كان المتكلم قد انضم إلى الجمع لحظة سماعه نهاية كلام نيلّو، لكنه كان أحد أولئك الناس الذين يفسح العالم بأجمعه لهم الطريق بالفطرة، كما يفسح أمام مدك حصون قارع. لم يكن أطول من إنسان متوسط القامة، لكن انطباع القوة الهائلة الذي أوحى به صدره العريض وذراعاه القويتان العاريتان حتى الكتف، قد تعمّق بالإحساس المرهف والتصميم الهادئ اللذين نمّت عنهما نظرته وكل خط على وجنته وجبينه. كان في أحيان كثيرة موديلاً لا شعورياً للدومينيكو جيرلاندايو (30) عندما كان ذلك الرسام العظيم يجعل جدران الكنائس تعكس حياة فلورانسة، ويترجم التقاليد الخيالية الشاحبة إلى اللون العميق والخطوط القوية في الوجوه التي عرفها. وقد اكتسبت المسحة الداكنة بالطبيعة في لون بشرته أثراً برونزياً إضافياً بفعل التوضع الذروري نفسه الذي أضفى سطحاً أسود لماعاً على مئزره الجلدي: توضّع ربما جعلته العادة شرطاً لازباً للسهولة التامة، ذلك لأنه لم تتم إزالته من مكانه بفعل انتظام مفرط في الدقة.

مال غورو بوجنته السمينة وعينه الكامدة صوب المتكلم

الصريح وعلى محياه نظرة تنمّ عن الاحتقار أكثر من الغضب.

قال بصوت ينمّ عن الشعور بالأذى : " ياه، يا نيقولو، لقد سمعتك تغني غير هذا اللحن، وغالباً مراراً كثيرة عندما كنت ترسي أساس القانون في سان غالو (31) في يوم العيد. لقد سمعتك تقول بنفسك إن الإنسان ليس دولاب طاحونة، يواصل السحق، طالما أنه مسوق بدافع ما، ومن ثم يلزم مكانه دون حراك عندما يقلّ دفع الماء. وإنك لمغرم بصوتك الانتخابي كما أي إنسان في فلورانسة – أجل، وسمعتك تقول، إذا كان لورينزو –

قال نيقولو: " أجل، أجل. لا تستخرج كلماتي ثانية بعد أن التهمتها، وتجريها على الملأ كما لو أنها هي الأسوأ. أنا أدلي بصوتي وأنا أتكلم عندما يكون هناك جدوى: إذا وجد معدن حام على السندان فإنني لا أدخر جهداً كي أضرب، لكنني لا أقضي وقتاً طويلاً في الطنطنة على حديد بارد، أو في الوقوف على الرصيف كما أنت تفعل، يا غورو، ومناخيرك للأعلى، مثل خنزير تحت شجرة بلوط. أما بالنسبة للورينزو – كميت وكشخص قضى قبل أوانه – فقد كان رجلاً صبّ اهتمامه على عمل الحدادة المثير للفضول، وإذا قال أي إنسان إنه يرغب في أن يجعل من نفسه طاغية، فإنني أقول، " سيا "(32)، لن أمتنع عن القول في أية جهة تهب الريح عندما يستطيع الجميع رؤية ديك الريح (أداة الاستدلال على جهة الريح– م) ". لكن هذا لا يعني سوى أن لورينزو كان باشقاً ذا عرف، وهناك الكثير من البواشق دونما عرف لكن مخالبها ومناقيرها لا تقل مضاء في تمزيق الفريسة. برغم

أنــه عنــد تــوافر أيــة فرصــة للإصــلاح الحقيقــي بشــكل يتــاح معــه لمارزوتشو(33) أن يهز شعر رقبته (لبدته) ويصيح ثانية، بدلا من أن يطأطئ برأسه ليلعق قدمي أي شخص على استعداد ليمتطيه، فستكون ضربتي محكمة. "

قال الرجل ذو الوجه الدمث الأصفر مغتنماً الفرصة مثل مبشّر وسط وثنيين ليس في رؤوسهم شيء: " وذلك الإصلاح ليس بعيداً، يا نيقولو، ذلك لأن زمن المحن آت، والمحرقة على الأبواب. وعندما تتطهر الكنيسة من كاردينالاتها وأسقفييها الذين يتاجرون بتركتها حتى تمتلئ أيديهم بثمن الدم ويشبعوا شهواتهم، فإن الدولة ستتطهر أيضا – وفلورانسة ستتطهر من أولئك الذين يحبون أن يروا الطمع والفسق تحت القلنسوة والقبعة الحمراء لأنها توفّر لهم ستارة لشر مستطير يفوق شرورهم ".

قال نيلّو: " نعم، مثلما أن جثة غورو العريضة ستوفر ستاراً لجسمي النحيل عند اشتداد القصف، لكن إذا ما اتفق ووقع ذلك الستار فسأختنق تحته، دون شك. هذه الصورة ليست تمسك بسوء، يا ناني – كما لن تمس بالأحرى الراهب، ذلك لأني أتخيل أنه لا يوجد حيّز في ذلك الفنجان الصغير، فنجان فهمك، لأي مشروب روحي آخر أكثر مما يسكبه هو فيه ".

أجاب ناني:" وسيكون من حسن حظك، يا نيلّو، إذا تمكنت من أن تفرّغ نفسك من نكاتك ومزاحك وتستوعب ذلك المشروب أيضاً. فالتحذير يقرع أسماع كل الناس: وهي ليست بالقصة الجديدة، ذلك أن

أبوت جواشيم تنبّأ بالآتي من الزمان لثلاثمائة سنة خلت (34)، والآن فقد تلقّى الأخ الراهب جيرولامو الرسالة من جديد. لقد عرضت له في رؤيا، حتى كما عرضت للأنبياء في قديم الزمان: رأى السيف معلّقاً ومتدلياً من السماء".

" اجل، وأنت سترى ذلك بنفسك، يا ناني، إذا ما حدّقت ببصرك للأعلى مدة كافية، ذلك لأن عمل الخياطة الذي تقوم بممارسته والذي يدعو للرثاء يجعل رأسك يتدلّى فوق ساقيك، مما لا يتيح

لكرتي عينيك أن تريا فوق لوحة الدرز سوى سطح جمجمتك ".

تحمّل الخيّاط الشريف الهزء دون إحساس بالمرارة، فقد ركز على إقناع مستمعيه بعقيدته أكثر من كرامته. لكن نيقولو لم يوفر له فرصة الجواب، إذ استدار لمتابعة عمله في السوق، فلعله اعتقد أن مزيداً من الحوار كان أشبه بالقرقعة على حديد بارد.

قال الرجل الذي يلف عنقه السروال، والذي انفضّ مؤخراً عن شلّة أخرى من الثرثارين: " إيبيني، إنهم في حرز أمين أولاء الذين يرسمون إشارة الصليب ولا يهزؤون بأي كان. أتدري أن المعظّم أرسل يطلب الأخ الراهب، ولم يقو على أن يفارق الحياة دون أخذ بركته؟"

قال العديد بصوت واحد: " صحيح – أحقاً؟" " أجل، أجل – سيكون الله قد سامحه " " لقد توفي كأفضل المسيحيين " " لم يبعد نظره عن الصليب المقدّس ".

" والأخ الراهب سيكون أعطاه بركته؟"

قال صاحب السروال:" حسن، لست أعرف أكثر من هذا. فقط غونتشيو التقى تابعاً هناك عائداً إلى كاريجي، وهو قال له إن الأخ الراهب قد أُرسل الليلة الفائتة (35) بعد أن اعترف المعظّم وتناول القربان المقدس ".

قال غورو: "من المحتمل جداً أن الأخ الراهب سيخبر القوم شيئاً ما عن ذلك في موعظته هذا الصباح، ألا توافقني على ذلك يا ناني، ما رأيك؟ "

لكن ناني كان قد أدار ظهره لغورو، وسرعان ما تفرّق الجمع، بعضهم يدفعهم دافع الذهاب وسماع " أشياء جديدة " من الأخ الراهب (" أشياء جديدة " كانت بلسم الفورانسيين)، والآخرون يدفعهم الإحساس بأن الوقت قد حان لتدبر أمورهم الخاصة. في هذا التحرك العام كان براتي قد اقترب إلى مكان وقوف الحلاق، وقال –

" نيلّو، إن لسانك جاهز دائماً، وأنت متعوّد على انتزاع الأسرار من الناس بالحيلة عندما " ترغي صابونتك " عليهم جيداً. لقد صادفت غريباً هذا الصباح بينما كنت آتياً من روفيزانو، ولست أستطيع أن أهجي اسمه بأفضل مما أستطيع تهجئة تلك الحروف على المنديل الذي اشتريته من الفارس الفرنسي. ليس الذنب ذنب قوتي على الحدس، – لا أريد شخصاً لمساعدتي على التمييز بين البازلاء وحبّات سبحة الصلاة، – لكن عندما تكون أمامك الأزياء الأجنبية فقد يتفق أن يعرف الأحمق أكثر من الحكيم ".

قال نيلّو: " أجل، أنت لديك حكمة ميداس، الذي كان بمقدوره

أن يحيل مزق الثياب والمسامير الصدئة إلى ذهب، حتى كما تفعل أنت. وكان يحتاز أيضاً على بعض صفات الحمار في شخصه. إنما أين هو عصفورك ذو الريش الغريب؟"

كان براتي يتطلع حواليه، وعليه مسحة من خيبة الأمل.

قال ببعض تذمّر:" ياللشيطان، لقد طار العصفور، صحيح أنه كان مسغباً، وأنا نسيته. لكننا سنعثر عليه في السوق، ضمن مرمى رائحة الخبز والتوابل. سأحاسَب عنه ".

قال نيلّو: "دعنا نقم بجولتنا على السوق، إذن ".

تابع براتي حديثه وهما يشقان طريقهما معاً: "ليس ريشه هو الذي يحيّرني. ليس هناك الكثير من العرقلة في طريقة قص الثياب وتفصيلها في هذا الجانب من الضريح المقدس مما يمكن أن يحيّر الفلورانسي".

قال نيلّو:" أو يخيفه أيضاً بعد أن قد رأى إنكليزياً أو ألمانياً ".

قال براتي بشكل ودّي : " لا، لا، آمل ألا تختفي القبّة عن رؤية المرء ويبقى، مع ذلك،يعرف العالم.أضف إلى أن ثياب هذا الغريب هي من بضاعة إيطالية ممتازة، والسروال الذي يلبسه قد صبغت كلها في أوغنيسانتي (36) قبل أن تصبغ قط بالماء المالح، كما يقول. لكن اللغز بشأنه هو أنه – "

وهنا قوطع شرح براتي بتدافع من الناس عند وصولهما إلى أحد مداخل الساحة، وقبل أن يستطيع استئناف الشرح لمحا ذلك الشيء الملغز الذي كانا جادّين في اقتفاء أثره.

الفصل الثاني

إفطار لقاءَ الحب

بعد أن انضمّ براتي إلى شلّة الثرثارين، سرعان ما سئم الشاب الغريب، الذي فقد الأمل في معرفة سبب الفوضى العامة، والذي لم يكترث لمعرفة الشيء الذي لا يهمّ في القليل إلا الفلورانسي بالمولد، سرعان ما سئم انتظار الذهاب بصحبة براتي. وقد آثر أن يتمشى في أرجاء الساحة بحثاً عن بائع مأكولات ممن قد يتفق أن يكون فضوله لتشمم الأخبار العامة أقل من المتوسط. لكنه، وكما بإيحاء من خاطرٍ فَجَأَه، دسّ يده داخل جزدان أو محفظة كانت متدلية من وسطه وبحث فيها ثانية وثالثة بسحنة تشي بالإحباط.

تمتم بلغة لم تكن لا توسكانية ولا إيطالية: " ولا أوبول (1)، وحق جوبيتر! كنت إخال أن بنساً تعيساً قد بقي. يجب أن أتناول إفطاري لقاء الحب، إذن! "

لم يكد يقطع بضع خطوات حتى خيّل إليه أنه وجد ناحية من السوق لن يتم فيها رفض طريقة المقايضة هذه.

وفي ركن، بعيداً عن أية جمهرة ثرثارين، كان اثنان من البغال يقفان وقد حسنت زينتهما من الشراشيب والياقات. كان أحدهما يحمل أواني حليب خشبية، والآخر زوجاً من السلال (خرجاً بالعامية) مملوءاً بالأعشاب والخضر. وكانت صبيّة لم تكد تتجاوز، كما بدا، الستة عشر ربيعاً تستند بمرفقها إلى رقبة البغل الحامل للحليب، ونقاب أحمر يلف وجهها، الذي بدا أقرب ما يكون إلى وجه طفلة وذلك بعد

أن أخفت شعرها بشكل كلي. ربما كانت الفتاة التعيسة تعبة من جرّاء كدحها منذ غرّة الفجر في غمرة تحضيرها لمشوارها إلى السوق من إحدى الدساكر على مبعدة ثلاثة أو أربعة أميال، ذلك لأنها بدت غافية وهي في تلك الوضعية نصف الواقفة، نصف المتكئة. ومع ذلك، لم يشعر صاحبنا الغريب بأي تبكيت للضمير عندما أوقظها، لكن الأسلوب الذي اختاره كان دمثاً جداً بشكل بدا للصبية وهي في حلمها كما لو أن عسلوجاً من الزعتر قد لامس شفتيها وقت كانت تنحني لجمع الأعشاب. على أن الحلم قد انقطع، إذ أنها فتحت عينيها الطفليتين الزرقاوين، واعترتها الجفلة التي خالطتها الدهشة والارتباك إما شاهدت الشاب الغريب يقف أمامها قريباً منها. سمعته يتحدث إليها بصوت بدا غريباً ولطيفاً جداً حتى إنه لو افترضنا أنها كانت أكثر انتباهاً لكانت أخذت على محمل البديهة أنه فاه بشيء كان عصياً على فهما بشكل كلي. وكانت أول حركة ندّت عنها أن أشاحت برأسها قليلاً ورفعت طرف ردنها الصوفي الأخضر لتستر وجهها. قال مكرّراً كلماته

–

" اعذريني، يا حسنائي، لإيقاظك من غفوتك. إنني أتضوّر جوعاً، وإن رائحة الحليب لتجعل الإفطار مرغوباً أكثر من أي وقت آخر ".

كان اختار الكلمات أتضوّر جوعاً بالإيطالية " muoio di fame " لأنه كان يعرف أنها ألفت سماعها، كما وأنه نطق بها بغنج، وبنغمة المستجدي. هذه المرة لقي تفهماً. أُنزل طرف الردن، وفي

بضع لحظات قُدّم له كوب كبير من الحليب الزكي الرائحة. لم يفه بمزيد من المجاملات قبل رفعه إلى شفتيه، وبينا هو يحتسيه وجدت الصبية الصغيرة من الشجاعة ما مكّنها من أن تلقي نظرة على الضفائر (2) السود الطويلة لهذا الغريب الفريد الصوت، والذي سأل طعاماً بلهجة شحّاذ، لكنه، رغم التمزق الذي لحق بثيابه، لم يكن يشبه أي شحاذ سبق لها أن رأته .

وبينما كانت عملية التفحّص هذه قائمة على قدم وساق سرى تيار آخر من الشعور حمل يدها إلى داخل كيس تدلى على أحد خاصرتي البغل، وعندما وضع الغريب كوبه شاهد قطعة كبيرة من الخبز تُدفع نحوه، وهنا لمح نظرة من العينين الزرقاوين بدا وكأن القصد منها تشجيعه على تناول هذه التقدمة الإضافية.

قال:" لكن ربما هذا هو فطورك أنت. لا، يكفي ما حصلت عليه مجاناً. ألف شكر، أيتها الفتاة اللطيفة ".

لم يرد أي جواب في شكل كلمات، لكن قطعة الخبز دُفعت أقرب إليه، كما لو كان بنفاد صبر من جرّاء امتناعه. وما إن استقرت عينا الغريب السوداوان الواسعتان على الوجه الطفلي حتى بدا أن الوجه قد استجمع الشجاعة شيئاً فشيئاً ما مكنّه من رفع البصر والنظر إليهما.

قال واضعاً يده عليها (القطعة):" آه، إذن، لا بد أن آخذ الخبز. سأتشجّع أكثر إذن وأطلب قبلة أخرى كي يصير الخبز أكثر حلاوة ".

أخذ كلامه يكتسب وضوحاً عجيباً بالرغم من الصوت الغريب الذي كاد يبدو أولاً كشيء يدفعها لرسم إشارة الصليب. احمرّت خجلاً ورفعت طرف ردنها إلى فمها مرة أخرى. لكن في اللحظة التي كان فيها الغريب الشديد التجرؤ ينحني للأمام ويصل بأصابعه إلى الذراع التي أمسكت بالردن الحاجب اعترته جفلة لصوت حاد صرخ في أذنه.

" من أنت – ليتك تبلى بطاعون؟ أجزم أنك لست بالشاري المحترم، لكن شحاذ فلوس – أو ما هو أسوأ. هيا! " اكرج " (بالعامية) وجد صحبة تلائمك أكثر، وإلا سمعت مني ما لا يرضيك".

رجع الشاب الغريب إلى الوراء ونظر إلى المتكلم نظرة ما يغيظ فيها أنها خلو من الضيق والاحتقار، وتعبيره الطفيف المتمثل في تسليته الوقحة استحال إلى ابتسامة عريضة مشرقة بينما أخذ يتفحّص شكل الشخص الذي هدده. كانت امرأة بدينة لكن مفتولة العضلات ينسدل على ردائها الصوفي سترة رجل ضيقة دون كمين، والغطاء المشرع للأعلى من ردن ولّى زمانه مربوط على وجهها المحروق بالشمس، والذي أبان، بكل ما فيه من غلظة وتجاعيد مبكّرة، شبهاً أمومياً للوجه الطفلي الناعم للصبية الصغيرة نصف مؤسٍ ونصف مسلٍ – من ذلك النوع من الشبه الذي ينطوي غالباً على نبوءة منذرة بالشر باعثة على الرجفة أكثر من أية جمجمة بشرية.

كان هناك شيء مستعطف بشكل لا يقاوم في تلك الابتسامة الشابة الساطعة، لكن مونا غيتا لم تكن امرأة تشي بأي ضعف، وواصلت الكلام بسخط بدا واضحاً أنه قد تفاقم.

" أجل، أجل، يمكنك أن تكشّر كالقرود الأخرى ذات القلنسوة والسترة الضيقة. أقسم، إنك إما مغنٍّ كوميدي أو مشعوذ. أنت تبدو لكل عين سخيفاً كما أي بهلوان عندما يكون مقلوب الجسم ثم يستوي واقفاً على رجليه. وأية ألاعيب خرقاء كنت تسعى وراءها، تيسا؟" أضافت وهي تلتفت إلى ابنتها، التي كان وجهها المذعور يوجه دعوة أكبر للشتم. " يبدو أنك وهبت الحليب والمأكولات. أجل، أجل، أنت ستحملين ماء في أذنيك لأي متشرد بطّال لم يرغب في أن ينحني لرفعه، أيتها الأرنب المحدّقة التافهة! أديري ظهرك، وارفعي الأعشاب من " الخرج "، وإلا جعلتك تتلين بضع صلوات مريمية دونما عدّ ".

قال الغريب بابتسامة تشي بالتوسّل: " لا، يا سيدتي. لا تغضبي من جميلتك تيسّا لشفقتها على جوّال جائع، وجد نفسه فجأة دون فلس. وجهك المليح يزداد ملاحة عندما تتجهمين، حتى إنني أشتهي أن أراه مضاءً بابتسامة ".

"Va,via"(3) أعلم من أية طينة أنت. لا بد من القول إنه يمكنك أن تدغدغني بتلك القشة لمدة طويلة قبل أن تحملني على الضحك . امض، فصح سيئ! وإلا رسمت وحمة أو وحمتين على وجهك هذا مما سيفسد تقبيلك على هذا الجانب في الآحاد الأربعة قبل الميلاد ".

بينما رفعت مونا غيتا مخالبها القوية في معرض تلبيتها المطلب الأول والأخير للفصاحة (4) كان براتي، الذي كان قدم منذ دقيقة أو اثنتين، يقول لزميله :" ما رأيك بهذا الببغاء الجميل، يا نيلّو؟

ألا يشتم من لسانه رائحة فينسيا (البندقية)؟

قال الحلاق بصوت منخفض يشبه الهمس:" لا يا براتي، حكمتك فيها الكثير من " الجحشنة "، كما كنت قلت لك لتوّي، ولا سيما فيما يخص أذنيك. هذا الغريب يوناني، وإلا أنا لست الحلاق الذي تولّى وحده دون شريك حلاقة ذقن الرائع ديميتريو (5)، وقلع أكثر من سن بائس من فكّه المثقف. ويمكن القول إن هذا الفتى قد قدم من الأولمب – على الأقل بعد أن تمس موساي ذقنه ".

تابع نيلّو حديثه، غير آسف لمشاهدة بعض التسلية " أورسو!(6) مونا غيتا! ما الذي حدث ليتسبب في تلك العاصفة الرعدية؟ هل كان هذا الشاب الغريب يسيء التصرف؟ "

قال براتي الحذر، والذي لم تهتز شكوكه الأصلية فيما يتعلق بصاحب المجوهرات الرث الثياب: " وحق سان جيوفاني! لقد كان مصيباً في هروبه مني، إذا كان ينوي التسبب في الأذى والمتاعب. أقسم أني عثرت عليه تحت اللوجيا دي سيرتشي وحول إصبعه خاتم مثل الذي رأيته حول إصبع برناردو روتشيللي نفسه. غير ذلك لا أعرف عنه ما يساوي قيمة مسمار صدئ ".

قال نيلو وهو يعاين الرجل الغريب بمزاج رائق: " الواقع أن هذا ال bello giovane(7) قد كان متجرئاً أكثر من اللازم في إبداء الإعجاب بمفاتن مونا غيتا، وحاول أن يقبلها بينما كانت ابنتها تدير ظهرها ناحية أخرى، ذلك أنني أرى أن تيسّا الجميلة منشغلة عن النظر إلى هذه الناحية في الوقت الحاضر. أليس هذا صحيحاً، يا سيد؟ "

ختم نيلو حديثه بلهجة مهذبة.

قال الغريب ضاحكاً: " لقد تنبأتَ بالإساءة التي حدثت مثلما يفعل العرّاف. إنما لم يسعفني الحظ على إيجاد مونا غيتا هنا في البداية، هذا كل شيء. وقد التمست كوباً من الحليب من ابنتها، وقبلت أعطية الخبز هذه، وكنت لقاء ذلك أعبر عن امتناني لها بطريقتي المتواضعة قبل أن يحصل لي الشرف الأسمى شرف لقيا هذه المفاتن الأكثر نضوجاً والتي ربما كنت متجاسراً بإفراط على إبداء الإعجاب بها ".

"Va,va!" (انصرفوا، انصرفوا!) جميعكم، وابقوا في المطهر إلى أن أدفع فدية إنقاذكم، هلاّ فعلتم؟" قالت مونا غيتا بعنف دافعة نيلو بمرفقها، وجاذبة بغلها للأمام حتى ترغم الغريب على الابتعاد عن الطريق. " تيسّا، أنت أيتها الغبية، قرّبي بغلك قليلاً للأمام: ستقحمنا العربة ".

بينما التفتت تيسّا للإمساك بلجام البغل ألقت نظرة خجلى على الغريب الذي كان يتحرك الآن مع نيلو مفسحاً المجال لعربة سوق مقتربة، وكانت النظرة من الطول بحيث كانت تكفي لتلتقط الإيماءة التي ندّت عن يده والتي أشارت إلى أنه كان ينتظر فرصة توديعها هذه.

" , Ebbene " قال براتي رافعاً صوته ليُسمع من الجانب الآخر للعربة " أتركك بمعيّة نيلو، أيها الشاب، إذ لا أرغب في دفع كيسي وسلتي أكثر من هذا،كما أن لدي عملاً في البيت. لكنك ستتذكر

الصفقة بيننا لأنك إن كنت وجدت تيسّا بدوني فهذه ليست غلطتي. سيريك نيلو متجري في الفيرافيتشي، ولن أدير لك ظهري ".

" ألف شكر، يا صديقي! "، قال الغريب باسماً ومن ثمّ انصرف مع نيلو سالكاً الشارع الضيّق الذي كان يفضي مباشرة إلى ساحة بيازا ديل دومو (ساحة الكنيسة).

الفصل الثالث

صالون الحلاقة

قال الرجل الغريب موجّهاً حديثه إلى نيلو وقد تخلّصا نوعاً ما من شربكة العربات والبغال: " الحقيقة، أنا لست آسفاً لأن أسلَّم من قبل راعيّ لشخص لهجته أقل بربرية وتجارته أقل إلغازاً. هل هو شيء دارج في أوساطكم معشر الفلورانسيين أن يتحدث بائع جوّال يتاجر بالزجاجيات المكسورة والخرق البالية عن متجر يبيع فيه الأعواد والسيوف؟"

" دارج؟ لا: براتي صاحبنا ليس شخصاً عادياً. عنده نظرية وهو يطبقها، وهذا يفوق ما يمكنني قوله عن أي فيلسوف تشرفت بحلاقة ذقنه "، أجاب نيلو الذي كانت ثرثرته أشبه بزجاجة طافحة لا تسمح أبداً بسكب جرعة صغيرة. وأضاف: " براتي يقصد أن ينتزع أكبر قدرٍ ممكن من الفرح، بمعنى، أكبر قدر من مساومة مضنية، من هذه الحياة، مختتماً ذلك بصفقة لعبور أسهل المجازات الممكنة عبر المطهر عن طريق وهب الكنيسة المقدسة مكتسباته عندما تنتهي اللعبة. لقد نجح في كتابة وصيته على هذا النحو وبأبخس الشروط التي يمكن اكتراء كاتبٍ بالعدل على أساسها. لكنني قلت له مراراً: " يا براتي، إن صفقتك عرجاء، وأنت على الطرف الأعرج منها. ألست تحزن وأنت تنظر إلى صور الجنة؟ لن يكون بمقدورك أبداً المساومة على الأسعار هناك، أسعار المزق البالية والمسامير الصدئة: فالقديسون والملائكة لا يرغبون لا في الدبابيس ولا في الصوفان،

بخلاف سان بارثولوميو، الذي يطوف بجلده بطريقة غير مريحة (1)، فلست أرى سانحة لأية صفقة على ثياب مستعملة ". أضاف نيلو مغيِّراً لهجته وراسماً إشارة الصليب: " لكن فليغفر لي الله، هذا الحديث الهازل لا يتلاءم مع صباح يرقد فيه لورينزو ميتاً، وربات الشعر تنتف شعورها – وهذه الفكرة دائماً مؤلمة جداً للحلاق، وأنت نفسك، يا سيدي، من المحتمل أن أمورك ليست كما تشتهي، ذلك أنه إذا كان شخص له حديثك وحضورك يشغل بكل أسف مأوى ليلياً على هذا النحو ينام فيه فإن المرء ليستنتج أن خطباً ما قد ألمّ به ".

" أي لورينزو تتحدث عن موته؟ " قال الغريب مبدياً تركيزاً شديداً قلقاً على هذه النقطة مما جعله لا ينتبه للاستفسار غير المباشر الذي أعقبها.

" أي لورينزو؟ لا يوجد سوى لورينزو واحد، على ما أعتقد، والذي يمكن أن يشيع نبأ موته اضطراباً وهياجاً في السوق، ويجعل مصباح ساحة الكنيسة يقفز يأساً، ويحمل أسود الجمهورية على الشعور بالحاجة الماسة ليلتهم أحدها الآخر. أقصد لورينزو دي ميديتشي , بيركليس أثينانا (2) – إذا كان يحق لي أن أهمس بهكذا مقارنة في أذن يوناني ".

قال الآخر ضاحكاً: " ولمَ لا؟ ذلك أنني أشك في أن أثينا، حتى أيام بركليس، كانت قادرة على إنجاب حلاق مثقف بهذا الشكل ".

قال نيلو المستعجل: " أجل، أجل. لم أعتقد أني كنت مخطئاً، وإلا كنت حلقت ذقن المبجّل ديميتريو كالكونديلا لغير ما هدف. لكن

اغفر لي، لقد استغرقتني الدهشة. إن إيطاليتك أفضل من إيطاليته رغم أنه عاش في إيطاليا لأربعين سنة – بل أفضل من إيطالية المهذّب مارولّو، الذي يمكن القول إنه تزوج بربة الشعر الإيطالية بأكثر من معنى ذلك لأنه تزوج بجميلتنا المثقفة الحسناء أليساندرا سكالا " (3).

" سيجلو استغرابك هذا إما تعرف أنني أتحدّر من أرومة يونانية مزروعة في تربة إيطالية أكثر مما هي أشجار التوت التي تآلفت بكل رقة معها. ولدت في باري، و– أعني، أني تربيت على يد إيطالية – و، في الواقع، أنا يوناني، مثلما أن درّاقك هو فارسي (4). وقد أُخمد الصباغ اليوناني فيّ، على ما أظن، إلى أن اصطبغت ثانيةً بفعل السكن الطويل الأمد والسفر المتكرر في بلاد الآلهة والأبطال. ولأسرّ لك بسر خصوصي: إن هذا الصباغ اليوناني عينه، مع ما لدي من بضع مجوهرات قديمة، هو كل ما تبقى لديَّ بعد غرق سفينتي. لكن – عندما تهوي البروج، أنت تعرف كم تسوء تجارة بنّائي الأعشاش الصغيرة – إن موت بركليسك هذا يجعلني أتمنى لو أنني انعطفت بخطواتي صوب روما، كما كان يجدر بي أن أفعل لولا مينيرفا خادعة (5) في إهاب راهب أوغسطيني. وقال:" في روما، ستضيع وسط جمهرة المثقفين الجياع. لكن في فلورانسة كل ركن يخترقه شعاع رعاية لورينزو: فلورانسة هي أفضل أسواق إيطاليا لمثل السلع التي لديك ".

قال نيلو: " Gnaffè(6) وهكذا ستبقى على ما آمل.لم يكن لورينزو الراعي الوحيد وحكَم الثقافة في مدينتنا – حاشا ذلك! لأنه

كان بطيخة كبيرة، وكل فلورانسي آخر ليس يقطينة، على ما أظن. أليس لدينا برناردو روتشيللي، وألامانو رينوتشيني (7)، وكثيرون غيرهم؟ وإذا أردت أن تعرف عن هذه المسائل فإنني أنا، نيلو، هو من تبغيه. يبدو لي أنني أحتاج إلى مائة عام حتى أكون ذا فائدة ل: بيل أوريديتو (8) مثلك. و، قبل كل شيء، في مسألة شعرك. تلك اللحية، يا صديقي الرائع، يجب التخلي عنها ولو كانت عزيزة عليك بقدر حورية أحلامك. هنا في فلورانسة لا نحب أن نرى رجلاً يطلّ أنفه على شلال من الشعر. لكن، تذكّر، ستكون اجتزت الروبيكون (9) ما إن تحلق ذقنك: وإذا ندمت، وتركت لحيتك تنمو بعد أن تشتد وتقوى بعد صراع مع الموسى، فإن فاك لن يعود يبين شيئاً فشيئاً ما يدعوه السيد أنجيلو (10) الامتياز الإلهي للشفتين، لكنه سيظهر أشبه بكهف كبير مظلم على أطرافه علّيق منفوش ".

قال اليوناني: " هذه نبوءة مخيفة، ولا سيما إذا كان الكثير من حسناواتك الفلورانسيات من جمال تيسّا الصغيرة التي اختلست قبلة منها هذا الصباح ".

" تيسّا؟ إنها كونتادينا (11) (فتاة ريفية) خشنة اليد: ستكون لك حظوة عند السيدات اللواتي لا يفحن بروائح اسطبلات البغال. لكن حتى تبلغ بغيتك هذه، يجب ألا تشي بمظهر sgherro (12) أو شخص سيئ السمعة: يجب أن تظهر بمظهر المتودد ومثقفاً من الطراز الأكثر تهذيباً مثلما هو صاحبنا بييترو كرينيتو (13) – مثل شخص يقترف الآثام وسط قوم تربيتهم حسنة وطعامهم حسن، وليس

كشخص يحتسي خمراً vino di sotto (14) في حانة تعرض له ".

قال الغريب:" بكل جوارحي. إذا طلب ذلك الحسناوات الفلورانسيات فإنني أرغب في التخلي عن هذا الشان البسيط، شأن لحيتي، لكن – "

" أجل، أجل " قاطعه نيلو، وأضاف:" أعلم ما ستقوله. إنها bella zazzera– الضفائر الياقوتية(15) تلك التي لا ترغب في الافتراق عنها، كما وليست هناك حاجة. فقط تشذيب صغير – ecco! – (إكو – صيحة استحسان–م) ولن تبدو مغايراً للأمير البهي Pico di Mirandola(16) وهو في عزّه. وهوذا نحن في ساحة سان جيوفاني هنا في الوقت المناسب، وعلى عتبة صالوني. لكنك توقفت على ما أرى: بالطبع، أنت ترغب أن تلقي نظرة على أعجوبتنا في العالم، الكنيسة، سانتا ماريا دل فيور. حسن، حسن، مجرد نظرة. لكنني أرجوك اترك التفحص عن كثب أكبر إلى أن يحلق لك ذقنك: كياني يرتعش من وحي فنّي ليصل حتى إلى طرف موسايَ بالذات. آه، إذن، هيا تعال من هذه الناحية ".

أمسك الحلاق الزئبقي ذراع الغريب وقاده إلى بقعة على الجانب الجنوبي للساحة حيث استطاع أن يشاهد منها وعلى الفور الطبقة الخارجية السوداء الضخمة للقبة، وحسن الانتصاب النحيل لبرج أجراس غيوتو، وأمامهما المثمَّن الغريب الجذّاب لسان جيوفاني يبين عن مداخله الفريدة من البرونز الطابقي والذي ما زال يحمل المجد الباهت نوعاً ما للمعانه الأصلي. إذ ذاك كانت ألواح الرخام المنزَّل

أكثر نضارة وهي في ألوانها القرنفلية، والبيضاء، والأرجوانية مما هي عليه الآن، حين أحالت شتاءات قرون أربعة بياضها إلى المغرة(*) الغنية للرخفة(**) حسنة الصقل. لم يبد على واجهة الكاتدرائية أي منظر شائن في الجصّ الباهت لكن كنت ترى عليه الوعد الأخاذ لتنزيل رخام نصف مكتمل والمشكايات المنتصبة كالتمثال التي استنبطها غيوتو لمائة وخمسين سنة خلت. وبينا كان برج الأجراس بكل ما له من تنوع متناغم في الألوان والشكل يذهب بالبصر إلى أعلى، إلى شاهق الأديم الصافي للصباح النيساني هذا فقد بدا رمزاً نبوياً، يفصح عن أن الحياة البشرية يجب أن تشكل ذاتها

على نحو ما وفي وقت ما بما يتفق مع ذلك الجمال النقي الطَمُوح. (17)

بيد أن هذا لم يكن الانطباع الذي بدا أنه تركه على اليوناني. فقد تطلعت عيناه على رغم منه نحو الأعلى، لكنه بينا وقف مكتف الذراعين وخصلات شعره مرتدة للخلف شوهدت مسحة خفيفة من الازدراء على شفته، وعندما أخفض عينيه ثانية حدجتا حواليه ببرود متفحص كان لاذعاً نوعاً لروح نيلو الفلورانسية.

(*) المغرة : ترابة فيها فلز الحديد، تكون عادة حمراء أو صفراء وتستعمل للتلوين (م)

(**) الرخفة : حجر رغوة البحر = حجر خفيف لين جداً يصنع منه غلايين التدخين (م)

قال ببعض نفاد صبر: " حسن، يا صديقي الجميل، تبدو أنك لا تقدِّر قيمة كاتدرائيتنا كما لو أنك الملك جبريل آت مباشرة من الفردوس. أود أن أعرف فيما إذا شاهدت قط عملاً أجمل من برج نحاتنا غيوتو، أو أية قبّة لا تبدو مجرّد فطر بجانب قبة برونيليشي تلك، أو أية ألواح رخام أجمل أو أكثر دقّة ورهافة في الشغل من هاته التي استحصل عليها سينورانا (مجلسنا–م) من مقالع نائية بسعر يشرى به دوقية بحالها. هيا، إذن، هل سبق ورأيت مثيل ذلك؟"

قال الشاب اليوناني مبتسماً فرِحاً ومتجهاً صوب مداخل المعمودية:" إذا سألتني ذلك السؤال وسيف بتار على رقبتي كما يفعل الترك، أو حتى موسك ذاته فإني إخال أنك ستنتزع اعترافاً مني عن الإيمان الحقيقي. لكن بما أن رقبتي لا يحدق بها أي خطر فإنني أتجرّأ على أن أقول لك إن بناياتكم تفوح منها وبشكل مفرط رائحة البربرية المسيحية حسبما ترى ذائقتي. لدي شعور تعروني جرّاءه الرعشة عما يوجد هنا في الداخل – صور مدخّنة شنيعة للمادونا(*)، قديسون ليسوا من لحم ودم بل من الموزاييك يحدقون للأسفل باستغراب أبله وتقريع من جزء الكنيسة نصف الدائري، هياكل مكتسية بالجلد تتدلّى على صلبان أو مضروبة بكاملها بسهام، أو منطرحة على مشاوٍ، نسوة ورهبان برؤوس تميل إلى جانب في ندب أزلي. لقد رأيت ما يكفي من ملويي الأعناق أثيري السماوات في القسطنطينية. لكن ما هذا الباب

(*) العذراء (م).

البرونزي الذي استخشن بما عليه من صور؟ تلك الأشكال النسائية تبدو مقدودة من روح مغايرة لما هم عليه القديسون الجوعى المحدقون الذين تطرقتُ إليهم: تلك الرؤوس النافرة بشكل كبير تشي بعقل بشري بداخلها بدل أن تبدو مثل مشيرالي المغص والتشنج الأزليين ".

قال نيلو وهو يشعر ببعض الانتصار: " أجل، أجل. إخال أنني سأريك شيئاً فشيئاً أن فننا الفلورانسي ليس في حالة من البربرية. هذه المداخل، يا صديقي الجميل، قد صنعت لنصف قرن خلا، من قبل فناننا لورينزو غيبرتي، حينما لم يكن له من العمر مثل ما لك. "

قال الغريب مشيحاً مثل شخص سرعان ما أشبعت شهيته للتأمل:" آه، أذكر. لقد سمعت أنكم معشر النحاتين والرسامين التوسكانيين كنتم تدرسون الأنتيكات بعض الشيء.لكن باتخاذكم الرهبان كنماذج لمنحوتاتكم، ولموضوعاتكم سير الناسكين والشهداء المعتوهين فإن رؤيا جبل الأولمب نفسه لن تكون بذات فائدة بالنسبة لها ".

قال نيلو برفع للكتفين لا يخلو من دلالة وهما يغذّان السير:" أفهمك. أنت تفكر مثل مايكل مارولو ذاته، أجل، ومثل أنجيلو بوليتزيانو ذاته، رغم تطويبه، عندما يرتاح قليلاً في صالوني عقب محاضراته ويحكي عن الآلهة المستيقظين من سباتهم الطويل حيث يعيدون للغابات والجداول حيويتها مرة أخرى. لكنه يشجب العلماء الرومان الذين يريدوننا جميعاً أن نتكلم اللاتينية كرّة أخرى (19) يقول: " لقد اكتفت أذناي من السلخ بفعل بربريات المثقفين، وإذا ما تسنى

للرعاع أن يتكلموا اللاتينية فإنني سأسارع إلى أن أكون في فلورانسة يوم يشرعون في قرع غلاّيات المدينة لأن الأجراس لم تكن بالعدد الكافي لتهدئة غضب القديسين". آه، يا سيد غريكو، إذا أردت أن تعرف نكهة علمائنا، ما عليك إلا أن تتردد على صالوني فهو بؤرة العقل الفلورانسي، وبهذا المعنى فهو مركز الأرض – ما قال سَلَفي العظيم، بورتشييلو (20) عن صالونه، بادعاء أكثر خفة ومفاده أن شارعه، شارع كاليمارا، كان مركز مدينتنا. وها نحن هنا عند شارة " أبولو والموسى ". فكما ترى يضع أبولو الموسى على تريبتوليموس حرفتنا (21)، أول قاطف للحى، أنونيمو المبجّل، الذي دلّت يد وهمية على هويته الغامضة ".

تابع نيلو مخاطباً شاباً أسود العينين رصين الملامح كان يفسح لهما الطريق على العتبة: " أرى أنك قد حزت على التقليد مسبقاً، ياساندرو ". " والآن أوضح بكل جلاء لهذا السنيور أن يجلس. وجهّز أكثر رغوات الحلاقة رائحة عطرية، ذلك لأن ذقنه مثقف ووسيم ".

" أرى أن لديك حرماً قدسياً (22) صغيراً مريحاً "، قال الغريب وهو ينظر من خلال حاجز مزركش فصلَ صالون الحلاقة عن غرفة مماثلة الحجم تطل بدورها على مقصورة مسوّرة أصغر حجماً حيث أحاطت بضع غورات بتمثال حجري لهيرميس. " أحسب أن الاجتماع السري لزبائنك من اللوذعيين يلتئم هناك؟"

" هناك، وليس أقله في صالوني "، قال نيلو وهو يقوده إلى الغرفة الداخلية التي كان فيها بعض المقاعد، ومنضدة، وكتاب على

شكل مخطوط وآخر مطبوع بأحرف كبيرة كان مفتوحاً عليها، وناي، وبضع رسوم زيتية، ونموذج أو اثنان لأيد وأقنعة عتيقة. واستطرد " ذلك أن صالوني هو مأوى لربات الشعر لا يقل ملاءمة، كما ستقر بذلك حين تشعر بالاستثارة المفاجئة للفهم والقوة الهادئة للإلهام اللتين ستهبطان عليك بعد حلاقة ذقن نظيفة. آه! يمكنك أن تبدأ بذاك الخطاب على الناي، كما أرى. أنا نفسي لدي بعض مهارة في تلك الناحية رغم أن السيريناتا تفقد الجدوى حين يتكشف ضوء النهار عن وجه كوجهي، وهو لا يبدوأكثر نضارة من تفاحة صمدت في فصل

الشتاء. لكن انظر إلى تلك اللوحة: إنها من بنات خيال بييرو دي كوسيمو (23)، وهو رسام غريب الأطوار يزعم أنه شاهدها بإطالة النظر إلى جدار عتيق ".

كانت اللوحة التي أشار إليها نيلو تمثّل ثلاثة أقنعة – أحدها لساتير ضاحك مخمور، وأخرى لمجدلية حزينة، والثالثة، وكانت موضوعة بينهما، لوجه فيلسوف رواقي صارم القسمات بارد: وقد استقرت الأقنعة بشكل مائل في حضن طفل صغير كانت ملامحه الملائكية تعلوها بما يشبه وعداً سماوياً في النظرة كان الرسامون قد تعلّموا أن يضفوه على الطفل الإلهي.

قال اليوناني الشاب وهو يلمس العود أثناء حديثه كيما يصدر وشوشة موسيقية خفيفة:" صورة رمزية، كما أرى. لعل الطفل هو العصر الذهبي الذي لا يفتقد لا العبادة ولا الفلسفة. والعصر الذهبي بالإمكان أن يرجع دائماً ما دام الناس يولدون في هيئة أطفال ولا يأتون

إلى العالم في رداء كاهن أو معطف فروي. أو قد يعني الطفل فلسفة أبيقور الحكيمة (24) التي تنأى عما هو غليظ وحزين وصارم معاً."

قال نيلو: " آه! كل واحد يفسر تلك الصورة على هواه. وإذا ما سألت بييرو نفسه عن المعنى الذي قصده فيها فإنه يقول إن صوره هي ملحق كان يحلو للسيد دومينيديو (25) أن يصنعه للكون، وإذا ما خامر أحدهم شك عما تعنيه فخير له أن يستفسر من الكنيسة المقدسة. فقد طلب إليه أن يرسم صورة على غرار المخطط، لكنه يضع أصابعه في أذنيه ويهز رأسه لهذا القول. يقول إن الخيال قد أصبح شيئاً من الماضي – إنه حيوان غريب، صاحبنا بييرو هذا. لكن كل شيء جاهز الآن لدخولك أسرار الموسى ".

تابع الحلاق، وقد ارتفعت معنوياته لوجود فرصة مناجاة ذاتية طويلة أمامه عندما سجن اليوناني الشاب في قماشة الحلاقة الأشبه بالغطاء:" " أمر حسن أن تدعى أسراراً، أسرار مينيرفا والإلاهات الحسن الثلاث. أنا أقبض على زهرة أفكار الناس لأني أحجزهم في اللحظة الأولى بعد الحلاقة. (آه! أنت تجفل قليلاً بسبب الرغوة: إنها تدغدغ حواف الأنف الخارجية، أسلّم بذلك). وهذا ما يجعل الملاءمة الفريدة لصالون حلاقة حيث يصبح ملاذاً للنباهة والثقافة. إذ، انظر الآن إلى صيدلية الصيدلاني: يوجد مجمع باهت بقرب لافتة "المراكشي " يدعي أنه يضاهي مجمعي. لكن أي نوع من الإلهام، قل لي بربك، يمكن أن يستخلص من رائحة مغلي النباتات الأدعى للغثيان؟– ناهيك عن حقيقة أنه ما إن تجتز العتبة حتى تقع عيناك على طبيب، مثل عنكبوت

ضخم متنكر بالفرو والوشاح كامن لفريسته. لا بل تراه قابعاً فوق المدخل يقتعد حصاناً هزيلاً يتفحّص اللعاب. (ذقن للأعلى قليلاً، بعد أمرك: تمعّن في ذاك الملاك ينفخ عليك من البوق في السقف . لقد أمرت برسمه بصريح القول لتشذيب ذقون زبائني). زد على أن الصيدلي صاحبك الذي يخلط ويغلي النباتات، هو إنسان متحيز : فقد سمم الناس وفقاً لنظام، وهو ملزم بأن يتمسك بنظامه كيما يسوغ النتائج. والآن يمكن للحلاق أن يكون نزيهاً، والشيء الوحيد الذي يعاضده هو الموسى، ودائماً شريطة ألا يكون مؤلّفاً. تلك كانت نقيصة سَلَفي العظيم بورتشييلو: فقد كان شاعراً، وبالتالي فقد كان منحازاً لشعره.أنا نجوت من ذلك، فقد رأيت باكراً جداً أن التأليف عمل آخذ في التراجع، في صدام مع الفن الليبرالي للموسى، والذي يتطلب عاطفة غير منحازة تجاه كل ذقون الناس. إكو، يا سيد! إن حواف ذقنك وشفتك واضحة كصبية، والآن اعقد العزم حيال سؤال معقد – سل نفسك فيما إذا كنت ملزماً أن تتهجى Vergil ب: i أو e (26) وقل فيما إن كنت لا تشعر بوضوح غير معهود في تلك المسألة. إنما إذا كنت بجانب i فاحتفظ بذلك لنفسك إلى أن تجتني ثروتك، ذلك أن ل e الأتباع الأقوى في فلورانسة. آه! أحسب أني أرى وميض بديهة أسرع في عينك.لدي هذا الشعور بتفويض من صاحبنا الشاب نيقولو ماكيافيللي (27)، وهو نفسه على درجة كافية من نفاذ البصيرة ليميّز il pelo nell' uovo(28)، كما نقول، وعاشق كبير للحلاقة الناعمة، رغم أن ذقنه لم يكد يمضي عليها سنتان، ذلك ما إن تبدأ الشعرات

بالبزوغ حتى يشعر ببعض غلظة من خشيةٍ يسري في بدنه ".

قال الغريب متضاحكاً:" هب أنك سمحت لي أن أنظر إلى صورتي في المرآة. فلربما يعيق بعض شك في الأثر الذي يطال مظهري الأثر المفرح الذي يطال بصيرتي ".

" انظر إلى نفسك في هذه المرآة، إذن. إنها مرآة بندقية الصنع من مورانو، ال nosce teipsum (29) الحقيقي، كما أنا سميته، بالمقارنة معها ترى أن أجمل مرآة من الفولاذ أو الفضة مجرد ظلام. انظر الآن كيف أن المنطقة السفلى من وجهك قد تحتفظ، بالحلاقة المتأنية، بمعالمها البشرية بدلاً من أن تبقى مشابهة لسحنة بومة ملتحية أو قرد من باربري. لقد مرّ علي أناس غزت لحاهم وجناتهم بشكل يدعو المرء للرثاء لحالهم لكونهم ضحايا عقاب وحشي مؤسف يليق بجحيم صاحبنا دانتي، إن لم يبدُ عليهم أنهم يمشون على الأرض تيهاً لغزارة شعورهم ".

قال اليوناني وهو ما يزال ينظر في المرآة:" يبدو لي أنك سلبتني بعض رأسمالي بموساك – أعني سنة من العمر أو سنتين، ما كان ربما أكسبني ثقة فورية بسبب ثقافتي. وعند تفحّص أحد رعاة الفنون ضعف بصره إلى حد ما سأشابه بشكل لا يخلو من الخطورة صبيّة في الثامنة عشرة تتنكر بارتدائها جورباً وسترة ضيقة. "

قال نيلو وهو آخذ في قص ضفائر الشعر المتطاولة جداً: "لا إطلاقاً. قسماتك ليست قسمات صبيّة. وبالنسبة لسنّك أنا نفسي أتذكّر أنني رأيت أنجيلو بوليزيانو يبدأ محاضراته عن اللغة اللاتينية حين

كانت لحيته أصغر من لحيتك. ودع الأمر يبق بيننا، لم يشكل قبح حداثة سنه علامة تقل تميّزاً عن ثقافته المبكرة.فيما أنت – لا،لا، سنك لا يعمل ضدك لكن دع الأمر يبق بيننا. دعني ألمّح لك أنك لكونك يونانياً، رغم أنها مجرد يونانية أبّولية، فليس هذا في صالحك. فبعض أدبائنا يرون أن علمكم اليوناني ليس إلا نبتة متفسخة على قارعة الطريق إلى أن يتم غرسها في عقول طليانية، وأنه يتوافر الآن محصول وافر من النوع الفاخر، أساتذتكم المحليون مجرد دعاة للتفسخ والانحلال ومروجون لهما. إكو! إن خصلاتك هي الآن في أحسن انسجام مع رقبتك وكتفيك. انهض، يا سيد، ولسوف أعتقك من قيد هذه القماشة. Gnaffè! أكاد أنصحك بأن تبقي على السترة الضيقة والجورب لفترة أطول، فهما يعطيانك إهاب أمير ذل ".

قال اليوناني الشاب متكئاً على ظهر الكرسي العالي وراداً لنيلو إعجابه التأملي في شكل نظرة قلق استفساري: " لكن المسألة تكمن في – أي مكان سأبدو في إهاب أمير كيما أنهض من الحالة الذليلة المذكورة. إذا ما اشترك رعاة الثقافة والعلم الفلورانسيون في هذا العداء الثقافي لليونانيين، فلست أرى كيف أن مدينتكم يمكن أن تكون ملاذاً مضيافاً بالنسبة لي، مثلما بدا أنك أوحيت للتو ".

" بيان بيانو (30) – على رسلك "، قال نيلو داساً إبهاميه في حزامه وموميئاً برأسه لساندروكي يعيد الترتيب. واستطرد:" لن أخفي عنك وجود تحيز ضد اليونانيين بيننا. ورغم أنني كحلاق لم يقع في مصيدة التأليف لست أحمل أية أهواء فلا بد أن أقر بأن اليونايين ليسوا

دائماً أولئك الشباب الجميلين مثلك. فلوذعيتهم هي دائماً ذات مظهر غير مهندم وغير مشذب، وعليها طبقة تلفظ بربري بالإيطالية ما يجعل حديثهم بالكاد أن يبدو أكثر رخامة من نطق تيديسكو(31) وهو في حالة ثرثرة مخمورة. ومرة أخرى، اعذرني – نحن معشر الفلورانسيين نحتضن أفكاراً ليبرالية عن الكلام ونرى أن الأداة التي تحسن التقريظ والوعود كما هو اللسان لا بد أنها صنعت جزئياً لتلك المقاصد , وأن الحقيقة هي أحجية على الباصرة والبصيرة أن يكتشفاها، والتي كانت مجرد فساد للمتعة يفشيها اللسان. ومع ذلك فلدينا حدودنا التي بعدها نسمي الرياء خيانة. لكن ما يقال عن اليونانيين هو إن نزاهتهم تبدأ حيثما تقع النقطة المركزية لدينا، وأنه ما دامت الأرواح المنتقمة قد خلدت إلى النوم فإن صاحبك اليوناني المسيحي يحمل ضميراً مرناً جداً بحيث أنه على استعداد لأن يجعل من جثة والده تكئة ".

أوحى التورد على وجه الغريب بما بدا أنه حركة طبيعية جداً للغيظ الذي تملّكه حتى أن نيلو السمح الخلق عجّل بالتكفير عن عوزه في التكتم.

" لا يأخذنّ على خاطرك، يا جيوفاني الجميل، أنا لست أعيد على مسامعك ما يتناهى إلى مسمعي في صالوني. ولعله قد بدا لك أن فصاحتي هي ببساطة القشدة التي أكشطها من حديث زبائني. معاذ الله أن أغلَّ حيادي بقيد احتضاني لرأي ما". ثم أضاف نيلو في لهجة أكثر استهزاءً وبتجهم له دلالته: " وبالنسبة لذاك الاعتراض الثقافي عينه على اليونانيين،الحقيقة أنكم ناسكون، يا سيدي. ليس للغيرة صلة

بهذا: إذا ما غيّرت رأيك بخصوص الخميرة وغيّرت تسبيحتك لله قليلاً(32) فسيعتقد مثقفونا الطليان أن الأمر سيستغرق من السنوات ألفاً حتى يتسنى لهم أن يتخلوا عن كراسيهم لكم. أجل، أجل، الأمر في معظمه ارتياب ديني، وجزئياً أيضاً سلطة كاتب كلاسيكي عظيم – جوفينال، أليس كذلك؟ فهو، على ما أعتقد، قد ثارت حفيظته من حشود اليونانيين مثلما أن صاحبنا السيد أنجيلو المولع باقتباس مقطوعة ما عن وقاحتهم العصية على الإصلاح – audacia perdita" (كررها بالإيطالية – م)

قال اليوناني الذي استرد رباطة جأشه وبدا حكيماً بشكل كاف ليأخذ المسألة برحابة صدر –" بوو! المقطوعة هي إطراء "

“ Ingenium velox,audacia perdita,sermo
Prompetus,et Isæo torrentior."(33)

قد يتمخض عن سرعة البديهة والفصاحة الحاضرة قليل من وقاحة ".

قال نيلو: " بالتأكيد . وما دمتَ، كما أرى، على اطلاع بالأدب اللاتيني وكذا اليوناني فلن ترتكب غلطة جيوفاني أرغيروبولو (34) الذي قارع شيشرون بشكل مباشر، ونعته بصاحب رأس اليقطينة. إذ، دعني أعطك بعضاً من نصيحة، أيها الشاب – ثق بالحلاق الذي حلق أفضل الذقون وفتح عينيه وأذنيه طيلة عشرين سنة – زيِّت لسانك جيداً حين تتحدث عن قدماء الكتّاب اللاتين واعطه غمسة إضافية عندما تتطرق إلى المحدثين. قد ينال اليوناني الحكيم حظوة لدينا. انظر

إلى عظيمنا ديميتريو الذي هو محبوب الكثيرين ولا يكن له كبير كره حتى مشاهير الأدباء ".

قال اليوناني بابتسامة مشرقة لم تكف عن إضاءة الشكل واللون الجميلين لوجهه الشاب: " أنا أميِّزبكل وضوح الحكمة الثاوية في نصيحتك بشكل يحدوني إلى الاستزادة منها. من بإمكانه الآن، على سبيل المثال، أن يكون راعي المحتمل أكثر من غيره؟ هل هناك ابن للورينزو يرث ذائقته؟ أو هل هناك أي فلورانسي ثري آخر مدمن بشكل خاص على شراء عتيق الجواهر؟ لدي كليوباترة جميلة، منحوتة جزع عقيقي ونقش أو اثنان آخران (25) كلاهما غريب الهيئة وجميل يليق بهما أن يكونا من بين مقتنيات أمير. ولحسن الحظ، فقد أخذت احتياطاتي بغرزها ضمن بطانة صدرتي قبل أن أنطلق في رحلتي. زد على أنني أرغب في أن أجمع من خاتمي هذا مبلغاً صغيراً لحاجتي الراهنة،

(هنا نزع خاتمه وأعاد وضعه على إصبعه) إذا كان لك أن تنصحني بتاجر نزيه ".

لنر، لنر، " قال نيلو ممعناً النظر في الأرض ومتمشياً جيئة وذهاباً في أرجاء صالونه. " هذا ليس بالوقت المناسب لالتماس بييرو دي ميديتشي، رغم أن لديه الإرادة لإجراء تلك المشتريات لوكان بإمكانه دائماً توفير المال. لكنني أعتقد أن ما يتوق إليه أكثر من أي شيء هو نوع آخر من كليوباترا... أجل، أجل، لدي. ما تريده إنساناً ذا يسار ونفوذ وذائقة ثقافية – ليس واحداً من شياهمك * (نوع من

القوارض –م)، هؤلاء الذين يقفون مستعدين للشر بما لديهم من روائز نقدية، لكن واحداً تتسم لغتاه اليونانية واللاتينية بليونة مريحة. وذاك الرجل هو بارثولوميو سكالا، سكرتير جمهوريتنا.

جاء إلى فلورانسة كمغامر مسكين هو نفسه – ابن طحّان – " حيوان نخالة " كما لقِّب من قبل بوليزيانو ذي الكلام المعسول والذي يتفق معه كما تتفق أسناني مع عصير الليمون. وبالمناسبة قد يكون ذلك السبب في أن السكرتير قد يكون على أتم استعداد لأن يسدي معروفاً لأديب غريب. إذ فليبق هذا بيننا يا عزيزي جيوفاني الجميل – ثق بحلاق حلق لكبار الأدباء – الصداقة هي أشبه ما تكون بجواد مطهَّم مثل جواد سيد بنغي(36): فهو بالكاد يبدي كثيراً من الخفة والرشاقة ما لم يحصل على شوك الحق تحت ذيله. لكن السكرتير شخص يفي بوعده تجاهك حتى وإن كان ذلك على نصف بذرة ثمرة، وليس من غير المرجح أن يبتاع بعض جواهرك".

قال اليوناني بنفاد صبر نوعاً ما :" لكن كيف لي أن أصل إلى هذا الرجل العظيم؟ "

قال نيلو: " كنت على وشك الوصول إلى هذه النقطة. الآن بالذات كل من له وزنه الاجتماعي سيكون مفعماً بموت لورينزو، وقد يجد الشخص الغريب أن من الصعوبة بمكان الحصول على أي إعارة للاهتمام. لكن في الآن ذاته يمكنني أن أقودك إلى شخص يمكنه، إذا كان راجح العقل، أن يساعدك في الحصول على فرصة لقاء مناسب مع سكالا قبل أي شخص آخر في فلورانسة – يستأهل المقابلة لأجل

خاطره هو كذلك، ناهيك عن مجموعاته، أو ابنته رومولا والتي هي بجمال السوسنة الفلورانسية قبل أن تصبح (السوسنة) عدوانية وتتضرج وجنتاها ".

" لكن إذا كان هذا الأب لرومولا الجميلة يحتفظ بمجموعات فلم لا يرغب في شراء بعض مجوهراتي هو نفسه؟"

رفع نيلو كتفيه. " لسببين وجيهين – عوز البصر لينظر إلى الجواهر، وعوز المال ليدفع ثمنها. إن صاحبنا الشيخ باردو دي باردي جد كفيف بشكل لا يقوى معه على رؤية ابنته، كما يقول، أكثر من وميض شيء ساطع عندما تقف قريباً منه: دون ريب إن شعرها الذهبي هو كما يقول السيد لويجي بولتشي عن شعر ابنته ميريديانا: "" raggia come stella per sereno (37) آه! ها هم بعض زبائني آتون، وليس غريباً أن يسدي أحدهم معروفاً لك بشأن ذلك الخاتم ".

الفصل الرابع
إنطباعات أولى

"طاب يومك، يا سيد دومينيكو "، قال نيلو لأول الوافدين اللذين دخلا صالون الحلاقة بينما أحنى رأسه بصمت للآخر. وتابع: " أنت تأتي في وقتك المناسب مثل الجبنة على المعكرونة. آه! أنت على عجلة من أمرك – ترغب في أن تحلق دونما تأخير – إكو! وهذا صباحٌ فيه ذهن الجميع مثقل بمسألة خطيرة. فلورانسة ميتمة – محور إيطاليا بالذات نزع من مكانه – السموات ذاتها متحيّرة فيما يجب فعله تالياً. Oime!(1) حسن، حسن، ورغم ذلك فالشمس تغذ مسيرها نحو وقت العشية ثانية: وكما كنت أقول أنت تأتي مثل الجبن المبشور الجاهز. ذلك أن هذا الغريب الشاب كان يرغب في لقاء تاجر محترم ينقده مبلغاً لقاء خاتم ثمين، ولو أحصيت كل صائغ ومرابٍ في فلورانسة على أصابعي لما وجدت أفضل من مينيكو سينيني. أضف، لديه أشياء أخرى تتاجر بها أنت – ثقافة يونانية، وعينان شابتان – وسيلة مزدوجة دائما أنتم معشر عمال الطباعة بحاجة إليها ".

بقي الشيخ الرصين، ابن برناردو سينيني (2)، الذي أدخل إلى فلورانسة، عندما سمع لعشرين سنة خلت بالطريقة الطباعية الجديدة التي يستعملها الألمان، حروفه الطباعية الخاصة، بقي كما تقتضي الضرورة في صمت واستسلام رغويين بينما كان نيلو يرش هذا الحديث في أذنيه، لكنه نظر نحوالغريب نظرة جانبية متمهلة .

تابع نيلو، المولع بالتأويل عن طريق إعادة وافرة للصياغة،

حديثه: " هذا الشاب الجميل يضع تحت تصرفك إلماماً لا محدوداً باليونانية، أواللاتينية، أو الإيطالية. إنه أعجوبة الثقافة الحدثية (من الشاب الحدث –م)كما فرانشيسكو فيليلفو (3) أو صاحبنا الذي عزّ نظيره بوليتزيانو. وغوارينو (4) ثان أيضاً، ذلك لأنه صاحب حظ عاثر إذ تحطمت سفينته، ولا ريب أنه فقد مخزوناً من المخطوطات الثمينة التي ربما كانت أسهمت ببعض التصحيح حتى لطبعاتك الصحيحة، يادومينيكو. ولحسن

الحظ فقد أنقذ بضع مجوهرات ذات قيمة نادرة. اسمه – قلت اسمك، يا سيد، هو –؟"

" تيتو ميليما "، قال الغريب نازعاً الخاتم من إصبعه ومقدماً إياه إلى سينيني بعد أن أعتقه من منشفة الحلاقة الآن نيلو الذي لم يكن لسانه بأقل سرعة من موساه.

في الوقت ذاته كان الرجل الذي دخل الصالون بصحبة الصائغ – وكان رجلاً طويل القامة يناهز الخمسين ذا لحية قصيرة مشذّبة، ويعتمر قبعة عتيقة من اللباد، ويرتدي معطفاً خلقاً –قد أبقى عينه مسمّرة على اليوناني، وقد قال الآن فجأة –

" أيها الشاب، أنا أرسم صورة سينون وهو يخدع برايام العجوز (5)، ولا بد أن أكون مسروراً من وجهك لأجل صاحبي سينون، إذا ما تكرّمت عليّ بجلسة ".

جفل تيتو ميليما ونظر حوله باستغراب وبوجه ممتقع كما لو كان كرد فعل على اتهام مفاجئ. لكن نيلو لم يفسح له في الوقت لكي

يحتار بحثاً عن جواب. قال الحلاق: " بييرو، أنت أغرب مركّب من الأمزجة والخيالات سبق وأن حشر داخل جلد كائن آدمي. أية حيلة ستلعبها مع طلعة (محيا) هذا المثقف الشاب لتلائمها مع خائنك؟ مره، بالأحرى، أن يحوّل بصره للأعلى، وعندها يمكنك أن تجعل منه القديس سيباستيان الذي سيحشد الحشود من النساء التقيّات (6)، أو، إذا كنت من نوع كلاسيكي، ضع الآس حول ضفائره واجعل منه باخوساً شاباً، أو لنقل بالأحرى فويبوس أبولو، إذ أن وجهه دافئ وصبوح كصباح صيفي. فقد جعلني (وجهه) صديقاً له من ناحية "العقيدة ".

قال الرسام متحدثاً بوقفات مفاجئة:" آي، نيلو. وإذا أمكن للسانك أن يكف عن تغريده الأبدي لمدة تكفي فهمك لأن ينظر في المسألة فإنك قد ترى أنك قد أبنت السبب لتوّك في كيف أن وجه السيد سيلائم خائني. فالخائن الكامل يجب أن يحتاز على وجه لا تقوى الرذيلة على ترك أي ميسم عليه – شفاه تكذب بابتسامة مواكبة بغمّازة في الذقن – عينان أشبه ببريق وعمق كالعقيق بشكل لا تقوى معه أية سمعة شائنة على أن تبهتهما – وجنتان تنهضان من جريمة دون أن يبدو عليهما الهزال. لست أقول إن هذا الشاب خائن: أعني لديه وجه يجعل منه أكثر الخونة اكتمالاً لو كان لديه قلب خائن، بقول آخر لا أقل ولا أكثر من ذلك له وجه جميل، يضجّ بدم شاب وافر إن أمددته بكل كفاية بالغذاء، وبقي لونه دون كبير عون من الفضيلة. قد يكون لديه قلب بطل إلى جانب ذلك، لست أؤكد ما يناقض ذلك. سل دومينيكو الواقف

هناك فيما إذا كان صاقل الأحجار الكريمة بإمكانه دائماً أن يميِّز الحجر الكريم بالنظر فقط. والآن سأضع قطعة كتّان في أذني، ذلك أن هذرك والأجراس أقوى من طاقتي على الاحتمال: لذلك كفَّ عن التكلم معي، إنما شذِّب لي لحيتي ".

بهذه الكلمات الأخيرة أخرج بييرو (ويدعى "دي كوسيمو " حيث جاءت التسمية من أستاذه، كوسيمو روسيللي) قطعتين من الكتان وحشا أذنيه بهما واقتعد الكرسي أمام نيلو الذي رفع كتفيه ورمى اليوناني بنظرة متجهمة تنمّ عن نباهة كما ليقول:"شخص نزوي، ما تراه!الجميع يرون في عباراته مجرد مزحات ".

أما تيتو، الذي لبث متسمَّراً، وعيناه السوداوان الواسعتان تستقران على الشخص المجهول الذي خاطبه بشكل مريب، بدا وكأنه قد رجع إلى رباطة جأشه بتغيير بييرو لموقفه، وراضياً،كما ظهر جلياً، لتوضيحه، وعاد يعير انتباهه ثانيةً لسينيني الذي قال على الفور –

" هذا خاتم غريب وثمين، أيها الشاب. هذا النقش الذي يمثّل سمكة وفوقها الأفعى ذات العرف في الطبقة السوداء في العقيق اليماني، أو بالأحرى نيكولو (7)، يظهره الأزرق المحيط في الطبقة العليا على أحسن وجه " . وأضاف سينيني وهو يرفع بصره باهتمام إلى الغريب الشاب:" الخاتم، ما من شك، له قصة؟"

" أجل حقاً "، قال تيتو مقابلاً التفحص الدقيق بكل صراحة. " عثر على الخاتم في صقلية، ولقد فهمت من أولئك الذين يهتمون بالأحجار الكريمة والخواتم (8) أن كلاً من الحجر والنقش لهما من

القيمة ما يجعل واضعهما محظوظاً، ولاسيما في البحر، وكذلك يعيدان إليه أي شيء يكون قد فقده. " وتابع مبتسماً: " لكن رغم أنه لم يفارق إصبعي مذ أن غادرت اليونان فإنه لم يجعلني من المحظوظين جداً في البحر، كما ترى، رغم أنني يجب أن أعدّ النجاة من الغرق دليلاً كافياً على فضيلته. وبقي أن نرى ما إذا كانت صناديقي الضائعة ستظهر. لكن حتى لا نفوّت علينا فرصة مثل هذه النتيجة، يا سيد، أرجوك فقط أن تضع الخاتم لفترة وجيزة كعربون على مبلغ صغير أقل بكثير من قيمته وسأفي بديني حالما يمكنني التخلص من بعض الأحجار الأخرى المخبأة بأمان في صدرتي، أو، في الحقيقة، حالما أتمكن من كسب شيء عن طريق أية وظيفة أدبية، إذا قيِّض لي الحظ أن أحصل على هذه الوظيفة ".

قال سينيني: " يمكن النظر في هذا الأمر، أيها الشاب، إذا ما أتيت معي. فأخي بييرو، والذي هو خير مني في الحكم على الأمور الثقافية، قد يكلفك بمهمة تمتحن قدراتك. في الآن ذاته خذ خاتمك إلى أن يكون بإمكاني أن أنقدك الدريهمات الضرورية، وإذا رغبت، هيا وتعال معي ".

قال نيلو:" أجل، أجل، اذهب مع سيد دومينيكو، لن يتوافر لك صحبة أفضل. فهو مولود في برج يعطي الإنسان مهارة، وثروة، ونزاهة، مهما كان ذلك البرج، لكن هذا أقل أهمية لأن الأطفال لا يختارون برجهم، وفي الحق، لو استطاعوا ستحصل غزارة في المواليد في فترات بعينها. أضف إلى أن صاحبنا أبي الهول، بيكو الذي لا

مثيل له قد بيَّن أن أبراجكم هي جميعاً عبارة عن حلم لا معنى له – وهذا رأي أقل ما يكون إزعاجاً. أديو!(وداعاً –م) يا جيوفاني الجميل! لا تنس أن تعود إليّ".

قال تيتو وهو يلوّح مودعاً بينا استدار بوجهه المشرق ناحية الباب: " لا تخش ذلك، سيترتب عليك إسداء معروف كبير لي:– ذلك أكثر ضمان إيجابي يؤمن لك رؤياي ثانية ".

قال نيلو عندما توارى الغريب الشاب : " قل ما يحلو لك، يا بييرو. لن أنظر أبداً إلى مظهر خارجي كهذا دون أن أعتبره إشارة إلى طبيعة محببة. ياه، ستقول تالياً، كان الأحرى بليوناردو (9)الذي تتكلم عنه دائماً بحماسة بالغة أن يجعل يهوذاه طيباً طيبة القديس يوحنا! لكنك أصم صمم قمة جبل موريلو بوضعك تلك القطعة الكتانية اللعينة في أذنيك. حسن، حسن: سأعرف المزيد عن تاريخ هذا الشاب منه قبل أن أصطحبه إلى باردو باردي ".

الفصل الخامس

الأديب الضرير وابنته

يقع فيا دي باردي، وهو شارع يلحظه تاريخ فلورانسة، في أولترانو، أو تلك الناحية من المدينة التي تلتف حول الضفة الجنوبية للنهر. وهو يمتد من جسر فيتشيو حتى ساحة موتزي عند رأس جسر أل غريزي. ويقبع خلف خط المساكن والأسوار من الجهة اليمنى مرتفع شاهق نوعاً كان يعرف في القرن الخامس عشر بهضبة بوغولي، المقلع الحجري المشهور الذي جاءت المدينة منه بمواد الرصف – وهي هضبة تفقد تربتها تماسكها عندما تخترقها الهطولات المطرية. أما الأبنية على الجهة اليسرى فإنها تحيط بالنهر وتتمدد على الجانب الشمالي مسافة هي عبارة عن واجهة غريبة الشكل تتقطع على غير انتظام وتترجّع بفعل المياه انعكاساً محبباً رائقاً مع انحدار الشمس نحو المرتفعات الغربية. لكن رغم الغرابة التي تكتنف هذه الأبنية فإن بعضها يبدو للذاكرة التاريخية بديلاً مفرطاً في الحداثة للبيوت الشهيرة لعائلة باردي التي دمّرها الغضب الشعبي منتصف القرن الرابع عشر.

لقد كانوا سلالة تتصف بالكبرياء وعلو الهمة، هؤلاء الورديون. فقد برزوا من بين أولاء الذين أشهروا السيف في النزاعات الأولى التي اشتهرت في العالم بين الفلورانسيين أنفسهم، حين أظلمت الشوارع الضيقة بفعل الأبراج السامقة للنبلاء، وحين تبسّم الإله الحارس مارس (إله الحرب –م) دون ريب، عندما شاهد احمرار المزاريب بدماء الجيران، لقرون تصرّمت في تملّق كاذب لغريمه، المعمداني (1). لكن

الأيادي الباردية كانت من النوع الذي لا يحسن الإمساك بقوة بمقبض السيف فحسب بل تستهويها السعادة الأكثر رهافة المتأتية عن لمس المعدن المسكوك: كما كان يضاهيها أيضاً العيون الفلورانسية الحقة القادرة على تبيّن أن القوة تكتسب بوسائط أخرى غير الضرب والطعن. وحوالي منتصف القرن الرابع عشر نلفاهم وقد نهضوا من حالتهم الأصلية ال popolani (2) ليصيروا ملاّكاً، عن طريق الشراء، لأراضٍ وحصون، وكرامات إقطاعية لنبلاء فيرنيو الأمر المزعج الذي أثار حسد مواطنيهم الجمهوريين. هذا، ويفسِّر هذه المشتريات الملكية رؤيتنا لعائلة باردي متميزةً لاحقاً على نحو كارثي، بعد بضع سنوات فقط، غبَّ احتلالها مركز الصدارة في التجارة الأوربية – الروتشيلدات المسيحيين لذلك الأوان – متكفّلة بتقديم المال لأجل حروب صاحبنا إدوارد الثالث، وبعد أن نجحوا في تحويل المداخيل "العينية " إليهم، ولا سيما الصوف، وهو أثمن البضائع الموسقة بالنسبة لمراكب الشحن الفلورانسية. فدائنهم المهيب تركهم بعجز مهيب، وتقدم الدائنون الصقالبة المذعورون بطلب فجائي لسداد الإيداعات مما سبب صدمة مدمِّرة لرصيد البارديين والمؤسسات المرتبطة بهم، ما شكّل كارثة تجارية ظهر أثرها على امتداد سواحل البحر المتوسط. لكنهم لم يطأطئوا رؤوسهم شأنهم شأن كل المفلسين المحدثين لإحساسهم بالمذلّة، فعلى العكس يبدو أنهم رفعوها أعلى من أي وقت مضى، وكانوا الأكثر عجرفة بين النبلاء أولئك الذين استجروا على أنفسهم، في ظل ظروف لافتة للانتباه مكشوفة لجميع من سيقرأ الصحائف النزيهة

لجيوفاني فيلاني (3)، حنق الشعب المسلّح عام 1343. وقد حمى الBارديون، الذين تمترسوا في شارعهم بين الجسرين، هذه المنافذ الضيقة كفهود محاصرة متأهبة للدفاع، ضد هجمات حملة الرايات من الشعب (4) ولم يكفّوا عن المقاومة إلا بعد هجوم شنّ من ناحية الهضبة خلفهم. وقد نهبت منازلهم بجانب النهر وعددها اثنان وعشرون (palagi e case grandi) (5) وأحرقت وكثيرون من أولئك الذين حملوا اسم باردي طردوا من المدينة. لكن العائلة الفلورانسية عريقة متعددة الجذور، وعليه نلفى الBارديين يحافظون على أهميتهم وينهضون، مرة تلو الأخرى، إلى سطح الشؤون الفلورانسية بطريقة مشرّفة تشي بتاريخ عائلة لم يكتب وكان سيشمل حتى صروفًا وتناقضات من الكرامة والعار، والثروة والفاقة، أكثر مما يشاهد عادة على خلفية نسب عائلة كبيرة (6). لكن الBارديين لم يستعيدوا قط ممتلكاتهم في الشارع القديم على ضفتي النهر، والتي ارتبطت عام 1492 لفترة طويلة مع أسماء شهيرة أخرى، ولاسيما مع النيريين الذين تملّكوا سلسلة واسعة من المساكن على الجانب المؤدي إلى الهضبة.

إلا أن أحد هذه المساكن النيرية شهد سكنى واحد من سلالة الBارديين ومن ذلك الفرع بالذات الذي أصبح متحدّروه منذ قرن ونصف أشراف فيرنيو: وكان سليلاً ورث إباء العائلة العريقة وهمتها، والولع القديم بالتفوق، والرغبة القديمة في أن تترك خطواته أثراً دائماً على الأرض السريعة الدوران. لكن حماس العائلة لم يبارحه قط في ظل تبدّل الأحوال: هذا الشخص من سلالة الBارديين لم يكن شخصاً

مـاهراً فـي حـروب الشـوارع، أو شخصـاً يحـب أن يلعـب دور السـيد (السـنيور)، معـززاً الحصـون ومـدعياً الحـق بشـنق مزارعـي (تـابعي) الإقطـاعيين، أو تـاجراً أو مرابيـاً شـديد الجـرأة، مولعـاً بقيـادة الخطـط التجارية الواسعة: كـان شخصـاً يده غائرة العروق تشنجت بفعل نسخ كثيف للمخطوطات، اقتصد في وجبات عشائه، وارتدى ثياباً رثة، بدايةً باختياره وثانية بفعل الضرورة، شخصاً كان يجلس وسط كتبه وقطعه الرخامية التي آلت إليه من زمن مضى، ولم يرها إلا من خلال نور تلك الأيام النائية الأكثر نضارةً التي لم يبرح شعاعها مخيلته: كان رجل علم وثقافة مسناً، معوزاً، كفيفاً – باردو من عائلة باردي الذي كان نيلو، الحلاق، قد وعد بتعريف اليوناني الشاب تيتو ميليما إليه.

كان البيت الذين يقطنه باردو واقعاً على جانب الشارع أقرب ما يكون إلى الهضبة، وكان واحداً من كتل الأبنية الحجرية القاتمة التي تخللتها نوافذ صغيرة نسبياً، تعلوها ما يدعى بشرفة مسقوفة أو لوجيا loggia، تلك التـي مـا تـزال يُشـاهَد الكثيـر مـن نماذجهـا فـي المدينـة الموقّرة. أبـواب كالحـة بمفصّـلات لولبيـة ظـاهرة للعيـان، تعلوهـا علـى مسافة عالية من كل جانب نافذة صغيرة تحميها قضبان حديدية تطل علـى فنـاء للدخول ذي عمد معقودة مقوسـة خاليـة مـن أي شـيئ سـوى حديدة مصباح مدلاة من وسط ملتقى العمد . وكان باب كالح أصغر على اليسار يفضي إلى الدرج الحجري والغرف على الطابق الأرضي. وقد استعملت هذه الأخيرة كمستودع من قبل المالك. وكذا استعمل الطابق الأول. كان كلاهما مملوءين بمخزونات ثمينة بانتظار نقلها،

بعضها ربما إلى ضفاف نهر شيلدت، وبعضها إلى الشواطئ الأفريقية، وبعضها الآخر إلى الجزر الإيجية، أو إلى ضفاف نهر الإيوكسين. كان على ماسو، الخادم العجوز (7) عند عودته من السوق (الميركاتو) ومعه رزمة خضر رخيصة الثمن، أن يسلك طريقه على مهل إلى الطابق الثاني قبل أن يصل إلى باب سيده، باردو، والذي سنلجه عما قريب غبّ بضعة صباحات فقط من حديث نيلو مع اليوناني.

نقفو خطا ماسو عبر الردهة الأمامية إلى الباب على اليسار ونلجه عندما يفتحه. لا يفعل شيئاً سوى النظر إلى الداخل ثم يومئ برأسه، في الحين ذاته ينده صوت صاف شاب: " آه، عدت، يا ماسو. حسن. لم نحتج شيئاً ".

ورد الصوت من الطرف البعيد لقاعة طويلة وفسيحة على جوانبها شوهدت رفوف رتّبت عليها كتب وأثريات ترتيباً دقيقاً. وأمام الرفوف وضع في هذا المكان أو ذاك على قواعد مستقلة جذع أنثوي جميل، تمثال بدون رأس، يرفع يداً ضخمة العضلات تمتشق سيفاً لا نصل له، وأطراف طفلية منقورة مقطوعة من الجذع تدعو الشفتين لتقبيل الرخام البارد، وبعض التماثيل النصفية الرومانية المحفوظة جيداً، وأصيصان أو ثلاثة من ماجنا جريسيا (8). وشوهد في المنتصف طاولة كبيرة مغطاة بمصابيح برونزية عتيقة وآنية صغيرة في فخاريات سود. كان لون هذه الأشياء في معظمه شاحباً أو كامداً: وقد أعطت أربطة الرق ذوات الأقفية غائرة الحواف بروزاً طفيفاً للرخام

الشاحب من طول انطمار. أما ما كانت سجادة فاخرة في طرف الغرفة فقد استحالت باهتة بفعل الاهتراء المديد. وكانت البرونزيات المعتمة بحاجة إلى ضوء الشمس ليبرز مسحة اللون الأخضر فيها، ولم تعلُ الشمس بعدُ كثيراً في كبد السماء كيما ترسل أشعتها البراقة خلل النوافذ الضيقة التي أطلت على فيا دي باردي.

وكانت بقعة اللون البرّاقة الوحيدة في الغرفة متأتية من شعر فتاة طويلة القامة ذات سبعة عشر أو ثمانية عشر ربيعاً كانت تقف أمام ليجيو منحوت، أو منضدة مطالعة كما يشاهد في غالب الأحيان في جوق الكنائس الإيطالية. وكان الشعر ذا لون ذهبي مائل للاحمرار زاده غنىً تموج خفيف غير متقطع مثلما يُشاهد في سحب المغيب في أكثر المساءات الخريفية جلالاً. كان مربوطاً بعصابة سوداء فوق أذنيها الصغيرتين، ويعود ليتماوج منها وللأمام ليشكّل نقاباً طبيعياً على جيدها فوق فستانها المربع التقاطيع من قماش rascia، أو السيرج (قماش صوفي متين –م). وكانت عيناها مركّزتين على مجلّد ضخم وضع أمامها: استقرت يد بيضاء طويلة على منضدة المطالعة، واليد الأخرى شبكت مسند كرسي والدها.

جلس الأب الكفيف ورأسه مرفوع للأعلى وجسمه مائل قليلاً إلى جهة ابنته، كما لو أنه كان ينظر إليها. وقد زاد شحوبه الخفيف الذي أبرزته القلنسوة المخملية السوداء التي اعتلت شعره الأشيب المتهدل من ملاحظة الشبه بين ملامح كبر السن وملامح الفتاة الشابة، والتي كانت وجنتاها أيضاً تعدم أية مسحة وردية. كانت لدى الاثنين الرهافة ذاتها

في الجبين وفتحة الأنف، يعدلها من جانب آخر فم كامل الهيئة، رغم صرامته، وذقن قوي، مما وشى بثبات يتسم بالأنفة واندفاع كامن: وهذا التعبير أفصحت عنه وضعية الارتداد الخلفي لرأس الفتاة، وخط جيدها وكتفيها المهيب. كان من نوع الوجوه التي لم يكن ليغامر أحد بالقول ما إذا كان يوحي بالحب أو فقط بذلك الإعجاب المتمنع المشوب بالخشية: يجب البتّ في هذه المسألة عن طريق العينين، واللتين تبدوان غالباً مشحونتين برسالة أكثر مباشرة آتية من الروح. لكن عيني الأب لم يزايلهما الصمت منذ زمن بعيد، وعينا الابنة كانتا مطرقتين فوق الصحائف اللاتينية لكتاب "Miscellanea" لبوليتيان(9) والذي كانت تقرأ من فصله الثمانين بصوت مسموع ما يلي:

"كانت هناك حورية ما من طيبة تدعى تشاريكلو عزيزة بشكل خاص على قلب بالاس، وهذه الحورية كانت أم تايريزياس. لكن حدث ذات مرة أنه آن كان بالاس يستحم بصحبة تشاريكلو في عزّ الصيف في هيليكونيان هيبوكرين، ورد تايريزياس الماء كصياد ليطفئ ظمأه عند الينبوع نفسه، وشاهد من دون قصد مينيرفا عارية، وعمي في الحال. ذلك أنه ورد في القوانين الساتيرنية أن من يلمح الآلهة ضد مشيئتها سيدفع كفارة ذلك عقوبة صارمة... وعندما ألمّت هذه الكارثة بتايريزياس تأثر بالاس بفعل عبرات تشاريكلو، وأضفى عليه النبوءة وطول العمر، بل جعل حصافته وحكمته تتواصلان بعد أن دخل في خريف العمر حتى إن إحدى كاهنات الوحي تحدثت من قبره: وأعطته عكّازاً يمكنه من السير، كما لو كان يصحبه دليل، دون تعثّر... ثم،

يقدّم نونوس، في الكتاب الخامس ل "دايونسياكا" أكتيون هاتفاً أنه يدعو تايريزياس سعيداً ذلك لأنه كان قد رأى، دون أن يموت، ومع فقدانه بصره فحسب، مينيرفا عارية، وهكذا، فبإمكانه، رغم أنه فاقد البصر وإلى الأبد، أن يحمل صورتها في روحه ".

عند هذا الموضع من القراءة سقطت يد الابنة من مسند الكرسي والتقت يد والدها، والتي كان قد رفعها للأعلى في تلك الآونة. بيد أنها لم تنظر حواليها، وكانت على وشك أن تقرأ الاقتباس اليوناني من نونوس (10)، رغم أن صوتها اعتراه تغيّر طفيف من جرّاء مشاعر مكبوتة، عندما قال العجوز –

" توقفي، يا رومولا، ناوليني نسختي الخاصة من نونوس. إنها نسخة أدق من أية نسخة أخرى بخط يد بوليتزيانو، ذلك أنني قمت ببعض التنقيحات التي لم يطلع أحد عليها حتى الآن. أنهيتها عام 1477 عندما كان بصري آخذاً سريعاً بالتراجع ".

مشت رومولا إلى الطرف القصي من الغرفة بخطا ملكية كانت من بسيط أفعال قامتها المديدة الجميلة القسمات دون أن تبادر لأدنى تسوية واعية لوضعها .

سأل باردو الذي كان ينشد على الدوام التأكد من أن الواقع الخارجي يتلاءم مع الصورة التي عاشت حتى أدق تفاصيلها في مخيلته: " هل هو المكان الصحيح، يا رومولا؟ "

" بلى، يا والدي. في الناحية الغربية من الغرفة على الرف الثالث من الأسفل خلف التمثال النصفي لهادريان، فوق أبولونيوس

روديوس وكاليماخوس، وتحت لوكان وسيليوس إيتاليكوس ".

إن الأذن المرهفة، عندما فاهت رومولا بهذه الكلمات، كانت ستميّز في صوتها الواضح ونطقها الجلي إيحاءً خفيفاً بالتعب يتصارع مع صبر اعتادت عليه. لكنها عندما اقتربت من والدها وشاهدت ذراعيه ممتدتين قليلاً بانفعال عصبي كي يمسك بالمجلّد امتلأت عيناها الشهلاوان بالشفقة. أسرعت بوضع الكتاب في حضنه وجثت بقربه، ورفعت بصرها نحوه، كما لو أنها كانت تعتقد أن الحب الكامن في وجهها لا بد أن يجد طريقه عبر الحاجز الأسود الذي وارى كل شيء آخر. في تلك الآونة تغيّرت الفتنة المرتابة في وجه رومولا، الوجه الذي بدا فيه أن الكبرياء والعاطفة يتأرجحان في الميزان مع الكياسة والذكاء الأصيلين، تغيرت إلى أنوثة هي الأجمل والأحب بفعل امتزاج الشفقة والمحبة: كان واضحاً أن أعمق ينابيع المشاعر بداخلها لم تجد بعد طريقها نحو القسمات الأقل تغيّراًً، ووجدت منفذها فقط من خلال عينيها.

بيد أن الأب بدا، وهو في غفلة عن ذلك الألق الرخيّ، مضرج الوجه ومضطرباً بينا كانت يده تستكشف طرفي المؤلف الضخم ودفته الخلفية.

" لقد اصفرت الجلدة في الثلاث عشرة سنة الأخيرة، يارومولا ".

قالت رومولا بدماثة: " أجل، يا أبتاه. لكن حروفك على الظهر ما تزال سوداء وواضحة – حروف رومانية جميلة "، واستطردت قائلة وهي تفتح الكتاب على ركبة والدها:" والحرف اليوناني أجمل من مثيله

في أي مخطوط اشتريته ".

قال باردو وهو يمرّر إصبعه عبر الصفحة، كما لو أنه كان يأمل بتمييز الخط والهامش: " مؤكد، يا بنيتي، ترى أي ناسخ أجير بإمكانه أن يضاهي خط من يهوى الكلمات التي تنمو تحت يده، والذي يؤلمه خطأ أو عدم وضوح يرد في النص أكثر من أية ظلمة أو عقبة مفاجئة تعترض طريقه؟ وحتى هؤلاء الطابعون الميكانيكيون الذين يغدو العلم على أيديهم مهدداً بأن يصبح شيئاً منحطاً وفظاً – حتى هم يجب أن يعتمدوا على المخطوطة التي انكببنا فوقها نحن الدراسون بنفاذ بصيرة لنصل إلى معنى الشاعر القريب جداً من menus divinior (11) لدى الشاعر نفسه، ما لم يغرقوا العالم بأغلاط قواعدية وشواذات لا يمكن تفسيرها، أغلاط تحوّل نبع بارناسوس ذاته إلى طوفان من الطين السام. لكن جدي القطعة في الكتاب الخامس والتي يشير إليها بوليتزيانو (12) – أعرفها حق المعرفة ".

تناولت رومولا، بعد أن جلست على مقعد واطئ بقرب ركبة والدها، الكتاب من حرجها وقرأت الأبيات الأربعة التي تحوي هتاف أكتيون.

قال باردو عندما انتهت: " هذا صحيح، يا رومولا. إنه تصور صحيح للشاعر. إذ ما هو ذلك النور الأكثر غلظة ونحافة الذي لا يرى الناس على ضوءه سوى المنظر الوضيع حولهم بالمقارنة مع ذلك النور الساطع الأبدي الذي يمتد عبر قرون من الفكر، وعبر حياة الأمم، ويجلو لنا عقول الخالدين الذي حصدوا من الحصاد وافره

وتركونا نلتقط بقاياه من خطوط الفلاحة؟ بالنسبة لي، يا رومولا، حتى عندما كنت أبصر فقد كنت أعيش مع العظام الموتى، بينما بدا الأحياء لي مراراً مجرد أشباح – أطياف مجرّدة من الشعور والفطنة الحقيقيين، وعلى خلاف ال Lamiæ (13) أولئك الذين يقارن بوليتزيانو بهم بتلك الفطنة السطحية التي لا أنكرها عليه، مواطنينا الفلورانسيين البحاثة لأنهم وضعوا أعينهم عندما كانوا يسافرون، ونزعوها عندما كانوا يعودون. فقد عدت من حديث الشوارع كما لو من حلم منسي، وجلست بين كتبي لأقول مع بترارك، المحدث الأكثر جدارة ليتسمّى باسم أسلافه القدماء،

"Libri medullitus delectant , colloquuntur , consultunt,et viva quadam nobis atque arguta familiaritate junguntur" (14)

قالت رومولا مداعبة بمودّة مزاج العجوز متوسعةً في هذه الناحية :" وفي ناحية واحدة أنت أسعد من بتراركك المفضَّل، يا أبتاه . ذلك أنه تعوّد أن ينظر إلى نسخته من كتاب هوميروس ويفكر بأسىً لأن اليونانيين كانوا حرفاً ساقطاً بالنسبة إليه: حتى الآن فقد كان مصاباً بالعمى الداخلي الذي تشعر أنه أسوأ من عماك الخارجي ".

" هذا صحيح، يابنيتي. ذلك أنني أحمل بداخلي ثمار تلك الدراسة المتوقدة التي قدّمتها للسان اليوناني في شكل تعاليم كريزولورا (15) الأحدث سناً، وفيليلفو، وأرجيروبولو، رغم أن ذاك العمل العظيم الذي كنت رغبت أن أجمع فيه، كما في شبكة متينة، كل الخيوط التي

فككها بحثي بكل ما هناك من جد، والتي كانت ستكون غلّة حياتي، قد تقطّعت بذهاب بصري وعوزي لمساعد ملائم. إذ إن الحماس الدائم والصبر الذي لا يكلّ والمطلوبَين من أولاء الذين يطرقون مسالك من المعرفة غير مطروقة لا يزالان أقل قابلية للتصالح مع الميل الهائم والشارد للعقل الأنثوي مما هما مع القوى الواهنة للجسد الأنثوي ".

قالت رومولا وقد تضرّج وجهها فجأة وخالط صوتها نغمة مجروحة: " أبتاه . أنا أقرأ أي شيء تريدني أن أقرأه، وسأجد لك أية مقطوعات تريدها، وأدون أية حواشٍ ترغب فيها ".

هز باردو رأسه، وتبسّم بنوع من الشفقة يتصف بالمرارة قائلاً:" خير لك أن تحاولي أن تكوني مشتركة في مباراة خماسية وتؤدي كل الأعمال الخمسة للباليسترا(16) بجوارح حورية. هل نسيت أنا إغماءتك في مجرد البحث عن المراجع التي احتجتها لشرح قطعة واحدة من كاليماخوس؟"

" لكن، يا أبتاه، كان وزن الكتب، وماسو بإمكانه أن يساعدني. لم يكن ذلك بسبب العوز في الانتباه والصبر ".

هزّ باردو رأسه ثانية. " ليس ما أريده مجرد أعضاء الجسم: إنه الشفرة الحادة للعقل الشاب كي تشق طريقها أمام ملكاتي الكليلة نوعاً ما. ذلك أن العمى يفعل فعل السد، إذ يبعث بتيارات الفكر للخلف على مسار القنوات المطروقة من قبل، ويعيق التقدم إلى الأمام. لو لم يهجرني ابني، بعد أن خدعته الأحلام الدنيئة المتطرفة التي لا يستحقها إلا الشيطان (energumen(17)) الثاوي مسكنه بين القبور

لكنت تابعت وشاهدت طريقي يتوسع حتى نهاية حياتي. ذلك لأنه كان شاباً يعد بالكثير... لكن انتهى كل شيئ الآن "، تابع العجوز، بعد فترة صمت قصيرة، " لقد انتهى كل شيء الآن، – كله ما عدا المجاز الضيق الذي خلّفه لي كي أطأه – وحدي في عماي ".

نهضت رومولا من مجلسها وأعادت المجلّد الكبير إلى مكانه ثانية وقد وخزتها حتى الأعماق كلمات والدها الأخيرة بشكل لم تقو معه أن تبقى ساكنة أو صامتة. وعندما ابتعدت عن الرف مرة ثانية بقيت واقفة على مسافة منه باسطة ذراعيها للأسفل وشابكة أصابعها بقوة بينما بدا هلع مؤسٍ في وجهها الفتي لانعدام الحياة في الأشياء حولها – أغلفة الرق، الرخام المشوّه الباقي على حاله، قطع البرونز والفخّار المهملة.

ورغم أن باردو،كما هي العادة،كان حساساً لحركات رومولا ومتشوقاً لتتبعها فقد كان الآن جدّ منشغلٍ بالألم الناجم عن الذكريات التي تعتمل في صدره بشكل لم يفطن لمبارحتها جانبه.

تابع حديثه قائلاً: " أجل، لو بقي ابني بجانبي ليساعدني لكنت نلت نصيبي الذي أستحقه من انتصارات هذا القرن، ولكانت أسماء باردي، الأب والابن، محط تقدير على شفاه رجال المعرفة في مقتبل العصور، ليس بسبب الأشعار العابثة أو المقالات الفلسفية والتي هي محاولات زائدة ووقحة في جرأتها لمحاكاة ما لا يحاكى، مثل تلك التي تغوي الناس العابثين من أمثال بانهورميتا، والتي لم يفلت منها تماماً حتى بوغيو(18) الذي كان محط إعجاب، بل لأننا يجب

أن نكون أعطينا مصباحاً يمكّن ضوءه الناس من دراسة آثار الماضي الرفيعة. إذ لمَ يتطلّب الأمر من شاب مثل بوليتزيانو (الذي لم يكن قد ولد بعد حين كنت أنا جديراً في نظر الناس بإجراء مناقشة مع توماس سارزانا) (19) أن تكون لديه ذاكرة رائعة كمعلّق على مجموعة القوانين (الباندیكتات)(20) – ولمَ تتوارث الأجيال فيسينو الذي تشكل لغته اللاتينية إساءة لي،والذي يطوّف متبلّد الذهن(21) بين الاستيهامات الخيالية التي وسمت يوماً انحطاط الفن، والأدب، والفلسفة، ككاهن عالي المقام للأفلاطونية بينما أنا الذي أفوق من هو ندّ لهما لم يندّ عني شيء سوى عمل مبعثر سينتحله غيري؟ لمَ؟ لكن ابني الذي ربّيته ليجدد علمي الناضج بمشروع فتي تركني، وكل العلوم الليبرالية،كي يضرب نفسه ويعوي منتصف الليل مع الرهبان المخبولين – ويطوّف في زيارات حج تليق بأناس لا يعرفون أي ماضٍ أعرق من كتاب القداس والصليب؟– تركني عندما كان الليل آخذاً بالهبوط عليّ.

بهذه الكلمات الأخيرة آل صوت العجوز الذي كانت حدته قد ارتفعت احتجاجاً، إلى رنّة تقريع كانت جد مرتعشة وحزينة حتى إن روملا شعرت، بعد أن حوّلت بصرها مرة ثانية صوب وجه العجوز الكفيف، أن فؤادها عامرٌ بشفقة متسامحة. اتخذت مجلسها بقرب أبيها مرة ثانية، ووضعت يدها على ركبته – جد فخورة بشكل لم تقو معه على إبراز العزاء في كلمات قد تبدو تبريراً لقيمتها (روملا) الخاصة، لكن راغبة في الآن ذاته في تهدئته بإشارة ما تدلّل على وجودها.

قال باردو، متيحاً ليده اليسرى المثقلة بالخواتم الواقية من

الأمراض (22) أن تسقط بنوع من القوة على ظاهر يد الفتاة اليمنى الرهيفة المعروقة بالأزرق مما حداها لأن تعض على شفتها لتكبح نفسها من الجفلة: " أجل، ياروملا. إذا حدث ولم يذكرني إلا فلورانسة وحدها فإن ذلك إنما يكون على الأساس نفسه الذي ستذكر نيقولو نيقولي (23) – لأنني أقلعت عن المسعى الفظ لجني الثروة من التجارة كي أكرس نفسي لجمع البقايا الثمينة للفن والحكمة القديمين، وأتركها، تمثلاً بالرومان الأسخياء، لأبناء جلدتي لقاء ممتلكات أزلية. لكن لماذا أقول فلورانسة وحدها؟ إذا ما تذكرتني فلورانسة ألن يذكرني العالم قاطبة؟... لكن، " أضاف باردو بعد صمت وجيز، مع انحدار صوته مرة ثانية إلى رنة مؤسية، " لقد سبب موت لورينزو المفاجئ صعوبة جديدة. لقد قطع لي وعداً – كان يجب أن أحصل على ضمان – بأن تحمل مختاراتي دائماً اسمي ولن تعرض للبيع، برغم أن المحتالين قد يضعون أيديهم على كل شيء آخر. لكنهم سيجدون ما يكفيهم – أكثر من كفايتهم – وبالنسبة إليك أيضاً تذكري، يا روملا، سيبقى لك ما يكفي. أضف، إنك ستتزوجين، وبرناردو يقرّعني لأنني لا أسعى وراء parentado(24) لك، ولن نؤجل الأمر أكثر، سننظر في الأمر ".

قالت روملا على عجل: "لا، لا، يا أبتاه، ماذا بإمكانك أن تفعل؟ أضف إلى أن هذا عديم الجدوى. تريّث ريثما يسعى أحدهم ورائي."

" لا، يابنيتي، هذا ليس بالواجب الأبوي. لم يكن هذا معتقد الأقدمين، وفي هذا الصدد لم يتراجع الفلورانسيون عن تقاليدهم السلفية

."

قالت رومولا بعد أن توسعت حدقتاها قلقاً: " لكنني سأدرس بكل الحرص. سأرقى إلى علم كاساندرا فيديلي (25). سأسعى لأن أكون نافعة كما لو أنني كنت صبياً، وعندئذ ربما سعى علاّمة كبير إلى الزواج بي، ولن يأبه بمهر. وسيرغب في أن يأتي ويعيش معك، وسيكون لك بمقام أخي... ولن تحس بالندم لأني ابنتك ".

سمع نشيج متصاعد في صوت رومولا عندما فاهت بالكلمات الأخيرة، مما حرّك الشغاف الأبوية في فؤاد باردو. رفع يده قليلاً للأعلى بحثاً عن شعرها الذهبي، وبينا وضعت رأسها تحت يده أخذ يداعبه بحنان منحنياً نحوها كما لو أن عينيه قد أبصرتا لمعاناً ما فيه .

" لا، يا حبيبتي رومولا، لم أقل هذا. إن كنت نطقت بحرم كنسي على ابن منحل وعاق إلا أنني لم أقل سوى إنني أتمنى لك أن تكوني الابنة المطيعة التي كنتها دائما بالنسبة لي. إذ أي ابن كان يمكن أن يرعاني بمثل هذا اللطف عندما ألم بي مؤخراً المرض أكثر من مرة ؟ وحتى في مسألة العلم فإنك لست، حسب تقديري، بالابنة التي لا تستحق التقدير. ولربما هناك شيء ما يتمناه المرء في قدرتك على الاهتمام والتذكر، لا يتنافر حتى مع العقل الأنثوي. لكن كما شهد كالكونديلا بذلك عندما ساعدني في تعليمك فإنك تتمتعين بحضور البديهة، بل وبذكاء واسع الطيف. كما أن لديك نبالة روح الرجل: لم تغيظيني قط برغباتك التافهة كما كانت تفعل أمك. صحيح كنت

أحرص على أن تكوني بمنأى عن التأثير المفسد لبنات جنسك بما لهن من خفة وطيش كعصفور الدوري وخيالات استعبدتهن، خلا، وأيم الحق، ابنة عمنا بريجيدا التي هي أشبه بفزاعة وإشارة تحذير. وعلى الرغم من أنني – ما دمت أتفق مع بترارك الإلهي عندما يقول مقتبساً " أولولاريا " لبلوتوس، والذي بدوره مدين بالحقيقة للفكر اليوناني السامي، " Optimam foeminam nullam esse, alia licet alia pejor sit"26 – لا أستطيع التباهي بأنك كليّةً خارج تلك الزمرة الدنيا التي ضمتك الطبيعة إليها، ولا حتى في اللوذعية أنت على سوية مع النساء الأكثر علماً وثقافةً في هذا العصر، إلا أنك، رغم هذا كله – أجل، ياحبيبتي رومولا "، قال العجوز بعد أن ذابت حذلقته مرة ثانية لتصير حناناً ورقة، " أنت ابنتي الحلوة، وصوتك يشبه نغمات العود ذات المقام الواطئ " dulcis,durabilis,clara , pura, secana aera er auribus sedens " حسب تعبير كوانتيليان المفضل (27). وبرناردو يخبرني أنك جميلة، وشعرك مثل إشراقة الصباح، والحق أنه يبدو لي أنني أميّز بعض ألق صادر عنك. آه! أنا أعلم كيف يبدو كل الآخرين في هذه الحجرة، لكن شكلك ليس لي سوى أن أخمّنه. لم تعودي تلك الأنثى الصغيرة من سن ست سنوات، تلك التي توارت بالنسبة لي في الظلام. أنت طويلة القامة، وذراعك لا تقصر عن ذراعي إلا قليلاً. دعينا نتمشَّ سوياً ".

نهض العجوز، ورومولا، وقد هدأت أشعة الحنان هذه من روعها، فقد بدت سعيدة مرة ثانية بينا شبكت ذراعه بذراعها، ووضعت

في يده اليمنى العصا التي كانت موضوعة بجانب كرسيه. بينما كان باردو جالساً لم يبد عليه أنه جاوز الستين: فوجهه، رغم شحوبه احتاز على ملامح صافية لا تعرف فيه التجاعيد والخطوط أي عمق. لكنه أما وقد بدأ الآن بالمشي فإنه بدا في سنه الحقيقي – أكبر من سبعين بقليل. فقامته الطويلة النحيلة كانت مقوّسة ككتفي طالب، وكانت خطوته تشي بمشية الكفيف المترنحة.

قال متوقفاً عند تمثال هادريان النصفي وممرراً عصاه من اليمين إلى اليسار كي يتسنى له استكشاف الخطوط الإجمالية المألوفة ب " يدٍ ترى: " لا، يا رومولا، لن يكون هناك شيء آخر للمحافظة على ذاكرتي ومواصلة سمعتي كفرد من أفراد جمهورية الأدب العظمى – لا شيء سوى مكتبتي ومجموعة أثرياتي ". وتابع باردو ضاغطاً على التمثال النصفي ومتحدثاً بلهجة الملحاح:" وهي المفضّلة لدي.أعلم أن مجموعات نيقولو كانت أضخم. لكن خذي أية مجموعة من عمل شخص واحد – حتى تلك من تأليف بوكاتشيو(28) العظيم – فإن مجموعتي تفوقها. وتلك من تأليف بوجيو فلا مجال لمقارنتها بمجموعتي. ستكون تقدمة عظيمة للأدباء الذين لم يولدوا بعد. وليس هناك شيء آخر. إذ حتى وإن استسلمت لمشيئة ألدو مانوتزيو(29)، عندما ينشئ مطبعته في البندقية، وقدمت له المساعدة بمخطوطاتي مع حواشيها فإنني أعرف جيداً ماذا ستكون النتيجة: اسم أديب آخر سيظهر على الصفحة الأولى للطبعة – أديب ما كان سيقتات على عسلي، ثم يعلن في مقدمته أنه قد جمع كل ذلك بنفسه مباشرة من

هيميتـوس (30) وإلا، لمـاذا أنـا رفضـت الاسـتدانة مـن العديـد مـن المخطوطات المزودة بالحواشـي؟ لماذا رفضت نشر أي من ترجماتي علـى المـلأ؟ لمـاذا؟ إن لـم يكـن لشـيء فـلأن المعرفـة هـي نظـام لسـرقة مرخّصـة، وصـاحبك ذو الثـوب القرمـزي والـرداء الفـروي الـذي يجلـس قاضياً على اللصوص هو نفسه لص يسرق الأفكار والشهرة التي تعود لزملائـه. لكـن ضـد تلـك السـرقة سيناضـل بـاردو دي بـاردي – رغـم أنـه كفيف ومنبوذ، سيناضل. أنا أيضاً لي الحق بأن تحفظ ذكراي – بالحق الكبير نفسه الذي لبونتانوس (32) أو ميرولا، اللذين سيكون اسماهما علـى شـفاه الأجيـال اللاحقـة لأنهمـا سـعيا وراء رعايـة الأغنيـاء للفنـون ووجداها. لأن لهما لسانان يلهجان بالمديح، ودم تعود على الاقتيات من سلة الزبون. معي كل الحق بأن تحفظ ذكراي ".

وفـي الحـال أصـبح صـوت العجـوز مرتفـع النبـرة ومرتعشـاً، وغطت ملامحه الدقيقة التقاطيع التي تنم عن الكبرياء حمرة وردية بينما أعطت وضعية الرأس المرفوع التي درج عليها الانطباع بأنه رأى وراء حجاب عماه محكمة عليا خيالية كان يقدّم لها استئنافه ضد إجحاف الشهرة.

حرّك السخط المتعاطف مشاعر رومولا، ذلك أن طبيعتها أيضاً كانت تحتضن المطالب الكبيرة ذاتها، وروح النضال ذاتها ضد التنكر لها. حاولت أن تهدّئ والدها بما رقي إلى كلمة أكثر أنفة حتى من كلمته.

" رغم ذلك، يا أبتاه، إنها تقدمة عظيمة للآلهة أن يولد المرء وهو

يحمل كراهية وازدراءً لكل صنوف الظلم والدناءة. إن جيلكم أكبر من هذا بكثير، لم يقارف الكذب ولا الخضوع، كما لم يشارك في ألقاب شرف تمت حيازتها بالغش. هنالك قوة في الازدراء كما في السورة القتالية التي يفقد معها الناس كل إحساس بألم الجراح".

أجاب باردو بعد فترة فاصلة قصيرة كان قد بدأ فيها يتكئ على عصاه مرة ثانية، ويتابع مشيه: " قول حسن، يا رومولا. إنها كلمة بروميثية تلك التي نطقت بها. وأنا حقاً لن أكون هدفاً لمرمى سهام الحظ. إن سلاحي هو وجدان نظيف من æs triplex (33)، وعقل يقتات على مبادئ الفلسفة. " إذ إن الناس "، كما يقول إبيكتيتوس " لا تزعجهم الأشياء بحد ذاتها، بل الآراء أوالأفكار المتعلقة بتلك الأشياء ". ومرة أخرى:" أي إنسان يبغي أن يكون حراً، يجب ألا يرغب أو يخاف ما يقدر الآخرون على إما إنكاره أو استخدامه كعقوبة: وإلا كان عبداً "(34)

ومن بين كل تلك العطايا التي تعتمد على أهواء الحظ أو الناس لقد تعلمت منذ أمد أن أقول مع هوراس – الذي هو، رغم ذلك، متردد بشكل زائد في فلسفته يتأرجح بين مبادئ زينون والأقوال المأثورة الأقل جدارة لإبيقوروس، ويحاول، كما نقول، " duabus sellis sedere" فيما يتعلق بمثل هذه الحوادث أقول بالإيجاز البليغ للشاعر –

“ Sunt qui non habeant,est qui non curat habere "(35)

فهو يشير إلى جواهر، وأرجوان، وأمارات أخرى على الثروة.

لكنني قد أطبّق كلماته بما لا يقل عدالة عن ذلك على السجايا التي يمدحنا بها الناس بشفاههم وأقلامهم والتي هي أيضاً مسائل شراء، وغالباً ما يكون ذلك برديء العملة. أجل "inanis"– جوفاء، فارغة – هو النعت الذي يطلق عن وجه حق على الشهرة ".

عقب هذا طافا في أرجاء الغرفة يجللهما الصمت، لكن أقوال باردو التي فاه بها لم يكن لها سلطان على العاطفة التي لم تنفك عن تحريك مشاعره، كما لو أنها كانت كتبت على رق وعلّقت حول رقبته في صرّة محكمة الإغلاق، وسرعان ما انطلق لسانه مرة ثانية بلهجة جديدة من الإلحاح.

"inanis؟– أجل، إذا كانت شهرة كاذبة، ولكن ليس إذا كانت المكافأة العادلة على العمل والهدف العظيم. أنا أطالب بحقي: ليس من الإنصاف ألا يكون كد ذهني ويدي مأثرة لي– ليس من الإنصاف أن يحمل كدّي اسم شخص آخر. وهذا ليس بالمطلب الكبير"، تابع العجوز حديثه بمرارة قائلاً:" أن يوضع اسمي فوق الباب – أن يعترف الناس أنهم مدينون لمكتبة باردي في فلورانسة. لعلهم سيتحدثون ببرود عني: سيقولون " جامع وناسخ حريص " " وكذلك يتسم ببراعة انتقادية، لكنه شخص بالكاد أن يكون متميزاً في عصر خصيب جداً بالأدباء اللامعين. ومع ذلك فهو يستحق شفقتنا، إذ أنه في آخر سني حياته أصيب بالعمى، وابنه الوحيد الذي كرّس لتعليمه زهرة عمره – ". رغم ذلك سيتذكرون اسمي، وسيكرّمني الناس: ليس بكلام المديح المشرى برشوة الناس بل لأنني عملت وكددت، ولأن كدّي سيبقى.ديون! أعلم

أن هناك ديوناً، وهناك مهرك، يا رومولا، متوجب السداد. لكن يجب أن يكون هناك ما يكفي – أو، على الأقل سيكون العجز لمبلغ صغير فقط، من قبيل ما سيوفره السينوريا. ولولا موت لورينزو لكان كل شيء قد تم تأمينه وسداده. لكن الآن..."

في هذه الآونة فتح ماسو الباب، وأعلن، بعد توجهه إلى سيده، أن نيلو، الحلاق، قد رغب إليه أن يبلّغ أنه قد جاء وبرفقته أديب يوناني يستأذن بالتعريف.

قال العجوز:" هذا أمر حسن. أدخله ".

أحب باردو دائماً، وقد أدرك أنه بدا أكثر اتكالية عندما كان يمشي، أن يجلس بحضور غرباء، وروميولا، دونما حاجة لتنبيهها، أرشدته إلى كرسيه. كانت تقف بقربه بكل قامتها وبكل هدوء وجلال رباطة الجأش عندما دخل الضيفان.كان الأمر شاقاً حتى بالنسبة للمراقب النافذ البصر أن يخمّن أن هذا الوجه الشاحب الأبي يمكن أن يصير، عند أدنى لمسة لشغاف المحبة أو الشفقة، مفعماً بعاطفة الرقة والحنان، أو أن هذه المرأة، التي أضفت الإحساس بالمهابة على كل من اقترب منها، كانت تتسم ببساطة وجهل الصبية فيما يخص العالم الثاوي خارج كتب والدها.

[II]

الفصل السادس

آمال تلوح في الأفق

عندما فتح ماسو الباب ثانيةً وأدخل الضيفين، دفع نيلو، الذي أظهر بدايةً إيماءة احترام عميق لرومولا، تيتو برفق أمامه، وتقدم وإياه نحو والدها.

قال بلهجة أكثر تدقيقاً واحتراماً مما درج عليه: "سيد باردو، لي الشرف أن أقدم إليك الأديب اليوناني الذي تاق إلى سماع حديثك، ليس بسبب ما أفدته به عن علمك ومجموعاتك النفيسة فحسب بل أيضاً للدعم الذي يمكن أن تقدمه له رعايتك بسبب الفاقة العرضية التي ألمّت به بعد أن تحطمت سفينته. اسمه تيتو ميليما، في خدمتك ".

ما كان يمكن لدهشة رومولا أن تكون أكبر مما كانت لو كان الغريب يرتدي جلد فهد ويحمل الترسوس (1) ذلك أن الحلاق الماكر لم يقل شيئاً عن عمر أو مظهر اليوناني. ومن بين زوار والدها من الأدباء لم يقع بصرها سوى على أشخاص متوسطي العمر أو شيب الشعر. كان هناك وجه ذكوري واحد فقط، شاب ووسيم معاً، بقيت صورته عالقةً في ذهنها. كان ذلك وجه أخيها الذي كان يجلسها على ركبته منذ أمد بعيد، ويغمرها بقبلاته، ولم يعد ثانية قط: وجه جميل ذو شعر غمرته الشمس بضيائها، مثل شعرها. لكن الموقف الاعتيادي لعقليتها تجاه الغرباء – اعتماد على النفس يتسم بالكبرياء والعزم على

السؤال عن لا شيء حتى ولو بابتسامة – والذي تأكد في شخصها بتكرر شكوى والدها من الظلم الموجود في العالم، كان أشبه بساتر ثلجي أحدق بهبة مفاجئة من دهشة معجبة. أبان وجه تيتو جماله المشرق المشوب بمسحة غنىً، دون أي ينافسه أي لون، فوق معطفه الأسود أو sajo الذي وصل حتى ركبتيه. بدا أشبه بإكليل ربيعي ارتمى فجأة في حياة رومولا الشابة لكن الشتائية، التي لم ترث شيئاً سوى ذكريات – ذكريات أم متوفاة، وأخ مفقود، والأوقات الأكثر هناءة لأب كفيف – ذكريات نور، وحب، وجمال ناءٍ ثوى قابعاً في مناجم سوداء من الكتب، والتي لم تكد تشع ببريقها ثانيةً حتى يشعلها لها مشعل من فرح معهود . رغم ذلك فقد ردّت على تحية تيتو التي بادرها بها عند دخوله، بالوجه الشاحب الأبي ذاته، لكن، عند اقترابه ذاب الجليد، وعندما غامر بالالتفات صوبها ثانية أثناء حديث نيلو علت وجهها حمرة وردية لتتلاشى من ثمّ على الفور تقريباً كما لو أن إرادتها المهيبة قد استردتها. أما نظرة تيتو فقد كانت، على العكس، تتسم بذلك الإعجاب الدمث التوسلي الذي يرضي أكثر من غيره ما تستهويه امرأة أبية خجول، ولعلها الكفارة الوحيدة التي يمكن أن يقدمها إنسان لكونه مفرطاً في وسامته. هذا، وقد جاء سحر حضوره المتقن بصورة أساسية من غياب التطلب والادعاء. لقد كان سحر حيوان رشيق، ناعم البشرة، أدعج العينين من الصنف الذي يسرّك بعدم قفزه هرباً منك لعدم المبالاة، ويسند ذقنه على غير توقع على راحتك، وينظر إليك للأعلى راغباً في التمسيد والملاطفة – كما لو كان يحبك.

قال باردو ببعض التنازل:" سيدي، أرحب بك. سوء الحظ مقترناً بالعلم، ولاسيما العلم اليوناني، هو كتاب اعتماد لا بد أن يفوز بإصغاء كل فلورانسي متعلم. إذ أنه، كما لا بد تدرك، منذ الفترة التي نشر فيها مواطنك، مانويلو كريزولورا، نور تعليمه في المدن الرئيسة في إيطاليا، وقد مضى لحدّ الآن حوالي قرن على ذلك، فلا أحد يستحق اسم الدارس الذي لم يكتسب سوى الأدب اللاتيني الفرعي والمنقول من تربته. مثل هؤلاء الدارسين الخامدين يوسمون بالأحرى بـ opiciأو برابرة (2) حسب تعبير الرومان أنفسهم والذين أعادوا، كما هي جلي، ملء أباريقهم عند رأس النبع. أنا، كما ترى، وكما نبّهك نيلو مسبقاً، دون ريب، كفيف تماماً: مصيبة نُحمَّل معشر الفلورانسيين خاصة مسؤوليتها، سواء أكان هذا يرجع إلى الرياح الباردة التي تهب علينا في الربيع من ممرات الأبينين، أم إلى الانتقال المفاجئ من الظلمة الباردة في مساكننا إلى السطوع المبهر لشمسنا الصيفية والتي بفعلها يقال إن lippi (3) قد تكاثروا كثيراً بين قدماء الرومان، على ما يقال . أو، بالاختصار، إلى سبب خفي ما يراوغ تخميناتنا السطحية. لكن تفضّل بالجلوس: نيلو، يا صديقي، اجلس".

توقف باردو عن الكلام إلى أن أكدت له أذنه المرهفة أن الضيفين قاما بالجلوس، وأن رومولا كانت تتخذ مجلسها الاعتيادي بجانب يده اليمنى. ثم قال –

" من أي صقع من بلاد اليونان أنت، يا سيدي؟ كنت إخال أن بلدكم الحزينة قد كادت أن تنضب من أولئك الأبناء الذين يمكنهم أن

يحتضنوا في عقولهم أية صورة عن أيام مجدها الأصلي، رغم أن السلاطين البرابرة، في الواقع، قد بانوا مؤخراً أنهم ليسوا عزوفين عن تطعيم جذوعهم البرية بالعنب الثمين الذي اجتثوه بأيديهم المتوحشة وداسوه تحت الأقدام. من أي صقع من بلاد اليونان أنت قادم؟ "

قال تيتو: " أبحرت مؤخراً من ناوبليا(4)، لكنني أقمت في القسطنطينية وتسالونيكا معاً، وطوّفت في أصقاع عدة قلّما زارها المسيحيون الغربيون منذ انتصار الجيوش التركية. على أنني يجب أن أخبرك، يا سيدي، بأنني لست من مواليد اليونان، بل باري. أمضيت الست عشرة سنة الأولى من حياتي في جنوبي إيطاليا وصقلية ".

أثناء حديث تيتو اعترى قسمات باردو الرهيفة قدر من انفعال، مثل نسمة مرّت على المياه . مال للأمام، وبسط يده اليمنى نحو رومولا، والتفت كما لو أراد أن يتحدث إليها لكنه عند ذاك عدّل وضعيته، وأشاح ثانيةً، وقال، بصوت خفيض–

" عفوك، أليس صحيحاً – أنت شاب؟"

قال تيتو " أنا في الثالثة والعشرين " .

قال باردو، وهو ما زال يبدو في حالة من الانفعال المكبوت " آه. وكان لك، بالتأكيد، أب حريص على تعليمك منذ سن باكرة – ولربما كان أديباً هو نفسه؟"

تلت فترة صمت قصيرة قبل أن يصل جواب تيتو إلى مسمع باردو، لكن بالنسبة لرومولا ونيلو بدأ الأمر بصدمة طفيفة بدت أنها اعترته، وسببت ارتعاشة لحظية في الشفة. ما من ريب نتيجة لانبعاث

ذكرى مؤلمة إلى حد كبير.

" أجل. على الأقل أب بالتبني. كان نابولياً، ومثقفاً ضليعاً، في اللاتينية واليونانية معاً".

وأضاف تيتو بعد فترة صمت قصيرة أخرى: " لكنني فقدته – فقد أثناء رحلة إلى ديلوس نفّذها بطيش كبير ".

انكفأ باردو ثانيةً في مقعده للوراء وهو يتسم بكياسة مفرطة حالت دون أن يسأل سؤالاً آخر يمكن أن يستثير أسىً استشف أنه كان حديث العهد. أما روميولا التي عرفت جيداً نوع الشغاف التي لامسها صوت تيتو في والدها، فقد شعرت أن هذه المعرفة الجديدة اخترقت بفجائية مدهشة الحاجز الذي قام بينهما وبين العالم الغريب عنهما. أما نيلو، الذي اعتقد أن التوقف الواضح الذي ألمّ بالحديث قد وفر فرصة لبقة ليخلّص نفسه من الصمت، فقد قال –

" في الحق، إنه واضح كوضوح الزجاج الفينيسي أن هذا الشاب الجميل قد تلقّى أحسن تعليم. إذ أن الكاتبين سينيني قد جعلاه يهتم بصحائفهما اليونانية قبلاً، ويبدو لي أنهما ليسا بأناس يبدؤون القطع قبل أن يختبروا رهافة أدواتهم. لقد اختبراه جيداً من قبل، فلنكن واثقين من ذلك، وإذا كان هناك شيئان لا يمكن إخفاؤهما – الحب والسعال – فإني أرى أن هناك ثالثاً، وهو الجهل، إما يكره المرء على فعل شيء إضافة إلى التلويح برأسه. لا مفر من أن tonsor inequalis (5) مخدوع عندما يتناول المقص في يده. أليس كذلك، يا سيد باردو؟ أتكلم كما يتكلم الحلاقون، لكن، كما يقول لويجي بولسي –

“Perdonimi s'io fallo: chi m'ascolta

Intenda il mio volgar col suo latino."(6)

قال باردو بما يشي بمسحة من صرامة وديّة " لا، يا عزيزي الطيب نيلو، أنت لست أميّاً تماماً، ولربما كنت أفلحت بشكل أكبر في علمك لو كنت أمسكت نوعاً ما عن ال (7) cicalata وثرثرة ناصية الشوارع التي أدمن عليها أعزاؤنا الفلورانسيون بشكل مفرط. لكن رغم ذلك الأكثر من هذا، لو أنك لم تسدّ ذاكرتك بتلك النتاجات العبثية التي ضرب بها لويجي بولسي نموذجاً هو الأبعد عن الذوق – خلاصة لصور الغلوّ والنبوّ هي الأبعد ما تكون عن نماذج حقبة نقية، وتشبه بالأحرى الـ grylli(8) أو المظاهر الخادعة لحقبة كان المعنى الملغز فيها يتخذ ضمانة لفظاعة الشكل. مع هذا الفارق، وبينا تتم المحافظة على الفظاعة، يتوارى المعنى الملغز. وهذا يشكّل مقارنة تستحق الازدراء مع القصيد العظيم لفيرجيل، الذي جسّد، كما شاركت دائماً فيليلفو الرأي، قبل أن يأخذ لاندينو(9) على عاتقه طرح الرأي نفسه، جسّد أعمق دروس الفلسفة في قصة رمزية رشيقة جيدة السبك. ولا أملك سوى أن أعدّ تكاثر هذا اللغو، النتاجات الخارجة عن كل قاعدة، رغم تلقيها سنداً من رعاة الفنون، وبدرجة ما من أمثال لورينزو نفسه، الذي هو، خلاف ذلك، صديق العلم الحق، إشارة إلى أن الآمال الماجدة لهذا القرن ستنطفئ بالظلمة. لا، بل إنها كانت المقدمة الخادعة لعصر أسوأ من عصر الحديد – عصر الزينة الزائفة والأغشية الواهية حيث لا تنطوي أية فكرة على مضمون كاف يجعلها

تصاغ في شكل متسق ودائم ".

قال نيلو باسطاً راحتي يديه ورافعاً كتفيه: " مرة أخرى، عفوك. أجد نفسي أعرف الكثير من الأشياء بالتوسكانية الجيدة قبل أن يتسنى لي التفكير بما يناسبها من اللاتينية. وأبيات السيد لويجي دائماً يهذر بها زبائني:- هذا ما يفسدني. وفي الحق، بمناسبة الحديث عن الزبائن فقد وجدت أن صالوني وسمعتي قد مكثا لفترة زائدة عن الحد في عهدة صاحبي المتمهل ساندرو الذي لا يستحق حتى تسمية tonsor inequalis (حلاّق أخرق –م)، بل ببساطة كاتب أخرق باللسان غير الراقي. لذلك إذا أمرت، يا سيد باردو، أستأذن بالانصراف – على أن يفهم تماماً أنني رهن إشارتك في أي وقت يقصدني ماسو. يبدو أن الأمر يتطلب ألف سنة حتى أصفف وأعطّر شعر damigella (10) التي تستأهل أن تشع في السموات كالثريّا، رغم أن من المؤسي أن تكون نائية جداً بعيداً عن المتناول. "

شيّعت ثلاثة أصوات نيلو بوداع ودي عند انكفائه بانحناءة لرومولا وإيماءة لتيتو. لاحظ الحلاق الحاد البصر أن الشاب الوسيم الذي تسلل إلى إعجابه بفعل سحر قوي كان محط تقدير كبير من جانب باردو، وإذ كان راضياً لأن التعريف بصاحبه لم يفشل حتى الآن، فقد شعر أن من اللباقة الانسحاب.

حوّل الانبثاق الصغير للحنق، والذي نجم عن اقتباس نيلو غير الموفق، انتباه باردو عن المشاعر التي كانت تحيق للتوّ بمزيد من الكلام، وأخذ يوجه الآن حديثه إلى تيتو مرة ثانية بهدوئه المعتاد.

" آه، أيها الشاب، أنت سعيد لتمكنك من مزاوجتك بين محاسن السفر ومحاسن الدراسة، وستكون موضع ترحابنا لكونك جالب الأخبار الطازجة من بلد غدا غريباً على نحو مؤسٍ بالنسبة إلينا، إلا من خلال وكلاء تجارة غدت الآن محدودة، وما أفاد به الحجيج على عجل. إذ أن تلك الأيام تقع على مسافة نائية شهدتها أنا نفسي، عندما خرج أناس مثل أوريسبا (11) وغوارينو إلى اليونان كما إلى مستودع، وعادوا محملين بالمخطوطات التي تاق كل أديب لاستعارتها – و، فلنقر بشكل مخجل، لم يكونوا راغبين على الدوام بإعادتها. لا، حتى الأيام التي تقاطر فيها اليونانيون اللوذعيون إلى شواطئنا طالبين اللجوء، تبدو نائية جداً الآن – أنأى من ذهاب بصري. لكن ما من شك، أيها الشاب، لم يكن البحث عن الكنوز القديمة بغريب عن الهدف من سياحاتك؟ "

قال تيتو:" مؤكد لا. فعلى العكس، كان رفيقي – أبي – راغباً في المجازفة بحياته في غمرة حماسه لاكتشاف النقوش والآثار الأخرى المتبقية عن الحضارة القديمة ".

قال باردو مشوقاً: " وأنا واثق أنه يوجد سجل لبحوثه ونتائجها مادامت تفوق بقيمتها حتى بحوث سيرياكو(12) التي حرصت على التوفر عليها، رغم أنها لم تخضع دائماً للإنارة المعرفية الكافية ".

قال تيتو:" كان هناك مثل هذا السجل، لكنه ضاع، مثل أي شيء آخر، في الغرق الذي ألمّ بسفينتنا قبل وصولنا إلى أنكونا.

والسجل الوحيد الباقي هو ذاك الذي بقي في --- في ذاكرتي".

قال باردو باهتمام متنامٍ: " يجب ألا تضيّع وقتاً لتدوينه، أيها الشاب. من المؤكد أنك تتذكر الكثير إذا كنت ساعدت في النسخ.إذ عندما كنت في سنّك انحفرت الكلمات في ذاكرتي كما لو أنها ثبتت بمعول حفّار القبور. ولهذا أستغرب دائماً تغيّر ذاكرة ابنتي التي تقبض بكل عناد على بعض الأشياء، وتنسى كل تلك التفاصيل التي تعتمد الدقة عليها، وهي روح الدراسة المعرفية الحقّة. لكنني لا أخشى خطراً كهذا معك، أيها الشاب، إذا ما عاضدت إرادتك محاسن تدريبك ".

عندما بادر باردو ابنته بهذه الإشارة غامر تيتو بتحويل بصره ناحيتها، وعند اتهامه لذاكرتها انفرج وجهه عن ابتسامة هي الأكثر إشراقاً، ابتسامة انعكست في وجه رومولا بحتمية انعكاس أشعة الشمس التي انبلجت فجأة. تخيّلْ المتعة البلسم الثاوية في تلك الابتسامة بالنسبة لها! لم تحلم رومولا قط أنه يوجد أديب واحد في العالم يبتسم لقصور في ناحية كانت تشعر حيالها دائماً بأنها مذنبة. كان الأمر أشبه ببزوغ إحساس جديد بالنسبة إليها – إحساس بالزمالة. لم يقوما على الفور بإبعاد بصريهما عن بعضهما، كما لو أن الابتسامة قد اختلست اختلاساً. نظرا وابتسما بفرح واضح.

كان تفكير تيتو:" ليست هي حقاً باردة ومتكبرة ".

كان تفكير رومولا:" ليت شعري، هل هو ينسى أيضاً؟ مع ذلك آمل ألا يفعل، وإلا أغاظ والدي. "

لكن تيتو اضطر للإشاحة ببصره، والإجابة على سؤال باردو.

قال: " لقد زاولت النسخ لفترة طويلة، لكن في حالة النسخ التي ترجمت في مشاهد لا تنسى، ونُقلت في تأثير مضاعف بفعل الإحساس بالخطر والمغامرة، يجوز أنه حدث أن تذكري للأحرف المكتوبة قد اعتوره ضعف. وعلى سهل يوروتاس، أو بين صخور مسينا وتيرينس(13)الضخمة – ولاسيما عندما يحوّم فوق المرء الخوف من الترك مثل نسر – يتيه العقل، حتى وإن كانت اليد تكتب بكل إخلاص ما تمليه العين" . وأضاف تيتو بتواضع لم يكن كاذباً، رغم أنه أدرك أنه كان متسماً بالحكمة: " بيد أن هناك شيئاً بقي في ذاكرتي، دون شك، شيئاً يمكن أن يفيد إذا لقي توضيحاً وتنقيحاً من علم هو أوسع من علمي ".

قال باردو مبتهجاً: " كلام حسن، أيها الشاب. ومن جانبي لن أمسك عنك مساعدتي بقدر ما أستطيع، وإذا أردت التواصل معي بخصوص ذكرياتك فأنا أستشرف عملاً سيكون إضافة مفيدة لـ " إيزولاريول " لـ:كريستوفورو بونديلمونت، والذي قد يكون بمصاف " Itineraria" لـ: سيرياكو وأمبروجيو ترافيرساري المدهش (14). لكن يجب أن نعدّ أنفسنا للافتراء، أيها الشاب ". ثم تابع باردو بهمة ونشاط كما لو أن العمل كان يتنامى مسبقاً بسرعة جعلت أوان التجربة قريباً: " إذا اشتمل كتابك على ما هو جديد فستتهم بالانتحال. وإذا تصادم شرحي مع أية مبادئ للتأويل يتبناها دارس آخر فسنتعرض كلانا للهجوم الشخصي، سنتعرض للمساءلة لسوء التصرف. يجب أن تعدّ نفسك لأن يقال لك إن أمك كانت بائعة سمك، وإن أباك كان كاهناً

مرتداً أو مجرماً شُنق. أنا نفسي، تعرضت لقدح كتب ضدي اتهمت فيه بالخيانـة، والاحتيال،وقلـة الحيـاء، بـل وجـرائم شـنيعة. هكـذا هـي، يـا صديقي العزيز، الأزهار التي تنتثر على درب الدراسة المعرفية الغابرة! لكن قل لـي، إذن: لقد علمتُ الكثير عن بيزنطـة وتسالونيكا منذ أمد بعيد من ديميتريو كالكونديلا، الذي لم يغادر فلورانسـة إلا مؤخراً. إلا أنك، كما يبدو، قد زرت مطارح أقل ألفة؟"

" أجـل، قمنـا بمـا يمكـن أن أدعـوه حجّـاً محفوفـاً بالمخـاطر، لأجـل زيـارة أمـاكن كـادت أن تتلاشـى مـن الـذاكرة فـي الغـرب، إذ أنهـا بعيدة عن الدرب التي يطرقها الحجيج. وكان من عادة والدي أن يقول إن الدارسين أنفسهم لا يتصورون إلا بالكاد أن لها وجوداً خارج الكتب. كـان يحبذ الرأي الذي يقول إن حقبـة جديدة أكثر إشراقاً ستنفتح أمـام المعرفة عندما يجد الناس أن من الواجب أن ينقّبوا، من أجل تعليقاتهم علـى الكتّـاب الأقـدمين، فـي بقايـا المـدن والمعابـد، لا، فـي مجـاري الأنهار، وعلى صفحة الوديان والجبال ".

قال باردو بحماس: " آه! والدك إذن لم يكن رجلاً عادياً. هل لي أن أسأل إذا كان محظوظاً؟ هل كان له أصدقاء كثر؟ " نُطقت هذه الكلمات الأخيرة بلهجة حبلى بالمعاني.

" لا، لقد كوّن أعداءً – بصورة رئيسة، على حد علمي، بسبب صراحة جريئة. وقد أعاقوا نجاحه، لذلك عاش مغموراً. وكان يأنف من الانحناء كي يهادن : لم يكن بمقدوره أن ينسى إساءة قط ".

" آه! "، قال باردو ثانيةً بتنغيم طويل عميق.

تابع تيتو راغباً في الحيلولة دون مزيد من الأسئلة حول مسألة جد شخصية:" بين سفراتنا الخطرة أذكر بحيوية خاصة زيارة تمت على جناح السرعة إلى أثينا. وقد جعلها تعجّلنا، والخطر المزدوج في احتمال القبض علينا كسجناء من قبل الترك، وسحب سفينتنا للمرساة قبل تمكننا من العودة، جعلها تبدو كرؤيا ليلية محمومة – السهل المنبسط، الجبال المحيطة، والأروقة والأعمدة المحطمة، إما منتصبة بعيداً كما لو كانت تتراجع أمام خطواتنا المستعجلة، أو مكتظة بلا ترتيب بين مساكن المسيحيين الذين تمّ استرقاقهم، أو بين قلاع وأبراج فاتحي بلادهم المسلمين، الذين جعلوا من الأكروبول حصنهم المنيع ".

قال باردو: " تتملكني الدهشة. إذن أثينا ليست مدمرة ومختفية بالكامل عن الوجود كما كنتُ تصورت؟"

" لا أستغرب وقوعك في مثل هذا الخطأ، إذ هناك القلة، حتى من اليونانيين أنفسهم، ممن يقطنون خارج الحدود الجبلية لأتيكا، يعرفون أي شيء عن الحالة الراهنة لأثينا، أو Setine (15) كما يلقبها البحارة. أتذكر أنه عندما كنا ندور حول قنّة جبل سونيوم الداخلة في البحر، أشار القبطان اليوناني الذي كان على متن سفينتنا إلى الأعمدة الضخمة التي تنتصب على قمة الصخرة – بقايا المعبد العظيم الذي شُيّد للإلهة أثينا، كما تعلم جيداً، والتي نظرت إلى تحت من ذلك الصرح المرتفع بزهو الانتصار على غريمها المنهزم بوسيدون. حسن، قال قبطاننا اليوناني وهو يشير إلى تلك الأعمدة:

" تلك كانت مدرسة الفيلسوف العظيم أرسطو ". وفي أثينا نفسها

شدّد الراهب الذي كان يعمل كدليل لنا في المنظر الذي اقتنصناه على عجل، على إراءتنا البقعة التي عمّد فيها القديس فيليب الخصي الحبشي(16)، أو أسطورة من هذا القبيل ".

قال باردو مقاطعاً تيتو على عجل:" لا تتكلم عن الرهبان والأساطير، أيها الشاب! يكفي أن نكسو الأمل والمشروع البشريين بصقيع أبدي حتى نعتقد أن الأرض التي وطأها الفلاسفة والشعراء تدبّ فوقها تلك الحشود من الحشرات من المتطرفين المخبولين أو المنافقين المجعجعين ".

قال تيتو رافعاً كتفيه:" *بيرديو*، هم لا يستهوونني. الرق يلائم جيداً ديناً كدينهم، والذي يكمن في إنكار كل ما يجعل الحياة ثمينة بالنسبة لغيرهم. وهم تحت النير الذي يليق بهم: فنشيدهم الصباحي يغطي عليه صوت المؤذن الذي يدعو المسلمين من شرفة البرج العالي للأكروبول إلى صلاته. ذلك البرج يرتفع من البارثينون نفسه. وفي كل مرة توقفنا ووجهنا بصرنا نحوه كان دليلنا يطلق شكواه بأن معبداً تم إنقاذه يوماً من الاستخدامات الشيطانية للوثنيين ليصبح معبد عذراءٍ غير بالاس- العذراء أم الإله – قد تم حرفه الآن مرة أخرى ليخدم المرامي اللعينة للمسلمين(17). وكان مرأى أسوار الأكروبول تلك ما بان لنا على بعد بينما كنا نتكئ على جانب سفينتنا،وعندها أرغمت السفينة بفعل الرياح المعاكسة على الرسو في بيريوس، ما أثار عزم والدي على مشاهدة أثينا مهما كانت المخاطر بالرغم من تحذيرات البحارة بأننا إذا تريثنا حتى تتغير الريح فإنهم سيبحرون بدوننا: لكن،

في النهاية، كان مستحيلاً بالنسبة لنا المغامرة بالاقتراب من الأكروبول ذلك أن منظر الرجال المتلهفين لتفحص " الصخور القديمة " أثار الشك بأننا كنا جواسيس بندقيين، واضطررنا للعودة على جناح السرعة إلى الميناء ".

قال باردو بلهفة:" سنتكلم أكثر عن هذه المواضيع.إنما يجب أن تتذكر كل شيء حتى أدق ما بقي في ذاكرتك من التفاصيل . ستفوز بشكر الأزمنة اللاحقة بتركك سجلاً عن المظهر الذي كان لليونان حين لم يتمكن البرابرة حتئذ من القضاء على كل أثر للمنشآت التي وصفها بوسانياس وبليني(18): ستتخذ هؤلاء الكتاب العظام نماذج تقتدي بها. ولن أدخر جهداً من جانبي لأوفر لك ما يمكنني الإسهام به من نقد واقتراحات يسعفني بها عقلي الأكثر نضوجاً. سيكون هناك الكثير مما ينبغي التكلم عنه، إذن أنت سافرت، كما قلت، في البيلوبونيسوس؟"

" أجل. وفي بوتيا أيضاً: أخذت استراحة في غابات هيليكون، وذقت طعم نبع هيبوكرين(19). لكن في كل بقعة لا تنسى من بلاد الإغريق وضع غزو وراء غزو ميسمه حتى بات هناك خلط في الملكية حتى في الآثار مما لا يمكن إجلاؤه إلا عن طريق الدراسة والمقارنة المتأنيتين. وهناك تنتصب كالبرج فوق كل معقل، من سهول لاسيديمون حتى مضائق تيرموبيلي، قلعة فرانكية ضخمة قطنها في غابر الزمان ماركيز إفرنسي أو إيطالي هو الآن إما منبوذ أو في قبضة العصابات التركية(20) ".

" مهلاً!" صاح باردو الذي استولت على تفكيره فكرة كتاب المستقبل بشكل لم يملك معه أن ينصت أكثر لمزيد من روايات تيتو " هل تفكّر بالكتابة باللاتينية أو اليونانية؟ دون ريب اليونانية هي اللباس الأكثر جاهزية لأفكارك، وهي اللغة الأكثر نبالة. لكن من الناحية الأخرى، اللاتينية هي اللسان الذي به سنقيس أنفسنا بعدد من المنافسين المحدثين الأكبر والأبعد شهرة. وإذا كنت أقل براعة في هذا اللسان فإنني سأساعدك – أجل، سأنفق عليك تلك الدراسة التي تراكمت عبر السنين والتي كانت ستلقى في قناة عمل آخر – عمل أنا نفسي كنت سأحتاج فيه إلى مساعد ".

توقف باردو لحظة، ثم أضاف –

" لكن من يدري ما إذا كان ذلك العمل سينفّذ أو لا؟ إذ أنك أنت، أيضاً، أيها الشاب، تربيت على يدي أب صبّ في تفكيرك كل تيارات معرفته وخبرته اللتين تراكمتا على مدى فترة طويلة من الزمن. إن مساعدتنا ستكون متبادلة ".

أما رومولا التي كانت راقبت حماس والدها المتنامي، واستشرفت جيداً تيارات الشعور الخفية التي حددت كل مسألة وملاحظة، فقد شعرت بأن ألق قلق غريب يكتنفها: كانت تحوّل بصرها صوب تيتو بشكل مستمر كي تراقب الانطباع الذي خلّفته كلمات والدها فيه، وهي تخشى أن ينحو نحو طرد رؤى المساعدة هذه التي كان نورها يضيء وجه والدها بأمل جديد. لكن لا! فقد بدا مستبشراً ودمثاً: لا بد أن شعوره هو شعورها، وهو أنه في غمرة هذا التوق من

جانب عجوز كفيف كان هنالك ما يكفي من الشفقة لاستدرار صبر لا ينفد. كم سيكون شعوره أقوى لو علم بشأن أخيها! فتاة في الثامنة عشرة تتخيل المشاعر الكامنة وراء الوجه الذي أثار مشاعرها بشبابه الودي، بالسهولة نفسها التي يتخيل فيها البدائيون من الناس أمزجة الآلهة في الطقس الجيد: ما الذي ستؤمن به إن لم يكن بهذه الرؤيا المنسوجة من داخل؟

وأيم الحق لقد كان تيتو أبعد ما يكون عن نفاد الصبر. فقد سرّه أن يجلس هناك يحدوه شعور بأن رومولا كانت تركز انتباهها عليه. كان سعيداً لأن باردو سيختصه باهتمامه، وهو لم يركز بما يكفي من الجدية على أمل العمل الذي سيتلقى فيه مساعدة مما حال دون أن تتأثر مشاعره بفعله وأن يميل إلى أي شيء غير تلك الموافقة السهلة الرائقة التي كانت أمراً طبيعياً بالنسبة له.

قال رداً على كلمات باردو الأخيرة:" سيكون من دواعي سروري وفخري إذا نظر إلى خدماتي كتقدمة توائم التحصيل العلمي الناضج للسيد. لكن دون ريب " – هنا التفت إلى رومولا – " إن آنستك الجميلة، ابنتك، تجعل كل عون آخر فائضاً عن الحاجة. ذلك أنني علمت من نيلو أنها تغذّت من أرفع الدراسات منذ سنواتها الباكرة ".

قالت رومولا:" إنك مخطئ. أنا لا أكفي والدي بأي شكل من الأشكال: ليست لدي المواهب الضرورية للدراسة المعرفية ".

لم تفه رومولا بهذه العبارة المقللة لشأن ذاتها بلهجة تنمّ عن

تواضع مشوب بالقلق بل بجدية أبيّة.

" لا، يا عزيزتي رومولا "، قال والدها وهو غير راغب في أن يكون تصوّر الغريب عن قدرات ابنته جد متواضع، " أنت لست خلواً من المواهب. بالأحرى، أنت حبيت بقدر يتخطى كل امرأة. لكن لك ما لدى النساء من كيان رهيف يصبو دائماً نحو الدعة والتنوع، وبالتالي ينتج خيالاً يهيم في شتى الأرجاء. إن ابنتي " – هنا توجه بالحديث إلى تيتو – " ما تزال هي الأغلى بالنسبة لي، تملأ بأقصى ما تقدر عليه مكان ابن. إذ أنه كان لي يوماً ابن... "

كبح باردو زمام نفسه: لم يرغب في أن يبدو موقفه موقف المتشكي في حضور شخص غريب، وتذكر أن هذا الشاب الذي استحوذ على اهتمامه بشكل غير متوقع كان ما يزال غريباً، وكان من اللائق أن يحافظ تجاهه على موقع الراعي. استثير كبرياؤه بمقدار ضعف حيويته بفعل الخشية من أن يكون قد غفل عن عزة نفسه.

استأنف حديثه بنغمة تنازله الأصلية: " لكننا قد انحرفنا عما أعتقد أنه بالنسبة إليك الشأن الأكثر أهمية. لقد أخبرني نيلو بأن لديك بعض الجواهر التي ترغب في التخلص منها، وأنك ترغب في توفير السبيل لشخص واسع الثراء والذوق ممن يحتمل أن يصبح شارياً ".

" هذا صحيح. ذلك أنه رغم حصولي على وظيفة مصحح مع الأخوين سينيني فإن أجري لا يترك لي سوى هامش ضيّق أبعد من تأمين حاجياتي الضرورية، وهامش أقل حدا بصديقي الطبيب نيلو إلى الإلحاح على استئجار مسكن منه، وهو لا يأتي على ذكر الأجرة إلى

أن تتحسن الأحوال ".

قال باردو:" نيلو شخص مسرف طيب القلب. ورغم ما يتصف به من حسن استماع وحسن كلام فإنه شديد الشبه بمارجيتس (21) سيئ الصيت – في معرفة كثير من الأمور، ومعرفتها جميعاً بشكل سيئ، كما لفتُ انتباهه للتو – إنه رغم ذلك " abnormis sapiens "(22) يقتدي في طريقته بأصحابنا من مواليد فلورانسة. لكن هل معك الجواهر؟ أرغب كل الرغبة في معرفة كنهها – ومع ذلك فهي عديمة الفائدة: لا، لا يمكن سوى أن تعمّق الأسف. لا أستطيع أن أضيف شيئاً إلى مخزوني ".

قال تيتو وهو يتأهب لإخراج علبة صغيرة من صدرته: " لدي نقش أو نقشان رائعا الجمال ".

لكن ما إن رأت رومولا الحركة حتى نظرت إليه بجدية ذات دلالة ووضعت إصبعها على شفتيها.

(23) ‘Con viso che tocendo dicea , Taci '

لو أُعلم باردو بأن الجواهر كانت في المتناول لرغب – كما كانت تعرف حق المعرفة – في وصف تفصيلي لها، وسيؤلمه أن تفلت منه، حتى ولو لم يلحّ على وسيلة ما لابتياعها رغم الفقر. لكنها لم تكد تبدي تلك الإشارة حتى شعرت بالذنب والخجل نوعاً ما لكونها اعترفت حقيقةً بنقطة ضعف في والدها لشخص غريب. بدا أنه كان مقدّراً لها أن تشعر بثقة وإلفة فجائيتين نحو هذا اليوناني الشاب، على النقيض، وياللغرابة، من كبريائها وتحفظها المقيمين. وهذا الشعور استجرّ، كرّة

أخرى، اللون غير المعهود إلى وجنتيها.

فهم تيتو نظرتها وإيماءتها، وسحب يده على الفور من العلبة قائلاً بلهجة لامبالية كي يجعل ذلك يبين أنه مجرد استطراد للحديث الأخير: " لكنها عادة في حرز أمين مع السيد دومينيكو سينيني الذي يتوفر على أمكنة حصينة وآمنة لهذه الأشياء. وهو يقدّر أنها تساوي على الأقل خمسمائة دوقية ".

قال باردو: " آه، إذن، هي نقوش جميلة. خمسمائة دوقية! آه، أكثر من فدية إنسان!"

ندّت عن تيتو جفلة طفيفة تتخطى الملاحظة أو تكاد، وفتح عينيه الوسيعتين السوداوين بدهشة استفسارية لمرأى وجه باردو الأعمى، كما لو أن كلماته – مجرد عبارة عن حديث عادي، في وقت كان فيه الناس يعتقون غالباً من العبودية أو السجن – كانت تعني شيئاً خاصاً بالنسبة إليه. لكنه في اللحظة التالية نظر نحو رومولا، كما لو أن عينيها لعبتا دور مترجم والدها. لقد تصوّرت، وهي مشغولة مسبقاً بما كان يمس والدها – أن تيتو كان ينظر إليها مرة أخرى بانتظار بعض الإرشاد، وتكلمت على الفور.

" أليساندرا سكالا مفتونة بالجواهر، كما تعلم، يا والدي. فهي تلقبها بزهرات شتائها. كما أن السكرتاريو (24)، يكاد يكون من المؤكد، سيشتري أية جواهر تروق لها. أضف إلى أنه هو نفسه يحتفظ بمخزون كبير من الخواتم التي يضعها لمكافحة الألم في مفاصله ".

قال باردو: " هذا صحيح. بارتولوميو لديه إفراط في الثقة

بفعالية الجواهر – ثقة أكبر مما يجيزها ويوافق عليها بليني (23) الذي يبيّن بوضوح أنه يرى أن شتى الاعتقادات من هذا النوع إن هي إلا خرافات عديمة التأثير، رغم أن هذا لا يصل إلى حد الإنكار التام للفضائل العلاجية للجواهر. ولهذا السبب، كما ترى أيها الشاب، أنا نفسي أضع بعض الخواتم التي وصفها لي الحصيف كاميلو ليوناردي في رسالته عندما أصبت لسنتين خلتا بمرض خدار مفاجئ. لكنك أجدت التعبير، يا رومولا، سأملي رسالة إلى بارتولوميو سينقلها إليه ماسو. لكن أحسن السيد صنعاً إذ أطلعك على كنه الجواهر، إضافة إلى النقوش عليها، كضمانة لبارتولوميو بأنها ستحظى باهتمامه ".

قالت رومولا التي تشجعت، بفعل الخوف من أن تنتاب والدها نوبة هوس المقتني للجواهر، لأن ترفض اقتراحه. " لا، يا أبتاه، ستكفي كلمتك لأن تفيد بأن السيد هو صاحب علم ومعرفة، وقد سافر كثيراً. لن يحتاج السكرتاريو إلى مزيد من الترغيب لاستقباله ".

قال باردو بعد أن لامست الكلمات فيه وتراً كان لا بد أن يستجيب:" " هذا صحيح، يابنيتي. لست بحاجة لإضافة براهين وحجج تأكيداً لكلمتي إلى بارتولوميو. وأنا لا أشك في أن حضور هذا الشاب يتلاءم ونغمات صوته، حتى إنه ما إن يُفتح الباب مرة حتى يكون أفضل محام يدافع عن نفسه ".

توقف باردو هنيهة لكن بدا واضحاً أن صمته كان مشحوناً بفكرة ما كان يتردد في التعبير عنها، إذ أنه مال قليلاً للأمام، في وقت من الأوقات، كما لو أنه كان يتأهب للحديث، ثم أشاح بوجهه إلى

جانب نحو رومولا، وانكفأ للوراء ثانية . وأخيراً، كما لو أنه قد حزم أمره، قال بلهجة كانت ستليق بأمير يعطي إيماءة الانصراف الملكية –

" أنا مرهق نوعاً هذا الصباح، وأرغب في مقابلتك مرة ثانية غداً، عندما سيكون بمقدوري أن أعطيك جواب السكرتير الذي يخوّلك بأن تقدم نفسك إليه في وقت محدد. لكن قبل أن تنصرف "– هنا آلت لهجة العجوز رغماً عنه إلى لهجة أكثر تلعثماً – " ربما سمحت لي أن ألمس يدك؟ منذ مدة لم ألمس يد شاب ".

مدّ باردو يده البيضاء الشائخة وقام تيتو على الفور بوضع أصابعه الداكنة لكن الناعمة والرهيفة داخلها. أطبقت أصابع باردو المتشنجة عليها واحتفظ بها لبضع دقائق خلد أثناءها للصمت. ثم قال –

" رومولا، هل لهذا الشاب نفس بشرة أخيك – جميلة وشاحبة؟"

أجابت رومولا بهدوء محسوم رغم أن قلبها بدأ يدق بعنف مع اختلاط مشاعرها: " لا، يا أبتاه. إن شعر السيد أسود – وبشرته دكناء ". في سرّها قالت " هل سيهتم لهذا؟ هل لن يروقه ذلك؟ لا، يبدو دمثاً وطيب الخلق ". ثم قالت مرة ثانية بصوت مسموع –

" هل يسمح السيد لوالدي أن يلمس شعره ووجهه؟"

بدر عن عينيها رغماً عنها التماس توسلي خجول عندما طرحت السؤال، والتقت عينا تيتو بعينيها في ألق رخي عندما قال: " مؤكد "، ورفع، وهو ينكفئ للأمام، يد باردو إلى خصلاته بسرعة في القبول مما كان له الأثر الطيب والمريح عليها، لأنه لم يواكب بأي

شيء يدل على الحرج.

مرر باردو يده مرة ثانية وثالثة فوق الخصلات الطويلة وأمسكها بيده قليلاً كما لو أن مقاومتها (الخصلات) المتصاعدة جعلت رؤياه الداخلية أوضح. ثم مرر يده فوق الجبين والخد متقفياً الإطار الخارجي بطرف راحته وإصبعه الرابع، وتاركاً عرض يده يستقر على الخد الثرّ البيضوي.

قال بينا كانت يده تنزلق من الوجه وتستقر على كتف الشاب: " آه، لا بد أنه يختلف جداً عن أخيك، ياروmولا: وهذا أفضل. أنت لا ترى أية رؤى، على ما أعتقد، يا صديقي الشاب؟"

في هذه اللحظة فتح الباب ودخل دون استئذان رجل مسن طويل القامة يرتدي سترة حريرية سوداء جميلة، وبعد أن فك شاله من رقبته ونزع قبعته أبان رأساً أشيب كما شعر باردو. ألقى نظرة ثاقبة يشوبها الاستغراب على المجموعة أمامه – الغريب الشاب ينحني متخذاً وضعية الابن، بينما استقرت يد باردو على كتفه، وروmولا جالسة غير بعيد متوسعة الحدقتين بفعل القلق والاضطراب. لكن تغيراً فورياً حدث: باردو أنزل يده، وتيتو رفع نفسه من وضعية الانحناء، وروmولا نهضت لاستقبال الضيف بخفة وشت بكل الإلفة الكبيرة، لأنه لم يرافقها أية ابتسامة.

قال الرجل الجليل وهو يلمس كتف روmولا: " حسن، يا ابنتي بالمعمودية. ماسو أخبرني أن لديكم ضيفاً، لكنني دخلت رغماً عن ذلك ."

قال باردو: " أهذا أنت، يا برناردو ".وتابع بينما نهض تيتو وانحنى احتراماً:" هذا، أيها الشاب، هو أحد أعيان فلورانسة، السيد برناردو ديل نيرو، أقدم أصدقائي، وأكاد أقول صديقي الوحيد – والذي يمكن لرأيه السديد، لو تيسر لك نواله، أن يأخذك بعيداً. لا يتعدى الثالثة والعشرين، يا برناردو، لكن، رغم ذلك، بإمكانه أن يخبرك الكثير مما تحرص على سماعه. إذ رغم كونه أديباً إلا أنه سافر إلى أصقاع بعيدة واطلع على أشياء أخرى إلى جانب المخطوطات التي لا تحظى عندك بكبير تقدير".

" آه، يوناني، على ما أخمّن "، قال راداً لتيتو وقاره لكن بشكل طفيف، ومتفحصاً إياه بنظرة تبدو أنها باترة كالفولاذ الرقيق. " وصلت حديثاً إلى فلورانسة، كما يبدو. اسم السيد – أو فقط جزء منه، إذ أنه، دون ريب، اسم طويل؟"

قال تيتو بمزاج رائق ومنشرح: " على العكس. إنه خال بكل تواضع من فخامة التعددية المقطعية. اسمي تيتو ميليما ".

" أحقاً؟ "، قال برناردو، بما يشبه الازدراء بينما اتخذ مجلسه. وأضاف:" كنت أتوقع أنه سيكون على الأقل بطول أسماء مدينة، ونهر، ومقاطعة، وامبراطورية معاً. نحن الفلورانسيين نستعمل غالباً الأسماء كما نستعمل أسماء أسماك القريدس، إذ ننزع عنها كل التنميقات قبل أن نودعها حلوقنا ".

تابع حديثه كما لو أن الغريب لا يستأهل المزيد من الانتباه، ومغيراً لهجة الارتياب التهكمي إلى أخرى حزينة : "حسن، ياباردو، لقد

وارين‍اه الثرى ".

"آه! " أجاب باردو بحزن مقابل، " وحقبة جديدة حلّت على فلورانسة – حقبة مظلمة، أخشى أن تكون. ترك لورينزو وراءه ورثة لا تشبه إلا مخبر الكيميائي عندما يزايل الكيميائي تعقله ".

قال برناردو:" ليس هكذا بالإجمال. بييرو دي ميديتشي يتمتع بوافر الذكاء. وأخطاؤه لا تتعدى أخطاء صاحب الدم الحامي. أحب الولد – ولداً سيكون دائماً بالنسبة لي، كما كنت أنا دوماً " أباً صغيراً " بالنسبة له ".

قال باردو: " لكن كل من يرغب في نظام جديد للأشياء من المحتمل أن يتخيل آمالاً جديدة . أخشى أننا سنشهد الصراع القديم للأحزاب ".

قال برناردو: " لو تسنى لنا نظام جديد للأشياء غير ما نشهد من نزع درع وارتداء آخر محله لكنت متأهباً للقول:" لست أنتمي إلى أي حزب: أنا فلورانسي ". لكن ما دام الحديث يجري عن الأحزاب فأنا ميديتشي، وسأظل ميديتشياً حتى مماتي. أنا أشاطر فاريناتا ديغلي أوبيرتي (26) الرأي: إذا سألني أي كان ما المقصود بالانحياز إلى حزب، فإني أقول كما قال: " تمنّي الشر أو الخير لأجل مظالم أو أعمال خير سلفت " ‘

أثناء هذه المحاورة القصيرة كان تيتو ما يزال واقفاً، وطلب، في هذه اللحظة، الأذن بالمغادرة.

قال باردو بلطف قبل أن يبرح تيتو الغرفة: " لكن تعال غداً

في مثل هذه الساعة، حتى أعطيك جواب بارتولوميو ".

قال برناردو ديل نيرو، عندما أغلق الباب: " من أية ناحية من الملكوت ترجّل هذا الشاب اليوناني الجميل إلى مكان قريب جداً من كرسيك، يا باردو؟ " تكلم بتأكيد جاف قاصداً، كما بدا جليّاً، أن يبلّغ باردو ما هو أكثر مما يوحي به مجرد الكلمات.

" إنه رجل ثقافة وعلم غرقت سفينته وأنقذ بضع جواهر يبغي أن يجد لها مشترياً. أنا بصدد إرساله إلى بارتولوميو سكالا، إذ أنك تعلم أن من الحصافة بالنسبة لي أن أمتنع عن مزيد من المشتريات ".

رفع برناردو كتفيه وقال:" رومولا، هلا تأكدت من أن خادمي في الخارج؟ أوصيته أن ينتظرني هنا " ثم تطاول بجسده للأمام، عندما كانت رومولا على مبعدة كافية، وقال لباردو بلهجة خفيضة حازمة –

" تذكر، ياباردو، إن لديك من صلبك جوهرة نادرة. احرص على ألا يحصل عليها إلا من يتوقع أن يدفع ثمناً محترماً. ذلك اليوناني الجميل الطلعة يتصف بالأناقة الرشيقة، والتي تبدو ملائمة على نحو مدهش للاندساس في أي عش ينوي عليه ".

انتفض باردو: فالربط بين تيتو وصورة ابنه المفقود أبعد التفكير برومولا، بدلاً من أن يوحي به. لكن بدا عليه، وعلى الفور تقريباً، رد فعل حدا به لأن يقتنص التحذير كما لو أنه كان أملاً.

" لكن ولم لا، يابرناردو؟ إذا أثبت الشاب أنه جدير – فهو رجل ثقافة وعلم و– ولن تكون هناك مشكلة تذكر بشأن المهر،

الأمر الذي يجعلك مكتئباً دائماً ".

الفصل السابع
شجار مثقفين

بارثولوميو سكالا، سكرتير الجمهورية الفلورانسية، والذي أُرشد تيتو ميليما على النحو السابق كي ترسو آماله عليه كان يقطن قصراً جميلاً قريباً من بورتا بينتي، الآن تعرف ب:كاسا غيراردبسكا(1). عدّته – سلّم لازوردي مستعرض على أرضية ذهبية مع الشعار Gradatim (التدرّج) معلق فوق المدخل – كانت تنبئ القادمين كافة أن ابن الطحّان قد ارتقى للمراتب العليا بمجهوداته الخاصة، وهذه حقيقة لا مرية فيها. كان السكرتير شخصاً تافهاً مغروراً، لكنه كان أيضاً نزيهاً: كان مقتنعاً بصدق بأحقيته، ولم يجد أي سبب للادعاء الكاذب. في هذه الآونة كان قد وصل إلى أعلى درجة من درجات السلم: تقلّد منصب السكرتارية في عشرين السنة الماضية – ومنذ زمن ألقى خطبه على ringhiera، أو منصة القصر القديم، كما جرت العادة، بحضور الضيوف الملكيين، بينما كان مارزوتشو، الأسد الجمهوري، يضع تاجه الذهبي في تلك المناسبة، والناس بكافة يصيحون، " Viva Messer Bartholmmeo! (عاش السيد بارثولوميو – م) – وقد ذهب يوماً في سفارة إلى روما، وعيّن هناك سناتوراً شرفياً، وسكرتيراً رسولياً، وفارس المهماز الذهبي، وفي ثمانية

الأعوام الأخيرة أصبح Gonfaloniere (يرجى الرجوع إلى المقدمة – م) – آخر هدف في طموح المواطن الفلورانسي. في الآن ذاته أخذ يثرى ويثرى، وتفاقمت إصابته بالنقرس، على طريقة البشر الناجحين. وكان على فارس المهماز الذهبي أن يجلس غالباً بكعبه المسنود العاجز تحت اللوجيا(الشرفة–م) الجميلة التي ابتناها لنفسه، بإطلالة على حدائق فسيحة ومرج يقع خلف قصره.

كان على هذه الوضعية في اليوم الذي منح المقابلة المرجوّة لتيتو ميليما. كانت شمس عصر أيار تلقي بأشعتها على الأزهار والعشب خلف الظل المحبب للوجيا، والقفطان الحريري الملكي الباذخ نحّي جانباً والعباءة الفضفاضة الخفيفة ملقاة على ردائه الروماني الطويل. وكان يجلس بجانبه ابنته الجميلة أليساندرا وزوجها، الجندي– الشاعر اليوناني مارولو: وعلى الجانب الآخر صديقان لم يكونا ذائعي الصيت بشكل منفّر، ولذلك كانا أفضل مستمعين. لكن، ناهيك عن النقرس، فقد كانت سعادة بارثولوميو أبعد ما تكون عن التامة: فقد أمضّها محتويات بعض الأوراق التي كانت أمامه، وهي تتألف بشكل رئيسي من مراسلات بينه وبين بوليتيان. كانت نقطة ضعف الناس في تلك الآونة (مهما بدا ذلك بعيداً عن التصديق) تتمثل في سرد الشجارات، وإتحاف الضيوف من رجالات الثقافة والعلم بالأخبار عن مراسلات شاملة وطويلة. وهذه لم تكن لا أول ولا ثاني مرة يطلب فيها سكالا رأياً صريحاً من أصدقائه بخصوص ميزان الخير والشر في نصف دزينة من الرسائل اللاتينية المتبادلة بينه وبين بوليتيان، وكلها

تتبع من بعض القصائد المكتوبة بأكثر الأساليب دعابةً في العالم. كانت قصة شجار نموذجي جداً وطريف، حاز على اهتمامنا لأنه بوفر بالضبط شوكة البعير من الكراهية الضرورية، حسب نيلو، لتكون حافزاً للخطوات المترهلة للحصان الحذر، **الصداقة**.

بعد رفضه، عقب طلبه حب ابنة سكالا ويدها، ظل بوليتيان على أهبة الاستعداد ليفتعل شجاراً حاداً مدروساً مع السكرتير الناجح والمتجرئ جداً، والذي امتنع عن اتخاذ أعظم أدباء العصر صهراً له. كان سكالا موظفاً أهلاً للتقدير، وفوق ذلك، رجلاً محظوظاً – مما يغيظ بالطبع أديباً مجروحاً. لكن كان عنده آنئذ – آه يا ميزان الأشياء الجميل!– ولع بالتأليف، وكان كاتباً رديئاً – واحداً من أولئك الناس الممتازين الذين يجلسون في أخفافهم النقرسية " يسطرون توافه شعرية " لتزجية وقتهم وتسلية أنفسهم دون أي اعتبار للجمهور، وبالتالي كانوا يرسلونها إلى أصدقائهم في رسائل كانت بمثابة دوريات أدبية في القرن الخامس عشر. هذا، وقد توفر لسكالا الآن عدد وافر من الأصدقاء الجاهزين لإغداق المديح على كتاباته: أصدقاء من قبيل فيسينو ولاندينو – متصفحو كتب محببون في الحديقة الميديتشية إضافة إليه هو – والذين وجدوا أسلوب نثره اللاتيني أنيقاً ورجولياً. وكان الرهيب جوزيف سكاليجر (2) الذي كان سيعلنه جاهلاً تماماً باللاتينية، على مسافة مريحة منه في القرن التالي. لكن متى كان العبث الخطر المتأصل في التأليف العبثي قانعاً تماماً بمديح الأصدقاء الجاهز؟ ذلك الانتقادي المتعجرف بوليتيان – متصفّح زميل كان أبعد

ما يكون عن القرب من القلب – يجب جعله يعلم أن السكرتير الثابت الأركان أظهر، في ساعات فراغه خصوبة محببة في تأليف القصيد، ما أومأ بكل وضوح إلى الكم الذي كان سينجزه في تلك الناحية لو لم يكن رجلاً منغمساً في الشؤون العامة.

لحظة تفوق الوصف! عندما يرسل لك الشخص الذي تمقته في سرّك قصيدة باللاتينية جنسها (أي مذكر ومؤنث –م) خاطئ – مقاطع أحد عشرية بترخيم مشكوك فيه، على الأقل إصبع زائد عن الحاجة (3) – محاولات لأرقام شعرية هي لحن (خطأ نحوي) واضح. كانت اللحظة قد أزفت بالنسبة لبوليتيان: كان السكرتير قد أخرج رأسه اللدن من الصَدَفة(بفتح الصاد والدال) الرسمية، وانقض السرطان الرهيب اللاطئ عليه. كان بوليتيان قد استعمل حرية الصديق، وصحح، على نحو محبب، وفي شكل قصيدة باللاتينية، غلطة سكالا في جعله *كولكس* (وهي حشرة معروفة جداً على ضفاف نهر آرنو) من الجنس الأدنى أو الأنثوي (4). رد سكالا بمزحة شنيعة بأبيات لاتينية ملائمة، مشيراً إلى طلب بوليتيان الفاشل للزواج. أحسن وأحسن. وجد بوليتيان الأبيات جميلة جداً وطريفة للغاية: والأدهى أنها كانت تعدم الصحة على نحو خطير، وبقدر ما زعم سكالا أنه كان قد كتبها كقصيدة نقيضة (ج. نقائض في الشعر العربي –م) لقصيدة يونانية فكهة فإن بوليتيان، ولكونه على وفاق تام معه يرفق قصيدة يونانية من لدنه عن الحشرة المثيرة للاهتمام ذاتها – ليس – كما يفترض – جرّاء أية رغبة في الحط من قدر سكالا، بل بالأحرى ليعلّمه. والقصيدة

المذكورة تحوي تخييلاً جميلاً عن فينوس، وكيوبيد، وحشرة كولكس، من النوع المستحسن جداً في تلك الفترة، مؤسسة جزئياً على الحقيقة الخاصة بعلم الحيوان وهي أن البعوضة، شأنها شأن فينوس، قد ولدت من الماء. طلب سكالا، رداً على ذلك، الانتباه إلى أن أبياته لم يكن القصد منها أبداً أن تكون موجهة إلى أديب له حواس الشم الدقيقة كبوليتيان، الأقرب بين كل البشر الأحياء لكمال الأقدمين، وذي ذوق مدقق جداً حتى إن سمك الخفش (منه يستخرج الكافيار –م) نفسه لا بد أن يبدوله فاقداً لأية نكهة. ورغم ذلك فقد دافع عن أبياته رغم أنها قد كتبت في حقيقة الأمر على عجل، دون تنقيح، وقصد منها تزجية سارة للوقت أثناء حرارة الصيف، له وللأصدقاء القانعين بالسوية المتوسطة، وهو، سكالا، كان على النقيض من بعض الناس الآخرين الذين سعوا وراء الشهرة من خلال بائعي الكتب. أما بالنسبة للبقية، فليست يونانيته بالقدر الذي يستكنه معه معنى القصيدة الفكهة المرسلة إليه بكل كرم وسخاء، ناهيك عن تذوق مواطن الأناقة في سبكها. لكن – القصيدة كانت لبوليتيان: ماذا يمكن أن يقال أكثر من هذا؟مع ذلك، وعلى سبيل الملحوظة، فقد كان يخشى أن تكون مقارنة صديقه التي لا تضاهى بين البعوضة وفينوس من حيث أن أصلها من الماء، قد قصد منها من عدة نواح الدغدغة. فمن ناحية يمكن أن يُجرح شعور فينوس، ومن نحو آخر، ما لم يكن قصد الشاعر تلميحاً لمبدأ تاليس (5) ذلك الأصل البارد والرطب بدا لسكالا مشكوكاً به في حالة مخلوق مولع جداً بالدفء. ولعل السمكة كانت ستوفّر مقارنة أفضل، أو،

عندما تكون المقدرة على الطيران موضع بحث، لربما كان النسر، أو في الحقيقة، عندما تؤخذ الظلمة بعين الاعتبار، الخفاش أو البوم قد يشكلان توازياً أقل لبساً وأكثر ملاءمةً، الخ، الخ. هنا توفرت فرصة عظيمة لبوليتيان. لم يكن يعرف، كما كتب، عندما وضعت أبيات سكالا أمامه، أن المسألة مسألة سمك الخفش، بل بالأحرى ضفادع وأسماك القوبيون: كتب ملاحظة قصيرة عن دفاع سكالا عن لغته اللاتينية، وكواه كياً بسبب الانتقادات الغبية التي غامر بالإدلاء بها عن القصيدة اليونانية المقدمة له بلطف كنموذج. اعتراضات تافهة بائسة، حقاً! إذ فيما يخص الأصل الرطب للبعوضة فقد كانت هناك حجة فيرجيل نفسه والذي دعاها " خريجة الماء"(6) أما بخصوص ما كان على صديقه العزيز أن يقوله عن السمكة، والنسر والبقية فقد كان "nihil ad rem"(7). إذ بما أن النسر يمكنه أن يحلق إلى مكان أعلى فلا يستنتج من هذا بأي شكل أن البعوضة لم تكن تقوى على الطيران على الإطلاق، الخ، الخ. على أنه كان يشعر بالخجل للتركيز على هذه التوافه، وبالتالي تضخيم البعوضة لتصبح فيلاً. لكن، من جانبه، سيضيف فقط أنه ليس عنده أي شيء للخداع أو الازدواجية، كما ولن يُمسَك هو عندما يكون حاضراً بالمداهنات الكاذبة لأولئك الذين افتروا عليه في غيابه متفقاً بالأحرى في ذلك الصدد مع شعور هومري (8) – الذي وفّر اقتباساً يونانياً، كان بمثابة البارود لرصاصته.

ما كان للشجار أن ينتهي عند هذا الحد. وما كان للمنطق أن يكون أسوأ مما هو عليه إلا بالكاد، لكن السكرتير نحا نحو مزيد من

الغرور الأجوف، والمزاج الثقافي للشاعر نحو مزيد من الحقد . كان بوليتيان راغباً بكل سماحة أن يرفع مرآة يمكن عندها للسكرتير المنتفخ الأوداج عند النظر إلى نفسه أن يميل إلى التوقف عن نصب دفاعاته الجاهلة المكوّنة من اللاتينية الرديئة في وجه الثقاة القدامى الذين وضعهم إجماع الرأي الذي تأتّى لهم عبر القرون فوق الشبهات، إن لم يكن، في الحقيقة، قد نوى على أن يهبط في مجال الأدب مقدار ما علا في المراتب، وأنه على سبيل التعويض يمكن أن يشعر الأدباء أنهم أنداد له. بالمقابل، طُلب بإلحاح من بوليتيان أن يتفحص كتابات سكالا: لن يعثر ولا في أي مكان على إعجاب بالقدماء أكثر تفانياً. شعر السكرتير بالعار للعصر الذي عاش فيه، واحمر خجلاً لهذا الأمر. والحق أن بعض الناس كانوا يرغبون في أن تنال أعمالهم من المديح والتمجيد ما يضاهي الروائع الإلهية في التراث القديم، لكنه هو، سكالا، لا يمكنه أن يتكرّم عليهم بذلك. أما بالنسبة للتكرمات التي أغاظت الحسود، فقد اكتُسبت عن جدارة: انظر إلى حياته كلها مذ أن أتى إلى فلورانسة في فقر مدقع. أما الأديب المهذب فلم يكن، رداً عليه، مندهشاً لأن سكالا قد وجد العصر الذي عاش فيه بغيضاً بالنسبة إليه، نظراً لأنه هو نفسه كان بغيضاً بالنسبة للعصر. لا، فقد نعت، الأديب المهذب سكالا، وبكل دقة، حيواناً يعيش على النخالة، لعلمه بأنه تشكّل من نفايات الحيوانات، وولد وسط قمامة المطحنة، واستحق بشكل بارز منذ زمن وظيفة تدوير حجر الرحى عند والده (in pistrini sordibus natus dt quidem pistrino

dignissimus)!(9)

لم يكن إخراج الأوراق المتضمنة لهذه المراسلة في هذا اليوم بمنأى عن زيارة تيتو المقررة . فإلى هنا قادم أديب يوناني جديد ستكون إنجازاته موضع اختبار، ولم يكن سكالا يرغب في شيء أكثر من الوقوف على رأي نزيه من أشخاص يتمتعون بدراية من الطراز الأول بصدد قصيدة بوليتيان اليونانية الفكهة تلك. بعد حديث افتتاحي كاف تناول سفرات تيتو، وبعد تفحص للجواهر ومناقشة أمرها، ومرور سلس بدءاً بذكر تلهف لورينزو المأسوف عليه لاقتناء هكذا عيّنات من الفن القديم وصولاً إلى موضوع الأذواق والدراسات الكلاسيكية عموماً وحالتها الراهنة في فلورانسة، كان لا بد من ذكر بوليتيان، وهو شخص يتمتع حقاً بمقدرة فائقة، لكنه متعجرف قليلاً – يحسب نفسه هرقل، وكانت مهمته تقضي بتدمير كل إنجازات العصر الأدبية الشنيعة وكتابة رسائل إلى كبرائه في السن دون تذييلها بتوقيعه، كما لو أنها كانت كشوفاً عجائبية ليس لها إلا مصدر واحد. وفي النهاية، ألم تكن انتقاداته موضع شك وذائقته ضالة فاسدة؟ كان مولعاً بقول الأشياء اللاذعة عن الناس الذين اعتقد أنهم تشبهوا بشيشرون في الكتابة لأنهم أنهوا كل جملة ب "“esse videtur”(10): لكن رغم أنه كان يتباهى بتحرره من المحاكاة العمياء، ألم يقف هوفي الطرف الآخر، طرف اللهاث وراء وحشي الكلام والعبارات المتكلفة؟حتى في "شذراته " التي مدحوها كثيراً هل كانت كل النقاط التي أثارها يمكن الدفاع عنها؟ وتيتو، الذي كان يتصفح "الشذرات " لتوه، وجد قولاً كثيراً لاقى

استحساناً لدى السكرتير – فقد كان سيفعل ذلك لمجرد رغبته في الإرضاء، دون دافع آخر – بشكل بان معه جديراً حقاً بأن يعين قاضياً في المراسلة المشهورة التي دارت حول حشرة الكولكس. هنا وصلنا إلى القصيدة اليونانية الفكهة التي كان بوليتيان يعتقد دون أدنى شك أنها الأجمل في العالم، رغم أنه تظاهر بالاعتقاد بأن "transmarini''(11)، اليونانيين أنفسهم سيستخفون بها: ألم يكن يقول الحقيقة، دونما قصد، بتواضعه الكاذب؟

كان تيتو جاهزاً، وانتقد القصيدة بقسوة إرضاءً لسكالا. أه، ايها القاضي الشاب الحكيم! كان بمقدوره دون شك استحسان الهجاء حتى باللسان العامي، وسكالا– هذا الإنسان الممتاز، الذي لم يسع وراء الشهرة من خلال بائعي الكتب، لم تنقصه قط " تفاهات متعجلة غير صحيحة " كنوع من عصير مثلّج يقدم لضيف في يوم قائظ، أو، لو كان الطقس بارداً، لم لا يتوافر له كإيماءة ودية –بضع مسائل صغيرة في شكل سوناتات، تدور حول نقاط ضعف مشهورة اتسم بها بوليتيان، دون أن يتوسع في هذا الصدد لأنه لا يحب، لكن لعلها توفر تسلية للمجموعة.

يكفي: استأذن تيتو بالانصراف مشيعاً بدعوة ملحّة لتكرار الزيارة. كانت جواهره مثيرة للاهتمام، ولا سيما حجر اليشب، وبداخله lusus naturæ(12) – هذا الشبه الرائع بكيوبيد راكباً الأسد، و"حجر اليهودي" (13) مرصعاً بالأفعى التي يعلو هامتها رأس أسد، كلاهما وافق السكرتير على شرائهما – الأخير كتعزيز لوسائل الوقاية التي

يستعملها ضد النقرس، والذي كان يسبب له تلك الوخزات الشديدة من الألم ما بدا جلياً، على نحو كاف، أن الأمركان سيكون فوق طاقة التحمل لو لم يزود نفسه بخواتم ذات قيمة نادرة، وحجاب كان يضعه على مقربة من أسفل الجهة اليمنى لصدره. لكن تيتو، كما أُكِّد له، كان أكثر إثارة للاهتمام من أحجاره. كان قد سلك طريقه إلى قصر سكالا بتوصية من باردو دي باردي، الذي كان، دون شك، من معارف سكالا القدماء ورجل علم محترماً، بالرغم من تقييمه لنفسه أكثر من الحقيقة بقليل (نقطة ضعف متكررة لدى أصدقاء السكرتير). لكن يجب أن يكرر الزيارة لما له من إنجازات جلية.

كانت مقابلة ميمونة بالنسبة لتيتو، وعندما مشى خارجاً عند نقطة بورتا بينتي عله يبتسم قليلاً للسلاسة التي أبداها حول مسألة حشرة الكولكس شعر أن فتنة الحظ في الوقت الحاضر لا يمكن أن تقصد إدارة ظهرها له مرة ثانية، هذا لأنها قادته من يده في هذا الطريق المحسوم.

الفصل الثامن
وجه في الزحام

من السهولة بمكان بالنسبة لسكان الأصقاع الشمالية النهوض باكراً في صباحات منتصف الصيف وتكحيل الأعين بمرأى الندى على الجانب المعشوشب للمجاز الأغبر، وملاحظة الأفرع الحديثة وسط اخضرار أيكة أشجار السنديان والتنّوب الأكثر قتامة، ومد النظر إلى

ما بعد البوّابة إلى المرج المجزوز دون تذكّر أن اليوم يوم معمودية يوحنا المعمدان.

ليس الأمر على هذا النحو بالنسبة للفلورانسي – وأقله أيضاً بالنسبة لفلورانسي القرن الخامس عشر: في ذلك الصباح الخاص يتسم سطوع الشمس الشرقية على نهر آرنو بالنسبة إليه بسمة خاصة. كانت جلجلة الأجراس تصل واضحة إلى الأسماع، وقد آذنت بقدوم مهرجان فلورانسة الصيفي الكبير، عيد سان جيوفاني.

كان سان جيوفاني القديس الشفيع لفلورانسة لمدة لا تقل عن الثمانمائة عام – منذ أن أمرت ملكة لومبارديا، تيودوليندا، رعاياها بخصّه بهذا التكريم. لا، بل كما يقول العجوز فيلاني، بأفضل ما تيسر له من معرفة، منذ أيام قسطنطين الكبير والبابا سيلفيستر (1)، عندما خلع الفلورانسيون صنمهم مارس، والذي حرصوا، رغم ذلك، على عدم معاملته بازدراء. ذلك أنه بينما كرّسوا معبدهم الجميل والنبيل لتكريم الرب وتكريم "غبطة السيد سانتو جيوفاني " فقد وضعوا مارس الأسبق بكل احترام على برج عال بالقرب من نهر أرنو، بعد أن وجدوا في بعض النصب التذكارية القديمة أنه كان قد انتخب كإلههم الوصي عملاً بتلك المؤثرات الفلكية التي تعني أنه إذا ما كسر، أو، خلاف ذلك، عومل معاملة مهينة فإن المدينة ستتعرض لضرر وهلاك كبيرين. لكن عندما أطلّ القرن الخامس عشر كان ذلك التوقير لمشاعر ماحق البشر(2) قد زال منذ أمد: فقد كفّ إله الرمح والترس عن العبوس بجانب ضفة أرنو، ودرج الاعتقاد أن دفاعات الجمهورية كامنة

فــي حرفتــه وخزائنــه. ذلــك أن مــن الممكــن اكتــراء الــرمح والتــرس بالفلورينات (الدراهم) الذهبية، وقد حملت الفلورينات الذهبية على مر الأزمان نقش سان جيوفاني.

أصابت فلورانسة الكثير من الخير منذ الفترة القاتمة التي شهدت الصراع بين الوصي القديم والجديد: بقي هناك بعض الشجارات وسفك الدماء، دون شك، بين الجويلف والجيبلين Guelf & Gibilline، بين السود والبيض، بين الأورثوذكس أبناء الكنيسة والباترينيين الهراطقة (3)، وبعض الفيضانات، والمجاعات، والأوبئة، لكن بقي أيضاً الكثير من الثروة والمجد. كانت فلورانسة قد حققت انتصارات على المدن المسورة التي كانت فيما مضى أكثر قوة ومنعة منها ذاتها، وخاصة على بيزا (4) المكروهة التي اتسمت أبنيتها الرخامية بفرط الارتفاع والجمال، وصواريها بفرط التكريم على السواحل اليونانية والإيطالية. كان اسم فلورانسة يزداد كبرياء في كل بلاطات أوروبا، لا، وفي أفريقيا ذاتها، لمنعة العملة الذهبية الخالصة، وجمال الأصبغة والنسيج، والعبقرية المتفوقة في الأدب والشعر، والبصائر النافذة من النوع المفيد جداً للدولة والمصارف: كان اسماً كلي الحضور حتى إن بابا أولع بالقول المأثور كان قد دعا الفلورانسيين " العنصر الخامس "(5). ولهذا المصير السامي، رغم أنه يعتمد في جزء منه على النجوم ومادونا ديل إمبرونيتا (6)، وبالتأكيد على قوى أخرى أكثر سمواً لا تذكر أسماؤها بهذا القدر، يعود الفضل الأكبر لسان جيوفاني، الذي كان رسمه منقوشاً على الفلورينات الذهبية الجميلة.

لهذا السبب كان مناسباً أن يكون عيد سان جيوفاني – ذلك المهرجان الكنسي العريق الذي لقي التوقير من قبل أيام القديس أوغسطين – مناسبة فرح خاص بالنسبة لفلورانسة، ويحتفل عشيته بسهر الليل الذي بقي كما يجب من ضمن التقاليد الفلورانسية القديمة الصارمة، مع ما يتخلل ذلك من كثير رقص، وعظيم هرج في الشوارع، ولربما غير قليل من رمي الحجارة وتكسير النوافذ، لكن بكل تأكيد من مشاهد خاصة في الشوارع مثلما لا يمكن توفيره إلا من قبل مدينة تكرّس لخدمتها سيكا (7) الحاذق، المهندس والمعمار، البارع في المراوغات وفي العروض. بمساعدة سيكا، بدا القديسون ذاتهم، المحاطون بهالة أبهتهم على شكل حبة لوز، والسابحون على السحب مع صحبتهم الطروب من الملائكة المجنحين – حتى كما يبدون إلى يومنا هذا في تصاوير بيروجينو (8) – عشية احتفالات سان جيوفاني، وقد أحضروا معهم مطرحهم في السموات إلى الأزقّة، وعبروها بكل تؤدة. ويبقى الأروع من هذا، رؤية القديسين من أحجام هائلة تسهر الملائكة على خدمتهم، ليسوا جلوساً بل متحركين بطريقة بطيئة غريبة على طول الشوارع، مثل موكب من أشكال ضخمة نزلت من القباب السامقة ومنابر الكنائس. كانت السحب مقدودة من مادة جيدة النسج، والقديسون والملائكة كانوا بشراً غير ممجدين تسندهم قضبان متينة، وأولئك العمالقة الغامضون كانوا حقاً رجالات محببين بتفكير متوازن جداً، كانوا يسعون لموازنة أنفسهم في وقوفهم على عكاكيز طوال، ومضخمين مثل شخوص التراجيديا اليونانية، بأقنعة ومناكب محشوة.

لكنه بائس في ضيق خياله ذاك الفلورانسي الذي لم يفكر في شيء سوى هذا – لا، بل هو على قدر من عدم الورع، إذ أليس في صور الأشياء المقدسة بعض من فضائل الأشياء المقدسة ذاتها؟ وإذا، بعد ذلك، وفدت كوكبة من الشياطين السود المبتهجين المسلحين جيداً بمخالب وسياط، وأدوات اللهو الأخرى، جاهزين لتأدية الهزليات المرتجلة من ضرب بالعصي على الأقدام وشق للملابس، فلمَ العجب، فتلك هي طريقة الشياطين في السهر، ولربما هم أيضاً هبطوا من القباب والمنابر الكنسية. ولقد انحدر العقل التوسكاني من المتعبّد إلى المهرّج، بسرعة انحدار الماء عند زاوية. والقديسون حصلوا كذلك على دورهم، وسلكوا مسلكهم، وتوقفوا، كما يجب، أمام مداخل سان جيوفاني، ليؤدوا له واجب التكريم عشية عيده. وفي الغد، بعد أن يأزف اليوم العظيم على هذا النحو، كان لائقاً أن تقدّم شعائر التقدير لفلورانسة من قبل كل ما يتبع لها من مدن، ودساكر، وقرى، سواء أكانت مهزومة من قبلها، أم محمية، أم كانت من ممتلكاتها من قديم الزمان، عند مقام سان جيوفاني في الكنيسة العتيقة المثمنة الشكل، والتي كانت يوماً الكاتدرائية والآن المعمودية، حيث يمسح على حاجب كل فلورانسي إشارة الصليب بالميرون (زيت مقدس يمسح به الحاجب عند التعميد –م)، حتى أن كل المدينة من شيبها حتى شبابها، ومن نسائها حتى أطفالها الذين يلثغون، لا بد أن تتزيّا بأجمل ما عندها إكراماً لليوم العظيم، وتتفرّج على المنظر العظيم، وأن يقام، مرة أخرى، عندما تنحدر الشمس إلى المغيب، وتؤول الشوارع إلى ابتراد، لا بد أن

يقام السباق الماجد أو كورسو، عندما تعدو الجياد غير المسرجة، المطهمة بأحلى الزركشات، عبر المدينة مباشرة، من بورتا أل براتو على الجانب الشمالي الغربي، عبر سوق (ميركاتو) فيتشيو، إلى بورتا سانتا كروتشه على الجانب الجنوبي الشرقي، حيث نصبت أفخر أزياء الـ palii، أو رايات المخمل ورايات الديباج الموشاة ببطانة من حرير وهدب من ذهب، مثلما يليق بمدينة قدّمت للعالم المتدثر بأزيائه الأنيقة نصف كسوته، على عربة الانتصار بانتظار الجواد الفائز أو مالك الجواد الفائز.

ولاحقاً كان يأتي مزيد من الرقص. لا، خلال اليوم بطوله، يقول مؤرخ قديم من بداية ذلك القرن، كانت تعقد زيجات وتحتشد الحشود، وتعلو أصوات المزامير، والموسيقى، والأغاني، وتعقد حلقات الرقص وتولم الولائم وتطيّر بشائر الفرح وتنصب الزينات، بشكل يلتبس على المرء أهي الأرض أم الجنة!

في هذا العام 1492، لعل ارتكاب ذلك الخطأ كان أقل سهولة بقليل. توفي لورينزو العظيم والحاذق، وحل محله شخص متعجرف، طائش يدعى بييرو، نذير شؤم بالنسبة لفلورانسة، اللهم إلا إذا رغب الجواد الحكيم في الواقع في اختيار الفارس السيء، لسهولة رميه عن السرج. وأخذت عبارات الأسف على لورينزو تخبو من قبل أمام الرغبة المهموسة بحكومة قاعدة أعرض يمكن كبح الفساد فيها، ويطلق العنان فيها لغيرة الجميع وطموحهم، والتي صنعت الحرية المثالية في الأزمنة الخوالي المشبعة بالصراعات والنضالات، حين شادت فلورانسة

مبانيها العظيمة، ورعت جنودها، وطردت الآيلين إلى أن يصبحوا طغاة بحد السيف، وفاخرت بالاحتفاظ بالثقة أوان خسارتها. لورينزو مات، والبابا إنوسنت يحتضر، وخلافة نابولية مقلقة، إلى جانب ميلانو الماكرة الطموح قد يزرع الخصومات في إيطاليا في فترة وشيكة: على الأرجح ستتلو أيام عصيبة. ومع ذلك، فقد كان هناك كل المنطق بأن تحافظ الجمهورية على احتفالاتها الدينية.

على أن صباح منتصف الصيف، في هذا العام 1492، لم يكن أقل إشراقاً من المألوف. وكان أن تجمعت في وقت باكر من الصباح النذور الرمزية كلها التي ستحمل في موكب مهيب من نقطة انطلاقها في ساحة السينيوريا – تلك الساحة المشهورة، حيث انتصب آنئذ، كما الآن، قصر الشعب الضخم بأبراجه، والذي يدعى بالاتزو فيتشيو، والشرفة (اللوجيا)الفسيحة التي شادتها الأوركاجنا – مكان إجراء كل الاحتفالات الحكومية الفخمة. وقد وفّرت السماء أجمل خيمة زرقاء، وتحتها كانت الأجراس تخطر (من الخطران أو النوسان–م) بكل قوة حتى إن كل روح شريرة يخامرها إحساس كاف بأنها لا تقهر، لابد أنها ولت الأدبار منذ زمن. كانت النوافذ والأسطح ذات الشرفات تعج بالوجوه البشرية. وكانت المباني الحجرية الكالحة تبدو مشرقة بالرايات المدلاة. وبرج القصر الذي يتسامق بعنفوان، وأيضاً برج الساحة الأقدم برج البارجيلو(9)، ومسلة الباديا في الجوار، بدت ترقب كل شيء من الأعلى. وفي الأسفل، على الرايات المضلّعة العريضة في الساحة شوهد العرض الرائع للأعلام، والجياد الباذخة الزينة، والـ ceri، أو

الشموع المستدقّة التي دعيت بحق بالأبراج – وهي وريثة نالت تعظيماً غريباً، لتلك المشاعل التي على ضوئها الخافت كان يجري التعبد الكنسي في المدافن السردابية. وفي الصباح الباكر دعت الحاجة لأن تتحرك كل المواكب تحت سماء فلورانسة منتصف الصيف، حيث لا بد أن ظل الأزقة الضيقة يتناوب، بين الفينة والأخرى، مع الضوء الساطع للساحات الفسيحة. والشمس ستكون قد ارتقت إلى كبد السماء قبل أن يفرغ المنظر الباذخ الطويل من حجّه في ساحة سان جيوفاني.

لكن في هذا المكان، حيث تقرّر أن يتوقف الموكب، وفّرت المدينة الرائعة، التي تحتضن الـ Cecca البارعة خيمة غير تلك التي وفّرتها السماء. ذلك أن كامل ساحة ديل دومو (ساحة الكنيسة –م)، من المعمودية المثمنة الأضلاع في الوسط حتى واجهة الكاتدرائية وأسوار المباني على الجوانب الأخرى للساحة الرباعية الزوايا، كانت مغطاة حتى ارتفاع أربعين قدماً أو نيّف بستائر زرقاء، مزدانة بالسوسن الأصفر المطرز بعناية وشعارات النبالة المألوفة، بينما كانت حزم الرايات المتعددة الألوان تتدلى بزوايا مناسبة أسفل هذا الأزرق الممتد المغطي لكل شيء – ما وفر ملاذاً رائعاً مضاءً بألوان قوس قزح للمشاهدين المنتظرين الذين كانوا يتطاولون بأجسادهم من الواجهات، ويشكلون حدّاً (كناراً) ضيقاً على الرصيف، ويتشهّون قدوم العرض.

كان أحد هؤلاء المتفرجين تيتو ميليما. بهيّاً، وسط البهاء، احتل مقعده عند نافذة الغرفة فوق صالون نيلو، مستنداً بمرفقه الأيمن على الستارة الحمراء المدلاة من إفريز النافذة، ورأسه مسنود في وضعية

مرتدة للخلف بيده اليمنى، التي ضغطت الخصلات على أذنه. وكانت تظهر على محياه تلك الحيوية الدمثة، والتي كانت بعيدة عن الاستثارة بقدر بعدها عن ثقل الحضور أو الغمّ، والتي أيضاً تميّز الرفيق المحبوب في أوساط الرجال والنساء على السواء – الرفيق الذي لا يفرض أبداً وجوده المتطفل الصاخب الناجم عن الخيلاء المزعج أو الحيوية الحيوانية المفرطة، والذي لم يعرف جبينه عقدة الحنق أو السخط. لم يبد أي تغير آخر منذ الشهرين ونيّف اللذين انصرما منذ ظهوره الأول في الرداء الملطخ بآثار الجو والبنطال الضيق، خلاف تلك النورانية التي أتته من محالفة الحظ، والتي هي أشبه باكتمال الزهرة الملحوظ للتو بعد رشفها أشعة الشمس الصباحية. وقريباً خلفه محجوباً في الزاوية الضيقة بين كرسيه وإطار النافذة كان يقف نيلو بقامته النحيلة مرتدياً بدلة الإجازة، وعلى يساره سينيني– بيترو، الأصغر سناً المصحح اللوذعي للتجارب الطباعية (البروفات)، وليس دومينيكو العملي. كان تيتو ينظر تارة إلى المشهد في الأسفل، وتارة إلى الأعلى إلى العقدة المختلطة من المحدقين والمثرثرين المتحلّقين قريباً منه، بعضهم كان قد قصد المكان بعد مشاهدته انطلاق الموكب من ساحة السينوريا. كان بييرو دي كوسيمو يستثير الضحك وسطهم بتجهمه ومستقبح كلامه عند سماع صوت الأجراس، والذي لم يفلح أي قطن في الأذن في أن يشكل حاجزاً كافياً ضده، ذلك لأنه كلما زاد في حشو أذنيه شعر باهتزاز جمجمته. وكان يعلن أنه سيدفن نفسه في أكثر الأماكن نأياً وعزلة في فالدارنو يوم العيد، لو لم يكن محكوماً، كرسام،

بأن يكمن متربصاً بأسرار اللون والتي كانتُ تقتنص أحياناً من تماوج الرايات والتجمع العَرَضي للحشد.

كان تيتو قد أشاح بوجهه الباسم بعيداً عن الرسام ونزواته كي ينظر إلى أسفل، إلى الدراما الصغيرة التي كانت تتواصل فصولاً وسط الرقعة الضيقة المربعة للمتفرجين عندما شاهد عند زاوية الدرج الرخامي أمام الكنيسة، قبالة صالون نيلو تقريباً، وجه رجل مصوباً للأعلى نحوه، ومحدقاً بشكل بدا أن فيه من المعنى أكثر مما توحي به نظرة غريب عادية عابرة. كان وجهاً برأس حليق اشرأب فوق الغطاء الأسود والرداء الأبيض لراهب دومينيكاني – وكان هذا مشهداً مألوفاً جداً في فلورانسة. لكن النظرة كانت تشي بالنسبة لتيتو بمعنى خاص. كان فيها إيحاء واهٍ، ليس من النوع البغيض، دون شك. إنما أية صلة ارتباط محببة، ترى، كانت له يوماً مع الرهبان؟ لا شيء قط من هذا القبيل. لم تستغرق النظرة والإيحاء أكثر من التماعة برق.

" نيلو! "، قال تيتو بسرعة، لكنه أردف على الفور بنبرة من خيبة الأمل:" آه، لقد التَفَت إلى الناحية الأخرى. عنيت ذلك الراهب الطويل النحيل الذي كان يصعد الدرجات. كنت أريد أن تخبرني إذا كنت على أية معرفة ولو نزرة به؟ "

قال نيلو بلا اكتراث: " أحد رهبان فراتي بريديكاتوري. أنت لا تتوقع مني أن أعرف تاريخ الغربان الخاص ".

قال تيتو:" يبدو أنني أتذكر شيئاً من وجهه. إنه وجه غير شائع ."

" ماذا؟ أتظن أنه صاحبنا الأخ جيرولامو؟ طويل أكثر منه، وهو لا يظهر أبداً بتلك الطريقة العَرَضية ".

قال فرانشيسكو سي (11) الشاعر المحبوب: " أضف، إن ذلك " كلب الرب " (10)، عالي النباح، ذاك، ليس في فلورانسة حالياً. لقد عمل بملاحظة بييرو دي ميديتشي، وهي أن يعطي عظاته الشاجبة إجازة لبعض الوقت ".

قال شخص متوسط السن يجلس عند الزاوية الأخرى من النافذة: " الأخ لا يشجب ولا يعظ ضد أي إنسان، إنه يعظ فقط ضد الرذيلة. إذا كنت تحسب ذلك هجوماً على أشعارك، يا فرانشيسكو، فهذه ليست غلطة الأخ الراهب ".

قال تيتو الذي كان يراقب الرجل بشغف: " آه، إنه يدخل الكنيسة الآن. لا، لم أقع تحت وهم هذا الخطأ، يا نيلو. إن أخاك الراهب جيرولامو له أنف عالٍ وشفة سفلى غليظة. شاهدته مرة – إنه ليس وسيماً، لكن هذا الرجل... "

قال سينيني:" هدنة على أوصافك! اسمع! انظر! هاهم الفرسان آتون والرايات "، ثم تابع واضعاً يده بألفة على كتف تيتو، " تلك الراية التي ترفع على الجواد المزركش بالأبيض – تلك ذات النسر الأحمر الحامل للتنين الأخضر بين مخالبه، والسوسنة الحمراء فوق النسر – هي غونفالون (راية)حزب الجويلف، وأولئك الفرسان حواليها مباشرة هم كبار ضباط حزب الجويلف. تلك واحدة من أكثر راياتنا فخراً، رغم تشكينا. فهي تعني نصر الجويليفيين، مما يعني انتصار

الإرادة الفلورانسية، مما يعني انتصار البوبولاني (الشعب) ".

قال الرجل متوسط السن الجالس عند النافذة: " لا، تابع، يا سينيني. مما يعني انتصار الشعب السمين على الضامر، مما يعني أيضاً انتصار الشعب الأكثر سمنة على من هم أقل سمنة ".

قال صاحب المطبعة : " كروناكا (12)، لقد أصبحت واعظاً. إن وعظ الأخ جيرولامو سيفسدك، ويجعلك تمسك الحياة من القبضة الخطأ. ثق، إن أطاريفك ستخسر نصف جمالها إذا شرعت في مزج المرارة بها، تلك هي maniera Tedesca(13) (السلوكية الألمانية) التي تعودت أن تهاجمها في خطبتك في الناس عندما أتيت من روما. في القصر القادم الذي ستبنيه سنرى أنك تحاول أن تنقل عقيدة الأخ الراهب إلى الحجر ".

قال تيتو، الذي عرف بحدود الآن أفضل السبل التي تسرّ الفلورانسيين:" ذاك عرض عظيم للفرسان. لكن أما من غرباء بينهم؟ ألمح أزياء أجنبية ".

قال سينيني:" مؤكد، أترى هناك الخطباء(14) من فرنسا، وميلانو، والبندقية، ووراءهم النبلاء الانكليز والألمان. ذلك أنه جرت العادة أن يشيد كل الضيوف الأجانب المتميزين بذكر سان جيوفاني في تتالي الغونفالونيين ذاك (حملة الرايات – انظر ملحق أ– المترجم) . من جانبي، أعتقد أن فرساننا الفلورانسيين يمتطون صهوات جيادهم كما أي واحد من أولئك الشماليين الفاتكين

و الذين تقبع بصائرهم في كعوبهم وأسرجتهم. أما ذاك البندقي

هناك، فإنني أعتقد أنه سيشعر بارتياح أكبر لو كان على ظهر دلفين. ينبغي أن نعرف شيئاً ما من الفروسية، ذلك لأننا نبز إيطاليا قاطبة في رياضات الجيوسترا (15) والأموال التي ننفقها عليها. لكنك ستشاهد عرضاً أجمل لقادتنا رويداً رويداً، يا ميليما. أخي نفسه سيكون بين ضباط الزيكا (16) "

قال بييرو دي كوسيمو، ناسياً الضجة في غمرة ابتهاجه لمنظر نهر الألوان الملتف بينما كانت رايات الإجلال والتقدير تتقدم في أرجاء الساحة: " الرايات هي المنظر الأجمل، الفلورانسيون هم بين بين. فهم لا يعرضون إلا عرضاً مؤسياً من هذه المسافة بما لهم من قطعة لحم شاحب تعلو قفاطينهم السود . لكن تلك الرايات بمخملها، وساتانها، وقماشها المينيفر والمقصب، وتناوبها الذي لا نهاية له بين النور الرخي والظل! – فا! (بالفرنسية اذهب!) إن أحاديثك وأفعالك البشريين مزحة لا نكهة لها. الحياة الوحيدة المشبوبة العواطف هي في الشكل واللون ".

قال نيلو: " آي، بييرو، إذا كان ستاناسو(17) يحسن الرسم فأنت ستبيع روحك مقابل أن تعرف أسراره. لكن هناك قليل الاحتمال في ذلك، ونحن نرى ملائكته المباركين أنفسهم لا يحسنون صنعاً في توزيعهم الضوء والظل، إذا كان للمرء أن يحكم من capo-d'opera (أي رائعتهم)، مادونا نونزياتا(18).

قال سينيني: " هاهي رايات بيزا وأريتزو. آي، يا سيد بيزانو، لا يفيدك في شيء أن تبدو كالحاً. حري بك أيضاً أن تحمل رايتك إلى

قديسنا سان جيوفاني بما يليق من الكياسة. " البيزيون مزيفون، الفلورانسيون عمي " – لن يقوى النصف الثاني من ذلك المَثَل على الصمود بعد الآن. هاهي الآن تأتي أعلام بلداننا وخاصتنا من الفتيان يا ميليما. ستعلق جميعها في سان جيوفاني حتى هذا اليوم من العام القادم عندما ستحل محلها أخرى جديدة ".

قال تيتو:" إنها تشكل منظراً جميلاً. وبالتأكيد سيسرّ سان جيوفاني بذلك الإخراج للأنوال الإيطالية كما سرت مينيرفا بشالها الإغريقي (19)، ولا سيما أنه يقنع بالقليل من الألبسة. لكن عيني أقل انبهاراً بتلك الأبراج المدوّمة، والتي سرعان ما تتسبب في وقوعي من النافذة في دوار سيمبتاوي sympathetic vertigo ".

كانت " الأبراج " التي تحدث تيتو عنها جزءاً من الموكب الذي كان في نظر الجمهور الفلورانسي مجيداً. ولكونها، لربما في المقام الأول نوعاً من مبالغة (20) عن الشموع الفاعلة من كل النواحي، فقد كانت تدعى أيضاً *ceri*. لكن بما أن هذه المبالغة غير عملية في زيّ حقيقي وبسيط فإن هذه ال *ceri* الضخمة، وبعضها يبلغ من الكبر بحيث يتطلب نقله على عجلات، لم تكن مصمتة بل فارغة، وذات سطح ليس مصنوعاً من الشمع فحسب، بل من الخشب والكرتون، مصقولة، منحوتة، ومطلية كما هي غالباً الشموع الحقيقية المقدسة، مع حلقات متتابعة من أشكال – محاربون على صهوات جيادهم، جنود مشاة يتمنطقون بالرمح والترس، حسناوات راقصات، حيوانات، أشجار وفواكه، وباختصار، يقول المؤرخ القديم، "كل الأشياء

التي يمكن أن تسرّ العين وتبهج الفؤاد ". وفي التجويف داخلها هناك ميزة أخرى وهي أن الناس يمكنهم أن يقفوا داخل هذه الشموع المخروطية ويدوموها باستمرار، بشكل تعطي معه انطباعاً فانتازماغورياً *، والذي لا بد قصد منه، باعتبار أن الأبراج هي كثيرة العدد، أن يولّد دواراً على نطاق رائع حقاً.

" Pestilenza!(21) قال بييرو دي كوسيمو وهو يغادر مكانه عند النافذة " تلك الدوائر المدوّمة الواحدة فوق الأخرى هي أسوأ من أصوات الأجراس المؤذية للأذن. دعني أر متى مرّت آخر شمعة ".

قال نيلو: " لا، بالتأكيد ستسر لأن تستدعى عندما تأتي الفتيات الريفيات وهن يحملن مشاعلهن. لن تفتقد مواطنيهن من الموجيللو والكازينتينو، والذين سيرسم منهم صاحبك المفضل ليوناردو مائة رسمة غريبة الشكل".

قال بييرو، بحزم: " لا، لن أرى شيئاً حتى تأتي عربة زيكا. لقد رأيت ما يكفي من البهاليل الذين يحملون الشموع بشكل مائل، سواء مع أو بدون قلنسوة، ما يكفيني لبقية حياتي. "

صاح نيلو، بعد فترة فاصلة كانت خلالها الأبراج والشموع تترى بعبورها البطيء في شكل متتالية متدرجة من الأكبر فالأصغر حجماً: " هي ذي، إذن، يا بييرو – عربة زيكا " .

صاح فرانشيسكو سي: " fediddio! (22)ذلك سان جيوفاني لوّحته الشمس تماماً! أراهن أنه شحاذ قوي البنية روماغنولي. سينيورانا

(انظر ملحق –أ – المترجم) يستضيف كل حثالات اليهود والمسيحيين أولئك الذين توصد الأبواب دونهم كل مدينة أخرى، ويدعهم يسمنون علينا مثل خنزير سان أنطوني (23)

كانت عربة الزيكا Zecca(24) أو Mint، التي ظهرت للعيان لتوها، في الأساس برجاً أو cero خشبياً ضخماً، مزيّناً على شاكلة زينة الـ ceri الأخريات التي ترفد الموكب، مركّبة على عربة رائعة، ويجرها ثوران بلون الفئران، أطل رأساهما اللطيفان من كشكش باذخ يحملان ذراعي عربة الزيكا. لكن النصف الأخير من القرن (أي 100 عام –م) كان خجلاً نوعاً ما من الأبراج برسوماتها الدائرية أو اللولبية، والتي سرّت أعين وأفئدة النصف الآخر، وأي شيء شبيه الشكل سيء الرسم، مثلما يحدث أحياناً للأشكال في أفضل عصور الفن، كما لو أنه جُرّد من عظامه بقصد صنع فطيرة، كان يدعى fantoccio da cero، دمية برجية. وبالتالي فالذائقة المحسنة، يدعمها سيكا Cecca (انظر حاشية 7 – م)

(*)(انطباع بصري تبدو معه صور الشاشة أحياناً وكأنها تندفع نحو المشاهد بزيادة هائلة في الحجم – م)

قد استنبطت للزيكا الرائعة عربة نصر تشبه المصطبة الهرمية ذات عجلات مبتكرة مكفولة بأن تدور عند المنعطفات بسهولة. وحول القاعدة شوهدت أشكال حية لقديسين وملائكة يلبسون بطريقة شبيهة بنحت التماثيل. وعلى القمة، على ارتفاع ثلاثين قدماً، انتصبت صورة حية للقديس يوحنا المعمدان وقد ربط بإحكام إلى قضيب حديدي وأمسك صليباً ذهبياً مثبتاً بإحكام كذلك، وقد بدا عاري الذراعين والساقين، وتلفع بجلد نمر، وهالة نورانية ذهبية مثبتة على رأسه – كما اعتاد البشير أن يظهر في الصوامع والكنائس، دون أن يكشف نفسه بعد للرسامين مثل الغلام الأسمر القوي البنية الذي كان أحد أفراد العائلة المقدسة. إذ أي مكان توضع فيه صورة القديس الشفيع أكثر لياقة من رمز عربة الزيكا؟ ألم يكن الامتياز الملكي في صك النقود إشارة مؤكدة إلى أن مدينة قد نالت استقلالها؟ وببركة سان جيوفاني فإن "حظيرته الغنم " الجميلة(25) هذه كانت قد أظهرت تلك الإشارة قبل كل المدن الإيطالية الأخرى. ومع ذلك، فإن الاحتفال السنوي المتمثل في صورة القديس الشفيع لم يكن من بين الجوائز العليا للحياة العامة. فقد بلغت كلفته قريباً من عشرة شلنات، وكعكة تزن أربعة عشر رطلاً، وزجاجتي خمر، وكمية لا بأس بها من المأكولات الخفيفة. وقد تم توفير المال من قبل عربة الزيكا الرائعة، والدفعة العينية عن طريق " ميزة " خاصة قُدّمت في شكل سلة معلّقة على عمود من نافذة علوية في بيت خاص، حيث طيف (26)القديس المهيب انتعش في الحال بحصة معقولة من الحلويات والنبيذ، ورمى بالبقايا إلى الجماهير،

وقبض بإحكام على الكعكة الهائلة الحجم بذراعه اليمنى عبر ما تبقى من مروره. وقد كان هذا هو الموقف الذي قدّم فيه شبيه سان جيوفاني نفسه عندما ارتجت العربة العالية واهتزت في سيرها البطيء في أرجاء الساحة إلى المدخل الشمالي للمعمودية.

صاح سينيني بعد استثارة بهيجة لكبريائه لإرائته غريباً شيئاً ألفه أبناء جلدته كثيراً إلى حد أنهم لم يعودوا ينتبهون إليه: " هاهم معلمو الزيكا، وهوذاك أخي – أتراه، يا ميليما؟ وفي الخلف هاهم قادمون أعضاء شركة كاليمارا (27) تجار القماش الأجنبي، الذي أسبغنا عليه الصقل الفلورانسي، رجال ناضجون، كما ترى، انتسبوا للنقابة قبل أن تولد. ومن ثم يأتي أعضاء النقابة الشهيرة نقابة صرّافي العملة ".

قال فرانشيسكو سي مقاطعاً:" كثيرون منهم انتسبوا أيضاً للفن النبيل، فن الربا قبل أن تولد، كما يمكنك أن تكتشف عن طريق وهج متقطع في العين،وحنية حادة في الأنف ما يظهر تحدّرهم من الهاربيين القدماء، والذين شاهدت صورهم وهم يسندون ذراعي عربة الزيكا. والآن، إذا تخلينا عن الأهواء القديمة، فإن موكباً مثل ذلك مؤلفاً من أربعمائة شخص بشعين إلى حد ما يحملون شموعهم في وضح النهار مثلما فعل ديوجين (28)، كما لو أنهم كانوا يبحثون عن ربع قرش ضائع، سيشكل منظراً بهيجاً لمناسبة عيد الحمقى ".

قال بيترو سينيني وقد أحس بكثير المهانة: " لا تجدف على أعراف مدينتنا. هناك بصائر جديدة تعتقد أنها ترى الأشياء على

حقيقتها لأنها تقف على رؤوسها عند النظر إليها، مثل المشعوذين والبهاليل

، بدلاً من اتخاذ موقف العقلاء. ومما لا ريب فيه أن هذا لا يشكل أي فرق بالنسبة لقرود السيد فايانو التي تشاهد تمثال جوديت لنحاتنا دوناتيللو سواء كانت (القرود) ترفع رؤوسها أوأذيالها للأعلى ".

قال سي هازاً كتفه: " آمل أن تتيح جديتك بعض حيّز للخيال العابث، وإلا ماذا سيحدث للقدماء، والذين أنتم معشر الأدباء ملزمون بتبجيلهم كقدوة، يا سيد بيترو؟ لم تكن الحياة شيئاً قط سوى نوسان دائم بين الجد والهزل ".

قال سينيني، وغضبه لمّا يزايله: " إذن احتفظ بهزلك إلى أن يكون طرف قطبك في أعلى نقطة. وهذا ليس آن يعبّر العقد العظيم لجمهوريتنا عن نفسه بقديم الرموز، والتي بدونها لن يكون السوقيون مدركين لأي شيء أبعد من حاجاتهم الوضيعة، حاجات القفا والمعدة، ولا يرتقون إلى الإحساس بالجماعة في الدين والقانون. لم يوجد أناس عظام قط دون مواكب، والشخص الذي يرى نفسه حكيماً جداً بحيث لا تحرك فيه أي شيء سوى الازدراء، لهو أشبه ببركة صغير (بُرَيكة) كانت تتباهى بوجودها وحدها دون شريك عندما اندفع النهر الغزير صوبها ".

بعد هذه الفورة الساخطة من قبل سينيني لم يتفوه أحد بشيء إلى أن تكلّم هو نفسه ثانية.

" أصخ السمع! أبواق السينوريا: الآن موعد الفصل الأخير من

العرض، يا ميليما. ذاك هو جونفالوننا (انظر ملحق أ – م) في الوسط، بالرداء النجمي، والسيف يتقدمه منتضىً. منذ عشرين سنة تعودنا أن نشاهد بوديستانا(انظر ملحق أ – م) الأجنبي الذي كان قاضينا في الشؤون المدنية يمشي على يمينه. لكن جمهوريتنا قد أفرط الميديتشيون الأذكياء (30) في تطبيبها. هذا هو ال Proposto (31) (الناطق باسم) رؤساء الأديرة Priori على اليسار. ثم يأتي رؤساء الأديرة (Priori) السبعة، ثم كل القضاة والرسميين في الجمهورية. أترى شفيعك السكرتير؟"(32)

قال تيتو: " هناك أيضاً السيد برناردو ديل نيرو. محياه جميل القسمات وجدير بالتوقير، رغم أنه سدّد نحوي نظرة أشلّتني. "

قال نيلو: " آه، إنه التنين الذي يحمي بقايا ذهب باردو العجوز، والذي في معظمه، كما أتصور، ذلك الذهب البكر الذي يتدلى حول رأس الجميلة رومولا وكتفيها. وأضاف وهو يمسّد رأس تيتو:

" إه، عزيزي أبولينو؟"

كان تيتو محبياً بنعمة الشباب في التورد خجلاً، لكنه كان يتمتع أيضاً بخطاب حاذق وحاضر على الفور من النوع الذي يحول دون أن يبدو التورد على أنه ارتباك. أجاب على الفور –

" وإنه باكتولوس (33) حقاً – جدول بمويجات من ذهب. لو كنتُ خيميائياً – "

ولقد وفّر عليه الحاجة لمزيد من الكلام صداح عال ومفاجئ للطبول والأبواق والمزامير، تتفجر في أمداء الساحة في فورة مدوية من

الأصوات – زمجرة، انفجار، صفير، مما يناسب تماماً مدينة شهيرة بآلاتها الموسيقية، محيلة أعضاء أقرب مجموعة إلى حالة شبيهة بعزلة الطرشان.

أثناء هذه الفترة الفاصلة لاحظ نيلو أن أصابع تيتو تتحرك تحية لشخص ما وسط الزحام في الأسفل، لكنه إذ لم يتبين اتجاه نظرته فقد أخفق في أن يكشف مرمى هذه التحية – الوجه العذب المدوّر ذو العينين الزرقاوين تحت نقاب أبيض – سرعان ما ضاع في حدّ (كنار) الرؤوس الضيق، حيث حدث كسوف متكرر لوجنات فتاة ريفية مدورة من جرّاء القسمات الغليظة الحواشي أو المنكبين المحنيين لعجوز يحمل رفشاً، وحيث كانت صور الوجوه تتناوب ذات اليمين وذات الشمال بحدة مثل ديكة الرياح في ظل رياح سريعة التبدل.

لكن عندما تولد الانطباع بأن العرض قد انتهى – عندما أطلق سراح المساجين الاثني عشر بهذه المناسبة، وعندما لحقت جياد السباق، أو barberi،وأذرع أصحابها مطرزة على القماش الذي يغطيها، بالسينوريا، وكُرّست حسب الأصول لسان جيوفاني، وكان الجميع يتحركون مبتعدين عن النوافذ – قام نيلو، الذي كان فضوله الفلورانسي من ذلك النوع الكلبي النشط الذي لا يرى أي شيء تافه له من الخسّة ما يمنعه من الاستفسار، بوضع يده على كتف تيتو وقال –

" أي واحد من معارفك ذاك الذي كنت ترسم إشاراتك له، إه، عزيزي جيوفاني؟ "

" فتاة صغيرة ريفية لا شأن كبيراً لها ربما أخطأت بيني وبين

أحد معارفها، ذلك أنها شرّفتني بتحية ".

قال نيلو: " أو تلك التي كانت ترغب في التعرف. لكنك متوجه إلى فيا دي باردي وعيد عرائس الفن: لا يمكن التعويل عليك للعبث، وإلا لكنا مضينا نبحث عن المغامرات سويةً في الزحام، وقضيّنا بعض الوقت في عبث ماتع بمناسبة عيد سان جيوفاني. لكن الحظ الكبير قد هبط عليك بسرعة فائقة: لست أعني عباءة البروفيسور – فهي متسعة بما يكفي لكي تخبّئ بضعة فراريج مسروقة، لكن – السيد إينديميون (34) انتبَه إلى سلوكه عقب تلك الثروة المتفردة التي حصّلها، وما ذا يقول صاحبنا لويجي بولتشي؟

"Da quel giorno in qua ch'amour m'accese

Per lei son fatto e gentile e cortese "(35)

قال تيتو، هازاً كتفيه، وعلى وجهه نظرة استسلام صابر كانت أقرب مقارباته للغضب: " نيلو، يا صديقي، لديك حيلة لا تطاق لجعل الحياة بائخة عن طريق إحباط مسعاها بحديثك، ناهيك

عن أن مثل ذلك اللغو الذي لا أساس صحياً له سينظر إليه على أنه إهانة كبرى من قبل تلك الإلهة عينها والتي لا تنفك عن الإعلان عن نفسك أنك متعبدها المتواضع ".

قال نيلو واضعاً إصبعه على شفتيه مستجيباً بهزة كتف: " سأخرس. لكنني لن أتفوّه بحماقة عنها إلا تحت بصر عيوننا الأربعة ".

" سامحني! كنتَ على وشك إتيان ذلك للتو على مسمع من آخرين. إذا كنت تريد أن تدمّرني في تفكير باردو وابنته – "

قال نيلو:" كفى، كفى! أنا مجرد حلاق عجوز سخيف. كل هذا سببه ذلك الإمساك من ناحيتي عن نظم رديء الأشعار في شبابي: نظراً لعدم سماحي لحماقتي أن تجري ذلك المجرى عندما كنت في الثامنة عشرة، فإنها تجري على طرف لساني الآن أما وأني في السن غير اللائق، سن الخمسين. لكن رأس نيلو لم يُكمّم رغم كل هذا، إذ بإمكانه أن يرى جاموسة في الثلج. Addio,giovane mio (وداعاً، يا عزيزي جيوفاني).

الفصل 9

فدية رجل

سرعان ما نزل تيتو إلى وسط الحشد، ورغم رده اللامبالي على سؤال نيلو عن تعرّفه العارض فقد خامرته رغبة عابرة، بينما كان يشق طريقه في أرجاء الساحة إلى كورسو ديجلي أديماري، بأنه ربما يلتقي زوج العينين الزرقاوين اللتين صوبتا نظرهما نحوه من تحت قطعة القماش المربعة من الكتان الأبيض التي شكّلت النقاب المعهود للفتاة الفلاحة إبّان العيد. كان على ثقة تامة بأن ذلك الوجه كان وجه تيسّا، لكنه لم يشأ أن يقول ذلك. وما علاقة نيلو بالأمر؟ كان لدى تيتو حب متأصل للتكتّم – دعنا نسمّه موهبة – وكان فعله كفعل غيره من الحوافز، يخلو من أي دافع شعوري، و، مثل كل الناس الذين كان الإخفاء بالنسبة إليهم سهلاً، كان يخفي بين الفينة والأخرى شيئاً لم يكن له من طبيعة السر إلا مثل ما لواقعة مشاهدته سرباً من الغربان.

لكن الرغبة العابرة بخصوص تيسّا الجميلة كُسفت، على الفور تقريباً، بالذكرى المعاودة لذلك الراهب الذي كان لوجهه بعض التداعي غير القابل للاسترجاع. لماذا نظر متعصب مريض أرهقه الصيام إليه (تشديد على الهاء) دون غيره، وأين يمكنه أن يتذكر في كل أسفاره رؤيته ذلك الوجه من قبل؟ حماقة! مثل تلك الذكريات الغامضة تحوّم حول العقل مثل العناكب، بإلحاف مدغدغ – الأفضل جرفها من الذاكرة بخبطة واحدة: وكان ذهن تيتو منشغلاً بشيء أكثر

متعة . وبينما كان ينعطف خارجاً من الكورسو ديجلي أديماري إلى شارع فرعي كان لا يهمه شيء سوى أن الوقت قد صار ضحىً، وأن الموكب قد أخّره أكثر مما كان نوى عن زيارته إلى تلك الغرفة في فيا دي باردي، حيث كانوا بانتظاره، كما كان يعلم، على أحر من الجمر. استشعر قبل الأوان مشهد دخوله عندما يصل: البهجة الفياضة التي تغمر وجه الكفيف مثل الضوء في مصباح نصف شاف، التضرّج الوردي العابر الذي سيعلو وجه رومولا وجيدها، والذي لن ينقص من جلالها، إنما يضيف إليه سحر الحساسية الأنثوية الأخاذ الذي فاقمه ما بدا أنه الصراحة الصبيانية المتناقضة في نظرتها وابتسامتها. لقد كانا أفضل رفيقين في العالم أثناء الساعات التي أمضياها معاً حول كرسي الرجل الكفيف: لم تكفّ عن الاستحواذ على إعجاب تيتو، وكان هو يطلعها على ذلك، لكنه كان يشعر على نحو غريب أنه خاضع لرومولا للبساطة(1) التي اتسمت بها: شعر للمرة الأولى، دون تحديد ماهية ذلك لنفسه، بتلك الرهبة المحبّة في حضور الأنوثة النبيلة، والتي لعلها تشبه العبادة المكرّسة من قديم الزمان لإلهة عظيمة من آلهة الطبيعة، والتي لم تكن كلية المعرفة، بل كانت حياتها وقوتها شيئاً أعمق وأكثر بدئية من المعرفة. لم يسبق أبداً أن ضمهما المكان وحدهما، ولم يكن بإمكانه أن يتصور مشاهد غرام بينهما: كان لا يقوى على شيء سوى أن يتخيل ويرغب بعنف – فما كان يعلمه كان مستحيلاً – وهو أن رومولا ستقول له يوماً ما إنها تحبه. ذات يوم في اليونان، بينما كان يتكئ على حائط في الشمس الساطعة تسللت فتاة

فلاحـة صـغيرة ذات عينـين سـوداوين، كانـت وضـعت جرّتهـا علـى الحائط، شيئاً فشيئاً إلى قربه، وأخيراً طلبت إليه بخفر أن يقبّلها، رافعة نحوه بكل براءة وجنتها الزيتونية المدوّرة. كان تيتو متعوّداً على الحب الذي أتى بتلك الطريقة التلقائية. لكن حب رومولا لن يأتي مطلقاً على ذلك النحو: وهل أنه سيأتي على الإطلاق؟ – ومع ذلك فقد كانت تلك التفاحة في الأعالي ما وضعه نصب عينيه. كان في شبابه اليانع – ليس متقد العاطفة، لكن حساساً: كان من المحتوم أن يشعر شعور المحب نحو رومولا مثلما انعكاس السوسنات البيض في الجدول الصافي المشرب بنور الشمس . لكنه لم يكن يتصف بأية حماقة، وكان لديه شعور فطراني بأن رومولا كانت شيئاً أسمى منه بكثير. كثيرون هم الناس الذين خالجهم الشعور نفسه وهم أمام طفل بسيط واسع العينين.

ومع ذلك، فقد أصاب تيتو النجاح السريع الذي كان سيجعل بعض الناس متجرئين، أو الذي كان سيكفل له التفكير بأنه ليس هناك من جرأة زائدة إذا ما داخلته ثقة بهيجة بأنه يوماً ما سيكون زوج رومولا – لا، بأن والدها نفسه لم يكن بعيداً عن تصوّر مثل هذا المستقبل له. ولقد أثبت أول لقاء ميمون له مع بارتولوميو سكالا بداية حظوة متنامية من جانب السكرتير، وقاده إلى موضوع كان سيكون كافياً لجعل تيتو يقرر أن فلورانسة هي المكان الذي يجب أن يستقر فيه، حتى وإن لم تجذبه بشيئ آخر. كان بوليتيان أستاذاً لليونانية كما اللاتينية في فلورانسة، حيث بقيت الكراسي المهنية هناك، رغم أن الجامعة قد نقلت

إلى بيزا. لكن ولمدة طويلة كان لديميتريو كالكونديلا، وهو واحد من ألمع المهاجرين الأغريق وأكثرهم احتراماً، أيضاً كرسي لليونانية بالتزامن مع الإيطالية الطاغية بشكل زائد. كان كالكونديلا قد ذهب في هذه الآونة إلى ميلانو، ولم يكن هنالك من مقابل أو منافس لبوليتيان مثلما رغب أصدقاؤه الذين تمنوا لو اتسم بقليل من اللياقة والتواضع. كان احتمال أن يكون سكالا الصديق الوحيد لهذه الفئة بعيداً، ولقد ألفى الكثيرين ممن، وإن لم يكونوا من بين أولئك المعجبين التوّاقين للاعتدال الذين يسعدون بأن ينتعشوا بأشعاره في الطقس الحار، فقد كانوا رغم ذلك راغبين جداً بالانضمام إليه في إسداء تلك الخدمة الأخلاقية لبوليتيان. وقد تم الاتفاق أخيراً على أن تتم مساعدة تيتو للحصول على كرسي لتدريس اليونانية، كما حدث مع ديميتريو كالكونديلا عندما ساعده لورينزو نفسه، والذي، رغم كونه في الوقت ذاته الراعي العطوف لبوليتيان، كان أظهر في حادثة سابقة أنه لم يكن هناك ما يسيء في هذا التصرف، بل هو مجرد حماس للعلم الحق ولتعليم الشباب الفلورانسيين.

وهكذا كان قارب تيتو يبحر في الرياح التي يشتهيها، وإلى جانب إقناعه الحكّام (ج. حَكَم) العادلين أن مواهبه كانت تنسجم مع ثروته الجيدة فإنه قد ارتدى ثوب الثروة ذاك بكل سلاسة ودون تكلف بشكل لم يُغضب أحداً من جرّاء ذلك. لم يكن الاحتمال بعيداً في أن يخالط علية القوم في فلورانسة: مجتمع فيه طلاء أكثر بكثير من دوائر الفضة المصقولة الموجودة في منتصف الأطباق النحاسية، وحيث لم

يكن محظوراً على السيد أن يلبس أفخر القماش الموشّى. إذ كيف يمكن لمثقف شاب وسيم ألا يلقى ترحاباً عندما يلمس العود وينشد أغنية مرحة؟ ذلك الوجه الصبوح، تلك الابتسامة الرخيّة، ذلك الصوت الرخيم، بدت أنها تهب الحياة مظهر الإجازة، مثلما أن نغمة من موسيقى فرحة ورفع للرايات يجعلان التعبى والمكتئبين خجلين نوعاً من ظهورهم على الملأ. هنا ثوى أستاذ يحتمل أن يحيل الكلاسيكيات(الروائع) اليونانية أنيسة محببة بالنسبة لأبناء العوائل الرفيعة.

على أن هذه لم تكن كل ثروة تيتو المعتبرة، إذ أنه باع كل جواهره، باستثناء الخاتم الذي لم يشأ أن يفترق عنه، وكان ممتلكاً لخمسمائة فلورين ذهبي كاملة غير منقوصة.

لكن اللحظة التي توفّر فيها على هذا المبلغ شكّلت أزمة أول صراع خطير شهدته طبيعته الوديعة الرائقة. وأخيراً فقد أتته بغتة وتملكته فكرة ملحاح كان يرفض حتى الآن أن يرى منها أكثر من الظل وهي تتعقبه: لقد كان مرغماً على أن يتوقف ويقرر ما إذا كان سيستسلم ويذعن، أو ما إذا كان سيبدي الرفض الذي لا بد أنه يحمل العواقب التي لا يمكن تفاديها. وقد حدث في الغرفة فوق صالون نيلو، والتي كان استأجرها تيتو في هذه الآونة للسكن، أن سلّمه سينيني العجوز آخر حصة من المبلغ نيابة عن بيرناردو روسيلي، مشتري الجوهرتين الأغلى قيمةً.

قال الطبّاع والصائغ المحترم " Ecco, giovane mio! "

(أي إكـو (صـيحة استحسـان)يـا صـديقي جيوفـاني)، لـديك الآن ثـروة محترمة، وإذا أصغيت إلى نصيحتي دعني أضع لك دراهمك في مكان آمـن، حيـث يمكـن أن تتكـاثر وتتضـاعف، بـدلاً مـن هروبهـا مـن بـين أصابعك على المآدب وغيرها من الحماقات المنتشرة بين أوساط شبابنا الفلورانسـي. وقـد انتشـرت الموضـة بشـكل كبيـر بـين أوسـاط الأدبـاء، ولاسيما عندما يعتقدون، مثلما هي الحال مع صديقنا بيبيترو كرينيتو، أن معرفتهم بحاجـة إلـى تطريـز وتطييـب بـالعطور، أن يبـددوا بإحـدى اليدين إلى أن يصل بهم الأمر للتوسل بكل سرور بـالأخرى. لقد جلبتُ لـك المـال، وأنـت حـر فـي أن تعمـد إلـى اختيـار حكـيم أو غيـر حكـيم: سأرى أي كفة سيميل إليها الميزان. نحـن معشـر الفلورانسيين لا نعطـي أي شـخص عضـوية أي حرفـة فنيـة حتـى يثبـت مهارتـه ويـتم تنسـيبه، ولـيس مـن شـخص يُنسّـب فـي فـن الحيـاة حتـى يـتم تجريبـه جيداً. إذا قررت استخدام دراهمك للربا دعني أعلم بذلك غداً. ربما يتزوج رجل العلـم، ويجـب أن يكـون لديـه مبلـغ جـاهز علـى سـبيل الـ -morgen cap(2) (دوطة العريس) Addio"(وداعاً).

عنـدما كـان سـينيني يغلـق البـاب خلفـه اسـتدار تيتـو وأخـذت الابتسامة تزايل وجهه، وسمّر عينيه على الطاولة التي كانت الفلورينات (الـدراهم) ترقـد فوقهـا. لـم تنـدّ عنـه أيـة حركـة أخـرى لكنـه وقـف واضـعاً إبهاميـه تحـت زنـاره ينظـر للأسـفل وهـو علـى تلـك الحالـة المسّـمرة التـي تواكب تركيز الشعور على صورة جوّانية من نوع ما.

" فديـة رجـل! "– مـن ذا الـذي قـال إن خمسـمائة فلـورين هـي

أكثر من فدية رجل؟ إذا كان رجل طعن إلى حد ما في السن في الوقت الراهن، يقف تحت الشمس الهاجرة في هذا اليوم، وعلى ساحل قائظ في مكان ناء،– رجل ليس خلواً من الأفكار السامية،وقلبه مشبوب العاطفة أكثر من كل القلوب – رجل كان أنقذ لسنين خلت غلاماً صغيراً من حياة الشحاذة، والقذارة، والظلم التعسفي، ورباه بكل حنان، وكان له بمثابة الأب – إذا كان ذلك الرجل يكدح كعبد تحت سياط شمس هذا الصيف، يقطع الأخشاب ويسحب الماء، ولربما يصفع ويضرب لأنه ليس ماهراً ونشيطاً؟ إذا كان يقول لنفسه، " تيتو سيعثر علي: ما عليه سوى أن يحمل مخطوطاتنا وجواهرنا إلى البندقية، سيكون قد جمع مبلغاً من المال، ولن يهدأ له بال حتى يعثر علي؟" إذا تأكد ذلك، أبإمكانه هو، تيتو، أن يرى سعر الجواهر الراقدة أمامه، ويقول: " سأبقى في فلورانسة، حيث أنعم بهبوب النسمات العليلة نسمات الحب والرخاء الموعودين، لن أجازف بحياتي في سبيله "؟ لا، بالتأكيد لا، *لو كان ذلك مؤكداً*. لكن لا شيء يمكن أن يكون أبعد من هذا عن المؤكد. لقد استولت سفينة تركية على السفينة الشراعية وهي في طريقها إلى ديلوس: ذلك ما أفاد به تقرير السفينة المرافقة التي تمكنت من النجاة. لكن مقاومة اندلعت، ولربما دماء سفكت. وقد شوهد شخص يسقط في البحر من ظهر السفينة: من كان الناجون، وماذا حدث لهم في غمرة كل هذه الاحتمالات الكثيرة؟ ألم يتعرّض هو، تيتو، لتحطم سفينته، وينج بأعجوبة من الغرق؟ كان عنده سبب وجيه للشعور بوجود إصابات في كل مكان، الأمر الذي هدد كل المشاريع

بالإحباط. الإشاعة التي سرت عن وجود قراصنة لهم قواعد في ديلوس لم تكن مما يعوّل عليه، أو لم تكن تساوي شيئاً في هذا الصدد. ماذا ستكون النتيجة، والاحتمال هنا وارد جداً، إذا توجّب عليه أن يغادر فلورانسة ويذهب إلى البندقية: الحصول على رسائل توصية – أجل، كان يعلم أن ذلك يمكن أن يتم – والانطلاق صوب الأرخبيل؟ ياه، أن يؤول الأمر إلى إلقاء القبض عليه هو ذاته، وينفق كل فلوريناته (دراهمه) على الإجراءات الأولية، ويعود مرة أخرى إلى حياة التشرد – لا يملك أية جواهر للبيع.

توفّر تيتو على رؤية لتلك النتيجة أوضح من اللحظة المحتملة التي قد يعثر فيها على والده ثانية، ويمد له يد الخلاص. من المؤكد أنه سيكون من الإجحاف أن يدير ظهره وهو في عزّ شبابه، والذي وسم الشح والخنوع، كما في المدرسة، حياته حتى تلك اللحظة، للحب الموعود والتميّز، ولربما لن يأتيه ذلك الوعد ثانية أبداً. قال في سرّه: " ومع ذلك، فلو كنت متأكداً من أن بالداسار كالفو على قيد الحياة، وأن بإمكاني فك أسره، مهما بذلت من جهود وتعرضت لمجازفات، لكنت مضيت الآن – الآن أنا أملك المال: كان من العبث التفكير بالمسألة قبل الآن. سأذهب الآن إلى باردو وبارتولوميو سكالا، وأخبرهما بالحقيقة كاملة ". لم يقل تيتو لنفسه بصراحة إنه لو عرف ذانك الشخصان الحقيقة بكاملها لأدرك أنه لن يكون أمامه من خيار سوى أن يذهب بحثاً عن محسنه الذي، إن كان على قيد الحياة، سيكون المالك الحق للجواهر، والذي كان يتحدث دائماً عنه بلبس على

أنه " ضائع ". لم يقل لنفسه – الشيء الذي لم يكن غافلاً عنه – إن مشاهير اليونان قد قدموا التضحيات، ركبوا البحر ثانية وثالثة، ونشدوا العون من الرؤوس المتوّجة بالتيجان لمصلحة تحرير الأقرباء من عبودية الترك. لم ير الرأي العام في هذا فضيلة استثنائية.

كانت هذه أولى مناجاة له مع نفسه: فقد انصرف يقفو دوافع اللحظة، وأحد هذه الدوافع كان إخفاء نصف الواقع: لم يدرس أبداً هذا الجزء من سلوكه لفترة تكفي لأن يواجه الشعور بدوافعه للإخفاء. ما الفائدة من قول كل شيء؟ كان صحيحاً أن الفكرة عبرت ذهنه عدة مرات مذ أن غادر ناوبليا حتى إنه شعر براحة كبرى، في نهاية المطاف، عندما تحرر من بالداسار، وكان يود أن يعرف **من ذا** الذي سقط في البحر. لكن مثل هذه الأفكار تتأتى بشكل لا مفرمنه عن علاقة غير مريحة. كان بالداسار مثيراً للاهتمام وكان يزداد غرابة كلما ازداد تقدماً في السن:كان لا يني يتفحص ذهن تيتو ليتأكد من أنه كان يتواءم مع آماله هو المفرطة: والسن – سن شخص نيف على الستين سميك البشرة، كث الحاجبين، أصلع،اكتست مثابرته وتوقه لاستحواذ الأفكار منذ أمد طابع الرتابة والتكرار، يمكن أن يُنظَر إليه من عدة زوايا دون أن يبدو جذاباً. مثل هذا الرجل، المقطوعة به السبل وسط معارف جدد، اللهم إذا لم يكن بحوزته حجر الفلاسفة، سيشق عليه اكتشاف أن المنزلة، والشباب، والجمال هي تحت إمرته. إن المشاعر التي يأتيها الزخم من الجدّة لن تسعف إلا نادراً في السعي لجعل العالم موئلاً للناس الباهتين الذين خبا نورهم. وإذا كان هناك من حب لن

يحرموا منه فلا بد أن يكون الحب المتجذّر في الذكريات الحب، الذي لا يكف عن تقطير البلاسم الشافية، بلاسم الوفاء والحنان العفيف.

لكن المؤكد أن مثل هذه الذكريات لم تكن غائبة عن ذهن تيتو؟ وفي موقع ناء في خلفية المشهد من حياته التي تذكرها، عندما كان عمره سبع سنوات فقط، كان بالداسار قد أنقذه من الصدمات، وكان أخذه إلى بيت بدا أشبه بالفردوس المفتوح، حيث وجد الطعام اللذيذ والمداعبات المهدئة للأعصاب، كل ذلك حدث على ركبة بالداسار. ومنذ ذلك الوقت حتى ساعة افتراقهما شكّل تيتو البؤرة الوحيدة لاهتمام بالداسار ورعايته الأبوية.

وقد كان لين العريكة، مطواعاً، سريع الفهم، جاهزاً للتعلم: ولد جميل متوقد الذهن جداً، شاب يتسم حتى بالكياسة الرائعة، بدا خلواً من الرذائل، كما لو أن ذلك الشكل الجميل كان يمثل حيوية مركزة ومتوازنة بكل أناقة حتى إنه لم يعرف رغبات تبعث على الضيق، ولا قلقاً – ما شكّل بالنسبة لرجل وحيد كسباً لحضور بهي. وإذا كان خلد للصمت عندما كان والده يتوقع جواباً، فلم يبد عليه، رغم ذلك، أنه متقلّب المزاج. وإذا ترفّع عن بعض الأعمال – ياه، لكنه كان يحضر فجأة بمحياه الجذاب، نصف الباسم، ونصف المتوسل، حتى إن متعة النظر إليه كانت توفّر تعويضاً لإنسان كان يراقب نموه بإحساس بالمطالبة والتملك: فحنيات فم تيتو كان فيها ذلك المزاج الطيب العصي على الوصف. ومن ثمّ، يأتي حضور البديهة الذي انقادت له بسهولة كل الأشياء بدءاً من منظومات الفلسفة إلى قوافي قصيدة

شعبية قيلت في جلسة استماع!هل كان من المحتمل أن يقول أي كان إن تيتو لم يعد عودة ثرّة إلى محسنه، أو أن امتنانه ومحبته لن يكونا إيجابيين أمام أي مطلب كبير؟

لم يقرّ بأن عرفانه بالجميل قد أخفق. لكن ***لم يكن مؤكداً*** أن بالداسار كان يرسف في أغلال العبودية، ليس مؤكداً أنه كان حياً.

قال تيتو، في سرّه، وحركة خفيفة تندّ عن كتفيه، وكان أول ما عمله منذ أن التفت ليلقي نظرة على الفلورينات. "ألست مديناً لنفسي بشيء؟ قبل أن أتخلّى عن أي شيء، وأتعرض مرة ثانية لكل المخاطر التي سئمت حتى في هذه اللحظة منها، فإن الأمل الذي أحتضنه يجب على الأقل أن يكون معقولاً. هل قدّر لي أن أمضي حياتي في بحث من مكان لمكان؟ ***أعتقد أنه ميت.*** كان سينيني مصيباً بخصوص فلورين‌اتي: سأضعها بين يديه غداً ".

عندما وضع تيتو، صباح اليوم التالي، تصميمه في حالة الفعل كان قد رسى على حجّته في اللعبة، وأعطى متّجهاً لا مفر منه لرغباته. فقد جعل من المستحيل ألا يرغب من الآن فصاعداً أن يكون موت والده هو الحقيقة. من المستحيل ألا يستجر للنذالة أمام احتمال ألا تبقى الوقائع الدقيقة لسلوكه مخفية للأبد.

تحت كل سر هناك سلسلة مخفية من رغبات آثمة، رغبات تجد حياتها غير الصحية والملوّثة معزّة لها في الظلمة. ويحدث في الغالب أن تأثير الأفعال الملوِّث لا يكمن في ارتكابها بقدر ما يكمن في تعديل رغباتنا الناجم عن ذلك – إدراج مصالحنا الأنانية في جانب

الزيف. كما يحدث، من الناحية الأخرى، أن التأثير المطهّر للاعتراف العلني ينبع من حقيقة أنه بفعله يتم القضاء نهائياً على الأمل في الكذب، وتسترجع الروح موقف البساطة النبيل.

أضف إلى أن الأفكار، في هذه المناجاة الأولى الواضحة مع النفس، والتي كانت في السابق مبعثرة ومتقطعة قد أصبحت الآن مركّزة. فجداول الأنانية الصغيرة قد اتحدت وشكلت قناة، بشكل باتت معه بمنأى مطلق عن أن تلقى المقاومة نفسها. حتى الآن كان تيتو قد أقلع، في نوع من تردد مبهم، عن فكرة ما إذا كان الواجب لم يكن يقتضي أن يعود، ويتأكد من مصير والده. لقد قدّم الآن تبريراً محدداً لنفسه لعدم سلوكه ذلك المسار. لقد أقر أمام نفسه بخيار كان سيخجل من الإقرار به أمام آخرين، والذي كان سيجعله يشعر بالخجل في حضرة والده فيما لو ظهر ثانية. لكن الخجل الداخلي، المتمثل في منعكس ذلك القانون الخارجي الذي يسنه قلب البشرية الكبير لكل شخص بمفرده، منعكس سيوجد حتى مع غياب الدوافع التعاطفية التي لا تحتاج إلى قانون، بل تندفع وراء فعل الوفاء والشفقة بنفس الحتمية التي تجعل الأم الضارية تحمي صغارها من هجوم العدو الوراثي – ذلك الخجل الداخلي ظهرت بوادره الأولى في تأكيد تيتو الحازم لنفسه بأن والده ميت، أو، على الأقل، بأن البحث عنه كان من دون طائل.

الفصل 10

تحت شجرة الدلب

في مناسبة عيد سان جيوفاني كان قد مضى على تسليم تيتو دراهمه (فلورِيناته) إلى سينيني ثلاثة أسابيع، وقد مر بنا أنه عندما انطلق صوب فيا دي باردي كان يبدو على محياه كل الأمارات الخارجية لذهن لم يكدره شيء. وكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ فهو لم يتصادم قط مع أولئك الذين احتكوا به مباشرة، وفي طبعه كان جد مرح، جد مطمئن، إلى حد أن الأشياء المخفية والنائية لم تقوَ على الاستحواذ عليه في شكل هلع وخوف. وعندما خرج من أشعة الشمس الحارة ودخل ملاذ شارع ضيق، وخلع البيريتا، أو القبعة السوداء القماشية البسيطة، والتي توجت لتوها خصلات شعره البنية اللون، دافعاً شعره وقاذفاً رأسه للخلف تطلباً للهواء الأبرد، لم يرتسم على جبينه أي أثر للنفاق. كما لم يكن هناك أي أثر للإخلاص: كان بكل بساطة جبيناً حسن التشكيل، مربعاً، ناعماً، نضراً . والنظرة المتمهّلة الشاردة التي ألقاها حوله على النوافذ العلوية للبيوت لم يكن يثوي فيها لا خداع ولا سذاجة أكثر مما يثوي في جفن فتيٍ مفتوح جيداً له من سعة التحديق ما لا يعرف الكلل، وفي العدسات العظيمة الشفافية، وفي القزحية البنية الثرّة ذا ت السواد الواضح، وفي زاوية البياض النقية الموخطة بالأزرق السماوي والمخططة بالظلال الرهيفة لرموش طوال. هل أن وجه تيتو قد جذب أو نفّر تبعاً للحالة العقلية للمشاهد؟ هل كان شيفرة بأكثر من مفتاح؟ لقد كان التعبير القوي الذي

لا تخطئه العين في كامل حضوره وشخصه من النوع السلبي، وكان صادقاً تماماً، وأفصح عن غياب أي ادعاء يعتوره الاضطراب، وأي خيلاء مضطرب، وأحال الإعجاب الذي شيّعه بينما كان يمر وسط جمهرة المستمتعين بالإجازة تقديراً يتسم بكل الرغبة.

ذلك أن الشعور بالإثارة الذي واكب العيد حتى هذا الوقت قد وصل حتى إلى أضيق الشوارع الفرعية، والحشد الذي تركز في أحد الأوقات في المسارات التي كان على الموكب أن يجتازها، كان ينسرب الآن في الاتجاهات كافة بحثاً عن شيء جديد. مثل هذه الفترات في العيد هي عينها اللحظات التي يحتمل أن تكون فيها معنويات الحشد الحيوانية النشطة على نحو مبهم هي الأكثر شكاسة والأكثر استعداداً للتضحية بإنسان ضال على مذبح السعادة الأكبر للمجموع الأكبر. حين ولج تيتو المنطقة المجاورة لسان مارتينو، ألفى الزحام أكبر . وقرب حظيرة الـ Bertucce أو السعادين، كان واضحاً أن هناك شيئاً ما استحوذ على عابري السبيل وحملهم على التجمّع . لم يحتج الأمر إلى شيء مثير للانتباه كي يجذب إلى ناحية ما عابري السبيل الذين لا يسعون وراء هدف محدد، وكان تيتو يتأهب للانعطاف إلى شارع مجاور عندما التقطت أذنه، وسط الضحك المتعالي، صوتاً طفولياً يستغيث صارخاً:" أفلتوني! يا مريم العذراء، ساعديني! " ما جعله يصمم في الحال على شق طريقه داخل جمهرة المتفرجين. في تلك اللحظة بالضبط تسنى له أن يلاحظ أن الصوت المستغيث قد ندّ عن فلاحة شابة كان نقابها الأبيض قد سقط في غمرة العراك لتحرير يديها

مـن قبضــة رجـل يرتـدي ثوبـاً متعـدد الألـوان كلبـاس السـريتانو، أو المشعوذ، كان يأتي محاولات مضحكة لتهدئتها والتزلف إليها مستجراً، كما بدا واضحاً، مشاركة في الشعور فكهة من جانب المتفرجين. وقد بدا أن هؤلاء المتفرجين كانوا يتجادلون مع الفلاحة الشابة لثنيها عن عنادها مستعملين تنويعة مقنعة من الكلمات تشير إلى السذاجة وتزخر اللهجة الفلورانسية بمرادفاتها. في الوهلة الأولى كان وجه الفتاة متجهاً نحـو الناحيـة الأخـرى، ولـم يلمـح سـوى شـعرها البنـي الفـاتح معقوصـاً ومثبتاً بدبوس فضي طويل، لكن في الوهلة التالية، أسفر التعارك عن مواجهتها لتيتو مباشرة، مما أتاح له أن يشاهد الملامح الطفلية لتيسّا، وعينيها الزرقاوين مغرورقتين بالدمع، وشفتها السفلى الراجفة، وتيسّا من جانبهـا لمحتـه، ومـن خـلال غشـاوة دموعهـا المتزايـدة كـان يشـع أمـل مفاجئ، كالأمل البادي على وجه طفل صغير يشاهد، بعد أن أمسك به رجل غريب ضد رغبته، يداً مألوفة تمتد نحوه.

في ومضة عين كان تيتو قد شق طريقه عبر حاجز الواقفين الذين جعلتهم فضوليتهم مستعدين للإفساح جانباً عند التدخل المفاجئ لهذا السيد الشاب الوسيم، وأمسك بخصر تيسا، وقال، " أفلت هذه البنيّة! أي حق لك في أن تمسك بها في غير إرادة منها؟

أبان المشعوذ – وكان رجلاً له وجه من تلك الوجوه التي تميل فيها نحو الأعلى زوايا العينين والحاجبين، وزوايا الخيشومين، والفم، والفـك الحـاد الارتسـام –أسـنانه الصـغيرة النضـيدة فـي شـكل تكشـيرة شـيطانية لكـن ليسـت سـيئة الطـابع، بينمـا أفلـت يـد تيسّـا، ومـدّ يديـه

للخلـف، نافضـاً كتفيـه، ومثنيـاً إياهمـا قلـيلاً للأمـام بطريقـة نصـف اعتذارية، ونصف احتجاجية.

" لا أضمر للـ ragazza(1) أي شر في العالم، يا سيد: سل هذه الجماعة المحترمة. كنت فقط أنوي إراءتهم بضعة أمثلة عن مهارتي، والتي كان يمكن لهذه الحسناء الصغيرة أن تعينني بصددها أفضل من غيرها بسبب وجهها القطيطي (نسبة إلى القطيطة الصغيرة – م)، وهذا كان سيؤكد لهم مهارتي دون لبس أو خداع. كنت وعدتها بملء حضن من الحلوى كمكافأة. لكن وماذا يهمّ؟ بالتأكيد يتوفرالسيد على حلوى أفضل يقدمها كمكافأة، وهي تعرفها ".

واكب هذه الكلمات الأخيرة للمشعوذ ضحك عام شمل كل المتفرجين، نجم، على الأرجح، عن سيماء الارتياح والثقة التي حدت بتيسّا إلى أن تتشبث بذراع تيتو، عندما سحبها من خصرها ووضع يدها داخلها. لم تبال بضحكاتهم إلا بقدر مبالاتها بزئير حيوانات متوحشة كانت تفر هي منها، دون أن يكون هناك أي معنى في ذلك. لكن لم يكد تيتو يشبكها بذراعه حتى استشرف حرجاً في الموقف، وأسرع بالتالي للخلاص من متفرجين كانوا متيقنين، بعد أن حُرموا من تسلية متوقعة، من إعادة التوازن عن طريق التنكيت والمزاح.

قال المشعوذ، وهو يقذف بقطعة القماش الصغيرة على رأس تيسا:" انظري، انظري، أيتها الصغيرة! ها هو نقابك، أورسو، لا تضمري لي شراً. عودي إلي عندما يستطيع السيد أن يستغني عنك ".

صرخ أحد المتفرجين بعد أن شاهد انكماش تيسّا وجفلتها

لتصرف المشعوذ " آه! مايسترو فايانو، ستعود في الحال، مثلما قالت الضفدعة للمسلفة " .

شق تيتو طريقه بهمّة ونشاط صوب زاوية شارع فرعي، شاعراً ببعض الضيق لهذا التأخير الذي اعتور ذهابه إلى فيا دي باردي، ناوياً أن يتخلص من الفلاحة الصغيرة المسكينة بأسرع ما يمكن. كان الشارع التالي يغصّ أيضاً بعابريه الذين مالوا إلى التفوه ببعض تعليقات يطلقها المستمتعون بالإجازة طاولت هذا الزوج غير المألوف. لكنهما لم يكادا يدخلانه حتى قال، بطريقة لطيفة لكن عجلة، " والآن، يا صغيرتي، إلى أين كنت ذاهبة؟هل جئت إلى العيد وحدك؟"

قالت تيسا، وهي تبدو مذعورة ومنكوبة مرة ثانية:" آه، لا! لقد أضعت والدتي في الزحام – هي وحماي (2)(تقصد زوج أمها–م). سيحنقان علي – وهو سيضربني. حدث ذلك لكثرة الزحام في سان بوليناري – فقد دفعني أحدهم للأمام ولم أتمكن من إيقاف نفسي، وهكذا ابتعدت بي قدماي عنهما. أوه، لست أدري أي مكان قصدا ! أرجوك، لا تتركني! "

أخذت عيناها تتورمان مرة ثانية بفعل الدموع، وختمت حديثها بنشيج.

أخذ تيتو يغذ السير مرة ثانية: لم تكن كنيسة الباديا بعيدة كثير البعد. وقد أمكنهما أن يلجاها عن طريق الرواق المنفتح في الجهة الخلفية , وفي الكنيسة يمكنه أن يتحدث إلى تيسا – ولربما يتركها. لا!لم يحن أوان فتح الكنيسة بعد. لكنهما توقفا تحت مظلة الرواق،

وقال، " أليس لك قريب أو صديق في فلورانسة، يا صغيرتي تيسا، صديق يمكنك العثور على مسكنه، أم أنك خائفة من السيروحدك لأن ذعراً تملكك من المشعوذ؟ أنا على عجلة من أمري للوصول إلى أولترانو، لكن إن كان بإمكاني اقتيادك إلى أي مكان بالقرب من – "

" أوه، أنا خائفة: لقد كان الشيطان بذاته– لست أشك في ذلك. كما أنني لا أعلم إلى أين أذهب. لا أحد لدي يمكنني أن أتوجه إليه: وأمي كانت تنوي تناول عشاءها في مكان ما، والمكان لا أعرفه. أيتها العذراء المقدسة! سأكون عرضة للضرب ".

تهدلت زاويتا الفم المبوّز على نحو مثير للشفقة، وجاش الصدر المسكين الصغير يعلوه العقد فوق الفستان الصوفي (الصيرج) الأخضر بالخفقان، أما وأنه كان يعدم أية مساعدة من أحد: تنهيدة مسموعة لا مندوحة ستأتي، وانهمرت العبرات كبيرة كما لو أنها كانت تعوض عن الوقت الضائع. وُضع في موقف لايحسد عليه! كان الأمر سيكون فظاً لو تركها، وكانت طبيعة تيتو مفطورة بقضها وقضيضها على الحنان. تمنى آنئذ لو لم يكن على موعد في فيا دي باردي. عندما رآها ترفع مئزر العطلة لالتقاط العبرات المتساقطة سريعاً وضع يده، أيضاً، على المئزر، وفرك إحدى الوجنتين وقبّل الاستدارة الطفلية.

" صغيرتي المسكينة تيسا! كفي عن البكاء. دعينا نر ما الذي يمكن فعله. أين يقع مسكنك – أين تقطنين؟"

لا جواب، لكن النشيج بدأ يخمد قليلاً والعبرات تتساقط بسرعة أقل من ذي قبل.

" هيـا! سأمشــي معـك مسـافة قصـيرة، إذا أخبرتنــي أي مكـان تقصدين ".

سقط المئزر وبدأ وجه تيسا يشع بالرضى كما ملاك طلع لتوّه من سحابة. المشعوذ الجهنمي، الغضب والضرب، هذه الأشياء توارت إلى مكان بعيد.

قالـت نصـف هامسـة وهـي تتطلـع إلـى تيتـو بعينـين واسـعتين زرقاوين، وبشـيء أعذب من ابتسامة – بهدوء طفلي " أظنني سأذهب إلى البيت، لو بإمكانك اصطحابي ".

قال تيتو بلهجة ملاطفة، شابكاً ذراعها بذراعه ثانية " تعالي إذن، يا صغيرتي، أي طريق هو؟ "

قالت تيسا وهي تتقدم محكمة الإمساك بذراع تيتو: " هناك في بور ديل براتو ".

لـم يعـرف المنعطفات كلها جيداً كـي يغامر بمحاولـة انتقـاء الشوارع الأكثر هدوءاً. أضف إلى أنه خطر له أنه حيث يزدحم المكان بعابري السبيل سيقوى احتمال الالتقاء بمونا غيتا وبالتالي وضع حد لمهمته، مهمة الفروسية النبيلة. لذا توجه مباشرة إلى بورتا روسا، ومن هنـاك إلــى أوغنيسـانتي، مبينـاً وجهـه الاسـتعطافي المشـرق المعتـاد للمتفرجين المختلطين الذين انطلقوا على سجيتهم يقذفونه بنكاتهم هو والفتـاة الصـغيرة المنتعلـة حـذاء ضـخماً. وكـان يخـتلط مـع مقضّــي الإجازات الأكثر حشمة أغرار ميالون إلى المزاح والعبث، يحسدونه نوعـاً مـا علـى كنـزه الثمـين، ونسـاء جريئـات النظـرة يميّـزهن نقـاب

أصـفراللون(4)، وشـحاذون يـدفعون لأمـام بقبعـاتهم طلبـاً للحسـنة والصـدقات ويهـزؤون لعجلـة تيتـو الواضـحة للعيـان، ومقـامرون، ومحتالون ومتسكعون من أردأ الأصناف، وأولاد اعتادت ألسنتهم على التفوه بشكل مؤتلف بالقيل والقال لمرأى أكثر الألاعيب غلظة في الشارع: ذلك أن شوارع فلورانسة لم تكن دائماً تبدو ذات حشمة أخلاقية في تلك الآونة، وهلع تيسا لضياعها وسط الزحام لم يكن بالإجمال غير معقول .

عندما وصلا إلى ساحة بياتزا دوغنيسانتي، خفف تيتو من سرعته: شعر كلاهما بالقيظ من جرّاء سيرهما العجل، ووصلا إلى ساحة أكثر رحابة تمكنا فيها من التقاط أنفاسهما. جلسا على أحد المقاعد الحجرية التي شوهد منها الكثير، مديراً ظهره لجدران البيوت الفلورانسية القديمة.

قالت تيسا:" أيتها القديسة مريم! أنا سعيدة لخلاصي من أولئك النسوة والأولاد. لكنني لم أكن خائفة، ذلك لأنك أوليتني عنايتك ".

قال تيتو باسماً: " صغيرتي الجميلة تيسا! ما الذي يجعلك تحسين بالأمان معي؟ "

" لأنك على وسامة كبيرة – مثل الناس الداخلين إلى الفردوس: جميعهم جميلون ".

قال تيتو بعد أن شاهد بعض الدكك في الجوار، وعليها فاكهة وحلويات: "منذ فترة طويلة لم تتناولي أي فطور، يا تيسا. هل أنت جائعة؟ "

" أجل أعتقد أنني كذلك – إذا كنت تبغي تناول بعض الطعام أنت أيضاً " .

ابتاع تيتو قليلاً من المشمش، والكعك، والفواكه المجففة، ووضعها في مئزرها.

قال: " هيا، دعينا نتابع المسير إلى البراتو، ومن ثم قد لا تشعرين بأي خوف فتتابعين بقية الطريق وحدك ".

قالت تيسا وهي تنهض إذعاناً له وتكوّر مئزرها في شكل كيس احتواء لما معها: " لكنك ستتناول بعضاً من المشمش وغيره من الأطعمة ".

قال تيتو بصوت مسموع: " سنرى "، ولنفسه قال: " هي ذي فتاة صغيرة قد تلهم بقصيدة رعوية أفضل من قصيدة لورينزو دي ميديتشي " Nencia da Barberino " تلك التي يهذر بها أصدقاء نيلو. لو أنني كنت ثيوكريتوس (5)، أو لدي وقت لتنمية الخبرة الضرورية عن طريق مشاوير غير ملائمة كهذه! لكن الضرر قد وقع الآن: لقد تأخرت جداً على موعدي حتى إن نصف ساعة أخرى لن تغير في الأمر شيئاً، أيتها الحمامة الصغيرة الجميلة! "

قالت تيسا: " لدينا حديقة والكثير من الإجاص وبقرتان، إلى جانب البغال. وأنا مولعة جداً بها. لكن حماي رجل مغضب: أتمنى لو لم تتزوجه أمي. أعتقد أنه شرير. إنه بشع جداً ".

" وهل تسمح له أمك بضربك، أيتها الـ poverina (6) (الصغيرة المسكينة–م)؟ قلت إنك خائفة من أن تتعرضي للضرب ".

" آه، أمي نفسها توبخني: إنها تحب أختي الصغيرة أكثر مني، وتعتقد أنني لا أشتغل بما فيه الكفاية. لا أحد يتكلم معي بلطف، فقط ال Pievano (كاهن الأبرشية) عندما أذهب للاعتراف. والرجال في الميركاتو (السوق) يهزؤون مني ويسخرون. لم يقبّلني أحد ويتحدث معي قط كما تفعل أنت. تماماً مثلما أتحدث مع طفلي الصغير أسود الوجه، لأنني مولعة جداً به ".

لقد بدا أنه لم يدخل في روع تيسا أنه حدث أي تغير في مظهر تيتو منذ الصباح عندما شحذ الحليب منها، وأنه بدا الآن شخصية يجب أن تستدعي لأجلها مخزونها الصغير من الكلمات والإشارات الموقرة. كان قد أثر فيها بشكل مختلف جداً عن أي كائن بشري قاربها قط، ما لم يحدُ بها لأن تعقد أية مقارنة في التفاصيل. لم تعر اهتماماً للباسه. كان بالنسبة لها بكل بساطة صوتاً ووجهاً، شيئاً هبط من الفردوس إلى عالم بدت فيه معظم الأشياء قاسية وغاضبة. وقد أخذت تهذر دون قيد كما لو أنه كان رفيقاً خيالياً وُلد من محبتها الذاتية ونور الشمس.

وصلا الآن إلى البراتو، والذي كان في ذلك الأوان ساحة مكشوفة كبيرة داخل الأسوار، حيث كان يلعب الشباب الفلورانسيون لعبتهم الكالسيو المفضلة – وهي نوع غريب من كرة القدم – ويجرون، خلاف ذلك، تمارينهم. في منتصف هذا اليوم كانت الساحة مهجورة وهادئة حتى المداخل ذاتها، حيث نصبت خيمة استعداداً للسباق. وعلى حافة هذا المرج الواسع، توقف تيتو قائلاً –

" الآن، يا تيسا، لن تخافي إذا ما تركتك تسيرين بقية الطريق وحدك آديو!(وداعاً) سآتي وأشتري كوباً من الحليب منك صباح غد في السوق، لأتأكد من أنك بأمان؟ "

أضاف هذا السؤال بلهجة مواسية عندما لمح عينيها تتسعان بأسى، وزاويتي فمها تتهدلان. لم تفه بشيء في البدء. لم تفعل سوى أن فتحت مئزرها ونظرت لأسفل إلى ثمار مشمشها والحلويات. ثم رفعت بصرها إليه مرة ثانية وقالت متشكّية –

"اعتقدت أنك ستتناول بعضاً منها، ويمكننا أن نجلس تحت شحرة خارج المدخل الرئيسي، ونتناولها معاً".

قال تيتو ضاحكاً وقبّل وجنتيها: " تيسا، تيسا، أيتها السيرانة(*) الساحرة الصغيرة، ستقضي عليّ. كان ينبغي أن أكون في الفيا دي باردي منذ فترة طويلة. لا! يجب أن أعود الآن. أنت لست في خطر. هاك – سآخذ مشمشة، آديو! "

كان قد قطع ياردتين عنها عندما قال الكلمة الأخيرة. لم تقو تيسا على الكلام. بدت على شحوب وتنهيدة عميقة كانت تتصاعد بداخلها، لكنها استدارت كما لو أنها شعرت بأن لا أمل لها، وتابعت خطوها ممسكة بمئزرها ساهية، حتى إن مشمشاتها طفقت تتدحرج على العشب.

(*) واحدة من مجموعة كائنات أسطورية عند الإغريق كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك (م)

لم يملك تيتو سوى أن ينظر في إثرها، وإذ شاهد كتفيها يرتفعان بفعل التنهيدة المتفجرة والمشمشات تقع – لم يتمالك سوى أن يمضي في إثرها ويلتقط المشمشات. كان شاقاً عليه: كان على مسافة بعيدة من فيا دي باردي، وقريباً جداً من تيسا.

قال وهو يلتقط المشمشات: " انظري، يا سخيفتي. هيا، كفّي عن البكاء، سأذهب معك، وسنجلس تحت الشجرة. هيا، لا أحب أن أراك تبكين، لكنك تعلمين أنني يجب أن أعود في وقت ما".

وهكذا فقد اتفق أن وجدا شجرة دلب كبيرة غير بعيد من المداخل الرئيسة، وجلسا تحتها، والمأدبة بكاملها فُرشت على حضن تيسا، هي كانت تتكئ بظهرها على جذع الشجرة، وهو ممدد قبالتها مسنداً مرفقيه على النباتات الخضراء الخشنة الملمس النامية في الظل، بينا كان شعاع الشمس يتسلل خلل الأغصان ويرقص حولهما مثل شيء له جناحان. عاد الرضى والسرور كله إلى وجه تيسا من جديد، وبدا طعم المشمشات والحلويات لذيذاً جداً.

قال تيتو وهو ينظر إليها بينما كانت ترمق ما بقي من الوليمة وعقلها منهمك في جدل واضح بشأن الإبقاء على الثمار، ذلك لأنه قال إنه لن يتناول المزيد " أيتها العصفورة الجميلة! عندما يجول في الخاطر بأن أحداً ما يمكن أن يوبّخك! ما الخطايا التي تصرّحين بها عند الاعتراف، يا تيسا؟"

" أوه، الكثير الكثير. أنا غالباً "رذيلة ".أنا لا أحب العمل، ولست أملك سوى أن أجلس متبطّلة، بالرغم من أنني أعلم أنني سأنال ضرباً

وتقريعاً. وأنا أقدّم للبغال أفضل العلف عندما لا يراني أحد، وعندئذ عندما تغضب الأم أقول لست أنا من فعل ذلك، وهذا يجعلني خائفة من الشيطان. أظن أن المشعوذ كان الشيطان بعينه. لست خائفة تماماً بعد أن ذهبت للاعتراف. وانظر، لقد حصلت على Breve(7) (تميمة أوتعويذة –م)هنا حتى إن الأب العطوف، الذي قدم إلى براتو، كارزاً في عيد الفصح هذا، باركنا وأعطانا جميعاً ". وهنا أخرجت تيسا من صدرها صرّة صغيرة مربوطة. " وأعتقد أن العذراء ستحرسني. هي تبدو كذلك. وربما لو لم أكن متبطّلة لما تركتني أنال نصيبي من الضرب ".

" إذا كانوا قساة جداً معك، ياتيسا، ألا يجدر بك أن تتركيهم وتذهبي للعيش مع سيدة جميلة سترأف بك، إذا قبلت أن تخدميها؟ "

بدت تيسا وكأنها أمسكت أنفاسها لبرهة أو اثنتين. ثم قالت مرتابة: " أوه، لست أدري ".

قال تيتو مبتسماً: " وعندها ألا ترغبين في أن تكوني خادمتي الصغيرة وتسكني معي؟ ". لم يكن يقصد سوى أن يرى أي نوع من نظرة وردٍّ جميلين ستأتيهما.

وفي الحال ظهرت دفقة فرح." هل تأخذني معك الآن؟ آه! يجب ألا أذهب إلى البيت وأضرب، إذن." توقفت لبرهة، ثم أضافت بريبة أكبر:" لكنني أرغب في إحضار طفلي الأسود الوجه ".

قال تيتو واقفاً: " أجل، يجب أن تعودي إلى طفلك، يا تيسا، وأنا يجب أن أذهب في طريق آخر ".

أضاف قائلاً بينما كان يبرح مكانه تحت ظل الشجرة: " وحق

جوبيتر! ليس هذا بالوقت المناسب للسير من هنا إلى فيا دي باردي. أشعر بالرغبة في الاستلقاء والنوم في هذا الظل ".

انتهى الحديث على هذا النحو. كان لدى تيتو كره لا يُقهر لأي شيء غير مستحب، حتى وإن كان يثوي على الجانب الآخر منه شيء محبوب ومرغوب جداً . كان قد نهض باكراً، وانتظر، ومتّع ناظريه بالمناظر الطبيعية، وطفق منذ فترة يتمشى في الشمس: كان يرغب في قيلولة، وازدادت هذه الرغبة بفعل وجود تيسا الصغيرة، وبدا أنها تضفي رخاءً أكبر على الجو. استلقى على العشب ثانية، واضعاً قبعته تحت رأسه على تلعة خضراء بجانب تيسا. لم تكن الوضعية بالمريحة جداً، لذلك تحرك ثانية من مكانه، وطلب إلى تيسا أن تدعه يسند رأسه على حضنها. وعلى ذلك النحو سرعان ما غفا. جلست تيسا هادئة كحمامة تجلس على عشها، متجرأة فقط عندما كان يغط في نوم عميق على لمس الخصلات السود الرائعة التي ارتدت من أذنه للخلف. كانت في غاية السعادة الأمر الذي منعها من الخلود إلى النوم – وحال دون التفكير بأن تيتو سيستيقظ، وأنه عندئذ سيتركها، وعليها أن تتصرف إلى البيت. بالنسبة لسمكة صغيرة لا يتطلب صنع بركة على أتم وجه سوى كمية قليلة جداً من الماء، حيث ستجد فيها عالمها وفردوسها معاً من دون أن يخالجها أي هاجس بوجود ضفة جافة. على أن الظل الصيفي المتماوج، والسكينة، والتنفس الوديع لحياة تحبها على مقربة منك – كل ذلك سيكون لنا جميعاً بمثابة الفردوس، إن لم يكن التفكير التوّاق، وهو الملاك القوي الذي لا يعرف التسامح، قد أغلق المداخل

منذ زمن.

والحق أنه مضت فترة طويلة قبل أن يحين الاستيقاظ – قبل أن تنفتح العينان السوداوان الواسعتان أمام تيسا، أولاً بدهشة صغيرة، ثم بابتسامة سرعان ما تلاشت أمام فكرة تشغل البال. كان نوم تيتو الأعمق قد استحال إلى نوم خفيف، شعر خلاله بأنه في فيا دي باردي، يشرح تخلفه عن الحضورفي الوقت الموعود. وقد حثته الصور الواضحة في تلك الرؤيا على أن يشرع على الفور بالنهوض، وبينما مطّ ذراعيه ونفض قبعته، قال –

" تيسا، يا صغيرتي، لقد جعلتني أنام طويلاً. إن جوعي والظلال معاً ينبئاني بأن الشمس قد قطعت رحلة طويلة مذ أن استولى علي سلطان النوم. يجدر ألا أضيّع مزيداً من الوقت. أديو "، وأنهى حديثه بمداعبة وجنتها بيد، ومعتمراً قبعته باليد الأخرى.

لم تفه بشيء لكنه لحظ أمارات في وجهها جعلته يتكلم ثانية بكل ما وسعه من لهجة جدية ومعنّفة –

" والآن، يا تيسا، يجب ألا تبكي. سأكون غاضباً. لن أحبك إذا بكيت. يجب أن تذهبي إلى البيت إلى ابنك الأسود الوجه، أو إذا أحببت يمكنك العودة إلى المدخل الرئيس ومشاهدة انطلاقة الجياد. لكن ليس بوسعي البقاء معك أكثر من هذا، وإذا بكيت، سأظن أنك عبء علي ".

كبح الهلع الناجم عن هذا التغير في صوت تيتو جماح العبرات المتصاعدة . شحب لون تيسا كثيراً، وجلست صامتة راعشة،

وقد توسعت عيناها الزرقاوان من جرّاء العبرات المكبوحة.

تابع تيتو بلهجة مهدئة فاتحاً المحفظة التي تدلت عند حزامه : " انظري إلي الآن، هي ذي تعويذة جميلة حصلت عليها منذ زمن بعيد – مذ أن كنت في صقلية، وهي بلد بعيد بعيد ".

كان في محفظته الكثير من الأشياء الصغيرة المختلطة بنقود معدنية من الفئات الصغيرة، وقد اعترضته الصعوبة المعتادة في العثور على الشيء الذي يبغيه. حل ربطة محفظته وأفرغ المحتويات على حضن تيسا. وكان من ضمنها خاتمه من العقيق اليماني.

هتف مزلقاً إياه على سبابة يده اليمنى " آه، خاتمي! لقد نسيت أن أضعه ثانية هذا الصباح. غريب، لم يسبق أن افتقدته! "وأضاف قائلاً، بينما كان يفرش الأشياء الأصغر حجماً ويختار ما كان يبحث عنه. " أترين يا تيسا، أترين هذه القطعة الصغيرة الجميلة المدببة من المرجان الأحمر – مثل قرن عنزتك، أليس كذلك؟ – وفيها هنا ثقب، بحيث يمكنك أن تضعيها على الخيط الثخين حول جيدك إلى جانب تعويذتك، وعندها لن تتمكن الأرواح الشريرة من إيذائك: وإذا اتفق وشاهدتها آتية في الظل بالقرب من الزاوية أشرعي هذا القرن المرجاني الصغير في وجهها، عندها ستولي الأدبار. إنها " bouna fortuna " – (جالبة الحظ السعيد) ولسوف تقيك من الأذى عندما لا أكون معك. هيا، فكّي الخيط ".

أذعنت تيسا يحدوها إحساس مهدّئ بأن الحياة ستكون شيئاً جديداً تماماً، وأن تيتو سيكون بجانبها في غالب الأحيان. إن كل من

يتذكر طفولته يتذكر ذلك الإحساس الغريب الغامض، إمّا يواجه خبرة جديدة، بأن كل شيء آخر آيل إلى التغير، وأنه لن يكون هنالك أي انكفاء إلى الرتابة السابقة. ولذا تم تعليق قطعة المرجان قرب العلبة الصغيرة وفيها قطعة الرق وعليها خربشة كلمات، ما جعل تيسا تشعر بتشجّع أكبر.

قال تيتو مقتصداً في الوقت عن طريق التكلم بينما كان يفتش في محتويات المحفظة ويعلّقها عند خصره مرة ثانية : " والآن ستعطيني قبلة. واستبشري، مثل فتاة طيبة، وثم – "

لكن تيسا كانت قد قدّمت شفتيها على الفور بكل إذعان وقبّلت وجنته عندما أحنى رأسه.

صاح تيتو، ضاحكاً، وهو يضغط وجنتيها المدورتين بيديه ويعصر قسمات وجهها كي يعطيها (القسمات) قبلة شاملة حيادية: " أوه، أيتها الحمامة الجميلة! " .

ثم نهض واقفاً وسار بعيداً، دون أن ينظر حوله إلى أن أصبح على مبعدة عشرياردات منها، عندها التفت وأومأ إليها مودعاً. كانت تيسا تنظر في إثره، لكنه لم ير صدور أية إشارات استغاثة. كان يكفي تيتو ألا تبكي في حضرته. وقد تطلبت سماحة طبيعته أن تتوارى كل الأحزان بعيداً عنه.

فكّر تيتو بينما كان يتابع مسيره: " ليت شعري، متى ستقبّل رومولا وجنتي على هذا النحو؟ ". بدت مسافة الطريق في هذه الآونة مرهقة، وكاد أن يتمنى لو لم يكن طيب القلب على هذا النحو، أو لو

بإمكانه أن يتخلص من إغراء التسكع في الظل. لن يحتاج في معرض التبرير أمام باردو وروم‍ولا إلا إلى القول بكل بساطة إن بعض الأمور التي لم يكن يتوقعها قد أعاقته. شعر بالثقة لأن كياستهما الأبية لن تسترسل في الاستفسار. لم يضيّع وقتاً في الوصول إلى أوغنيسانتي، وتناول بعض الطعام على عجل هناك، عبر نهر آرنو عن طريق جسر آلا كاراجا، وشق طريقه مباشرة قدر الإمكان نحو فيا دي باردي.

لكن الساعة كانت تشير إلى الأوان الذي يؤوب فيه كل الناس الذين قصدوا أن يحضروا في الوقت المناسب لمشاهدة الكورسو (السباق) من البورغي (الضواحي)، أو القرى الواقعة مباشرة خارج بوابات السور، حيث كانوا أصابوا عشاء وراحة. وكانت الطرقات المؤدية إلى الجسور بالطبع هي المنافذ التي قصدتها جمهرة المتفرجين. آن وصل تيتو إلى جسر فيتشيو ومدخل فيا دي باردي، شعر فجأة بأن عليه العودة نحو الزاوية التي تتقاطع عندها الشوارع. هذا وقد أرغمت مجموعة فرسان آتية من طرف فيا غوتشيارديني، ومنعطفة باتجاه فيا دي باردي، عابري السبيل المشاة على الانكفاء بسرعة. كان تيتو يمشي، كعادته، وإبهام يده اليمنى تحت زناره. وعندما أرغم على التوقف، ولحظة كان ينظر نظرة عابرة إلى الفرسان المارّين شعر بيد باردة جداً تستقر على يده. التفت مجفلاً ووقعت عيناه على الراهب الدومينيكاني الذي لفت نظره بقوة وجهه المشرئب للأعلى في الصباح. وإذ شوهد من مكان أقرب بدا الوجه بكل وضوح وقد هدّه

المرض وليس العمر. ومرة أخرى جعله (الوجه) يستذكر بعض الذكريات القوية لكن المبهمة.

قال الراهب بصوت واهن: " عفواً، لكنني – من وجهك وخاتمك – أليس اسمك تيتو ميليما؟ "

" أجل "، قال تيتو، متكلماً بصوت خفيض كذلك، متأذياً بشكل مضاعف من اللمسة الباردة والغموض.لم يكن متوجساً أو حيياً بسبب تصوراته، لكن بفعل إحساساته وإدراكاته كان من السهولة أن يُحمل على الانكماش ويتغير لونه إلى شحوب مثل فتاة عذراء.

" إذن عليّ إتمام مهمتي ".

وضع الراهب يده تحت وشاحه الكتفي (8) وسحب صرة كتانية صغيرة مدلاة حول عنقه، وأخرج منها قطعة من الرق، لفت مرتين وألصقت بإحكام معاً بمادة لاصقة سوداء، ووضعها في يد تيتو. وعلى الطبقة الخارجية كان مكتوباً بالإيطالية بحروف صغيرة لم تعدم الوضوح –

" تيتو ميليما، عمره ثلاث وعشرون، له وجه أدكن جميل، وخصلات طويلة سود، وأشرق ابتسامة، وخاتم كبير من العقيق اليماني على سبابة يده اليمنى ".

لم ينظر تيتو إلى الراهب، لكنه فض بيدين مرتجفتين غلاف قطعة الرق الصغيرة. وفي داخلها قرأ الكلمات –

" لقد تم بيعي كرقيق: أعتقد أنهم سيأخذوني إلى أنطاكية. المجوهرات وحدها ستفديني ".

التفت تيتو إلى الراهب، لكنه لم يقو على أن يسأل سوى سؤال واحد بعينيه.

قال الراهب بصعوبة في التلفظ مثل شخص حمّلت قوته الصغيرة فوق طاقتها:" حصلت عليها في كورنثوس – من شخص كان يحتضر ".

قال تيتو وقلبه ينتفض: " هو ميت، إذن؟ "

" ليس الكاتب. الشخص الذي أعطانيها كان حاجّاً، مثلي، وكان الكاتب قد أودعها لديه، لأنه كان مسافراً إلى إيطاليا ".

" أتعلم ما هي المحتويات؟ "

" لا أعلم عنها شيئاً، لكنني أخمّن ماهيتها. صديقك يرسف في قيود الرق: لابد أن تذهب وتعتقه. لكنني غير قادر على الحديث الآن ". تهالك الراهب، الذي غدا صوته أضعف شيئاً فشيئاً، على المقعد الحجري أمام الحائط، والذي كان قد نهض منه، وأضاف –

" أنا في سان ماركو. اسمي الأخ لوقا ".

الفصل الحادي عشر

مأزق تيتو

عندما كف الأخ لوقا عن الكلام كان تيتو ما يزال واقفاً بجواره متردداً لم يحزم أمره، ولم يستأنف تيتو سيره إلى فيا دي باردي إلا عندما زال ضغط المارّة ونهض الأخ ودخل، بخطوات بطيئة، كنيسة سانتا فيليسيتا.

قال محدّثاً نفسه " إذا كان هذا الراهب فلورانسياً، وإذا كان ينوي البقاء في فلورانسة، فلا بد أن ينكشف كل شيء ". شعر أن أزمة جديدة قد داهمته، لكن، بالرغم من كلّ هذا، لم يبد عليه اضطراب واضح يفضي إلى إعاقته عن زيارة باردو، والاعتذار عن تخلّفه السابق. كانت موهبة تيتو على الإخفاء قد تطورت سريعاً إلى شيء أقل حيادية من ذي قبل. كان ما يزال وارداً بالنسبة إليه – ولربما أمراً لا مندوحة منه –أن يتقبل صراحةً الشروط المتغيّرة، ويقرّ بوجود بالداسار، لكن ذلك بالكاد أن يحدث دون أن يسلّط ضوءاً غير مستحب على تكتّمه الأصلي السالف، ما سيكشف أنه عمد إلى مواربة مدروسة كيما يتفادى تلبية مطلب أقرّه في السرّ، ناهيك عن استقراره الهادئ في المدينة واستثماره دراهمه، في وقت سيتضح أن مصير محسنه لم يتأكد بعد. مبدئياً، على الأقل، ستقضي الحكمة أن يتصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث، وللوقت الحالي سيُعلّق التفكير الجازم.ما يزال أمامه الليل بطوله كي يشبع المسألة تمحيصاً، كما ولن يعرف

أحد تلك اللحظة بالضبط التي استلم فيها الرسالة.

وهكذا دخل الغرفة على الطابق الثاني – حيث جلست رومولا ووالدها بين المخطوط والتمثال الرخامي، بعيداً عن حياة الشوارع سواء أكان ذلك في الإجازات أم الأيام العادية – بوجه لا يقل إلا قليلاً عن إشراقته المعهودة، وذلك للأسف الناجم عن تأخره، أسف لم يحتج إلى شهادة، ذلك لأنه تخلّى عن مشاهدة السباق كي يعبّر عنه. ومن ثمّ طفق يسبغ حيوية إضافية على الأمسية، رغم أنه كان طوال الوقت دائب الوعي مثل آلة تنجز عملاً معقداً، تاركاً الرواسب تتميز بشكل تام عن مجرى الحديث الرئيسي. وعندما نزل على الدرج الحجري وخرج من الباب الكالح إلى ضوء النجوم الساطع كان تفكيره قد وصل فعلاً إلى مرحلة جديدة في صوغه لهدفه.

وعندما تحرر، في اليوم التالي، من عمله المهني سلك طريق فيا ديل كوكوميرو إلى دير سان ماركو، لقد أخذ هدفه شكله النهائي. كان يهدف إلى أن يعرف بالتأكيد من الأخ لوقا المقدار من الحقيقة الذي خمنه، وعلى أية أسس قام تخمينه . وأيضاً كم سيمكث في سان ماركو. وعلى أساس تلك المعرفة الأشمل كان يأمل أن يصوغ مقولة ستوفر عليه، في كل الأحوال، ضرورة مغادرته فلورانسة. لم يتسنّ لتيتو قط أية مناسبة يفبرك فيها كذبة بارعة من قبل: لقد سنحت الفرصة الآن – الفرصة التي لا تخفق الظروف في توفيرها تأسيساً على كذب ضمني. وبراعته كانت حاضرة. ذلك أنه أقنع نفسه بأنه لم يكن ملزماً بالذهاب بحثاً عن بالداسار. كان قال مرة إنه عندما يتأكد بشكل معقول

وجود والده ومكانه فإنه سيلحق به دون تردد. لكن **لمَ** كان هو، في نهاية الأمر، ملزماً بالذهاب؟ وماهي، عند النظر عن كثب أكبر، نهاية الحياة كلها، سوى استخلاص أكبر كمية ممكنة من السعادة؟ أوَلمْ تعطه حياته المتفتحة وعداً بسعادة لا مثيل لها، ليس لنفسه فحسب، بل لآخرين، يفوق ما تعد به الحياة الشتائية الذابلة لشخص تجاوز أوان المتعة الشديدة، شخص تصلبت أفكاره لتصير قساوة مجدبة؟ (1) تلك الأفكار انزرعت كلها في تربة عقل تيتو الطرية، وآلت فيها إلى جراثيم نشطة: كذلك هو النظام الصحيح للأشياء – نظام الطبيعة، الذي يعامل كل ما هو ناضج على أنه مجرد مستنبت تفريخ (2) للشباب. كان بالداسار قد قام بواجبه، ونال حصته من الحياة: لسان حال تيتو يقول لقد جاء دوره هو الآن.

أما المستقبل فقد كان غامضاً جداً:– " أعتقد أنهم سيأخذوني إلى أنطاكية:" هي ذي صورة تستشرف المستقبل! بعد رحلة طويلة يقضي المرء شهوراً، ربما سنوات، في بحث ليس هناك ضمانة، حتى في هذه الآونة، في أنه لن يكون دون طائل:وأن يخلّف المرء وراءه عند نقطة البداية حياة من التميز والحب: ويجد – هذا إن وجد شيئاً – الصحبة القديمة المجهدة التي حفظت عن ظهر قلب من قبل. ومن المؤكد أن المجوهرات وبالتالي الفلورينات (الدراهم) كانت، بمعنى ما، ملك بالداسار: وبالمعنى الضيق الذي يتحدد بوساطته حق التملك في المسائل العامة، لكن من وجهة النظر الطبيعية الرحبة والأكثر راديكالية التي ينتمي من خلالها العالم إلى الشباب والقوة، فإنها تكون بالأحرى

ملك ذاك الذي يمكنه أن يستخلص السعادة القصوى منها. وكان يعي أن تلك العاطفة لم تكن بالعاطفة التي أوجدها الدور المعقد للمشاعر البشرية في المجتمع. هذا، وإن الناس من حوله سيتوقعون، وعلى الفور، أن يقدّم تلك الدراهم لنجدة محسنه. لكن ماذا كانت عاطفة المجتمع؟ – مجرد كتلة متشابكة من التقاليد والآراء غير السوية، والتي لا يتخذها أي رجل عاقل دليلاً له، إلا بقدر ما يتعلق الأمر براحته الشخصية. ليس أنه كان يحرص على الدراهم، اللهم إلا إذا كان ذلك لمصلحة رومولا: هو على استعداد تام ليتخلى عن الدراهم. كانت السعادة التي استحق، والتي كانت قريبة جداً من فمه، هي التي شعر بأنه لم يكن ملزماً بالتخلي عنها، وبالتالي يتابع سفره، صادياً. إن أية مبادئ تتطلب من الإنسان أن يطيح بالخير الذي دعت الحاجة إليه كيما يكون الوجود عذباً، إنما هي حاشية (بطانة)الأنانية البشرية بشكلها المقلوب للخارج: كانت من صنع الناس الذي أرادوا من الآخرين أن يضحوا بأنفسهم لمصلحتهم. وهو يفضل لو أن بالداسار لن يعاني: لم يتمنّ المعاناة لأي شخص كان، لكن هل بإمكان أية فلسفة أن تثبت له أنه كان ملزماً بأن يأبه بمعاناة شخص آخر أكثر من معاناته هو؟ وللقيام بهذا يجب أن يكون قد تفانى في حب بالداسار، وهو لم يحبه: هل كانت تلك غلطته؟ نكران جميل! عند النظر عن كثب لم يكن المطلب بالمطلب الحق: فحياة والده كانت ستكون مرعبة بدونه: هل نحن مذنبون بدَيْن لأناس نظير السعادة التي يوفرونها لأنفسهم؟

وما إن شرع باستبعاد مطلب بالداسار، كما فسّر الأمر هو،

حتى ظهرَ تفكير تيتونشيطاً كأسيد سام يتأكل أنسجة العاطفة كلها. كان ذهنه خلواً من ذلك الرعب الذي تم استهجانه على نحو خاطئ لكونه ليس أسمى من عناية الإنسان الحيوانية بجلده: تلك المهابة من النقمة الإلهية التي يشعر بها الوثنيون الدينيون، و، رغم أنها اتخذت شكلاً أكثر إيجابية على يد المسيحية، فإن جمهرة الجنس البشري ما برحت تراها بكل بساطة خوفاً غامضاً من أي شيء يُدعى ظلماً. مثل هذا الرعب من اللامرئي هو حتى الآن يفوق مجرد الجبن الحسي حتى إنه سيجتث ذلك الجبن: إنه الإقرار المبدئي بقانون أخلاقي يكبح الرغبة، ويكبح التفحّص المثابر والجريء للتفكير الناقص ليصير التزامات لا يمكن الإثبات أبداً بأن لها أية قدسية في غياب الشعور. ينشد إيومينيدس العجوز في إيسخيلوس:" إنه لأمر جيد أن يكون الخوف بمثابة الحارس للروح، مرغماً إياها على ولوج الحكمة – جيد أن الناس ملزمون بحمل طيف منذر متوعّد في أفئدتهم في وضح النهار حيث الشمس في أكمل سطوع لها . وإلا: كيف لهم أن يتعلموا توقير الحق؟"(3) تلك الوصاية قد تصبح لا داعي لها، لكن فقط عندما يصبح كل القانون الخارجي لا داعي له – فقط عندما يتحد الواجب والحب في تيار واحد ليصنعا قوة مشتركة.

عندما دخل تيتو الفناء الخارجي لسان ماركو، واستعلم عن الأخ لوقا، لم يكن هناك أي ظل لهاجس ما في تفكيره: شعر أن لديه من الثقافة والارتياب ما يمنعه عن ذلك: فقد ربّي بشكل يحتقر معه حكايا الرهبان الذين شكلت حيواتهم الوقحة مثلاً سائراً، وعلى ألفة أريبة

بالنزاعات المتصلة بالخير الأساسي، والذي، حسب رأيه، بقي مسألة ذوق. ومع ذلك فقد كان الخوف عنصراً قوياً في طبيعة تيتو – الخوف مما اعتقد أو رأى أنه من المحتمل أن يسلبه السعادة: وكان عنده خوف مؤكد بأن الأخ لوقا يمكن أن يشكّل الأداة التي تدفعه بعيداً عن فلورانسة.

" الأخ لوقا؟ آه، لقد غادر إلى فيسول – إلى دير الرهبان الدومينيك هناك. أخذ على نقالة مع برودة الصباح . الأخ المسكين مريض جداً. هلا تركت رسالة له؟"

أعطى هذا الجواب أخ من الرهبان العاديين، أفصحت لهجته ببساطة أنه فلاّح غرّ، ولم تش نظرته البلهاء بأية فضولية.

" شكراً، يمكنني الانتظار ".

انصرف تيتو وهو يشعر بالارتياح. قال في سرّه: " ليس هناك احتمال أن يعيش هذا الأخ. لقد شاهدته ضامراً حتى غدا كالخيال. وفي فيسول لن يذكّره أي شيء بي. أضف إلى أنه لو عاد فإن إيضاحاتي ستكون مفيدة جداً بالدرجة نفسها التي هي عليها الآن. لكنني أتمنى لو أعلم ما الشيء الذي ذكّرني وجهه به ".

الفصل الثاني عشر
الجائزة على وشك النوال

تابع تيتو سيره، خفيف الخطو، ذلك لأن الخوف الذي داهمه قد

تلاشى. استعاد حبورُ مزاجه المعتاد تسيّدَه، وكان في طريقه لمقابلة رومولا. بيد أن حياة رومولا بدت صورة لذلك الإخلاص المحب المتعاطف، ذلك التحمل الصبور للمهام المنغّصة، والتي كان قد تحاشاها وعذر نفسه لأجلها. لكنه لم يكن يكره عمل الخير، أو يتأهب للانغماس في الرذيلة: كان في ميعة شبابه، يختلج فؤاده بضربات ناعمة لكل ما هو فاتن وجميل (1). كان لا يزال يتوفر على شهية صحية للمسرات البشرية العادية، ولم يقو السم على التأثير إلا بدرجات. كان قد باع نفسه للشيطان، لكن حياته، راهناً، بدت له هي هي تقريباً بحيث بات غير مدرك للقيد. كان قصد أن يدع الأشياء كلها تسير قدماً كسابق عهدها، سواء داخل كيانه أو خارجه: كان يهدف إلى كسب الآراء الثمينة عن طريق جهد مبذولٍ أهلٍ للتقدير، وعن طريق المعرفة البارعة، وعن طريق الإذعان الودود: لم يكن على استعداد لأن يفعل أي شيء يحدث أي شرخ بينه وبين الكائنات التي استحوذت على اهتمامه. وكان يهتم أيما اهتمام برومولا، ويرغب في أن تكون زوجته الجميلة المحبة. ربما كانت هناك مصاهرة أكثر ثراء ضمن المدى النهائي الذي تصل إليه إنجازات ناجحة شبيهة بإنجازاته، لكن فلورانسة كانت خلواً من أية امرأة تضاهي رومولا. عندما كانت بقربه، وكانت تنظر إليه بعينيها العسليتين الوفيتين، كان يقع تحت تأثير عذب له قوة وحتمية تلك الاهتزازات الموسيقية التي تستحوذ علينا بسيطرة إيقاعية لا تكاد تتوقف حتى نرغب في أن تبدأ من جديد.

وعندما كان يصعد الدرج الحجري، قبل أن يصل بعد إلى

الباب، ولا أحد بقربه باستثناء ماسو، بدا أن مفعول التأثير قد بدأ بمجرد اقتراب التوقع.

" مرحباً بك، يا عزيزي تيتو " طرق سمعه صوت الرجل العجوز قبل أن يتاح لتيتو التكلم. شاب الصوتَ حيويةٌ جديدة، والوجه الكفيف فرح جديد، منذ ذلك اللقاء الأول قبل شهرين. " لقد أحضرتَ مخطوطاً جديداً، دون ريب. لكن أفكاراً جديدة خطرت لي منذ حديثنا الليلة الفائتة: يجب أن نتوفر على مجال أوسع – يجب أن نعود أدراجنا ".

توجه تيتو الذي قام بواجب التحية نحو رومولا وهو يواصل سيره،كعادته، مباشرة إلى كرسي باردو، ووضع يده في راحة اليد التي امتدت لكي يستقبلها متخذاً مجلسه على المقعد الجلدي المتصالب القوائم المعقوف الأطراف، قريباً من مرفق باردو.

قال بطريقته الوادعة: " أجل، لقد أحضرت المخطوطة الجديدة، لكن يمكن الانتظار إذا رغبت. فأنا أتوفر على أعضاء فتية، كما تعلم، وبإمكاني أن أعاود صعود الربوة دون كبير عناء ".

لم ينظر باتجاه رومولا بينما كان يفوه بهذه الكلمات، لكنه كان يعلم جيداً أن عينيها كانتا مركّزتين عليه
بغبطة وفرح.

" هذا قول حسن، يا بني ". كان باردو قد خاطب مؤخراً تيتو بهذه الطريقة مرة أو مرتين. " وأنا أرى، والسعادة تغمرني، أنك لا تحجم عن العمل الذي، كما قال الشاعر الحكيم، بدونه لم تعط الحياة شيئاً لبني البشر. وهو في غالب الأحيان " palma sine pulvere"، جائزة المجد خلو من غبار السباق، تلك التي تجذب طموح الشباب (2) لكن ماذا يقول الإغريق؟ " في صباح الحياة، اعمل، وفي منتصفها، أسد المشورة، وفي المساء، صلّ "(3). صحيح، قد يذهب الاعتقاد إلى أنني قد أكون وصلت إلى ذلك المساء العاجز. لكن ليس الأمر هكذا، طالما أحتفظ في داخلي بالمشورة التي لم تقل بعد. أما بالنسبة لتفكيري، فكما قلت مراراً، كان مغلقاً كما لو بسدّ. إن المياه الوفيرة ترقد سوداء وراكدة، لكنك أنت، يا تيتو، قد فتحت لها قناة، وهي تندفع للأمام بقوة فاجأتني أنا. والآن، ما أريده هو أن نراجع مرة ثانية الأرض البكر التي وطئناها، بخطة تعليقات وشروح أوسع: وإلا قد تضيع الفرص التي أستعيد صورتها الآن، والتي قد لا تسنح مرة أخرى. أمنتبه لما أقول، يا تيتو؟"

كان قد انحنى لتوه لالتقاط مخطوطته التي تدحرجت للأمام، وكانت أذن تيتو الحريصة متيقظة لأدنى حركة.

ربما التُمس العذر لتيتو لاستهجانه الأفق المفتوح أمامه، لكنه لم يكن فاقد الصبر بالفطرة. أضف إلى أنه قد تربى في جو تلك المعرفة الواسعة، والتي كانت دقيقة ووافرة في آن، وكانت المهمة الفكرية الرئيسة للعصر. ومع رومولا بجانبه فقد كان يعوم على أمواج

المشاعر البهية التي جعلت كل شيء يبدو ميسّراً .

قال: " بالتأكيد، أنت ترغب في توسيع ملاحظاتك على بعض المقطوعات التي قبسناها ".

" ليس هذا فحسب. أرغب في أن أقدّم excursus (4) (أطروحة) من وقت لآخر، حيث لفت انتباهنا مؤلِّف كرّستُ له دراسة خاصة. ذلك أنني قد أموت بأسرع مما أستطيع إنجاز أي عمل مستقل. وليس هذا الوقت وقت بقاء النزاهة العلمية والعلم المشذب جيداً من دون جهد، حيث ليس ما نخشاه هو الجهل المتسرع فحسب، بل عندما يوجد أشخاص مثل كالديرينو(5) الذين يفزعون، كما بيّن بوليتزيانو جيد الإبانة، إلى زيف وقح من الاقتباسات خدمة لمرامي خيلائهم وتأمين الانتصار لأخطائهم. ولهذا السبب، يا عزيزي تيتو، أعتقد أنه يجمل بنا ألا ندع الفرصة المتوافرة تفلت من أيدينا. والآن عودة إلى النقطة التي قبسنا عندها مقطوعة ثوسيديدس، وأرغب إليك، على سبيل الخطوة الأولية، أن تشاركني في مراجعة كل الملاحظات التي أثيرت عن الترجمة اللاتينية التي قام بها لورينزو فالا (6)، والذي دفع له لقاءها البابا نيقولا الخامس الفريد من نوعه– والذي تشرفت بأن أكون محط انتباهه بينما كنت ما أزال حدثاً، وحين كان ما يزال توما سارزانا – أقول دفع له (ليس دون وجه حق) مبلغ الخمسمائة سكودي ذهبية. لكن على قدر ما لقي فالا من عظيم التكريم لثقافته الصارمة، رغم أنه خلاف ذلك ذو شهرة غامضة، ومنه قول الحكيم الساخر عنه على سبيل المزاح إنه مذ أن توارى بعيداً عن الأضواء فإن أفلاطون نفسه لم

يجرؤ على التحدث باللغات القديمة، فإن الحاجة قد مست أكثر من أي وقت ألا يكون اسمه خاتماً يجيز بضائع مزورة. ولذلك سأتقدم بأطروحة excursus عن ثوسيديدس ستحتل فيها انتقاداتي اللاذعة لنص فالا موضعاً ملائماً. يا عزيزتي رومولا، تناولي المجلدات المطلوبة – أنت تعرفينها – الموجودة على الرف الخامس للخزانة ".

نهض تيتو آن نهضت رومولا، قائلاً، " أنا سأجلبها، إذا ما دللتني عليها "، وتبعها على عجل إلى داخل الغرفة الصغيرة الملاصقة حيث كانت الجدران مغطاة أيضاً برفوف الكتب المنسقة تنسيقاً تاماً.

قالت رومولا مشيرة للأعلى:" هي هناك. كل كتاب لم يبرح مكانه منذ أن كفّ والدي عن رؤيتها ".

وقف تيتو بجانبها دون أن يتعجّل تناول الكتب. قبل الآن لم يتفق وجودهما معاً في هذه الغرفة على الإطلاق.

تابعت وهي تلتفت بكامل وجهها صوب تيتو وقد بدت عليها نظرة ثقة رصينة: " آمل ألا يرهقك. هذا العمل يجلب له السعادة ".

" وأنا أيضاً يا رومولا – إذا سمحت لي القول إني أحبك – هذا إذا اعتقدتِ أنني أستأهل قليلاً من المحبة".

كان كلامه أرق همسة، وكان الوجه الأسمر الجميل، الأقرب من أي وقت مضى لوجهها، ينظر إليها بحنان متضرع.

" أحبك فعلاً "، تمتمت رومولا. نظرت إليه بالجلال البسيط عينه كما أي وقت مضى، لكن صوتها لم يشهد في حياتها كلها تحدّره إلى ذلك الهمس. بدا لكليهما أنهما ينظران إلى بعضهما منذ فترة

طويلة قبل أن تتحرك شفتاها بالكلام مرة ثانية. ومع ذلك لم تكد تمضي لحظة حتى قالت " أنا أعرف *الآن* كنه أن يكون المرء سعيداً ".

التقى الوجهان وامتزجت خصلات الشعر السود للحظة مع الذهب المتماوّج. وبسرعة البرق، لاحقاً لذلك، داس تيتو على الإفريز البارز لرفوف الكتب وتناول المجلدات المطلوبة. شعر كلاهما بالرضى للصمت والانفراد، ذلك أن تلك التجربة الأولى المباركة من الشعور المتبادل كانت الأروع لأن الإحساس المباشر لم يعكر صفوها.

لقد حدث كل ذلك بسرعة الاختلاط السريع للأمواه الذي لا راد له، ذلك أنه حتى باردو المتلهف والغيور لم يفقد صبره.

قال العجوز، عندما عاودا الاقتراب منه: " هل حصلت على المجلدات، يا عزيزتي رومولا ؟ والآن جهّزي قلمك، إذ، ما إن يعلّم تيتو ال scholia (7) (الملاحظات الأدبية) التي نقرر اقتباسها حتى يحسن بك أن تنسخيها دون تأخير – مع ترقيمها بعناية، انتبهي، كيما تتطابق مع الأرقام في النص الذي سيدونه هو".

كان لرومولا دائماً حصة في هذا العمل المشترك. وقف تيتو بقرب المسندة حيث كان يكتب ويقرأ معاً، وهي وقفت عند منضدة قبالته تماماً حيث كانت جاهزة لأن تناول والدها أي شيء قد يحتاجه، أو تتناول منه مجلداً يفرغ منه. لم يغيّرا تلك الوضعية منذ أن بدأ العمل، لكن الأمر بدا هذا اليوم جديداً. هذه المرّة بدا لهما فارق وقوفهما قبالة بعضهما كبيراً. بالنسبة لتيتو بدا تناول كتاب منها بعد أن

ترفعه عن ركبة والدها جد مختلف . لكن لم يكن هناك من حيلة لتوفير نظرة أو لمسة إضافية. فكل امرأة تخلق على هواها إشارات الحب التي تعرض لها، وكانت سعادة رومولا العميقة الهادئة تحيط بتيتو مثل ضوء المساء الثرّ لكن الهادئ الذي يبدد كل ضيق.

لبثا ساعتين يعملان وكانا على وشك الكفّ بسبب النور المتلاشي عندما فتح الباب ودخل شخص تتنافر غرابة وجوده مع مجرى أفكارهما وإيحاءات كل شيء حواليهما. كان الشخص امرأة ربعة القامة قوية البنية دعجاء العينين، تناهز الخمسين، تعتمر قبعة مخملية سوداء، أو قلنسوة ضيّقة، مطرزة باللآلئ ثوى تحتها فوق الجبهة الصغيرة الناتئة ضفائر سود ضخمة على نحو يدعو للدهشة، وكانت تتدلى في شكل عقفات ضفائرية ثرّة فوق الأذنين بينما كانت مسحة قرمزية لا تقل إدهاشاً على المنطقة العليا من الوجنتين السمينتين توفّر تبايناً مع الشحوب المحيط. كانت ثلاثة صفوف من اللآلئ وعقد ذهبي أدناها تتوسد مسند جيدها الأفقي. لقد تغيرت قليلاً ألوان الحاشية المطرزة لفستانها المخمل الأسود الذي يجرّ وراءها وردنيها المطرزين المتدليين طويلاً، من الداماسكو الوردي اللون، لكنها كانت تشي للعين المبتدئة بتأكيد مقنع بأنها كانت النتيجة الباهرة لشغل ستة أشهر أتته امرأة صناع.وكان الفستان النسائي الوردي اللون، بما له من حاشية بيضاء خفيفة اللون ومنمنمات من حب اللؤلؤ، معروضاً بشكل لائق كيما يوحي بانعكاس بهيج مشابه. كما تدلى عقد مرجاني جميل من أحد جانبي زنار غير ظاهر انبثق إلى

اليقين من خلال مشبك كبير من الفضة مشغول بالنييلو (8). وعلى الجانب الآخر، حيث كان الزنار متوارياً أيضاً، كانت تتدلى اسكارسيلا، أو محفظة كبيرة من المخمل القرمزي مدروزة باللآلئ. أما يدها اليمنى البدينة الصغيرة، والتي بدت كأنها مصنوعة من عجينة صلصال، وعدمت الشكل الملائم بفعل الشيّ الجزئي، وأمسكت بكتاب ديني، فقد كانت أيضاً رائعة بالمخمل واللآلئ والفضة.

كان تيتو قد ألف هذا الشكل جداً من قبل بحيث لم يسبب له أية رعدة مفاجئة، ذلك أن مونا بريجيدا كانت زائرة مداومة إلى بيت عائلة باردو، واستثنيت من عقوبة النفي التي صدرت بحق التفاهة الأنثوية، بسب من قرابتها من زوجه المتوفاة ورعايتها الباكرة لرومولا التي نظرت الآن نحوها بابتسامة محبة، ونهضت لتسحب المقعد الجلدي إلى المسافة الواجبة من كرسي والدها، كيما لا يكون دفق الحدث القادم على قرب مفرط من أذنه.

قال باردو مستفسراً بعد أن تكشفت له الخطوات القصار والملابس الماسحة للأرض:" La cugina ? "

"ابنة عمك أجل "، قالت مونا بريجيدا بصوت متيقظ رافعة أصابعها وهي تبتسم لتيتو ومن ثم رافعة وجهها كيما تقبلها رومولا. وتابعت قائلة وهي تجلس وتبدأ بتهوية نفسها بالخمار الأبيض المنسدل على ذراعها: " دائما ابنة العم المزعجة تتطفل على حكمتك. حسن، حسن. إن لم آتك ببعض أخبار العالم من هنا وهناك فما من شك يخامرني بأنك ستنسى وجود أي شيء في الحياة خلا هؤلاء القدامى

الرجعيين الذين هم بحاجة إلى الرش بالماء المقدس إذا كان كل ما أسمعه عنهم صحيحاً. لا فالعالم على درجة كافية من السوء هذه الأيام بسبب الفضائح التي تفوح رائحتها تحت أنف المرء عند كل منعطف – لا أرغب في سماع ورؤية مثل هذه الأشياء، لكن من المستحيل أن يطوّف المرء واضعاً رأسه في حقيبة. لا تذهب أبعد من البارحة – حسن، حسن، لست بحاجة لأن تنفجر في وجهي، يا باردو، ليس في نيتي أن أقول شيئاً، لكنني وإن لم أكن حكيمة كالملوك الثلاثة إلا أنني أعرف كم قدماً في حذاء واحد. لكن، رغم ذلك كله، ففلورانسة مدينة لعينة – أليس هذا صحيحاً، يا سيد تيتو؟ إذ طوّف في العالم. ليس إلاّ أن يرتكب الواحد قليلاً من الخطيئة– السيد دومينيديو يتوقع ذلك منا، وإلا ما هي الغاية من السر المقدس؟ وما أقوله هو، لابد لنا من أن نوقّر القديسين، ولا نأخذ وضعية من يريد أن يكون مثلهم، وإلا أصبحت الحياة لا تطاق، ولسوف تصبح لا محالة إذا سارت الأمور على هذا الطراز الحديث. إذ ماذا تظن؟ لقد حضرت العرس هذا اليوم – زفاف ديانورا أكياجولي على الشاب ألبيتزي الذي كان مدار الكثير من الأحاديث – ودهش الجميع لكونه اليوم بدلاً من البارحة. لكن، cieli! (9) مثل هذا العرس بالشكل الذي كان عليه كان يمكن أن يؤجل حتى الكواريسيما التالية على سبيل الكفارة. ذلك أن العروس كانت تبدو كراهبة بيضاء –حتى لؤلؤة واحدة لم تظهر عليها – والعريس عابس كالقديس سان جوسيب. صحيح! ونصف المدعوين كانوا من البيانونيين Piagnoni– يطلقون عليهم الآن اسم

Piagnoni (10)، هؤلاء القديسون الجدد من صنع الأخ جيرولامو. وأن يفكر المرء بعائلتين مثل ألبيتزي وأكياجولي واعتناقهما هذه الأفكار، في الوقت الذي يمكنهما أن يلبسا أفخر الملابس! حسن، حسن، لقد دعوني – لكن لم يكن أمامهم خيار بعد أن تبين لهم أن زوجي كان خال لوقا أنطونيو – ويا له من وقت جميل أمضيته بينما كنا ننتظر تحت القبة الظليلة قبالة البيت، قبل أن يسمح لنا بالدخول. وقد بدا أنني لم أطق ملابسي عليّ بدون التسبب في إهانة. إذ كان من بين الحضور مونا بيرتا التي كانت تتوفر على أسرار في زمانها أسوأ مما بإمكاني أن أقص عليكم، وهي تنظر شزراً إلي من تحت خمارها كأنها pinzochera(11)، وتوجهت إلي طالبة أن أقرأ كتاب الأخ الراهب عن الأرامل، الذي كان مصدر هداية كبيرة بالنسبة لها. يا قديسة يا عذراء! وكأن ليس لدى الأرامل ما يفعلنه هذه الأيام سوى أن يبتعن أكفانهن، ويعتقدن أنهن لن يلجن أكفانهن قبل مضي ألف عام، عوضاً عن الاستمتاع بوقتهن قليلاً عندما يصبحن طليقات الأيدي لأول مرة. وماذا تظن كانت الموسيقى التي أسمعونا إياها، كيما يدخلوا الحيوية على عشائنا؟ خطاب طويل من الأخ دومينيكو من دير سان ماركو، عن معتقدات قديسهم المبارك الأخ جيرولامو – العقائد الثلاث التي ينبغي علينا جميعاً حفظها عن ظهر قلب. ولم يكف عن الإشارة إليها على أصابعه حتى اقشعر بدني: الأولى هي، فلورانسة، أو الكنيسة – لا أتذكر أيها، ذلك أنه قال أولاً هذه وثانياً تلك – سوف تبلى بكارثة. لكن إذا كان يعني الوباء، فمن الأجدى للسيد أن يضع

حداً لمثل هذا الوعظ، إذ يكفي مفاقمة الورم تحت إبط المرء بهذا الترويع: لكنه، عقب ذلك، يقول إن فلورانسة يجب أن تبعث من جديد. لكن ما جدوى ذلك حين نكون كلنا موتى بسبب الوباء، أو شيء آخر؟ ومن ثم، الشيء الثالث، وما قاله مراراً وتكراراً، إن كل ذلك سيكون في أيامنا: وقد أشّر ذلك على إبهامه حتى جعلني أرتجف مثل حلوى الجيلو (الحلوى الهلامية) الموجود أمامي. كان بين الحلوى جيلو، دون شك، مع أذرع عائلتي ألبيتزي وأكياجولي ترتفع نحوها بكل الألوان التي هناك. لم يقلبوا العالم رأساً على عقب حتى الآن. لكن كل فحوى حديثهم هو أننا يجب أن نعود إلى الأيام الخوالي. إذ ينهض فجأة فرانشيسكو فالوري، ذاك الذي رقصت معه في فيا لارجا حين كان عازباً ومولعاً بالمديتشي كأي شخص آخر، ويلقي خطبة عن الأيام الخوالي، قبل أن يغادر الفلورانسيون وهم يصرخون " Popolo " ويبدؤون بالصياح " Palle"، كما لو أن لذلك أي مساس بالعرس! – وكيف يجب أن نتقيد بالقوانين التي سنها السيد لا يعرف إلا الله متى، وأننا يجب ألا نلبس هذا وذاك، وألا نأكل هذا وذاك – وكيف فسد سلوكنا وأن الكتب التي نقرأها فاسدة، رغم أنه لا يمكنه أن يقول ذلك **عني أنا** –"

" كفي يا ابنة عمي! " قال باردو بلهجته المتغطرسة، ذلك لأنه كان يودّ الإدلاء بملاحظة، ولا يقوى على إيقاف طول جعجعة مونا بريجيدا إلا الإجراءات الصارمة. لكنها الآن جفلت قليلاً وزمّت شفتيها،ونظرت إليه بعينين مكورتين.

تـابع بـاردو قـائلاً: " لـيس فرانشيسـكو فـالوري علـى خطـأ بالإجمال، حقاً إن برنـاردو، لا يضـعه فـي مرتبـة عليـا وهـو يميـل إلـى الرأي القائل إنه يدشنّ ضغائن خصوصية باسم الحماس الشعبي، رغم أنـه لا بد أن أعترف بأن صديقي الطيب برنـاردو بطـيء الإيمان بتلك الوطنيـة النقيـة التـي وجدت بكل بريقها بين الأقدمين. لكن صـحيح يا تيتو، أن سلوكياتنا قد انحدرت إلى الأسوأ، نوعاً ما، عن ذلك الاقتصاد النبيـل الـذي، كمـا تبـيّن جيـداً الأعمـال العلنيـة لمواطنينـا، هـو أصـل الروعـة الحقـة. ذلك أن النـاس، كمـا تنـاهى إلـى سمعي، سينفقون الآن علـى العرض الوقتي عرض جيوسترا مبالغ تكفي لإنشاء مكتبـة وتهب البشر ملكاً أبدياً. ومع ذلك، فبرأيـي، يبقى صـحيحاً القول إننا معشر الفلورانسيين نملك من التعفف النبيل الذي يمقت التبذير التافه حتـى إنـه (التعفف) قد يكون سخياً على نحو كبير في المناسبات العظيمة، أكثر مما يمكن أن يوجد في أية مدينـة أخرى في إيطاليا. ذلك أنني فهمت أن رجال البلاط في نابولي وميلانو يسخرون من ندرة صحافنا ولهم رأي يزدري كبار أسرنا لأنها تستعير من بعضها بعضاً أثاث الطاولات فـي مناسبات الأفراح. لكن فـي ضـحك الحماقـة العبثـي تسـمع الحكمـةُ نصف هتافاتها ".

"ضحك، حقاً!" صرخت مونا بريجيدا ثانية لحظة توقف باردو عن الكلام. " إذا أراد أي كان سماع ضحك في الأعراس في أيامنا هذه فإنـه سيصـاب بخيبـة أمل، ذلك أنـه عندما حـاول نيقولـو مكيـافيلي أن يقوم بمزحـة وأشـاع قصصـاً أخذها من كتـاب فرانكو ساتشيتي (12)،

وكيف أنه كان من العبث بالنسبة للسينوريا أن يسن القوانين عنا نحن النسوة، لأننا كنا أكثر ذكاء من كل الرسامين والمعماريين ودكاترة المنطق في العالم، ذلك أننا استطعنا أن نجعل الأسود يبدو أبيض، والأصفر وردياً، والمعوج مستقيماً، و، إذا كان أي شيء ممنوعاً يمكننا أن نخترع اسماً جديداً له – يا مريم العذراء! ال Piagnoni بدوا أكثر إرهاباً مما سبق، وقال أحدهم إن كتاب سانتشيتي قذر. حسن، أنا لا أقرؤه – لا يمكنهم اتهامي بقراءة أي شيء. اللهم اعفني من الذهاب إلى عرس مرة ثانية، إذا كانت الموضة على هذا النحو. ذلك أننا جميعاً ممن لسنا Piagnoni كنا نشعر بالراحة مثل فراريج مبتلة. لم يسبق لي أن وقعت في شرك ألعن سوى مرة واحدة، وذلك كان عندما ذهبت لأستمع إلى راهبهم الذي لا يقدر بثمن في الكواريسيما الماضي في سان لورينزو. ربما لم أخبرك قط بهذا الشأن، يا سيد تيتو؟ – عندما أفكر بذلك يكاد الدم يجمد في عروقي. بأي شكل صنّفنا نحن النساء المسكينات! والرجال، أيضاً، والحق يقال، لكنني لم آبه لذلك كثيراً. نعتنا بالبقر، وكتل لحمية، وخليعات، ومصدر الشرور – وقد سمعت ذلك للتو، إذ كان هناك كثيرون أخر أكثر لحمية وضغينة مني، رغم أن صوته كان يرجّ بين الفينة والأخرى المقعد نفسه الذي أجلس عليه مثل بوق. لكنه من ثمة انتقل إلى الشعر المستعار، و، أوه ياميسيريكورديا!(13)(علينا الرحمة) لقد رسم صورة – إني أراها الآن – لسيدة شابة ترقد جثة هامدة، ولنا نحن الأرامل خفيفات العقل – بالطبع كان يقصدني أنا والأخريات أيضاً، إذ أنني كنت أضع

ضفائري، ذلك أنه إذا شاخ المرء فلا أحد يريد أن يكون قبيحاً مثل ال Befana (14) – نحن معشر الأرامل هرعن إلى حيث الجثة، مثل نسور صلع الهامات كان منظرنا، وقصصنا شعر الشابة المتوفاة لنزين رؤوسنا الهرمة به. أوه، أية منامات رأيتها بعد ذلك! ومن ثمة بكى، وعصر يديه وهو ينظر إلينا، وأنا بكيت أيضاً. ثم الذهاب إلى البيت، وخلع مجوهراتي، هذا المشبك بالذات، وكل شيء، وجعلها صرّة صغيرة، fu tutt'uno(15) وأنا كنت على قيد شعرة من إرسالها إلى رجال سان مارتن الطيبين كي يعطوها للفقراء، لكن، وحق السماء، فكرت أنا أن أذهب أولاً إلى من أعترف له، الأخ كريستوفورو، في سانتا كروتشه، وقد أخبرني كيف أن كل ذلك كان عمل الشيطان، هذا الوعظ والتنبؤ الذي يقوم به أخوهم جيرولامو، والدومينيكان كانوا يحاولون أن يقلبوا العالم رأساً على عقب، وقررت ألا أذهب لأستمع إليه ثانية، وإلا اضطررت للتكفير عن ذلك، ذلك أن الواعظَين الكبيرَين الأخ ماريانو والأخ مينيكو قد بيّنا كيف أن الأخ جيرولامو كان يكرز بالأكاذيب – وهذا كان صحيحاً، ذلك أنني أستمع إلى كليهما في الكنيسة – وكيف أن حلم البابا عن سان فرانشيسكو الذي يسند الكنيسة بذراعيه كان قيد التحقق، والدومينيكان كانوا قد بدؤوا بهدمها. حسن وجيّد: انصرفت con Dio، واسترخيت. لن يخيفني أخ تنبؤي ثانية. وكل ما أقوله هو، ليت أن من التحق بهم المسكين دينو منذ سنوات لم يكونوا الدومينيكان، ذلك أنني كنت سأسرّ عندما أسمعهم يقولون لقد عاد – "

" Silenzio! (أي: صـه) قـال بـاردو، بصـوت عـال منفعل، بينمـا أخـذت رومـولا بـالنهوض مـن كرسـيها، وشـبك يـديها ببعضـهما، ناظرة إلى تيتو، كما لو أنها كانت الأن تستجيره. أطلقت مونا بريجيدا صرخة صغيرة، وعضت على شفتها.

قـال بـاردو، مـرة ثانيـة: " Donna!! اسـتمعي إلـى مـا أريـد مـرة أخرى، إياك أن تجلبي تقارير عن ذلك الاسم إلى هذا البيت، وأنت، يا رومولا، أحظر عليك الاستفسار. ابني متوفى ".

بدا كيان باردو بأجمعه يرتجف من شدة الانفعال، ولم يجرؤ أحد علـى أن يخرق الصـمت ثانيـة. مونـا بريجيدا رفعت كتفيها ويديها بهلـع أخرس، ثم نـهضـت علـى عجل،و أومأت برأسـها عديد الإيمـاءات الدالـة لتيتـو ورومـولا، مشيرة إليهمـا ألا يتحركـا، وانسلّت مـن الغرفـة مثل كلـب بدين مذنب نبح في غير أوانه.

فـي الآن ذاتـه، كـان ذهـن تيتـو يمـزج الأفكـار بسـرعة البـرق. ابـن بـاردو لـم يكـن ميتـاً حقـاً، عندئذ، كمـا كـان قـد أوحـى: كـان راهبـاً. لقـد " بعـث ثانيـة " والأخ لوقـا – أجل! لقـد كـان الشـبه مـع بـاردو ورومـولا هـو الذي جعل الوجه يبدو نصف معروف بالنسبة إليـه. ليتـه كـان ميتـاً فـي فيسـول فـي تلك اللحظـة! هذه الأمنيـة الأنانيـة الملحّـة قد أقحمت علـى نحو محتوم قبل كل فكرة أخرى . كان صحيحاً أن إرادة باردو الصـارمة شكّلت ضـمانة كافيـة تحـول دون قيـام أي اختـلاط بـين رومـولا وأخيهـا، لكن ليس ضد إفشاء ما عرفه للآخرين، خاصة وأن الموضوع كان من وحي اقتران اسم رومولا باسم تيتو ميليما بالذات ذاك الذي كان يحمل

أوصافه حول عنقه كدليل. لا! لا شيء خلا موت لوقا يمكنه أن يزيل كل الأخطار.لكن موته كان محتملاً جداً وبعد الصدمة الوقتية صدمة الاكتشاف ترك تيتو ذهنه يرتد على سبيل الدعة والراحة إلى ذلك الأمل المطمئن.

جلسوا صامتين لعدة دقائق، في غسق آخذ بالتفاقم، عندما غامرت رومولا بالسؤال –

" هل أشعل المصباح، يا أبتاه، وهل نتابع؟ "

" لا، يا عزيزتي رومولا، كفى هذه الليلة. تيتو، تعال واجلس هنا بجانبي ".

تحرك تيتو من مقعد القراءة، وجلس على الجهة الثانية من باردو، قريباً من مرفقه الأيسر.

" تعالي إلى مكان أقرب مني figliuola mia(15) " قال باردو مرة ثانية، بعد لحظة صمت. جلست رومولا على مقعد واطئ ووضعت ذراعها على ركبة والدها اليمنى، كي يضع يده على شعرها، فهذا كان يستهويه جداً.

قال باردو، ناسياً ما كان أفلت منه في غمرة الانفعال الذي أثاره لقاؤهما الأول: " تيتو، لم أخبرك قط أنه كان لي ذات يوم ابن ". كان العجوز قد تأثر حتى أعماقه، وأرغم على أن يصب مشاعره بالرغم من كبريائه. " لكنه تركني – إنه ميت بالنسبة لي. لقد تبرأت منه للأبد. كان رجل علم جاهزاً كما أنت، لكن أكثر حماساً ولجاجة، بل وأحياناً مستغرقاً في أفكاره مثل شعلة يغذيها مصدر متقطع، مبدياً منذ البداية

ميلاً لإشاحة نظره عن الأنوار الصافية للعقل والفلسفة، ومنبطحاً أمام تأثيرات من صوفية غامضة باهتة تراوغ كل قوانين الواجب البشري كما تراوغ كل الحجج.وعلى هذه الشاكلة انتهى الأمر.لن نتحدث عنه أكثرمن ذلك: إنه ميت بالنسبة لي. ليت وجههُ يمسح من عالم الذاكرة حيث يأخذ القاصي بالتوضّح والداني بالتلاشي.

كف باردو عن الكلام، لكن لا رومولا ولا تيتو تجرأا على الحديث – كان صوته جد مرتعش، واستقرار مشاعره جد مشكوك فيه. لكنه سرعان ما رفع يده وعثر على كتف تيتو كي يضعها عليه، بينا استمر في الحديث، وهو يجهد لأن يخلد إلى الهدوء أكثر فأكثر.

" لكنك أنت جئت إلي يا تيتو – ليس بعد فوات الأوان كثيراً. لن أضيّع وقتاً في ندم عبثي. عندما تشتغل بجانبي احسبني وجدت ابناً مرة أخرى ".

لم يكن العجوز، الذي شغله الاهتمام الذي حكم حياته، يفكّر إلا بالكتاب الذي شغل تفكيره كثيراً والذي دفع إلى الخلفية الإيحاء الذي أثاره تحذير برناردو ديل نيرو عن قران محتمل بين تيتو ورومولا. لكن تيتو لم يدع اللحظة تفوت دون جدوى.

" هل ستسمح بأكون دائماً وكليةً ابنك؟ هل تسمح لي برعاية رومولا – أن أكون زوجها؟ أعتقد أنها لن ترفضني. لقد قالت إنها تحبني. أنا أعلم أنني لست كفؤاً لها من حيث النسب – في أي شيء. لكنني لم أعد بعد الآن غريباً معدماً ".

قال باردو، بصوت خفيض يخالطه ارتعاش واضح بدّد مظهر

الحزن الذي شاب قسماته: " هل ما أسمعه صحيح، يا عزيزتي رومولا؟ "

قالت رومولا بحزم: " أجل، يا والدي. أنا أحب تيتو – أرغب في الاقتران به، حتى نكون معاً إبناً وبنتاً لك ولا نفترق أبداً ".

بينما كانت تتحدث لاقت يد تيتو يدها في تشابك قوي للمرة الأولى، لكن بصريهما كانا مسمّرين بقلق على والدها.

قال باردو، كما لو أنه كان يحاجج ضد أي معارضة على موافقته، أكثر مما كان يعطي موافقة: " ولم لا يكون الأمر هكذا؟ سيكون ذلك مصدر سعادة لي. وأنت أيضاً، يا رومولا، ستكونين أكثر سعادة جرّاء ذلك ".

داعب شعرها الطويل برفق ومال نحوها.

" آه، لقد كدت أنسى أنك بحاجة إلى حب آخر غير حبي. وأنت ستكونين زوجة نبيلة. برناردو يعتقد أنني سأجد مشقة في العثور على زوج لك. لربما كان مصيباً. ذلك لأنك لست مثل رهط بنات جنسك: إنك تلك المرأة التي تعرض في مخيلة الشعراء الخالدين عندما ينشدون حيوات أبطالهم – حانية لكن قوية، مثل صوتك، والذي عوضني عن نور السنوات التي فقدت فيها بصري... إذن أنت تحبينه؟ "

استقام في جلسته مرة ثانية لبرهة، ثم قال، باللهجة السابقة نفسها، " ولم لا يكون الأمر هكذا؟ سأفكر بالأمر: سأتحدث مع برناردو ".

شعر تيتو بقشعريرة غير مريحة عند سماعه هذا الجواب لأن عيني برناردو ديل نيرو قد بقي الارتياب يخالطهما كلما نظرتا إليه، كما أن التذكر المنغّص للأخ لوقا أحال انتفاء اليقين كله إلى خوف.

قال متضرعاً: " تحدثي نيابة عني، يا رومولا، فالسيد برناردو مؤكد سيقف ضدي ".

قالت رومولا: " لا، يا تيتو، لن يعارض عرّابي (أبي الروحي) ما يشكل رغبة ملحّة لدى والدي. وإنها لرغبتك أن أقترن بتيتو – أليس هذا صحيحاً، يا أبتاه؟ لم يحدث قبلاً أن رغبت شيئاً بمثل هذه القوة: لم أعتقد أن من الممكن أن ألقي بالاً بشكل كبير لشيء يمكن أن يحدث لي ".

كان تضرعاً موجزاً وبسيطاً. لكنه كان القصة المكثفة لحياة رومولا الفتية القامعة للذات العديمة اللون، والتي كانت قد ألقت بكل حماسها في تعاطف مع الأحزان المزمنة، والطموح المزمن، والكبرياء والسخط المزمنين. لم يخطر ببال رومولا قط أنها يجدر ألا تتكلم عن حبها لتيتو بالمباشرة والحزم نفسيهما مثلما يحدث بإزاء أي موضوع آخر.

قال والدها بكل حب متوقفاً عند الكلمات: " رومولا، بنيّتي! صحيح أنك لم تلحي عليّ بشأن أية رغبات تخصك. وليس لدي النية في أن أمانع أياً من لدنك. إن فؤادي، بالأحرى، قد تلاقى مع توسل تيتو عند أول تلفّظ به. ومع ذلك لا بد أن أتكلّم مع برناردو عن

الإجراءات التي يجب مراعاتها. ذلك أنه حري بنا ألا نتصرف بسرعة، أو نعمل أي شيء لا يليق بسمعتي. أنا فقير، ولا أدخل كثيراً بحسبان أثرياء عائلتنا – لا، خليق أن أعتبر نفسي رجلا وحيداً – لكنني رغم ذلك يجب أن أتذكر أن للنسب الكريم التزاماته. ولست على استعداد لأن ألام من قبل أبناء جلدتي لتصرف أرعن أسلم بموجبه ابنتي.لقد أعطى بارتولوميو سكالا ابنته أليساندرا لليوناني مارولو، لكن نسب مارولو كان قد طبّق الآفاق، وسكالا نفسه لم يكن بذي حسب ونسب. أنا أعرف أن رأي برناردو سيكون أننا يجب أن نتريث: ولربما يلومني للعوز في ما يستحقه الأمر من تبصّر. على رسلكما، يا أولاد: أنتما حديثا السن جداً ".

لم تعد هناك إمكانية للمزيد من الكلام، وكان فؤاد رومولا على أتم الرضى. أما فؤاد تيتو فلا. فإذا كان الخليط الخفي للخير والشر يحضّر معاناة للصدق والنقاء البشريين، فإن هنالك من المعاناة ما هو معدّ لمرتكب الخطيئة بفعل الشروط المختلطة عينها. وبينا قبّل تيتو رومولا عند افتراقهما ذلك المساء فإن شدة الحماس عينه الذي حرّك كل كيانه من جرّاء الإحساس بأن هذه المرأة التي يتعذر التفكير بجمالها سوى أنه النتيجة اللازبة عن طبيعتها النبيلة، كانت تحبه بكل الحنان الذي كانت تفصح عنه بكل وضوح عيناها الصافيتان، هذه الشدة قد استجرت رد فعل قوياً قوامه الأسف لأنه لم يحافظ على بقاء نفسه متحرراً من ذاك الخداع الأول الذي آل به إلى خطر تشوه سمعته أمامها. كان هناك نبع من المرارة يخالط ينبوع العذوبة ذاك. هل أن

موت الأخ لوقا سيوقفه؟ كان يأمل ذلك.

الفصل الثالث عشر
طيف نيميسيس(*)

كان الوقت وقت الاسترخاء بعد ظهر السابع من أيلول، بعد شهرين ونيّف من اليوم الذي باح فيه كل من رومولا وتيتو لبعضهما بلواعج حبهما.

كان تيتو، الذي نزل لتوّه ودخل صالون نيلو، قد وجد الحلاّق ممدداً على الدكّة وقد غطى عينيه بقبعته. كانت إحدى ساقيه مرفوعة للأعلى، بينما تدلّت الأخرى صوب الأرض بعد أن نقلت معها، كما بدا، مجلداً مخطوطاً من الشعر، كان ملقى على الأرض مسحوق الصحائف. وفي أحد الأركان كان يجلس ساندرو يلعب لعبة مورا(1) وحده، ويراقب الرد البطيء لأصابع يده اليسرى على المطاليب الحسابية ليده اليمنى باهتمام تفصح عنه عيناه الرصينتان.

خطف تيتو، بعد أن دخل على رؤوس أصابعه، العود، وبعد أن انحنى فوق الحلاّق مس الأوتار مسّاً خفيفاً وطفق ينشد، –

م–(*) إلهة الانتقام عند الإغريق

“Quant’ è bella giovinezza,
Che si fugge tuttavia!
Chi vuol esser lieto sia,
Di doman non c' è certezza. "(2)

أفاق نيلو بالسهولة عينها التي يستفيق بها عصفور. طارت القبعة بلحظة عن عينيه، واعترته جفلة.

" آه، يا عزيزي أبولينو! لقد تأخرت نوعاً ما، على ما يبدو، بقيلولتي في هذا اليوم القائظ. وهذا يتأتّى عن عدم الخلود للنوم بالطريقة الطبيعية، إنما بعد تناول جرعة من الشعر الشديد المفعولية. أتسمع، كيف بدأت أوائم كلماتي في حرفها الأول، مثل تروفاتوري؟(3) هذا أحد أعراضي السيئة: إن فرائصي ترتعد مخافة أن تكون الخمرة الجيدة لقدرتي على الفهم آخذة بالنضوب عند صنبور التأليف، وعندها سأُترك كقنينة فارغة فيها رائحة التفالة، شأني شأن الكثير من العباقرة الباهرين الآخرين من معارفي . ما الخطب، يا عزيزي أورفيوس؟" هنا بسط نيلو ذراعيه إلى أقصى مداهما، ثم قرّبهما حتى قبضت يداه على خصلات تيتو، وشدّها على سبيل الدعابة. " ما الذي تريده من صديقك المروّض جيداً نيلو؟ ذلك أني ألمح صوتاً متملقاً في تلك النغمة الرخيّة الناعمة من لدنك.

دعني أر سم إبرة رغبتك بالذات، كما يقول الشاعر العظيم (4)، عسى أن أدخل خيطي فيه ".

قال تيتو، وهو لمّا ينفك عن تركه أصابعه تسقط بطريقة خفيفة

على الأوتار: " إنما هذه صورة خياط من صور شاعرك العظيم . لكنك خمّنت سبب إلحاحي الودود لرؤية عينيك تفتحان. أريدك أن تعطيني لمسة أخرى من فنك – ليس على ذقني، لا، لكن على الزازيرا، والتي هي "مشربكة "بقدر شربكة سياستكم الفلورانسية. أنت تمتلك مهارة في إدخال مشطك، الذي يطري الجلد، ويثير الأحاسيس الحيوانية بشكل يبعث على النشوة في تلك البقعة. كما أن قليلاً من رائحتك الناعمة جداً، رائحة البرتقال، لن تكون دون جدوى، ذلك أنني متوجه إلى بيت سكالا، وعليَّ تقديم نفسي وسط شلّة تطفح ألقاً . سيكون من بين الحضور الكاردينال الشاب جيوفاني دي ميديتشي (5)، وهو يحضر بمعيته شاباً اسمه برناردو دوفيزي أوف بيبيينا (6) ذاك الذي يمتلك حضور بديهة لا أرى سبيلاً إلى منافستها سوى برائحة أزاهير البرتقال ".

كان نيلو قد أمسك بمشطه وأخذ يلوّح به، ودفع تيتو برفق إلى الخلف داخل الكرسي لافّاً القماشة حوله.

"إياك والتحدث عن المنافسة، يا عزيزي الحلو جيوفاني: برناردو دوفيتزي شاب متحمس لا يحمل أبداً شبكة لقبض الريح. لكنه يحوز على شيء من تلك النظرة الدقيقة التصويب كما أخوه سير بييرو، ابن عرس، ذاك الذي يبقيه بييرو دي ميديتشي رهن إشارته كي ينسل عبر الأوجار الصغيرة نيابة عنه. لا! أنت تبزّ كل المنافسين ولسرعان ما تلمس السماء بسبابتك. حتى إنهم أخبروني أنك تحمل ما فيه الكفاية من العسل كي تحلّي السيد المرّ أنجيلو. ذلك لأنه نعتك، وعلى غير

توقع، بنعوت تكاد تطلق على الحمار، إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود مثل ذلك التفاهم الجيد بينك وبين السكرتير ".

" ودع هذا يبقى بيننا، يا عزيزي الغالي نيلو، إن السيد أنجيلو لديه من العبقرية والمعرفة ما لا يمكنني أن أجده لدى كل الأدباء الفلورانسيين معاً. قد يوائمهم جداً أن يطروني حالياً، في الوقت الذي يعاني فيه بوليتزيانو من الغم، أو المرض، أو شيء آخر. يمكنني أن أجرّب الهروب مع باشق من أمثال بييترو كرينيتو، لكن بالنسبة لبوليتزيانو، فهو صقر كبير المنقار بإمكانه أن يبتلعني، أنا وريشي وكل شيء، دون أن يشعر بأي فارق ".

" لن أخالف تواضعك في تلك الناحية، إذا كانت هذه رغبتك. لكن لا تتوقع منا معشر الفلورانسيين الحاذقين أن نكرر الأشياء ذاتها ثانية وثالثة كل يوم من حياتنا، كما يتوجب علينا أن نفعل لو توخّينا قول الحقيقة دائماً. نحن ننتقص من قدر دانتي، ونطري فرانشيسكو سي، لمجرد التنويع.

وإذا ما مدحناك باعتبارك بوليتزيانو جديداً، فالسموات قد اتخذت حيطتها لئلا تكون الكذبة من الهول كما كانت ستكون. أولست أنت عنواناً للفضيلة في هذه المدينة اللعينة؟ مع أذنيك المغلقتين بطبقة مضاعفة من الشمع ضد كل الدعوات الساحرة التي ستغويك من فيا دي باردي، والعمل الباهر الذي سيدهش الأجيال القادمة؟ "

"حقاً هي الأجيال القادمة من ستدهشه كما يدهشنا الكون، عن طريق استحالة رؤية ماذا كانت خطته ".

" أجل، شيء من هذا القبيل كان موضع تنبؤٍ هنا ذلك اليوم. قال كريستوفورو لاندينو إن باردو الممتاز كان واحداً من أولئك الأدباء الذين يرقدون مهزومين في علمهم، مثل خيالة مدججين بالسلاح، ومن ثمّ يستشيطون غضباً لأنه تم تجاوزهم – هذه الملاحظة البليغة، على ما يبدو لي، لم تكن عشبة من أعشاب حديقته. ذلك أنه من بين كل الناس، ولأجل إطعام الواحد بملعقة فارغة وإسكاته بآمال خائبة عن طريق طول النقاش، فإن السيد كريستوفورو هو لؤلؤة. إكو! أنت في أتم حال الآن ". هنا سحب نيلو القماشة. وأردف:" من المستحيل إضفاء مزيد من الحلاوة! لكن يجدر ألا يتغذى الحب دائماً على العلم، إه؟ في فترة وجيزة سيتوجب عليّ تزيين الزازيرا لأجل الخطوبة – أليس هذا صحيحاً؟ "

قال تيتو مبتسماً: " ربما، اللهم إذا لم ينصح السيد برناردو، في وقت لاحق، باردو بأن يطلب أنه يتوجب عليّ أن أربط أسداً وخنزيراً برياً إلى عربة زيكا قبل أن أفوز بحبيبتي ألسيستيس. لكنني أعترف، إنه مصيب في أن يراني غير مستحق لرومولا. إنها بلياد (7) قد يذهب بريقها إذا ما تزوجت إنسياً. "

" Gnaffè، تواضعك في محله من هذه الناحية. لكن يبدو أن القدر قد قاسك ونحتك للموضع اللائق الذي ترك خاوياً من قبل ابن العجوز، الذي هو حالياً، بالمناسبة، كما أخبرني كروناكا، في سان ماركو. هل علمت؟ "

عبرت تيتو صدمة كهربائية خفيفة بينما كان ينهض من كرسيه،

لكنها لم تكن مرئية للعين الخارجية، ذلك أنه سرعان ما انحنى ليلتقط الكتاب الذي سقط، وشغل أصابعه بتمسيد الصحائف لفتحها، في الوقت الذي قال –

" لا، كان في فيسول، كما ظننت. هل أنت متيقن من عودته إلى سان ماركو؟"

قال نيلو رافعاً كتفيه: "كروناكا هو حجتي. لا أتردد كثيراً على ذلك الحرَم، لكنه هو يفعل. " وأضاف، متناولاً الكتاب من يدي تيتو:" عزيزي المسكين نينسيا دا باريبرينو! إن رؤية الصحائف معلّمة بطي زاويتها لمما يؤذي مشاعرك. لقد هدهدتك للنوم الأشعار الجيدة الصياغة التي أنشدتها تلك الفتاة الريفية – "الأجمل من زهرة الكرنب "، ولها خدٌّ مذاقه أحلى من الجبنة". لكن لكي يحتاز المرء على تلك الفكرة العطرة عن الفلاحة يجب أن يستلقي على وسائد مخملية في الفيا لارجا – ولا يتفرج على الفييروكولوني وهم يدخلون ساحة ديلا نونزياتا بخطا متثاقلة هذا المساء بعد المغيب ".

قال تيتو بلامبالاة وهو يضع قبعته: " ومن فضلك من هم الفييروكولونييون؟ "

" الفلاحات اللواتي قدمن من جبال بيستويا، والكازينتينيو، والله يعلم من أين، كي يبقين ساهرات في كنيسة نونزياتا، ويبعن غزولهن وفطورهن المجففة في الفييروكولا (8) (العرض الصغير)، كما ندعوه. إنهن يقمن عرضاً غريباً، بمصابيحهن الورقية، يجأرن بالترانيم إلى العذراء عشية ميلادها – لو كان لديك الوقت لمشاهدتهن. لا؟– حسن،

لقد اكتفيت من ذلك أنا نفسي، ذلك لأن هناك عملاً جنونياً في الساحة. قد يصادف أن يتلقى المرء حجراً أو اثنين على أذنيه أو قصبة ساقه دون السؤال عن ذلك، وأنا لم أكن قط مولعاً بذلك الاهتمام الضاغط. آديو (وداعاً) ".

انزعج تيتو قليلاً لهذه الزيارة التي انتهت أبكر مما توقع، حيث إن الكاردينال الحدث جيوفاني دي ميديتشي، أصغر الآباء المعتمرين قبعات حمراء سناً، والذي أبرز منذئذ خدّه العريض الداكن بشكل واضح للأجيال اللاحقة على أنه البابا ليو العاشر، بعد أن تأخّر بسبب هوايته المفضلة، الصيد، وتخلّف عن الحضور. كان اليوم ما يزال يفتقر إلى نصف ساعة كي تغيب شمسه عندما خرج من مدخل قصر سكالا، وهو ينوي أن يتوجه حالاً إلى فيا دي باردي. لكنه لم يكد يذهب بعيداً حتى رأى، وبالدهشته، رومولا تتقدم نحوه على امتداد البورغو بينتي.

كانت ترتدي نقاباً أسود سميكاً ورداء أسود، لكن كان من المستحيل أن يخطئ المرء قامتها وطريقتها في المشي. وبجانبها كانت تمشي امرأة بدينة قصيرة القامة عرف أنها مونا بريجيدا على الرغم من بساطة ملابسها غير العادية. لم تتربَّ رومولا على مراعاة الطقوس التعبدية، وكانت المناسبات التي ذهبت فيها لشم الهواء في مكان آخر خلاف الشرفة (لوجيا) على سطح المنزل، نادرة جداً وتتطلب كثيراً من التفكّر المسبق، بسبب عيف باردو أن يُترك دون أن تكون بجانبه، حتى إن تيتو بات متأكداً بأنه لا بد أن يكون هناك سبب مفاجئ وعاجل لغياب لم يسمع أي شيء عنه في اليوم السابق. شاهدته

من خلال نقابها وحثت الخطا.

قال تيتو بعد أن انعطف ليمشي بحذائها: " رومولا، هل هناك من خطب؟"

لم ترد عليه في اللحظة الأولى، لكن مونا بريجيدا قالت: " آه، سيد تيتو، تحسن صنعاً إذا أدرت ظهرك، لأننا على عجلة من أمرنا. وأليس ذلك بمصيبة؟– نحن مرغمتان على السير بقرب الأسوار

وصولاً إلى فيا ديل ماغليو، بسبب المعرض. إذ أن الفلاحات آتيات ككتلة واحدة على امتداد طريق نونزياتا، الأمر الذي كان سيستغرق منا نصف الوقت للوصول إلى سان ماركو ".

انتفض فؤاد تيتو انتفاضة مهولة وأخذ يدق بعنف.

قال بصوت خفيض: " رومولا، هل أنت ذاهبة إلى سان ماركو؟"

كانوا بهذا الوقت قد خرجوا من منطقة بورغو بينتي ووصلوا إلى تحت أسوار المدينة حيث انتشرت الحدائق الفسيحة الرحبة على يسارهم، وكان الهدوء التام يلف المكان. أبعدت رومولا نقابها لأجل استنشاق الهواء، وأمكنه أن يرى الاضطراب الكظيم في وجهها.

قالت وهي تنظر إليه مباشرة بعينين حزينتين: " أجل، يا عزيزي تيتو، للمرة الأولى أفعل شيئاً دون علم والدي. إنه لمما يريحني أنني التقيتك، إذ على الأقل يمكنني البوح لك بذلك. لكن إذا كنت ذاهباً إليه يحسن ألا تقول شيئاً عن التقائك بي. إنه يعتقد أنني إنما ذهبت إلى ابنة عمي لأنها أرسلت في طلبي. تركت عرّابي معه: هو

يعلم المكان الذي أقصده، وما السبب. أتذكر تلك الأمسية عندما عرض اسم أخي في الحديث ثم تحدث والدي معك بشأنه؟ "

" أجل "، قال تيتو بصوت خفيض. تعقّدت حالته العقلية على نحو غريب. ذُعِر لاحتمال أن يكون قد طرأ تغير كبير على آماله المستقبلية، بينما كانت أفكاره تنتقل بسرعة الريح عبر مئات التفاصيل في المسار الذي سيسلكه عندما يحين موعد التغير. لكنه رد على نظرة رومولا المركّزة عليه بإحساس توّاق بأنها قد تكون المرة الأخيرة التي تصوّبها نحوه بثقة تامة لا يشوبها شائبة.

" لقد سمعت ابنة عمي أنه قد عاد، والمساء الفائت – مساء عيد سان جيوفاني – كما تبين لي لاحقاً شوهد من قبل ماسو صديقنا الطيب بالقرب من باب منزلنا. لكن عندما ذهب ماسو ليستفسر في سان ماركو، كان دينو، أي أخي – اسمه بالمعمودية برناردينو، على اسم عرّابنا، لكنه يدعو نفسه الآن الأخ لوقا – قد أُخذ إلى الدير في فيسول لأنه كان مريضاً. لكن رسالة أتت هذا الصباح إلى ماسو تقول إنه عاد إلى سان ماركو، وعليه فقد ذهب ماسو إليه. إنه مريض جداً وقد استحلفني أن اذهب لرؤيته. لا يمكنني أن أرفض رغم أنني أعتبره مذنباً. ما زلت أذكر كيف أحببته عندما كنت فتاة صغيرة، وقبل أن أعرف أنه سيهجر والدي. ولعله نادم ويود أن يبلغه ذلك عن طريقي. لقد كلفني جهداً جهيداً أن أتصرف ضد مشاعر والدي والتي كنت دائماً أؤمن أنه محق فيها. أنا شبه متيقنة من رأيك وهو أنني اخترت الطريق الصائب، يا تيتو، لأنني لاحظت أن طبيعتك أقل صرامة من

طبيعتي، ولا شيء يمكن أن يستثير حنقك: سيكلفك التسامح أقل مما يكلفني على الرغم من أنك لو شاهدت والدك وقد تخلّى عنه أحدهم، والذي كان أسبغ عليه حبه الكبير– أحدهم الذي كان قد غرس فيه كدّه وآماله – تخلّى عنه عندما كانت الحاجة إليه آخذة في التعاظم – حتى أنت، يا تيتو، ستجد من الصعوبة أن تسامح ".

ماذا بوسعه أن يقول؟ لم يكن أهلاً للنفاق في أن يخبر رومولا بأن مثل هذه الإساءات يجب ألا تلقى صفحاً، ولم تكن لديه الشجاعة ليتلفظ بأية كلمات عن ثنيها.

" أنت على حق، يا رومولا. أنت دائماً على حق، اللهم إلا في إمعانك في حسن الظن بي ".

والحق أنه كان هنالك بعض الصدق قي تلك الكلمات الأخيرة، وبدا تيتو وسيماً جداً وهو يتلفظ بها، وعلى وجهه شحوب غير اعتيادي، ورعشة خفيفة في شفته. وقد بان في عيني رومولا، التي فسّرت كل شيء بشكل فضفاض مثل عقل تملكته مسبقاً أسمى الاعتقادات، بان في عينيها ألق ممتزج بالدمع بينا كانت ترمقه بنظراتها، وشعرت ببهجة عميقة حتى إنه شعر بقوة شديدة بأي شيء شعرت به. لكنها قالت دون أن تتوقف عن سيرها –

" والآن، يا تيتو، أرغب إليك أن تتركني، إذ أننا، ابنة عمي وأنا , سنسترعي انتباهاً أقل إذا دخلنا الساحة وحدنا ".

قالت مونا بريجيدا : " أجل، من الأفضل أن تتركنا . الحقيقة، يا سيد تيتو، أن كل العيون تراقبك، ودع رومولا تتخفى كما يحلو لها،

الجميع يرغبون في أن يروا ماذا يقبع تحت نقابها، إذ أنها تتمتع بتلك الطريقة في المشي كما لو أنها في موكب. ليس أنني أنتقدها لذلك، إنما هي لا تتلاءم وخطوي، هذا كل شيء. ولأصدقك القول أرغب ألا يرانا أحد ذاهبتين إلى سان ماركو، ولهذا السبب تراني لابسة كما لو أنني كنت واحدة من البيانونيات piagnoni (انظر حاشية سابقة –م) أنفسهن، وهرمة مثل سانت آنا(9). إذ، إذا كان هناك من هو جدير بالصفح عند احتضاره لكان هو المسكين دينو، فما الفائدة من غلّ الضغينة ضد أناس موتى؟ – دعهم يشعروا أثناء حياتهم، حسب رأيي – "لم يكلَف أحد في شيء لمقاطعة مونا بريجيدا، أما تيتو، الذي رفع يد رومولا لتوه إلى شفتيه، وقال:" أنا فاهم، سمعاً وطاعة " فقد انعطف في هذه الأثناء رافعاً قبعته – إشارة احترام وتوقير قلما تبدر في تلك الأوقات عن الفلورانسيين الأصليين، والتي أثارت ازدراء برناردو ديل نيرو لتيتو على أنه إغريقي مدعٍ، بينما بالنسبة لرومولا التي كانت تحب التقدير فقد أضفت عليه كياسة استثنائية.

لم يكن مسروراً جداً لانصرافه، ولا ميّالاً تماماً للتشبّث برومولا حتى اللحظة الأخيرة التي ستحبه فيها دون أن يساورها أي شك. فقد بدا له مؤكداً أن هذا الأخ قبل كل شيء يود أن يعرف، وأن رومولا قبل كل شيء ستطلعه على حقيقة موقف والدها وموقفها بعد سنوات لا بد أنها قد آتت الكثير من التغيير. ستخبره أنها ستخطب حالاً وعلانية لأديب شاب كان سيملأ المكان الشاغر منذ زمن بعد أن هام الابن على وجهه. لقد تصوّر مسبقاً الدافع الذي سيدفع رومولا إلى

التركيز على ذلك الأمل، وما سيتلو عند ذكر اسم زوجها المقبل. سيقول الأخ لوقا كل ما يعرفه ويخمّنه، ولم ير تيتو إمكانية لأي زيف يمكن له عن طريقه حالياً تفادي أوخم العواقب الناجمة عن ريائه السابق. لقد انتهى كل شيء بخصوص آماله المستقبلية في فلورانسة. كان هناك السيد برناردو ديل نيرو الذي سيسرّ أيما سرور لرؤية تأكيد الحكمة في نصيحته بتأجيل الخطوبة حتى تترسخ شخصية تيتو وموقفه بفعل إقامة أطول. وإن تاريخ البروفيسور اليوناني الشاب الذي كان من أحسن إليه يرسف في قيد العبودية سيكون مدار الحديث تحت كل شرفة. إذ أنه شعر، للمرة الأولى في حياته، باضطراب شديد إلى حد الحمى مما حال بينه وبين الوثوق بمقدرته على السيطرة على زمام نفسه ورباطة جأشه. أقلع عن زيارته المزمعة إلى باردو، وتمشى جيئة وذهاباً تحت الأسوار إلى أن خبا الضياء الأصفر في الغرب. وعلى أثر ذلك، ودون أي هدف واضح، سلك أول منعطف، وقد اتفق أنه كان فيا سان سيباستينو، مما أفضى به مباشرة إلى ساحة أنونزياتا.

لقد كان يمرّ في واحدة من تلك اللحظات التي لا يحكمها قانون والتي تعترينا جميعاً إذا لم يكن لدينا مرشد أو دليل سوى الرغبة، وإذا بدا السبيل الذي تقودنا إليه الرغبة مسدوداً فجأة. كان ميالاً لتتبع أية إشارة كانت تعرض عليه هدفاً فورياً.

الفصل الرابع عشر

معرض الفلاحين

ذكّر الحشد المتحرك والخليط الغريب العجيب من صنوف الضجيج الذي انهال عليه عند مدخل الساحة، ذكّر تيتو بما قاله نيلو له عن الفييروكولوني (المعرض الصغير). وقد شق طريقه وسط الزحام بشيء من السعادة للصياح وزحم المناكب، مما ملأ اللحظات الشاغرة، وأبهتَ حسابات المستقبل التي كانت مصدر رعب جديد بالنسبة إليه، بينما تصوّر نفسه مسبقاً يطوّف بعيداً، وحيداً، سعياً وراء بعض حظ مجهول، حتى إن تفكيره قد نحا لبرهة نحو المضي بحثاً عن بالداسار في نهاية المطاف.

وعند كل مدخل مقابل كان يشاهد الناس يشقون طريقهم بصعوبة إلى داخل الساحة، عندما كانت المصابيح الورقية فوقهم والمرفوعة على عصي، تتماوج بغير وضوح في غير مكان. وقد ميّزت أغنية فظة ورتيبة خيطاً من الضجة من السهل تقفّيه، كانت تتلاقى عبره الصيحات، والصفارات، والأغنيات الهازئة في شكل أصوات صبيانية زاعقة، وقرع الطبول، ورنين الأجراس الصغيرة، في طنين مختلط حابله بنابله. وبين الفينة والأخرى كان أحد الأنوار الباهتة المتماوجة يختفي بفعل ضربة حجر قذف بلا هدف سعياً وراء إلحاق الأذى، تتبعه صرخة وصيحات متجددة. لكن على أطراف الفوضى المدوّمة كانت هناك مجموعات احتفلت بوقفة عيد ميلاد العذراء بطريقة أكثر منهجية من قذف الحجارة بشكل متقطع وصيحات الاستهزاء. كان بعض الرجال، وهم يرتدون ثيابهم الرثة، ويلقون نظرة خاطفة حادة وقاسية على ماحولهم، بينما أخذت ألسنتهم تبربر بشعور بالفرح،

يدعون الريفيين إلى اللعب معهم على أساس شروط سخية عادلة. وكان شخصان متنكران على عكاكيز طويلة اختطفا مصابيح من الحشد، يؤرجحان المصابيح يمنة ويسرة بطريقة تشبه نزول النيازك، عندما كانا يطوفان في أرجاء المكان بخطا واسعة. وكان تاجر حكيم يمارس تجارة الـ berlingozzi (1) الساخنة الرابحة في كشك صغير مقبي، وهي حلوى ذرورية مفضلة. كما كان رجل يقف على برميل وظهره مرتكز بإحكام على عمود الشرفة أمام مشفى اللقطاء (Spedale degl' innocenti) يبيع حبوباً فعّالة، من اختراع طبيب من ساليرنو، تكفل الحؤول دون ألم الأسنان والموت غرقاً. وغير بعيد عنهم، وأمام عمود آخر، كان بهلوان يعرض ألاعيبه على مصطبة صغيرة، بينما كانت حفنة من المتدربين الكارهين للمزاح الرخيص، مزاح قذف العصابات للحجارة، يلعبون مباراة خصوصية مركّزة، من تلك الرياضات الفلورانسية المفضلة، عند المدخل الضيق للفيا دي فيبراي.

أما تيتو، وقد اضطر إلى سلوك طريقه عبر فرجات تنشأ عرضاً وسط الزحام، فقد ألفى نفسه في لحظة قريباً من الموكب المهرول، موكب الفلاحين الحفاة قساة الكعوب، وأمكنه أن يرى وجوههم البرونزية التي جففتها أشعة الشمس وملابسهم الغريبة المقطعة التي بهت لونها بفعل الاتساخ المتوارث، والتي بطلت موديلات أزيائها مما جعلهم يبدون، في أعين ساكني المدينة، أشبه بسلالة أنهكها المسير عائدة من رحلة حج بدؤوها منذ قرن مضى. وفي تلك اللحظة بالذات كان دخول

النسوة الفلاحات الجسورات المنتجات للنزر اليسير من جبال بيستويا، يدخلن وعلى ظهورهن كدح عام هو رزمة متواضعة من الغزول، وفي أفئدتهن ذلك الأمل الهزيل بالخير وذاك الخوف الباهت الكبير من الأذى، والذي كانت ستتولى شأنه بطريقة أو بأخرى العذراء المباركة، العذراء التي رسمت الملائكة صورتها العجائبية والتي سيسحب الستار عنها عشية الميلاد هذه، بشكل تتفجر معه فاعليتها دونما عائق.

وفي لحظة أخرى اضطر إلى الابتعاد صوب تخوم الساحة حيث تمركز بحصافة ذوو المواقع الأكثر ثباتاً من المرشحين لجلب الاهتمام وقطع النقود الصغيرة كي يصيبوا أمناً في المؤخرة. وضمن هؤلاء عرف تيتو أحد معارفه، براتي، الذي كان يقف مديراً ظهره لعمود وفمه مزموم للأعلى بصمت ازدرائي يعاين كل واحد يقترب منه بنظرة باردة تتسم بالفوقية، ويثبّت يده جيداً على غطاء من السيرج الصوفي كان يخفي تحته محتويات السلة المدلاة أمامه. وإذ دهش نوعاً ما لوقفة غير معتادة من تاجر قلق فقد اقترب تيتو إلى مكان أقرب وشاهد امرأتين تتوجهان إلى سلة براتي وعلى وجهيهما نظرة فضول قام على أثرها البائع الجوال بإحكام شد الغطاء، ونظر إلى الناحية الأخرى. لقد كان سلوكه جد مغيظ، وقد طابت نفس إحداهما لتسأل ماذا كان داخل السلة؟

قبل أن أجيبك على هذا السؤال يا مونا لابد لي أن أعرف إذا كنت تنوين الشراء. لا يمكنني أن أُري بضاعتي في هذا المعرض لكل ذبابة عارضة تحط دون أن تدفع شيئاً. إن بضاعتي منتقاة جداً بشكل

لا تحتمل مثل هذا التصرف. أضف إلى أنه لم يتبق لدي إلا اثنتان ولا أميل إلى بيعهما. إذ مع احتمال حلول الوباء الذي يتحدث عنه العقلاء هناك احتمال أن تساويا قدر وزنهما ذهباً. لا، لا : andate con Dio (2) "

تبادلت المرأتان النظرات فيما بينهما.

قالت الثانية: " وما هو السعر، يا ترى؟ "

قال براتي بلهجة متعجرفة يخالطها العطف: " ليس ضمن حدود ما يمكن أن تحمليه في محفظتك، يا سيدتي الطيبة. أوصيك بأن تثقي بالسيد دومينيديو والقديسين: الفقراء لا يمكنهم أن يفيدوا أنفسهم بأفضل منه ".

قالت المرأة الثانية بحنق وهي تخرج محفظة نقودها: " ليس على هذه الدرجة من الفقر! هيا، الآن! ما قولك بدزينة؟ "

قال براتي ببرود: " أقول يمكنك أن تحصلي على إحدى وعشرين ربعية لقاء ذلك، لكن ليس مني، إذ أنني لا أملك مثل هذه العملة الصغيرة (الفراطة) ".

قالت المرأة وقد عيل صبرها بينما نظرت زميلتها إليها ببعض الحسد: " هيا: اثنتان، إذن؟ لا أعتقد أنها تساوي أكثر من اثنتين ".

بعد مزيد من المساومة، ومزيد من الغنج التجاري بدت على براتي سيماء التنازل.

قال وهو يرفع الغطاء على مهل: "ما دمت قد صممت عليها فإنني أكره أن ألحق بك ضرراً. ذلك أن مايسترو غباديو تعود أن يقول

إنه عندما تصمم امرأة على شيء ولا تحصل عليه فإنها تكون ذات خطر وبائي أكبر مما سبق. إكو! (*) لم يتبق لدي إلا اثنتان. ودعاني أقل لكما، إن زبون القطعتين هو رهن إشارة مايسترو غابادي الذي ذهب إلى بولونا – الطبيب الحكيم كما أي طبيب يجلس عند أي مدخل ".

كان الشيئان الثمينان عبارة عن خاتمين حديديين ليسا على رشاقة في الصنع مسكوكين على منوال

الخواتم الرومانية التي يتم نبشها في المواقع الأثرية.كان الصدأ الذي علاهما، والطابع

المخفي كليّة لفاعليتها، يبعثان على الرضى مما جعل الغروسيات (العملة) تدفع دون تذمر، والمرأة الأولى المجردة من تلك النقود الجميلة أفلحت بعد عرض كبير للتمنع من جانب براتي في عقد صفقة لقاء بعض ما معها من غزل، وأخذت الخاتم المتبقي مزهوة بالنصر. أما براتي فقد غطّى سلته التي كانت تغص الآن بأشياء متنوعة، ربما استحصل عليها في مثل ظرف الحصول على الغزل، وإذ هو ابتعد عن العمود، حيث كان يقف،فقد وقع بصره فجأة على تيتو الذي كان سيرغب، لو تسنى له الوقت، أن يتفادى تعرفه عليه.

قال براتي وهو يسحب تيتو للوراء إلى حيث العمود: " وحق رأس سان جيوفاني، الآن هذه ضربة حظ. ذلك أنني كنت في ذكرك هذا

م–(*) صيحة أو هتاف استحسان أو دهشة تقال كلازمة

الصباح، يا سيد غريكو(*) لكنني قلت إنه الآن قد اعتلى ليصبح بين السادة – وأنا مسرور لذلك، لأنني كنت في قاع ثروته – لكن يشق عليّ أن أحصل على كلمة منه ذلك لأنه لن يفاجئه أحد راقداً على الصخور الآن – ليس هو! لكنه حظك، ليس حظي، يا سيد غريكو، باستثناء شيء تافه القيمة يرضيني لقاء أتعابي في الصفقة ".

قال تيتو: " أنت تتكلم أحاجي، يا براتي. لا تنس، لست أشحذ نباهتي، كما تفعل أنت،

بعقد صفقات صعبة تشمل خواتم حديدية: يجب أن تكون واضحاً ".

" وحق الملائكة القديسين! لقد عقدت معهما صفقة سهلة. إذا كان العبري يأخذ اثنين وثلاثين بالمئة فإنني آمل أن يأخذ المسيحي أكثر بقليل. ولولم يكن لدي ضمير لأخذت ضعف المبلغ وضعف

الغزل. لكن، بمناسبة الحديث عن الخواتم، إنه خاتمك – ذاك الخاتم عينه الذي تلبسه على إصبعك – ما يمكنني أن أعثر على شار له. آي، وشار معه محفظة نقود عميقة ".

" أحقاً؟ " قال تيتو، وهو ينظر إلى خاتمه ويصغي.

" مواطن جنوي (من جنوة) ذاهب رأساً إلى هنغاريا، كما أفهم. لقد أتى وتطلع في أرجاء متجري ليرى ما إذا كنت أتوفر على أنتيكات لم يكن لي دراية بسعرها. أراهنك أنه كان يعتقد أن هناك يقطينة على

(*) يقصد اليوناني، أي تيتو – م

كتفي. لقد طفق يبحث في كل متاجر فلورانسة. وكان يلبس خاتماً – ليس كخاتمك، لكن شيئاً من هذا القبيل. وبينا كان يتحدث عن الخواتم، قلت إنني أعرف شاباً لطيفاً، أحد معارفي المقربين، ممن يتوفر على خاتم من هذا النوع. وقال هو: " من هو، يا ترى؟ قل له

سأعطيه السعر الذي يضعه ". وفكّرت بالذهاب وراءك إلى محل نيلو غداً. ذلك أن رأيي فيك، يا سيد غريكو، هو أنك لست ممن يرغب في رؤية آرنو يصير إلى مرق، وتقف بجانبه دون أن تغمس إصبعك ".

لم يضيّع تيتو كلمة واحدة مما فاه به براتي، لكن ذهنه كان مشغولاً جداً طيلة هذه الآونة. لماذا يبقي على الخاتم؟ لقد كانت مجرد عاطفة، مجرد نزوة، منعته من بيعه إلى جانب المجوهرات الأخرى. لو اتصف بحكمة أكبر وباعه لربما تفادى ذلك التعرف على هويته من قبل الأخ لوقا. صحيح أنه أخذ من إصبع بالداسار ووضع على إصبعه حالما نمت يده الصغيرة إلى مقاسه اللازم. لكن لم يكن هناك، في الواقع، أي نفع لأي شخص في تلك الشكوك الخرافية المتعلقة بالجمادات. لقد كان للخاتم دور في التعرف عليه. كان تيتو قد بدأ يكره التعرف، والذي كان مطلباً من الماضي. هذا العرض من أجنبي، إذا كان سيعرض حقاً ثمناً ملائماً سيوفّر فرصة للتخلص من الخاتم دون تجشم عناء البحث عن مشتر.

قال تيتو: " أنت تتحدث بحكمتك المعهودة، يا براتي. ليس لدي مانع لسماع ما سيعرضه صديقك الجنوي. لكن متى وأين سأسمع

حديثه؟ "

" غداً، بعد شروق الشمس بثلاث ساعات، سيكون في متجري، وإذا كانت لك النباهة الحادة كما هو عهدي بك دائماً، يا سيد غريكو، فستطلب منه سعراً مرتفعاً. ذلك لأنه لا يأبه للمال. اعتقادي أنه إنما يشتري لصالح شخص آخر، وليس لصالحه – ربما لسنيور كبير الشأن.

قال تيتو:" حسن، سأكون في متجرك، إذا لم يجدّ طارئ ".

" ودون ريب ستعاملني بنبالة كرمى لمعرفة قديمة، يا سيد غريكو، لذلك لن أبقى لتحديد المبلغ الصغير الذي ستنقدني إياه عربوناً على خدماتي في المسألة. يبدو أنني سأستغرق ألف عام لأخرج من الساحة، ذلك أن المعرض هو شيء مقيت، إن لم أقل لعيناً، عندما لا يتوفر المرء على شيء يبيعه".

رسم تيتو إشارة سريعة على القبول والوداع، وعند ابتعاده عن العمود، وجد نفسه مدفوعاً مرة ثانية صوب وسط الساحة ثم للوراء مرة أخرى، دون أن يكون لديه المقدرة على تحديد المسار الذي سيسلكه. وبهذه الطريقة المتعرجة ألفى نفسه وقد أصبح في نهاية الساحة قبالة الكنيسة، حيث، في فجوة عميقة تشكلت عن طريق عدم استقامة خط البيوت، كانت حفلة ترفيهية جارية على قدم وساق، وقد بدت جذابة على نحو خاص للجمهور. وكانت نوبات من الضحك المفاجئ تقطع مونولوجاً كان أحياناً بطيئاً وخطابياً، وأحياناً أخرى مثرثراً وهازلاً. فهنا فتاة تتعرض للدفع إلى الأمام إلى داخل الحلقة الداخلية بامتعاض

ظـاهر، وهنـاك فتـاة وقحـة تعـالى ضـحكها تحـاول أن تشـق طريقهـا بمنكبيهـا. كـان ينتشـر فـوق السـاحة ضـوء غريـب، وشـوهدت النجـوم الشاحبة تنبجس من خدرها في الأعالي، والمصـابيح الباهتة المتماوجة فـي الأسفل، ممـا جعل الأشـياء بكافـة تعدم الوضـوح اللهـم إلا عنـدما كانت تشاهد قريبة تحت الأنوار المتقطعة الحركة. لكن فـي هذه الفجوة كـان هنـاك ضـوء أقوى قبالتـه كانـت رؤوس المشـاهدين المتحلقين تقـف في بـروز مظلم آن كان تيتو يُدفع تدريجياً نحوهم، بينما كـان ينتصـب فـوقهم رأس رجـل يرتـدي قلنسـوة بيضـاء عليهـا أشـكال صـفراء تـذكّر بأحبار اليهود.

سمعه تيتو يقول:" انظروا، يا أولادي! انظروا إلـى فرصـتكم! لا تهملـوا قربـان الـزواج المقدس حـين يمكـن الحصـول عليـه مقابـل مبلـغ ضـئيل قدره ربعيـة بيضـاء – أرخص زواج سبق عرضـه، ويجري حلـه مسـبقاً بـبلاغ بـابوي تبعـاً لرغبـة كـل شـخص ومزاجـه. انظـروا الـبلاغ البـابوي! " هنـا رفـع المـتكلم قطعـة مـن الـرق وعليهـا أختـام ضـخمة. " انظروا إلى التسامح الممنوح من قبل غبطة الكسندر السادس (3) الذي ينـوي، عقـب انتخابـه بابـا نظـراً لورعـه الخـاص، أن يصـلح الكنيسـة ويطـهّرهـا، ويشـرع بحكمـة، بإلغـاء تلـك الإسـاءة الكهنوتيـة التـي تبقـي حصة كبيرة جداً من هذا الزواج المميّز لرجال الكهنوت بينما يُقتّر على سواد المؤمنين. انطقوا مرة، يـا أبنـائي، وادفعوا ربعيـة بيضـاء! هذا هو سعر التسامح الكامل والوحيد. الربعيـة هـي الفـارق الوحيد الـذي يسـمح بوضـعه الأب الأقدس بعد الآن بيننـا وبين الكهنوت – الذين ينطقون

ولا يدفعون شيئاً ".

اعتقد تيتو أنه يعرف الصوت الذي كانت له رنة حادة تميّزه، لكن الوجه كان في معظمه متوارياً في الظل، بعيداً عن الأنوار في الخلف الأمر الذي لم يمكنه من التأكد من الملامح. وعندما تقدم إلى مكان أقرب ما يكون شاهد داخل الحلقة خلف المتكلم طاولة على شكل مذبح مرفوعة على منصّة صغيرة ومغطاة بقماش أحمر مطرز بأكمله بأشكال صفراء تذكّر بأحبار اليهود. نصف دزينة من الشموع كانت تشتعل عند مؤخرة الطاولة التي كان مبعثراً فوقها أجهزة عرافة، وكتاب كبير مفتوح في الوسط، وعند إحدى الزوايا الأمامية قرد مربوط بحبل إلى حلقة صغيرة يحمل شمعة صغيرة، والتي تدلّت، في غمرة حركاته المستمرة، بشكل مائل تقريباً، بينما انشغل غلام عفريتي يلبس مدْرَعة كهنوتية بيضاء بصورة رئيسة بتقييد القرد وتسوية الشمعة. وكذا بدا الأمر، فقد كان الرجل المعتمر للتاج الأسقفي يلبس مدرعة كهنوتية، وفوقها رداء عليه إشارات دائرة البروج معلّمة بشكل غير متقن بالأسود على أرضية صفراء. تيقّن تيتو الآن أنه يعرف زوايا الوجه المنعطفة للأعلى تحت الرداء: كان وجه السيد فايانو، المشعوذ الذي أنقذ تيسا منه. تيسا الصغيرة الجميلة! ربما كانت هي نفسها قد جاءت من ضمن مواكب الفلاحات.

" تعالوا، يا فتياتي! هذه فرصة الحسان اللواتي يتوفّرن على فرص عديدة، والقبيحات اللواتي لا يتوفّرن إلا على القليل. زواج معروض لكن – ساخن، مأكول، ويُلتهم بسهولة أكل كعك

البيرلينغوتزي! وانظرن! "، هنا رفع المشعوذ مجموعة من الحقائب الصغيرة. " لكل عروس أعطي براءة وفيها سر – السر وحده يساوي المبلغ الذي تدفعن لقاء الزواج. سر كيفية أن – لا، لا، لن أخبركم فحوى السر، وهذا يجعل منه سراً مضاعفاً. علقوها حول أعناقكن إذا شئتن، وإياكن أن تنظرن إليها. لا أقول إن هذه لن تكون الأفضل، ذلك أنكن سترين، عندئذ، أشياء عديدة لا تتوقعنها: رغم أنكن إن لم تفتحنها قد تصبن بكسر في الساق، e vero، لكنكن ستعرفن سراً! لا أحد يعرفه سواي! وانتبهن – أعطيكن البراءة، لا أبيعها، كما يفعل غيري من الكهنة: الربعية هي للزواج، والبراءة Brevi تأخذنها بدون مقابل. Orsu,giovanetti، تعالوا باعتباركن بنات الكنيسة الوفيات لواجباتهن واشترين براءة التسامح المقدمة من قداسة ألكسندر السادس ."

كانت هذه الشعوذة تلائم ذوق الجمهور تماماً. كان الفيروكولا (المعرض الصغير) مجرد مناسبة صغيرة، لذا يمكن أن يرضى قاطنو المدن بنكات كانت نوعاً ما أقل فحشاً من تلك التي اعتادوا أن يسمعوها في كل كارنفال وقد انتظمت في قواف سهلة من قبل المعظّم وأتباعه الشعراء، بينما بدأت النسوة حقاً، بمعزل عن أي استطابة للمرح، يتلهفّن للبراءة. تلقى عدة أزواج مسبقاً المراسيم، والتي فيها كان هذر المشعوذ وتجهمه فوق الكتاب المفتوح، وأنتيكات القرد، وحتى البصاق الأولي، قد استجر الكثير من الضحك. في هذه الآونة شق شاب وسيم فرح العينين يناهز السابعة عشرة يرتدي رداء فضفاضاً

وقبعة حمراء، طريقه للأمام وقد أمسك بيده سمراء بدينة كان فستانها الصغير البالي يظهر ذراعيها وساقيها المستديرتين بصورة مثيرة.

قال الشاب: " قيّدنا دونما تأخير، يا سيد! إذ عليّ اصطحاب عروسي إلى البيت لكي أرسمها تحت ضوء المصباح ".

" ها! ماريوتو، يا بني، أقدّر لك مراعاتك للتقوى..." كان المشعوذ يواصل كلامه، عندما حذّره لغو مرتفع من الخلف بأن أزمة غير مستحبة قد ألمّت بقرده.

هذا، وقد تعرض مزاج ذلك القندلفت(4) العادم للكمال لاختبار بسيط من انضباط مفرط في فعاليته أتاه زميله في الرداء الكهنوتي، وطاولته صفعة مفاجئة بينما سقطت شمعته في وضع أفقي، مما حمله على القفز للوراء بعنف شديد على العقدة المرتخية التي ثُبّت بها حبله. كانت قفزته الأولى إلى الجانب الآخر من الطاولة، ومن هناك انطلقت احتجاجاته تتهدد وتتوعد حتى إن الصبي العفريت اللابس المدرعة التقط عصا على سبيل تهديد مماثل، وعلى أثر ذلك قفز القرد على رأس امرأة طويلة القامة تقف في الصفوف الأمامية، وارتمت شمعته في غمرة ذلك، وأخذ يبربر من ذلك العلوّ ممعناً في توكيده. كم كان الصراخ والفوضى شديدين حتى إن الكثيرين من المتفرجين شعروا بخوف مبهم من قرد السيد، ذلك لأن بمقدوره إلحاق أذى مخفياً يفوق ما تسببه الأسنان والمخالب . والمشعوذ نفسه اعتراه خوف مخافة أن يَلْحق أي أذى برفيقه. وفي غمرة العراك للقبض على حبل القرد أصبح تيتو خارج الحلقة ودون أن يأبه بالسعي الحثيث

لاستعادة مكانه ثانية وجد نفسه يُدفَع تدريجياً صوب كنيسة نانزياتا، ويدخل مع المصلّين.

وقد بدا أن الإنارة الساطعة في الداخل أثرت على عينيه بقوة ملموسة عقب الأضواء المبعثرة الشاحبة والظلال الواسعة في الساحة، وللوهلة أو الوهلتين الأولين لم يستطع أن يرى بوضوح تام. ذلك الألق الأصفر كان بحد ذاته شيئاً فوق طبيعي وسماوياً للكثير من النسوة الفلاحات اللواتي كان نصف السماء بالنسبة إليهن مغطى بالجبال، واللواتي كن يأوين إلى فراشهن مع الغسق. وكان الغناء غير المتقطع الصادر عن الجوقة بمثابة راحة للأذن بعد الجلبة الجهنمية من جمهور الخارج. وبالتدريج بدأ المشهد يزداد وضوحاً، رغم أنه ما زال يُرى كضباب أصفر رقيق من البخور الممتزج بأنفاس الحشد. وفي معبد على يسار الصحن مزدان بآكاليل المصابيح الفضية، كانت تُشاهد بوضوح نقوش البشارة الرائعة من الفريسكو، والتي بدت، حسب رؤية تيتو المائلة لها من مكانه في الجهة اليمينية من الصحن، سوداء بإزاء شدة الإضاءة حولها. كانت منطقة الكنيسة الكبرى بكاملها تغص بالنسوة الفلاحات، بعضهن راكعات، وبعضهن وقوف. والجلود الخشنة المطعمة بالبرونز، والملابس القذرة لقاطني الجبال الأكثر خشونة، في تغاير عن الوجوه ذات القسمات الأكثر نعومة ولباس الرأس الأبيض أو الأحمر للقاطنين الميسورين في الوادي الذين كانوا مبعثرين في مجموعات غير منتظمة. وكان ينتشر في الأعلى وفوق الجدران والسطح حشد آخر، يتدافعون كذلك، كي يكونوا أقرب إلى العذراء

القوية القادرة. كان هو جمهور الصور الشمعية المقدمة كنذور، وتماثيل الشخصيات الهامة، الملفعة بأرديتها كما كانت في حياتها: فلورانسيون مشهورون يرتدون الـ lucco (انظر الحواشي–م) الحريري الأسود، كما عند التئام المجلس، باباوات، أباطرة، ملوك، كاردينالات، وقادة طبقت شهرتهم الآفاق مع خوذهم المريّشة (5) راكبين على جيادهم، كلهم غرباء مشهورون كانوا مروا عبر فلورانسة، أو لم يكن لهم البتة علاقة بشؤونها – مسلمون، تجمعهم مع الفرسان المسيحيين أخوّة التسامح الطيب، بعضهم بوجوه مسودّة وأسمال خلقة بفعل تآكل ناجم عن أنفاس القرون الغابرة، وآخرون نضرون ومتألقون برداء أحمر جديد أو درع فولاذي، أشباه تامة لنظائرهم الأحياء. وبين كل هؤلاء كانت هناك أذرع حيادية، وسيقان، وأعضاء أخر، حيث شوهدت هنا وهناك فجوة مكان صورة أزيلت لعار شعبي أوحت به، أو سقطت بشكل منذر بالسوء، كما كانت الحال مع صورة لورينزو لستة شهور خلت. لقد كان المشهد حشداً تاماً كحشد يوم الحشر من بشر نائين وبقايا بشر، يتأملون، بدرجات نضارتهم المتبدلة، قذارة الجماهير القاتمة وبريقها المتناثر في غير مكان في الأسفل.

طوّف تيتو بنظراته عبر الحشد الصاخب بحثاً عن شيء ما. كان قد فكّر مسبقاً بتيسا، وأوحت أغطية الرأس البيضاء بإمكانية العثور على وجهها تحت أحدها. لقد كانت فكرة تستحق، على الأقل، الجدّ في سبيلها مقارنة بمشهد رؤية رومولا ترمقه بعينين اعتراهما التبدل. لكنه بحث دون طائل. كان يغادر الكنيسة، بعد أن سئم من

مشهد توالى على منوال واحد، عندما لمح، قبالة المدخل تماماً، تيسا، لا تبعد عنه بأكثر من ياردتين. كانت تركع وظهرها إلى الحائط خلف مجموعة من النسوة الفلاحات كن يقفن ويبحثن عن بقعة أقرب ما تكون إلى الصورة المقدسة. كان وجهها يميل قليلاً إلى جانب، ويوحي بالتعب، وعيناها الزرقاوان كانتا مصوبتين دون هدف تقريباً نحو جزء من المذبح كان يقف فيه رئيس الملائكة جبريل في دروعه، بوجهه الشاب وشعره المتماوج، وسط قديسين ملتحين وحليقي الرؤوس. وكانت يدها اليمنى، وفيها باقة من الشرانق، قد سقطت بجانبها بتراخ وتوان، وخدها المدوّر يميل إلى الشحوب، إما بفعل الضوء أو بفعل الإرهاق الذي عبّرت عنه وقفتها: وكانت شفتاها مضغوطتين معاً في شكل تبويزة، وبين الفينة والأخرى كانت أجفانها تنسدل نصف انسدال: كانت صورة كبيرة لطفلة حلوة ناعسة. شعر تيتو برغبة جامحة في الذهاب إليها واقتناص نظراتها وبربرتها الطفولية الواثقة: هذه المخلوقة التي كانت خالية من كل حكم أخلاقي يمكن أن يدينه، التي صنعت روحها الصغيرة المحبة الجاهلة عالماً خاصاً، يمكن له أن يشعر فيه بالتحرر من الظنون والمطاليب المدققة، كان يرى فيها الآن جاذبية من نوع جديد. بدت مَفْزعاً من الوحدة المنذرة التي ستجلب العار. نظر بحذر في أرجاء المكان ليتأكد من أن مونا غيتا لم تكن على مقربة، ومن ثم، بعد أن انسلّ بهدوء إلى جانبها، ركع على إحدى ركبتيه، وقال، بصوت أشد ما يكون رقّة: " تيسا! "

لم تكن جفلتها أكبر من تلك الجفلة التي كانت ستشعر بها لو

أن نسمة هي بأمس الحاجة إليها داعبتها بلطف. التفتت ورأت وجه تيتو قريباً منها: لقد كان أجمل بكثير من وجه الملاك الأكبر ميخائيل الذي كان مقتدراً جداً وطيباً جداً مما مكنّه من أن يعيش مع العذراء وجميع القديسين، وكان يُصلّى لأجله جنباً إلى جنب معهم. ابتسمت بصمت وفرح، ذلك أن القرب من تيتو كان يملأ عليها خيالها.

" صغيرتي تيسا! يبدو عليك الإرهاق. منذ متى أنت راكعة هنا؟"

بدت وكأنها تستجمع أفكارها للحظة أو اثنتين، وأخيراً قالت –

" أنا جائعة جداً "

" هيا، إذن . تعالي معي "

رفعها من جثوها واصطحبها تحت أسقف الأروقة التي كانت تحيط بالردهة والتي كانت آنئذ مفتوحة، ولم تزدن بعد بأشغال الفريسكو من أندريا ديل سارتو(6)

" كيف حدث وأنت وحدك تماماً، وعلى هذه الدرجة من الجوع، يا تيسا؟"

" الأم مريضة. إنها تعاني من آلام مبرحة في ساقيها، وأرسلتني لأحضر هذه الشرانق إلى كنيسة سانتيسيما نانزياتا، لأنها رائعة جداً. انظر!"– رفعت رزمة الشرانق التي رتبت بانتظام دقيق على ساق، – " كانت احتفظت بها لتحضرها بنفسها، لكنها لم تتمكن، وهكذا أرسلتني لأنها تعتقد أن العذراء المقدسة يمكن أن تخلصها من آلامها: وأحدهم سرق محفظتي وما فيها من خبز وكستناء، والناس دفعوني

للوراء، وأنا كنت خائفة جداً من ولوج الحشد، ولم أستطع الوصول إلى أي مكان بالقرب من القديسة مريم كي أعطي الشرانق إلى الأب، لكنني يجب– أوه، يجب ".

" أجل، يا صغيرتي تيسا، ستأخذينها، لكن أولاً تعالي ودعيني أقدّم لك بعض كعك البيرلينغوتزي. يوجد مكان لبيعه غير بعيد من هنا ".

قالت تيسا، وهي مشوشة قليلاً: " من أين أتيت؟ اعتقدت أنك لن تعود إلي ثانية لأنك لم تأت قط إلى السوق (الميركاتو) لشراء الحليب. وضعت نصب عيني العصافير لتقول لي، لأرى ما إذا كانت ستعيدك، لكنني غادرتُ لأنها لم تفعل ".

" كما ترين أنا آتي عندما تحتاجين إلى أحد يرعاك، يا تيسا. ربما العصافير هي التي أحضرتني، استغرقها هذا بعض الوقت فحسب. لكن ماذا ستفعلين وأنت هنا لا يرافقك أحد؟إلى أين ستذهبين؟"

" أوه، سأمكث وأنام في الكنيسة– الكثيرون يفعلون – في الكنيسة وكل الجوار – فعلتها مرة عندما كنت بصحبة والدتي، والباترينيو (صاحب البضاعة – م) سيأتي مع البغال في الصباح ".

في هذه الآونة كانا قد خرجا إلى الساحة حيث خفّ شغب الجمهور عمّا قبل، وتناقص عدد الأنوار، وانقطع تيار الحجيج. تشبثت تيسا بشدة بذراع تيتو صامتة راضية، بينا اصطحبها هو نحو الكشك حيث تذكّر أين شاهد المأكولات . كان الطريق الذي سلكاه هو الأسهل ذلك لأن الناس اندفعوا في هذه اللحظة بالذات إلى وسط الساحة حيث

وجد الأشخاص المقنعون الواقفون على عكاكيز طويلة حيزاً لتنفيذ إحدى الرقصات. كم هو جميل أن تُشاهد هذه المخلوقة البريئة وهي تسلم تيتو شرانقها، ومن ثم تلتهم كعكها مثل طفلة تتضوّر جوعاً. لقد جاء تيتو حقاً لرعايتها مثلما فعل في السابق، وتلك السعادة الرائعة المتأتية عن الوجود بقربه قد عادت إليها من جديد. وسرعان ما انطفأت حدة جوعها، وأسرع من المتوقع نظراً لحافز السعادة الجديد الذي أيقظها من تراخيها وكسلها. وبينا أخذا في الابتعاد عن الكشك لم تقل شيئاً عن دخول الكنيسة ثانية، لكنها نظرت حولها كما لو أن المناظر في الساحة لم تخلُ بالنسبة إليها من جاذبية أما وأنها قد أصبحت الآن في أمان تحت ذراع تيتو.

قالت متعجبة وهي تنظر إلى الراقصين على العكاكيز الخشبية الطويلة:" كيف بوسعهم أن يفعلوا ذلك؟ ". ثم بعد لحظة صمت:" هل تعتقد أن القديس كريستوفر يساعدهم؟"

قال تيتو وهو يمرر ذراعه اليمنى حول خصرها، وينظر إليها بوله شديد: " ربما. ماذا تقولين أنت، يا تيسا؟ "

" لأن القديس كريستوفر طويل القامة جداً، وهو خيّر كريم: إذا نظر أي شخص إليه فإنه يهتم به طوال اليوم. إنه على جدار الكنيسة – طويل جداً لا يمكنه الوقوف هناك – لكنني رأيته يمشي في الشوارع في عيد سان جيوفاني يحمل الطفل يسوع ".

" أيتها الحمامة الجميلة! هل تعتقدين أن أحداً يستطيع ألا يعتني **بكِ**، إذا نظرت إليه؟"

قالت تيسا وهي ترفع وجهها إليه بينما كان يسحق وجنتها بيده اليسرى:" هل ستأتي دائماً للعناية بي؟ وهل ستبقى دائماً وقتاً طويلاً أول الأمر؟ "

أخذ تيتو ينتبه إلى أن بعض الواقفين كانوا يضحكون لمرآهما، ورغم أن إجازة المرح في الشوارع، بين الفنانين والشباب من الميسورين إلى جانب عامة الناس، قد جعلت القلة القليلة من المغامرات استثنائية، بل أقل تشويهاً للسمعة، فإنه قد آثر الابتعاد نحو طرف الساحة.

أجاب كمن في حلم عندما ابتعدا " ربما جئت إليك عما قريب، يا تيسا ". كان تفكيره كالتالي: مع إدارة الجميع ظهورهم له سيكون من المريح أن تكون هذه المخلوقة الصغيرة بجانبه تعبده وتحتمي به. لقد جعل غياب الخيلاء الذاتي المتجرئ تيتو يشعر بأنه من دون دفاع أمام الخزي المقبل: كان بحاجة ماسة إلى النظرات الوسنانة والملاطفات ليبتعد نهائياً عن كل صفاقة.

قالت تيسا:" في السوق؟ ليس صباح غد لأن الباترينيو سيكون هناك، وهو غاضب جداً، أوه! لكن معك مال، ولن يكون غاضباً إذا اشتريت بعض السلطة. وهناك بعض الكستناء. هل تحب الكستناء؟"

لم يقل شيئاً، لكنه واصل النظر إليها بحنان حالم، وتيسا من جانبها شعرت بالدهشة اللذيذة تغمرها. كل شيء بدا جديداً كما لو أنها حملت على عربة من سحب.

صاحت مرة أخرى من فورها:" أيتها العذراء المقدسة! هناك أب قدوس مثل الأسقف رأيته في براتو".

نظر تيتو للأعلى أيضاً، ورأى أنه تقدم دون وعي منه إلى مسافة بضع ياردات من المشعوذ، سيد فايانو، الذي كان الجمهور قد غادره آنئذ. كان وجهه مشاحاً عنهم، وكان منشغلاً بالجهاز على مذبحه أو طاولته، يجهّز تسلية جديدة ما إن ينتهي الاهتمام بالرقص. كان القرد مسجوناً تحت القماشة الحمراء بعيداً عن أي أذى، وكان الغلام في المدرعة (رداء كهنوتي) يحمل نوعاً من طبق أو صينية كان سيده يتناول منها بعض المواد. كانت الطاولة تشبه المذبح، بقماشها الرائع، وصف الشموع، والزي الأسقفي غير الحقيقي(الزائف)، والخادم المرتدي المدرعة، بل وحتى حركات الشخص المعتمر التاج الأسقفي، بينا كان يحني رأسه بالتناوب، ومن ثم يرفع شيئاً أمام الأضواء، تقارب بشكل كافٍ محاكاة ممسوخة (باروديا) للأشياء المقدسة مما أثار احترام وتوقير تيسا الصغيرة المسكينة. وكان هناك بعض المهابة الإضافية الناجمة عن سرّ طيفهما في هذه البقعة، ذلك أنها عندما شاهدت مذبحاً في الشارع في يوم مضى إنما كان ذلك يوم عيد الجسد، وكان هناك موكب ليجسد ذلك. رسمت إشارة الصليب على صدرها ورفعت بصرها إلى تيتو، لكنها، وكما لو أن التفكير تطلّب بعض الوقت، قالت: " ذلك بسبب ميلاد العذراء " .

في الآن ذاته كان فايانو قد التفت إلى الناحية الأخرى رافعاً يديه إلى تاجه الأسقفي بهدف تغيير ملابسه، عندها ميّزت عينه المتيقّظة تيتو وتيسا اللذين كانا ينظران إليه سويةً، حيث كان وجهاهما يشعشعان بأنوار شموعه، بينما وجهه هو في الظل.

قال على الفور وهو يمد ذراعيه كالمحسن:" ها! يا أولادي! لقد جئتما للزواج. أنا معجب بتوبتكما – لا يمكن لبركة الكنيسة المقدسة أن تأتي متأخرة أبداً ".

لكنه استوعب، وهو يتكلم، كل المعنى القائم في وقفة تيسا وتعبيرها، وقد لمح فرصة لنوع جديد من المزاح تطلب منه أن يكون حذراً وجدياً.

قال تيتو بصوت ناعم، وهو نصف مستمتع بالكوميديا، عندما شاهد الجدية الطفولية الجميلة المرتسمة على محياها، وقد حفزت إليها بقدر ما، الرؤى الضبابية المسبقة التي كانت تنتمي إلى سكرة اليأس: " هل تودين الزواج بي، يا تيسا؟ "

شعر أنها ترتجف قبل أن ترفع بصرها إليه وقالت بخفر: " هل ستدعني؟"

لم يرد إلا بابتسامة، وبقيادتها للأمام إلى أمام السيريتانو، الذي، ما إن رأى فرصة لمزحة ممتازة في انخداع تيسا الجلي حتى تقلّد سيماء الجدية الكهنوتية الفائقة، وانخرط في الاحتفال الصوري يهذر بالـ lingua furbesca أو لاتينية اللصوص. لكن بعض الأعراض التي تمثلت في حركة استجدّت لدى الجمهور حثته على أن ينهيها (المحاكاة) بسرعة ويصرفها بيدين امتدتا في وضعية مانح البركة فوق شخصيهما الجاثيين. أما تيتو، الميال دائماً لاستثمار الإرادة الطيبة، رغم أنها قد تكون أقل الخيارات، فقد وضع قطعة من فئة الأربع غروسيات في يده عندما همَّ بالانصراف، ونال الشكر بنظرة شعر

المشعوذ أنها كانت توحي، بالتأكيد، بتفهم تام للمسألة بكاملها.

لكن تيتو نفسه كان بمنأى تام عن ذلك التفهم ولم يعلم، حقاً، فيما إذا كان سيخبر، في اللحظة التالية، تيسا بالمزحة، ويضحك عليها لبعض الوقت كإوزة صغيرة، أو يدع وهمها يدوم، وينتظر ليرى ماذا سيتمخض عنه – ويرى ماذا ستقول وتفعل تالياً.

قالت تيسا بعد أن قطعا بضع خطوات: " إذن لن تهرب مني ثانية. وستأخذني إلى حيث تسكن ". كانت تتكلم، وهي مستغرقة في التفكير، وليس بلهجة المستفسرة. لكنها أضافت من فورها: " يجب أن أعود رغم ذلك إلى أمي لأعلمها أنني أحضرت الشرانق، وأنني متزوجة، ولن أعود مرة ثانية ".

شعر تيتو بضرورة التكلّم الآن. وفي غمرة التفكير السريع الذي استجرته تلك الضرورة رأى أنه بعدم خداعه تيسا لا بد أنه سيحرم نفسه من بعض تلك الثقة الجميلة على الأقل، والتي قد تكون، شيئاً فشيئاً، ملاذه الوحيد من الاحتقار. وإنه للما يفسد تيسا أن يجعلها، ولو بمقدار ذرّة صغيرة، أكثر حكمة أو أكثر ارتياباً.

قال وهو يلاطفها: " أجل، يا صغيرتي تيسا، يجب أن تعودي إلى أمك. لكن يجب ألا تخبريها أنك متزوجة – يجب أن تخفي هذا السرّ عن الجميع، وإلا سيلحق بي أذى كبير، ولن تقع عيناك علي بعد ذلك ".

رفعت نظرها إليه والخوف مرتسم على محياها.

" يجب أن تعودي وتطعمي معزك وبغالك، وافعلي تماماً مثلما

فعلت في السابق، ولا تنبسي بكلمة لأي شخص عني ".

انسدلت زاويتا فمها قليلاً .

" ومن ثم، ربما، سآتي وأرعاك مرة ثانية عندما تريدين مني ذلك، كما فعلت في السابق. لكن يجب أن تفعلي ما أقوله لك بالضبط، وإلا لن تريني ثانية ".

قالت بهمسة مسموعة، وقد ارتعدت فرائصها لذلك الأمل الخاوي: " أجل، سأفعل، سأفعل ".

وفي فترة وجيزة خلد كلاهما للصمت، ثم، بعد أن نظرت إلى يدها، قالت تيسا – : " أمي تضع خاتم خطبة. ذهبت إلى الكنيسة ووضعه الكاهن هناك، وبعد ذلك، في يوم آخر، عقد قرانها". وأضافت البنيّة الصغيرة المسكينة، وقد شوّشتها المقارنة الصعبة بين حالها وحال الأخريات ممن خبرت وعرفت: "وكذلك فعلت ابنة العم نانينا. لكنها إذ ذاك تزوجت غولو ".

قال تيتو وهو يشعر بالضرورة الملحّة : " لكن يجب ألا تضعي خاتم خطبة، يا عزيزتي تيسا، لأنه ما من أحد يجب أن يعلم أنك متزوجة. وإن الـ buona fortuna(7) (التعويذة) التي أعطيتك إياها قد فعلت الشيء ذاته بالنسبة للخطبة. بعض الناس يخطبون بالخواتم وبعضها لا يفعل ".

قالت تيسا، وهي تحاول أن تقنع نفسها بأن أي شيءٍ تحبه كثيراً ليس، في الحقيقة، بالمناسب لها: " أجل، هذا صحيح، سيرون الخاتم ".

كانا في هذه الأثناء قد اقتربا من مدخل الكنيسة مرة ثانية، وتذكرت شرانقها التي كانت ما تزال في يد تيتو.

" آه، يجب أن تعطيني ال boto (8) (النذر)، ويجب أن ندخل، يجب أن آخذها إلى الأب، ويجب أن أتلو بقية حبات سبحتي، لأن التعب هدّني من قبل ".

قال تيتو وقد نال منه التعب والحمى كل منال بشكل لم يقو معه على معاودة الدخول إلى تلك الحرارة الخانقة، بعد أن شعر بأن هذه هي الطريقة الأقل صعوبة للافتراق عنها: " أجل، يجب أن تدخلي، يا تيسا. لكن أنا لن أدخل. يجب أن أتركك الآن ".

" ولن تعود؟ أوه، أين ستذهب؟ " لم يكوّن عقل تيسا قط صورة عن مكانه أو أفعاله عندما لم تكن تراه: لقد توارى، ولبثت أفكارها، عوضاً عن أن تتبعه، في البقعة نفسها التي كان فيها معها.

قال تيتو، وقد اصطحبها تحت الأروقة إلى باب الكنيسة : " سأعود يوماً ما، يا تيسا.يجب ألا تبكي – يجب أن تأوي إلى فراشك، عندما تتلين كل حبات مسبحتك. وهاك بعض المال لتشتري به فطورك. الآن قبّليني، وهيّا ابتسمي، وإلا لن آتي ثانية ".

تحاملت على نفسها بينا كانت ترفع شفتيها لتقبيله، واستسلمت لليد التي امتدت لتديرها للناحية الأخرى بكل لطف، ووجهها باتجاه باب الكنيسة. شاهدها تيتو تدخل. ثم، مستهجناً القرار الذي اتخذه، استند إلى أحد الأعمدة، ونزع قبعته، ومسح شعره للخلف، وتساءل في سره عن مكان وجود رومولا الآن، وماذا كان يدور في

خلدها عنه. كانت تيسا الصغيرة المسكينة قد توارت خلف الستارة وسط جمهرة الفلاحين. لكن الحب الذي انضفر مع كل آماله (تيتو) الدنيوية في شبكة واحدة، ومع الطموحات والمسرات التي لا بد أنها ستكوّن الجزء الصلب من أيامه – الحب الذي تماهى مع ذاته الأعظم – لم يبرح وعيه. حتى بالنسبة للإنسان الذي يبدي المقاومة الأكثر مرونة لأي شيء غير مستحب، ستأتي لحظات سيكون فيها الضغط الخارجي أكبر من طاقته على التحمّل، ولا بد أن يشعر بالألم وأثر الضربة بالرغم منه. مثل هذه اللحظة قد ألمّت بتيتو. لم يكن هناك أي موقف يمكن أن يتخذه العقل، أية خطة للتصرف يمكن بوساطتها أن تجتثّ كل آماله المنزرعة حديثاً إلا على النحو المؤلم.

الفصل الخامس عشر
رسالة المحتضر

عندما وصلت رومولا إلى مدخل دير سان ماركو وجدت أحد الرهبان ينتظر وصولها. انكفأت مونا بريجيدا إلى داخل الكنيسة المجاورة،وتم اصطحاب رومولا إلى باب مبنى الاجتماعات الملحق بالدير في الرواق الخارجي حيث أودع العليلون والمقعدون.لم يسمح لأية امرأة بتخطّي هذا القسم (1).

عندما فتح الباب، أظهر الضوء الخارجي الخافت المختلط مع ضوء شمعتين موضوعتين خلف سرير واطئ على دحروجات، الوجه الناحل للأخ لوقا، مع تاج ذهبي من باقي شعر الرأس الحليق

فوقه، وعينين غائرتين شهلاوين مسمّرتين على صليب صغير كان يحمله أمامه. كان مسنوداً إلى ما يقارب وضعية الجلوس (2)، وكانت رومولا قد شعرت لتوها، عندما رفعت النقاب عن وجهها بأن راهباً آخر كان يقف بجوار السرير يغطي رأسه بالقلنسوة السوداء، وأنه تحرك باتجاه الباب حال دخولها، كما شعرت لتوها بوجود صورة يسوع المصلوب في الخلفية تنتصب عالية وشاحبة على الجدار الموشى بالفريسكو، وفي أسفلها برزت وجوه شاحبة أمضّها الحزن.

في اللحظة التالية التقت عيناها بعيني الراهب لوقا عندما رفعتا من صورة يسوع المصلوب للنظر إليها، واستحوذت عليها وخزة التعرف التي قارنت هذا الشكل الرهباني الناحل بصورة أخيها الشاب الجميل.

" دينو! " قالت بصوت أشبه بصرخة ألم منخفضة النبرة. لكنها لم تنحن نحوه. بقيت منتصبة، وتوقفت على مبعدة ياردتين منه. شعرت أمام ذلك المظهر الرهباني بنفور لا يقاوم. بدا لها علامة على قلة الواجب الخسيسة التي تركت والدها في عزلة – على الخرافة الوضيعة التي يمكن أن تعطي مثل هذا الإهمال للواجب اسم الورع. والدها، الذي جعله إخلاصه الأنوف وبساطة الحياة واحداً من الوثنيين الصريحين القلة في زمانه، كان رباها متجاهلاً بصمت أية مطالب كنسية تهدف لتنظيم إيمان البشر وأفعالهم بمنطق المثقفين. كانت الكنيسة، في تفكيرها، تنتمي إلى تلك الحياة الحقيقية للجمهور المختلط الذي كانوا يعيشون دائماً بمنأى عنه، ولم تكن تحتضن أية أفكار يمكن أن تحيل مسار أخيها مرمىً لأي شعور سوى الازدراء الساخط

اللامبالي. لكن المحبة التي كانت تتسم بها روح رومولا تشبثت بتلك الصورة الماضية، وبينا وقفت جامدة بعيداً كان هناك بحث تائق في عينيها عن شيء من الصعب تمييزه لخفوته.

بيد أن انفعالاً يوازي ذلك لم يكن ليشاهد على وجه الراهب. نظر إلى الأخت الصغرى، وقد عادت إليه بكل جمالها الأنثوي، بتلك النظرة المحدّقة النائية الصادرة عن شبح معاود.

قال بتلفّظ واهن ومتقطع لكنه واضح: " أختي! لحسن الحظ أن قدومك لم يتأخر، ذلك لأن لدي رسالة ينبغي تسليمها إياك، وأجلي قصير ".

تقدمت رومولا خطوة للأمام: اعتقدت أن الرسالة ستكون واحدة من رسائل التوبة المليئة بالحب الموجهة إلى والدها، وبدأ قلبها ينفتح. لا شيء يمكن أن يمحو سنوات الهجر الطوال، لكنَّ المذنب، وهو يعود بنظره إلى تلك السنين يحدوه الإحساس بظلم مرتكب لا علاج له، يستدرّ الشفقة. الآن، أخيراً، سيكون هناك تفهم وصفح. سيتفجر من دينو نوع من شعور بنوي طبيعي. سيسأل أسئلة عن عمى والده – وكيف حل بسرعة؟ وكيف يتم ملء الأيام السود الطوال؟ وكيف هي الحياة الآن في البيت الذي تربى فيه وترعرع؟ – وستكون الرسالة الأخيرة من الشفاه المحتضرة رسالة حنان وأسف.

بدأ الأخ لوقا: " رومولا، لقد رأيت رؤيا عنك. لقد جاءتني ثلاث مرات في الشهرين الأخيرين: وكل مرة تزداد وضوحاً. ولذلك أتيت من فيسول معتبراً إياها رسالة من السماء ملزم بتسليمها. وأحسب

أنها وعد رحمة لك، أنني ما زلت أتنفس كيما – "

كان التنفس الصعب الذي ما برح يقطع كلامه يأبى عليه إنهاء جملته.

شعرت رومولا ثانية بالقشعريرة تعتري فؤادها. إذن، هذه الرسالة كانت رؤيا – واحدة من تلك الرؤى التي سمعت والدها مراراً يلمّح إليها بمرارة. اندفع سخطها (3) إلى شفتيها.

" دينو، حسبت أنك سترسل بضع كلمات إلى والدي. لقد تركته عندما كان بصره آخذاً بالأفول. لقد جعلته يعيش حياة عزلة وتوحد. ألم ينل ذلك قسطاً من اهتمامك قط؟ ألم تندم قط؟ أي دين هذا الذي تدين به، ذاك الذي يضع الرؤى قبل الواجبات الطبيعية ؟"

التفتت العينان الشهلاوان الغائرتان صوبها ببطء، واستقرتا عليها بصمت لبضع لحظات، كما لو أنه كان يفكّر بجواب.

قال أخيراً متحدثاً كسابق عهده، بصوت خفيض خلو من العاطفة كما لو أنه من لدن شبح لا إنسي يتحدث عبر أعضاء بشرية محتضرة: " لا، لا، لم أندم على الهروب من نفَس الخطيئة السام الخانق والذي كان يحوم حولي حاراً كثيفاً، وكان يهددني بالدبيب إلى كل أحاسيسي مثل نبيذ مسكر. لم يستطع والدي سماع الصوت الذي كان ينده علي ليل نهار. لم يعرف شيئاً عن شياطين الإغواء الذين حاولوا أن يبعدوني بالقوة عن اللحاق به. عاش والدي وسط الخطيئة والبؤس البشريين دون الإيمان بهما: كان أشبه بواحد منهمك في التقاط حجارة براقة من منجم، بينما كان يثوي فوقه عالم يحتضر من الوباء.

تكلمت لكنه أصغى بازدراء. لقد قلت له إن الدراسات التي رغب إلي أن أكرس حياتي لأجلها كانت إما ترهات طفولية – دمى ميتة – أو، خلاف ذلك، يجب أن تكتسي بالدفء والحياة من خلال النبضات التي تتناغم في دقاتها مع الطموحات الدنيوية والشهوات الجسدية، ذلك أن الطموحات الدنيوية والشهوات الجسدية قد شكلت كل قوام الشعر والتاريخ اللذين رغب إلي دائماً أن أتوجه ببصري نحوهما ".

علا صوت رومولا بعد أن لم تقو على الإصغاء بصمت إلى هذه التهمة المضمرة ضد والدها: " ألم يعش والدي حياة نقية ونبيلة، إذن؟ لم يسع وراء أية ألقاب دنيوية. كان صادقاً. لقد حرم نفسه من كل أنواع الترف. لقد عاش حياة الصوفيين القدامى. لم يرغب إليك قط أن تكرس حياتك للطموحات الدنيوية والشهوات الجسدية . لقد رغب إليك أن تعيش كما عاش هو، وفق أنقى الحكم الفلسفية التي رباك عليها ".

تكلمت رومولا جزئياً كالحافظ عن ظهر قلب كما تفعل كل المخلوقات الشابة المتحمسة والمتعاطفة، لكنها تكلمت بإيمان قوي. علت الحمرة الوردية وجهها وكانت ترتجف من أعلى رأسها حتى أخمص قدمها. وكرّة أخرى تباطأ أخوها في رده وهو ينظر إلى وجهها المنفعل بعينين غريبتين خاليتين من العاطفة.

" ما الذي كانته حِكَم الفلسفة بالنسبة لي؟ لقد دعتني إلى أن أكون قوياً عندما كنت أشعر بضعفي. وقتها كنت مستعداً، مثل القديس المبارك بينيديكت (4) لأن أتدحرج بين الأشواك، وأتوسّل الجروح المؤلمة باعتبارها خلاصاً من التجربة والإغواء . ذلك أن المحبة

الإلهية اختارتني واخترقتني، وخلقت حاجة عظيمة فيَّ، مثل بذرة تحتاج إلى حيّز كي تنمو. لقد تربيت في جو يهمل الدين الحق. لم أدرس مبادئ ديننا، لكنه بدا وكأنه يتملكني مثل فيضان آخذ بالارتفاع. شعرت أن هنالك حياة من الحب والطهارة الخالصين أمام الروح، فيها لن ينوجد جوع مقلق عقب السعادة، ولا أسئلة مؤرقة، ولا خوف من ألم. قبل أن أعرف تاريخ القديسين هجست بنشوتها. ذلك أن الحقيقة عينها كانت قد نفذت حتى إلى الفلسفة الوثنية وهي: إنها لسعادة في متناول الإنسان أن يموت في سبيل الحاجات البشرية الفانية، ويعيش في حياة الإله كما الكمال غير المرئي. لكن بغية نوال ذلك لا بد أن أهجر العالم: يجب ألا يكون لدي عاطفة، ولا أمل , يشداني إلى الزائل من الأشياء. يجب أن أعيش مع أترابي من البشر فقط كأرواح بشرية مرتبطة بالحياة الأزلية غير المرئية. ذلك أن الحاجة لم تنفك عن تحريضي: لقد جائتني في الرؤى عندما تهاوى عقلي جرّاء السأم من الكلمات الجوف التي تسجل عواطف الموتى: لقد جاءتني بعد أن تعرضت لإغواء الخطيئة وابتعدت قرفاً واشمئزازاً عن رائحة الكأس الفارغة. وفي الرؤى تراءى لي معنى الصلب ".

توقف وهو يتنفس بصعوبة لبرهة أو اثنتين: لكن رومولا لم تكن متحفزة للكلام ثانية. رأى تفكيرها أن من العبث محاولة التواصل مع عقل هذا الأخ الروحاني: كما هو عبث بالنسبة ليدها أن تحاول القبض على شبح. وعندما عاود الكلام أصبح صدره الخافق أكثر هدوءاً.

" شعرت بالذي لا بد أن أتبعه: لكنني رأيت أنه حتى وسط خدّام الصليب الذين أعلنوا تخليهم عن العالم، ستختنق روحي بأبخرة النفاق، والشهوة، والتكبر. لم يخترني الله، كما اختار القديس دومينيك والقديس فرانسيس لكي أتصارع مع الشر في الكنيسة وفي العالم. لقد نادى علي بأن أهرب: لقد اقتبلت النذور المقدسة وهربت – هربت إلى بلاد حملني فيها الخطر والازدراء والحاجة بشكل مستمر، مثل الملائكة،كي أرتاح على صدر الله. لقد عشت حياة الناسك، وسافرت للحج، لكن مهمتي كانت قصيرة: كان النقاب الذي يفصلني عن راحتي الأبدية رقيقاً جداً. عدت إلى فلورانسة علني – "

قاطعته رومولا، بعد أن جعلتها صورة تلك الحياة المؤلمة تشعر ثانية بالرغبة في الاتحاد والصفح، قائلة: " دينو، لقد أردتَ فعلاً أن تعرف ما إذا كان والدي على قيد الحياة ".

" – علني قبل أن أموت أحث آخرين من إخواننا على دراسة اللغات الشرقية، كما لم أفعل أنا، والسعي وراء أهداف أسمى مما سعيت، وأجدهم وقد انكبوا مسبقاً على العمل. ومنذ أن أتيت، يا رومولا، شعرت أنني قد أرسلت جزئياً إليك – لا لأجدد روابط المحبة الدنيوية، لكن كي أسلّم التحذير الرباني الذي جاءني في الرؤيا. ذلك أن هذه الرؤيا قد جاءتني ثلاث مرات. وخلال كل تلك السنوات منذ أن ناداني الصوت الإلهي لأول مرة، بينما كنت لا أزال في العالم، تعلّمت واهتديت بفضل الرؤى. إذ في جمعنا المؤلم لأفكارنا المستيقظة لن نتيقّن أبداً من أننا لم نخلط بين غلطتنا وبين النور الذي صلينا له. لكن

فـي الـرؤى والأحـلام نحـن سلبيون، وأرواحنـا إن هـي إلا أدوات فـي يـد العنايـة الإلهيـة. ولـذلك، استمعي، ولا تتحـدثي ثانيـة – ذلـك أن الوقـت قصير ".

نفـر عقـل رومـولا بقـوة مـن الإصـغاء إلـى هـذه الرؤيـا. كـان سخطها قد هدأت ثائرته، لكن ذلك كان مردّه فقط لأنها شعرت بالمسافة بينها وبين أخيها تتسع. لكن أثناء حديث الأخ لوقا، دخل طيف راهب آخر، ووقـف ثانيـة علـى الجانـب الآخـر مـن السـرير، والقلنسوة تغطـي رأسه.

نادى صوت ثر قوي يبعث على الرعدة مقارنة بصوت الأخ لوقا: " اركعي، يا ابنتي، فملاك الموت حاضر، وهو ينتظر ريثما يتم تسليم رسالة السماء: احني كبرياءك قبل أن ترغمي على إحنائه بفعل نير من حديد ".

لـم يكـن الصـوت صـوت الآمـر النـاهي، لكـن صـوت رباطـة الجـأش الهادئـة وتأكد الحق، ممتزجاً بسـلامة الطويـة. نظـرت رومـولا، المرتجفة أمام الصوت، حولها إلى الشبح على الناحية المقابلة من

السـرير. كـان مـن الصـعب تمييـز وجهـه تحـت ظـل القلنسـوة، وأنزلت بصرها على الفور إلى يديه، اللتين كانتا متصالبتين على صدره وراقدتين بارتياح على طرف ردنه الأسود. ولقد تميزتا بقسمات ملحوظة فاقمـت مـن تـأثير الصـوت: كانتـا جـد جميلتـين وتتسـمان بمـا يقـارب النعومـة الشـفافة. كـان ميـل رومـولا للتمـرد ضـد إصـدار الأوامـر، وقـد تفاقمـت فعاليتـه إلـى الضـعف فـي حضـرة الرهبـان الـذين تعلمـت أن

تحتقرهم، سيتركز على كل جزئية منفّرة باعتبارها مسألة داعمة. لكن الوجه كان مخفياً، وبدت اليدان على جاذبية تتحدى كل أنواع القساوة. في اللحظة التالية تناولت اليد اليمنى الصليب لتريح القبضة التعبى للأخ لوقا، واليسرى لمست شفتيه بإسفنجة مبللة كانت بالقرب. وفي عملية الانحناء، انزاح غطاء الرأس، وتلقت قسمات الراهب ضوء الشموع الكامل. كانت ملامح متميزة من تلك التي تسلس قيادها للوصف الرائج. كان هناك الأنف الشامخ المعقوف، والشفة السفلى البارزة، وتاج الشعر الكث الأسود فوق الحاجب، وكلها تبدو وكأنها تشي بالهمّة والحماس. كانت هناك العينان من لون رمادي على أزرق تشعان بنور رخي تحت الحواجب السمر المحمرة (الصحراوية) وتبدوان، كما اليدين، وكأنهما تنمّان عن شدة في الحساسية. تيقّنت رومولا بأنها ملامح الأخ جيرولامو سافونارولا، رئيس دير سان ماركو، الذي غالباً ما فكرت به على أنه أكثر إيذاءً من غيره من الرهبان، لأنه كان أكثرهم صخباً. كانت ثائرتها تتصاعد ضد الانطباع الأول، الذي أرغمها تقريباً على الجثو على ركبتيها.

قال الصوت النافذ ثانية: " اركعي، يا ابنتي، إن كبرياء الجسد لحاجز ضد العطايا التي تنقّي الروح ".

وبينا كان يتكلم كان ينظر إليها بتركيز رخي في البصر، ومرة أخرى شعرت بذلك التأثير الخفي الغامض لشخصية كانت أسبغت على بعض النادرين من الناس كي يحركوا مشاعر إخوانهم.

وببطء جثت رومولا على ركبتيها وعند فعلها هذا تملكتها

الرعدة. وفي سياق نبذها لانتصابها المتكبر بدا أن حالتها العقلية قد تغيرت، وألفت نفسها في حالة جديدة من الخنوع. طفق أخوها يتحدث ثانية –

" رومولا، في جوف الليل، بينما كنت مستيقظاً، شاهدت غرفة والدي – المكتبة – مع كل الكتب والرخاميات والمنضدة حيث تعودت أن أقف وأقرأ. ورأيتك – كنت واضحة لي كما أنت الآن، بشعرك الطويل الأشقر، جالسة أمام كرسي والدي. وعند المنضدة كان يقف رجل لم أتبين وجهه. نظرت، وعاودت النظر، كان صفحة بيضاء بالنسبة لي، بل لوحة مطموسة. رأيته يتحرك من مكانه ويأخذك، يا رومولا، من يدك. ثم رأيتك تأخذين والدي من يده. وأنتم الثلاثة هبطتم الدرج الحجري المفضي إلى الشارع، والرجل الذي كان وجهه صفحة بيضاء يقودكما. وأنت وقفت عند المذبح في سانتا كروتشه، والكاهن الذي زوجكما كان له وجه الموت. وفتحت المقابر وقام الموتى بأكفانهم وتبعوكم مثل موكب عروس. وتابعتم اجتيازكم للشوارع والمداخل إلى الوادي، وقد بدا لي أن من قادك كان يحث الخطا ويستعجلك أكثر من طاقتك، وتعب الموتى من اللحاق بكم، وانكفؤوا عائدين إلى قبورهم. وأخيراً أتيت إلى بقعة صخرية ليس فيها ماء، ولا شجر ولا كلأ. لكن عوضاً عن الماء رأيتُ رقعة مكتوبة من الرق تفتح من تلقائها من كل النواحي، وعوضاً عن الشجر والكلأ رأيت رجالاً من البرونز والرخام يقفزون ويتحلّقون حولك. وأصيب والدي بالإغماء لقلة الماء وسقط على الأرض. والرجل الذي كان وجهه صفحة بيضاء أرخى يدك

وغادر: وبينا كان يمضي شاهدت وجهه. كان وجه الشيطان الأكبر . وأنت، ياروملا، عصرت يديك وسعيت وراء الماء، ولم يكن هناك ماء. وبدت الشخوص البرونزية والرخامية تسخر منك وترفع لك كؤوساً من الماء، وعندما أمسكت بها بكلتا يديك وقربتها من شفتي والدي، استحالت إلى رقّ. وبدت الشخوص البرونزية والرخامية تتحول إلى شياطين وتخطف جسد والدي منك، وانكمشت صفحات الرق، وانسكب الدمع مدراراً عوضاً عنها، وناراً على الدم، وأنت كنت وحدك وسطها. ثم بدا الليل يجنّ ولم أعد أرى شيئاً... ثلاث مرات جاءتني هذه الرؤيا، يا روملا. أعتقد أنها وحي المقصود به هو أنت: كي يحذّرك من الزواج كونه إغواء من عدو. إنه يناديك لأن تكرسي نفسك –"

أخذت وقفاته تميل بالتدريج إلى الطول والتكرر، وكان الآن مرغماً على التوقف بسبب نوبة لهاث حوّل أثناءها بصره صوب الصليب كما على ضوء آخذ بالتلاشي. وفي الحال وجد قوة للحديث مرة أخرى، لكن بصورة أكثر وهناً، ونبرة صوت بالكاد أن تسمع.

" كي تنبذي الفلسفة الجوفاء وأفكار الملحدين الفاسدة: ذلك أنه في ساعة الأسى والموت سيستحيل كبرياؤهم إلى سخرية، والآلهة المدنّسة سوف – "

تلاشت الكلمات على شفتيه.

بالرغم من التفكير الذي كان يتملّك روملا قائلاً لها إن هذه الرؤيا ليست أكثر من حلم، تغذيه ذكريات شابة واعتقادات مثالية، إلا أن رهبة غريبة استولت عليها. لم يكن عقلها مستعداً لتلقي هجمات

الخيالات المريضة. كانت تتوفر على البصيرة النشطة والعاطفة البشرية الصحية، وهما تعيان جداً العلاقات الثابتة بين الأشياء مما يحول دون أي توق مرضي للاستثنائي. ومع ذلك فصور الرؤيا التي احتقرتها كانت تسد عليها الطريق وتؤرقها مثل صيحات مؤلمة وزاعقة. كانت هي المرة الأولى التي شهدت فيها الصراع مع الموت المقترب: حياتها الشابة كانت سوداوية، لكنها لم تعرف شيئاً عن الحاجات البشرية القصوى. لا ألم حاد – ولا أسى يقطّع نياط القلوب. وهذا الأخ، العائد إليها في أشد ساعات كربه، كان أشبه بشبح مفاجئ مزعج آت من عالم خفي. بدت وجوه الحزن الشاحبة في زخارف الفريسكو على الجدار المقابل وقد أخذت تقترب، وتصبح واحدة مع الوجه الشاحب على السرير.

قال الصوت المحتضر: " أيها الأخ ".

انحنى الأخ جيرولامو. لكن كلمة أخرى لم تسمع لبضع لحظات.

قال الصوت عقب ذلك: " رومولا ".

مالت للأمام كرّة أخرى : لكن الصمت ساد من جديد .كانت الكلمات تجاهد للخروج دون جدوى.

" أخ جيرولامو، أعطها – "

" الصليب "، قال الأخ جيرولامو.

لم تنبس الشفاه المحتضرة بأي صوت.

" دينو! " صرخت رومولا صرخة خفيضة النبرة لكن مدوية، بينما تملكها اليقين بأن صمت سوء الفهم لا يمكن أبداً أن يقطع.

قال الأخ جيرولامو بعد بضع دقائق: " خذي الصليب، يا ابنتي. ليست تراه عيناه بعد الآن ".

مدت رومولا يدها إلى الصليب، وبدا هذا العمل مريحاً إزاء التوتر الذي شدّ على تفكيرها. ندّ عنها فجأة نشيج قوي. أحنت رأسها بجانب أخيها المتوفى، وأخذت تنتحب بصوت عال.

بدا لها كما لو أن رؤيا الموت الأولى هذه لا بد أن تبدّل ضوء نهارها للأبد.

تحرك الأخ جيرولامو صوب الباب، ونادى على أخ آخر كان ينتظر خارجه. ثم اتجه إلى رومولا وقال بلهجة الآمر الدمث: " انهضي، يا ابنتي، واهدئي. أخونا هو الآن مع المباركين. لقد ترك لك الصليب كتذكار للتحذير الإلهي – علّه يكون لك مشكاة في الظلام ".

نهضت واقفة وهي ترتجف، وتلفعت بنقابها، وأخفت الصليب تحت ردنها. ثم اصطحبها الأخ جيرولامو خارجاً إلى الفناء المقبي الذي لم يكن الآن مضاء إلا بضوء النجوم وبمصباح كان يحمله أحدهم بالقرب من المدخل . تجمع عدة أشخاص آخرون بلباس سواد الناس (غير رجال الدين – م) حول البقعة نفسها. كانوا بعض المترددين العديدين على سان ماركو وقد جاؤوا لزيارة رئيس الدير، وبعد أن سمعوا بأنه كان يحضر وفاة الأخ في البناء الملحق لبثوا هناك بانتظاره.

شعرت رومولا بشكل خافت بوقع خطوات وأشخاص يخفقون ويتحركون إلى جانب: سمعت صوت الأخ جيرولامو يقول بنبرة

خفيضة: " لقد رحل أخونا ". شعرت بيد ترقد على ذراعها. وفي اللحظة التالية فتح الباب، وإذا بها في الخارج في ساحة دير سان ماركو الفسيحة لا أحد قربها سوى مونا بريجيدا، والخادم حامل المصباح.

أنعشها الإحساس الجديد بالخلاء، وساعدها على استرداد السيطرة على نفسها. كان المشهد الذي انتهى أمامها لتوه واضحاً وحياً بشكل يبعث على الهلع، لكنه بدأ يضيق تحت وطأة الانطباعات المعاودة للحياة خارجه. حثت الخطا بقلق عصبي كي تعاود الانضمام إلى والدها – وإلى تيتو – إذ ألم يكونا معاً في غيابها؟ وبينما لم تبارحها صور تلك الرؤيا مثل حلم مرعب لم يحن بعد أوان التخلص منه، فقد جعلتها تتوق أكثر إلى الوجوه والأصوات الحبيبة التي ستؤكد لها حياة اليقظة.

لم يكن تيتو، كما نعلم، مع باردو. كان مصيره يتشكل بفعل شعور بالذنب يفرض عليه بإلحاح الاعتقاد اليائس بأن رومولا قد حازت بحدود الآن على المعرفة التي ستقود إلى انفصالهما النهائي.

والشفاه التي كان يمكن أن تنقل هذه المعرفة قد صمتت إلى الأبد. كانت الرؤيا المسبقة التي أفشتها كلمات لوقا لرومولا من مثل تلك التي تأتي من منطقة الأطياف حيث تسعى أرواح البشر وراء الحكمة بعيداً عن مشاعر التعاطف البشرية التي هي صلب حياة حكمتنا وجوهرها. البوح الذي كان يمكن أن يأتي من الأسئلة البسيطة للمحبة البنوية والأخوية انتقل إلى صمت لا رجعة عنه.

الفصل السادس عشر
مزحة فلورانسية

في الصباح الباكر من اليوم التالي كان تيتو عائداً من صالون براتي الواقع في الشارع الضيق في الفيرافيتشي. كان الرجل الغريب من جنوة قد انصرف ومعه الخاتم العقيق، وآب تيتو ومعه الفلورينات الخمسين. ولم يعتم أن خطر له لو أن الحظ، بعد كل هذا، وعن طريق إحدى وسائله (الحظ مؤنثة باللغة الإنكليزية –م) القادرة، يوفّر عليه ضرورة مغادرة فلورانسة إذن لما كان تخلى عن خاتمه نظراً لأن الناس فهموا أنه إنما كان يضعه لأجل ذكريات وأهواء خاصة به. ومع ذلك فقد كانت مسألة بسيطة لا تستأهل شدّة التركيز عليها، وفي تلك اللحظات كان قد فقد ثقته بالحظ. هذا وقد خلّى الانفعال المحموم الذي أفرزه الإنذار الأول الذي كان أرغم فكره على الجولان في المستقبل مكانه لكسل متبلد مؤسف. كان يكْلَف كثيراً بالمسرّات التي لا يمكن أن تتأتّى له إلا من خلال رأي زملائه الإيجابي به، حتى إنه تمنى حالياً لو لم يجازف قط بجلب الخزي لنفسه عن طريق تحاشي ما يدعوه أبناء جلدته بالالتزامات.

لكن أفعالنا هي كالأطفال الذين يولدون لنا. فهم يعيشون ويتصرفون بمعزل عن إرادتنا. لا، فالأولاد يمكن أن يموتوا خنقاً أما الأفعال فلا: فهي تحوز على حياة عصية على التدمير سواء أكان ذلك داخل وعينا أم خارجه. وقد كانت تلك الحيوية المرعبة التي تسم الأفعال تضغط بشدة على تيتو لأول مرة.

كان عائداً إلى مسكنه في ساحة سان جيوفاني، لكنه تفادى المرور عبر سوق فيتشيو – وكان أقصر الطرق بالنسبة إليه – لئلا يلتقي بتيسا. لم يكن يتوفر على المزاج للبحث عن أي شيء. ما كان بإمكانه سوى أن ينتظرصدور الإشارة الأولى عن قسمته المتغيرة.

كانت الساحة بما تحويه من مناظر جميلة مضاءة بذلك النور الصباحي الدافئ الذي يجعل ندى فصل الخريف يتلكأ بالانسحاب، والذي يدعو المرء لعطالة لا يأتي الإرهاق على رونقها. كان صباحاً احتفالياً، أيضاً، حين يدبّ الدفء الرخي دبيباً في الأحاسيس ويدعو الناس دعوة خاصة للاسترخاء والتأمّل. كانت أمارات المعرض حاضرة أيضاً في هذا المكان. في الساحات حول قسم المعمودية المثمّن كانت الأكشاك تتوزع، أكشاك الفاكهة والأزاهير، وكانت البغال المحمّلة تقف في غير مكان هادئة منشغلة بالأكياس حول أنوفها، بينما ولج سائسوها الأبواب المقدسة المرحّبة، على الأرجح، ليركعوا أمام العذراء المباركة في هذا الصباح من عيد ميلادها. وعلى درجات الكنيسة الرخامية العريضة توزّعت مجموعات متفرقة من الشحاذين والثرثارين: فهي ذي عجوز شمطاء ذات شعر أشيب ووجه صارم القسمات لوّحته الشمس تحث طفلاً يعتمر قبعة مستديرة على تجريب قدميه الصغيرتين الحافيتين على الرخام الدافئ، بينما يقعي، غير بعيد عن المكان، كلب يتشمم بارتياب عند رؤيته هذا الفعل . وهناك ترى زوجاً من الأولاد شعث الشعور ينحنيان ليراقبا كسيحاً شاحباً ضئيل البنية ينقش وجهاً على حجر بلون أحمر فاتح . وفوقهما على المنصة الفسيحة رجال

يتجمّعون في شلل متغيّرة وانطلقوا يدردشون دردشة ضاحكة متقطعة، أو خلاف ذلك يقفون في أزواج متقاربة يؤشرون بأيديهم راغبين مستمتعين.

لكن المجموعة الأكبر والأكثر أهمية من المتسكعين كانت تلك التي اضطر تيتو أن يوجه خطواته نحوها. كانت هذه الفترة من النهار الأكثر ازدحاماً بالعمل بالنسبة لنيلو، وفي هذا الفصل الدافئ، في ساعة يكثر فيها الزبائن، آثر معظم الرجال الحلاقة تحت الظلّة الجميلة الحمراء والبيضاء أمام الصالون عوضاً عن الحلاقةً داخل جدران محصورة. على أن هذه الوضعية لا تشكل وضعية محترمة لأي كان، أي أن يجلس وذقنه مرتدة للوراء تعلوها الرغوة، ويستعمل أنفه كقبضة تمسكها يد الحلاق. لكن حلاقة الذقن كانت عرفاً يدل على المحترمية الفلورانسية، وإنه لمما يدعو للدهشة تلك الجدية التي ينظر بها الرجال إلى بعضهم عندما يراعون جميعاً هذا العرف. كانت هذه الساعة من اليوم هي، أيضاً، الساعة التي يكون فيها محصول البارحة من الثرثرة هو الأكثر طزاجة، ويكون لسان الحلاق طوال الوقت في عزّه عندما تكون موساه منهمكة بالحلاقة.وقد بدا أن الفاعلية الرشيقة لتلك الأداتين قد انطلقت بفعل نابض مشترك. عرف تيتو مسبقاً أن من المستحيل تفادي دعوته للانضمام إلى الشلّة. يجب أن يبتسم ويرد، ويبدو على راحته تماماً. حسن! لم تكن في نهاية المطاف سوى محنة ابتلاع الخبز وحبات الجبن. والشخص الذي يسمح لمجرد توقع الاكتشاف أن يحبطه هو ببساطة شخص واهن الأعصاب.

بيد أن تيتو شعر في تلك اللحظة بالذات أن يداً حطت على كتفه، وإن أي قدر من حزم سابق لم يكن ليحول دون الإحساس المزعج جداً الذي نجم عن تلك اللمسة المباغتة. وعندما التفت وشى وجهه بالصدمة الداخلية. لكن صاحب اليد التي بدت أنها تنطوي على ذلك السحر الشرير شرع يضحك ضحكة خفيفة. كان شاباً يماثل تيتو في العمر، حاد الملامح، ورأسه صغير مقصوص الشعر إلى درجة النعومة، وشفة وذقن حليقين تماماً، مما يوحي بذهنية تخففت قدر المستطاع من الأشياء التي تثير الأعصاب. وكانت العينان الثاقبتان تشعان بالأمل والصداقة كما حال الكثير من الأعين الأخرى الشابة التي أغمضت لاحقاً على العالم في مرارة وخيبة أمل. ذلك أنه في تلك الآونة ما كنت تسمع سوى التنبؤات البهيجة عن نيقولو مكيافيلي، باعتباره شاباً واعداً، كان يتوخى منه إصلاح الحظوظ العاثرة لعائلته العريقة.

" ياه، ميليما، أي حلم منذر بالسوء تراءى لك الليلة الفائتة حتى تحسب إمساكتي الخفيفة قبضة sbirro (1) (شرطي) أو ما هو أسوأ منها؟ "

قال تيتو، وهو يسترد وعيه في الحال: " آه، يا سيد نيقولو! لا بد أن فرط التبلد في عروقي هذا الصباح ما تملّكته الرعشة عند اقتراب نباهتك. لكن الحقيقة هي أنني قضّيت ليلة مهولة ".

" هذا من سوء الحظ لأن المتوقع أن تشعّ دون عائق من ضباب في هذا اليوم في جنائن روسيلي، فأنا أعتبر وجودك هناك أمراً

مفروغاً منه ".

قال تيتو: " لقد شرّفني السيد برناردو بدعوته لي، لكنني سأكون مشغولاً في مكان آخر ".

قال مكيافيلي، رافعاً كتفيه: " آه! ذكرت، إنك على علاقة حب، وإلا لما كانت لك مثل هذه المواعيد المزعجة. ياه، سنتناول طاووساً وبلبل الأرطلان تحت الشرفة وسط أشجار برناردو روسيلي النادرة. وسيكون هناك أفخر المشروبات الروحية في فلورانسة وأفخر الخمور. إنما، وبسبب حضور بييرو دي ميديتشي فقد تطغى على المشروبات الفاخرة سدادة الأشعار المرتجلة. أنا أكره تلك اللعبة. إنها وسيلة انتصار البصائر الصغيرة التي لا يجيئها الوحي دائماً إلا في أتفه المناسبات ".

قال نيلو الذي كانت قامته الصغيرة في تلك اللحظة تطغى على البنية الهرقلية لنيقولو كابارا: " ما هذا الذي تقوله بشأن بييرو دي ميديتشي والبصائر الصغيرة، يا سيد نيقولو؟ "

ذلك العامل المشهور المقيّد بالأصفاد ذاك الذي التقيناه مؤخراً في سوق فيتشيو وذراعاه المفتولتان عاريتان ويرتدي مئزراً جلدياً، كان يرتدي هذا الصباح بدلة الإجازة. وبينما كان يجلس مستسلماً آن كان نيلو يتقافز حوله، يغمر ذقنه بالرغوة، ويمسك بأنفه، ويكشط ذقنه بسرعة سحرية، كان شديد الشبه بالأسد لو كان الأسد يرتدي ملابس كتانية وسترة طويلة، ويتأهب للاختلاط بالمجتمع.

تابع نيلو: " لن تقوم لسكرتير خاص قائمة في العالم إن كان

يقرن الكبير والصغير على ذلك النحو. عندما لا يسمح لكبار الرجال بتزويج أبنائهم وبناتهم كما يرغبون، فعلى صغار الرجال ألا يتوقعوا تزويج كلماتهم كما يحلو لهم. هل سمعت ما تطالعنا به الأخبار هنا، يا دومينيكو سينيني؟ – أن باغولانتونيو سوديريني قد سدد للسير بييرو دي بيبينا "بوكساً" على أذنه لأنه جعل بييرو دي ميديتشي يتدخل في زواج الشاب توماسو سوديريني وفياميتا ستروتزي، وسيرسل سفيراً إلىالبندقية كعقوبة
له؟"

قال مكيافيلي: " لست أدري من الذي أحسده أكثر من غيره، الإساءة أو العقوبة. فالإساءة ستجعله أكثر الناس شعبية في كل أنحاء فلورانسة، والعقوبة ستضعه بين الناس الوحيدين في إيطاليا الذين عرفوا كيف يتدبرون أمورهم الخاصة ".

" أجل لو أن سوديريني يمكث وقتاً كافياً في البندقية فسيتفق أن يتعلم الزيّ البندقي ويأخذه معه إلى موطنه . فآل سوديريني كانوا أصدقاء حميمين لآل ميديتشي، لكن الذي حدث من الممكن أن يفتح عيني باغولانتينيو للجيد في حيلتنا الفلورانسية، حيلة اختيار عدة جديدة حين تزعجنا القديمة منها. لو أننا فقط لم نفقد الحيلة في خمسين السنة الأخيرة هذه ".

قال نيقولو كابارا الذي كان يبتهج باستخدامه الحر لشفتيه

ثانية: " ليس نحن. كُلِ البيض بالصوم الكبير والثلج بيدوب كتير[*].
هذا ما أقوله لأصحابنا عندما يصخبون وقت الشرب في سان غالو، ويتحدثون عن إثارة romor (انتفاضة): أقول، إياكم أن تخططوا لانتفاضة. أحرى بكم أن تحاولوا ملء نهر آرنو بالدلاء. عندما يتوافر ماء كاف سيمتلئ آرنو وهذا لن يحدث حتى يكون السيل حاضراً ".

قال نيلو: " كابارا، هذا الخطاب من لدنك يعود لحلاقتي الممتازة. ما كان يمكن أن تجود به وذاك الصدأ الأسود يعلو ذقنك. إكو، سيد دومينيكو، أنا جاهز لك الآن. بالمناسبة، يا عبقريَّ الجميل "، تابع نيلو عندما شاهد تيتو يتجه صوب الباب، " كان ماسو العجوز هنا يبحث عنك، لكن عشك كان خاوياً. سيعود عما قريب. بدا العجوز حزيناً، وعلى عجلة من أمره. آمل ألا يكون حدث خطب ما في فيا دي باردي ".

قال كروناكا الذي ظهر لتوه: " دون شك السيد تيتو يعلم أن ابن باردو قد توفي ".

انتفض قلب تيتو – هل حدثت الوفاة قبل أن تقابله رومولا؟

قال بارتباك لم يزد عما أوحت به المناسبة، وهو يستدير ويتكئ على عارضة الباب، كما لو أنه كان تخلى عن نية الانصراف:" لا، لم أسمع. علمت أن أخته كان ذهبت لمقابلته. هل توفي قبل وصولها؟ "

" لا "، قال كروناكا، " كنت في سان ماركو آنئذ وشاهدتها تخرج

(*) ترجمت العبارة بالعامية لنقل السجع كما ورد في الأصل (م)

من البناء الملحق بالدير مع الأخ جيرولامو الذي أخبرنا أن تنفس الرجل المحتضر لم يتوقف كما لو بفعل أعجوبة، حتى يتسنى له أن يفشي سراً لأخته ".

شعر تيتو أن مصيره قد تقرر. مرة أخرى طوّفت ذاكرته على كل تفاصيل مغادرته فلورانسة، وتصور خطة لاسترداد ماله من سينيني قبل أن يذيع خبر السر. لو كان حصل على ماله حالاً لما كانت هناك حاجة لبقائه طويلاً يحتمل النظرات اللاسعة والكلمات الواخزة. سينتظر الآن، ويذهب مع سينيني ويأخذ المال منه حالاً. لبث ساكناً لا يفارق هذا المشروع تفكيره– يداه في حزامه، وعيناه تحدقان في الأرض في شرود ذهن. شعر نيلو عندما استرقّ النظر إليه أن القلق على رومولا كان يكتنفه، وكان يراه صورة جميلة للحزن المنكر للذات، حتى إنه صوّب موساه إليه بشكل ظاهر، ونظر نظرة تحدٍّ إلى بييرو دي كوسيمو الذي لم يسامحه قط لرفضه رؤية أي تكهن ينم عن الشخصية في الوجه الوسيم للشخص المفضّل لديه. أما بييرو الذي كان يتكئ على رافدة الباب الأخرى، قريباً من تيتو، فقد رفع كتفيه: فالتكرر لمثل هذه التحديات من لدن نيلو قد بدّل أول تصريح للرسام بالحياد إلى ميل فاعل نحو سوء الظن بالإغريقي الذي كيل له الكثير من المديح.

قال نيلو: " إذن لقد عاد لك أخوك جيرولامو مرة ثانية، يا كروناكا؟ أعتقد أننا سنحظى بوعظه عن هذا المجيء الثاني للمسيح ".

" وليس قبل أن تدعو الحاجة. لقد توافر لدينا أفضل شهادة على كلماته منذ الكواريسيما الأخيرة. ذلك أنه حتى بالنسبة للأشرار فإن

الشر قد أصبح وباء. ونضوج الرذيلة يتحول إلى عفن في الخياشيم حتى مع أصحاب الشر والأذى. لم يحدث تغيير قط منذ الكواريسيما، سواء في روما أو في فلورانسة، إلا ووضع ختماً جديداً على كلمات الأخ – أن محصول الخطيئة قد نضج، وأن الله سيحصده بسيف ".

قال فرانشيسكو سي متهكماً:" آمل، مع ذلك، أن يكون قد رأى رؤيا جديدة. الرؤى السابقة أصبحت نوعاً ما بائتة.أليس باستطاعة راهبك إيجاد شاعر كي يساعده في استخراجه خيالاته؟"

قال كروناكا باحتقار هادئ: " ليس عنده عوز في الشعراء، لكنهم شعراء عظام وليسوا مغمورين. ولذلك يسرهم أن يتعلموا على يديه، ولا يعودوا يظنون أن الحقيقة التي وهبه إياها الله كي ينطق بها بائتة، أكثر مما يظنون أن ضوء القمر بائت.لكن لعلّ بعض الأساقفة والأمراء الرفيعين الذين يشجبون اتهامات الأخ يسرون لسماع ذلك، رغم أن جيوفاني بيكو وبوليتزيانو، ومارسيليو فيسينو، ومعظم الناس الآخرين المشهورين في فلورانسة يحترمون الأخ جيرولامو، والسيد فرانشيسكو سي يحتقره ".

قال سي بضحكة ازدراء:" بوليتزيانو؟ أجل، دون ريب هو يؤمن بيونانك (يونس) الجديد". لاحظ الخطب الممتازة التي كتبها لرسل سيينا ليقولوا للإسكندرالسادس إن العالم والكنيسة لم يكونا قط على هذا اليسار منذ أن أصبح بابا ".

قال مكيافيللي مبتسماً:" لا، يا فرانشيسكو، الأديب المتعدد يجب أن يكون لديه آراء متعددة. أما بالنسبة للأخ، فمهما يكن رأينا

بقدسيته فإنك تحكم على عظاته بضيق نظر مفرط. إن سر الخطبة لا يكمن في قول أشياء جديدة، بل في قول أشياء بنوع من القوة القادرة على تحريك المستمعين – والتي بدونها، كما قال فيليلفو القديم يستحق محدّثك أن يقال عنه " non oratorem,sed aratorem"(2). ووفقاً لذلك الاختبار يكون الأخ جيرولامو خطيباً مفوهاً ".

قال سينيني متكلماً من كرسي الحلاقة:" هذا صحيح، يا نيقولو، لكن جزءاً من السر يكمن في الرؤى النبوية. شعبنا – بدون أية إساءة إليك، يا كروناكا – سيجري وراء أي شيء له إهاب النبي، ولاسيما إذا تنبأ بالأمور المرعبة والمحن ".

أجاب كروناكا: " أحرى بك أن تقول، يا سينيني، إن السر الرئيس يكمن في حياة الأخ النقية وإيمانه القوي، والذي يسمه بأنه رسول الله ".

قال سينيني فاتحاً راحتيه آن كان ينهض من الكرسي:" أقر بذلك – أقر بذلك. حياته ليس فيها ما يشين: لم يشكك فيها أي إنسان ".

قال سي فجأة بمرارة: " إنه قانع باستطابة شهوة العجرفة. يمكنني أن أتبين ذلك في تلك الشفة المتكبرة وعينه الراضية. هو يسمع الجو يعبق باسمه الخاص – الأخ جيرولامو سافونا رولا،من فيرارا. النبي، القديس، الواعظ الكبير، الذي يدب الهلع في نفوس أطفال فلورانسة ذاتهم جرّاء الإطاحة بدماهم (ج. دمية) اللعينة "

قال نيلو المائل للمصالحة: " هيا، هيا، يافرانشيسكو لقد بلغ

بك الاستياء حداً جرّاء الانتظار. دعني أغلق فمك بقليل من الرغوة. يجدر ألا أدع صديقي كروناكا يغضب: أنا أحترم ذقنه، وذقنه ليس يعرف التبديل بأي شكل منذ أن أصبح بيانونياً. ومن جانبي، أعترف، عندما كان الأخ يعظ في الكنيسة في عيد المجيء الفائت فقد خُدعت بخدعة الاندساس بين المستمعين لأصغي إليه علني أتحول وأصبح بيانونياً أيضاً، لو لم تعقني الطبيعة الليبرالية لفني. وكذلك من طول المواعظ التي تستغرق أحياناً وقتاً طويلاً قبل أن تصل إلى النقطة الحاسمة. لكن، كما يقول السيد نيقولو الموجود معنا يستولي الأخ على مشاعر الناس عن طريق قوة هي فوق رؤاه النبوية. الرهبان والراهبات الذين يتنبؤون ليسوا على تلك الندرة. إذ ما الذي يقوله لويجي بولتشي؟ " سيف دومبرونو البتّار (3) جاءت شهرته لكونه مسحوراً. لكن " يقول لويجي " أميل إلى الرأي القائل بأنه كان بتّاراً، لكنه صنع من فولاذ مقسى جيداً " أجل، أجل. الصلوات المكرورة تحلِق جيداً لكنها يجب أن تتلى فوق موسى جيدة ".

قال مكيافيللي: " انظر، يا نيلو أي دكتور ذاك القادم على حصانه Bucephalus (4) ؟ كنت أحسب أن ساحتك خالية من أولئك الخدم المتدثرين بالفرو والأردية القرمزية، خدم الموت. هذا الرجل يبدو كما لو أنه توفر على تلك المغامرة الليلية شأنه شأن ماسترو سيمون لبوكاتشيو (5)

، وأوصى على تخليل (من مخلل) قبعته وردائه قليلاً في البالوعة، رغم أنه هو نفسه نحيل وضامر مثل فأر الطحان ".

" آ– آه! " قال نيلو بتنغيم طويل منخفض النبرة عندما رفع بصره نحو الشخص القادم – وكان شخصاً مستدير الرأس، مستدير الجسم، يمتطي حصاناً صغير السن قليل التجربة كان يرفع أنفه بشكل ينم عن عناد منذر، وبجهد متواصل على الارتداد والتقدم بخط مائل مما أظهر آراء حرة عن السلطة تسبق العصر كثيراً.

تابع نيلو، بصوت منخفض النبرة: " وأنا لدي بضع مغامرات أخرى معدة له، والتي آمل أن تحّول خياشيمه الفضولية إلى ناحية أخرى من المدينة. إنه دكتور من بادوا. يقولون إنه ذهب إلى براتو لثلاثة شهور، والآن جاء إلى فلورانسة ليرى ماذا بإمكانه أن يربح. لكن مكره الكبير يكمن في القيام بجولات بين الفلاحين. وهل أنت منتبه لتلك الخروج (ج. خرج الدابة) التي يحملها معه؟ هي لاستيعاب الديك المسمنة والبيض والذرة التي يقوم بجبايتها من البهاليل الحمقى الذين يندر لديهم المال. وهو يبيع أدويته السرية الخاصة ولذلك فهو يقف بعيداً عن أبواب العقارين. وطيلة الأسبوع الأخير هذا تعوّد أن يجلس في ساحتي لساعتين أو ثلاث كل يوم، جاعلاً منها ملاذاً لمعالجة الربو والأطفال الباكين. إنه لمما يثير حفيظتي رؤية المشعوذ ذي وجه الضفدع يعدّ الأرباع الملطخة بالدسم، أو يضع في كيسه حمامة مقابل حبوبه وذروره. لكنني سأضع بضع شوكات في سرجه، وإلا لست بالفلورانسي. لاوداموس! (6) إنه آت ليحلق ذقنه. هذا ما كنت أنتظره. سيد دومينيكو لا تذهب: انتظر، سترى قليلاً من الألاعيب النادرة، التي اخترعتها منذ يومين. هنا، يا ساندرو!"

همس نيلو في أذن ساندرو، الذي دحرج كرتي عينيه المهيبتين، وأومأ برأسه، وولى الأدبار بسرعة مدهشة، وهو يتقفّى إشارات الفهم هذه بابتسامة بطيئة .

قال نيلو، بينما كان الدكتور يحضر،جاهداً، رأس حصانه صوب صالون الحلاقة: " كيف هي الأحوال معك، يا سيد تاكو؟ حصانك هذا فتي ممتاز لكن مكشوط اللحم في الفم، إه؟ "

" إنه حيوان لعين، ليته يبلى ب vermocane(7)! " قال سيد تاكو، بنوبة حنق وهو يترجل من سرجه ويربط اللجام العتيق، المرفوء بخيط، إلى حلقة حديدية في الجدار. وأضاف وهو يستعيد وعيه:" ومع ذلك فهو حيوان سليم وقيّم لمن يريد شراءه ويجني ربحاً عن طريق تدريبه. لقد اشتريته بسعر رخيص".

قال نيلو: " إن الركوب لشاق جداً بالنسبة لمن هو في وزن علمك: إه، يا سيد؟ " وأردف:

" تبدو ساخناً ".

" حقاً، من المحتمل أن أصير ساخناً "، قال الدكتور وهو ينزع قبعته، كاشفاً رأساً وطيئاً أصلع ووجهاً واسعاً مسطحاً، عليه أذنان سامقتان، وفماً واسعاً دون شفتين، وعينين مستديرتين وخطوطاً عميقة مقوسة فوق الحاجبين البارزين، والتي جعلت كلها لقب نيلو " ذو الوجه الضفدعي " مديحاً غامضاً للضفدعي الخالي من العيب batrarchian(8). " المجيء ركوباً من بيريتولا، عندما تكون الشمس في كبد السماء ليس مثل الرفس بكعبيك على مقعد في الظل، مثل

دكاترتك الفلورانسيين. زد على أنه ليس لدي أدنى دافع لإدخال العربات والبغال إلى داخل السوق، للعثور على زوج واحدة تدعى مونا بريجيدا التي تعرضت لنوبة خطرة قبل أن يستدعوني. ولو لم يكن ذلك لكنت طلبت أجرتي – "

" مونا غيتا! "، قال نيلو عندما قاطع الدكتور المتصبب عرقاً نفسه ليفرك رأسه ووجهه. " الرحمة على روحها الغضبى! والسوق سيكون بحاجة إلى سوط أكثر من أي وقت مضى إذا ما خلد لسانها إلى الراحة ".

شعر تيتو، الذي استيقظ من شروده، وكان يصغي إلى المحاورة، بدفقة جديدة من الأفكار الغامضة نصف المتشكلة التي عبرت خياله المساء الفائت بشأن تيسا: إذا أبعدت مونا غيتا حقاً عن الطريق فسيكون أسهل بالنسبة إليه أن يقابل تيسا مرة أخرى – متى ما أراد أن يراها.

تابع نيلو بلهجة متعاطفة: " Gnaffè، يا سيد. إنك عبد لقوم غلاظ . من، سواك، على استعداد لأن يموت مثل الحيوانات دون مساعدة من حبة دواء أو بودرة. إنه لأمر محزن رؤية سائلك الليمفاوي المثقف ينز من ثقوبك كما لو كان مجرد رطوبة فظة. أتحسب أن حلاقتي لذقنك ستبردك

وتقيل عثرتك؟ لحظة وأفرغ من سيد فرانشيسكو هنا. يبدو لي أن هناك ألف عام ستنصرم إلى أن يتسنى لي خدمة شخص يحمل كل علوم العربية في رأسه وخروجه (ج. خرج الدابة). إكو! "

رفع نيلو منشفة الحلاقة في شكل دعوة، وتقدم السيد تاكو وجلس وهو منشغل بحرارته واعتباره لذاته، مما جعله أصمّ تجاه التهكم الذي تضمنه كلام نيلو المهذب بشكل متكلّف.

قال نيلو وهو يسوي وضع المنشفة: " إنه لمن الملائم أن طبيباً كبيراً مثلك يحلق ذقنه بنفس الموسى التي حلق بها اللامع أنطونيو بينفيني (9) كبير أساتذة فن الجراحة ".

قاطعه الدكتور وعلى وجهه سيماء القرف المزدري قائلاً: " فن الجراحة! هل هي طريقتك الفلورانسية أن تضع أساتذة علم الطب في مستوى أناس يمارسون النجارة على أعضاء مكسورة، ويخيطون الجروح مثل الخياطين، ويزيلون الناميات مثلما يقصقص اللحام اللحم؟ Via!فن يدوي، مثل ذاك الذي قد يتعلمه أي صانع، والذي مارسه حلاقون بسيطون مثلك – على مستوى العلم النبيل لأبي قراط، وجالين، وابن سينا(10)، الذي ينفذ إلى المؤثرات الخفية للنجوم والنباتات والجواهر!– علم محجوب عن غلاظ الناس!"

قال نيلو مستعملاً رغوته بتأنٍ شديد، كما لو أنه كان يود أن يطيل العملية إلى أقصى حد ممكن :

" لا، حقاً، يا سيد، لم يخطر لي أن أضعهم على سوية: أعلم أن علمك يأتي تالياً لأعاجيب الكنيسة المقدسة من حيث الغموض. لكن، كما ترى، هنا مكمن الحزن في ذلك "– هنا تغيرت لهجة نيلو إلى لهجة التعاطف المؤسي وتابع – " علمك الرفيع محجوب عن الوثنيين وغلاظ الناس، ولذلك فأنت أصبحت محط حسد وتشنيع. آسف لأن

أقـول ذلـك، لكـن هنـاك أناسـاً منحطـين فـي هـذه المدينـة – مجـرد sgherri، ممـن يطوفـون بقبعـاتهم الليليـة ولحـاهم الطويلـة ويعتبرونـها شأنهم أن يرشوا الحقد والضغينة في مرق كل إنسان نجمه في صعود. دعني أقل لك – إذ إنك غريب – هذه مدينة كل إنسان فيها بحاجة لأن يحمل مسماراً كبيراً جاهزاً لتثبيته على عجلة الحظ عندما تكون الأيام بجانبه. لقد سبق وانتشرت قصص – مجرد خرافات دون شك – حولـك، مـا يجعلنـي أتـوق لسمـاع أنـك مـاض فـي طريقك بنجـاح إلـى Arezzo. لست مستعداً لأرى شخصاً من معدنك يرجم بالحجارة، إذ رغم أن سان ستيفانو رجم بالحجارة إلا أنه لم يكن مشهوراً في الطب مثل سان كوسمو وسان داميانو..."(11)

قـال سـيد تـاكو متلعثمـاً: " أيـة قصـص؟ أيـة خرافـات؟ مـاذا تقصد؟"

"Lasso!(12) أخشى أن تكون وقعت في الفخ لأجل جبنتك، يا سـيد. الحقيقـة هـي أن هنـاك مجموعـة مـن الشـباب الأشـرار الـذين يجوسون حول منازل مواطنينا وهم يحملون أدوات حادة في جيوبهم – ليس هناك من باب، أو نافذة، أو مصراع نافذة إلا وينفذون منه. هم مسكونون بصبر شيطاني لمراقبة أفعال الناس الذين يرون أنفسهم خصوصيين. لابد أنهم هم الذين فعلوا ذلك – لا بد أنهم هم الذين أشاعوا القصص عنك وعن أدويتك. هل اكتشفت بالمصادفة أية فتحة صغيرة في بابك، أو مصراع نافذتك؟ لا؟ حسن، أنصحك بأن تتأكد. ذلك أن الناس يتحدثون أنك شوهدت في منزلك في كانتو دي باغليا،

تعد أدويتك السرية ليلاً: تطحن ضفادع جافة في هاون، وتركّب مرهماً من دود مهروس، وتركب حبوبك من الأكباد المجففة لفئران تمزجها مع البصاق المنبثق أثناء التلفظ بتعويذة شاتمة – والتي يجاهر هؤلاء الشهود حقاً بترديدها ".

" هي حفنة من الأكاذيب! " صاح الدكتور محاولاً أن يجد النطق، ومن ثمّ متوقفاً للذعر المتأتي عن الموسى المقترب.

" ليس لي، أو لأي من هذه المجموعة المحترمة، من يجب أن تقول له ذلك، يا دكتور. نحن (تشديد عليها) لسنا الرؤوس التي يُغرس فيها مثل هذا الجَزَر. لكن وماذا يهم؟ ماذا تساوي حفنة من عقلاء الناس ضد جمهور في أيديهم حجارة؟ هناك بيننا من يظنون أن سيكو داسكولي (13) كان حكيماً بريئاً – ونحن جميعاً نعلم كيف أحرق حياً لكونه أعقل من زملائه. آه، يا دكتور، ليس بفعل العيش في بادوا يمكنك أن تتعلم معرفة الفلورانسيين. ظني هو أنهم مستعدون لرجم الأب المقدس نفسه، لو استطاعوا أن يجدوا المبرر لذلك. وقد اقتنعوا أنك مستحضر أرواح يحاول أن يثير الوباء ببيعه الأدوية السرية – وأنا قيل لي إن أدويتك الفعالة لها في الحقيقة رائحة منذرة بالسوء ".

انفجر الدكتور قائلاً عندما أبعد نيلو موساه عنه: " كذب! كذب! سأري الحبوب والبودرة لهؤلاء السادة المحترمين – والمرهم – له رائحة زكية – رائحة – مرهم ". بدأ والرغوة على ذقنه، والمنشفة حول عنقه، يبحث في خرجه عن الأدوية موضع التكذيب، وفي لحظة قام نيلو، وبشكل بارع، بتحويل كرسي الحلاقة حتى أصبحت لصق رأس

الحصان، بينما وقف ساندرو، الذي كان عاد الآن بإشارة من سيده، بالقرب من اللجام.

قال الدكتور، وهو يحضر علبة صغيرة من الأدوية ويفتحها أمامهم: " انظروا، يا سادة! فليقرّب أي سينيور هذه العلبة من خيشوميه ولسوف يجد أن للأدوية رائحة زكية – ليست حقاً من الجواهر المطحونة، أو الخضر النادرة من الشرق، أو الأحجار التي وجدت في أجسام الطيور، ذلك أنني أمارس مهنتي على أمراض السوقة والذين وفّرت السماء لهم علاجات أرخص ثمناً وأقل مفعولية وفقاً لطبقتهم: حتى إن هناك علاجات معروفة لعلمنا عديمة الكلفة نهائياً – كما أن ال tussis(14) الجديد يمكن أن يبطل مفعوله لدى الفقراء الذين لا يمكن أن يدفعوا ثمن الأدوية الناجعة، عن طريق الامتناع الحازم عن التنفس. وإليكم مرهماً له رائحة زكية وهو ناجع ضد الميلانخوليا، لأنه معدٌّ عند اقتران المشتري مع الزهرة، ولقد تبيّن لي أنه يخفف التشنج والمغص ".

" لحظة، يا سيد "، قال نيلو بينما كان يدار وجه الدكتور المطلي بالرغوة صوب المجموعة بقرب الباب، وهو يمسك علبته بشغف ويخرج العلاجات الفعالة واحداً بعد الآخر. " هي ذي فلاحة مع طفلتها. دون ريب هي تبحث عنك. لعلها فرصة لك كي تري هذه المجموعة الموقرة برهاناً على مهارتك. هنا، أيتها السيدة الطيبة! هوذا الطبيب المشهور. ما الأمر، ما خطب هذا bombo (15) (الطفل الجميل)؟ "

توجِّه بهذا السؤال إلى امرأة قوية البنية عريضة المنكبين تلف حول وجهها غطاء رأسها بحيث لم يتبقَّ للرؤية من وجهها إلا أنف برونزي وزوج من العيون والحواجب السود . حملت طفلها ملفوفاً في صندوق صلب له شكل المومياء كان الأطفال الطليان يأتون إلى مجتمعهم فيه منذ زمن سحيق، وقد حوّلت وجهه قليلاً نحو صدرها، وعلت سحنتها أمارات التجهم المؤسية تلك التي تعودت النساء على استخدامها كنوع من البكرات لاستدرار دموع تأبى الانهمار.

قالت المرأة بصوت معول: " أوه، محبةً بالسيدة العذراء! هلا فحصت طفلي المسكين ؟ أعلم أنني لا أستطيع أن أدفع لك أتعابك لكنني أخذته إلى مقر البابوية الليلة الماضية، وقد ساء لونه عما قبل بفعل التشنجات. لكن عندما كنت أرفعه أمام سانتيسيما نانزياتا تذكرت أنهم قالوا إن هناك طبيباً جديداً كان يشفي من كل العلل. ولذلك فكّرت بأنها إرادة السيدة العذراء أن أحضره إليك ".

قال نيلو :" اجلسي، يا سيدة، اجلسي. هي فرصة لك. يوجد هنا شهود أخيار سيعلنون أمام لجنة الثمانية المبجلين أنهم شاهدوك تمارس مهنتك بنزاهة وتخفف الآلام عن طفل امرأة مسكينة. ومن ثمّ إذا كانت حياتك في خطر ستضعك لجنة الثمانية المبجلين في السجن لفترة قصيرة كيما يؤمّنوا سلامتك، وبعد ذلك، سيقودك سفيرهم إلى خارج فلورانسة ليلاً كما فعلوا مع الأخ المتحمس مينور الذي كرز ضد اليهود. ياه! شعبنا متعود على الرجم. لكن لدينا قضاة عدل ".

جلس الطبيب الذي لم يقو على الرفض في كرسي الحلاقة

وهو يرتجف، من الخوف ومن الحنق معاً، وفي هذا الوقت لم يشعر بالرغوة التي وضعها نيلو على ذقنه بغزارة كبيرة. وضع علبة دوائه على ركبتيه وأخرج نظارتين ثمينتين (وسيلة فلورانسية رائعة!)16 من محفظته، وقربهما بعناية من أنفه المفلطح وأذنيه المنتصبتين، ورفع حاجبيه والتفت صوب المرأة المستنجدة به.

" أو يا سانتيديو! انظر إليه "، قالت المرأة بعويل يدعو للرثاء أكثر مما سبق، بينما كانت ترفع المومياء الصغيرة التي أخفي رأسها كلية بقماشة متسخة لفت حول رأس السرير المحمول، لكنه بدا يناضل ويبكي بطريقة جهنمية تحت قيد هذا السجن. " النوبة تتملكه! ohimè! أنا أعرف أي لون هو، إنها العين الشريرة – أوه! "

انحنى الدكتور، الذي كان يجمع ركبتيه إلى بعضهما ليسند صندوقه، وقد اعتراه القلق، مقرّباً نظارتيه من الطفل وقال بحذر:" قد يكون هذا مرضاً جديداً، فكي هذه القماطات، يا مونا!"

قامت المرأة الريفية، بهمة أتتها بغتة، بفك القماطات التي لفت الطفل، وعندما تحرّر منها أخذ يناضل– خامشاً،مكشّراً، زاعقاً – ما حدا بالطبيب في غمرة هلعه إلى الجزم بأن عفريتاً تملّكه، لكن ما تعرّف عليه تيتو أنه قرد فايانو وقد ازداد هولاً بفعل سواد اصطناعي كما لو أنه خرج من أعلى مدخنة بعد احتكاك سريع بها .

شرع الطبيب المنكود الحظ في عمله مذعوراً مما سبب سقوط علبة دوائه، وتسبب في قفز القرد الذي لم يكن أقل ذعراً وسخطاً ليجد أول مستقر لمخالبه على شعر عنق الفرس، والذي استعمله كنوع من

سلّم حبال، إلى أن تحقق له أخيراً توازنه، عندها استمرّ في الإمساك به كما اللجام. أما الحصان فلم يكن بحاجة إلى مهماز تحت هكذا فارس، ومع انعدام المقاومة من اللجام المرتخي من قبل، انطلق يعدو عبر الساحة، والقرد ممسك بناصيته وهو يكشّر وينظر دَهِشاً مذعوراً .

" Il cavallo! Il Diavolo! (17) تعالت من كل حدب وصوب من الأوغاد المتسكعين الذين تجمعوا من كل ناحية من الساحة، ورجّع صداها صيحات ذعر من بائعي الأكشاك الذين أحاق بمصالحهم الراسخة بعض الخطر، في الوقت الذي ولّى الطبيب، الذي فقد عقله من جرّاء ذعر خالطه الارتباك بسبب هذا الشيطان، والرجم المحتمل، وفرار حصانه، الأدبار والنظارتان على أنفه، والرغوة على وجهه، والمنشفة حول عنقه، وهو يصرخ – " أوقفوه! أوقفوه! لأجل البودرة – فلورين(عملة إيطالية–م) –فلورين، أوقفوه مقابل فلورين! " بينما قام الأولاد الذين سبقوه في العدو بالتصفيق والصياح حثاً وتشجيعاً للحصان الهارب.

أما السيريتانو، الذي لم يراهن على هروب قرده مع الحصان فقد التقط تنورته بكثير من الخفة وأظهر زوجاً من الجوارب الملونة جزئياً فوق حذاء فلاّحته سابقاً الطبيب بمسافة بعيدة. وانطلق السباق الغريب العجيب ناحية كورسو ديغلي أديماري – الحصان مع الفارس الوحيد، الفلاحة مع الجورب المميز، والدكتور بالرغوة والنظارات، يتطاير من حوله رداؤه الفروي.

لقد كان مشهداً أحبه الفلورانسيون بدءاً من السنيور المقتدر المبجّل الذاهب إلى المجلس في ردائه الحريري حتى الحَدَث المكشر الذي شعر بأنه سيد كل المواقف في الوقت الذي كانت جعبته مملوءة بأحجار ملس من قاع السيل الجاف الملائم. لم يكن ضحك دومينيكو سينيني الأشيب الشعر بأقل من أولاء الأصغر منه سناً، أما نيلو فقد ضمن، مزهواً بالانتصار، الإعجاب الشامل.

هتف معجباً وهو يطقطق بأصابعه عندما هدأت أولى موجات الضحك:" أها! يبدو أنني نظفت ساحتي من مصيدة الذباب الكريهة تلك . لن يكون السيد تاكو مستعداً للمجيء إلى هنا بعد الآن ليجلس منتظراً المرضى أكثر مما هو على استعداد لأن يلحس الرخام كعشاء له ".

" أنت ذاهب باتجاه ساحة السينوريا، يا سيد دومينيكو. سأرافقك ولعلنا نرى من استحق ال palio، (18) من المتسابقين. هيا، يا ميليما، هل تذهب معنا؟ "

كان تيتو قد نوى أن يرافق سينيني أيضاً، لكن قبل أن يقطع عدة خطوات ناداه نيلو الذي شاهد ماسو يقترب.

كان ماسو يحمل رسالة من رومولا.فقد رغبت أن يأتي تيتو إلى فيا دي باردي بأسرع ما يمكن. فهي تريد أن تقابله تحت الشرفة المسقوفة، على سطح البيت، لأنها تريد التحدث إليه على انفراد.

الفصل السابع عشر

تحت الشرفة (اللوجيا)

ارتفعت اللوجيا على سطح منزل باردو ومن كل جوانبه فوق الأبنية، وشكّلت رواقاً حول جدران رباعية الزوايا. وعلى الجانب المطل على الشارع كان السطح مسنوداً بأعمدة. لكنه استند على الجوانب الباقية بوساطة جدار تخترقه فتحات قوسية، ولذلك ففي الجهة الخلفية، حيث تطل على تجمّع من مساكن غير منتظمة سيئة البناء وباتجاه تلة بوغولي، كان بإمكان رومولا، وفي كل الأوقات، أن تتمشى بعيداً عن أعين المراقبين. وبالقرب من تلك الفتحات القوسية، قريباً من الباب الذي دَخلَ من خلاله إلى اللوجيا، كان تيتو ينتظرها ينتابه شعور مقزز بنورالشمس الذي انبسط أمامه بشكل مائل، وامتزج مع حطام آماله. لم يحدث ولو للحظة أن اتكل على عاطفة رومولا المشبوبة نحوه من حيث احتمال أن تكون قوية جداً لتخطّي النفور الناجم عن اكتشاف سره.لم يكن لديه الخيلاء المدعي الذي قد يعيقه عن الشعور بأن حبها وإيمانها لهما الجذر نفسه. لكنه تخيّلها قادمة نحوه بجمالها البهي الذي جعلته عيناها الشهلاوان الوسنانتان بشرياً جديراً بالحب، ولقد أخذ يرغب لو كانت أقل سمواً مما هي عليه، لو أنها فقط تدعه يضمها ويقبلها قبل أن يفترقا. لم يتلق منها مداعبة حقيقية – لا شيء سوى نظرة طويلة، وقبلة، وضغطة يد، بين الفينة والأخرى. وقد تاق مراراً إلى أن ينفردا ببعضهما. سيكونان وحدهما الآن. بيد أنه رآها تقف بقساوة تعدم الرحمة بعيداً عنه. انتفض قلبه بشدة عندما رأى الباب

يتحرك: كانت رومولا بشحمها ولحمها. كان كل ذلك أشبه بالتماعة برق: شعر، أكثر مما رأى، بهالة المجد حول رأسها، وبالعينين الدامعتين المحببتين. شعر، أكثر مما سمع، بنداء الحب الذي خالط نبرتها عندما قالت " تيتو!"

وفي اللحظة نفسها كانت بين ذراعيه تنشج ووجهها على وجهه.

كم اشتاقت رومولا المسكينة أثناء سهر الليالي لرؤية ذلك الوجه الصبوح! الصورة الجديدة للموت، الشك الغريب المربك الذي تسرّب إليها عن طريق قصة حياة بعيدة عن فهمها وتعاطفها، الرؤيا التي تحوم حولها، والتي بدت أنها لم تسمعها ملفوظة فحسب عندما نطق بها الصوت اللاهث الخافت، بل التي تعيش حتى آخرها، كما لو كانت حلمها هي، قد جعلتها على دراية أكثر من أي وقت مضى بأن تيتو هو أول من جلب تيار الأمل والبهجة الدافئ إلى حياتها، وأول من أبعد حد الألم المرهف الناجم عن ذكرى أخيها. ستقول لتيتو كل شيء. لم يكن هناك من تقول له غيره. كانت تحاول أن تكبح نفسها في حضرة والدها طيلة الصباح، لكن الآن، ذلك النشيج الطويل المحبوس قد

ينبجس. وإذ كانت أبيّة ورابطة الجأش تجاه كل العالم القريب منها فإن رومولا كانت بسيطة وغير

متحفظة كما الولد في حبها لتيتو. لقد كانت راضية تماماً عن الأيام التي لم يفعلا فيها شيئاً سوى تبادل النظرات. لكن الآن، عندما

شعرت بالحاجة للتشبث به، لم تكن تحتضن أية فكرة تمنعها من ذلك .

" رومولاي! إلهتي! " تمتم تيتو بوله مشبوب عندما عانقها بلطف وقبّل التموجات الذهبية الكثّة على جيدها. لقد كان في الفردوس: الفضيحة، العار، الفراق – لم تكن هناك أية خشية منها بعد الآن. هذه السعادة كانت أقوى من أن يفسدها الإحساس بأن رومولا قد خدعت في شخصه. لا، ليس له إلا أن يبتهج بانخداعها. إذ أن التستّر، بعد كل هذا وذاك، هو عين العقل. والشيء الوحيد الذي أسف له كان خوفه اللامبرر، إن لم يكن الخوف،حقاً، يستحق المكابدة كرمى لهذه الفرحة المفاجئة.

ارتوى النشيج من تلقاء ذاته، ورفعت رومولا رأسها. لم يتحدث أي منهما. لبثا ينظران كل إلى وجه الآخر بتلك الدهشة الحلوة التي تنتمي إلى الحب الفتي. هي ويداها الطويلتان البيضاوان على الخصلات البنية الفاحمة، وهو بأصابعه السمراء المستحمة بالذهب المتماوج. كل واحد منهما كان يبدو جميلاً جداً في عيني الآخر. كل منهما كان يشعر للمرة الأولى بذلك الشعور المتبادل الذي لا يعكره شيء . لقد جعل ضغط الحزن الجديد البارد على قلب رومولا، جعلها تتلكأ أكثر فأكثر في ذلك الإحساس الصامت الملطِّف، الناجم عن القرب والحب. وتيتو لم يسع حتى إلى أن يضغط على شفتيها بشفتيه، لأن ذلك سيعني تبدلاً.

قالت أخيراً: " تيتو، لقد كان الأمر برمّته مؤلماً، لكن يجب أن أطلعك على كل شيء. قوتك ستساعدني في مقاومة الانطباعات التي

لا يمكن التخلص منها بالمنطق ".

" أعرف، يا رومولا – أعرف أنه توفي "، قال تيتو، وعيناه المتألقتان منذ زمن لم تفصحا بشيء عن عديد الرغبات التي كان يمكن أن تجعل هذه الوفاة حقيقة منذ زمن بعيد لو كان في مجرد الرغبات مثل هذه القوة. لم تفعل رومولا سوى قراءة أفكارها النقية في أغوارها السود، كما نقرأ نحن الرسائل في الأحلام السعيدة.

" تغيّر جداً، يا تيتو! لقد كان التفكير بأنه دينو ضربة نافذة. وكان قاسياً على نحو غريب جداً: ولا كلمة أرسلها إلى أبي، لا شيء سوى رؤيا رغب في أن يطلعني عليها. ومع ذلك فكان يستدرّ الشفقة – التنفس العسر، والعينان اللتان بدتا تنظران باتجاه صليب الفادي، ولكن دون أن تراه. لن يبرح ذلك ذاكرتي أبداً، يبدو أنه سيشكّل حاجزاً بيني وبين كل شيء سأنظر إليه ".

امتلأ قلب رومولا ثانية حتى بات مرغمة على أن تفضّ معانقتها. لكن الحاجة التي دفعتها للشعور بوجوب التخفيف عن تفكيرها بالبوح لتيتو حثتها على إعادة كبح الألم المتصاعد. وعندما شرعت ثانية في الحديث كانت أفكارها قد زايلتها قليلاً.

" كان غريباً، يا تيتو. الرؤيا كانت عن زواجنا، ومع ذلك فلم يكن يعرف عنك شيئاً ".

قال تيتو، وهو يصطحبها إلى المقعد الذي كان بجوارهما : " ماذا كانت، يا عزيزتي رومولا؟ اجلسي وقولي لي ". اجتاحه خوف مخافة أن تكون للرؤيا علاقة بشكل أو بآخر ببالداسار. وهذا التبدّل

المفاجئ في الشعور حفزه على أن يسعى لتغيير الوضعية.

أطلعته رومولا على كل ما جرى، منذ دخولها إلى دير سان ماركو، وهي تكاد لا تنسى ولو كلمة من كلمات أخيها التي اشتعلت في ذاكرتها عند التلفّظ بها. لكنها عندما وصلت إلى نهاية الرؤيا، توقفت. كانت البقية واضحة جداً أمامها بحيث تعذر النطق بها، وجلست تسرّح نظرها في المدى المنبسط أمامها . تكاد لا تشعر في هذه الآونة بأن تيتو قريب منها. استراح فكره الآن، تلك الرؤيا الغامضة قد مرت فوقه كضباب أبيض، ولم تخلّف أثراً. لكنه خلد للصمت، متوخياً أن تعاود هي الحديث.

تابعت كما لو أن تيتو كان يقرأ أفكارها: " أخذته، أخذت الصليب. إنه تحت في غرفة نومي ".

قال تيتو متوسلاً: " والآن، يا عزيزتي رومولا، اطردي هذه الأفكار المرعبة. كانت الرؤيا رؤيا راهب، ثمرة الصيام والأفكار المتزمتة. بالتأكيد ليس لها أي وزن لديك ".

استمرت على استغراقها في التفكير قائلة: " لا، يا تيتو، لا. لكن دينو المسكين، كان يعتقد أنها كانت رسالة إلهية. إنه لأمر غريب. حياة الرجال هذه التي استحوذت عليها الاعتقادات الحماسية ما يجعلها تبدو لأقرانهم من البشر أشبه بحماقة. لم يكن دينو متزمتاً فظاً، وذاك الأخ جيرولامو – صوته نفسه بدا أنه نفذ فيّ بإحساس بأن هناك بعض الحقيقة في ما يحركهما: بعض الحقيقة التي أنا في غفلة عنها ".

" لم يكن ذلك إلا لأن مشاعرك كانت في أشد انفعالها، يا عزيزتي رومولا. لم تكن حالة أخيك العقلية أكثر من شكل من أشكال ذلك الكشف الصوفي، وهو المرض الشائع الذي يصيب العقول الحالمة السريعة التأثر في كل العصور. الأفكار نفسها لدى الأفلاطونيين الجدد، تلك التي يتبحّر فيها غريم والدك القديم، مارسيليو فيسينو. لا شيء سوى أن طبيعة أخيك الانفعالية قد ساقته إلى أن يطبق عملياً ما يكتبه ويتحدث به غيره من الناس. وبالنسبة للأخ جيرولامو، إن هو إلا راهب محدود التفكير يمتلك ملكة الوعظ ودب الذعر في الجموع.أية كلمات أو أي صوت كان سيهزك من أعماقك في تلك اللحظة. عندما يأخذ عقلك قسطاً صغيراً من الراحة ستحكمين على مثل هذه الأموردائماً كسابق عهدك ".

قالت رومولا: " ليس عن دينو المسكين. كنت غاضبة منه. بدا قلبي مسدوداً أمامه بينما كان يتكلم. لكن منذئذ فكرت أقل بما كان يدور في ذهني وأكثر بما كان يدور في ذهنه. أو، يا تيتو! كان محزناً رؤية حياته الشابة تؤول إلى النهاية على ذلك النحو. تلك النظرة المتلهفة للصليب عندما كان يلهث كي لا يختنق – لن أنساها ما حييت. الليلة الفائتة نظرت إلى صليب الفادي وأدامت النظر، وحاولت أن أتيقّن من أنه سيساعده، حتى بدا لي أخيراً على ضوء المصباح كما لو أن الوجه المتألم كان يذرف دموع الشفقة ".

" عزيزتي رومولا، عديني أن تقاومي مثل هذه الأفكار. إنها تلائم الراهبات المريضات، وليس أوروراي (أورورا: الفجر–م) ذات

الضفائر الذهبية التي تبدو من جبلّة تبدد معها كل تلك الخيالات الكاذبة. حاولي ألا تفكّري بها الآن. انفرادنا معاً لن يستمر لوقت طويل ".

نطق بالكلمات الأخيرة بلهجة تضرع حنون، وقام بإدارة وجهها صوبه بلمسة حانية من يده اليمنى.

كانت رومولا تطيل النظر بكل شرود الذهن إلى الفتحة القوسية، لكنها لم تر الهضبة النائية.طوال هذا الوقت كانت في البناء الملحق بالكنيسة تنظر إلى الصور الشاحبة، صور الحزن والموت.

ردتها لمسة تيتو وصوته المتضرع إلى وعيها. والآن، في نور الشمس الدافئ شاهدت ذلك الجمال الأسمر الثر الذي بدا أنه يجمع حوله كل صور الفرح – عنب أرجواني يمتد كحبل زينة بين شجر الدردار، القمح المكين يسعى إلى الاكتمال تحت الحرارة الرجراجة، كائنات مجنحة برّاقة تهرع وتستريح بين الأزاهير، أعضاء مستديرة تضرب الأرض مسرورة والصنوج مرفوعة عاليا، ميلوديات خفيفة موقّعة على إيقاعات الأوتار الأخاذة – كل الأشياء وكل الأصوات التي تحكي قصة الطبيعة التي تحتفل بقوتها. انتقال غريب محيّر من صور الحزن والموت الشاحبة تلك إلى هذا الشباب الساطع، كما لو من إله شمس لم يعرف شيئاً قط عن الليل! أي تفكير يمكن أن يصالح ذلك الألم المنهك في وجه أخيها – ذلك المجهود وراء شيء غير مرئي – مع هذه القوة والجمال المكتفيين، ويجعل انتماءها لعالم واحد أمراً مفهوماً؟ أو ألم يكن هناك أية مصالحة بينهما قط، بل عبادة عمياء

فقط للآلهة المتصارعة، أولاً ببهجة هستيرية ومن ثم بالعويل؟ شعرت رومولا للمرة الأولى بهذه الحاجة إلى الاستفسار في شكل دوار مفاجئ مزعج والافتقار لشيء تمسك به. لقد كانت معاناة تكاد لا تكون أطول من تنهيدة، ذلك أن التنظير الشغوف الذي يسم الأعصر والأزمنة مضغوط، كما في بذرة، في العوز اللحظي لعقل وحيد. لكن ليس هناك من جواب يلبي الحاجة، وقد تلاشى أمام الدفق المعاود للتعاطف الفتي مع الجمال البهيج المحب الذي شعّ عليها بألق جديد، مثل الفجر بعد أن أشحنا النظر عنه صوب الغرب الرمادي.

تمتم تيتو معاتباً بشكل ناعم: " فكرك يبتعد رويداً عن حبنا، يا عزيزتي رومولا. يبدو شيئاً منسياً بالنسبة لك ".

نظرت إلى العينين المتضرعتين بصمت إلى أن انقشع الحزن كله من عينيها.

قالت بصوتها الواضح كله: " يا فرحي! "

قال تيتو بابتسامته المشرقة: " أحقاً، إذن، تحرصين لأجلي بما يكفي كي تطردي تلك الخيالات التي تبعث على القشعريرة، أو هل ستواظبين على الظن بأنني الشيطان الأكبر؟ "

" كيف لا أحرص عليك أكثر من أي شيء آخر؟ كل شيء كنت شعرت به من قبل في

كل حياتي – عن والدي، وعن وحدتي – كان مرحلة تحضير لحبي لك. ستسخر مني، يا تيتو، إذا عرفت أي نوع من الرجال كنت أفكر بالزواج به – أديب ما ترتسم في وجهه خطوط عميقة، مثل

ألامانو رينوتشيني، وله شعر أشيب نوعاً، شخص يوافق والدي الرأي في التحيز إلى الأرسطوطاليسيين، ويكون مستعداً للعيش معه.تعودت أن أفكر بالحب الذي قرأت عنه لدى الشعراء، لكنني لم أحلم قط بأن شيئاً مثل هذا قد يحدث لي هنا في فلورانسة في مكتبتنا القديمة. وإذا بك تأتي، يا تيتو، وإذا أنت تعني الكثير بالنسبة لوالدي، وبدأت أشعر أن الحياة يمكن أن تكون أيضاً بهيجة بالنسبة لي".

قال تيتو بمزيج من الوله والإعجاب الحائر للجلال والبساطة الممتزجين فيها: " يا إلهتي! هل هناك من امرأة شبهك؟ "

تابع حديثه بشيء من الوجل: " لكن، يا عزيزتي، إذا اكترثت أكثر بزواجنا فستقنعين والدك والسيد برناردو بألا يفكرا بمزيد من التأخير. لكن يبدو أنك لا تهتمين بذلك ".

" أجل، تيتو، سأفعل، أنا أكترث. لكنني متأكدة أن عرّابي سيطلب مزيداً من التأخير الآن بسبب وفاة دينو، وأنت تعلم أنه كان يقول دائماً إننا يجب أن ننتظر ليمر على وجودك في فلورانسة سنة على الأقل. لا تشغل بالك بعرّابي. أعلم أنه منحاز وضيق الأفق، لكنه نبيل جداً رغم ذلك. كان يقول مراراً إنه عمل أحمق من جانب والدي أن يفصل مكتبته، علّها تحمل اسمه. لكنه سيسعى كي تتحقق رغبة والدي. ذلك يبدو لي عظيماً ونبيلاً جداً – تلك القدرة على احترام شعور لا يشارك فيه أو يفهمه ".

قال تيتو: " وذلك كان صحيحاً. ليس لدي أي تحفظ على السيد برناردو إذ أنه يعتقد أنك أثمن من أن تكوني زوجتي، يا رومولا.

إذن والدك يعلم بموت ابنه؟ "

" أجل، لقد أخبرته – لم أستطع ألا أخبره. قلت له أين كنت، وأنني قد رأيت دينو يحتضر، دون أي شيء آخر. وقد أمرني ألا أتحدث في الموضوع ثانية. لكنه كان صموتاً جداً هذا الصباح، وندّت عنه تلك الحركات القلقة التي تصيبني في مقتل. فهي تبدو كما لو أنه يحاول أن يخرج من سجن عماه. دعنا نذهب إليه الآن. لقد أقنعته بأن يحاول النوم، لأنه نام لفترة قليلة أثناء الليل. صوتك سيخفف من آلامه، يا تيتو: دائماً يخفف عنه ".

" وأما من قبلة واحدة؟ لم يتسنّ لي واحدة "، قال تيتو بلهجته المعاتبة اللطيفة مما أعطاه مسحة من الاتكال فاتنة جداً في مخلوق له تلك المواهب النادرة التي يبدو أنها تبرر التجرؤ.

بسطت الحمرة الوردية الحلوة نفسها بسرعة البرق على وجه رومولا ورقبتها حين انحنت نحوه. ولقد بدا مستحيلاً أن تغدو قبلاتهما على الإطلاق شيئاً عادياً.

قالت رومولا : " دعنا نتمشّ لمرة في أرجاء اللوجيا قبل أن ندلف للأسفل ".

قال تيتو حين توقفا أمام البيت حيث أمكنهما أن يشاهدا في المدى المنبسط السطوح المقابلة على الجانب الآخرللنهر: " تبدو لي فلورانسة دائماً كشيء متجهّم وخطير الشأن. وحتى في فرحها هناك شيء حاد وقاس – واخز أكثر منه بهيج. ليتنا نعيش في جنوبي إيطاليا حيث لا يقطع التفكيرَ التعب بل الاسترخاء العذب، من ذلك

النـوع الـذي يبـدو أنـه لا يحـلّ أبـداً بـ" ingenia acerrima Florentina"(1) (العقل الفلورانسي الحاد).أحب أن أراك تحت شمس الجنـوب مسـتلقية بـين الزهـور، مستسـلمة للسـعادة الصـرف، بينمـا أنـا منكب فوقك أعزف العود وأغني لك لحناً قصيراً لا شعورياً يبدو متوحداً مع النور والدفء. أنت لم تعرفي قط سعادة الحوريات تلك، يا حبيبتي روملا ".

" لا، لكنني حلمت بها منذ قدومك. أنا جد متعطشة لجرعة فرح عميقة – لحياة مشرقة بأكملها مثلك. لكن ما لنا وللتفكير بذلك الآن، يا تيتو. يبدو لي أنه ستوجد دائماً وجوه شاحبة حزينة بين الزهور، وعيون تنتظر عبثاً. دعنا نذهب ".

الفصل الثامن عشر
الصورة

عندما غادر تيتو فيا دي باردي ذلك اليوم راضياً مبتهجاً إذ ألفى نفسه متحرراً تماماً من الخطر المحدق به انكفأت أفكاره، التي لم يعد يشغلها الوجود المباشر لروملا ووالدها، إلى تلك الساعات من الخوف التي لا طائل تحتها، والتي أدرك فيها بأنه لم يشعر فحسب بل تصرف على نحو ما كان سيتصرفه لو تحلى ببعد نظر أكثر صواباً. ولما كان تخلى عن خاتمه. ذلك أن روملا، وغيرها ممن كان (الخاتم) بالنسبة إليهم شيئاً مألوفاً، سيعتريها بعض الذهول للدناءة الواضحة في الافتراق

عن جوهرة اعترف بمعزته لها، اللهم إلا إذا ادعى أن السبب يرجع إلى الرغبة بالتبرع بثمن الشراء لأمر ما .كان تيتو يعاني تلك اللحظة من سأم مقزز للنفس من جرّاء التصنّع. كان بمنأى تام عن العواقب المحتملة التي كانت ستحلّ به من جرّاء ذلك الخداع المبدئي، ولم يعد ذلك عبئاً على تفكيره، فالحظ العطوف قد جلب له الحصانة، وكان يعتقد أن من العدل أن يحصل ذلك. من الذي تأذّى من ذلك؟ كانت النتائج بالنسبة لبالداسار أعقد من أن تؤخذ بالحسبان. لكنه كان يرغب الآن في أن يتحرر من أية قيود خفية تمضّه، رغم بعد احتمال ذلك، في ظل ارتباطه برومولا. لم يكن مدركاً أن ذلك السرور ذاته بسبب الحصانة التي حفزت على اتخاذ قرارات بألا تربكه نفسه ثانية، كان يميت الحساسيات التي يمكن لها وحدها أن تنقذه من إرباكه.

لكن بيع الخاتم هو، في نهاية المطاف، مسألة صغيرة الشأن.

هل كانت أيضاً مسألة صغيرة أن تقع تيسا الصغيرة تحت وهم ما من شك في أنه سيملأ عقلها الصغير بالتوقعات التي ستنتهي لا محالة بخيبة الأمل؟ أيجب عليه أن يحاول اللقاء بالبنيّة الصغيرة مرة أخرى على انفراد ويزيل عنها، وعلى الفور، الوهم والخداع، أو يترك انكشاف الأمر للزمن والمصادفة ؟ لذيذة هي الأحلام السعيدة، ولسرعان ما تصل إلى نهايتها مع انبلاج ضوء النهار وجلبة الحياة. البنيّة الحلوة، المبوّزة الشفتين، البريئة، الممتلئة الجسم! كان يستحيل طردها من الذهن. فكّر تيتو أن يأخذ إليها يوماً ما هدية تدخل البهجة إلى قلبها، ويقف على حقيقة ما إذا كان زوج أمها يعاملها بقسوة أكبر بعد أن

فارقت أمها الحياة. أو، هل يعمد على الفور إلى إزالة الوهم عن تيسا، ثم يعلم رومولا بقصتها، عسى أن يجدا نصيباً أسعد لهذه البنيّة الصغيرة؟ لا: تلك الحادثة الصغيرة السيئة الطالع، حادثة السيريتانو والزواج، وسماحه لتيسا أن تفترق عنه تحمل وهمها معها، يجب ألا تعلم بها رومولا أبداً، وحيث إنه لن تكون أية استثارة قادرة على طرده من تفكير تيسا فسيكون خطر إفشاء السر قائماً على الدوام . أضف إلى أنه حتى تيسا الصغيرة قد تحمل في داخلها بعض ضغينة عندما تجد نفسها خائبة في حبها – أجل، **يجب** أن تقع قليلاً في هواه، وبذا سيحسن صنعاً إذا لم يقابلها ثانية. ومع ذلك فقد كانت مغامرة صغيرة الشأن قد تشغل تفكير فتاة ريفية حتى يقيّض لها أن تقع على فلاح متورد الوجه يطارحها حباً مقبولاً، عندها ستنقض قرارها بالتزام السرية وتصل إلى الحقيقة التي مؤداها أنها حرة. Dunque (1) – وداعاً، يا تيسا! أحلى الأماني! قرّ قرار تيتو على أن مسألة السيريتانو الصغيرة التافهة هذه يجب ألا يطاله منها مزيد من العقابيل. والناس ميالون للاعتقاد بأن القرارات المتخذة لصالحهم ستكون ثابتة وقوية. أما بالنسبة للفلورينات الخمس والخمسين، ثمن شراء الخاتم، فقد توصل تيتو إلى قرار بشأن كيفية التصرف بجزء منها. سينفذ فكرة جميلة وذكية ستسهّل عليه تفسير غياب خاتمه أمام رومولا، وكذلك تفيده من حيث هي وسيلة تحمي تفكيرها من عودة تلك التهيؤات الرهبانية التي كانت مقيتة بشكل خاص بالنسبة إليه. انطلق، وهو يحمل تلك الفكرة في رأسه، إلى فيا غوالفوندا ليجد بييرو دي كوسيمو، الفنان الذي كان في ذلك الوقت

مشهوراً بالتصميم الميثولوجي الرائع الذي كان مرمى تيتو بحاجة إليه.

عند دخول الفناء الذي كان منزل بييرو يطل عليه وجد تيتو القارعة الحديدية على الباب محكمة الربط بالصوف ومثبتة ببراعة بالحبال. وإذ تذكّر عادة الرسام في حشو أذنيه ليحجب أصوات الضجيج التي تقتحمه لم يكن تيتو مندهشاً كثيراً لهذا الأسلوب الدفاعي ضد دوي الزوار، وشرع أولاً يدق باعتدال ببرجمات أصابعه، ثم انتقل إلى محاولة أكثر إلحاحاً وأخذ يهز الباب. دون طائل! أخذ تيتو بالابتعاد وهو يلوم نفسه لإضاعة وقته في هذه الزيارة بدلاً من الانتظار حتى يقابل الرسام مرة ثانية في صالون نيلو، عندما دخلت فتاة صغيرة الفناء ومعها سلة بيض على ذراعها، وتوجهت إلى الباب، وبعد أن وقفت على أطراف أصابعها ودفعت للأعلى بلوحة حديدية صغيرة كانت تجري ضمن أخاديد، وضعت فمها على الفتحة التي تكشّفت على هذا النحو صاحت بصوت حاد " سيد بييرو!"

بعد بضع لحظات سمع تيتو صوت المزاليج وفتح الباب ليظهر بييرو نفسه وهو يعتمر قبعة نوم حمراء ويلبس رداء صوفياً بنياً فضفاضاً، وكماه مرفوعان حتى الكتف. ظهرت عليه نظرة دهشة واستغراب لمرأى تيتو، لكن دون إعارته مزيداً من الاهتمام مدّ يده لتناول السلة من الطفلة، وعاد ودخل البيت، وسرعان ما عاد بالسلة الفارعة ليقول :" كم الثمن؟"

" غروسونيان، يا سيد بييرو، كلها مسلوقة وجاهزة، تقول أمي ."

أخرج بييرو النقود من السكارسيلا(2) الجلدية على حزامه، وغادرت الفتاة الصغيرة تخب خبّاً ليس من دون رفع بصرها للأعلى بنظرات تنم عن إعجاب مشوب بالرهبة لمرأى السيد الشاب المثير للدهشة.

كانت نظرة بييرو أقل مجاملة بكثير عندما قال –

" ماذا تريد وأنت ببابي، يا سيد غريكو؟ لقد رأيتك هذا الصباح في منزل نيلو. لو كنت سألتني عندئذ لكنت أعلمتك أنني لا أستقبل أحداً في هذا البيت دون أن أعرف شأنه وأتفق معه على موعد مسبق ".

قال تيتو بمزاجه الرائق الهادئ: " المعذرة، يا سيد بييرو، لقد تصرفت دون تبصّر كاف. لم أتذكّر شيئاً سوى مهارتك المعجبة في ابتكار النزوات المحببة، عندما وجدت نفسي مدفوعاً للمجيء إليك تحدوني الرغبة لشيء من هذا القبيل ".

كان سلوك الرسام مع كل العالم غريباً جداً على نحو مشين مما أبعدصفة الإهانة الخاصةعن هذا الاستقبال (3)، لكن حتى ولو داخل تيتو شك بوجود نية عدوانية فلن يكون دافع الغضب لديه بقوة تفوق الرغبة في الانتصار على حسن النيّة.

تجهّم وجه بييرو كعادته عندما وُجِّه الحديث إليه بدماثة على سبيل المجاملة. كشّر، ومطّ زاويتي فمه، وضغط حاجبيه للأسفل كي يتحدى أي تكهن بمشاعره في ظل ذلك النوع من المداعبة.

قال بعد فترة صمت: " وماذا عسى تكون الحاجة؟" في داخله

كان مدفوعاً بالفرصة الملمّح إليها، فرصة تطبيق اختراعه.

" أريد ابتكاراً صغيراً دقيقاً جداً مأخوذاً من بعض حكايا الشعراء الخرافية. أريدك أن تجمعه وتركّبه لي. يجب أن يكون مرسوماً على علبة خشبية – سأريك القياس – على شكل نقش على ثلاثة ألواح متمفصلة. الداخل يمكن أن يكون صقلاً بسيطاً: أريد الابتكار أن يكون على الطبقة الخارجية. إنه موضوع يفضّله أصحابك الفلورانسيون – انتصار باخوس وأريادن. لكنني أريد معالجته بطريقة مختلفة. قصة من أوفيد (4) ستعطيك الإشارات الضرورية. يجب أن يكون باخوس الشاب جالساً في سفينة ورأسه مربوطاً بعناقيد العنب، ورمح مضفور بأوراق الكرمة في يده: يجب أن يلتف حول الصواري والأشرعة اللبلاب ذو الحب الأسود، والمجاذيف يجب أن تكون من الترسوس(*) *، كما يجب أن ينضفر مؤخر السفينة بأكاليل الزهور. ويجب أن تربض أمامه الفهود والنمور، وحواليه يجب أن تمارس الدلافين ألاعيبها. لكنني أريد أن تكون معه أريادن ذات الشعر الأشقر يتوجها إلى الخلود تاجها الذهبي – هذا ليس في قصة أوفيد، لكن لا يهم، ستتصور المشهد برمّته – وفي الأعلى يجب أن يكون عشاق شباب، وهذا متروك لمهارتك في الرسم، يطلقون السهام التي ترى الورود على رؤوسها – "

قال بييرو: " كفى! لدي أوفيد باللغة السوقية.جد لي القطعة.

(*) صولجان يتوج بحلية على شكل كوز صنوبر ويلف أحياناً بأعواد الكرمة (كان حمله باخوس وأتباعه)(– م)

لا أحب أن تعرقلني أفكارغيري. يمكنك الدخول ".

مشى بييرو أولاً عبر الغرفة الأولى حيث كانت سلة بيض موضوعة على مصطلى مفتوح بالقرب من كومة من قشور البيض المكسورة وكومة من الرماد. وبالتلاؤم مع تلك المتفرقات القذرة كان هناك هيكل سرير منخفض من خشب الأبنوس مغطى بشكل مهمل بقطعة سجاد شرقي باذخة بدت كما لو أنها استعملت لتغطية الدرج الموصل إلى عرش مادونا، وcassone أو صندوق كبير عليه نقوش وعلى جوانبه وغطائه رسومات مبتكرة . أما غير ذلك فبالكاد احتوت الغرفة الكبيرة على أي أثاث آخر، خلا السبائك والدرج الخشبي، والأزاميل والصناديق الخشنة، وكل هذه الأشياء يزينها حبل طويل من العناكب.

أما الغرفة التالية فقد كانت أكبر حجماً، لكنها كانت أيضاً أكثر ازدحاماً. وكان واضحاً أن بييرو يحافظ على الصبغة الاحتفالية، ذلك أن الباب المزدوج أسفل النافذة التي سمحت بدخول النور على الرسام من أعلى كان مفتوحاً على مصراعيه، لتظهر وراءه حديقة، أو بالأحرى أيكة نمت فيها أشجار التين والكرمة البرية المتشابكة وسط نبات القرّاص والشوكران، وكانت شجرة سرو

عالية تطل برأسها القاتم من بين كتلة خانقة من أوراق التوت الضارية للأصفر. وقد بدا أن ذلك

النماء الخصب الشديد الرطوبة قد بدأ ينفذ حتى إلى داخل جدران الغرفة الفسيحة العالية. ذلك أنه في

إحدى الزوايا،وسط كتلة غير منتظمة من نثار الرخام المنحوت والسلاح الصدئ، شقت باقات من العشب الطويل والثمار الداكنة التي علاها الزئبر طريقها، وأصيص أزهار حجري كبير يميل على أحد جانبيه بدا أنه يسكب اللبلاب الذي انتشر بغزارة في المكان. كما عُلّق على الجدران المختلفة رسومات زيتية وبالقلم لحيوانات بحرية غريبة، ورقصات للساتيرات والمينادات، وقيامة القديسة مارغريت من بين التنين الفاغر الفم (5)، والمادونات وعليهن النور السماوي، ورسومات تحضيرية لنباتات ورؤوس غريبة الشكل، وعلى رفوف خشنة يعوزها الانتظام كانت بضعة كتب مبعثرة وسط حزم كبيرة محنية الرأس من القمح، وقرون الثيران، وقطع من أقراص العسل الجافة، وحجارة عليها بقع من الأشنة النادرة الألوان، وجماجم وعظام، وريش الطواويس، وأجنحة طيور ضخمة. وكان ينتصب من بين المرميات المتسخة على الأرض أشكال عادية: واحد في جلباب راهب فالومبروزي، تعلو هامته على نحو غريب خوذة فيها قناع متحرك للوجه، وآخر يكاد يخنقه القماش المطرز والجلود الملقاة فوقه دون تريّث. وبين هذه الحياة الراكدة المتنافرة كانت تقف عدة حمامات بيضاء ومرقطة أو تتبختر، أُفرط في تدجينها بحيث باتت لا تقوى على الطيران عند دخول الناس. كما كانت ثلاث ضفادع سمينة تدب بطريقة حميمية وودية بالقرب من عتبة الباب الحجرية. وكانت أرنب بيضاء، من الواضح أنها أنموذج لتلك التي كانت ترعب كيوبيد في صورة المريخ والزهرة (6) موضوعة على الحامل الأوسط، ترعش بأنفها بكثير من الرضى على صندوق

مملوء بالنخالة.

قال بييرو، مشيراً إلى تيتو أن يجلس على مقعد واطئ بالقرب من الباب، ثم وقف في مستوى أعلى منه مصالباً ذراعيه: " والآن، يا سيد غريكو، لا تسع إلى رؤية كل شيء دفعة واحدة، مثل السيد دومينيديو، لكن دعني أعلم كم تريد حجم هذه الرسمة الثلاثية بالذات".

أشار تيتو إلى الأبعاد المطلوبة، وقام بييرو بتدوينها على قصاصة ورق.

قال بييرو، متناولاً مجلداً مخطوطاً: " والآن إلى الكتاب ".

قال تيتو، مناولاً إياه المقطوعة: " لا شيء بخصوص أريادن تلك الواقفة هناك. لكن تذكر أنني أريد أريادن المعتمرة التاج بجانب باخوس الشاب: لابد أن يكون لها شعر ذهبي. "

" ها! " قال بييرو، على نحو مفاجئ زاماً شفتيه مرة أخرى، وأضاف وهو ينظر للأسفل محدّقاً في وجه تيتو :" وتريدها أن تكون شبهها، إه؟ "

ضحك تيتو واحمّر وجهه. " أعلم أنك ماهر في صور البورتريه، يا سيد بييرو. لكنني لا يمكنني الطلب إلى أريادن أن تجلس أمامك لأن اللوحة ستبقى سرية ".

" هكذا إذن! أريدها أن تجلس أمامي. جيوفاني فيسبوتشي يرغب إلي أن أرسم له صورة أوديب وأنتيغونا في كولونوس(7) بالشكل الذي صوّره لي: لدي ولع بالموضوع، وأريد من باردو وابنته أن يجلسا كي أرسمها(الصورة). والآن، هيا اطلب إليهما، وعندئذ سأنقل الشبه

إلى أريادن ".

" موافق، إذا استطعت أن أقنعهما. وما السعر الذي تطلبه على لوحة باخوس وأريادن؟ "

" Baie!(8) إذا استطعت أن تقنعهما للجلوس لرسمهما يكون الثمن قد وصلني. لا أرغب في أن أقبض مالك: يمكنك أن تدفع ثمن العلبة ".

قال تيتو: " ومتى سأجلس أنا موديلاً لك؟ ذلك أنه إذ ا توفّرنا على صورة واحدة فلا بد أن يكون لنا اثنتان ".

" لا أريد صورتك بالذات لرسمها. لقد توفرت عليها قبلاً. فقط جعلتك تبدو مذعوراً في الصورة. يجب أن أنزع الخوف منها لأجل باخوس ".

بينما كان يتكلم وضع بييرو الكتاب ومضى يفتش بين بعض اللوحات المسنودة ووجوهها للحائط. عاد وهو يحمل بيده لوحة زيتية. قال وهو يقترب ناظراً إليها: " أرى فيها صورة بورتريه بجودة أي واحدة سبق لي رسمها. وجهك لا مثيل له في التعبير عن الخوف لأنه بطبيعته وضاء. لاحظت ذلك أول ما رأيتك. أما بقية الصورة فبالكاد أن رُسمت، لكنني رسمتك أنت بداخلها بشكل كامل ".

أدار بييرو اللوحة وأمسكها أمام عيني تيتو. شاهد نفسه ويده اليمنى مرفوعة للأعلى حاملاً كأس خمر، في وضعية الانتشاء بالنصر، لكن وجهه كان مشيحاً عن الكأس وفي عينيه المتوسعتين وعلى شفتيه الشاحبتين ارتسم خوف شديد، حتى إنه شعر بتيار بارد

يسري في عروقه كما لو أنه شعر شعور المتعاطف مع ذاته المصوّرة.

قال بييرو ضاحكاً لبرهة ومبعداً الصورة مرة أخرى: " لقد بدأت تشبهها مسبقاً. إنه يشاهد شبحاً – ذلك الشاب الرائع. سأفرغ منها يوماً ما عندما أقرر أي نوع من الأشباح هو الأكثر رعباً – ما إذا كان سيبدو جامداً، مثل شخص متوفى عاد للحياة، أو نصف شاف، كما الضباب ".

قال تيتو بلا مبالاة، وهو خجل نوعاً ما من نفسه لحساسية مفاجئة داهمته، مما يتعارض مع سيطرته المعتادة والسهلة على نفسه –

" هذا موضوع يحبه قلبك، يا سيد بييرو – سكّير اعترضه شبح. يبدو أنك تفضل مزج المرعب مع المرح. إخال أن هذا هو السبب في أن رفوفك مؤثثة جيداً برؤوس الموتى وأنت ترسم أولاء العاشقين المحتالين الفارين بدروع مارس. بدأت أشعر بأنك فيلسوف رواقي في إهاب محبب لرسام محتال ".

" لست أنا، يا سيد غريكو. الفيلسوف هو آخر نوع من الحيوانات يروق لي أن أشبهه. أجد أنه يكفي أن أعيش، دون نسج أكاذيب تعلل كنه الحياة. الدجاج يقوقي، والحمير تنهق، والنسوة تثرثر، والفلاسفة يختلقون أسباباً كاذبة – هذا هو التأثير الذي نستخرجه منهم عن رؤية العالم. والآن أعتقد أن عملنا قد تم. ستلتزم بجانبك من الصفقة بشأن أوديب وأنتيغونا؟ "

قال تيتو: " سأبذل ما بوسعي " – وعند هذه الملاحظة القوية

توجه حالاً إلى الباب.

" ولسوف تعلمني بذلك في صالون نيلو. لا داعي لقدومك إلى هنا ثانية ".

" فهمت "، قال تيتو ضاحكاً رافعاً يديه إشارة إلى وداع ودي.

الفصل التاسع عشر
أمل الشيخ

كما توقعت رومولا كان السيد برناردو ديل نيرو صلباً عنيداً في نصيحته بوجوب تأجيل الزواج حتى عيد الفصح، وفي هذا الشأن وقع باردو كلية تحت هيمنة صديقه الحصيف والعملي. ومع ذلك، ورغم أن برناردو نفسه كان بمنأى، كأي وقت مضى، عن أي إحساس مرهف تجاه سحر تيتو الشخصي الذي شعر به غيره، فإنه لم يستطع أن يقاوم كلية محاجة النجاح القوية دائماً لدى من خبروا الحياة. كان تيتو يشق طريقه بسرعة بين الأوساط الراقية. أخذت حظوته تتنامى خاصة لدى الكاردينال جيوفاني دي ميديتشي الذي وصل إلى حد الكلام عن أن تيتو سيكون ضمن حاشية العلماء الذين سيرافقونه في رحلته الوشيكة إلى روما. وكان الإغريقي الشاب المشرق الوجه ذو اللسان الطلق دائماً دون أن يصل أبداً إلى حد المشاكسة، مطلوباً ومرغوباً في أمسيات العشاء المرحة في فيلاّ فيا لارجا، وفي الألعاب الفلورانسية التي لم يكن له أي ادعاء باطل بالتفوق فيها، وأبدى إعجابه بمهارة بييرو دي ميديتشي التي لا مثيل لها، وذلك باستخدامه أكثر الطرق تهذيباً في العالم. وعن طريق تتالي النجاح كانت سمعة تيتو كرفيق محبب في المجتمع " الراقي " تجعل ثقافته وموهبته تبدوان أكثر بريقاً: والحق أنه كان بارعاً بما يكفي كي يحول دون أن يشكل أي تقدير مبالغ فيه أي

خطر عليه. وكانت للسيد برناردو أهواء وارتباطات قديمة بدأت الآن تغلب حجة الهوى (التحيز) الأحدث والأوهن ضد الغريب الإغريقي الشاب الذي كان مغالياً في طواعيته. بالنسبة للفلورانسي العريق كان من المستحيل تجاهل التوصية بشأن إقامة أحسن العلاقات مع أفضل العوائل الفلورانسية، ولما كان تيتو قد أخذ يلقى القبول التام في أوساط تلك الحلقة التي شكّلت آراء أفرادها معيار القيمة الاجتماعية الذي لا يرقى إليه الشك فقد بدا أمراً غير معقول ألا يُعترف بأنه لم يعد هناك أي رادع للاقتناع بمستقبل هكذا صهر لباردو، وهكذا زوج لرومولا. ومما لا يمكن إنكاره أن مقدم تيتو كان بمثابة فجر حياة جديدة لكلا الأب والابنة، بل إن الوعد الأول قد تم تجاوزه. فالأديب العجوز الكفيف – الذي لن يدخل صدقه الأبي في تلك التجارة، تجارة الإعجاب المتكلف والمنافي للعقل التي صاغت، بعد أن اكتسبت تنوعها عن لامحدودية مقابلة في القدح والذم، لحمة كل المناقشات الفكرية – قد آل إلى الإهمال حتى بين ظهراني مواطنيه، وعندما يذكر اسمه في معرض التلميح، أنى يكن ذلك، فقد درجت العادة منذ زمن على القول إنه، رغم أن عماه وفقده لابنه كانا مصيبتين مؤسفتين، إلا أنه كان تعباً من جرّاء النضال في سبيل قيمة أعماله، وأن امتعاضه كان غير متساوق نوعاً لدى شخص كان يتجاهل،وبشكل علني، الطقوس الدينية، والذي كان قد رفض، في أوقات ماضية، العروض التي قدمت إليه من مختلف الأوساط، على أساس الشرط الطفيف وهو أنه سيتلقى أوامر، بدونها لم يكن سهلاً على رعاة الأدب والفن أن ينفقوا على كل رجل

علم وأدب. لكن مذ قدوم تيتو اختفت الرتابة نفسها عن الفكرة التي أوحى بها اسم باردو. وقد فُهم أن الرجل العجوز قد تخلى عن شكاواه، ولم تعد الابنة الجميلة حبيسة كبرياء دون مهر، بانتظار قدوم شريك ما. ولقد ساعد السلوك المحبب والحظوة المتنامية لليوناني الوسيم الذي كان مؤملاً أن يدخل في علاقة مزدوجة، كابن وزوج، ساعد في جعل الاهتمام الجديد ودياً بالكامل، ولم يعد حدثاً نادراً أن يشيع زائر ما الحيوية في المكتبة الهادئة. فكبار السن ينطلقون من ذلك الحافز المبهم لتجديد التواصل السابق الذي ينشأ حين يصبح أحد المعارف القدامى محور الحديث مجدداً. والشباب الذين كان تيتو طلب السماح بإحضارهم ذات يوم وجدوا سهولة في الذهاب مجدداً عندما كانوا يلحقون به وهو في طريقه إلى فيا دي باردي، وبعد وضعهم أيديهم على كتفه كانوا ينخرطون في دردشة سهلة معه. ذلك أنه كان من الممتع النظر إلى جمال رومولا، ورؤيتها كنموذج لفايرينزولا[*] عريقة في الجلال الأنثوي، " جالسة بأبهة خاصة، تتحدث برصانة، تبتسم باحتشام، وتضوع من حولها، إذا جاز القول، رائحة ملوكية "(1) وبدأت تتفتح مثل زنبقة بيضاء قوية تحت هذا النفَس اللطيف من الإعجاب والتقدير. كانت الأمور سيّان بالنسبة إليها مع وجود حياتها المشرقة التي استجدّت في ظل حب تيتو.

حتى إن تيتو كان الواسطة لتعزيز الأمل الذي احتضنه باردو

(*) انظر الحاشية آخر الكتاب.

بأنـه قـد يتلقـى، قبـل وفاتـه، الضـمان الـذي طـال انتظـاره بخصـوص مكتبتـه: بأنـه يجب ألا تخلط مـع مختارات أدبيـة أخرى، بأنـه يجب ألا تحوّل إلـى هيئـة مـن الرهبـان، وتسمى باسم أحد الأديرة، بل يجب أن تبقى إلى الأبد مكتبة باردي، في خدمة الفلورانسيين. ذلك أنه لا يمكن للعادة القديمة، عادة الوثوق بآل ميديتشي أن تتوارى بينما كان تأثيرهم ما يزال الرافعة الأقوى في الدولة. وتيتو،، الذي حاز يوماً على حسن استماع الكاردينال جيوفاني دي ميديتشي، يمكن أن يفعل أكثر حتى من السيد برناردو بشأن الفوز بالاهتمام المرتجى، ذلك أنه يمكن أن يبرهن لجمهور مثقف ماهية القيمة الفريدة لمختارات باردي. وتيتو نفسه تحدّث بثقة عن هكذا نتيجة، راغباً في أن يفرّج كربة العجوز، ومدركاً أن رومولا قد كافأت تلك الكلمات اللطيفة التي قيلت لوالدها بنوع من الافتتان لم يكن ليستجرّ بمديح مباشر لها.

شكّل موضوع المكتبة هذا أكثر من محور حديث مع برناردو ديل نيرو عندما انتهى عيد الميلاد واقترب موعد الزفاف – لكن دائماً بعيداً عن أسماع باردو. ذلك أن باردو كان يحتضن اعتقاداً غامضاً – ما لم يجرؤوا أن يهزوا أركانه – مفاده أن ملكيته، بمعزل عن المكتبة، كانت كافية لتفي بكل المطالب. حتى إنه لم يستطع، اللهم إلا تحت ضغط مؤقت يأتي من يأس مشوب بالحنق، أن يعترف أمام نفسه بأن الوصية التي حجبت الإرث عن دينو لن تترك لرومولا ما ترثه سوى الديون. أو أنه كان بحاجة إلى أي شيء من الرعاية أبعد من الضمان الناجم عن تخصيص مكان مستقل لمكتبته، مقابل فعل هبة يوجب نقل

ملكيتها إلى الجمهورية الفلورانسية.

قـال برنـاردو لرومـولا أثنـاء مشـاورة أجرياهـا تحـت الشـرفة (اللوجيا):" أرى أنه ما دمت ستزفين، وبالتالي سيتوفر السيد تيتو على دخل محترم، فالواجب يقتضينا أن ننهي الترتيبات ونحدد المبلغ اللازم بالضـبط لإنقـاذ المكتبـة مـن أن تمـس، بـدلاً مـن تـرك الـديون تتـراكم أكثرفأكثر. لا يحتـاج والـدك لشـيء سوى نتفـة اللحـم الصـغيرة وصـحن المعكرونـة الذي يتناولـه كل يوم، وأعتقد أن السيد تيتو يمكن أن يوفر ذلك للباقي من السنين. بإمكانه أن يجعل ذلك بديلاً للحرم من الميراث ".

" دائماً كـان تيتو يعرف أن حياتي مرتبطـة بحياة والدي، وهو أفضل مني في معاملة والدي: فهو يسرّ عندما يجعله سعيداً ".

قال برناردو مبتسماً: " آه، إنه لم يقدّ من نفس طينـة الآخرين، أليس كذلك؟ لقد فكّر والدك بحجب حماقة المرأة عنك بحشوك باليونانية واللاتينيـة. لكنـك كنـت مسـتعدة لتصـديق أول زوج عيـون براقـة وأول كلمـات نـاعمـة تقـع علـى مسمعك، كمـا لـو أنك لـم تستطيعي قول أي شيء سوى الصلاة المكرورة، شأنك شأن بنات الآخرين المسيحيات ".

قالت رومولا وهـي تهز رأسـها بدلٍّ:" هيّا، يا عرّابـي، كمـا لـو أن الأمر مسألة عينين براقتين وكلمات ناعمة فحسب ما جعلني أتيه بحب تيتو! أنـت أدرى منـي. أنت تعرف أنني أحب والدي وأنت لأن كليكما طيب، وأحب تيتو أيضاً لأنـه طيب جداً. أنا أرى ذلك، أحس بـه، فـي كل ما يقولـه ويفعلـه. وإذا كـان علـى وسامة إضـافة لذلك لماذا لا يزيد

هذا في حبي له؟ يبدو لي أن الجمال هو جزء من اللغة المكتملة التي تتخذها الطيبة لساناً لها. أنت تعرف أنك أنت، ما من ريب، كنت وسيماً جداً في شبابك، يا عرابي " – رفعت بصرها، مواكباً بإحدى تلك الابتسامات الفرحة المحبة، إلى العجوز الجليل – وتابعت "كان طولك يقارب طول تيتو، وكان لك عينان جميلتان. إنما كنت تبدو أكثر صرامة وتكبراً بقليل، و– "

قال برناردو، دون أن تفوته هذه الملاطفة الجميلة: " ورومولا تحب أن يكون لها كل الكبرياء؟ لكن، إنه لأمر حسن أن تكون مطالب تيتو، من إحدى النواحي، أكثر اعتدالاً من مطالب أي زوج فلورانسي من منزلة ملائمة كان يمكن أن نجده لك. فهو لا يطلب أي مهر ".

وعليه فقد حسم الأمر على هذا النحو بين السيد برناردو ديل نيرو، ورومولا، وتيتو. قبل باردو، بإشارة من يده، عندما أخبره برناردو بأنه يرى أن من الأفضل عدم الشروع ببيع الممتلكات وتصفية الديون. بعد أن درج على الاعتقاد بأن الديون والممتلكات هي نوع من خشب سميك لم يستطع خياله حتى اختراقه، ناهيك عن تخطيه. وطفق تيتو يحاول كسب احترام السيد برناردو بالاستفسار، بما توافر له من ملَكة حاضرة، عن المسائل المالية في فلورانسة، وخبايا ال Monti أو الأموال العامة، وقيم الملكية الحقيقية، وأرباح المصارف.

قالت رومولا: " سرعان ما تنسى أن تيتو ليس فلورانسياً، يا عرّابي. انظر كيف يتعلم كل شيء عن فلورانسة ".

قال برناردو مبتسماً: " يبدو لي أنه واحد من ال demoni(2) (العفاريت) الذين لا ينتمون إلى بلد بعينه، يا ابنتي. إن عقله رشيق جداً، ومفرط في ذلك قليلاً، مما لا يدع مجالاً لإرهاقه بكل الأشياء التي نحتضنها، نحن الرجال، في أفئدتنا ".

تبسّمت رومولا أيضاً، بثقة متفائلة.

الفصل العشرون
يوم الخطوبة(1)

وصل الكرنفال إلى أسبوعه الأخير، وكانت شوارع فلورانسة تشهد ذروة ازدحامها وصخبها: فالمواكب التنكرية كانت تنشد الأناشيد، حيث صارت الآن ضرورة لا غنى عنها بعد أن أصبحت من تقاليد الحياة على يد لورينزو المعظم، وكان هناك الريجوليتو المفضلة، أو الرقصة الدوارة، الراسخة في " البياتزا" (الساحة) تحت السماء الصقيعية الزرقاء. كما كانت هنالك الألاعيب الهزلية العملية من الأنواع كافة، بدءاً من رمي الفواكه المجففة وصولاً إلى رمي الحصى – وخاصة الحصى. وغدا الأولاد والغلمان، وكانوا دوماً عنصراً قوياً في الحشود الفلورانسية، في ذروة فترة الكرنفال يتسمون بحدة في الصوت وتأبٍّ على السيطرة كما صرّار الشجر. وكانوا يتمتعون، منذ قديم الزمان، بحق قطع الطريق بالأعمدة أمام المشاة كافة حتى يتم دفع جزية تتمثل في تزويد أولئك العاشقين، أصحاب المشاعر الملتهبة، بألوان العشاء

والنيران المضرمة في العراء: لينتهي المشهد بالترفيه المقيم، مشهد رمي الحجارة، والذي لم يكن رتيباً بالمطلق، نظراً لأن صنوف التشويه الناجمة كان متنوعة، وعلى الدوام لم يقتصر القتل على شخص واحد. ولقد باتت أفراح الكرنفال غنية الألوان، ولو استدعي رسام كي ينقلها بأمانة لترتب عليه أن يرسم صورة فيها الكثير من الفظاظة والبربرية مما يوجب إدارتها ووجهها إلى الحائط، إلا عندما يتم استبعادها لأجل الهدف التاريخي الرصين وهو تسويغ الحماس للإصلاح الذي قد يتعرّض، بسبب الجهل بالحقائق، للإدانة عن غير وجه حق لضيق أفقه. لكن، ورغم ذلك، بقي هناك الكثير من المرح الأكثر براءة ومشهدية الذي لا يغيب أبداً عن قوم يتصفون بهمم حيوية رشيقة، وأعضاء حساسة: كان المشهد خلواً من ذاك البَلَه الثقيل الذي ينتمي إلى دم الأقوام الشمالية السميك، ومن تلك الشراسة الخفية التي تودي بالمشاجرة، في الأصقاع الأكثر جنوبية في شبه الجزيرة، إلى الطعن بالخنجر.

كان الوقت ضحىً، لكن روح المرح التي وسمت الكرنفال كانت تجنح نحو التلكؤ في الأفول وإعادة موجزة للألاعيب الهزلية لليلة الفائتة، عندما كان تيتو ميليما يغذّ السير متوجّهاً إلى فيا دي باردي. وكان برناردو دوفيزي الشاب الذي يحدق فينا الآن من داخل صورة رافائيل، باعتباره الكاردينال دي بابينا الثاقب البصر، بصحبته (2). وعند مغادرتهما أخذا يتجاذبان أطراف حديث يتسم بالحيوية عن موضوع لم يكن له صلة واضحة بالمشاهد والأصوات التي كانا

يتدافعان وسطها بالمناكب على امتداد بورسانتا ماريا. ومع ذلك، وبينا هما يتناقشان، ويبتسمان، ويؤشران كانا معاً يلقيان، بين الفينة والأخرى، نظرات سريعة حولهما، وعند المنعطف صوب لونغ آرنو، المفضي إلى جسر روباكونتي، فطن تيتو، أثناء إحدى تلك النظرات الشاملة الخاطفة إلى وجود شخص لم يكن يرغب بأي شكل أن يتعرّفه في تلك اللحظة، غير بعيد عنه. كان وقته وتفكيره منشغلين ذلك أنه كان يتطلع بشغف إلى فرصة فريدة في حياته: كان يتأهب لخطبته التي كانت ستعقد مساء هذا اليوم بالذات. وقد تم الاتفاق على الحفل بصورة فجائية إلى حد ما، ذلك أنه رغم أن ترتيبات الزفاف كانت قائمة على قدم وساق لبعض الوقت – ولاسيما مع استعمال دراهم تيتو لتجهيز البيت في مسكن باردو، والذي كان باستثناء المكتبة فقير الأثاث – فقد اتجهت النية نحو تأجيل كل من الخطوبة والزفاف حتى ما بعد عيد الفصح، عندما تنتهي فترة تيتو التجريبية التي ألح عليها برناردو ديل نيرو. لكن عندما ورد اقتراح عاجل، ومفاده أن يلحق تيتو بالكاردينال جيوفاني إلى روما لمساعدة برناردو دوفيزي بما لديه من معرفة فائقة باليونانية في ترتيب إحدى المكتبات – ولم تكن هناك أية إمكانية للرجوع عما كان واضحاً أنه يقع على الجادة المفضية للنجاح والفلاح – فقد أصبح ملحاحاً في توسلاته كي يتم عقد الخطوبة قبيل مغادرته: وسيكون هناك من تأخير أقل قبل موعد الزفاف عندما يعود، وسيكون الفراق أقل إيلاماً إذا كان هو ورومولا مرتبطين ببعضهما أمام الملأ وفي قلبيهما – إذا كان لديه من مطلب يتحدى السيد برناردو

أو أي شخص آخر لإبطاله. ذلك أن الخطوبة، التي يتم فيها تبادل الخواتم وتوقيع الصكوك المتبادلة، كانت تشكل أكثر من نصف شرعية الزواج، على أن تستكمل في مناسبة مستقلة في ظل مباركة الزواج. وقد التقت مشاعر رومولا بمشاعر تيتو إزاء هذه الرغبة، وتم كسب موافقة الشيخين.

في هذه اللحظة كان تيتو يغذ الخطا، في خضم تحضيرات سفره في اليوم التالي، ليقتنص زيارة صباحية إلى رومولا، ويقول ويسمع أية كلمات أخيرة كانت الحاجة تدعو إليها قبل لقائهما لترتيب أمر الخطوبة في المساء. لم يكن أي تعرّف عليه في هذا الوقت، والذي سيؤخره دون ريب، أمراً يبعث على السرور. ناهيك عن أن يجيء هذا التعرف من تيسّا. ولم يكن مخطئاً عندما تبيّن أن من لمحه يسير في الشارع هو تيسا، تعلو محياها نظرة خفر وحرمان، متجهة صوب ذلك المنعطف بالذات، منعطف لونغ آرنو، الذي كان يسلكه في تلك اللحظة بالذات. وبينا اتصل حديثه مع دوفيزي الشاب أحس بأثر انزعاج خفي أنبأه أن تيسا قد لمحته وستلحقه دون ريب: لم يكن هناك مجال للهروب منها على امتداد هذا الطريق المستقيم بقرب نهر آرنو، وفوق جسر روباكونتي. لكنها لن تجرؤ على التحدث إليه أو الاقتراب منه عندما لا يكون وحده، وهو سيحافظ على دوفيزي بجانبه حتى يصلا إلى باب منزل باردو. أخذ يغذّ الخطا، وأمسك بتلابيب خيوط جديدة من الحديث، لكن هاجس إحساسه بأن تيسا تتعقبه – رغم أنه كان يفتقر إلى الدليل المادي على ذلك – كان يتفاقم أكثر فأكثر. كان

الأمر مزعجاً – ولربما تفاقم الانزعاج بسبب أن قدراً معيناً من العطف والشفقة تجاه هذه المخلوقة الصغيرة قد جعل العزم على الهروب منها، دون أن تفطن لذلك، مصدر شعور لا يوفر أي نوع من الارتياح. ورغم ذلك فقد ثابر تيتو على مرماه وحمل رفيقه على مصاحبته حتى الباب، متدبراً أمر وداعه بذكاء دون أن يدير وجهه صوب ناحية كان بإمكانه لو فعل أن يلمح زوجاً من العيون الزرقاء الملحاحة. وبينا كان يصعد الدرج الحجري حاول أن يتخلص من مشاعر مزعجة عن طريق تطمينه نفسه بأن تيسا ربما لم تلمحه، في نهاية المطاف، أو، إن حدث هذا الشيء، ربما لم تكن تتعقبه.

لكن – ولربما لأن ذلك الاحتمال لم يكن يركن إليه بقوة – عندما انتهت الزيارة خرج من المدخل سريعاً وبصورة تنمّ عن أنه غافل عن أي شيء يمكن أن يكون على يمينه أو يساره. على أن أعيننا مكوّنة بشكل يمكّنها من أن تمسح زاوية عريضة دون طلب الأذن من إرادتنا. وتيتو كان يعرف أن هناك شخصاً صغيراً يدّثر نقاباً أبيض يقف بجوار المدخل – كان يعرف ذلك جيداً قبل أن يستشعر يداً تحط على ذراعه. كانت إمساكة حقيقية، ولم تكن لمسة خفيفة حيية، ذلك أن تيسا المسكينة عندما رأت جدية خطوته اندفعت للأمام بمجهود يائس. لكنه عندما توقف والتفت صوبها، كانت تعلو وجهها نظرة مذعورة، كما لو أنها كانت تخشى عاقبة جسارتها.

قال تيتو بحدية في صوته أكثرمما درجت على سماعه من قبل: " تيسا! لمَ أنت هنا؟ يجب ألا تتعقبيني – يجب ألا تواظبي على

انتظاري بقرب المداخل ".

توسعت عيناها الزرقاوان بفعل الدموع، ولم تنبس ببنت شفة. كان تيتو يتخوّف من شيء أسوأ من التهكم: أن يشاهد في فيا دي باردي مع فتاة ريفية تميل إلى سن فتاة صغيرة تنظر إليه بشكل مؤسٍ . كان تحف بالشارع مساكن صامتة صمت القبور، ليس من جرّاء المرور، إنما من احتمال أن يظهر برناردو ديل نيرو، أو من على درجة خطورته نفسها، في أية لحظة. حتى ولو لم يكن اليوم يوم خطوبته، فالحادثة ستكون مزعجة ومؤرقة. ومع ذلك فسيكون عملاً فظاً – كان مستحيلاً – صرف تيسا بكلمات نابية. هذه الحماقة التي بدرت منه مع السيريتانو – وحقيقة أنها لبثت مدفونة دون ضجيج لعدة شهور، إذا بها تطالعه الآن على حين غرّة في شكل هذا المحصول من الإزعاج في غير أوانه ! لم يكن بوسعه استعمال كلمات قاسية، لكنه تكلّم بسرعة.

" تيسا، لا أستطيع – يجب ألا أتحدث إليك هنا. أنا ذاهب إلى الجسر وسأنتظرك هناك. الحقي بي على مهلك ".

انعطف بسرعة واتجه ناحية جسر روباكونتي، وهناك استند إلى حائط أحد البيوت الصغيرة الغريبة الشكل التي تنهض على الجسر على مسافات متساوية، ناظراً صوب الطريق الذي ستسلكه تيسا في قدومها. كانت رؤية تلك المخلوقة الصغيرة تتقدم بوجهها المكوّر، وقد علاه شحوب وحزن كبيران منذ أن فارقه عند باب كنيسة " النانزياتا "، كافية للتأثير في قلب أشدّ قساوة بكثير من قلب تيتو. ولحسن الحظ فقد

كان الجسر مكاناً قلّ أن ترتاده المارة، وفي هذه اللحظة كنت لا ترى أية سابلة عليه إلا بالكاد. لم يدّخر وقتاً في الشروع بالكلام ما إن أصبحت بجانبه.

" والآن، يا تيسا، ليس لدي متسع من الوقت. يجب ألا تبكي. لماذا تعقبتني هذا الصباح؟ يجب ألا تعودي إلى هذه الفعلة ثانية ".

قالت تيسا بصوت كالهمس وهي تصارع نشيجاً كان لا بد سيتصاعد مباشرة عند سماع هذا الصوت مجدداً من تيتو: " اعتقدت، اعتقدت أنك لن تتأخر في المجيء لترعاني مرة ثانية. والسيدة تضربني، ولا يمكنني التحمل أكثر. ودائماً عندما تأتي عطلة أقول علّني أعثر عليك، ولا أفلح. أوه، أرجوك لا تصرفني عنك ثانية! لقد مر وقت طويل، وأنا أبكي الآن على هذا النحو، لأنك لا تأتي إلي أبداً. لست أملك غير ذلك، فالأيام طويلة جداً، ولست أبالي بالماعز والأولاد، أو أي شيء – ولا أستطيع – "

في هذه الأثناء تسارعت وتيرة النشيج، وكذا انهمار العبرات الكبار. شعر تيتو أنه أعجز من أن يفعل شيئاً سوى أن يفرّج عن كربتها. يصرفها عنه – أجل، هذا ما ينبغي فعله، في الحال. لكن كان يستحيل، رغم ذلك، أن يقول لها أي شيء يمكن أن يتركها في حالة من الحزن اليائس. لمح مشكلة جديدة في الخلفية، لكن صعوبة اللحظة الحالية كانت ضاغطة جداً بشكل لم يقو معه على وزن خطورة العواقب البعيدة.

قال، بنغمات صوته الملاطفة المعهودة: " تيسا، ياصغيرتي

الحلوة، يجب ألا تبكي. تحمّلي بلوى سيدك لفترة أطول قليلاً. سأعود إليك. لكنني مسافر حالياً إلى روما – وهي بعيدة جداً من هنا. سأعود خلال بضعة أسابيع ومن ثمّ أعدك بأن آتي إليك. عديني بأن تكوني مطيعة وانتظريني ".

عاد الصوت الذي يتذكّره جيداً من جديد، ولم يكفِ وقع هذا الصوت نفسه لتهدئة روع تيسا. رفعت بصرها إليه بعينين واثقتين به، لم يتوقف لمعانهما من جرّاء الدمع الذي ذرفته، وهي تنشج طوال الوقت بالرغم من محاولاتها القصوى لإطاعته. عاود القول بصوت لطيف –

" عديني، يا تيسا ".

همست قائلة: " نعم. لكنك لن تتأخر كثيراً؟ "

" لا، ليس كثيراً. لكن يجب أن أذهب الآن. وتذكري ما قلته لك، يا تيسا. يجب ألا يعلم أحد بأنك قابلتني على الإطلاق، وإلا فقدتني للأبد. والآن، عندما أتركك اذهبي رأساً إلى البيت، وإياك أن تتعقبيني ثانية. انتظري عودتي. وداعاً، يا صغيرتي الحلوة تيسا: مؤكد سآتي ".

لم يكن هناك مجال لغير ذلك. يحب أن يمضي تاركاً إياها دون أن ينظر وراءه ليرى مدى تحملها ذلك، إذ لم يكن لديه متسع من الوقت. وعندما نظر حوله فعلاً ألفى نفسه في فيا دي بينشي حيث لا مجال لرؤية ما كان يحدث على الجسر. لكن تيسا كانت مفرطة في ثقتها وطاعتها بشكل لم تقو معه على أن تعصي له أمراً.

أجل، انتهت مشكلة ذلك اليوم. لكن هذه العودة إليه من جانب تيسا، حين تعذّر عليه أن يضع حداً لكل المصاعب معها بعدم خداعها له، كانت حادثة لا يستسيغ بقاءها في ذاكرته. لكن تفكير تيتوكان مخترقاً لتوه بأول حب مفعم بالأمل، مرتبط بكل الآمال السعيدة التي تدغدغ طموحه. وتلك الضرورة المستقبلية التي ستجلب الغمّ لتيسا ليست تعنيه في شيء إلا بقدر ما تعني لموكب خيالة يقضون وقتاً ممتعاً في السهل المشمس صرخة نائية لحيوان صغير مكابد عالق في أجمة. وعندما كان تيتو، وللمرة الثانية ذلك اليوم، يغذ الخطا فوق جسر روباكونتي لم يكن التفكير بتيسا يسبب أي نقصان ملحوظ في سعادته. كان ملفعاً جيداً بمعطفه، ولعل مردّ ذلك ليس وقاية نفسه من البرد بقدر وقايتها من الانتباه الإضافي الذي يمكن أن يسترعيه مظهره الأنيق . قفز متسلقاً الدرج الحجري درجتين درجتين، وقال بسرعة لماسو الذي التقاه –

" أين السيدة؟ "

" في المكتبة. إنها جاهزة تماماً، وقد حضر منذ بعض الوقت مونا بريجيدا والسيد برنادو مع السيد براتشيو، دون أي أحد من البقية ".

" قل لها إنني أريد الاجتماع بها على انفراد. أنا بانتظارها في السالوتو salotto"(4)

دخل تيتو غرفة كانت مؤثثة بشكل يختلف كلياً عن ألوان المكتبة الخفيفة نصف الشاحبة ونصف الكالحة . كانت الجدران مكسوة بالفريسكو البراق مع " نزوات " الحوريات والعشاق وهم يلهون تحت

زرقة السماء وسط الأزاهير والعصافير. وكان الأثاث الوحيد، إضافة إلى المقاعد الجلدية الحمراء والمنضدة المركزية، يتمثل في مزهريتين بيضاوين طويلتين، وإله رعي روماني شاب يعزف على الفلوت، رسمه شاب واعد يدعى مايكل أنجيلو بوناروتي (5). كانت غرفة تعطي المرء الإحساس بأنه في مكان خلاء مشمس.

بقي تيتو مدّثراً بمعطفه، ومصوّباً بصره نحو الباب. ولم تكد تمضي لحظة حتى دخلت رومولا، صورة كاملة من بياض وذهب، أشبه بسوسنة ممشوقة أكثر من أي وقت مضى. كان تربط ثوبها الحريري الأبيض بحزام من ذهب في طرفه كانت تتدلى شراشيب كبيرة، وفوق كل ذلك كان هناك شعرها المتماوج تعلوه غلالة بيضاء هي نقابها الطويل الذي كان مثبتاً على حاجبها بطوق من لؤلؤ، من هدايا برناردو ديل نيرو، وكان الآن مفروقاً عن وجهها ويرتدّ بمجموعه للوراء.

" Regina mia!"(6) (يا مليكتي!) قال تيتو، وهو يتناول يدها ويقبلها دون أن يزيح المعطف الذي كان يدّثره. لم يقوَ على منع نفسه من الرجوع للوراء ليتملاّها، بينما وقفت هي تغمرها البهجة الهادئة وذلك الاعتداد الرائع بالذات الذي ينشأ بفعل نظرة الحب المشوب بالإعجاب .

قال تيتو وهو يكبح جماح نفسه لتذكره بأن الوقت قد يكون قصيراً : " رومولا، هلا قدتني الآن إلى الغرفة الأخرى؟ قلتِ إنني يجب أن أراها عندما تفرغين من إعداد كل شيء ".

قادتـه، دون أن تنطـق، بكلمـة إلـى داخـل غرفـة طويلـة ضـيقة مطلية بلون فاتح كالأخرى، لكنها تقتصر على الطيور والأزهار. كان الأثاث الموجود فيها عتيقاً برمّته. فقد شوهدت أشياء عتيقة حال لونها كانت تستعمل للاستخدام أو الزينة النسائية، مرتّبة في خزانة مفتوحة بين النافذتين الضيقتين. وفوق الخزانة علقت صورة أم رومولا. وتحتها، على أعلى الخزانة، صليب عليه المسيح المصلوب والذي كانت رومولا قد أحضرته من دير سان ماركو.

قال تيتو مبتسماً: " لقد أحضرت شيئاً هو تحت معطفي ". وبعد أن ألقى جانباً المعطف الفضفاض الكبير أبرز المعبد الصغير الذي رسمه بييرو دي كوسيمو. كان الرسام قد نفّذ مراد تيتو بكل فتنة، وقد كفّر عن طول تأخره حتئذٍ. أضاف تيتو وهو يمسكها من يدها، ويقودها صوب الخزانة: " أتعلمين الغرض من هذه، يا عزيزتي رومولا؟. إنه مزار صغير يبعدك للأبد عما يذكّرك بالأشياء الحزينة. لقد بعد عنك الحزن الآن. ولسوف ندفن كل صوره – ندفنها في قبر السعادة. انظري!"

عبرت ارتعاشة طفيفة وجه رومولا بينما كان تيتو يمسك بالصليب. لكنها لم ترغب في إبعاده عن مرماه. فعلى العكس كانت هي نفسها ترغب في كبت بعض الذكريات الملحة والأسئلة التي كانت تتقافز كأشباح مبهمة عبر تفكيرها الأكثر هناءة.

فتح اللوح الثلاثي ووضع الصليب داخل الفرجة الوسطى. ثم أغلقه ثانية وأخرج المفتاح. وبعد أن وضع المعبد الصغير في المكان

الذي كان الصليب موضوعاً فيه، قال –

" والآن، يا رومولا، انظري وتأكدي ما إذا كنت راضية بالصور التي صنعها بييرو العجوز لأجلنا. أليست شيئاً أنيقاً وجميلاً؟ والفضل في اختيارها يعود لي ".

قالت رومولا، وهي تنظر بعينين سعيدتين مبتلتين إلى تمثال باخوس الصغير، يحمل عناقيده الأرجوانية : " آه! أنت – إنها مثال الكمال! وأنا أريادن، وأنت تتوجني! أجل، هذا صحيح، يا تيتو. لقد توجت حياتي البائسة ".

أمسكا بيدي بعضهما بينما كانت تتكلم، ونظرا إلى صورتيهما. لكن الحقيقة كانت أجمل بكثير من الصورة. هي بكل كيانها بيضاء كالسوسنة وذهبية، وهو بجماله الداكن المتوهج فوق الرداء الأرجواني ذي الحاشية الحمراء.

قالت رومولا: " وهل كان من رسَمَه هو صاحبنا الغريب الأطوار بييرو؟ هل أدخلت في روعه أن يرسمني كأنتيغون، علّه بهذا العمل يتوصل إلى صورة مشابهة لي؟ "

"لا، كان هو من طلب مني أن أحصل على الأذن برسمك أنت ووالدك، وكان هذا شرطه لتنفيذ ذلك".

" آه! والآن عرفت سبب تخليك عن خاتمك. أدركت أنه كانت لك خطة ماكرة في توفير السعادة لي".

لم يجفل تيتو لذلك. فأوهام رومولا البسيطة بشأنه لم تعد منذ أمد بعيد تسبب له أي شيء سوى الرضى. اكتفى بالابتسام وقال –

" كان يمكن أن أدّخر خاتمي. فبييرو أبى أن يقبل أي مال مني. فهو يعتقد أن أتعابه دفعت له برسمه إياك. والآن، بعد أن أسافر، انظري كل يوم إلى ذينك الرمزين الصغيرين لحياتنا مع بعض – السفينة على البحر الهادئ، واللبلاب الذي لا يعرف الذبول، وذينك العاشقين اللذين كفّا عن جرح مشاعرنا ويقومان بنثر البتلات الغضة التي تشابه قبلاتنا. والفهود والنمور، إنها منغصات حياتك، ما تم الآن ترويضه وكبح جماحه. ووحوش البحر الغريبة الأشكال، بعيونها الفرحة – لنرَ – إنها المقاطع عديمة الإثارة في مجلدات الكتب والتي أخذت تبدو مسلية مذ أن جلسنا قرب بعضنا ".

قالت رومولا بصوت الحب الذي تخالطه البسمة: " تيتو حبيبي! " ثم أضافت، وهي تمد يدها إليه: "لكنك ستعطيني المفتاح؟ "

قال تيتو بتصميم لعوب وهو يفتح محفظته ويلقي بالمفتاح الصغير فيها:" لا إطلاقاً! سألقيه ليغرق في نهر آرنو ".

" لكن هب أنني رغبت في أن ألقي نظرة على الصليب ثانية؟ "

" آه! لذلك السبب بالذات هو مخفي – مخفي وراء صور الشباب والفرح هذه ".

طبع قبلة صغيرة على جبينها، ولم تفه هي بأي شيء آخر، ولبثت جاهزة للإذعان، شأنها شأن الأنفس القوية، عندما لا تشعر بأي سبب وجيه يدفعها للمقاومة.

وعلى أثر ذلك انضما إلى المجموعة المنتظرة التي شكلت

موكباً صغيراً مهيباً في سيرها على امتداد جسر روباكونتي صوب سانتا كروتشه. وقد سارت المجموعة ببطء، ذلك أن باردو، بعد أن تعود على عدم مغادرة البيت لعدة سنين، كان يسير بخطوة أكثر تهيّباً مما درج عليه. على أن تلك الخطوة المتمهلة وقعت موقعاً ملائماً للهيبة النقرسية (من داء النقرس) للسيد بارتولوميو سكالا الذي شرّف المناسبة بحضوره، إلى جانب ابنته أليساندرا. ولقد جرت العادة على وجود حاشية طويلة من الأقرباء والأصدقاء في الـ sposalizio، أو الخطوبة، بل وقد وجد أن من الضروري في زمن مضى تحديد العدد بالقانون لما لا يتعدى الأربعمئة – مائتان من كلا الطرفين. إذ نظراً لأن وليمة تقام لكل الضيوف بعد هذا الحفل الأولي، إضافة إلى أخرى بعد nozze أو الزواج، فإن مرحلة الزفاف الأولى بالذات تغدو مدمرة من ناحية التكاليف، كما تشكّى ذلك البنيدكتي الأديب، ليوناردو برونو (7)، في قصة زواجه هو. لكن باردو، الذي بقي في فقره متحرراً بكل إباء من أي مظهر يشي بأحقيته في المزايا المرتبطة عادة باسم عائلة قوية، أبى أن توزع أية دعوات تقوم على أساس قوة الصداقة فحسب، وكان الموكب المتواضع من عشرين شخصاً والذي تبع الـ sposi(8) (الخطيبين)، مع ثلاثة أو أربعة استثناءات، مؤلفاً من أصدقاء لباردو وتيتو منتقين على أسس شخصية.

مشى برناردو ديل نيرو في الطليعة أمام باردو، الذي قاده من جهة اليمين تيتو، بينما أمسكت رومولا بيد والدها الأخرى. وباردو نفسه كان قد تزوج في سانتا كروتشه، وكان ألح على خطبة رومولا

وتزويجها هناك، مؤثراً ذلك على كنيسة سانتا لوشيا الصغيرة المجاورة لسكناهم، لأنه كان يتوفر على رؤيا عقلية كاملة للكنيسة الكبيرة التي كان يأمل أن يحظى فيها بمدفن وسط الفلورانسيين المكرّمين. ولحسن الحظ كان الطريق قصيراً ومباشراً وبعيداً عن صخب الكرنفال، لو أن فقط بإمكانهم العودة قبل بدء الرقص أو العروض في هذه الساحة الكبيرة ساحة سانتا كروتشه. اصطبغ الغرب بالحمرة عندما اجتازو الجسر، وكان يسكب ضوءاً رخياً على الموكب الجميل الذي أضفى عليه حضور الوالد الكفيف مسحة من المهابة. لكن عندما انتهى الحفل، وخرج تيتو ورومولا إلى درج الكنيسة العريض يضعان على خنصريهما الخاتمين الذهبيين اللذين يربطانهما في مصير واحد، كانت ظلمة المساء قد تعمقت لتتحول إلى نجمات تصارع البقاء، وكان الخدم قد أوصوا بإيقاد المشاعل.

وبينما كانوا يخرجون وقعت على أسماعهم أغنية مرعبة وغريبة، كما لو كانت من Miserere(9) وبدا لهم في طرف الساحة كأن سيلاً من الناس قد دُفع للخلف بسبب شيء مقترب من ناحية بورغو دي غريتشي.

" إنه أحد مواكبهم التنكرية، على ما أعتقد "، قال تيتو الذي كان يقف الآن وحده مع رومولا، بينما تولى برناردو الاهتمام بباردو.

وبينما كان يتكلم لاحت، على ارتفاع شاهق فوق رؤوس النظارة صورة كبيرة وممتقعة تمثّل الزمن المجنّح بمنجله وساعته الرملية يحيط به الأطفال المجنحون، الساعات. كان يستقل عربة عالية مغطاة

بالكامل بالأسود وكانت الثيران التي تجر العربة مغطاة أيضاً بالأسود، بينما كانت قرونها وحدها تبرز بيضاء فوق المنظر المعتم. وعليه فقد بدا لأولئك الذين يقفون على مسافة من المكان، في الظل المعتم للمساكن، كما لو أن الزمن وأولاده كانوا أشباحاً تسبح في الفضاء. وخلفهم كان يتقدّم ما بدا أنه كوكبة من الموتى الموشحين يسيرون الهوينى فوق سواد المشهد. وبينما كانوا يسيرون ببطء كانوا ينشدون نغمة نادبة (10)

تملك رومولا رعب بارد ذلك أنه في تلك اللحظة بالذات بدا أن رؤيا أخيها، والتي لم يكن سهلاً طردها من تفكيرها، قد تحققت نصف تحقق. تشبثت بتيتو الذي قال بعد أن خمّن ما كان يدور في خلدها، –

" أي حماقة مرعبة تسرّ أحياناً قومك الفلورانسيين؟ دون ريب هذا من بنات أفكار بييرود دي كوسيمو المولع بهذا النوع من اللهو الكالح ".

" تيتو، ليت ذلك لم يحدث. سيعمّق ذلك صور تلك الرؤيا التي أتمنى التخلص منها ".

" لا، يا رومولا، لن تبصري الآن إلا صور سعادتنا .لقد حبست كل حزن بمنأىً عنك".

قالت رومولا، بصوت خفيض، وهي تكاد لا تعي أنها تتكلم: " لكنه ما يزال موجوداً – إنه مخبأ فقط ".

قال تيتو "أترين، لقد ذهبوا جميعهم الآن! سوف تنسين هذه المسرحية الإيمائية المخيفة عندما نصبح في الضوء، ويتاح لنا رؤية

عيني بعضنا. خليق بحبيبتي أريادن ألا تنظر أبداً إلى الوراء الآن – إنما للأمام فقط، لعيد الفصح، حين ستنتصر بمؤازرة طارد همومها.

الكتاب الثاني

الفصل الحادي والعشرون
فلورانسة تنتظر زائراً

كان اليوم السابع عشر من تشرين الثاني عام 1494: ما ينوف عن ثمانية عشر شهراً مذ أن اقترن تيتو برمولا أخيراً في غمرة الفرح بعيد الفصح، ونثر عليهما وابل من السكاكر من شتى الألوان، على نمط العادة اليونانية القديمة، إشارة رمزية إلى أن السماء ستمنّ عليهما بحلو العيش طوال حياتهما المشتركة.

ومنذ ذلك الفصح طرأ تغير كبير على أفق الأحداث في فلورانسة. ومثلما يحدث في حالة الشجرة التي تحمل آلاف الأزاهير، حيث كل برعم بمفرده مع ثمرته يعتمد على الدوران الأولي للنسغ، فعلى هذا النحو كانت حظوظ تيتو ورومولا تعتمد على بعض الشروط السياسية والاجتماعية الهامة التي شكّلت إحدى حقب التاريخ الإيطالي.

في تشرين الثاني هذا، منذ ما يربو قليلاً على أسبوع، بدت روح

القرون السالفة تعاود الدخول إلى أفئدة الفلورانسيين. دوّى الجرس الكبير في برج القصر بصوت الإنذار الطارق كالمطرقة، واحتشد الناس ومعهم أسلحتهم الصدئة، وأدواتهم ونبابيتهم مما وقعت عليه أيديهم ليطردوا آل ميديتشي. وقد تم إغلاق بوابة سان جالو الكبيرة تمام الإغلاق على بييرو المتعجرف المغضب، الذي كان يعدو بحصانه متجهاً إلى بولونا ووراءه فرسانه المستأجرون مذعورين، وكذا أغلقت على أخيه الشاب الأكثر تصميماً، الكاردينال، الذي كان يفرّ متنكراً في إهاب راهب فرانسيسكاني: وقد خصصت مكافأة لرأسيهما. ولاحقاً لذلك، حدثت بعض حوادث النهب طالت المنازل، جرياً على سابقة قديمة. وتم محو الصور المخزية المرسومة على الأبنية العامة، صور الرجال الذين كانوا تآمروا على آل ميديتشي في سالف الأيام. ودعي أعداء آل ميديتشي المنفيون ليعودوا إلى وطنهم. وأصبح الطغاة الذين لا يكسو الريش إلا نصفهم خارج عشهم الرائع في فيا لارجا، واستعادت الإمبراطورية زمام مبادرتها مرة أخرى.

لكن بعد أسبوع من هذه الآونة، أعدّ القصر العظيم في فيا لارجا لاستقبال نزيل آخر. وإذا كانت الستائر الكبيرة تتدلى فوق الشوارع بألوان لم يعهدها الناس، وإذا كانت الرايات والستائر تتدلى بأعداد كبيرة من النوافذ، وإذا كانت السجاجيد والبسط الممتدة فوق كل الأدراج والأرصفة التي يمكن أن تطأها أقدام استثنائية تشكل برهاناً لا يطاله الشك على الفرح، فإن فلورانسة كانت جدّ فرحة وهي تنتظر زائرها الجديد. كان سيل الألوان ينسكب من القصر في فيا لارجا بقرب

الكاتدرائية، ثم قرب الساحة الكبيرة بياتزا ديلا سنيوريا، وفوق جسر فيتشيو وصولاً إلى بورتا سان فريديانو – البوابة التي تطل على بيزا. هناك، بجانب البوابة نصبت منصة وخيمة لأجل السينوريا. والسيد لوقا كورسيني، دكتور القانون، شعر أن قلبه قد بدأ يدق بعض الشيء لإحساسه بأن هناك خطبة لاتينية يُنتظر منه أن يقرأها . وكان على كل كبير في السن من القادة الفلورانسيين أن يحضر نفسه، بأن يكون حليق الذقن، ويرتدي الثوب الحريري lucco المطرّز الحاشية استعداداً للسير في الموكب. وكان الشبان المنتمون لعائلات ميسورة يتملّون أرديتهم الجيدة الباذخة على نمط الموضة الفرنسية والتي قصد منها أن تؤثر في نفس الغريب، لأنها ستكتسب كياسة خاصة عندما يرتديها الفلورانسيون. وكان قسم كبير من الكهنوت، بدءاً من رئيس الأساقفة في تألقه حتى جمهرة الرهبان، سود، وبيض، ورماديون، يتشاورون منذ الصباح الباكر حول كيفية احتشادهم، بما يثقل كواهلهم من أثريات ورايات مقدسة ومجوهرات موقوفة لهذا الغرض، كيما تكون حركاتهم متوائمة مع الوصول المتوقع للزائر المتألق، في الساعة الثالثة بعد الظهر.

زائر ليس له من مثيل! إذ أنه كان قدم عبر ممرات جبال الألب بجيش لم تشهده إيطاليا من قبل: يرافقه آلاف السويسريين المرعبين، المعتادين على القتال بدافع الحب والكراهية وأيضاً كمرتزقة. وتحف به كوكبة من الفرسان الشجعان الفخورين بالاسم. ويصحبه كذلك مشاة لم يوجد فيما مضى لهم من مثيل، وكل واحد من مائة

منهم كان يحمل قربينة (2). لا، ومعه مدفع من البرونز ليس يطلق حجارة بل كرات حديدية، ليس تجرّه الثيران بل الأحصنة، وقادر على الإطلاق للمرة الثانية قبل أن تتمكن المدينة من إصلاح الرتق الذي أحدثته الكرة الأولى. وقد قارن بعضهم الوافد الجديد بشارلمان، باني فلورانسة الشهير(3) قاهر الملوك الفاسدين، موضع الترحاب، منظّم الكنيسة ومحسنها. بعضهم آثر المقارنة مع سايروس، محرر الشعب المختار، مسترجع الهيكل (4). ذلك أنه قدم عبر الألب ومعه أكثر المشاريع ألقاً: تقرر أن يسير عبر إيطاليا وسط تهليل الشعب الشاكر والمعجب. وأن يلبّي كل الشكاوى المتضاربة في روما. وسيمتلك، عن طريق الحق الوراثي وقليل من القتال، مملكة نابولي. ومن ذلك المنطلق المريح كان يتأهب لغزو الأتراك الذين كان قسم منهم سيقطع إرباً إرباً، والقسم الباقي سيتحول إلى دين المسيح. لقد كانت خطة تبدو أنها تلائم الملك المسيحي الأول (5)، رئيس دولة أصبحت، بفضل مناورات الحاذق لويس الحادي عشر الذي كان قد توفي قبل عشر سنين يتملكه خوف عظيم على مطامحه الشخصية، أقوى الامبراطوريات المسيحية. ونقيض (6) سايروس وشارلمان هذا لم يكن سوى ابن ذلك الحاذق لويس – الشاب تشارلز الثامن ملك فرنسا.

ومن المؤكد، بعموم القول، أنه يعسر على أي شيء أن يبدو أكثر جلالاً، أو ملاءمة ليوقظ في صدور الشعب ذكرى الشرائع العظيمة التي أرسي بموجبها أساس طبقات جديدة في تاريخ البشرية. وقد انتشر على نطاق واسع اعتقادمفاده أن قدوم الملك الفرنسي

وجيشه إلى إيطاليا كان واحداً من تلك الحوادث التي يميل الاعتقاد معها إلى أن التماثيل الرخامية تتعرّق، وأن المحاربين الأشباح يتقاتلون في الهواء، وأن الحيوانات رباعية القوائم تلد مواليد هائلة – وأن قدومه لا يعود إلى أوامر العناية الإلهية المعتادة، بل هو بمعنى خاص عمل من لدن الله. لقد كان اعتقاداً لا يقوم على الطابع الخطير بالضرورة لغزو أجنبي عاتٍ بقدر ما يقوم على بعض المشاعر الأخلاقية التي أسبغ عليها مظهر الأزمنة شكل الهواجس: مشاعر كانت وجدت ترجمتها اللفظية اللافتة في صوت رجل واحد.

ذلك الرجل كان الأخ جيرولامو سافونارولا، رئيس دير سان ماركو في فلورانسة. وفي أحد صباحات أيلول عندما كانت تطرق أسماع الناس أنباء دخول الجيش الفرنسي إلى إيطاليا كان يتلى وعظ من الكتاب في كاتدرائية فلورانسة: " انظروا إلي، حتى أنا، أجلب فيضان المياه على الأرض "(7) وقد اعتَقَدَ أنه بفعل الهداية العليا إنما وَصل إلى هذا الحد في عرضه لسفر التكوين في فترة الصوم الكبير الفائتة. واعتقد أن " فيضان الماء " – شعار الغضب المنتقم والرحمة المطهِّرة معاً – هو الرمز الموحى به من الله للجيش الفرنسي. ومستمعوه، وبعضهم كان يُعتقد أنهم من بين أخيار العصر – الناس الأكثر علماً في المدن الإيطالية الأكثر ثقافة وحضارة – كانوا يعتقدون ذلك أيضاً، وكانوا يصغون برهبة مرتعشة. ذلك أن هذا الرجل كان يتوفر على قوة لا تضاهى من حيث التأثير بمعتقداته على الآخرين، وتحويل شتى العقول عن معتقداتها. ومنذ ما يقرب من أربع سنوات

خلت كان قد أعلن من منبر فلورانسة الرئيسي أن كارثة ستحل بإيطاليا، وأن الكنيسة ستتطهر بفعل هذه الكارثة.وقد بدا أن سافونارولا يعتقد – ومستمعوه كانوا مترددين في إيمانهم إلى حد ما – أن لديه رسالة كرسالة الأنبياء العبرانيين، وأن الفلورانسيين الذين ألقى رسالته وسطهم كانوا بمعنى ما شعباً ثانياً مختاراً. ولم تكن فكرة العطايا النبوية فكرة نائية إبّان ذلك : عرافو الرؤى، المنذرون الظرفيّون بالأشياء التي ستحصل، كانوا غير مغمورين البتة سواء خارج الدير أو داخله. لكن هذه الحقيقة عينها جعلت سافونا رولا يبرز بشكل كبير على أنه استثناء كبير. وبينا كانت أعطية النبوءة لدى الآخرين شمعة ضئيلة القيمة تضيء الزوايا الصغيرة للمصير البشري بثرثرة تنبؤية، كانت في سافونارولا مشعلاً عظيماً يصل إشعاعه إلى البعيد هداية وتحذيراً للناس. وبالنسبة لبعض أكثر العقول رجاحة فقد وفّر الطبيعة غير العادية لبصيرته النافذة إلى أغوار المستقبل شهادة قوية من الأحوال الخاصة التي سادت في ذلك العصر.

وفي نهاية 1492، السنة التي توفي فيها لورينزو دي ميديتشي وجاء فيها تيتو ميليما كمسافر جوال إلى فلورانسة، كانت إيطاليا تنعم بالسلام والرخاء اللذين لا يتهددهما أي خطر وشيك محدد. لم تكن هناك خشية من المجاعة، ذلك أن المواسم كانت طافحة بالغلال والنبيذ والزيوت. وكانت القصور الجديدة تنهض في أنحاء المدن الجميلة بكافة، والفيلات الجديدة على المنحدرات والقمم التي تسر من رأى. ولم يكن الناس الذين نالوا أكثر من حصصهم من هذه الأشياء الطيبة

يخشون من العدد الأكبر الذين نالوا أقل منهم. إذ أن دروع المواطنين أخذ يعلوها الصدأ، وبدت الشعوب وقد دجنت وأصبحت وديعة تلحس أيدي الأسياد الذين كانوا يدفعون رواتب جيش جاهز عندما يحتاجونه، مثلما دفعوا ثمن بضائع سميرنا Smyrna. حتى الخوف من التركي خفت حدته، ووجد البابا أن قبول الرشاوى منه لقاء تسميم صغير مؤمّل ينطوي على ربح فوري أكثر مما في وضع الخطط إما لهزيمته أو رده عن مذهبه.

وبالإجمال فهذا العالم، بإمبراطوريته المقسمة وكنيسته العالمية الرحبة بدا مؤسسة جميلة للقلة التي كانت محظوظة أو حكيمة بما فيه الكفاية لتحصد منافع الحماقة البشرية: عالم فيه الشهوة والبذاءة، الكذب والخيانة، الاضطهاد والجريمة، أشياء ممتعة، ومفيدة، وعند حسن إدارتها، ليست خطرة. وكنوع من شراريب القماش أو الزينة التي تزيّن المفاتن المادية للظلم، والجشع، والفسق، فقد توافرت رعاية العلم المهذب والفنون الجميلة، حتى إن المديح يمكن التوفّر عليه دائماً في أرقى مظاهر اللغة اللاتينية التي يمكن إتقانها في ذلك الأوان، وكان الفنانون المجلّون حاضرين لرسم المقدس والمدنس بمهارة تخلو من المحاباة. وقيل إن الكنيسة لم تشهد مثل هذا العار في رئاستها (8)، ولم يبد عليها مثل هذه الندرة في المؤشرات على التجديد، والإيمان الجوهري بأعضائها من المراتب الدنيا. ومع ذلك فقد شهدت من الازدهار أكثر مما شهدته في بعض الأيام الماضية. في الأعالي كانت السماوات جميلة ومبتسمة. وفي الأسفل لم تبد أية مؤشرات على أي

زلزال.

ومع ذلك، كما رأينا، وجد في ذلك الأوان في فلورانسة شخص لم ينفك طيلة سنتين أو يزيد عن الوعظ بأن كارثة كانت على وشك الحدوث، وأن العالم لم يكن بالتأكيد مكوناً ليشكل راحة دائمة للمنافقين، والإباحيين، ومضطهدي الشعوب. ومن وسط تلك السماوات المبتسمة رأى سيفاً يتدلى – سيف العدالة الإلهية – الذي كان سيهوي سريعاً لينزل القصاص التطهيري بالكنيسة والعالم. وفي الفيرارا الرائعة، قبل سبع عشرة سنة، كان التناقض بين حيوات الناس ومعتقداتهم المعلنة ضاغطاً عليه بقوة تكفي لتدمير شهيته للعالم، وفي سن الثالثة والعشرين دفع به إلى الدير. كان يعتقد أن الله قد أودع في الكنيسة مصباح الحقيقة المقدس لهداية البشر وخلاصهم، وكان يرى أن الكنيسة، في فسادها، قد بدت أشبه بضريح يخفي المصباح. ومع انصرام السنين ازدادت الفضائح وتضاعفت، وبدا النفاق وقد أعطى محله للقحة. هل توقف العالم، آنذاك، عن أن يكون له حاكم عادل؟ هل تم أخيراً هجر الكنيسة والتخلّي عنها؟ لا، بالتأكيد: في الكتاب المقدس هناك سجل للماضي يمكن أن يشاهد فيه كما لو في مرآة ماذا سيحدث في مقبل الأيام، وأظهر الكتاب أنه عندما يصبح سوء الشعب المختار، وهو عنوان الكنيسة المسيحية، فاضحاً فإن دينونة الله لا بد نازلة عليهم. لا، فالعقل نفسه أعلن أن الانتقام كان وشيكاً، إذ ما هو الشيء الآخر الذي سيكفي لأن يردّ الناس عن إيغالهم في الشر؟ وما لم يتم استرجاع الكنيسة فكيف يمكن للوعود أن تتحقق، بأن الوثنيين

يجب تحويلهم إلى الدين الحنيف وأن يصبح العالم بأجمعه خاضعاً لقانون صحيح واحد؟ كان رأى إيمانه منعكساً في الرؤى – وهي طريقة لرؤية الأشياء كانت تتكرر معه منذ شبابه وما بعد.

لكن القوة الحقيقية للبرهان بالنسبة لجيرولامو سافونا رولا كانت تكمن في سخطه المستعر لمرأى الظلم، وفي إيمانه الشديد بعدالة خفية ستضع حداً للظلم، وفي طهارة خفية كان الكذب والوساخة بالنسبة إليها من المحرمات. وبالنسبة لروحه المتوقدة المحبة للقوة، والمؤمنة بغايات عظام، والتواقة لتحقيق تلك الغايات عن طريق ممارستها إرادتها القوية فإن الإيمان بحاكم أعلى ونزيه قد أصبح كالإيمان بتدخل إلهي سريع سينزل العقاب ويأتي بالإصلاح (9).

في الآن ذاته، وفي ظل ذلك القناع الرائع من الكرامات المقدسة والدنيوية والذي بدا أنه أسبغ الترف والتسلية على حياة رجال الكنيسة المحظوظين والعائلات الملكية كانت هناك بعض الشروط المحددة المؤثرة والتي نحت بالتدريج لتعكير صفو هذه الاحتفالية الشاملة. فلودوفيكو سفورزا – الوافر النبالة، الراعي الأخاذ لليوناردو دا فينشي الذي لا يضاهى – القابض على تاج دوقية ميلانو، والراغب في وضعه على رأسه بدلاً من تركه يستقر على رأس ابن أخ ضعيف كان على استعداد ليتقاضى النزر اليسير لتسميمه، كان يخشى جداً الملك العجوز إسباني المولد فرديناند والوصي على العرش ألفونسو من نابولي الذي عارض، مع كرهه للعسف والغدر اللذين كانا عديمي الفائدة بحد ذاتهما، تسميم أحد الأقرباء القريبين لمصلحة مغتصب

عرش لومبارديا. ومرة أخرى كانت الطبقات صاحبة الامتيازات في نابولي تخشى سيدها، البابا ألكسندر بورجيا(10). والثلاثة كنّ يرقبن فلورانسة بقلق لئلا تقرر بموقعها المتوسط قوانين اللعبة عن طرق الدعم الخفي. والأربعة بكافة، مع كل مقاطعة صغيرة في إيطاليا، كنّ يخشين البندقية – البندقية الحذرة، المستقرة، القوية التي رغبت أن تمدّ ذراعيها ليس على امتداد ضفتي الأدرياتيكي فحسب بل عبر ثغور الساحل الغربي.

وكان يُعتقد أن لورينز دي ميديتشي قد بذل جهده للحيلولة دون الاندلاع الخطير لهذه الأحقاد، محافظاً على التحالف الفلورانسي القديم مع نابولي والبابا، وفي الوقت ذاته يحاول إقناع ميلانو بأن التحالف كان في سبيل المصلحة العامة. لكن الخيلاء المتسرع لبييرو دي ميديتشي الشاب لم يعتم أن أبطل تأثير سياسة والده الحذرة، ولودوفيكو سفورزا، بعد أن داخلته الشكوك بخصوص حلف ضده، فكّر بحركة تقضي على أعدائه: فقد عزم على دعوة الملك الفرنسي لدخول إيطاليا مع حاشيته،

وكونه وريثاً لبيت Anjou، للاستيلاء على نابولي. وكان السفراء – " الخطباء " كما كانوا يدعون في أزمنة الخطب العصماء تلك – يتحركون هنا وهناك. وككردينال متمرد(11) وهو عازم على ألا يعترف ببابا منتخب بالرشوة (وعدوه الخاص والشخصي) تحرك أيضاً هنا وهناك، وعاضد الدعوة ببلاغة حماسية. وبدا أن الملك الشاب يعير أذناً صاغية. ولذا ففي عام 1493 انتشرت الإشاعة وذاع صيتها

وانتشر حتى غدا تشارلز الثامن الفرنسي جاهزاً لعبور الألب بجيش عرمرم. والسكان الطليان، المعتادون، مذ أن كفّت إيطاليا عن أن تكون قلب الإمبراطورية الرومانية، على البحث عن محكّم يأتون به من مكان بعيد، بدؤوا ينظرون بشكل غامض إلى مجيئه على أنه سبيل للانتقام لما نالهم من مظالم، وتعويضاً لهم عمّا لحقهم من ضيم.

وفي تلك الإشاعة كان سافونارولا قد سمع التأكيد بأن نبوءته يجري التحقق منها. ما الذي ملأ آذان المتنبئين القدامى سوى دوس خطوات نائية من جيوش أجنبية آتية لإقامة العدل؟ لم يعد ينظر بالتباس إلى الأفق ترقباً للعاصفة الوشيكة: فقد أشار إلى السحابة المتصاعدة. كان الجيش الفرنسي ذلك الطوفان الجديد الذي سيطهّر الأرض من الجور. الملك الفرنسي، تشارلز الثامن، كان الأداة التي اختارها الله، كما كان سايروس في أيام مضت، وكل الناس الذين تاقوا إلى الخير دون الشر كانوا سيبتهجون لقدومه. ذلك أن شواظ الحريق سيصلي من لم يتب وحده (12). فلتتب أية مدينة في إيطاليا، فلتتب فلورانسة قبل الجميع، فلورانسة حبيبة الله، لأن الصوت المنذر كان أرسل خصيصاً ليصل أسماعها – دعها تتب وتحد عن طرقها، مثل نينوى Nineveh في غابر العصور (13)، ولسوف تهب الغمامة السوداء عليها وتخلّف فقط قطرات المطر المنعشة.

كانت كلمة الأخ جبرولامو قوية. والآن أما وأن سايروس الجديد قد مضى على وجوده في إيطاليا ثلاثة أشهر، ومقره لم يكن بعيداً عن مداخل فلورانسة(14)فإن حضوره كان منتظراً هناك بمشاعر

مختلطة كان المهيمن عليها بكل تأكيد الخوف والشك. وحالياً لم يُفهَم أنـه ردّ أيـة مظـالم. ولـم يتوضـح للفلورانسـيين مـا الـذي يشـكرونه عليـه. استولى علـى حصـونهم القويـة فـي الثغـور، تلـك التـي كـان بييـرو دي ميديتشي قد تخلى عنها لـه دون ضمانة تستند إلـى أيـة شروط مشرّفة بالمقابل. لم يقم بأي شيء لإخماد الثورة المؤرقة في بيزا، والتي شجع حضوره على نشوبها للإطاحة بالنير الفلورانسي. ولم يستطع " الخطباء " حتى عندما كان نبي يرأسهم، أن يفوزوا بأية ضمانة منه، باستثناء أنه سيسوي كل شيء ما إن يصبح داخل أسوار فلورانسة.ومع ذلك فقد كان هناك رضى وارتياح لمعرفة أن بييرو دي ميديتشي المغضب قد رجم وعلى وجه حق نظراً للتسليم المشين للحصون، وفي فعل القوة ذاك استردت روح الجمهورية بعض حماسها السابق.

لم تكن الاستعدادات لاستقبال الضيف الملغز كليّة استعدادات مدينة خلدت للاستسلام. فوراء الستائر والرايات البراقة التي ترمز إلى البهجـة، كانـت تقـوم اسـتعدادات مـن نـوع آخـر جـرت بإجمـاع آراء الحكومة والشعب. وكان يتوارى داخل الأسوار جنود الجمهورية الذين جرى استدعاؤهم على عجل من المقاطعات المجاورة. وكانت هناك الأسلحة العتيقة وقد تم تجديدها أصولاً، والأدوات الحادة والنبابيت الغليظة موضوعة بكل حرص في المتناول كيما يتم انتضاؤها عند أول إشارة. وكانت هناك الألواح والأوتاد الممتازة التي ستشكل الحواجز عندما تقتضي المناسبة، ومدد وافر من الحجارة لتكون وابلاً مباغتاً من النوافذ العليا. وقبل كل شيء كان هناك شعب ميال إلى مقاتلة أي

شخص قد يستراب بمكائده في السيطرة عليهم، بعد أن ذاقوا مؤخراً نكهة تلك السعادة الجديدة. ولم تخفّ هذه الرغبة من جرّاء مجموعات الفرنسيين التي تظهر بين الفينة والأخرى والذين وفدوا من قبل لاختيار مقارهم وعلى رسغهم الأيسر يقف صقر، إذا جاز القول، وقطعة حكك (طبشور) في يدهم اليمنى لوسم الأبواب الإيطالية أيضاً (15)، ولاسيما عندما يفهم ضمناً من المؤرخين الثقات أن الكثير من أبناء فرنسا كان يسمهم في ذلك الوقت شيء يقارب التبجح والتيه، مما لا بد أنه شحذ الشهية الفلورانسية لقليل من رمي الحجارة.

هكذا كان مزاج فلورانسة صبيحة السابع عشر من تشرين الثاني عام 1494.

الفصل الثاني والعشرون

المساجين

كانت السماء مكفهرة، بيد أن هذا لم يحمل معه فارقاً يذكر في بياتزا ديل دومو(ساحة الكنيسة)، التي كانت مغطاة بسماء عطلتها ذات الجلالي الزرقاء، وكوكباتها من صفرالزنابق وشعارت النبالة. وقد فتحت أغمار الرايات المطوية عند زوايا المكان المخصص للتعميد، لكن لم يظهر أي سجاد بعد على درج الكنيسة، ذلك أن الرخام كانت تطأه أقدام كثيرة لم تكن استثنائية بأي حال من

الأحوال. أزفت ساعة العظات التي تتلى في مناسبة مجيء المسيح. وكانت الأسباب التي غمرت الشوارع بلون الإجازة هي عين الأسباب التي جعلت الكرازة في الكنيسة أمراً لا يمكن الاستغناء عنه.

لكن لم تكن كل الأقدام التي شوهدت في الساحة تهرع ناحية الدرج. كان الناس من مختلف الطبقات يجيؤون ويروحون بخطا رشيقة لأناس يجدّون في طلب أمرٍ من الأمور. وكانت مجموعات المثرثرين تنتشر بكثافة، بعضهم كان ينوي التأخر عن الموعظة وآخرون كانوا قانعين بعدم سماعها بتاتاً.

بيد أن التعبير الذي ظهر على محيا هؤلاء المتسكعين لم يكن لأشخاص يستمتعون بالاسترخاء المحبب عند مفتتح عطلة ما. فبعضهم كان منهمكاً في نقاش حميمي مشوق. وكان آخرون يصغون باهتمام شديد إلى متكلّم واحد، لكنهم يلقون بين الفينة والأخرى نظرة تتفحص أي عابر سبيل جديد. وعند المنعطف، إذا نظرت باتجاه فيا دي سيريتاني – تماماً عند المكان الذي انقطع فيه الضوء الصنعي قزحي الألوان في الساحة، وحل الصباح الرمادي على المساكن الحجرية المكفهرة – تجمّع حشد من العمال، كان معظمهم يضعون على أرديتهم أو على أجسامهم إشارات تفصح عن أعمالهم اليومية، وكانوا كلهم تقريباً يحملون بعض الأسلحة، أو بعض الأدوات التي يمكن أن تستعمل كسلاح حينما تقتضي المناسبة. ومع وقوفهم تحت أضواء الشوارع الكابية، بأذرعهم العارية المفتولة العضلات وملابسهم

المتربة، فقد بدا الانتقال من سطوع أضواء الساحة أكثر لفتاً للنظر. كانوا يصغون للكاتب بالعدل النحيل، سير سيوني، الذي توقف لتوه وهو في طريقه إلى الكنيسة. ولم تستجر كلماته اللاذعة منذ سنتين ونصف خلت في الميركاتو(1)(السوق) إلا الاستقبال المزدري، لكنه كان يتكلم الآن بمزاج رائق لإنسان كان حزبه في الأوج، ويدرك بعض ما له من تأثير على الجمهور.

كان يقول بصوته الحاد: " لا تتحدثوا إلي، لا تتحدثوا إلي عن السويسريين السفاكين أو كتائب المشاة الفرنسيين الشرسين: ليس مستغرباً أن يوجدوا في ممرات الجبال الضيقة كمافي شوارعنا. والفلاحون دمروا أفضل جيوش المرتزقة عندنا في زمن مضى، عندما حشروهم ذات يوم بين الجروف السحيقة. أقول لكم، يجدر ألا يخاف الفلورانسيون من أي جيش في شوارعهم ".

قال رجل اصطبغت ذراعاه ويداه بصباغ قرمزي بدا أشبه بلطخات دم، وكان يتمنطق فأساً صغيرة تحت حزامه: "هذا صحيح، يا سيد سيوني، وأولئك الخيالة الفرنسيون، الذين أتوا حاشرين أنفسهم في ستراتهم الضيقة الأنيقة ذلك اليوم، قد شاهدوا عيّنة من العشاء الذي أمكننا أن نعده لهم. كنت أحمل ثوبي الكهنوتي في أوغنيسانتي، عندما لمحت سادتي الجميلين يمرون في الجوار، ينظرون حولهم كما لو أنهم كانوا يعتقدون أن مساكن فيسبوتشي وأغلي نزلٌ سيئة لا تليق بإقامتهم، وينظرون إلينا نحن الفلورانسيين، مثل ديكة عقدت أعرافها للأعلى، كما لو أنهم كانوا يرثون لحالنا لأننا لم نعرف كيف نمشي في الأرض تيهاً.

وتابع: " أجل، أيها الشعب الغاليّ Gallic(2) الجميل "، أقول لكم " ابرزوا معدكم (ج. معدة). في حزامي فأس لتقطيع لحم سيبعج بطونكم بكل يسر ". عندها خارت البقرة العجوز في الحال (3)، وعرفت أن شيئاً ما قد حدث – لا يهم ما هو. لذلك قذفت ثوبي الكهنوتي عند أول عتبة باب، وانتضيت فأسي وتعقبت خيالتي الممتازين باتجاه فينا نوفا. وقلت عندما لحق بي: " ما الخطب، ياغوتشيو؟ " قال غوتشيو: " أعتقد أن آل ميديتشي عائدون " . Bembè (4) لقد توقعت ذلك! وعالياً شيّدنا متراساً، ونظر الفرنسيون وراءهم ورؤوا أنهم وقعوا في مصيدة. وإذا بكوكبة من رجالنا الحرفيين Ciompi(5) قادمة، وكان أحدهم يشهر منجلاً عظيماً في يده وقام بجزّ الريش الجميل لأحد الخيالة: – وأيم الحق! وقامت الفتيات بإمطارهم بوابل من الحجارة لترويعهم. لكن بييرو دي ميديتشي لم يكن أتى بعد كل هذا وذاك. وكان أمراً يدعو للرثاء. إذ ما كنا لنترك له لا أرجل ولا أجنحة يقوى بها على الطيران مرة أخرى ".

قال جزّار شاب، يتمنطق سكينه تحت حزامه: "" أحسنت القول، يا أودو "، وإني لأعتقد أن بييرو سيتتطلب وقتاً طويلاً قبل أن يقرر العودة، إذ أنه بدا مذعوراً كفروج تم اصطياده، عندما سارعنا لرجمه بالحجارة في الساحة. إنه جبان، وإلا كان صمد بشكل أفضل عند انضمام فرسانه إليه. لكننا لن نبتلع أي ميديتشي بعد الآن، مهما كان الشيء الذي يريدنا الملك الفرنسي أن نبتلعه ".

قال غورو البدين رغم كل المظالم الإضافية لمدة سنتين: "

لكنني لا أحب ذلك المدفع الفرنسي الذي يتحدثون عنه. عسى أن يدفع سان جيوفاني عنا كل شر! إذا كان السيد دومينيديو يضمر لنا خيراً كما يقول الأخ صاحبك، يا سيد سيوني، فلماذا لم يرسل الفرنسيين في طريق أخرى إلى نابولي؟ "

قال الصبّاغ: " آي، يا غورو، هذا سؤال يجدر طرحه. أنت لست بالمغفل الذي حسبتك إياه. ياه، كان يمكنهم التوجه إلى نابولي عن طريق بولونا، إه، يا سيد سيوني؟ أو لو كانوا قصدوا أريتزو – ما كنا لنأبه لو توجّهوا إلى أريتزو. "

طفق السير سيوني يقول : " حمقى! سيكون ذلك لخير ومجد فلورانسة ". لكنه قوطع بالصياح: "انظر هناك! " أتته من عدة مصادر في الحال، بينما اتجهت الوجوه بكافة نحوكوكبة كانت تقترب نحوهم على امتداد فيا دي سيريتاني.

قال السيد سيوني بشيء من الازدراء لهذه المقاطعة: " إنه لورينزو تورنابوني (6)، وواحد من النبلاء الفرنسيين الذي يسكن في بيته. إنه يتظاهر بالرضى التام – ذلك العميق الغور تورنابوني – لكنه ميديتشي في داخله: احذروا ذلك ".

كانت المجموعة القادمة متميزة نوعاً ما، إذ لم يكن بينهم ذو الحضور المميز لورينزو تورنابوني، والزي الفاخر للمواطن الفرنسي بكتّانه الأبيض الذي يظهر عليه فحسب التفنن في العرض والزينة الفائقة الجمال، بل كان هناك شخصان فلورانسيان آخران من محتد نبيل بثياب جميلة ارتديا ها للموكب القادم، وعلى يسار الفرنسي كان

يقف شخص ما كانت شمسه لتكسف بأي مقدار من قصد أو قماش موشّى – شخص طالما شاهدناه قبلاً. لم يلبس سوى الأسود، ذلك لأنه كان في حداد. لكن السواد سرعان ما غطّاه رداء أحمر، ذلك لأنه هو أيضاً كان سيسير في الموكب كونه سكرتيراً لاتينياً للجنة العشرة. أصبح تيتو ميليما ممن يركن، بكل جلاء، إلى خدماتهم في التواصل مع الضيوف الفرنسيين، بسبب ألفته لجنوبي إيطاليا، واستعداده للتحدث بالفرنسية، التي كان تكلمها في مطلع شبابه (7). وكان قد قام بأكثر من زيارة للمعسكر الفرنسي في سيغنا. كان ألق الحظ السعيد يبدو على محياه. كان يبتسم، ويصغي، ويشرح، بسلاسته المعهودة، الرشيقة، غير المتكلفة، وما كان يمكن إلا لعين ثاقبة جداً عازمة على معاينته أن تلحظ قدراً ما من التبدل طرأ عليه، ولم يكن ليعزى إلى انقضاء الأشهر الثمانية عشر. كان التبدل من ذاك الذي يأتي من الرحيل النهائي للفتوة الأخلاقية – من التبني الواضح الاعتدادي لدور في الحياة. كانت خطوط الوجه بالنعومة المعهودة نفسها، والعينان بالشفافية الصافية نفسها. لكن شيئاً ما زايله – شيئاً يصعب تحديده كما التغيرات التي تطرأ في ضوء الفجر الخفيف قبيل الشروق (الفجر الكاذب).

كان الفرنسي يجمع تعليمات عن الاحتفال قبل العودة إلى سيغنا، والآن كان في طريقه لمعاينة أخيرة لساحة الكنيسة، حيث كان الموكب الملكي سيتوقف لأسباب دينية. لفتت المجموعة المتميزة أنظار الجميع عند دخولها الساحة، لكن نظرة المحدقين لم تكن ودية ومعجبة

تماماً. فقد سمعت ملاحظات ليست في مجملها تلميحية وغامضة بخصوص حذاء الفرنسي الذي يشبه الحدوة – تقريظ ناعم للغزارة الملكية الزائدة عن الحاجة في الأصابع (8). ولم يكن هنالك حرص على وجوب عدم وصول بعض الهمهمات لمرأى " الميديتشيين " إلى الأسماع. لكن لورينزو تورنابوني كان يمتلك تلك المقدرة على الانزعاج المرائي المطلوب من شخص ينشد الشعبية. وتيتو، إلى جانب مزاجه الطبيعي للتغلب على سوء النية بالمزاج الرائق، كان لديه شعور الغريب المفتقر للعاطفة تجاه أسماء وتفاصيل من تلك التي تحرّك أعمق المشاعر في قلب ابن البلد (9).

وعندما وصلت المجموعة إلى مكان بان لها منه بوضوح منظر الكنيسة المائل توقفت. وقد أدخلت شرائط الزينة، والأدوات الموضوعة فوق المدخل المركزي، في القلوب شيئاً من الوقار، وأومأ تورنابوني إلى بييرو دي كوسيمو، الذي كان، كعادته في تلك الساعة يتسكع أمام صالون نيلو. وسرعان ما بدأت مناقشة تتسم بالحيوية، وغدت مسلية جداً بسبب دهشة الفرنسي من الحرافة (الحدّية) الغريبة في حديث بييرو، والتي قام تيتو بترجمتها حرفياً. وحتى النظارة المتهكمون اعتراهم الفضول، وبدأ يرتسم على وجوههم تعبير نصفه باسم ونصفه خانع لأناس ليسوا ضمن مرمى سمع النكتة التي تستجرّ ضحكاً بالعدوى. كانت لحظة رائعة بالنسبة لتيتو، ذلك لأنه كان الوحيد بين المجموعة الذي يستطيع أن يكون ترجماناً مسلياً، من دون جنوح للظهور بمظهر المهنئ لنفسه المغتر بانتصاره. لقد ابتهج لكونه محط

إعجاب – كما تنعّم بنظرات الاستحسان. سقط الضوء القزحي الألوان على المجموعة الضاحكة، وتوارى مرتادو الكنيسة الجادّون جميعاً وراء الجدران . بدا وكأن الساحة قد ازيّنت ابتهاجاً بعطلة فلورانسية حقيقية.

في الآن ذاته وفي الضوء الكابي للشوارع غير المزينة كان هناك غادون لم يكلفوا بعرض الثياب البيضاء والموشاة، ولم يظهر عليهم قط أية مظاهر للابتهاج. هنا أيضاً، برزت ثياب الفرنسي وحذاؤه الأشبه بالحدوة جليّة، لكنها كانت تتعرض للضغط من قبل أعداد متزايدة من الفلورانسيين غير المعجبين. وفي طليعة الحشد الجماهيري كنت ترى ثلاثة رجال يرتدون من الثياب ما قل. كل واحد منهم يداه موثقتان بحبل، وثبت حبل آخر حول رقبته وجسده بطريقة تمكّن الممسك بطرف الحبل من أن يقمع بسهولة أية حركة للتمرد عن طريق الخوف من الاختناق. كان الرجال الذين يمسكون بالحبل جنوداً فرنسيين، وعن طريق عباراتهم الإيطالية المكسورة ,والضربات بالطرف المعقود للحبل، كانوا يستجرّون بين الفينة والأخرى توسل سجنائهم. وكان اثنان منهم مطيعين لم يتوانيا عن رفع أيديهم الموثوقة لكل فلورانسي كانوا يصادفونه ويقولان بنغمة تستدرالشفقة –

" كرمى لله والعذراء اعطونا شيئاً لتفتدونا! نحن توسكانيون: قبضوا علينا في لونيجيانا ".

لكن الشخص الثالث لبث صامتاً وعنيداً رغم وطأة الضرب بطرف الحبل المعقود. كان مظهره يختلف جداً عن زميليه السجينين.

كانا فتيين وجسورين، وفي قليل الثياب التي تركها لهما جشع محتجزيهما، بدوا أشبه بالمتسولَين القادريَن والفظّين. أما هو فقد اجتاز تخوم الشيخوخة، ولم يكن ليبدو بأقل من أربع أو خمس وستين. وقد دبّ الشيب في لحيته التي أطلقها طويلة مهملة، وشعره الذي تهدّل كثّاً ومسترسلاً بجانبي صلعته. وكانت قامته القصيرة البدينة ما تزال قوية ومشرئبة، رغم نحولها، وبدت أنها توحي بشيء من المقدرة رغم ما به من عمر – وكان هذا ما عبّرت عنه جزئياً عيناه السوداوان وحاجباه الأسودان الغليظان، مما أوحى بكثافة لونية معزولة على نحو غريب في منتصف وجهه الأصفر الممتقع اللون، عميق التجاعيد، تحيط به شعيرات مسترسلة شائبة. ومع ذلك فقد شوهد تشنج في العينين يناقض التماعة الهمة العرضية: بعد نظرة شرسة وسريعة صوب النوافذ والوجوه، أطرقتا ثانية في نظرة ضائعة وحائرة. لكن شفتيه كانتا ساكنتين، وكان يرخي يديه بحزم للأسفل.لقد أبى أن يستجدي.

شاهد الفلورانسيون هذا المنظر بسخط متنام. وقام الكثيرون من الواقفين عند أبواب دورهم أو العابرين المتمهلين بالتصدّق بالمال على الفور – بعضهم مدفوعون باستجابة آلية لاستغاثة باسم الله، وآخرون مدفوعون بتلك المهابة التي لا يخالطها شكّ التي وسمت الجندية الفرنسية والتي نشأت بعد ورود تقارير عن حروبهم الظالمة، والتي عوّل عليها الفرنسيون أنفسهم كضمانة تحصّنهم عند ارتكابهم مستقبح الأفعال. لكن مع اقتراب المجموعة شيئاً فشيئاً من وسط المدينة، تلاشى هذا الخنوع رويداً رويداً، ووجد الجنود أنفسهم مواكبين

بجمع غفيرمن الرجال والأولاد، الذين ما انفكوا يرددون صيحات الهتاف التي وقعت واضحة بشكل كافٍ على مسامع الأجانب دونما حاجة لأي مترجم. وبدأ الجنود أنفسهم يكرهون الوضع الذي ألفوا أنفسهم فيه. إذ رغم وجود ميل قوي لاستخدام أسلحتهم إلا أن ضرورة الإمساك جيداً بمسجونيهم حال دون ذلك، وغذّوا، في هذه الأثناء، السير أملاً بالعثور على ملاذ في نزل ما.

" الفرنسيون الكلاب! " " أقدام ثيران! " " اخطفوا رماحهم منهم! " " اقطعوا الحبال واجعلوهم يجرون وراء مسجونيهم. سيركضون بأقصى سرعتهم كالإوز – ألا ترون أقدامهم الشبيهة بالأخفاف؟ " تلك كانت الصيحات التي فهم الجنود على نحو مبهم أنها صيحات استهجان، وربما تهديد ووعيد.لكن الكلّ كانوا ميالين لإغداق الدعوات من هذا النوع النشط دون أن يكلفوا بترجمتها إلى أفعال .

قال الصبّاغ، حالما عرف كنه الشغَب القادم: " سانتيديو! يا لها من فرجة! والحمقى لا يفعلون سوى الصياح. هيا تعالوا! " أضاف قائلاً، شاهراً فأساً من تحت حزامه، ومسرعاً للانضمام إلى الجماهير، يتبعه الجزّار وكل البقية من زملائه، ما عدا غورو، الذي تراجع بسرعة سالكاً مجازاً ضيقاً.

ترك منظر الصبّاغ وهو يجري بذراعين ملطختين بالدماء شاهراً فأسه، تلحق به شلته الشرسة، تأثيره على الجماهير. صحيح أنه لم يفعل شيئاً سوى التقدم إلى ما وراء الجنود والانضمام إلى مواطنيه شاهراً فأسه، إلا أنه شكّل رمزاً محرّكاً لحرب الشوارع، مثل التلويح براية

مشهورة. وكانت الإشارة الأولى على الجاهزة لإطلاق النار سريعة كما لسان اللهب الصغير المشرئب: ولقد أتت من جانب الصبي العفريت لولو الذي كان يرقص ويطلق صيحات الاستهجان أمام الأولاد الساذجين الذين شكّلوا غالبية الحشد. لم يشعر لولو بتعاطف كبير نحو السجناء، لكن مع إدراكه أن هناك سكيناً ممتازة هي بمثابة الرفيق الذي لا يخيّب رفيقه، بدا له، منذ البداية، أن القفز للأمام، وقطع أحد الحبال، ثم القفز للوراء قبل أن يتسنّى للجندي الممسك به استخدام سلاحه سيكون فعلة صغيرة من أفعال الأذى مسلية وبارعة. في هذه الأثناء، عندما بدأ الناس يصيحون ويتدافعون بعنف أكبر شعر لولو بأن فرصته قد أزفت – كان قريباً من السجين الأكبر سناً : وفي غضون لحظة كان الحبل قد قطع.

" اهرب، أيها العجوز ! " صرخ في أذن السجين حالما صار الحبل قطعتين. وضرب هو نفسه مثلاً على الهرب كما لو أن جناحين ركّبا له، مثل دجاجة مذعورة.

لم تتأخّر مشاعر السجين في الإيحاء إليه بأن يغتنم الفرصة: ففكرة الهرب كانت حاضرة دائماً في ذهنه، وكان قد داخله أمل جديد من مزاج الجماهير. وعلى الفور ولى الأدبار. لكن سرعته لم تكن تكفيه إلا بالكاد لولم يسارع الفلورانسيون على الفور للاندفاع والوقوف حائلاً بينه وبين معتقله. استمر يركض عبر الساحة، لكنه ما عتم أن سمع وطء أقدام وراءه، ذلك أن السجينين الآخرين قد أطلق سراحهما وكان الجنود يصارعون ويحاولون شق طريقهم بصعوبة وببطء وراءهما

بقدر ما سمحت بذلك أحذيتهم الشبيهة بالحدوة – تعوقهم الجماهير، دون أن تبادر بهجوم حاسم عليهم. انعطف أحد السجينين صوب بورغو دي سان لورينزو، وهكذا حوّل جزئياً وجهة الجماهير الصاخبة. لكن العراك الأساسي كان ما يزال باتجاه الساحة، حيث توجهت كل الأبصار نحوها بفضول مشوب بالذعر.لم يكن من السهل تخمين السبب بدقة، ذلك أن الثوب الفرنسي قد حجبته الجماهير المعيقة.

قال لورينزو تورنابوني، عندما انعطف هو ومجموعته كليّة صوب درج الكنيسة، ولمح سجيناً يندفع صوبهم: " لقد هرب المساجين. لم يقنع الناس بتفريغهم السجن ذاك اليوم. إذا لم تكن هناك سلطة أخرى على المدى المنظور فلا بد أنهم سيهجمون على مركز الشرطة ويطلقون سراح اللصوص. آه! هوذا جندي فرنسي: هذا يفاقم الخطر ".

كان الجندي الذي رآه، يجهد في شقه طريقه على امتداد الطرف الشمالي للساحة، لكن الشخص الذي كان يتعقبه قد سلك وجهة أخرى. كان ذلك الشخص هو السجين الأكبر سناً، والذي دار حول مبنى المعمودية وجرى صوب الكنيسة، عازماً على الالتجاء إلى ذلك الحرم المقدس بدلاً من أن يضع ثقته في سرعته. لكن عند صعوده الدرج تلقت قدمه صدمة قذف على أثرها صوب مجموعة من الأشراف الذين كانوا يديرون ظهورهم إليه، ولم يقوَ على استرداد توازنه إلا عندما أمسك بذراع أحدهم.

كان تيتو ميليما هو من شعر بتلك الإمساكة. التفت وإذا بوجه والده بالتبني، بالداسار كالفو، قريب من وجهه.

نظر الاثنان إلى بعضهما بعضاً صامتين كصمت القبور: بالداسار على محياه شراسة حادة، ويداه المتريتان تقبضان بشدة على الذراع المدّثرة بالمخمل. وتيتو، شفتاه ووجنتاه ممتقعة كلها، لا يقوى على الحركة للرعب الذي تملّكه. بدا ذلك دهراً بالنسبة إليهما – مع أنها لم تكن سوى لحظة.

كان أول ما سمع تيتو الضحكة المبتسرة لبييرو دي كوسيمو الذي كان واقفاً قريباً منه، وكان أول من استطاع أن يرى وجهه.

" ها، ها! أعرف أي شبح سيتوافر لنا الآن ".

قال لورينزو تورنابوني: " هوذا سجين فار آخر. من هو، يا ترى ؟ "

قال تيتو: "*أحد المجانين*، بالتأكيد ".

لم يعرف إلا بمشقّة كيف وجدت الكلمات سبيلها إلى شفتيه: هناك لحظات تتحدث فيها عواطفنا وتقرر نيابة عنا، ويبدو أننا ننتظر ونحار. فهي تحمل إيحاء بالجريمة يتأتى عنها في لحظة ما يستغرق وقتاً طويلاً من التفكير والتدبّر .

لم ينفك الاثنان عن النظر إلى بعضهما، وبدا لتيتو، عندما شرع بالكلام، أن سمّاً سحرياً انطلق كالسهم من عيني بالداسار، وأنه شعر به يخترق أوردته. لكن في اللحظة التالية تراخت القبضة على ذراعه، وتوارى بالداسار داخل الكنيسة.

الفصل الثالث والعشرون

أفكار لاحقة

قال بييرو ضاحكاً ضحكة أخرى تنم عن الازدراء: " رغم ذلك ما أسهل ترويعك. ليست صورتي بجودة الأصل.لكن العجوز بدت عليه حقاً هيئة النمر: يجب أن أدخل الكنيسة وأراه ثانية ".

قال لورينزو تورنابوني مستأذناً تيتو بأدب: " ليس بالأمر المستحب أن يمسك بتلابيبك رجل معتوه، إن كان معتوهاً حقاً. لكنه ربما مجرد إنسان وحشي. سنعرف ذلك". وأضاف مخاطباً الفرنسي: " أعتقد أننا يجب أن نعرف فيما إذا كان لدينا من السلطة ما يكفي لوضع حد لهذا النزاع بين شعبنا ومواطنيكم".

توجها نحو الجماهير شاهرين سيفيهما، يحف بهما كل المتفرجين الصامتين. وقد ذهب تيتو أيضاً: كان ضرورياً أن يعرف ماذا كان يعرفه الآخرون عن بالداسار، وكان قد بدأ يعقب رجفة الرعب الأولى التدابير السريعة التي يحفز الخطر الجسدي الشخص الوجل على اتخاذها.

عند اقتراب السادة أفسح الغوغاء من الرجال والأولاد، والذين كانوا أميل لإطلاق صيحات الاستهجان في وجه الجندي وتعذيبه بدلاً من تلقي أية جروح خطيرة أو التسبب بها، الطريق وهم يشهرون سيوفهم، وجرى استجواب الجندي الفرنسي. كان هو وزميلاه قد قاموا ببساطة بإحضار المساجين إلى مركز المدينة متطلعين إلى استجداء المال لافتدائهم: وكان اثنان من المساجين جنديين توسكانيين أسرا في

لونيجيانا (1)، والآخر – وكان رجلاً مسناً – كان مع شلة من مواطني جنوة كان المغيرون الفرنسيون قد اشتبكوا معهم بالقرب من فيفيزانو. ربما كان معتوهاً، لكنه لم يكن خطراً. هذا كل ما كان الجندي يعرفه لأنه لم يستطع أن يفقه أية كلمة مما قاله العجوز. سمع تيتو إلى هذا الحد، لكنه كان أصمّ عن أي شيء آخر إلى أن اختصّه المتحدث بالكلام. كان المتكلم تورنابوني.

" أستعود معنا، يا ميليما؟ أو، بما أن السيد سيسافر إلى سيغنا الآن، هل أنك ستقتدي بالموضة السائدة مثل رجل حكيم وتذهب، هذا الصباح، لسماع الأخ، الذي سيكون أشبه بالسيل العرم في أوج اندفاعه هذا الصباح . كما تعرف، هذا ما يجب علينا جميعاً أن نفعله، إذا أردنا أن ننجو بجلودنا الميديتشية. يجب أن أذهب إذا كان لدي متسع من الوقت.

في هذه الأثناء كان وجه تيتو قد استعاد لونه، واستطاع بعد بذل بعض الجهد أن يتحدث بانشراح.

قال مبتسماً: " بالطبع أنا من المعجبين بالخطيب المفوّه، لكن، لسوء الحظ، سأكون مشغولاً مع السكرتير حتى انطلاق الموكب ".

قال بيرو: " أنا داخل إلى الكنيسة لألقي نظرة أخرى على ذلك العجوز المتوحش ".

قال تورنابوني: " إذن اصنع حسنة باقتياده إلى إحدى المشافي المخصصة للأفّاقين، يا عزيزي بييرو. سيرى الرهبان ما إذا

كان بحاجة لوضعه في قفص ".

تفرقت المجموعة ويمم تيتو شطر قصر فيتشيو حيث كان سيلتقي بارتولوميو سكالا. لم يكن المكان بعيداً، لكن المسافة كانت، بالنسبة لتيتو، مترامية مثل دقائق أحلامنا الصباحية: كانت مسافة الشارع والساحة القصيرة توحي بذكريات، ورؤىً، ومخاوف مؤرقة، قد تشكّل تاريخ شهور بحالها. شعر وكأن أفعى قد أخذت تلتف حول جوارحه. بالداسار على قيد الحياة، وفي فلورانسة، كان انتقاماً حياً ما كانت لتهدأ ثائرته إلا كما تهدأ ثائرة أفعى ملتفة بعد أن تسحق ضحيتها. لم يكن من طبيعة هذا الشخص أن يدع الأذية تمر دون عقاب: فحبه وكرهه كانا من ذلك الحماس المتقد الذي يسيطر على كل ما تبقى من الكينونة، ويجعل الإنسان يضحي بنفسه في سبيل فورته العاطفية كما لو أنها إلهة يتوجب عبادتها بتدمير الذات. كان بالداسار قد أرخى قبضته، وتوارى عن الأنظار. وكان تيتو يعرف حق المعرفة كيف يفسر ذلك: كان ذلك يعني أن الانتقام يجدر دراسته كيما يكون مؤكداً. لو لم يتفوه بتلك الكلمات القاطعة – " إنه رجل معتوه " – لو كان باستطاعته استدعاء الحالة الذهنية، الشجاعة، الضرورية للمجاهرة بتعرفه على بالداسار، أما كان ذلك يقلل من الخطر؟ كان يمكن أن يعلن امتلاك ما كان باعتقاده الدليل الإيجابي على موت بالداسار. والوحيدون الذين بإمكانهم أن يكّذبوه إنما هم الأخ لوقا، الذي توفي، وبحارة السفينة المرافقة، الذين جاؤوه بأنباء المواجهة مع القراصنة. كانت الفرص التي تؤكّد عدم التقاء بالداسار مرة ثانية بأي من أولئك

البحـارة لامتناهيـة، وفكّـر تيتـو بمـرارة أن تزييفـاً للحقـائق فـي أوانـه المناسب، وبسبك جيد ربما كان أنقذه من أية نتائج لا تحمد عقباها. لكن الإدلاء بمثل هذه الرواية الكاذبة كان سيتطلب رباطة جأش تامة لحظـة تلقّـي صـدمة تشـنجية: يبـدو أنـه تكلم بـدون أي تصـوّر مسبق: قفزت الكلمات مثل ولادة مفاجئة تمّت وترعرعت في الظلمة.

كـان تيتـو يكابد من جرّاء ذلك القانون الذي لا يـرحم، قانون النفوس البشرية، وهو أننا نعدّ أنفسنا للأفعال الفجائية باختيارنا المتكرر للخير أو الشر مما يحدد شيئاً فشيئاً شخصيتنا.

لم يتبق لديه إلا فرصة وحيدة الآن. فرصة فشل بالداسار في العثور على انتقامه. و– تشبّث تيتو بفكرة أكثر عسفاً من أية فكرة كان قـد احتضـنها مـن قبـل: ألـيس مـن الممكـن أن تنطـوي كلماتـه غيـر المخطط لها على بعض الحقيقة؟ حقيقة كافية، على الأقل، كي تتجيه في إنكاره لأي تصريح يمكن لبالداسار أن يدلي به عنه؟ بدا العجوز غريباً ومرعب المنظر، ومع تلهّفه في القلب والعقل، كان مرجحاً أن يتأتى الجنون عن المعاناة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الانتقام الذي جهد أن ينزل به عقاب الفضيحة يمكن صدّه (2).

لكـن كـان هنالـك نـوع آخـر مـن الانتقـام يتـأبى علـى الصـد بالكذب البارع. كان بالداسار ينتمي إلى سلالة تبدو لها طعنة الخنجر دافعاً طبيعياً كما وثبة مخالب النمر. انكمش تيتو يتملكه خوف مرعب من الفضـيحة. لكنـه وقـع أيضـاً فريسـة ذلـك الرعـب الجسـدي الـذي لا يمكن فصله عن طبيعة رقيقة محبة للفرح، ما يمنع إنساناً من أن يواجه

جراحه وحتفه باعتبار ذلك خلاصاً من الفضيحة مرغوباً به. ققزت أفكاره على الفور إلى نوع مخفي من سلاح دفاعي يمكن أن ينقذه من انتقام لا يمكن لأي عمل حاذق أو ماكر أن يحول دونه.

دهش لقوة الخوف المتّقد الذي تملّكه. كان كمن ابتلي بآفة حوّلت، وعلى حين غرّة، إحساس الشباب البهيج إلى ألم.

على أنه لم يزل هنالك ملاذ واحد مفتوح أمام تيتو. كان بإمكانه أن يعود ويبحث عن بالداسار ثانية، ويعترف بكل شيء له – لرومولا– ولكل العالم. لكن ذلك ما لم يفكّر به قط. فالندم الذي يقطع كل مرابط الشر يتطلّب ما هو أكثر من الخوف الأناني. لم يكن يشعر بأن القوة والسلامة تثويان في قول الحقيقة. كانت القوة الوحيدة التي وضع ثقته بها تكمن في براعته وريائه. أما الآن، وبعد أن مرت الصدمة الأولى، التي استدعت أمارات الخوف الخيانية، فقد كان يأمل أن يكون جاهزاً لكل الطوارئ عن طريق الخداع الهادئ – والسلاح الدفاعي.

حيال هذه الأزمة برزت واقعة مميزة في خبرة تيتو، وهي أنه لم يخطر بباله قط أية إجراءات مباشرة تؤمّن له التخلص من بالداسار. عبرت مخيلته كل الإمكانات الأخرى، حتى وصلت إلى حد هروبه من فلورانسة. لكنه لم يفكّر قط بأية خطة للتخلص من عدوه. لم يولّد هلعه أية نوايا خبيثة حية، وكان سيبقى سعيداً لو أنه لم يسبب ألماً لأي بشري. لقد اختار ببساطة أن يسهّل الحياة على نفسه – يتعامل مع حظه كبشري، إن أمكن، على نحو لا تُنغَّص حياته في أي موضع

كان. وقد حط به اختياره، في أحيان شتى، في مواضع غير متوقعة. ولم تكن المسألة الآن ما إذا كان يجب أن يتقاسم ضغوطات القدر المشتركة مع المكابدين أمثاله. لقد تمثلت، بالأحرى، فيما إذا كانت كل موارد الكذب ستتجيه من التدمير بفعل عقابيل ذلك الاختيار الذي تعوّد عليه.

الفصل الرابع والعشرون
داخل الكنيسة

عندما شق بالداسار طريقه خلف الستارة، وكلتا يداه موثقتان، والحبل ملتف حول عنقه وجسده، وشاهد أمامه صحن الكنيسة الداخلي تملكته الدهشة، ووقف قبالة المدخل ساكناً لا يريم. كان أمل أن يرى صحناً رحباً خالياً من كل شيء عدا رموز تعدم الحياة – مذابح جانبية فيها شموع لم توقد، صور باهتة، تماثيل شاحبة وجامدة – ولربما مع وجود بضعة مصلّين في الجوقة النائية عقب إنشاد رتيب. كذلك كان المظهر العادي للكنائس بالنسبة لإنسان لم يدخلها قط لأي غرض ديني.

وعوضاً عن ذلك رأى حشداً كبيراً من الوجوه الدافئة الحية مشرئبة في صمت وكتم للأنفاس صوب المنبر، في الزاوية بين الصحن والجوقة. كان الحشد خليطاً من كل الطبقات الاجتماعية، من القضاة والسيدات ذوات التربية الكريمة إلى الحرفيين والريفيين المدّثرين

بالخشن من الثياب. وعلى المنبر كان يقف راهب دومينيكاني(1)، صارم القسمات، فاحم الشعر، يعظ والصليب في يده.

في الدقائق القليلة الأولى لم يسترع وعظ الواعظ انتباه بالداسار. ومع دخوله الصامت توجهت بعض الأعين، قريباً من المدخل، إليه دَهِشةً مرتابة. كان الحبل يشير بوضوح كاف إلى أنه كان سجيناً فاراً.وعليه، ففي تلك الحالة، شكّلت الكنيسة ملاذاً من حقه أن يفزع إليه. كان سن الشيخوخة وهيئة البؤس المدقع داعياً لاستثارة الشفقة بدلاً من الذعر. وبينا وقف دون حراك وعيناه تجولان في شرود ذهن بدءاً من المكان الفسيح أمامه إلى أرضية الكنيسة عند قدميه، إذا بأولئك الذين انتبهوا لدخوله قد كفّوا عن إيلائه اهتمامهم، وانشغلوا مرة أخرى بالاهتمام الأشد المتمثّل في الإصغاء إلى الموعظة.

وكان من بين الأعين التي التفتت نحوه عينا رومولا: كانت دخلت متأخرة عبر أحد الأبواب الجانبية، وكانت من مكانها تتوفر على رؤية كاملة للمدخل الرئيس. أطالت النظر باهتمام إلى بالداسار، ذلك أن الشعر الأشيب كان يقع من نفسها موقعاً غريباً، وبصمة بعض المعاناة غير المعهودة في الوجه، معززة بالحبل حول رقبته، حرّكت في أعماقها تلك الحساسيات الرقيقة تجاه مآسي الشيخوخة والتي تبلورت خلال كامل حياتها. تراءى لها أن عينيه قد التقتا عينيها عندما طوّف ببصره في أرجاء المكان أول مرة، تعلو محياه الدهشة والاستغراب. لكن بالداسار لم يفطن حقيقةً لوجودها. ذلك أنه لم يتولّد لديه إلا وعي مشوب بالذعر لمرأى المشهد العام، وكان الوعي مجرد ومضة لم

تحدث أي خرق ملحوظ في فوضى المشاعر العارمة التي تولدت عن لقائه بتيتو. لم تنفك صور الماضي عن الإلحاح عليه مثل رؤيا هذيانية ممتزجة على نحو غريب بالظمأ والغمّ. وفي غمرة تلك العاطفة المستعرة ما كان لأية فكرة واضحة عن المستقبل أن تتبلور: وكانت أقرب مقاربة لمثل هذه الفكرة تتمثّل في الشعور المرّ بالقوى المستضعفة، وتصميم مبهم بإزاء شك وريبة شاملين. وفجأة شعر بكيانه يهتز لوقع نبرات حادة بدت أشبه بترجيع صدى هادر لانفعاله العاطفي. كان صوت اخترقه حتى النخاع بنبرته، نبرة اليقين المنتصر يقول – " لقد أزف يوم الانتقام ! "

ارتعش جسد بالداسار ورفع بصره للأعلى. كان نائياً جداً بحيث لم يقو على رؤية ما هو أكثر من المشهد العام، مشهد الواعظ الواقف فاتحاً ذراعه اليمنى، رافعاً الصليب. لكنه أخذ يلهث للصوت المنذر مرة ثانية كما لو كان وعداً بالسعادة. سادت فترة صمت قبل أن يستأنف الواعظ حديثه مرة ثانية. أنزل ذراعه بالتدريج. وضع الصليب على طرف المنبر، وصالب ذراعيه على صدره مجيلاً النظر في الحشد كما لو أن نظرته ستعانق كل وجه بمفرده.

" كلكم في فلورانسة شهودي، ذلك أنني لم أتكلم في زاوية. أنتم شهودي، أنه لأربع سنين خلت، عندما لم تكن موجودة بعد نُذُر الحرب والمحنة، وعظت متنبّئاً بالسعير القادم. رفعت عقيرتي كبوق مخاطباً أساقفة إيطاليا وأمرائها وشعبها، وقلت: " لقد طفحت كأس الخطيئة والشر. انظروا، ها هي تتجمّع رعود الإله، ولسوف تنهمر كلها وتكسر

القدح، وخطيئتكم التي تبدو لكم بمثابة خمرة لذيذة سوف تهرق بأكملها عليكم، وستكون كالرصاص المنصهر. وأنتم، أيها القساوسة، يا من تقولون ها، ها! ليس هناك حضور إلهي في الدير – الشيتشيناه (2) لا شيء – مقعد الرحمة خاوٍ: فقد نرتكب خطيئة في الخفاء، ومن سيعاقبنا؟ إليكم قلت سينكشف وجود الله في معبده كنار حارقة، وستصبح أرديتكم المقدسة ملاءة ملتفة من لهب، وعوضاً عن الموسيقى العذبة ستحل الصرخات وأصوات الاستهجان، وعن المخادع اللينة ستحل الأشواك، وعن أنفاس الداشرين الداعرين سيحل الوباء. لا تضعوا ثقتكم في ذهبكم وفضتكم، ولا في حصونكم العالية. إذ، رغم أن الجدران بنيت من حديد، والقلاع من الأدمنت فإن الجالس في الأعالي سيملأ أفئدتكم بالرعب، ومجالسكم بالخور والضعف، لتبلوا بعدها بالارتباك والتشوش وتفرّوا كالنساء. سيحطّم إرباً أقوياء الرجال الذين لا حصر لهم، ويُحلّ غيرهم مكانهم. ذلك أن الله لم يعد يحتمل تدنيس حرمه القدسي. سيقوم بتطهير كنيسته تماماً.

" وبقدر ما هو مكتوب(3) إن الله لن يفعل شيئاً إلا ويظهره لخدّامه وأنبيائه، فقد وقع اختياره عليّ، أنا خادمه غير المستحق، وأبان هدفه لروحي في الكلمة الحية للكتب المقدسة، وفي أفعال العناية الإلهية . وعن طريق رسله الملائكة كشف عن ذلك لي في رؤياي. وكلمته تتملكني إلى حد لست أنا إزاءها سوى فرع من الغابة عندما تخترقها ريح السموات، ولست أنا من يصمت، حتى وإن كنت محط هزء المزدري. ولأربع سنوات تولّيت الكرازة إطاعة لإرادة الله: في وجه

الهزء كرزت بأشياء ثلاثة، تلك التي أناطها الرب بي: أنه في هذه الأوقات سيجدد الله كنيسته، وأنه قبل أن يحل التجديد سيحلّ سعير الحريق على عموم إيطاليا، وأن هذه الأشياء ستأتي سريعاً.

" لكن المنافقين الذين يغلّفون كراهيتهم للحقيقة برياء الحب قد قالوا لي، " هيا، أيها الأخ، دع تنبؤاتك جانباً: كفاك تعليم الفضيلة ". وعلى هذا أجيب: " أجل، أنتم تقولون في قلوبكم، الله يسكن في البعيد، وكلمته هي كما رقٌّ كتبه الموتى، وهو لا يتعامل كما في سالف الزمان، مؤنباً الأمم، ومعاقباً الظالمين المضطهدين، ومسدداً ضرباته إلى الكهنة غير المقدسين كما فعل بأبناء إيلي (4). لكنني أصرخ ثانية في آذانكم: الله قريب وليس بعيداً. وديونونته لا تتغير. إنه إله الجيوش. والأشداء الذين يذهبون إلى ساح المعركة هم رسله، بل هم العاصفة، والنار، والوباء. وهو يسوقهم بزفير ملائكته، وهم يحلون في الأرض المختارة التي نبذت الميثاق. وأنت، يا إيطاليا، هي الأرض المختارة. ألم يستودع الله ملاذه فيك، وأنت ملوّثته؟ انظري، إن رسل غضبه يطبقون عليك – إنهم على أعتاب بيتك! "

كان صوت سافونا رولا يتنامى في قوته المشحونة بالعاطفة حتى هذه النقطة، وإذا به يخلد فجأة للصمت، ويترك يديه تسقطان ويشبكهما أمامه بكل هدوء. وعوضاً عن أن يكون صمته إشارة لانطلاق تحركات صغيرة في أوساط مستمعيه، فقد بدا أنه وقع عليهم كالسحر القوي مثلما كان صوته. وفي الفسحة الشاسعة للكاتدرائية كان يجلس الرجال والنساء ووجوههم مشرئبة للأعلى، مثل تماثيل تتنفس، إلى أن سمع

الصوت ثانية في شكل نبرات خفيضة وواضحة.

" لكن هناك وقفة – حتى أيام دمار أورشليم كان هنالك وقفة (5) كيما تتاح لأبناء الله سبل النجاة منها. هناك هدوء قبل العاصفة: ويلاه، هناك ظلمة في الأعالي، لكن ما من ورقة تهتز: الريح سكنت، حتى يتاح سماع صوت الله المحذّر المنذّر. اسمعيه الآن، يا فلورانسة، المدينة المختارة في الأرض المختارة. توبي وانبذي الشر: أقيمي العدالة: أحبي الرحمة: ابعدي عنك كل دنس، كيما تملأ روح الحق والقداسة أرواحكم وتنفخ في شوارعكم ومساكنكم، عندها لن يدخل الوباء، وسيمر السيف من فوقكم دون أن يؤذيكم.

" فالسيف مدلى من السموات. إنه يرتعش، إنه على وشك السقوط! *سيف الله على الأرض، سريعاً ومفاجئاً* !(6) ألم أقل لكم، منذ سنوات إنني رأيت الرؤيا وسمعت الصوت؟ وانظروا إليها، لقد تحققت! أليس هناك ملك يقف بجيوشه عند أبوابكم؟ أليست تهتز الأرض بفعل دوس الجياد وعجلات المدافع السريعة؟ أليست هناك حشود هائجة بإمكانها أن تمحق الأرض كما لو بموسى حادة؟ إني أقول لكم إن الملك الفرنسي على رأس جيشه هو رسول الله: الله سيهديه كما تهدي اليد منجلاً حاداً، ولسوف تخور أمامه مفاصل الأشرار، ولسوف تُحصد كما مخلفات الحصيد: ومن يهرب منها لن يهرب بعيداً، ومن ينجو منها لن يخلص. والطغاة الذي شيّدوا لأنفسهم عرشاً قوامه شرور الجماهير، والقساوسة الملحدون الذين يتاجرون بأرواح الناس ويملؤون الدير نفسه فسقاً، سيقذف بهم من مضاجعهم الوثيرة إلى جوف الجحيم

المستعر.ولسوف يقفون والوثنيين وأولئك الذين ارتكبوا المعاصي حسب العهد القديم وحدهم ويقولون: " انظروا، لقد أحضر هؤلاء الناس رائحة شرور جديدة نتنة إلى السعير الأبدي ".

" لكن أنت، يا فلورانسة، خذي الرحمة الممدودة لك. انظري! الصليب ممدود لك: تعالي وابرئي . أيها من بين أمم إيطاليا حباها الله برمز مثلما توفر لك؟ الطاغية طرد من وسطك: والناس الذين رفعوا رشوة في يدهم اليسرى وعصا في اليمنى مضوا، ولم يسفك دم. والآن هيا نحّوا جانباً كل شيء مقيت آخر عنكم، ولسوف تكونون أقوياء كفايةً بقوة الله الحي. طهروا أنفسكم من لطخة شروركم السوداء والتي ساوتكم حتى بالوثنيين: نحّوا جانباً الحسد والكراهية اللذين جعلا مدينتكم وكراً للذئاب. وعندها لن يمسكم سوء: ولسوف يكون مرور الجيوش كمرور أسراب الطيور، وستعود بيزا المتمردة إليكم ثانية، وسيكون المجاعة والوباء بعيدين عن عتباتكم، وستكونون منارة بين الأمم. لكن، انتبهوا! بينما تعانون من وجود الشيء اللعين في المعسكر (7) ستبتلون وتعذبون، حتى وإن أمكن إنقاذ بقية باقية منكم ".

هذه النصائح والوعود نطق بها من بيده السلطة بنبرة قاطعة وحادة. لكن في الجملة التالية آل صوت الواعظ إلى لهجة مناشدة.

" اسمعوا، أيها الناس، الذين يتوق إليهم فؤادي، كما فؤاد أم على أبنائها الذين كدّت في سبيلهم! الله شهيدي، لولا خاطركم لكنت عشت بكل طيبة خاطر كسلحفاة في أعماق الغابة، أغني بصوت هادئ خفيض لمحبوبي الذي هو لي وأنا له. لأجلكم أكدح، لأجلكم

أهزل وأضعف، لأجلكم أسهر ليالي أراقب، ونفسي تذوب وتتلاشى من شدة الوطأة. أيها الرب، أنت تعلم أني راغب – وأني متأهب. خذني، مدّني على صليبك: دع الأشرار الذين يستهويهم الولغ في الدم، والذين يسلبون الفقراء ما يملكون، والذين يدنّسون هياكل أبدانهم، ويقسّون قلوبهم ضد رحمتك – دعهم يهزوا رؤوسهم ويكشّروا فيّ: دع الأشواك تنخز جبيني، وليكن عرقي كرباً وألماً – منيتي أن أكون مثلك في حبك الكبير. لكن دعني أشهد ثمرة عملي – دع هذا الشعب يخلص! دعني أرهم متدثّرين بالطهر: دعني أسمع أصواتهم ترتفع في كل منسجم كما أصوات الملائكة: دعني لا أرى حكمة إلا في قانونك الأزلي، ولا جمالاً إلا في قداستك. عندها سيكونون في طليعة الأمم، والناس من الجهات الأربع سيتبعونهم، ويتجمعون داخل حميا المباركين. إذ أن إرادتك، يا الله، هي التي تقضي أن تهتدي الأرض إلى قانونك: إن إرادتك هي التي تقضي بأن تتوقف الشرور ويسود الحب. هيا، أيها الوعد المبارك. وانظر، إني راغب – مدّني على المذبح: دع دمي يسل والنار تلتهمني. لكن دع شاهدي يحيا في ذاكرة الناس،حتى لا يزدهر الظلم للأبد " (8)

أثناء المناشدة الأخيرة فتح سافونا رولا ذراعيه ورفع بصره إلى السماء. كان صوته الجهوري يرتعش بالتناوب مع الانفعال ويشتد ثانية وقد تجددت طاقته. لكن العاطفة التي قدّم فيها نفسه ضحية قد أصبحت أخيراً مفرطة في قوتها مما لم يسمح بمزيد من الكلام، وانتهى إلى نشيج. وكانت كل نغمة متغيرة تختلج في أفئدة المستمعين تهزهم

وتترجم انفعالاً متجاوباً. كان بينهم الكثيرون ممن كان إيمانهم برسالة الأخ النبوية متواضعاً جداً، وممّن لم يحبوه إلا قليلاً في لحظاتهم الأكثر هدوءاً. ورغم ذلك، فقد تملكتهم موجة الشعور العارمة التي استجمعت قوتها من العواطف الوجدانية التي كانت أعمق من كل النظريات. وفي الحال تعالى نشيج قوي من أوساط الجمهور المحتشد كردة فعل، بينما كان سافونا رولا قد خرّ راكعاً على ركبتيه ودفن وجهه في إزاره. في تلك اللحظة شعر بغبطة الشهادة ومجدها دون أن يذوق مرارتها.

اختلط نشيج بالداسار بالنشيج المتعاظم للجمهور . وبين كل البشر الحاضرين لعلك لم تجد واحداً اهتز كيانه بأقوى مما اهتز كيان بالداسار تجاوباً مع نبرات الواعظ وكلماته . لكنه اهتز مثل عود اقتلعت كل أوتاره سوى واحدٍ. ذلك الوعيد بانتقام ناري لا يرحم – بمستقبل يمكن أن يُطارد فيه الخاطئ المكروه إلى حين يمسكه المنتقِم ويثبّته للأبد، قد وقع عليه مثل وعد من نبع لا يروي على عطش لا يرتوي. لقد زايلت عقائد الحكماء، الازدراء القديم لخرافات الكهنة وتخرصاتهم، روحه مثل لغة منسية: لو كان استطاع أن يتذكرها (العقائد) أي جواب كانت ستقدّمه لحاجته الماسة أفضل من هذه الإجابة التي قدّمها صوت الإيمان القوي هذا؟ وقع هدير الاستنكار على أعصابه المثقلة بالانفعال بكل القوة الموجودة في الوضوح الذاتي: لم يذهب تفكيره قط أبعد منه ليصل إلى طرح الأسئلة – كان يسكنه ويتملكه كما تتملك القرقعة حصانَ المعارك. لم تلامس وعيه كلمة لا

تنطوي على وعيد. لم يكن عنده شغاف تستثيره. لكن السرور العارم الذي تحركت مشاعره نحوه بفعل فكرة الانتقام الأبدي قد وجد على الفور ذروة ومتنفساً مريحاً في كلمات الواعظ عن التضحية بالذات. لم تجلب هذه الكلمات لبالداسار سوى الإحساس الغامض بالانتصار الذي كان يكرّس له نفسه أيضاً – موقعاً بدمه الصك الذي سلّم بموجبه نفسه للظى نار لا تنطفئ، نار لن تبدو لكراهيته المتأججة سوى برودة.

" لقد أنقذته – لقد عمّدته – لو أستطيع أن أقبض على شغاف قلبه للأبد! هيا، أيها الوعد المبارك! دع دمي يسل، دع النار لا تبقي مني ولا تذر! "

اهتز الوتر الوحيد إلى أقصى مداه. شدّ بالداسار راحتي يديه إلى بعضهما بقوة، ناشباً أظفاره الطويلة فيهما، وطفق ينشج مع البقية.

الفصل الخامس والعشرون
خارج الكنيسة

بينما كان بالداسار واقعاً تحت التأثير الذي خلّفه صوت سافونا رولا لم يفطن لوجود شخص آخر كان دخل وراءه عبر المدخل المفضي إلى الكنيسة، ووقف غير بعيد يراقبه. كان هذا الشخص هو بييرو دي كوسيمو الذي لم يكترث للموعظة، ذلك أن القصد الوحيد من مجيئه كان رؤية السجين الفار. وأثناء فترة الصمت التي خلد فيها الواعظ ومستمعوه لانفعال صامت تقدم الوافد الجديد ولمس بالداسار

على الذراع. نظر حوله والدموع ما تزال تتدحرج ببطء على وجهه، إنما بتنهيدة عميقة، كما لو أنه انتهى من تلك الهجمة التي داهمته. تحدث الرسام إليه بصوت خفيض-

" هل لي أن أقطع الحبل الذي يوثقك؟ لقد سمعت كيف آلت بك الحال إلى السجن ".

لم يعط بالداسار جواباً فورياً. نظر بريبة إلى الغريب الفضولي. وأخيراً قال: " إذا أمرت ".

قال بييرو: " الأفضل أن تخرج من هنا ".

نظر بالداسار مرة أخرى إليه بارتياب. عندها ابتسم بييرو الذي حزر جزئياً ما كان يدور في خلده، وأخرج سكيناً وقطع الحبل. بدأ يداخله شعور بأن فكرة جنون السجين لم تكن بعيدة الاحتمال، فقد لمح شيئاً غريباً في تعابير وجهه. كان تفكيره: " حسن، إذا تسبب بأي أذى فسيوثق من جديد على الفور. سيتوافر للمسكين فرصة، على الأقل ".

قال مرة أخرى بصوت خفيض: " أنت متوجس مني. لا تريد أن تخبرني شيئاً عن نفسك ".

كان بالداسار يثني ذراعيه مستطيباً الإحساس العضلي الذي زايله منذ زمن. أجاب على سؤال بييرو بنظرة أقل ارتياباً وبلهجة يخالطها بعض الوثوق الهادئ.

" لا، ليس عندي ما أقوله ".

قال بييرو: " كما تريد. لكن ربما كنت بحاجة إلى حماية، ولا تعرف كم نحن معشر الفلورانسيين مضيافون نحو ضيوفنا أصحاب

الثياب الخلقة والمعد الخاوية. يوجد مستشفى للمساكين الضاربين في الفيافي خارج أبواب مدينتنا، وإذا أحببت، سأدلك على واحدة منها. لا خطر هناك من صاحبك العسكري الفرنسي. لقد طردوه ".

هز بالداسار رأسه بالموافقة، واستدار قابلاً العرض بصمت، وغادر وبييرو الكنيسة .

قال بييرو وهما يسيران على طريق فيا ديل أوريولو، متوجّهين إلى باب سانتا كروتشه: " أنت لا ترغب في أن تجلس أمامي كموديل لأرسمك، أليس كذلك؟ فأنا رسام:سأعطيك مالاً لقاء رسمك".

عاد الارتياب يشوب نظرة بالداسار عندما نظر إلى بييرو، وقال بحزم: " لا".

قال الرسام باقتضاب: " آه! حسن، سر مباشرة للأمام، ولسوف تجد باب سانتا كروتشه، وخارجه توجد مشفى للأفّاقين. إذن لا تريد أية خدمة مني؟ "

" أشكرك لما فعلته مسبقاً لي. يكفيني ذلك ".

" حسن "، قال بييرو رافعاً كتفيه، وابتعد كلاهما عن بعض.

طفق الفنان يفكر:" نمر عجوز يكتنفه الغموض!" يستحق أن يرسم. بشع – له أخاديد عميقة – يبدو كما لو أن المحراث والمعزقة قد مرّا على فؤاده. نقيض رائع لصديقي الدمث والمبتسم السيد غريكو– صديقي Bacco trionfante(1) الذي تزوج أنتيغون الجميلة مناقضاً كل التاريخ واللياقة. آها! دم الأديب فيه تخثَّرَ على نحو غير مريح نتيجة إمساكة صاحبه القديم! "

عندما عاود بييرو دخول ساحة الكنيسة كان الجمهور الذي تركه يستمع إلى الأخ الراهب جيرولامو يخرج متدفقاً من كل الأبواب، وكانت السرعة التي وسمت الجميع في مضيّهم كل إلى شأنه دليلاً على الأهمية التي علقوها على الموعظة التي صرفتهم عن الشؤون الأخرى لذلك النهار. اتكأ الفنان على زاوية من زوايا ركن المعمودية وراقب الجمهور المغادر، مسروراً لتنوع الأزياء والوجوه المميزة المتلهفة – وجوه مثل تلك التي كان ماساتشيو قد رسمها لخمسين سنة خلت: مثل تلك التي لم يكف دومينيكو جيرلانداجو (2) بعد عن رسمها.

شكّل هذا الصباح مناسبة خاصة، وكان مستمعو الأخ الواعظ – وهم دائماً متنوعون – يمثلون بشكل أكثر اكتمالاً مما هي العادة مختلف الطبقات والأحزاب السياسية في فلورانسة. فقد كان هناك أناس من علية القوم، ممن اعتادوا على تحمل المسؤوليات العامة داخل البلاد وخارجها، أولئك الذين برز شأنهم حديثاً ليس كأعداء لآل ميديتشي وكأصدقاء للحكومة الشعبية، لكن كبيانونيين piagnoni (انظر الحواشي) صرفين، يزاوجون حتى الحد الأقصى بين العقائد والتعليم العملي للأخ الواعظ، ويرتادون دير سان ماركو باعتباره مقام صاموئيل آخر (3): بعضهم أصحاب حضور قوي وشائق، مثل فرانشيسكو فالوري، ولربما أيضاً أصحاب طبع نزق ومتعجرف، راضين تماماً عن سلطة إلهية مباشرة لتوفيرها الحرية على طريقتهم الخاصة. وآخرون، مثل سوديريني (4)،من فيه من البيانوني المتحمس أقل ومن السياسي الحكيم أكثر. كذلك كان بين الجمهور أناس أصحاب حسب

ونسب، مثل بييرو كابوني(5)، ممن هم بكل بساطة عاشقون شجعان لا مبادئ لهم، يعشقون الحرية الجمهورية الرزينة، ممن يؤثرون القتال على الجدل، وليس عندهم أية أسباب خاصة للاعتقاد بزيف أية أفكار تبعد آل ميديتشي وتفسح مكاناً للروح العامة. وعلى مقربة منهم كنت ترى دكاترة قانون ممن لم تستنفد دراساتهم لأكورسيوس(6) وأخوته كلياً حماسهم الأمر الذي يحول دون أن يصبحوا بيانونيين متحمسين: السيد لوقا كورسيني(7) نفسه، مثلاً، الذي كان سيرفع، في مناسبة مشهودة آتية ذراعيه وهو المثقف المتعلّم في قذف للحجارة في الشارع نصرة لقضية الدين، والحرية، والأخ الراهب.ومن بين أصحاب المقامات العالية الذين ظهروا بقفاطينهم الحريرية السوداء lucco أو معاطف الفراء بمظهر السلطة المعهودة فيهم، كان هنالك تقاطر وافر لأناس ذوي وجوه أكثر تفكّراً وأكثر حساسية: علماء ورثة لأسماء كبيرة مثل ستروتزي وأتشياجولي، ممن كانوا يفكرون بلبس قلنسوة الراهب والانضمام إلى جماعة سان ماركو. فنانون جعلتهم تعاليم سافونارولا يتطلعون لاحتضان طموح جديد وأسمى، مثل ذلك الرسام الشاب (8) الذي تفوق على نفسه أخيراً في شغله تحفة فريسكو تمثل الطفل الإلهي على جدار زنزانة الأخ الراهب الخاوية – دون أن يدري إلى الآن أنه هو نفسه سيُرسم يوماً ما راهباً، ويدعى الأخ بارثولوميو. وكان هنالك الشاعر الغامض جيرولامو بينيفيني(9) الذي هرع، ربما، لينقل أخبار قدوم الأخ الحبيب القادم سريعاً إلى صديقه بيكو ديلا ميراندولا الذي كتب عليه ألا يرى شعاع صباح آخر. وكانت هناك نساء ذوات حسب

ونسب يدثرن لباساً يوحي ببساطة محسوبة شكّل معها لطفهن الأكثر تهذيباً الفارق الرئيس بينهن وبين أخواتهن الأقل أرستقراطية. وكان هناك النسبة الغالبة من عامة الشعب الأصليين أو الطبقة الوسطى، المنتمين إلى النقابات الكبيرة والصغيرة، المدركين للمحافظ المالية المهددة بضرائب الحروب. وربما كان الأكثر لفتاً للنظر والأكثر تنوعاً من كل ما عداه بين الطبقات التي انتمى إليها تلاميذ الأخ الراهب هي الصفوف الطويلة من التجار والحرفيين الأكثر فقراً الذين تراوح إيمانهم وأملهم برسالته الإلهية من الثقة الفطرية العمياء لأنه صديق الفقراء وعدو الأغنياء الظالمين المترفين، إلى ذاك التذوق المتلهف لكل خبايا التأويل التوراتي الذي يستحوذ بقوة على الحرفي الجالس، منيراً المساحات الطويلة الباهتة خلف اللوحة حيث يجلس للدرز، بشعلة شاحبة تبدو له كنور العلم الإلهي.

لكن اختلط مع هؤلاء التلاميذ المتنوعين من مريدي الراهب الكثيرون الذين لم يكونوا بأي شكل من مريديه. بعضهم كانوا من الميديتشيين الذين كانوا بدؤوا قبلاً، بدافع الخوف والسياسة في التعامل، يظهرون للروح المشرفة على الحزب الشعبي توقيراً متكلفاً. أما الآخرون فكانوا المناصرين الخلّص لحكومة حرة، لكنهم كانوا ينظرون إلى سافونا رولا ببساطة كراهب طموح– نصف حاذق ونصف متعصب – كسب لنفسه حظوة قوية لدى الشعب، ويجب أن يُقبل كواقعة اجتماعية هامة. حتى إنه كان من بين الحضور بعض من ألد أعدائه: أعضاء في الحزب الأرستقراطي العريق المعادي للميديتشيين –العازمين على

السعي لوضع الأعنّة مرة أخرى بكل قوة في أيدي بعض العائلات الرئيسة. وخلاف ذلك كان هناك الشباب الفاسقون الذين كانوا يمقتونه لأنه كان مدمّر مسرات فلورانسة. ذلك أن العظات في الكنيسة قد غدت من قبل حادثات سياسية تجذب آذان الفضوليين والحاقدين، وكذا المؤمنين. وانصرف رجالات الأفكار، مثل الشاب نيقولو مكيافيلي، لمراقبة التقارير وكتابتها لأصدقاء نائين في فيلات ريفية. وانصرف ناس ذوو شهية قوية، مثل دولفو سبيني(10)، مزمعون على تصيّد الراهب، لكونه يشكّل إزعاجاً للجمهور ويجعل الصيد نزراً، لتغذية كراهيتهم والتربّص علهم يعثرون على أساس لاتهاماتهم.

وربما، وحيث إنه لم يوجد واعظ له من التأثير الكبير ما لسافونارولا، لم يوجد قط واعظ توافرت له من المواد المتنوعة ليشتغل عليها أكثر مما توافرت له. وكان أحد أسرار التأثير الهائل يتمثّل في طبيعة موعظته المختلطة إلى حد كبير. ولم يكن بالداسار، الذي تملّكته نشوة انتقام استشهادي، سوى حالة متطرفة بين المشاعر الوجدانية الجزئية والضيقة التي اعترت ذلك الجمهور. كان في مواعظ سافونارولا من النغمات ما استهوى أدق حساسيات الطبائع البشرية، ومن العناصر ما أرضى الأنانية الوضيعة، ودغدغ فضول المثرثرين، وسحر المتطيرين الوجلين. كما أن حاجته للهيمنة الشخصية، وتأويلاته الرمزية للتوراة التي تدخل مستمعيه في متاهات شتى، ورؤياه الملغزة، ويقينه المزيّف بخصوص النوايا الإلهية، لم تكفَّ، داخل روحه الكبيرة، عن نيل النبل المتأتي عن الورع المتقد حماساً، ذلك الإحساس الشديد

باللانهائي، ذلك التعاطف الحيوي، تلك المطالبة المستنيرة بإخضاع الاهتمامات الأنانية للخير العام، مما كان مشتركاً بينه وبين أعظم بني البشر. لكن بالنسبة لغالبية مستمعيه كان كل الخصب في عظاته يكمن في توكيده الحازم على المطالب فوق الطبيعية، في رؤاه الشاجبة، في يقينه الزائف الذي أسبغ على عظاته الاهتمام المتصل بالنشرة السياسية. وما إن يسيطر مرة على مستمعيه حتى يغدو ضرورياً لطبيعته – ضرورياً لخيرهم–أن **يحافظ** على هذه السيطرة. كانت النتيجة محتومة. ما من شخص ناضل قط للاحتفاظ بالسلطة والهيمنة على حشد مختلط متنوع نجا من مكابدة الإفساد. يجب أن يكون معياره حاجاتهم الوضيعة وليس أفضل بصيرة نافذة لديه.

قلما قُدمت غوامض الشخصية البشرية بطريقة ملاءمة لكبح أحكام المعرفة السهلة أكثر مما هي في حالة جيرولامو سافونارولا. لكن بإمكاننا أن نقدّم له الوقار الذي لا يستدعي إغماض الأعين عن الحقيقة، إذا اعتبرنا حياته دراما تقترن فيها التعديلات الداخلية الكبيرة مع التغيرات الخارجية. وحتى هذه الفترة، عندما لم يبدأ تأثيره، الذي يتسم بمباشرة أكبر، على الشؤون السياسية إلا للتوّ، من المحتمل أن تكون حاجته المتغطرسة للصعود قد احترقت بشكل عصي على التمييز في الشعلة المتقدة، شعلة تحمسه لقضية الله والإنسان.

إنها عادة العصور القديمة عندما كان الثور يساق كأضحية ليكون قرباناً لجوبيتر، ولتبيّض البقع السود، وإعطاء القربان مظهراً كاذباً من بياض لا يلطخه شيء. دعنا نقذف بطبشور التبييض بعيداً،

ونقل بجرأة وجسارة – الضحية موسومة، بيد أنه، تبعاً لذلك، ليس عبثاً أن يُمدد قلبه العظيم على مذبح أسمى الآمال البشرية.

الفصل السادس والعشرون

رداء الخوف

في الساعة السادسة من ذلك المساء شعر معظم الفلورانسيين بالابتهاج لأن دخول شارلمان الجديد قد انتهى تماماً. وما من ريب أنه عندما بدأ هدير الطبول، ودوي الأبواق، ووقع حوافر الخيل على طريق بيزا، يختلط مع جلجلة الأجراس المهتاج

ة، ما من ريب أن تلك كانت لحظة مهيبة بالنسبة لأولئك الذين اعتلوا السطوح البرجية، وأتيح لهم أن يشاهدوا الأبهة الفائقة التي سلكت طريقاً التفافية طويلة على خلفية الوادي والتلال الخضراء. لم تكن الشمس قد سطعت بعد على الكون لتبرز روعة الرايات، والأسنة، وريش الخوذات، والمعاطف الحريرية، إلا أن أية سحابة كثيفة من غبار لم تظهر لتغطّي عليها، وبينما كانت قوات النخبة تقترب أكثر، كانت رؤيتها تزداد وضوحاً مع انتفاء أي تراقص للأضواء. رماة سهام اسكوتلنديون طوال وأشداء، حملة مطارد سويسريون شرسون بطيئو الخطا، غاسكونيون رشيقون جاهزون لدفع عرباتهم في طرق صاعدة، خيالة بدا كل واحد منهم فارساً جوّالاً ممسكاً برمحه وحصانه الذي لا يقهر – وكان مما يبعث على الرضى الثقة بأنهم لن يمسوا أحداً بسوء سوى أعداء الله! ومع تلك الثقة في القلوب كان يداخل المرء شعور بالبهجة أقلّ غموضاً حين ينظر إلى استعراض القوة والروعة المتمثل في النبلاء والفرسان، ومرشحي الفروسية الشبان ممن اختيروا من أرقى

السـلالات – إلـى مقـابض السـيوف المصـقولة المرصـعة بـالجواهر، ووشـائح السـاتان المطـرزة بأشـكال رمزيـة غريبـة ذات معنـى دينـي أو نبيل، والسلاسل الذهبية وزينات الرؤوس المرصعة بالجواهر، وشراشب الأحصنة الباذخة والأردية الموشّاة وإلى المظلة العالية المحمولة على أكتاف شبان منتقين التي تظلل رأس الملك المسيحي الأول. وبكلمة موجزة حسب قول كاتب مذكرات قديم ذاك الذي تقصر كتابته وانتقاؤه للعبـارة قلـيلاً عـن روائـع هـذه الزيـارة الملكيـة – fù gran " magnificenza " (1)

لكن بالنسبة للسينوريا، الذين كانوا ينتظرون على منصتهم قبالة المداخل، وعليهم أن يخرجوا بشكل نظامي في اللحظة المناسبة، يقودهم خطيبهم، لاستقبال الضيف الكبير، كان يعتّم على عظمة المشهد نوعاً ما أحاسيس مزعجة.ولو كان بإمكان السيد لوقا كورسيني أن يلقي خطاباً موجزاً باللاتينية يتدلى من فمه بأحرف واضحة، لكان الوضع أقل إرباكاً عندما هطل المطر، وأثار لجاجة لدى الرجال والجياد قطع عليه وقفاته المدروسة جيداً، وقلل من عدد ممثلي المدينة المثقفة، ليقدموا بدل ذلك ترحيباً مؤقتاً مرتجلاً بالفرنسية. لكن تلك الفوضى المفاجئة وفّرت فرصة سانحة لتيتو. وحيث إنه واحد من السكرتارية فقد صادف مكانه بين الرسميين الذين وقفوا خلف السينوريا، والذين ارتد إلى مكان وقوفهم واختلط معهم هؤلاء الأشراف أصحاب المقامات الرفيعة تحت ضغط الجياد المتدافعة.

قال سوديريني: " فليتقدم أحد ما ويلقي بضع كلمات بالفرنسية ".

لكن أحداً من أصحاب الشأن لم يجرؤ على المجازفة بفشل ثان. " أنت، يا فرنشيسكو غادي- يمكنك إلقاء الكلمة ". لكن غادي، الذي كان يشك بسرعة بديهته، انكفأ للخلف، وقال، دافعاً تيتو: " أنت يا ميليما ".

تقدم تيتو على الفور للأمام، وبمسحة الوقار العميق الذي انقاد إليه بشكل طبيعي كما المشي الطبيعي، فاه بالكلمات القليلة المطلوبة باسم السينوريا، ثم أفسح في المجال بكل كياسة، لمرور الملك. كان حضور بديهته، التي خذلته في الأزمة المريعة ذلك الصباح، أداة طيعة هذه المرة. كان خادماً أنيق اللباس لم يفارقه عندما لم يكن الخطر داهماً. لكن عندما كان يُطرى على خدمته التي جاءت في أوانها، كان يصرف ذلك بضحكة إذ أن ذلك ليس بذي شأن، ويعطي أمام من لم يشهدوا ذلك، شرف الإطراء على الترحيب المرتجل إلى غادي Gaddi. لا عجب أن كان تيتو محبوباً لدى الناس: إن المحك الذي يختبرنا به الناس هو في الغالب خيلاؤهم بالذات (2)

وإلى جانب الترحيب الخطابي انجلت أمور أخرى عن فشل أسوأ من المتوقع. ولو كان كل شيء قد حدث وفاقاً للتصورات المسبقة البارعة، لما وجد موكب الفلورانسيين من رجال الكهنوت والعامة طريقهم مسدوداً، ولما أرغموا على سلوك طريق بديلة عبر الشوارع الخلفية، ما حال دون لقائهم الملك إلا عند الكاتدرائية. وأيضاً، لو بدا العاهل الشاب تحت المظلة، الجالس على فرسه المطهمة ورمحه على فخذه، أكثر شبهاً بشارلمان، وأقل شبهاًً بشيء غرائبي صُمّم على

عجل، لكان خيال معجبيه قد لقي دعماً كبيراً. ولربما تمثّلت الرغبة في أن يكون لمحرقة الشرور الإيطالية و" المدافع عن شرف النساء " ساقاً أقل بؤساً ومجموعاً طبيعياً لأصابع القدم، وأن يكون شق فمه أقل عرضاً من شق فم الزواحف، وأنفه ورأسه أقل غلظة في حواشيهما. لكن الساق الرفيعة استقرت على قماش من ذهب ولآلئ، ولم يكن الوجه إلا شيئاً معترضاً مساحته بضعة إنشات مربعة فقط وسط المخمل الأسود والذهب، وتوهج الياقوت، ومسحات الألوان البراقة للمظلة المطرزة والمرصعة باللآلئ، " fù gran magnificenza ".

وهتفت الجماهير !Francia! Francia بحماس يتناسب مع عظمة المظلة التي مزقوها إرباً باعتبارها أسلاباً، حسب عادة قديمة جداً. قبلت شفاه ملكية المذبح أصولاً. وبعد كل سوء الطالع والخيبات حط العاهل الملكي وحاشيته الرحال في قصر فيا لارجا، وبقية النبلاء والأمراء تفرقوا على بيوت فلورانسة الفخمة، والجنود المرعبون خيموا في البراتو والبقاع المكشوفة الأخرى. وانتهى حدث ذلك اليوم.

لكن المشهد المدهش لم يزايل الشوارع، هذا المشهد الذي لم يـر الفلورانسيون قط مثيلاً له من قبل تحت سماء تشرين الثاني النجمية. وبدلاً من ظلمة لم يقطعها شيء سوى مصباح يشتعل على وهن في غير مكان أمام صورة قدسية عند منعطفات الشوارع، أو خط متصل من نور أكثر احمراراً وافد من مدخل مكشوف، فقد كانت هنالك مصابيح معلقة في نوافذ كل البيوت، حتى بات باستطاعة الناس أن يسيروا في الشوارع بأمان وراحة لا يقلان عن مثيليهما أثناء النهار –

“ fù gran magnificenza

في تلك الشوارع المضاءة كان تيتو ميليما يسير حوالي الساعة الثامنة مساءً في طريقه إلى المنزل. طوال اليوم كان يرزح تحت وطأة هموم مخفية، وأخيراً انسل دون أن يراه أحد من وسط حفلة المرح التي أعقبت العشاء. ولم تكد تسنح له فرصة ليواجه ظروفه ويتمعن فيها، حتى أمل أن يكيف نفسه مع هذه الظروف ومع كل الاحتمالات بشكل يحرره من ذعره الطفلي. لو أنه فقط لم يكن مفتقراً لحضور البديهة الضروري للتعرف على بالداسار في ظل تلك الدهشة!- إذن لكانت سعادته أكبر من كل النواحي. ذلك أنه ما زال يجفل لإحساسه بأنه كان يسبب المعاناة عمداً لوالده: لكان فضّل كثيراً أن يكون بالداسار ناجحاً وسعيداً. لكنه لم يترك لنفسه أي طريق أخرى: لن يحدث أي نزاع بعد الآن: كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يعتني بنفسه.

وبينما كانت هذه الأفكار تراوده كان يواصل سيره من ساحة سانتا كروتشه على امتداد فيا دي بينتشي. وعندما اقترب من المنعطف الذي يفضي إلى ضاحية سانتا كروتشه صدحت في أذنه موسيقى لم تكن صادرة عن حفلات الطرب والمرح المسائية، لكن عن عمل قائم على قدم وساق- موسيقى السندان. اعترت تيتو رعدة خفيفة وغذّ الخطا، ذلك أن الأصوات أوحت بفكرة لقيت ترحيبه. كان يعرف أنها صادرة عن ورشة نيقولو كابارا(3)، المقصد الشهير لكل الفلورانسيين الذين حرصوا على اقتناء المصنوعات الحديدية الجميلة والفريدة .

فكّر تيتو: " ما الذي يجعل ذلك العملاق يعمل حتى ساعة متأخرة؟ لكن هذا يلائمني أكثر. يمكنني تنفيذ هذا الشأن الصغير الليلة بدلاً من صباح الغد ".

ومع انشغال فكره على هذه الحال فإنه لم يملك سوى أن يتوقف هنيهة مبدياً إعجابه عندما وقف أمام مدخل الورشة. كان يطل على المدخل الفسيح الذي ينتصب عند الزاوية المقطوعة لمجموعة أو "جزيرة " كبيرة من المساكن شرفة سقفها من الآجر المخدد تدعمه بعض الأعمدة الحجرية ذات التيجان المنحوتة بشكل غير متقن. وقبالة الضوء الأحمر المؤطر بالخطوط الرئيسة للآجر المخدد والأعمدة نهضت في بروز أسود القامة الشامخة لنيقولو وذراعاه الضخمتان تترامحان في صعود وهبوط إيقاعي، مرة يخفي ومرة أخرى يكشف بروفيل فمه الصارم وجبينه الصارم القوي. وكان هناك شكلان من خشب الأبنوس أقل حجماً، واحد عند السندان، والآخر عند المنفاخ، يسهمان في إبراز كتلته الضخمة.

أظلم وجود تيتو المدخل وغيّر تمام التغيير معالمه الرئيسة بوقوفه صامتاً، ذلك لأنه من العبث أن يبادره بالكلام إلى أن يتوقف نيقولو عن عمله ويفطن لوجوده. وهذا مالم يحدث حتى فرغ الحداد من طرق رأس الفأس إلى الرهافة المطلوبة ورفعه عن سندانه. لكن تيتو اكتفى في الآن ذاته بإلقاء نظرة في أرجاء المكان ليتأكد من أن الشيء الذي كان يرومه لم يختف.

ندّت عن نيقولو هزة رأس غير احتفالية لكنها تعبّر عن بشاشة

في النفس بينما تولّى عن السندان ووضع مطرقته على وركه.

ما الخطب، يا سيد تيتو؟ عمل؟ "

" بالتأكيد، يا نيقولو. وإلا ما كنت غامرت بمقاطعتك وأنت تعمل خارج الدوام لأني أفهم من ذلك أن بين يديك عملاً ضرورياً ".

" مازلت أعمل العمل ذاته طيلة اليوم– أصنع فؤوساً ورماحاً. وكل من مرّ بدكاني كان يدسّ رأسه (بطيخته) ويقول: " نيقولو، ألن تأتي وتشاهد ملك فرنسا وعساكره؟ " وكنت أجيب: " لا: لست أرغب في رؤية وجوههم – أرغب في رؤية أقفائهم ".

" أأنت، إذن، تصنع أسلحة للمواطنين، يا نيقولو، علّهم يحوزون على ما هو أفضل من المناجل الصدئة في حال حدوث شغب؟ "

" سنرى. الأسلحة جيدة، ومن المحتمل أن تحتاجها فلورانسة. يقول لنا الأخ الراهب سنسترجع بيزا، وأنا من رأيه، لكن سيكون من دواعي سروري أن أعرف كيف سيتحقق هذا الوعد، إذا لم يتوافر لدينا الكثير من الأسلحة الجيدة المطروقة؟ الأخ الراهب يرى على مسافة بعيدة أمامه، أنا مؤمن بذلك. لكنه لا يرى العصافير المأسورة بسبب التعامي عنها، مثلما يحاول بعض مواطنينا أن يستخلصوا. هو يرى المنطق وليس نقيضه. لكن فيك بعض أصل ميديتشي، يا سيد تيتو ميليما. !Ebbene كذلك كنت أنا في زماني قبل أن يشرع برميل النبيذ بالإحماض. ماذا وراءك؟"

" مجرد معرفة ثمن درع الزرد الجميل ذاك الذي لمحته معلقاً

هنا ذلك اليوم. أريد شراءه لشخص يحتاج إلى حماية من ذلك النوع بارتدائه تحت صدرته ".

قال نيقولو بصراحة فظة: " فليأت هو ويشتريه بنفسه، إذن. أنا مدقق نوعاً بخصوص ما أبيع، ولمن أبيع، أحب أن أعرف من هو زبوني ".

" أعرف شكوكك، يا نيقولو. لكن هذا مجرد سلاح دفاعي: فهو لا يؤذي أحداً ".

" صحيح: لكنه قد يجعل الشخص الذي يرتديه أكثر أماناً لو شاء أن يؤذي أحداً ما. لا، لا. هذا ليس من صنعي. إنه صناعة جميلة نفّذها ماسو من برستشيا. أعاف أن أحمي قلب إنسان وغد. لا بد أن أعرف هوية من سيرتديه".

قال تيتو بعد أن عرف أن إقناعه أمر متعذّر: " حسن، إذن، لأكن صريحاً معك، يا عزيزي نيقولو، أريده لنفسي. الحقيقة أنني بصدد القيام بسفرة – وأنت تعلم مخاطر السفر هذه الأيام. أنت لا تشك **بأنني** مقدم على أي عمل خيانة ضد الجمهورية؟ "

قال نيقولو بطريقته الصريحة مرة أخرى: " لا، لا أعرفك تؤذي أحداً. لكن هل لديك ثمن الدرع؟ ذلك لأنك مررت بدكاني بما فيه الكفاية كي تعرف شارتي: لقد اطلعت على دفاتر حساباتي التالفة . لا أثق بأحد. الثمن هو عشرون فلوريناً، هذا لأنه مستعمل. لا يحتمل أن بحوزتك الآن مالاً كثيراً. فلنؤجل ذلك للغد ".

قال تيتو الذي كان يكسب في اللعب اليوم الفائت، ولم يفرغ

جزدانه بعد:" لقد اتفق أن معي المال. سآخذ الدرع معي إلى البيت ".

تناول نيقولو الدرع المشغول بإتقان، والذي لم يتعدّ حجمه كثيراً ملء اليد بمرتين.

قال عندما نُقِد المال: " إليك، إذن، خذ الدرع. فهو مصنوع ليفلّ السيف، أو البونيار، أو الرمح. لكن من جانبي لا أرتدي مثل هذه الأشياء أبداً. إن حال من يرتديه حال من يرتدي الخوف الذي لا يفارقه ".

كانت كلمات نيقولو تحمل إلغازاً لم يرق لتيتو. لكنه ابتسم قائلاً –

"آه، يا نيقولو، نحن معشر المتعلمين كلنا جبناء. فمسك القلم لا يصلّب الذراع كمطرقتك. وداعاً".

طوى الدرع، ووضعه تحت معطفه، وغذّ الخطا مجتازاً جسر روباكونتي.

الفصل السابع والعشرون
الزوجة الفتيّة

بينما كان تيتو يغذّ الخطا عابراً الجسر عقب ارتدائه الدرع الذي اشتراه مؤخراً تحت معطفه كانت رومولا تذرع المكتبة العتيقة بخطواتها، مشغولة التفكير به تواقة لعودته.

وقد حدث أن بضعة وجوه جميلة لم تطل من النوافذ ذلك اليوم لمشاهدة دخول الملك الفرنسي ونبلائه. ومن بين هذه القلة كان وجه رومولا. لم تحضر أية احتفالات منذ وفاة والدها – وكان توفي فجأة وهو في كرسيه، منذ شهور ثلاثة.

كان قد قال عندما مرّ وقت طويل على إعلان الجرس الساعة المعتادة مساءً:" أليس تيتو قادماً للكتابة؟" لم تحمله جرأته على السؤال قبل الآن خشية أن يكون الجواب بالنفي، بيد أنه تبيّن لرومولا من وجهه المصغي وحركاته القلقة أنه لم يكن يفكر بأي شيء آخر.

أجابت بلهجة الاعتذار الدمث: " لا، يا أبتاه، توجّب عليه الذهاب إلى مأدبة عشاء في مقر الكاردينال: أنت تعرف أن الجميع بحاجة إليه ".

قال باردو بعد أن بدا أن قلقه قد هدأ بفعل هذا الأمل: " آه! إذن لعله يأتي بأنباء إيجابية بخصوص المكتبة. قطع الكاردينال وعداً الأسبوع الفائت ".

خلد فترة قصيرة للصمت، ثم قال بعد أن تضرّج وجهه على

حين غرّة –

" يجب أن أتابع بدونه، يا رومولا. أحضري القلم. لم يحضر لي أي نص جديد للتعليق عليه. لكن لا بد من قول ما يجب قوله بشأن الأفلاطونيين الجدد. سأقضي قبل أن يُنجز أي شيء. أسرعي، يا عزيزتي رومولا ".

قالت في اللحظة التالية ممسكة القلم بيدها: " أنا جاهزة، يا أبتاه ".

غير أن فترة من الصمت أعقبت ذلك. لم تأبه رومولا لهذا الأمر لبرهة بعد أن اعتادت على فترات صمت تتخلل الإملاء. وعندما تطلعت حولها أخيراً مستفسرة، لم تلحظ أي تغير في الموقف.

" أنا على أتم الجاهزية، يا أبي! "

لبث باردو على صمته، ولم ينقطع صمته مرة أخرى قط.

استرجعت رومولا تلك الساعة وبعض الغيظ من نفسها يتملكها، ذلك لأنه حتى مع التفجّر الأول لحزنها كان اختلط به تفكير عصي على الكبح مؤداه: " ربما ستكون حياتي مع تيتو أكثر مثالية الآن ".

ذلك لأن حلم حياة مثلثة يتخللها مقدار من السعادة غير مقسوم لم يتحقق تماماً. فوابل السكاكر الملوّنة بألوان قوس قزح الذي نثر عليهما، ولكي يكون نموذجياً تماماً، لا بد أن يكون قد خالطه بعض بذور خفية من المرارة. وأريادن المتوجة، تحت الورود المنهمرة، كانت قد شعرت شيئاً فشيئاً بوجود الأشواك غير المتوقعة. لم تكن تلك

غلطة تيتو، ذلك ما كانت تؤكده رومولا لنفسها على الدوام. كان لا يزال يمثل الدماثة كلها بالنسبة لها، ولأبيها أيضاً. لكن كان من طبيعة الأشياء – لقد بان لها ذلك الآن واضحاً – كان من طبيعة الأشياء أن لا أحد سواها بإمكانه أن يستمر شهراً بعد شهر، وسنة إثر سنة، في تلبية صابرة صبورة لكل طلبات والدها الرتيبة المدققة. وحتى هي، التي صاغ تعاطفها مع والدها كل حماس ودِين سنوات شبابها، لم تكن في كل الأحوال صبورة، كانت متمردة جداً في داخلها. صحيح أن تيتو قبل زواجهما، وحتى فترة لاحقة، بدا أكثر قدرة على التحمل منها. لكنه من الطبيعي أن يخالط الجهد آنئذ سلاسة الجدّة. نحن نحمل حملاً كاملاً باستعداد الواثق، وحتى مرحلة معينة يكون الإزعاج المتفاقم الناجم عن الضغط ممكن الاحتمال. لكن في نهاية المطاف تصبح الرغبة في الارتياح مما لا يمكن مقاومته. حدثت رومولا نفسها بأنها كانت حمقاء جدا، وجاهلة أوان فتوتها: الآن هي أكثر حكمة، ولا تطلب أية مطالب غير عادلة من الرجل الذي وهبته كامرأة أفضل ما عندها من حب وعبادة. إن لفحة الحزن التي ما زالت تلازم قسمتها في الحياة بينا كانت تشهد انحدار والدها شهراً بعد شهر من التيه والفخر إلى خيبة أمل جديدة مع تضاؤل الوقت الذي كان تيتو يخصصه له، ولجوئه إلى التحجج بأعذار دمثة تمكنه من الاستمرار في حصته من العمل المشترك – ذلك الحزن لم يكن غلطة تيتو، كما قالت، بل بالأحرى نتيجة قدرهما المحتوم. فإذا كان مكوثه معها تقل فترته شيئاً فشيئاً، ما الغرابة، فذلك كان يرجع لصعوبة انفرادهما ببعضهما.

فمداعباته لم تقلّ رقتها: وإذا رجته بحياء ذات مساء لأن يبقى مع والدها بدلاً من ارتباط آخر لم يكن ملزماً فإنه كان يعتذر بذاك المرح الساحر، وكان يتمهل في خروجه بغنج محبب قبل أن يقوى على مغادرتها، مما كان يجعلها تشعر بقليل من وخز القلب في عزّ حبها، ثم تذهب إلى والدها وتحاول أن تلطّف انزعاجه وخيبة أمله. لكنها كانت طوال الوقت منشغلة التفكير في محاولتها لأن تعرف كيف يمكن أن يكون تيتو طيباً كما كانت قد تصوّرت، ومع ذلك يجد مستحيلاً التضحية بتلك المسرات في المجتمع والتي كانت حيوية بالضرورة بالنسبة لمخلوق لامع مثله أكثر مما هي كذلك بالنسبة لسواد الشعب. وهي نفسها كانت سترغب في قدر أكبر من المرح، وقدر أكبر من الإعجاب: صحيح أنها تخلت عن ذلك طواعية لأجل خاطر والدها – وكانت مستعدة لأن تعطي ما هو أكثر من ذلك لأجل خاطر حتى رغبة طفيفة من جانب تيتو. كان واضحاً أنهما من طبيعتين جد مختلفتين، لكن ربما ما جعل عواطفها أكثر استحواذاً على ذهنها لا يعدو أن يكون ذاك الاختلاف المتأصل بين الرجل والمرأة. وإذا كان هناك أي اختلاف آخر فإنها كانت تقنع نفسها بأن المرتبة الأدنى تقع في جانبها هي.والحق أن تيتو كان أكثر لطفاً مما كانت هي، فطبعه أكثر سماحة، وهو أقل منها تكبراً وغضباً. لم تندّ عنه أية إجابات غاضبة، وكان يتقبل كل الشكاوى بدماثة تامة. فقط كان يتفادى بكل ما وسعه من هدوء الأشياء التي كانت تضايقه.

إن مما يلائم كل طبع رحب، حين لا يكون خاضعاً للهيمنة

المباشرة لعاطفة قوية غير مدققة، أن يرتاب في نفسه، ويشك في حقيقة انطباعاته الذاتية، مدركاً الإمكانيات الثاوية وراء أفقه الذاتي. وقد ألحّ هذا الشيء على رومولا كي ترتاب في نفسها أكثر من ذي قبل لضرورة تفسير خيبة أملها في حياتها مع تيتو كيما ترضي حبها وكبرياءها معاً. خيبة أمل؟ أجل، ليس هناك من كلمة ألطف تعبّر عن الحقيقة. ربما فرض على كل النساء أن يعانين من خيبة أمل الآمال الغافلة، لو أنها (رومولا) فقط خبرت هذه الآمال. ومع ذلك، فقد كان يعتورقسمتها في الحياة شيء غريب: علاقتها بأبيها تطلبت تضحيات غير عادية من زوجها (1). كان تيتو اعتقد يوماً أن حبه سيسهل عليه تلك التضحيات. وحبه لم يبلغ مبلغاً كافياً يتحقق معه ذلك الشيء. لم يكن حنقها من انخداع الذات أمراً يمكن تبريره. لا! الحنق يجب ألا ينشأ: كل أوجه التحمل بدت لرومولا أسهل من حالة عقلية تقرّ فيها لنفسها أن تيتو قد تصرف بشكل لا يليق به. وإذا كانت شعرت بوخز جديد في القلب في ساعات وحدتها مع والدها خلال الأشهر الأخيرة من حياته، فذلك لم يكن بسبب غلطة لا تغتفر من جانب زوجها، والآن – كان أملاً يمكن الشعور بوجوده حتى في اللحظات الأولى عندما كان مكان والدها شاغراً – لم يعد هناك أي زعم ملح يبعد بينها وبين تيتو. فحياة كليهما وهما في ريعان الشباب ستسير في تيار واحد، وسيبدأ زواجهما الحق.

لكن الإحساس بشيء من قبيل الذنب تجاه والدها بسبب أمل انبثق عن موته، قد أعطى كل القوة للقلق الذي انكبّت بموجبه على

كيفية تنفيذ رغبته العليا. ذلك التقديس لذكراه كان كل ما بإمكانها أن تفعله الآن من تكفير لتفكير بدا أشبه بالفرح لفقده. فالحياة البسيطة الكدية، الخالية من الطموحات الفظة المفسدة، التي ازدادت مرارتها بالإحباط الذي واجهه أعز ما عندها من آمال، والحبيسة أخيراً في ظلمة مطبقة –موسم بذار طويل من دون حصاد – قد انتهت الآن، وكل ما بقي منها إضافة إلى اللوحة في سانتا كروتشه والتعليق غير المكتمل على نص تيتو، كان مجموعة مختارات المخطوطات والأنتيكات، ثمرة كدّ وتقتير استغرق نصف قرن. إن تنفيذ طموح والدها الذي كان طموح عمره، فيما يتعلق بهذه المكتبة، شكّل بالنسبة لرومولا التزاماً مقدساً.

كانت التركة الثمينة بمأمن من الدائنين ذلك أنه عندما تأكّد العجز عن دفع مستحقاتهم، قدّم برناردو ديل نيرو – رغم أنه لم يكن البتة من بين أثرياء فلورانسة، المبلغ الضروري وهو ألف فلورين – وهو مبلغ كبير في تلك الأيام – راضياً بحجز يوقّع على مجموعة المختارات على سبيل الضمان (2)

قال لرومولا مهوّناً من شأن الخدمة التي كلّفته حقاً بعض الإزعاج: " الدولة ستسدد لي ".إذا وجد الكاردينال مبنى، كما يبدو من قوله إنه سيفعل، فإن مجلسنا السينوريا قد يقبل بالتكفّل بالباقي. ليس لدي أولاد، يمكنني تحمّل المجازفة ".

لكن في غضون عشرة الأيام الأخيرة انتهت كل الآمال الموضوعة على آل ميديتشي: والمختارات الميديتشية الشهيرة في فيا

لارجا كانت نفسها عرضة للتشتت. فقد بدأ العملاء الفرنسيون يرون أن مثل هذه الجواهر القديمة الرائعة، كتلك التي جمعها لورينزو، كانت تعود أحقيتها إلى الأمة الأولى في أوربا. ومن المحتمل أن تسرّ الدولة الفلورانسية التي استولت على المكتبة الميديتشية لوجود زبون لها. وبسبب نذر الحرب لاستعادة بيزا التي لاحت في الأفق، وتأكد اضطرارها لدفع مبالغ دعم كبيرة إلى الملك الفرنسي، فقد كان من المحتمل أن تؤثر الدولة المال على المخطوطات.

وقد زادت أهمية هذه التغيرات السياسية الخطيرة بالنسبة لرومولا بسبب تأثيرها على تنفيذ رغبة والدها. فقد تربت في عزلة ثقافية نأت بها عن اهتمامات الحياة الواقعية، ودرجت على التفكير بالأفعال البطولية والمبادئ العظيمة كشيء مناقض للحاضر الفظ، وبالـ Pynx و Forum (3) كشيئين أكثر جدارة بالاهتمام من مجالس الفلورانسيين الأحياء. في هذه الأثناء لم يكن يعني طرد الميديتشيين لهاأكثر من انطفاء أفضل آمالها فيما يخص مكتبة والدها. كانت تعلم أن الأوقات غير مؤاتية بالنسبة لأصدقاء آل ميديتشي، مثل عرّابها وتيتو: فالتجار المتطيرون والغوغاء الحمقى كانت تملؤهم الشكوك، لكن اهتمامها الشديد والمستجدّ فيما يتعلق بالأحداث العامة، وباندلاع الحرب، وبقضية زيارة الملك الفرنسي، وبالتغيرات المحتملة الحدوث في الدولة، لم يكن يؤجج أوارها إلا الإحساس بالحب والواجب تجاه ذكرى والدها. لقد تركّز حماس رومولا في عواطفها. وحصتها في اهتمامات والدها الثقافية لم تتعدَّ كونها كدحاً كانت تتحمله لأجل خاطره. هذا، ولم يكن

لموهبة تيتو التي تتسم بالانشراح والذكاء أية جاذبية بالنسبة إليها إن لم تكن ممتزجة بالمشاعر الوجدانية الأعمق التي تنتمي إلى الحب والثقة الحديثين.لم تكن رومولا على احتكاك بأي عقل بإمكانه أن يحرّك الإمكانيات الأكبر في طبيعتها. فقد لبثت (الإمكانيات) منطوية ومسحوقة مثل أجنحة جنينية، دون أن تضفي على وعيها أي عنصر يعدو القلق الغامض والعارض.

لكن هذا الاهتمام الشخصي المستجد من جانبها بالشؤون العامة قد جعلها تحرص أخيراً على أن تفهم بالضبط التأثير الذي يحتمل أن يخلّفه وعظ الأخ جيرولامو على منعطف الأحداث. سرت الأقاويل عن تغييرات في شكل الدولة، وكل ما استطاعت معرفته من تيتو، الذي أوصلته أعمال السكرتارية ومواهبه في الخدمة إلى مركز الشؤون العامة، إنما زاد من توقها لملء يومها الموحش لتتأكد بنفسها من ماهية الشيء الذي يسيطر على مقدرات فلورانسة. وللمرة الأولى، هذا الصباح،، ذهبت لتسمع إحدى العظات التي تتلى في الكنيسة عن قدوم المسيح الثاني. عندما ذهب تيتو كانت قد اتخذت قراراً مفاجئاً. وبعد زيارة البقعة التي دفن فيها والدها في دير سانتا كروتشه، تابعت سيرها إلى الكنيسة. كانت ذكرى ذلك المشهد الأخير مع دينو ما تزال تؤجج مشاعرها كلما تذكرتها، لكنها انحسرت إلى ما وراء معاناة حياتها الزوجية وهمومها. فالحساسيات والأسئلة الجديدة التي أيقظها ذلك المشهد جزئياً بداخلها قد خمدت مرة ثانية بسبب الإذعان لطريقة زوجها في التفكير، وهذا ما تشعر به أية زوجة تتفانى في محبة زوجها وتعتمد

عليه كل الاعتماد. تذكرت تأثير صوت الأخ جيرولامو وحضوره عليها كأساس تتوقع منه أن تحرك خطبته مشاعرها بالرغم من أنه راهب ضيق الأفق. لكن الموعظة لم تفعل أكثر من أنها عمّقت قليلاً انطباعها السابق وهو أن هذا الواعظ المتزمت المولع بالوعظ الذي يحذّر من المحن والويلات كان في نهاية المطاف شخصاً يمكنها أن تشعر نحوه بتوقير واحترام شخصيين. فالتنديد والوعظ استحوذا ببساطة على اهتمامها. لم تشعر بالهلع، ولا بوخز الضمير: لقد كان هزيم الرعد النائي هو الذي بدا جليلاً، لكنه لم يؤثر فيها. لكنها عندما سمعت سافونارولا يستوحي الشهادة نشجت مع البقية: شعرت بأن إحساساً جديداً نفذ إلى كيانها – تعاطفاً غريباً مع شيء بعيد عن كل الاهتمامات التي يمكن تمييزها في حياتها. لم يكن ذلك بعيداً كلية عن النشوة التي كانت واكبت بعض اللمسات البطولية النادرة في التاريخ والشعر. لكن الشبه كان كذلك الشبه القائم بين ذكرى الموسيقى، والإحساس بالوقوع تحت تأثير نغمات موسيقية حقيقية.

إلا أن ذلك الانفعال العابر، رغم شدته، بدا أنه يقع تماماً خارج حجرة حياتها الجوانية وصومعتها. لم تكن تفكر حالياً بالأخ جيرولامو. كانت تصغي بقلق لخطوة زوجها. وخلال هذه الأشهر الثلاثة من عزلتهما المزدوجة كانت تحسب كل يوم حقبة قد يأخذ اتحادهما فيها شكلاً أكثر مثالية. كانت تدرك أنها أحياناً تفرط قليلاً في حزنها أو استعجالها بخصوص أي أمر يمس ذكرى والدها – تفرط قليلاً في انتقادها أو صمتها البارد عندما كان تيتو يسرد الأشياء التي

قيلت ونفذت في الأوساط التي كان يرتادها– متسرعة قليلاً في الإيحاء بأنه عن طريق العيش ببساطة تامة كما عاش والدها فقد تتحسن حالتهما المادية بما فيه الكفاية مما يمكّنهما من سداد دينهما لبرناردو ديل نيرو، والتقليل من المصاعب المتصلة بالمكتبة. لم يكن محتملاً أن يتحمس تيتو في شأن هذه النقطة الأخيرة كما فعلت هي، وكان الطلب إليه أن يتخلى عن ألوان الترف التي جدّ فعلاً في سبيلها مطلباً كبيراً . وفي المرة التالية التي يأتي فيها تيتو إلى البيت ستحرص على كبت كل هذه الدوافع التي بدت أنها تباعد بينهما. كانت رومولا تسعى جاهدة، مثلما تفعل المرأة المحبة، إلى أن تخضِع طبيعتها لطبيعة زوجها. وقد أرغمتها حاجة قلبها الماسة على أن تقمع، وبكل عزيمة قوية، كل دافع للشك، والتكبر، والحنق ينشأ في داخلها. شعرت بأنها أهل لأي قصاص للنفس ينقذها من التوقف عن الحب. وهذا سيكون أشبه بكابوس مرعب يبدو فيه أن العالم حولها يتداعى، ويترك قدميها معلقتين في الظلام. لم تتصوّر رومولا بشكل جلي قط مثل هذا المستقبل لنفسها. لقد أخذت تشعر فحسب بوجود مجهود في تلك الثقة التي تتشبث بها والتي كانت يوماً مجرد سكينة تركن إليها.

انتظرت واسترقّت السمع طويلاً، ذلك لأن تيتو لم يعد مباشرة إلى البيت بعد مفارقته لنيقولو كابارا، ومضت أكثر من ساعتين على عبوره جسر روباكونتي قبل أن تسمع رومولا الباب الخارجي للفناء يدور على مفاصله، وتهرع إلى أعلى الدرج الحجري. كان هناك مصباح مدلّىً فوق الدرج، ورأى الاثنان بعضهما بشكل جلي عندما

كان يصعد الدرج. كانت الأشهر الثمانية عشر قد أفرزت تغيراً أكثر تمايزاً في وجه رومولا مقارنة بوجه تيتو. كان التعبير في وجهها أكثر خنوعاً،وأقل برودة، وأكثر توسلاً، وبينا كانت الحمرة الوردية تضرّج الآن وجهها، في غمرة غبطتها لانتهاء فترة الانتظار الطويل فقد بدت أكثر بهاءً من اليوم الذي التقاها فيه تيتو أول مرة. في ذلك اليوم، أي ناظر كان سيقول، بأن رومولا قد فطرت على السيطرة، وتيتو على الخضوع. لكن فم رومولا كان الآن يرتعش قليلاً، ونظرتها خالطها قدر من حياء.

بذل جهداً لكي يبتسم عندما بادرته بالقول –

" حبيبي تيتو، أنت مرهق. لقد كان نهاراً متعباً، أليس كذلك؟ "

كان ماسو حاضراً، ولم يتصل الحديث حتى عبرا الردهة الأمامية وأغلقا باب المكتبة وراءهما. كانت نار الحطب تضطرم في الأثافي الكبيرة. وكان هذا مصدر سرور لتيتو، أما وأنه قد تأخر في أوبته إلى البيت، وشكّل صوت رومولا الرخي مصدر السرور الآخر.

استدار وقبلها عند قامت بخلع معطفه، ثم مضى صوب كرسي ذي مسند عال وضع له بقرب المدفأة، واستلقى عليه، ورمى بقبعته قائلاً، ليس بشكل نكد، لكن بلهجة تذمر من إنسان متعب، بينما ندت عنه ارتعاشة طفيفة –

" رومولا، أتمنى لو أقلعت عن الجلوس في هذه المكتبة. بالتأكيد مقر سكنانا أنسب في هذا الطقس البارد ".

شعرت رومولا بجرح. لم يسبق أن رأت تيتو يتصرّف على

هذا النحو من اللامبالاة. فقد درج على أن يكون مفعماً باهتمام حيوي مشفق. وقد شغلت عودته كل تفكيرها بعد غيبة يوم بحاله! لا بد أنه تعب جداً.

أجابت وهي تنظر إليه بقلق كما لو أنها ودت أن تقرأ له عذراً في علائم الإرهاق البدني: " أنا مستغربة أنك نسيت، يا تيتو. أنت تعرف أنني أجهز بيان (كاتالوج) الخطة الجديدة حسب رغبة والدي، وليس لديك الوقت لتساعدني، لذا يجب أن أعمل على تجهيزه بكل عناية ".

وبدلاً من ملاقاة نظرة رومولا قام تيتو بإغماض عينيه وفرك يديه على وجهه وشعره. شعر أنه لا يتصرف كما اعتاد أن يفعل، لكنه سيصلح الأمور غداً. وقد سبب الانبعاث المرعب للمخاوف الخفية، والتي لو عرفت بها رومولا لابتعدت عنه للأبد، شعوره بغربة بدأت تحتل موقعها منذ فترة بينهما – سبب في شعوره بالنفور من امرأة شكّل منحى تفكيرها مصدر خطر بالنسبة له. تملكه هذا الشعور من دون أن يدري، وقد اغتاظ من نفسه لتصرفه نحوها بهذه الطريقة الجديدة الباردة.لم يستطع أن يظهرعلى الفور في نظراته أو كلماته بمظهر المحب. لم يقو سوى على أن يحمل نفسه على قول ما يمكن أن يفيد كتبرير.

" أنا لست على ما يرام، يا رومولا. يجب ألا تستغربي من كوني ضجراً ".

قالت رومولا وهي تجثو بقربه، واضعة ذراعها على صدره

بينما أخذت تسحب شعره للوراء على سبيل المداعبة: " آه، لقد صادفت الكثير مما يجلب لك الإرهاق هذا اليوم ".

سحبت ذراعها بغتة بعد أن تملّكها خوف مفاجئ، ونظرة ساهمة تنمّ عن استفسار مشوب بالهلع:

" ماذا تحت معطفك، يا تيتو؟ شيء صلب كالحديد ".

قال على الفور: " إنه حديد بالفعل – إنه درع ". كان متأهباً للمفاجأة والسؤال، وقد تحدث بهدوء، كما لو عن شيء لم يكن على استعجال لشرحه.

قالت رومولا في لهجة تخمينية: " إذن، كان هناك خطر غير متوقع هذا اليوم؟. أحدهم أعارك إياه أثناء مرور الموكب؟"

" لا، إنه لي. سأضطر إلى ارتدائه على الدوام، لبعض الوقت ".

قالت رومولا وقد بدا عليها الهلع، وعاودت الالتصاق به ثانية: " ما الذي يهددك، يا حبيبي تيتو؟ "

" الجميع مهددون هذه الأيام، من ليس عدواً شرساً للميديتشيين. لا تغتمّي، يا حبيبتي رومولا – هذا الدرع سيحميني من الهجمات المخفية ".

وضع تيتو يده على رقبتها وابتسم. كانت هذه المحاورة القصيرة عن الدرع قد اخترقت القشرة الجديدة، وشقّت قناة أمام عادة الحنان العذبة.

قالت رومولا: " لكن عرّابي، أيضاً، أليس معرّضاً للخطر؟ وهو

لا يحتاط – ألا يجدر به؟ ذلك لأنه دون شك معرّض للخطر أكثر منك، فما لديك من التأثير لا يذكر بالمقارنة معه. "

قال تيتو، على الفور: " هذا هو السبب بالضبط، فلأنني أقل أهمية أنا أكثر تعرّضاً للخطر.تحوم حولي الشبهات الدائمة بأني مبعوث. والأشخاص من مثل السيد برناردو يحميهم مركزهم وعلاقاتهم العائلية الواسعة، والمنتشرة بين كل الفرقاء، بينما أنا يوناني لا أحد يأخذ بثأري ".

" لكن، يا تيتو، هل هو خوف من شخص بعينه، أو مجرد إحساس مبهم بالخطر ما حدا بك للتفكير بارتدائه؟ "لم تقو رومولا على طرد فكرة خوف مهين احتضنها تيتو، والتي اختلطت مع قلقها.

قال تيتو: " لقد تلقيت بعض التهديدات، لكنني لا بد أن أتوسل إليك ألا تذكري الموضوع لأحد، يا حبيبتي رومولا. سأعتبر أنك تنقضين ثقتي بك إذا ذكرت الأمر لعرّابك ".

قالت رومولا وقد تضرّج وجهها: " بالتأكيد، لن أذكره له. إذا ما رغبت أن يبقى سراً ". وأضافت بعد برهة صمت بلهجة الحبيبة القلقة : " لكن، يا حبيبي تيتو، سيجعلك هذا تعيساً جداً ".

قال، بعد أن عبرت وجهه حركة لا تكاد تلحظ، كما لو أنها بفعل إحساس مداهم: " ما الذي سيجعلني تعيساً؟ "

" هذا الخوف – هذا الدرع الثقيل، لا أملك سوى أن يقشعر بدني عندما أشعر به تحت ذراعي. من الممكن أن أتصوره قصة مسلية – أن شيطاناً خبيثاً قد أحال جلدك البشري الحساس إلى قشرة صلبة.

هو جد مغاير لحبيبي المشرق، الخفيف الظل، تيتو ! "

قال تيتو مبتسماً: " إذن تفضلين أن يكون زوجك معرضاً للخطر، عندما يكون بعيداً عنك؟ " وأضاف: " إذا كنت لا تمانعين في أن أتلقى طعنة خنجر أو طلقة مسدس، فلم أمانع أنا؟ سأتخلى عن الدرع – هل أفعل؟"

" لا، يا تيتو، لا. أنا خيالية. لا تأبه بما قلت. لكن مؤكد أن مثل هذه الجرائم ليست شائعة في فلورانسة؟ طالما سمعت أبي وعرّابي يقولان ذلك. هل أصبحت كثيرة الوقوع مؤخراً؟ "

" لا يستبعد أن تصبح كثيرة الوقوع مع وجود الكراهيات المريرة التي تولد باستمرار ".

صمتت رومولا لبضع لحظات. فقد أحجمت عن مزيد من الإلحاح على موضوع الدرع. حاولت أن تبعده عن مدار حديثهما.

قالت بلهجة منشرحة: " قل لي ماذا حصل هذا اليوم. هل سارت كل الأمور على ما يرام؟ "

" على خير ما يرام. أولا، هطل المطر ووضع حداً لخطبة لوقا كورسيني التي لم يرغب أحد في سماعها، وكان لشخص طلق اللسان – بعضهم قال إنه غادي، وبعضهم قال إنه ميليما، لكن في الواقع تم الأمر بسرعة حيث لم يعرف أحد أيهما –شرف إعطاء الكريستيانيسيمو (رجال الكهنوت–م) أقصر خطبة ترحيبية ممكنة بلغة فرنسية رديئة ".

قالت رومولا بابتسامة مشرقة مقبّلة إياه: " تيتو، أعرف، كان

ذلك أنت. كيف يحدث أنك لا تبالي أبداً بادعاء أي شيء؟ وبعدئذ؟ "

" أوه! بعدئذ، جرى عرض للسلاح والمجوهرات، والمزركشات، مثلما شاهدتِ أنت في مناسبة giostra الفلورانسية الأخيرة، فقط كمية أكبر من هذه الأشياء. وعرضوا أشخاصاً يتبخترون، ويقفزون، وكان هناك فوضى، واختلط الحابل بالنابل، وصاح الناس، وابتسم الكريستيانيسيموابتسامة عريضة (من الأذن إلى الأذن). وبعدئذ حدث الكثير من التقريظ، والأكل، واللهو. كنت عند تورنابوني. سأقص عليك ما حدث غداً ".

" أجل، يا حبي، ليس الآن. لكن أهناك مزيد من أمل في أن تنتهي الأمور على سلام بالنسبة لفلورانسة، وألا تتعرض الجمهورية لمزيد من المشاكل الجديدة؟ "

رفع تيتو كتفيه وقال: " فلورانسة لن تنعم إلا بالسلام الذي تدفع ثمنه باهظاً. هذا جلي وواضح ".

ارتسمت علامات الحزن على وجه رومولا، لكنها كبحت حزنها وقالت بانشراح: " لن تقوى على أن تحزر إلى أين ذهبت اليوم، يا تيتو. ذهبت إلى الكنيسة، لأسمع خطبة الأخ جيرولامو ".

بدت علامات الذعر المفاجئ على تيتو. فقد ذهب تفكيره على الفور إلى دخول بالداسار إلى الكنيسة. لكن رومولا فسّرت نظرته تفسيراً آخر.

" أنت مستغرب، أليس كذلك؟ جاءت الفكرة عفو الخاطر. أريد أن أعرف كل شيء عن الشؤون العامة حالياً، وصممت على أن أسمع

بنفسي ما الذي وعد به الأخ الراهب الناس عن هذا الغزوالفرنسي".

" حسن، وماذا كان رأيك بالنبي؟ "

" بالتأكيد يمتلك قوة غامضة جداً، ذاك الرجل. جلّ موعظته كنت أتوقع سماعه، لكن في إحدى المرات تأثرت بشكل غريب – فقد نشجت مع البقية ".

قال تيتو مداعباً إياها، وقد شعر بالارتياح لأنها لم تأت على ذكر بالداسار: " حاذري، يا رومولا، فلديك مسحة تعصب. سترين رؤىً، شأن أخيك ".

" لا. حدث الشيء نفسه مع كل البقية. فقد سرحوا جميعاً معه. باستثناء ذلك الفظ دولفو سبيني الذي رأيته هناك يبدي تجهماً أكثر من مرة. حتى إنه كان هنالك رجل بائس المنظر، يلتف حبل على رقبته. سجين هارب، على ما أعتقد، كان التجأ للكنيسة طلباً للحماية – عجوز تنطوي نظراته على رعب كبير: شاهدته والعبرات تنهمر على وجنتيه، بينا كان ينظر ويصغي بشغف شديد ".

تلت فترة من الصمت قبل أن يعاود تيتو الكلام.

قال: " لقد شاهدتُ الرجل – السجين. كنت خارج الكنيسة مع لورينزو تورنابوني عندما دخل راكضاً. كان أفلت من عسكري فرنسي. أرأيته عندما خرج؟ "

" لا، لقد خرج مع صديقنا الطيب بييرو دي كوسيمو. شاهدت بييرو يدخل ويقطع حبله، ويصحبه خارج الكنيسة. لكنك بحاجة لراحة، يا تيتو؟ أتشعر بتوعك؟ "

" أجل "، قال تيتو، وهو ينهض، ذلك أن الإحساس المريع بأنه محتم عليه أن يعيش في خوف مستمر مما كان بالداسار قد قاله أو فعله كان يضغط عليه مثل ثقل بارد.

الفصل الثامن والعشرون

السجل المرسوم

عقب ذلك ببضعة أيام توجهت روما لا إلى منزل بييرو دي كوسيمو في فيا غوالفوندا. وكان يصطف على جانبي بعض الشوارع التي كان عليها أن تجتازها فرنسيون يحدّقون بفلورانسة، وفلورانسيون يحدّقون بالفرنسين، ولم تكن نظرة التحديق من كلا الجانبين نظرة ود وإعجاب بالكامل. لقد كان طبيعياً أن تتخذ الأمة الأولى في أوربا، عندما تجد نفسها بالضرورة، حين تكون خارج بلدها، أمام شعب من مرتبة أدنى عموماً، سيماء التفوق المتعمّد. أما الفلورانسيون الذين تجشموا عناء لعب دور المضيف الودود، فقد كانوا في أسوأ حالاتهم النفسية بإزاء ضيوفهم المترفعين جداً.

ذلك أنه بعد انتهاء الاحتفالات والمجاملات الباسمة الأولى – بعد أن عرضت في الكنائس عروض السحر المعجبة بآليات لا نظير لها من السحب العائمة والملائكة– بعد أن شرّف الضيف الملكي السيدات الفلورانسيات بالكثير من نظراته الغرامية باعتباره المسيحي الأول في الحفلات الراقصة ومآدب العشاء، وبدء الحديث عن التجارة – بدا أن شارلمان الجديد قد اعتبر فلورانسة مدينة مفتوحة، ولاسيما بعد أن فتحها وسنانه يخلد للراحة، وتحدث عن تركه مندوبه السامي بعد مغادرته، وأنه كان يفكر بإعادة آل ميديتشي. بدا هذا منطقاً متفرداً من جانب أداة منتقاة من الإله! منذ أن شكّلت سياسة بييرو دي ميديتشي، التي تبرأ منها الشعب، الهجوم الوحيد الذي واجهت به فلورانسة جلال

فرنسا. وفلورانسة كانت مصممة على ألا تخضع. وقد تم التعبير عن التصميم بعبارات قوية في مشاورات المواطنين داخل القصر القديم، وبدأ يظهر للعيان على الرايات العريضة في الشوارع والساحات حيثما سنحت الفرصة لتحقير رجل فرنسي وقح. في مثل هذه الظروف لم تكن الشوارع بالإجمال مكاناً ممتعاً للتنزه بالنسبة للسيدات كريمات المحتد. لكن رومولا، وهي تتلفع بنقابها ومعطفها الأسودين، وماسو العجوز بجانبها، شعرت بأمان تام من نظرات العيون الوقحة.

كانت تتعجل زيارة بييرو دي كوسيمو. فنسخة الصورة التي ظهر فيها والدها كأوديب، والتي تكفّل أن يرسمها لها منذ فترة بعيدة، لم يتم الانتهاء منها بعد. وبييرو كان متردداً جداً في عمله – أحياناً، عندما لم يكن الطلب جازماً، كان ينحّي الصورة جانباً لعدة أشهر. وأحياناً يلقيها داخل ركن أو خزانة، حيث ستلقى، على الأرجح، نسياناً كلياً – لذلك شعرت من الضروري بمكان أن تراقب سير عمله. كانت رومولا مفضلة لدى الرسام، وكان يميل إلى تنفيذ أية رغبة لها، لكن لا يمكن الركون إلى أي ميل عام على أنه ضمانة تقي من نزواته المفاجئة. كان أخبرها منذ أسبوع أن الصورة ربما تنتهي بحدود هذا الوقت. وكانت رومولا متشوقة إلى حد العصبية لتكون بحوزتها نسخة عن الصورة الوحيدة المتبقية عن والدها آن كان كفيفاً، مخافة أن تبهت صورته في مخيلتها. ولقد جعلها الإحساس بوجود خلل في إخلاصها لذكراه تتشبث بكل قوة تأنيب الضمير، إضافة إلى محبتها له، بواجباتها نحو ذكراه. فالحب لا يصبو ببساطة نحو الخير المعلوم في الشخص

المحبوب: فهو لا يقنع دون ولاء تام من جانب القلب. إنه يصبو إلى اكتماله هو.

وقد سمح لرومولا بفعل حظوة خاصة تمتعت بها أن تقطع على الرسام عمله دون سابق إنذار. أزاحت المزلاج الحديدي ونادت على بييرو بنغمة شبيهة بنغمة آلة الفلوت، مثلما فعلت الفتاة الصغيرة بائعة البيض بحضور تيتو. لم يتأخر بييرو عن الرد، لكنه عندما فتح الباب برر سبب سرعته بطريقة لم تكن مجاملة.

" آه، سيدة رومولا، أهذا أنت؟ اعتقدت أن البيض المرسل إلي قد أتى. أنا بحاجة إليه ".

قالت رومولا مبتسمة وهي تعيد نقابها : " لقد أتيتك بشيء أفضل من البيض القاسي، يا بييرو. ماسويحمل سلة صغيرة ملأى بالكعك والحلوى Confetti (1)". تناولت السلة من ماسو وقالت بعد أن اجتازت عتبة الباب –

" أعرف أنك تحب هذه الأشياء حين تأتيك من دون مشقة. اعترف بذلك ".

" أجل، عندما تأتيني بالسهولة التي يأتي بها النور "، قال بييرو وهو يطوي ذراعيه وينظر إلى الحلوى بينا كانت رومولا تكشف الغطاء عنها (الحلوى) وترمقه بمداعبة مشوبة بالخبث. " وهاهي تأتي مع النور الآن "، أضاف قائلاً وهو يرفع بصره إلى وجهها وشعرها بإعجاب الرسام آن سقط غطاء شعرها إلى الخلف بفعل ثقل نقابها.

ثم أضاف: " لكنني أعلم لمَ الحلوى، هي لأجل إغلاق فمي

عندما تؤنبيني. حسن، ادخلي الغرفة المجاورة وسترين أنني فعلت شيئاً للصورة مذ رأيتِها، رغم أنها لم تكتمل حتى الآن. لكنني لم أعِد، كما تعلمين: أحرص على ألا أقطع وعداً:

Chi promette e non mantiene

L'anima sua non va mail bene " 2

في هذه الآونة أُغلق الباب الذي يفضي إلى الحديقة البرية، واستأنف الرسام عمله.لكن ليس على صورة رومولا. فتلك كانت على الأرض مسنودة إلى الحائط. انحنى بييرو ليرفعها،كيما يضعها في النور الملائم. لكن عند رفعه هذه الصورة كشف بفعلته صورة أخرى – الرسم الزيتي لتيتو الذي أضاف عليه إضافة مهمة في الأيام القليلة الماضية. كانت أصغر بكثير من الصورة الأخرى حتى إنها غارت عميقاً بداخلها، وإذ كان من عادة بييرو أن ينسى أين وضع أي شيء فإنه لم يدرك ما الذي كشفه ذلك لأنه، عندما أخذ يدقق في بعض التفاصيل في اللوحة التي حملها بيديه، مضى ليضعها على حامل. بيد أن رومولا صاحت ووجهها يتضرج بفعل الدهشة التي اعترتها –

" هذا تيتو! "

التفت بييرو ورفع كتفيه صامتاً. لقد اغتاظ لنسيانه.

لبثت تنظر إلى الرسم بدهشة واستغراب، ثم التفتت إلى الرسام على الفور وقالت بانزعاج يتسم بالحيرة–

" يا لها من صورة غريبة! متى رسمتها؟ ماذا تعني؟ "

" مجرد نزوة خيال مني "، قال بييرو وهو يرفع القبعة عن

رأسه، ويحك رأسه، ويرسم التجهم المعتاد الذي يواري به إظهار أية مشاعر. " أردت وجهاً فتياً وسيماً لذلك وكان وجه زوجك هو المناسب ".

خطا للأمام، انحنى نحو الصورة، وتظاهر، بعد أن أخذها بعيداً مديراً قفاها نحو رومولا، بأنه يلقي عليها تفحصاً عابراً، ثم وضعها جانباً كشيء ليس له من الجودة ما يخوّل عرضه.

لكن رومولا التي لم تبرح واقعة الدرع ذاكرتها، والتي اخترقتها حتى الصميم هذه المصادفة الغريبة للأشياء التي ربطت تيتو مع فكرة الخوف، ذهبت قريباً جداً منه وقالت –

" لا تبعدها. دعني أنظر ثانية. ذاك الرجل الذي يطوق الحبل عنقه – لقد رأيته – رأيتك تذهب إليه في الكنيسة. ما الذي جعلك تضعه جنباً إلى جنب في صورة واحدة مع تيتو؟"

لم ير بييرو سبيلاً آخر سوى قول جانب من الحقيقة.

" كانت مجرد مصادفة. كان الرجل هارباً يجري على الدرج ولمح زوجك: أعتقد أنه تعثر. ولقد اتفق أن كنت هناك وشاهدت ما حدث، واعتقدت أن صاحبنا الذي علا وجهه الذعر هو الموضوع الملائم. لكن لا قيمة لها – إنها مجرد رسمة أو خربشة من نزواتي". أنهى بييرو حديثه بازدراء مبعداً اللوحة بما يشي أنه مصمم على ذلك، وقام بوضعها على رف عال.

" هيا والقي نظرة على أوديب ".

كان قد أظهر كلفةً كبيرة لوضع الصورة بعيداً عن رؤيتها،

وتسبب في ذلك بتوليد الانطباع نفسه الذي كان يسعى لتفاديه– بأن هناك شيئاً غير مستحب في الواقع، شيئاً في غير مصلحة تيتو، في الظروف التي كانت الباعث على الصورة. لكن هذا الانطباع أسكتها: فكبرياؤها ورقتها منعاها من طرح مزيد من الأسئلة، عندما يُحتمل أن تبدو الأسئلة وكأنها تشي بأنها (رومولا) يمكن أن تحتضن حتى قليلاً من الشك حيال زوجها. واكتفت، بما وسعها من لهجة هادئة، بالقول–

" كان يبدو شخصاً غريباً يستحق الرثاء، ذلك السجين. هل تعرف المزيد عنه؟ "

" ليس أكثر مما قلت: دللته على الطريق إلى المشفى، هذا كل شيء. انظري الآن، وجه أوديب كاد أن ينتهي. قولي ما رأيك ".

أعطت رومولا الآن كامل اهتمامها لصورة والدها، ولبثت تنظر إليها بصمت طويل.

" آه "، قالت أخيراً " لقد عملت ما أردته منك. لقد أسبغت عليها مزيداً من هيئة مَنْ يعير أذناً صاغية. يا عزيزي بييرو"– التفتت صوبه بعينين بارقتين دامعتين – " أنا جد ممتنة لك ".

قال بييرو، وهو يستدير بنزق ويبعد برجليه، إلى جانب، الأشياء التي تبعثرت على الأرض: " هذا ما لا أطيقه فيكن معشر النساء، فأنتن دائماً تفضن بمشاعر لا داعي لها. لماذا أنت ممتنة لي على صورة أتلقى أجرها منك، ولا سيما أنني حملتك على الانتظار ريثما تنتهي؟ وإذا ما رسمت صورة فباعتقادي أن من صالحي ودواعي سروري أن أرسمها جيداً، إه؟ هل تشكرين شخصاً لأنه ليس وغداً أو

مغفلاً؟ يكفي أن يشكر هو نفسه السيد دومينيديو الذي لم يجعل من شيمته لا هذه ولا تلك. لكن النساء يحسبن أن الجدران تُمسك (تشدّ إلى بعضها) بالعسل".

قالت رومولا، وهي تبتسم من خلال عبراتها، وتتناول شيئاً هشاً وحلواً جداً من السلة الصغيرة:" يا بييرو، يا سريع الغضب! نسيت كم أنت نزق. هاك، ضع هذه القطعة الفاخرة من الحلوى في فمك ".

تقبلها بييرو على نحو يشبه كثيراً ذلك الدب في القصة الذي يحلم بالكمثرى ويقبل " بيضة إوز "(نوع من أنواع الكمثرى–م) رخوة للغاية – فهو يحب العطية، لكنه تعود أن يخفي أفراحه وأتراحه تحت لبوس خشن.(3)

قال بييرو بعد أن دس إصبعه في السلة بحثاً عن واحدة أخرى: " إنها لذيذة، يا سيدة أنتيغونا ". لم يتناول شيئاً سوى البيض الصلب لمدة أسبوعين. وقفت رومولا قبالته وهي تشعر أن قلقها الجديد معلّق لبرهة بفعل هذه المتعة الساذجة.

قالت على الفور بعد أن وضعت السلة: " وداعاً، يا عزيزي بييرو. أعد بألا أشكرك إذا أنهيت الصورة في القريب العاجل وبالشكل الجيد. سأقول لك، أنت ملزم برسمها من أجل سمعتك ".

قال بييرو بإيجاز وهو يساعدها بكثير من البراعة في لفها نفسها بمعطفها ونقابها: " جيد ".

قال في سرّه عندما أغلق الباب وراءها: " كم أنا مسرور لأنها لم تسأل مزيداً من الأسئلة عن تلك الرسمة ".

" لابد أن أحزن لأجلها عندما تخمّن بأنني اعتقدت أن زوجها الجميل يفيد كموديل جيد لإنسان وغد. لكنني سهّلتها عليها. لن تعود للتفكير بها ثانية ".

بدا بييرو شديد الاحمرار كما هي حالة الأشخاص الصرحاء عندما يحاولون الظهور بمظهر فيه قدر من البراعة. ازدادت وطأة التفكير بالصورة على رومولا شيئاً فشيئاً آن كانت متوجهة إلى البيت. لم تملك سوى أن تركّب الواقعتين، واقعة الدرع واللقاء الذي أتى بييرو على ذكره بين زوجها والسجين، والذي حدث صبيحة اليوم الذي تم فيه ارتداء الدرع. تلك النظرة المرعبة التي أضفاها الرسام على تيتو، هل شاهدها هو؟ ماذا عسى يعني كل ذلك؟ "

حاولت أن تؤكد لنفسها: " لا يعني شيئاً. كانت مجرد مصادفة. هل أسأل تيتو عنها؟ " أخيراً حدثتها نفسها أن " لا: لن أسأله عن شيء لم يخبرني به من تلقاء نفسه. هذا يشكل جناية ضد الثقة التي محضني إياها ". قلبها قال لها: " لن أجرؤ على سؤاله ".

انتاب الثقة خلل مريع : كانت تخشى أية حركة عجولة، كما أولاء الذين يحملون شيئاً ثميناً ويرغبون في الاعتقاد بأنه ليس مكسوراً.

الفصل التاسع والعشرون
لحظة انتصار

" توارى صاحبنا العجوز. تابع سيره نحو أريتزو صباح اليوم التالي. باعتقادي، لم تعجبه رائحة الفرنسيين بعد أن كان سجينهم. ذهبت إلى المشفى لأسأل عنه. أردت أن أعرف ما إذا كان أولئك الرهبان صانعو الحساء قد اكتشفوا أنه في وعيه أو لا. ومع ذلك، فقد قالوا إنه لم تبد عليه علائم الجنون – فقط لم يعر اهتماماً للأسئلة، وبدا أنه يغرس شجرة كرمة على بعد عشرين ميلاً. لقد كان نمراً عجوزاً غامضاً. كان بودّي أن أعرف المزيد عنه ".

كان ذلك حديث بييرو دي كوسيمو في صالون نيلو يوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني، بعد مضي أسبوع بالضبط على دخول الفرنسيين. وقد تجمّع حوالي ستة أو سبعة أشخاص في توقيت مغاير للعادة، الساعة الثالثة عصراً. ذلك أن هذا اليوم كان اليوم الذي ترقبّت فيه كل فلورانسة بكل حماس وقوع حادثة سياسية حاسمة. كل أمكنة الاستراحة كانت تغص بالناس، وكل صاحب متجر لم يكن لديه زوجة أو نائب ينوب عنه في تصريف الأعمال، وقف عند باب متجره داساً إبهاميه تحت نطاقه بينما لم تنفك الشوارع عن استقبال المتقاطرين من حرفيين يتوقفون أو يعبرون ببطء وتكاسل، مثلهم مثل كسرات أو نتف هائمة متأهبة للاندفاع بشدّة إذا ما جذبها أي جسم.

كان نيلو يداعب أوتار العود وهو نصف جالس على لوح

الخشب قبالة واجهة المحل، ويواظب على مراقبته الساحة العامة.

قال بلهجة التوكيد وهو يضع العود جانباً : " آه. لو عرضوا عليّ فلورينـاً مـن الـذهب لمـا رضـيت أن أفـوّت علـى نفسـي منظـر العسـاكر الفرنسـيين وهـو يخبّـون فـي أحـذيتهم العريضـة وراء سـجنائهم الهاربين!وذلك يأتي من تركي صالوني لأحلق الذقون الرائعة. الأمر دائمـاً كـذلك: إذا مـا غـادرت قـط مركـز الأرض هـذا فـي أيـة لحظـة فسيغتنم حدث ما الفرصة ليقع في ساحتي piazza ".

قال بييرو بطريقته اللاذعة: " أجل، من المفروض أن تكون هناك. ولو كان لمجرد أن ترى صديقك اليوناني المفضل وهو يبدو مذعوراً كما لو أن ساتاناسو قد أمسك بتلابيبه. أحب أن أرى أسيادك الباسمين الدائمين وقد فاجأتهم ريح وأكرهوا على إبانة دواخلهم رغماً عن أنوفهم. ماهو، برأيك، لون كبد الشخص الذي يبدو كغزال امتقع لونه لحظة إمساك غريب عابر بتلابيبه فجأة؟"

" بييرو، ابق على خلّك هذا لتستعمله مرقاً لبيضك! وماذا إذا بدا أديبنا الأريب مجفلاً عندما شعر بأن زوجاً من المخالب يمسك به وشاهد مجنوناً طليقاً عند مرفقه؟ فأديبك ليس كشأن أولئك المتوحشين من السويسريين والألمان الذين لا تفيد رؤوسهم إلا كأكباش حصار لدك الحصون، والذين عندهم من الشهية القوية ما يجعلهم لا يتحرجون من تناول قذيفة مدفع قبل الفطور. نحن معشر الفلورانسيين نأخذ بالاعتبار خصائل أخرى لدى الإنسان إضافة إلى ذلك اللغو الفظ الذي يدعونه شجاعة، والتي يمكن الحصول عليها باستئجار مغفلين بسعر كبير

للدزينة. صدّقني، حالما يكتشف الناس أنهم يمتلكون من الأمخاخ عدداً يفوق ما لدى الثيران فإنهم يستعملون الثيران للجرّ. وعندما اكتشفنا نحن معشر الفلورانسيين أن لدينا من الأمخاخ ما يفوق غيرنا فإننا شرعنا باستخدامهم للقتال نيابة عنا ".

نادى صوت من الحرم الداخلي: " خيانة، يا نيلو! هذا ليس مبدأ الدولة. فلورانسة تشحذ أسلحتها، وكانت آخر رؤيا موثّقة جيداً للراهب هي أن مارس (إله الحرب–م) يقف على قصر فيتشيو يضع ذراعه على كتف سان جيوفاني باتيستا الذي كان يقدم له قطعة من قرص العسل ".

قال نيلو: " جميل، يا فرانشيسكو أن يكون في فلورانسة بضع جماجم أكثر سماكة تصلح لقصف بيزا بها. وسيبقى في المدينة تلك الأنفس الأكثر رهافة للقيام بأعمال التفكير والحلاقة. أما بالنسبة لصاحبنا بييرو هنا، فإذا ما تجاسر على هذا النحو فدعه يحمل أكبر ريشة عنده كسلاح ولوحة أدواته كترس ويتحدى لمنازلة فردية صاحب أكبر فم سويسري يمكنه أن يقع عليه في البراتو ".

زمجر بييرو قائلاً: " انصرف va (بالفرنسية –م)، يا نيلو. فلسانك ينطلق على سجيته كالعادة مثل طاحونة عندما يكون نهر آرنو ممتلئاً – سواء أكان هناك حنطة أم لا ".

" حنطة ممتازة، أقول لك. ذلك أنه من المعقول أن يتوقع المرء أن يجد رساماً أرقش مثلك مولعاً بأن يخترق بطنه رمح مثلما هو معقول توقّع الوقوع على شخص شحذت مواهبه على الآثار

الكلاسيكية يستهويه أن يمزق وجهه الجميل مخالب وحش بري كاسر ".

قال بييرو: " حسناً تقول، فلنفترض أنك حملت أناساً على وضع سيقانهم في كيس لأنك تدعوه زوجاً من الجوارب. من قال أي شيء عن وحش بري، أو عن شخص غير مسلح يندفع إلى المعركة؟ القتال تجارة، وهو ليس تجارتي. سأكون أحمق إذا ما سعيت وراء الخطر، لكن بإمكاني التصدي له إذا داهمني ".

قال نيلو مصمماً على إفحام من وجّه الاتهام: " كيف حدث، إذن، أنك مرتعب جداً من الرعد، يا عزيزي بييرو؟ ينبغي أن تكون قادراً على فهم لِمَ ترتعد فرائص شخص من شيء يبدو ترّهة بالنسبة لآخرين – أنت يا من تختبئ مع الفئران حالما تشرع عاصفة بالهبوب ".

" هذا لأنني أملك حساسية خاصة تجاه الأصوات المرتفعة.ليس لهذا علاقة بشجاعتي أو شعوري".

" حسن، وتيتو ميليما يمكن أن يكون له حساسية خاصة تجاه إمساكه على حين غرّة من قبل السجناء الذين فرّوا من العساكر الفرنسيين. الناس ولدوا بالفطرة ومعهم كراهياتهم: أنا نفسي لا أستطيع تحمّل رائحة النعناع. تيتو يكره بالفطرة السجناء القدامى الذين يتعثرون ويتكمّشون بأيديهم بقوة. إكو! "

تعالى ضحك من الجميع لهذا الدفاع من جانب نيلو، وكان واضحاً أن مقت بييرو لتيتو لم تشاركه فيه المجموعة. تناول الرسام،

بتجهمه الذي تصعب معرفة كنهه، قطعة الكتان من جعبته وأغلق أذنيه باحتقار ساخط، بينما تابع نيلو منتصراً –

" لا، يا عزيزي بييرو، لا أتحمل أن يتعرض أريبي الجميل للسخرية. ولا تتحمل فلورانسة ذلك أيضاً، حيث ينبذها علماؤها باكراً في سن الأربعين. فونيكسنا (طائرنا العنقاء –م) بيكو غادر لتوّه إلى الفردوس، كما أخبرنا الأخ الراهب. وبوليتزيانو الذي لا مثيل له، منذ ما لا يزيد عن شهرين غادر إلى – حسن، حسن، دعنا نأمل أنه لم يذهب إلى العلماء البارزين في ماليبولج "(1)

قال فرانشيسكو سي: " بالمناسبة، هل سمعت أن كاميلا روسيللي(2) قد بزّت الأخ الراهب في نبوءاتها؟ تنبأت منذ سنتين أن بيكو سيقضي في موسم الزنبق. مات في تشرين الثاني. قال المزدرون: " ليس إطلاقاً في موسم الزنبق. تقول كاميلا: " تولّوا عني! ما عنيته زنابق فرنسا، ويبدو لي أنها قريبة جداً من خياشيمك "، اسمع، " إيوجي(3)، كاميلا! " إذا تمكّن الأخ الراهب أن يثبت أن أياً من رؤاه قد تحقق أيضاً، فسأعلن أنني أصبحت بيانونياً من غد ".

قال بيترو سينيني، المثقف: " لقد أسرفت في قحّتك تجاه الأخ الراهب، يا فرانشيسكو. نحن جميعاً مدينون له هذه الأسابيع لكونه يكرز بالسلام والهدوء، وينحي جانباً خصومات الأحزاب. إن من يسرّون لرؤية الناس يغمزون في قناة الأخ الراهب حالياً لهم أصحاب نظرة ضيقة . وإذا ما ركب الملك المسيحي الأول رأسه بشأن المعاهدة هذا اليوم ورفض أن يوقع ما هو عادل ونزيه بالنسبة لفلورانسة فليس

إلا الأخ جيرولامو من يجب أن نثق به ليجعله يثوب إلى رشده ".

قال نيلو: " إنك تقول الحق، يا سيد بيترو. إن الأخ الراهب هو أحد أعتى المسامير التي على فلورانسة التعلق بها – هذا، على الأقل، رأي أحد أكثر الذقون احتراماً، تلك التي تشرفت بحلقها. لكن السيد الشاب نيقولو كان يقول هنا الصباح الفائت – وبالتأكيد كان فرانشيسكو يعني الشيء ذاته – إن هناك من قوة التمدد الرائعة في مغزى الرؤى بقدر ما في جلد الثور عند ديدو (4). يبدو لي أن الحلم قد يعني أي شيء يأتي في أعقابه. وما يقول صديقنا فرانكو ساتشيتي: تحلم امرأة بين عشية وضحاها بأفعى تلدغها وإذا بها تكسر كوب شراب في اليوم التالي، وتصيح: " انتبهوا إلي، اعتقدت أن شيئاً سوف يحدث – يبدو الآن واضحاً ماذا كان مغزى الأفعى ".

قال كروناكا: " لكن رؤى الأخ الراهب ليست من هذا الصنف. فهو لا يقول ما الذي سيقع فحسب – ما يفيد أن الكنيسة ستحرق ويعاد تجديدها، والملحدين سيؤمنون– فهو يقول إن هذا سيحدث بسرعة. إنه ليس بالمخادع المراوغ ذاك الذي يتسبب في ثغرات لنفسه، إنه– "

صاح نيلو وهو يقفز من مكانه على اللوح ويطل برأسه من الباب: " ما هذا؟ ما هذا؟ هاكم أناس يتقاطرون إلى قلب الساحة ويصرخون. لا بد أن شيئاً ما قد حدث في فيا لارجا. آها! " وانطلق دهشاً فرحاً إلى خارج الباب، يضحك ويلوح بقبعته.

أسرعت بقية المجموعة إلى الباب. جاءت الأخبار من فيا لارجا تماماً كما توقعوها. لكن إن كانت الأخبار قد وصلت إلى الساحة

فإن دهشتهم لم تكن قليلة للشكل الذي اتخذه قدومها. كان تيتو ميليما يجلس محمولاً فوق أكتاف الناس، على مقعد يبدو واضحاً أنهم اختطفوه من الشارع، يعلو وجهه فرح وابتسامة لما كان يتعرض له من إكراه واضطرار. انزاحت قبعته عن رأسه وعلقت بالبيشيتو الذي كان متهدلاً حول عنقه. وما إن شاهد المجموعة عند باب صالون نيلو حتى رفع أصابعه إشارة إلى أنه رآهم. وفي اللحظة التالية قفز من المقعد إلى عربة مملوءة بالبالات كانت تقف في الفسحة الكبيرة بين ركن المعمودية ودرج الكنيسة، بينما تحلّق الناس حوله مثل دواجن تقوقي بأصواتها المتلهفة بانتظار أن يقدم لها الطعام. لكن الصمت ساد عندما شرع يتحدث بصوته الواضح الرخي –

" يا مواطني فلورانسة! لست أملك أمراً بإذاعة الأخبار سوى إرادتكم. لكن الأخبار طيبة، ولن تؤذي أحداً عند إذاعتها. إن الملك المسيحي الأول يوقّع معاهدة هي مشرّفة لفلورانسة. لكنكم تدينون بهذا لأحد مواطنيكم الذي قال كلمة تليق بالرومان القدماء– أنتم مدينون لبييرو كابوني! "

وفي الحال انطلقت الأصوات تهدر.

" كابوني! كابوني! ماذا قال صاحبنا بييرو؟ " " آه! لن يتحمّل أن يُرسل من هيرودس إلى بيلاطس " (5) نحن نعرف بييرو! " " أورسو! أخبرنا، ماذا قال؟"

عندما هدأ ضجيج الإلحاح قليلاً عاود تيتو الكلام –

" الملك المسيحي الأول أفرط قليلاً في طلباته – كان عنيداً

– قال أخيراً: " سآمر بإطلاق الأبواق ". ثم، يا مواطني فلورانسة! مواطنكم بييرو كابوني، الذي تكلّم بصوت المدينة الحرة، قال: " إذا أطلقت بوقك سنقرع أجراسنا! ". وخطف نسخة من الشروط المهينة من بين يدي السكرتير، ومزقها إرباً إرباً، واستدار ليغادر الحضرة الملكية ".

مرة أخرى تعالت الصيحات – ومرة أخرى جاءت الطلبات اللجوجة تطالب بالمزيد.

" ثم، يا مواطني فلورانسة، شعر جلالة ملك فرنسا، ولربما للمرة الأولى، بكل جلال المدينة الحرة. وأسرع الملك المسيحي الأول بنفسه من مكانه منادياً على بييرو كابوني أن يعود. لقد فعلت الروح العظيمة لمدينتكم فلورانسة فعلها عن طريق كلمة عظيمة دونما حاجة للأعمال العظيمة التي كانت تكمن على أتم الجاهزية وراءها. ووافق الملك على توقيع المعاهدة التي تحفظ كرامة فلورانسة وكذا سلامتها. سيرفرف علم فرنسا فوق كل سفينة فلورانسية تعبيراً عن الصداقة والمصلحة المشتركة، لكن فوق تلك الراية ستكتب الكلمة " حرية! "

" هذا كل ما عندي لكم من أخبار، ألا تكفي؟ – ما دام لأجل مجد كل واحد فيكم، يا مواطني فلورانسة، أن بينكم مواطناً يعرف كيف يعبّر عن إرادتكم ".

بينا تعالت الأصوات ثانية، مسح تيتو ببصره الجموع، يداخله فرح جواني لمرأى الجمهور المتنوع الذي شعر كل فرد فيهم بالفخر عندما فكّر كيف أن بييرو كابوني قد ناب عنه بطريقة ما – بأنه كان العقل وكابوني الناطق باسمه. استمتع بجانب المرح في الحادثة التي

غيّرته فجأة، هو الأجنبي، وصديق آل ميديتشي، حيث أصبح خطيباً يدغدغ أسماع الشعب الصاخب لأجل خير مبهم أطلقوا عليه اسم حرية. شعر بسعادة تامة لأن الجمهور أمسك به، وأخذه ومشى به على جناح السرعة، بينما كان يخرج من القصر في فيا لارجا كمبعوث للسينوريا. هذا التمرين الخطابي الموجه إلى مرضاة العامة كان سهلاً جداً، ممتعاً جداً: فالإنسان الذي يعرف كيف يقنع لا خطر عليه من أية جهة. لقد استطاع أن يقنع الجميع بأنه كان يتصنّع مع كل الآخرين. فالإشارات وسحنات النساجين والصباغين كانت بالتأكيد مما يدخل السرور إلى القلب عند النظر إليها من عل بهذه الطريقة.

بدأ تيتو يتكيف مع درعه، وفي هذه اللحظة نسيه تماماً. وقف واحدى يديه تمسك بقبعته المستردة، ويده الأخرى على نطاقه، ونور ابتسامة الرضى يتلألأ في عينيه الواسعتين بينما أظهر توقيراً وداعياً لمستمعيه قبل أن يقفز نازلاً عن البالات – عندها، وعلى حين غرّة، تلاقت نظرته ونظرة شخص لم يبد عليه قط المنظر المرح الذي ظهر عليه النساجون، والصباغون، وجامعو الصوف المحتفلون. كان هذا الرجل حليق الذقن، وشعره مقصوص بعناية، وكان يعتمر قبعة لائقة من اللباد. لم تكن نظرة واحدة لتكفي أحداً سوى تيتو لتؤكد له أن هذا الوجه كان وجه السجين الهارب الذي أمسك به على الدرج. لكن الوجه لم يكن وقعه على تيتو ببساطة كوجه السجين الهارب، لكن كوجه كان يألفه منذ سنين.

بدا كل شيء مضغوطاً في ثانية – منظر بالداسار ينظر

إليه، والإحساس يخترقه مثل سهم ناري، وفعل القفز من العربة. كان سيقفز في اللحظة ذاتها، سواء أشاهد بالداسار أم لا، ذلك لأنه كان على عجل من أمره ليذهب إلى قصر فيتشيو: هذه المرة لم يفضح نفسه بأية نظرة أو حركة، وقال في سرّه إنه يجب ألا يؤخذ على حين غرّة مرة ثانية. يجب أن يكون متأهباً لرؤية هذا الوجه ينهض باستمرار مثل اللطخة المتقطعة التي تأتي في رؤيا مريضة. لكن هذا الظهور المعاود لبالداسار الذي كان يشبه صورته أكثر من أي وقت مضى قد عزز التأثير الضاغط للخوف: ففكرة جنونه فقدت الآن احتمالها بعد أن ظهر حليقاً ولائق اللباس مثل مواطن محترم لكن فقير . من المؤكد أن تغيراً كبيراً طرأ عليه، لكن كيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ ومع ذلك، فلو كان سليم العقل تماماً – ممتلكاً لكل قواه وكل علمه، فلم إذن كان يتمهّل على هذا النحو قبل أن يفصح عن هويته؟ لابد أن ذلك بهدف جعل خطة انتقامه أكثر اكتمالاً. لكنه تمهّل بالتأكيد: هذا على الأقل أعطى فرصة للهروب. وبدأ تيتو يفكر بأن الهرب هو سبيله الوحيد.

لكنه بينما نسي، وظهره باتجاه ساحة الكنيسة، الدور الجديد الذي كان يؤديه، ولم يعد يفكر بالأشياء العديدة التي يسّرتها بديهة حاضرة ولسان متأهب، بل ببضعة أشياء جعلها القدر عسيرة جداً بطريقة أو بأخرى، فإن الحماس الذي غذّاه باستخفاف كان يخلق مشهداً في تلك الساحة مغايراً تماماً للدراما الجوانية، دراما الخوف المتمركز على الذات التي حملها معه منها .

بدأ جماع الجمهور، عند تواري تيتو، يديرون وجوههم صوب مخارج الساحة باتجاه فيا لارجا عندما وشى مرأى mazzieri، أو حاملي الصولجانات الذين دخلوا من فيا دي مارتيلي بمقدم الوجهاء. بالتأكيد هم الممثلون التجاريون أو المبعوثون، المولجون بتنفيذ المعاهدة. لا بد أن المعاهدة قد تمّ توقيعها، وهاهم يأتون من لدن الحضرة الملكية. كان بييرو كابوني قادماً–القلب الجسور الذي عرف كيف يتحدث بالنيابة عن فلورانسة. كان الوقع على الجمهور لافتاً للنظر. تفرّقوا وأصواتهم الآخذة بالخفوت والوهن تؤول إلى صمت–وغدا الصمت تاماً حتى إن خطو الممثلين التجاريين على الرصيف العريض وحفيف أرديتهم الحريرية أمكن سماعه مثل مطر الليل. كان هناك أربعة منهم، لكنهم لم يكونوا دكتورَي القانون الفقيهَين، السد غودانتونيو فيسبوتشي والسيد دومينيكو بونسي (6) اللذين كان الجمهور ينتظرهما، ولم يكن فرانشيسكو فالوري الذي زادت شعبيته في تلك الأيام الأخيرة. كانت اللحظة من نصيب شخص آخر ذي حضور مهيب لا يميل لمسايرة الجماهير بقدر ما يميل إلى مسايرة أي مطالبين آخرين لا يتصفون بالعقلانية، محبٍ للنظام، مثل شخص أصبح بضربة حظ تاجراً، وبقوة الطبيعة جندياً. هذا ولم يُخرق الصمت إلا حين ظهوره عند مدخل الساحة، ثم تعالت صيحة " كابوني! كابوني! حسناً فعلت، يا كابوني! " تدوّي في أرجاء الساحة.

نظر الرجل البسيط القوي الشكيمة حوله بفرح رصين. قام مواطنوه بعد سنتين بتنظيم جنازة عظيمة له عندما قتل في المعركة. فقد

ارتفعت المشاعل يحملها كل أعضاء الهيئة القضائية، وظهرت مشاعل أخرى، ثم ظهر حَمَلة الرايات. إلا أنه من غير المعروف أنه ذاق طعم الفرح جرّاء الخطبة التي أسهبت في تقريظه، عندما كانت الرايات تخفق فوق نعشه. فلنغتبط لأنه نال بعضاً من شكر ومديح أثناء حياته.

الفصل الثلاثون
سر المنتقِم

كانت المرة الأولى التي يذهب فيها بالداسار إلى ساحة الكنيسة منذ فراره. كانت تحدوه رغبة قوية لسماع الراهب البارع يعظ ثانية، لكنه استنكف عن معاودة الظهور في البقعة نفسها التي شوهد فيها نصف عارٍ، بشعره المهمل، وحبل يطوق عنقه – في البقعة نفسها التي دعوه فيها بالشخص المعتوه. كان الشعور، في نضارته، أقوى من أن يطغى عليه أي وثوق بالتغيير الذي أضفاه على مظهره. ذلك أنه عندما فاهت شفتا تيتو بكلمات " شخص معتوه، بالتأكيد " لم تكن خسّتها وقساوتها فحسب ما سبب لدغتها السامة – بل شعور بالداسار الفوري والمرير بأنه قد يكون عاجزاً عن إثبات كذب هذه الكلمات. وإلى جانب الرغبة الجامحة للانتقام التي تملّكته نشأ إحساس حاد بأن قدرته على تنفيذ الانتقام كان مشكوكاً بها. كان كما لو أن تيتو قد تلقى عوناً من ملقّن شيطاني همس في أذن الخائن كاشفاً أكثر أسرار بالداسار مدعاة للأسى. لم يكن معتوهاً. كان يثوي في داخله ميسم سلامة العقل الذي يُرثى له، والشعور الواضح بالملكات المهشمة،فلقد قدّر مقدار ضعفه. وقد استيقظ بداخله، مع أول تحرك لغيظ انتقامي، حذر غامض، كحذر وحش بري شرس لكنه ضعيف – أو مثل حذر حشرة تداعى أمامها ذلك الجزء من التراب وجعلها تتوقف مشلولة الحركة مرتابة محتارة. لقد كانت هذه الريبة، هذا التصميم على عدم اتخاذ أية خطوة قد تكشف

أي شيء يتعلق بشخصه، ما جعل بالداسار يرفض بوادر حسن النية تجاهه من لدن بييرو دي كوسيمو .

كذلك كان حذراً في المشفى، إذ لم يخبرهم، في جواب على أسئلة الأخوة هناك، سوى أنه سجن من قبل الفرنسيين وهو عائد من جنوة. لكن عمره، والمؤشرات في كلامه وتصرفه على أنه كان من طينة أخرى غير طينة المتسولين العاديين والأفاقين المعدمين الذين تستقبلهم المشافي، قد حدت بالرهبان لأن يقدموا له حسنة إضافية: رداء صوفي خشن لحمايته من البرد، زوجاً من حذاء فلاحي، وبضعة دنارٍ danari، أصغر عملة فلورانسية، لتساعده في سفره. كان قد سلك منذ الصباح الباكر الطريق المفضي إلى أريتزو. لكنه توقف في أول بلدة صغيرة، واستخدم زوجاً من دناريه ليحلق ذقنه، ويقص طارة شعره قصّاً ناعماً قصيراً كسابق عهده. كان الحلاق في تلك البلدة يتوفر على مرآة يدوية صغيرة من الفولاذ البرّاق: لقد مضى زمن طويل، سنين، مذ أن نظر بالداسار إلى شخصه آخر مرة. والآن، بعد أن وقع بصره على المرآة اليدوية، برقت فكرة جديدة في ذهنه. " هل أصابه من التغير الشيء الكثير ما جعل تيتو غير قادر على التعرف عليه؟ كانت الفكرة لجاماً مفاجئاً لتيارات هائجة، حتى إنها شكّلت صدمة مؤلمة له. كانت يده ترتعش كورقة، عندما أبعد ذراع الحلاّق عنه وطلب المرآة. رغب في أن يرى نفسه قبل أن تحلق له ذقنه. وضع الحلاق الذي لاحظ ارتعاشه المرآة أمام وجهه.

لا، لم يطرأ عليه تغير إلى ذلك الحد. لقد وقف بنفسه على

حقيقة التجاعيد كما كانت لثلاث سنين خلت.لم يطرأ عليها الآن سوى مزيد من العمق: بقي الجلد الخشن المتسمّك على حاله، وظهرت بعض النتوءات الصغيرة السطحية على الحاجب، مثل كثير من علامات الشيفرة. والجلد لم يطرأ عليه أي تغيّر خلا أنه بدا أكثر اصفراراً، وأكثر شبهاً بقشرة لا حياة فيها. وتلك اللحية البيضاء الكثة – لم تبد لعينين نظرتا إليه عن كثب لمدة ست عشرة سنة على غير حقيقتها – لعينين كان يجب أن تبحثا عنه وهما تتوقعان أن تجداه قد تغيّر، كما يبحث الناس عن الأحباء بين أجساد قذفتها الأمواه. في نظرته بدا شيء مختلف، لكنه كان اختلافاً إنما يجعل التعرف عليه باعثاً على هلع أكبر. إذ أليس يوفر الصوت المعهود رعشة أكبر عندما يُسمع كصرخة؟ لكن الشك كان بمثابة حماقة: لقد أحس أن تيتو قد عرفه. مدّ يده ودفع المرآة بعيداً. عاودت تيارات الشعور الجارفة اندفاعها. ومن جديد تفعّلت طاقتا الكراهية والثأر.

عاد أدراجه إلى فلورانسة، لكنه لم يشأ أن يدخل المدينة حتى الغسق. لذلك انعطف عن الطريق العام، وجلس بقرب بركة صغيرة يظللها على أحد جوانبها شجر حرجي يعرف بجار الماء كان لا يزال مرشوشا ببعض الوريقات الصفراء. كان يوماً من أيام تشرين الثاني الهادئة، ولم يكد يرى البركة حتى تهيّأ له أن سطحها الراكد قد يوفّر مرآة له. أراد أن يتأمل ذاته ببطء، ما لم يجرؤ أن يفعله في حضرة الحلاق. جلس على حافة البركة وانحنى بجسمه لأمام كي ينظر بكل جدية إلى صورته.

هل كان هناك شيء ما ينمّ عن الحيرة والبلاهة في وجهه – مثل ذاك الذي شعر به في مخيّلته؟

لا ليس الآن، ليس عندما كان يتفحص نفسه بنظرة مستفسرة متلهفة: على العكس، كان هناك قصد مركّز في عينيه. لكن في أوقات أخرى؟ أجل، يجب أن يكون كذلك: في الساعات الطوال عندما أحس في داخله بوجع غامض لماض يتأبى على التذكر – عندما بدا أنه يجلس في عزلة ظلامية، تزوره الهمسات التي خفتت هازئة بينا كان يصيخ السمع علّه يلتقطها، وتزوره أشكال بدت أنها تقاربه وتعوم مبتعدة حين دفع يده بعنف ليقبض عليها – في تلك الساعات، لا ريب أن نظرته كانت تشي بإحباط وحيرة متصلين. والأكثر رعباً من هذا، عندما انقشعت سجف السحب لفترة وجيزة، وعندما قفز للأمام يحدوه الأمل، تجمّعت من جديد، وتركته عاجزاً كما في سابق عهده. إذ ذاك ارتسم تشوش أبله على محيّاه، وبدا كشخص ضربه العمى على حين غرة.

هل تمكّن من إثبات أي شيء؟ هل تمكّن حتى من البدء بزعم أي شيء، متيقّناً بأن حلقات التفكير لن تتداعى ؟ هل سيصدق أحد أنه قد تسنّى له قط التوفر على عقل مفعم بمعرفة نادرة، ومنشغل بأفكار مترابطة، وجاهز لشتى أنواع الكلام؟ كل ذلك هرب منه – ذلك المخزون الذي كدّ في تجميعه هل خسر ذلك كلية وللأبد، مثل مياه وعاء ذهبت أدراج المحيط الواسع؟ أو، أنه ما زال بداخله يمنعه من الخروج عائق ما قد ينشق إلى نصفين يوماً ما؟

ربما يكون الأمر كذلك. حاول أن يتشبّث بشدة بذلك الأمل. ذلك أنه، منذ اليوم الذي بارح فيه، واهناً، مضجعه من القش لأول مرة، وشعر بظلمة جديدة في داخله في ظلّ سطوع الشمس طرأت تغيّرات على عقله، بعضها تدريجي ومستديم، وبعضها فجائي وسريع الزوال. ومع استرداده قوته الجسمية فقد استرد رباطة جأشه وطاقة إرادته، استردت ذاكرته كل ذلك الجزء من حياته المنشغل بعواطفه وانفعالاته، وشعر على نحو يتنامى في المدة والألم بالإحساس المزعج الناجم عن فقدان المعرفة بالأشياء. لكن الأدهى من هذا أنه – في مرة أو مرتين، عندما هاجت مشاعره بشدة، بدا للحظات أنه يمتلك كل ماضيه الغابر، كما ينود الشيوخ للحظة ثم يستعيدون شعورهم بشبابهم: بدا مرة ثانية يرى الصحائف اليونانية ويفهمها، ومرة أخرى يشعر أن عقله يتحرك من دون خدر وسط الأفكار المألوفة. لم تكن سوى بارقة، وإذ بالظلام المطبق يعود من جديد أكثر رعباً من ذي قبل. لكن ألن يحدث الشيء ذاته مرة ثانية ويدوم لفترات أطول؟ آه لو أنه فقط يأتي ويدوم مرة ثانية بما يكفي ليضع انتقامه موضع التطبيق –يستنبط ألماً لا نظير له، ألماً لا تكفي اليد اليمنى وحدها على إنفاذه!

نهض من وضعية الانكباب، وحاول، بعد أن صالب ذراعيه، أن يركّز كل قوته العقلية على الخطة التي يجب أن يتّبعها دون إبطاء. كان ملزماً أن ينتظر المعرفة والفرصة، وفي أثناء انتظاره لا بد أن تتوفر له أسباب العيش دون تسوّل. وما كان يخشاه الآن، من بين كل الأشياء، هو أن يذهب الظن بأي شخص إلى أنه عجوز معتوه

عاجز. يجب ألايعرف أحد أن نصف ذاكرته قد تبخّر:القوة الضائعة قد تعود ثانية. وإن حدث ذلك، ولو للحظة، فسيكون كافياً.

كان يعرف كيفية الشروع باستقاء المعلومات التي يريدها عن تيتو. لقد كرر الكلمات " براتي فيرافيتشي " باستمرار بعد أن قيلت له بشكل لم تفلت منه برمّتها ولمدة طويلة. شخص في جنوة كان رأى خاتم تيتو على إصبعه أخبره أنه اشترى ذلك الخاتم في فلورانسة من شاب يوناني حسن الهندام وله وجه أسمر جميل في صالون rigattiere (2) يدعى براتي فيرافيتشي، في الشارع الذي دعي أيضاً فيرافيتشي. سبب هذا الاكتشاف لبالداسار اضطراباً عنيفاً. حتى تلك اللحظة كان يتشبّث بكل ما في طبيعته المتقدة من عناد بثقته بتيتو، ولم يظن لحظة واحدة أنه تركه وشأنه عن عمد. كان قد قال أولا ً: " قطعتي الصغيرة من الرقّ لم تصله قط. لهذا السبب ما زلت أكدح في أنطاكية. لكنه يواصل البحث. هو يعرف المكان الذي تهت فيه:سيقتفي أثري ويعثر عليّ في نهاية المطاف". ثم، عندما أخذ إلى كورنثيا، استمال ممتلكيه بأن أكّد لهم بأن البحث عنه سيجري دون ريب وسيتم افتداؤه، وذلك كي يؤمّن نفسه ضد فشل أية تحريات تتواصل بشأنه في أنطاكية. وفي كورينثيا طفق يفكر فرحاً:" هنا، أخيراً، سيجدني. من المؤكد هنا سيحط رحاله أياً كان الطريق الذي يسلكه ". لكن قبل مرور سنة داهمه المرض الذي خرج منه محطم الجسد والنفس حتى أصبح في نظر ممتلكيه أسوأ من شيء عديم القيمة، إلا فيما يتعلّق بانتظار الفدية التي لم تأت. ثم، بينما كان يجلس عاجزاً تحت أشعة الشمس

الصباحية، طفق يفكر: " لقد غرق تيتو، أو أنه وقع في الأسر أيضاً. لن تقع عيناي عليه بعد الآن. انطلق يبحث عني لكن سوء الحظ كان حليفه. لن تقع عيناي على طلعته بعد الآن ". وقد بدا وهو يجلس بعد عودة الوهن واليأس إليه من جديد مسنداً رأسه بيديه، وعيناه ذاهلتان، وشفتاه تتحركان دونما هدف، أشبه ما يكون برجل عجوز أبله لا أمل يرتجى منه حتى إن مالكيه كانوا لا يمانعون لو تمّ التخلص منه، وسمحوا لتاجر من جنوة رثى لحاله كإيطالي أن يأخذه على متن سفينته. وأثناء رحلة استغرقت عدة شهور في الأرخبيل، وعلى امتداد الساحل البحري لآسيا الصغرى، استعاد بالداسار قوته البدنية، لكن عند النزول في جنوة كان إحساسه بالعزلة مرهقاً جداً إلى حد أنه تمنى لو قضى جرّاء ذلك المرض في كورينثيا. كان هنالك احتمال وحيد فقط يقف عائقاً أمام تحقق الأمنية: ويتمثّل هذا الاحتمال في ألا يكون تيتو قد قضى، وإنما يعيش في حالة سجن أو إملاق. وإذا كان حياً فلا يزال أمام بالداسار أمل – ربما أمل ضعيف، وقد يتأجل تحققه لفترة طويلة، لكن يبقى أملاً، وهو أنه قد يعثر على ولده، ولده العزيز على قلبه، ثانية. وقد تتشابك الأيدي من جديد، ويتقابل وجهاً لوجه مع الكائن الوحيد الذي تذكره بالشكل الذي كانه قبل أن تنهار مقدرته العقلية.

وهو على هذه الحالة الشعورية اتفق أن التقى الغريب الذي لبس خاتم تيتو العقيقي، ورغم أن بالداسار كان سيعجز عن وصف الخاتم مسبقاً إلا أن منظره حرّك الشغاف الغافية، واستطاع أن يتعرّفه. إن الحقيقة المتمثلة في أن تيتو، بعد ما يقارب السنة من الافتراق عن

والده، كان يعيش في فلورانسة في ترف واضح يبيع الجوهرة التي ما كان يجب أن يبيعها حتى آخر رمق، هذه الحقيقة أحجم بالداسار عن تعليلها: كان على استعداد لأن يتقبّل برضى مسألة أن تصدمه هذه الحقيقة وتشوش رؤيته للأمور من أن تتكون لديه فكرة واضحة عنها. لم يحاول أن يشعر بشيء سوى بالفرح الذي سينجم عن رؤيته لتيتو ثانية. إذ ربما اعتقد تيتو أن والده قد قضى. بطريقة أو بأخرى سينجلي الغموض. " لكن على الأقل سألتقي بعينين سوف تتذكراني. أنا لست مقطوعاً من شجرة في هذا العالم ".

ومرة أخرى قال بالداسار: " لست مقطوعاً من شجرة في هذا العالم. لن أكون وحيداً أبداً، ذلك أن انتقامي لا يفارقني ".

كان أشبه بوسيلة تحقق ذلك الانتقام، أشبه بشيء خارجي فحسب، وتابع لحياته الحقيقية، حتى إنه أطرق مرة ثانية ليتفحّص نفسه بفضولية تامة –ليس لأنه، كما اعتقد، كان يبالي مثقال ذرة برجل عجوز ذاوٍ تركه الجميع، ولم يحبه أحد، رجل كانت روحه أشبه ببيت مهجور برُدَ رماد موقده، وجدرانه خلت من أي شيء سوى آثار ما كان في الزمن الغابر. إنه لمن طبيعة العواطف البشرية جميعها، الحقيرة منها والسامية، أن هنالك حداً تتوقف عنده عن أن تكون أنانية بما في الكلمة من معنى، وهي أشبه بنار تتأجج في كياننا، نار يكون كل شيء آخر فينا مجرد وقود لها.

نظر إلى الصورة الشاحبة ذات الحاجبين الأسودين في الماء حتى ماهى بينها وبين تلك الذات التي بدا انتقامه منها شيئاً معزولاً

عنها، وشعركأن الصورة سمعت أيضاً لغة تفكيره الصامتة.

" كنت أحب كالأحمق – عبدت ذات مرة امرأة، وظننت أنها قد تبالي بي، ومن ثمّ أخذت طفلاً عاجزاً وتبنيّته. وراقبته وهو يكبر لأتأكد من أنه سيبالي بي ولو قليلاً – يعتني بي بشكل يفوق الخير الذي ناله مني. كنت على استعداد لأشق صدري لأدفئه بدم مهجتي لو أنني فقط رأيته يداري ولو قليلاً ألم الجرح الذي أصابني. لقد كدحت، وجاهدت كي أعصر من هذه الحياة القاسية قطرة واحدة من حب غير أناني. أحمق! الناس يسعون وراء مسراتهم. لا أمل في العثور على أية مسرة فيّ. ورغم ذلك راقبت حتى اعتقدت أنني رأيت ما راقبت لأجله. عندما كان طفلاً سدد نحوي عينين حانيتين، وأمسك بيدي راضياً. خلت أن هذا الولد لا بد أن يمنحني بعض الحب: ذلك لأنني أمنحه عمري وأجهد حتى لا يعرف الحزن إلى فؤاده سبيلاً، سيهتمّ بي قليلاً عندما أعطش– القطرة التي يضعها على شفتي الظمآوين ستدخل السرور إلى قلبه... اللعنة عليه! ليتني أراه ممدداً وشفتاه الحمراوان بيضاوين وناشفتين كالرماد، وعندما ينتظر الشفقة ليته يرى وجهي وقد تهللت أساريره لما يعانيه هو من ألم. القصة بأكملها كذب في كذب – العالم هذا كذبة – ليس هنالك خير يرجى سوى في الكراهية. أحمق! ولا قطرة حب واحدة جنيت من كل ما كدحت لأجله: الحياة لم تهبك قطرة واحدة. لكن هذا العالم ينطوي على تيارات عميقة من الكراهية والانتقام. لقد تبقى لي من الذاكرة ما يذكرني بذلك، وهنالك قوة في ذراعي – وهنالك قوة في إرادتي – وإن كنت لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى قتله

_ "

لكن عقل بالداسار رفض فكرة ذلك العقاب المبتسر. فكيانه كله انتشى ليصبح مؤمناً على الفور وبلا جدال بأبدية الانتقام تلك حيث يمكن له هو – محتضن الكراهية التي لا تموت – أن يقبض للأبد على خائن لا يموت، ويسمع تلك القساوة الجميلة الباسمة تصرخ وتئن من الألم. لكن الحاجة والأمل الأوليين تمثلا في رؤية انتقام بطيء يتحقق تحت السماء ذاتها وعلى عين الأرض ذاتها حيث تم تركه والتخلي عنه، وحيث وهنت منه الأوصال جرّاء اليأس. وحالما حاول أن يركّز تفكيره على سبل الوصول إلى مبتغاه ضغط الإحساس بضعفه عليه مثل ألم جليدي. هذا الجسد المحتقَر، والذي كان سيكون وسيلة الانتقام السامي، يجب أن يرعاه ويُلبسه بالشكل اللائق . إذا توجب عليه الانتظار فلا بد أن يعمل، وعمله يجب أن يكون من نوع متواضع، ذلك أنه يفتقر إلى المهارة. تساءل عما إذا كان منظر الحروف المكتوبة سيحرّك ملكاته بشكل يدفعه لركوب مغامرة العثور على عمل كناسخ: ذلك سيجني من وراءه بعض المصداقية نظراً لما لديه من إلمام معرفي سابق. لكن لا! لم يجرؤ على الثقة لا بيد ولا بمخ. يجب أن يرضى بأن يقوم بعمل هو أشبه بعمل حيوان الأحمال: في هذه المدينة التجارية لا بد أنهم بحاجة إلى العديد من الحمّالين، وعلى الأقل يمكنه حمل الأثقال. كل الشكر للعدالة التي جاهدت في هذا العالم المضطرب لصالح الانتقام، جوارحه استردت بعض قوتها الماضية. لقد تجرّد من كل شيء سوى ما كان الناس على

استعداد لدفع ثمنه بالمال.

لكن العجلة الجديدة لهذا التفكير الاعتيادي أفرزت اقتراحاً جديداً. كان هنالك شيء معلق بخيط ثخين حول رقبته العارية. شيء بدا تافهاً ما جعل ورع الأتراك والفرنسيين يبقي عليه – صرّة صغيرة من رقٍّ اسودّ بفعل الزمن. كانت تتدلى حول رقبته كتعويذة ثمينة عندما كان صبياً، وقد حرص على الاحتفاظ بها على صدره، لا يعتقد أنها حوت أي شيئ سوى لفافة صغيرة من الرق لفّت بإحكام. ربما كان تخلص منها منذ زمن لكونها تركة من خرافات أمه المتوفاة، لكنه فكّر بها كتركة من حبها، و، بالتالي، احتفظ بها. لقد كانت جزءاً من الورع المرتبط بتلك الأشياء الصغيرة، مما جعلها محرّمة على الفتح، وفي أية لحظة سابقة في حياته كان بالداسار سيقول إنه ما من عطش سيحمله على فتح هذه الصرّة الصغيرة مخافة أن يجد فيها، ليس رقاً بل تميمة منقوشة لها قيمة مالية. لكن عطشاً قد داهمه الآن، ذاك الذي يجعل الناس يفتحون شرايينهم ليطفئوه، ولم تكد فكرة التميمة المحتملة تمر بخاطر بالداسار حتى خطف بأصابع عصبية الشيء الصغير من عنقه. لقد داهمت الفكرة مخيلته – السنوات الطوال التي انصرمت وهو يضعها، والشرفة المشمسة النائية في نابولي المطلة على المياه الزرقاء حيث اتكأ على ركبة والدته. لكن ذلك لم يجعله يتردد لحظة: كل الورع الآن تحوّل إلى انتقام عادل. عضّ صرّة الرق ومزّقها حتى انفكّت عقدتها، ثم – وبعد أن رأى منظراً فغر فاه له – وجد تميمة بالفعل. كانت صغيرة جداً، لكنها كانت زرقاء زرقة تلك الأمواه النائية. كان

خاتم عقيق أزرق منقوش لا بد أنه يساوي بضع دوقيات ذهبية. لم يكد بالداسار يرى تلك الدوقيات الممكنة حتى رأى بعضها وقد تحول إلى مدية. لم يرغب في أن يستعمل المدية حتى الآن، لكنه تاق لامتلاكها. لو كان بإمكانه أن يمسك بقبضتها ويجرّب حدّها، لما جعله خواؤه العقلي ذاك – ذلك الماضي الذي كان يضيع منه بشكل مستمر – يشعر بالعجز المحبط: فالفولاذ الحاد الذي يزدري المواهب ويراوغ القوة سيكون بجانبه، مثل صديق العدالة الواهنة الذي لا يخيّب الظن. ظهر نصر مشعشع تحت حاجبي بالداسار السوداوين عندما أعاد وضع خاتم العقيق الأزرق الصغير داخل قطع الرق وربط الخيط بشدة حول القطع .

قارب الوقت الآن على الغسق، وقام من جلسته ليعود أدراجه إلى فلورانسة. ولقد شعر بما معه من الدناري (عملة صغيرة–م) بأنه ثري: يمكنه الاستلقاء في العراء، كما وجد الكثيرين يفعلون في كل أركان فلورانسة وزواياها. وفي الأيام القليلة التي تلت كان قد باع خاتم العقيق، وأضاف كساءً إلى كسائه، واشترى خنجراً برّاقاً، وبقي معه زوج من الفلورينات الذهبية. لكنه عزم على خزن ذلك الكنز بكل حرص: كان نزله عبارة عن ملحق فيه كومة من القش في منطقة نزرة المساكن في ناحية من أنحاء أولترانو (3)، وأخذ يفكّر بالبحث عن عمل كحمّال.

كان اشترى خنجره من محل براتي. وعندما كان يقوم بزيارته المزمعة ذات مساء عند الغسق وجد ذلك التاجر الوحيد، تاجر الخرق،

عائداً لتوه من إحدى جولاته يفرغ محتويات سلته من الزجاج المكسور والحديد العتيق وسط عرضه الجميل لبضائع متفرقة مستعملة. عندما دخل بالداسار المحل نظر صوب قطع الثياب الأنيقة، والأدوات الموسيقية، والأسلحة، التي عرضت في ضوء الواجهة الباهر، ولمحت عيناه على الفور خنجراً معلقاً في الأعلى قبالة وشاح أحمر. وبابتياعه الخنجر لن يكون بإمكانه أن يشبع رغبة ملحة فحسب بل أن يفتح الحديث عن مهمته الأصلية بصورة غير مباشرة مما سيوفر عليه التحدث عن خاتم العقيق. وفي غمرة المساومة على السلاح أفاد، بكل الحرص الذي وسعه، أنه أتى من جنوة وقد دلّه على محل براتي أحد معارفه في تلك المدينة كان اشترى خاتماً ثميناً جداً في هذا المكان. هل بحوزة التاجر المحترم المزيد من أمثال هذا الخاتم؟

على أثر ذلك كان لبراتي الكثير مما يقوله بشأن عدم احتمال أن تكون مثل هذه الخواتم في متناول الكثير من الناس، والكثير من التبجح بخصوص صِلاته النادرة، بسبب من حكمته واستقامته. قد يكون صحيحاً أنه بائع جوّال – لقد اختار أن يكون بائعاً متجولاً، رغم أنه كان ثرياً بما فيه الكفاية كي يرابط طوال اليوم في متجره. لكن كل أولاء الذين اعتقدوا أنهم قالوا كل ما كان يجب أن يقال بخصوص براتي عندما دعوه بائعاً متجولاً، كانوا بعيدين جداً عن الحقيقة أبعد من جانب بيزا الآخر. كيف حدث أنه وضع ذلك الخاتم في طريق أحد الغرباء؟ لقد حدث لأنه يعرف أحد السادة الشباب الوسيمين معرفة خاصة جداً، والذي لم يبد وسيماً كطائر جميل الريش كما بدا حالياً

عندما وقع بصر براتي عليه أول مرة. وعن طريق سؤال أو اثنين استخرج بالداسار، دون أية مشقة، وصفاً غير مترابط ومفككاً عن حياة تيتو مما أمكن للبائع الجوال أن يدلي به منذ الوقت الذي وجده فيه نائماً تحت شرفة دي سيرتشي. لم يخطر أبداً ببال براتي أن الرجل المحترم (الذي كان، كما بدا، أصم نوعاً ما حيث كان يسأله أسئلة كثيرة مرتين) يداخله أي فضول عن تيتو. كان الفضول، دون ريب، يخصه هو، باعتباره بائعاً متجولاً لافتاً للانتباه بحق.

غادر بالداسار متجر براتي، ليس والخنجر على جنبه فحسب، بل أيضاً مزوداً بمعلومات عامة عن سلوك تيتو ووضعه- عن بيعه المبكر للمجوهرات، واستقراره الفوري والهادئ في فلورانسة، وعن زواجه، ونجاحه الكبير.

" أية قصة ترى قصّها عن حياته السابقة – عن والده؟ "

سيكون عسيراً على بالداسار اكتشاف الجواب عن ذلك السؤال. في الوقت ذاته رغب في أن يعرف كل ما باستطاعته أن يعرف عن فلورانسة. لكنه وجد، ولحزنه الشديد، أنه لا يمكنه أن يتذكّر سوى القليل من التفاصيل الجديدة التي علمها، وهذا القليل لم يتأت له إلا عن طريق الترديد المتواصل. وبدأ يخشى الإصغاء إلى أي خطاب جديد مخافة أن يمحو ما كان يحاول جاهداً أن يتذكره.

وفي اليوم الذي لمحه تيتو في ساحة الكنيسة عاوده ذلك الغم الجديد بسبب هذا الشعور النفسي، وكان وقع كلمات تيتو الفورية عليه مثل سخرية شيطان متحدٍّ ذرب اللسان.

وبينما كان ذاهباً إلى البيت إلى فرشته القش، ماراً بحوانيت باعة الكتب في فيا ديل غاربو، توقف ليلقي نظرة على المجلدات المعروضة والمفتوحة. أبإمكانه عن طريق النظر طويلاً إلى أحد تلك الكتب أن يمسك بخيوط الذاكرة المتفلّتة؟ أبإمكانه، عن طريق المجاهدة، أن يجد شيئاً يمسك به بقوة ويتمكّن على أثر ذلك من رفع نفسه فوق تلك الأمواه التي تغمره؟

لقد استجرّته الرغبة، واشترى الأرخص ثمناً من الكتب اليونانية التي وقعت عيناه عليها. حمله إلى البيت وجلس على كومته القش ينظر إلى الحروف على ضوء النافذة الصغيرة. لكن لم يضئها أي ضوء جوّاني. وسرعان ما أزفت ظلمة المساء، لكن بالداسار لم يشعر بأي فارق. لقد بدا أن عينيه المركّزتين جيداً للرؤية ما تزالان تريان الصفحات البيض وعليها العلامات السوداء التي تعدم الوضوح.

الفصل الواحد والثلاثون
الثمرة بنت البذرة

قال تيتو في الصباح الذي أعقب إلقاءه خطابه في ساحة الكنيسة (بياتزا ديل دومو):" حبيبتي رومولا، أنا بصدد استقبال زوار مهمين هذا اليوم. فالكونت الميلاني (من ميلانو) قادم ثانية، وسينيسشال دي بوكاري، ذو الحظوة الأعظم لدى الكريستيانيسيمو (رجال الكهنوت). أعلم أنك لا تبالين بالمجاملات والابتسامات مع هؤلاء الأقطاب المنشغلين دائماً بأعمالهم والذين لن نرى وجوههم، على الأرجح، ثانية. وبما أنهم يرغبون في رؤية العاديات القديمة والمكتبة لربما كان من الأفضل أن تقلعي عن عملك اليوم، وتذهبي لزيارة ابنة عمك بريجيدا ".

لمحت رومولا رغبة في هذا التلميح، وعليه فقد أبدت موافقتها حالاً. لكنها قالت بعد أن عادت في الحال وهي تدّثر نقابها ومعطفها:" أوه، ستتنفس فلورانسة الصعداء عندما تفتح أبوابها على مصاريعها، ويخرج آخر الفرنسيين منها! حتى أنت قد أصابك السأم رغم كل جَلَدك، يا عزيزي تيتو، اعترف بذلك. آه، رأسك ساخن ".

كان منكباً فوق مكتبه يكتب، وكانت وضعت يدها على رأسه بقصد مداعبته قبل مغادرتها. أخذ هذا الموقف يتكرر، وكان من عادة تيتو، عندما كان يستشعر يدها، أن يرفع رأسه، ويرتد قليلاً للخلف، ويرفع بصره إليها. لكنه شعر الآن أنه عاجز عن رفع رأسه كما لو أن

يـدها كانـت قلنسـوة مـن رصـاص. عوضـاً عـن ذلـك تحـدث بصـوت خفيض بينما استمر يخط بقلمه على القرطاس.

" الفرنسـيون جـاهزون للرحيـل عـن فلورانسـة بقـدر جاهزيـة الزنابير لترك كمثرى ناضجة أطبقت عليها للتو ".

سحبت رومولا، الحساسة جداً لغياب الاستجابة المعهودة، يدها وقالت: "أنا ذاهبة، يا تيتو ".

" وداعاً، يا حلوتي. يجب أن أنتظر في البيت. خذي ماسو معك ".

بقي تيتو على إطراقه، وخرجت رومولا دون التفوّه بشيء آخر. إن الأمور الصغيرة جداً تكون فاتحة عهد جديد في الحياة الزوجية، وفي هذا الصباح أقرّت أمام نفسها، وللمرة الأولى، أن تيتو لم يتغير فحسب، بل تغير نحوها. هل السبب كامن فيها هي؟ ربما كان ذهب الظن بها هذا المذهب لو لم تحدث واقعتا الدرع والصورة اللتان أوحتا بحادثة خارجية كانت، بالنسبة لها، سراً غامضاً بالكامل.

لكن، ما إن تأكد تيتو من خروج رومولا حتى وضع قلمه جانباً ورفع بصره مغتبطاً بشعوره بالأمان لأنه لا يرى شيئاً سوى قطعة الرق والرخام المهشّم. كان مشمئزاً نوعاً ما من نفسه الأمر الذي منعه من رفع بصره والتصرف نحو رومولا كسابق عهده. كان يمكن أن يكون أكثر لطفاً مما هي العادة لو كان باستطاعته. لكنه لم يستطع، وعلى الفور، إلا أن يبدي إحجاماً لاإرادياً نحوها، انكماشاً اعتمد، من خلال علاقة ذكية، على تلك السمات عينها التي جعلته يرغب في ألا

يخفي أمارات المحبة لديه. كان بصدد اتخاذ خطوة كان يعلم أنها ستثير حفيظتها. وسيترتب عليه مواجهة الكثير من المنغّصات قبل أن يحظى بصفحها. ولم يكن سهلاً على تيتو قط مواجهة الاستياء والحنق. كانت طبيعته من تلك الطبائع الأكثر نأياً عن التحدي أو القحة، وكانت كل ميوله تتجه نحو الحفاظ على حنان رومولا. لم تكن تؤرقه الشكوك العاطفية التي، كما قد برهن لنفسه باتخاذه سبيلاً سريعاً جداً من الجدل، لم تكن لها صلة بالمنفعة الراسخة. لكن تحرره من الشكوك لم يعتقه من الخوف من الأشياء المنغّصة. إن عدم التحرّج من فعل أي شيء يخلّص المرء من أشياء كثيرة، لكن ليس من وجع الأسنان، أو الكبرياء الجريحة، أو الإحساس بالوحدة التي لا توجد أية ضمانة للوقاية منها، كما نرى في عالم اليوم، سوى فك صحي بالكامل، ونفس محبة بارّة. وتيتو كان لديه إحساس قوي في هذه اللحظة بأنه يعدم الحيلة لتفادي الألم الناجم عن الصدام الوشيك مع رومولا. ليس هناك من دماثة استرضائية تستطيع أن تخفف عنه الصدمة التي كان مسوقاً إليها مثل حيوان متهيب مدفوع دفعاً نحو اتخاذ قفزة يائسة نتيجة الرعب الذي تملّكه من الأسنان والمخالب التي تتعقّبه.

إن الشعور الخفي الذي شعر به سابقاً وهو أن التمسك الأعمى برغبات باردو بشأن المكتبة قد صار، في ظل المصاعب الحالية، شيئاً من حماقة عاطفية حرمته هو ورومولا من مزايا معتبرة، ربما ما كان ليترجم إلى فعل لولا أحداث الأسبوع الفائت التي جلبت معها، في آن

واحد، ضغط دافع جديد ومخرج الفرصة النادرة. لا، لم يصل إلى تصميمه على اتخاذ القرار باستعمال حقه القانوني في بيع المكتبة قبل أن تضيع من بين يديه الفرصة التي وفرها التجار الفرنسيون والميلانيون، إلا بعد أن تفاقم هلعه لمرأى بالداسار كما لو أنه ما زال يحتفظ بسلامة عقله نفسها، وإلا بعد أن بدأ يداخله شعور بأنه قد يرغم على الهروب من فلورانسة. ذلك أنه إذا كان مجبراً على مغادرة فلورانسة فلم يكن يرغب في أن يغادرها كأفّاق معدم. لقد تعوّد على طيب العيش، وكان يرغب أن يحمل معه كل الوسائط المتاحة له للحفاظ على الشروط الطيبة نفسها. رغب من بين أشياء أخرى أن يأخذ روموﻻ معه، من دون أن تلحق به، إن أمكن، أية سمعة شائنة. لقد جعل النجاح شهيته تتنامى نحو كل المباهج التي تعتمد على وضع اجتماعي مميز، ولم يبد له ولو للحظة كإغراء، بل فقط كبديل مرعب، أن يفر وهو يجرجر أذيال الخزي ويعيش عيشة المغامر، حتى وإن كان بحوزته حقيبة ملأى بالمجوهرات. لقد شقّ عليه أن يعيش بمعزل حتى عن أولئك الفلورانسيين الذين لم يبادروه إلا بتحية ملؤها الاحترام. وقد شقّ عليه أكثر أن يعيش بمعزل عن روموﻻ. فقد كانت ثمرة حبه الأول – وهو ما يزال على حبه لها. كانت تنتمي إلى ذلك الأثاث في الحياة الذي أحجم عن الافتراق عنه. كان يجفل من حكمها عليه، لم يكن متأكداً من المدى الذي قد تذهب إليه في نفورها منه. وكل ذلك الإحساس بالهيمنة على الزوجة، ما يجعل الزوج يغامر بأفعال الخيانة، وما لا يجرؤ المحبّ على الإقدام عليه، ما كان يكفي ليعادل شعور

تيتو بالانزعاج. كان هذا هو الثقل الرصاصي الأقوى من أن تحتمله إرادته، والذي منعه من أن يرفع رأسه ليواجه عينيها. وقد قرّب نورهما الصافي كثيراً جداً أفق صراع وشيك. لكن ليس باليد حيلة. إذا كان عليهما الرحيل عن فلورانسة فلا بد أن يتوفرا على المال. والحق أن تيتو لم يستطع أن يدوزن الحياة مطلقاً مع نمط تفكيره دون توفر مبلغ محترم من المال. وتلك المشكلة في دوزنة الحياة مع نمط تفكيره كانت وراء كل تصرفاته السيئة. وكان سيكون أهلاً لكل تضحية لم تكن مزعجة.

جاء الأقطاب المنهمكون ومضوا، والصفقات عقدت، وعادت رومولا إلى البيت، لكن لم يؤتَ على ذكر أي شيء خطير تلك الليلة. لم يبد على تيتو سوى المرح والثرثرة، يقص على مسامعها، كما لم يفعل من قبل، روايات وأوصافاً لما كان شهده أثناء الزيارة الفرنسية. اعتقدت رومولا أنه تراءى لها أنه يتعمّد الحيوية، وعزت ذلك إلى شعوره بأن مشاعرها قد جرحت في الصباح، وتقبلت هذا التعمّد كفعلة ندم، مع شعورها قليلاً بوخزة داخلية لبروز تلك الإشارة الدالة على مسافة متنامية بينهما – بأن هنالك إساءة لم يكن أي منهما ليتجرأ على التطرّق إليها.

في اليوم التالي بقي تيتو خارج البيت حتى ساعة متأخرة من الليل. كان يوماً مميزاً بالنسبة لرومولا، ذلك أن بييرو دي كوسيمو – مدفوعاً لبذل المزيد من الجهد لصالحها من جرّاء الخشية من أن يكون سبب ألماً لها في الأسبوع الماضي – قد أرسل لها صورة والدها. قامت

بإسنادها على ظهر كرسيه العتيق، وأخذت تتملاها لبعض الوقت، عندما فتح الباب من ورائها، ودخل برناردو ديل نيرو.

قالت رومولا متجهة نحوه: " أهذا أنت، يا عرّابي! كم تمنيت لو أتيت في وقت أبكر! فالوقت أشرف على الغسق "

" لقد عرّجت لكي أخبرك أنباء طيبة، ذلك أنني أعرف أن تيتو لم يعد بعد. المليك الفرنسي يغادر غداً: ليس قبل فوات الأوان. لقد حصلت مشادة أخرى بين شعبنا وجنوده هذا الصباح. والآن لقد سنحت فرصة لتعود المدينة إلى هدوئها وتدور عجلة التجارة ".

قالت رومولا:" هذا مما يسرّ. لكن ذلك يحدث على حين غرّة، أليس كذلك؟ بدا تيتو البارحة وكأنه يعتقد بوجود احتمال ضئيل في أن يغادر الملك بهذه السرعة ".

قال برناردو مبتسماً: " لقد اشتد النباح عليه. جنرالاته فتحوا حلوقهم جيداً، وأخيراً أرسل سينوريانا كلب الحراسة في المدينة، الأخ جيرولامو. ذعر رجال الكهنوت لتلك الزمجرة، وأعطوا الأوامر بالتحرّك. أخشى أن يكون هناك اتفاق ضئيل بيننا عندما يرحل، لكن، على أية حال، كل الفرقاء متفقون في سرورهم بأن فلورانسة لن تختنق بالعساكر بعد الآن، وهذه المرة كان نباح الأخ الراهب لغرض ما. آه، ما هذا؟ "، أضاف قائلاً، بينما كانت رومولا تشبك ذراعها بذراعه وتقوده إلى أمام الصورة. " دعينا نرَ ".

بدأ يفك وشاحه الطويل بينما وضعت رومولا كرسياً له.

قالت رومولا قلقةً مخافة أن يرى بالضبط ما رأته: " ألست

بحاجة لنظارتيك، يا عرّابي؟ "

" لا، يا ابنتي، لا " قال برناردو كاشفاً رأسه الأشيب، عندما جلس بانتصاب تام. واستطرد:" فيما يخص الرؤية من هذه المسافة، ربما كانت عيناي أجود من عينيك الشابتين. إن أعين الشيوخ هي كذاكرات الشيوخ، تكون أقوى ما تكون عندما تنظر إلى الأشياء النائية جداً ".

قالت رومولا بلهجة معتذرة بعد أن خلد برناردو للصمت لفترة من الوقت: " أفضل من أن لا يكون لدينا صورة . إنها الآن أقل شبهاً به من الصورة التي أحملها له في ذاكرتي، لكن هذه الصورة ستبهت بمرور الوقت ". اتكأت بذراعها على كتف العجوز بينما كانت تتكلم، مشدودة نحوه بقوة جرّاء اهتمامهما المشترك بالمتوفّى.

قال برناردو: " لا أعرف. أكاد أعتقد أنني أرى باردو بالشكل الذي كان عليه عندما كان شاباً، أفضل من الشكل الذي تظهره تلك الصورة لي عندما كان مسناً. كانت عينا والدك تشيان بالكثير من الحماس عندما كان شاباً. كان على طبع لم أفهم كنهه قط، أنه هو، بحماسه الشديد، الذي بدا على لجاجة تفوق لجاجتي، يبقى أسير الكتب ويناجي الأرواح طيلة حياته. ومع ذلك، فقد وضع قلبه وروحه في ذلك ".

رفع برناردو كتفيه رفعة خفيفة عندما كان يفوه بالكلمات الأخيرة، لكن رومولا ميّزت في صوته شعوراً يتناغم مع شعورها.

قالت بصورة لاإرادية: " وكان خائب الأمل حتى نهاية حياته ".

لكن بعد أن داخلتها خشية فورية بأن يفهم من فحوى كلامها أنه ينطوي على اتهام لتيتو سارعت إلى القول: " لو أننا فقط نرى أطول وأعز أمنياته وقد تحققت كما كان يرغب! "

قال برناردو بلطف وهو ينهض ويعتمر قبعته: " حسن، عسى أن يكون ذلك. هذه الأوقات ملبدة بالغيوم، لكن السمك يصاد بالانتظار. من يدري؟ عندما تدور العجلة بما يكفي لا تستغربي أن أصير غونفالونياً (انظر الملحق أ) قبل مماتي. وما من دائن بمقدوره أن يمس هذه الأشياء ". نظر حوله بينما كان يتكلم. ثم قال وهو يلتفت ويداعب وجنتها: " وليس عليك أن تخافي لموتي. شبحي لن يطالب بأي شيء. لقد توليت هذا الأمر في وصيتي ".

قبضت رومولا على اليد التي كانت على وجنتها، ووضعتها على شفتيها بصمت.

قال برناردو راغباً في تغيير الموضوع: " ألست تقرّعين زوجك على بقائه خارج البيت حتى ساعة متأخرة؟ أراه في كل مكان إلا هنا ".

شعرت بانتشار التضرّج فوق عنقها ووجهها فقالت: " هم بحاجة ماسة إليه. أنت تعرف كم هو بارع في الكلام. أنا مسرورة لمعرفة أن قيمته لقيت حق الفهم ".

قال برناردو مبتسماً وهو يتحرك صوب الباب: "أنت راضية إذن، يا سيدة أورغوغليوسا؟ "(1).

" بالتأكيد ".

يالرومولا المسكينة! كان هنالك شيء واحد سيجعل وخز خيبة الأمل في زوجها أشق على الاحتمال. وهو أن يعرف أحد أنه كان السبب في خيبة أملها. قد تكون هذه نقطة ضعف المرأة، لكنها وثيقة الارتباط بنبل المرأة. إن من ترفع بملء إرادتها ستار حياتها الزوجية تدنسها بصيرورتها مكاناً مبتذلاً بعد أن كانت حرماً مقدساً .

الفصل الثاني والثلاثون
كشف المستور

في اليوم التالي، ابتهجت رومولا، شأنها شأن أي فلورانسي آخر، لرحيل الفرنسيين. وإلى جانب أسبابها الأخرى للشعور بالبهجة، كان يداخلها أمل واهٍ، كانت تعي أنه لا يخلو من وهم، وهو أن تلك الهموم المستجدة المتصلة بتيتو، والتي واكبت قدوم الضيوف الثقلاء، قد تتلاشى برحيلهم. لم يكد يمضي على وجود الفرنسيين في فلورانسة أحد عشر يوماً، ومع ذلك فقد شعرت في تلك الفسحة من الزمن بتعاسة أكثر إيلاماً من أي شيء سبق أن عرفته في حياتها. ارتدى تيتو الدرع الكريه يوم وصولهم، ورغم أنها لم تستطع أن تكوّن أية فكرة واضحة عن السبب في أن رحيلهم سيلاشي سبب خوفه – رغم أنها عندما فكّرت بذلك السبب، كانت تلوح أمامها صورة السجين وهو يمسك بتلابيبه، كما كانت قد رأت ذلك في الصورة التي رسمها بييرو، دون أية صورة أخرى – ومع ذلك، فعندما يرحل الفرنسيون، ستعتق من ربقة شيء كان وثيق الارتباط بمعاناتها.

انتظرت، وهي متلفعة بمعطفها، تحت الشرفة أعلى البيت، وراقبت علها تلمح القوات والحاشية الملكية عند عبورهما الجسور في طريقهما إلى بورتا سان بييرو التي تطل على سيينا وروما. بل إنها عادت إلى مكان رصدها عندما أغلقت المداخل، علّ أعطافها تهتز طرباً مع دقات الأجراس المدوية. كان الوقت غسقاً، وعندما دلفت

أخيراً إلى المكتبة أشعلت مصباحها يحدوها العزم بأنها ستتغلب على الاضطراب الذي سبب عطالتها عن العمل طوال اليوم، وحال دون جلوسها لتزاول نسخ القائمة (الكاتالوج). كان تيتو قد غادر البيت في الصباح الباكر، ولما يحن توقع قدومه بعد. قبل مجيئه عزمت على ترك المكتبة والجلوس في الصالون الجميل، مع الحوريات الراقصات والطيور. لقد درجت على ممارسة هذه العادة كل مساء منذ أن اعترض على الجلوس في المكتبة لكونها باردة وموحشة.

ولدهشتها الكبيرة لم تزاول أي عمل قبل فترة طويلة من دخول تيتو. كان تفكيرها الأول يتمحور حول مدى الشعور بالغمّ الذي يعتريه في الظلمة الواسعة التي تكتنف هذه الغرفة الفسيحة، حيث لا يوجد فيها سوى مصباح زيتي وحيد يشتعل في الركن القصي، والنار تلفظ أنفاسها الأخيرة. هرعت إليه نصف راكضة.

قالت بانفعال عصبي وهي ترفع ذراعيها البيضاوين لتفك أزرار معطفه: " حبيبي، تيتو، لم يكن لدي علم بأن عودتك ستكون مبكرة على هذا النحو ".

قال وهو يبتسم ابتسامته الأكثر إشراقاً، معانقاً إياها ودافعاً برأسه بعيداً عنها في غنج: " إذن، لست موضع ترحيب ".

" تيتو! " فاهت بالكلمة في لهجة عتب جميل محبب، وعلى أثرها قبّلها بولَه شديد، وداعب شعرها، كما درج، وبدا غير مكترث لخلع معطفه. اختلجت رومولا لفرط السرور. كل عواطف هذا اليوم كانت تحشد في داخلها حساسية أشد رهافة لعودة هذه الطريقة

المعهودة. حدثتها نفسها: " ستعود السعادة الأولى، ربما تعود. ها قد عاد إلى سابق عهده ".

كان تيتو يبذل قصارى جهده كي يعود إلى سابق عهده. أخذ قلبه يدق بفعل القلق الذي اعتراه.

قالت رومولا عندما ساعدته أخيراً على خلع أشيائه التي يتلفّع بها: " لو توقعت قدومك بهذه السرعة لكنت أعددت احتفالاً صغيراً كرمى لهذا الرنين المبهج للأجراس. لم أقصد أن أكون هنا في المكتبة عند عودتك إلى البيت ".

قال دون كبير اكتراث: " لا بأس، يا حلوتي. لا تفكري بشأن النار. هيا – تعالي واجلسي ".

قبالة كرسي تيتو جثم مقعد واطئ، وكان ذلك مكان جلوس رومولا المعهود إمّا كانا يتجاذبان أطراف الحديث. وضعت ذراعها على ركبته كما درجت أن تضعها على ركبة والدها، ورفعت بصرها ناظرة إليه وهو يتكلم. حتى هذه اللحظة لم يفطن لوجود الصورة، ولم تأت هي على ذكرها – دون أن ينقطع تفكيرها بها، على أية حال.

بدأت تقول: " كنت أستمتع بصداح الأجراس للمرة الأولى، يا تيتو. رغبت في أن تهز أعماقي وتصيبني بالصمم: خلت أنني كنت أشبه بباشانتي(1) ممسوسة بغضب إلهي. ألا يبدو الناس مسرورين غاية السرور هذه الليلة؟ "

قال تيتو برفعة كتف: " مسرورون على نحو لاذع وورع. لكن، في الحقيقة، إن أولئك الذين بقوا في فلورانسة لديهم سبب ضئيل

للسرور: يبدو لي أن أكثر دواعي السرور معقولية هي الخروج من فلورانسة ".

أفصح تيتو عن الملاحظة الرئيسة محط رغبته دون أية مشقة، أو تصميم مسبق. تحدث دونما توكيد، لكنه بدا جدياً بما يكفي ليجعل رومولا تسأل بقلق نوعاً ما –

" لمَ، يا تيتو؟ هل هناك متاعب جديدة؟ "

" لا حاجة لمتاعب جديدة، يا حبيبتي رومولا. يوجد في المدينة ثلاثة أحزاب قوية (2)، كلهم جاهزون ليمسكوا بخنّاق بعض. وإذا كان حزب الأخ الراهب قوياً بما يكفي ليرعب الحزبين الآخرين ويجعلهما يخلدان للصمت، كما يبدو هذا الاحتمال وارداً، فإن الحياة ستكون بهيجة ومسلية كمأتم. لقد وضعوا خطة تشكيل مجلس أعلى على نار خفيفة من قبل. وإذا تسنّت لهم فإن الشخص الذي ينشد المدائح المقدسة بأعلى الأصوات سيكون أكثر المؤهلين للمنصب. وإلى جانب ذلك، ستنضب موارد المدينة من جرّاء دفع هذه الإعانة (3) إلى الملك الفرنسي، والحرب لاستعادة بيزا، بشكل يبدو معه المستقبل مرعباً بما فيه الكفاية من دون حكم المتطرفين. وبالإجمال، ستكون فلورانسة مكانا رائعاً بالنسبة لأولئك المحترمين الذين يسلّون أنفسهم مساءً عن طريق دخول الأقبية وربط أنفسهم. لكن بالنسبة لأي شيء آخر فنصيب المنفيين فيه نصيب الأسد. من جانبي، ما فتئت أفكر بجد بأننا يجب أن نكون عقلاء ونغادر فلورانسة، يا حبيبتي رومولا ".

انتفضت.(4) قالت: " تيتو، كيف يمكننا أن نترك فلورانسة؟

مؤكد أنك لا تعتقد أن بمستطاعي مغادرتها – على الأقل حالياً – لفترة طويلة الأمد ". انتابها برد وارتعاش، وشقّ عليها الكلام. يجب أن يعلم تيتو الأسباب التي تدور في ذهنها.

" هذه من نسج خيالك، يا حبيبتي. فحياتك الانعزالية قد جعلتك تشددين بهذا الشكل الزائف على بضعة أشياء. أنت تعلمين أنني تعودت على إخبارك، قبل زواجنا، أنني رغبت لو أننا في مكان آخر بعيداً عن فلورانسة. لو كنت شاهدت أمكنة أكثر وناساً أكثر لكنت علمت ماذا أعني عندما أقول بأن هناك شيئاً لدى الفلورانسيين يذكرني بتقطيعهم أرياح الربيع. يستهويني الناس الذين يشغفون بشكل أقل بالحياة، وسيكون في صالح حبيبتي رومولا، أيضاً، أن ترى حياة جديدة. أتمنى لو أني أغمسها قليلاً بمياه النسيان الرخية ".

انحنى للأمام وقبّل جبينها، واضعاً يده على شعرها الأشقر مرة ثانية. لكنها لم تشعر بمداعبته أكثر مما لو أنه قبّل قناعاً. كانت منفعلة جداً للإحساس بالمسافة بين تفكيرهما مما حال دون أن تشعر بملامسة شفتيه لها.

" تيتو، لا يكمن سبب عدم رغبتي في مغادرة فلورانسة أنني أشعر بأنها أحلى مكان في العالم. السبب هو أنني – نحن، علينا أن نرى رغبة والدي وقد تحققت. عرّابي مسن. عمره واحد وسبعون. لا يمكننا أن نكل الأمر إليه ".

" هي بالضبط تلك الخرافات التي تحوم حول تفكيرك مثل غيوم تحجب الرؤية، يا حبيبتي رومولا، ما يشكّل السبب الأساسي

الذي يحدوني لأن أتمنّى لو أننا على بعد مائتي فرسخ من فلورانسة. أنا مضطر للاعتناء بك ضد رغبتك: إذا ما كانت تانك العينان الغاليتان اللتان تبدوان جد حادبتين، تريان على نحو غير صحيح يجب أن أتولى أمرهما، وأنقذ زوجتي من تبديد حياتها في تخييبها أملها بفعل أحلام مستحيلة التطبيق ".

جلست رومولا صامتة ساكنة لا تريم: لم تستطع أن تعمي بصرها عن الاتجاه الذي نحت إليه كلمات تيتو: كان يريد أن يقنعها بالمبادرة لوضع المكتبة في أحد الأديرة، أو اتخاذ إجراءات أخرى أكثر مباشرة لتحرير نفسيهما من عمل، ومن رباط يربطهما بفلورانسة. كانت مصممة ألا تضع تفكيرها تحت رحمة حكمه في مسألة واجبها نحو والدها. كانت جاهزة داخلياً لأن تواجه أي نوع من الألم يتأتّى عن المقاومة. لكن التصميم بقي كامناً في هذه اللحظات الأولى بفعل الإحساس الذي يمزّق القلب بأنها أخيراً قد وصلت الآن هي وتيتو إلى مرحلة لا بد من الاعتراف معها بتباعد رغبتيهما. كان سعيداً لصمتها. ذلك أنه رغم خوفه من قوة مشاعرها إلا أنه يستحيل عليه، وهو سجين الضيق الذي يحجز كل أولئك الذين يتحلّون بمجرد الذكاء وانعدام العاطفة، ألا يغالي في تقدير قوة الإقناع الكامنة في حججه. لم يبد سلوكه شائناً في نظره، ولم يكن خياله كافياً ليريه كيف سيبدو (سلوكه) بالضبط في نظر رومولا. تابع باللهجة الناعمة المتشكية عينها.

" أنت تعلمين، ياغاليتي – حكمك الواضح على الأشياء كان يبين لك على الدوام – أن فكرة عزل مجموعة من الكتب والعاديات

القديمة، ولصق اسم وحيد بها للأبد، هي فكرة لا تحمل أي خير واقعي وملموس لغرضها: وأكثر من ذلك أيضاً، هي عرضة للانهزام بألف ناحية وناحية. انظري ما حلّ بمختارات ميديتشي! ومن جانبي، فإنني أعتبر أن احتضان تلك الآراء التافهة بوقفها لغرض ما يستحق اللوم: لماذا ينبغي أن يُسرّ أي واحد بشكل معقول لأن فلورانسة يجب أن تمتلك منافع البحث والذائقة العلميين أكثر من أية مدينة أخرى؟ أنا أفهم مشاعرك حول رغبات الموتى، لكن الحكمة تضع حداً لهذه العواطف، وإلا أصبحت الحياة مهدورة بشكل مستمر في ذلك الإخلاص العقيم – مثل مدح الآلهة الصمّ للأبد. أنت وهبت والدك حياتك وهو حي، لمَ تطالبين نفسك بما هو أكثر؟"

" لأنها كانت أمانة "، قالت رومولا، بصوت خفيض لكن واضح، وتابعت: " لقد ائتمنني، ائتمنك، يا تيتو. لم أتوقع أن تشعر أنت شعوراً مغايراً –تشعر كما أشعر – لكنني توقعتك فعلاً أن تشعر بذلك ".

" أجل، يا غاليتي،بالطبع لا بد أن أشعر هكذا حيال مسألة تتعلق بخير أوسعادة والدك الحقة. لكن هذا غير وارد الآن. إن كنا نعتقد بالمطهر فسأشاركك الحرص الشديد ذاته في مسألة إقامة القداديس. ولو اعتقدت أنه قد يؤلم والدك الآن أن يرى مكتبته وقد حفظت واستعملت بطريقة مختلفة نوعاً عما صمم عليه لكنت شاركتك في صرامة آرائك. لكن قليلاً من الفلسفة يجب أن تعلمنا أن نتحرر من تلك القيود التي ينسجها الناس في الهواء، ويطوقون أنفسهم بها منفقين

بذلك حيواتهم في بؤس لمجرد تخيّلهم الوزن الذي هي عليه. إن عقلك الذي يسارع للتعلق بالأفكار، يا حبيبتي رومولا، قادر على تمييز الخير المادي الملموس من تلك الفانتازيات (الأوهام) التي تنسجها بنات الأفكار. اسألي نفسك، يا غاليتي، أي خير يمكن لهذه الكتب والعاديات أن تؤتيه وهي مستفة معاً تحمل اسم والدك في فلورانسة، أكثر من الخير الذي تؤتيه عندما تقسم، أو تنقل إلى مكان آخر؟ لا، أليس مجرد توزيع مثل هذه الأشياء على من يعرف قيمتها وسيلة من وسائل تعميم فائدتها؟ هذا التنافس بين المدن الإيطالية وضيع جداً وغير ليبرالي. إن خسارة القسطنطينية كانت مكسب كل العالم المتمدن ".

كانت رومولا ما تزال ترزح كلية تحت وطأة الضغط المؤلم للكشف الجديد الذي كان يتأتى عن حديث تيتو، مما حال دون أن تجد مقاومتها أي متنفّس قوي. ومع وقوع ذلك الحديث الفصيح على مسامعها كان يتصاعد ازدراء بداخلها، الأمر الذي جعلها أكثر إدراكاً لحبها اليائس المكلوم، حبها لتيتو ذاك الذي تزوجت وآمنت به. وطبيعتها، التي استحوذت عليها طاقات الانفعال الشديد، أحجمت عن هذا الاستعداد الضحل الميؤوس منه والذي جاهر بامتلاك أوسع المشاركات الوجدانية ولم يختلج فيه شيء للأقرب بينها. كانت ما تزال تتحدث كواحدة حيل بينها وبين الإفصاح عن كل مشاعرها. لم تفعل شيئاً سوى سحب يدها عن ركبته، وجلوسها شابكة اليدين، باردة ساكنة كمياه محتجزة.

" أنت تتكلم عن الخير المادي،يا تيتو! هل الإخلاص،

والحب، والذكريات الحلوة، عديمة النفع؟ أليس من الخير في شيء أن نفي بوعودنا الصامتة التي يبني عليها الآخرون لأنهم يؤمنون بحبنا وصدقنا؟ أليس خيراً أن تلقى الحياة القويمة احتراماً كريماً؟ أو، إنما الخير أن نحجّر قلوبنا أمام كل حاجات وآمال أولئك الذين اتكلوا علينا؟ أي خير يرجى من أناس لهم مثل هذه النفوس؟ التحدث بألمعية، ربما، والعثور على مضاجع لينة مريحة لأنفسهم، والعيش والموت متخذين من نفوسهم الوضيعة أفضل صاحب لهم ".

ارتفعت نبرة صوتها بالتدريج إلى حد أن خالطت الكلمات الأخيرة نبرة ازدراء. صمتت قليلاً، لكنه رأى كلمات أخرى ترتعش على شفتيها، ورأى أن يدعها (الكلمات) تخرج.

" لست أعرف أي خير في المدن أو في العالم إذا كانت ستعمّر بهذه الكائنات. لكنني لست أفكّر بالمدن الإيطالية الأخرى والعالم المتمدن بأجمعه – أنا أفكر بوالدي، وبحبي وحزني عليه، ومطالبه العادلة بذمتنا. أنا مستعدة للتخلي عن أي شيء آخر، يا تيتو،– مستعدة لأن أغادر فلورانسة – أي شيء عشت لأجله سوى هو وأنت؟ لكنني لن أتخلى عن هذا الواجب. أي شأن لي بحججك؟ كان توقاً يتوق إليه قلبه، وعليه فهو توق قلبي ".

غدا صوتها، من جرّاء ارتجافه، قوياً وحازماً. شعرت بأنها اضطرت لقول كل ما كانت بحاجة لأن تقوله. المسكينة،كانت تعتقد أنه لن يأتي شيء أكثر صعوبة من مقارعة هذه الاقتراحات من جانب تيتو مثلما هي مقارعة ذلك الجانب فيها الأكثر خسّة.

كان قد بدأ يرى بوضوح أنه لم يستطع أن يقنعها بالقبول: لا بد أن يسلك طريقاً آخر، ويبين لها أن زمن المقاومة قد ولّى. ذلك، على الأقل، سيضع حداً لمزيد من الصراع. وإذا لم يأت الكشف على يديه هذه الليلة، فلا بد أن يأتي غداً بطريقة أخرى. لقد شحذت هذه الضرورة شجاعته، كما أن خبرته بحنانها وخضوعها الذي يأتي على غير توقع، منذ أن تزوجا حتى الآن، قد شجعته على الأمل بأنها ستكيّف نفسها أخيراً مع ما كان قد صمّم عليه.

قال بهدوء: " أنا متأسف لسماعك تتحدثين بتلك الروح من المثابرة العمياء، يا رومولا، لأن ذلك يكرهني على التسبب بألم لك. لكنني تنبأت جزئياً بمعارضتك، وحيث إن الضرورة كانت تستدعي اتخاذ قرار فوري، فإنني تحاشيت تلك العقبة، واتخذت القرار دون أن أستشيرك. إن رعاية الزوج بحد ذاتها لمصلحة زوجته تلزمه باتخاذ ذلك التصرف بمفرده أحياناً – حتى وإن كان له زوجة مثلك، يا حبيبتي رومولا ".

التفتت صوبه وفي عينيها استفسار يقطع الأنفاس.

قال، جواباً على نظرتها: " أعني أنني رتبت أمر الانتقال، للكتب والعاديات معاً، إلى مكان ستجد فيها أقصى تحقق لفائدتها وقيمتها. فالكتب اشتراها دوق ميلانو، والرخاميات والبرونزيات وما تبقى سترحّل إلى فرنسا: وكلتاهما ستوضعان في حماية الاستقرار الذي توفّره سلطة كبرى، بدلاً من البقاء في مدينة معرضة للخراب ".

قبل أن يفرغ من كلامه كانت رومولا قد نهضت من مجلسها ووقفت تنظر إليه من عل، وأمامها تدلّت يداها المشدودتان، وللمرة

الأولى في حياتها شاب ازدراءها وحنقها التماعة شراسة.

" إذن لقد بعتها ؟ " سألت كما لو أنها ارتابت في أذنيها.

" أجل "، قال تيتو، منكمشاً قليلاً. لم يكن المشهد مما يسرّ – فالاحتقار الذي حلّ كان بدأ يلسعه بسياطه.

قالت، وهي تنظر إليه من عل، وصرير يخالط صوتها: " إنك رجل غدّار ! "

لبثت صامتة لفترة، وجلس هو ساكناً لا يريم، شاعراً أن البراعة أصبحت الآن عاجزة . وفجأة ابتعدت وقالت بصوت متهدج: " يمكن منع ذلك – أنا ذاهبة إلى عرّابي ".

في لحظة هب تيتو واقفاً وذهب صوب الباب، قفله، وأخذ المفتاح. لقد حان الوقت الذي يتكشّف فيه كل ما فيه من هيمنة ذكورية كامنة. لكنه لم يكن غاضباً. لم يشعر سوى أن اللحظة كانت كريهة على نحو شديد، وأنه عندما يصل هذا المشهد إلى نهايته سيكون مسروراً للابتعاد عن رومولا قليلاً. لكن الضرورة كانت تحتم أولاً وجوب إخضاعها.

" حاولي أن تهدّئي نفسك قليلاً، يا رومولا "، قال، وهو يتكئ بكل السهولة التي استطاع على قاعدة تحت تمثال نصفي لرجل روماني قديم متجهم. صحيح أنه لم يكن يشعر داخلياً بالارتياح: كان قلبه يدق بفعل رعب أخلاقي لا يمكن صدّه بأي نوع من الدروع. لقد احتجز غضب زوجته واحتقارها، لكنه أرغم على احتجاز نفسه معهما. وثائرته لم تثر بفعل الخصام – فوجنته الزيتونية اللون كانت واضحة

الشحوب.

توقفت رومولا والتفتت ناحيته عندما رأته يتهيّأ لوضع المفتاح في محفظته. كان الشرر يتطاير من عينيها، وبدا كل كيانها تحت رحمة قوة عاتية ودّت لو تقفز خارجاً في صورة فعل ما. ذلك أن كل الألم الساحق الناجم عن خيبة الأمل في زوجها، والذي شكّل الجزء الأقوى من شعورها منذ هنيهة، قد محقته شدة سخطها محقاً. في هذه اللحظة لم تلق بالاً لكون ذلك الرجل الذي تحتقره والمتكئ هناك بوسامته المقرفة – لم تلق بالاً لحقيقة أنه كان زوجها، لم تكن تشعر سوى بالاحتقار نحوه . لقد استفاق بداخلها تماماً وللمرة الأولى كبرياء وشراسة الدم العريق لعائلة باردي(5).

قال تيتو: " حاولي على الأقل أن تتفهمي الواقع، ولا تسعي لاتخاذ خطوات عبثية قد تنطوي على خطر. لا جدوى من الذهاب إلى عرّابك. السيد برناردو لا يمكنه أن يردّ ما قمت به. فقط اجلسي. لو كنت تتحلين بالاتزان لما رغبت في أن تكشفي خصوصياتنا لأي طرف ثالث ".

عرف تيتو أنه، بقولته هذه، لامس الوتر الصحيح. لكنها لم تجلس. كانت تعدم تماماً الشعور الإرادي بجسدها ما جعل من المتعذّر عليها أن تغيّر موقفها بقولته هذه.

قالت بعد فترة صمت: " لمَ لا يمكن إعادة الأمور؟ لم ينقل شيء بعد ".

" ببساطة شديدة لأن البيع قد تمّ بعقد مكتوب. لقد غادر

المشترون فلورانسة، وبحوزتي صكوك الشراء ".

قالت رومولا بلهجة يخالطها احتقار مرير ألح في الخروج كالسهم قبل أن تقول أي شيء آخر: " لو كان والدي شك في عدم إخلاصك لكان وضع المكتبة بمأمن من سطوتك. لكن الموت عاجله، وحينما تأكدتَ من صمم في أذنيه، وشلل في يده، قمت بسرقته ". توقفت للحظة، ثم قالت، بانفعال متراكم: " هل سرقت أحداً آخر، **ليس** بعد ميتاً؟ هل هذا هو سبب ارتدائك للدرع؟ "

دُفعت رومولا للتفوه بالكلمات مثلما يُدفع الرجال لاستعمال السوط مع الحصان. أولاً، شعر تيتو بالجبن المطبق. بدا له أن الخزي الذي كان يخشاه سيكون أسوأ مما كان تخيّله. لكن رد الفعل سرعان ما جاء: فمثل هذه الشدة في الكراهية والمقاومة التي كانت بداخله أخذت تتنامى في وجه زوجة بدا صوتها مثل نذير قدر عقابي. قالت له بديهته إنه يمكن له، على الأقل، أن يسيطر عليها.

قال ببرود: " لا جدوى من الإجابة على كلمات تتسم بالجنون، يا رومولا. إن شعورك الغريب تجاه والدك قد جعلك مجنونة هذه اللحظة. أي إنسان عاقل ينظر للقضية من المسافة التي تستحق سيرى أنني سلكت أعقل السبل. وبغض النظر عن تأثير مشاعرك المتطرفة عليه فإنني مقتنع بأن السيد برناردو سيرى الرأي نفسه ".

قالت رومولا: " لا، لن يرى. إنه يعيش على أمل رؤية أمنية والدي وقد تحققت بحذافيرها. البارحة فقط كنا نتطرق لهذا الأمر. لم يفت الأوان على مساعدته لي. من هم أولئك الذين بعت ممتلكات

والدي لهم؟"

" لا يوجد سبب يحول دون أن تعلمي، باستثناء أن هذا ليس بذي قيمة. الكونت دي سان سيرفينو وسينيشال دي بوكاري هما الآن في طريقهما إلى هنا بصحبة ملك سينا ".

قالت رومولا بلهفة وقد أخذ التفكير القلق يطغى على غضبها: " يمكن أن نلحق بهم ونقنعهم بالتخلي عن الصفقة ".

قال تيتو بتصميم بارد: " لا، لن يتخلّوا ".

" ولمَ؟"

" لأن هذه ليست رغبتي ".

قالت رومولا: " لكن إذا دُفع لك المال؟ – سندفع لك المال " .

لم تكن هناك كلمات تعبر أصدق تعبير عن شعورها بالغربة عن تيتو. لكن تلفّظها بها لم تكن تشوبه مرارة بقدر ما كان يشوبه توسل قلق. وقد تشجّع، ذلك أنه رأى أن دافع الغضب الأول قد زال.

" لا، يا حبيبتي رومولا. افهمي أن مثل هذه الأفكار ليست ممكنة التطبيق. لن تقدمي في لحظة تعقّل على الطلب من عرّابك أن يدفن ثلاثة آلاف فلورين إضافة إلى ما دفعه على المكتبة من قبل. أعتقد أن كبرياءك وكياستك سيحجمان عن ذلك ".

تملّكتها الرعدة واعترتها برودة مرة ثانية بسبب الهمة المثبطة، وارتخت مفاصلها لتسقط على الصندوق ذي النقوش الذي كانت تقف بقربه. تابع بصوت واضح دبّ الرعشة في داخلها كما لو أنه كان تياراً رفيعاً بارداً يسيل سراعاً على وجنة ساخنة.

" إضافة لذلك، لا أريد أن يقدّم السيد برناردو المال حتى ولو لم يكن المشروع مشروعاً طائشاً بالكامل. وأرجوك أن تتمعني، قبل أن تتخذي أية خطوة أو تفوهي بأية كلمة حول الموضوع، في ماهية عواقب وضعك نفسك في مواجهة معي، ومحاولة إبرازك زوجك في ضوء مشين يلقيه عليه مزاجك المعتكر. أي هدف ستحققين عن طريق إيذائك لي من خلال السيد برناردو؟ فما حصل قد حصل. المكتبة بيعت، وأنت زوجتي ".

كل كلمة قيلت قيلت لأجل وقعها المحسوب ذلك أن نباهته قد وصلت إلى أوج فاعليتها بفعل خطر الأزمة. كان يعلم أن عقل رومولا سيستوعب بما فيه الكفاية كل المعاني الوسيعة لكلامه. انتظر وراقبها بصمت.

كانت شاحت بوجهها عنه، وأخذت تنظر إلى الأرض، وقد لبثت على تلك الحال بضع دقائق. وعندما نطقت بالكلام كان صوتها قد اعتراه تبدّل تام، – خلد للهدوء والبرودة.

" لا أطلب سوى شيء واحد ".

" اطلبي أي شيء يمكنني أن أفعله دون أن يلحق الأذى بكلينا، يا رومولا ".

" أن تعطيني ذلك الجزء من المال الذي هو ملك لعرّابي، ودعني أسدد له حقه ".

" لا بد لي أن أحصل على ضمانة منك أولاً بخصوص الموقف الذي تنوين اتخاذه مني ".

قالت تشوب لهجتها مرارة عائدة: " هل تؤمن بالضمانات، يا تيتو؟ "

" منك، أجل ".

" لن أؤذيك في شيء. لن أكشف أي شيء. لن أقول ما يؤلمه ويؤلمك. أنت تقول الحق عندما تقول إن الصفقة لا يمكن الرجوع عنها ."

" عندها سأفعل ما ترغبين به غداً صباحاً ".

قالت رومولا: " الليلة هذه، إذا أمكن، حتى لا نتطرق إلى الموضوع ثانية ".

" ممكن "، قال وهو يتحرك صوب المصباح بينما جلست هي في هدوء تنظر بعيداً عنه بعينين مشدوهتين.

وفي الحال قام وانحنى فوقها ليضع قطعة ورق في يدها. " ستقبضين شيئاً بالمقابل، هل تدركين ذلك، يا حبيبتي رومولا؟ " قال بدماثة دون أن يكترث لما دار بينهما أما وأنه الآن قد أصبح في أمان، وشعر بقدرته على محاولة استرضائها.

قالت وهي تستلم الورقة دون أن تنظر إليه: " أجل، أفهم ".

" وستغفرين لي، يا حبيبتي رومولا، عندما يتسنّى لك الوقت كي تفكّري بالأمر ". قام بمجرد ملامسة جبينها بشفتيه لكنها لم تبد أي اهتمام، وبدت حقاً غير شاعرة بفعلته هذه.

شعرت بأنه فتح الباب وخرج. حرّكت رأسها وأرهفت السمع. فتح باب الفناء الخارجي وأغلق ثانية. انتفضت واقفة كما لو أن حرية

مفاجئـة قـد جـاءت، وبعـد أن ذهبـت إلـى كرسـي والـدها حيـث كانـت صورته مسنودة خرّت ساجدة على ركبتيها أمامها وانفجرت في نشيج حاد.

الفصل الثالث والثلاثون
بالداسار يعقد تعارفاً

عندما كان بالداسار يجول في أنحاء فلورانسة بحثاً عن غرفة هي عبارة عن ملحق إضافي يتوافر له فيه أرخص الأسرّة، قادته قدماه نحو تلك البقعة الوحيدة من الأرض داخل أسوار المدينة التي لم تكن تامة الاستواء، والتي يمكن للمشاهد الذي يعتلي أسطح المنازل أن يمدّ بصره منها إلى المناطق الواقعة خارج نطاق المدينة حيث تربض التلال الحامية لها والوادي المترامي الأطراف، والتي هي، خلاف ذلك، محجوبة عن ناظريه إلا حيث تمتد الفرجة المستحبة التي رسمها نهر آرنو بجريانه. وقد تعرفنا على جزء من تلك البقعة من قبل في شكل هضبة بوغولي، وكانت آنئذ مقلع حجارة عظيماً. لكن الجانب الذي وجه بالداسار صوبه خطواته كان ذلك الجزء الذي انحدرت طبيعة أرضه فيما وراء فيا دي باردي، وسمي بالاسم الشائع هضبة سان جيورجيو. كان براتي قد أخبره أن مسكن تيتو هو في فيا دي باردي. وبعد معاينة ذلك الشارع صعد سفح الهضبة التي كان لاحظها عند عبوره الجسر. لو كان بإمكانه أن يعثر في تلك الهضبة على غرفة ملحقة تؤويه لكان ذلك مدعاة للسرور: لقد اعتاد الآن ولعدة سنوات أن يعيش ملتحفاً سماء شاسعة مترامية من حوله. زد على أن مجازات الشوارع الضيقة التي يعلوها الشريط السماوي، وتحيط بها متاهة مجهولة، بدت وكأنها تفاقم إحساسه بالوحدة وضعف الذاكرة.

كانت البيوت تتناثر على الهضبة التي غطّت الحدائق معظمها. لكن في إحدى البقع كانت تقع قطعة من أرض وعرة برزت منها أحجار كبيرة لم تعرف حرثاً قط منذ أن خرّب انهيار أرضي في تلك البقعة بعض المنازل حوالي نهاية القرن الثالث عشر. وفي مكان يطل على تخوم هذه الأرض المتشققة انتصب بناء صغير مربع غريب الشكل يبدو أشبه ببرج مقطوع الرأس سطحه من القرميد المخدد، وقريباً منه شوهدت غرفة إضافية صغيرة ملحقة بالبناء بنيت،كما ظهر واضحاً قبالة جزء من حائط حجري خرب. وتحت شجرة توت ضخمة نصف ذابلة كانت تجود في هذا الوقت بآخر وريقاتها الراعشة عند المداخل المكشوفة كانت امرأة مسنة شديدة البأس متغضنة الجلد تفك رباط معزى معها صغيراها، وقد تبين لبالداسار أن جزءاً من ذلك الملحق كانت تشغله الماشية. على أن باب القسم الآخر كان مفتوحاً، وكان خالياً من أي شيء سوى بعض الأدوات والقش. كان ذلك هو المكان الذي يبتغيه بالضبط. تحدث إلى المرأة المسنة، لكنه لم يفلح في جعلها تفهم مراده في العثور على مسكن، واستعداده لدفع أجرته إلا بعد أن اقترب منها وصرخ في أذنها. في البداية لم يظفر بأي جواب سوى هزات رأس وعبارة، " لا – لا مسكن "، تفوهت بها بلهجة الصمّاء المخنوقة الصوت. لكنه، بفضل إصراره تمكن من أن يوضح لها أنه كان غريباً فقيراً قدم من مسافة بعيدة من وراء البحار، وما كان باستطاعته أن يدفع أجرة فندق، وأنه لا يرغب سوى أن يفترش القش في الملحق، وسيدفع لها ربعيةً أو اثنتين في الأسبوع لقاء ذلك. بقيت

المرأة على نظرتها المرتابة، وأخذت تهز رأسها وتحدث نفسها بصوت خفيض . لكنها قامت في الحال، كما لو أن فكرة جديدة قد خطرت لها، بإحضار فأس من المنزل، وبعد أن أرته قطعة حطب تكاد تختفي تحت النفايات وضعت في ركن، سألته عما إذا كان بإمكانه أن يفتتها لها: إذا رضي يمكنه أن يبيت في الملحق لليلة واحدة. وافق، ووقفت مونا ليزا تراقبه متكئة بذراعيها على خصرها، وابتسامة احتيال لمن نال مراده على وجهها، بينما كانت تحدث نفسها بصوت خفيض –

" لم تبرح ذلك المكان منذ أن مات زوجي المسن. وماذا يهمّ؟ كان يمكن بالأحرى أن أضع حجراً على النار. إنه يقطع جيداً رغم أنه يتكلم لغة أجنبية ويبدو غريب الهيئة.كان يستحيل عليّ أن أقطعها بسعر أرخص. وإذا كان يرغب فقط في كومة صغيرة من القش يتمدد فوقها فيمكنني أن أرسله في مهمة أو اثنتين إلى أعلى وأسفل التل . من المفروض أن يعلم بذلك ؟ والخطيئة المخفية نصف مغفورة (1). إنه غريب: لن يفطن لوجودها(تشديد على – ها). وسأطلب إليها أن تصون لسانها ".

كانت متعلّقة هذه الضمائر الأنثوية ذات عينين زرقاوين كانتا في تلك الآونة تقومان بالنظر من خلال فتحة كبيرة مستديرة في مصراع النافذة العلوية. كان المصراع مغلقاً، ليس لأسباب عقابية، بل نظراً لأن النافذة المقابلة وحدها تتمتع بترف وجود زجاج فيها: لم يكن الطقس دافئاً، وكانت فتحة مستديرة قطرها أربعة إنشات تفي بكل حاجات المراقبة. ولسوء الحظ كانت الفتحة عالية جداً، وكانت ترغم

المراقبة الصغيرة الجسم على الوقوف على مقعد واطئ مخلّع الأوصال. لكن تيسّا كانت على استعداد لأن تقف مدة طويلة في وضع أكثر إزعاجاً بكثير إذا تسنّى لها رؤية منظر صغير يلوّن حياتها. لقد اجتذبها لهذه الفتحة نبرات صوت الغريب الأولى العالية عندما كان يتحدث إلى مونا ليزا. وبعد أن خفّت ذاهبة آيبة في الغرفة بين الفينة والأخرى لتتلصص على شيء ما لبثت واقفة هناك حتى فرغ من تقطيع الحطب، وشاهدت بالداسار يدخل الملحق آن حلول الغسق، ويتخذ مجلسه على القش.

سيطر على تفكير تيسّا إغراء قوي. ستذهب وتأخذ لذلك الغريب جزءاً من عشائها، وتتحدث إليه قليلاً. لم يكن أصم شأن مونا ليزا، وإلى جانب ذلك يمكنها أن تقول له عدة أشياء كانت على علم سابق بها دون حاجة للصراخ في أذن مونا ليزا. وقد كان غريباً – الغرباء يجيئون من مكان بعيد ويسافرون ثانية ولا يقطنون مكاناً واحداً بعينه. كانت تعلم أن هذا العمل غير مستحب، ذلك أن الطاعة شكّلت القسم الأكبر من فكرة تيسّا عن الواجب. لكنه سيكون شيئاً يجب الاعتراف به للـ: Padre next Pasqua(2) (الأب في عيد الفصح التالي–م)، ولم يكن هناك شيء آخر يستحق الاعتراف به ما عدا الإغفاء أحياناً وهي تتلو صلواتها على حباب سبحتها، والغضب قليلاً من مونا ليزا لأنها صمّاء جداً. ذلك لأنها تتوفر الآن على قدر ما ترغب من التبطّل، وهي لم تتعرض يوماً لرعب أجبرها على إتيان كذب أبيض. ابتعدت عن نافذتها وتعبير ينمّ عن الانفعال يرتسم علىوجهها

الطفولي الذي كان جميلاً ومبوّز الشفتين كعادته. أما رداؤها فكان على حاله رداء الفتاة الريفية البسيطة، لكنها الفتاة المتأهبة للذهاب إلى مهرجان: وفستانها من القماش الصوفي الأخضر الغامق يزنره زنار أحمر بدا نظيفاً وأنيقاً. كانت تطوق جيدها حبات خرز حمراء بلورية. أما شعرها البني، الخشن بسبب تجعده، فقد كان معقوداً بشكل أصولي ومثبتاً بدبوس شعر فضي. لم تكن تضع إلا قطعة زينة واحدة، وكانت فخورة جداً بها لكونها خاتماً ذهبياً جميلاً.

جلست تيسا على المقعد الواطئ مدارية ركبتيها للحظة أو لحظتين، يعروكيانها الصغير انفعال راعش متحفّز على حافة هذا التعدي المستحب. لم تكن تستطيع له دفعاً. كانت أعطيت أمراً ألا تعقد أي تعارف، وحُذّرت من أنها لو فعلت فإن كل حظها الجديد البهيج سيتلاشى، وستكون كمثل كنز مخفي سيستحيل رصاصاً حالما يرى ضوء النهار. وكانت جد مطيعة إلى درجة أنه عندما كان يتوجب عليها الذهاب إلى الكنيسة كانت تبقي على وجهها مخفياً بنقابها وتزمّ شفتيها بشكل محكم. صحيح أن طاعتها قد حملها عليها قليلاً خشيتها بأن يظهر فجأة زوج أمها نوفري حتى في هذه البقعة، البعيدة جداً عن بور ديل براتو، ويضربها على الأقل، هذا إذا لم يجرّها جرّاً معيداً إياها للعمل لصالحه. لكن هذا العجوز لم يكن من معارفها. كان غريباً فقيراً يتأهب للنوم في الملحق، وربما لم يعرف شيئاً عن زوج أمها نوفري. وإلى جانب ذلك لو أنها أخذت له بعض العشاء لأحبها ولأحجم عن التفوه بشيء عنها. ستقول مونا ليزا إنها يجب ألا تذهب وتتحدث إليه،

ولذلك يجب ألا يؤخذ رأي مونا ليزا. ولا يعني من الأمر شيئاً ماذا تكتشف بعد أن يكون الفعل قد ارتكب.

كان العشاء قيد التحضير، كانت تعلم ذلك – جبل من المعكرونة المطعّمة بالجبنة، تفوح رائحتها الزكية بما يكفي لتروّض أي غريب. لذلك وطأت قدماها السلم في طريق النزول وعقلها مفعم بالخطط البالغة الأهمية، واستفسرت أولاً بنظرة بريئة عن ماهية تلك الضجة الكلامية، ودون انتظار الجواب، عقدت حاجبها بشكل حازم، مثل قطيطة تحاول أن تكون مرهوبة الجانب، وبعثت بالمرأة العجوز إلى الطبقة العليا قائلة إنها تريد أن تتناول عشاءها في الأسفل. وفي ثلاث دقائق كانت تيسّا التي تحمل مصباحاً بيد ووعاءً خشبياً كبيراً من المعكرونة بالأخرى، تخبط بشكل خفيف برجلها على باب الملحق. أما بالداسار، المستيقظ من أحلام اليقظة الحزينة، فقد ارتاب أول الأمر في ما إذا كان مستيقظاً عندما فتح الباب ورأى هذه الخادمة الصغير التي تبعث الدهشة في النفس، وتشع عيناها بهجة وسروراً، تقتحم عليه عزلته الموحشة.

قالت وهي ترفع فمها نحو أذنه وتصرخ كما لو أنه كان أصمّ مثل مونا ليزا: " لقد أحضرت لك بعض العشاء. اجلس وتناوله، بينما أنا أبقى هنا معك ".

تغلّبت الدهشة والريبة على أية مشاعر أخرى لدى بالداسار، لكن رغم أنه لم يردّ على الفور بأية ابتسامة أو كلمة شكر إلا أنه لم ير أي حافز يدفعه لصرف هذه الزائرة، وخار مستسلماً على فرشته

القش ثانية بينما جلست تيسا قريباً منه، ووضعت الوعاء الخشبي على حضنه، والمصباح أمامهما مصالبة يديها أمامها، ومومئة إلى الوعاء بابتسامة دالّة كما لتقول: " أجل، يمكنك أن تلتهمه حقاً ". ذلك أنها، في غمرة الحماس الذي واكب صنيعها، كانت قد نسيت تفكيرها السابق بأن الغريب لن يكون أصم، وانكفأت إلى بديلها المعتاد من التمثيل الإيمائي والصراخ.

لم تكن الدعوة غير مستحبة، ذلك لأنه كان يقضم كسرة خبز جاف كانت تركت الكثير من الشهية لأي شيء دافئ ولذيذ الطعم. راقبت تيسّا تلاشي لقمتين أو ثلاث دون أن تتكلم، ذلك لأنها كانت قد حسبت بدايةً أن عينيه شرستان . لكنها تجرأت الآن على وضع فمها على أذنه ثانية وصرخت –

" أنت تحب عشائي، أليس كذلك؟ "

لم يكن ما وجّهه بالداسار إلى هذه المخلوقة الصغيرة المكوّرة ذات العينين الزرقاوين التي كانت تشمله برعايتها ابتسامة بل بالأحرى النظرة الأرقّ من كلب تأثر لحسن المعاملة، لكن دون أن يقوى على الابتسام .

قال: " أجل، لكن بإمكاني أن أسمع جيداً – أنا لست أصمّ ".

قالت تيسا وهي ترفع يديها وتشبكهما: " هذا صحيح. لقد نسيت. لكن مونا ليزا صماء وأنا أعيش معها. إنها امرأة مسنة عطوف، وأنا لست خائفة منها. ونحن نعيش عيشة جيدة جداً: لدينا الكثير من الأشياء الحلوة. يمكنني أن أحصل على البندق إذا رغبت. ولست ملزمة

الآن بالعمل. في الماضي كنت مضطرة للعمل، ولم يعجبني ذلك. لكنني أحببت إطعام البغال، وليتني أرى جيانيتا المسكينة، البغلة الصغيرة، ثانية. ليس لدينا سوى معزى وجديين صغيرين، ولقد درجت على التحدث إلى المعزى كثيراً لعدم وجود أحد آخر سوى مونا ليزا. لكن الآن لدي شيء آخر – أبإمكانك أن تحزر ما هو؟ "

أرجعت رأسها إلى الوراء ونظرت بابتسامة تحدٍّ إلى بالداسار كما لو أنها طرحت عليه أحجية صعبة الحل.

" لا "، قال وهو يضع الوعاء جانباً وينظر إليها حالماً. بدا كما لو أن هذه المخلوقة الصغيرة الثرثارة ذكرى استرجعها من أيام شبابه.

قالت تيسا: " أنت ترغب في أن أتحدث إليك، أليس كذلك؟ لكن عليك ألا تخبر أحداً. هل أحضر لك قطعة نقانق باردة؟ "

هز رأسه، لكنه بدا الآن جد لطيف وطيّع مما أعطى تيسا شعوراً بالارتياح.

" حسن، إذن، لدي طفل صغير.طفل جميل جداً له أصابع وأظفار صغيرة! لم يكبر بعد. لقد ولد في عيد ميلاد العذراء (3)، كما تقول مونا ليزا. لقد تزوجت في أحد أعياد ميلاد العذراء منذ مدة طويلة، طويلة ولم يعرف أحد. أوه، سانتا مادونا (العذراء القديسة)! لم أقصد أن أطلعكَ على هذا الأمر!"

رفعت تيسا كتفيها وعضت على شفتها وهي تنظر إلى بالداسار كما لو أن هذا الإفشاء للأسرار يجب أن يقع من نفسه موقع الإثارة

أيضاً. لكن لم يبد عليه كثير مبالاة. ولربما كان هذا من طبيعة الغرباء.

قالت وهي تتابع التفكير بصوت عالٍ: " أنت غريب. أنت لا تقطن في أي مكان أو تعرف أي شخص، أليس كذلك؟"

" لا "، قال بالداسار، الذي فكّر أيضاً بصوت عالٍ، أكثر مما أجاب عن وعي، " أنا أعرف رجلاً واحداً فقط ".

قالت تيسا قلقة: " اسمه ليس نوفري، أليس كذلك؟" .

" لا "، قال بالداسار وهو يلاحظ نظرة الخوف. " هل هذا اسم زوجك؟ "

ذلك الافتراض الخاطئ كان ممتعاً لتيسّا. ضحكت وصفقت بيديها وهي تقول –

" لا، حقاً! لكن يجب ألا أخبرك بشيء عن زوجي. لن يخطر ببالك ما هو– ليس على الإطلاق مثل نوفري!"

ضحكت ثانية للتنافر الممتع بين اسم نوفري– الذي كان لصيقاً بزوج الأم السيئ الطبع – وفكرة زوجها.

تابعت بجدية أكبر: " لكنني لا أراه كثيراً، وأحياناً أصلي للسيدة العذراء كي ترسله مراراً أكثر، ومرة فعلت. لكن يجب أن أعود إلى طفلي الآن. سأجلبه لأريك إياه غداً. سيعجبك. أحياناً يبكي ويزوي وجهه، لكن فقط عندما يكون جائعاً، كما تقول مونا ليزا. لن يخطر لك، ذلك أن مونا ليزا كان لها أولاد ذات يوم، وهم جميعاً عجائز موتى. زوجي يقول إنها لن تموت أبداً في الوقت الحالي، لأنها جافة الشعور

تماماً. أنا مسرورة لذلك، ذلك لأنني مولعة بها. سيروقك أن تمكث هنا غداً، أليس كذلك؟"

قال بالداسار: " أتمنى لو يتوافر لي هذا المكان لأعود وأستريح فيه، هذا كل ما في الأمر. سأدفع الأجرة، ولن أؤذي أحداً ".

" لا، فعلاً. أظن أنك لست إنساناً سيئاً. لكنك تبدو حزيناً لأمر ما. قل لي، هل هناك ما ستبكي لأجله عندما أتركك وحدك؟ تعودت أن أبكي ذات مرة ".

" لا، يا بنيتي. أعتقد أنني لن أبكي بعد الآن ".

" هذا صحيح. وسأحضر لك بعض الفطور، وأريك الطفل . طابت ليلتك ".

تناولت تيسا وعاءها ومصباحها وأغلقت الباب وراءها. لم يعن الشبح الجميل المحبب شيئاً لبالداسار أكثر مما يعني قوس قزح واه ٍ على خلفية سوداء للرجل الذي يصارع الموت في مياه عميقة.لم تطرأ (هي)على ذهنه مرة ثانية إلا نادراً، وإلى أن تحوّلت يقظته الحلمية إلى الصورالأكثر وضوحاً في نوم مؤرق.

لكن تيسا فكّرت كثيراً به. لم تكد تدخل المنزل حتى أخبرت مونا ليزا بالذي فعلته، وألحت على أن يسمح للغريب بالمجيء والبقاء في المنزل متى أراد. أبدت المرأة المسنّة التي جال بخاطرها أن تصنع منه نزيلاً نافعاً، امتعاضاً، وهزت رأسها وشددت على أن السيد نالدو سيغضب إذا سمحت لأحد بالتردد على المنزل. لم تصدّق تيسّا ذلك. لم يتفوه نالدو بشيء ضد الغرباء الذين ليس لهم مكان يأوون إليه، وهذا

العجوز لم يكن على معرفة بأي شخص إلا واحداً، والذي لم يكن نوفري.

أذعنت مونا ليزا أخيراً، وقالت: " حسن، إذا سمحت له بالبقاء لفترة ومعاونتي في نقل الأشياء إلى أعلى التل، يمكنك أن تحتفظي بنصيحتك ولا تخبري أحداً ".

قالت تيسا: " لا، سأخبر الطفل فقط ".

تابعت مونا ليزا بصوتها الخفيض الأجش: " ومن ثمَّ، عسى أن يحبنا الله بما فيه الكفاية ويحول دون أن يعرف السيد نالدو أي شيء عن هذا الأمر. ذلك أنه لا يأتي إلى هنا أبداً ليلاً، وحيث إنه كان هنا منذ يومين فمن المحتمل ألا يأتي أبداً حتى يكون العجوز قد سافر من جديد ".

قالت تيسا وهي تشبك يديها: " أوه، يا إلهي! يا مونا، أتمنى لو أن نالدو لا يضطر أحياناً للسفر مسافة بعيدة قبل أن يعود ثانية ".

" آه، يا بنيتي! العالم واسع، كما يقولون. هناك أمكنة وراء الجبال، وإذا سافر الناس ليلةً ونهاراً، وليلةً ونهاراً فسيصلون إلى روما، ويشاهدون الأب الأقدس ".

بدت تيسا مذعنة أمام هذا اللغز، وبدأت تهدهد طفلها، وتترنم بمقاطع ذات معان غرامية غامضة في شكل نغمات تحاكي دقّة ثلاثية الإيقاع.

في صباح اليوم التالي نشطت على غير عادتها حيث كانت تأمل في المزيد من الحوار، وفي إدخال السرور إلى قلب العجوز

الغريب المسكين بإرائته طفلها. لكن قبل أن تتأهب لأخذ الفطور إلى بالداسار وجدت أن مونا ليزا كانت تشغّله في سحب الماء. أجّلت صلواتها المكرورة وهرعت إلى تحت لتلحّ على أن بالداسار يجب أن يجلس على فرشته القش حتى تتمكن من المجيء والجلوس بجانبه مرة ثانية وقت تناول فطوره. ذلك الموقف جعل الرفقة الجديدة أكثر متعة بالنسبة لتيسا، ذلك لأنها تعودت على الجلوس على القش في غابر الأيام جنباً إلى جنب مع ماعزها وبغالها.

قالت وهي تحضر له بعض المرق الذي كان يضوع بخاره، وبعض الخبز اللين: " لن أدع مونا ليزا تكلفك بعمل كثير، لا أحب الأعمال الكثيرة، ويحدوني القول بأنك أنت لا تحبها. أحب الجلوس في ضوء الشمس وإطعام المخلوقات، تقول مونا ليزا، العمل أمر جيد، لكنها تقوم به برمّته بنفسها، لذلك لست أبالي. هي ليست عجوزاً مغضبة، يجب ألا تخشى غضبها. والآن، هيا كل هذا، وسأذهب من جانبي وأحضر طفلي وأريك إياه ".

وفي الحال عادت ومعها حقيبة مومياتها بين ذراعيها. بدت المومياء حيوية جداً لها عينان واسعتان سوداوان على نحو غير معهود بالرغم من عدم وجود أكثر من إشارة معهودة لأنف مستقبلي.

قالت تيسا وهي تجلس قريباً من بالداسار: " هذا طفلي.لم تظن أنه على هذا الجمال، أليس كذلك؟ إنه يشبه الطفل يسوع (4) ويحدوني الاعتقاد بأن العذراء المقدسة ستكون أرأف بي الآن، أليس كذلك؟ لكن مطاليبي ليست كثيرة لأن لدي كل شيء الآن – فقط إنني

أرغب في رؤية زوجي مراراً أكثر. يمكنك حمل الطفل قليلاً إذا أحببت، لكنني أعتقد أنك يجب ألا تقبّله لأنك قد تؤذيه ".

فاهت بهذا التحذير بنغمة تنمّ عن تبرير ملطّف، ولم يستطع بالداسار أن يرفض حمل الصرة الصغيرة. " المسكينة، المسكينة! " قال بصوت عميق كان يخالطه شيء منذر على نحو غريب في شفقته البادية. لم يبد كما لو أن هذه المرأة الصغيرة المحبة الطاهرة يمكن أن تصالحه مع العالم إطلاقاً بل أنها ستكون بجانبه ضد العالم، أنها مخلوقة بحاجة لأن يؤخذ بثأرها.

" أوه، لا تحزن لأجلي، ذلك أنني رغم قلة مشاهدتي له إلا أنه أكثر جمالاً وطيبة من أي كائن آخر في العالم. أدعو له في صلواتي عندما يكون مسافراً. يصعب عليك أن تحزر ما هو! "

نظرت إلى بالداسار نظرة شاملة يكتنفها معنى غامض بعد أن أخذت الطفل منه ثانية، تحدوها الرغبة في أن يسألها كما لو كان يتوق جداً لمعرفة المزيد.

قال بالداسار بصوت ينم عن مرارة نوعاً ما: " أجل، أستطيع ".

قالت تيسا بجدية: " لا، أنا متأكدة أنك لا تستطيع "، وأضافت وقد بدت عليها سمة حسم تشي بالانتصار: " كنت تحسب أنه قد يكون نوفري. لكن لا تأبه، لا يمكنك أن تعرف. ما اسمك؟ "

حك يده على حاجبه المعقود ثم نظر إليها بانشداه وقال: " آه، يا بنيتي، ما هو؟"

لم تكمن القضية في أنه، في غالب الأحيان، لم يتذكّر اسمه جيداً بما يكفي. ولو كان عنده حضور بديهة الآن تمكنه من أن يتذكّره لما رغب في قوله. لكن سؤالاً مفاجئاً يروق لذاكرته كان له وقعه الشالّ، وفي تلك اللحظة لم يكن يشعر بشيء سوى العجز.

أما تيسا التي جهلت كل شيء فقد علمتها الشفقة التي تحركت في داخلها من جرّاء نظرته الخاوية أن تقول –

"حسن، أنت غريب، ليست قضية أن يكون لك اسم. وداعاً الآن، فأنا أرغب في تناول فطوري. ستأتي إلى هنا وترتاح حين تشاء. مونا ليزا تقول إنه بإمكانك. ولا تبتئس، إذ أننا سنعاملك بالحسنى ".

" المخلوقة المسكينة! " قال بالداسار كرّة أخرى .

الفصل الرابع والثلاثون
لا مكان للندم

عاد السيد نالدو أسرع من المتوقع: جاء مساء الثامن والعشرين من تشرين الثاني، بعد أحد عشر يوماً فقط من زيارته السابقة، مثبتاً بذلك أنه لم يتخطَّ حدود الجبال في سفرته. ولربما يساعد مشهد شاهدنا حدوثه ذاك المساء في فيا دي باردي على شرح الدافع الذي قاد خطاه صوب هضبة سان جيورجيو.

عندما عثر تيتو أولاً على هذا البيت لتيسا، عند عودته من روما، منذ ما يربو عن سنة ونصف، أقنع نفسه بأنه تصرف ببساطة بدافع الإلزام الذي فرضته عليه رأفته على أثر الحادثة المشؤومة التي كانت قد جعلت تيسا الحمقاء الصغيرة تتخيله زوجاً لها. صحيح أن العطف تجلى نحو مخلوقة جميلة طيبة القلب يستحيل أن يكون المرء قريباً منها دون الشعور بالميل لمداعبتها وملاطفتها. لكن الصحيح أيضاً هو أن تصرّفات تيتو كانت تصرفات عطف نحوهابغض النظر عن أي مكسب متعمد يعود عليه بالنفع. ومن ناحية أخرى، ولسبب الفتنة التي تأتت عن جمالها وثرثرتها في لحظة من لحظات الاسترخاء، ربما كان رغب في التحرر منها، ذلك أنه لم يكن على علاقة غرامية بتيسا – كان على علاقة غرامية، لأول مرة في حياته، مع امرأة مختلفة كلية، امرأة لم يكن يميل ببساطة لأن يغدق عليها المداعبات، لكن امرأة تملّكه حضورها بشكل بدا معه حفيف ضفائرها

الطويلة البسيط على وجنته ينبض خلل الساعات. إن كل العاطفة المثالية الحديثة العهد التي تحرّكت بداخله كان مبعثها رومولا، وكانت شغافه من النعومة بمكان، وعقله من الفطنة بمكان، ما حال دون إغوائه ليقارف عادات طالب المتعة المتسم بالفظاظة. لكنه كان قد نسج شبكة حوله وحول تيسا، شبكة شعر بعجزه عن اختراقها: في اللحظات الأول بعد الزواج الصوري تشجّع على تركها بفعل وهم أفرزته حسابات واضحة لحاجته الخاصة الممكنة، لكن منذ تلك اللحظة الحاسمة بدا له أن الشبكة واصلت نسجها لذاتها رغماً عنه كمثل ورم أفلت من سيطرته. إن عناصر الرأفة وإشباع شهوات الذات عصية على التمييز في طبيعة هشة كطبيعة تيتو. كما أن الإزعاج الذي لحقه من خلال مطاردة تيسا له يوم خطوبته، والنية التامة في كشف الحقيقة لها والتي واكبته عندما انطلق ليبرّ بوعده أنه سيقابلها ثانية، كانا حجة قوية له بما فيه الكفاية مؤداها أنه بتركه تيسا في نهاية المطاف لوهمها وتأمينه بيتاً لها، يكون قد خضع لمشيئة حدبه ورأفته. وفي هذه الأيام الأولى من هيامه برومولا كان بحاجة إلى حجة تبرّر ذاتها بذاتها. لقد تعلم أن يُسرّ لانطلاء بعض الأمور عليها. لكن كل شعور قوي يصنع لنفسه ضميراً خاصاً به – وقدسية خاصة به، تماماً مثلما هو شعور الابن نحو أمه، والذي يدوم أحياناً وسط أسوأ أبخرة الفاقة. وتيتو لا يمكنه بعد أن يشعر بالارتياح مع ارتكابه إساءة خفية بحق حبيبته التي اقترن بها.

لكنه كان على أية حال حذراً في اتخاذ الاحتياطات للاحتفاظ

بسر الإساءة. أما مونا ليزا، شأنها شأن الكثيرات من لدّاتها، فلم تبارح قط مسكنها باستثناء الذهاب إلى متجر أو اثنين وإلى الاعتراف مرة في العام، ولم تعلم شيئاً عن اسمه ومكانه الحقيقيين: كانت تعلم فقط أنه كان يدفع لها الأجرة ليجعلها تشعر بالراحة التامة، والباقي لا يعنيها، اللهم إلا شغفها بتيسا، والمتعة التي تجدها في تولّي أمر رعاية تلقت أجراً عليها. والواضح أنه يكتنف القصة بعض الغموض نظراً لأن تيسا كانت فتاة ريفية، والسيد نالدو سيداً محترماً. لكن على حد علم مونا ليزا فقد يكون زوجاً حقيقياً. ذلك أن تيتو قد أرعب تيسا كلية مما جعلها تخلد للصمت بشأن الظروف التي أدّت إلى زواجهما عندما قال لها إنها إذا فتحت فمها فلن تنعم برؤيته ثانية. كما أن صمم مونا ليزا الذي حال دون قول أي شيء لها بدون بعض التفكير المسبق قد أنقذ تيسا من أي إفشاء لأي سر لها بدون تروٍ، كالذي زلّ لسانها به عند حديثها مع بالداسار. مرت فترة طويلة من الزمن كانت فيها زيارات تيتو نادرة، وربما عاد هذا لسفرات تخللت هذه الزيارات. وكان الدافع إليها (الزيارات) بصورة رئيسة التأكد من أن كل أمور تيسا تسير على ما يرام. ورغم أنه كان يجد زيارته أكثر متعة وتسلية مما توقع – دائماً كان يجد جديداً في فتنة ذاك الحب والثقة المتسمين بالجهل – فلم تنشأ أية حاجة حقيقية لمثل هذه الزيارة. لكنه كان مصمماً، إن أمكن، على المحافظة على البساطة التي انبنت عليها الفتنة، المحافظة على تيسا كفتاة ريفية أصيلة ودونما وضع زهرة الحقل الصغيرة وسط ظروف ستسلبها فضيلتها. كان سيصدم لرؤيتها في ثياب غير ثياب تلك الطبقة

التي تنتمي إليها، فطرافة حديثها ستتلاشى كلها إذا بدت لها الأشياء بارتباطات جديدة، وإذا غدا عالمها أكثر اتساعاً، ومسرّاتها أقل طفولية. وقد ميّز فرحها شبه فرح السنجاب بحبات الجوز التي تتوافر له ساعة يشاء مقياس المتع التي وفّرها لها. وعلى هذا النحو أنقذ تيتو فتنة تيسا من الدنس. وهو أيضاً، عن طريق مصادفة سعيدة، أنقذ نفسه من مفاقمة النفقات التي كانت مسبقاً ماسّة بالنسبة لإنسان كان يحتاج كل أمواله لعاداته الحياتية المعهودة .

باختصار كان هذا تاريخ علاقة تيتو بتيسا حتى عهد قريب جداً. صحيح أن الإحساس بأن تيسا تقطن أعلى الهضبة والتي كان ممكناً أن يقضي معها ساعة هناء وسرور، شكّل، قبل وفاة باردو في مناسبة أو اثنتين، إغراء له كي ينجو من شعوره ببعض الملل من الرجل العجوز وعندما، نظراً لعدم وجود أي انشغال صريح، كان يمكنه، خلاف ذلك، أن يتحمّل الملل بصبر، ويشارك في العبء الملقى على كاهل رومولا. لكن اللحظة التي شعر فيها بجوع حقيقي لحب تيسا وإيمانها الساذجين لم تحن إلا في عهد قريب جداً، وقد تميّزت على نحو جلي بسبب ظروف عصيّة على النسيان مثلما هو عصي حلول مرض عطّل البصر والسمع بشكل دائم. لقد كانت يوم رؤيته بالداسار لأول مرة، وابتياعه الدرع. تلك الليلة عند سلوكه الطريق ناحية الجسر، والدرع في يديه، شعر بعيف تام من لقاء وشيك مع رومولا.وهي أيضاً كانت لا تعرف إلا القليل جداً عن العالم الحقيقي. هي أيضاً وثقت به. لكنه كان يحتضن شعوراً غير مريح بأن وراء عينيها الصريحتين ثوت

طبيعة بإمكانها أن تحكم عليه، وأن أية ثقة في غير محلها كانت تحتضنها لم تكن صادرة عن عجز بهيمي تام، بل عن نبل قد يثبت أنه محكٌّ مزعج. كان بحاجة إلى شيء من الراحة والاسترخاء من ضبط النفس، عقب الاضطراب الذي اعتراه والمجاهدات التي كابدها ذلك اليوم. كان يرغب في أن يكون في مكان يمكنه أن يوائم منه عقله مع الغد، دون أن يأبه بكيفية تصرفه في الوقت الحاضر. وغير بعيد منه كانت تقطن مخلوقة عذبة تعبده، مخلوقة حضورها يشكّل أماناً وتحرراً من القيود لا يقلان عما يوفره صغيراها، مخلوقة تصدّق أية خرافة وتبقى بمنأى عن التأثر بالرأي العام. ولذلك ففي تلك الأمسية التي كانت رومولا تنتظر فيها وترهف السمع بانتظار مجيئه وجّه خطواته إلى أعلى الهضبة.

لا غرابة، إذن، أن تتخذ الخطوات المسار نفسه هذا المساء، بعد أحد عشر يوماً، حين اضطر إلى أن يتراجع تحت وطأة أول تفجّر للاحتقار من جانب رومولا. لم يقو على أن يتمنى رؤية تيسا مكان زوجته، أو الكفّ عن التمني بأن زوجته يجب أن تكون متصالحة كلية معه. ذلك أن رومولا، وليست تيسا، هي التي كانت تنتمي إلى العالم الذي لابد أن كل الرغبات الأسمى لإنسان مفعم بالطموح والقدرات المؤثرة تثوي فيه بالضرورة. لكنه كان يرغب في ملاذ يلوذ به هرباً من معيار صارم على نحو مزعج، والذي لم يكن قادراً على التفلّت منه عن طريق الاعتقاد ببساطة أنه حماقة. وكانت روح تيسّا الصغيرة هي ذلك الملاذ المغري.

عندما تسلق الدرجات الحجرية المؤدية إلى باب غرفة تيسا لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة. في العادة كانت تسمع صوت دخوله إلى المنزل وتهرع للقائه، لكن ذلك لم يحدث هذه الليلة. وعندما فتح الباب علم السبب. كان ضوء وحيد خافت يشتعل فوق النار الآخذة بالانطفاء، ما أظهر تيسا في وضعية ركوع بجانب رأس السرير، حيث كان الطفل يرقد. كانت تضع رأسها الذي مال إلى جانب على الوسادة، وسبحتها البنية، والتي كانت تعلّقها عادة فوق الوسادة أعلى صورة العذراء وسعف النخيل الذهبية، كانت في قبضة يدها اليمنى المرتخية. كانت تغط في نوم عميق فوق خرزات سبحتها. خطا تيتو على مهل عبر الغرفة الصغيرة، وجلس بقربها. لعلّها سمعت الباب يفتح كطرف من حلمها، ذلك لأنه لم يمض على نظره إليها لحظتان حتى فتحت عينيها. فتحتهما دون أية جفلة، ولبثت ساكنة تماماً تنظر إليه، كما لو أن الإحساس بوجوده في الغرفة ينظر إليها قطع الطريق على أي دافع يمكن أن يفسد ذلك الاستسلام البهيج. لكنه عندما وضع يده تحت ذقنها وانحنى ليقبلها، قالت –

" حلمت بذلك، ثم قلت إن هو إلا حلم – ثم أفقت، وكان ذلك في اليقظة ".

قال تيتو وهو يقرص ذقنها: " أيتها الخاطئة الصغيرة! لم تتلي حتى نصف صلواتك.سأعاقبك بإشاحة النظر عن طفلك. إنه قميء ".

لم تحب تيسا تلك الكلمات حتى وإن ظهر الابتسام على وجه تيتو. ارتسمت كآبة مغضبة على وجهها عندما قالت وهي تنحني بقلق

فوق الطفل–

" آه، هذا ليس صحيحاً! إنه أجمل من أي شيء. هذا ليس رأيك عندما تقول قميئاً. ستنتظر إليه. إنه حتى أجمل من المرات التي رأيته فيها من قبل –هو نائم فحسب، ولا يمكنك أن ترى عينيه أو لسانه، ولا يمكنني أن أريك شعره – وهو ينمو – أليس هذا رائعاً؟ انظر إليه! صحيح أن وجهه هو هو عندما يكون نائماً، فلست ترى منه الكثير كما هي الحال عندما يكون مستيقظاً. إذا قبّلته برفق شديد فإنه لن يستيقظ. ترغب في تقبيله، أليس كذلك؟ "

أرضاها بإعطائه المومياء الصغيرة قبلة فراشة، ثم وضع يده على كتفها، وبعد أن أدار وجهها نحوه قال: " يروقك أن تنظري إلى الطفل أكثر من زوجك، أيتها المرائية! "

كانت ما تزال راكعة، وقامت الآن بوضع يدها على ركبته، ورفعت بصرها إليه كواحد من ملائكة الأخ ليبو ليبي المستديري الوجنة الهائمين (1).

قالت وهي تهز رأسها: " لا. أحبك دائماً أكثر من أي شيء، فقط أريد منك أن تنظر إلى الطفل وتحبه. كنت في الماضي أرغب إليك فقط أن تحبني ".

" وهل توقعت أن أعود إليك بهذه السرعة؟ " قال تيتو راغباً في أن يجعلها تثرثر. ذلك أن آثار الهزّة التي تعرّض لها لم تزايله– كان ما يزال يشعر شعور إنسان تلقى رجّة عنيفة. وكانت هذه أسهل طرق التخفف من السكون والعزلة.

قالت تيسا: " آه، لا. لقد عددت الأيام – اليوم بدأت أعدّ على إبهامي الأيمن من جديد – منذ أن ارتديت الدرع الجميل الذي أعطاك إياه سان ميشيل كي يحرسك في رحلتك ". ثم قالت وهي تسترق النظر من خلال الفتحة في مقدّم ردائه:" وها أنت ترتديه الآن. ربما جعلك تعود بسرعة أكبر ".

قال: " ربما، يا تيسا. لكن مالك الآن وللدرع. قولي لي ماذا حدث مذ كنتُ هنا. هل رأيت الخيام في البراتو، والجنود والخيالة عندما عبروا الجسور – هل سمعت الطبول والأبواق؟ "

" أجل، وقد ارتعبت قليلاً لأنني ظننت أن الجنود قد يصعدون إلى هنا. ومونا ليزا ارتعبت قليلاً أيضاً ذلك لأنها قالت ربما قاموا بخطف صغارنا. قالت إن إلحاق الأذى من شيمهم. لكن العذراء حمتنا، ذلك أننا لم نرَ أحداً منهم في هذا المكان. لكن شيئاً ما حدث، لا أجرؤ على قوله لك، وهذا هو سبب تلاوتي مزيد الصلوات للعذراء ".

قال تيتو بنوع من القلق: " ماذا تقصدين، يا تيسا. هيا أسرعي وقولي لي ".

" أجل. لكن ألن تدعني أجلس على ركبتك؟ لأنني عندها لن أشعر بالخوف ".

أخذها ووضعها على ركبته، ووضع ذراعه حولها، لكنه بدا متجهماً: بدا أن المكدّر من الأشياء لا بد أن يلحق به حتى إلى هنا.

قالت تيسا في صوت يقارب الهمس كما لو أن ذلك سيخفف

من الإساءة: " في البداية لم أنو إخبارك، لأننا ظننا أن العجوز سيغادر قبل عودتك، وسيكون كما لو أن شيئاً لم يكن. لكنه الآن موجود هناك، وها أنت أتيت، وأنا لم أفعل شيئاً نهيتني عن فعله من قبل. وأريد أن أخبرك، إذ عندها ربما تصفح عني، ذلك أن موعد ذهابي للاعتراف ليس قريباً ".

أخذ يداخله الأمل بأن الأمر لا يعدو أن يكون، في نهاية المطاف، مسألة تافهة. قال لها:" أجل، قولي لي أي شيء، يا حبيبتي تيسا ".

" أوه، سترثي لحاله: أخشى أنه يبكي لأجل شيء ما عندما يكون بعيداً عن ناظري. لكن هذا لم يكن السبب الذي حدا بي للذهاب إليه أولاً. كان السبب هو أنني أردت أن أحادثه وأريه طفلي، وكان هو غريباً لا مسكن له، وظننت أنك لن تأبه كثيراً بشأن حديثي معه. وأعتقد أنه ليس عجوزاً سيئاً، وقد رغب أن يأتي وينام على القش بجانب الماعز، وقد أقنعت مونا ليزا حتى قالت:

" أجل، بإمكانه ". وهو يبقى خارج البيت طوال اليوم تقريباً، لكنه عندما يعود أتحدث إليه، وآخذ إليه شيئاً يتناوله ".

" أحد الشحّاذين، على ما أعتقد. كان عملاً أخرق منك، يا تيسا، وأنا مستاء من مونا ليزا. يجب أن أعمل على طرده ".

" لا، لا أظن أنه شحّاذ. لقد أراد أن يدفع الأجرة إلى مونا ليزا، فقط طلبت منه أن يقوم لها ببعض الأعمال لقاء ذلك. وهو يذهب إلى الحلاق، وثيابه جيدة الترتيب: مونا ليزا تقول إنه رجل محترم. لكن

الشك يخامرني أحياناً بأنه ليس سليم العقل: لوبّو، في بيريتولا، لم يكن سليم العقل، وهو يبدو أشبه بلوبّو أحياناً، كما لو أنه لا يعرف المكان الموجود فيه ".

قال تيتو بعد أن بدأ قلبه يدق على نحو غريب: " كيف يبدو وجهه؟ ". كان مسكوناً بالتفكير ببالداسار، وأنه هو من تخيّله يجلس على القش لا يبعد عنه سوى بضع ياردات. " أحضري مقعدك، يا تيسا، واجلسي عليه ".

قالت بوجل مبتعدة عن ركبته: " ألن تصفح عني؟ "

" أجل، لن أغضب منك – فقط اجلسي، وقولي لي أي نوع من الناس هو ".

" لا أجد الطريقة لأقول لك: إنه ليس مثل زوج أمي، نوفري، أو أي شخص. وجهه أصفر، وعليه بؤر عميقة. شعره أشيب، لكن ليس له شعر على هامته: وحاجباه أسودان، وهو ينظر من تحتهما إليّ، ويقول لي، " أيتها المسكينة؟ " كما لو أنه اعتقد أنني أتعرّض للضرب كما في السابق. وهذا يبيّن أنه ليس في عقله السليم، أليس كذلك؟ وسألت مرة عن اسمه، لكنه لم يفدني بشيء. إلا أن للجميع أسماء – أليس كذلك؟ وهو يحتفظ الآن بكتاب، ويتملاّه لفترة طويلة، كما لو أنه كان كاهناً. إلا أنني لا أعتقد أنه يتلو الصلوات، فهو لا يحرّك شفتيه أبداً – آه، هل أنت غاضب مني، أو أن السبب هو أنك رثيت لحال العجوز؟ "

ما انفك تيتو يحدّق بتيسا. لكنه لم يعد يراها، وكان يرى فقط

الأشياء التي أوحت بها كلماتها. كانت هذه النظرة الضائعة هي ما أخافها، ولم تملك سوى الذهاب والركوع بجانبه مرة ثانية. لكنه لم يعرها اهتمامه، وهي لم تجرؤ على لمسه، أو التحدث إليه. ركعت، مرتجفة ودهشة. وقد أوحت إليها هذه الحالة الذهنية أن تتناول سبحتها. تناولتها من الأرض، وبدأت تتلو صلواتها ثانية، وشفتاها الجميلتان تتمتمان بصمت، وعيناها الزرقاوان توسّعتا جرّاء القلق والعبرات التي تجهد كي تنهمر.

كان تيتو في أتم غفلة عن حركاتها – غافلاً عن موقفه هو بالذات. كان في حالة الشرود تلك التي يقبض فيها الشخص على سطح خشن مؤلم، ويضغط عليه ويضغط، ولا يشعر به. لقد نهض أمامه احتمال جديد ربما يلاشي، وعلى الفور، الشروط البائسة، شروط الخوف والكبح التي كانت تفسد عليه حياته. لقد ساق له القدر فرصة استعادة تلك اللحظة على درج الكنيسة، عندما أمسكه الماضي بيدين راعشتين نابضتين بالحياة، أما هو فقد تنكّر له. خطوات قلّة، وسيكون وجهاً لوجه مع أبيه، دون وجود أي شاهد. ربما يسعى طالباً الصفح والمصالحة. والآن كان يتوافر لديه مال، من بيع المكتبة، ما يمكّنهما من مغادرة فلورانسة خفية، إلى جنوب إيطاليا حيث أرسى من قبل، في ظل الحكم الفرنسي المحتمل، أساساً للرعاية. يجب ألا تعلم رومولا الحقيقة كاملةً، ذلك لأن لا وسائل مؤكدة لديها للتحقق من تشبيه ذلك السجين في الكنيسة ببالداسار، أو معرفة حقيقة ما جرى على الدرج، إلا من فم بالداسار نفسه. وإذا صفح أبوه فسيرضى أيضاً بدفن

الإساءة.

لكن بركاب احتمال الارتياح هذا، وعن طريق قفزة سهلة، من الشر الحالي، نهض الاحتمال الآخر وهو أن ذاك الرجل ذا القلب الشرس قد يرفض الاسترضاء. حسن – وإذا رفض، فستعود الأمور إلى ما كانت عليه، حيث ليس هناك من شاهد. لم يكن ما استعد له تيتو هو ندم تحوطه صفحة بيضاء وشمعة في اليد، واعتراف بخطيئته الكريهة في أعين الناس. كان ندماً سيجعل الأشياء جميعها محببة، ويبقي على سرية كل الأشياء المنغّصة السابقة. وطيبة قلب تيتو، وعيفه من أن يلفى نفسه على علاقة متوتّرة مع أي مخلوق، كانت فاعلة جداً نحو والده، أما وأن القدر قد شاء أن يحضر والده في هذه الأثناء إلى جواره. لم تتق طبيعة تيتو إلا إلى حالة من راحة البال إن كان بالإمكان استبدال الكراهية السامة في نظرة بالداسار بشيء من المحبة والرضى كما في سابق العهد.

تاق تيتو إلى استعادة عالمه وقد خففت الإرادة الطيبة تماماً من حدته، وتاق إليه بشغف أكبر بسبب ما عاناه للتو من صدامه مع رومولا. لم يكن عسيراً عليه الابتسام التوسّلي أمام أولاء الذين أصابهم بالضير، والتطوع بتقديم الكثير من الحنان لهم. وليس هناك من سرعة في البديهة تخبره بدقّة بمذاق ذلك العسل على شفاه المتضررين. كانت الفرصة سانحة، وقد أثارت رغبة حاصرت نشاط تفكيره المدقق. انتفض واقفاً، وخطا صوب الباب، لكن صرخة تيسا، عند وقوع سبحتها، أيقظته من استغراقه. التفت وقال –

" حبيبتي تيسا، إليّ بمصباح. ولا تبكي، يا حمامتي الصغيرة، أنا لست غاضباً ".

هبط كلاهما الدرج، وكانت تيسا على أهبة أن تعلن عن الحاجة للمصباح بالصراخ في أذن مونا ليزا عندما قال تيتو الذي كان فتح الباب " انتظري، يا تيسا – لا، لا أريد مصباحاً. اصعدي إلى فوق ثانية، ولا تتحركي، ولا تفوهي بشيء لمونا ليزا ".

في غضون نصف دقيقة وقف أمام باب الملحق الموصد حيث كان القمر يشع بنوره الفضي على الخشب العتيق العادم لأي طلاء.

في هذه اللحظة الأخيرة الحاسمة شعر تيتو برجفة في أوصاله – إحجام غريزي مفاجئ من نظرة نمر محتملة، من قفزة نمر محتملة. لكن لمَ يخاف هو، الشاب، من رجل عجوز؟ شاب يلبس درعاً، من عجوز دون سلاح؟ اعترته لحظة تردد، ووضع يده على الباب. هل والده نائم؟ أليس هناك ما يحجبه سوى الباب عن الصوت والنظرة اللذين لا يمكن لأي سحر أن يخفف من غلوائهما؟

لم يكن بالداسار نائماً. كانت توجد فتحة مربعة في جدار الزريبة كان ضياء القمر يرسل من خلالها شعاعاً من ضوء شاحب. ولو استطاع تيتو أن يسترق النظر من خلال الفتحة لكان شاهد والده جالساً على القش ومعه شيء يشع مثل نجمة بيضاء في يده. كان بالداسار يتحسس شفرة خنجره، لائذاً بذلك الإحساس من تفكير خوائي يائس بدا أنه ثاوٍ مثل خليج عظيم الحجم بين عاطفته ومرماها.

كان يعيش أتعس لحظات عجزه. كان يتأمّل، وقت كان القمر يرسل نوره، الكتاب الملقى مفتوحاً بجانبه. ثم أخذ يحاول استرجاع أسماء جواهره، والرموز المنقوشة عليها. وعلى الرغم من أنه في أوقات محددة أخرى تمكّن من تذكر بعض تلك الأسماء والرموز، فإنها، في هذه الليلة، تلاشت جميعها إلى الظلمة. وقد بدا أن هذا المجهود للرؤية الجوانية انتهى إلى شلل تام في الذاكرة. لقد آل به الحال إلى شعور جنوني بأنه كان خلجة منعزلة من سخط محقّ في عالم مليء بنذالة متحدية. قبض على خنجره وأخرجه من غمده، وأخذ يتحسس شفرته لفترة طويلة، وقد ضاقت ذاكرته كي ترى جيداً صورة وحيدة، وحلم إحساس وحيد – الإحساس بالرغبة في غرز هذا الخنجر في قلب حقير ما كان باستطاعته اختراقه بأية وسيلة أخرى.

حطت يد تيتو على الباب وأخذت تجذبه. وقد حكّ على الأرض كحالة معظم هذه الأبواب العتيقة، أما بالداسار الذي انتفض مستفيقاً من حالته الحلمية، فقد نهض من وضعية الجلوس، باستغراب مشوب بالغموض، لا يعلم شيئاً عن مكان وجوده. لم يكن قد نهض واقفاً بعد، وكان ما يزال جاثياً على ركبة واحدة، عندما فتح الباب على مصراعيه وشاهد، أسود على خلفية ضوء القمر، والأشعة تسقط على كتلة ساطعة واحدة من خصلات شعر وعلى وجنة زيتونية مكوّرة واحدة، صورة حلمه – ليست شبحية – قريبة وحقيقية مثل ماء قريب من الشفتين، بعد حلم العطشان به. ليس هناك من تفكير يمكن أن يعترض طريق ذلك العطش التوّاق. في لحظة، وقبل أن يتمكن تيتو

من الانكفاء للوراء قام العجوز وقوة من الغضب خارجة عن المألوف تسيطر على أوصاله بالقفز، للأمام، ولمعت بارقة الخنجر. في اللحظة التالية انقصف الخنجر إلى نصفين، وهوى بالداسار تحت وطأة تفادي الضربة من يد تيتو إلى الوراء ووقع على القش ممسكاً بالقبضة المتصلة بالبقية الباقية من الشفرة المكسورة. استقرّ الطرف المدبب لامعاً أمام قدمي تيتو.

شعر تيتو بانتفاضة رعب شديدة في القلب بعد أن ترنح بفعل وطأة الضربة. لقد شعر الآن بانتصار الخلاص والأمان. لقد ثبتت فاعلية درعه، والانتقام يرقد عاجزاً أمامه. لكن الانتصار لم يبعث بداخله أي دافع شيطاني. فعلى العكس لقد جعل منظر الأب القريب منه، والعاجز عن إلحاق الأذى به مسعى المصالحة أسهل. لقد تحرر من الخوف، لكنه كان يفتقر بصورة أكبر وبشكل صاف ومباشر إلى التحرر من الإحساس بأنه مكروه. بعد أن تبادلا النظرات لفترة وجيزة، وبالداسار يرقد ساكناً يتملّكه غيظ يائس، قال تيتو بصوت ناعم تشبه نغماته نغمات الفراق الأخير على شواطئ اليونان –

" Padre mio!" (يا والدي – م) تلت فترة صمت عقب هذه الكلمات، إنما لا حركة ولا صوت إلى أن قال –

" لقد جئت طالباً منك الصفح والمغفرة!".

مرة أخرى توقف، عسى أن يأخذ هذا البلسم الشافي من تلك الكلمات وقته ليصبح مؤثراً. لكنه لم يلحظ أي بادرة تنمّ عن تغيّر لدى بالداسار. كان يرقد، كما وقع، متكئاً على ذراع واحدة. كان يرتجف،

لكن ذلك كان بفعل الصدمة التي طرحته أرضاً.

" لقد أخذتني المفاجأة ذلك الصباح. أتمنى الآن لو أعود إليك كابن. أتمنى أن أجعل بقية حياتك هانئة، حتى تنسى ما كابدته ".

صمت ثانية. لقد استعمل أقوى الكلمات التي حضرته وأوضحها. لم يكن هناك جدوى من قول المزيد إلى أن يرى إشارة ما تدلّ على أن بالداسار قد فهمه. ربما كان ذهنه مضطرباً جداً، أو خاوياً جداً، حتى لمثل هذا الأمر. ربما شلّت الصدمة المتأتية عن سقوطه وغيظه الخائب استخدامه لقدراته.

وفي الحال بدأ بالداسار يتحرك. رمى بعيداً بالخنجر المكسور، وشرع، ببطء وبالتدريج، يرفع نفسه عن الأرض. مدّ تيتو يده ليساعده، وشدّ ما هي سريعة نفوس البشر، إذ في هذه اللحظة، عندما بدأ يشعر بأن كفّارته قد قبلت، برقت في مخيّلته فكرة تشي بالمجهودات المنغّصة التي استلزمتها. قبض بالداسار على اليد التي امتدت له، رفع نفسه واستمر قابضاً عليها، وهو يقترب من تيتو حتى اقترب وجهاهما من بعض إلى مسافة قصيرة لا تتعدى القدم. ثم شرع يتحدث، بصوت عميق مرتجف –

" لقد أنقذتك – لقد ربيّتك – لقد أحببتك. أما أنت فقد نبذتني – سلبتني – أنكرتني. ماذا يمكنك أن تعطيني؟ لقد أحلت العالم مراً بالنسبة لي. لكن هنالك قطرة واحدة متبقية من عذوبة – وهي أنك أنت ستكابد الألم " .

ترك يد تيتو تسقط، وبعد أن رجع قليلاً للوراء قام في البداية

بإسناد يده على حجر بارز من الحائط، ثم سلت ثانية إلى وضعية الجلوس على القش. بدا واضحاً أن قفزة الغضب المتمثلة في طعنة الخنجر قد أرهقته.

لبث تيتو واقفاً. لو كانت عاطفة التوق العميق هي التي حدت به لأن يطلب غفران والده لسبّب رفضها له وخزة تحول دون تداعيات التفكير المتدفقة التي أعقبت تلك الكلمات الحاسمة. وعلى أية حال، ورغم أن حكم الكراهية غير المتبدّلة قد ضايقه وصفعه بشدة، فإن ذهنه كان يتطلع حوله مدفوعاً بغريزة حفظ البقاء كي يرى كم كانت تلك الكلمات تنطوي على قوة التهديد الملموس. وعندما جلس ليتحدث إلى بالداسار كان قال لنفسه بأنه إذا أخفق مسعاه في المصالحة فإن الأشياء ستعود إلى سابق عهدها. وأول التفاتات عقله كانت للخلف إلى تلك الفكرة ثانية، لكن احتمالات الخطر المستقبلية التي استحضرها معها في ذهنه قد حدت به لأن يدرك أن الأشياء لم تكن كسابق عهدها، وجاء الإدراك بمثابة ارتياح مفعم بالنصر. فلم يكن هناك الخنجر المهشّم فحسب، كانت هناك الحقيقة المؤكدة، ما كانت تيسا قد أخبرته به، بأن بالداسار كان مهشماً أيضاً وليس له نصل يمكن أن يطاله. شعر تيتو بأن لا خيار لديه الآن: يجب أن يتحدى بالداسار كونه إنساناً عجوزاً معتوهاً أبله. وكانت الفرص بقوة إلى جانبه بشكل لم يعد هناك مطرح للخوف. لا. باستثناء الخوف الذي يوجب القيام بأشياء كثيرة غير مستحبة كيما ينقذ نفسه مما كان حتى الآن أكثر إزعاجاً من ذلك. وأحد تلك الأشياء المزعجة يجب أن يُعمل في الحال: كان صعباً

جداً.

قال: " هل في نيتك البقاء هنا؟ "

قال بالداسار بمرارة: " لا. تريد أن تطردني ".

قال تيتو: " ليس هكذا. مجرد سؤال ".

" إني أقول لك، لقد طردتني. إذا كان القش لك فقد طردتني عنه منذ ثلاث سنوات ".

قال تيتو: " إذن، تنوي مغادرة هذا المكان؟ "، وهو قلق لهذا اليقين أكثر من قلقه على الأساس الذي استند إليه.

قال بالداسار: " لقد قلت ".

استدار تيتو وعاود دخول البيت. كانت مونا ليزا تنود. توجه إلى تيسا ووجدها تبكي بجانب طفلها.

قال بعد أن جلس وتناول رأسها بين يديه: " تيسا، ما لك وللبكاء، أيتها الإوزة الصغيرة، واصغي إلي ".

رفع ذقنها للأعلى حتى تراه وهو يتكلم بكل جلاء وتوكيد.

"يجب ألا تتحدثي إلى العجوز ثانية.إنه عجوز معتوه، وهو يريد أن يقتلني. لا تتحدثي إليه أبداً أو تصغي إلى ما يقوله ثانية ".

كفت تيسا عن البكاء، وشحبت شفتاها من الهلع.

همست قائلة: " هل غادر؟ "

" سيغادر. تذكري ما قلته لك ".

قالت تيسا شاعرة بالذنب: " أجل. لن أتكلم أبداً مع غريب بعد الآن ".

أخبرها، كي يخفف عنها، بأنه سيعود غداً. ثم توجّه إلى مونا ليزا لتقريعها بعنف لسماحها لرجل خطر بالتردد على البيت.

شعر تيتو أن هذه كانت مهامّ مقيتة. كانت هذه لقيمات في مذاقها شر مستطير، لكنها أقحمت عليه. سمع مونا ليزا توصد الباب وراءه، وابتعد، دون أن ينظر صوب باب الزريبة المفتوح. شعر بالأمان لأن بالداسار سيغادر، ولم يتمكن من الانتظار ريثما يراه يغادر. حتى جسده الفتي وروحه المرنة تهشما بفعل الهزات التي تتوجت بهذه الأمسية الوحيدة.

كان بالداسار ما يزال جالساً على القش عندما مرّ طيف تيتو. وأمامه استقرت قطع الخنجر المكسور، وبجانبه كان يرقد الكتاب المفتوح الذي كان يتملاّه دون طائل. بدت هذه الأشياء رموزاً ساخرة تشهد على عجزه الكلي. وكان جسمه ما يزال يرتعش جداً بشكل تعذّر عليه النهوض والمغادرة.

لكن في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، عندما تلصصت تيسا بقلق من خلال الفتحة الموجودة في مصراع نافذتها، ألفت باب الزريبة مفتوحاً، والعجوز الغريب كان قد رحل.

الفصل الخامس والثلاثون
ما كانت تفكّر به فلورانسة

مرّت عدة أيام لم ير تيتو رومولا خلالها إلا لماماً. قال لها صبيحة اليوم التالي بكل لطف إنه خير لها أن تنقل من المكتبة أشياءها الصغيرة، فالوكلاء قادمون ليوضّبوا العاديات. ثم اقترح عليها، بعد أن انحنى ليقبلها على الجبين، أن تبقى في غرفتها الخاصة حيث كان المعبد الصغير المزين بالرسوم، وحيث كانت آنئذ جالسة، حتى تكون بمنأى عن الجلبة الناجمة عن أقدام غريبة. أذعنت رومولا بصمت دون أن تبدر منها إشارة على أي انفعال: لقد سهرت الليل بطوله، وبالرغم من صحتها الجيدة فقد تحوّل الإحساس إلى ألم متبلّد متصل، كما لو أنها تلقت صدمة ورضوضاً. خمّن تيتو أنها تشعر بتوعك في الصحة، لكنه لم يجرؤ على قول أي شيء آخر. لم يتجرّأ، بعد أن شعر ببرودة يدها وجبينها الشديدة، إلا على إحضار رداء فروي وتدثيرها به برفق. وعندما كان يعود إليها في الفواصل الوجيزة كان يلفى المشهد تقريباً هو هو: حاول أن يسترضيها عن طريق فعل أو كلمة حنان لا تبدو في غير محلها، ومن جهتها فقد بدت وكأنها فقدت القدرة على الكلام معه، أو النظر إليه. قال لنفسه " الصبر! " ستتعافى منها، وتصفح أخيراً. دون ريب إن الرابط الذي يربطها بي ما يزال هو الأقوى ". عندما يتباطأ الشخص المضروب في إبلاله، ويبدو كما لو أن شيئاً لم يحدث، ينسل الضارب بسهولة ليتخذ وضعية الطرف

المظلوم،فهو لا يشعر بأية رضوض هو نفسه، ويكون جدّ منتبه لسلوكه الودود منذ أن أنزل الضربة. لكن تيتو لم يكن ميالاً بطبعه للشعور بأنه مظلوم . كان عقله يميل دائماً نحو الاسترضاء، وكان على استعداد لتحمّل الكثير مقابل شعوره بأن يد رومولا قد عادت لتستقر على رأسه، كما فعلت صبيحة ذلك اليوم عندما أحجم أولاً عن النظر إليها.

لكنه لم يجد صعوبة كبيرة في الانتظار بصبر ريثما تعود هناءته البيتية لأن حياته خارج المنزل أخذت تزداد متعة شيئاً فشيئاً بالنسبة إليه. إن مساراً سلوكياً هو، بالمعنى الدقيق للكلمة، فرع ناجم عن كامل الشخصية تمّ إعداده ببطء يبقى قابلاً، وبشكل دائم تقريباً، للتقفي وصولاً إلى انطباع وحيد يشكل نقطة نشوئه الواضح. ومنذ تلك اللحظة في ساحة الكنيسة (بياتزا ديل دومو) عندما اعتلى تيتو حزم البالات الضخمة وتذوق طعم سعادة عارمة من جرّاء شعوره بمقدرته على دغدغة أسماع الناس بأية عبارات تفرحهم، كان خياله يتوجه دائماً صوب نوع من النشاط السياسي كان من الجائز جداً أن توفره له الحياة العامة المضطربة في فلورانسة. لكن الخوف المستجد من بالداسار الذي استيقظ في اللحظة نفسها قد اعترض ذلك المسار كعائق صخري لا يتزحزح، وحثّه على بيع المكتبة على سبيل التحضير لضرورة قد تنشأ تحتّم مغادرته فلورانسة في الوقت نفسه الذي كان بدأ يشعر فيه بأنها تنطوي على جاذبية جديدة بالنسبة إليه. ذلك الخوف قد زال الآن تقريباً: يجب أن يبقي على ارتدائه للدرع، يجب أن يعدّ نفسه لمطالب محتملة تستدعي برودة أعصابه وبراعة من جانبه، لكنه لم يشعر بأنه

مـرغم علـى اتخـاذ الخطـوة غيـر المريحـة بوجـوب مغادرتـه فلورانسـة والبحث عن حظوظ جديدة. لقد رفض والده الكفارة المعروضة – وأجبره على سلوك سبيل التحدي، وكرجل عجوز في مكان غريب وفاقد الذاكرة كان ضعيفاً بما فيه الكفاية لكي يواجَه بالتحدي.

أخذت رغبات تيتو الضمنية تتشكل حالياً في شكل أفكار جد واضحة. وحيث إن نضارة العاطفة الفتية قد بهتت فقد أخذت الحياة تكتسي بالنسبة إليه، وعلى نحو يزداد جدية شيئاً فشيئاً، مظهر لعبة اختلطت فيها المهارة والفرصة على نحو محبب.

على أن اللعبة التي قد تُلعب في فلورانسة انطوت على وعد بأن تكون سريعة ومثيرة. كانت لعبة النضال الحزبي والثوري، حيث من المؤكد أن تشمل الكثير من ذلك العمل غير المعلن الذي تكون فيه البراعة اللمّاحة والقادرة على التخلص من كل الاعتقادات المزعجة باستثناء " الزنجبيل حرّيف في الفم "(1)، مؤهلة لتتبيّن طريق الحكمة العليا.

لم يكد الضيوف الفرنسيون يرحلون حتى اعترى فلورانسة هياج أشبه بما يحدث في مستعمرة للنمل عندما يزول شبح مزعج، ويصبح المخيم بحاجة للإصلاح. " ما السبيل لجمع المال للملك الفرنسي؟ ما السبيل لإدارة الحرب مع وجود أولئك المتمردين العنيدين في بيزا؟ وفوق كل هذا، ما سبيلنا لتحسين خطتنا في الحكم كي نقع على أفضل الطرق لاختيار قضاتنا والاقتراع على قوانيننا؟" وإلى حين الإجابة على كل تلك الأسئلة تبقى التجارة عرضة للركود، وذلك العدد الضخم

من العاملين الذين لم يعتبروا مواطنين وحرموا حتى من حق التصويت الذي يفيد كمسكّن لمعدهم (ج معدة)سيعيل صبرهم على الأرجح. يجب القيام بشيء ما.

في البدء قُرع الجرس الضخم لدعوة المواطنين لاجتماع برلماني يعقد في ساحة السينوريا. وعندما احتشد الجمهور يحيط بهم رجال مسلحون من المنافذ كافة، خرج أعضاء السينوريا (أو الغونفالونيون (أي القادة حملة الرايات) وثمانية رؤساء أديرة للوقت الحالي) ووقفوا بجانب الأسد الحجري على المنصة أمام القصر القديم، واقترحوا أن يتقلّد عشرون من زعماء المدينة سلطات مطلقة سيختارون بموجبها، ولمدة عام، كل القضاة، وينظمون هيكل الحكومة. صرخ المواطنون معلنين موافقتهم وشعروا بأنهم هم من سينتخب العشرين. كان هذا النوع من " البرلمانات " طريقة فلورانسية قديمة جداً تبدو فيها رغبة الأقلية وكأنها خيار الأكثرية.

وسرعان ما خمد الصياح في الساحة، لكن ذلك لم ينطبق على المداولات داخل القصر: هل سيكون لفلورانسة مجلس أعلى على الطريقة الفينيسية، حيث تنتخب شريحة واسعة من المواطنين من عمر معين ومؤهلات مؤكدة كل مسؤولي الحكومة وتقترع على كل القوانين، دون سؤال عن مرتبة أو حزب؟ أو، هل ستحكم على أساس خطة أضيق وأقل جماهيرية يكون فيها التأثير المتوارث للعائلات النبيلة أقل عرضة للغش من جرّاء اختلاطه بأصوات أصحاب المحال التجارية. جادل دكاترة القانون يوماً بعد يوم، وإلى ساعة متأخرة من الليل. طرح

السيد باغولانتوننيو سوديريني ما زعم أنه أسباب وجيهة لصالح الخطة الجماهيرية. أما السيد غيدأنطونيو فيسبوتشي فقد طرح أسباباً لا تقل عنها وجاهة لصالح صيغة أكثر أرستقراطية. كانت المسألة مسألة سلق أو شي، تلك التي حكمت عليها مسبقاً حلوق المتجادلين، وكان يمكن للجدل الممتاز أن يستمر إلى مدة طويلة دون التوصل إلى نتيجة أخرى تعدو تأجيل الطهي. وقد وافقت أغلبية الحاضرين داخل القصر، نظراً لإمساكهم من قبل بزمام السلطة، فيسبوتشي الرأي، وكانوا يرون أن التغيير يجب أن يتم باعتدال. أما الغالبية خارج القصر، والتي خبرت قليلاً من السلطة وكثيراً من المعاناة، فكانت أقل خوفاً من حدوث التغيير.

أما خارج القصر فقد وجدت قوة تميل بالتدريج لإعطاء الرغبات الغامضة لتلك الغالبية طابع الإرادة المصممة. وقد تمثّلت هذه القوة في وعظ سافونا رولا. ولئن كان مدفوعاً جزئياً بالضرورة الروحية الملقاة على عاتقه لهداية الناس، وجزئياً بمبادرة المواطنين الذين لا يستطيعون اتخاذ أية إجراءات دون مساعدته، فقد كان في عظاته اليومية ينتقل بسرعة من العام إلى الخاص – من إخباره مستمعيه بأنهم يجب أن يؤجّلوا عواطفهم واهتماماتهم الخاصة خدمة للمصلحة العامة، إلى إخبارهم بدقة أي نوع من الحكومات يجب أن يتوافر لديهم حتى يرتقوا بتلك المصلحة – من " اختر ما هو أفضل للجميع " إلى " اختر المجلس الأعلى " و" المجلس الأعلى هو إرادة الله ".

بالنسبة لسافونا رولا كانت هذه الأشياء جيدة كما الاقتراحات

المشابهة. لقد شكّل المجلس الأعلى الخطة العملية والوحيدة المعبرة عن إرادة الجماهير بشكل كبير يكفي للتصدي لتأثير مصالح الأحزاب المفسد: كانت خطة ستجعل العمل العام الموضوعي الشريف، على الأقل، ممكناً. وكلما صارت حكومة فلورانسة أنقى – كانت بمأمن أكبر من مكائد أولئك الناس الذين رأوا مصلحتهم الخاصة تتمثّل في الحطّ الأخلاقي من شأن زملائهم – كان اقتراب الشعب الفلورانسي من طابع مجتمع نقي جدير بأن يقود المسيرة لتجديد الكنيسة والعالم أكبر. ولم يقصّر عقل الأخ جيرولامو عن بلوغ ذلك الهدف الأكثر سمواً مما عداه: فالأهداف التي شعر أنه يعمل على تحقيقها كانت تتصف دائماً بالروعة الأخلاقية ذاتها. لم يكن عنده أي حقد خاص – لم يسع إلى إشباع رخيص.حتى في الأيام المريعة الأخيرة، عندما كان الخزي، والعذاب، والخوف من العذاب، قد كشف كل نقطة ضعف خفية في نفسه، استطاع أن يقول لقضاته الملحاحين: " لا تستغربوا إذا بدا لكم أنني لم أفصح إلا عن أشياء قليلة، ذلك لأن أهدافي قليلة وعظيمة " (2)

الفصل السادس والثلاثون
أريادن تنزع التاج عن رأسها

مرت أكثر من ثلاثة أسابيع قبل أن تحزم جميع محتويات المكتبة وتنقل. وعوضاً عن أن تغلق عينيها وتسدّ أذنيها قامت رومولا بمراقبة العملية. فالإنهاك الذي يعقب الانفعال الشديد يكون مؤهلاً لأن يسبب ارتياباً حالماً بواقعية السبب الذي أدّى إليه. وفي المساء، بعد انصراف العمال، تناولت رومولا مصباحها اليدوي وجالت على مهل وسط فوضى ما تخلّف من قش وصناديق خشبية، متوقفة عند كل قاعدة تمثال خاوية، وكل شيء مشهور مطروح على الأرض، تحدوها الرغبة المريرة بأن تؤكد لنفسها أن هناك من الأسباب ما يكفي ليفسّر سبب ضياع حبها ولمَ أصبح العالم قاحلاً بالنسبة إليها. ورغم ذلك، مع حلول الأماسي، كانت تذهب المرة تلو المرة . لم يعد ارتياد المكان بقصد التأكد، بل لأن هذا الانتعاش للألم واليأس بخصوص ذكرى والدها شكّل أقوى حياة تبقّت لمشاعر المحبة لديها. وفي يوم الثالث والعشرين من كانون الأول علمت أن آخر الطرود قد جاء دور رحيله. هرعت إلى الشرفة أعلى السطح كي لا تضيع عليها آخر غصّة تشعر بها عند رؤية العجلات البطيئة تعبر الجسر.

كان يوماً غائماً قريباً من أوان الغسق. كان نهر آرنو يجري أسود ومرتعشاً. والتلال يكتنفها الحزن، وفلورانسة بأبراجها الحجرية التي تزنّرها تبدو صامتة كالقبور، كما تبدو من عل المدينة التي يظللها ظل

متصل. وكانت سانتا كروتشه، حيث يرقد والدها، تتشح بالسواد وسط تلك الظلمة، وتتسلق الجسر متمهلة، وتتلاشى تدريجياً أعلى الشارع الضيق ; كانت الثقل الأبيض، أشبه بقدر ظالم متأنٍّ يحمل معه بعيداً أمل العمر عند والدها ليدفنه في مقبرة مغمورة. شعرت رومولا بأنها تشاهد هذا بنفسها دون أن يشعر به والدها الممدد العاجز المحتجز تحت حجارة القبر، وحيث لا تستطيع يدها أن تلامس يده لتخبره أنه لم يكن وحده.

وقفت صامتة حتى بعد اختفاء الحمْل عن الأنظار، عديمة الإحساس بالبرد، ولا يهدئ روعها سوى الكآبة التي بدت تكتنفها مثل ثوب حداد يحجب نشاز الفرح. آنئذ، وعلى حين غرّة، صدح الجرس العظيم في برج القصر بدويٍّ يصمّ الآذان: ليس صوت الإنذار المتقطع كضرب المطرقة لكنه دوي نصر مضطرب . وعلى ما يبدو فقد تلقّفت الأجراس في كل الأبراج الأخرى، الواحد تلو الآخر، الارتجاج وانضمت إلى الجوقة. وما إن تزايد صداح الجوقة شيئاً فشيئاً حتى بدا وكأن الجو كله قد تجسّد صوتاً– انطلقت ألسن لهب صغيرة، أصابتها عدوى الارتجاج أيضاً، كما لو أن الصوت قد اشتعل، بين أبراج القصر وعلى الأبراج المحيطة به.

ذلك القرع المفاجئ، ذلك النور المتقافز، سقط على رومولا كجراح حادة. لقد كان انتصار العفاريت وهي تحتفل بنجاح خيانة زوجها وغدره، وإقفار حياتها. منذ ما يربو قليلاً عن ثلاثة أسابيع كانت تنتشي بصوت تلك الأجراس عينها. وفي فرح فلورانسة كانت قد سمعت

نبوءة فرحها هي. لكن الفرح العمومي بدا لها الآن قاسياً: كانت تقف وحيدة نائية عن الحياة العامة – تلك الفلورانسة التي كانت تصدح بابتهاجها المدوّي لتصمَّ مسامع الأسى والوحشة. لن تستطيع أبداً بعد الآن أن تتحد مع الفرح ثانية، بل فقط مع أولئك الذين يشملهم الفرح بنسيانه تماشياً مع طبيعته القاسية. وفي مرارتها شعرت بأن كل ابتهاج هو زيف. كان الناس يصرخون (1) pæans وأرواحهم مثقلة، ومن ثم ينظرون في وجوه جيرانهم ليروا ما إذا كان هنالك فعلاً شيء اسمه الفرح. فقدت رومولا إيمانها بالسعادة التي تعطشت يوماً لها: كانت شيئاً كريهاً، مبتسماً، ناعم الملمس، يحمل قلباً ضيقاً وأنانياً.

أسرعت نازلة من الشرفة، ويداها تضغطان على أذنيها. وأخذت تجتاز بسرعة الغرفة الأمامية، وإذا بالجفلة تعتريها للقاء زوجها غير المتوقع، والذي أتى للبحث عنها.

كانت خطوته مرنة، وكان يظهر عليه ألق رضى غير معهود.

قال: " ما الأمر! هل كانت وطأة الضجة شديدة عليك؟ "، ذلك أن رومولا، عندما جفلت لمرآه، ضغطت بيديها على أذنيها بشدة أكبر. أمسكها بلطف من رسغها، وشبك ذراعها بذراعه، وقادها إلى الصالون المزدان بالحوريات الراقصات والفونات (آلهة الحقول والقطعان عند الرومان–م)، ثم طفق يتحدث قائلاً: " لقد جنّت فلورانسة لتشكيلها مجلسها الأعلى، مما سيضع حداً لكل الشرور تحت الشمس، ولا سيما رذيلة الاحتفالات. تبدو عليك الصدمة، يا حبيبتي رومولا، كما أنك باردة. يجب ألا تبقي تحت تلك الشرفة التي تعصف بها الريح إلى

ساعة متأخرة دون دثار كافٍ. لقد جئت لأخبرك بأنني استدعيت فجأة إلى روما لشأن علمي يخص برناردو روسيلي. أنا مسافر على الفور، ذلك أن من المقرر أن ألحق بجماعتي في سان غاجيو هذه الليلة حتى نتمكن من الانطلاق في الصباح الباكر. لا لزوم للتسبب بمضايقتك. لقد وضبت حقائبي من قبل. لن يطول أمد سفري".

كان يعلم أنه ما كان ليتوقع منها سوى التحمّل الصامت لما قاله وفعله. حتى إنه لم يجرؤ على تقبيل جبينها هذا المساء، بل قام فقط بضغط يدها إلى شفتيه، وتولّى عنها (2).شعر تيتو أن رومولا امرأة تأبى الصفح أكثر مما كان تخيّلها. فحبها لم يكن تلك الغريزة الحلوة المتشبثة، الأقوى من كل الأحكام والذي، كما أخذ يتضح الآن، شكّل الفتنة العظيمة للزوجة. ومع ذلك، فهذه البرودة المتحجرة لأفضل من معارضة انفعالية عبثية. هذا ولم يعق كبرياءها وقدرتها على رؤية أين تكون المقاومة عديمة الجدوى أي عائق .

لكن عندما أغلق الباب وراء تيتو فقدت رومولا مظهر السكون البارد الذي كان يعتريها كما الجليد المحتوم كلما اقترب منها. فداخلياً كانت أبعد ما تكون عن حالة التحمّل الصابر، والأيام التي انصرمت منذ المشهد الذي فرّقهما عن بعض كانت أيام التخطيط والاستعداد النشط لتنفيذ هدف ما.

كان أول شيء فعلته الآن هو دعوة ماسو العجوز إليها.

قالت بلهجة مصممة: " ماسو. غداً صباحاً سنسافر. سيكون بمقدورنا الآن أن نلحق بأولى قوافل الأقمشة أثناء انتظارهم في سان

بييرو. رتّب أمر البغلين هذه الليلة، وكن مستعداً للانطلاق بهما عند الفجر، وانتظرني في تريسبيانو ".

كانت تنوي أن تأخذ ماسو معها حتى بولونا، ومن ثمّ تعيده محمّلاً برسائل لعرّابها ولتيتو، قائلة لهما إنها رحلت ولا تنوي العودة. كانت قد خططت رحيلها بكل سرية، وبشكل يكون معه حبها وحياتها المهشمين بمنأى عن عيون الفضوليين. كان برناردو ديل نيرو غائباً في فيلته، حيث رغب في الهروب من الهواجس السياسية إلى مهنته الأثيرة وهي العناية بأرضه، وكانت دفعت له الدين بدون أن تقابله شخصياً. حتى إنه لم يعرف أن المكتبة قد بيعت، وتُرك لتخمينه بأن ثروة لا بأس بها أتت على غير توقّع قد مكّنت تيتو من جمع المبلغ. أما ماسو فلم يتجاوز ائتمانها له حد المعرفة بأن سفرتها المزمعة يجب أن تبقى سراً. وكان التنفيذ الدقيق لما تأمره به أكثر شيء يحرص عليه في أرذل عمره.

لم تعتزم رومولا أن تأوي إلى فراشها تلك الليلة. وعندما أوصدت الباب أخذت شمعتها إلى حيث الصندوق المنقوش بالرسوم والزخارف الذي كان يحوي ثياب عرسها. كان بداخله الحرير الأبيض والمذهب، والنقاب الأبيض الطويل والعقد اللؤلؤي الدائري. عندما نظرت إلى هذه الأشياء تصاعدت في داخلها شهقة من الأعماق: ذلك أن هذه الأشياء بدت بمثابة كَفَن لسعادتها البائدة. وفي طيّة ذهبية صغيرة من العقد الدائري كانت ترقد خوخة مجففة – وهي قطعة من زخات قطع الحلوى التي رشقوها عليهما: كان تيتو أول من اكتشفها،

وقال بأنها يجب أن تبقى هناك على الدوام . في لحظات بعينها – وهذه كانت إحداها – عادت برومولا موجة مفاجئة من الذكرى إلى أيام الثقة التامة، وشعرت ثانية بوجود الزوج الذي جعل حبه العالم نضراً ورائعاً بالنسبة لها كما بالنسبة لطفل صغير يجلس ساكناً وسط الأزهار المشمسة: سمعت النغمات اللطيفة ورأت العينين الرخيتين دون أي كذب فيهما، وتنفست ثانية تلك الحرية الكبرى للروح والتي تأتي من الإيمان بأن الكائن الأقرب إلينا هو أعظم من أنفسنا. وفي تلك اللحظات الوجيزة لم تنفكّ العبرات عن الانهمار: بدت محبة المرأة شيئاً يشبه شعور الأم الثكلى عندما ترقد الأصابع الصغيرة دافئة على صدرها، ومع ذلك فهي كالرخام على شفتيها عندما تنحني فوق السرير الصامت.

لكن الصندوق كان يحوي بداخله شيئاً آخر غير ثياب العرس: كان شيئاً أسود وخشناً، ملفوفاً في شكل ربطة محكمة. رفعت بصرها عن الأبيض والذهبي إلى الصرة السوداء، وعندما لامست يدها القماش الصوفي الخشن بدأت تلجم دموعها. فتلك الخشونة القاسية أعادتها بشكل كامل إلى الحاضر الذي زايله الحب والهناء. فكّت الخيط الأبيض السميك وفتحت الصرة على الطاولة. كانت عبارة عن ثوب رمادي من صوف خشن لأخت راهبة تنتمي إلى الرتبة الثالثة في رهبنة سان فرانسيس، تعيش في العالم لكنها تكرّس نفسها لأفعال التقوى – شخصية درج الفلورانسيون على تسميتها ب: بينزوتشيرا Pinzochera.كانت رومولا تنوي ارتداء هذا الثوب على سبيل التنكر،

وقد صممت على ارتدائه على الفور، فإذا ما احتاجت لبعض النوم قبيل الصباح فإنها تكون جاهزة تماماً للرحيل عند استيقاظها. خلعت معطفها الأسود وعندما دفعت بذراعيها البيضاوين الناعمتين في الكمين الخشنين للرداء الصوفي الخشن وشعرت بالزنار القاسي يؤلم أصابعها عندما ربطته استرجعت تلك الأحاسيس القاسية: فقد كانت (الأحاسيس) متماشية مع احتقارها المستجدّ لذلك الشيء الذي يدعى السعادة والذي يجعل الناس أنذالاً –تلك الحيلة البارعة للاطمئنان الأناني، ذلك الإحجام عن التحمل والشدة، عندما يكون الآخرون ينوءون تحت أحمال أكبر من طاقتهم، أشياء شكّلت الآن مع زوجها صورة واحدة.

بعدئذ جمعت شعرها الطويل، وسحبته عن وجهها شادة إياه، وربطته في شكل كعكة متينة في مؤخرة رأسها، وبعد تناولها قطعة مربعة من الحرير الأسود، قامت بربطها على شكل منديل يزنّر رأسها ويمر تحت ذقنها. وفوق ذلك كله وضعت الغطاء. رفعت الشمعة إلى المرآة. بالتأكيد سيكون تنكّرها كاملاً لأي شخص لم يسكن بجوارها. بالنسبة لنفسها بدت على نحو غريب مثل أخيها دينو: الشكل البيضاوي للوجنة ما عليه سوى أن يكون نحيلاً، العينان المجللتان بالحزن من قبل، كان عليهما فقط أن تغورا قليلاً. هل بدأت تشبهه أكثر فأكثر في أشياء أخرى؟ فقط في هذا، لقد فهمت الآن كيف أن الناس يمكن أن يدفعوا للهرب بعيداً وللأبد عن المتع الدنيوية، كيف يدفعون للتركيز على صور الأسى أكثر من صور الجمال والفرح.

لكنها لم تتلكأ عند المرآة: انطلقت تجمع وتحزم كل بقايا والدها

وأمها التي كانت أكبر من أن تنقل في حقيبة سفرها الصغيرة. فقد عزمت أن تضع هذه الأشياء جميعها في الصندوق إلى جانب ثياب عرسها، وسيودع الصندوق عند عرّابها عندما تكون قد رحلت بأمان. أولاً وضعت الصور، ثم وُضع، واحداً تلو الآخر،كل شيء صغير التصقت به ذكرى مقدسة، إما داخل حقيبتها الصغيرة أو داخل الصندوق.

توقفت. كان هناك شيء آخر سينزع منها ينتمي إلى ذلك الماضي الذي كانت ستدير له ظهرها للأبد. وضعت إبهامها وسبابتها على خاتم خطبتها. لكنهما بقيا هناك، دون أن ينزعاه. كان تفكير رومولا يتدفق تياراً مندفعاً صوب هذا الفعل الذي كانت تتأهب له: فعل هجرها لزوج خيّب كل ثقتها، فعل فك رباط خارجي لم يعد يمثل رباط الحب الجوّاني. لكن تلك القوة من الرموز الخارجية التي توحّد حياتنا الفاعلة حتى تشكّل لنا هوية خارجية صلبة، لا يهزها شعورنا المتردد، قد أعطت تأثيراً غريباً لهذه الحركة البسيطة التي تهدف إلى نزع خاتمها– حركة لم تشكّل سوى نتيجة صغيرة لعزمها القوي. لقد أعطت إحساساً غامضاً لكن استحواذياً بأنها كانت تشق على نحو عنيف نوعاً ما حياتها إلى نصفين: حدس داخلي بأن الدافع القوي الذي بدا أنه يستبعد الشك ويرسم لها الطريق بوضوح قد يكون في نهاية المطاف عمىً، وأن هنالك شيئاً ما في الروابط البشرية لا بد أنه يحول دون انقطاعها مع انقطاع الأوهام.

وإذا لم يكن ذلك الحبيب تيتو الذي وضع خاتم خطوبتها

على إصبعها بأي معنى مقبول تيتو نفسه الذي توقفت عن حبه، فلماذا تعيد إليه شارة اتحادهما، ولا تحتفظ به كتذكار؟ وهذا الفعل، الذي أتى كبرهان صريح على هويتها وهويته، كان له قوة لا تفهمها هي، قوة هزّت كيان رومولا. إنه الطريق بنصف الحقيقة ذاك الذي نعيش وسطه، حتى إنه يلازمنا كالأشباح ويسبب خلجات رتيبة لا تصير أبداً إلى صوت. لكن كان هناك صوت مفعم بالعاطفة يتحدث بداخلها أتى في الحال على كل تلك التمتمات المكبوتة.

" لا يمكن ذلك! لا يمكن أن أكون أَمَته. إنه مرائي. أنا أنفر منه. أحتقره! "

انتزعت الخاتم من إصبعها ووضعته على الطاولة قبالة القلم الذي قصدت أن تكتب به. مرة ثانية شعرت بأنه لا يوجد أي قانون أمامها سوى قانون عواطفها الحادبة. ذلك الحنان والشعور المماثل المفعم بالحب نحو القريبين والمحبوبين والذين هم الثمرة الرئيسة للعواطف الحادبة، قد صاغا ديانةَ حياتها: لقد جعلاها صبورة بالرغم من اندفاعها الطبيعي. كانا سيكفيان ليجعلا منها بطلة. لكن كل تلك القوة قد تلاشت الآن، أو، بالأحرى، تحولت إلى قوة صدّ. لقد انكفأت عن تيتو بما يتناسب وطاقة ذلك الإيمان والحب الحديثي النشأة اللذين خيبهما، وطاقة الولاء الأبدي لوالدها والذي ارتكب بحقه إساءة لا تغتفر. وبدا كما لو أن كل الدوافع قد أفلتت منها، باستثناء السخط والازدراء اللذين جعلاها تتخلى عنه تماماً .

لم تكن تتصرف اقتداء بأية سابقة، أو إطاعة لأية حكم مأثورة

تبنّتها. فالصرامة القاسية للفلسفة الرواقية التي حرص والدها على أن يغرسها فيها كانت مألوفة جداً على مسامعها وشفتيها، وروحها (الفلسفة) المتعالية قد أرجعت أصداء معينة بداخلها. لكنها لم تستعملها قط، لم تحتجها قط كناموس في الحياة. لقد تحملت وصابرت لأنها أحبت: الحكم المأثورة التي أوصتها بأن تشعر أقل مما تشعر، وألا تتشبث كثيراً لئلا يصدها مسار الطبيعة الأم المتواصل، قد كانت عديمة الفعالية والتأثير على رقتها مثلما كانت عديمة الفعالية على توق والدها للشهرة المنصفة.لم تنتحل أية نظريات: لقد شعرت ببساطة بقوتها في قوة المحبة، والحياة دون تلك الطاقة جاءتها كمشكلة جديدة بالكامل.

كانت بصدد حل المشكلة بطريقة بدت لها بسيطة جداً. حتى الآن لم ينحن عقلها قط لأي التزام باستثناء الحب والتوقير الشخصيين. لم يكن عندها إحساس حاد بأية علاقات بشرية أخرى، وكل ما كان عليها أن تطيعه الآن هو غريزة فصل نفسها عن الرجل الذي لم تعد تحب.

ومع ذلك كان يرافق العزم الذي لا يلين فترات من الكرب دائمة التغير. والآن بعد أن استكملت، أو تكاد، التحضيرات العملية لرحيلها، تباطأت: لقد أخّرت كتابة كلمات الفراق عن كل عالمها الصغير والتي لا رجوع عنها. بدت انفعالات الأسابيع الماضية تتدفع ثانية بسرعة لا ترحم، وتستولي حتى على أوصالها. كانت على أهبة الكتابة لكن يدها سقطت. انهمرت دموع مرّة للوهم الذي أصاب سنواتها

الحديثة العهد: دموع تختلف جداً عن نشيج السعادة المستذكرة التي نظرت بها إلى عقد اللؤلؤ وحبة الفاكهة الوردية اللون. والآن شعرت بخجل واخز لكلمات الخزي التي قذفت بها تيتو – " هل سرقت أحداً آخر لم يمت بعد؟" إن حقيقة أن تكون هذه الكلمات قد عصرت منها – أن تكون وجهتها لزوجها بدت سقوطاً مخزياً لمجمل حياتها. فالكلام القاسي المتبادل بين من تبادلوا الحب له وقع مرعب في الذاكرة، مثل منظر العظمة والجمال عند إيالهما إلى الرذيلة والمنظر المزري.

تلك المقارنة التي تقطع نياط القلب بين الحاضر والماضي فرضت نفسها على رومولا حتى وصلت إلى حد تحوّلها إلى أحاسيس تعيسة: بدت وكأن فيها خدراً نحو أي شيء إلا الخلجات الداخلية، وبدأت تشعر بالحاجة للتواصل الملموس. شدت يديها على امتداد الحبل الخشن المعقود الذي تدلى من خصرها. نهضت واقفة وأمسكت غطاء الصندوق الخشن: لم يكن هناك شيء آخر للبحث عنه في الداخل؟ لا. أغلقت الغطاء وهي تضغط بيدها على النقوش الخشنة، وأقفلته.

ثم تذكرت أن عليها أن تستكمل عدتها كونها بينزوتشيرا (راهبة من مرتبة ثالثة:انظر سابقاً – م). المحفظة الجلدية الكبيرة أو السكارسيلا، وفيها بعض النقود الصغيرة، توجب تعليقها على الحبل عند الخصر (فلوريناتها ومجوهراتها الصغيرة، وهي هدايا من عرّابها وابنة عمها بريجيدا كانت مثبتة بكل أمان داخل عباءتها الصوفية)– وعلى الجانب الآخر يجب تعليق السبحة .

لم يخطر ببال رومولا، عندما علّقت تلك السبحة على خصرها، أن شيئاً آخر غير الرداء ربما ستدعو الحاجة إليه كي تستطيع أن تفلح في تنكرها، مثل بينزوتشيرا، وأن كامل قيافتها وتعبيرها شكّل أقل شبه ممكن بأخت تعودت أن تطرق ببصرها إلى الأرض، وتعودت شفتاها أن تتمتما بتكرار صامت.فقلة خبرتها منعتها من تصوّر التفاصيل البعيدة، وساعدت شجاعتها الأبية على حجب أية هواجس بالخطر والإهانة. لم تسمع بوجود امرأة فلورانسية واحدة فعلت قط ما كانت تنوي أن تفعله: غالباً ما تجد الزوجات التعيسات ملجأهن مع صديقاتهن، أو في الدير، كانت تعلم ذلك، لكن كلا هذين المسارين كانا مستحيلين بالنسبة لها. لقد ابتكرت الكثير لنفسها – أن تذهب إلى أكثر نساء العالم ثقافة، كاساندرا فيديل، في البندقية، وتسألها كيف يمكن لامرأة متعلمة أن تعيل نفسها وهي تعيش وحيدة هناك.

لم ترهبها الصعوبات العملية التي قد تعترضها، أو الغموض المظلم عند النهاية. لا يمكن أن تعود حياتها إلى سابق سعادتها، لكن يجب ألا، ولا يمكن، أن تكون حياتها خسيسة. وعن طريق خليط مثير للشجن من الرومانسية الطفلية ومحاولاتها الأنثوية،كان للفلسفة التي لا علاقة لها بهذا الفعل الكبير الحاسم من جانبها مطرحها في تصورها للمستقبل: وبقدر ما تصورت حياتها المتوحدة الخالية من الحب فإنها رأتها وقد دبّت فيها الحركة بفعل بطولة رواقية أبية، وبفعل نية على العمل غير واضحة لكن قوية، أنها قد تكون حكيمة بما فيه الكفاية لكتابة شيء سينقذ سمعة والدها من النسيان. وفي النهاية، لم تكن سوى

فتاة شابة – هذه المسكينة رومولا، التي ألفت نفسها في نهاية أفراحها.

بقيت هناك أشياء أخرى لا بد من فعلها. كان هناك مفتاح صغير في علبة جواهر موضوعة على الطاولة – لكن رومولا لاحظت في هذه الأثناء أن شمعتها أخذت تحتضر، وقد نسيت أن تزوّد نفسها بأي ضوء آخر. في غضون بضع لحظات ستغرق الغرفة في ظلمة تامة. وبعد أن تلمّست طريقها إلى أقرب كرسي جلست تنتظر انبلاج الصباح.

هذا، وقد جعلها هدفها في البحث عن المفتاح تسترجع ذكريات داهمتها الأسبوع الماضي بالحيوية الجديدة التي توفرها لنا دائماً الكلمات المستذكرة عندما نكون قد عرفنا إسباغ معنى جديداً عليها. منذ صدمة الكشف التي بدا أنها باعدت بينها وبين تيتو للأبد، لم تبارح تلك المقابلة الأخيرة مع دينو ذاكرتها على الإطلاق لعدة ساعات متواصلة . وقد أغرتها أكثر فأكثر، ذلك أنه بينما ضغطت صورها المستعادة عليها بما يقارب قوة الأحاسيس العاتية، فإنها أثارت أفكاراً متصارعة قاومت تأثيرها. لم تنفك عن سماعها في داخلها الصوت التنبؤي المحتضر يقول مرة ثانية وثالثة – " الرجل الذي كان وجهه خواءً فكّ يدك ورحل. وبينما هو ذاهب تمكّنت من أن أرى وجهه، كان وجه الشيطان الأكبر... وأنت، يا رومولا، عصرت يديك وبحثت عن الماء ولم يكن هناك شيء منه... واستحال السهل أجرد وصخرياً ثانية، وأنت كنت وحدك وسطه. ثم بدا أن الليل جنّ، ولم أرَ شيئاً بعد ذلك ". لم تنفك عن التركيز بنوع من الإعجاب المؤلم على الوجه

المضيَّع، على النظرة المحدّقة بالصليب، على المهابة التي أرغمتها على السجود، على الكلمات الأخيرة المنكسرة ثم الصمت المتصل– على كل تفاصيل مشهد الموت، الذي بدا كنافذة مفاجئة في عالم منفصل عن عالم معرفتها المستقاة طوال حياتها.

لكن تفكيرها تحفّز على مقاومة انطباعات بدت أنها تكتسب صلابة مادية في ضوء النهار بعد أن كانت أشباحاً جلية. ومثلما يكافح الجسم القوي ضد الدخان بعنف أكبر عندما يصبح خانقاً، فإن الروح القوية تكافح ضد الأوهام بكل الطاقة المستثارة عندما تهدد بأن تعقد لها السيادة عوضاً عن الفكر.

ما هي صلة كلمات تلك الرؤيا بأحزانها الحقيقية؟ لقد كان انتظام بعض الكلمات مجرد مصادفة، والباقي كان كله ملتبساً – لا، تلك الكلمات نفسها كانت ملتبسة. لم يكن يحددها شيء بل ذكريات أخيها ومعتقداته. كان يعتقد أن شيئاً خطيراً يكمن في المعرفة الوثنية، وكان يعتقد أن العزوبية أكثر قدسية من الزواج. لقد تذكر بيتهم، وكل الأشياء في المكتبة. ومن هذه الخيوط نُسجت الرؤيا. أي مسوّغ معقول توافر لها للإيمان بهكذا رؤيا والعمل على هديها؟ لا شيء. صحيح، كما أثبت صوت النذير، أن رأت رومولا، وباعتقاد راسخ، أنها لو رفضت تيتو عملاً بتحذير كهذا لكان ذلك حماقة معدومة الحماس. كانت ثقتها مضلّلة، لكنها كانت فضّلت مرة أخرى العمل بموجبها على أن تكون بالأحرى مخلوقة تقودها الأشباح والهمسات المفككة في عالم ينطوي على موسيقى الخطاب العقلاني الرحبة، وإمساكة الأيادي الحية

الدافئة.

لكن الحضور الملحّ لهذه الذكريات، التي كانت ترتبط في خيالها بقسمتها الحقيقية، أعطاها بارقة فهمت من خلالها الحيوات التي بقيت فيما مضى بمنأى تام عن تعاطفها –حيوات الرجال والنساء الذين ساروا على هدي الصور والأصوات الجوانية.

قالت لنفسها: " ليتها كانت أقوى بقليل في داخلي مما هي إذن لكنت فقدت الإحساس بالماهية الحقيقية لتلك الرؤيا، ولكنت ظننتها نوراً نبوياً. بمرور الزمن قد أصبح عرافة الرؤى أنا نفسي، مثل سورا مادالينا، وكاميلا روسيلي، والبقية ".

ارتعشت رومولا للاحتمال. فكل التعليمات، كل المؤثرات الرئيسة في حياتها قد شرعت تعزز احتقارها للخرافة المريضة التي قادت الرجال والنساء، بعيون جد ضعيفة بالنسبة لضوء النهار، إلى الجلوس في مستنقعات مظلمة ومحاولة قراءة المصير البشري عن طريق اللهب العارض للأبخرة الهائمة.

ومع ذلك فقد كانت تشعر بشيء أعمق من تلك المصادفة في الكلمات التي جعلت اللقاء الوداعي مع أخيها المحتضر ينتعش من جديد في ذاكرتها، ويُعطي أخوة جديدة للوجه المضيّع. لو توافر الكثير من خبرته تلك في العالم لرغبت في أن تفهمها– لرغبت حتى أن تعلم أفكار الرجال الذين سقطوا منتشين أمام العذابات المصورة للشهادة. لقد بدا أن شيئاً أكثر من الجنون موجود في تلك الأخوة العليا مع الألم والمعاناة. لقد غاضت الينابيع كلها من حولها. تساءلت أي مياه أخرى

توافرت في الصحراء، مياه وردها الرجال وشربوا منها وتقوّوا بها. وتلك اللحظات في الكنيسة عندما نشجت بمزيج مبهم من الفرح والألم، بينما عرض الأخ جيرولامو نفسه كتضحية عن طيب خاطر ليفتدي الناس، عاودتها كما لو أنها كانت مذاقاً مؤقتاً لمثل هذا النبع النائي. لكنها أحجمت مرة ثانية عن انطباعات كانت تغويها داخل مجال الرؤى والمخاوف الضيقة التي أجبرت الناس على ازدراء عواطف المحبة الطبيعية كما كان دينو قد فعل.

هذه الشبكة المعقدة هي التي جالت بخاطر رومولا عندما جلست مرهقة في الظلمة. لم يأت ملاك نوراني عبر الظلمة يحمل رسالة واضحة لها. في تلك الأزمنة، كما الآن، كان يوجد كائنات بشرية لم تر الملائكة قط أو تسمع تماماً الرسائل الواضحة. مثل هذه الحقيقة التي تسنّت لهم جاءت بشكل مشوش في أصوات وأفعال أناس ليسوا إطلاقاً كملائكة السيرافيم ذوات الجناح القوي والرؤية النافذة – أناس صدّقوا الزيف كما صدّقوا الحقائق، وفعلوا الطالح والصالح. وكانت أيادي المساعدة التي امتدت إليهم أيادي أناس عثروا (من عثرت القدم –م) وغالباً ما كانت رؤيتهم ضعيفة، حتى إن هذه الكائنات التي لم تزرها الملائكة لم يكن لها خيار سوى أن تقبض على تلك الهداية المتعثرة على درب الاتكال والفعل والذي هو درب الحياة، أو خلاف ذلك تتوقف وحيدة مرتابة، وهذا ليس بالدرب، بل هو شلل عدم الفعل والموت.

وإذ لم تقع عينا رومولا على شعاع من نور يخترق سجف الظلام الدامس، وإذ هي مثقلة بصراع لم يبدّل في الأمر شيئاً، فقد استسلمت

أخيراً للنوم.

الفصل السابع والثلاثون
فتح المعبد الصغير

أفاقت رومولا على نقرة على الباب. أضاء النور البارد للصباح الباكر الغرفة، فماسو قد جاء يطلب حقيبة السفر. لم يتمالك العجوز نفسه إذ اعترته جفلة عندما فتحت الباب، وظهر أمامه، عوضاً عن الشكل العام الرشيق الذي تعوّد أن يراه، يتوّجه بريق شعرها، الطيات السميكة للمعطف الرمادي والوجه الشاحب المظلل بغطاء الرأس الأسود.

قالت رومولا وهي تحاول أن تتكلم بأكثر الأصوات هدوءاً، وتدخل الطمأنينة إلى قلب العجوز: " حسن، يا ماسو، هو ذا الكيس جاهز تماماً. اذهب بهدوء ولن أتخلف عنك كثيراً. عندما تصبح خارج مداخل المدينة أبطء في سيرك، إذ ربما ألحق بك قبل أن تصل إلى تريسبيانو " .

أغلقت الباب وراءه، ثم وضعت يدها على المفتاح الذي كان آخر شيء تناولته ليلاً من العلبة الصغيرة. وقد كان المفتاح الأصلي للمعبد الصغير المزين بالرسوم: كان تيتو قد نسي أن يلقيه في نهر آرنو، وبقي، شأنه شأن الأشياء الصغيرة، في زاوية المحفظة الجلدية المطرّزة التي وضعها على نطاقه عند ارتدائه الرداء الأرجواني. ذات يوم، بعد زواجهما بفترة طويلة، وجدته رومولا في ذلك المكان، ووضعته جانباً، دون استعماله، لكنها شعرت بالاطمئنان لكون المفتاح

في المتناول. نُقلت الخزانة التي وضع عليها المعبد الصغير إلى أحد جوانب الغرفة، قريباً من إحدى النوافذ، حيث أضاءها نور الصباح الشاحب مما جعل رومولا ترى الأشكال المرسومة بوضوح أكبر، هذه الأشكال التي كانت تعرفها حق المعرفة، –باخوس المنتصر، بعناقيده ورمحه المكسو بالعنب، يضم أريادن المتوّجة. الحبيبان ينثران الورود، الإناء وحوله الأكاليل، الدلافين ذوات العيون الماكرة، والبحر المتماوج: كلها تحفّ بها الأزهار، كتعريشة في الفردوس. نظرت رومولا إلى الصور التي لم تكن غريبة عنها بمرارة ونفور مستجدّين: لقد بدت، في هذا الصباح البارد، عندما استيقظت لتجول في الغرفة وحيدة، زيفاً يدعو للرثاء أكثر من أي وقت مضى. لم تكن هذه الأشياء قبراً من الأحزان، بل ستارة ملقاة. أريادن الحمقاء! بنظرتها الغرامية، كما لو أن ذاك الوجه الوضّاح، بضفائره الزنبقية مثل الحلائق وسط العرائش، كان يخبّئ سر حياتها العميق !

خطر لرومولا: " أريادن تغيرت بشكل عجيب. ستبدو الآن غريبة وسط العرائش والورود ".

رفعت المرآة ونظرت إلى نفسها مرة أخرى. لكنها ارتاعت جداً للمنظر الذي شاهدته في ضوء هذا الصباح الأمر الذي جعلها تنزلها ثانية يحدوها شعور بالإحجام يعادل في قوته تقريباً ذاك الذي أشاحت به عن أريادن المستبشرة. لقد أعاد لها تمييزها لوجهها يطوّقه غطاء الرأس، الخوف من أن تقحم أخيراً لتعقد صحبة مع الخرافة البائسة– صحبة المتعصبات المولولات والراهبات النائحات اللواتي كن محط

ازدرائها منذ الطفولة حتى الآن. دفعت على عجل بالمفتاح داخل قفل المعبد الصغير: وبسرعة فتحته وأخرجت الصليب دون أن تنظر إليه. ثم، وبأصابع مرتجفة، مررت خيطاً غليظاً عبر الحلقة الصغيرة، وعلّقت الصليب حول عنقها، وخبّأته في صدرة ردائها. قالت لنفسها: " لأجل دينو ".

بقي أمامها كتابة الرسائل التي سيعيدها ماسو معه من بولونا. كانت موجزة جداً. كانت الأولى تقول –

" تيتو، لقد مات حبي لك، وعليه، وبما أنني كنت حتى الآن حبيبتك، فأنا أيضاً ميتة. لا تحاول أن تلجأ إلى أية قوانين من أجل إعادتي: لن يجلب لك هذا أية سعادة. رومولا التي تزوجتها لا يمكن أن تعود. لا داعي لتوضيح أي شيء بعد الكلمات التي قلتها لك آخر مرة تحدثنا فيها مطوّلاً. إذا اعتقدت أنها كلمات قيلت في فورة غضب مؤقت ستعرف الآن أنها كانت إشارة على تبدّل لا راد له.

" أعتقد أنك ستحقق رغبتي بأن يرسل صندوق عرسي إلى عرّابي الذي قدّمه لي. فهو يحوي ثياب عرسي والصور وبقايا أخرى من أبي وأمي ".

طوت الخاتم داخل هذه الرسالة، وكتبت اسم تيتو على الغلاف الخارجي. والرسالة التالية كانت لبرناردو ديل نيرو:–

" يا أعز عرّاب، – لو كان بقائي ينفعك بأي شكل لما كنت سافرت بعيداً. لكنني راحلة الآن. لا تسل عن السبب. وإذا كنت تكنّ حبّاً لوالدي فلتحاول أن تمنع أي شخص من محاولة العثور عليّ. لم

أستطع تحمّل حياتي في فلورانسة. ليس بوسعي قول السبب. ساعدني على إخفاء قسمتي بصمت وهدوء. لقد طلبت أن يرسل صندوق عرسي لك: عندما تفتحه ستعرف السبب. أرجوك أعط كل الحاجيات التي تعود لوالدتي إلى ابنة عمي بريجيدا، وقل لها أن تسامحني لأنني لم أذكر لها شيئاً عن رحيلي.

وداعاً، يا أبي الثاني. خير ما بقي لي في هذه الحياة هو أن أتذكر طيبتك وأكون ممتنة لك.

رومولا "

وضعت رومولا الرسالتين مع الصليب داخل صدرة معطفها، وعلى أثر ذلك شعرت أن كل شيء قد اكتمل. كانت الآن جاهزة للرحيل.

لم تُسمع أية حركة في المنزل، ونزلت بهدوء كشبح رمادي على الدرج المفضي إلى الشارع الذي لفّه الصمت. كان قلبها يدق بعنف، ومع ذلك فقد استمتعت بإحساس دوستها الواثقة على الرايات العريضة– وبحركتها الرشيقة، والتي كانت بمثابة تصميم مقيد تحرّر أخيراً.لقد حوّل القلق الذي أحاط بتنفيذها فعلتها، والخوف من نشوء أية عقبة، مسار الحزن. وعندما وصلت إلى جسر روباكونتي لم تشعر أن سانتا كروتشه قد أصبحت في مرمى البصر بقدر ما شعرت أن خيط الصباح الأصفر الذي بدّد الرمادي كان يتوسع أكثر فأكثر، وأنها، ما لم تغذّ الخطا، سيتحتم عليها الالتقاء بالسابلة.

كان أبسط مسلك تسلكه يتمثّل في الذهاب مباشرة إلى

ضاحية (بورغو) بينتي، ثم تواصل الطريق بحذاء الأسوار إلى بورتا سان غالو، ومن هناك ينبغي عليها أن تغادر المدينة، وهذا الطريق سيقودها قريباً من ساحة سانتا كروتشه. لكنها سارت عبر الساحة بكل ثبات وسرعة، كما أي وقت مضى، متخوفة من أن تنظر صوب الكنيسة. كان التفكير بأن أية أعين قد تنظر ناحيتها بدافع الفضول والتعرف، وأن الأذهان اللامبالية قد تشرع في تخمين أحزانها الخصوصية، قد جعل رومولا تنكمش جسدياً كما تفعل عند تصوّرها للعذاب. شعرت بالضعة حتى من فعلة زوجها تلك والتي كانت تكابد ألمها عاجزة لا تقوى على شيء. بيد أنه لم تظهر أية بادرة على أن أية عيون قد رصدتها من النوافذ في محاولة لمعاينة هذه الأخت الطويلة القامة، الرمادية اللباس، بخطوتها الواثقة ووضعية الرأس الملفع بالغطاء الذي اتسم بالإباء. كان الطريق الذي سلكته يقع بمنأى عن جلبة حركة المرور في الصباح الباكر، وعندما وصلت إلى بوابة سان غالو وجدت العبور سهلاً لأن الجدل كان يدور حول المكوس المفروضة على سلال البيض والمنتوجات التي كانت تدخل السوق في تلك اللحظة.

خارج المدينة! ما إن تجتز رومولا منازل الضاحية حتى تلفى نفسها خارج نطاق آخر التخوم الفلورانسية، وتجد سماء رحبة تظللها، وتدخل حياتها الجديدة– حياة الوحدة والتحمل، لكن حياة الحرية. كانت قوية بما يكفي لتشق نصفين القيود التي تقبلتها بثقة عمياء: مهما يحدث لها لن تشعر بعد الآن بنسمة الشفتين الناعمتين المكروهتين دافئة على وجنتها، لن تشعر بعد الآن بنسمة نفسية كريهة تكبت أنفاس

عقلها. لقي الصباح الشتائي الأجرد، والهواء البارد، ترحيباً من جانبها: الأشجار الجرداء، التلال الكالحة، لم تعد مسكونة بآلهة الجمال والفرح، تلك التي تركت عبادتها للأبد.

وإذا بالنور ينبلج بسطوع غير متوقع، والظلال ترتسم على الطريق. بدا أن الشمس ستتعقب الغبش الكالح لتطرده. ولعل الشعور بالضوء كحضور إلهي يحرّك كل تلك الحساسيات المكتومة والتي تشكّل أعمق أعماق حياتنا، لم يكن أشد مثلما كان عليه في هذه اللحظات عندما يوقظ الظلال في وقت متزامن. إن رهبة معينة واكبت بشكل لازب هذا الفعل المشهود في حياتها غدت أكثر استشعاراً كعنصر في مشاعر رومولا عندما ألفت نفسها في الحضرة المفاجئة للمجد الذهبي غير المدرك وظل قامتها الطويل الذي لم يكن تفاديه ممكناً. وحتى هذه اللحظة لم تلتق بأحد سوى بفتاة عابرة مع بغالها. كما أن الانعطافات العديدة على الطريق على هذا المستوى حجبت عنها ماسو الذي كان يسير أمامها غير بعيد عنها. لكن عندما اجتازت ناحية بييترا وأصبحت على أرض مرتفعة رفعت الجانب المدلى من غطائها ونظرت بشوق أمامها.

أُعيد الغطاء في الحال إلى وضعه السابق. فقد شاهدت ليس ماسو، لكن – راهبين كانا يقتربان على مسافة بضع ياردات منها. وقد شكّل طرف الغطاء ستارة فوق حاجبها حجبت الأشياء فوق مستوى عينيها، ولبضع اللحظات الأخيرة لم تكن تنظر إلى شيء بل إلى سطوع الضوء على الطريق وإلى ظلها، الطويل والمجلبب مثل شبح

مرعب.

تمنت الآن لو أنها لم ترفع بصرها. لقد جعلها تنكّرها تكره بصورة خاصة الالتقاء بالرهبان: ربما توقعوا منها بعض كلمات السر الدينية التي لم تعلم عنها شيئاً. غذّت السير وهي تتظاهر بعدم الانتباه إلى أن شاهدت أطراف الأردية السود تمر بجانبها. لقد تسبب اللقاء في تسارع ضربات قلبها على نحو مقلق، فرومولا لم تكن مرتاحة لتنكرها بثياب دينية، ومع هذا التخفي المتعمّد سيكون عاراً، هذا التنكر الذي برز بوضوح أكبر مع بذل مجهود خاص للظهور بمظهر الغافلة حيث ترمقها نظرات حقيقية.

لكن الرُدُن السود ستختفي بشكل أسرع لأن أصحابها كانوا يهبطون الطريق النازل من التل. وعندما شاهدت صخراً مسطحاً ضخماً قبالة شجرة حور تسامقت من ضفة خضراء بارزة استسلمت للرغبة التي اعترتها على أثر الصدمة الخفيفة، لأن تجلس وترتاح.

أدارت ظهرها لفلورانسة، دون أن تنوي النظر ناحيتها حتى يختفي الراهبان عن الأنظار. وبعد رفع طرف غطاء رأسها ثانية عندما جلست لمحت ماسو والبغال على مسافة لم ينقطع الأمل معها بإمكانية اللحاق بهم، إذ من المحتمل أن يتريث العجوز متوقعاً أن تلحق به.

في الآن ذاته يمكنها أن تتريّث قليلاً. ذلك أنها كانت طليقة ووحيدة.

الفصل الثامن والثلاثون
العلامات السود تغدو سحرية

جاء اتخاذ قرار تلك الرحلة التي قام بها تيتو إلى روما، والتي جعلت رحيل رومولا بمنأى عن أية صعوبات، على نحو مفاجئ، في مأدبة عشاء، في المساء الذي سبقها مباشرة.

توجه تيتو إلى ذلك العشاء تحدوه آمال سارّة. على الأرجح ستكون قطع اللحم رخصة، والنبيذ من أفخر الأنواع، والشلّة مميزة. ذلك أن مكان الترويح عن النفس سيكون إما السيلفا أو أورتو دي روسيلي، أو، لعلنا نقول، جنائن روسيلي. والمضيف، برناردو روسيلي، كان نبيلاً فلورانسياً نموذجياً. إذ حتى اسم عائلته فيه مغزى رمزي على نحو ظريف: وإذا فهم في شكله الصحيح فإنه قد يستحضر أمامنا قليلاً من نبات الأشنة، ويعرف لدى العامة بـ: أورسيلا أو روسيلا، وهذا النبات ينمو على صخور الجزر اليونانية وفي جزر الكناري. وبعد تشربه للكثير من الضوء في داخل سويقاته الصغيرة وهاماته المدوّرة يعود فينشره ثانية، في ظل ظروف معينة، في شكل صباغ أرجواني مائل للأحمر، يسرّ من يراه. وعن طريق جلبه للسر الممتاز لهذا الصباغ، ويدعى أوريسلو، من بلاد المشرق إلى فلورانسة، فقد كسب تاجر معين، عاش قبل مائة سنة تقريباً من زمن صاحبنا برناردو، لنفسه ولسلالته كثيراً من الثروة، والكنية الدالّة على نحو ظريف، أوريسيلاري، أو روسيلاري، والتي سرعان ما تصبح على الألسن التوسكانية

روسيلي.

وصاحبنا برناردو (1) الذي يبرز أكثر من البقية على هذه الخلفية الأرجوانية، قد أضاف كل أنواع التميّز على اسم العائلة: فقد تزوج أخت لورينزو دي ميديتشي، وأقيم له أروع عرس سجّل في تاريخ الأثاث الفلورانسي. ونظراً لهذه الفضائل وغيرها أُرسل في سفارات إلى فرنسا والبندقية، واختير ليكون من بين الغونفالونيين. لم يشد لنفسه قصراً فخماً فحسب لكنه انتهى من وضع واجهة الرخام الأسود والأبيض لكنيسة سانتا ماريا نوفيلا. وقد غرس حديقةً بأندر أصناف الشجر، وجعل منها مقراً كلاسيكياً باستقباله بين جنباتها اجتماعات الأكاديمية الأفلاطونية، التي تيتمت بوفاة لورينزو. إذ كان كتب كتاباً معرفياً ممتازاً من النوع الطوبوغرافي الجديد عن روما القديمة. وقام بجمع العاديات، فلاتينيته كانت نقية صرفة. وأبسط وصف لهذا الشخص، كما يظهر للمرء، يتمثّل في كتابة تأبينية مادحة له في نهايتها يُطلب من ربات الشعر اليونانيات والأوسونيات (2) بدون تحرّز أن ينتفن شعورهن، ومن الطبيعة أن تكفّ عن أية محاولة ثانية لدمج هذا العدد الكبير من الفضائل في مجموعة واحدة من الأحشاء البشرية.

وقد وصلت الدعوة إلى تيتو من خلال لورينزو تورنابوني، بتأكيد كان يُستشف منه أن الهدف من الاجتماع كان سياسياً، حتى وإن كانت الأسئلة الخاصة بالشعب في ذلك الوقت أقل استحواذاً للاهتمام. والحال أن تيتو لم يكن يخامره شك في أن بعض أهداف الحزب لا بد من معاضدتها بنكهات السمك المطبوخ الممتازة والنبيذ

اليونـاني المعتّق. ذلـك أن برنـاردو روسـيلي لـم يكـن ببسـاطة شخصـية مؤثرة، فقد كـان واحداً من العشرين المنتخبين (3) الذين أمسكوا ولمدة ثلاثة أسابيع بأعنة فلورانسة. هذا التأكيد قوّى معنويات تيتو علـى نحـو كبيـر بينمـا كـان يتوجّـه إلـى فيـا ديـلا سـكالا، حيـث توجـد الحديقـة الكلاسـيكية: وبدونـه كـان سـيداخله شـك مـزعج عـن احتمـال أن تكـون الشلّة الرفيعة المقام التـي كـان سيتشرف بلقائها مملّة إلـى جانـب كونـها مميزة. ذلك لأنـه خَبر مسبقاً عدة حفلات عشـاء مملـة حتـى فـي جنائن روسيلي، وخاصـة من النوع الفلسفي الممل، حيث لـم يطلب إليـه قبول خطـة كاملـة للكون فحسـب (وهذا سيكون سـهلاً عليـه)، بل أن يصـغي لعـرض لمـا ذكـر، منذ منشـأ الأشـياء حتـى اكتمـال نضـجها فـي بحـث الفيلسوف الذي يكون هو المتحدث آنئذ.

كـان المسـاء حالكـاً، ولـم تتضـح ملامـح تيتـو بمـا يكفـي مـن التميّز ليتعرف عليها المرء إلا بعد أن اجتاز الضوء العارض لمصباح مـدلّى أمـام صـورة للعذراء. فـي تلـك اللحظـات أي واحـد يحـرص علـى مراقبـة عبـوره مـن ضـوء مـن هذه الأضـواء إلـى آخـر كـان سيلاحظ أن الشـخص الطويـل والرشـيق المتـدثّر بـالمعطف كـان دائمـاً يـأتي فـي إثـره شـخص ذو هيئـة مختلفـة جداً، شـخص قاسـي الملامـح، كبيـر السـن، يرتدي رداء صوفياً خشناً وقبعة من اللبـاد. كان يمكن للتزامن أن يؤخذ كمحض مصادفة نظراً لوجود الكثير من عابري السبيل في الشوارع فـي هذه السـاعة. لكن عندما توقف تيتو عند مدخل جنائن روسيلي توقف الشخص وراءه أيضـاً. كان الـ sportello، أو البـاب الأصـغر للمدخل

قد سبق فتحه من قبل الخادم الواقف بجانبه والذي لانشغاله بالإجابة على سؤال أحدهم، لم يكن قد أغلقه بعد منذ وصول آخر القادمين، ودخل تيتو على عجل، معطياً اسمه للخادم، ومارّاً بين الشجيرات الدائمة الخضرة التي كانت تسطع كمعدن في ضوء المصابيح. همّ الرجل الثاني بالدخول أيضاً.

قال الخادم: " اسمك؟ "

" بالداسار كالفو "، جاء الجواب على الفور.

" أنت لست مدعواً. لقد دخل كل المدعوين ".

" أنا من طرف تيتو ميليما الذي دخل للتو. عليَّ أن أنتظره في الجنائن ".

تردد الخادم. " معي أوامر بقبول الضيوف فقط. هل أنت خادم السيد تيتو؟ "

" لا، صديق، أنا لست خادماً. أنا من رجال العلم والمعرفة ".

هناك أناس لا تحتاج لأن تقول إليهم سوى " أنا جاموسة "، في لهجة معينة تنمّ عن الثقة الهادئة، حتى يسمحوا لك بالمرور. أفسح البوّاب الطريق في الحال، ودخل بالداسار، وسمع الباب يغلق ويجنزر بالسلاسل وراءه، بينما اختفى هو أيضاً وسط الشجيرات المتلألئة بالأضواء.

كانت تلك الإجابات الفورية والحازمة وليدة التبدّل الكبير الذي طرأ على بالداسار منذ اللقاء الأخير وجهاً لوجه مع تيتو، عندما انكسر الخنجر إلى نصفين. وقد عبّر التبدل عن نفسه بطريقة مخيفة.

في اللحظة التي مرّ فيها خيال تيتو أمام الزريبة عندما غادر باتجاه البيت، كان بالداسار يجلس وهو في تلك الحالة التي تعقب الرجفان التي يعرفها كل من هو عرضة لنوبات انفعال شديدة: حالة يترافق فيها أحياناً العجز البدني مع وضوح استثنائي في التفكير، كما لو أن حالة فك الارتباط تلك التي تسم الهيجان العاطفي المستثار قد أزالت غشاوة نارية ليعقبها من ثمة الصفاء والوضوح. شعر بأنه غير قادر على النهوض والسير آنئذ. بدت أوصاله وكأن خدراً أصابها. شعر بالبرد، وارتعشت يداه. لكنه في ذلك العجز البدني جلس محاطاً، ليس بخفوت النور الاعتيادي والأطياف المتلاشية، بل بصور الماضي الواضحة. تصوّر نفسه يحيا ثانية بشكل متواصل تلك الحياة التي بدت بمثابة تحضير طويل لطعم المرارة.

لقد استغرقته تلك الصور تماماً لبضع دقائق ما حال دون أن يتمعّن في حقيقة أنه رآها، ويلاحظ تلك الحقيقة الواقعة على أنها تغيّر. لكن عندما تعمّق ذلك الوضوح المفاجئ عبر المدى واستقر أخيراً على المشهد الذي توارى للتو، شعر تماماً أين هو: تذكّر مونا ليزا وتيسا. آه! هو إذن الزوج الغامض. هو من كان له زوجة ثانية في فيا دي باردي. حان وقت تجميع الخنجر المكسور والرحيل – الرحيل دون ترك أي أثر يدل عليه. ذلك أن إخفاء وهنه بدا أشبه ما يكون بالقوة التي تبقّت له. انحنى ليلتقط قطع الخنجر ثم التفت صوب الكتاب الذي كان مفتوحاً بجانبه. كان مخطوطة كبيرة جميلة، مجلّداً غريباً من تأليف بوسانياس. كان ضوء القمر ينيره، واستطاع أن يميّز الحروف الكبيرة

في رأس الصفحة:

MEΣΣHNIKA.KB.(4)

في غابر الأيام كان يعرف بوسانياس حق المعرفة. لكن منذ ساعة أو ساعتين كان يبحث بلا أمل عن تلك الصفحة، ولم توح له بأي معنى أكثر مما لو كانت الأحرف علامات سود من فعل الطقس ارتسمت على جدار. بيد أنها عادت في هذه اللحظة لتبدو الإشارات السحرية التي تستحضر عالماً. شعاع البدر ذاك الساقط على الأحرف قد جعله يستحضر في مخيلته صورة ميسينيا، وصراعها ضد الاضطهاد الإسبرطي.

رفع الكتاب عن الأرض بشكل خاطف لكن النور كان كامداً جداً ما حال دون متابعة القراءة. مهما يكن: كان يعرف ذلك الفصل. كان يقرأ من داخله هو. رأى رجم الخائن أرسطوقراط (5) – الذي رجمه شعب بكامله وألقى به خارج حدود بلده ليبقى دون دفن، ونصبوا عموداً عليه شِعر يقص كيف أن الزمن قد أنزل العقاب العادل بمن لم يكن عادلاً. تصاعدت الكلمات بداخله، وحرّكت اختلاجات لا عدّ لها في الذاكرة. نسي أنه طاعن في السن: كاد يصرخ. عاد النور ثانية، أسّ المعرفة والفرح! في تلك النشوة استعادت أوصاله قوتها: انتفض واقفاً ومعه الخنجر والكتاب، وخرج في وضح الليلة المقمرة.

كان الجو يلسع ببرودته، لكن بالداسار لم يشعر بأية برودة – لم يشعر إلا بوهج القوة الواضحة في الذهن. جال في المكان وتوقف عند كل الأمكنة المكشوفة في تلك الربوة، ونظر إلى أسفل إلى المدينة

المقببة والبرجية وهي تغفو في الظلام تحت أوصيائها الغافين، الجبال، وإلى انعكاس الضوء الشاحب الساقط على النهر، وإلى الوادي المتلاشي صوب ذرى الثلج، وشعر أنه سيد الكل.

لقد تفاقم لديه ذلك الإحساس بالسلطة الذهنية المطلقة الذي نشعر به جميعاً في لحظات من وضوح استثنائي بمرور النهارات والليالي الطوال التي لم تعدُ فيها الذاكرة أن تكون أكثر من شعور بشيء ولى ومضى. تلك المدينة، التي كانت متاهة مرهقة، أصبحت مادة يمكنه أن يخضعها لمقاصده الآن: استرق ذهنه النظر عبر شؤونها باستحضار سريع كالبرق. عاد فأصبح ثانية إنساناً يعرف المدن، إنساناً تثقّف إحساسه الرؤيوي بخبرة كبيرة، إنساناً شعر بمتعة فائقة من جرّاء السيطرة على كل الأشياء من خلال اللغة. الأسماء! الصور! – اندفع ذهنه عبر ثرائها دون توقف، مثل واحد يرث فجأة إرثاً عظيماً.

لكن وسط كل ذلك التوق المندفع كان هنالك في وعي بالداسار غاية واحدة تتسيد ما عداها، – إلهة سوداوية في أعمق خلاياه، وإلهة بدت منسية بينما كانت Hecatomb(6) (ذبيحته) في طور الإعداد. وعندما عادت سلطة الانتصار الأول في يقينية القوة المستعادة، تمحور كل تفكيره على تيتو. تلك الأفعى الزلقة تماماً لن تفلت منه الآن. فبفضل تلك العدالة المكافحة، القلب الذي لم يختلج قط بالحنان لآخر استعاد وجيبه الحساس الأناني الذي يمكن الوصول إليه عن طريق حدّ الكرب القاطع . الروح التي لم تنحن لأي حق، خضعت

لسيد البشر الفانين بلا منازع، الألم.

استطاع الآن أن ينقّب في كل أسرار حياة تيتو: كان يعرف مسبقاً بعض هذه الأسرار، وفشلُ الخنجر المكسور، الذي بدا كإحباط، كان بداية الإنجاز. دون ريب ذلك السخط المفاجئ قد هزّ أركان العائق الذي خنق روحه. وعندما عادت ذاكرته جزئياً من قبل مرتين كان ذلك نتيجة انفعال مفاجئ: مرة عندما توجّب عليه الدفاع عن نفسه ضد كلب مسعور: ومرة عندما وصلت إليه الأمواج، وتوجّب عليه أن يتسلق صخرة، بعد أن تملّكه الذعر، كي ينقذ نفسه.

أجل، لكن هب أن الضوء اختفى هذه المرة، مثل تلك المرة، وعاد الخواء الشعوري المرعب من جديد! هذه المرة كان النور أقوى وأكثر ثباتاً. لكن أية ضمانة ستحول، قبل الغد، دون أن يكتنفه الضباب الأسود ثانية؟ حتى الخوف بدا أشبه ببداية الوهن: خطر له بما لا يخلو من رعب أنه قد يهوي بسرعة أكبر بسبب يقظته المستثارة، على التل، والتي كانت تستنفد قوته. وبعد بحث قلق عن ركن يمكن أن ينام فيه، تكوّر أخيراً على كومة من قش الحديقة الدافئ، وعلى هذه الحال غفا.

عندما فتح عينيه ثانية كانت الشمس قد أشرقت . كانت اللحظات الأولى مفعمة بتشوش غريب: كان إنساناً بهويتين. إلى أي منهما استيقظ هو من نومه؟أإلى حياة الحساسيات المعمية الأبصار مثل إرث مؤسٍ لعزيز قوم ذل، أو إلى حياة من قوة مستعادة؟ بالتأكيد الأخيرة، ذلك أن أحداث الليلة عاودته كلها : التعرّف على صفحة

بوسانياس، احتشاد الوقائع والأسماء عند استرجاعها، الأفق الواسع المفاجئ الذي كان وفّر له لحظة مثل لحظة ميناد Mænadفي الانشداه الرائع عند استيقاظها صباحاً على قنّة الجبل.

تناول الكتاب ثانية، قرأ، تذكر دون أن يقرأ. رأى اسماً، وصور الأفعال(الأعمال) نهضت معه: رأى ورود الفعل (العمل)، وركّبه مع اسم. كانت هناك قصص لجرائم لا تغتفر، إنما أيضاً قصص لإثم بدا أنه أصاب نجاحاً . كان هنالك ملاذات للكفّار رشيقي الخطو: فالنذالة لها سلاحها، وأحياناً كانت أسلحة العدالة تتكسّر عليها. وماذا يهمّ ؟ لو انتصرت النذالة في كل مكان آخر، لو كان باستطاعتها أن تستجمع كل الخير في العالم بل وتحتفظ بمفاتيح جهنم، فإنها لن تنتصر أبداً على الكراهية التي أيقظتها هي بنفسها. لا يمكنها أن تستنبط أي عذاب يبدو أعظم من عذاب الخضوع لابتسامتها. شعر بالداسار بالقوة المستقلة العصية على التدمير لعاطفة فائقة، لا تعرف أي خوف، ولا تتطلب دافعاً، إذ هي تشكّل بحد ذاتها دافعاً دائم الاشتعال، يأتي على كل رغبة أخرى. والآن في ضوء هذا الصباح، عندما عاد اليقين ثانية بأن الشغاف الدقيقة للتداعي (ربط الأشياء ببعضها في التذكر –م) ما زالت حية ناشطة، وأن ذاته المستَرَدّة لم تبرحه، كانت سعادته كلها تكمن في الأمل بالانتقام.

منذ ذلك الوقت حتى المساء الذي رأيناه فيه يدخل جنائن روسيلي لم يتوقف، لكن بحذر، عن السؤال عن وضع تيتو وكل ظروفه، وبالكاد مرّ يوم لم يلجأ فيه إلى تتبع تحركاته. لكنه لم يرغب

في أن يدبّ الهلع في صدر تيتو: كان يرغب في أن يوفر لنفسه لحظة يكون فيها المحظي المكروه محظي الحظ الأعمى في قمة الاطمئنان الواثق، يحيط به رؤساء كان يعتمد على حظوتهم. لم يكن لما تاق إليه بالداسار بكل كيانه أي جزاء انتقامي، أو تميّز لنفسه يجني منه أي شيء لمصلحته الخاصة: كان ما تاق إليه يتمثل في إيجاد أرهف نصل من نصال الخزي والعار يمكن به أن يُطعن صدر باسم أناني، وأن يدب في نخاعه أشد الصدمات الفجائية هولاً. كان راضياً بالنوم غير المريح، والعيش بتقتير – لقد أنفق القسم الأعظم من ماله المتبقي في شراء خنجر آخر: لم يكن جوعه وظمأه يسعيان وراء أي شيء رائع بل وراء انتقام رائع. لقد تحاشى أن يتوجه بالكلام لأي شخص كان يشتبه في أنه وتيتو على إلفة، لئلا يدفع بتيتو أي تحذير يتنبّه له إما إلى الهرب أو اتخاذ إجراء مضاد آخر قد تستنبطه البراعة المحاصرة. ولهذا السبب لم يدخل قط إلى محل نيلو، عندما لاحظ أن تيتو يتردد عليه، وكان يغيّر طريقه ليتجنّب اللقاء ببييرو دي كوسيمو.

وقد أضاف احتمال الإحباط لهفة إضافية على رغبته في عدم تأجيل الفرصة الكبرى التي كان ينشدها. كانت الرغبة الجامحة تقوم بداخله على أساس آخر. كانت تعروه الرجفة مخافة أن تضيع ذاكرته مرة ثانية. وسواء أكان ذلك من الحضور المضطرب لذلك الخوف، أم من أية أسباب أخرى، فقد شعر مرتين بنوع من الدوخان الذهني، يبدو فيه الإحساس الداخلي أو الخيال وقد فقد وضوح الأشياء. مرة حاول أن يدخل قصر فيتشيو ويجد سبيلاً لدخول غرفة

المستشارين، حيث كان تيتو موجوداً، لكنه فشل. لكن، الآن، في هذه الأمسية شعر أن فرصته قد سنحت (7).

الفصل التاسع والثلاثون
مأدبة عشاء في جنائن روسيلي(1)

عند دخول المقصورة الأنيقة سرعان ما ميّزت نظرة تيتو الخاطفة في انتقاء الضيوف تأكيداً لتخمينه بأن هدف الملتقى كان سياسياً، رغم أنه لا شيء يفوق في وضوحه، على الأرجح، ذلك التمتين لعرى الحزب الذي يأتي من الصحبة الوثيقة. وكان يعتقد في ذلك الوقت أن جيّد الأطباق وجيّد النبيذ يزيد الوعي بالإيثارات السياسية، وكان المفترض أيضاً أنه مع توافر السلاسة التي توحي بها أحاديث ما بعد العشاء يؤكد الناس آراءهم الخاصة بوضوح لا يتاح للمعد (ج. معدة) التي فاتتها الدعوة إلى العشاء. كان الفلورانسيون من الصنف الرزين والمقتصد . لكن حيثما يجمع الناس ثروة يكون للمادونا ديلا غوزفيغيليا وسان بونفينو(2) عَبَدتهما. كان آل روسيلي من بين القلة من العائلات الفلورانسية التي داومت على إقامة المآدب الكبرى وعاشت عيشاً رغداً. ولم يكن وارداً أن يحاول المدعوون في هذا المساء طرح نظريات فلسفية رفيعة. كما لن يكون هناك مجال للاعتراض على إطلالة تمثال أفلاطون النصفي، أو حتى على الحضور المتواضع للفضائل الأساسية في الفريسكو الذي يزين

الجدران.

وقد استخدم ذاك التمثال النصفي لأفلاطون منذ زمن ليطلّ على القصف والمرح من نوع أكثر سمواً، ذلك أنه أحضر من فيلا لورينزو، عقب وفاته، عندما تمَّ نقل اجتماع الأكاديمية الأفلاطونية إلى هذه الجنائن. وقد أطلّ، ولا سيما يوم الثالث عشر من تشرين الثاني، وهو الذكرى المشهورة لوفاة أفلاطون(3)، من تحت أوراق الغار على نخبة مختارة من الأدباء والفلاسفة ممن التقوا ليتناولوا الطعام والشراب باعتدال، وليناقشوا ويعجبوا، ربما، باعتدال أقل بمبادئ المعلم الأكبر:- وعلى بيكو ديلا ميراندولا، وكان فيما مضى عبقرية دونكيشوتية شابة له جدائل طويلة، دُهش لقدراته الخاصة وأدهش روما بأطروحات هرطقية، وعقب ذلك صار طالباً أكثر تواضعاً، يتأكّله الحماس لتحقيق الكمال الداخلي، بعد أن صار يجد الكون أكثر إدهاشاً من ذكائه هو، – وعلى مارسيليو فيتشينو البريء المجدّ الذي اختير وهو شاب ليتربّى كفيلسوف أفلاطوني، ورضع الأفلاطونية في كل مراحلها حتى إن ذهنه قد يكون غدا ليّناً قليلاً من جرّاء تلك الحِمْية المفرطة في اقتصارها على أصناف بعينها :- وعلى أنجيلو بوليتزيانو، أكبر عبقرية أدبية في ذلك العصر، وهو شاعر مفطور، وأديب ليس يعدم نكهة، مَنْ كانت تنطوي عباراته على حرارة، وما زالت إلى الآن نابضة بالحياة: أو، إذا عدنا أكثر للوراء، على ليون باتيسيتا ألبرتي(4)، السيد المحترم الأكبر سناً عندما كان هؤلاء الثلاثة أحداثاً، ومن صنف يتسم بمهابة تفوق بكثير ما اتسموا به، ذو ذهن حاد شامل، في الآن ذاته عملي ونظري،

فنان، رجل علم، مخترع، شاعر:–ويطلّ على عدد أكبر بكثير من العمال الشجعان الذين لم تسجل أسماؤهم حيث نقلب الصفحة كل يوم لنقرأها، لكن مَنْ تشكل أعمالهم جزءاً، رغم أنه جزء لا يقرّ به، من إرثنا، مثل حراثة الأجيال الماضية وبذرهم للبذور.

كان برناردو روسيلي شخصاً يتقلّد مكاناً مميزاً في تلك الأكاديمية حتى قبل أن يصبح مضيفها وراعيها. كان لا يزال في عزّ حياته، لا يتعدى الرابعة والأربعين، له حضور متعجرف قليلاً، ومحترم بحذر، على إلمام بلاتينية نقية على نحو مدهش –، لكن، كما يقول إيرازموس، لا يمكن أن تباغته وهو يتكلم اللاتينية – حيث لا يمكن لأية كلمة لاتينية أن تُقتطع منه ولو بأشد رجال التيوتون (شعب جرماني قديم–م) مضاءً. وقد خصّ تيتو بترحيب غير معهود، وبكرسي بين لورينزو تورنابوني وجيانوتزو بوتشي، وكان كلاهما شابين مثقفين ينتميان للحزب الميديتشي.

بالطبع كان الحديث هو الأخف في العالم عندما كان الإناء النحاسي المملوء بالماء المعطّر يطوف على الجالسين، عسى أن يغسل المجتمعون أيديهم، ولمعت الخواتم على الأصابع البيضاء تحت أضواء الشموع، وفاحت أزكى الروائح من الدمقس الأبيض الجديد الذي وصل حديثاً من فرنسا.كان طابع التعليقات من النوع الشائع جداً في تلك الآونة. سأل أحدهم عما سيجول بفكر الفلورانسي العتيق من طراز دانتي لو دبّت الحياة فيه ثانية، وهو يضع حزامه الجلدي والحلقة العظمية، عندما يرى الشوَك الفضية على الطاولة؟(5) وقد اتفق الجميع على أن

عادات الخلف ستكون مستغربة جداً للسلف، لو أتيح للسلف أن يعرفها.

وبينما كانت الشوك الفضية تغازل طيب الأصناف التي استهلت الجانب الأكثر جدية من العشاء –مثل قطع الكبد، التي طهيت بشكل ممتاز يجعلها تذوب ذوباً في الفم– سنحت الفرصة لإبداء الإعجاب بالتصاميم الموجودة في المنتصف الفضي المصقول في الآنية النحاسية، والتفوه بشيء،كما جرت العادة، عن طبق الحلوى الفضي، وهو من روائع أنطونيو بولاتجولو(6) الذي أغراه البابوات ليترك موطنه الأصلي فلورانسة ويقصد روما التي تفوقها روعة.

قال نيقولو ريدولفي، وهو شخص في منتصف عمره، يتسم بتلك السلاسة في السلوك التي يشوبها الإهمال، والتي، رغم أنها تبدو وكأنها لا تتطلب شيئاً، إلا أنها تستند حقاً على الشعور، مدى الحياة، بالرتبة الآمرة – " آه، أذكر، أذكر صاحبنا أنطونيو مستاءً من شغله وزخرفته لهذه الآنية المعدنية، ومغتاظاً من الرسم لأن الفنان، كما يقول، " الذي يضع شغله في ذهب وفضة يضع دماغه في البوتقة ".

قال جيانوتزو بوتشي: " ولا تستبعد أن يكون ذلك إرهاصاً حقيقياً بفن أنطونيو ". وأردف: " لو استمرت هذه الحرب العظيمة مع بيزا وامتدت الثورة قليلاً لمدننا الأخرى لما اندثرت، على الأرجح، أطباقنا الفضية وحدها. يخامرني الشك في إمكانية أن يغيب قديسو أنطونيو الفضيون المتحلقون حول مذبح سان جيوفاني يوماً ما عن أنظار المؤمنين ليُعبدوا بشكل أكثر ورعاً في شكل النقود ".

قال تورنابوني: " إن الأخ الراهب يحضّرنا مسبقاً لذلك الزمن.

إنـه يقـول للنـاس إن الله لـن يقبـل صـلباناً فضـية ومعداً خاويـة، وإن مـن الأفضل أن تزيّن الكنيسة بجواهر القداسة وذهب الحب الأخوي الجميل".

قال برناردو روسيلي بطريقة جافة: " مبدأ مفيد جداً من مبادئ التمويـل الحربـي، كمـا وجـد العديـد مـن أفـراد حـزب كونـدوتييري"(*). ثـم أردف: " لكن السياسة تأتي بعد الحلوى، يا لورينزو، عندما نحتسي ما يكفـي مـن النبيذ لنغسلها تماماً . إنـها أصلب مـن أن تؤخذ مـع الطعـام المشوي والمسلوق ".

" أجل، حقاً "، قال نيقولـو ريدولفي، وأضـاف:" صـاحبنا لـويجي بولتشـي كـان سـيقول إن هـذا الجـدي النـاعم المسـلوق يجـب أن يؤكـل بـذهن موضـوعي. أذكـر أنـه ذات يـوم فـي كـاريجي، عنـدما كـان لـويجي فـي مرحـه الصـاخب، كـان يعتقد أن لا شـيء يقلـب الشـهية مثـل الـرأي. قـال: " الـرأي يفسـد اللعـاب – لهـذا السـبب اتجـه النـاس إلـى التوابـل. مذهب الشك هو الفلسفة الوحيدة التي ليس لها طعم في الفم. " لا "، يقول المسكين لورينزو دي ميديتشي، " يجب أن تنتبه عند هذه النقطـة، يا لويجي. هو ذا الشكاك النقي السريرة، ماتيو فرانكو(7)، الذي يرغب أكثر مـن أي واحـد بيننـا فـي حسـاء أكثـر سـخونة ". فجـأة يـأتي صـوت لـويجي " لأنـه معتـد كثيـراً بنفسـه. وهـذا هـو أصـل كـل رأي آخـر. هـو

(*) مصطلح أطلق على قادة فرق المرتزقة الطليان . ومن بين المشاهير من هؤلاء القادة ممن ورد ذكرهم ولعبوا دوراً في أحداث الرواية فرانشيسكو سفورزا حفيد أحد الفلاحين حيث بدأ عمله ككوندوتييري وفي عام 145. نصب نفسه دوق ميلانو (م) .

شكاك؟ إنه يؤمن بخلود أشعاره. إنه رجل منطق مثل ذلك الواعظ الراهب الذي وصف أرضية الهوة التي لا قرار لها ". المسكين لويجي! كان عقله مثل أمضى فولاذ لا يلمس شيئاً دون أن يقطعه ".

قال جيانوتزو بوتشي: " ومع ذلك فهو مخلوق طيب القلب. لقد بدا لي أن حديثه مجرد فرقعة فقاعات من صابون. أية قصائد حماسية dithyrambs(8) عن الأكل والشرب طفق ينشدها! ومع ذلك كان لطيفاً كما فراشة ".

لم ينته الحديث الخفيف والمأكولات الجامدة على الفور، ذلك أنه عقب اللحومات المشوية والمسلوقة جاءت الديوك المسمّنة والطرائد التي لا غنى عنها، والأبهة التي توّجت مائدة حسنة الإعداد، طاووس مطهي حسب وصفة Apicius(9) عن طهي طيور الحجل بريشها دون أن تنتف عقب ذلك، كما كان ذاك الحجة قد أوصى بخصوص طيور حجله. وعلى العكس،كان ميالاً جداً ليبدو الطبق بقدر المستطاع طاووساً حياً يتّخذ وضعية الراحة دونما سلق.كم كانت كبيرة تلك المهارة المطلوبة من ذلك الخادم الخصوصي الذي كان المقطّع الرسمي للحم الذي عليه أن يقوم بكل احترام بإمالة ذلك الطائر التقليدي رغم خلوّه من المتعة، وكشف الصدر المنتوف الريش الذي كان سيقطّع منه قطعة شهية لكل من المدعوين الأكارم، اللهم إلا إذا كان أي واحد منهم مستقل الرأي بما يكفي ليعزف عن ذلك الغلظ المكلف ويؤثر الطريقة غير الحضرية في هضم الديك.

والحق أنه يعسر أن يتصف أي واحد بهذا القدر من الشجاعة.

اقتبس تيتو هوراس(10) وبعثر قطعته في نتف صغيرة فوق صحنه. أبدى برناردو روسيلي ملاحظة ثقافية بشأن السعر القديم لبيض الطواويس، لكنه لم يتظاهر بالتهام قطعته. ونيقولو ريدولفي رفع لقمة على شوكته بينما كان يقص قصة مفضلة من قصص لويجي بولتشي، عن رجل من سيينا أراد أن يقدّم حفلة ترفيهية ممتازة بسعر معتدل لذلك اشترى إوزة برية، قص منقارها وقائمتيها الشبكيتين، وسلقها بريشها حتى يظنوها طاووسة.

والواقع أنه لم يتم التهام الكثير من الطاووس. لكنهم اكتفوا بالجلوس إلى طاولة قدّم عليها طاووس بطريقة لافتة، ومعرفة أن مثل هذه النزوات لم تكن في متناول أي شخص بل أولئك الذين تعشّوا مع أثرياء القوم. وكان الحديث باستخفاف عن لحم الطاووس، أو أية مؤسسة محترمة أخرى، سيتسم بالحماقة والطيش، في وقت كان الأخ جيرولامو يصل إلى المبدأ المزعج بأن واجب الأغنياء ألا يترفوا كرمى للفقراء.

في الآن ذاته، وفي الغموض البارد الذي اكتنف هذا المركز من الدفء، والأضواء، والروائح الزكية، كان الرجل الوحيد المنبوذ يسير في شكل دوائر تضيق بالتدريج. توقف وسط الأشجار ونظر إلى الداخل صوب النوافذ التي شكّلت صوراً برّاقة على خلفية معتمة. وصلت إلى سمعه الضحكات، وشاهد تيتو يؤشر بكياسة لاكلفة فيها، وسمع صوته، آناً لوحده، وآناً آخر مختلطاً مع الصخب المرح للأحاديث المتداخلة. كان ذهن بالداسار في أشد توتره. كان يحضّر نفسه للحظة

التي يفوز فيها بالدخول إلى هذه الشلّة المتألقة. وقد شعر برضى بربري لمرأى مرح تيتو العادم للكلفة، والذي بدا أنه تحضير الضحية الغافلة لعذاب أكثر تأثيراً.

لكن الرجال الجالسين وسط الشموع المتشعّبة والكؤوس البراقة كانوا غافلين عن الوجه الشاحب الشرس الذي كان يراقبهم من الخارج. فالضوء يمكن أن يشكّل ستاراً مثله مثل العتمة.

تواصل الحديث بلهفة أكبر عندما غدا أقل تفككاً وتفاهة. في تلك اللحظة بالذات أقحم موضوع الإحساس بالمواطنة بقوة حتى على أكثر العقول شعوراً باللامبالاة. وما كان يقوله الأخ المستبدّ جيرولامو ويحض عليه احتل، في الحقيقة، المكانة العليا في تفكير كل الجالسين إلى المائدة. وقبل أن يرفع السمك المطبوخ عن الطاولة، وبينما كان الجميع بانتظار الحلوى، طفا اسمه على سطح الحديث، وبالرغم من نهي روسيلي السابق استحال الحديث مرة أخرى سياسياً. في البداية، بينما كان الخدم حاضرين، كان مجرد ثرثرة في ثرثرة: دار الحديث عما جرى في القصر في أول أيام التصويت على المجلس الأعلى. كم كان فرانشيسكو فالوري حاد المزاج وتسلطياً، كما لو أنه كان يريد أن يكون كل شيء حسب مشيئته نظراً لأحقية فضيلته المتزمتة. وكيف أنه كان واضحاً لكل من سمع خطب سوديريني لصالح المجلس الأعلى وكذلك سمع عظات الأخ، أنهما عجنا في الجرن نفسه.

قال نيقولو ريدولفي: " أنا أرى أن الأخ الراهب لديه باع أطول في الشؤون العامة من رأس سوديريني أو أي بياغوني بينهما:

بإمكانكم أن تثقوا أن سوديريني هو الناطق باسمه أكثر مما هو الناطق باسم سوديريني ".

قال برنـاردو روسيلي: " لا، يا نيقولو. في هذه الناحية أختلف معك.الأخ يتمتع بعقل نيّر، ويرى على الفور أي شيء يخدم أغراضه. لكن ليس من المحتمل أن يكون باغولأنطونيو سوديريني الذي كانت له خبرة طويلة بالشؤون، ودرس خاصةً المجلس البندقي، مديناً بشكل كبير لراهب لآرائه في ذلك الصدد. لا، لا. سوديريني يدكّ المدفع. رغم أنني أسلّم معك بأن الأخ جيرولامو يحضر البارود ويشعل الفتيل. إنه سيد الشعب، والشعب بدأ يغدو سيدنا. إكو! "

قـال لـورينزو تورنـابوني فـي الحـال عنـدما شـغرت القاعـة مـن الخدم، ولم يكن سوى النبيذ يطوف عليهم:

" حسن، سواء أكان سوديريني مديناً أم لا، فنحن مدينون للأخ للعفو العام الذي أتى ضمن خطة المجلس. ربما كنا تصرفنا بدون الخوف من العقوبة الإلهية والمصادقة على إصلاح الأخلاق من قبل غالبية الحبّات السودا11)، لكن ذلك الاقتراح الممتاز، بأن يُسمح لرؤسائنا الميديتشيين بأن يبقوا على أكتافنا مرتاحين، وأننا يجب ألا نُكره على تسليم ممتلكاتنا في شكل غرامات، يلقى موافقتي الحارة، وباعتقادي ما كان يمكن أن يؤمّن ذلك لنا إلا سيطرة الأخ وهيمنته. ويمكنك أن تثق بأن الأخ جيرولامو صامد كالصخر في مسألة إشاعة السلام تلك. لقد تسنّى لي مقابلته ".

تعالت تمتمة دهشة وفضول في أقصى طرف من الطاولة،

لكن برناردو روسيلي هز ببساطة رأسه، كما لو أنه عرف ماذا كان تورنابوني يرمي إلى قوله، ورغب إليه أن يتابع.

تابع تورنابوني: " أجل. لقد حظيت بمقابلة في حجيرة الأخ الخاصة، والتي، دعوني أقل لكم، ليست حظوة عامة. ذلك أن لدي سبباً للاعتقاد بأنه حتى فرانشيسكو فالوري قلّما يراه على انفراد. لكنني أعتقد أنه قابلني بسرور أكبر لأنني لم أكن مريداً جاهزاً، بل لا بد من العمل لأتحول إلى مذهبه. ومن جانبي أرى بوضوح كاف أن السياسة السليمة والحكيمة التي يجدر أن نتبعها نحن الميديتشيين هي أن نلقي بقوتنا في ميزان حزب الأخ الراهب. لسنا أقوياء بما فيه الكفاية لأن نتسنّم القيادة. وإذا انزعج الأخ الراهب والحزب الشعبي فإن كل من يسمعني يعرف تماماً أي حزب آخر ستكون له حالياً الأسهم الأعلى: نيرلي، ألبرتي، باتزي، والبقية–Arrabbiati، كما سمّاهم أحدهم في ذلك اليوم – والذين، عوضاً عن أن يقدموا لنا عفواً، يميلون إلى الإمساك بخنّاقنا مثل كلاب مسعورة، ولا يرضون حتى ينفوا نصفنا ".

تعالت مداخلات قوية بشأن قبول هذه الجملة الأخيرة من قبل تورنابوني، توقف على أثرها وجال ببصره لبرهة.

تابع: "رياء حكيم هو السبيل الوحيد أمام عقلاء الناس المعتدلين في فورة الحماس الحزبي العنيف. لا لزوم لإطلاع هذه المجموعة على ارتباطاتي السياسية الحقيقية: لست الرجل الوحيد هنا الذي له ارتباطات شخصية متينة مع العائلة المنفية. لكن، بغض النظر عن أية ارتباطات كهذه، فأنا أتفق مع أصدقائي ممن هم أكثر خبرة مني والذين يدعوني

أتحدث نيابة عنهم في حضورهم، بأن الحالة الوحيدة الدائمة والسلمية بالنسبة لفلورانسا تكمن في هيمنة مصلحة عائلة واحدة. نظرية الأخ الراهب هذه في أنه يجب أن يكون لنا حكومة جماهيرية، فيها يجاهد الجميع من أجل المصلحة العامة فقط، وليس لهم أية أسماء حزبية، هي نظرية تجدي مع إحدى الجزر التي اكتشفها كريستوفركولومبس، لكنها لن تجدي أبداً مع مدينتنا الجميلة العريقة المحبة للشجار، فلورانسا. يجب أن يطرأ تبدّل على الفور، وبصبر وحرص لدينا كل الفرص لكي يكون التغيير في صالحنا. في الآن ذاته أفضل شيء يمكننا أن نعمله هو أن نحافظ على المحافظة على راية الأخ الراهب مرفوعة، ذلك أنه إذا ما قدّر لأية راية أخرى أن ترتفع في هذه الآونة بالذات فستكون راية سوداء بالنسبة لنا ".

قال نيقولو ريدولفي، بطريقة حاسمة ومبتسرة:" هذا صحيح، ما تقوله صحيح، يا لورينزو. من جانبي لقد بلغت من العمر عتيا مما يحول دون أن يصدق أي شخص أنني بدّلت جلدي. وهناك أشخاص منا –أخونا المخضرم برناردو ديل نيرو واحد منهم – ممن لن يكون بوسعك أبداً أن تقنعهم بأن يستعيروا درع شخص آخر. لكن يبقى بإمكاننا أن نضطجع مثل كلاب عجائز نعسانة. وواضح بما فيه الكفاية أن النباح لا يجدي الآن. أما بالنسبة لهذا الحزب المنشد للمزامير الذي لا يقترع على شيء سوى مجد الله، ويرغب في أن نتظاهر بأننا جميعاً نحب بعضنا بعضاً، ويتحدث كما لو أن بالإمكان جرف الرذيلة بمكنسة عن طريق الثمانية الرائعين، فإن يومه لن يطول.

وبعد كل حديث رجالات العلم والمعرفة ليس هناك سوى نوعين من الحكومات: واحد يظهر فيه الناس أسنانهم لبعضهم بعضاً، وواحد يظهر فيه الناس ألسنتهم ويلحسون أقدام الأقوياء. هم سينتخبون مجلسهم الأعلى أخيراً في الغد- هذا مؤكد تماماً- وسيعتقدون أنهم اكتشفوا خطة جديدة للحكم. لكن مثلما هو مؤكد أن تحت كل قفطان في المجلس يوجد جلد بشري فإن خطتهم ستنتهي كما انتهت الأخريات، بالتكشير عن الأنياب أو باللحس. هكذا أرى الأمور كرجل بسيط. ليس أنني أرى أنه يليق بأرباب العوائل والأتباع، الذين جعلوا آخرين يعتمدون على ثباتهم وعلى التزامهم بألوانهم، أن يذهبوا للصيد بشبكة دقيقة ليصيدوا الأسباب في الهواء، مثل دكاترة القانون. أقول بصراحة إنني، كرب عائلة، سأكون وفياً لتحالفاتي القديمة. ولم أر حتى الآن أية علامة مميزة (علامة بالطباشير) بصدد الأسباب السياسية تبين لي أيها صحيح وأيها زائف. صديقي برناردو روسيلي هنا هو رجل عقل ومنطق، أنا أعلم، وليس لدي اعتراض إذا ما عثر لي أي شخص على أسباب وجيهة جداً بشكل لا يتعارض مع أعمالي كرب عائلة عليه أن يبقى وفياً في ارتباطاته ".

قال برناردو روسيلي، بإباء صوري في تباين ممتع عن سلاسة ريدولفي الموجزة والمختصرة: " إذا كانت هذه دعوة لي، يا نيقولو، فبإمكاني أن أغتنم هذه الفرصة للقول بأنه بينما تتحدد رغباتي جزئياً بالعلاقات الشخصية القائمة منذ زمن فليس بإمكاني أن أشترك في أية خطط إيجابية مع أشخاص ليس لدي أية سيطرة على أفعالهم. فأنا

نفسي قد أكون قانعاً بعودة الأمور كما كانت عليه، لكن مع تعديلات – تعديلات هامة. والنقطة الوحيدة التي أرغب أن أعلن أنني أتفق فيها مع لورينزو تورنابوني هي أن أفضل سياسة يجب على أصدقائنا اتباعها هي أن يلقوا بثقل مصالحهم في ميزان الحزب الشعبي. بالنسبة لي، لا أتنازل لأي رياء، ولست أرى في الوقت الحاضر الحزب أو الخطة التي تحوز على كامل موافقتي. وفي جميعها قاطبة هناك فجاجة وفوضى في الأفكار، ومن بين العشرين شخصاً الذين هم زملائي في الأزمة الحالية ليس هناك واحد لا أجد نفسي معه على اختلاف كبير ".

رفع نيقولو ريدولفي كتفيه وترك لغيره التقاط الكرة. بينما كان النبيذ يطوف عليهم ازدادت صراحة وحيوية الحديث، وكالعادة فقد سبب إبداء العديد منهم في الحال الرغبة في أن يكونوا المتحدث الرئيسي، انقسام الجماعة إلى مجموعات صغيرة من اثنين وثلاثة.

لقد كانت نتيجة توقعها لورينزو تورنابوني وجيانوتزو بوتشي، وكانا بين أول الخارجين عن مسار الحديث العام والدخول في حديث خاص مع تيتو الذي جلس بينهما، وقاما بإزاحة مقعديهما تدريجياً وإدارة ظهريهما للطاولة والنبيذ.

كان تورنابوني يقول عند هذه المرحلة، وهو يضع ساقاً يكسوها شروال طويل على ركبته الأخرى، ويداعب كاحله: " في الحقيقة، يا ميليما، لست أعرف في فلورانسة من بوسعه أن يخدم حزبنا أفضل منك. أنت ترى أي نوع هم معظم أصدقائنا: أشخاص ليس بمقدورهم

أن يخفوا أهواءهم أكثر مما بوسع كلب أن يخفي النغمة الطبيعية لنباحه، أو، خلاف ذلك، أناس تتسم ارتباطاتهم السياسية بسمعة شائنة مما يجدر معه أن يكونوا جميعاً موضع شك. فجيانوتزو هنا، وأنا، أنا أمدح نفسي، قادران على التغلب على ذلك الشك. لدينا تلك القدرة على التخفي والدقة والتي بدونها يكون الشخص المثقف العقلاني في وضع خاسر عند المقارنة مع ثور هائج أو إنسان همجي بدائي عوضاً عن حصوله على أية امتيازات. لكن، باستثنائك أنت، لا أعرف أحداً آخر يمكننا الاعتماد عليه ليكون لنا حريتنا الضرورية في التصرف".

قال جيانوتزو بوتشي وهو يضع يده على كتف تيتو: " أجل. الواقع أنه، يا عزيزي تيتو، يمكنك أن تساعدنا بشكل أفضل مما لو كنت أوليس نفسه، ذلك أنني موقن أن أوليس غالباً ما جعل الناس يكرهونه. كي يدير الناس يجب أن يتحلى المرء بذهن ثاقب في غمد من مخمل. وليس هناك من ابن آدم في فلورانسة يمكنه أن يتعهد شأناً مثل تعهدك القيام بهذه الرحلة إلى روما، مثلاً، بالقدرنفسه من السلامة الذي تستطيعه أنت. فهناك ثقافتك، التي تشكل ذريعة لمثل هذه السفرات. وما هو أفضل من هذا هناك موهبتك تلك التي مضاهاتها أعسر من مضاهاة ثقافتك. كان يمكن لنيقولو مكيافيلي أن يساعدنا لو كان في صفنا، لكنه ليس بمثل هذه البراعة. فهو مبتلى بشكل مفرط بالتصورات والأفكار وليس لديه قوة جاذبيتك.وقد عاد عليه ذلك بأفدح الضرر. فقد فقَد فرصة كبيرة في الحياة، وأنت اغتنمتها ".

قال تورنابوني مخفّضاً من نبرة صوته بطريقة دالّة: " أجل، ما

عليك سوى أن تلعب لعبتك بجدارة، يا ميليما، والمستقبل ملكك. بالنسبة للميديتشيين، ثق، إنهم سيحتفظون بموطئ قدم في روما كما في فلورانسة، ولن يمضي وقت طويل حتى يتمكنوا من إنجاز عمل أفضل، بالنسبة لمؤيديهم، حتى من ذاك الذي أنجزوه في أزمنة سالفة. لمَ لا تتسلم رتبة كنسية يوماً ما؟ هناك في نهاية ذلك الطريق قبعة كاردينال بالانتظار، ولن تكون أول إغريقي يرتدي تلك المراسم ".

ضحك تيتو بانشراح. كان على قدر من حدة الذهن لم تمنعه من أن يقدّر تقريظ تورنابوني المبالغ فيه، لكن رغم ذلك كان للتقريظ نكهته المحببة.

قال: " مفاصلي ليست متيبسة إلى الحد الذي لا يمكنني معه أن أستجر للترشيح بدون مثل تلك الجائزة الكبرى. أعتقد أن دخل دير أو اثنين " كرتبة مؤقتة " in commendam (12) دون تحمّل مشقة حلق رأسي ستكفيني في الوقت الحاضر ".

قال تورنابوني بدماثة لا تخلو من رصانة: " لم أكن أمزح. أعتقد أن رجل المعرفة والعلم سيكون دائماً على يسار عندما يستلم رتبة. لكن لنا حديث حول هذا الموضوع في وقت آخر.إن أحد الأهداف التي يجب أن لا يغفل عنها المرء في البداية هو أن يكسب ثقة أولئك المسؤولين في ديرسان ماركو. وهذا ما سنفعله، جيانوتزو وأنا، لكن يمكنك أن تذهب أبعد مما بمقدورنا، لأنك أقل عرضة للملاحظة. بتلك الطريقة يمكنك أن تستقي معلومات كاملة عن أفعالهم، ويمكنك أن تصنع ستاراً أعرض يستر عملك لصالحنا. بالطبع لا يمكن

القيام بشيء قبل أن تنطلق إلى روما، لأن هذا الشأن بين بييرو دي ميديتشي والنبلاء الفرنسيين يجب تنفيذه حالاً. أعني عندما تعود، بالطبع. لا حاجة بي لقول المزيد. أعتقد أن بإمكانك أن تجعل نفسك منذور الرهبنة المدلل لدى سان ماركو، إن أحببت. لكن لا تنقصك الحكمة لمعرفة أن التظاهر الفعال لا يتجاوز حدّ الاعتدال أبداً ".

قال جيانوتزو بوتشي، الذي كان في طريقته أكثر أخوية وأقل تظاهراً بالرعاية الفوقية من تورنابوني: " لو لم يشكّل الالتزام بالجانب الشعبي ضرورة لسلامتك كعميل لحزبنا، يا عزيزي تيتو، لكنت رغبتُ أن تُستثمَر مهارتك بطريقة أخرى، حيث ستكون ملائمة بشكل أفضل. لكننا يجب الآن أن نبحث عن شخص آخر بيننا يستطيع أن يحوز على ثقة أعدائنا الراسخين، الأرابياتي. يلزمنا أن نعرف تحركاتهم أكثر من معرفة تحركات حزب الأخ الراهب، إذ أنهم على قدر من القوة يسمح لهم باللعب فوق الطاولة. ومع ذلك، كان الأمر سيغدو أكثر صعوبة، من جرّاء ما عرف عن علاقاتك مع آل ميديتشي منذ فترة وجيزة، وتلك القرابة التي تربط زوجتك ببرناردو ديل نيرو. علينا العثور على شخص ليس له علاقات مميزة، ولم ينحز بعد لأي جانب ".

أخذ تيتو ينفض بشعره للخلف بصورة أوتوماتيكية، كما هي عادته، وينظر مباشرة إلى بوتشي وابتسامة تكاد لا تلحظ على شفته.

قال فجأة: " لا حاجة للبحث عن شخص آخر. يمكنني تدبّر الأمر بأكمله بكل سهولة ويسر. سأسعى إلى أن أكون المؤتمن الخاص لذلك العنيد الأبله دولفو سبيني، وأقف على مشاريعه قبل أن يلمّ بها

هو نفسه ".

قلّما تحدث تيتو عن قدراته بمثل هذه الثقة، لكنه كان في حالة من النشوة لهذا الانفتاح المفاجئ لمسار جديد أمامه، حيث يبدو أن الحظ وعد بجوائز أثمن من أية واحدة خطرت له حتى الآن. حتى هذه اللحظة لم يصب نجاحاً إلا في شكل حظوة.وقد هبطت عليه الآن في شكل سلطة- تلك السلطة المتاحة للموهبة دون صلات تقليدية، ودون اعتقادات. كل حزب كان يرى فيه أداة سيعتمد عليه. فوضعه كأجنبي، لامبالاته بأفكار أو أهواء الناس الذين خالطهم قد تحولت فجأة إلى مزايا. بدأ يشعر مجدداً ببراعته أمام لعبة انتدب ليلعبها. وكل الدوافع التي كان يمكن أن تجعل تيتو يحجم عن الرياء المثلث الذي انفتح أمامه كلعبة مغرية قد اختنقت ببطء في داخله بفعل الرياءات المتتابعة في حياته.

إن حيواتنا تصنع تقليداً أخلاقياً لذواتنا الفردية، كما أن حياة البشر بشكل عام تصنع تقليداً أخلاقياً للجنس (العرق). وأن نتصرف بنبالة مرة واحدة(13) لهو سبب يحدونا دائماً لأن نكون نبلاء. لكن تيتو أخذ يشعر بتأثير تقليد معاكس: لم يحمل أية ذكريات عن الانتصار على الذات والإخلاص التام، ما قد يولّد لديه إحساساً بالسقوط.

استمرت المحادثة الثلاثية بحيوية متنامية حتى قطعتها صيحة جاءت من عند الطاولة. ربما جاءت الحركة من الفريق المصغي في الجماعة الذين كانوا يخشون من أن يرهق المتحدثون أنفسهم. في كل

الأحوال اتفقوا على أنهم بلغوا حد الاكتفاء من الرصانة والجدية، وعليه قام روسيلي للتو بطلب زجاجات جديدة من المونتيبولتشيانو(14).

قال عندما ظهر احتشاد عام حول الطاولة: " كم عدد المغنين بيننا؟. ميليما، أعتقد أنه أولهم: ماتيو سيرافقك على العود ".

" آه، أجل! " قال جيانوتزو بوتشي، وأضاف: " عليك بقيادة الجوقة الأخيرة من "أورفيو" لبوليتزيانو تلك التي وجدتَ توقيعاً ممتازاً لها، وسنردّ جميعنا:-

"Ciascun segua, o Bacco ,te:
Bacco,Bacco,evoè, evoè!"(15)

وضع الخادم العود بين يدي تيتو ثم همس شيئاً ما في أذن سيده. دار استفسار وجواب في صوت كالهمس بينهما، بينما لمس تيتو العود بطريقة تمهيدية مرافقاً نغمة الكورال، وتعالى لغط من حديث ودندنة موسيقية بين المتحلقين حول الطاولة. قال برناردو روسيلي:" لحظة، يا ميليما " لكن تيتو، الذي كان يميل بجسمه صوب بوتشي ويدندن له بالجمل الموسيقية لكورال ميناد، لم يسمع الكلمات. لم يلاحظ شيئاً حتى توقف اللغط حول الطاولة فجأة، وبقيت نغمات صوته بزهوها الناعم المنخفض المقام "!evoè, evoè " تدور في عزلة تلفت انتباه الحاضرين.

كانت لحظة غريبة. كان بالداسار قد تنقّل حول الطاولة حتى وقف قبالة تيتو، وما إن توقفت الدندنة حتى أمكن مشاهدة عيني بالداسار الكامدتين الشرستين للحظة مصوبتين على لا شعور تيتو

الباسم الوضاء، بينما آلت نغمات الانتصار الصادرة عن شفتيه إلى صمت.

رفع تيتو بصره للأعلى مجفلاً قليلاً، وشحب لون شفتيه، لكن لم يبد عليه أنه تأثر أكثر من جيانوتزو بوتشي، الذي كان قد رفع بصره في اللحظة نفسها – أو حتى العديد من الآخرين المتحلقين حول الطاولة , ذلك أن ذلك الوجه السقيم العميق التجاعيد الذي التمع الحقد في عينيه بدا كشبح مرعب وسط السلاسة والمرح المتواصلين على ضوء الشموع . وعلى الفور استعاد تيتو بعضاً من رباطة الجأش. " عجوز معتوه– يبدو كذلك – إنه مجنون! " جاءته هذه الفكرة على الفور وبركابها قدر من الشجاعة. ذلك أنه لم يلحظ أي تغير داخلي لدى بالداسار منذ أن التقيا من قبل. اكتفى بخفض بصره ووضع العود على الطاولة بيسر ملحوظ. لكن أصابعه قرصت عنق العود بقوة بينما تحكم برأسه ونظرته بشكل كاف لتبدو عليه سيماء المناشدة الهادئة عندما توجه بنظراته إلى برناردو روسيلي، الذي قال على الفور–

" أيها الرجل الطيب، ماذا وراءك؟ما هو التصريح الهام الذي أنت بصدد الإدلاء به؟ "

" سيد برناردو روسيلي، أرغب في أن تعرف أنت وأصدقاؤك الموقرون مع من أنتم تجلسون. يوجد خائن بينكم ".

حدثت حركة عامة تنمّ عن الانزعاج. كل الحضور، باستثناء تيتو، خطر لهم وجود خطر سياسي وليس أذىً خصوصياً.

بدأ بالداسار الكلام كما لو أنه كان متيقناً بالكامل من الكلام

الذي سيقوله. لكن، بالرغم من طول تحضيره لهذه اللحظة، إلا أنه أمكن مشاهدة رجفة ناجمة عن شدة الانفعال المهيمن على صوته. كان انفعاله يهز جسمه هزاً. تابع، لكنه لم يقل ما كان انتوى أن يقول. وعندما سمّر بصره على تيتو ثانية كانت الكلمات الانفعالية أشبه بلكمات – وقد تحدّت ما تعمّد قوله.

" يوجد وسطكم شخص هو وغد، كذّاب، لص. كنت أباً له. انتشلته من التسول عندما كان طفلاً. ربيته، ودللته، علمته، وجعلت منه رجل علم. لقد وضعت رأسي في موضع صلب غير مريح حتى يسند رأسه على وسادة لينة. وقد تركني في حالة استرقاق كالعبد. باع المجوهرات التي كانت خاصتي، وعندما عدت أنكرني ".

كانت الكلمات الأخيرة قد خرجت بما يكاد يشبه الاضطراب التشنجي، وتوقف بالداسار، وهو يرتجف. تحولت كل النظرات إلى تيتو الذي كان ينظر مباشرة إلى بالداسار. كانت لحظة يأس محت كل شعور بداخله، باستثناء التصميم على المجازفة بأي شيء مقابل أن تسنح فرصة للنجاة. وقد استجمع ثقة من الاضطراب الذي اعترى بالداسار بشكل واضح. كان توقف عن شد عنق العود، ودس إبهامه داخل حزامه، بينما أخذت شفتاه تتخذ سيماء تكشيرة خفيفة. لم يقدم حتى الآن على ارتكاب عمل إجرامي حتى مع أصغر حيوان يمكن أن تندّ عنه صرخة، لكنه في تلك اللحظة كان مستعداً ليخمد أنفاس طفل باسم لقاء ضمان سلامته الشخصية.

" ما الذي يعنيه هذا، يا ميليما؟ " قال برناردو روسيلي بلهجة

الدهشة الحذرة. فقد شعر، إضافة إلى بقية أفراد المجموعة، بالارتياح لأن فحوى التهمة لم يكن سياسياً.

قال تيتو: " سيد برناردو. أعتقد أن هذا الرجل مجنون.لم أعرفه أول مرة تواجهنا معاً في فلورانسة، لكنني أعرف الآن أنه الخادم الذي رافقني منذ سنين ووالدي بالتبني إلى اليونان، وطرد بسبب سوء تصرفه. اسمه جاكوبو دي نولا. حتى آنئذ كنت أعتقد أن عقله لم يكن سليماً، لأنه، ودون أي سبب، حمل ضغينة نحوي. والآن أنا مقتنع أنه فريسة ضرب من الجنون يسبب له عدم التعرف الصحيح على هويته. لقد حاول مرة التعدي علي منذ وجوده في فلورانسة. وأنا في خطر دائم جراء وجوده هنا. لكنه شخص يستدر العطف أكثر من السخط. من المؤكد جداً أن والدي قد توفي. أصدقكم القول. لكن لا بد أن أترك لحكمكم أن تقدروا ما مدى احتمال أن يكمن رجل يتحلّى برجاحة العقل وبسعة العلم والمعرفة، في زوايا مظلمة طيلة الشهر الأخير بهدف اغتيالي. أو ما مدى احتمال أن يوجد لدي، لو كان هذا الشخص أبي الثاني، دافع لإنكاره. إن تلك القصة حول إنقاذي من التسول هي خيال عقل مريض. لكن سأكون راضياً على الأقل إذا طلبتم منه إثباتات على شخصيته، لئلا يقدم أي شخص موتور على جعل هذا الاتهام المسعور تأنيباً لي".

تزايد شعور تيتو بالثقة عندما تابع حديثه. لم تكن الكذبة صعبة جداً ما إن تبدأ مرة. ومع تتالي الكلمات بسهولة ويسر من شفتيه فقد اكتسب إحساساً بالقوة من النوع الذي يشعر به الرجال عندما يبدؤون

عملاً عضلياً بنجاح. على هذا النحو اكتسب ما يكفي من الشجاعة لينتهي إلى تحد لتقديم البراهين.

بينما كان بالداسار يتمشى في الجنائن ولاحقاً لذلك بينما كان ينتظر في الغرفة الأمامية للتعريشة مع الخدم، كان يعدّ من جديد ملخّص الدليل الذي سيقدمه إثباتاً لهويته ونذالة تيتو، مستذكراً وصف وتاريخ مجوهراته، ومؤكداً لنفسه بلمحات ذهنية سريعة أن بإمكانه أن يقدم إثباتاً عن علمه وسفراته. وقد يعود الأمر جزئياً لهذا الإجهاد العصبي أن هذه الصدمة الجديدة المتأتية عن الغيظ الذي تملّكه عندما وقعت كذبة تيتو على أسماعه قد جلبت معها تأثيراً بدنياً غريباً : فقد بدا أن تياراً بارداً يكتسحه، وبدت آخر كلمات الخطاب وقد غطّى عليها قرع متواصل. أفسح الفكر في المجال لرعب مدوّخ، كما لو أن الأرض كانت تميد من تحته. كان الجميع في القاعة ينظرون إليه عندما انتهى تيتو من حديثه، وشاهدوا أن العينين اللتين تطاير منهما الشرر منذ بضع لحظات فقط قد اعتراهما خوف غامض الآن. قبض على مسند أحد الكراسي، ولبث صامتاً.

قلّما نهض دليل في صالح زعم تيتو أفضل من هذا.

قال تورنابوني: " بالتأكيد لقد سبق أن شاهدت هذا الرجل، في مكان ما ".

قال تيتو على الفور بصوت منخفض النبرة: " بالتأكيد سبق لك. إنه السجين الهارب الذي أمسك بتلابيبي على درج الكنيسة. لم أعرفه عندئذ. يبدو الآن أكثر شبهاً مما تعوّد أن يظهر، باستثناء أنه يتسم

أكثر بسيماء البلاهة المسعورة التي لا تخطئها عين ".

قال برناردو روسيلي بجدية حذرة: " لا أشك في كلمتك، يا ميليما، لكنك محق في الرغبة في نوع من الاختبار الإيجابي عن الواقعة ". ثم توجّه بالسؤال إلى بالداسار قائلاً: " إن كنت الشخص الذي تدّعيه يمكنك بالتأكيد أن تقدم وصفاً للمجوهرات التي كانت ملكك. أنا نفسي كنت مشترياً لأكثر من جوهرة من السيد تيتو– الخاتمين الرئيسيين، على ما أعتقد، في مجموعته مقتنياته. أحدهما عقيق أحمر جميل(16)، منقوش عليه موضوع من هوميروس. إذا كنت، كما تدّعي، رجل علم ومعرفة، والمالك الحقيقي لذلك الخاتم، فيمكنك بالتأكيد أن تذكر القطعة المشهورة التي اقتبس منها ذلك الموضوع من هوميروس . هل تقبل بذلك الاختبار، يا ميليما؟ أو هل هناك ما تقوله دحضاً لصلاحيته؟ جاكوبو هذا الذي تتحدث عنه، هل كان رجلاً مثقفاً؟ "

ألفى تيتو نفسه أمام أزمة مرعبة. فلو قال: " أجل "، فستنبئه نباهته بأنه سيقوّض بذلك مصداقية قصته: وإذا قال "لا"، فإنه يجازف بكل شيء يتعلق بالمقدار غير المؤكد الذي وصلت إليه بلاهة بالداسار. لكن قبل أن تمضي فترة صمت طويلة قال: " لا، أقبل الاختبار ".

خيّم صمت تام بينما تحرّك روسيلي صوب الركن الذي كان يحتضن الكتب، وعاد ومعه هوميروس الفلورانسي الجميل في يده. عندما وُجّه الحديث إلى بالداسار كان قد أدار رأسه صوب المتكلم،

وظن روسيلي أنه فهمه. لكنه رغب في أن يعيد ما كان قد قاله، بحيث لا يكون هناك مجال لأي خطأ في الاختبار.

قال: " الخاتم الذي بحوزتي هو عقيق أحمر جميل، منقوش عليه موضوع من هوميروس. لم يكن هناك أي خاتم يشبهه في مجموعة مقتنيات السيد تيتو. هلا ذكرت القطعة من هوميروس التي اقتبس منها ذلك الموضوع؟" وأضاف وهو يضع الكتاب على الطاولة مشيراً إلى مقعده الذي كان يقف بجانبه: " اجلس هنا ".

كان بالداسار حتى هذه اللحظة قد تعافى من الهلع الأول المشوب بالتشوش الذي نجم عن الإحساس بالبرودة الداهمة والطنين المتواصل في الأذنين بحيث وعى جزئياً الحديث الذي وُجِّه إليه: وعى أن شيئاً كان مطلوباً منه إثباتاً لهويته، لكنه لم يكوّن أية فكرة واضحة عن التفاصيل. أعاد مرأى الكتاب إليه ذكرى التوق الاعتيادي والأمل الواهي بأن بإمكانه القراءة والاستيعاب، ولذلك تحرك صوب الكرسي على الفور.

فُتح الكتاب أمامه، وأطرق فوقه قليلاً، بينما كان الجميع يراقبون باهتمام. لم يقلب أية صفحة. جالت عيناه على الصفحات أمامه، ثم سلّط عليها نظرة إمعان وتفكير. وقد استغرق هذا الأمر دقيقتين أو ثلاثاً وسط سكون مطبق. ثم رفع يديه إلى كل من جانبي رأسه، وقال بصوت منخفض يائس: " ضاعت، ضاعت! "

كان هناك ما يستدعي الرثاء في النظرة التائهة والصرخة الخافتة، ذلك أنه في الوقت الذي أكدتا فيه الاعتقاد بأنه مجنون فإنهما

قد أثارتا العطف. لا، أحياناً يكون تأثير شعور مزدوج بداخلنا من الوضوح بحيث أن تيتو نفسه – ورغم أنه انتصر في الإثبات الواضح لكذبته – تمنى لو لم يكن هناك داع للكذبة– تمنى لو تعرّف على والده على الدرج– تمنى لو جدّ في البحث عنه – تمنى لو أن كل شيء كان مختلفاً. لكنه كان اقترض من المرابي المريع الرياء، وتراكم الدين ثم تراكم بمرور السنين حتى أصبح ينتمي للمرابي، جسداً وروحاً.

لم يكن التعاطف الذي اعتمل في صدور الشهود جميعاً عديم الخطر بالنسبة لتيتو. ذلك أن التخمين يكون دائماً مسترشداً بالشعور، وهناك أكثر من شخص شعر فجأة بأن هذا الرجل ربما كان رجل علم ومعرفة وأضاع ملكاته. ومن نحو آخر، لم يفطنوا فوراً للدوافع التي قد تكون حدت بتيتو لإنكار من أحسن إليه. ولكونهم لا يحملون أي ضغينة نحوه، فقد كان صعباً عليهم أن يصدقوا أنه كان يتفوّه بأكثر أنواع الكذب حقارة.وقد شكّل هذا الصنف من بالداسار الشائع أصلاً، والذي اخشوشن بفعل سنوات الضيم، تأكيداً لكذبة تيتو. ولو أمكن لبالداسار، بدايةً، أن ينطق بدقة بالكلمات التي كان صمم عليها، لكان في صيغة اتهامه ما يعطيها ليس طابع الخبرة الحقيقية فحسب بل التوق الذهني. لكن لم يكن هناك وجود لمثل هذه الشهادة في كلماته المضطربة والنزقة: وبدا أن هناك شهادة معاكسة تماماً في الوجه المتغضن واليدين الخشنتين اللتين ارتعشتا بقربه، مما شكل تبايناً شديداً وسط تل الشلّة صاحبة الثياب المخملية والأيدي الناعمة.

كما شكّلت حركته التالية، بينما كان الجميع يراقبونه

بصمت، شهادة ثانية ضده. أبعد يديه عن رأسه وبحث عن شيء تحت ردائه. خمّن الجميع ماذا كانت تعنيه تلك الحركة – خمّنوا بأن سلاحاً كان على جنبه. تبودلت النظرات بين أفراد المجموعة، وقال برناردو روسيلي بصوت منخفض النبرة، لامساً كتف بالداسار –

" يا صديقي، هذا عمل هام يخصك. ستتوافر لك كل العدالة. الحق بي إلى غرفة خصوصية ".

لم تزايل بالداسار تلك الحالة من الانشداه التي كان فيها مطواعاً لأي حافز كان، بالطريقة نفسها التي لا يكوّن فيها لدى الحشرة أي تصوّر عن المكان الذي سيقودها الحافز إليه. نهض من مقعده، ولحق بروسيلي إلى خارج الغرفة.

وفي غضون دقيقتين أو ثلاث رجع روسيلي ثانية، وقال –

" إنه في حرز أمين تحت القفل والمفتاح. بييرو بيتي، أنت واحد من الثمانية الكبار، ما رأيك لو أرسلنا ماتيو إلى القصر لإحضار اثنين من الشرطة لمرافقته إلى ال Stinche؟(17). إذا كان هناك أي خطر في وجوده، وهذا ما أعتقده، فسيكون مأمون الجانب هناك. ويمكننا الاستفسار عنه غداً ".

أذعن بيتي، وصدر الأمر.

قال تورنابوني: " مؤكد أنه شخص ينذر منظره بالسوء "، وتابع: " قلت إنه حاول الاعتداء عليك قبل الآن، يا ميليما؟ "

ثم تطرّق الحديث إلى صنوف الجنون، وحدّة دم أبناء الجنوب. ولو انغرست بذور التخمين التي ليست في صالح تيتو في عقل أي من

الحضور لشق عليها النمو دون عون من كمٍّ كبير من ضوء النهار والنية السيئة. فالعجوز العادي في مظهره، والمرعب في نظرته، يدثّر الثياب الصوفية الخشنة، كان سيكسب التصديق بدون دليل قوي جداً، لو كان اتهم شخصاً محط حسد وكراهية. والحال، فإن الرؤية الوحيدة المنسجمة والمحتملة للقضية تمثّلت في تلك التي قضت بإرسال المتهم المنفّر بكل أمان بعيداً عن الأعين، وترك تيتو المحبب الخدوم تماماً حيث هو.

وبالتدريج تلاشى الموضوع، وأفسح في المجال لمواضيع أخرى، إلى أن سمع في الخارج شيء مثل عراك رجل كان يُجرّ خارجاً. وسرعان ما تلاشت الأصوات، وبدا أن هذا الاعتراض للجلسة قد أكسب مرح الساعة الأخيرة مزيداً من الثبات والحيوية. كان الجميع يرغبون في نسيان حادثة مزعجة.

كان قلب تيتو يدق، ولم يكن مذاق النبيذ في فمه بأفضل من الدم.

هذه الليلة دفع ثمناً غالياً أكثر من أي وقت مضى ليؤمن سلامته. لم يعجبه الثمن، ورغم ذلك كان لا مفر من أن يرضى بالشراء.

وفي النهاية قاد الجوقة. اعترته حالة انفعال اختلطت فيها الأحاسيس المضطهِدة، والشعور اليائس بوجود شيء بغيض إنما لا رادّ له، بشعور الانتصار الذي بدا يؤكد ذاته على أنه الشعور الذي سيدوم ويكون سيد الغد.

وبالفعل فقد كان سيداً. ذلك أنه في الغد عندما كان – كما رأينا – على أهبة الاستعداد للانطلاق في مهمته إلى روما كانت تظهر عليه سيماء شخص راضٍ تماماً عن العالم.

الفصل الأربعون
صوت يستحوذ على الاهتمام

عندما جلست رومولا على الصخرة تحت شجرة السرو ائتلفت كل الأشياء لتعطيها إحساساً بالحرية والتوحّد: فرارها من الجدران والشوارع المألوفة، بعد الشقة المتزايدة عن زوجها، وفي هذا الوقت كان في طريقه إلى سيينا، بينما يزداد ابتعادها في الاتجاه المعاكس مع انقضاء كل ساعة، هدأة الصباح، الانحدار الشديد للأرض على جانب الطريق ما شّكل هوة بينها وبين هدوء الجبال الكئيب. للمرة الأولى في حياتها شعرت بأنها وحيدة في حضرة الأرض والسماء، دون تدخّل من أي حضور بشري يفرض قانوناً عليها.

فجأة قال صوت قريب منها –

" أنت رومولا دي باردي، زوجة تيتو ميليما ".

عرفت الصوت: فقد سبق وتغلغل في كيانها أكثر من مرة.ولأنها عرفته لم تلتفت وترفع بصرها إليه. مكثت جالسة تعتريها الرهبة، ومع ذلك فقد كانت متمردة داخلياً على الرهبة. كان الصوت صوت واحد من أولئك الرهبان المتشحين بالسواد، وقد تجرأ على مخاطبتها، والتدخل في خصوصياتها: ذلك كل ما في الأمر. ومع ذلك فقد اهتزت للمفاجأة، كما لو أن ذلك القدر الذي خاله الناس إلهة تتقلد صولجاناً، قد باغتها، وقبض عليها بأصابع من لحم.

" أنت متنكرة وهاربة من فلورانسة. معي أمر من الله بأن

أمنعك. غير مسموح لك الهرب ".

تفاقم غضب روملا لهذا التدخل عند سماعها هذه الكلمات الآمرة. أبت أن تلتفت لتنظر إلى المتكلّم الذي أغاظتها نظرته الفاحصة المدققة. قالت دون أن تبادر بأية حركة –

" أي حق لديك يخوّلك التحدث إليّ، أوإعاقتي؟ "

" حق الرسول. لقد ادّثرتِ بدثار دينيّ، وما من هدف ديني لديك. لقد سعيت إلى هذا الرداء على سبيل التنكر. لكن ما كان لمرورك بي أن يحصل دون أن تميّزك العين. لقد كشفت لي هويتك: لقد كشف لي بأنك تسعين إلى الفرار من نصيبك الإلهي. ترغبين في أن يبقى اسمك الحقيقي وموقعك الحقيقي في الحياة مخفياً كي تتخذي لنفسك اسماً جديداً وموقعاً جديداً، ولا يحكمك إلا رغبتك الخاصة. ومعي أمر بأن أدعوك للعودة. يا ابنتي، يجب أن تعودي إلى موقعك ".

ثارت ثائرة روملا مع كل جملة. ازدادت تصميماً على ألا يبدر عنها أية إشارة على الإذعان، لأن الشعور باهتزاز كيانها الداخلي جعلها تخشى أن تقع فريسة التردد. تكلمت بغيظ أكبر من ذي قبل.

" لا، لن أعود. لا أقر للكهنة والرهبان بحق التدخل في تصرفاتي. لست تملك أية سلطة علي ".

" أعلم – أعلم أنك قد تربّيت على ازدراء الطاعة. لكن ليس هو الراهب المسكين من يزعم حق التدخل في شؤونك: إنها الحقيقة التي تأمرك. ولا يمكنك أن تتفاديها. إما أن تذعني لها، ولسوف

ترشدك، أو أن تعصيها، ولسوف تلازمك كما القيد الثقيل الذي ستبقين تجرّينه للأبد. لكن لا بد من إطاعتها، يا ابنتي. خادمك العجوز سيعود إليك مع البغال. لقد جدّ زميلي في إثره لإحضاره. ويجب أن تعودي إلى فلورانسة ".

انتفضت واقفة وشرار الغضب يتطاير من عينيها، وواجهت المتكلم. كان الأخ الراهب جيرولامو: كانت تعرف ذلك مسبقاً حق المعرفة. كانت قامتها تقريباً بطول قامته، وكان وجهاهما تقريباً على مستوى واحد. انتفضت واقفة والكلمات المتحدية على شفتيها جاهزة للانطلاق، لكنها تراجعت ثانية دون أن يُنطق بها. لقد التقت نظرتها مع نظرة الأخ جيرولامو الهادئة، وكان الانطباع الذي خلّفته لديها جديداً تماماً، حتى إنها غضت الطرف بسبب من أن غضبها كان في غير محله.

لم يكن هناك شيء متعالٍ في وجه سافونا رولا (1).لم يكن وسيماً. كان صارم القسمات، وكان يدين بكل نقائه لعادات في الفكر ونظام صارم في الجسد. كان مصدر الانطباع الذي تولّد لدى روممولا عن نظرته، الإحساس بالاهتمام بها والحرص عليها بمعزل عن أي شعور شخصي، والذي أوحت به هذه النظرة. كانت هي المرة الأولى التي واجهت فيها نظرة مركّزة عبّرت فيها الأخوة البشرية البسيطة عن ذاتها في شكل رباط كان الإحساس به قوياً. مثل هذه النظرة شكّلت نصف الدعوة التي جاء بها الكاهن أو المرشد الروحي للبشر، وشعرت رومولا، مرة أخرى، بأنه يستحيل الارتياب في السلطة

الممنوحة له لمخاطبتها. لبثت صامتة وهي تنظر إليه. ثم تكلّم ثانية.

" أنت تصرين على إثبات حريتك بكل إباء، يا ابنتي. لكن من هو أكثر وضاعةً من المدين الذي يعتقد أنه حر؟"

شعرت بوخز تلك الكلمات، وتغيّرت سحنة رومولا كما لو أن ضوءاً فجائياً غامضاً وشاحباً قد مرّ عبرها.

" وأنت تهربين من ديونك: دَين المرأة الفلورانسية، دَين الزوجة. أنت تديرين ظهرك للقسمة التي كانت من نصيبك – وترغبين في اختيار غيرها. لكن هل بإمكان الرجل أو المرأة اختيار الواجبات؟ لا مثلما أن ليس بوسعهما اختيار مسقط رأسيهما أو والدهما ووالدتهما. يا ابنتي، أنت تهربين من حضور الله إلى حيث القفر والتيه ".

بينما كان الغيظ يتلاشى من صدر رومولا كان يفسح مكاناً لهاجس جديد للقوة التي قد توجد في الإذعان، إذا كان لدى هذا الرجل الذي أخذت تنظر إليه بتوقير غامض، قانون صالح يبيّنه لها. لكن لا – مستحيل. ليس بوسعه أن يعرف ما الذي قوّى عزيمتها. ومع ذلك ما كان بوسعها أن ترفض مرة أخرى وببساطة قبول الاسترشاد. لقد أجبرت على أن تتضرع، وفي حاجتها الجديدة لأن تكون موقِّرة أثناء مقاومتها صعد اللقب الذي لم تعطه إياه قط إلى شفتيها دون تفكير مسبق.

" يا أبتاه، أنت لا تعرف الأسباب التي ترغمني على الرحيل. لا أحد غيري يعرفها. لا أحد يستطيع أن يحكم بالنيابة عني. لقد دفعني إلى ذلك غمّ عظيم. أنا مصممة على الرحيل ".

" أعلم بما فيه الكفاية، يا ابنتي: حتى هذه اللحظة مافتئ

ذهني يستقبل استنارة بشأنك، ما مكنني من أن أعرف بما فيه الكفاية. أنت لست سعيدة في حياتك الزوجية. لكنني لست بكاهن اعتراف، ولست أسعى لأن أعرف شيئاً يجب الاحتفاظ به حتى يمهر بخاتم الاعتراف. معي أمر إلهي بأن أمنعك، وهو لا يستند إلى مثل هذه المعرفة. أُرسل إليك إنذار من السماء، وقد سُلِّم بحضوري – تلقيتِ إنذاراً قبل الزواج حين كان ما يزال بإمكانك أن تكوني قانونياً في حلٍّ من رباط الزواج. لكنك اخترت الرباط. وبخرقك إياه عن سابق عمد وتصميم – أتكلّم إليك كوثنية، إذا لم يكن سر الزواج المقدس مقدساً بالنسبة إليك – فإنك تنكثين وعداً. من أية إساءات يمكنك أن تشتكي، يا ابنتي، في الوقت الذي تقومين أنت بارتكاب واحدة من أكبر الإساءات التي يمكن أن تقترفها امرأة ومواطنة – تنسحبين سراً ومتنكرة من وعد قطعته أمام الله وأمام بني جلدتك؟ من أية إساءات يمكن أن تشتكي، في الوقت الذي تقومين أنت نفسك بخرق أبسط قانون هو أساس الثقة التي تربط الإنسان بالإنسان– الوفاء للكلمة المنطوقة؟ أهذه، إذن، الحكمة التي اكتسبتها من ازدرائك لأسرار الكنيسة؟ – عدم رؤية واجب الأمانة الجلي، حيث كان يجب أن تعلّمك الكنيسة أن تتبيّني ليس الأمانة فقط، بل الدِين ".

تضرّج وجه رومولا، وانكمشت كما لو أنها تلقت صفعة. طفقت تقول: " ما كنت تنكّرت – " لكنها لم تقو على المتابعة، – لقد هزّها من الأعماق الإيحاء الذي جاء على لسان الأخ الراهب باحتمال وجود صلة بين تصرفها هي وتصرف تيتو.

" وبخرقك لذلك الوعد أنت تهربين من فلورانسة: فلورانسة حيث يوجد الناس الوحيدون في العالم الذين تدينين إليهم بدين أبناء جلدتك ".

قالت رومولا مرتجفة: " ما كنت لأغادر فلورانسة قط لو كان يوجد فيها أي أمل بوفائي بواجبي تجاه والدي ".

" وهل لا يوجد لديك أي رابط سوى رابط الدم للابنة تجاه أبيها؟ حياتك انقضت في عَمَه، يا ابنتي. لقد عشتِ مع أولئك الذين يجلسون على هضبة وحيدين، وينظرون لتحت إلى حياة أبناء جلدتهم. أنا أعرف خطابهم العبثي. فهو يدور حول ما كان موجوداً في الأزمنة التي يملؤونها بالحكمة التي تتهيأ لهم، بينما يزدرون صنيع الله في الوقت الحاضر. ودون ريب لقد تعلّمت كيف أنه كانت توجد نساء وثنيات شعرن بكنه أن يكرّس المرء حياته لأجل الجمهورية. ومع ذلك فلم تشعري أنت، المرأة الفلورانسية، قط بأنك يجب أن تكرسي حياتك لأجل فلورانسة. لو كان قومك يرزحون تحت نير، هل تروغين للإفلات منه، عوضاً عن أن تشتركي معهم في النضال للتخفيف من ألمه؟ في شوارعنا توجد فاقة وبؤس، ومع ذلك تقولين: " لا أبالي. لدي مآسيّ الخاصة. سأسافر بعيداً، إذا كان بإمكاني بحكم المصادفة أن أتخفف منها ".إن خدّام الله يناضلون سعياً لتحقيق قانون العدالة، والسلام، والمحبة، كيما تحكم العدالة مئات الآلاف من المواطنين الذين ولدت بين ظهرانيهم. لكن هذا لم يعد يعنيك، كما لو كنت عصفوراً يفرد جناحيه ويطير إلى حيثما يرغب بحثاً عن طعام يحب. ومع ذلك فقد

ازدريت تعاليم الكنيسة يا ابنتي. كما لو أنك لست أنت، جوّابة الآفاق العنيدة التي تتبع خيارها الأعمى، أدنى مرتبة من أكثر النساء الفلورانسيات تواضعاً، تلك التي تمدّ يديها لتساعد أبناء جلدتها، وتتمنى البركة لهم، وتشعر بأخوة وثيقة تربطها بالجار الذي يركع بجانبها وليست تربطها به صلة قربى، وتفكّر بالهدف الأعلى الذي رسمه الله لفلورانسة، وتنتظر وتتحمل لأن العمل الموعود عظيم، وتشعر بضآلتها ".

قالت رومولا وهي ترفع رأسها ثانية يحدوها دافع تبرئة نفسها: " لم يكن القصد من ارتحالي الراحة وإرضاء الذات، كنت راحلة إلى حيث توجد المصاعب. لا أتوخى فرحاً. لقد توارى من حياتي ".

" أنت تسعين وراء إرادتك، يا ابنتي. أنت تسعين وراء خير غير القانون الذي أنت ملزمة بإطاعته. لكن كيف ستعثرين على الخير؟ ليس هو بشيئ تختارينه: إنه نهر يجري من سفح العرش اللامرئي، ويجري جنب درب الطاعة. أعود فأقول لا يمكن للإنسان أن يختار واجباته. قد ترغبين في أن تتخلي عن واجباتك، وتتجنبي الغم الذي يتأتّى عنها. لكنك ستمضين في طريقك، وماذا ستجدين، يا ابنتي؟ الحزن من دون الواجب – أعشاب مرة، ولا من خبز معها ".

" لكن لو علمتَ "، قالت رومولا وهي تشبك يديها وتضغطهما بشدة، ناظرة بتضرع إلى الأخ جيرولامو " لو علمت حقيقة وضعي – كيف بدا لي أن تحمّله من باب المستحيلات".

قال مشيراً إلى الحبل الرفيع حول عنق رومولا: " يا ابنتي، أنت

تضعين شيئاً داخل ردائك، أخرجيه، وانظري إليه ".

ندّت عن روموﻻ جفلة خفيفة، لكن دافعها تمثّل الآن في إطاعة أوامر سافونا روﻻ. فارتيابها الذاتي قد أطبقت عليه إرادة أقوى من إرادتها، وإيمان أقوى من إيمانها. أخرجت الصليب. قال وهو ما يزال يشير إليه –

" هاتيك، يا ابنتي، صورة العطيّة العليا من لدن الحب الأعلى، لأن حاجة الإنسان عظيمة ".

توقف عن الكلام، أما هي فأمسكت بالصليب وهي ترتجف – ترتجف تحت وطأة شعور مفاجئ بالبون الشاسع بين حالها الحاضرة والسالفة. أي مسافة طويلة طوتها منذ أن استلمت ذلك الصليب من يدي الأخ الراهب! هل ما زال في الحياة من الأسرار ما كان فيها آنذاك، عندما كانت شابة ﻻ ترى الأمور على حقيقتها؟ كانت فكرة ساعدت كل المؤثرات القاهرة الأخرى، وعلى وقع صوت الأخ جيروﻻمو ثانية، ضغطت روموﻻ، بحركة سريعة ﻻ إرادية، الصليب على ردائها ونظرت إليه (سافونارولا–م) بخنوع أكبر من ذي قبل.

" وائمي حياتك مع تلك الصورة، يا ابنتي. اجعلي من أساك نذراً: وعندما تضطرم نار المحبة الإلهية بداخلك، وترين على ضوء تلك الشعلة حاجة أبناء جلدتك، لن تري نذرك كبيراً. لقد مشيت بافتخار، كواحدة لم ترَ أنها من سلالة العوام أو أفكار العوام، بل كنت كواحدة لم تولد لتكون مع الحياة الحقيقية للإنسان. ماذا!(بمعنى أيش!) تقولين إن حبك لوالدك لم يعد يدعوك للبقاء في فلورانسة؟ إذن، منذ أن انقطع

ذلك الرباط، فأنت بدون قانون، بدون دين: أنت لست بأفضل من أنثى حيوان في الحقل عندما يسرق منها صغارها. إذا كان توق الحب الجسدي قد تلاشى، فإنك بدون حب، بدون التزام. أترين، إذن، يا ابنتي، كيف أنك دون مستوى حياة المؤمن الذي يعبد تلك الصورة، صورة العطية العليا، ويشعر بتوهّج الحياة المشتركة مع الحشود الضائعة التي كرّست هذه الهبة لها، ويرى تاريخ العالم على أنه تاريخ افتداء عظيم يكون فيه هو نفسه شريكاً في العمل، في مكانه الخاص وبين شعبه الخاص! إذا احتضنت ذلك الإيمان، يا ابنتي الحبيبة، فلن تكوني جوّابة آفاق تهرب من المعاناة، وتسعى بدون تبصّر وراء خير حرية هي انعدام القانون. ستشعرين أن فلورانسة هي موئل روحك كما هي مسقط رأسك، لأنك ستبصرين العمل الذي ندبت إليه هناك. إذا هجرت موقعك، من سيملأه؟ يجدر بك أن تكوني في موقعك حالياً، تساهمين في العمل العظيم الذي سيطهّر الله بموجبه فلورانسة، ويرفعها لتكون هداية للأمم. ماذا! الأرض ملأى بالجور – ملأى بالآلام – النور ما يزال يتعارك مع ظلمة مهولة، وتقولين: " لا أستطيع أن أتحمّل روابطي، سأشقها نصفين، سأمضي حيث لا يطالبني بشر بشيء. يا ابنتي، كل رباط في حياتك هو دَين: الحق يثوي في تسديد ذلك الدَين. لا يمكن أن يثوي في مكان آخر. عبثاً ستضربين في الأرض، ستضربين للأبد بعيداً عن الحق ".

كانت رومولا تصارع في داخلها قوى شديدة البأس: ذلك التأثير الشخصي الهائل لسافونا رولا الذي أتى من الطاقة المختزنة في

عواطفه وإيمانه. وشعورها، المتغلّب على كل الأهواء، بأن كلماته كانت تنطوي على قانون أسمى من أي قانون أطاعته حتى الآن. لكن الأفكار الممانعة لم تهزم بعد.

" كيف، إذن، يمكن أن يكون دينو محقاً؟ لقد فصم عرى الروابط. لقد ترك موقعه ".

" تلك كانت دعوة خاصة. لقد اضطر للمغادرة، وإلا لما كان وصل إلى الحياة الأسمى. كانت ستختنق في داخله ".

قالت رومولا، رافعة يديها إلى جبينها، ومتكلمة بنبرة ألم، كما لو أنها كانت تُجرّ إلى نوع من أنواع العذاب: " وأنا أيضاً. يا أبتاه، من الجائز أنك تجانب الصواب ".

" سلي، ضميرك، يا ابنتي. ليس لديك دعوة ربانية مثلما حدث لأخيك. أنت زوجة. أنت تسعين وراء كسر روابطك بإرادة منك وغضب يتملكك، ليس بسبب أن الحياة العليا تناديك لنبذ هذه الأشياء.إن الحياة الأسمى تبدأ بالنسبة لنا، يا ابنتي، عندما ننكر إرادتنا الخاصة لننحني أمام قانون إلهي. ذلك يبدو صعباً عليك. إنه المدخل إلى الحكمة، والحرية، والبركة. وإن الرمز لذلك يتدلى أمامك. تلك الحكمة هي دِين الصليب. وأنت تقفين بعيدة عنها: أنت وثنية. لقد علّموك القول: " أنا مثلي مثل الناس العقلاء الذين عاشوا قبل الزمن الذي صلب فيه يسوع الناصري ". تلك هي حكمتك! أن تكوني كما الموتى الذين أغلقوا عيونهم، وأصمّوا آذانهم لعمل الله الذي وجد منذ زمانهم. ما الذي أفادتك حكمتك الميتة، يا ابنتي؟ لقد تركتك دون قلب يتعاطف مع

الجيران الذين تعيشين بين ظهرانيهم، ودون اكتراث للعمل العظيم الذي سيبعث فلورانسة من جديد ويجعل العالم قدسياً. لقد تركتك دون حصة من الحياة الإلهية التي تطفئ إحساس الذات المكابدة في حميّا الحب الذي لا يتوقف عن النمو. والآن، عندما اخترق السيف روحك، تقولين: " سأرحل، لا يمكنني أن أتحمّل أساي ". ولا يهمك في شيء الأسى والإساءة اللذان يقبعان داخل أسوار المدينة حيث تقطنين. سيبقى مكانك شاغراً، في الوقت الذي يجب أن يكون مملوءاً بشفقتك وكدّك. إذا كان هناك شرور في الشوارع فإن خطواتك ستشعشع بنور الطهارة. إذا كان هناك صرخة ألم، أنت، يا ابنتي، لأنك تعرفين معنى الصرخة يجب أن تكوني حاضرة لإخمادها. يا ابنتي الحبيبة، لقد جاء الحزن ليعلّمك عبادة جديدة: شارته تتدلى أمامك".

ما انفك ذهن رومولا نهباً للصراع. فقد استشرفت أمر إذعانها لسافونا رولا والعودة: وقعت عليها كلماته كما لو أنها كانت تفسيراً لذلك العيف من سهولة الحياة التي تقنع بها الذات، وتلك الأخوة الجديدة مع الألم، والتي استيقظت من قبل فيها. لقد أدخل صوته الذي يستحوذ على المرء حالة جديدة إلى حياتها، مما جعلها ترى أن من المستحيل أن تتابع طريقها كما لو أنها لم تسمعه. ومع ذلك فقد أحجمت مثل واحدة ترى الطريق الذي يجب أن تسلكه، لكنها ترى، أيضاً، أن سائل الحمم البركانية ينتظرها هناك. والإحجام الغريزي عن العودة لزوجها جاءت الشكوك بركابه. أبعدت بصرها عن الأخ جيرولامو، ووقفت لدقيقة أو اثنتين، تشبك يديها المدلاّتين أمامها، مثل تمثال. وأخيراً

تكلّمت كما لو أن الكلمات قد عُصرت عصراً منها ونظرها لا يزال مثبّتاً على الأرض.

" زوجي... إنه ليس... لقد مات حبي! "

" يا ابنتي، هناك رابط حب أسمى. الزواج ليس شهوة فقط، اخترع لمتعة الذات. أترين إلى أين تقودك تلك الفكرة! إنها تقودك للابتعاد، متدثرة برداء مزيف، عن كل التزامات موقعك واسمك. وهذا ما كان ليكون لو علمتِ أنه قسَم قدسي، لا يمكن لأحد أن يعتقك منه سوى الله. يا ابنتي، حياتك ليست حبة رمل تذروها الريح، إنها شيء من لحم ودم، وهي تموت إذا انشطرت نصفين. زوجك ليس شريراً؟

جفلت رومولا " حاشا! لا، لا أتهمه بشيء ".

" لم أفترض أنه شرير. قصدت أنه لو كان شريراً فإن مكانك سيكون في السجن بجانبه. يا ابنتي، إذا جاءك الصليب كزوجة، فيجب أن تحمليه كزوجة. ربما تقولين:" سأهجر زوجي، لكنك لن تستطيعي الكفّ عن أن تكوني زوجة ".

شرعت رومولا تقول بصورة لاإرادية شيئاً كانت تسعى لطرده من ذهنها مرة ثانية: " لكن إذا – أوه، كيف لي أن أتحمّل – "

" اجعلي من أحزانك الزوجية نذراً، أيضاً، يا ابنتي: نذراً للعمل العظيم الذي بموجبه تكفّ الخطيئة والحزن من الوجود. مؤكدة هي النهاية، وها قد بدأتْ مسبقاً. هنا في فلورانسة هي تبدأ، وعين الإيمان ترصدها. وربما كان من نِعَم الله علينا أن نموت في سبيلها: أن نموت يومياً عن طريق صلب إرادتنا الأنانية – أن نموت أخيراً وجسومنا

ممددة على المذبح. يا ابنتي، أنت ابنة فلورانسة. قومي بواجبات ذلك الإرث العظيم. عيشي لأجل فلورانسة – لأجل شعبك، الذي يحضّره الله لبركة العالم. تحمّلي الكرب والألم. الحديد ماضٍ وقاطع – أعلم، أعلم – إنه يمزّق اللحم الغض. الجرعة عبارة عن مرارة على الشفاه. لكن هناك فرحاً في الكأس – هناك الرؤيا التي تجعل كل حياة دونها خَبَثاً للأبد. هيا، يا ابنتي، عودي إلى موقعك! ".

بينما كان سافونا رولا يتكلّم بنبرة متنامية الشدة، وذراعاه ما تزالان مكتّفتين بشكل مشدود أمامه، كما كانتا في البداية، لكن وجهه مضاء كما لو من شعلة داخلية، شعرت رومولا أنها محاصرة ومسكونة بوهج إيمانه المفعم بالعاطفة. لقد ذابت الشكوك الباردة كلها. لقد غلبها الإحساس بشيء عظيم لا يمكن تصوّره كان يندبها إليه كائن قوي أيقظ قوة جديدة في داخلها. وبصوت كان أشبه بصرخة خافتة مفعمة بالصلاة، قالت –

" يا أبتاه، أنا مستعدة للهداية. علّمني!(2). سأرجع ".

خرّت ساجدة على ركبتيها بصورة تكاد تكون لا شعورية. بسط سافونا رولا يديه فوقها، لكن الشعور أبى أن يمرّ عبر قناة الكلام، وخلد (هو) للصمت.

الفصل الحادي والأربعون
العودة

قال الأخ جيرولامو أخيراً: " انهضي، يا ابنتي. خادمك ينتظر غير بعيد من هنا ومعه البغال. حان الوقت كي أتابع سفري إلى فلورانسة ".

نهضت رومولا من جثوها على ركبتيها. وقد شعرت أن وضعية الصمت تلك كانت أشبه بالسر المقدّس، مما أكّد حالة الامتثال التوّاق التي ولجتها مؤخراً. وبتخلّيها عن عزمها على ترك زوجها بدت إرادتها وقد تهشمت، مما جعلها تشعر بالحاجة للتوجيه حتى في الأشياء الصغيرة. رفعت طرف غطاء رأسها، وشاهدت ماسو والراهب الدومينيكي الثاني يقفان على مبعدة عشر ياردات منها على طرف الهضبة ينظران في الاتجاه المعاكس. ومرّة أخرى نظرت إلى سافونارولا دون أن تفوه بشيء كما لو أن الأمر الذي يجب أن يعطى إلى ماسو للعودة يجب أن يصدر عنه وليس عنها.

قال جواباً على نظرتها التوسلية: "سأذهب وأدعوهما، وسأزكيك، يا ابنتي، للأخ الذي يصحبني. أنت ترغبين في الهداية، وتعلّم تلك الحكمة التي كنت ترينها حتى الآن مجرد حماقة. إن المدخل الرئيس لتلك الحكمة هو سرّ الاعتراف. ستكونين بحاجة إلى كاهن اعتراف، يا ابنتي، وأرغب في أن يتولى رعايتك الأخ سالفيسترو(1)، أحد الأخوة في دير سان ماركو، والذي يحوز على كامل ثقتي ".

قالت رومولا وقد بدت غير مرتاحة: " لست أرغب في هداية سوى تلك التي تأتي من لدنك، يا أبت ".

" يا ابنتي، مهنتي ليست كاهن اعتراف. إن الدعوة الربانية التي ندبت إليها تبعدني عن المساعي التي تجبرني على أن أكون على تماس مستمر مع العامّة، وهي تتعارض مع واجباتي الخاصة ".

قالت رومولا فجأة نتيجة الاضطراب المتفاقم: " إذن ألن يكون باستطاعتي أن أتحدث إليك على انفراد؟ إذا وهنت عزيمتي، إذا –". شعرت بذعر مفاجئ مخافة أن تتلاشى قوتها الجديدة في التخلي عما نوتْه إذا تلاشى التأثير الشخصي المباشر لسافونا رولا.

" يا ابنتي، إذا استلزمت روحك الكلمة على انفراد من شفتي فيمكنك أن تطلعيني على ذلك من خلال الأخ سالفيسترو، وسأقابلك في غرفة ملابس الكهنة أو في مكان وقوف جوقة كنيسة سان ماركو. ولن أتوقف عن الاطمئنان عليك. سأعطي التعليمات إلى أخي فيما يتعلق بشؤونك، حتى يرشدك على درب العمل ذاك لأجل المكابدين والجوعى، والذي ندبت إليه كابنة لفلورانسة في أوقات الحاجة الماسّة هذه. أمنيتي أن أراك وسط الأخوات الأكثر وهناً والأكثر جهلاً كما شجرة التفاح وسط أشجار الغابة، حيث تكون سماحتك وكل مواهبك الفطرية بمثابة مصباح يشع من خلاله النور الإلهي بصورة أكثر نقاء. سأذهب الآن وأدعو خادمك ".

عندما أُمر ماسو أن يسبقهم تقدّم الأخ سالفيسترو، وقام سافونا رولا بأخذ رومولا إليه. شعرت مسبقاً بانكماش داخلي من مرشد جديد

كان غريباً تماماً بالنسبة إليها: لكن رفض نصيحة سافونا رولا سيكون عبارة عن اتخاذ موقف الاستقلالية في وقت يجب أن تستمد كل قوتها من تخلّيها عن الاستقلالية. وكانت كل رغبتها الآن تنصبّ على فعل المؤلم أكثر من السهل. انحنت باحترام للأخ سالفيسترو قبل أن تنظر إليه مباشرة. بيد أنها، عندما رفعت رأسها ونظرت إليه مباشرة استحالت عدم رغبتها ريبة تسارعت معها دقات قلبها. هناك من الناس من يبثّ وجودهم الثقة والاحترام، وآخرون يتحتم علينا أن ننقل إليهم ثقتنا وتوقيرنا بشكل جاهز. وذلك الاختلاف لمع فجأة على رومولا كالبرق عندما لم يعد سافونا رولا أمامها، وشاهدت عوضاً عنه الأخ سالفيسترو ماروفي. لم يكمن السبب في أن هنالك شيئاً منفّراً في وجه الأخ سالفيستروومسلكه، أوأي إيحاء بالرياء، أوأي أثر للغلظة. كان وجهه على ملاحة أكبر من وجه الأخ جيرولامو، وقامته أطول قليلاً.كان كاهن الاعتراف المعتمد لدى أوساط كبار الشخصيات في فلورانسة منذ زمن، وتسنت له بالتالي خبرة كبيرة كمرشد روحي. لكن وجهه كان ينمّ عن تعبير متذبذب لذهن غير قادر على أن يركّز ذاته بشدّة في قناة عاطفة واحدة عظيمة أو إيمان واحد عظيم – وهذا تعبير ذو تأثير خطر على طبع متوقد كطبع رومولا. مثل هذا التعبير ليس علامة على عدم الوفاء. إنه ببساطة علامة على روح ضحلة نقع عليها مراراً تجاهد بكل إخلاص تلبية لدعوة ربانية، بكل إخلاص تكوّن هيئتها بما يتلاءم مع منطوق الصيغ السامية، لكنها تجد العضلات تتقلّص بقوة أو تنبسط رغم الإيمان، كما يلح النثر على الخروج عوضاً عن الشعر

عند شخص ليس عنده السعار الإلهي. كان الأخ سالفيسترو يتميّز باستعداد خاص للرؤى، وفي هذا يستند بشكل واضح على بنية تعودت على السرنمة (سير النائم ليلاً–م). كان سافونا رولا يؤمن بالطابع فوق الطبيعي لهذه الرؤى، بينما رفض الأخ سالفيسترو في الأصل مثل هذه التفسيرات لها، بل ولام سافونا رولا على وعظه التنبؤي: وهذا برهان آخر، إن كانت الحاجة تدعو لأي برهان، على أن العظمة النسبية للناس يجب ألا تقاس بميلهم لعدم تصديق خرافات عصرهم. إذ من بين هذين الاثنين لا مجال للبحث في أيهما هو الشخص العظيم وأيهما الضئيل الشأن .

هذا، وقد قيس الفارق بينهما بدقة شديدة عن طريق التغيّر في مشاعر رومولا عندما بدأ الأخ سالفيسترو يخاطبها بعبارات النصح والتشجيع. بعد أن تلاشت مقاومتها الغاضبة الأولى لسافونا رولا نسيت تماماً الرهبة الأولى لئلا يجرّها أي تأثير إلى داخل دائرة التعصب والورع الرهباني الصارم. لكن ها هو الآن مرة أخرى يتسرب إليها نسيم تلك الرهبة التي يقشعرّ لها البدن. لم يكن لها أي تأثير حاسم يقف في وجه الدافع الذي تلقفه تفكيرها للتوّ. لم تكن أكثر من حَجْب الغيوم المكفهرّة لشروق الشمس، مما جعل طريق عودتها رتيباً ومقبضاً للصدر.

وربما من بين كل الطرق المقبضة التي نعود إليها بعد وطئها بعزم قوي يبرز ذاك الطريق الذي يختبر بشدة حمأة الرفض. عندما دخلا أبواب المدينة كانت نتف الثلج تتساقط من حولهما، وعندما

هرعت الأخت القاتمة اللباس صوب البيت من ساحة سان ماركو، ووطئت قدماها الجسر ثانية، وانعطفت عند الباب الكبير في فيا دي باردي ارتسمت آثار قدميها بسواد واضح على بساط الثلج الرقيق، وتدلّى غطاء رأسها مثقلاً ومبللاً على جانبي وجهها.

صعدت إلى غرفتها، خلعت رداءها الصوفي الخشن، وأتلفت رسائل الوداع، وأعادت كل مقتنياتها الصغيرة الثمينة، وفكّت رباط شعرها، ثم ارتدت فستانها الأسود العادي. وعوضاً عن أن تقوم بسياحة مثيرة طويلة كان عليها أن تجلس في مكانها المعتاد. سقط الثلج على النوافذ، وجلست لا يشاركها جلستها أحد.

شعرت بالوحشة، لكن شجاعتها كانت في أوجها، مثل شجاعة منقّب وقع على علامات جديدة دالّة على الذهب. عزمت على شق طريقها في الحياة على هدى دليل جديد.لقد تخلّت عن كامل طاقتها على الرفض. بقي المعبد الصغير الفارغ مغلقاً، وقامت بوضع صليب دينو خارجه.

لم يكسر أي شيء الرتابة الظاهرة في بيتها المنعزل إلى أن جنّ الليل على النوافذ مثل شبح أبيض. ومع ذلك فقد كانت، بالنسبة لرومولا، عشية عيد ميلاد لا تنسى، هذه العشية من عام 1494.

الفصل الثاني والأربعون
رومولا في مسكنها

كان يوم الثلاثين من تشرين الأول 1496. في ذلك الصباح تميّز الجو بقدر كاف من الصفاء، وبنسيم خريفي منعش. إنما، في تلك الآونة بالذات، لم ينشغل الفلورانسيون إلا قليلاً بالنسائم التي هبت على البر: كانوا يفكرون بالعواصف البحرية، تلك التي بدت أنها عقدت حلفاً مع كل القوى الأخرى لتدحض إعلان الأخ الراهب بأن السماء تولّت فلورانسة بعناية خاصة.

ذلك أن تلك العواصف الرهيبة قد ساقت بعيداً عن ساحل ليغهورن بعض السفن من مرسيليا، محمّلة بالجند والحبوب: وفلورانسة كانت في أمس الحاجة، أولاً للطعام، وثانياً للمقاتلين. فالمجاعة الكالحة كانت ثاوية في شوارعها، وأرضها مهددة من جميع جوانبها.

ذلك أن الملك الفرنسي، شارلمان الجديد ذاك، وكان قد دخل إيطاليا متوقعاً الانتصار، وفتح نابولي بدون أية مشاكل تذكر، قد رحل مرة أخرى منذ خمسة عشر شهراً، بل كان يخشى أن يفقد، في غمرة حزنه على فقده مولوده الجديد (1)، النية الفاترة للعودة مرة ثانية ليزيل مظالم الناس ويرتّب شؤون الكنيسة. وقد تشكل حلف ضده – حلف مقدس، يترأسه البابا بورجيا لـ " طرد البرابرة " الذين كانوا ما يزالون

يتمركزون في قلعة نابولي. وقد كان لذلك صدى وطني، لكن عند النظر عن كثب أكبر بدا الحلف المقدس أشبه جداً باتفاق بين بعض الذئاب لطرد كل الذئاب الآخرين، وبعدها يكتشفون مَنْ من بينهم ستكون له حصة الأسد من الفريسة. وكان هناك ميل عام لاعتبار فلورانسة ليس ذئباً مشاركاً بل بالأحرى جثة مشتهاة. ولذلك من بين كل الولايات الإيطالية الرئيسة امتنعت فلورانسة وحدها عن الانضمام للحلف وبقيت على التزامها بالحلف الفرنسي.

لكن امتناعها لم يخلُ من مخاطر. في هذه الآونة لقيت بيزا، التي كانت لا تزال تقاتل بضراوة لاسترداد حريتها، التشجيع ليس من قبل القوات الشديدة البأس من البندقية وميلانو فحسب، لكن من وجود الإمبراطور الألماني مكسيميليان الذي كان الحلف قد دعاه، وكان يضمّ إلى صفوف البيزيين (أبناء بيزا) أولئك القوات التي تسنّت له في محاولة للاستيلاء على ليغهورن، بينما كان الشاطئ يخضع لحصار سفن البندقية وجنوة. وإذا ما وقعت ليغهورن في أيدي الأعداء، فالويل لفلورانسة! ذلك أنه إذا تم إغلاق ذلك المنفذ البحري، أضف إلى ما يضمر لها البابا من شر على البر، والحسد الذي ينالها من الدويلات الأصغر، فمن أين ستأتيها النجدات؟

أظهرت حكومة فلورانسة شجاعة فائقة أثناء هذه الحاجة الماسة، وواجهت الخسائر والهزائم بجهد نشِط حيث قامت بجمع الأموال، وجنّدت قوات جديدة، لكن دون إهمال الاسلوب القديم والجيد الذي مارسه الدفاع الإيطالي- ألا وهو السفارات التصالحية. وبينما

كانت ندرة الطعام تتفاقم كل يوم صمموا، مناقضين سابقة قديمة، على ألا يوصدوا الباب في وجه السكان الجائعين والمتسولين المطرودين من أبواب المدن الأخرى، والذين أتوا زرافات إلى فلورانسة مثل طيور هاجرت من بلاد الثلج.

هذه الأعمال من جانب الحكومة التي شكّل فيها مريدو سافونا رولا العنصر الأقوى لم تكن لتمرّ دون انتقادات. كان عدد الساخطين كبيراً، وقد تبيّن لهم بوضوح أن الحكومة سلكت أسوأ الطرق المضرّة بالصالح العام. يجب على فلورانسة أن تنضم إلى الحلف وتوحّد قضيتها مع قضية الدويلات الإيطالية العظمى، عوضاً عن إثارة عدائها عن طريق التحالف غير المجدي مع حليف أجنبي. يجب على فلورانسة أن تعتني بمواطنيها عوضاً عن فتح أبوابها للمجاعة والأوبئة المتمثلة في فلاحين يتضورون جوعاً ومتسولين أجانب.

ومع مرور كل يوم كانت الأزمة تزداد حدّة: مع مرور كل يوم كان صوت الهمسات يعلو. وتتويجاً للصعوبات التي واجهتها الحكومة، ولمدة شهر ونيّف– وفي إطاعة لأمر من روما – توقف الأخ جيرولامو عن الوعظ. لكن عند وصول الأنباء المرعبة التي تفيد أن السفن من مرسيليا قد ردّت على أعقابها، وأن واردات الحبوب توقفت أصبحت الحاجة لصوت يبثّ الإيمان والصبر في صدور الناس، أكثر إلحاحاً، ومن الصعب مقاومتها. وفي تحدٍّ للأمر البابوي طلب السينوريا من سافونا رولا أن يستأنف الوعظ. ومنذ يومين اعتلى منبر الكنيسة وأخبر جماهير الشعب أن عليهم الانتظار والصمود فقط والعون الإلهي لا بد

قادم.

كانت موعظة جريئة: فقد قبل أن ينزع عنه رداء الرهبنة إذا، مع مثابرة فلورانسة على القيام بواجبات التقوى والمواطنة، لم يأت الله لنجدتها.

لكن في هذه الآونة، صبيحة الثلاثين، لم تظهر أية إشارات على الإغاثة(2). ربما لو أحضر معبد سيدة إمبرونيتا الصغير الثمين إلى فلورانسة، وحملته مواكب الأتقياء إلى الكنيسة، لتضرعت تلك الأم، المفعمة بالحزن وبالتالي بالرحمة لأجل المدينة المكابدة؟ لمدة قرن ونصف لم تنفكّ السجلات عن ذكر كيف أن الفلورانسيين، الذين كابدوا القحط، أو الفيضانات، أو المجاعة، أو الأوبئة، أو خطر الحروب، قد جاؤوا بالصورة المفعمة بالقوة إلى داخل أسوار مدينتهم، وجاءهم الخلاص. وكاعتراف بالجميل جرى تكريم لها ولكنيستها العريقة، كنيسة إمبرونيتا. وكان على البيت العريق، بيت بونديلمونتي، رعاة الكنيسة، أن يحرسوا صورتها المخفية بالسيف وحده. انصبت الأموال لأجل رفع الصلوات عند مقام العذراء، وعلى المدائح، والمعابد، والمصابيح التي لم تعرف الانطفاء. وأضيفت أراضٍ، حتى تفاقم الشجار لاستحواذ حظوة خدمتها. كان الفلورانسيون على قناعة تامة بكرمها نحوهم لذلك كان منظر معبدها الصغير داخل أسوار مدينتهم أشبه بانقشاع الغيمة، وضرب المثل بأنه توافر لفلورانسة عذراء لا تتوانى عن تلبية أي شيء يطلبونه منها.

متى كانوا في أمس الحاجة إلى شفاعتها أكثر من الآن؟

وقبل الآن، في المساء الفائت، أحضر مجسم المعبد الصغير الذي يحوي الصورة الخفية العجائبية بكل وقار وسمو من إمبرونيتا، البقعة المميزة التي تبعد ستة أميال عن بوابة سان بييرو المواجهة لروما، ووضع في كنيسة سان غاجيو، خارج المدخل، حيث تقرّر أن تحضره من هناك في موكب مهيب كل الأخويات، والنقابات والسلطات في فلورانسة.

لكن الأم الرؤوم لم تكن بعد قد وصلت إلى داخل الأسوار، وطلع الصباح على البؤس والقنوط المعهودين. كان الوباء يحوّم في أعقاب المجاعة. لم تكن المشافي وحدها ممتلئة، بل حوّلت باحات البيوت الخاصة إلى ملاجئ ومستشفيات مؤقتة، ورغم ذلك تبقّى أناس كانوا بحاجة لمن يؤويهم. وجرياً على العادة، في هذا الصباح الباكر، قام أعضاء مختلف الأخويات الذين اعتبروا أن من واجبهم دفن الموتى الأعداء، بنقل الجثث التي انطرحت على قارعة الطريق. وكالعادة أخذت شخوص نسائية جميلة، على ملامحها سِمات الدماثة وكرم المحتد، إنما بأبسط زي، تطوف في الشوارع تمارس مهماتها اليومية من رعاية للمرضى وتخفيف لآلام الجياع.

وقد ميّزت العين إحدى هذه الشخوص بسهولة تامة على أنها رومولا دي باردي. وإذ كانت متدثّرة بأبسط رداء من القماش الصوفي الأسود، وتضع على رأسها قطعة بسيطة من الجوخ الأسود كي تخفي كامل شعرها، باستثناء شرائط من الذهب كانت تترجرج متباعدة على جبينها، وآتية من ناحية جسر فيتشيو باتجاه بور سانتا

ماريا – ذلك الشارع الذي يسير على خط واحد مع الجسر – إذا بها تجد طريقها مسدوداً بسبب توقّف أحد النعوش الذي كان يحمله أفراد من أخويّة سان جاكوبو ديل بوبولو، بحثاً عن الموتى الذين لم يدفنوا. كان الأخوة عند رأس النعش منكبي الرؤوس يفحصون شيئاً ما، بينما أخذت مجموعة من العمال العاطلين ذوي ملامح شحبت وبرزت من جرّاء الجوع، يتحلّقون حوله، وكان الجميع يتحدثون في وقت واحد.

" إنه ميت، أنا واثق! سيد دومينيديو أحبه بما فيه الكفاية ليأخذه ".

" آه، وسيكون خير لنا جميعاً إذا أمكننا أن نمدّ أرجلنا، ورؤوسنا أمامنا لاثنين أو ثلاثة bracci!(3) كم هو سيء أن تبقى واقفاً على رجليك لا يسندك إلا الجوع ".

" حسن، حسن، إنه عجوز. لقد عقد الموت صفقة خاسرة. لقد امتصت الحياة أفضل ما عنده ".

"وليس فلورانسياً، أراهن عشرة مقابل واحد! شحاذ مطرود من سيينا. ارحمنا يا سان جيوفاني! ليسوا بحاجة لجنود ليحاربونا. إنهم يرسلون لنا جيشاً من الجياع ".

" لا، لا! هذا الرجل هو واحد من السجناء الذين طردوا من السجن. أنا أعرف من البقعة الرمادية مكان شارة السجن ".

" صه! ساعدني! ألا ترى الأخوة يهمّون برفعه إلى النعش؟"

" من المحتمل أن يكون حياً بما فيه الكفاية لو تسنّى له فقط أن يبدو كذلك. قد تكون الروح لا تزال بداخله لو تسنّى لها قطرة واحدة

فقط من نبيذ vernaccia (4) لتدفئها ".

قال أحد الأخوة عندما رفعوه إلى النعش: " وأيم الحق، لا أعتقد أنه ميت "، ليضيف من ثمة

:" ربما سقط مغشياً عليه بسبب عوز الطعام ".

قالت رومولا، وهي تقترب منهم: " دعوني أجرّب إعطاءه شيئاً من النبيذ ". فكّت رباط الزجاجة الصغيرة التي حملتها على زنّارها، وقامت، وهي منكبّة فوق الجسد الطريح، بوضع أداة صغيرة من العاج بيد ماهرة بين أسنانه، وصبت داخل الفم بضع قطرات من النبيذ. وقد فعل المنشّط فعله: ظهر واضحاً أن النبيذ قد ابتلع في الحال. صبّت المزيد إلى أن تحرك الرأس قليلاً نحوها، وفتح العجوز عينيه ناظراً إليها مباشرة نظرة غامضة لشخص استفاق من إغماء.

على أثر ذلك اعترى رومولا، وللمرة الأولى، شعور بالتعرّف التام. تانك العينان السوداوان المرعبتان المفتوحتان في الوجه الشاحب الغائر الخطوط، ذي اللحية البيضاء، والتي استطالت من جديد، كانتا أشبه بتوقيع لا تخطئه العين على كتابة بخط اليد استرجعتها الذاكرة. لم يجعل نور فصلين صيفيين تلك الصورة أكثر خفوتاً في ذاكرة رومولا: صورة السجين الهارب الذي لمحته في الكنيسة يوم ارتدى تيتو الدرع أول مرة – حيث امتقع لون تيتو من جرّاء الرعب الذي تملّكه عندما أمسك به الرجل في اللوحة الغريبة التي كانت شاهدتها في مرسم بييرو. تملّكتها رجفة واختلاج يشيان بالتعاسة. أخيراً لعلها كانت على وشك معرفة سرٍّ قد يفوق في مرارته كل ما عداه. شعرت بالرغبة في

الهروب كما لو من منظر مرعب، ومرة ثانية شعرت بحاجة ماسة للبقاء بجانب هذا العجوز الذي، كما أنبأها شعورها الثاقب، تعرّض للضيم من جانب زوجها. وفي لحظة هذا الصراع عينه استمرت على انحنائها نحوه، وبقيت يدها اليمنى جاهزة لسكب المزيد من النبيذ، بينما وضعت يدها اليسرى تحت رقبته. ارتجفت يداها لكن العادة التي درجتا عليها في تقديم المساعدة التي تخفف الألم كانت جاهزة لإرشادهما دونما حاجة لإرشاد من لدن تفكيرها.

كان بالداسار ينظر إليها للمرة الأولى. فالعزلة التامة التي عاشتها رومولا بسبب المشاكل التي تعرضت لها في الأسابيع التي سبقت هروبها، والقبض عليه، حرمته من الفرصة التي سعى إليها لرؤية الزوجة القاطنة في فيا دي باردي: في هذه اللحظة كانت الأوصاف التي سمعها عن المرأة الجميلة ذات الشعر الذهبي قد تلاشت مثل أمواج الأمس.

قالت رومولا: " أليس من الأفضل نقله إلى درَج سان ستيفانو؟ عندئذ لن نحتاج لإيقاف الحركة في الشارع، وبإمكانكم أن تتابعوا طريقكم مع نعشكم الذي تحملونه ".

لم يتقدموا أكثر من ثلاثين ياردة وإذا بهم يصلون إلى درج كنيسة سان ستيفانو. وبحدود هذا الوقت كان بالداسار نفسه قادراً على بذل بعض الجهد للخروج من النعش والتحامل على الدرج قبالة مدخل الكنيسة. استمر الأخوة المحسنون في مرورهم، لكن مجموعة المشاهدين الفضوليين الذين لم يكن عندهم شيء للفعل وإنما الكثير

للقول قد ازداد عددها بشكل كبير. لم يكن الشعور تجاه العجوز شعوراً ودياً بالكامل أما وأنه قد تأكد الآن أنه كان على قيد الحياة، لكن الاحترام الذي أضفاه وجود رومولا جعل الملاحظات العابرة التي قيلت تتم بلهجة أخف حدة نوعاً ما من ذي

قبل.

" آه، كانوا يقدمون له الزاد كل يوم في السجن – لهذا السبب لا يستطيع فعل أي شيء كما يجب بدونه. أنت وأنا، يا سيتشيو، نعلم أفضل من غيرنا ماذا يعني أن نأوي للفراش ونحن صيام ".

" !Gnaffè لهذا السبب أخرج الثمانية الكبار بعض المساجين ليتمكنوا من إيواء بعض الناس الشرفاء عوضاً عنهم. لكن إذا كان كل لص يردّ إلى الحياة بجيّد النبيذ والخبز المصنوع من القمح فخير لنا، يا سيومبي، أن نملأ بطوننا من نهر آرنو حين يكون الماء فيه عميماً ".

كانت رومولا قد اتخذت مجلسها على الدرج بقرب بالداسار، وكانت تقول له: " هل تستطيع أن تأكل قليلاً من الخبز الآن؟ ربما استطعت شيئاً فشيئاً إذا تركته لك. يجب أن أمضي لأنني وعدت أن أكون في المشفى. لكنني سأعود إذا ما انتظرت هنا، ثم آخذك إلى أحد الملاجئ. فهمت؟ هلاّ انتظرت؟ سأعود إليك ".

نظر إليها كما لو في حلم وكرر كلماتها " سأعود ". لا غرابة أن يكون الوهن قد أصاب عقله بسبب الإرهاق الجسدي، لكنها كانت تأمل أن يكون قد فهم ما تعنيه. فتحت سلتها التي كانت ملأى بقطع الخبز اللين، ووضعت إحدى القطع في يده.

" هل تحتفظين بخبزك لأولئك الذين يعسر عليهم البلع، يا سيدتي؟ " قال رجل خشن الملامح يعتمر طاقيّة نوم حمراء، كان قد شق طريقه إلى حلقة تقع في عمق حشود المتفرجين – حلقة كانت تضيق أكثر فأكثر حول رومولا.

قال آخر: " إذا لم يكن أحد يتضوّر جوعاً، لعلي أقول، دعيه وشأنه. إن وضعه أفضل من أصحاب المعد المتشهية الذين يعدمون الفطور ".

" أجل، حقاً. إذا كان الشخص مصمماً على الموت فالوقت حان لتشجيعه بدلاً من جعله يعود إلى الحياة ضد رغبته. الموتى ليسوا بحاجة إلى نقّالة ".

قال شاب في معطف من فاخر القماش لم يكن وجهه يشي بأمارات الفاقة: " أوه، أنتم لا تفقهون محبة الخير لدى الأخ الراهب. كان الأخ الراهب يعظ العصافير، مثل القديس أنطوني (5)، وكان يقول للصقور إنها خلقت لإطعام عصافير الدوري مثلما أن كل مواطن فلورانسي صالح خلق ليطعم ستة متسولين يتضورون جوعاً من أريتزو أو بولونا. السيدة الواقفة هناك هي بيانونية مؤمنة: فهي ليست مستعدة لأن تلقي بخبزها الرحيم على مواطنين شرفاء لديهم كل نبوءات الأخ الراهب ليزدردوها ".

قال صاحب القلنسوة الحمراء: " هيا، يا سيدتي. اللص العجوز لا يأكل الخبز، كما ترين: خير لك أن تجرّبيه علينا. نحن نصوم كثيراً، لقد غدونا أنصاف قديسين ".

ضاقت الحلقة إلى حدّ لم يترك الناس الأجلاف – ومعظمهم كان ضامر الجسم من الفاقة – أي هامش للحركة حول رومولا. تناولت من سلتها فنجاناً صغيراً له يد ووضعت بداخله قطعة الخبز وبللتها بالنبيذ. حتى هذه اللحظة لم يبد عليها أنها أعارتهم أي اهتمام. لكنها وقفت، في هذه الأثناء، ونظرت باتجاههم. وبصورة غريزية تدافع الأشخاص الأقرب إليها قليلاً نحو الخلف كما لو أن قربهم الفظ كان غلطة الواقفين خلفهم. رفعت رومولا سلة الخبز للرجل المعتمر طاقية النوم،

وقالت، وهي تنظر إليه، دون أي تأنيب –

" يصعب تحمّل الجوع، أعرف ذلك، بإمكانكم أن تأخذوا هذا الخبز إذا أردتم. لقد ادّخر للمرضى من النساء والأطفال. أنتم رجال أقوياء. لكن إذا شئتم ألا تقاسوا لأنكم أقوياء فبإمكانكم أخذ كل شيء من الضعفاء. يمكنكم أن تأخذوا الخبز من هذه السلة، لكنني سآخذ حذري وأنا بقرب هذا العجوز. سأحول دون أن تخطفوا الخبز منه ".

ساد صمت تام لبضع لحظات، بينما كانت رومولا تنظر إلى الوجوه أمامها وتمدّ يدها بسلة الخبز. علت وجهها الشاحب تلك النظرة الذاوية وذلك التعمّق في حفرة العين ما يشي بالصيام غير المعتاد في من درجت على الاعتدال، وكانت النظرة المركّزة المباشرة والواسعة لعينيها الشهلاوين مؤثرة أكثر من أي وقت مضى.

بدا الرجل ذو الطاقية سخيفاً نوعاً ما وتراجع دافعاً مرفقه في أضلاع جاره وقد ظهر على محياه علائم تأنيب أخلاقي. كانت التأييد

عاماً، كان كل واحد يرغب في أن يوحي بأنه دُفع للأمام ضد رغبته، وكان الشاب صاحب المعطف الفاخر القماش قد توارى عن الأنظار.

لكن في هذه الآونة كان خدّام السينوريا المسلحون الذين بدؤوا بتسيير الدوريات في الشوارع التي سيسلكها الموكب، قد أتوا لتفريق المجموعة التي كانت تعيق المرور في الشارع الضيق. تراجع الشخص الذي نادوه بسيتشو عن تهديده بدبّوس كان يلوّح به من مكان وقوفه أعلى درج الكنيسة، وقال لرومولا في لهجة تشي بالاحترام –

" سيدتي، إذا أردت الاستمرار في رسالتك سأتولى أمر العجوز ".

كان سيتشو شخصاً أشعث المنظر: برز من ردائه الرث–، الذي استحال خشناً غليظاً وأرقش بفعل الغبار على القماش ونتف الصوف العالقة به – زوج من الأذرع النحيلة العارية ورقبة طويلة معروقة. وقد أضفى فكه المربع المظلل بلحية سوداء كثة، وأنفه العادم للقصبة وجبهته الواطئة، على وجهه ملامح الوجه المفتت لغرض التعبئة والتوضيب، وقد أسهمت قطعة قليلة العرض من مزق الثياب الحمراء مربوطة فوق أذنيه في الانضغاط. نظرت رومولا إليه ببعض التردد.

قال سيتشو الذي فهم نظرتها حق الفهم: " لا تشكي بي، يا سيدتي. لست بجمالك لكن لدي أم عجوز تأكل لي حسائي. ياه! هناك قلب في داخلي وقد اشتريت شمعة للعذراء المقدسة من قبل. أضف إلى ذلك، انظري هناك، العجوز يأكل خبزته المغمّسة. إنه معافى تماماً:

سينهض واقفاً على ساقيه بالتدريج كما أفضل واحد فينا ".

قالت رومولا وهي تكاد تندم لنظرتها المشككة: " أشكرك على التطوع للاعتناء به، يا صديقي ". ثم مالت باتجاه بالداسار وقالت: " أرجوك انتظرني حتى أعود ".

أذعن بحركة طفيفة من الرأس واليد، وتابعت رومولا طريقها صوب مشفى سان ماتيو، في ساحة سان ماركو.

الفصل الثالث والأربعون
العذراء غير المرئية (1)

عند عودتها من المشفى، بعد أكثر من ساعة، سلكت رومولا طريقاً مختلفاً، إذ وسّعت دورتها باتجاه النهر الذي وصلته عند نقطة تبعد قليلاً عن جسر فيتشيو. انعطفت صوب ذلك الجسر مزمعة الاستعجال للوصول إلى سان ستيفانو بحثاً عن بالداسار. كانت تخشى أن تعرف المزيد عنه، ومع ذلك شعرت أنها إن تخلّت عنه فإنها بذلك تتخلّى عن مطلب قريب منها عليها تلبيته.

لكنها عندما اقتربت من ملتقى الطرق، حيث يقع بور سانتا ماريا على يمينها وجسر فيتشيو على يسارها، ألفت نفسها وسط حشد جثوا فجأة على ركبهم. وعلى الفور حذت حذوهم. كانت لحظة مرور الصليب –صليب الكنيسة العظيم – الذي تقدّم الموكب. تأخرت رومولا أكثر مما توقعت، وعليها الآن أن تنتظر حتى ينتهي مرور الموكب. وما إن نهضت من جثوها، عندما توارى الصليب، حتى شعرت بأن العودة إلى وضعية الوقوف – دون أن يكون هناك ما تفعله سوى التحديق وإمعان النظر – قد جعلتها تعي كم كانت مرهقة أكثر من السابق عندما كانت ماشية ومنشغلة. قال أحد أصحاب الحوانيت، وكان يقف بجوارها –

" سيدة رومولا، ستتعبين من الوقوف: جيان فانتوني سيسرّه أن يوفّر لك مجلساً في بيته. هوذا مدخل بيته قريب من هنا. دعيني

افتحه لك. لم العجب! إنه يحب الله والأخ الراهب كما نحن. بيته مقدّم لك ".

تعودت رومولا في هذه الآونة على أن تُخاطَب بهذه اللهجة الأخوية من قبل عامة الناس، أولئك الذين ألفت وجوههم بعد مشاهدتهم في الكنيسة باستمرار. لم تعد فكرة المسكن تعادل بالنسبة إليها المسكن في فيا دي باردي، حيث كانت تجلس وحيدة في غالب الأحيان، بل الدورة السامية في أرجاء فلورانسة حيث تكاد لا تمر في زاوية من زوايا الشوارع إلا وتستقبل بنظرات الترحيب أو الودّ. وقد سرّت غاية السرور عندما ولجت الباب المفتوح على يمينها يقودها تاجر الجوارب ذو المشاعر الأخوية إلى نافذة في الطابق العلوي، حيث أفسحت امرأة مقتدرة البنية مع ثلاثة أولاد، وجميعهم يرتدون اللباس البيانوني البسيط، مكاناً لها بتوقير كبير في مكان يعلو الستائر البرّاقة المدلاة. من هذا المركز في الزاوية استطاعت أن ترى، ليس تدفق الموكب ببطء مهيب بين صفوف المنازل على جسر فيتشيو فحسب، بل كذلك النهر واللونغ آرنو وصولاً إلى جسر سانتا ترينيتا.

اقترب الموكب المتمهّل في جو من الأسى والسكون. لم تخرق الدعاء الصامت طلباً للرحمة أية ترنيمة عويل أو ندب: لم يكن يسمع سوى دوس الأقدام وحفيف الأردية الصوفية الخافت. عندما نظرت رومولا لأول مرة من النافذة كان يُسمع فقط وقع أقدام الشباب أثناء مرورهم – قافلة طويلة من الشباب الفلورانسي يرفعون في وسطهم صورة يسوع البيضاء في شبابه، يقف، وهالة ذهبية فوق رأسه، بجانب

الصليب الشاهق حيث كانت الأشواك والمسامير جاهزة.

بعد تلك القافلة من الوجوه النضرة عديمة اللحى جاءت مجموعات الانضباط الغريبة الهيئة، المرتبطة ببعضها بقواعد سرّية عن قصاص الذات، والمديح الديني، وبعض الأعمال الخاصة بالتقوى. كانوا جميعاً يرتدون رداء يخفي كامل الرأس والوجه باستثناء العينين. كان الجميع يعرفون أن هذه الأشكال الغريبة هي لمواطنين فلورانسيين من مختلف المراتب، مواطنين يمكن في الأوقات العادية أن يشاهدوا وهم يديرون أعمالهم التجارية في الحانوت، أوالمصرف، أو الدولة. لكن لم يكن ليميّز أي فرد فيهم على أنه ابن، أو زوج، أو أب. لقد تخلوا عن شخصياتهم ومشوا كرموز لقسَم مشترك. كل مجموعة كان لها لونها وشارتها، لكن رداء الجميع كان غطاءً كاملاً، ولم تترك أي سيماء سوى سيماء الأخوّة.

وبالمقارنة معهم، بدا حشد الرهبان أفراداً متميزين جداً على الرغم من جز شعر الرأس والقفطان، مما هو شائع لدى الرهبان. أولاً تواصل رتل الثياب البيضاء لرهبان البينيدكت التائبين، ثم رتل يفوقه في الطول من رهبان Frati Minori، أو الفرنسيسكان، وكانوا كلهم في ذلك العصر يرتدون الثياب القاتمة، والحبل الرفيع المعقود حول وسطهم، وبعضهم تنتعل أقدامهم الحافية الـ zoccoli، أو الشباشب الخشبية – ولعلهم الأخوية الأكثر عدداً في فلورانسة، حيث يوجد بينهم الكثير من الأعضاء النشيطين المتحمسين الذين أحبوا الجنس البشري وكرهوا الدومينيكان. وبعد الثياب القاتمة جاءت الثياب السوداء للرهبان

الأوغسطين من دير سان سبيريتو حيث اشرأبت فوق هذه الثياب وجوه بشرية أصابت قدراً أكبر من الثقافة –أناس ورثوا مكتبة بوكاتشيو، وشكّلوا أكثر الجماعات في فلورانسة علماً وثقافة عندما كان العلم أندر ما يكون. ثم جاء الأبيض فوق الأسود للأخوة الكرمليت. ثم مرة أخرى الأسود الخالص لأخوية السيرفيت، تلك الأخوية الفلورانسية الشهيرة (2) التي أسسها سبعة من التجار تخلوا عن مكاسبهم المادية وتفرغوا لعبادة الأم الإلهية.

في هذه الأثناء أخذت دقات قلوب المشاهدين كافة تتسارع قليلاً، سواء بدافع الكره أو بدافع الحب، ذلك أنه شوهد تدفق للألوان السوداء والبيضاء آتٍ من صوب الجسر – لمعاطف سود فوق قفاطين بيضاء، وكان الجميع يعلمون أن أخوية الدومينيكان هي القادمة. مرّت في البداية جماعة فيسول. رداء أسود مفروق في وسطه بخط أبيض يتلوه آخر، ورأس حليق إثر آخر، وبقيت التوقعات معلّقة رغم ذلك. كانت قفاطين خشنة جداً، جميعها، وكثير منها كان رثاً بالياً، إن لم يكن خلقاً. ذلك أن رئيس دير سان ماركو قد أنزل الأخويات التابعة لسلطته إلى أقسى درجات الفاقة والانضباط. بيد أنه تميّز بظهوره أخيراً في الصف الطويل من الأسود والأبيض رداء يختلف عن البقية، رداء أكثر بلىً من البقية بقليل، يعلوه رأس حليق لم يكن ليبدو لافتاً بشكل كبير بالنسبة لغريب لم يره على ميداليات برونزية على وجهها الآخر نقش لسيف الله، أو محاطاً بحرس مسلّح في الطريق إلى الكنيسة، أو متغيّر الشكل بفعل شعلة الخطيب المتقدة

في صدره عندما كان يجيل ببصره على حشد مشدوه.

عندما ميّزت الجموع اقتراب سافونا رولا لم يجرؤ أي واحد على خرق الصمت علناً بأي صوت يرتفع مقامه فوق وقع الأقدام المهيب , وحفيف الأردية الخافت. لكن أذنه رغم ذلك، كما آذان الآخرين، ميّزت صوتاً مختلطاً عبارة عن هسيس بطيء تاق لأن يترجم إلى لعنات، وهمسات تاقت إلى أن تترجم إلى بركات. ولعلّ الإحساس بطغيان صوت الهسيس هو الذي جعل اثنين أو ثلاثة من مريديه في مقدمة الحشد، عند ملتقى الطرق، يخرّون ساجدين على ركبهم كما لو أن كائناً إلهياً كان يمر. سرت بين الجموع حركة معبّرة عن الولاء الصامت: وقد سرت على امتداد جنبات الشوارع مثل صدمة خفية، تاركة بعضهم دون تأثر، بينما جعلت الغالبية تحني الركب وتطأطئ الرؤوس. لكن الكراهية استجمعت، أيضاً، قوة في التعبير. وعندما مرّ سافونا رولا قادماً من ناحية بور سانتا ماريا استطاعت رومولا أن تلمح شخصاً من نافذة علوية يرشقه ببصقة.

ثم ظهر رهبان مرة أخرى – أخوية أوميلياتي، أو الأخوية المتواضعة، من أوغنيسانتي، بتراثهم الماجد لكونهم أول المشتغلين بتجارة الصوف. ومرة أخرى مزيد من الرهبان – فالومبروزان وأصناف أخرى من البينيديكت مذكّرين العين المدرّبة على كياسات الشكل واللون أنه نهض، منذ أمد بعيد، في عصور الظلم، مصلحون دلّلوا على تغير النفوس بتغير اللباس، حتى انتهى أخيراً مرور الهامات الحليقة، وجاء بعدئذ رتل الكهنة غير الحليقين وغير المنتسبين لأية رهبنة.

ثم لحق بهم واحد وعشرون من نقابات فلورانسة المتحدة في صف طويل، وراياتهم تخفق فوقهم بتباهٍ يعلن أن حملة الرايات يتميزون في أعمالهم عن البقية، بدءاً بالخبّازين وصولاً إلى القضاة وكتّاب العدل. ثم جاء كل المسؤولين الثانويين في الدولة، بدءاً بالأقل شأناً إلى الأعلى شأناً، إلى أن قطع صف الكهنة غير المنتسبين شمامسة الكنيسة الذين كانوا يحملون أثراً مقدساً – رأس سان زينوبيو (3) عينه، رئيس أساقفة فلورانسة الخالد مجللاً بالفضي، ذاك الذي اعتقد الناس أن فضائله أنقذت المدينة منذ حوالي ألف عام.

هنا كانت نواة الموكب. ووراء الأثر القدسي ظهر رئيس الأساقفة في رداء باذخ تعلو هامته مظلة. وبعده جاءت الصورة الغامضة المخفية – مخفية أولاً بستائر باذخة من القماش الموشّى تجلل مجسّماً لمعبد صغير عليه رسوم من الخارج، لكن داخل هذا المعبد، مجسّم لمعبد أكثر قدماً لم يُفتح قط فيما تعيه ذاكرة الأحياء أو آباء الأحياء. في ذلك الضريح الداخلي كانت صورة الأم الرؤوم، والتي عثر عليها منذ زمن بعيد في تربة إمبرونيتا، وقد أطلقت صرخة عندما صدمتها المجرفة. وحتى الآن قلّما حملت الصورة الخفية إلى الكنيسة دون أن تتقدمها، محمولة على الأيدي، الهبات الباذخة. لم يكن هناك تلاوة لقائمة الهبات الباذخة من تقدمة المتنافسين من الناس والجماعات، ولاسيما الحجب والستائر والأردية. لكن قيل إن أكثر هذه العطايا بذخاً قد كان من تقدمة رئيسة دير فقيرة وراهباتها اللواتي لعدم توفرهنَّ على المال لشراء المواد قمن بنسج رداء من القماش الموشّى

والمذهّب أثناء صلواتهن، وطرّزنه وزينّه بصلواتهن، وأخيراً شاهدن شغلهن يقدّم إلى العذراء المباركة في الساحة الفسيحة من قبل اثنين من الشبان الوسيمين اللذين فردا أجنحتهما البيضاء وتواريا في الأديم الأزرق.

على أنه لم يكن ليشاهد اليوم أية هبات تسير في مقدمة الموكب أمام المعبد الصغير: لا هبات هذا اليوم باستثناء الهبات المخصصة للفقراء. تلك كانت نصيحة الأخ جيرولامو الذي لم تشدد عظاته قط على تقدمات للقوى الخفية، بل فقط على مساعدة العوز الظاهر للعين. وقد أقيمت المذابح في أماكن مختلفة أمام الكنائس ووضعت عليها القرابين المخصصة للفقراء. لم يحمل شيئ، حتى ولو مشعل.بالتأكيد كانت الأم الخفية تحرص على المشاعل والقماش الموشّى أقل من حرصها على عويل الجياع. في فلورانسة بلغت الحالة أشدّها: فقد بذلت ما وسعها، وما كان بوسعها إلا أن تنتظر شيئاً إلهياً لم تكن بقادرة عليه.

كان الأخ، المرتدي رداء ممزقاً، قد قال بأن النجدة لا بد قادمة، والكثير من ضعاف القلوب كانوا يتمسكون بإيمانهم بكلمة الأخ أكثر من تمسّكهم بإيمانهم بفضائل الصورة المخفية. لكن لم يكن ليوجد ولو القليل من قساة القلوب ممن كانوا يعتقدون، يحدوهم فرح غير معلن، أن كلمة الراهب قد يثبت كذبها.

تقدم موكب المعبد ببطء، وانحنت الرُكَب. ساد صمت مطبق، ذلك أن رتل الكهنة والقساوسة من إمبرونيتا لم يحرّك عواطف النظارة.

كان الموكب على وشك أن يختتم برؤساء الأديرة والغونفالونيين: كانت القافلة الطويلة من المجموعات والرموز، والتي تتوفر على موسيقاها الصامتة وتحرّك الفكر كما يحرّكه الكورال، آخذة بالتواري، ولم يتبقَّ الآن إلا أمل ضعيف توّاق ليصارع ضد اليأس المعهود.

أما رومولا، التي كان فؤادها عامراً، نصفه بالتوجس، ونصفه بذلك الحماس الأخوي الذي جعلته حياة السنتين الأخريين مألوفاً لديها مثلما تألف امرأة متبطلة مهتمة بالمظاهر الأزياء، فقد تنهدت عميقاً، كما يحدث عند انتهاء توتر ذهني مديد استبدّ بها، وبقيت جاثية على ركبتيها للا شيء إلا لوهن شديد اعتراها. وإذ بشيء برّاق زاهي الألوان يلمع من بين البيوت باتجاه الجسر البعيد. وعلى الفور انتفضت رومولا وفتحت ذراعيها، وانحنت من النافذة، عندها سقط الغطاء الأسود عن رأسها، وبدا البريق الذهبي لشعرها والتورد في وجهها وكأنهما من مصدر نوراني واحد. في تلك اللحظة بالذات تعالت صرخة. توقفت آخر القوافل في الموكب، واشرأبت الوجوه صوب الجسر البعيد.

في هذه الآونة كان اجتياز الجسر قد تمّ: كان الفارس يعدو بأقصى سرعته بحذاء نهر آرنو. بدت خاصرتا فرسه الكميت، الموخطتان لتوهما بالزبد، بيضاوين تماماً بفعل السرعة. انفك رباط قبعته التي كانت تتطاير في الهواء قرب البيشيتو (انظر سابقاً –م) الأحمر، وكان يلوّح بغصن زيتون في يده. كان رسولاً – رسولاً آتياً بطيب الأنباء! كان غصن الزيتون المبارك يتحدث من بعيد. لكن الناس اللجوجين لم يقووا على الانتظار. اندفعوا للقاء القادم، وأمسكوا

بلجام فرسه، وهم يتدافعون ويدوسون على أقدام بعضهم بعضاً.

في هذه الآونة أمكن لرومولا أن تتبين أن الفارس كان زوجها، والذي كان أُرسل إلى بيزا منذ بضعة أيام في سفارة خاصة. لم يطلق التعرف عليه أي بارقة فرح في عينيها. كبحت زخم توقعها الأول المندفع. لكن بقي قلقها الذي سيطر عليها يودّ معرفة أية أخبار مريحة في صالح فلورانسة قد يكون حملها معه.

" أخبار طيبة! " " أفضل الأخبار! " " أخبار تشترى بالجورب (novelle da calze)! " (4) كانت الأجوبة الغامضة التي قابل بها تيتو إلحاح الجماهير، إلى أن أفلح في الوصول بحصانه إلى ملتقى الطرق حيث كان الغونفاليون ورؤساء الأديرة بانتظاره. وهناك توقف، وبعد أن انحنى احتراماً لهم قال –

" رائع، يا سادة! مهمتي أن أبلّغكم بأخبار مفرحة مفادها أن السفن من فرنسا المحملة بالحبوب والرجال قد وصلت بأمان إلى مرفأ ليغهورن، تمّ ذلك بفعل مساعدة ريح قوية حالت دون اقتراب أسطول العدو ".

لم تكد الكلمات تبرح شفتي تيتو حتى رددتها الشوارع. دوّت صيحة عظيمة في الفضاء، واندفعت على طول النهر، ثم دوت صيحة ثانية، وثالثة، وسمعت الصيحات تنتشر على طول خط الموكب نحو الكنيسة. ثم ترددت صيحات أكثر خفوتاً جواباً عليها، مثل الانديباح التخللي لرشاش موجات قصية في بحيرة كبيرة يتحكّم في مياهها دفعة موجة واحدة.

لم يحاول أحد التكلم لبضع دقائق: أعضاء السينوريا أنفسهم رفعوا قبعاتهم ووقفوا حاسري الرؤوس في حضرة إنقاذ جاءهم من خارج حدود استطاعتهم – من منطقة الثقة والتسليم، ما دعي في العصور كافة بالإلهي .

وأخيراً، حالما أعطيت الإشارة للتقدم قال تيتو بابتسامة –

" ينبغي علي القول ما مفاده إنه إن أعطي أي جورب من قبل السينوريا العظيم مكافأة على هذه الأخبار فيجب أن لا يكون من استحقاقي بل من استحقاق شخص آخر سافر لمسافة بعيدة كي يأتي بها، ومكانه هنا في مكاني، لو لم يسقط حصانه من الإعياء قبل وصوله إلى سيغنا مباشرة. Meo di Sasso(5) سيكون هنا من دون ريب في غضون ساعة أو اثنتين، ويطالب عن حق بالمجد الذي أسبغ على الرسول، لأنه بذل الجهد الأقصى وأضاع البهجة القصوى ".

كان أسلوبه في التعبير لبقاً، وبعد كلمة جوابية من الـ Proposto، أو الناطق باسم السينوريا، استمر هذا الطرف المبجّل من الموكب في تقدمه، وحوّل تيتو رأس حصانه تلك الوجهة ليلحق بهم، بينما كان الجرس الضخم لقصر فيتشيو قد بدأ يرسم قوس التأرجح، وتعالى صوته بقوة أكبر بما ينسجم وغبطة الجماهير.

في تلك اللحظة، عندما لم يعد تيتو مجبراً على تركيز اهتمامه، كان المتوقع أن يجول بناظريه ليميّز رومولا بين الجموع، لكنه انشغل، كما بدا، بقبعته، والتي استطاع، أما وأن الجماهير المتشوقة كانت الآن تقود حصانه، أن يمسك بها ويعتمرها، بينما بقي

غصن الزيتون يثقل يده اليمنى. بدا عليه استرخاء يليق به بعد المجهود الذي بذله، ورومولا، عوضاً عن أن تبذل أي جهد كي يتبين من خلاله مكانها، طرحت دثارها الأسود فوق رأسها من جديد، ولزمت الهدوء التام. ورغم ذلك، فقد كانت شبه متيقنة بأن تيتو قد لمحها. فقد كانت لديه القدرة على رؤية كل شيء بدون أن يبدو عليه ذلك.

الفصل الرابع والأربعون
العذراء المرئية

لم تكد الحشود تتابع مرورها حتى نزلت رومولا إلى الشارع، وهرعت إلى درج كنيسة سان ستيفانو. كان سيتشو قد جذبته الحشود مع البقية صوب الساحة، وقد ألفت بالداسار يقف وحده بانتظارها قبالة باب الكنيسة، والفنجان شبه البوق في يده. وقد بدا أن تغيراً لافتاً قد طرأ عليه: فالنظرة الخاوية، الحالمة لشعور نصف مستعاد حل محلها شراسة فاجأتها، إما اقتربت منه وتوجهت إليه بالحديث، كما لو أنها كانت هي المستهدفة. كانت نظرة غضب حبيس يرى فريسته تمر في أمان خارج القضبان.

ارتاعت رومولا عندما سُددت النظرة إليها، لكن خطر لها على الفور أنه التقى تيتو. وعندما شعرت بنظرة الكراهية تسلقها انبعث شيء يشابه الأمل بأن هذا الرجل قد يكون هو المجرم، وأن زوجها قد لا يكون مذنباً تجاهه. لو أنها تعرف حقيقة الأمر الآن، عن طريق حمل تيتو على مواجهته وجهاً لوجه، إذن لهدأ بلبالها!

قالت: " إذا أتيت معي سأوفر لك مأوى وزاداً حتى ترتاح تماماً وتتعافى. هل تأتي؟"

" أجل "، قال بالداسار، " سأكون مسروراً إذا استعدت قواي "، وأعاد الكرّة، كما لو أنه كان يتمتم لنفسه وليس يتوجه بالحديث إليها.

" هيا! "، قالت وهي تدعوه لمرافقتها، سالكة الطريق بمحاذاة

نهر آرنو صوب جسر روباكونتي لكونه طريقاً يوفّر خصوصية أكبر.

قالت على الفور عندما كانا ينعطفان باتجاه الجسر: " أعتقد أنك لست فلورانسياً ".

التفت إليها دون أن يفوه بشيء. كان حذره المشوب بالريبة يتملّكه بقوة أكبر من المعتاد، في هذه اللحظة التي تكثّف فيها بشكل أكبر ضباب التشوش وفقدان الذاكرة بفعل الوهن الجسدي. لكنها كانت ترمقه بنظراتها أيضاً، وكان في عينيها الوديعتين شيء أرغمه أخيراً على الإجابة عن سؤالها. لكنه أجاب بحذر:

" لا، أنا لست فلورانسياً، أنا رجل وحيد ".

لاحظت عدم رغبته في التحدث إليها، ولم تجرؤ على طرح مزيد من الأسئلة عليه لئلا تتولد عنده الرغبة في التولّي عنها. عندما كانت تنظر إليه بين الفينة والأخرى كان تفكيرها يزدحم بأفكار وأدت الأمل الواهي بأن ليس هناك من شيء مؤلم يتعلق بزوجها سيتم الكشف عنه. فلو كان هذا العجوز هو المخطئ، فأين يكمن سبب الخوف والسرية؟

تابعا سيرهما بصمت حتى وصلا إلى مدخل فيا دي باردي.لاحظت رومولا أنه التفت نحوها بحركة فجائية كما لو أن صدمة اعترته. بعد بضع لحظات توقفت عند باب الفناء الموارب، والتفتت نحوه.

قال دون أن ينتظرها لتبادره بالكلام:" آه! أنت زوجته ".

" زوجة من؟ "   قالت رومولا.

كان متعذّراً على بالداسار أن يتذكّر أي اسم في تلك اللحظة. فلقد بدا أن تلك القوة ذاتها التي ضغطت عليه صورة تيتو من خلالها قد طردت أية إشارة لفظية. لم يحر جواباً، بل ركّز بصره عليها بشكل يشي بالغرابة .

فتحت الباب على مصراعيه ليظهر الفناء المفروش بالقش، حيث كان يرقد أربعة أو خمسة مرضى، بينا كان بعض الصبية الصغار يحبون أو يجلسون عليه على راحتهم – مخلوقات صغيرة شاحبة تقضم القش، وتقرقر بأصواتها.

قالت رومولا بارتعاش: " إذا دخلت سأعثر لك على مكان مريح وأحضر لك مزيداً من الزاد ".

" لا، لن أدخل "، قال بالداسار. لكنه لبث ساكناً يثقل كاهله عبء انطباعات شوّشت ذهنه بشكل لم يقو معه على اختيار أي سبيل.

قالت رومولا: " هل بإمكاني أن أفعل لك شيئاً ؟ دعني أعطك بعضاً من المال يمكنّك من شراء قوت يومك. سيتوفر منه مبلغ أوفر حالاً ".

بينما كانت تتحدث دست يدها في محفظتها، ثم مدتها نحوه وفيها بضعة غروسيات. عرضت عليه قصداً أكثر مما كانت ستعطي أي شخص آخر في مثل هذه الظروف. عاين النقود لبرهة، ثم قال –

" أجل، سآخذها ".

سكبّت النقود داخل راحة يده، وقام هو بالقبض عليها بشدة.

قالت رومولا في شبه توسّل: " قل لي. ماذا ستـ – "

لكن بالداسار كان قد أشاح عنها، وعاود السير نحو الجسر. وعند عبوره، وسلوكه طريق فيا ديل فوسو مباشرة لاح له دكان نيقولو كابارا، فانعطف صوبه دون توقف، كما لو أنه كان ضالته. في تلك اللحظة كان نيقولو يمشي في الموكب مع صانعي الأسلحة والدروع الفلورانسيين، ولم يكن في الدكان سوى صانع متدرب. لكن الدكان كان يحوي بداخله كمية وافرة معلقة من مختلف أنواع الأسلحة. ميّزت عينا بالداسار ما كان يتضوّر جوعاً له أكثر من رغيف الخبز. كان نيقولو نفسه سيرفض على الأرجح بيع هذا الرجل أي شيء يستعمله كسلاح، وعليه ما عليه من إشارات دالة على السجن. لكن الصبي في المتجر، الأقل ملاحظة وارتياباً، قبض ثلاثة غروسيات ثمناً لسكين صيد حادة دون أدنى تردد. كانت سلاحاً صغيراً سهل الاستعمال بإمكان بالداسار أن يدسه بسهولة داخل صدرة ردائه، ثم تابع سيره وهو يشعر أنه أقوى من ذي قبل . ذلك الحد المرهف قد يضفي الموت الزؤام على طعنة من ذراع عجوز: على الأقل كان رفيقاً، كان بمثابة قوة تتحالف معه، حتى ولو أخفق. صحيح أنه سيتحطم على الدرع، لكن هل سيكون الدرع دوماً في مطرحه؟ في تلك الشهور الطويلة، بينما كان الثأر يرقد في السجن، لعل النذالة شعرت بالنسيان والأمان. لقد اشُتريت السكين بأموال الخائن نفسه. ذلك عين العدل. قبل أن يأخذ المال كان قد عرف ماذا سيفعل به – يشتري به سلاحاً. أجل، وإذا أمكن، شراء زاد أيضاً. زاد لتقوية الذراع التي ستقبض على السلاح، زاد لتقوية البدن

الذي كان معبد الانتقام. عندما يأخذ كفايته من الخبز لا بد أن يكون قادراً على التفكير والتصرف – يفكر أولاً في كيف يتخفّى مخافة أن يعمل تيتو على جرّه بعيداً مرّة أخرى.

توجه بالداسار، وهو يحتضن فكرة التخفّي تلك، صوب الشوارع الضيقة، واشترى لنفسه بعضاً من لحم وخبز، وجلس تحت أول شرفة ليأكل. بدت الأجراس، التي صدحت بدويّ أكبر الأمر الذي جعلها تستحوذ على مشاعره، وتجعله يرتعش جنباً إلى جنب مع كل ما في الأثير من ذرات، بدت له ببساطة جزءاً من ذلك العالم القوي المتربّص به.

كانت رومولا قد شيعت بالداسار بنظراتها إلى أن توارى وراء المنعطف داخل ساحة موتزي، وهي تشعر بنصف ارتياح لمغادرته، ونصف تأنيب لنفسها لانعدام الإصرار الأقوى لديها لمعرفة حقيقة أمره،ولعدم تيقّنها من وجود أي بؤس من نصيبه لا ذنب له فيه، بؤس ليست هي بعاجزة عن إراحته منه. ومع ذلك ماذا كان بوسعها أن تفعل لو أثبتُت الحقيقة أن العبء يتصل بسر مؤلم له علاقة بزوجها، إضافة إلى الهموم التي ناخت بكلكلها عليها من قبل؟ بالتأكيد يُتاح للزوجة أن ترغب في أن تكون غافلة عما يقترفه زوجها من إساءات، نظراً لأنها وحدها يجب ألا تحتج وتحذر الناس منه. لكن تلك الفكرة حركت الكثير من خيوط الشعور المتشابكة، ما جعلها عاجزة عن أن تتقفاها الآن بعد أن أخذ منها التعب أي مأخذ. كان الوقت وقت الابتهاج، لأن النجدة قد وصلت إلى فلورانسة. همّت بالدخول إلى الفناء لتزف الأنباء الطيبة

لمرضاها الذين يفترشون القش.

أغلقت الباب وراءها، كيلا تغطي الأجراس على صوتها، ثم عمدت بعد أن ألقت الغطاء الأسود الذي كان يغطّي رأسها عسى أن تراها النسوة بشكل أفضل، إلى الوقوف وسطهن وأخبرتهن أن القمح في طريقه إليهن، وأن الأجراس كانت تصدح احتفالاً بالأنباء الطيبة. نهض الجميع، واستووا في جلستهم، ليستمعوا إليها، بينما خبّ الأولاد أو حبوا نحوها، وأمسكوا بتلابيب ثوبها الأسود كما لو أن صبرهم قد عيل لغيابها عنهم. أذعنت لهم، وهي في حالة التعب تلك، وجلست على القش، بينما استرق الصغار، أصحاب الوجوه الشاحبة، النظر إلى داخل سلتها وجذبوا شعرها للأسفل، وقالت الأصوات الواهنة من حولها، " فليعظم الله العذراء القديسة! " " لقد كان ذلك هو الموكب!" " لقد شملتنا أم الإله بعطفها! "

وأخيراً نهضت رومولا من كومة القش، جد تعبة، بحيث لم تقو على محاولة التبسم أكثر مما فعلت، وقالت وهي تصعد على الدرج الحجري –

" سآتي عما قريب، كي أحضر لكم عشاءكم ".

" فليباركك الله، يا سيدتنا! فليباركك الله! " قالت جوقة الأصوات الخافتة باللهجة نفسها التي قرّظوا بها، وشكروا العذراء غير المرئية، منذ لحظات.

حرصت رومولا كل الحرص على تلك الموسيقا. لم تكن تتوفر على الذائقة الفطرية للعناية بالمرضى وإلباس العراة، كشأن بعض

النسوة اللواتي يستطبن هذه الجزئيات بحد ذاتها، لاعتبارها بكل بساطة حرفة. فالتدريب الذي تلقّته باكراً قد نأى بها عن تلك الأعمال النسائية. ولو لم تكن جاءتهم ومعها الإلهام الصادر عن أعمق مشاعرها لكانوا مصدر إزعاج لها. لكنهم أصبحوا مستقرّ راحة بالها الوحيد الذي لا يتزعزع، المجاز الضيق الوحيد الذي أضاءه النور بكل وضوح. ولو أن الهوة التي تباعد بينها وبين تيتو، والتي إنما زادت اتساعاً ملموساً من جرّاء محاولاتها لجسرها عن طريق الإذعان، جلبت شكاً في أن الرباط الذي جهدت لأن تكون وفية له قد يكون هو ذاته، في نهاية المطاف، مزيفاً – ولو كانت قد جاءت من لدن كاهن اعترافها، الأخ سالفيسترو، أو من الاتصال مع تلامذة سافونا رولا الذين كانت تتعبد معهم، بإحساس مقزز بأن هؤلاء الناس هم ضيقو الأفق على نحو بائس، وبرد فعل طائش إلى حد ما تجاه ازدرائها السابق لخرافتهم – لكانت ألفت نفسها تستعيد موطئ قدم ثابت في ممارستها لتعاطفها الأنثوي. ومهما يكن الشيء الآخر الذي يقف وراء شكها فإن المساعدة التي قدمتها لأبناء جلدتها قد جعلتها متيقنة من أن الأخ جيرولامو كان مصيباً في دعوتها لها للعودة. ووفقاً لكلماته التي تأبى الذاكرة أن تنساها لم يكن مكانها شاغراً: لقد امتلأ بحبها وكدّها. فلورانسة كانت بحاجة إليها، وكلما ضغط حزنها الخاص عليها وجدت سروراً أكبر في الذكريات التي انداحت على مدى السنتين الطويلتين، والساعات واللحظات التي خفّفت فيها من غلواء الحياة الثقيلة على الآخرين. كل ذلك الحماس في طبيعتها، والذي لم يعد يصرّف نفسه بعد الآن في حنان المرأة تجاه

والدها وزوجها، قد تحول إلى حماس التعاطف مع الشأن العام. لقد كفّت عن التفكير بأن نصيبها يمكن أن يكون مبهجاً – كفّت عن التفكير بالبهجة على الإطلاق: لقد بدا لها هدف حياتها الوحيد يتمثل في الإقلال من الأسى. (1)

ما انفك حماسها يكتسب عزماً جديداً من جرّاء التأثير الذي خلّفه سافونا رولا. وعلى الرغم من الرؤى المزعجة والقصص الرمزية التي اشمأزت منها عندما كانت تأتي كترديدات بائتة فقدت جدتها من شفاه غير شفتيه، فإن صلتها الوشيجة بتعاطفه المتقد حماساً، وروعة مراميه،لم تفقد أياً من قوتها. فسخطه المستعر من المساوئ والاضطهاد الذي شكّل القصة اليومية للكنيسة وللدويلات، قد أشعل أيضاً النار المتأهبة في داخلها. وحرصه الخاص على الحرية، ونقاء الحكومة في فلورانسة، مع إحالته الدائمة لهذا الهدف المباشر إلى الهدف الأكبر المتمثل في تجدد عالمي، قد ولّد فيها وعياً جديداً بالدراما العظيمة، دراما الوجود البشري التي كانت حياتها جزءاً منها. ومن خلال اتصالها اليومي المفيد بالتعساء من أبناء جلدتها فإن هذا الوعي الجديد قد أصبح شيئاً أقوى من عاطفة غامضة. فقد تحوّل إلى دافع من ممارسة نكران الذات توضّح أكثر فأكثر. كانت لا تأبه بالعقائد، وتعاف التأمل المركز على نبوءات الأخ الراهب بالحلول الوشيك للحريق والتجدد الذي يعقبه مباشرة. لقد سلّمت تفكيرها لتفكيره، ودخلت في اتحاد مع الكنيسة، لأنها كانت بهذه الطريقة قد وجدت إشباعاً فورياً لحاجاتها الأخلاقية التي تركتها كل ثقافتها وخبرتها السابقتين في حياتها تتعطش

له. لقد أيقظ نداء الأخ جيرولامو في تفكيرها سبباً موجباًللعيش بمعزل عن التمتع الشخصي والمحبة الشخصية. لكنه كان سبباً بدا أنه بحاجة لكي يتغذّى على قوى أكبر من القوى الموجودة بداخلها. واستخدامها الطيّع لكل مؤسسات الكنيسة كان يتمثل ببساطة في المراقبة بانتظار أن تأتي أية قوة جديدة بالمصادفة. بالنسبة لرومولا لم تكن المشكلة الملحّة آنئذ تتمثل في تسوية المسائل الخلافية، بل في الإبقاء على تلك الشعلة من العواطف الغيرية التي يمكن بوساطتها لحياة الأسى والحزن أن تكون، رغم ذلك، حياةً ملؤها الحب الإيجابي.

كانت ثقتها بطبيعة سافونا رولا من حيث إنها أعظم من طبيعتها هي تشكل القسم الأكبر من القوة التي عثرت عليها. وما كانت هذه الثقة لتهتز بسهولة. وليست هي قوة البصيرة ما يسبب النفور الفوري من زيغ العظمة وانحرافاتها، بقدر ما هي قوة الرؤية التي تحمل العين على استكشاف الثآليل على وجه يضجّ بالتعبير البشري. إنها ببساطة نفي الحساسيات الشديدة. تأثرت مشاعر رومولا بعمق بالطاقات السامية التي توفرت عليها طبيعة سافونا رولا، ما جعلها تلفي نفسها مصغية بصبر لكل العقائد والنبوءات، عندما جاءت بوساطة إيمانه القوي وكلامه المفعم بالإيمان(2).

ليس من روح تعيش في قفر ما دام هناك كائن بشري يمكن لها أن تشعر بالثقة والاحترام تجاهه. كانت ثقة رومولا بسافونا رولا شيئاً أشبه بحبل معلّق بإحكام قريباً من دربها، حبل يجعل خطوتها مرنة حين تتشبث به. وإذا ما قدّر لهذا الحبل أن يزول فجأة فلن

يستطيع أي ثبات في الأرض التي تدوس عليها أن ينقذها من الترنّح، أو ربما من السقوط.

الفصل الخامس والأربعون

صالون الحلاقة

عقب ذلك الظهور الاحتفالي باعتباره الرسول الحامل لغصن الزيتون، والذي شكّل ضربة حظ غير متوقعة، كان على تيتو أن ينفذ مهام أخرى من طبيعة أكثر قصدية. توقف في قصر فيتشيو(بالاتزيو فيتشيو)، وانتظر هناك عودة العشرة الذين كانوا المسؤولين عن إدارة الشؤون الخارجية وشؤون الحرب، عسى أن يسلم إليهم أصولاً نتائج مهمته الخاصة إلى بيزا، والتي قصد منها أن تكون خطوة تمهيدية لسفارة معترف بها سيترأسها برناردو روسيلي، بغرض التوصل، إن أمكن، إلى تفاهم سلمي مع الإمبراطور مكسيميليان والحلف.

ولقد ثبت حيازة تيتو على مواهب في العمل الدبلوماسي بشكل لا يرقى إليه الشك، وعندما أعطى بالتمام والدقة نتائج تحرياته ومقابلاته لم يستطع برناردو ديل نيرو، والذي كان آنئذ واحداً من العشرة، أن يخفي إعجابه. ولو استطاع لأخفاه، ذلك لأن كرهه الأصلي قد عاد، واشتد منذ بيع المكتبة. لم تنطق رومولا بكلمة لعرّابها حول ظروف البيع، وقد فهم برناردو صمتها على أنه تمنّع عن طرق الموضوع، لكنه كان متأكداً من أن نقض رغبة والدها قد شكّل غمّاً خطيراً بالنسبة لها. كما أن عيني الرجل العجوز اليقظتين قد ميّزتا مؤشرات أخرى على أن حياتها الزوجية لم تكن سعيدة.

قال في سرّه: " آه، دون ريب، ذلك هو السبب الذي حدا بها إلى الإصغاء لكلام الأخ جيرولامو، وانخراطها مع البيونانيين، ما لم أتوقعه منها قط. هؤلاء النساء، إذا لم يكن سعيدات، ولا أولاد لهن، إما أنهن يمارسن الحماقة أو يلتزمن بأحد الأديان المتشددة التي تجعلهن يعتقدن أن على كاهلهن يقع كل عمل السموات. أما بالنسبة لفتاتي المسكينة روملا، فالأمر كما كنت أقول دائماً – حشو دماغها باللاتينية واليونانية قد جعل منها امرأة لم تفعل شيئاً طوال اليوم سوى وخز أصابعها بالإبرة. كما أن زوجها هذا، والذي يستخدمونه في كل مكان، لأن لديه أداة قبضتها ناعمة الملمس، فإني أتمنى ألا يجد تورنابوني والبقية من زملائه أصابعهم مقطوعة. حسن، حسن، solco torto, sascco dritto – كثير من الأكياس الملأى يأتي من خط فلاحة أعوج. ومن لن يكون قائداً لأحد سوى الناس الشرفاء ستكون الأجرة التي يدفعها ضئيلة ".

مع هذا الاعتقاد المترسخ منذ زمن بأنه لن يحدث فرز أخلاقي للعملاء السياسيين، فقد امتنع الفلورانسي العتيق عن كل تدخل في غير مصلحة تيتو. وباستثناء ما يجب أن يبقى مقدساً وخصوصياً في سبيل مصلحة روملا فإن برناردو لم يكن لديه أي ادعاء مباشر (1) ضد اليوناني المفيد، باستثناء أنه كان يونانياً، وأنه، أي برناردو، لم يكن يحبه. وبشأن ازدواجية ارتباطه المزعوم بالحكومة الشعبية، بينما هو ميديتشي في داخله، فقد كانت شيئاً مشتركاً بين تيتو وأكثر من نصف أعضاء الحزب الميديتشي. لكن الفارق عن البقية أن رياءه تم

ببراعة أكبر: هذا كل شيء. ولذلك فقد كانت مشاعر برناردو بكل بساطة باردة تجاه تيتو، الذي ردّ على البرود باحترام مرتاب جافٍ. وبقيت الفكرة العامة في فلورانسة أن الرابط القديم بين برناردو وباردو قد جعل أية خدمة مسداة لزوج رومولا بمثابة طاعة مقبولة لدى عرّابها.

بعد تخلصه من عبئه عند القصر القديم شعر تيتو أن العمل الرسمي المعترف به لذلك اليوم قد تمّ. كان تعباً ومسفوعاً من السفر الطويل، لكنه لم يذهب إلى البيت. ففي محفظته وفي باله كانت توجد بعض الأشياء التي كان يرغب في أن يتحرر من قيدها بأسرع ما يمكن، لكن لا بد من إيجاد الفرص ببراعة فائقة بشكل لا تبدو معه مقصودة (2). أخذ يمشي الهوينى من القصر، وذهب باتجاه ساحة الكنيسة. كان مرورالموكب قد انتهى الآن، لكن الأجراس كانت ما تزال تقرع، وكان الناس يطوفون في الشوارع قلقين، تائقين إلى منفذ لابتهاجهم أكثر تحدداً. ولو استطاع الأخ الراهب أن يقف في الساحة العامة ليعظهم لكانوا رضوا، لكن، في هذه الآونة، وبالرغم من النظام الجديد الذي أعلن أن ا لمسيح هو المليك الخاص بالفلورانسيين والذي تطلّب أن تكون كل الأفراح من النوع المسيحي، فقد كان الكثيرون من الشباب الذين صاحوا " عاش يسوع! " يحتضنون توقاً خفياً لممارسة بعض أفعال رمي الحجارة العنيفة علامة على الشكر.

لم يستطع تيتو، عند مروره في الجوار، أن يتفادى تعرف بعض الناس عليه على أنه الحامل المحبوب لغصن الزيتون، ولم يستطع أن يتخلص من احتفاء غير ملائم في شكل أسئلة متلهفة،

بقوله لمن ألحوا عليه أن ميو دي ساسو، الرسول الحقيقي من ليغهورن لا بد أن يكون الآن يهمّ بدخول المدينة ،

ومـن المؤكـد أنهـم سـيلتقونه قريبـاً مـن بورتـا سـان فريـديانو. وبوسعه أن يقص أكثر بكثير مما كان تيتو يعرف.

وإذ تمكن من تخليص نفسه مما تعرض له من إلحاح بهذه الطريقة الحاذقة فقد شق طريقه إلى ساحة الكنيسة،مجيلاً النظر في أرجاء المكان، متخذاً سيماء اللامبالاة التامة، لكنه كان في الواقع يسعى لاكتشاف وجود أحد ما يمكنه أن يوفّر له واحدة من الفرص التي كان يتوق إليها. ومع انتهاء الموكب عند الكنيسة لوحظ احتشاد للمتسكعين والمثرثرين في الساحة وحول صالون نيلو أكثر مما جرت العادة. وقد حدث ما كان يتوقعه. كانت هناك مجموعة تستند إلى الأسيجة، قريباً من المداخل الشمالية لموقع المعمودية، وهذا ما كان ينشده بالضبط، الأمر الذي حدا به لأن يتظاهر بعدم المبالاة أكثر من أي وقت مضى، والتظاهر بأنه تعرف على أطول أفراد المجموعة بالمصادفة الكاملة عندما كان في منتصف تجاوزه له، واكتفى بالتفاتة من رأسه ليحييه تحية خفيفة، وهو يطرح طرف البيشيتو becchetto الذي كان يتلفع به فوق كتفه الأيسر.

لكن الشخص الطويل القامة العريض المنكبين الذي بودر بهذه التحية الخفيفة بدا أشبه بشخص لديه الكثير من المطالب. كان يرتدي قفطاناً مزخرف الحاشية بشكل باذخ، مع عرض كبير للبياضات، وفقاً لأحدث المودات الفرنسية، وعلى حزامه علّق سيف وخنجر من أحسن

ما صنع. أما قبعته، ذات الريشة الحمراء، فقد بدت احتجاجاً مزدرياً لجدية الزي الفلورانسي الذي بولغ فيه كثيراً جرّاء التأثير الذي تركته جماعة البيانونيين. وقد جعلت بعض مؤشرات الفتوة المبهمة عرض وجهه وقطر خصره الكبير يبدوان بصورة مؤكدة ميسماً يدلّ على الخشونة، وكنت ترى في عينيه تلك النظرة الوقحة المحدقة التي تنتهك حرمة كل الناس والأشياء، والتي لا قبل للعقل المهذب بتحمّلها مثل رائحة كريهة أو ضوء مبهر.

كان هو وزملاؤه، وهم أيضاً من الشباب الباذخي الثياب وشاكي السلاح، يتبادلون النكات بطريقة يتظاهرون فيها بالضحك تنطوي على الرغبة في إثبات أن الضحك ليس جارحاً للمشاعر رغم أن بعض الناس قد يشتبهون في أنه كذلك. كان هناك من الأسباب الوجيهة ما يبرر مثل هذا الاشتباه. ذلك أن هذا الرجل العريض المنكبين ذا الريشة الحمراء كان دولفو سبيني، قائد الـ Compagnacci أو الصحبة الأشرار – أي، قائد كل الشبان المتهتكين المنتمين إلى الحزب الأرستقراطي القديم، أعداء الميديتشيين، أعداء الحكومة الشعبية، لكن عداوتهم لسافونا رولا تبقى الأشد. كان دولفو سبيني، وريث البيت الكبير مع الشرفة، المطل على جسر سانتا ترينيتا، قد ألّف من هؤلاء الشباب عصبة مسلحة، كأبطال أقسموا على الولاء، أبطال مآدب العشاء الباذخة وكل خطايا المتعة الجسدية، ضد الورعين المصلحين الذين هددوا أن يجعلوا العالم طاهراً ولطيفاً إلى درجة لا تطاق بشكل ستنتفي معه عما قريب كل أسباب العيش، باستثناء البديل المستكره

بشدة. وحتى هذا الصباح بالذات كان يعلن جهاراً أن فلورانسة قد وقعت فريسة الفاقة والدمار بفعل تمسكها الأعمى بنصيحة الأخ الراهب، وأنه لا خلاص لفلورانسة سوى في الانضمام للعصبة وطرد الأخ الراهب من المدينة – بإرساله إلى روما فعلياً، حيث كان يجب أن يذهب منذ زمن بعيد تلبية لاستدعاء البابا له أكثر من مرة. ولذلك فقد كان يُشكّ في أن قلب السيد دولفو سبيني لم يكن يعمره السرور الخالص للنجدات غير المتوقعة التي جاءت كتحقق واضح لنبوءة الأخ الراهب، والضحك، الذي تعالى من جديد عندما انضم تيتو إلى المجموعة عند مدخل صالون نيلو، لم يسهم في تبديد الشك. إذ أنه في وسط المجموعة كان يتكئ على جائز الباب رجل حليق الذقن تماماً، حاد النظرات، اسمه نيقولو مكيافيلي والذي، لكونه في ميعة الشباب، قد نفذ إلى كل الخبايا الصغيرة للأنانية.

كان يقول: " رأس السيد دولفو هو يقطينة أكبر حجماً مما حسبت. أنا أقيس تبلد الناس بالوسائل التي يعتمدونها لخداع الآخرين. إن أكثر حيواناتك تبلداً هو ذاك الذي يكشّر ويقول إنه لا يأبه عقب رفسه مباشرة على مقدم ساقيه. وتابع، مبتسماً، حينما توسعت الدائرة لاستقبال تيتو: " لو كنت الآن أكثر بلادة بقليل لتظاهرت بالتأكيد بأني مولع بهذا الشخص ميليما الذي عنده سكرتارية تناسبني تماماً – كما لو أن اللاتيني قليل الأجر يمكن أن يحب أكثر اللاتيني الأفضل أجراً! يا ميليما، إنك شخص ذكي بشكل خطير، كثيراً ما تعترض طريقي، وأنا آسف لسماع أن الحظ قد واتاك هذا اليوم ".

قال تيتو، وهو يضع يده على كتفه كصديق: " حظ يدعو للارتياب، يا نيقولو. لم ينفعني في شيء حتى الآن سوى أن ضاربي الصوف قد أمسكوا بتلابيبي وأوسعوني نفخاً من أنفاسهم حين كنت مترباً ومسفوعاً من السفر مثل tabellario (حامل الرسائل) من بولونا ".

قال نيلو الذي جاء عند سماعه صوت تيتو: " آه! تريد مسحة من فني، يا سيد خطيب. ذقنك، على ما أرى، عليها محصول البارحة. هيا، هيا- سلّم نفسك لكاهن كل ربات الشعر. يا ساندرو، أسرع بالرغوة، هيا! "

قال تيتو وهو يتخذ مجلسه: " الحقيقة، يا نيلو، هذا بالضبط ما أتوق إليه جداً هذه اللحظة. ولهذا السبب وجهت خطاي صوب صالونك بدلاً من العودة إلى البيت على الفور، بعد أن انتهيت من مهمتي في القصر ".

" أجل، حقاً، ليس ملائماً أن تظهر للسيدة رومولا وذقن بلون الصدأ وzazzera (3) (شعر طويل) متشابك ببعضه. لا شيء يعدم الأناقة يجب أن يقترب من السوسنة الفلورانسية، رغم أنني أراها دائماً دائمة التطواف، مثل شعاع شمس، وسط المعوزين الذين يركنون في زوايا شوارعنا – إن لم تكن بالفعل أكثر من شعاع قمر الآن، ذلك أنني خلت البارحة، عندما التقيتها أنها بدت شاحبة وتعبة مثل تلك العذراء الباهتة من رسم الأخ جيوفاني (4). يجب أن تنتبه لهذا الأمر، يا أيها اللوذعي الجميل: فهي تصوم وتسهر كثيراً في غيابك ".

رفع تيتو كتفه بأسىً. " أكثر من صحيح، يا نيلو. إنها يومياً تحرم نفسها من نصف طعامها الضروري أثناء هذه المجاعة. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ فهي تشتعل حماساً. إن تأثير الزوج معدوم أمام تأثير الأخ الراهب ".

قال دومينيكو سينيني، واحد من المجموعة الواقفة بالباب كان جاء مع تيتو: " مثلما يحتمل أن يكون أي تأثير آخر، ومن ضمنه تأثير الأب الأقدس "، وتابع: " لست أدري ما إذا كانت تجمّعت لديك أية معلومات في بيزا عن الطريقة التي تجري وفقها الرياح في روما، يا ميليما؟ "

قال تيتو مبتسماً وفاتحاً ذراعيه بطريقة مستنكرة: " أسرار غرفة المجلس، يا سيد دومينيكو! المبعوث يجب أن يكون أخرس كما كاهن الاعتراف ".

قال سينيني: " بالتأكيد، بالتأكيد. لا أطلب أي خرق لتلك القاعدة. حسن، أعتقد أنه إذا كان نيافته سيدفع بالأخ جيرولامو نحو التطرف، فإن الأخ الراهب سيقيم السموات والأرض ولا يقعدهما ليحصل على مجلس عام للكنيسة – أجل، وسيحصل عليه أيضاً. وأنا، من جهتي، يجب ألا أتأسف، رغم أنني لست بيانونياً ".

قال مكيافيلي: " بالأذن من خبرتك الأوسع، يا سيد دومينيكو، لا بد أن أختلف معك – ليس في رغبتك في الحصول على مجلس عام قد يصلح الكنيسة، بل باعتقادك أن الأخ الراهب سيهزم نيافته. إن لعبة الأخ الراهب مستحيلة. فلو كان قد سرّه الوعظ ضد

شرور روما والتنبؤ بأن إيطاليا، على نحو ما لم يؤت على ذكره، ستحترق، لكان البابا ألكسندر قد سمح له، على المؤكد، بأن يصرف نفَسَه على ذلك النحو ما دام يجد من يستمع إليه. مثل تلك العواصف الروحية لا تطيح بأي جدار. لكن الأخ الراهب يريد أن يكون شيئاً أكثر من بوق روحي: يريد أن يكون رافعة، وما هو أكثر من ذلك، إنه رافعة بالفعل. إنه يريد أن ينشر مذهب يسوع عن طريق الإبقاء على حكومة شعبية في فلورانسا، والبابا، كما علمت من أفضل المصادر ثقة، له آراؤه الخاصة المناقضة لذلك. "

قاطع سينيني بقدر من حماس: " عندئذ ستقف فلورانسة بجانب الأخ الراهب. أنا نفسي أفضل أن يدع نبوءته جانباً، لكن إذا ما تعرضت حريتنا في اختيار حكومتنا للهجوم – فإنني ابن الكنيسة البار، بيد أنني سأقترع لمقاومة البابا ألكسندر السادس، كما قاوم أسلافنا البابا غريغوري الحادي عشر ".

قال مكيافيلي داساً أصابعه في حزامه، ومتحدثاً بذلك السرور الهادئ، سرور الاستعراض الذي يعلو على كل قوة أخرى في النقاش: " لكن، عفوك، يا سيد دومينيكو، هل أدركت بشكل صحيح موقع الأخ ؟ كيف حدث وصار قوة مؤثرة، وجعل من نفسه دريئة لهجوم رجل حاد مثل نيافته؟ لأن الناس يصغون إليه: لأنه يعطيهم التهديدات والوعود، التي يعتقدون أنها تأتي مباشرة من الله، ليس عن جهنم فحسب، والمطهر، والجنة، بل عن بيزا ومجلسنا الأعلى. لكن دع الحوادث تسر ضده، لكي يهتز إيمان الناس، ويكون سبب قوته سبب

سقوطه. إنه يراكم ثلاثة أنوع من الكراهية على رأسه–كراهية البشر العاديين ضد كل من يريد أن يضع عليهم نيراً صارماً من الفضيلة، كراهية السلطات الأقوى في إيطاليا، أولئك الذين يريدون أن يستثمروا فلورانسة بشكل يخدم أغراضهم، وكراهية الناس الذين غامر في أن يعدهم بالخير في هذا العالم، بدلاً من أن يقصر وعوده على العالم الآخر. وإذا ما رام نبي الحفاظ على قوته، فيجب أن يكون نبياً مثل محمد، يدعمه جيش لجب، بشكل أنه عندما يهن إيمان الشعب يأتي التخويف ليعيد إليه الحياة من جديد ".

قال فرانشيسكو سي باندفاع: " يجب عليك بالأحرى أن تجمع الأنواع الثلاثة من الكراهية في واحد وتقول إنه كسب كراهية كل الناس الذين يتحلّون بالمنطق والاستقامة، عن طريق اختلاق أكاذيب منافقة. إن مكانه الصحيح هو بين الأنبياء الكذبة في جهنم (6)، أولئك الذين يسيرون ورؤوسهم تلتفت إلى الوراء ".

قال مكيافيلي، مبتسماً: " أنت جد غاضب، يا فرانشيسكو. أنتم معشر الشعراء مستعدون لأن تقطعوا الغيوم في حمأة غضبكم. أنا لست من مريدي الأخ الراهب، ولن أنزل إصبعي الصغير مصداقاً لكلامه. لكن الصدق غرسة من غراس الجنة، ولم تنم البذور قط أبعد من الجدران. أنت نفسك، يا فرانشيسكو إنما تختلق ما هو مجرد أكاذيب سياسية، يرغمك على ذلك، في جزء منه،حماسة الشارع، وفي جزء آخر، إرضاء مستمعيك. لكنك تعارض الأكاذيب في النثر. حسن، الأخ الراهب يختلف عنك في حدود الشعر، هذا كل شيء.

عندما يعتلي منبر الكنيسة فإن الحماسة تشتعل بداخله، وخارجه (الراهب) لديه المستمعون الذين ينبغي أن يرضيهم . إكو ! "

قال سينيني بجدية: " أنت غير دقيق في هذه الناحية نوعاً ما، يا نيقولو. أنا نفسي أؤمن بنزاهة الأخ الراهب رغم أنني لا أؤمن بنبوءاته، ومادامت نزاهته لم تدحض فإن لدينا حزباً شعبياً قوياً بما فيه الكفاية لحمايته وللتصدي للتدخل الخارجي ".

قال مكيافيلي، بهزة كتف، وبنظرة لا تكاد تلحظ رمق بها تيتو، الذي كان مستغرقاً تماماً في استمتاعه الشديد بتسريح وتعطير نيلو لشعره: " الحزب الذي يبدو قوياً بما يكفي. لكن كم من الميديتشيين يوجد بينكم؟ كم عددهم أولئك الذين لن يتغيروا بفعل ضغينة خاصة ؟ "

قال سينيني: " أما بالنسبة للميديتشيين، فأعتقد أنه لم يتبق إلا القليل من صادق المشاعر لمصلحة الميديتشيين. من سيجازف بالكثير من أجل بييرو دي ميديتشي؟ ربما هناك بعض الأصدقاء القدامى الأقوياء مثل برناردو ديل نيرو. لكن حتى بعض أولئك الوثيقي الارتباط بالعائلة هم أصدقاء شجعان للحكومة الشعبية، ولسوف يبذلون جهدهم لأجل الأخ الراهب. كنت أتحدث لجيانوتزو بوتشي منذ فترة وجيزة فحسب، وأنا مقتنع أنه سيتصدى أكثر من أي شيء آخر لأية محاولة لتغيير الأوضاع الجديدة ".

قال تيتو، وقد وشت عيناه بمعنى ساخر، عندما نهض من كرسي الحلاقة: " أنت مصيب في هذه الناحية، يا سيد دومينيكو،

وأتصور أن العاطفة الرقيقة قد جاءت لتدعم النظرية الصلبة في تلك الناحية. أنا مقتنع بأن هناك بعض الغيرة في قرارة ابتعاد جيانوتزو عن بييرو دي ميديتشي، وإلا لما شعر مثل هذا الكائن المحبّب أبداً بالمرارة التي يدعها أحياناً تندّ عنه في تلك الناحية . أعتقد أنه كان في الموكب معك؟ "

قال سينيني: " لا، إنه في فيلته – ذهب إليها منذ ثلاثة أيام ".

أخذ تيتو يسوي قبعته وينظر إلى أسفل، إلى جوربه الملطخ، كما لو أنه لم يكترث قط للجواب. والواقع أنه حصل على معلومة مرغوبة جداً. فقد كان في تلك اللحظة يحتفظ في محفظته بخاتم ذهبي مكسور كان تعهد بأن يسلّمه إلى جيانوتزو بوتشي. كان تلقاه من مبعوث لبييرو دي ميديتشي كان قد اجتازه على الطريق ليلتقيه في سيرتالدو على الطريق إلى سيينا. ونظراً لأن بوتشي لم يكن في المدينة فإنه سيرسل الخاتم عن طريق الأخ ميشيل، وهو أخ قرطاجي من العامة الذين يعملون في خدمة الميديتشيين، واستلام تلك الإشارة سيعيد بوتشي ليسمع الجزء الشفوي من مهمة تيتو.

قال نيلو، ملوحاً بمشطه صوب تيتو: " انظروا إليه! أجمل أديب في العالم أو في العوالم(7)، والآن فقد مرّ بين يدي! أنحل وجهاً منه عندما جاء في أوج زهوته أول ما جاء إلى فلورانسة – إه؟ و، أقسم، هناك بعض الخطوط بدأت ترتسم بشكل خفيف حول فمك، يا سيد أوراتوري (أي: خطيب)! آه، العقل عدو للجمال! أنا نفسي خالتني النسوة جميلاً في يوم مضى – عندما كنت في القماط. لكن

الآن – oimè! أحمل أشعاري غير المكتوبة مشقّرة على وجهي! "

نظر تيتو، وهو يشارك البقية ضحكهم، إلى نفسه بشكل مأساوي في المرآة اليدوية، ورسم إشارة الوداع للمجموعة بعامة، وغادر.

قال فرانشيسكو سي: " أنا من رأي صديقنا القديم بييرو دي كوسيمو. لا أحب ميليما ولو نصف محبة. حيلة التبسّم تلك أخذت تقوى عنده أكثر من أي وقت مضى – لا غرابة في أن له خطوطاً مرتسمة حول الفم ".

قال مكيافيلي بشكل مازح: " إنه ناجح زيادة عن اللزوم. أنا واثق من أن هناك خطباً ما، وإلا لما حصل على تلك السكرتارية ".

قال سينيني بلهجة العدالة المنصفة: "إنه رجل مقتدر. دائماً كنت أجده أنا وأخي شخصاً نافعاً فيما يتعلق بصحائفنا اليونانية (8)، وهو يرضي إرضاءً تاماً هيئة العشرة. أحب أن أرى شاباً يشق طريقه للعلى بجدارة. والسكرتير سكالا، الذي صادقه من البداية، ما يزال يرى فيه شخصاً عظيماً، أنا على علم بذلك ".

قال كاتب بالعدل يقف في الخلفية: " دون ريب، إنه يكتب رسائل سكالا الرسمية، أو يصححها، ويتقاضى أجراً جيداً لقاء ذلك ".

قال مكيافيلي هازاً كتفه: "ليت السيد بارتولوميو يدفع لي أنا لقاء تطبيبي للاتينيته المصابة بالنقرس". وأضاف وهو ينظر إلى الكاتب بالعدل بسحنة بريئة على نحو تهكمي: " هل قال لك شيئاً عن الأجرة، يا سيد سيتشوني، أو هل كان ميليما نفسه؟ ".

أجاب سير سيتشوني: " ميليما؟ لا، حقاً. إنه متكتم كبندقة. فهو لا يتبجّح أبداً. لهذا السبب هم يستخدمونه في كل مكان. إنهم يقولون إن أحواله المادية تتحسن عن طريق القيام بكل أنواع الأعمال السرية".

قال مكيافيلي: " حقاً إنه لأمر ينطوي على بعض السوء، والكثير من كتّاب العدل عاطلون عن العمل! "

قال سي: " حسن، لا بد من القول إنني اعتقدت أن تلك كانت قصة مستقبحة منذ سنة أو اثنتين عن الرجل الذي قال إن بحوزته مجوهرات مسروقة "، مضيفاً: " وقد تم التعتيم على القصة بشكل أو بآخر، لكنني أذكر بييرو دي كوسيمو، آنئذ، يقول إنه يعتقد أن في الأمر شيئاً، إذ أنه شاهد وجه ميليما عندما أمسك الرجل بتلابيبه، ولم ير قط وجهاً " مرسوماً عليه الخوف والهلع " (9)كوجهه، كما يقول أديبنا القديم حاد الطبع دانتي ".

قال نيلو وقد استشاط غضباً: " هيا، لا تفرز المزيد من هذا السمّ، يا فرانشيسكو، وإلا سأعتبر من الواجبات العامة أن أقصّ شعرك في المرة القادمة التي تقع فيها تحت مقصّي. تلك القصة عن المجوهرات المسروقة افتراء في افتراء. برناردو روسيلي والثمانية الكبار عرفوا كل شيء عن ذلك. كان الرجل معتوهاً وخطراً، وقد أبقوه في السجن عن وجه حق ليقوا الناس شره. أما بالنسبة لصاحبنا بييرو دي كوسيمو، فإنه فطنته تجري كما تشتهي رياح مونجيبيلو: كانت لديه مخيلة مفرطة قد يحسب معها السحلية تمساحاً. لا: لقد ماتت تلك

القصة ودفنت منذ أمد بعيد – أنوفنا تعافها ".

قال مكيافيلي: " صحيح. أنت تتناسى خطر الحادثة السابقة، يا فرانشيسكو. فالفقير المعتوه التالي قد يتهمك بسرقة أشعاره، أو يتهمني أنا، ساعدني يارب! بسرقة نقوده النحاسية. آه! ". ثم استطرد قائلاً وهو يتجه صوب الباب: " دولفو سبيني نقل ريشته الحمراء خارج الساحة . كابتن المختالين ذاك يرغب في أن تخسر الجمهورية بيزا فقط ليرى الشعب ينزع الرداء عن ظهر الأخ الراهب ويمزقه تمزيقاً. عن إذنك، يا فرانشيسكو – أنا أعلم أنه صديقك (10) – قليلة هي الأشياء التي أفضلها على رؤيته وهو يلعب دور: Capo d'Ocaكابو دوكا (11) (المغفل –م) والذي خرج إلى المباراة نافخاً أبواقه وعاد بها معبأة في كيس "(أي بخفي حنين).

الفصل السادس والأربعون
قريباً من مصباح الشارع

ذلك المساء، عندما عمّ الظلام، وأنذر الجو بسقوط المطر التقت روملا، العائدة مع ماسو والمصباح بجانبها من مشفى سان ماتيو، الذي زارته بعد صلاة الغروب، زوجها الذي كان خارجاً لتوه من دير سان ماركو. وعلى الفور اقترح تيتو، الذي كان قد خرج ثانية بعد فترة وجيزة من وصوله إلى فيا دي باردي ولم يلتق روملا إلا قليلاً خلال النهار، أن يصحبها إلى البيت، بعد أن صرف ماسو، الذي كان ينزعج من سيره البطيء. لقد اعتاد أن يوليها مثل هذا الاهتمام الرسمي عندما كان يبدو واضحاً أن هذا الاهتمام مطلوب.لم يتصادم تيتو وروملا قط، ولم يتعرضا لبعضهما إطلاقاً. لقد كانا يشعران بغربة شديدة في داخلهما لدرجة أنه لم يتح لهما ذلك النزاع الذي هو محاولة للاتفاق. تحدثا عن الشؤون بكافة، العام منها والخاص، بالتزام دقيق بخط تبنياه. وإذا رغب تيتو في أن يحضّر عشاء له في المكتبة القديمة، الآن بعد أن تم تأثيثها بشكل محبب للنفس كغرفة طعام فقد كانت روملا تذعن، وتشرف على تحضير كل شيء يحتاجه: وتيتو، من جانبه، أعطاها الحرية في ممارسة عاداتها اليومية، متقبّلاً المساعدة التي عرضتها عليه سواء في النسخ أو كتابة الملخصات، وبالمقابل يغطي العوز المتوقع في المواد المخصصة للأعمال الخيرية.لكنه كان يتفادى دائماً، كما في هذا الصباح، تبادل النظرات معها، وكان يتظاهر بأنه كان

يحسبها خارج البيت لكي يتحاشى البحث عنها في غرفتها الخاصة، وكان يعزو إليها، مازحاً، تفضيلها الدائم للعزلة على صحبته.

في فورة الحماس الأولى لانتصارها على ذاتها، بعد أن تخلّت عن عزمها على الهروب، قامت رومولا بكثير من المحاولات الخجولة لإعادة علاقة تشوبها الصراحة. لكن مثل هذه العلاقة، كما رأت، لا تأتي إلا بالحديث الصريح عن اختلافاتهما، ومحاولة التوصل إلى تفاهم أخلاقي، بينما لم يكن أمام تيتو للخروج من غربته عنها إلا استعادة حنانها الفياض مما يفترض معه مسبقاً نسيان الفوارق بينهما (1). لم يحرص على أن يجري أي توضيح بينهما، وقد شعر بأن أي توضيح كامل ومعمّق هو من باب المستحيل: كان اهتمامه سينصبّ على استعادة ولع رومولا به ثانية، وبالنسبة إليها، كان الولع مستحيلاً. يمكن أن تكون مذعنة ورقيقة الحاشية، يمكن أن تقمع أية بادرة تومئ إلى نفور ما، لكن الحنان كان شيئاً يعسر ادعاؤه. كانت تعي النتيجة دون أن يكون بمقدورها فعل أي شيء: كان زوجها في غربة عنها.

هذا، وقد أضاف وجوب أن تكون بمنأى محسوب عن الأسرار التي لم يشأ بأي شكل إطلاعها عليها سبباً آخر. وبخصوص عمله السياسي سعى إلى أن يقنعها أنه كان يرى أن قضية آل ميديتشي لا أمل يرتجى منها، وأنه استناداً إلى ذلك الأساس العملي، كما هي الحال في النظرية، فإنه كان يخدم بصدق الحكومة الشعبية، والتي احتلت الآن قسطاً لا بأس به من اهتمامها. لكن الانطباعات التي هي دقيقة كالروائح جعلتها غير مرتاحة لعلاقته بدير سان ماركو.

كانت موزّعة المشاعر على نحو مؤلم بين التوجّس من أن ترى أي دليل يثير شكوكها، والدافع الذي قد ينشأ لديها بوجوب الانتباه لئلا يقع ضرر مؤلم.

عندما تمشيا معاً هذا المساء قال تيتو: " لم أفرغ من أشغال اليوم بعد. سأصحبك إلى عتبة باب بيتنا، يا حبيبتي رومولا، ومن ثمّ سأتوجه لإنجاز مأمورية أخرى، قد تستغرق مني ساعة، قبل أن أتمكن من العودة للراحة التي أنا بأمس الحاجة لها".

ثم تحدث بمرح عما كان شاهده في بيزا (2) إلى أن اقتربا من إحدى الشرفات التي تدلّى قريباً منها مصباح أمام صورة للعذراء . كان الشارع هادئاً، ولم يمرّا حتى هذه اللحظة إلا بالقليل من الناس، لكن، في هذه الأثناء، سمع وقع خطوات عديد مقتربة وأصوات غير واضحة.

قال تيتو على عجل، مستحثاً رومولا بحركة شابها بعض الهلع للصعود على درج الشرفة: " لن نصل إلى البيت دون بلل (3) ما لم نلتجئ إلى هذه الشرفة loggia (أو الإيوان المسقوف –م) المريحة ".

قالت رومولا مندهشة: " بالتأكيد لا جدوى من انتظار هذا المطر الخفيف ".

" لا: أشعر أنه يزداد غزارة . دعينا ننتظر قليلاً ". بذلك التيقظ الذي يكشف أضعف الإشارات، والذي ينتمي لذهن تعوّد الاحتراس، اكتشف تيتو على تلألؤ ضوء المصباح أن قائد المجموعة المقتربة كان يضع ريشة حمراء ويتقلد سيفاً لامعاً – والحق أنه يكاد يكون آخر

شخص في العالم يود الالتقاء به في هذه الساعة التي تقف فيها رومولا بجانبه. أثناء النهار كان جرى بينه وبين دولفو سبيني لقاء حافل، وكان الشأن الذي كان تحدث بشأنه مع رومولا، والذي ينتظر القيام به، هو مقابلة ثانية مع ذلك الشخص، وهو تتمة للزيارة التي قام بها لسان ماركو. كان تيتو، بناء على خطة مرسومة سلفاً منذ زمن، حامل الرسائل إلى سافونا رولا – رسائل مزوّرة بعناية، وقد دبّر أن يكون على إحداها خاتم وتوقيع كاردينال نابولي بالذات، والذي من بين كل مجمع الكرادلة المقدس كان وظّف في روما كل ما وسعه من نفوذ لصالح الأخ الراهب. وكانت الرسائل ترمي إلى الإبلاغ عن أن الكاردينال كان قادماً من بيزا، و، لكونه غير راغب لأسباب وجيهة في الدخول إلى فلورانسة إنما يرغب في التشاور مع سافونارولا في هذا المنعطف الصعب، فقد عزم أن يتوقف في هذا اليوم بالذات في سان كاسيانو، على مبعدة عشرة أميال من المدينة، ومن ثم ينطلق في صباح اليوم التالي بزي الكاهن البسيط ويلتقي سافونا رولا، كما لو كان الأمر مصادفة، على بعد خمسة أميال على طريق فلورانسة، بعد شروق الشمس بساعتين. أما المؤامرة، والتي تشكل هذه الرسائل المزورة الخطوة الأولى في حبكها، فقد تمثلت في أن يكمن دولفو سبيني مع عصبة من الكومباناتشيين على الطريق، في بقعة معزولة تبعد حوالي خمسة أميال عن مداخل المدينة، وأن يلقي القبض على سافونا رولا ومعه الأخ الدومينيكاني الذي سيرافقه حسبما تقتضي القاعدة، ويسلمه إلى فصيل صغير من الخيالة الميلانويين (من ميلانو – م) الذين

يقفون متأهبين قريباً من سان كاسيانو، لينقل من قبلهم لاحقاً إلى داخل الأراضي الرومانية.

كان هناك احتمال قوي في أن يشتبه الأخ الراهب الثاقب الذهن بوجود شرك، ويتراجع عن ركوب مجازفة تجاوز أسوار المدينة، وهذا ما تحاشاه لفترة من الوقت. وحتى عندما انتهى من وعظه فقد رأى أصدقاؤه أن من الضروري أن تواكبه كوكبة من الحراس المسلحين. وهنا تم الطلب إليه أن يسلك طريقاً معزولاً دون أن يرافقه أحد سوى أحد زملائه الرهبان. وعلى هذا الأساس فقد أعطي له الحد الأدنى من الوقت ليتخذ قراره، وكان احتمال أن يتصرف انطلاقاً من هذه الرسائل يتمثل في أن التوق الذي وسم تفكيره والقاضي بدمج المصالح داخل الكنيسة وخارجها توصلاً لإنشاء مجلس عام، وكذلك الأمل بأن يسدي له الكاردينال، في المفصل الفعلي لنزاعه مع البابا، خدمة فورية سينتصران على ذكائه وحيطته في الفسحة الوجيزة المتاحة له كي يفكر في الأمر.

كان تيتو قد حظي بمقابلة سافونا رولا ذلك أنه رفض أن يودع الرسائل في يدي أحد سواه، وببراعة تامة كان قد اعترف أنه بالمصادفة، وبالاستنتاج، فقد تمكن حتى الآن من أن يحزر مضمونها مما حدا به إلى الاعتقاد بأنها تشير إلى موعد خارج مداخل المدينة، وفي تلك الحالة فقد شدد على أن يطلب الأخ الراهب حرساً مسلحاً من السينوريا، وعرض خدماته في تنفيذ الطلب بأقصى ما هنالك من سرية. أجاب سافونا رولا بإيجاز بأن هذا مستحيل: فالحرس المسلح ما

كان ليتفق مع الخصوصية والسرية. وقد تكلّم وعينه تبرق برقاً، واقتنع تيتو بأنه كان ينوي ركوب المخاطرة.

لم يأبه تيتو نفسه كثيراً للنتيجة. فقد صرّف شؤونه بذكاء، ورأى أن كل النتائج لا بد أن تؤول كلها لصالحه. وأياً كان الحزب الذي ستؤول له الرئاسة فقد كان آمناً لجهة الحظوة والمال. تلك عبارة مجردة على نحو غير لائق. فالحقيقة، ذات اللبوس الذي درج تيتو على أن يلبسها إياه، قد تمثلت في أن ذهنه المتوقد، الذي ميّز خواء متماثلاً لدى كل الأحزاب، قد سلك الطريق العقلاني الوحيد في جعلها (الأحزاب) تخدم مصالحه.

وإذا ما وقع سافونا رولا في الشرك فسيتمخّض ذلك عن مجوهرات ورعاية بابوية. وإذا لم يقع فإن عمالته الحاذقة تكون قد قوّت مركزه لدى سافونا رولا وسبيني، بينما تكون أية ثقة يستحصل عليها منهما سبباً في رفع قيمته كعميل للميديتشيين.

لكن سبيني كان زميلاً غير مناسب. فقد كان له من المكر ما يكفي ليجعله مولعاً بالمؤامرات، لكن دون المقدرة أو رباطة الجأش الضروريتين لأمر غاية في التعقيد كالسرية. فكثيرة هي المرات التي وقع فيها تحت تأثير الشراب، ذلك أنه حتى فلورانسة الرزينة قد كان لها " Beoni" أو مدمنوها، من كلا العامة والإكليروس، أولئك الذين علا صخبهم في الحانات والمآدب الخصوصية. وعلى الرغم من الاتفاقية التي عقدها مع تيتو، بأن يكون تعرفهما العلني على بعضهما من النوع الأكثر برودة، فقد بقي الاحتمال القائم دائماً أن يصبح، في أحد

اللقـاءات المسـائية، وعلـى حـين غـرّة غيـر كتـوم وودوداً. وقـد كانـت الإشارة الرقيقة التي تبدت مع طرحه شاله فوق كتفه الأيسر قد فهمت في الصباح، لكن الإلماعة الأقوى، التي لم ترقَ إلى تهديد، قد لا تكفي لاستبعاد وضع اليد على الكتف بطريقة أخوية في المساء.

وقد كان أمل تيتو الرئيس في هذه الآونة ألا يكون دولفو سبيني قد لمحه، والأمل كان سيكون مبرراً جداً لولم يتسنّ لسبيني رؤيته بشكل أوضح مما تسنت له رؤية سبيني. لكن، بما أنه هو نفسه كان في الظل، فقد رأى تيتو منوّراً للحظة بأشعة المصباح المباشرة، وتيتو على طريقته كان شخصية مميزة جداً بقدر تميّز قائد الكومباناتشيين. كان شخص رومولا الملفع بالسواد قد فاتته رؤيته، وفي هذه الآونة كانت تقف خلف زوجها في زاوية الشرفة. لم يُترك تيتو طويلاً مع أمله.

" ها! يا حمامي الزاجل! " جاء صوت سبيني الخشن، فيما قصد هو أن يكون منخفض النبرة، وفي الوقت ذاته قبضت يده على كتف تيتو، " لماذا تحاول التواري؟ أنت لم تعلم أن القادمين هم رفقاء لك. جيد أنني لمحتك، فهذا يوفر الوقت. ماذا بشأن الصيد صباح الغد؟ هل ستفرّ الطريدة الصلعاء؟ هل سيكون الصقور مستعدين؟ "

لو كان من طبيعة تيتو أن يشعر بالغيظ لكان شعر به ثانية من هذا الشريك الذي له وجه كوجه الثور، ولا يصلح لأن يكون قائداً أوأداة تنفيذ. استحالت شفتاه إلى لون أبيض، لكن انفعاله كان مبعثه الضرورة الملحة لاختيار طريقة مأمونة. فلو حاول أن يسكت سبيني

فلن يجدي هذا سوى أن يعمّق شكوك روмولا، وكان يعرف حق المعرفة أنه إذا ما قيّض لذعر شديد أن يستيقظ بداخلها فإنها لن ترضى لا بأن تُسكَت ولا أن تُخدع: ومن نحو آخر، فلو صدّ سبيني مغضباً فإن ذلك الكومباناتشي الذي تفوح منه رائحة الخمرة قد يستحيل متوحشاً وينحو بسرعة نحو الغيظ والحنق أكثر منه نحو التنبؤ بالدوافع. ولذا فقد سلك سبيلاً ثالثاً، ما أثبت أن رومولا تحتفظ بنوع واحد من السلطة عليه – سلطة الخوف.

ضغط على يدها كما لو كان ينوي أن يلمح لها، وقال بلهجة زميل رائق المزاج –

" أجل، يا عزيزي دولفو، يمكنك أن تجهّز نفسك بكل أمان. لكن لا تأخذ معك أية أبواق ".

قال سبيني وقد شعر باستفزاز طفيف: " لا تخف لا حاجة للعب دور سير Saccente (4) معي. أعرف أين يخبئ الشيطان ذنبه تماماً كما تعرف أنت "، وأردف قائلاً مخفّضاً نبرة صوته قليلاً بإحساس يشي بالتخبط: "ماذا!(أو أيش!) ابتلع الطعم بأكمله؟ الأنف الشمام لم يشتم الصنارة إطلاقاً؟ "

كان يجول بخاطر تيتو: " الوغد لن يرضى حتى يفرّغ الجعبة "، لكنه قال بصوت مسموع –

" ابتلعه كله بأسهل مما تبتلع كأساًً من التريبيانو (5). ها! إني ألمح مشاعل: لا بد أن جنازة قادمة. الوباء آخذ بالانتشار، كما سمعت ".

قال سبيني منصرفاً على عجل: " سانتيديو! (6) أكره منظر تلك النعوش. طابت ليلتك ".

كانت المشاعل تقترب حقاً، لكنها كانت تتقدم موفداً كنسياً عائداً صوب البيت. كان الإيحاء بالجنازة والوباء وسيلة تيتو للتخلص من سبيني دون أن يأمره بالانصراف. ولحظة انصرافه التفت تيتو إلى رومولا وقال بصوت هادئ –

" لا تنزعجي من أي شيء قاله ذاك ال bestia(7)، يا عزيزتي رومولا. والآن سنمضي في طريقنا: أعتقد أن المطر لم يزدد هطولاً ".

كانت ترتعش يحدوها تصميم ساخط. ولم تجدِ طريقة تيتو في التحدث بتلك اللامبالاة. كانت تشك في كل كلمة فاه بها.

قالت: " لن أمضي. لن أقترب من البيت حتى أطمئن لعدم ارتكاب أية خيانة ".

" انتظري على الأقل حتى تعبر تلك المشاعل "، قال تيتو برباطة جأش تامة، لكن بشعور بالكراهية جديد ومتنام تجاه زوجة قد يكون لديها هذه المرة، كما استشف، القوة على معارضته بالرغم من سيطرة الزوج وهيمنته.

عبرت المشاعل بعد أن قام تيتو بواجبه من التوقير و Vicario dell' Arcivescovo(8)، لكن رومولا لم تر شيئاً خارجياً. وإذا دعت الضرورة آنئذ، لسحق هذه الخيانة التي اعتقدت بوجودها مدفوعة بكل قوة الهاجس الطويل الأمد، لأن تثب على زوجها

وتهوي معه إلى أسفل السافلين، فإنها شعرت أنها لن تتردد في فعل ذلك . الاتحاد مع هذا الرجل! في تلك اللحظة بدا أن منهج قمع الذات لسنتين خلتا قد زال وانتهى: لم تشعر بشيء سوى أن حائلاً يفصل بينهما.

دخلا في منطقة شبه مظلمة، ولم يقويا على رؤية وجهي بعضهما إلا بصورة باهتة.

قالت رومولا بصوت خفيض راعش: " قل لي الحقيقة، يا تيتو – هذه المرة قل لي الحقيقة . هذا سيكون أسلم لك ".

قال تيتو بمسحة خفيفة من الازدراء كانت بمثابة متنفس لانزعاجه: " ما الذي يحدوني لأن أقول غيرها، يا قديستي الغاضبة؟ ما دامت الحقيقة هي بالضبط ما يجعلك، وعن وجه حق، تبتهجين لها – أي بالتحديد أن معرفتي لمؤامرة من مؤامرات سبيني تمكنني من تجنيب الأخ الراهب الوقوع ضحية لها ".

" وما هي المؤامرة؟ "

قال تيتو: " هذا ما أعاف التصريح به. يكفي أن أقول إن سلامة الأخ الراهب ستكون مضمونة ".

وتابع: " إنها مؤامرة لاستدراجه خارج أسوار المدينة ليقوم سبيني باغتياله ".

" ليس هناك أية نية للقتل. هي ببساطة مؤامرة لإكراهه على الإذعان لدعوة البابا له إلى روما. لكن بما أنني أخدم الحكومة الشعبية، وأعتقد أن حضور الأخ الراهب هنا هو وسيلة ضرورية

للمحافظة عليها في الوقت الراهن، فإنني أرى أن أمنع مغادرته. يمكنك هذه الليلة الخلود للنوم بكل ما هنالك من اطمئنان وراحة بال ".

لبثت رومولا صامتة لبرهة. ثم قالت بصوت مفعم بالألم: "تيتو، لا فائدة: لا أصدقك في شيء ".

استطاعت، في هذه اللحظة، أن تميّز سلوكه وهو يرفع كتفيه، ويبسط راحتيه بصمت. ذلك الكره البارد المتمثل في غيظ الكائنات خلو العاطفة كان يتصلّب بداخله.

قالت رومولا، بعد فترة صمت وجيزة، وبلهجة جديدة تنمّ عن تصميم مفعم بالسخط: " إذا غادر الأخ الراهب المدينة – إذا لحق به أي أذى " – فسأفشي ما سمعته للسينوريا، وسوف يجللك العار. وماذا يعني إذا كنت زوجتك؟ " وأضافت محتدة: " سيلحقني عار معك. وإذا كنا متحدين فأنا ذلك الجزء منك الذي سينقذك من الجريمة. والآخرون لن يُغدر بهم ".

قال تيتو في أكثر لهجاته ترخيماً: " أنا جد مدرك لما يرجح أن تفعليه، anima mia(9)، ولذلك إذا كان لديك قدر ولو يسير من المنطق في هذه اللحظة فلتعتبري أنه إذا لم تصدقيني في أي شيء آخر فبإمكانك أن تصدقيني عندما أقول إنني سأعتني بنفسي، ولن أتيح لك أن تدمريني ".

" إذن أنت تؤكد لي أن الأخ الراهب سبق تحذيره – لن يتخطى أسوار المدينة؟ "

" لن يتخطى أسوار المدينة ".

أعقب هذا الحديث فترة من الصمت، لكن طرد الشك لم يكن بالإمكان.

قالت رومولا وهي تهم بالتحرك: " سأعود الآن إلى سان ماركو وأستطلع الأمر ".

قال تيتو بهمس مشوب بالمرارة وهو يقبض على رسغها بكل قوته كرجل:" لا لن تفعلي، أنا سيدك. لا يمكنك أن تقفي مني موقف المعارضة ".

كان بعض السابلة يقتربون منهما. وكان تيتو قد سمع وقع خطواتهم، ولذلك كان صوته أقرب إلى الهمس. كانت رومولا جد مدركة للسيادة عليها ما حدا بها لأن تتجنب الممانعة، حتى ولو بقيت غير شاعرة باقتراب الشهود. لكنها شعرت الآن بوقع خطواتهم وأصواتهم، وسرعان ما جعلها إحساسها بالكرامة الشخصية الذي تعودت عليه تذعن لمبادرة تيتو بأخذها من يدها خارج الشرفة.

سارا صامتين لبرهة تحت رذاذ المطر الخفيف. بدأت الدفقة الأولى للسخط والانزعاج لدى رومولا تفسح لمشاعر أكثر تعقيداً، مما عطّل لديها كلاً من الكلام والفعل. في تلك الحالة من الحدّة التي تتسم ببساطة أكبر اتخذت المعارضة العلنية للزوج، والذي شعرت بأن روحها تنفر منه،سيماء الإغراء بالنسبة لها. لقد بدت الأسهل بين كل السبل. بيد أنه بدأ الآن ينبثق من فيض الانفعال، عادات مساءلة الذات، وذكريات الدافع المقموع، وذلك الاحتياطي من الكبرياء الذي بقي، بفعل كل ما هنالك من نظام صارم، هو هو. فمسكها من رسغيها الذي

أكـد هيمنـة زوجهـا الفعليـة عليهـا بـدلاً مـن أن يـوقظ شراسـة جديـدة بداخلها، كما كان سيحدث لو أن تسرعها كان من النوع الأشد فظاظـة، قـد جعلهـا تشـعر برعـب لحظـي راعـش مـن جـرّاء هـذا الضـرب مـن المشـاجرة معـه. لقـد كانـت المـرة الأولـى التـي تشـاجرا فيهـا علنـاً منـذ هروبها (10) وعودتها، وقد حافظ الرادع الذي كبح جماع عزمها المتقد آنئذ علـى القوة علـى كبحها الآن. وفـي هذه الحالـة المتبدلـة بدأ تفكيرها يركز علـى الاحتمالات التـي ستنقذها من أي مسلك يـائس: لـن يخـاطر تيتـو بـأن يكـون محـط خيانتهـا. وأيـاً كـان قصـده الأساسـي، فيجـب أن تحدد موقفها منـه علـى ضـوء حقيقـة أنهـا كانت تعلم بـالمؤامرة. لم تكن الآن ملتزمـة بفعـل أي شـيء سـوى أن تتـذره بـذلك اليقـين، وأنـه إذا مـا خدعها فإنها لن تقفل فمها بأي شكل. ومن ثم، كان محتملاً – أجل، يجب أن تتشبث بذلك الاحتمال إلـى حين دحضـه – ألا يكون تيتو قد قصد قط أن يسهم في خيانة الأخ الراهب.

أمـا تيتـو فقد كـان، من جانبـه، مشـغول الفكر، ولـم يتكلم ثانيـة إلى أن وصلا قريباً من البيت. ثم قال:

" حسن، يا روموِلا، هل أخذت قسطاً كافياً من الوقت لاستعادة الهدوء؟ إذا تم ذلك يمكنك أن ترفدي عوز ثقتك بي ببعض الاستنتاج العقلانـي: لعلك ترين، علـى مـا أعتقد، أنـه لوكـان عنـدي أيـة نيـة فـي مسـاندة مـؤامرة سـبيني لأدركـتُ الآن أن وجـود بيانونيـة جميلـة معـي كزوجة، تعرف خبايا المؤامرة، سيكون عقبة كأداء في طريقي ".

اتخذ تيتو اللهجة التي كانت في ذلك الوقت بالذات الأسهل

له، مخمناً أنه، في وضع روmolا النفسي الراهن، لن يفيد الاستهجان المقنِع معها.

قالت بصوت خفيض: " أجل، تيتو، أظن أنك تعتقد أنني سأصون الجمهورية من مزيد من الخيانات. إنك محق في الاعتقاد بذلك: إذا ما تعرض الأخ الراهب للخيانة فسأبلّغ عنك ". توقفت للحظة، ثم قالت، بشيء من الجهد، " لكن لم يكن الأمر كذلك. لعلي تسرعت في الحديث – أنت لم تقصد ذلك قط. إنما فقط، لماذا يبدو عليك أنك زميل ذلك الرجل؟ "

" مثل هذه العلاقات لا غنى عنها بالنسبة للناس العمليين، يا عزيزتي رومولا "، قال تيتو، راضياً لرؤية اصطراع الأفكار بداخلها، وأضاف وهو يفتح لها الباب: " أنتن معشر المخلوقات الجميلات تعشن في السحائب. أرجوك اخلدي للراحة وقلبك مطمئن ".

الفصل السابع والأربعون
الردع

واجهت ترتيبات تيتو البارعة إحباطاً منغِّصاً بسبب حوادث تافهة لم تكن لتدخل ضمن حسابات رجل حاذق. وكان من النادر أن يتمشى مع رومولا مساءً، بيد أنه اتفق حدوث ذلك في هذا المساء بالضبط حين كان وجودها مزعجاً للغاية. كانت الحياة لعبة جد معقدة، ما جعل أساليب البراعة عرضة للهزيمة عند كل منعطف أمام الفرص المتطايرة في الهواء، والتي لم يحسب لها حساب كما نزول زغب النبات الشوكي.

والحال أنه لم يكن يأبه لفشل مؤامرة سبيني، لكنه استشعر صعوبة مزعجة في تعديل تحذيره لسافونا رولا على هذا النحو من ناحية، ولسبيني من ناحية أخرى،حتى لا يثير الشبهات. هذا، ويمكن للشبهة التي تنشأ في أوساط الحزب الشعبي أن تكون قاتلة لسمعته ومكانته المميزة في فلورانسة: فالشبهة التي تنشأ لدى أدولفو سبيني قد تكون مزعجة بنتائجها مثل الكراهية الناجمة عن عدم تقييد كلب شرس.

ولو كان تيتو ذهب رأساً إلى الدير ليحذر سافونا رولا قبل خلود الرهبان للراحة لأتى تحذيره مباشرة في أعقاب تسليمه للرسائل المزورة مما لا يدع له مجالاً لتجنّب التخمينات المزعجة. لم يكن باستطاعته أن يحذّر سبيني على الفور دون أن يطلعه على السبب الحقيقي، ذلك لأنه لا يمكنه أن يزعم على الفور اكتشف أن سافونا

رولا قد غيّر هدفه. كان يعرف سبيني حق المعرفة مما جعله يعلم أن تفهمه لن يميّز شيئاً سوى أن تيتو قد " انقلب " عليه وأحبط المؤامرة. ومن ناحية أخرى، فعن طريق تأجيل تحذيره لسافونا رولا حتى الصباح، فسيكون من المؤكد تقريباً أن يفقد فرصة تحذير سبيني بأن الراهب قد غيّر رأيه، وأن عصبة الـ Compagnacci (انظر سابقاً– م)ستعود أدراجها وقد استشاطت غضباً بفعل خيبة الأمل. على أن هذه الأخيرة كانت المجازفة التي وقع اختياره عليها، مطمئناً لمقدرته على تهدئة ثائرة سبيني بالتأكيد له أن الفشل كان ناجماً فقط عن حرص الأخ الراهب وحذره.

تكدّر مزاج تيتو. وإذا ما فرض عليه الابتسام فسيكون ذلك مجهوداً خارقاً بالنسبة إليه. كان مصمماً على تجنب مقابلة رومولا ثانية، وعليه لم يذهب إلى البيت ذلك المساء.

لبثت ساهرة طوال الليل ولم تخلع ملابسها قط. سمعت هطل المطر يزداد غزارة شيئاً فشيئاً. كان الإنصات لصوت المطر مما يروق لها: بدت الطبيعة العاصفة حماية لها من مكائد الناس بإرغامها إياهم على تعليق أفعالهم. ومن جديد كان عقل رومولا نهباً لشتى الأفكار، ليس بفعل الشك الكبير الذي أحاق بزوجها فحسب، بل بفعل الارتياب في سلوكها هي. أية كذبة لم يقلها لها حتى الآن؟ أي مشروع لم يكن يتوفر عليه ما تزال هي في غفلة عنه؟ كل من يثق بتيتو كان في موقع الخطر. عبثاً تحاول وتقنع نفسها بأن الأمور هي عكس ذلك. ألم تكن تصغي بكل أنانية للدوافع التي أملاها عليها كبرياؤها عندما

أحجمت عن تحذير الناس منه؟ " وإذا كان زوجها شريراً فسيكون مطرحها في السجن بجانبه "– هذا يمكن أن يكون. شعرت بالرضى لتحقق ذلك المطلب. لكن هل تسمح هي، الزوجة، لزوج بأن يتسبب في الأذيات التي ستجعل منه شخصاً شريراً، حين يكون باستطاعتها أن تحول دونها؟ بدت الصلاة مستحيلة بالنسبة لها. لقد استبعدت حيوية تفكيرها تلك الحالة العقلية التي يكون جوهرها سلبية مترقبة.

ازداد الانفعال شيئاً فشيئاً. وقد هيأ لها خيالها، وهو في حالة النشاط المَرَضي، خططاً محتملة سيستخدمها تيتو، في نهاية المطاف، لتفادي تهديدها. وحوالي الفجر خف هطل المطر شيئاً فشيئاً إلى أن توقف أخيراً، ونشط الهواء ثانية وبعثر السحب، وانبلج الصبح جلياً رائقاً على كل الأشياء من حولها. مما جعل إمكانية تحمّلها لانزعاجها أقل من ذي قبل. تلفعت بمعطفها وهرعت إلى الشرفة على السطح كما لو أن هناك شيئاً ما في المعالم الطبيعية الشاسعة يمكن أن يحدد لها تصرفها، كما لو أنه ليس هناك سوى الأسطح يخفي خط الشارع الذي قد يسلكه سافونا رولا وهو في طريقه لتلقّي الغدر.

لو ذهبت إلى عرّابها ألن تحمله، دون الإفشاء بأي شيء محدد، على اتخاذ إجراءات تمنع الأخ جيرولامو من اجتياز المداخل؟ إنما قد يكون هذا متأخراً. اعتقدت رومولا، وهي تشعر بكآبة جديدة، أنها فشلت في أن تعلم أية تفاصيل تسترشد بها من تيتو، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة. لا بد أن تذهب إلى سان ماركو: ليس هناك من سبيل آخر.

هرعت بالنزول إلى الطبقة السفلى وخرجت إلى الشارع دون أن تلقي نظرة على مرضاها، وغذّت الخطا مجتازة فيا دي باردي باتجاه جسر فيتشيو. كانت تنوي سلوك الطريق الذي يمر وسط المدينة. كان الطريق الأقصر، أضف إلى أنه قد يتفق أن تلتقي في الساحة الكبيرة بزوجها الذي لعله، على سبيل الاحتمال الذي كانت ما تزال تتشبث به، قد يهدّئ بالها بخصوص سلامة الأخ الراهب، مما تنتفي معه الحاجة لذهابها إلى سان ماركو. وعندما وصلت إلى أمام قصر فيتشيو نظرت بلهفة إلى داخل الفناء ذي الأعمدة المتراصفة، ثم جالت ببصرها في أرجاء الساحة، لكن الشكل المعروف جيداً، والذي رسمه ذات يوم في فؤادها حبها الفتي، والآن موسوم بالألم الذي يتأكلها، لم يكن يرى ولا في أي مكان. هرعت مباشرة إلى ساحة الكنيسة (بياتزا ديل دومو). كانت تعج بالحركة: شوهد متعبدون يصعدون ويهبطون السلم الرخامي، وأشخاص توقفوا للدردشة، وباعة يتنكبون أحمالهم. وسط تلك الأشكال المتحركة لمحت رومولا زوجها. عند عودته من سان ماركو كان قد دخل إلى صالون نيلو، وكان الآن يتكئ على جائز الباب. عندما اقتربت رومولا تبين لها أنه كان واقفاً يتحدث وكل الارتياح الموجود في الكون بادٍ عليه، ويده ممسكة بقبعته، ويده تنفض للخلف شعره المسرّح حديثاً. وقد هزتها المقارنة بين هذا الارتياح البادي والهموم الممضة التي ابتعثها بداخلها، مما جعل سخطها كبيراً: لقد فاقمت الرؤية الجديدة لصلابته هلعها. عرفت من الواقفين بجانب زوجها كروناكا واثنين آخرين من المترددين على سان

ماركو . فجأتها فكرة –

" سأرغمه على الإفصاح أمام أولئك الناس ". وقد مكّنتها خطوتها المتمهلة من أن تطبق عليه قبل أن يتسنى له الانصراف، بينما أخذ كروناكا يقول: " هي ذي السيدة رومولا ".

اعترت هزة خفيفة كيان تيتو عندما شعر أنه يقف وجهاً لوجه أمام زوجه. بدت شعثة من جرّاء مراقبتها القلقة، لكن برق في عينيها شيء آخر غير القلق عندما بادرت بالقول –

" هل اجتاز الأخ الراهب المداخل؟ "

" لا "، قال تيتو شاعراً بالعجز التام أمام هذه المرأة، ومحتاجاً لكل ما بحوزته من رباطة جأش كي يحافظ على سحنة لا يبدو فيها ما هو أشد من الدهشة والاستغراب.

ألحت قائلة: " وأنت متأكد أنه لن يفعل؟ "

" أنا متأكد أنه لن يفعل ".

" هذا يكفي "، قالت رومولا واتجهت لتصعد السلم وتحتمي بالكنيسة إلى حين إبلالها من الاضطراب الذي اعتراها.

لم يعرف تيتو مشاعر أقرب إلى الكره كتلك التي شعر بها عندما كان يلاحق بنظراته رومولا التي كانت ترتقي السلم بعد انسحابها.

من بين الحاضرين لم يكن هناك مريدون مخلصون للراهب فحسب بل السير سيتشوني، الكاتب بالعدل، الذي كان في السر، شأنه شأن تيتو، عميلاً للميديتشيين.

السير فرانشيسكو دي سير باروني (1)، والمعروف باختصار أكبر كإنسان شائن بالسير سيتشيوني، لم يكن متعلماً، ولا وسيماً ولا ناجحاً، ونقيضاً للإنسان الشهم. كان خائناً دون فتنة. وعليه فلم يكن مولعاً بتيتو ميليما.

الفصل الثامن والأربعون
الردع المضاد

عاد تيتو إلى البيت في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم. وكانت رومولا، التي اتخذت مجلسها قبالة الخزانة في غرفتها الضيقة لنسخ بعض الوثائق، على وشك التوقف عن عملها لأن الضوء قد أخذ يصبح أكثر خفوتاً، في هذه الأثناء دخل زوجها. جاء مباشرة إلى هذه الغرفة بحثاً عنها بنيّة محددة لا لبس فيها، وقد لمحت رومولا عند دخوله شيئاً جديداً في تصرفه والتعبير المرتسم على وجهه عندما نظر إليها بصمت، ودون أن يخلع قبعته ومعطفه اتكأ بأحد مرفقيه على الخزانة، ووقف أمامها مباشرة.

كانت رومولا، التي تأكدت تماماً أثناء النهار من سلامة الراهب، تشعر برد الفعل الناجم عن بعض الندم لسورة الشك والغضب التي حملتها على مخاطبة زوجها أمام الملأ بخصوص مسألة كانت تعلم أنه يرغب أن تبقى خصوصية. حدثتها نفسها بأنها ربما كانت على خطأ.ولعل ازدواجية الخطط، والتي كانت سمعت حتى عرابها

يلمح إليها على أنها لا تنفصم عن تكتيكات الأحزاب، تكون كافية لتعليل صلته مع سبيني، دون الافتراض بأن تيتو قد قصد قط معاضدة المؤامرة. أرادت أن تكفّر عن تهورها عن طريق الاعتراف بأنها تسرّعت أكثر من اللازم، ولعدة ساعات تركّز تفكيرها على احتمال أن يقود هذا الاعتراف من جانبها إلى كلمات صريحة أخرى تكسر صمت فؤاديهما الذي دام سنتين. كان الصمت تاماً وكاملاً، حتى إن تيتو كان غافلاً عن هروبها منه وعودتها ثانية. لم يحاولا قط الاقتراب من كشف ذلك الماضي الذي ثوى محجوباً عنهما، سواء في الحب الفتي الذي اشتمل عليه ذلك الماضي أوفي الصدمة التي هشمت ذلك الحب، مثل غرفة للمآدب عطّل الموت يوماً الوليمة المقامة فيها.

رفعت بصرها إليه وفي نظرتها ذلك التسليم الذي يرجع إلى حالة تأنيب الذات لديها، بيد أن التغير الماكر في وجهه وأسلوبه منعها من الكلام. بقيا صامتين لبضع لحظات ينظران إلى بعضهما بعضاً.

شعر تيتو نفسه بأن أزمة قد داهمت حياته الزوجية. فتصميم الزوج على الهيمنة الذي ثوى عميقاً تحت كل الدماثة وأسلوب التوسل قد طفا الآن بشكل دائم على السطح، وبدا أنه يغير سحنته، مثلما تتغير السحنة جرّاء توتر عضلي خفي يعمل من خلاله شخص ما في السر على خنق أو سحق الحياة لدى شيء ضعيف، لكنه خطر.

شرع بالحديث بصوت رخيم بارد مما جعلها ترتعش: " رومولا. حان الوقت كي يفهم أحدنا الآخر ". ثم توقف.

قالت بوهن: " هذا مناي من بين كل الأشياء، يا تيتو ". بدا

أن وجهها الشاحب الجميل، بعد أن زايله كل غضب ولم يبق فيه سوى وجل الشك الذاتي، يضفي هيمنة ملحوظة على قوة الشر لدى زوجها.

أضاف قائلاً: " لقد اتخذت هذا الصباح خطوة لابد أنك تلاحظين الآن أنها كانت عديمة الجدوى – مما عرضك لتعليقات الآخرين، وقد تورطني في مشاكل عملية خطيرة ".

" أعترف أنني تسرعت. أنا آسفة لأي غبن يمكن أن أكون قد ألحقته بك "، نطقت رومولا بهذه الكلمات بلهجة أكثر وضوحاً وحزماً. كانت تأمل أن يبدو تيتو أقل تشنجاً بعد أن تعبّر عن أسفها، ومن ثم يمكنها أن تقول أشياء أخرى.

قال دون أي تغير في لهجته: " بودي لو تفهمين مرة وإلى الأبد أن هذه الصدامات لا تتسق مع كوننا زوجاً وزوجة. بودي لو تفكرين ملياً بالطريقة التي حدت بك لاتخاذ تلك الخطوة، حتى لا يتكرر مثل هذا الأسلوب ".

قالت رومولا مكتسبة قليلاً من الحدة: " ذلك يعتمد عليك، يا تيتو ". لم يكن ذلك إطلاقاً ما فكرتْ في قوله، لكننا لا نتبيّن أمامنا إلا سبيلاًً صغيراً جداً أثناء الحديث المتبادل.

أجاب تيتو: " ستقولين، على ما أعتقد، بأنه يجب ألا يحدث مستقبلاًشيء يمكن أن يثير شكوكك غير المعقولة. كنت صريحة كفايةً الليلة الفائتة عندما قلت إنك لا تثقين بي. أنا لست مستغرباً من أية نتيجة مبالغ بها قد تستخلصينها من مقدمات صغيرة، لكنني أود أن أنوّه إلى الثمرة التي قد تتولد عن جعلك مثل هذه الاستنتاجات المبالغ

فيها أساساً للتدخل في شؤون أنت لا تعلمينها. هل أنت منتبهة تماماً لما أقول؟ "

توقف منتظراً الإجابة.

" أجل "، قالت رومولا وهي تتضرّج بغيظ عصي على الكبت لهذه اللهجة الباردة من الفوقية.

" حسن، إذن، قد لا يمضي وقت طويل قبل أن تطلق بعض الكلمات أو الحوادث العارضة خيالك للعمل مستنبطاً جرائم اقترفتها، ولربما هرعت إلى قصر فيتشيو لتحذير السينوريا ودبّ الذعر في المدينة. أتريدين أن أخبرك بالنتيجة؟ ليس ببساطة العار الذي سيلحق بزوجك، ذلك الذي تتوقين إليه بكثير من الجرأة، بل إلقاء القبض على الكثيرين من كبار القوم في فلورانسة وتدميرهم بمن فيهم السيد برناردو ديل نيرو ".

كان تيتو قد خطط لتحرك حاسم وقد نفّذه. تلاشى التضرّج من وجه رومولا وشحبت شفتاها بالذات – تأثير غير عادي اعتراها، ذلك أنها لم تكن إلا نادراً عرضة للخوف. شعر تيتو بنجاحه.

أضاف: " ربما تقرّظين نفسك بأنك إنما كنت تأتين عملاً بطولياً للإنقاذ. ربما حدا بك الأمر إلى أن تحاولي تدوير زناد البنادق بالكلام المنمّق باستعمال مثل هذه الأفكار في الشؤون السياسية في فلورانسة. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو، ليس ما إذا كان بإمكانك الثقة بي بل، أما وأنه قد تم تحذيرك، ستتجرئين على الاندفاع، مثل رجل كفيف بيده مشعل، للدخول في لجة أشياء معقدة أنت لا

تفقهينها. "

شعرت رومولا كما لو أن تفكير تيتو قد أمسك تفكيرها كما لو بملزمة: فالاحتمالات التي كان أشار إليها كانت تنهض أمامها بوضوح مرعب.

قالت: " أنا متهورة زيادة عن اللزوم. سأحاول أن أتفادى ذلك ".

قال تيتو بإلحاح شديد وقاس : " تذكري أن ما بدر منك تجاهي هذا الصباح من تصرف ينمّ عن الشك قد يكون له، رغم كل شيء، من التأثيرات الخطرة ما يفوق التضحية بزوجك، والتي تعلمت أن تفكري بها دون أن يرفّ لك جفن ".

قالت رومولا على الفور بصوت متضرع، بعد أن نهضت واقتربت منه أكثر يحدوها عزم ملح على الإفصاح عن مكنونات صدرها: " تيتو، ليس الأمر كذلك، ليس صحيحاً أنني أضحي بك عن طيبة خاطر. كان التعلق بك أعظم جهد بذلته في حياتي. لقد رحلت في سورة غضبي منذ سنتين، وعدت ثانية لأنني كنت أكثر ارتباطاً بك من أي شيء على الأرض. لكن دون جدوى. أنت تبعدني عن تفكيرك. أنت تهوى التفكير بي كمخلوقة تتسم باللاعقلانية لدرجة تمنعني من أن أشاركك الاطلاع على شؤونك. أنت لا تصارحني بشيء ".

بدت عندما أحنت وجهها فوقه، واتسعت حدقتا عينيها، كما ملاكه الطيب يتوسل إليه, ووضعت يدها على ذراعه. لكن لمسة رومولا ونظرتها لم تعد تحرّك أي وتر من الحنان لدى زوجها. شعر

تيتو صاحب المزاج الطيب، المتسامح، الذي لا يعرف الكراهية، ويكاد لا يعرف كيف يفقد المرء صبره، الميال دائماً لأن يكون دمثاً مع بقية الخلق في العالم، أن مشاعره قد تصلّبت على نحو غريب تجاه زوجته التي شكّل حضورها في يوم مضى أقوى تأثير عرفه. ومع كل رقة طباعه، كان يتسم بفعالية ذكرية في البصيرة والهدف، فعالية هي طاقة بحد ذاتها، مثل رهافة الحدّ، تشق طريقها دون أي زخم قوي.كان لرومولا طاقتها الخاصة التي أحبطت طاقته، وليس هناك من إنسان، اللهم إذا لم يكن ضعيفاً بشكل استثنائي، سيتحمّل إحباط زوجته له.فالزواج يجب أن يكون إما علاقة مشاركة وجدانية أو علاقة غالب ومغلوب.

لم يظهر على وجهه انطباع ينم عن أية مشاعر عندما كان يسمع رومولا وللمرة الأولى تتحدث عن رحيلها عنه. فقد بدت شفتاه على قساوة أكبر وحسب بينما ابتسم ابتسامة خفيفة وقال –

" عزيزتي رومولا، عندما تتأكد بعض الظروف يجب أن نعقد العزم حيالها. وكما يقول الناس: ليس هناك من الأمنيات ما يملأ نهر آرنو، أو يحوّل خوخة إلى برتقالة. لم ألاحظ أية فاعلية، حتى في الصلوات، من تلك الناحية. تركيبتك تولّد لديك بعض الانطباعات المحددة التي لا يمكن التوصّل إليها بالمنطق : لا أستطيع مشاركتك مثل تلك الانطباعات، وبالتالي فقد سحبتِ كل ثقة مني. لقد تغيرت نحوي. وتبع ذلك أني تغيرت نحوك. ليس يجدي فتيلاً الرجوع إلى الماضي. علينا ببساطة تكييف أنفسنا مع الشروط المتبدلة. "

قالت رومولا بذلك النوع من السخط الذي يتأتّى عن استخدام قوة حية ضد مقاومة لا تقهر معدومة الحياة: " تيتو، لن يكون من دون طائل أن نتكاشف، لقد كان الإحساس بالخداع لديك ما غيّرني، وذلك باعد بيننا. كما وليس صحيحاً أنني أنا من تغير أولاً. لقد تغيرت نحوي منذ الليلة التي ارتديت فيها الدرع أول مرة. لقد أخفيت سراً عني – لقد كان على صلة بذلك الرجل العجوز، وأنا شاهدته ثانية البارحة ". وتابعت بلهجة الاستعطاف المؤلم: " تيتو، لو أنك تسرّ لي ولو مرة بكل شيء، مهما يكن – أنا لا آبه بالألم – كي لا يقوم جدار بيننا! أمن الممكن أن نبدأ حياة جديدة؟ "

هذه المرة برقت في وجه تيتو بارقة مشاعر. لبث صامتاً لا يريم. لكن بدا أن البارقة غيرت لونه إلى شحوب. لم يعر اهتماماً لنداء رومولا، لكن بعد لحظة صمت، قال بهدوء –

" إن تهورك حيال التوافه، يا رومولا، له تأثير مبرّد يبرّد حمامات نيرون ". أمام هذه العبارات الحادة انكمشت رومولا واستردت موقفها المعتاد الداعم للذات. تابع تيتو (1): " إذا بعبارة " ذلك الرجل العجوز" تقصدين المعتوه جاكوبو دي نولا الذي حاول قتلي ووجه إلي اتهاماً غريباً ما لم أطلعك عليه لأن ذلك كان سيزعجك بدون فائدة، فإن ذلك الفقير المسكين قد توفي في السجن. رأيت اسمه على لائحة الموتى ".

قالت رومولا: " لست أعرف شيئاً عن اتهامه. لكنني أعرف أنه هو الرجل الذي شاهدته والحبل يطوق عنقه في الكنيسة – الرجل

الذي رسم صورته بييرو دي كوسيمو وهو يقبض على ذراعك كما كان رآه يقبض عليها يوم دخول الفرنسيين، في يوم ارتدائك للدرع ".

" وأين هو الآن، يا ترى؟ " قال تيتو، وهو ما يزال شاحب الوجه لكن محتفظاً برباطة جأشه.

قالت رومولا: " كان مستلقياً ليس فيه رمق من حياة في الشارع وقد أنهكه الجوع. لقد أعدته للحياة بالخبز والنبيذ. أحضرته إلى عتبة بيتنا، لكنه رفض أن يدخل. عندئذ ناولته بعض المال، وقد انصرف دون أن يقول لي شيئاً. لكنه اكتشف أنني زوجتك. من يكون؟ "

" رجل نصف معتوه، نصف أبله، كان يوماً خادماً لوالدي في اليونان، وهو يغلّ ضغينة وحقداً نحوي لأنني تسببت في طرده بسبب السرقة. والآن لديك كامل السر، والرضى أيضاً لمعرفة أنني معرّض مرة أخرى للاغتيال. إن حقيقة ارتدائي للدرع، والذي يبدو أنه شغل تفكيرك كثيراً، لا بد أنها قادتك للاستنتاج بأنني موضع تهديد ذلك الرجل. هل كان هذا سبب اختيارك أن تستثمري معرفته وتدعيه لدخول البيت؟ "

خلدت رومولا للصمت. كان الحديث يشبه الاندفاع بصدر عارٍ في مواجهة درع.

تخلى تيتو عن وضعية الاستناد، وخلع قبعته ورداءه على مهل، ودفع بشعره للخلف. أخذ يستجمع قواه استعداداً لبعض العبارات الختامية. ووقفت رومولا منتصبة القامة تنظر إليه كما كانت ستنظر

إلى قوة مميتة داهمة يخلق عدم مواجهتها إلا بالتحمل الصامت.

قال باللهجة نفسها التي تحدث بها أولاً: " يجدر ألا نتطرق إلى هذه المسائل ثانية، يا رومولا. يكفي أن تتذكري أنه في المرة القادمة التي تقودك فيها حماستك الكريمة للتدخل في الشؤون السياسية فإنك، على وجه الاحتمال، لن تنقذي حياة أي شخص من الخطر بل تنصبين المشنقة وتضرمين النار في البيوت. لم تصلي بعد إلى حد أن تكوني بيانونية متحمسة بما فيه الكفاية كي تعتقدي أن السيد برناردو ديل نيرو هو أمير الظلام، والسيد فرانشيسكو فالوري هو ميخائيل كبير الملائكة. أعتقد أنه لا حاجة لأن أطلب منك وعداً؟ "

" لقد فهمتك جيداً، يا تيتو ".

قال مغادراً الغرفة: " هذا يكفي ".

استدارت رومولا، واليأس بادٍ على وجهها، وتهالكت على كرسيها. " يا إلهي، لقد حاولت – لا أستطيع دفعاً لذلك. سنبقى دائماً متباعدين ". عبرت هذه الكلمات تفكيرها بصمت. وقالت بصوت مسموع، كما لو أن هناك رؤيا فجائية قد أجفلتها لتقول – " ما لم يتسبب البؤس في الجمع بيننا! "

وتيتو، من جانبه، طرأت له فكرة جديدة بعد أن أغلق الباب وراءه. وإذ كان مزمعاً أن يغادر فلورانسة حالما تكون حياته هناك قد أصبحت تكئة مرتفعة بما يكفي للانطلاق والعيش في مكان آخر، لربما في روما أو ميلانو، فقد واكب ذلك الآن، وللمرة الأولى، رغبة في أن يتحرر من رومولا، ويتركها وراءه. لقد كفّت عن أن تنتمي لأثاث حياته

المرغوب: لم يكن هناك أية إمكانية لقيام علاقة مريحة بينهما دون صدق من جانبه. والصدق كان ينطوي على الاعتراف بالماضي، والاعتراف كان ينطوي على تغيير الهدف. لكن تيتو لم يكن يرغب في سلوك هذا الطريق بقدر اضطرار فهد صغير للعق الحليب بعد نمو أسنانه.ونحن نعلم إحجام تيتو عن كل الصلات التي لم تكن ميسّرة وسارّة: لماذا هو مضطر إلى التشبث بها (الصلات)؟

ورومولا قد أحالت علاقاته مع الآخرين،ومعها أيضاً، عسرة. كان لقاؤه مزعجاً مع دولفو سبيني والذي عاد يستشيط غضباً بعد تبلل بالمطر لا جدوى منه وانتظار طويل في المكمن، وذلك المشهد الذي جمعه برومولا عند باب صالون نيلو، ما إن يصل إلى أسماع سبيني حتى يشكّل البذرة لشيء عصيّ على التدبير أكثر من مجرد الشك. لكنه اعتقد الآن أنه، على الأقل، قد سيطر على رومولا عن طريق رعب خاطب القوى الأعتى في طبيعتها. فقد أخاف عواطفها ووجدانها بالصورة الوهمية للعواقب. لقد استحوذ على بصيرتها عن طريق تهديدها بفكرة التعقد اليائس في شؤون تأبّت على أي حكم أخلاقي.

ومع ذلك لم يكن تيتو يشعر بالارتياح. لم يكن العالم بالنسبة له مفروشاً بعد بالمخمل، ولو كان كذلك لما استطاع أن يستسلم لتلك النعومة باستمتاع كامل. ذلك أنه قبل أن يخرج ثانية ذلك المساء عمد إلى ارتداء درعه الواقي.

الفصل التاسع والأربعون

هرم أدوات الزينة التافهة

مرّت الأيام الشتوية أمام ناظري رومولا مثلما تمرّ السفن البيضاء أمام من يقف وحيداً على الشاطئ – مرّت بصمت وتشابه، لكن كلاً منها كان مثقلاً بعبء خفي يشي بتغير وشيك. ولقد خلط تلميح تيتو الكثير من الرهبة باهتمامها بسير الشؤون العامة، ما جعلها تتملق الجهل أكثر من المعرفة. لقد رحل ثانية الإمبراطور الألماني المنذر بالتهديد والوعيد، وفي نواح أخرى، إلى جانب ذلك، نحا وضع فلورانسة نحو الهدوء، لكن بقي الكثير من الغمّ، ما لم يرتب أي تقليص معتبر في واجبات رومولا المفعمة بالنشاط.وفي هذه الواجبات،كما جرت العادة، وجد تفكيرها ملاذاً يلجأ إليه هرباً من شكّه.

لم تجرؤ على الابتهاج لأن الارتياح الذي جاء كأشدّ ما يكون، وبدا أنه يسوّغ سياسة حزب الأخ الراهب أخذ يجعل ذلك الحزب مزهواً بانتصاره، حتى إن فرانشيسكو فالوري، رئيس جماعة البيانونيين ذا الطبع الحاد، قد انتخب غونفالونياً مع بداية العام، وكان يستعجل ممارسة ما وسعه من طريقته الليبرالية أثناء فترة الشهرين اللذين يستلم فيهما السلطة. وقد بدا هذا، في هذه الفترة، تقوية للحزب الذي يعاضد الحرية أكثر من أي حزب آخر، وتعزيزاً للحماية التي تلقاها سافونا رولا . إلا أن رومولا كانت الآن متيقظة لكل إيحاء يمكن أن يعمّق هواجسها، بشكل لم يتعدّ معه الأمر، مهما كان الشكل الذي يتخذه الحاضر، مجرد التأمّل اللاشعوري في بذور التغيير المختلطة، والتي

قد تصبح في أي يوم مأساوية. ولقد تعززت شكوكها مسبقاً،عند حلول مناسبة الكارنفال، بعد منتصف شباط بقليل، بالإشارات الدالة على تغيّر حتمي: فالميديتشيون كفوا عن أن يكونوا سلبيين، وكانوا يسعون علانية لكي ينتخب برناردو ديل نيرو الغونفالوني الجديد (1).

وفي آخر أيام الكرنفال، بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً، خرجت رومولا، حسب الوعد، ويممت شطر كورسو ديغلي ألبيتزي، كي تحضر ابنة عمها بريجيدا، لتكون كلتاهما جاهزتين للانطلاق من فيا دي باردي في ساعة مبكرة بعد الظهر واحتلال مجلسيهما عند كوّة كان تيتو قد حجزها لهما في بياتزا ديلا سينيوريا(ساحة السينوريا) حيث سيشهد المكان مشهداً من نوع جديد ولافت، مشهد لا بد أن كل عيون الفلورانسيين تترقب رؤيته. ذلك أن البيانونيين قد أطلقت يدهم في مسألة الطريقة التي سيدار بها الكرنفال. وقد جهد دولفو سبيني ورفقاء له عبثاً لكي يمارسوا ارتداء الأقنعة القديمة والمقالب العملية العزيزة على الأفئدة والمتبّلة جيداً ببعض قلة الحياء. مثل هذه الأشياء ما كان يجب أن تكون في مدينة أعلن فيها المسيح ملكاً (2).

انطلقت رومولا، وهي على تلك الحالة الذهنية الواهنة، التي بها يبدأ كل واحد يوماً طويلاً من التفرج لا لشيء سوى إرضاء لطفل، أو صديق عزيز أشبه بطفل. وقد شكّل اليوم، بالتأكيد، فترة متميزة الإدارة من حيث الاحتفال الكرنفالي. بيد أن هذه المرحلة من الإصلاح لم تمس حماستها في شيء: وهي لم تعلم بأنها كانت حقبة في حياتها سيشرع عندها مصير آخر في ألا يكون مقترناً بعد الآن في السر بل

في العلن بمصيرها هي.

وقد رغبت في أن تعبر الساحة الكبرى كي يتسنى لها الحصول، قبل أن ينضمّ إليها أحد، على معاينة أولى للمنظر الذي لا نظير له في ذلك المكان. وعند دخولها من الجنوب شاهدت شيئاً هائل الحجم ومتعدد الألوان في شكل هرم، أو، بالأحرى، في شكل شجرة تنّوب ضخمة علوّها ستون قدماً، وعلى أفرعها رفوف يزداد اتساعها شيئاً فشيئاً مع انحدارها نحو القاعدة حتى وصلت إلى محيط من ثمانين ياردة. كانت الساحة تمور بالحياة: أشكال لشباب نحيلين في أزيائهم البيضاء على رؤوسهم أكاليل من الزيتون يغدون ويروحون حول قاعدة الشجرة الهرمية يحملون سلالاً مملوءة بأشياء زاهية الألوان. وكان أشخاص في هيئات شتى يكبرونهم سناً، بعضهم في ثياب الرهبنة، وبعضهم في أردية فضفاضة وقبعات من لون أحمر قاتم مما يلبس الفنانون، يساعدون ويتفحصون، أو، خلاف ذلك، يتراجعون إلى شتى النقاط على بعد كي يعاينوا الجمع الرائع: بينما ظهرت مجموعة كبيرة، عرفت رومولا من بينهم بييرو دي كوسيمو، تقف بعيدة عن المكان على السلم الرخامي لشرفة أوركاغنا(3) يظهر عليها الامتعاض والازدراء.

وعند وصولها إلى نقطة أقرب توقفت لتلقي نظرة على الأشياء المتعددة المتدرجة الترتيب من القاعدة إلى قمة الهرم. هذه الأشياء عبارة عن أقمشة موشاة ذات تصاميم غير محتشمة، وصور ومنحوتات رفعت، على الأرجح، لتحرّض على الرذيلة. وكان هناك

ألـواح ومناضـد لكـل أنـواع الألعـاب، وأوراق لعـب، إضـافة إلـى قوالـب طباعتهـا، وأحجـار نـرد، وغيرهـا مـن وسـائل القمـار. وكـان هنـاك أيضـاً كتـب موسـيقية دنيويـة، وآلات موسـيقية مـن كـل الأصـناف الجميلـة اشتملت على العـود، والطبل، والصـنوج، والأبواق. وأيضـاً أقنعة وثياب تنكرية استخدمت في عروض الكرنفال القديمة. كما كانت هناك نسخ جميلة لمؤلفات أوفيد، وبوكاتشيو، وبترارك، وبولتشي، وكتب أخرى من النـوع الـذي يعتمد الزهـو الفـارغ أو النـوع الـداعر. كمـا كانـت هنـاك كـل وسـائل الزينـة النسـائية – زجاجـات الـروج، الشـعر المسـتعار، المرايـا، العطورات، أصناف البودرة، والمناديل الشفافة التي قصد منها استثارة النظرات المستطلعة : وأخيراً: عند القمة تماماً، كانت تشاهد منحوتة لا تليق بالمكان لتاجر بندقي أسطوري ربما قيل إنـه عرض مبلغاً سخياً كثمن لهذه المجموعـة غير المنسجمة من معروضـات التسوق، وكـان يتسـامق فوقـه بقباحـة لا يعلـى عليهـا، الشـكل الرمـزي للكرنفـال الفاسـق القديم.

كـان ذلـك مقدمـة لنـوع جديـد مـن النيـران المشـتعلة فـي الهـواء الطلق – حرق أدوات الزينة التافهة. وكان الهرم يحوي بداخله مستودعاً مخفيـاً مليئـاً بـالوقود الجـاف والبـارود. وفـي هـذا اليـوم الأخيـر مـن الاحتفـال، عنـد المسـاء، كانـت النـار ستضـرم فـي كومـة أدوات الزينـة التافهة على صوت الأبواق، وكان الكرنفال القديم القبيح سيهوي وسط ألسنة اللهب على وقع أهازيج انتصار الإصلاح.

كـان مـن الصـعب تصـوّر ألا يكـون هـذا العمـل الـذي تـوّج

الاحتفالات الجديدة إلا لمؤسسة فريدة ابتدأت على يد سافونا رولا منذ سنتين. لم يعد مسموحاً ترك جماع الولدان والشبان الفلورانسيين لنزواتهم المحببة التي تدفعهم نحو أذى الشوارع والخلاعة المستقبحة. وبتأثير من تدريب الأخ دومينيكو، وهو أشبه بقائم مقام بالنسبة لسافونا رولا، لن تنطق شفاه الصبيان والمراهقين، أمل فلورانسة، إلا بكلمات طاهرة، ولن يتوافر لديهم سوى الحماس للخير غير المنظور الذي سيشين فتور همة كبارهم في السن، ولن يعرفوا أية مسرات خلاف الملائكية – ينشدون المدائح الإلهية ويسيرون في أرديتهم البيضاء. وقد كان لأجلهم أن نصبت صفوف المقاعد في مرتفع من المكان أمام جدران الكنيسة. وقد اعتادوا أن يسمعوا سافونا رولا وهو يناشدهم باعتباره المجد المقبل لمدينة نُدبت خصيصاً للقيام بصنيع الله.

كانت هذه القوات ذات الوجنات الطرية هي العناصر الرئيسة في أفراح الكرنفال الحديث المتجددة والتي كانت محاكاة ساخرة مقدسة للكرنفال القديم. هل كانت هنالك نيران تضرم في العراء في غابر الزمان؟ الآن كانت ستضرم النار التي تأتي على كل دنس الأرض. هل كانت هناك مواكب رمزية؟ الآن كان مقرراً أن تنطلق المواكب، لكن الرموز ستكون أردية بيضاء وصلباناً حمراء وأكاليل من أغصان الزيتون – شعارات للسلام والمسرة البريئة – والرايات والصور التي سترفع عالياً كانت ستحكي قصص انتصار الخير. وهل كانت هناك رقصات في شكل حلقة تحت سماء الساحة على وقع أصوات الكورال الذي ينشد أغاني خلاعية؟ ستكون هناك حلقات رقص الآن، لكن

رقصات يؤديها الرهبان وعامة الناس يجمعهم الحب الأخوي والمسرة الإلهية، والموسيقى ستكون موسيقى التراتيل. أما بالنسبة لمجموعات المشاة في الشارع فإنها ستكون أكبر من أي وقت مضى – ليس من أجل مآدب تتسم بالخزي والتبذير، بل – من أجل منفعة الجياع والمعوزين. وإلى جانب ذلك سيكون هناك تجميع للمحرمات anathema(4)، أو أدوات الزينة التافهة، التي ستوضع على النار الهرمية العظيمة في الهواء الطلق.

أخذت جحافل الفضوليين الشبان تتنقل من بيت إلى بيت في غمرة هذا العمل المثير الذي يطالبون فيه بتسليم المحرّمات . ولربما، بعد أن تكون أدوات الزينة التافهة الأكثر جلاءً قد سُلّمت إليهم، سيكون ما يزال بحوزة السيدة، على رأس أهل البيت، بعض الكرات الصغيرة المحمرّة والتي أُحضرت من بلاد المشرق وقصد منها أن تنتعش معها الوجنات الصفراء انتعاشاً هو الأكثر براعة في الزيف؟ إذا كان ذلك كذلك، فلتنزل السيدة الكرات وتلقي بها في سلة القدر. أو، لربما، كان لها عقصات وضفائر من " شعر ميت (مستعار)؟ " (5) – إذا كان ذلك كذلك فلتجلبها إلى مدخل البيت، ليس على رأسها، بل في يديها، وتستنكر على الملأ المحرمات التي أخفت الأمارات الموقّرة للعمر تحت لبوس محاكاة ساخرة شاحبة كالموت لفترة الشباب. وعلى سبيل المكافأة ستسمع أصواتاً شابة جديدة تتلفظ ببركات تُستمطر عليها وعلى أهل بيتها.

ولا ريب أن الفضوليين جرد الذقون، والمنظمين في شكل

فصائل صغيرة، قد شرعوا في أعمالهم تحدوهم الرغبة والتشوق. هذا، وإن إكراه الناس عن طريق جلب العار، أو رجم روحي آخر، كي يتخلوا عن الأشياء التي يحتمل أن يغيظهم التخلّي عنها، لهو نوع من الورع يستجيب له على الفور عقل الشباب. وإذا استشاط بعض أشرار الناس العنيدين غضباً وهددوا بالسوط أو الهراوة، فإن هذا سيكون أيضاً مثيراً للاهتمام. والواضح أن سافونا رولا نفسه شعر حيال تدريب هؤلاء الفتيان بالصعوبة التي تثقل كل العقول التي تتصف بالتوق النبيل إلى غايات سامية، إنما بإدراك ناقص للوسائل التي تفرض الالتجاء إلى نوع من تأثير تقشّفي غير عادي كونه الأمل الوحيد المؤكد. لقد اعتاد الشباب الفلورانسي على سيء العادات وبذيء اللسان: لقد بدا الأمر أولاً بركة طاهرة عندما شرعوا يهتفون " !Viva Gesu" (عاش يسوع). لكن سافونا رولا أجبر في النهاية على القول من المنبر، " هناك أكثر قليلاً مما ينبغي من " !Viva Gesu". هذا التلفظ الدائم بالكلمات المقدسة يؤول بها إلى الازدراء. فلنكف عن سماع ذلك الصياح حتى يحين موعد العيد التالي ".

ورغم ذلك، وبينا ذهب الرتل الطويل للشبان بأرديتهم البيضاء، وبصلبانهم الحمراء الصغيرة وأكاليل أغصان الزيتون، إلى الكنيسة عند الفجر صباح هذا اليوم لتناول القربان من يدي سافونا رولا، فقد بدا المنظر أخّاذاً. ودون شك كانت الكثرة من الأنفس الشابة تلك تدخر للمستقبل ذكريات الأمل والرهبة عسى أن تنقذهم من البقاء الأبدي في منظر مستقبح لما صنعته أيديهم كأناس ومواطنين. ليس هناك من

طاعة واعية ليست تمثّل خطوة متقدمة على انعدام القانون، وهؤلاء الفتيان غدوا جيل الرجال الذين قاتلوا كثيراً وتحملوا كثيراً في كفاح جمهوريتهم (6) الأخير. والآن، في الساعات التي تتخلل أوان تناول القربان والعشاء الباكر، كانوا يقومون بجولاتهم الأخيرة لجمع الصدقات وأدوات الزينة التافهة، ولهذه الغاية شاهدت رومولا الأشكال البيضاء النحيلة تتحرك جيئة وذهاباً حول قاعدة الهرم الكبير.

قال صوت أجش قريب من أذنها: " ما رأيك بهذه الحماقة، يا سيدة رومولا؟ إن جماعتك من البيانونيين سيحيلون الجحيم أملاً مرتقباً ساراً لنا، إذا كانوا سيدبّرون الأشياء في هذه الدنيا كما يحلو لهم. يكفي إحضار التهديد بالعصا إلى قمم الجبال كي يبين الرسامون، أمثال لورينزو دي كريدي وباتشيو الشاب (7) في ذلك المكان، يساهمون في اعتصار اللون من الحياة بهذه الطريقة ".

قالت رومولا وهي تنظر للأعلى وتبتسم للرجل العابس: " عزيزي الطيب بييرو، بل يجب أن تكون سعيداً لرؤية بعض هذه الأشياء تحرق. انظر إلى تلك الحلي الرخيصة والباروكات ومستحضرات الروج : لقد سمعتك تحتج احتجاجاً ساخطاً على تلك الأشياء مثل الأخ جيرولامو نفسه ".

قال بييرو ملتفتاً إليها بحدة: " وماذا يهم؟ لم أقل قط إن على المرأة أن تصنع من نفسها بقعة سوداء على الخلفية. هيا! سيدة أنتيغونا، عار على امرأة لها مثل شعرك وكتفيك أن تقع على مثل هذه الترهات – دعي ذلك للنساء اللواتي لا يستأهلن الرسم. ياه! القديسة

العذراء نفسها دائماً كانت تعتني بلباسها. هذا من معتقدات الكنيسة:- حديث هراطقة، حقاً! وأود أن أعرف ماذا كان الرائع السيد باردو سيقول عن إحراق الشعراء الإلهيين على يد هؤلاء الرهبان الذين ليسوا كأشباه رجال بأفضل مما لو كانوا بصلات بصيلاتها بالمقلوب. انظري إلى تلك البيتراركا(*) التي تقف بجانب مستحضر التجميل: هل يدعي حتى المغفلون أن لاورا (8) الإلهية رسمت على شكل عجوز سليطة اللسان؟ وبوكاتشيو، الآن: هل تقصدين القول، يا سيدة رومولا – أنت يا من تليق أن تكون نموذجاً للحكيمة القديسة كاترين المصرية (9) – هل تقصدين القول إنك لم تقرئي قط قصص الخالد السيد جيوفاني؟ "

قالت رومولا: " الصحيح أني قرأتها، يا بييرو. بعضها قرأته كثيراً من المرات، عندما كنت فتاة صغيرة. تعودت أن أنزل الكتاب من الرف عندما يكون والدي نائماً كي يتسنى لي أن أقرأه وحدي".

" Ebbene ? " قال بييرو، بلهجة مغرقة في التحدي.

قالت رومولا: " فيها بعض الأشياء التي لا أود مطلقاً أن أنساها. لكن عليك الاعتراف، يا بييرو، أن الكثير من تلك القصص يدور حول الخداع الدنيء لتحقيق أحط الغايات. الناس لا يرغبون في الكتب التي تجعلهم يستخفون بالشر، كما لو أن الحياة كانت مزحة فظة. ولا يمكنني أن ألوم الأخ جيرولامو لتعليمنا أننا مدينون بزماننا لشيء أسمى ".

(*) نسبة إلى بترارك . انظر الحاشية أيضاً (م).

قال بييرو، بمرارة، منكفئاً على عقبيه ومنسحباً: "أجل، أجل، جيد مثل هذا القول بعد أن قرأتِها".

ورومولا، من ناحيتها، تابعت سيرها مبتسمة لتلميح بييرو، تحتضن رقة في المشاعر إزاء غضب الرسام العجوز لأنها كانت تعلم أن أباها كان سيحتضن الشعور ذاته. أما هي فلم تكن تشعر بأي صدام داخلي مع النظر إلى الفرح بهذه النظرة الصارمة والسوداوية التي تنحو نحو قمع الشعر في محاولتها قمع الرذيلة. فكل من الأسى والفرح له ضيق أفقه الخاص به.إن حماساً دينياً، مثل حماس سافونا رولا، الذي يبارك الجنس البشري في نهاية المطاف بإعطائه الروح دفعاً قوياً كي نتعاطف مع الألم، وتشجب الظلم، وتكبت الرغبات الشهوانية، لا بد أن يستجر دائماً التعنيف المتأتي عن جحود

كبير. كانت حياة رومولا قد وفّرت لها ألفة مع الحزن، ما حتّم عليها أن تكون غير منصفة تجاه السعادة. تلك النتيجة الخفية للثقافة والتي ندعوها بالذوق قد تم كبحها بفعل الحاجة لدافع أعمق، تماماً مثلما أن المطالب الأعذب لشراع الحنك يقضي عليها الجوع الداهم. وإذ كان من عادتها أن تتنقل وسط مشاهد الألم، وتحتضن في فؤادها أكبر خيبة أمل تحس بها المرأة، فإن الصرامة التي تضافرت مع قوة الإحسان المنكرة للذات لم تكن بالنسبة لها متنافرة العناصر.

الفصل الخمسون
تيسا خارج البيت وداخله

كان شخص آخر من السهل تمييزه – شخص لا يدّثر بالسواد، بل بالقديم من الأحمر، والأخضر، والأبيض – يقترب من الساحة ذلك الصباح لمشاهدة الكرنفال. جاءت من الجهة المقابلة، ذلك أن مسكن تيسا لم يعد أعلى هضبة سان جيورجيو. بعد الذي حدث في ذلك المكان مع بالداسار رأى تيتو أن من الأفضل لذلك السبب وغيره من الأسباب أن يعثر لها على بيت جديد، إنما، كذلك الأمر، في بقعة هادئة هواؤها عليل، في بيت يتاخم الحدائق الشاسعة شمال بورتا سانتا كروتشه.

لم تخرج تيسا للتمتع برؤية معالم المدينة دون إذن خاص. كان تيتو معها المساء الفائت، وقد احتفظت لنفسها بالتوسل الذي شعرت أنه يتراكم في قلبها وحلقومها إلى أن ظهر لها في حالة من استرخاء متألق، فإحدى ذراعيه تطوق ليلو القوي البنية، والأخرى تستقر بلطف على كتفها عندما كانت تسعى إلى أن تجعل نينا الصغيرة تقف بشكل متوازن على ساقيها. كانت إذ ذاك متيقنة من أن الإرهاق الذي واكب دخوله وتهالكه على الكرسي قد تلاشى من جبينه وشفتيه. لم تكن تيسا بطيئة في تعلمها بضع خطط وحيل يمكن لها بوساطتها أن تتحاشى إثارة مشاعر نالدو وفي الوقت ذاته تفلح في تمرير بعض الأمور على طريقتها هي. لم تستطع أن تقرأ خلاف ذلك، لكنها كانت قد تعلمت أن تقرأ الكثير في وجه زوجها.

ومن دون ريب، إن فتنة تيتو وضّاح المحيا، رائق المزاج

الذي أفاق تحت شرفة سيرتشي ذات صباح إبان شهر الصوم لخمس سنوات خلت، دون أن يضع نفسه بعد رهن الخداع، لم تعد تشابه تماماً هيئة نالدو، وهو يجلس غائصاً في ذلك الكرسي ذي المسند المستقيم والمزين بالنقوش،والذي وفّره لراحته عندما كان يأتي ليرى تيسا والأولاد. كان تيتو نفسه مندهشاً للشعور المتنامي بالارتياح الذي شعر به في هذه اللحظات. لم تدعُ الحاجة لأي تصرف ماكر نحو تيسا: كانت على درجة من الجهل والبراءة حالت دون أن يكون موضع ارتيابها في أي أمر. وقد وقعت أصوات الصغار التي تناغي بمناداته "Babbo"(1) عذبة على أسماعه أثناء تلك الفترة الوجيزة التي سمعها فيها. وعندما فكّر بأن يرحل عن فلورانسة لم ينوِ قط أن يهجر تيسا وصغيريها. كان مولعاً بتلك الكائنات الصغيرة المدورة الوجنات الواسعة العينين التي تعلقت به غافلة عن أي شر يضمره. وحيثما يمكن للمحبة أن تنبثق، يكون الأمر أشبه بالورقة الخضراء وتفتّح الأزهار – نقية، تتنفس الطهر مهما كانت التربة التي قد تنمو فيها. أما رومولا المسكينة، بكل ما تتحلى به من مجهود منكر للذات، فقدكانت في الواقع تسهم في تقسية طبيعة تيتو بتبريدها (من التقسية بالتبريد الفجائي –م) بكراهية لا لبس فيهالم تكن لتبدو عليه في السابق. لكن تيسا حافظت على ينابيع المودة مفتوحة.

بدأت تيسا حديثها، شاعرة بطلبها يتصاعد حتى حلقومها،وتاركة نينا تقتعد الأرض: " نينا تنعم بالهناء الآن بدوني. يمكنني أن أتركها مع مونا ليزا أنى شئت، وإذا ما كانت في المهد

تبكي، تأتي حصافة ليلو كأشد ما تكون – فهو يذهب ويوسع مونا ليزا ضرباً ".

قفز ليلو الذي بدت عيناه السوداوان الكبيرتان أكثر سواداً نظراً لأن خصلات شعره كانت من النوع البني الفاتح مثل خصلات والدته، عن ركبة بابو (أي والده –م) وتوجه حالاً ليبرهن على ذكائه بضربه مونا ليزا التي كانت تهز رأسها هزاً خفيفاً وهي منكبة فوق شغلها تحيك في الجانب الآخر من الغرفة.

قال تيتو ضاحكاً: " ولد رائع! ".

قالت تيسا، متلهفة، وهي تدنو منه: " أليس هو حقاً؟ وربما أذهب غداً لمشاهدة الكرنفال فقط لساعة أو اثنتين، أليس بإمكاني؟ "

قال تيتو وهو يقرص وجنتها: " أوه، أيتها الحمامة الملعونة! ذلك ما تتوقين إليه، أليس كذلك؟ ما شأنك بالكرنفالات بعد أن أصبحت عجوزاً لديها طفلان؟ "

قالت تيسا وهي تمط شفتها السفلى قليلاً للأسفل: " لكن العجائز يستهوين أن يتفرجن. مونا ليزا قالت إنها ترغب في الذهاب، لولا صممها، فهي لا تسمع الأصوات القريبة خلفها، وهي ترى أنه ليس باستطاعتنا معاً إيلاء الاهتمام الكافي لكلا الطفلين. "

قال تيتو متخذاً سيماء الجد: " لا، حقاً، يا تيسا، لا تفكري أبداً باصطحاب الطفلين إلى الشوارع المكتظة، وإلا غضبت منك ".

قالت تيسا بلهجة تنم عن خوف وتوسل: " لكنني لم أذهب قط إلى الساحة بدون إذن منذ السبت المقدس، وأعتقد أن نوفري قد توفي،

ذلك أنك على علم بأن الأم المسكينة قد قضت. ولن أنسى قط الكرنفال الذي شاهدته ذات مرّة، كان فاتناً – الكل في الكل ورود وتحتها ملك وملكة – وغناء. لقد أحببته أكثر من عيد سان جيوفاني ".

" لكننا لم نعد نشهد الآن مثل هذا الشيء، يا حبيبتي تيسا. هم بصدد إضرام النار احتفالاً في الساحة– هذا كل ما في الأمر. لكن لا يمكنني أن أدعك تخرجين وحدك في المساء ".

" أوه، لا، لا! لا أريد الذهاب مساءً. فقط أريد أن أذهب وأتفرج على الموكب في وضح النهار. مؤكد سيكون هناك موكب، أليس كذلك؟ "

قال تيتو: " أجل، إلى حد ما، في حيوية أشبه بحيوية سرب من الغرانيق. لا تتوقعي أن تجدي وروداً وملوكاً وملكات يشعون بريقاً وألقاً، يا حبيبتي تيسا. لكن، أعتقد أن أي تواتر للناس يطلق عليه اسم موكب يمكن أن يشكّل بهجة لعينيك الزرقاوين. ولقد نصبوا شيئاً ما في ساحة السينوريا لإضرام النار في العراء. قد يروق لك رؤية ذلك. لكن عودي إلى البيت في ساعة مبكرة، ولتبد عليك هيئة امرأة عجوز جدية. وإذا ما رأيت أي أشخاص على إهابهم الريش وفي أيديهم السيوف ابتعدي عن طريقهم: فهم شرسون ومستعدون لأن يجزّوا رؤوس العجائز ".

" يا قديسة يا عذراء! من أين يجيؤون؟ آه! أنت تمزح. ليس إلى هذا الحد. لكنني سأبقى بعيدة عنهم ".ثم تابعت تيسا تقول في همس قريباً من أذن نالدو : " لو بإمكاني أن آخذ ليلو معي! إنه عاقل

راشد ".

" لكن من سيصفع مونا ليزا عندئذ إذا لم تسمع؟ " قال تيتو وهو يجد صعوبة في مداراة ضحكة لكنه كان يعتقد أن من الضروري اتخاذ وضعية الجدّ. " لا، يا تيسا، لا يمكنك الانتباه إلى ليلو إذا دخلت وسط الزحام، كما وأنه أثقل من أن تضعيه على منكبيك ".

قالت تيسا بنوع من الأسى: " هذا صحيح، وهو يحب أن يتفلّت مني. لقد نسيت ذلك. إذن سأذهب وحدي. لكن الآن هيا انظر إلى نينا – فأنت لم تتملاّها بما فيه الكفاية ".

كانت نينا مخلوقة صغيرة زرقاء العينين لم تجتز سن الحبو والسقوط – كتلة جامدة وجدت، مثل قالب مسبوك، قاعدة ارتكازها بثبات مشكوك فيه. ذهبت تيسا لترفعها عن الأرض، وعندما كان بابو (الأب) يولي الاهتمام الذي يليق بالأسنان الحديثة البزوغ وغيرها من الأعاجيب قالت هامسة: " وهل بإمكاني شراء بعض الحلوى للأولاد؟ "

أخرج تيتو بعض النقود الصغيرة من محفظته وأنقدها إياها.

قالت تيسا مسرورة لهذا السخاء: " ذلك سيشتري أشياء لا حصر لها. لن يضيرني كثيراً أن أذهب بدون ليلو إذا ما أحضرت له شيئاً ما ".

وعليه فقد انطلقت تيسا في الصباح صوب الساحة الفسيحة حيث ستضرم النار في العراء. لم تعتقد أن نسيم شباط على درجة من البرودة يحملها على ارتداء ما هو أكثر من فستانها الصوفي الأخضر. والمعطف سيكون جائراً إذ أنه سيخفي عقداً جديداً وشبكة جديدة

مرصعة بالفضة، وهما هديتا الزينة الوحيدتان اللتان قدّمهما تيتو لها. لم يدر بخلد تيسا على الإطلاق أن تعرض قامتها على الملأ، ذلك لأن أحداً لم يتفوه قط بشيء عن جمالها. لكنها كانت على يقين أن عقدها وشبكتها هما من أفضل ما ارتدته فتاة ريفية ثرية، وقد قامت بترتيب نقابها الأبيض فوق رأسها كي يبين مقدم عقدها على أحسن ما يكون. وقد حسبت أن هذين القرطين لا بد أن يوحيا بالاحترام لشخصها باعتبارها زوجة لمن يستطيع أن يشتريهما.

غذت الخطا وهي تشعر بحبور شديد تحت أشعة شمس شباط لا تفكر إلا بما ستشتريه لصغيريها، أشياء ستملأ سلتها الصغيرة، دون أن تفكر مطلقاً بأي شخص يتفق أن يراقبها. لكن نزولها من الطابق العلوي إلى الشارع كان محطّ مراقبة، وقد بقيت تحت مرمى بصر شخص انتظر طويلاً دون طائل كي يرى ما إذا كان قاطن ذلك البيت ليس سوى تيسا، ذلك البيت الذي تعقب إليه تيتو أكثر من مرة. كان بالداسار يحمل صرة من الغزول: فقد كان يشتغل في تلك الصنعة بصورة دائمة على سبيل كسب لقمة خبز والإبقاء على نار الانتقام المقدسة مشتعلة. وقد خرج عن طريقه هذا الصباح، كما كان فعل مراراً من قبل، علّه يمر بقرب البيت الذي تعقب تيتو إليه في المساء.لقد فاقمت مدة سجنه الطويلة ارتيابه الوجل، وإيمانه بحظ شيطاني، يحابي تيتو ما جعله لا يجرؤ على تعقبه إلا تحت جنح الزحام أو الليل. شعر، والخوف الغريزي بداخله، بأنه إذا ما وقع بصر تيتو عليه فإنه سيلقى عليه القبض ويجلله العار ثانية، وسيجرّونه جرّاً من جديد،

وسيتجرد من سلاحه ويلقى به دون أن يهتم به أحد في غياهب السجون.وقد صار هدفه الشرس يتخذ سيماء التخفي كما مرمى الأفعى التي تعتمد لاقتناص فريستها على هجمة خاطفة واحدة تغرز فيها نابها. فالعدالة كانت ضعيفة ولا صديق لها .لم يستطع أن يسمع ثانية الصوت الذي صدح بوعد الانتقام في الكنيسة. لقد تردد إلى هناك مرة تلو المرة، لكن ذلك الصوت قد خنقه، على ما يبدو، الشر الماكر المسلح جيداً. لبرهة طويلة كان تفكير بالداسار الطاغي هو معرفة ما إذا كان تيتو ما يزال يرتدي الدرع، ذلك لأن أمله المتضائل سيرضى بطعنة ناجحة على هذا الجانب، الحتف. لكنه لن يجازف بسكينه الثمينة مرة أخرى. لقد مضى وقت الانتظار ثقيلاً عسى أن يلقى إجابة على هذا السؤال بلمسه ظهر تيتو في زحام الشارع. ومنذئذ أثقلت معرفة أن الفولاذ المرهف الحد كان من دون فائدة، وأن لا أمل لديه سوى في وسيلة أخرى جديدة، ذهنه المستضعف. لم تبارح ذهنه رؤيا باهتة في أن يحظى بمساعدة إحدى تينك الزوجتين، وعلى الدوام كانت تتلاشى من ذهنه. فالزوجة التي سكنت أعلى الهضبة لم تعد هناك. ولو استطاع أن يعثر عليها ثانية لأمسك بطرف خيط مشروع ما، وسار على هدي وضوح أكبر.

وفي هذا الصباح حالفه الحظ. لقد تأكد له الآن مكان سكنى زوجته. وبينا سار، وهو ينوء قليلاً تحت وطأة لفات غزله، إنما دون أن يغيب عن ناظريه الشخص المدّثربالأخضر والأبيض،كان تفكيره يتركز عليها، وعلى ظروفها، كما تركز العيون الوسنى على الخطوط

والألوان، محاولة أن تستخرج منها دلالة متسقة.

كان على تيسا أن تجتاز مختلف الشوارع الطويلة من دون رؤية أية إشارة أخرى على الكرنفال خلا بعض المجموعات من أناس ريفيين في أجمل حللهم لم تعهد العين رؤيتها، وذاك الميل عند الجميع للدردشة والتسكع، ما يميز الساعات الأولى للعطلة، قبل أن يبدأ الاستعراض. وإذا بها، وفي غمرة بحثها الخائب عن أشياء لافتة، تلمح رجلاً افترش أمامه سلة بائع جوّال لم يبد عليه أنه يبيع شيئاً سوى الصلبان الحمراء للعابرين. صليب أحمر صغير سيكون قطعة جميلة تعلق فوق سريرها. كذلك سيفيد في دفع الأذى، ولربما منح نينا قوة أكبر. عبرت تيسا إلى الجانب الآخر من الشارع وفي نيتها أن تسأل البائع عن أثمان الصلبان، تداخلها خشية من أن يأتي الثمن على كل المبلغ الذي وفرته لشراء الحلوى. حتى هذه اللحظة كان البائع يدير ظهره نحوها، لكنها عندما اقتربت منه تعرّفت على صديق قديم من معارف السوق، براتي فيرافيتشي. وإذ كان من عادتها أن تشعر بوجوب تحاشي المعارف القدامى فقد تولّت عنه لتعاود العبور إلى الجانب الآخر من الشارع. لكن عين براتي كانت على درجة من الدربة في مراقبة ناصية الشارع بحثاً عن زبائن محتملين، ما جعلها تفشل في مبادرتها للهروب منه، وسرعان ما استوقفتها نقرة خفيفة على الذراع جاءتها من أحد الصلبان الحمر.

قال براتي عندما التفتت على غير رغبة منها: " أيتها الصبية، أنت قادمة من إحدى القلاع البعيدة عن هنا، على ما يبدو

لـي، وإلا لما فكّرت بـالتجوال فـي هذا الكرنفـال المبـارك، دون صـليب أحمر في يدك. يا قديسة يا عذراء ! أربعة كواترينات (أربـاع) بيضـاء لهو سعر بخس لقاء خلاصك الروحي – الأسعار ترتفع في المطهر، صدقيني ".

قالت تيسا على عجل: " أوه، أرغب في شراء واحد لكن ليس بوسعي التخلي عن أربعة كواترينات بيضاء ".

في البدء نظر براتي إلى تيسا، وهو شارد الذهن تماماً، على أنها مجرد زبونة لا تستحق تدقيق النظر كثيراً، لكنها عندما بدأت تتكلم هتف صائحاً: " ورأس سان جيوفاني، لا بد أنها تيسا الصغيرة، تبدو طازجة كتفاحة ناضجة! ما خطبك! إذن، لم يكن هروبك من الأب نـوفري بـالأمر السـيء؟ كنـت محقـة فـي ذلـك، ذلـك أنـه أصـبح علـى العكاكيز الآن، والشخص النكد على عكاكيز هو شخص خطر. يمكنه أن يصل إلى أي طرف في البيت ويطال بعصاه أية امرأة يضربها وهو جالس ".

قالـت تيسـا، بـبعض الحشـمة متذكرة أمـر نالـدو بأنهـا يجـب أن تتصرف برصانة:" أنا متزوجة، وزوجي يحرص علي أشد الحرص ".

" آه، إذن، لقد سقطت واقفة علـى قدميك! نـوفري يقـول إنـك حشرة لا تصلح لشيء، لكن ماذا يهم؟ يمكن للحمار أن ينهق طويلاً قبل أن يوقـع النجـوم مـن عليائهـا. دائمـاً كنـت أقـول لقد فعلـت حسـناً بهروبك، ولـيس براتـي دائمـاً علـى خطـأ. حسـن، إذن صـار لـك زوج وكثيـر مـن المـال؟ حـري بـك، إذن، ألا تفكـري كثيـراً بـدفع أربعـة

كواترينات بيضاء مقابل صليب أحمر. لا أربح منك شيئاً. لكن مع المجاعة والدين الجديد فإن كل أصناف البضائع الأخرى تشهد هبوطاً في الأسعار. أنت تعيشين في الريف حيث يكثر البندق، إه؟ أرى أنك لم ترغبي قط في شراء بولينتا (2)(كعكة بندق) ".

قالت تيسا وهي لا تزال على حذرها: " لا، لم أرغب في أي شيء ".

" إذن يمكنك شراء صليب. لقد جئت بكاهن ليبارك الصلبان، وأنت تحصلين على بركة، وكل ذلك مقابل أربعة كواترينات. ليس المهم هو الربح. بالكاد أربح دانارو واحداً من كل هذه البضاعة. إنما تبقى هذه الأشياء أشياء مقدسة، وشروط الوصول إلى الجنة تتعقد أكثر فأكثر: الكرنفال بحد ذاته أشبه بأسبوع مقدس، وأقل ما يمكنك عمله للحيلولة دون أن يقوى عليك الشيطان هو شراء صليب. الله يحرسك! فكّري أي شيء هو ناب الشيطان! آمل أن تكوني قد رأيتِه يعض ذلك الرجل في عيد سان جيوفاني (3)؟ "

شعرت تيسا بكثير من المضايقة والخوف. قالت بوجه علاه الاضطراب: " أوه، براتي، أرغب في شراء الكثير من الحلوى: لدي في البيت الصغيران ليلو ونينا. والأشياء الجميلة الملونة الحلوة تكلّف الكثير. أضف إلى أن الصليب لن يستهويهما كثيراً، رغم أنني أعرف أن حمله هو عين الصواب ".

قال براتي وقد أولع بادخار مخزون من الفضائل عن طريق تخيل ابتزازات محتملة ومن ثم التخلي عنها ببطولة: " هيا، تعالي إذن.

بما أنك من معارفي القدامى يمكنك شراؤه مقابل ربعيتين. الصليب مقدّم لك كهدية، ناهيك عن البركة ".

كانت تيسا تمد يديها بربعيتيها مترددة واجفة عندما قال براتي فجأة: " لحظة قليلاً! أين تقطنين؟ "

أجابت على نحو تلقائي تقريباً حيث كانت منشغلة بربعيتيها: " أوه، بعيداً عن هنا، خلف سان أمبروجيو، في فيا بيكولا، في أعلى المنزل الذي تقع تحته غابة مكتظة ".

قال براتي بلهجة أبوية: " جيد جداً، إذن سأدعك تحصلين على الصليب على سبيل الأمانة، وآتي إليك طلباً للمال. إذن تقطنين داخل الأسوار؟ حسن، حسن، سيكون مروري من هناك ".

" لا، لا! " قالت تيسا وهي تخشى أن يستشيط نالدو غضباً لهذا التجدد في علاقة قديمة. " يمكنني أن أوفر المال. خذه الآن ".

قال براتي مصمماً: " لا، أنا لست متحجر القلب. سأعرج وأرى إذا كان عندك أية ثياب رثة، ولسوف تعقدين معي صفقة. انظري، إليك الصليب: وهناك دكان بيبو غير بعيد خلفك: يمكنك أن تذهبي وتملئي سلتك، ويجب علي أن أذهب وأفرغ سلتي. ِ Addio, piccina "(4)

ذهب براتي وشأنه، أما تيسا، فبعد أن حفزها ذلك على تبديل الحلوى بالنقود قبل أن يحصل أي خطب آخر، دخلت دكان بيبو مرتعشة قليلاً لأنها سمحت لبراتي أن يعرف عنها أكثر مما يسمح به زوجها. بالتأكيد ينطوي القدوم لرؤية الكرنفال على أخطار تفوق أخطار

لزوم البيت، وهذا الشعور كان سيشتد لو علمت أن العجوز الشرير الذي أراد أن يقتل زوجها على الهضبة، كان ما يزال يترصدها. لكنها لم تفطن للرجل الذي يحمل حملاً على ظهره.

بدّد الشعور بحيازة سلة صغيرة ملأى بالأشياء التي تفرح قلب الولدين قلقها، وعندما دخلت فيا دي ليبراج استعاد وجهها تعابير الرضى الطفولية المعتادة. في هذه الأثناء تهيأ لها أن موكباً كان يقترب بالفعل، ذلك لأنها شاهدت أردية بيضاء وراية، وبدأ قلبها يدق جرّاء التوقع والأمل. ابتعدت قليلاً إلى جانب، لكن وقوفها في ذلك الشارع الضيق يوفّر لها سعادة من جرّاء اضطرارها إلى النظر من مكان قريب جداً . كانت الراية جميلة: كانت راية الأم المقدّسة مع الطفل، تلك التي ازداد إيمان تيسا بمحبتها أكثر فأكثر لها منذ ولادة طفليهما. والشخوص البيض لم تكن على رؤوسهم أكاليل خضراء فحسب، بل على جنوبهم صلبان حمراء، مما جعلها تشعر ببعض الرضى لأنها هي أيضاً كانت تحمل صليبها الأحمر. دون ريب بدوا في جمالهم كملائكة آتية على السحب، وبالنسبة لخيال تيسا كانوا هم أيضاً آتين على سحب، مثل أي شيء آخر أتاها في الحياة. كيف ومن أين أتوا؟ لم تكترث كثيراً لمعرفة الجواب. لكن شيئاً واحداً فاجأها كونه أكثر جدة من الأكاليل والصلبان، وهو أن بعض الشخوص البيض كانوا يحملون سلالاً فيما بينهم. ما القصد من هذه السلال؟

لكنهم كانوا الآن قريبين جداً، ولدهشتها، دفعوا بعرباتهم إلى جانب، واتجهوا إليها مباشرة. أخذتها الرعدة كما لو أن سان ميشيل في

الصورة أخذ يهز رأسه لها، ولم تشعر بشيء خلا الدهشة والرعدة إلى أن شاهدت قريباً منها وجهاً كوجه غلام مدوراً تحت مستوى وجهها، وسمعت صوتاً عالي الطبقة يقول: " يا أخت، أنت تحملين المحرّم. سلميه ليسوع القدوس، وهو سيزينك بلآلئ نعمته ".

لم تشعر تيسا سوى بمزيد من الخوف دون أن تفقه شيئاً. خمّنت أولاً أن المقصود هو سلة حلواها. كانوا يبتغونها، هؤلاء الملائكة المزعجون. يا إلهي، يا إلهي! ألقت نظرة عليها.

قال شاب أطول قامة وهو يشير إلى عقدها وشكة حزامها: " لا، يا أختاه، أدوات الزينة التافهة تلك هي المحرّمات. اخلعي ذلك العقد وفكي حلقة ذلك الحزام، عسى أن تُحرق في النار المقدسة لأدوات الزينة التافهة، وتخلّصك من سعير النار ".

أردف أيضاً شاب أطول قامة، من الواضح أنه كان الملاك الأكبر في هذه الفرقة: " هي الحقيقة، يا أختاه، أصغي إلى هذه الأصوات التي تنطق بالرسالة الإلهية. ها لقد حملت معك صليباً أحمر: فليكن ذلك زينتك الوحيدة. سلّمي عقدك وحزامك، ولسوف تحصلين على النعمة ".

كان هذا كثيراً عليها. لم تجرؤ تيسا، بعد أن تملكتها الرهبة، أن تقول " لا "، لكنها كانت بالمقابل غير قادرة على التخلي عن عقدها وشكتها العزيزين. أخذت شفتاها المبوّزتان استياءً ترتعشان، اندفعت العبرات إلى مآقيها، وطفرت من بينها كبراها. لبرهة لم تعد تر شيئاً. لم تشعر سوى بالهلع والتعاسة المشوبين بالارتباك. وفجأة حطت يد حنون

على ذراعها، وقال صوت رخي مدهش، كما لو كانت العذراء هي التي تتكلم: " لا تخافي. لن يؤذيك أحد في شيء ".

نظرت تيسا للأعلى وشاهدت سيدة بلباس أسود ذات وجه فتي سماوي وعينان شهلاوان عطوفتان. لم تر شبه تلك السيدة من قبل، وفي ظروف أخرى كان يمكن أن يتولد لديها أفكار مفعمة بالرهبة. لكن كل شيء آخر كان الآن يطغى عليه الإحساس بأن الحماية العطوف كانت بجانبها.أخذت العبرات تنهمر بسرعة أكبر، مريحة بذلك قلبها المثقل، عندما أخذت تنظر للأعلى إلى الوجه الملائكي، ومن ثم وضعت يدها على عقدها وقالت وهي تنشج –

" لا يمكنني أن أسلمها لتحرق. زوجي – لقد اشتراها لي – وهي جميلة جداً – ونينا – أوه، ليتني لم آت! "

قالت رومولا وهي تتحدث إلى الأولاد بالأردية البيضاء بصوت فيه سلطة رقيقة: " لا تطلبوا تسليمها، لن يفيد شيئاً أن يتخلى الناس عن هكذا أشياء ضد رغبتهم. ليست هذه رغبة الأخ جيرولامو: هو يريد أن يتم التخلي عن هذه الأشياء عن طيبة خاطر ".

لم تكن كلمة السيدة رومولا لتلقى أي اعتراض، وتابع الرتل الأبيض مسيره. لا، بل إنهم غذوا السير، كما لو أن شيئاً جديداً قد استرعى انتباههم، وشعرت تيسا بالفرح لانصرافهم، ولحقيقة أن عقدها وشكتها لم يبرحاها.

قالت والتوتر لمّا يزايلها: " أوه، سأعود أدراجي إلى البيت. لن أقصد أي مكان آخر "، ثم أضافت متوقعة أي شيء من هذه السيدة

المباركة: " لكن إن اتفق والتقيتهم ثانية، وأنت لم تكوني بجانبي؟ "

قالت رومولا: " تريثي قليلاً. تعالي ندلف إلى مدخل البناية ولسوف نخبّئ العقد والشكة، وعندها ستكونين بمأمن من أي خطر ".

قادت تيسا إلى داخل المدخل المقنطر " والآن، أبإمكاننا أن نجد متسعاً في سلتك لعقدك وحزامك؟ آه! إن سلتك ملأى بأشياء هشة سريعة الكسر: دعينا نكن حذرين، ونضع العقد الثقيل أسفلها ".

كان الأمر بالنسبة لتيسا أشبه بتغير حدث في حلم– النجاة من الكابوس إلى حيث الأمان والفرح السابحين في الفضاء – إذ ألفت نفسها موضع عناية ورعاية هذه السيدة، التي هي غاية في الجمال، والاقتدار، والوداعة. تركت لرومولا أمر فك عقدها وشكّتها، بينما لم تفعل هي شيئاً سوى رفع بصرها لأعلى لتتملى الوجه المنكبّ فوقها.

قالت بينما كانت رومولا ترفع الرزم الخفيفة من السلة، وتضع الزينة أسفلها: " إنها حلويات لليلو ونينا ".

قالت رومولا باسمة: " هما طفلاك؟ وأنت تفضلين أن تعودي إليهما في البيت دون البقاء لرؤية المزيد من الكرنفال؟ ومن ناحية أخرى لم يتبق مسافة طويلة للوصول إلى بياتزا (ساحة) دي سينوري، وهناك ستشاهدين الكومة التي ستضرم فيها نار عظيمة ".

قالت تيسا متلهفة: " لا، أوه لا! لا أريد أبداً رؤية النار المشتعلة ثانية.سأعود أدراجي. "

قالت رومولا دون أن تنتظر جواباً: " أنت تقطنين في إحدى الحصون، دون ريب. أي مدخل في السور ستقصدين؟ "

" بوّابة سانتا كروتشه ".

" هيا، إذن "، قالت رومولا، وهي تأخذها من يدها وتقودها نحو زاوية شارع قبالتها تقريباً. ثم قالت متوقفة : "سرعان ما تصلين إلى طريق مستقيم. أما الآن فعليّ أن أتركك لأن غيرك ينتظرني. يجب ألا تشعري بالخوف. فأشياؤك الجميلة هي بمأمن من كل خطر الآن. وداعاً ".

" وداعاً، يا سيدتي "، قالت تيسا في ما يشبه الهمس، دون أن تعلم ما الصائب قوله غير ذلك. وفي لحظة توارت السيدة المباركة. التفتت تيسا لتشيعها بآخر نظرة لكنها لم تشاهد سوى القامة الطويلة التي خفّت لتتوارى من ثمة حول النصب الحجري البارز. ولذلك انصرفت لبغيتها دهشةً وفي الآن ذاته تائقة لأن تكون مرة أخرى تحت أمان سقف واحد مع مونا ليزا غير راغبة بعد الآن في مشاهدة المزيد من الكرنفالات.

كان بالداسار قد أبقى تيسا داخل مرمى بصره حتى لحظة افتراقها عن رومولا: ثم قفل عائداً ومعه لفة غزوله.وقد بدا له أنه لمح خيطاً ربما أرشده إن تيسّر له فقط التأكد بشكل كاف من التفاصيل الضرورية. كان شاهد الزوجتين معاً، وقد أثار المنظر في مخيلته تلك الحيوية التي افتقدها سابقاً. ذلك أن قدرته على تخيل الوقائع كانت بحاجة للتعزيز المتواصل من لدن الحواس. فالزوجة الطويلة القامة كانت الزوجة النبيلة الشريفة. فيها كانت تسري الدماء التي سرعان ما تتحول إلى حنق وغيظ إما استثيرت. كانت تعلم أي شيء هي المعرفة، وكيف

أنها يمكن أن تبقى حبيسة بسبب من عوائق الجسد المبتلى، شأن كنز دفنه زلزال. يمكن لها أن تصدقه: ستميل إلى تصديقه، إن أثبت لها أن زوجها خائن.فالنساء يهتممن لهذا: سيثأرن لذلك. فإذا كانت زوجة تيتو هذه تحبه فإنها ستشعر بجرح المشاعر، ما كان تفكير بالداسار يركز عليه بتوق شديد، كما لو أن ذلك سيكون قوة إرادة أخرى تتضاف إلى إرادته هو، قوة عقل آخر لإيجاد السبل والتدابير.

كلتا هاتان الزوجتان أظهرتا حدباً على بالداسار، وتصرفهما نحوه المرتبط بصورتيهما بالذات لم يبرح مخيلته. ومع ذلك لم يكن التفكير بألمهما ليتبدّى له ككابح. بالنسبة إليه بدا أن الألم هو قانون العالم لكل الناس باستثناء قساة القلوب والوضيعين. فلو كان الجميع أبرياء، والجميع نبلاء، فأين، ترى، تثوي سعادتهم القصوى؟ حيث تثوي بالنسبة إليه – في كراهية لا يفلّها شيء وفي ثأر المنتصرين. لكن عليه بالحذر والحيطة: يجب أن يضع تلك الزوجة في فيا دي باردي تحت مراقبته، ويعرف عنها أكثر، إذ حتى ها هنا يوجد مطرح للإحباط. لم تبق له قوة الآن سوى في الصبر والمصابرة.

الفصل الحادي والخمسون
تحوّل مونا بريجيدا

عندما قالت رومولا إن أحداً كان ينتظرها كان الشخص المقصود هو ابنة عمها بريجيدا، لكنها كانت في غفلة تامة عن مدى حاجة تلك

القريبة الطيبة لها. وعند عودتهما معاً صوب الساحة لمحتا شلة الشباب يتوقفون أمام تيسا، وعندما قالت رومولا، بعد أن اقتربت لمسافة تكفي لرؤية الغمّ الذي كان يعتري الفتاة الريفية الصغيرة الساذجة : " انتظريني لحظة، يا ابنة عمي "، قالت مونا بريجيدا على عجل: " آه، لن أتابع سيري: تعالي إلي في محل بوني – سأعود أدراجي إلى هناك ".

والحق أن مونا بريجيدا كانت تعي، من نحو، ارتداءها لبعض "أدوات الزينة التافهة "، ومن نحو آخر قلقها المتنامي مخافة أن يكون البيانونيون Piagnoni مصيبين في اعتقادهم بأن الروج (أحمر الشفاه)، والشعر المستعار، والتزيّن باللآلئ هي أشياء تفسد الروح. فنظرتهم الجدية للأشياء كان ينتشر عبقها في الجو كالرائحة. ولم يبد أن نكهة أي شيء بقيت تماماً كما كان العهد بها. وهي ذي الابنة العزيزة رومولا، في فتوتها وجمالها، تعيش حياة توحي على نحو غير مريح بالمطاليب الصارمة المترتبة على المرأة. هذا وإن أرملة في سن الخامسة والخمسين تستقي قناعتها في قسمها الأكبر من رأيها هي في شخصها، ومما تعتقد أنه رأي الآخرين في شخصها، لتحتاج إلى زاد كبير من الخيال لبقاء معنوياتها مرتفعة. ومونا بريجيدا قد شرعت في محاولات مضنية متكررة للعناية بزينتها. ولو كانت روحها تغتني أكثر دون الحاجة لهذه الأشياء فهل كان مما يستحق الجهد أن تضع الروج وضفائر الشعر؟ لكن عندما رفعت مرآتها اليدوية أمامها ولمحت وجهاً نحيلاً ووجنتين متهدلتين، وتجعدات حول عينيها ما كان يمكن إخفاؤها

عن طريق تكلف التبسم – عندما فرقت شعرها الأشيب وتركته ينسدل في زي بيانوني Piagnone بسيط حول وجهها، خذلتها قواها. فمونا بيرتا ستنفجر، بالتأكيد، من الضحك لمرآها، وستنعتها بالعجوز الشمطاء، ولما كانت مونا بيرتا لم تتعدّ فعلاً الثانية والخمسين، فقد تمتعت بأفضلية تجعل الملاحظة أشد مضاءً. فكل امرأة ليست بيانونية سترفع كتفها استهجاناً عند رؤيتها، وسيخاطبها الرجال كما لو كانت جدتهم. بينما ليست المرأة في سن الخامسة والخمسين بطاعنة في السن – وهي ليست بحاجة للتبرّج إلا قليلاً. ولذلك تم اللجوء إلى الروج والضفائر والبيريتة (قلنسوة مربعة– م) المزخرفة مرة ثانية، وقنعت مونا بريجيدا بالنتيجة المعهودة. أما بالنسبة لجيدها، فلو غطته لظن الناس أن ذلك من فرط الشيخوخة، لا بل، مع وجود العقود حوله، بدا أفضل من جيد مونا بيرتا. وفي هذا اليوم بالذات، عندما كانت تتأهب لكرنفال البيانونيين، حدثت مثل هذه المجاهدة مع الزينة، وقد حملتها المخاوف والأشواق المتصارعة التي سببت المجاهدة، على العودة والاحتماء بمحل الصيدلاني لتتفادى بذلك جامعي المحرمات من الزينة عندما لم تكن رومولا بجانبها. لكن مونا بريجيدا لم تكن سريعة بما فيه الكفاية في انكفائها. فقد شوهدت، حتى قبل أن تنسحب، من قبل ذوي الأردية البيضاء في مؤخرة أولئك الذين انعطفوا بعرباتهم نحو تيسا، ولعل الرغبة التي حدت إلى ترك تيسا وشأنها، تعود قليلاً لحقيقة أن فئة من الجمهرة كانت قد توجهت بالكلام إلى شخصية يظهر عليها بشكل أوضح للعيان الوزر الخطر للمحرمات من الزينة. وقد حدث أن العديد

من هذه الجمهرة كانوا في باكر حداثتهم قد تلقوا تدريباً خاصاً. وكان فتى صغير في سن العاشرة استقر إكليله الزيتوني فوق وجنتيه الملائكيتين وعينيه البنيتين الوسيعتين، وخياله تستحوذ عليه حقاً رهبة، ملازمة له، من الوجودكشيء فيه عواقب جلل تنذر إما بالخير أو الشر، ومع ذلك فميوله تسير باتجاه التسيد والأذى، أول من وصل إلى مونا بريجيدا وسد عليها الطريق. شعرت بالحنق، وتطلعت بحثاً عن باب مفتوح، لكنها لم تجداً واحداً على الفور، وإذا حاولت الفرار في هذه الأثناء فإنها ستزيد الأمر سوءاً. لكن الذي خاطبها أولاً لم يكن صاحب الوجه الملائكي، بل كان غلاماً في سن الخامسة عشرة كان يمسك بإحدى أذني سلة عريضة.

بادرها بالقول: " أيتها الأم الموقرة! إن يسوع المبارك يأمرك بأن تتخلي عن المحرمات التي تتزينين بها. تلك القلنسوة المزدانة باللآلئ. تلك المجوهرات التي تثبتين بها شعرك المستعار – فلتتخلي عنها وتبيعيها لأجل الفقراء. والشعر ذاته اطرحيه بعيداً عنك، كأكذوبة ليست تليق إلا للحرق. ودون ريب، هناك أيضاً مجوهرات غيرها تحت ردائك الحريري ".

قال الشاب الممسك بالأذن الأخرى للسلة والذي كان يحفظ الكثير من عبارات الأخ جيرولامو عن ظهر قلب: " أجل يا سيدة، إنها ثقيلة جداً عليك: هي أثقل من حجر الرحى، وهي تثقل عليك لتوردك موارد التهلكة. هل ترغبين في تزيين نفسك بجوع الفقراء، وتتباهين بحمل لعنة الله على رأسك؟ "

قال الغلام الملائكي، بصوت عذب: " الحق أنك عجوز، أيتها الأم الطيبة.تبدين على بشاعة وأنت تضعين هذا الأحمر على خديك وذلك الشعر الأسود اللماع، وتلك الأشياء الجميلة. أصدقك أن لا أحد تستهويه رؤيتك سوى الشيطان. إن ملاكك حزين. هو يريدك أن تمسحي الأحمر ".

قام الفتى الصغير بخطف وشاح حريري ناعم من السلة، وقدمه لمونا بريجيدا عسى أن تستعمله كما رغب ملاكها الحارس. وسرعان ما أفسح غضبها وضنكها المجال لذعر نفسي. فمونا بيرتا وذلك العدد الوافر من النظارة، والمجمتع المخملي بصورة عامة، لم يكونوا ينظرون إليها، وقد أحاط بها مراقبون شبان، كان يبين في أرديتهم البيضاء، وأكاليلهم، وصلبانهم الحمر، وصراحتهم المرعبة، شيء مريع في خروجها عن المألوف. هذا، ولم يكن كاهن اعترافها الراهب الفرانسيسكاني، الأخ كريستوفورو، من سانتا كروتشه، قريباً كي يدعّم شكوكها بالتعاليم الدومينيكانية، وقد تملكها وهز كيانها، دون أن تستطيع دفعاً لذلك، إحساس غامض بأن تحذيراً علوياً وُجِّه إليها. وإذ لم تجد أمامها ولو إيحاءً واهياً لسلوك أي سبيل آخر أمامها فقد تناولت المنديل الذي مُدَّ نحوها، وفركت وجنتيها باستسلام راعش.

قال الشاب الثاني " لا بأس، يا سيدة. إنها بداية مقدسة. وعندما تنزعين هذه المحرمات عن رأسك فإن ندى النعمة الإلهية سيتقطّر عليه ". كان ضخّ الأذى يقوى ويشتد، وبعد أن وضع يده على واحد من الدبابيس المرصّعة التي ثبتت بها ضفائرها على البيريتا قام

بنزعه. سقطت الضفيرة السوداء الثقيلة على وجه مونا بريجيدا وسحبت معها بقية عدة الزينة على الرأس. وقد شكّل هذا سبباً جديداً لعدم التردد: رفعت يديها بسرعة وفكت المثبتات الأخرى، وقذفت في سلة الدينونة بقلنسوتها المحببة ذات المخمل القرمزي بكل مطرزاتها الفريدة من حبات اللآلئ الصغيرة، ووقفت امرأةً خلواً من أي روج ذات شعر أشيب مرتدّ للخلف كاشفاً وجهاً انتصرت فيه بعض الخطوط العميقة للشيخوخة على embonpoint(1).

لكن القلنسوة لم تترك لتستقر في السلة. فقد قام الشبان، وبحماس شيطاني، برفعها من السلة بقساوة عدمت الشفقة، والشعر المستعار يتدلى منها.

قال الشاب الأطول قامة: " أترين، أيتها الأم الموقرة أية زيف حررت نفسك منه! والآن فها أنت تبدين مثل القديسة حنة المباركة، والدة العذراء المقدسة ".

راودت مونا بريجيدا على الفور أفكار تدعوها لدخول الدير وعدم الظهور على العالم بعد الآن(2).لم يكن أمامها سوى الاهتمام بروحها. بالطبع، كان هناك متفرجون يضحكون: لم تكن بحاجة للتطلع حواليها لتتأكد من ذلك بنفسها. حسن! لعله من الأفضل أن يُجبر المرء على التفكير أكثر بالجنة. لكن عندما فكرت بأن العالم العزيز المألوف لم يعد مما تشاء وتختار تجمعت بعض تلك العبرات القاسيات التي تبلل الأعين الشائخة ليس إلا، ولم تستطع سوى أن ترى بصورة باهتة يداً خشنة كبيرة تحمل صليباً أحمر دُفع فجأة أمامها من فوق أكتاف

الغلمان، بينما صوت قوي صادرمن الحلق يقول – " فقط أربعة أرباع (كواترينات)، يا سيدتي، البركة وكل ما هنالك! اشتريه. ستجدين راحة فيه بعد أن انتزع شعرك المستعار. ده! " (3) ماذا نحن الخطأة فاعلون طيلة حيواتنا؟ نعد الحساء في وعاء على شكل سلة، ولا نحصل معدنا (ج. معدة) على شيء سوى الحثالة. خير لك أن تشتري بركة، يا سيدتي! فقط أربعة أرباع. ليس يعدو الربح رائحة دانارو (عملة –م)، وهو يعود للفقراء ".

كانت مونا بريجيدا، وهي في ارتباك غشى عينيها، تتجه نحو الإذعان الآخر ألا وهو الوصول إلى النقود الموضوعة في محفظتها المطرزة، وكانت في هذه الأثناء مخفية تحت ردائها الحريري، عندما قامت المجموعة حولها، ولم تكن هي قد راودتها بعد فكرة الهرب، بفتحها أمام شخص رؤيته تسرّ كما ملاك يفتح مزاليج السجن.

قالت مونا بريجيدا، في لهجة مؤثرة فاتحة كلتا ذراعيها: " رومولا، انظري إلي! ".

كانت المجموعة البيضاء قد أخذت تنسحب يحدوها شعور طفيف بأن حماسها بخصوص زينة الرأس قد بولغ فيه إلى حد يكفي لصرف النظر عن مزيد من طلب نذور الكفارة.

" ابنة عمي العزيزة، لا تغتمي "، قالت رومولا، وقد اعتراها التأثر بشكل كبير، إنما عاجزة في الوقت ذاته عن منع التبسم لمرأى شبح قريبتها المفاجئ في هيئته الحقيقية الطبيعية، المغاير كلياً لكل ما تحمله من ذكريات عنها. رفعت الوشاح الأسود عن رأسها، ولفعت به

رأس مونا بريجيدا. وأضافت في معرض تهدئتها من روعها: " هاك. لا أحد يمكنه أن يعلّق عليك الآن. سنسلك طريق فيا ديل بالاجيو ونتجه إلى بيتنا على الفور ".

غذّتا الخطا بينما كانت مونا بريجيدا تمسك بقوة يد رومولا كما لو أنها أرادت أن تستوثق أكثر من وجودها بجانبها.

قالت المرأة البدينة القصيرة القامة، وهي تغذّ الخطا لتلحق بالشخصية الفتية الجليلة: " آه، رومولا، يا ابنتي العزيزة! أية فزّاعة أنا الآن! لا بد أن أكون تقية – أنوي أن أكون تقيّة! "

" أجل، أجل. اشتري صليباً! " قال الصوت الصادر من الحلق، بينما دُفع باليد الغليظة مرة أخرى أمام مونا بريجيدا: ذلك أن براتي ما كان ليخجل من وجود رومولا وبالتالي يتخلّى عن زبون محتمل، ولحق انسحابهما بهدوء تام. " فقط أربعة أرباع، البركة وكل شيء آخر – وإذا كان هناك من ربح فإنه يعود كله للفقراء ".

كان على مونا بريجيدا أن تتوقف حتى وإن كانت أقل ميلاً للإذعان. رفعت إحدى يديها استهجاناً لتحول دون احتجاج رومولا، وبالأخرى تناولت صليباً، يساوي العديد من الأرباع البيضاء، وهي تقول، بلهجة توسلية –

" خذ، أيها الطيب، وانصرف "

قال براتي خاطفاً قطعة النقود، ودافعاً بالصليب إلى يدها: " أنت على صواب، يا سيدتي. لن أعيد لك "الفراطة "، ذلك أنه أحرى بي أن أسلبك أجرة قداس. ياه! يجب علينا جميعاً أن نتلظى قليلاً،

لكنك ستنتهين على خير. خير لك أن تسقطي من النافذة من أن تسقطي من السطح. فصح سعيد وعام سعيد لك! "

صاحت مونا بريجيدا، بشكل مؤسٍ عندما انصرف براتي عنهما: " حسن، أيا رومولا، إذا ما كنت لأصير بيانونية فلا يهم كيف أبدو! "

قالت رومولا، وهي تبتسم لها بمحبة: " عزيزتي ابنة العم، أنت لا تعلمين كم أنك الآن أفضل بكثير مما سبق. أنا أرى الآن وجهك الطيب على حقيقته. تلك الألوان الحمراء والزينة بدت وكأنها مقحمة وتخفي الملامح. سلي صاحبنا بييرو أو أي رسام آخر إذا لم يكن يفضّل رسم صورتك الآن أكثر من أي وقت مضى. أعتقد أن كل خطوط الوجه البشري فيها ما يشي بأنها إما مؤثرة أو مهيبة، إلا إذا بدت صادرة عن عواطف وضيعة. كم هم الكهول رائعون، مثل عرّابي! لم لا تبدو العجائز مهيبة وبسيطة؟ "

قالت بريجيدا وقد عادت بها الذكرى قليلاً إلى الماضي: " أجل، عندما يقترب المرء من الستين، يا عزيزتي رومولا. لكنني لم أتعدّ الخامسة والخمسين، ومونا بيرتا، وكل شخص – لكن لا جدوى: سأكون تقية مثلك. لو كانت أمك على قيد الحياة لكانت من عمري. كنا بنات عمومة معاً. الواحدة منا لا بد أن تقضي أو تشيخ. لكن الشيخوخة لا تهم، إذا كانت الواحدة منا بيانونية Piagnone".

الفصل الثاني والخمسون

عرّافة

لم تبدُ حوادث عيد الكرنفال ذاك لرومولا أنها تمخّضت عن نتائج شخصية تتعدى الرعاية التي استجدّت والمتمثلة في تقديم الدعم لابنة عمها المسكينة بريجيدا في إذعانها المتأرجح للعمر وشيب الشعر. لكنها (الحوادث) أتت في مستهل فترة الصوم الكبير حيث بقيت رومولا أثناءها على درجة عالية من التوفز النفسي والمجهود النشط.

كان برناردو ديل نيرو قد انتخب غونفالونياً Gonfaloniere(*). وبفعل المجهودات العظيمة التي بذلها حقق الحزب الميديتشي حتى ذلك الوقت انتصاراً، وقد عمّق ذاك الانتصار هواجس رومولا باحتمال وجود خطة أعدت في السر ستتمخّض إما عن نجاح أو عن خيانة أثناء هذين الشهرين من ولاية عرّابها. وفي كل صباح مع تسلل أشعة الفجر الخافتة إلى غرفتها بدا وكأن ذلك الخوف الذي طاردها يعود إليها. كل صباح كان الخوف يلازمها عندما كانت تجتاز الشوارع في طريقها إلى موعظة الصباح الباكر في الكنيسة: لكن هناك كانت تفقد بالتدريج الإحساس بوجوده الذي يصيب البدن بالرعدة مثلما يفقد الناس الخوف من الموت في حمأة المعركة.

في الكنيسة ألفت نفسها تشارك في صراع حماسي تعدّى في

(*)Gonfaloniere من يرفع الراية gonfalon (1 القاضي الأول في بعض (2 الجمهوريات القروسطية الإيطالية وكان يحمل gonfalon(م) الجمهورية

ارتباطاته الواسعة أي صراع آخر محصور داخل أسوار فلورانسة. ذلك أن سافونا رولا كان يكرز – يكرز آخر أدوار عظات الصوم الكبير التي تسنّى له قط أن ينهيها في الكنيسة: كان يعرف أن الحرم الكنسي كان وشيكاً، وكان وصل إلى نقطة تحديه له. لقد عرض على الملأ وضع الكنيسة في المرآة المرعبة، مرآة كلماته الثابتة المبدأ والتي سمت الأشياء بمسمياتها ولم تعرف تعابير المجاملة. أعلن بثقة متنامية مقدم ثورة التجديد – مقدم لحظة ستندلع فيها ثورة عامة ضد الفساد. أما بالنسبة لمصيره الشخصي فقد بدا أنه يحوز على معرفة سبقية مزدوجة ومتبدلة: فأحياناً كان يرى نفسه يلعب دوراً مجيداً في تلك الثورة مطلقاً صوتاً تتردد أصداؤه في أنحاء العالم المسيحي قاطبة، ومحيياً جسد الكنيسة الميت بعد أن يرتعش ارتعاشة الحياة مثل ارتعاش جسد أليعازر عندما اخترق الصوت الإلهي الضريح. وأحياناً لم يكن يرى أفقاً أمامه سوى التعذيب والشهادة: – لم تكن هذه الحياة بالنسبة إليه أكثر من يقظة، وبعد الموت فقط سينبلج الفجر(*).

كان الوضع من ذلك النوع الذي لا بد أن طاول بتأثيره كل العقول التي لم تكن من النوع الأكثر بلادة، حتى ولو كانت تميل، كما كان مكيافيلي، لتأويل شخصية الأخ الراهب بمفتاح لا يفترض أي سموّ مسبق. بالنسبة لرومولا، التي أكسبها حماسها المؤتلف مع هذه العقول إيماناً راسخاً بصدق عظمة الهدف الذي وضعه سافونا رولا

(*) نستذكر هنا القول : " الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا " (م)

نصب عينيه، كانت الأزمة تحرّكها كما لو كانت جزءاً من قسمتها الفردية. وقد امتزجت عندها كذكرى سامية مع كل مكابداتها اليومية. وتلك المكابدات لم تكن تستدعي المثابرة الشاقة فحسب، بل شجاعة جديدة أيضاً. فالمجاعة لم تشدّ الرحال حتئذ من فلورانسة، وبديمومتها المتواصلة غدا الغم أشق من أن يحتمل . كان المرض آخذاً بالانتشار في المدينة المكتظة، وتوقّع الناس انتشار الوباء. بينا كانت روмولا تتابع سيرها، غالباً مرهقة، وسط المرضى، والجياع، والشفاه التي تلهج بالأدعية، شعرت كم هو أمر جيد أن يكون ملهمَها شيء هو أكثر من شفقة –الإيمان ببطولة تناضل لأجل غايات سامية، والتي لا يقوى السلوك اليومي الناجم عن شفقتها وحدبها سوى أن يجنح نحوها بشكل واهٍ، مثلما تجنح قطرات الندى التي تنعش الأرض المعشوشبة اليوم نحو الإعداد لقطاف يبقى خبيء السنوات القادمة.

لكن تلك الموسيقا الجليلة التي حركت مشاعرها في الكنيسة لم تكن تخلو من نغماتها الحادة على الأذن. فمنذ تلك الأيام الأولى التي شعشع فيها الأمل كان الأخ الراهب يكرز، بعد أن رأى الانتصار الوشيك للخير متجسداً في إصلاح الجمهورية ومقدم المنقذ الفرنسي – عن السلام، والإحسان، ونسيان الخلافات السياسية، حدث تغير ملحوظ في الظروف: فالمكيدة السياسية كانت من العناد بحيث لم تفسح للنسيان المرتجى. وبدا أن الإيمان بالمنقذ الفرنسي الذي أدار ظهره لدعوته السامية، قد تمخّض عن ضرر. والعدوانية، سواء على نطاق صغير أوكبير، كانت تهاجم النبي بأسلحة جديدة وتصميم جديد.

وقد استتلى أن روح النزاع وتبرئة الذات قد بدأت تتسلل إلى عظاته بشكل يزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً، مما حثّه على تلبية المطالب الشعبية ليس عن طريق تنامي التشديد والتفاصيل المتعلقة بالرؤى وصور الوحي الخاص فحسب، بل عن طريق لهجة الثقة التي تتحدى المعارضين. ومن استنكاره للتوق إلى العجائبي، والإعلان عن أن ليس للعجائب صلة بالدين الصحيح، فقد وصل به الأمر إلى حد الزعم بأنه في اللحظة المناسبة ستثبت القدرة الإلهية صدق وعظه النبوي من خلال أعجوبة. وبشكل متواصل، وفي غمرة انتقالات الشعور الحماسي السريعة، ومع تواري رؤيا انتصار الخير وراء الهيمنة الفعلية للشر، فإن نُذُر الانتقام المرتقب من الطغاة الأشرار والكهنة الفاسدين قد اكتسبت بعض الزخم من الحنق الشخصي، كما من الحماس المستنكر.

في مهنة الخطيب العظيم في الجماهير الذي يسلّم نفسه لوحي اللحظة يتبدى ذلك الصراع بين الشعور الأناني وغير الأناني، والذي هو مخفي لدى معظم الناس في حجرة الروح، في شكل دليل مريع: لغة الأصوات الجوانية المترجمة إلى أحرف من نار.

لكن إذا كانت نغمات السخط تصر في أذني رومولا فقد وُجد في غالب الأحيان شخص آخر من مستمعي الأخ جيرولامو كان يرى أن هذه النغمات هي النغمات المثيرة الوحيدة، مثل اهتزاز نغمات الباص العميقة على أذن الأصم. كان بالداسار قد اكتشف أن الأخ الرائع قد عاود الوعظ، وعلى قدر ما وسعه من المرات، فقد ذهب

ليستمع إلى عظة الصوم الكبير، عسى أن يتشرب التهديدات والوعيد لصوت بدا أشبه بقوة تقف في صف العدالة. وقد زاد من تردده على الكنيسة عندما رأى مواظبة رومولا على الذهاب، ذلك لأنه كان ينتظر ويراقب حلول وقت يكون فيه طلب اللقاء معها هو الوقت المناسب، وهذا لا تحدده الظروف الخارجية فحسب بل حالته الذهنية المتبدلة. وقد لمحت رومولا وجهه في الكنيسة لا أقل من مرتين – مرة عندما تركّزت نظرته المتجهمة على نظرتها. وقد تمنت لو أنها لا تراها ثانية، ومع ذلك فقد كانت تبحث عنها، كما يبحث الناس عن الظهور المعاود لنذير ما. لكن أي انكشاف يمس هذا العجوز قد يحصل لاحقاً إنما يشكل الآن خوفاً ثانوياً: وقد اعتقدت أنه إنما يعود إلى الماضي فحسب، وقلقها قد استغرقه الحاضر كلية تقريباً .

على أن الصوم الكبير المثير انصرم. فنيسان، الشهر الثاني والأخير من تولّي عرّابها سدة السلطة، كان يوشك على نهايته، ولم يحدث أي شيء يحقق هاجسها. وفي التفكير الجمعي، أيضاً، كانت هناك مخاوف، والإشاعات انتشرت بدءاً من روما عن نشاط وشيك يحمل في طيّاته الأخطار يقوم به بييرو دي ميديتشي. لكن في غضون بضعة أيام سيترك برناردو موضع الشبهات السلطة.

كانت رومولا تحاول أن تستجمع بعض الشجاعة من مراجعتها لمخاوفها العبثية، عندما في يوم السابع والعشرين، وبينما كانت خارج البيت تمارس مهمات الإحسان الاعتيادية بعد الظهر، اعترضها مراسل من كاميلا روسيلي، وهي من كبار عرّافات فلورانسة، وأبلغها أنها يجب

أن تحضر على وجه السرعة لبحث مسائل على درجة كبيرة من الخطورة. أما رومولا التي كانت تمقت كل المقت الثرثرة الحادة لأولئك النسوة المستتيرات (1)، وكانت تشعر منذ فترة قريبة جداً بالاشمئزاز من كاميلا بسبب تقرير كشفت فيه عن تنبؤات معادية لبرناردو ديل نيرو، فقد مالت بدايةً لترد بالرفض القاطع. فرسالة كاميلا قد تشير إلى شؤون عامة، وكان دافع رومولا المباشر يتمثل في صمّ أذنيها عن معرفة لا نفع فيها سوى مفاقمة عبئها النفسي. لكنها أصبحت عادة متأصلة فيها أن ترفض خيارها الملحّ، وتذعن طائعة إلى الهداية المتأتية عن مطالب خارجية، ما جعلها، بعد أن قرّعت نفسها لأنها سمحت لهواجسها أن تجعلها جبانة وأنانية، تنتهي إلى القبول، وعليه فقد ذهبت رأساً إلى كاميلا (2)

وجدت المرأة العصبية ذات الشعر الأشيب في غرفة مرتبة بقدر المتاح لتبدو أشبه بحجيرة في دير. وعند جلوسها قبضت الأصابع النحيلة على رومولا، وناداها الصوت المتلهف بداية في همس مسموع، ما جعلها ترتد للوراء بشكل وجدت معه من الصعوبة بمكان أن تلزم مقعدها.

كان لدى كاميلا رؤيا تريد أن تبلّغها – رؤيا كشف لها فيها ملاك رومولا، أن رومولا كانت على علم ببعض الأسرار المتعلقة بعرابها، برناردو ديل نيرو، والتي، إذا ما تمّ كشفها، قد تنقذ الجمهورية من الخطر. ارتفعت نبرة صوت كاميلا أكثر فأكثر مع سردها لرؤياها، وانتهت إلى نصح رومولا بأن تطيع أمر ملاكها، وتنأى بنفسها عن

عدو الله.

كان تصرّف رومولا المتسرّع من طبيعة مهولة، وخلا لحظات شعرت أثناءها بتأثّر شديد، فقد كانت طريقتها هادئة وتحت السيطرة الذاتية. كان لديها قرف متأصل من القدرة الضحلة على الإثارة لنساء من قبيل كاميلا التي بدت مؤهلاتها كلها مصوغة في شكل فانتازيات لم تترك متسعاً للعواطف والأفكار. ولم تكن النصائح المسداة قد انتهت بعد عندما انتفضت واقفة وحاولت أن تنتزع ذراعها من قبضة كاميلا القوية، لكن دون طائل. فالعرافة بقيت متشبثة مثل سرطان، ولم تفعل مقاومة رومولا سوى أن زادت من شهية العرافة لإسداء النصح، وتخطت قصدها الأول لتنتهي إلى سرد بصوت حاد النبرة لرؤى أخرى كانت تدعم نبوءتها الحالية. فالمسيح نفسه قد ظهر لها وأمرها بأن ترسل أوامره لبعض المواطنين في موقع السلطة بأنهم يجب أن يلقوا ببرناردو ديل نيرو من نافذة قصر فيتشيو. والأخ جيرولامو نفسه كان على علم بذلك ولم يجرؤ هذه المرة على القول إن الرؤيا لم تكن من لدن سلطة إلهية.

قالت كاميلا بصوتها الحاد النبرة وهي تصوّب نظرتين مرعبتين نحو وجه رومولا: " ومنذئذ، الطفل المبارك جاء إلي ووضع رقاقة حلوى هشة على لساني إشارة إلى سعادته لأنني نفّذت وصيته ".

قالت رومولا بصوت حاد غاضب: " دعيني أنصرف! الله يقرّ بأنك معتوهة! وإلا فأنت شريرة بشكل لا يطاق! "

بات عنف جهدها الآن لتخليص نفسها أقوى من قدرة كاميلا

علـى التشـبث. انتزعـت ذراعهـا منهـا وانـدفعت خـارج الغرفـة، دون أن تتوقف حتى ذهبت إلى مدى بعيد في الشارع، وألفت نفسها قريباً من كنيسـة باديـا. ولـم تحـتج سـوى أن تمـر خلـف السـتار أسـفل القـوس الحجري العتيق، حتى تجد معتكفاً بمنأى عن ضجة الشارع وضوضائه حيث كل الأشياء وكل الوسائل كانت توحي بفكرة السلام الأبدي الذي عاش وسط الضوضاء.

دلفت إلى الداخل، وإذ تهالكت على درجة المذبح أمام العذراء (3) الرزينة لفيليبينو ليبي التي ظهرت للقديس برنارد، فقد لبثت تنتظر عسى أن يخمد الاضطراب الداخلي الذي اعتراها شيئاً فشيئاً.

وكانت الفكرة التي ألحت عليها أكثر من غيرها هي أن بإمكان كاميلا أن تتذرع بمعاضدة سافونارولا لحماقتها اللعينة.لم تعتقد رومولا ولو للحظة أنه وافق على رمي برناردو ديل نيرو من النافذة على سبيل الإيحاء الإلهي. كانت متيقنة بأن ذلك الزعم ينطوي على كذب أو خطأ . لقد غدا سافونارولا أكثر صرامة في آرائه عن مقاومة السخط. لكن أفكـار القـانون والنظـام الصـارمين كانـت جوهريـة فـي كـل تعاليمـه السياسية. ومع ذلك، ما دام يعرف الآثار الخطيرة المحتملة لرؤى من قبيل رؤيا كاميلا، وما دام يرتاب ارتياباً ملحوظاً بهاته النسوة اللواتي يستكشفن الغيب، وكان يعمل جاهداً ليبقى بمنأى عنهن، فلمَ، بما له من استعداد لشجب الظلم من مكانه على المنبر، لا يشجب علناً هذه الكشوف الرؤيوية المزعومة والتي أسبغت ظلاماً جديداً بدلاً من نور على مساحة التصور لدى الإرادة العليا؟ لم؟ الجواب أتى بوضوح مؤلم:

كان مقيداً من الداخل بالشعور بأن مثل هذه الإيحاءات الإلهية لم تكن فـي الأسـاس لتنفصـل بشـكل واضـح عـن رؤاه هـو، وكـان مقيـداً مـن الخارج بالنتيجة المتوقّعة وهي إثارة السخط والاستهجان ضده حتى بين أعضاء حزبه هو، كشخص على استعداد لأن يقمع كل وحي إلهي لم يكـن هـو واسـطته – هـو أو عـراف الـرؤى المـؤتمن الرديـف، الأخ سالفيسترو.

أما رومولا، الراكعة المنكبّة بوجهها المخفي عن الرؤية على درج المذبح فقد كانت تتحمل إحدى تلك اللحظات المقززة للنفس، عندما بدا أن الحماس الذي جاءها باعتباره الطاقة الوحيدة القوية بما يكفي لجعل الحياة تستأهل العيش، مقيد بشكل لا مفر منه بأحلام عبثية وإغماض مقصـود للعـين. عـاد تفكيرهـا ينـدفع، تحـدوه جاذبيـة جديـدة، صـوب الإحساس الدنيوي القوي، والحصـافة الأبيـة، والفضـائل العمليـة لعرابهـا والـذي كـان سـيعامل كنـوع مـن Agag(4) لأنـه اعتقـد بـأن صـيغة للحكومة على درجة أكبر من التقييد كانت أفضل من المجلس الأكبر، ولأنه لن يتظاهر بنسيان الروابط القديمة التي تربطه بالعائلة المنفية.

لكـن الهـاجس تصـاعد، وهـي تحتضـن هـذه الفكـرة الأخيـرة، بوجود نوع من المؤامرة لإعادة الميديتشيين. ثم مرة أخرى شعرت بأن الحزب الشعبي كان يعدم التسويغ الكامل بارتيابه العنيف. مرة أخرى شعرت أن الإبقاء على حكومة فلورانسة نقية، وإبعاد تسلم حكم لعين مقاليد السلطة، لهو من القضايا المقدسة . في تلك الناحية كان الأخ الراهب مصيباً، وكان يحظى بتفهمها له بشكل لا يقبل النقض. لكن

في هذه الأثناء سار قبول تفهمها وحده. لقد أعطي من دون رغبة. أخذ فؤادها يتراجع عن حق مقرون بكثير من ضيق الأفق، حق يفرز على نحو جلي ما يفيد أن الحكم المنهجي الصلب على الناس والذي يقيسهم بالموافقات وعدمها هو سطحي تماماً أمام الرجولة الثاوية بداخلهم. كان حبها واحترامها يتشبثان بعرابها بشكل اكتسب عناداً جديداً، ومعه بذكريات والدها تلك التي كانت تشاركها معارضة تقسيم الناس إلى خراف وماعز بالعلامة السهلة والتي تقوم على أساس رمز سياسي أو ديني ما.

بعد كل ما أمكن قوله عن التأثير المطرد للأفكار يبقى صحيحاً أنه قلّما تشكّل هذه الأفكار عناصر كيميائية فعالة ما لم يتم وضعها في مذيب للمشاعر. إن الكفاح العالمي العظيم للفكر المتطور له إرهاصاته الدائمة في كفاح المشاعر، بحثاً عن مسوّغ للحب والأمل (5)

ولو كان عقل رومولا أقل قدرة على تمييز التعقيدات في الأشياء البشرية لمنعتها كل ارتباطات المحبة الباكرة في حياتها من أن تقبل ضمناً صفة الحصرية الاستنكارية لدى سافونا رولا. شعرت ببساطة أن تفكيره قد أوحى لها بحقيقة أكثر عمقاً وأكثر فاعلية من أية واحدة غيرها، والمتنفّس الكبير الذي وجدته في نظرته السامية للواجبات البشرية قد جعلها صبورة إزاء ذلك الجزء من تعاليمه الذي لم تفهمه ما دام التأثير العملي لذلك الجزء لم يتصادم مع أية قوة عاتية بداخلها. إلا أن انبعاثاً فجائياً للمشاعر قد استجر الآن مثل هذا

التصــادم (6)، ولـم يسـتطع سـخطها، مـا إن أثارتـه رؤى كـاميلا، أن يتوقـف عنـد ذاك الحـد، لكنـه سـرى كنـار مضـيئة فـوق كـل الحقـائق المماثلـة فـي تعـاليم سافونارولا، وللوقت الراهن استشعرت ما هوصـادق فـي التهكمـات السـاخرة التـي مـا انفكـت تسمعها تقذف بشكل مستمر ضده، بشكل يفوق حدة شعورها بما هو كاذب.

لكنها كانت استنارة جعلت الحياة برمّتها تبدو مريعة لها. أين هم النـاس الـذين يمكـن أن تتكـل علـيهم، والـذين تعمـل معهـم وتتحمـل وإياهم، مـع إيمانـها بأنها تعمل لأجل الحق؟ وعلـى الجانب الذي أتت منه الطاقة الأخلاقية كان يثوي تعصب كانت تنفر منه باشمئزاز نشأ حديثاً. وعلـى الجانـب الـذي جذبتها نحـوه عاطفة المحبـة والـذكرى كـان يثوي هاجس بوجود مؤامرة سرية والتي قال لها حكمها على الأمور بأنه ليس مما يجانب الإنصاف أن تدعى بالجريمة. ويبقى يطغى علـى كل فكـرة أخـرى ذاك الخـوف الـذي أوحـت بـه تلميحـات تيتـو، مخافـة أن يتحول ذلك الهاجس إلى معرفة، بطريقة تصبح فيها هي نهباً لواجبات متصارعة.

والهدوء لن يأتي حتى من الجثو علـى درج المذبح. لن يأتي من النظر إلـى الصورة الرزينة حيث القديس الجالس يكتب في عزلـة تامـة، تغشـاه وجـوه تشـي بالسـلام السـماوي. كانـت رومـولا تـرزح تحـت وطـأة الصـعوبات البشـرية الثقيلـة، وتلـك العزلـة الوطيـدة كانـت جـد نائيـة. نهضـت مـن جثوهـا كـي تهـرع إلـى مرضـاها فـي السـاحة، عسـى أن تتمكن بفعل عمل خيري فوري من أن تنعش ذلك الإحساس بالجدارة

في الحياة الذي كان في هذه الآونة محروماً من أن يغذيه أي إيمان أوسع نطاقاً. لكنها عندما استدارت للذهاب ألفت نفسها وجهاً لوجه أمام شخص لم يكن يقف بأبعد من ياردتين عنها. كان هذا الشخص بالداسار .

الفصل الثالث والخمسون
على سان مينياتو

قال بالداسار، بينما كانت رومولا تنظر إليه في ترقّب وصمت: " أريد التحدث إليك ". كان واضحاً أنه تعقبها، وكان ينتظرها. وأخيراً ستعرف السرّ الذي أحاط بشخصه.

قالت بذاك التسليم الذي كان سيبدر عنها تحت ظرف الكفارة المفروضة: " أجل. لكن أترغب في أن تذهب إلى مكان لا يسمعنا فيه أحد؟ "

قال بالداسار وهو يلتفت وينظر خلفه بوجل: " حيث لا يفاجئنا هو. خارجاً – في الهواء الطلق – بعيداً عن الشوارع ".

قالت رومولا: " أحياناً أقصد سان مينياتو في هذه الساعة "، وتابعت:" إذا أحببت، سأذهب الآن، وأنت تتبعني. هي بعيدة، لكن يمكننا أن نكون وحدنا هناك ".

هز رأسه موافقاً، وانطلقت رومولا من فورها. بالنسبة لبعض النسوة كان الذهاب إلى بقعة معزولة نسبياً مع رجل كانت له بعض العلائم الخارجية على ذلك الجنون الذي عزاه تيتو إليه، سيبدو مجازفة مقلقة. لكن لم يكن من عادة رومولا الاستسلام للمخاوف الشخصية، وكانت مسرورة للمسافة التي تفسح لبعض التأخير قبل أن تلم بها نازلة أخرى. كان الوقت متأخراً عصر ذلك اليوم، وكانت الشمس قد دلفت نحو المغيب منذ فترة، عندما توقفت على أرض وعرة في ظل جذوع

شجر السرو، وجالت بنظرها بحثاً عن بالداسار. لم يكن بعيداً جداً، لكنه عندما وصل إلى مكان وقوفها شعر بالارتياح ليتهالك من فوره على حرف أرض محجرة. لقد افتقدت بنيته الصلبة تلك الحيوية القوية التي لازمته عندما ظهر لأول مرة والحبل يلف عنقه في الكنيسة. وتحت وطأة الرجفة المؤقتة التي سببها المجهود الذي بذله عند تسلق الهضبة، بدا أن عينيه تحتضنان مزيداً من الغموض العاجز.

قالت رومولا بلطف مشوب بالتعاطف، وهي تأخذ مجلسها بجانبه: " الهضبة شديدة الانحدار.أخشى أن يكون العوز قد أضناك؟"

التفت نحوها وسمّر عينيه عليها بصمت، عاجزاً، أما وأن لحظة التكلم قد حانت، عن اقتناص الكلمات التي توصل الفكرة التي أراد أن يوصلها: أما هي فقد بقيت ساكنة لا تريم قدر استطاعتها، مخافة أن يظن بها العجلة. لم يبد أكثر من إنسان عجوز مهمل من عامة الناس. لكنها كانت قد تعوّدت في هذه الآونة على وجودها قريباً جداً من أمثال هؤلاء الناس، والانشغال بمتاعبهم. وبالتدريج استجمعت نظرته تعبيراً أكثر تركيزاً، وأخيراً قال بتشديد مباغت –

" آه! كنت ستكونين ابنتي! "

ظهر التورّد الخاطف على محيا رومولا ثم تلاشى بسرعة مماثلة، مخلفاً شفتين بيضاوين مفترتين قليلاً، مثل صورة رعب رخامية. لقد حدث الانكشاف أمام بصيرتها. لقد حدست بالوقائع التي كمنت وراء تلك الكلمة المفردة، وفي اللحظة الأولى لا مجال هناك لما يردع الاعتقاد الملحّ الذي انبثق من خبرتها النافذة التي تكونت لديها

عن طبيعة تيتو. وقد شكلت الاستجابة الفائقة الحساسية التي ظهرت على محياها حافزاً لبالداسار. فللمرة الأولى آتت كلماته وقعها الصحيح. استطرد بشوق وعزم متناميين، واضعاً يده على ذراعها.

" أنت امرأة من محتد أبيّ – أليس هذا صحيحاً؟ أنت تذهبين لسماع عظة الواعظ. وأنت تكرهين النذالة – النذالة التي تبتسم وتنتصر. أتكرهين زوجك؟ "

" أوه يا إلهي! هل كنت حقاً والده؟ " قالت رومولا بصوت خفيض بعد أن استحوذت عليها بالكامل صور الماضي بشكل لم تقو معه على الانتباه لسؤال بالداسار. وأضافت: " أو هل أن الحقيقة هي ما قاله؟ هل رعيته عندما كان صغيراً؟ "

قال بالداسار مبتهجاً ضاغطاً على ذراعها بقوة أكبر، كما لو أن الاحتكاك يمدّه بالقوة: " آه، أنت تصدقيني – وتعرفينه على حقيقته! ألن تساعديني؟ "

" أجل "، قالت رومولا، في تأويل للكلمات مغاير لمقصده منها. وضعت كفها برفق على اليد الخشنة التي قبضت بشدة على ذراعها، وترقرقت الدموع في مآقيها بينما كانت ترمقه بنظراتها. " أوه، إنه لأمر محزن! قل لي – كنت رجل معرفة وعلم عظيماً. أنت علّمته. كيف حدث ذلك؟ "

أجهشت بالبكاء. تذكرت ادعاء تيتو بأن هذا الرجل معتوه. وأين، ترى، كانت العلامات الدالّة على رقة الحاشية فيما غبر من الأيام؟ لكن كان عندها من رباطة الجأش ما منعها من أن تبعد يدها.

جلست ساكنة لا تريم بانتظار أن تصغي بحذر جديد.

قال بالداسار: " لقد تلاشى! كل شيء تلاشى! وهم لن يصدقوني، لأنه كذب، وقال إني معتوه. وجعلهم يجرونني ويلقون بي في السجن. وأنا شيخ عجوز – ذاكرتي لن تعود إلي. والعالم يقف ضدي".

صمت للحظة، وغارت عيناه كما لو أنه كان نهب موجة من اليأس. ثم رفع رأسه ونظر إليها من جديد، وقال بلهفة متجددة –

" لكن أنت (مشددة) لست ضدي. لقد جعلك تحبينه، وقد كان مرائياً معك. وأنت تكرهينه. أجل، جعلني أنا(مشددة) أحبه: كان جميلاً ووديعاً، وكنت أنا إنساناً وحيداً. أنقذته عندما كانوا يوسعونه ضرباً. كان ينام على صدري عندما كان صغيراً، وكنت أرقبه وهو يشب عن الطوق، وأعطيته كل معرفتي، وكل شيء كان لي كنت أنوي أن يكون له. كان لدي أشياء كثيرة: المال، والكتب، والمجوهرات. أخذ مجوهراتي – باعها، وتركني عبداً للآخرين.لم يأت قط للبحث عني، وعندما رجعت فقيراً بائساً أنكرني. قال إنني معتوه ".

قالت رومولا بشعور حاد بالوهن: " قال لنا إن والده قد توفي – غرقاً. لا بد أنه كان يعتقد ذلك حينئذ. أوه! ليس من المعقول أن يكون على هذه الدرجة من الخسّة آنئذ! "

تراءى لها ماذا كان تيتو يعني لها في تلك الأيام الأولى عندما لم تظن به سوءاً مثل طفل ينأى به الظن عن إمكانية وجود سمٍّ في الأزهار. وقد جلب الأسف التواق الذي انطوت عليه تلك الذكرى بعض

التخفيف من التوتر الذي نجم عن هول المسألة. وعلى أثرتنهيدة واحدة من الأعماق طفرت العبرات إلى مآقيها.

قال بالداسار، ببعض اللجاجة: " آه، أنت شابة، والدموع تتدفق بسهولة، لكن الدموع لا تجدي. لا تفعل سوى أن تطفئ النار في الداخل، والنار هي التي تجدي. الدموع ستعيق تحركنا. اسمعيني ".

التفتت رومولا إليه وقد اعترتها هزة خفيفة. مرة أخرى برق في مخيلتها احتمال جنونه، مما كبح دفقة التصديق. وهب أنه ثبت، في نهاية المطاف، أن هذا الرجل ليس إلا قاتل معتوه؟ لكن إيمانها العميق بهذه القصة بقي متوارياً، وقد كان الدافع لتحاشي مجازفة إيلامه بإظهار أي قدر من الشك يكمن في التعاطف أكثر منه في الخوف.

قالت بكل ما أوتيت من رقة: " قل لي، كيف حدث وفقدت ذاكرتك – علمك ومعرفتك ".

" مرضت. لا أتذكر لكم من الوقت – كانت مساحة خالية. لا أتذكر شيئاً، إلا في المراحل الأخيرة أني كنت أجلس تحت أشعة الشمس بين الحجارة، وكل شيء عدا ذلك يكتنفه الظلام. ورويداً رويداً، وشيئاً فشيئاً شعرت شعوراً ما إضافة لذلك: توقاً لشيء ما – لم أعرف كنهه – ذاك الذي لم يأت قط. وبينما كنت في السفينة الطافية على الأمواه بدأت أعرف ما الذي كنت أتوق إليه. كان الرغبة في عودة الولد – كان الرغبة في أن أعثر على كل أفكاري مرة أخرى، ذلك أنه حيل بيني وبينها، لا صلة بيني وبينها . والآن أنا في الخارج. لا أشعر سوى أن هناك جداراً قائماً وظلمة ".

عاد بالداسار إلى عالم الحلم مرة أخرى، ودخل في صمت تام وهو يسند رأسه بين يديه. ومرة أخرى غطى تصديق رومولا له علىكل شكوك الحذر منه. فالشفقة التي ركزت بها على كلماته بدت أشبه بتجدد وخزة قديمة.ألم تشهد يومياً كيف أن أباها قد افتقد دينو والمستقبل الذي حلم به في ذلك الابن؟

تابع بالداسار على الفور: "كله عاد ذات مرة. كنت سيداً على كل شيء. رأيت العالم كله من جديد، ومجوهراتي، وكتبي، وكنت أحسب أنه وقع تحت سيطرتي، ورحت أكشفه حيث – حيث كانت الأضواء والشجر، ومرة أخرى لجأ إلى الكذب، وقال إنني كنت مجنوناً، وقاموا بجرّي إلى السجن...الشر قوي، وهو يلبس درعاً ".

استعرت الشراسة من جديد. تحدث بحدته السابقة، ومرة أخرى قبض بشدة على ذراع رومولا.

" لكنك ستساعديني؟ لقد كان مرائياً معك أيضاً. لديه امرأة غيرك، ولديها طفلان. وهو يوهمها بأنه زوجها، وهي امرأة حمقاء، لا حول لها ولا قوة. سأدلك على مكان سكناها ".

كانت أول صدمة اعترت كيان رومولا، كما ظهر جلياً، صدمة الغضب. كانت السيادة معقودة لشعور المرأة بالحنق والسخط. شعر بالداسار غريزياً أنها تتعاطف معه.

أضاف: " تكرهينه. أليس كذلك؟ لا يربطكما رابط الحب، أعرف ذلك. أعرف أن النساء بوسعهن أن يكرهن، وإن أصلك لكريم. أنت تكرهين الزيف، وبإمكانك أن تحبي الانتقام ".

جلست رومولا مشلولة تحت وطأة صدمة مشاعر متنافرة. لم تكن تشعر بالقبضة التي كانت تؤلم ذراعها الرقيقة.

قال بالداسار، على الفور، في همسة مشوقة: " ستجدين الحيلة لذلك. قلبي يقول لي إنك زوجته الحقة. إنك امرأة نبيلة. أنت تذهبين لسماع واعظ الانتقام، ستساعدين العدالة. لكنك ستفكرين بالنيابة عني. عقلي يفارقني – كل شيء يضيع مني أحياناً– الكل سوى النار. النار هي الله: إنها العدالة: لن تخبو. أنت تصدقين ذلك – أليس كذلك؟ إذا لم يشنقوه لسرقته إياي، ستخفين درعه – ستجعلينه يذهب من دونه، وأنا أطعنه بخنجري. لدي خنجر، وذراعي ما تزال تحتفظ بما يكفي من القوة ".

وضع يده تحت إزاره وأخرج السكين المخفية، وأخذ يتحسس النصل وهو شارد الذهن، كما لو أنه بحاجة للإحساس كيما يبقي على أفكاره حية نشطة.

بدا لرومولا أن كل ساعة جديدة في حياتها ستصير أكثر صعوبة من سابقتها. كان حكمها على درجة من القوة والسرعة ما حال دون أن ترتكب خطأ استخدامها كلمات مهينة دون طائل مع شخص في حالة بالداسار العقلية. آثرت ألا ترد على كلماته الأخيرة. آثرت أن تكسب الوقت عسى أن تهدأ ثورته عن طريق السؤال عن شيء آخر كانت تحرص على معرفته. أخذت تتحدث يعتريها بعض ارتعاش –

" أنت تقول إنها حمقاء وعاجزة – تلك الزوجة الأخرى – وتعتقد أنه زوجها الحقيقي. لربما هو كذلك:لربما تزوجها قبل أن

يتزوجني ".

قال بالداسار متوقفاً عن تحسسه نصل السكين وبادياً عليه التشوش: " لا أستطيع القول، لا أستطيع تذكر ما هو أكثر من ذلك. لا أعرف سوى أين تقطن. سترينها. سأدلّك، إنما ليس الآن". أضاف على عجل، " ربما كان هناك. لقد أخذ الليل يجنّ ".

قالت رومولا، وقد نهضت من فورها عندما أدركت فجأة أن الشمس قد غربت والتلال تكتنفها الظلمة : " هذا صحيح، لكنك ستأتي وتدلّني – متى؟ "

" صباحاً "، قال بالداسار وهو يحلم بأنها هي أيضاً كانت تريد أن تأخذ بثأرها على جناح السرعة.

" تعال إليّ، إذن، حيث جئت إلي هذا اليوم في الكنيسة. سأكون هناك في العاشرة، وإذا لم أجدك هناك، سأعود ثانية حوالي منتصف النهار. هل تقوى على التذكر؟"

قال بالداسار: " منتصف النهار – منتصف النهار فحسب. المكان عينه، ومنتصف النهار ". وأضاف وهو ينهض ويقبض على ذراعها ثانية بيده اليسرى بينما كان يمسك السكين بيده اليمنى : " وبعدئذ سنأخذ بثأرنا. يجب أن يشعر بالحد الرهيف للعدالة.العالم يقف ضدي، لكنك ستساعدينني".

قالت رومولا باذلة أول مجهود حيي لطرد الوهم الذي تكوّن لديه بشأنها: " سأساعدك بطرق أخرى. أخشى أن تكون في فاقة. عليك أن تعمل وتكسب قليلاً. أحب أن أجلب لك الراحة، وأجعلك

تشعر ثانية بأن هناك شخصاً يهتم بأمرك ".

قال بالداسار بحدّة: " لا تقولي المزيد في هذا الشأن. لا أرغب في شيء آخر. ساعديني في عصر قطرة انتقام على حافة القبر هذه. لست أملك شيئاً سوى سكيني. إنها حادة. لكن هناك لحظة بعد الطعن يرى الناس عندها وجه الموت – وسيكون وجهي هو الذي سيراه ".

أرخى قبضته وهوى ثانية إلى وضعية الجلوس. شعرت روموﻻ بالعجز: يجب أن تؤجل كل ما عزمت عليه ليوم الغد.

قالت بصوت واضح: " منتصف النهار، إذن ".

أجاب وعليه سيماء التعب: " أجل، اذهبي، سأرتاح هنا ".

ابتعدت على عجل. وعندما التفتت عند آخر بقعة يُرجّح أن يبقى منها ضمن مرمى البصر رأت أنه لم يبارح مكانه.

الفصل الرابع والخمسون
المساء والصباح

بينما كانت روموﻻ تغذ السير بعيداً عن المكان الذي كانت فيه كان يحدوها هدف ما، هدف ما فتئ يتنامى خلل ساعات العصر مثل جدول فرعي، يزداد ماؤه شيئاً فشيئاً مع ازدياد ماء المجرى الأساسي. لم يكن شيئاً ناجماً عن عزمها وتصميمها بقدر ما كان ضرورة أفرزتها مشاعرها. ودون أن تنتبه للشوارع التي أخذ الظلام يكتنفها، أو تحرص على دعوة ماسو لمرافقتها ببطيء خطوته، فقد عبرت الجسر على

عجل حيث لاح النهر أسود أمام الأحمر القصي المحتضر، وسلكت أقصر الطرق إلى القصر القديم.ربما صادفت زوجها هناك. لا يهم. لا يمكنها أن تزن الاحتمالات. يجب أن تفرغ ما في قلبها. لم تعرف بمن مرت في الفناء المكتظ بالأعمدة أو وهي تصعد السلم العريض. لم تعرف سوى أنها طلبت من حاجب إيصالها إلى لجنة الـ Gonfaloniere (انظر حاشية سابقة –م) بعد أن أعطت اسمها، وطلبت الأذن بالدخول إلى غرفة خاصة.

لم تلبث طويلاً وحدها بصحبة أشكال الفريسكو والشموع المضاءة حديثاً. إذ سرعان ما فتح الباب، ودخل برناردو ديل نيرو وهو لا يزال يرفع رأسه الأشيب فوق شاله الحريري.

قال بلهجة تنم عن استغراب مشوب بالقلق بينما كان يغلق الباب: " رومولا، يا ابنتي، ما الأمر؟ "

كانت قد حسرت عن رأسها واتجهت صوبه دون أن تتكلم. وضع يده على كتفها، وأبقاها على مسافة منه عسى أن يراها بشكل أفضل. بدا وجهها منهكاً مضنى من الإرهاق واضطراب البال المديد، وشعرها كان ينسدل دون ترتيب، لكن عينيها وشتا بالانفعال الذي بدا أنه تغلّب على الشعور الجسدي.

قال برناردو فجأة: " ماذا فعل؟ أخبريني كل شيء، يا ابنتي. نحّي عنك الكبرياء. أنا أبوك ".

قالت رومولا على عجل: " ليس الأمر يخصني – ليس يخصني أنا، يا أعز عراب، إنه يخصك. لقد سمعت أشياء – بعضها

لا أستطيع أن أطلعك عليه. لكن الخطر يحدق بك في القصر. أنت في خطر أنى كنت. هناك متطرفون يرغبون في إيذائك، و– وهناك خونة. لا تثق بأحد. إذا وثقت فإنك تلقى الخيانة ".

تبسّم برناردو.

قال وهو يرفع يده إلى رأسها ويداعبه برفق: " هل تجشمت عناء هذا الاضطراب، يا ابنتي المسكينة كي تطلعي شيخاً مثلي على هذه الحقيقة القديمة العهد؟ "

قالت رومولا، وهي تضغط يديها على بعضهما بشدة، كما لو أن ذلك الفعل سيساعدها على كبح ما يجب ألا يقال:." أوه، لا، لا! ليس هي حقائق قديمة العهد ما أعنيه. إنها أشياء جديدة، تلك التي أعلمها، لكن ليس بوسعي قولها. يا أعز عراب، أنت تعرف أني لست حمقاء. ما كنت لآتي إليك دون سبب وجيه. هل فات أوان تحذيرك من أي شخص، كل شخص يبدو أنه يعمل لصالحك؟ هل فات أوان القول: " امض إلى فيلتك وتوارَ في الريف عندما تنتهي هذه الأيام الثلاثة التي تبقّت لك في سدة السلطة؟ أوه، يا إلهي! ربما فات الأوان! وإذا ما مسّك أي ضير، سيبدو الأمر وكأني أنا من فعل ذلك!"

انطلقت الكلمات الأخيرة من فم رومولا على غير إرادة منها: ذلك أن شعوراً طال كبته قد وجد تلفظاً متشنّجاً. أما هي نفسها فقد كانت مذعورة ومكبوحة.

أضافت مترددة: " أعني، لست أعرف شيئاً قاطعاً، لا أعرف سوى ما يملؤني بالمخاوف ".

قال برناردو ناظراً إليها نظرة ثاقبة هادئة للحظة أو اثنتين: " ابنتي المسكينة! اذهبي، يا رومولا – امضي إلى البيت واستريحي. هذه المخاوف قد لا تكون أكثر من تهيؤات مهولة بشعة لشيء صغير جداً وغير مؤذ. حتى الخونة يجب أن يتبينوا مصلحتهم في الخيانة: الفئران تجري حيث تشتم الجبن، ولا أحد يعرف بعد من أين ستأتي الرائحة ".

توقف، وحوّل نظره عنها لتظهر عليه من ثمة مسحة الشرود، ليضيف، بهزة كتف بطيئة –

" أما بالنسبة للتحذيرات، فهي لا تجدي معي، يا ابنتي. لا أشارك في أية مؤامرات، لكنني لا أتخلّى أبداً عن ثوابتي. إذا ما مشيت جنباً إلى جنب مع العنيدين، فمن سيهبّ للسلاح وأسنة الرماح، يجب أن أشارك في النتائج. فلنكف عن قول أي شيء آخر حول هذا الأمر. لم يتبق لي في قاع كيسي من السنوات الكثير ليسلبوني إياه. امضي، يا ابنتي، امضي إلى بيتك واستريحي ".

وضع يده على رأسها مرة أخرى مداعباً إياها، أما هي فلم تستطع منع نفسها من التشبث بذراعه، وضغط جبينها على كتفه. بدت مداعبة عرابها لها آخر شيء تبقّى لها من تلك الحياة البنوية النضرة، والتي بدت لها أنها الآن تنطوي على قمة السعادة حتى في أعقد مشاكلها، ذلك لأنها كانت مشاكل لم يلوثها أي شيء كريه.

قال الشيخ: " هل الصمت أفضل شيء، يا ابنتي رومولا؟ "

أجابته مترددة، وهي ترفع رأسها بنظرة مناشدة: " أجل، حالياً.

إنما لا أستطيع القول فيما إذا كان هذا سيدوم ".

" حسن، لديك أذن والد لتسمعك ما دمت أنا فوق الأرض: – رفع القماش الأسود ولفع به رأسها، مضيفاً – " وبيت والد، تذكري ذلك. " ثم فتح الباب وقال: " هيا، أسرعي. إنك أشبه بشبح أسود: ستكونين بمأمن تام ".

عندما خلدت رومولا للنوم تلك الليلة، نامت ملء عينيها. فقد وصل القلق إلىحدوده القصوى. لا بد أن تستجمع قوة قبل أن يأتيها المزيد من الألم. وعلى الرغم من العادة الصارمة فقد واصلت النوم إلى ما بعد شروق الشمس بوقت طويل.

عندما استيقظت كان استيقاظها على صوت المدافع. كان بييرو دي ميديتشي، يسانده ألف وثلاثمائة (1) من رجاله قد وصل إلى أمام الثغر المطل على روما.

لقد علمت رومولا الكثير من ماسو، مع إضافات ظرفية من النوع الملتبس. كان أحد الريفيين قد دخل وأنذر السينوريا قبل الفجر، وإلا لكانت المدينة قد أخذت بغتة. لم يكن سيده في البيت ذلك لأنه كان استدعي إلى القصر منذ فترة طويلة. أرسلت العجوزَ ثانية، عسى أن يجمع أخباراً بينما صعدت هي إلى اللوجيا (الشرفة أو الإيوان المسقوف–م) من وقت لآخر علها تلمح أية إشارات عما إذا كان دخول المدينة الذي كان الجميع يخشونه قد تم، أو أنه قد صدّ بقوة. جاء ماسو إليها بأخبار مفادها أن الساحة الكبيرة كانت ملأى بالمسلحين، وأن الكثير من القادة والمشتبه بأنهم من أصدقاء

الميديتشيين قد استدعوا إلى القصر واحتجزوا هناك. وقد بدا أن بعض الناس لم يكترثوا لما إذا كان بييرو قد دخل أو لا، وبعضهم قال إن السينوريا نفسه قد دعاه، لكن مهما يكن لم يلق منهم إلا ترحيباً فظاً، والجنود من بيزا كانوا يناصبونه العداء.

في تذكرها لساعات الصباح تلك لم تستطع رومولا أن تميّز الكثير من الأشياء على أنها خبرات خارجية حقيقية بارزة في تميّز واضح عن الأمواج الصاخبة لتأمل الماضي وأمل المستقبل. كانت تعلم أنها كانت قد ذهبت حقاً إلى الباديا في الوقت الموعود بالرغم من الإنذارات التي أذيعت في الشوارع. كانت تعلم أنها انتظرت هناك عبثاً. والمشهد الذي شهدته عندما خرجت من الكنيسة، ووقفت على الدرج تراقب بينما كانت الأبواب توصد خلفها لاستراحة العصر، كان دائماً يعود إليها مثل يقظة استرجعتها
الذاكرة.

حدث تغير في سحنات الناس وأصواتهم، المسلحين منهم وغير المسلحين، الذين كانوا يتوقفون أو يهرعون على طول الشوارع. أخذت المدافع تطلق ثانية، لكن الصوت لم يكن يبعث إلا على الضحك. وسرعان ما عرفت سبب التغير. بييرو دي ميديتشي وفرسانه أداروا ظهرهم لفلورانسة، وكانوا يعدون بأقصى سرعاتهم على طول طريق سيينا. علمت هذا من بيانوني يدير محلاً مرموقاً لم يلق سنانه بعد.

أنهى حديثه وقدر من مرارة يخالط تشديده : " صحيح أن بييرو

قد رحل، لكن هناك أولاء الذين خلّفهم وراءه ومعهم أسرار مجيئه – جميعنا نعرف ذلك. وإذا قام السينوريا الجديد بواجبه فسنعرف قريباً هويتهم.

اخترقت الكلمات من رومولا مثل نوبة مغص حادة، لكن الشر الذي أرهصت به لم يكن داهماً بعد بالنسبة إليها، وعندما دخلت بيتها ثانية كان القلق الذي استبدّ بها هو احتمال ألا تقع عيناها على بالداسار لمدة طويلة قادمة.

الفصل الخامس والخمسون

الانتظار

كرّت الأيام المشمسة المتطاولة تباعاً دون أن تأتي بما رغبت به رومولا أكثر من أي شيء آخر أو ما أرعبها أكثر من أي شيء آخر. لم تجلب لها أية إشارة من بالداسار، وبالرغم من مراقبة مركّزة من جانب الحكومة لم يحدث أي انكشاف للمؤامرة المشتبه بها. لكنها جلبت أشياء أخرى مسّتها بشكل مباشر، وجسرت مساحة القلق العامرة بالأوهام بمشاركة وجدانية فاعلة في تجربة مباشرة. لقد جلبت الوباء المتفشّي والحرم الكنسي لسافونا رولا.

وقد عملت كلتا هاتين الحادثتين على كبح غربتها الأولية عن الراهب، وتثبيت قوي مرة أخرى لارتباطها بالرجل الذي فتح أمامها حياة جديدة مفعمة بالواجب، والذي بدا الآن مهزوماً في المعركة في سبيل المبدأ ضد التهتك والخلاعة. ذلك أن رومولا لم تقو على أن تُدخِل إلى أماكن الوباء والبؤس يوماً بيوم الحماس النبيل لسعادة وجدت هي (رومولا) أيضاً، منذ أن وجد ذلك الكرب، لتخفف من مرارة بعض الكرب، دون أن تتذكر أنها كانت تدين بهذه الحياة الأخلاقية المتعالية (فوق الوجود المادي) للأخ جيرولامو. لم تستطع أن تشهد إسكات وإصدار حرم بحق من كان تميزه عن جمهرة رجال الدين يكمن، ليس في أي إيمان هرطوقي، وليس في إيمانه بالخرافات، بل في الطاقة التي سعى بموجبها لأن يجعل الحياة المسيحية حقيقة واقعة، دون أن تشعر أنها قد انجذبت بقوة إلى صفه.

هذا، وقد استمر لمدة طويلة، في أيام حزيران(1) القائظة، نشر الحرم الكنسي، الذي وصل منذ عدة أسابيع من روما، في الكنيسة بشكل رسمي. ذهبت رومولا لتعاين المشهد عسى أن تنعش المقاومة التي جاءت من وحي هذا المشهد ذلك التعاطف مع سافونارولا والذي شكّل أحد مصادر قوتها. وقد كان ذلك متبايناً بشكل كبير عن المشهد الذي اعتادت أن تشهده هناك.

وعوضاً عن وجوه المواطنين المرفوعة للأعلى التي تملأ المساحة الشاسعة تحت ضوء الصباح، ووجوه الفتيان الصاعدة كمدرّج صوب الجدران، والمؤتلفة لتصنع إكليلاً من الأمل حول ذكريات العصر – وبدلاً من الصوت القوي منعش كل القلوب بالإحساس بالأشياء العظيمة، المرئي منها وغير المرئي، التي تستحق أن يناضل من أجلها – كانت هناك الجدران العارية مساءً التي زادها كلحاً تلألؤ الشموع، كان هناك سرب الرهبان بالأسود والرمادي والكهنة الدنيويين بوجوههم المطرقة الخاوية من كل أمل. كما كانت هناك الجلجلة العارضة للأجراس الصغيرة في الفترات التي كان يتوقّف أثناءها صوت رتيب يتلو نص حكم بقي معلّقاً لفترة طويلة في الكنائس. وأخيراً جاء انطفاء الشموع، ودوسة أقدام الرهبان البطيئة المتمهلة المجرورة جرّاً على الأرض والمغادرة للمكان في هدأة السكون المعتم.

وقد اكتسب حماس رومولا للوقوف بجانب الأخ الراهب قوة مضاعفة بفعل الانتصار البهيج الذي رأته في الوجوه الصارمة القاسية الملامح، والارتباك المشوب بالذعر في وجوه وكلمات العديدين من

أصدقائه الخلّص. ولم تكن مسألة أين ينتهي واجب الطاعة، وأين يبدأ واجب المقاومة سهلة بأي شكل. لكنها صارت صعبة بشكل كبير عن طريق الاعتقاد بأن الكنيسة قد شكّلت – ليس حلاً وسطاً بين أحزاب لتأمين عدالة تقريبية نوعاً ما في وقف الأموال، بل –عضوية حية، قدرة طبيعية ذات سلطة إلهية تمنح البركة أو تنزل اللعنة. وبالنسبة لمعظم الفلورانسيين الورعين الذين لم يشعروا حتى الآن بأي ارتياب في تعلّقهم بالأخ الراهب، فإن ذلك الاعتقاد بالمقدرة الإلهية للكنيسة (2) لم يكن رأياً أخذ به الجميع، لقد كان سمةً لا تقبل التبديل مثل تقعّر القبة الزرقاء. هذا، وإن شجاعة حجج سافونا رولا المكتوبة بأن الحرم لم يكن عادلاً، وأنه، لكونه غير عادل،لم يكن صالح التطبيق، إنما ضاعفت مخاوفهم، لكون ذلك تحدياً لصورة ملغزة لا يقف في وجه سلطتها الخفية اللامحدودة أي سلاح أو دفاع.

لكن رومولا، التي لم يتح لتفكيرها أن يستمد غذاءه الأول من الارتباطات التقليدية للمجتمع المسيحي الذي عاش والدها حياته بمعزل عنه، لم تشعر بصلتها بالكنيسة إلا من خلال سافونا رولا. فقد كانت سلطته الأخلاقية السلطة الوحيدة التي أذعنت لها. وفي حرمه الكنسي لم تر إلا نذر شر عدائي: فمن نحو شاهدت إنساناً كرّس حياته لأغراض الفضيلة العامة والنقاء الروحاني، ومن نحو آخر، هجوم الأنانية المستنفرة، يقوده عجوز شهواني، جشع، كذّاب، ومجرم، دعي مرة رودريغو بورجيا، والآن تسنّم قمة العار باسم البابا إلكسندر السادس. إن ظلال الحقيقة الأكثر رهافة التي تلطّف حدّ مثل هذه

التناقضات ليس بالإمكان رؤيتها إلا من قبل أشخاص حياديين، أشخاص لم يصبهم الغمّ لرؤية بعض حماقة في الشهداء وبعض حصافة في الناس الذين يحرقونهم.

لكن رومولا تطلبت قوة لم يكن بوسع الحيادية أن تهبها. وهذا الحرم الذي بسّط وأضفى نبالة على موقف سافونا رولا المقاوم عن طريق إبرازه ارتباطاته (الحرم) الأوسع، بدا أنه أتى إليها كإنقاذ من الانعزالية المنذرة، انعزالية النقد والشك. والآن فقد سُحب الأخ الراهب من تلك العدائية الأصغر شأناً ضد الأعداء الفلورانسيين والتي طالما انجرّ إليها في غمرة الحماس على المنبر الذي لا يحده حدّ، وتبدّى ببساطة كشخص محبوب لدى العالم المسيحي ضد ممارسة شريرة قارفتها السلطة الكنسية. فقد كان حامل راية قفز إلى منطقة خرق فيها القانون. والحياة لا تبدو أبداً واضحة وسهلة جداً إلا عندما يزداد وجيب القلب لمرأى عمل من أعمال الشهامة والمخاطرة بالذات. إذ ذاك نحن لا نشعر بأي ارتياب حول أي الجوائز التي يمكن أن تفوز بها الروح هي الأنفس. نحن نقترب من الإيمان بمقدرتنا على نوالها. وعن طريق سريان جديد لحماس من هذا القبيل تلقت رومولا العون خلل أيام الصيف الصعبة هذه. لم تخاطر بقول أية كلمات لتيتو قد تنبئه بآخر لقاء لها مع بالداسار، والسر الذي أطلعها عليه. أية فائدة قد تجنيها من مثل هذه الكلمات القاسية المنغّصة؟ ليس الاعتراف بالحقيقة. لا شيء، ربما، سوى السخرية الباردة من تعاطفها مع من حاول اغتياله. والواضح أن بالداسار كان عاجزاً: فالشيء الذي يبعث على الخوف لم

يتمثّل في احتمال إلحاقه الأذى بتيتو، بل أن يعمد تيتو بعد تعقّبه أثره إلى تنفيذ مكيدة جديدة ما للتخلص من الإنسان المتأذّي الذي كان بمثابة رعب يطارده. شعرت رومولا بعجزها عن فعل أي شيء حاسم إلى أن تلتقي بالداسار ثانية، وتعلم كامل الحقيقة بشأن تلك " الزوجة الأخرى " – تعلم ما إذا كانت هي الزوجة الأولى التي ارتبط تيتو بها.

لقد اختلطت الاحتمالات بشأن تلك الزوجة الأخرى (3)، والتي شكلت أكبر طعنة لكبريائها الوراثي، من حيث كونها ارتياباً أتى بمرارة جديدة، مع الذكريات الأولى لحبها الواهم، قاضيةً على الارتباطات المتلكئة للحنان مع الصورة الغابرة لزوجها. وإن إيمانها القوي بما تبقى من كشف بالداسار للسر، جعلها تبتعد عن تيتو مأخوذة برعب ربما كان دفعها إلى بعض كلمات انفعالية رغماً عنها لو لم يكن غائباً أكثر من المعتاد عن البيت. وشأنه شأن الكثيرين من الأثرياء أيام الوباء تلك فقد أمضى معظم فترات الراحة من العمل في الريف: ذلك أن ميليما المحبب للقلوب كان موضع ترحيب في العديد من الفيلاّت، ونظراً لأن رومولا قد رفضت أن تغادر المدينة فلم تدع الحاجة لتوفير سكن ريفي خاص به.

لكن أخيراً، في أواخر شهر تموز، عمل التخفيف من حدّة تلك المتاعب العامة التي استغرقت نشاطها والكثير من تفكيرها، على شعور رومولا بقسمتها الشخصية بصورة أقل إحباطاًُ. فالوباء كاد أن يختفي، واكتسب وضع سافونا رولا مزيدا من الأمل على يد قضاة مؤيدين أخذوا يكتبون رسائل تبرئة عاجلة إلى روما لصالحه، مطالبين

بسحب الحرم الكنسي.

أخذت رومولا تعاني من الوهن في صحتها وحيويتها، وهذا كان محتّماً بعد الحماس المتواصل والإجهاد الزائد عن الحد. لكن قلقها النفسي لم يكن يدعها تلزم البيت من دون أن يكون لديها مهمة حاسمة، إلا أثناء أوقات الحر والرطوبة المزعجة. وفي برودة الصباح والمساء اللطيفة كانت تخرج على الدوام، مغيرة اتجاهها قدر المستطاع، يحدوها أمل مبهم بأنه إذا كان بالداسار ما يزال حيّاً فإنها قد تلتقي به. ربما سبّب له مرض ما شللاً جديداً في الذاكرة، وبالتالي فقد نسي مكان سكناها – نسي حتى وجودها. كان ذلك هو التبرير الأكثر تفاؤلاً لمسألة غيابه. والتبرير الذي شعرت بأنه الأكثر احتمالاً تمثل في أنه ربما قضى نتيجة الطاعون.

الفصل السادس والخمسون

الزوجة الأخرى

كانت وطأة حرارة الصباح قد أخذت تشتد على رومولا إلى حدّ ما عندما، عقب تمشّيها بمحاذاة الأسوار عند عودتها من دير سان ماركو، توجهت كرة أخرى صوب ملتقى الشوارع عند مدخل سانتا كروتشه.

كانت ضاحية كروتشه جد هادئة بشكل أمكنها أن تسمع وقع خطواتها على الرصيف في هدأة الصمت المشمس، وإذا بها تشاهد، عند اقترابها من المنعطف، على مبعدة بضع ياردات أمامها، طفلاً

صغيراً لا يزيد عمره عن ثلاث سنوات، لا يستر عريه أي شيء سوى قميصه الأبيض، يتوقف عن ركضه المتهادي وينطر حوله. في اللحظة الأولى لاقترابه لم تلمح سوى ظهره – ظهر ولد، عريض وقوي البنية، يعلوه ضفائر بنّية تميل للأحمر. لكنه التفت، في اللحظة التالية، نحوها، مما أتاح لها أن ترى عينيه السوداوين وقد اتسعت حدقتاهما من البكاء، وكانت شفته السفلى مرفوعة للأعلى وآخذة في الارتعاش، بينما تكمّشت قبضتاه البدينتان السمراوان بقميصه على نحو يشي بالعجز. وقد سبّب مرأى قامة طويلة سوداء تلقي ظلاً فوقه مفاقمة ذعره المرتبك إلى أوجه، وسرعان ما أطلق نشيج متعال العنان لعبرات كبيرات .

وبغريزة الأمومة الحاضرة لديها، والتي كانت أحد المصادر الخفية لحنانها الفياض، قامت رومولا على الفور بنزع الغطاء عن رأسها، وبعد أن انحنت على الرصيف، طوّقته بذراعيها، ووضعت وجنتيها على وجنتيه، وأخذت تكلمه بلهجة مفعمة باللطف والمداعبة. في البداية لم يشهد نشيجه إلا علواً في النبرة، لكنه لم يحاول أن يبتعد، وسرعان ما توقف عن البكاء الشديد بتلك الفجائية الغريبة التي هي سمة المسرات والأحزان الطفلية: فوجهه زايله تشوّهه، وطفق يحدق برومولا فاغر الفم.

قالت وهي تقبله: " هل أنت ضائع، يا صغيري. لا بأس! سنعثر على البيت من جديد. ربما نلقى ماما ".

وقد خمّنت أنه قد غافل أمه، واعتقد أنها، على الأرجح،

ستتعقبه حالاً.

قالت وهي تحاول أن ترفعه: " أوه، يا له من ولد ثقيل، ثقيل! "

" لا يمكنني أن أحملك. هيا، إذن، يجب أن تدرج عائداً بجانبي ".

بقيت الشفتان المفترّتان ساكنتين في صمت خاشع، ولبثت إحدى القبضتين السمراوين تتشبثان بالقميص بكل ما أوتيت من قوة، لكن القبضة الأخرى استسلمت طواعية لليد الرائعة البيضاء، والقوية لكن الناعمة.

قالت رومولا مع انطلاقهما، وهي تتوجه بنظراتها لأسفل، إلى الولد بتَوق خاص: " ألديك أم؟ " لكنه بقي على صمته. لو كانت فتاة في مثل تلك الظروف لكانت، على الأرجح، أكثرت من تغريدها، على النقيض من هذا الرجل الصغير عريض المنكبين ذي خصلات الشعر الكثّة.

على أنه استشعر أول علامات المكان. وعند المنعطف بجانب واجهة سان أمبروجيو سحب رومولا صوبه، وهو يرمقها بنظراته.

قالت وهي تبتسم له: " آه، هذا هو الطريق إلى البيت، أليس كذلك؟ ". لم يفعل شيئاً سوى مدّ رأسه للأمام ساحباً من معه، كتذكير بأن عليهما الإسراع.

كان ما يزال أمامهما منعطف آخر حسم أمره بشأنه. وبعدئذ ألفت رومولا نفسها في شارع قصير يفضي إلى أرض حديقة مكشوفة.

وكان أن توقف الصغير أمام منزل في نهاية هذا الشارع، وجرّها نحو درج حجري. بدت عليه رغبة واضحة في ألا تترك يده، وهي لم تكن راغبة في تركه بدون أن تتأكد من تسليمه إلى ذويه. صعدا الدرج دون أن يريا طريقهما إلا بصورة باهتة بعد ذلك الإنسحاب المفاجئ من نور الشمس، إلى أن جاء، في مصطبة السلّم الأخيرة، فيض زائد من النور من مدخل بيت مفتوح. وعند اجتيازهما رواقاً صغيراً وصلا إلى باب آخر مفتوح، وهناك توقفت رومولا. لم يسمع أحد صوت اقترابها.

وعلى كرسي واطئ في طرف الغرفة القصي قبالة النور جلست تيسا، يدها على حافة المهد، ورأسها مدلى قليلاً على أحد الجانبين تنام ملء جفونها. وقرب إحدى النوافذ، مديرة ظهرها صوب الباب، كانت تجلس مونا ليزا منهمكة في إعداد السلطة غافلة تماماً عن أي شيء. ولم تمض إلا لحظة حتى استوعبت عينا رومولا ذلك المشهد الساكن، ذلك أن ليلو خطف يده منها وأسرع إلى جانب أمه، دون أن يبذل أي جهد مباشر لإيقاظها، إنما مسنداً رأسه فقط على ذراعها، متفحصاً رومولا باهتمام من تلك المسافة.

وعندما حشر ليلو جسده بها فتحت تيسا عينيها، ورفعت نظرها بانشداه. لكن ما إن استقر بصرها على الشخص الواقف بالمدخل المقابل حتى نهضت مجفلة، وتضرّج وجهها بشدة، وأخذت ترتعش قليلاً، دون أن تقوى لا على التكلم ولا على التحرّك للأمام.

قالت رومولا، وهي تبتسم، وتخطو للأمام: " آه! لقد التقينا من قبل. أنا سعيدة إذ هو صغيرك. كان يبكي في الشارع. أظن أنه هرب.

لذا تمشينا معاً لمسافة قصيرة، ثم استدلّ على الطريق، وأحضرني معه إلى هنا. لكنك لم تفتقديه؟ هذا حسن، وإلا لكان طار صوابك".

في تلك الآونة طغت الصدمة المتأتية عن اكتشاف أن ليلو قد هرب على كل شعور آخر لدى تيسا. زايلها لونها، وبعد أن قبضت على ذراع ليلو هرعت به إلى مونا ليزا قائلة بنصف نشيج، وبصوت عال صمّ أذن العجوز –

" أوه، ليزا، إنك للعينة! لماذا لا تجلسين إلا وظهرك للباب؟ لقد هرب ليلو حتى وصل إلى الشارع ".

" يا عذراء! " قالت مونا ليزا بصوتها الخشن الوديع تاركة الملعقة تسقط من يديها:" أين كنتِ، عندئذ؟ لقد حسبت أنك كنت هناك، وأن عينك عليه؟ "

قالت تيسا، متشكية مغضبة: " لكنك تعلمين أنني أغفو عندما أهدهد " .

قالت مونا ليزا: " حسن، حسن، يجب أن نبقي على الباب الخارجي مغلقاً، أونربطه، إذ أنه بدأ يتعفرت كإبليس، وتلك هي الحقيقة المقدسة. لكنه كيف أفلح في العودة، إذن؟"

أعاد هذا السؤال شعور تيسّا بوجود روମولا. ودون أن تجيب استدارت نحوها متضرجة الوجنتين وحيية من جديد، ولاحقت عينا مونا ليزا تحركها. بادرت المرأة العجوز بإيماءة احترام، وقالت –

" دون ريب لقد أعادته السيدة المبجلة المحترمة "، ثم أضافت وهي تقترب أكثر من رومولا: " يا لعاري إذ وُجد عارياً إلا من قميصه.

لكنه ضرب برجليه وأبى أن يرتدي ثيابه الأخرى هذا الصباح، وأمه، الفقيرة المسكينة، تأبى مطلقاً أن تعاقبه بالضرب. لكن ما الذي تستطيع عجوز أن تفعله دون عصا عندما تقوى منه الساقان؟ فلتلق سيادتك نظرة على ساقيه".

وإذ استشعر ليلو أن ساقيه كانتا مدار البحث، قام برفع قميصه قليلاً للأعلى، ونظر لأسفل إلى تكوّرهما الزيتوني بصورة فضولية هادئة. ضحكت رومولا، وانحنت لتهزه مداعبة ولتقبله، وقد ساعد هذا الفعل في التطمين الذي تجمّع لدى تيسا من مخاطبة مونا ليزا لرومولا. ذلك أنه عندما أعلم نالدو[*] بالمغامرة في الكرنفال، وكانت تيسا قد سألته من كانت، يا ترى، تلك السيدة الإلهية التي أتت في اللحظة المناسبة تماماً، واختفت بسرعة فائقة، – وما إذا كانت هي العذراء بشخصها؟ – أجاب، " ليس تماماً، يا عزيزتي تيسا، مجرد واحدة من القديسات "، ولم يشأ أن يقول المزيد. حتى أنه في ذلك التجميع الأشبه بالحلم الذي صاغ الخبرة التي شكلت قوام تفكير تيسا بقيت رومولا مرتبطة على نحو مشوش بالصور في الكنائس، وعندما ظهرت ثانية اصطبغت الذكرى الحميدة، ذكرى حمايتها ورعايتها، قليلاً بالمهابة الدينية – ليس بشكل عميق، ذلك أن ذعر تيسا كان بالدرجة الأولى من الكائنات الكريهة الشريرة. وقد بدا من غير المحتمل أن تغضب الكائنات الخيّرة منها وتعاقبها، كما هو متأصل في طبيعة نوفري

(*) أي تيتو (م)

والشيطان. والآن بعد أن تكلمت مونا ليزا بحرية عن ساقي ليلو وروملا ضحكت، فقد زايل تيسا كل حرج.

قالت: " نينا في السرير. إنها جميلة أيضاً ".

ذهبت روملا لتلقي نظرة على نينا النائمة، وعادت مونا ليزا، إحدى الصمّات الوديعات على نحو استثنائي التي لا تتوقع أن يبادرها أحد بالحديث، إلى إعدادها للسَلَطة.

قالت روملا: " آه! إنها تستيقظ: لقد فتحت عينيها الزرقاوين. يجب أن ترفعيها من سريرها، وأنا سأجلس على هذه الكرسي – أتسمحين؟ – وأرعى ليلو. تعال، يا ليلو! "

جلست على كرسي تيتو وفتحت ذراعيها للولد الذي تعقبها بنظراته. تردد: وإذ أومأ إليها بأصابعه الصغيرة بشعور هو مزيج من الحيرة والغضب قال: " تلك كرسي بابو " دون أن يرى مخرجاً له من المشكلة فيما لو أتى بابو ووجد روملا وقد احتلت مجلسه.

" لكن بابو ليس هنا، وأنا سأنصرف في الحال. هيا، دعني أرعك كما يفعل هو "، قالت روملا متسائلة في سرها للمرة الأولى أي نوع من بابو ذاك الذي كان زيّ زوجته زيّ فتاة ريفية، لكن شكلها يوحي ببعض الأناقة التي تشير إلى التبطّل والوفرة. ارتضى ليلو أن يُرفع، وإذ وجد الحضن مريحاً للغاية، شرع يستكشف فستانها ويديها ليرى ما إذا كان هناك أية زينة إلى جانب السبحة.

أما تيسا، التي كانت حتى الآن منشغلة بملاطفة نينا لتخلصها من نزقها المرافق للاستيقاظ فقد جلست في هذه الأثناء في كرسيها

الواطئ، قرب ركبة رومولا، ترتب هندام نينا الصغيرة كما يليق، تشعر بالغيرة إذ أن السيدة الغريبة قد بدت أيضاً تولي اهتماماً كبيراً للولد دون سواه، كما فعل نالدو.

" كان ليلو سيغضب مني لأني جلست في كرسي بابو "، قالت رومولا، وهي تتحنى لتقبل قدم نينا الصغيرة. وأضافت: " هل سيأتي عما قريب ويحتاجها؟ "

قالت تيسا: " آه، لا! يمكنك الجلوس عليها لفترة طويلة. سأحزن لرحيلك. عندما أتيت أول مرة لتشمليني برعايتك في الكرنفال، خلت أن الأمر كان رائعاً. لقد أتيتِ ومضيتِ ثانية بسرعة فائقة. ونالدو قال، لربما أنت قديسة، وذاك جعلني أرتجف قليلاً، بالرغم من أن القديسين طيبون جداً، أنا متأكدة. وأنت كنت طيبة معي، وها أنت الآن تشملين صغيري ليلو برعايتك. لعلك تأتين دوماً وتشمليني برعايتك. ذاك ما فعله نالدو منذ فترة طويلة. فقد أتى وتولاني برعايته عندما كنت خائفة، يوم عيد سان جيوفاني. لم أتمكن من معرفة الجهة التي قدم منها – كان فائق الجمال والطيبة. شأنك أنت ". ختمت تيسا حديثها وهي ترفع بصرها إلى رومولا بإعجاب قدسي.

" نالدو زوجك. عيناه مثل عيني ليلو "، قالت رومولا وهي تنظر إلى حاجبي الولد الأسودين الرفيعين، ما هو غير معهود في مثل سنه. لم تتحدث بطريقة استفهامية، بل بوثوق هادئ من استنتاج كان بالضرورة ملتبساً على تيسا.

قالت متوقفة قليلاً في حيرة ودهشة: " آه! أنت تعرفينه! لعلك

تعرفين نوفري وبيريتولا، وبيتنا على الهضبة، وكل شيء. أجل، مثل عيني ليلو، لكن ليس مثل شعره. فشعره أدكن وطويل – " تابعت حديثها بنوع من الحماس " آه! إذا كنت تعرفين ذلك، إكو ! "

كانت قد وضعت يدها على حبل حريري رفيع أحمر تدلى حول جيدها، وسحبت من صدرها الرقّ الصغير العتيق Breve، وقرن المرجان الأحمر، وخصلة سوداء طويلة مربوطة بعناية من أحد طرفيها ومعلقة بتلك النفائس الغامضة. أدارتها نحو رومولا بعيداً عن يد نينا التي تختطف الأشياء.

" إنها حديثة العهد. لقد قصصتها مؤخراً. أترين كم هي برّاقة! " قالت وهي تضعها على الخلفية البيضاء لأصابع رومولا. " إنها تفقد بريقها مع الوقت، عندئذ يدعني أقص غيرها عندما ينمو شعره. وأضعها مع قطعة الرق الـ Breve لأنه يتغيب أحياناً لمدة طويلة، وعندها أعتقد أنها تساعد في حمايتي ورعايتي ".

اعترت رومولا رعشة خفيفة عندما بُسطت الخصلة على أصابعها. عندما ذكرت تيسا أول ما ذكرت زوجها، وأنه أتى بصورة غامضة لا تعلم من أية جهة، برز أمام رومولا احتمال جعل دقات قلبها تتسارع. ذلك أن التلميحات الواهية جداً، لمن يبحث بقلق عن شيء ما، يكون لها دلالتها الخاصة. وعندما أديرت الخصلة نحوها بدت للحظة مثل شَبَه طيف وهمي يسخر من الخصلة التي اقتطعتها هي لتربطها مع خصلة من خصلات شعرها لخمس سنوات خلت. لكنها حافظت على مظهرها الهادئ، وهي عازمة ليس على معرفة

الحقيقة فحسب، بل الوصول أيضاً إلى تلك المعرفة بطريقة لا تؤلم هذه المخلوقة المسكينة، الجاهلة التي تضع ثقتها بالآخرين، ذات عقل الطفل في إهاب امرأة. " حمقاء وعاجزة " أجل. حتى الآن لقد تطابقت مع وصف بالداسار.

قالت مقاومة الدافع لسحب يدها: " إنها خصلة جميلة. خصلات ليلو ستشابهها، ربما، ذلك أن وجنته(تشديد على الضمير)هي أيضاً دكناء. وأنت لا تعرفين مطلقاً إلى أين يذهب زوجك عندما ينصرف عنك؟ "

" لا "، قالت تيسا، مبعدة نفائسها عن متناول الطفلين، وأضافت: " لكنني أعرف أن السيد سان ميشيل (1) يتولاه بعنايته، ذلك لأنه أعطاه سترة جميلة مصنوعة كلها من الزرد الصغير. وإذا ما ارتدى تلك السترة فلن يقوى أحد على قتله. ولربما، إذا – " ترددت تيسا قليلاً مع عودة صورة الدهشة الحلمية الأولى التي كوّنتها عن رومولا التي توارت عن طريق اتصال الدردشة – " لو أنك(تشديد على الضمير) قديسة، لتوليته برعايتك، أيضاً، لأنك اعتنيت بي وبليلو ".

تضرّج وجه رومولا بفعل الهلع والاضطراب في اللحظة الأولى للتأكّد الذي حصل، لكنها كانت قرّبت وجنتها من رأس ليلو. وقد كان الشعور الذي ظهر للعيان في غمرة ذلك التضرّج المفاجئ شيئاً أشبه بالابتهاج للفكرة التي راودتها وهي أن عبء الزوجة قد يكون على وشك الانزياح عن كتفيها المثقلتين بالأحمال، وأن هذه المخلوقة الصغيرة الجاهلة قد يثبت أنها زوجة تيتو الشرعية. ابتهاج غريب آلت

إليه امرأة أبية رفيعة النسب! لكن بدا لرومولا وكأن تلك هي القضية الوحيدة التي ستحيل الواجب بالنسبة إليها أي شيء آخر مغاير لمشكلة عصية على الحل. لكنها لم تكن تصم أذنيها عن كلمات تيسا الأخيرة المتضرعة. رفعت رأسها، وقالت، بأوضح الأصوات لديها –

" سأتولاك دائماً برعايتي إذا رأيتُ أنك بحاجة لي. لكن تلك السترة الجميلة؟ لم يرتدها زوجك عند أول زواجكما؟ ربما كان من عادته ألا يتغيب عنك طويلاً آنئذ؟ "

" آه، أجل ! لقد تغيب. مدة أطول بكثير – بكثير. طويلاً جداً حتى اعتقدت أنه لن يعود أبداً. كنت أبكي. أوه يا إلهي! عوقبت بالضرب حينذاك. منذ فترة بعيدة جداً في بيريتولا، حيث كان لدينا الماعز والبغال ".

قالت رومولا، وضربات قلبها تتسارع أكثر فأكثر : " وكم مضى على زواجكما قبل أن يضع زوجك تلك السترة من الزرد؟ "

بدت تيسا كمن يحاول التذكّر، وبدأت تعد على أصابعها، ورومولا راقبت الأصابع كما لو أنها كانت ستتنبئ بسرّ قدَرِها.

قالت تيسا، وهي تعد على إبهامها وأصابعها مرة أخرى: " كان أوان نضوج الكستناء يوم تزوجنا، ثم جاء موسم النضج الثاني في بيريتولا قبل أن يعود، ومن ثمّ مرة أخرى، عقب ذلك، على التل. وسرعان ما أتى الجنود، وسمعنا صوت الأبواق، ومن ثم وضع نالدو السترة ".

" لقد تزوجت لأكثر من سنتين. وفي أية كنيسة تزوجتما؟ "

قالت رومولا وقد استغرقتها كلية فكرة واحدة الأمر الذي حال دون أن تسأل سؤالاً أقل مباشرة من هذا. ربما قبل صباح الغد تذهب إلى عرّابها وتقول إنها لم تكن زوجة تيتو ميليما الشرعية – وأن العهود المقطوعة التي ألزمتها بأن تجاهد سعياً وراء اتحاد مستحيل قد ثبت بطلانها من قبل.

ندّت عن تيسا رجفة خفيفة للهجة الاستفسار الجديدة التي شابت كلام رومولا، ورفعت بصرها إليها وعليها سيماء التردد. حتى الآن كانت تهذر بلا انقطاع دون وعي منها بأنها كانت تكشف أسراراً، مثلما كانت تعيد قول الأشياء القديمة كرة تلو الأخرى على مسامع مونا ليزا.

قالت بريبة: " قال نالدو إنه يجب ألا أفصح عن هذا الشيء أبداً. أتعتقدين أنه لن يغضب إذا ما أخبرتك؟ "

قالت رومولا، وهي تنظر إليها بسلطوية معتدلة: " إنه عين الصواب أن تخبريني. قولي لي كل شيء ".

لو كان الانطباع المتأتي عن الأمر الذي أصدره نالدو أحدث عهداً بكثير مما هو لتغلب عليه التأثير المقيّد الذي اتسمت به سلطة رومولا الغامضة. لكن الإحساس بأنها كانت تفشي ما لم تفشه قط من قبل جعلها تبدأ بصوت مخفّض النبرة.

" لم يكن ذلك في كنيسة – كان في يوم الميلاد، عندما كان هناك معرض، وذهب الجميع ليلاً لمشاهدة العذراء في كنيسة Nunziata، وأمي كانت مريضة ولم تتمكن من الذهاب، وأنا أخذت

عنقود الشرانق عنها، ومن ثمّ جاء إلي في الكنيسة وأنا سمعته يقول، " تيسا! " عرفته لأنه اعتنى بي يوم عيد سان جيوفاني، ومن ثم دخلنا الساحة حيث كان العرض، وأنا كان معي بعض فطائر ال berlingozzi، ذلك لأني كنت جائعة وكان لطيفاً معي. وفي طرف الساحة كان هناك كاهن قدسي، ومذبح مثل ما يحملونه معهم في المواكب خارج الكنائس. وهكذا زوّجنا، ثم أعادني نالدو إلى الكنيسة وتركني. وأنا عدت إلى البيت، وأمي توفيت، وبدأ نوفري يمعن في ضربي، ولم يأت نالدو قط. وكنت أبكي، ومرة في الكرنفال شاهدته وتبعته، وقد غضب مني، وقال إنه سيأتي يوماً ما، وعليّ أن أنتظر. لذلك ذهبت وانتظرت، لكن، أوه! مضى وقت طويل قبل أن يأتي. لكنه كان سيأتي لو استطاع، ذلك لأنه كان طيباً. ثم أخذني بعيداً لأنني بكيت وقلت إنه من الصعب علي تحمل الإقامة مع نوفري. و، أوه! كنت في غاية السرور، ومنذئذ لم تفارقني السعادة قط، ذلك أني لست أبالي بالماعز والبغال، لأن لدي الآن ليلو ونينا. ونالدو لا يغضب أبداً، فقط يحدوني الاعتقاد أنه لا يحب نينا بالقدر الذي يحب ليلو، وهي جميلة حقاً ".

وإذ نسيت أنها اعتقدت أن كلامها كان خطيراً جداً في المبتدأ، فقد شرعت تيسا بإغراق نينا بقبلاتها، بينما جلست رومولا صامتة وعيناها شاردتان. كان لا مفر من أن تفكر في هذه اللحظة بالمخلوقات الثلاثة أمامها بشكل أساسي من حيث علاقة هذه المخلوقات بقسمتها هي، وكانت تشعر بقشعريرة خيبة الأمل من أن

مصاعبها القائمة لم تكن لتحل بقانون خارجي. أرخت قبضتها عن ليلو، وكانت تسند وجنتها على يدها، لا ترى شيئاً من المشهد حولها. استشعر ليلو سريعاً تبدلاً لم يكن راضياً عنه. لم يقم حتى الآن بأية استجابة لمداعباتها، لكنه كان يمانع في سحب هذه المداعبات، وبعد أن بسط كلتا ذراعيه السمراوين ليجذب رأسها نحوه، قال " لاعبيني ثانية!"

ضمت رومولا التي انتبهت من استغراقها الذاتي، الولد من جديد، ونقّلت نظرتها منه إلى تيسا، التي توقفت الآن عن سيل قبلاتها، وبدت أنها عادت للمتعة الأكثر هدوءاً المتمثلة في تأمل وجه السيدة الملائكي. كان يعتري ذلك الوجه تبدّل خفي، مثل الحلول التدريجي لنور أكثر دفئاً ورُخاءً. وفي الحال تناولت رومولا مقصها من محفظتها وقصت واحدة من خصلاتها الطويلة المتموجة، بينما تابعت الأزواج الثلاثة من الأعين المتسعة الحدقات حركاتها راصدة إياها كرصد قطيطة صغيرة.

قالت: " يجب أن أتركك الآن، لكني سأترك خصلة الشعر هذه علّها تذكّرك بي لأنك إن كنت يوماً في ضائقة فبوسعك الاعتقاد بأن الله قد يرسلني لرعايتك ثانية. لا يمكنني أن أخبرك أين تجديني، لكن إذا ما علمت يوماً أنك بحاجة لي سآتي إليك. وداعاً ".

أنزلت ليلو على عجل، ومدت يدها لتيسا التي قبّلتها بمزيج من الخشية والأسى لهذا الفراق. كان ذهن رومولا مضنى من التفكير. كانت بحاجة لتتفرد بنفسها بأسرع ما يمكن، لكن بما تعوّدت عليه من

رعاية منكودي الحظ استدارت جانباً لتضع يدها بطريقة متوددة على كتف مونا ليزا وترسم لها إشارة وداعية. وقبل أن تنتهي المرأة العجوز من عميق توقيرها كانت رومولا قد توارت عن الأنظار.

تحركت مونا ليزا وتيسا نحو بعضهما بدوافع متزامنة بينما لبث الطفلان يتشبثان بحاشية فستان أمهما كما لو أنهما، بدورهما، كانا يشعران بجو الرهبة المحيط بهما.

همست تيسا في أذن ليزا وهي تريها الخصلة: " هل تعتقدين أنها قديسة حقاً؟ "

رفضت ليزا الفكرة بعزم وتصميم بردّ أصابعها للخلف، ومن ثم قالت وهي تمسّد تموّجات الذهب في الخصلة: " إنها سيدة عظيمة ونبيلة. لقد رأيت شبهها في شبابي ".

مضت رومولا إلى البيت وجلست وحدها خلل الساعات الشديدة الحرارة لذاك اليوم وهي تنوء بحمل حقيقة مؤكدة ثقيلة مفادها أن قسمتها لم تتبدل. لقد رُدّت ثانية إلى الصراع بين المطالب التي فرضها قانون خارجي، والتي ميّزتها على أنها التزامات واسعة التشعب، ومطالب حقائق أخلاقية داخلية كانت تنحو شيئاً فشيئاً نحو اتخاذ صفة الحسم النهائي. لقد تشرّبت بعمق روح تلك التعاليم التي كان سافونا رولا قد حثّها بموجبها على العودة إلى موقعها. شعرت أن القدسية المرتبطة بكل العلاقات الحميمية، وبالتالي، على نحومتميز بالأكثر حميمية، لم تكن سوى التعبير في صورة قانون خارجي عن تلك النتيجة التي يجب أن تنحو إليها كل طيبة ونبل بشري تلقائياً. وأن التخلي

الخفيف عن الروابط، الموروثة منها أو الإرادية، لأنها كفّت عن أن تكون سارّة، لهو اجتثاث للفضيلة الاجتماعية والشخصية. ما الذي كانته الجريمة التي اقترفها تيتو بحق بالداسار سوى التخلّي المترجم إلى أبشع صور الزيف ونكران الجميل؟

وقد رفع شعور الاستلهام الذي بثّه بداخلها تأثير سافونا رولا بأن قسمتها كانت متوحدة بصورة جوهرية بالقسمة العامة، رفع من مقام حتى التفاصيل الصغيرة للالتزام إلى المرتبة الدينية. كانت تسير بمواكبة جيش لجب. كانت تشعر بالشدة الضاغطة للحياة العامة. وإذا دعت الحاجة لضحايا، ولم يكن مؤكداً على من ستقع القرعة، فإنها ستقف متأهبة دفاعاً عن سمعتها. لقد صمدت طويلاً. لقد جاهدت كثيراً تلبية لنداء الرباط، لكنها شاهدت كل الشروط التي جعلت من التلبية أمراً ممكناً تزايلها بشكل تدريجي. وقد بدا أن النتيجة الوحيدة لرباط الزواج عندها تتمثل في الهيمنة الخانقة، هيمنة جاءت من طبيعة تحتقرها. وكل مجهوداتها لتحقيق الاتحاد إنما جعلت استحالته أكثر ملموسية، والعلاقة أصبحت بالنسبة إليها ببساطة عبودية مهينة. القانون مقدس. أجل، لكن التمرد قد يكون مقدساً بدوره. وقد برق في ذهنها فجأة أن المعضلة التي تعترضها كانت في جوهرها عين تلك التي اعترضت سافونا رولا – المعضلة التي تنتهي عندها قدسية الطاعة، وتبدأ عندها قدسية التمرد. بالنسبة لها، كما بالنسبة له، لقد أزفت واحدة من تلك اللحظات في الحياة التي يجب على الروح عندها أن تتجرأ على الفعل بإجازة من لدنها، ليس فقط دون التماس قانون

خارجي، لكن في وجه قانون ليس أعزل من سلاح النورانية الإلهية – نورانية قد تسقط رغم ذلك إذا كانت الإجازة غير صادقة.

قبل أن تأوي الشمس إلى خدرها كانت قد اتخذت قراراً. لن تطلب مشورة عرّابها أو مشورة سافونا رولا إلى أن تتخذ إجراءً واحداً يتسم بالعزم والتصميم وهو التحدث بكل حرية مع تيتو والحصول على موافقته بأنها يجب أن تعيش بمعزل عنه. كانت ترغب في ألا تهجره سرّاً مرة أخرى، أو أن تهجر فلورانسة. عزمت أن تقول له إنه إذا شعر يوماً بحاجة حقيقية لها فإنها ستعود إليه. ألم يكن ذاك أقصى الوفاء تجاه رباطها مما هو مطلوب منها؟ اعتراها توقع راعش مخافة أن يعبّر عن رفضه بإيحاء تهكمي بأنها يجب أن تدخل ديراً حيث إن تلك هي الطريقة الوحيدة لهجرانه التي لا تنطوي على أية فضيحة. كان يعرف جيداً أن عقلها قد ينفر من وسيلة الهروب تلك، ليس بسبب كرهها لقانون ضيق فحسب، بل لأن كل ذكريات والدها العزيزة على قلبها تمنعها من تبنّي طريقة حياة مرتبطة بأعمق أحزانه وأكثر صور الكره مرارة لديه.

كان تيتو قد أفصح عن نيته بالقدوم إلى البيت هذا المساء. ستنتظره، وتقول ما يجب عليها أن تقول في الحال، ذلك أنه كان من الصعب حمله على الإصغاء إليها أثناء النهار. وإذا كان لديه أدنى شك بأن كلمات شخصية كانت بانتظاره فإنه سينسلّ متخذاً سيماء من لم يتكلّف ذلك إطلاقاً. وعندما أرسلت في طلب ماسو لتخبره بأنها ستنتظر سيده لاحظت أن العجوز كان ينظر إليها ويتباطأ بمزيج من

التردد والقلق الحائر. لكنه عندما وجد أنها لم تطرح عليه مزيداً من الأسئلة استدار مبتعداً ببطء. ولمَ ينبغي عليها أن تسأل؟ ربما ماسو وحده عرف أو حزر شيئاً مما سبق لها معرفته.

لم يأت تيتو إلا في ساعة متأخرة. كانت رومولا تذرع بخطواتها الغرفة الطويلة، التي كانت فيما مضى المكتبة، وكانت النوافذ مفتوحة، وعليها ثوبها الأبيض من الكتان بدلاً من ثوبها الأسود المعتاد. كانت مسرورة لهذا التبدل بعد ساعات الحرارة الطويلة والتأمل الصامت، لكن البرودة والحركة جعلاها متيقّظة بشكل أكبر، وعندما مضت والمصباح في يدها لتفتح الباب لتيتو،كان يمكن أن يحسّ بالرعدة تعتريه لاتقّاد عينيها وسيماء العزم المشوب بالألم الذي بدا عليها، والذي كان متبايناً مع الهدوء المتسم برباطة الجأش كما تعودت أن تظهر عندما كانت تقف أمامه. لكن هذا الانفعال بدا أنه عين الشيء الذي توقعه.

" آه! هذا أنت، يا رومولا. لقد ذهب ماسو لينام "، قال بصوت هادئ رصين متدخلاً ليغلق الباب نيابة عنها. ثم قال وهو يستدير وينظر إليها بشكل مباشر على غير عادته: " لقد سمعت كل شيء، على ما أرى ".

أصابت رومولا الرعدة. إذن كان هو(مشددة) ميالاً ليأخذ زمام المبادرة. كان ذهب إلى تيسا. مشت أمامه عبر أقرب باب، ووضعت مصباحها، والتفتت إليه ثانية.

" يجب ألا تفكري دون أمل بالنتائج " قال تيتو، بصوت يتسم

بالتشـجيع المطمـئن، مـا جعـل رومـولا تقـف دَهِشـة محتـارة، إلـى أن أضاف: " لدى المتهمين الكثير من الروابط العائلية مع كل الأحزاب، ما لا تدعو الحاجة معه للهرب، والسيد برناردو ديل نيرو لديه أشياء أخرى لصالحه إضافة لسنّه ".

اعترت رومولا جفلة، وأطلقت صرخة كما لو أنها ضربت على حين غرّة بسلاح حاد.

" ماذا! لم تعلمي بذلك؟ " قال تيتو واضعاً يده تحت ذراعها كـي يقودهـا إلـى مقعـد تجلـس عليـه، لكنهـا بـدت عديمـة الإحسـاس بلمسته.

قالت على عجل: " قل لي، قل لي ما الأمر ".

" رجل يمكن أن تكوني نسيت اسمه – لامبرتو ديل أنتيلا (2) –وكان قد نفي، تم القبض عليه داخل البلد: وقد وجدت معه رسالة على درجة كبيرة من الخطورة موجهة إلى كبار الميديتشيين، والوغد، والذي كان يوماً كلباً سلوقياً أثيراً لدى بييرو دي ميديتشي، هو جاهز الآن ليقسم على ما يحلو لأي كان، سواء ضده أو ضد أصدقائه. بعضهم فرّ، لكن قبض على خمسة منهم وأودعوا السجن ".

"عرّابي؟ " قالت رومولا بصوت لا يكاد يعلو عن الهمس، بينما توقف تيتوعن الكلام لبرهة قصيرة.

" أجل: يحزنني أن أقول ذلك. لكن إلى جانبه هنالك ثلاثة، على الأقل، لأسمائهم أهمية كبيرة حتى وسط الحزب الشعبي – نيقولو ريدولفي، لورينز تورنابوني، جيانوتزو بوتشي ".

اتجـه تيـار مشـاعر رومـولا بصـورة عنيفـة متجهـاً آخـر. ففـي فوضـى تلك اللحظة لن يكون هناك من رادع للكلمات التـي أتت كتلفظ انفعـالي لـذعرها المتراكم منـذ زمـن. وعنـدما سـمّى تيتـو الرجـال الـذين كانت علـى ثقة أنـه كان شريكهم قالت بإشارة تراجعية ومرارة منخفضـة النبرة –

" وأنت (مشددة)– أنت بأمان؟ "

قـال تيتـو، بـأكثر مـا هنالـك مـن تـهكـم بـارد: " أنـت دون ريـب زوجة لطيفة، يا عزيزتي رومولا . أجل، أنا بخير ".

انفضّا عن بعضهما بهدوء وصمت.

الفصل السابع والخمسون

لماذا كان تيتو بمأمن

كان لدى تيتو من الأسباب الوجيهة ما حداه للقول إنه بمأمن. فـي الأشـهر الثلاثـة الأخيـرة التـي تنبـأ أثنـاءهـا باكتشـاف المتـآمرين الميديتشيين كحدث محتمل الوقوع كـان لديـه متسـع مـن الوقت ليـزود نفسه بما يوفّر له القدرة وسعة الحيلة. كان قد أخذ يدعّم نفوذه في روما وفـي ميلانـو عـن طريـق كونـه واسـطة المعلومـات السـرية والإجـراءات غير المباشرة المتخذة بحق الأخ الراهب والحزب الشعبي. وقد استثمر بمثـابرة أكبـر مـن ذي قبـل الاعتبـار الـذي تمتـع بـه هـذا الحـزب، عـن طريـق إبدائـه دلـيلاً ذكيـاً بـأن معتقداتـه السياسـية كانـت إلـى جـانبهم بالكامل. وطوال تلك الفترة، وبدلاً من سحب عمالته من الميديتشيين،

سعى إلى أن يكون موضع استخدامهم الفعال وثقتهم الكاملة. وكان سهلاً عليه أن يحافظ على هذه اللعبة المثلثة. فقد حرم مبدأ الازدواجية الذي أقرّه الميديتشيون لمصلحتهم الخاصة حرمهم من أي معيار يمكن لهم بوساطته أن يقيسوا أمانة زميل لم يكن لديه، كما كان شأنهم، مصالح، وتحالفات وأهواء وراثية، والتي هي ميديتشية صرفة. فحسب وجهة نظرهم كان خداع الحزب المناوئ لعبة عادلة. وخداع حزبهم هم كان نذالة لم تستهوهم بأي قدر. وباستعمالهم مقدرة تيتو المطواعة لم يكونوا يفطنون تماماً لحقيقة أن انتفاء الروابط التقليدية التي جعلت منه عميلاً ملائماً قد شكّل أيضاً انتفاءً لما كان في أوساطهم ضمانة رئيسة للشرف المتبادل. مرة أخرى، مارس الأصدقاء من روما وميلانو من الحزب الأرستقراطي، أو الأرابياتي، الذين كانوا من ألد أعداء سافونا رولا نظام المراسلة السرية والتجسس والذي شكل فيه الإيغال في النفاق أفضل خدمة، وتطلب أبهظ الأجور، بحيث سيكون الاشتباه بعميل لأنه لعب دوراً ما بقوة وفاعلية عوزاً سخيفاً في المنطق. ومن ناحية أخرى، كان البيانونيون Piagnoni من الحزب الشعبي، الذين اتصفوا بالمباشرة التي تعود للاعتقاد الراسخ، ميالين أكثر لمحض تيتو ثقتهم لإخلاصه في التزامه السياسي تجاههم لأنه لم يتكلّف أية ميول تعاطفية دينية (1).

بفضل هذه الشروط شكّلت ثلاثة الأشهر الأخيرة نجاحاً أتى في صالح تيتو. وكانت النتيجة التي حرص كل الحرص عليها تأمين موقع مستقبلي لنفسه في روما أو في ميلانو، ذلك لأنه كان يتوفّر

على تصميم متنام بأن يغادر فلورانسة، عندما تحين اللحظة الملائمة، قاصداً إحدى تلك الحواضر الكبرى حيث الحياة أسهل، ومكافآت الموهبة والعلم أكثر فتنة. وفي الوقت الحاضر شال الميزان لصالح ميلانو، وإذا خلال عام أمكنه أن يقدم بعض الخدمات للدوق لودوفيكو سفورتزا فسيكون لديه أمل بموقع في البلاط في ميلانو، ما يفوق المزايا التي ستتوافر له في روما.

وعليه فإن كشف مؤامرة آل ميديتشي قد شكل موضوعاً للتدبّر بالنسبة لتيتو، لكنه لم يكن قادراً على استشراف الطريقة التي سيتبلور فيها. وقد شكل القبض على لامبيرتو ديل أنتيلا ومعه رسالة تشي بشخصه، وضغينة مرة ضد آل ميديتشي في دخيلته، حادثة لم تكن بالحسبان. لم يكن ممكناً، بالرغم من الذرائع الدقيقة التي صانت عمالته ووقتها، أن يفلت تيتو من التورط: لم يتوقع هذا قط في حال حدوث أي انكشاف كبير للمكائد الميديتشية. لكن سرعان ما تبيّن لعقله اليقظ المسار الذي سيؤمن سلامته الشخصية بأقل ما يمكن من الإزعاجات المرافقة. إنه لأمر سار أن يحافظ المرء على كامل جلده، لكن الجلد يبقى عضواً حساساً للجو الخارجي.

لم يخدعه حدسه. فتلك الليلة، قبل عودته إلى البيت، كان أمّن النتائج الثلاث التي حرص عليها أشد الحرص: سيكون بمنأى عن كل الإجراءات المتخذه ضده بسبب التواطؤ مع الميديتشيين، وسيحتفظ بسكرتيريته لعام آخر، ما لم يستقل منها مسبقاً، وأخيراً السعر الذي حاز بموجبه على هذه الضمانات الثلاثة كان سيبقى سراً من أسرار

الدولة. ولربما رأى معظم الناس السعر فادحاً، وكان تيتو نفسه يفضل لو أنه لم يدفعه .

كان قد تقدم أولاً لكسب رأي فرانشيسكو فالوري، والذي لم يكن فقط واحداً من العشرة الذين كانوا الرؤساء المباشرين له في عمله، بل واحداً من أعضاء المجلس الخاص المعينين للتحقيق في الأدلة على المؤامرة. كان فرانشيسكو فالوري، كما مر بنا، رئيس البيانونيين، رجلاً يتحلّى ببعض الصفات المحببة التي لم تكن غير متلائمة مع الممالأة الحزبية العنيفة، ومع طبع متعجرف جعل أصدقاءه ينؤون عنه، ولا مع عداوات شخصية مريرة – وأكثر هذه العداوات مرارة كانت موجّهة ضد برناردو ديل نيرو. وفي مقابلة خاصة قصيرة، بعد الحصول على وعد بالسرية، أقر تيتو أمامه بعمالته للميديتشيين – عمالة دفعته إليها تلك الدوافع التي كان جد صريح بشأنها، معلناً في الوقت نفسه أنه كان دائماً يعتقد أن مجهوداتهم كانت من دون طائل، وأنه كان يؤثر بكل صدق دوام الحكومة الشعبية، وتظاهر بأنه أسرّ لفالوري بكرهه الشخصي لبرناردو ديل نيرو . وبعد هذا التحضير أتى إلى المقولة الهامة ومفادها أن هناك مؤامرة ميديتشية أخرى، كان باستطاعته، إذا قام بسفرة إلى سيينا وداخل رومانا، حيث كان بييرو دي ميديتشي يحاول مرة أخرى تجميع القوات، أن يحصل على دليل موثق يضعه أمام المجلس. ولهذه الغاية كان أمراً حيوياً ألا تتزعزع شخصيته كعميل ميديتشي أمام كل الميديتشيين، وبالتالي وجوب أن تغلّف حقيقة أنه كان المصدر الذي يزوّد السلطات بالمعلومات بسرية تامة. ومع ذلك،

فقد تتسرب بعض روائح الحقائق برغم الاحتياطات المتخذة، وقبل أن يجلب تيتو لنفسه العواقب السيئة الناجمة عن العمل ضد أصدقائه، يجب أن يطمئن للحصانة من أي مقاضاة باعتباره ميديتشياً، ومن الحرمان من المنصب لسنة قادمة.

هذه الفرضيات لم تقع على مسامع فرانشيسكو فالوري تماماً كما تقع على مسامعنا. لم يكن تفكير فالوري يتركّز بشدة على تقديره لتصرف تيتو، حيث أنه كان بالفعل مركزاً تركيزاً تاماً على الحصول على حكم قاس بحق السجناء الخمسة. وبالتأكيد ستبذل جهود مضنية لإنقاذهم. وكان المؤمّل (على أسس شعبية) أن يكون الدليل ضدهم من أقوى الأدلّة، وذلك لتحذير كل الناس الذين تطالهم القضية بتأثيرها من مخاطر الرأفة. وقد كانت طبيعة الإجراءات القانونية آنئذ تعني أن الدليل هو من بين الأشياء المرغوبة والتي لا يمكن الوصول إليها إلا بطرق ملتوية. وأن يلقى القبض على بضعة أشخاص ويعذبوا كيما يعترفوا بذنب كل شخص كان سيشكل خطوة باتجاه العدالة. ولم يكن دائماً سهلاً رؤية الخطوة التالية ما لم يظهر فجأة خائن ما. هذا، وقد عُذّب لامبيرتو ديل أنتيلا دعماً لرغبته السابقة لقول أكثر مما يعرف. ومع ذلك، فإن وقائع إضافية وأقوى كانت أمراً مرغوباً، وخاصة ضد برناردو ديل نيرو الذي، كما ظهر حتى الآن، قد امتنع ببساطة عن إفشاء المؤامرة الأخيرة بعد أن حاول عبثاً منعها. ذلك أن خير فلورانسة تطلّب أن يسلّط أقوى ضوء على جريرة برناردو ديل نيرو. وهذا ما كان فرانشيسكو فالوري يعتقده اعتقاداً جازماً، ولربما لم يكن هو نفسه

مدركاً أن كراهيته كانت وراء شدة حماسه. وقد صمم على أن فرضية تيتو ينبغي أن تُقبل، وتُبسط أمام زملائه دون أن يفصح عن اسم تيتو، وأن يتم كسب تأييدهم لرأيه. وفي ساعة متأخرة من اليوم سمح لتيتو أن يتكلم أمام المجلس الخاص، وقد تسبب في هياج عميق في أوساطهم عن طريق كشفه لمؤامرة أخرى تهدف لتأمين هيمنة بييرو دي ميديتشي على فلورانسة، والتي كانت ستوضع موضع التنفيذ في منتصف هذا الشهر بالذات، شهر آب. هذا وإن الأدلة المستندية عن هذا الموضوع ستجلو أكثر من أي شيء آخر المسار الصحيح. وقد تلقى مأمورية للانطلاق إلى سيينا عند الفجر. وإلى جانب هذا فقد حمل معه من غرفة المجلس ضمانة مكتوبة تضمن حصانته وبقاءه في منصبه.

بين العشرين فلورانسياً الذين صوبوا نظراتهم الرصينة إلى تيتو، بينما كان يقف أمامهم بكل كياسته، يتحدث عن أشياء مخيفة بإطناب سلس، وبذاك الاعتراف الظاهري غير المتكلف، بأنه كان مدفوعاً بدوافع لا ترقى إلى الأسمى، ما شكّل غالباً أشد أنواع التكلف حدّة، كان هناك عدة أشخاص لم تكن أفكارهم منصبّة كلية على إصدار حكم جديد بحقه في هذه الظروف المستجدة. وقد خلصوا بصمت إلى أن هذه اليوناني البارع والمستعد للخدمة سيستعمل في المستقبل للاحتياجات العامة أكثر منه للعلاقات الودية الخاصة. ولم يكن من لا مبدأ لديهم عديمي الفائدة، إذ أنهم يمكنون أولاء الذين تتزايد عندهم الشكوك من المحافظة على نظافة أيديهم التامة بشكل معقول في عالم يتوجب فيه إتيان الكثير من الأعمال القذرة. والحق أنه لم يكن

واضحاً بالنسبة لأصحاب الأدمغة الفلورانسية المحترمين – ما لم يكونوا من المؤمنين باعتقاد الراهب المغالي في تطرفه باحتمال وجود عفة وسمو يستحقان المجاهدة في سبيلهما على هذه الأرض– لم يكن واضحاً كيف ستستمر الحياة في أية دائرة بدون أدوات بشرية لن يكون طردها أوالبصق عليها أثناء تسليمها أتعابها بالأمر الشائن. وبعض هؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين أصدروا حكماً خفياً على تيتو كانوا سينخرطون عما قريب في عمل كبير لا يمكن إتمامه بأي شكل بدون استخدام قلّة ضمير راسخة كرسوخ قلة ضميره . لكن، كما قال لهم شاعرهم الألمعي بولتشي، محبة ثمار الخيانة شيء ومحبة الخونة شيء آخر –

"Il tradimento a molti piace assai,

Ma il traditore a gnun non piacque mai " (2)

المجتمع نفسه عنده مشنقة للقاتل ومشنقة للشهيد، هسيس لعنة للعمل الجبان، وهسيس لا يقل ارتفاعاً في النبرة لعديد الكلمات ذات الصدق الوافر أو البصيرة الحقة: حالة مختلطة للأشياء والتي هي إشارة، ليس إلى الفوضى الميؤوس منها، بل إلى النظام المكافح.

أما بالنسبة لتيتو نفسه، فلم يكن غافلاً عن أن اعتباره قد تراجع قليلاً في أعين الناس الذين قبلوا خدماته. فقد اتسم بذلك القدر من التأمل الذاتي الذي يواكب بالضرورة عادة القيام بعمل بناءً على أسباب مدروسة جيداً، من أي نوع كان. ولو كان باختياره لكان تفادى رؤية

نفسه موضع رفض أناس هذا الزمان. لم يقصد أبداً أن يكون في موضع الرفض، لقد قصد دائماً أن يتصرف بمقدرة وتمكُّن بحيث أنه إذا تصرف عكس معيار الآخرين فيجب ألا يشعروا بذلك. والحاجز بينه ورومولا قد نشأ بفعل استحالة مثل هذا التخفي معها. لقد انكمش أمام أحكام الإدانة كما أمام مناخ لم يستطع أن يتواءم معه. لكن الأمور ليست مطواعة جداً بين يدي الأذكياء بالشكل الذي يرغبون، وقد انجلت الأحداث على نحو غير مريح. والحق أنه لم يحمل ضغينة على السيد برناردو ديل نيرو، وكان يكنّ مودّة شخصية للورينزو تورنابوني وجيانوتزو بوتشي. لقد خدمهما باقتدار، وبطريقة يستحق معها، فيما لو فاز حزبهما، مكافأة مجزية. لكن هل ينبغي عليه أن يترك كل ثمار الحياة البهيجة لأن حزبهما قد فشل؟ وعرضه لدليل إضافي صغير ضدهما ربما لن يكون له أي تأثير على مصيرهما. والواقع أنه كان على يقين بأنهما سينجوان من أية عواقب خطيرة، لكنه إذا لم يقدمه فإن حظوظه، والتي تمخّضت عن نسيج واعد، كانت ستدمّر كلية (3). وأي شيء يمكن أن يشكّل الدافع لأي إنسان سوى مصلحته الشخصية؟ فالفلورانسيون الذين كانوا يتحمسون لمكائدهم السياسية التافهة والمحفوفة بالمخاطر قد لا يكون لديهم أية مصلحة شخصية بمعزل عن الكبرياء الأسروي والتمسك بالكراهيات والارتباطات القديمة. والساذج الحديث الذي يبتلع بالكامل أحد مناهج الفلسفة القديمة، ويحسب عسر الهضم الناجم أنه إشارات على دفق إلهي أو صوت مرشد داخلي، قد يرى مصلحته في شكل خيلاء ذاتي يدعوه فضيلة

ذاتية المكافأة. والمتعصبون الذين يؤمنون بالسعير والتجدد القادمين قد يرون مصلحتهم الخاصة في مقبل الأيام في سعفة نخيل ورداء أبيض: لكن ليس هناك من إنسان ذي بصيرة نيّرة يسمح بأن يتحدد مساره بمثل هذه الدوافع الصبيانية أو الاستيهامات الداخلية المشكوك فيها. ألم يلق بونتانوس (4)، الشاعر وفيلسوف اللاتينية الذي لا يضاهى، أروع خطبة ممكنة في نابولي ترحيباً بالملك الفرنسي، الذي أتى ليطيح بعرش الصديق الملكي والراعي للخطيب المثقف؟ ورغم ذلك فقد ركب بونتانوس رأسه وأفلح. الناس لا يأبهون حقاً بهذه الأشياء، إلا عندما يمُس حقدهم الشخصي. وليس هناك إلا الضعف موضع تحقير. أما القوة من أي نوع كان فتحمل معها حصانتها. وليس هناك من إنسان، إلا بفعل حظ نادر جداً، يمكنه أن يصعد في العالم إلى المعارج العليا بدون أن يتعرض لبضع ضرورات غير سارة تجعله عرضة للعداوات، ولربما عرضة لبعض الاستهجان، حين تحتاج العداوة إلى تعلّة (5)

لقد كان النذير الخفيف لذلك الاستهجان، الذي تجمّع لدى تيتو من بعض الدلائل عندما وقف أمام المجلس، ما أضفى على تصرفه الحالي طابع فترة مميزة بالنسبة له، وجعله يركّز عليه بتبرير جدالي. ليس أنه كان يوغل خطوة أخرى في إتيان الإساءات، ذلك لأنه يستحيل عليه أن يشعر بأن أي رابط مع الميديتشيين يمكن أن يكون أقوى من الرابط مع والده، بل لأن سلوكه نحو والده قد تم التستر عليه عن طريق الكذب الناجح: وسلوكه الحالي لم يفسح في المجال لأي تستّر كلي – ففي طبيعته بالذات شكّل انكشافاً. وتيتو جفل تحت وطأة الإمكانية

المستجدّة في أن يكون محط ازدراء.

حسن! القليل من الصبر، وفي غضون سنة أخرى، أو لربما نصف سنة، قد يدير ظهره لهؤلاء الفلورانسيين الفظّين المتلهّفين، بما عندهم من شجارات مجدبة وحظوظ آفلة. صحيح أن نجاحه الباهر في فلورانسة قد اعتوره بعض الأخطاء البشعة: لقد وقع في غرام المرأة الخطأ، وبالداسار عاد في ظروف غير محسوبة. لكن بينا كان تيتو يعدو بحصانه صوب سيينا لا يقيّده لجام، لمح أمامه مستقبلاً لن تطارده فيه بعد الآن تلك الأخطاء. كان قد هرّب كثيراً من الأموال من فلورانسة، وكان في أوج نضوج سن الثامنة والعشرين، وكان مدركاً للمهارة الخبيرة. أليس بإمكانه أن يتجرّد من الماضي، كما من ثياب البروفة المسرحية، ويلقي بعيداً بالرزمة القديمة، ليدّثر بالثياب التي يتطلبها المشهد الحقيقي؟

لم يندرج في تأملات تيتو بالمستقبل أنه عند خروجه من قاعة المجلس ونزوله على السلّم، قد مسّ بشكل طفيف شخصاً لم يتريّث ليتعرف وجهه على ضوء المصباح. كان هذا الشخص السير سيتشوني – الراغب، شأنه شأن تيتو، في خدمة الدولة عن طريق إعطاء معلومات ضد مشغّلي الآخرين (أرباب العمل) غير الفالحين.

الفصل الثامن والخمسون

تفهم نهائي

سرعان ما عاد تيتو من سيينا، لكنه فور عودته تقريباً انطلق في سفرة أخرى لم يعد منها حتى السابع عشر من آب. مرّ أسبوعان تقريباً على إلقاء القبض على المتهمين، وما زالوا في السجن، وما زال الغموض يلف مصيرهم. خلال هذه الفترة شعرت رومولا وكأن كل اهتماماتها قد عُلّقت، خلا مراقبة الاحتمالات المتأرجحة المرتبطة بذلك المصير. فأحياناً كانت تبدو بقوة في صالح المسجونين، ذلك أن فرص الاهتمام الفعّال الذي يصبّ في مصلحتهم قد زادت عن طريق التأجيل، وانفتح أفق للتأجيل لا محدود بسبب استنكاف كل المسؤولين في السلطة عن تحمل العار المواكب لأي قرار يتخذ. فمن ناحية تعالت الصيحات بأن الجمهورية في خطر، وأن الرأفة بالمسجونين ستعطي إشارة لكل أعدائها للمبادرة بالهجوم. ومن ناحية أخرى كان مؤكداً أن صدور حكم بالموت، ومصادرة الممتلكات بحق المسجونين الخمسة من ذوي السمعة المميزة، سيستجرّ كرهاً مشوباً بالحقد من جانب أقربائهم يطال كل من كانت له يد واضحة في إصدار مثل هذا الحكم.

وقد كان الحكم النهائي بيد الثمانية الذين ترأسوا إدارة القضاء الجنائي، وكان صدور الحكم يتطلب أغلبية من ستة أصوات. لكن الثمانية امتنعوا عن تحمّل مسؤوليتهم الجماعية وطلبوا في هذه القضية الاستثنائية مشاركة السينوريا (أو الغونفالونيين مع رؤساء الأديرة الثمانية). ومن جانبهم رفع أعضاء السينوريا أكتافهم تنصّلاً واقترحوا الاستئناف إلى المجلس الأعلى. إذ، وفقاً لقانون أجيز بفضل محاولات الإقناع الجادّة التي بذلها سافونارولا قبل ثلاث سنوات تقريباً (1)، أي

مواطن يحكم عليه بالموت بعد تصويت الستة المصيري (ويدعون *SEI FAVE* أو الحبّات الست)، حيث الحبّات تعني بأكثر من معنى النبض السياسي لفلورانسة) (2)، له الحق في استئناف ذلك الحكم إلى المجلس الأعلى.

لكن في هذه المرحلة من مراحل القضية عارض أصدقاء المسجونين الاستئناف تحدوهم بصورة رئيسة الرغبة في كسب التأجيل. والحق أن القانون الصارم كان يقتضي تصديق الحكم قبل الاستئناف. وقد نجحت مقاومتهم وتم التوصّل إلى حل وسط. فقد أحيل الحكم إلى جمعية كبرى عقدت يوم السابع عشر وتتألف من كبار القضاة بكافة، والمجلس الأصغر أو مجلس الثمانين، وعدد مختار من المواطنين (3).

وفي هذا اليوم كانت رومولا – وقد فاقم من قلقها احتمال أن يتقرر مصير عرّابها قبل انتهاء هذا اليوم –قد حصلت على الأذن برؤيته للمرة الثانية، إنما فقط بحضور شهود. كانت قد عادت إلى فيا دي باردي بمعية ابنة عمها بريجيدا، وهي ما تزال غافلة عما إذا كان المجلس قد توصّل إلى أي قرار حاسم، وكانت مونا بريجيدا قد خرجت ثانية لترقّب الأنباء الهامة في منزل صديق ينتمي إلى أحد أعضاء الهيئة القضائية علّها تعود بأنباء موثوقة ما إن يتمّ التوفّر عليها.

تهالكت رومولا على أول مقعد في الصالون الساطع الأضواء وقد حال اضطرابها الشديد، ومرضها الثاوي في قرارة نفسها دون الاكتراث بمكان جلوسها، أو ملاحظة التنافر في الأشياء التي أحاطت بها. جلست وظهرها للباب مسندة رأسها على يديها. بدا الوقت منذ

ذهاب مونا بريجيدا طويلاً جداً، وكانت رومولا تنتظر عودتها. لكن عندما فُتح الباب عرفت أن الداخل لم يكن مونا بريجيدا.

منذ افتراقها عن تيتو في تلك الليلة المشهودة لم يتوافر لها أي دليل خارجي يجيز اعتقادها بأنه قد كسب سلامته عن طريق الخيانة. فعلى العكس لقد تسنى لها الدليل بأنه كان ما يزال موضع ثقة الميديتشيين، وكانوا يعتقدون أنه ينفذ بعض المهام المكلف بها من جانبهم في رومانا تحت غطاء تنفيذه مأمورية لصالح الحكومة. ذلك أن الغموض الذي اكتنف الدليل المتعلق بالمتآمرين قد أسهم في الاعتقاد بأن تيتو قد نجا من أي تورط.

لكن شكوك رومولا ما كانت لتتبدد: فقد سيطر الهلع الذي تملّكها من جرّاء سلوكها نحو بالداسار على كل تصور عن تصرفاته. وكان كما لو أنها شاهدته يرتكب جريمة، وتولّد لديها من ثمة الانطباع المؤرّق بأن يديه كانتا ملطختين بدم جديد.

حالما سمعت وقع خطواته على الأرض الحجرية اعترتها رجفة وقشعريرة. لم تقو على الالتفات، ولم تقو على النهوض لتبادره بأية تحية. لم يتكلم، لكن بعد لحظة صمت جلس على مقعد في الجانب الآخر من الطاولة قبالتها بالضبط. وعلى أثر ذلك رفعت بصرها ونظرت إليه، لكنها لم تنبس ببنت شفة. وهو لم يبد أي تذمّر بل قال ببرود –

" هذا اللقاء يماثل افتراقنا، يا رومولا. لكنني أرى أنها لحظة ترقب مريع. على أني قد أتيت، إذا كان لديك استعداد للاستماع إلي،

لأجلب لك الارتياح الذي يوفّره الأمل ".

اعترتها رعدة، وغيّرت مكانها، لكنها نظرت إليه بارتياب.

" لن يضيرك أن تسمعي – رغم أن جالب الأنباء هو أنا – أن المجلس قد تأجل حتى الحادي والعشرين. وقد خاف الثمانية أخيراً من تصديق الحكم بالإدانة، لكن طلب الاستئناف قد قدم الآن نيابة عن المدانين إلى المجلس الأعلى ".

زايل وجه رومولا تعبيره الغامض. وسألت بلهفة –

" ومتى سيتم ذلك ؟ "

" لم يتم منح ذلك بعد، لكنه قد يمنح. فالمجلس الخاص سيلتئم ثانية في الحادي والعشرين للنظر فيما إذا كانوا سيسمحون بالاستئناف أو لا. في الوقت ذاته هناك فترة من ثلاثة أيام قد تنطوي على فرص لصالح المسجونين – وأثناءها قد يستعمل الاهتمام بالقضية لصالحهم ".

نهضت رومولا من مجلسها. عاد اللون إلى وجهها مثل فكرة واضحة، وارتجفت يداها. في تلك اللحظة نسيت شعورها نحو تيتو.

قال تيتو، وهو ينهض أيضاً: " ربما هجست نواياك بما كنتُ بصدد قوله. إنك تفكرين بالأخ الراهب".

" فعلاً "، قالت رومولا وهي تنظر إليه باستغراب، وأضافت: " هل فعل أي شيء؟ هل هناك من أخبار تزفّها اليّ؟ "

" فقط هذه. لقد كان حقد وقسوة السيد فرانشيسكو فالوري هو الذي حدد بصورة أساسية مسار الأمور في المجلس هذا اليوم. وقد تمّ

ترويع نصف من أدلوا برأيهم ضد المسجونين لكي يعطوا هذا الرأي، وهناك الكثيرون من أصدقاء الأخ جيرولامو، سواء في هذا المجلس الخاص أو خارجه، ممن يعارضون بشدة الحكم بالموت – بييرو غويتشيارديني، على سبيل المثال، وهو من أعضاء السينوريا الذين عارضوا بشدة الحكم بالموت. وهنالك جيوفان باتيستا ريدولفي الذي، لكونه من البيانونيين، لن يغفر بسهولة موت أخيه نيقولو ".

قالت رومولا ساخطة: " لكن كيف يمكن حجب الاستئناف عندما يكون هذا من صلب القانون – عندما كان تصديق القانون أحد أهم الأعمال البارزة للحكومة الشعبية؟ "

" يقولون إن هذه حالة استثنائية. بالطبع هنالك محاججات ذكية، لكن هناك من الجعجعة الصاخبة التي تدور حول الخطر المحدق بالجمهورية ما يربو على ذلك كثيراً. لكن، كما ترين، ليس بمقدور أية معارضة الحيلولة دون تأجيل الجمعية التشريعية، ويمكن لنفوذ قوي يستعمل في شكله المناسب، خلال الأيام الثلاثة القادمة، أن يقرر مصير الشجاعة المترددة لأولئك الذين يرغبون في أن يمنح الاستئناف، وقد يلجم أيضاً العداوة الجامحة لفرانشيسكو فالوري. وقد اتفق أن وصلتني أخبار مفادها أن الأخ الراهب قد تدخل حتى هذه اللحظة كي يتم إرسال رسالة إليه لصالح لورينزو تورنابوني. أعلم أن باستطاعتك أحياناً مقابلة الأخ الراهب: وفي كل الأحايين قد يكون من المفيد استخدام حظوتك الآن ".

قالت رومولا وعليها هيئة الشرود: " هذا صحيح . يصعب

علي التصديق بأن الأخ الراهب سيوافق على حجب الاستئناف ".

" قبل مجيئي سمعت أكثر من شخص في محكمة القصر يقول إن معرّة أبدية ستلحق بسمعة الأخ جيرولامو إذا سمح لحكومة مشكلة في معظمها من حزبه أن تحجب الاستئناف بدون تسجيل احتجاجه في الوقت الذي يتباهى في كتبه وعظاته بأنه هو الذي كان وراء تصديق القانون (4). لكن ليبق سراً بيننا، ومع كل الاحترام لمقدرة راهبك، يا عزيزتي رومولا، فقد درج على الوعظ بذلك النوع من التضحيات البشرية الذي يسمى قتل الطغاة والأشرار، ما يحتمل أن يرى فيه بعض مريديه أنه يتنافر مع إبداء الرأفة في القضية الحالية ".

قالت رومولا بسيماء ولهجة تنضحان ألماً: " أعرف، أعرف، لكنه مدفوع إلى تلك المواقف المتطرفة في الخطاب. في العادة كان الأمر على غير هذه الشاكلة. سأطلب مقابلته بالتأكيد. يشق عليّ أن أرتاح دون ذلك. أنا واثقة من أنه يحمل قلباً كبيراً ".

لم تكن تنظر إلى تيتو. كانت عيناه مصوبتين نحو الأرض بنظرة تشي بالغموض، ولم تكن تعي بوضوح ما إذا كانت الكلمات التي سمعتها قد فاه بها زوجها.

قال تيتو، بكياسة خالصة وهو يحرك قبعته بين يديه كما لو أنه كان على وشك أن يرتديها

وينصرف:" خير لنا أن لا نضيع أي وقت، إذن. والآن، يا رومولا، لربما أمكنك أن تتبيني أنه بالرغم من المشاعر المتحيزة فإن رغباتي متماثلة مع رغباتك في هذه المسألة. أنت لا ترين أن سوء الحظ

المرتبط بسلامتي هو إساءة ".

اعترى رومولا شيء أشبه بالصدمة الكهربائية: كان الشعور الغامر بعودة حضور زوجها إليها. نظرت إليه دون أن تنبس ببنت شفة.

أضاف بلهجة أكثر قساوة بقليل: " على الأقل، يجب أن تسعي لوضع علاقتنا على أسس منطقية أخرى لأن العمل الشرير ممكن، **أنا** قارفته. هل أنا الوحيد الذي يبقى خارج نطاق إحسانك الواسع؟ "

تصاعد داخل رومولا من جديد الشعور الذي أعاقته من الوصول إلى شفتيها منذ أسبوعين قوة متنامية لموجة مدّ زاخرة. تحدثت بعزم عرف من جرّائه أنها كانت لا تأبه بالنتائج.

" فات الأوان، يا تيتو. ليس من مجال لوأد الشك الذي أتى ذات يوم من رحم الخداع. والآن أنا على علم بكل شيء. أعلم من كان ذلك الرجل العجوز: لقد كان والدك , والدك الذي تدين له بكل شيء – من أنت مدين له بأكثر مما لو كنت ابنه. وأمام ذلك يبدو أمراً صغير الشأن أنك خنت ثقتي وثقة والدي بك. وطالما أنك تنكر الحقيقة بصدد ذلك الرجل فإن شيئاً مهولاً ينهض كحائل بيننا: فالقانون الذي يوحّدنا لا يمكن الامتثال له أبداً. أنا أيضاً إنسانة. لدي روحي التي تمقت أفعالك. اتحادنا ما هو إلا رياء – كما لو أن كذبة أبدية يمكن أن تكون زواجاً مقدساً ".

لم يرد تيتو على الفور. وعندما ردّ فعلاً كان ذلك باحتراس محسوب، دفعه إليه الذعر والهلع.

" وأنت تنوين تنفيذ تلك الاستقلالية بهجرك لي، كما أظن؟ "

قالت رومولا متسرّعة في ردّها: " أرغب في هجرانك " .

" ولنفرض أنني لا أنصاع للتخلي عما يضمن القانون لي الاحتفاظ به؟ بالطبع عندها لن تتركي أذناً في كل فلورانسة دون أن تسمعيها حججك. ستأتين بقاتلك المعتوه، والذي هو بالتأكيد مستعد للإذعان لأمرك، وستعلنين للعالم أنك تصدقين شهادته لأنه عقلاني جداً إذ يرغب في اغتيالي. أولاً ستعلمين السينوريا أنني متآمر مع الميديتشيين، ثم ستخبرين الميديتشيين أنني غدرت بهم، وفي كلتا الحالتين ستقدمين البرهان الساطع على أنني، حسب اعتقادك، قادر عموماً على إتيان كل شيء سيء. من المؤكد سيكون ذلك موقفاً لافتاً تتبناه زوجة. وإذا أفلحتِ، على أساس هذا الدليل، في تشنيع صورتي فستكونين قد فقت كل بطلات الدراما الإغريقية ".

توقف لحظة لكنها بقيت صامتة. تابع بشعور من عُقدت له السيادة.

" أعتقد أنك لا تحملين ضغينة أخرى ضدي – باستثناء أنني أخفقت في تلبية بعض الشروط السامية غير المحددة التي منحتني على أساسها محبتك الزوجية، مما أدى، عند سحب محبتك لها، أنك جعلتني أؤول تدريجياً إلى المورد الذي يزودك بكل حرص باحتياجاتك من حيث أنك بيانونية حقّة تتمتع بالمرتبة السامية والأفعال الخيرية السخية. أعتقد أن نجاحك في التشهير بي ليس مؤكداً. لكن من دون شك ستبدئين بكسب إصغاء السيد برناردو ديل نيرو لما تقولينه ؟ "

صاحت رومولا، وقد أمضّها الألم، وتهالكت على كرسيها ثانية: " لماذا أتحدث عن أي شيء؟ إنها لخصلة مقيتة فيّ أن أفكر بنفسي ".

لم تلاحظ متى غادر تيتو الغرفة، ولم تعرف كم مضى من الوقت قبل أن يُفتح الباب ليستقبل مونا بريجيدا. لكنها في تلك اللحظة انتفضت واقفة وقالت –

" ابنة العم، يجب أن نقصد دير سان ماركو حالاً. عليّ أن أقابل كاهن اعترافي، الأخ سالفيسترو ".

الفصل التاسع والخمسون
المرافعة

مع إشراقة الصباح الباكر سلكت رومولا الطريق مرّة أخرى قاصدة دير سان ماركو بعد أن حصلت من خلال الأخ سالفيسترو، المساء الفائت، على وعد بمقابلة الأخ جيرولامو في المبنى الملحق بالدير. وقد أحالت الصرامة التي وقى سافونا رولا بها حياته من كل ذرائع تشويه السمعة مثل هذه المقابلات شيئاً نادر الحدوث جداً، وعندما كان يسمح بها كانت تبقى بمعزل عن أي مظهر من مظاهر السرّية. ولهذا السبب كانت الساعة المنتقاة هي تلك التي يحتمل أن يكون فيها زوار آخرون في الأروقة الخارجية لدير سان ماركو.

وقد شاءت أن تمرّ عبر مركز المدينة علّها تلاحظ الأمارات

الدالّة على مشاعر المواطنين. كل شرفة، كل زاوية مريحة من زوايا الساحة، وكل متجر تواعد فيه الثرثارون على اللقاء،كان يمور بالحماس الذي واكب النقاش المجاني، تجارة هزيلة تنزع إلى إضفاء مزيد من الحيوية على النقاش السياسي. كان واضحاً أن الأحزاب التي تؤيد وتعارض إعدام المتآمرين كانت عازمة على الاستفادة القصوى من فترة الأيام الثلاثة كي تقف على المزاج الجماهيري. فمنذ مدة تم توزيع إعلانات باليد، بعضها يعرض بالبنط العريض بديل إنفاذ العدالة على المتآمرين أو دمار الجمهورية، وبعضها الآخر، بالبنط العريض أيضاً، يحث على مراعاة القانون ومنح الاستئناف. وحول هذه الجزائر الصغيرة البارزة والمشكّلة من الحروف السوداء كانت تثوي بحيرات من حروف أصغر تبرز حججاً قراءتها ليست على مثل هذه الضرورة: ذلك أنها شكلت رأياً رائجاً في ذلك الوقت (في زهوة النصر الأولى لاكتشاف الطباعة)، حتى إنه لم يعد هناك أية محاجة مقنعة على نطاق واسع تعدو العبارات التي تلحف في الأسئلة والمكتوبة بالبنط العريض.

على أن رومولا قد حرصت خصوصاً على أن تتعرف المحاجات بالبنط الأصغر حجماً، ورغم أنها كانت مضطرة إلى العجلة إلا أنها تطلعت حولها بقلق أثناء سيرها عسى أن لا تفوتها أية فرصة لتأمين عدد من النسخ. وعلى مسافة طويلة لم تشاهد أياً منها بل تلك التي كانت بين يدي القرّاء المتشوقين، أو تلك المثبتة على الجدران، والتي كان رجال الشرطة ينزعونها عنها في بعض الأمكنة. لكن أخيراً، عند اجتيازها المكان خلف سان جيوفاني متسارعة الخطو علّها تتجنب

المعارف الكثر الذين أمّوا الساحة، شاهدت براتي ومعه رزمة من الإعلانات بدا أنه يقايضها بنقود قليلة مع المارة. كانت تألف جدّاً الحياة المتواضعة لفلورانسة الأمر الذي لم يجعل براتي غريباً عنها، ومع التفاتها نحوه بادرته بالقول: " هل لديك نوعان من الإعلانات، يا براتي؟ أعطني إياهما بسرعة ".

" نوعان "، قال براتي وهو يفصل الصحائف المبللة ببطء هزّ أعصاب رومولا. " هنالك " قانون " وهنالك " عدالة ".

" أي النوعين تبيع منه أكثر؟ "

" عدالة " – " عدالة " هي الرائجة للبيع – ولذلك فقد رفعت السعر، وجعلته اثنين من الدناري. لكن فكّرت من ثمّ أن " قانون " هي بضاعة رائجة أيضاً، وله الحق في أن يباع بسعر " عدالة " ذلك أن الناس لا يخزنون الأشياء الرخيصة، وإذا ما بعت " قانون " بدنارو واحد فسألحق به حيفاً. وأنا تاجر منصف. " قانون " أو " عدالة " كلها واحد بالنسبة لي. إنها بضاعة رائجة. حصلت عليهما معاً دون مقابل، وأبيعها بربح جيد. لكنك تريدين أكثر من واحد من كل نوع؟ "

" لا، لا: إليك ربعية بيضاء للاثنين "، قالت رومولا وهي تطوي الإعلانين وتهرع مبتعدة.

وسرعان ما وصلت إلى الأروقة الخارجية لسان ماركو حيث كان الأخ سالفيسترو ينتظرها تحت رواق تحف به الأعمدة، لكنه لم ينتبه إلى اقتراب خطوتها الخفيفة.كان يدردش، جرياً على عادته، مع زوار عاديين. ذلك أنه تحت رعاية حكومة صديقة للأخ الراهب فإن

التهيب من التردد على سان ماركو الذي أعقب الصدمة الأولى للحرم الكنسي أخذ يزول تدريجياً. ومن بين هؤلاء الزوار العاديين تعرفت على تابع معروف جيداً من أتباع فرانشيسكو فالوري ويدعى أندريا كامبيني (1) كان يقص أو يتوسع في الشرح مؤكداً روايته بإشارات من يديه بينما كان الأخ سالفيسترو يصغي بذلك المظهر الدال على قلة الفضول والذي يوحي بأن المستمع يحرص كثيراً على الأخبار وقليلاً جداً على نوعيتها. هذه الخصلة من خصال كاهن اعترافها، والتي كانت تراها رومولا دائماً مقيتة، كانت تغيظها في هذه اللحظة من جرّاء اليقين الذي جمّعته من الكلمات المتقطعة التي وصلت أسماعها، وهو أن كامبيني كان يقصّ شيئاً يتصل بمصير المتآمرين. وقد شاءت ألا تقترب من المجموعة، لكن حالما تبين لها أنها لفتت انتباه الأخ سالفيسترو انعطفت صوب باب البناء الملحق بينما بادر هو، بعد إبداء إشارة الموافقة، إلى التواري داخل الرواق الداخلي. وقد كان راهب من عامة الرهبان يقف متأهباً لفتح باب الملحق لها، وبادر إلى إغلاقه وراءها حال دخولها.

مرة أخرى بعد أن حدجتها بنظراتها تلك الأشكال الحزينة من الفريسكو، والتي بدت أنها قد شاركتها حدادها لموت أخيها دينو، لم يكن هناك مفرّ من أن يعود إلى ذاكرتها شيء من ذلك المشهد . لكن الانشغال المكثّف لتفكيرها بالحاضر لم يجعل الذكرى استعادة لصور الماضي بقدر ما كانت عودة مبهمة لانطباعات امتزجت مع مخاوفها الباعثة على الاضطراب، كما لو أن قلقها الحقيقي كان تجدداً للتوق

القوي الذي استحضرته ذات مرة إلى هذه البقعة – ليواجه الصدّ من قبل صلابة قوية كالرخام. لم تترك حيزاً لكي تصبح استعادة الذكرى أكثر وضوحاً، ذلك أنها قامت في الحال بفتح أوراق إعلاناتها معتقدة أنه قد يكون بوسعها قراءتها في الفترة الفاصلة السابقة لمجيء الأخ جيرولامو. لكن ما إن فرغت من قراءة تلك الورقة الإعلانية التي أوصت بمراعاة القانون حتى شعرت بالباب يُفتح. وعلى الأثر قامت بطيّ الأوراق ولبثت تنتظر.

عندما دخل الأخ ركعت، جرياً على ما يقوم به كل من يقابله على انفراد. لكن حالما تلفظ بتحية المباركة نهضت ووقفت قبالته على مبعدة بضع ياردات. ونظراً لانكفائه إلى العزلة مذ أن تلقى الحرم الكنسي بدا وكأن وقتاً طويلاً قد مضى على لقائها به آخر مرة، وكان واضحاً أن الأشهر الأخيرة قد عمّقت في وجهه ارتسام الآثار التي تنمّ عن نشاط ذهني مكدود وشروط بدنية قاسية. ومع ذلك لم تكن رومولا لتشعر كثيراً بهذا التغير بقدر ما شعرت بغيره، والذي كان أقل وضوحاً. هل أن سيماء السمو الرزين والأخوة البشرية الصافية التي حركتها يوماً لم تعد موجودة بالقوة نفسها، أو هل أن الإحساس بأنه لا يشاركها مشاعرها تجاه عرّابها قد أيقظ منابع الغربة الغافية وشوّش عليها رؤيتها؟ لربما كانا كلا السببين فاعلين. إن علاقاتنا مع أبناء جلدتنا تتحدد في الغالب الأعم بتيارات متزامنة من ذلك الضرب. إن الكلمة أو الفعل غير المبرّرين قلّما يأتيان إلا بعد أن يتم توهين المحبة أو التوقير بفعل الضغط الناجم عن تكرر الأعذار.

صحيح أن النظرة التي حدج بها سافونارولا رومولا كانت تتصف بتلك القساوة الناجمة عن تحيّز ذهني أناني مسبق. فقد تكهن أن المقابلة التي سعت إليها كانت ستدور حول مصير المتآمرين، وهو موضوع اضطره مسبقاً لكي يخمّد نداءات داخلية قد تعلو نبرتها ثانية عندما تتلقى دعماً من خارج. وإذ كان جالساً في حجيرته في الدير ينقّح صحائف كتابه " انتصار الصليب "(2) كان أسهل عليه أن يتكئ كي يريح نفسه على قرار بالتزام الحيادية.

" من دون ريب إنها مسألة ذات خطر تلك التي طلبت مقابلتي بشأنها، يا ابنتي "، بدأ حديثه بلهجة دمثة نشأت عن رباطة الجأش أكثر منها عن الرغبة المباشرة. " أعرف أن ليس من عادتك التشديد على مسائل صغيرة ".

قالت رومولا ناسية كل شيء آخر حالما بدأت تتلو دعواها بحماس: " يا أبت، أنت تعرف الموضوع قبل أن أطلعك عليه. أنت تعلم ما الذي أحرص عليه – إنها حياة الشيخ التي هي الأغلى عندي في العالم. لقد اقترن التفكير به مع التفكير بوالدي منذ أن تفتحت عيناي على النور. هذا مبرر مجيئي إليك حتى ولو بدا مجيئي لا داعي له. ربما هو كذلك: ربما اتخذت مسبقاً قراراً بأن تستخدم سلطتك على قلوب الناس لمنعهم من أن ينكروا على الفلورانسيين حقاً أنت نفسك ساعدت في أن يفوزوا به ".

قال الأخ جيرولامو وهو غير ميّال إطلاقاً إلى أن يعيد خارجياً فتح نقاش كان قد عالجه داخلياً: " أنا لا أتدخل بمهام الدولة، يا ابنتي.

لقد وعظت وجاهدت كي يتوافر لفلورانسة حكومة رشيدة، ذلك أن الحكومة الرشيدة هي ضرورة لتحقق الحياة المسيحية المثلى. لكنني أرفع يدي عن قضايا خاصة تبقى معالجتها من اختصاص ذوي الخبرة ".

" بالتأكيد، يا أبت – "،انطلقت رومولا تقول من فورها. كانت قد نطقت تلك الكلمة الأخيرة بتسرّع لا رويّة فيه تقريباً، لكن الذي منعها هو الاضطراب المضاد الناجم عن الشعور بأنها كانت تتخذ موقفاً احتجاجياً من الرجل الذي كان ينبوع هدايتها وقوتها. وفي فعل التمرد الذي تقارفه إنما هي تهشم توقيرها الخاص له.

كان سافونا رولا حريصاً جداً على ألا يتكهن بشيء بخصوص الصراع الذي كان يتنازعها – فلديه من النبالة المفرطة ما حال دون أن يتخذ عمداً، عن طريق الخطاب الهادئ، ذلك التملص المبرر ذاتياً الذي طالما دفعته إليه أمام الملأ الدوافع المحتشدة في صدر الخطيب.

" أسرّي إلي بما تضمرين. تحدثي، يا ابنتي "، قال وهو يقف واضعاً ذراعيه الواحدة على الأخرى، وناظراً إليها بريث غير متعجل.

" كنت بصدد القول، يا أبت، إن هذه المسألة هي بالتأكيد على درجة من الخطورة تفوق خطورة كل المسائل الأخرى التي سمعتك تعظ بشأنها وتحضّ عليها بشدة . إذا كان يعود إليك الحضّ على أن الذين أدينوا بجرائم ضد الدولة يجب أن يكون لهم الحق بالاستئناف إلى المجلس الأعلى – إذا – " عادت اللهفة لتعتري رومولا ثانية – " إذا كنت تحسب مجداً الظفر لهم بذلك الحق، فهل لا يعود إليك أن تعلن

أنك ضد الحق الذي حرم منه مَنْ هم تقريباً أول من يحتاجونه؟ من المؤكد أن هذا يمسّ الحياة المسيحية أكثر مما لو كنت تعرف مسبقاً بأن الدوفن (الابن البكر لملك فرنسي – م) سيقضي، أو أن بيزا ستهزم".

شوهدت حركة خفية، أشبه بإشارة ألم تمّ كبتها، في شفتي سافونارولا القويتين قبل أن يبادر بالقول:

" يا ابنتي، أنا أتحدث بما أُعطيته– أنا لست سيد الأزمنة عندما يتاح لي أن أصبح واسطة المعرفة المتخطية للاستنارات العامة للبشر. في هذه الحالة ليس لدي استنارة أبعد مما يمكن أن تقدمه الحكمة لأولئك المنوط بهم سلامة الدولة. أما بالنسبة لقانون الاستئناف ضد الأصوات الستة فقد جاهدت لكي يتم إقراره حتى لا يكون أي فلورانسي عرضة لخسارة حياته ومتاعه من جرّاء الكراهية الخاصة لقلة اتفق أنها كانت في سدة السلطة. لكن هؤلاء الخمسة الذين رغبوا في الإطاحة بحكومة حرة وإعادة مستبد فاسد، قد أدينوا بموافقة مجموعة كبيرة من مواطنيهم. لقد رفضوا أولاً أن تطرح قضيتهم أمام المجلس الأعلى. وقد فقدوا الحق بالاستئناف ".

قالت رومولا: " كيف يمكن أن يفقدوه؟ إنه الحق بالاستئناف ضد الإدانة، ولم يسبق لهم أن أدينوا حتى الآن.واعذرني، يا أبت، إن الكراهية الشخصية فعلاً هي السبب في إنكار حق الاستئناف عليهم. إن قسوة القلة هي التي تخيف الآخرين، وإلا ما سبب انقسام المجلس ثانية مباشرة بعد أن بدا على أعضائه الاتفاق؟ وإذا ما ترجّح أي شيء

ضد مراعاة القانون، فليكن هذا الترجّح مع تطبيقه – هذا ما اعتدت أن تكرز به بحماس يفوق كل ما عداه، كيما لا يكون هناك مطرح للكراهية وسفك الدماء بسبب صراعات الأحزاب هذه، كيما لا تجد الضغائن الخاصة فرصتها السانحة في أفعال عامة الشعب. يا أبت، أنت تعرف حق المعرفة أن للكراهية الخاصة صلة بهذا الأمر: هل لن يمس سمعتك أنك أحجمت عن التوسط إلى جانب الرأفة، في الحين الذي يوجد فيه كثيرون يؤمنون بأن هذا الجانب هو أيضاً جانب القانون والعدالة؟ "

قال الأخ جيرولامو بانفعال ظاهر أكثر من ذي قبل: " يا ابنتي، هناك رأفة تعتبر ضعفاً، بل وخيانة للمصلحة العامة. إن سلامة فلورانسة، والتي تعني حتى ما هو أكثر من خير الفلورانسيين، تتطلب الآن صرامة، كما تطلبت يوماً رأفة. كما أنه ليس بسبب مؤامرة سالفة أدين هؤلاء الناس، بل أيضاً بسبب مؤامرة لم يتم تنفيذها بعد. والأدوات التي كانت تقود إلى تنفيذها لم يوضع حد لها: فالطاغية ما يزال يجمّع قواه في رومانا، وأعداء فلورانسة الذين يجلسون في أعلى مواقع السلطة في إيطاليا، مستعدون لقذف أي حجر يمكن أن يسحقها ".

" أية مؤامرة؟ " قالت رومولا وهي تحمرّ وترتجف بفعل مفاجأة مشوبة بالذعر.

قال الأخ جيرولامو وهو يشير إلى الإعلانات : " أنت تحملين، على ما أرى، أوراقاً بيديك. قد تنبئك إحداها بأن الحكومة قد وصلتها معلومات جديدة ".

فتحت روممولا على عجل الإعلان الذي لم تقرأه بعد، ورأت أن الحكومة قد توافر لها الآن دليل إيجابي على وجود مؤامرة ثانية كانت ستنفذ في أوان شهر آب هذا. بدا الأمر لتفكيرها كما لو أنها كانت تقرأ تأكيداً بأن تيتو قد كسب سلامته بطرق ملتوية. إن تظاهره بالرغبة في أن يبذل الراهب جهده دفاعاً عن المدانين إنما أسهم في ترسيخ الاعتقاد البائس. سحقت الورقة في يدها وقالت موجهة كلامها إلى سافونا رولا مدفوعة بدفقة جديدة من الانفعال: " يا أبت، أية سلامة يمكن أن تتوافر لفلورانسة حين يتمكن من هم أسوأ الناس دائماً من الإفلات؟ " وأردفت تقول وقد داهمتها ذكرى مباغتة أتتها من التفكير بزوجها: " أولم تشجع أنت نفسك هذا الخداع الذي يفسد حياة فلورانسة عن طريق الرغبة بإبداء المزيد من التأييد لقضية لورينزو تورنابوني الذي ظهر بوجهين، وقرّظك متخذاً مظهر المحبّ، في حين أن عرّابي كان دائماً هو الصادق؟ سل كل فلورانسة مَنْ مِنْ هؤلاء الخمسة له أصدق قلب، لن تجد كثيرين ممن سيسمون اسماً آخر غير برناردو ديل نيرو. لقد توسطت لدى فرانشيسكو فالوري لصالح سجين واحد: عندها لم (مشددة –م) تكن تقف على الحياد، وأنت تعلم أن كلمتك سيكون لها مفعولها القوي".

قال سافونا رولا وقد تضرّج وجهه بشدة : " لست أرغب في موت برناردو. سيكون كافياً لو أنه يبعد خارج المدينة ".

" إذن لماذا لا تجاهر بصوتك إنقاذاً لحياة عجوز يناهز الخامسة والسبعين من أن يموت ميتة مخزية– لتتيح له على الأقل

الفرص العادلة في تطبيق القانون؟ " صاحت رومولا، وقد استثير جانب الاندفاع في طبيعتها بشكل نسيت معه كل شيء سوى سخطها الذي تملّكها. " ليس الأمر في أنك تشعر بأنك ملزم بالحياد، وإلا لماذا تكلمت دفاعاً عن لورينزو تورنابوني؟ أنت تكلمت دفاعاً عنه لأنه على علاقة ود أكبر بسان ماركو. عرّابي لا يدعي مثل هذا الود. إن سبب الحكم على عرّابي بالموت لا يكمن، إذن، في أنه ميديتشي. بل لأنه إنسان لا تشعر نحوه بأي حب! "

عندما توقفت رومولا ووجنتاها تتوهجان وشفتاها ترتجفان سادت فترة صمت مطبق. وعندما رأت الأخ جيرولامو يقف أمامها ساكناً لا يريم بدا وكأنها تسمع كلماتها من جديد، كلمات كانت في هذا الترجيع لصدى الشعور على تنافر غريب مؤلم (2) مع الذكريات التي شكلت جزءاً من وجوده بالنسبة إليها. استطالت لحظات الصمت بتزايد وخز الضمير والشك الذاتي. لقد ارتكبت تدنيساً للمقدسات في غمرة انفعالها. وحتى الشعور بأنها غير قادرة على استرجاع أي شيء من مرافعتها، وأن تفكيرها لم يقوَ على الخضوع لسلبية سافونا رولا قد جعلها تشعر بحاجة أكبر ترضي بها تلك الذكريات، ذكريات التوقير والاحترام. وبحركة مفاجئة نحوه قالت –

" سامحني، يا أبت. يؤلمني أنني فهت بهذه العبارات – لكن لست أستطيع دفعاً لذلك. أنا صغيرة وضلع قاصر بالمقارنة معك. لقد أمددتني بالنور والقوة. لكنني أذعنت لأنني شعرت بالقوة المعطاة لي – لأنني رأيت النور. الآن (مشددة) لست قادرة على رؤيته. يا أبت، أنت

نفسك تعلن أنـه تـأتي لحظـة يتوجب ألا يكون للـروح أثناءها مـن هاد سوى صوتها الداخلي، لتتبيّن ما إذا كان الشيء المقدس ينطوي على فضيلة مقدسة. ولهذا السبب يجب أن أتكلم ".

تملّك سافونا رولا ذلك الحنق الذي يمكن استثارته بسهولة تجاه المعارضة، والذي يصعب فصله عن طبيعة قادرة محبة للقوة، تعوّدت أن تسعى وراء غايات عظيمة تنعكس عظمتها على الوسائط المستخدمة في السعي وراء هذه الغايات. فعظاته تنطوي على الكثير من تلك الشعلة الحمراء. ولو كان شخصاً نذلاً لأفصحت حساسيته عن نفسها في الغضب من حرية رومولا في الاتهام، والتي كانت تتناقض بشكل بيّن مع التوقير الذي تلقاه عادة من تلامذته. لكن مثل هذه المشاعر تلاشت اللحظة هذه بفعل ذلك الصراع العنيد الذي شكّل من مأساة حياته نصفها – صراع عقل استحوذ عليه جوع للطهارة والبساطة لا يعرف الصمت أبداً، لكنه عالق في تشابك المطالب الأنانية، والأفكار المزيفة، والشروط الخارجية الصعبة والتي جعلت البساطة مستحيلة. وإذ كان واعياً تماماً لكل الإيحاءات التي أفرزتها كلمات رومولا الاحتجاجية فقد طفق يعاين بسرعة، كما كان فعل سابقاً، سبل العمل المفتوحه أمامه، ونتائجها المحتملة. لكنها كانت مسألة لا تبدو فيها الحجج حاسمة إلا نسبياً لأنها مشحونة بالمشاعر، وهو لم يتلقّ أي حافز يمكن أن يحرفه عن تحيزه. نظر إلى رومولا، وقال –

" لديك كل المعذرة لصراحتك، يا ابنتي. أنا أعرف، مبعث كلامك هو عواطف المحبة الكاملة الكامنة في عائلتك. لكن هذه

العواطف يجب أن تفسح في المجال لحاجات الجمهورية. وإذا كان هؤلاء الناس ممن هم على معرفة وثيقة بشؤون الدولة، كما أحسب أنهم كذلك، يعتقدون بأن سلامة الجمهورية تتطلب تطبيق عقوبة القانون الرادعة بحق المتآمرين الخمسة فلست بقادر على السيطرة على رأيهم ذلك أنني أرى أني أقف بعيداً عن هذه القضايا ".

قالت رومولا وهي تشعر من جديد بنفور من جرّاء تبرئة بدا أن لها طابع الذريعة: " إذن أنت ترغب في موتهم؟ أنت ترغب في أن يحرموا من الاستئناف؟ "

" لقد قلت إنني لا أرغب في موتهم ".

قالت رومولا وقد تصاعد سخطها من جديد: " إذن يمكنك أن تكون لامبالياً أمام إمكانية إنزال الفلورانسيين عقوبة الإعدام ضد رغبتك، في الوقت الذي كان أحرى بك أن تحتج عليها – في الوقت الذي كان أحرى بك أن تحول دونها، عن طريق الحض على مراعاة القانون الذي آمنت بصلاحيته ووجوب المصادقة عليه. يا أبت، لم يكن من عادتك أن تقف بعيداً: لم يكن من عادتك أن تتوانى عن الاحتجاج. لا تقل إنك لا تستطيع أن تحتج حيث يتعلق الأمر بحيوات بشر. قل، بالأحرى، إنك ترغب في موتهم. قل، بالأحرى، إنك تؤمن بأنه خيرٌ لفلورانسة أن يسفك المزيد من الدماء ويُزرع المزيد من الأحقاد. هل سيضع موت خمسة ميديتشيين حداً للأحزاب في فلورانسة؟ هل سينقذ موت شيخ نبيل مثل برناردو ديل نيرو مدينة تحوي أمثال دولفو سبيني؟ "

" كفى، يا ابنتي. إن قضية الحرية، والتي هي قضية مملكة الله

على الأرض، غالباً ما يلحقها أكبر الأذى من الأعداء الذين يحتضنون بداخلهم قوة بعض الفضائل البشرية. وعلى الغالب ليس الإنسان الذي ينطوي على أعظم الشرور هو الذي يشكّل العقبة الكأداء أمام انتصار الخير ".

قالت روملا بمزيج من الغضب واليأس: " إذن لماذا تقول ثانية إنك لا ترغب في موت عرّابي؟ أرى أنك تؤمن بأن الحاجة تزداد كي يموت لأنه الإنسان الأفضل. لا يمكنني أن أفهم كنه تفكيرك، يا أبت. لا يمكنني أن أسمع الصوت الحقيقي لصوابية حكمك وضميرك ".

تلت لحظة صمت على أثرها قال سافونا رولا بانفعال أقوى مما أبداه لحينه –

" كوني شاكرة، يا ابنتي، إذا نجت روحك من التشوش، ولا تحكمي على أولئك الذين كانت قسمتهم أصعب وأقسى. أنت (مشددة) ترين أرضية واحدة للعمل في هذه المسألة. أنا أرى العديد. عليّ أن أختار تلك التي تعزز العمل الموكل إلي. إن الغاية التي أنشد هي تلك التي يجب أن يضحى في سبيلها بالجوانب الأصغر شأناً. إن موت خمسة رجال – ولو كانوا أقل ذنباً من هؤلاء – هي مسألة صغيرة بالمقارنة مع الصمود في وجه مظاهر الطغيان الشريرة التي تخنق حياة إيطاليا وتورّث الفساد في الكنيسة. مسألة خفيفة بالمقارنة مع تعزيز مملكة الله على الأرض، الغاية التي أنا أعيش لأجلها وأرغب في أن أموت في سبيلها ".

في ظل أية ظروف أخرى كان يمكن أن تكون روملا حساسة

للمناشدة في مستهلّ حديث سافونا رولا، لكنها في هذه اللحظة كانت على عداء تام معه، ذاك الذي دعاه تشوشاً بدا لها سفسطة وازدواجية. وكلما واصل الكلام غذّت كلماته شعلة السخط تلك ليس إلاّ، والتي أضاءت، ثانية الآن أكثر من أي وقت مضى، ذكرى كل أخطائه، وجعلت ثقتها فيه تبدو أنها كانت وهماً أعمى لم يتبيّن الأمور على حقيقتها. تكلمت بما يقارب المرارة.

" هل تعرف، إذن، جيداً ما الذي سيعزز مجيء مملكة الله، يا أبت، حتى وصل الأمر بك إلى أنك تتجرأ على احتقار دعوى الرأفة – العدالة – الإخلاص لتعاليمك بالذات؟ هل أن الملك الفرنسي، إذن، قد أتى بالتجدد لإيطاليا؟ انتبه، يا أبت، لئلا يتوفّر أعداؤك على بعض المنطق عندما يقولون إنه في رؤاك لما سيعزز قضية مملكة الله لست ترى إلا ما يعزز قضية حزبك أنت ".

" وهذا صحيح! " قال سافونا رولا بعينين قادحتين. بدا له صوت رومولا في تلك اللحظة صوت أعدائه. " إن قضية حزبي هي فعلاً قضية مملكة الله ".

قالت رومولا وكيانها كله يهتز من القرف المشحون بالانفعال: " لست أصدق ما أسمع! إن مملكة الله شيء أوسع وأرحب – وإلا، دعني أقف خارجها مع الكائنات التي أحب ".

أضاء الوجهين نور، لكن كلاً منهما كان له نور انفعال معاكس، ونور يقين معاكس. أصبح التفوّه بالمزيد من الكلام مستحيلاً. وعلى جناح السرعة ادّثرت رومولا بغطاء رأسها وخرجت دون أن تنبس

ببنت شفة .

الفصل الستون
المقصلة

عقب ذلك بثلاثة أيام لم يرسل القمر الذي كان يعتلي لتوه أبنية الساحة أمام القصر القديم في ساعة منتصف الليل الأنوار الواضحة ويرسم الظلال على الرصيف كما درج أن يفعل. لم يكن متاحاً رؤية عرض كف على الرصيف بل مجرد رؤوس لحشود كادحة متلهفة. وقد حل محل تلك الخلفية من الصمت والتي برزت فيها في تميز ظاهر الخطوات الرشيقة، والأصوات المختلطة، وأصوات أوتار العود، أو المشي السريع للعديد من متسكعي ليل فلورانسة، خلفية من هدير ناجم عن اختلاط الصيحات واللعنات، والدوس والتدافع، وقعقعة السلاح العارضة، بل لم يكن ممكناً تمييز شيء وسطها سوى زعقة انطلقت فجأة، أو جلجلة جرس تدوي بقوة.

في تلك الساعة كان الكل تقريباً ممن يدعون بجماهير فلورانسة مستيقظين، وكانوا إما محصورين داخل حدود تلك الساحة، أو يجاهدون في الدخول إليها. وفي داخل القصر كان لا يزال مجتمعاً في غرفة المجلس كل القضاة الرئيسيين، والأعضاء الثمانون لمجلس الشيوخ، والنخب الآخرون من المواطنين الذين انهمكوا في مناقشة حامية خلل ساعات النهار الطويلة وضوء المشاعل حول ما إذا كان

يجب منح الاستئناف أو تنفيذ عقوبة الإعدام بحق الجناة في الحال، لإحباط فرص التأجيل المحفوفة بالخطر. وقد كانت المناقشة أشبه بشجار عنيف مما أوصل الضجة في قاعة المجلس إلى أسماع الحشد في الخارج. ولم يتم حسم المسألة إلا في غضون الساعة الأخيرة: بقي أعضاء السينوريا على انقسامهم، أربعة منهم يقفون بقوة إلى جانب الاستئناف بالرغم من الحجة القوية في أنهم إذا لم يذعنوا فستتعرض بيوتهم للنهب، إلى أن قام فرانشيسكو فالوري وأعلن في كلمة موجزة غاضبة عن قرار حزبه بشكل واضح ومنذر بالسوء في أنه إذا لم يدافع السينوريا عن حريات الشعب الفلورانسي عن طريق إعدامه أولئك الخمسة الخائنين فلن ُيعدم وجود آخرين ممن سيأخذون تلك المسألة بأيديهم مما يشكّل خطراً على كل من يعارضها. انتصر الكاتو (1) الفلورانسي. وعندما أحصيت الأصوات ثانية لم يعد هناك من ظهور للحبات البيضاء الأربع العنيدة (*انظر حاشية سابقة –م). وكان كامل التسعة من السود الخطرين المؤكدين للحكم الذي يقر بإعدام السجناء الخمسة دون تأخير – ويقر أيضاً، إنما بشكل ضمني وتأخير أكبر بكثير، بإعدام فرانشيسكو فالوري.

في هذه الأثناء، وبينما ذهب القضاة الثمانية إلى السجن (البارجيلو) لإعداد العدة للإعدام اقتيد الخمسة المدانون حفاة وأيديهم مقيدة بالحديد وسط المجلس. وكان من خطط لذلك أصدقاؤهم: ألن تتحرك مشاعر الفلورانسيين عن طريق ربطهم الواضح بين هذا الضيم المتعسّف مع اثنين من الموقرين من أمثال برناردو ديل نيرو ونيقولو

ريدولفي اللذين اتخذا موقفاً متحيزاً قبل مدة طويلة من وصم الترتيب الجديد للأمور الميديتشيين بأنهم أناس رجعيون – مع وجود شابين لامعين محبوبين مثل تورنابوني وبوتشي ممن يحدو غيابهما للشعور بوجود فراغ مسيطر أنى اجتمع كبار الفلورانسيين؟ لكن ذلك كان دون طائل: مثل هذه الشفقة التي أمكن استثارتها الآن كانت من النوع الميؤوس منه الذي لا يقود إلى النجاة بل فعل الانتقام المؤجل لفترة أخرى.

بينما كان هذا المشهد يتوالى فصولاً في الأعلى وقفت رومولا في الأسفل مستندة إلى واحد من الأعمدة الضخمة في فناء القصر منتظرة اللحظة التي سيظهر فيها عرّابها في طريقه للإعدام. وعن طريق استخدام وساطة قوية تمكنت من الحصول على إذن لزيارته مساء هذا اليوم، والبقاء معه حتى تتقرر نتيجة اجتماع المجلس. في هذه الأثناء كانت تنتظر مع كاهن اعترافه لتتبع الحارس الذي سيقوده إلى السجن. كانت تتوق بشدة للتمسك بوجود العجوز الفاقد الذرية حتى اللحظة الأخيرة – كما كان والدها سيفعل – وقد تغلبت على كل الاحتجاجات. فجيوفان باتيستا ريدولفي، من تلامذة سافونا رولا، الذي كان ذاهباً بكل المرارة ليشهد موت أخيه الأكبر نيقولو، كان وعد بوجوب حراستها، والآن ها هو يقف بجانبها.

كان تيتو أيضاً في القصر، لكن رومولا لم تره. منذ مساء السابع عشر تحاشيا لقاء بعضهما، ولم يعرف تيتو سوى عن طريق الاستنتاج من التقرير عن حيادية الأخ الراهب أن توسلها قد أخفق.

كـان الآن محاطـاً بالشخصـيات الرسـمية والشخصـيات الأخـرى، مـن الفلورانسـيين والأجانـب، والـذين كـانوا ينتظـرون قـرار المجلـس الـذي استغرق وقتاً طويلاً، ومحافظاً، ما لم يتم التوجه إليه بالخطاب مباشرة، علـى سمة الخشوع والصمت الرصين لرجل تضعه الأحداث الحقيقية في حالة صراع مؤلمة بين الشعور العام والخاص. وعندما تلقت زوجه إشارة تلمّح إلى تلك الأحداث، أوحى أنه، نظراً لما يعتور تفكيرها من اضطراب وتشوش، فإن مجرد استمراره بتقلد منصب في ظل حكومة معنية بإدانة عرابها قد أثار بداخلها عدائية مقزّزة نحوه، لذلك شعر أن من الأفضل لأجل خاطرها أن يتحاشى التقرب منها.

قـال سـينيني وهـو يرفـع كتفـه: " آه، دم بـاردي العجـوز! لـن أدهـش إذا جعلهـا هـذا الشـأن تتخلـى عـن الأخ الراهـب، إضـافة إلـى آخرين يمكنني تسميتهم ".

قال مبعوث فرنسي شاب، وهو يبتسم وينحني احتراماً لتيتو: " هذا عذر مقبول من امرأة هي جميلة دون شك، لأنها زوجة السيد تيتو. عندما يفكر المرء أن عواطفها يجب أن تعلو على خير البلد، وأن لا أحد يجب أن يجزّ رأسه إذا كان ابن عم أحدهم. لكن مثل هذا المنظر يجـب ألا يلقـى تشـجيعاً لـدى رهـط الـذكور. يبـدو لـي أن دماثتـك الفلورانسية ضعفت كثيراً من جراء ذلك ".

قـال نيقولـو مكيـافيلي: " هـذا صـحيح، لكـن حيـث الـروابط الشخصية قوية، فإن العداوات التي تثيرها يجب أن تلقى نصيبها الذي تستحقه من الاعتبار. كثير من صور شبه الصرامة هذه إن هي إلا

عثرات الرؤوس الحامية. إن الضربات الآمنة الوحيدة التي يجب أن تنزل بالناس والأحزاب هي الضربات القوية العصية على أن يؤخذ بثأرها ".

قال سينيني: " نيقولو، في حديثك أحياناً خبث ذكي يجعلني أرتاب في وجهك الفتي البشوش كما لو أنه قناع الشيطان ".

قال مكيافيلي مبتسماً وواضعاً يديه على كتف الأكبر سناً: " لا إطلاقاً، يا عزيزي دومينيكو. الشيطان كان مرتكب أخطاء، مروّج novità(2) (الجدّة، الحداثة) وقد ارتكب غلطة فادحة. فلو كان نجح لكنا جميعاً نعبده، ولكانت صورته معرض تقريظ أكبر ".

قال سينيني: " حسن، حسن، لست أقول إن مبدأك ليس على غاية من الذكاء تستعصي على فهم الشيطان: فقط أقول إنه خبيث بما فيه الكفاية بالنسبة إليه ".

قال مكيافيلي: " إني أقول إن مبدئي هو مبدأ كل الناس الذين ينشدون هدفاً أبعد قليلاً من أنوفهم. سل راهبنا، نبينا، ما السبيل إلى تطبيق إصلاحه الشامل: سيقول لك أولاً عن طريق توافر حكومة حرة وطاهرة، وما دام يبدو أن هذا لا يمكن التوصل إليه عن طريق جعل كل الفلورانسيين يحبون بعضهم بعضاً، فإن ذلك يجب أن يتم بقطع كل رأس يتفق أن يكون عقبة كأداء في الطريق. فقط إذا نزل بإنسان عار بسبب تأييد صرامة ليست كاملة بما فيه الكفاية كي تكون نهائية، فإنه يرتكب خطأ. وإني أشتبه بأن غلطة أشبه بهذه قد ارتكبها الأخ الراهب. كانت مناسبة ربما كان اكتسب بسببها بعض الألق عن طريق بذل

جهده للمحافظة على الاستئناف. وبدلاً من هذا فقد فقدَ الألق، ولم يكسب أية قوة ".

قبل أن يتسنّى لأي شخص آخر الكلام جاء الإعلان المنتظر بأن السجناء على وشك مغادرة غرفة المجلس، وأسرع غالبية الموجودين نحو الباب عازمين على تأمين عبور حر تام إلى السجن خلف حرس السجناء، ذلك أن مشهد الإعدام كان مشهداً جذب معاً أولئك الذين حركتهم أكثر العواطف حرارة، وأولئك الذين حركهم أكثر أنواع الفضول برودة.

كان تيتو واحداً من الذين تخلفوا للوراء. كان لديه قرف متأصل لمشاهد الموت والألم، ومنذ خمسة أيام كان كلما فكر بإمكانية تنفيذ هذا الإعدام يأمل ألا يحدث ذلك، وأن يكون النفي هو العقوبة القصوى التي تنزل بهم: لم تتطلب سلامته الخاصة المزيد. لكنه شعر الآن بأن ذلك سيكون كفالة مستحبة لأمنه عندما يعلم أنه أطيح برأس برناردو ديل نيرو .ولقد أعطته المعرفة الجديدة والموقف الجديد المتخذ من قبل رومولا تجاهه يوم عودته خوفاً جديداً من المقدرة التي توفّرت عليها، والتي جعلت موقعه غير آمن. ولو أن أي عمل من لدنها نجح في جعله هدفاً للشك والعار لكان توقّع ليس إحباطاً فحسب بل إحباطاً في طل ظروف غير مستحبة. وكان واضحاً أن إيمانها ببالداسار قد حدد مشاعرها المتأرجحة ضد مزيد من الخنوع، وإذا بقي عرابها على قيد الحياة فإنها ستكسبه إلى جانب مشاركتها إيمانها دون كبير عناء. بدت رومولا أكثر من أي وقت مضى حقيقة واقعة في مصيره عصية على

المعالجة. لكن إذا ما مات برناردو ديل نيرو فإن المصاعب التي ستحدق بها في وضعها نفسها في موضع المعارضة لزوجها قد تكون كأداء بالنسبة لكبريائها المتضائل. لذلك شعر تيتو بارتياح أكبر عندما علم أن الثمانية قد قصدوا البارجيلو للأمر بنصب فوري للمقصلة. أربعة آخرون – أصدقاؤه المقربون والمؤتمنون على سره – كانوا سيعدمون إلى جانب برناردو ديل نيرو. لكن سلامة شخص هي إله يأتي أحياناً بمطالب مريعة. شعر تيتو أنها مريعة: حتى في السعي وراء المبهج، فإن هذه الحياة المتناقضة فرضت عليه أن يرغب ما هو غير مبهج. لكنه تعرض لتجارب أخرى من هذا النوع، وعندما سمع من خلال مدخل البناء المفتوح، جلبة العديد من الأقدام وقرقعة المعدن على السلالم، كان بوسعه الإجابة على أسئلة المبعوث الفرنسي الشاب بدون إبداء علائم على أي شعور آخر سوى شعور التسليم المؤسي أمام ضرورات البلد.

وقعت تلك الأصوات على روموﻻ كما لو أن قدرتها على السماع قد ازدادت جنباً إلى جنب مع كل حساسية أخرى في طبيعتها. لم تحتج إلى أي ذراع تسندها، لم تذرف أية دموع. شعرت بتلك الشدة في الحياة التي تبدو متجاوزة للحزن والفرح معاً – التي يبدو فيها العقل أمام ذاته على صلة بالقوى الأقدم زمناً التي صاغت الوجود قبل ولادة السعادة والألم. ومنذ أن تقرر مصير عرابها فإن تصارع المشاعر السابق في داخلها قد أفسح المجال لتماه معه في هذه اللحظات الجليلة: وقد كانت في داخلها تؤكد له أنه إذا ما عانى من عقوبة

الخيانة فإنه لا يستحق اسم خائن. وقد كان ضحية تصادم بين نوعين من الصدق. فهو لم يحظ بالموت من أجل أنبل قضية، ومع ذلك فقد مات بسبب من نبالته. كان يمكن أن يكون على درجة أكبر من النذالة وعندها سيجد سهولة أكبر في عدم إلصاق هذه التهمة به. كانت رومولا تشعر بالقوة الكاملة لتلك المشاعر الوجدانية مع القسمة الفردية التي لا تني تقف في معارضة مع الصيغ التي يحكم بوساطتها على الأفعال والأحزاب. كانت تطأ الطريق بخطواتها مع أبيها الثاني إلى المقصلة، وتتأهب بكل طاقتها لتتحدى الخزي عن طريق الشعور بأن ذلك لم يكن مستحقاً.

كان الطريق مسيجاً بثلاثمائة مسلح تمركزوا كحرس بناء على أوامر فرانشيسكو فالوري، ذلك أنه من بين التناقضات الظاهرة المتصلة بهذه الحادثة، لم يكن أقلها لفتاً للانتباه الذعر المزعوم، من نحو، من الغضب الشعبي ضد المتآمرين، والذعر المزعوم، من نحو آخر، لئلا تجري محاولة لإنقاذهم وسط جمهور محتشد معادٍ. وعندما وصلوا إلى داخل فناء السجن سمح لرومولا أن تقترب من برناردو مع كاهن اعترافه للحظة وداعية. تطلعت عديد الأنظار إليهما حتى وسط ذلك العراك الناجم عن حشد هائج عندما رفع الرجل المسن، والذي نسي أنه مصفد بالأغلال، بصره صوب الرأس الذهبي الشعر المطرق نحوه، وثم، بعد أن تفحص تلك الحركة، انحنى كي يقبلها. قبضت على اليدين المغلولتين اللتين أسبلتا ثانية، وقبلتهما كما لو أنهما كانا شيئين مقدسين.

قال برناردو بصوت خفيض: " عزيزتي المسكينة روملا، ما عليّ سوى أن أموت، لكن عليك أنت أن تعيشي – ولن أكون حاضراً لأساعدك ".

" أجل "، قالت روملا على عجل، " لسوف (مشددة) تساعدني – ودائماً – لأنني سأظل أتذكرك ".

سحبت بعيداً واقتيدت على درجات السلم المفضي إلى الشرفة المحيطة بالفناء الكبير العتيق. احتلت مكانها هناك مصممة على المراقبة حتى اللحظة التي يضع فيها عرابها رأسه على الآلة. في هذه الأثناء بعد أن أعطي السجناء فترة وجيزة اختلوا فيها مع كاهنهم كان احتشاد المشاهدين يتزايد داخل الفناء(3) حتى أصبحت الحشود كثيفة حول المقصلة السوداء، وفي إحدى المرّات ألقت المشاعل المثبتة بحلقات حديدية على الأعمدة نوراً مخيفاً متبدلاً على منحوتات حجرية خلو العاطفة، على وجه شاحب مشحون بغضب مقموع أو حزن مقموع – وجه واحد بين الكثيرين من الأقرباء المقرّبين للمدانين الذين كانوا يتأهبون لاستلام موتاهم والعودة بهم إلى البيت.

بدا وجه روملا مثل صورة رخامية قبالة القوس الأسود عندما وقفت تراقب بانتظار اللحظة التي سيظهر فيها عرابها تحت المقصلة. كان مقرراً أن يكون أول المكابدين، وباتيستا ريدولفي، الذي كان يقف بحذائها، كان وعد أن يصحبها بعيداً عن المكان من خلال باب يقع خلفهما لتلقي آخر نظرة على الرجل الذي من بين كل مخلوقات العالم شاركها حبها المؤسي لوالدها. ومع ذلك فقد كانت تقبع في خلفية

تفكيرها الإمكانية التي تجهد كي تكون أملاً بأن نجاة ما يمكن أن تأتي، شيء ما يبقي على المقصلة بمنأى عن التلطخ بالدم.

لفترة طويلة اتصلت الحركة، أضواء مترجرجة، رؤوس متمايلة هنا وهناك، أصوات مختلطة داخل الفناء، أمواج متدافعة من أصوات قادمة من الخارج عبر المدخل. شعرت رومولا كما لو أنها كانت تقف وسط بحر هيّجته العاصفة، لا تلقي بالاً إلى العاصفة، وإنما تبالي فقط برفع إشارة إلى أن تكف الأعين التي بحثت عنها عن البحث عنها.(4)

وفجأة ساد سكون، والشموع ذاتها بدت ترتعش إلى أن سكنت. كان الجلاّد يقف متأهباً عند المقصلة وشوهد برناردو ديل نيرو يصعد إليها بخطوة بطيئة ثابتة. لم تبد رومولا أية حركة ظاهرة، ولم تطلق حتى صوتاً مكبوتاً: وقفت بثبات أكبر، ملقية بالاً لثباته هو. شاهدته يتوقف وشاهدت الرأس الأشيب مرفوعاً للأعلى عندما قال بصوت واضح مسموع –

" إن هي إلا فسحة قصيرة من الحياة استلها مواطنيَّ مني ".

لاحظت أنه كان يحدق حوله ببطء عندما كان يتكلم. شعرت أن عينيه كانتا مسمرتين عليها، وأنها كانت تمد ذراعيها نحوه. ثم لم تعد تراه حتى – بعد فترة طويلة، بدا – وكأن صوتاً يقول: " يا ابنتي، لقد سكن كل شيء الآن. أنا جاهز لأقودك إلى بيتك ".

حسرت عن رأسها وشاهدت كاهن عرابها يقف بجانبها، في غرفة حيث كان أناس آخرون، تظهر عليهم سيماء الرصانة، يتحدثون بأصوات مكبوتة.

قالت وقد انتبهت فجأة من شرودها: " أنا جاهزة. دعنا لا نضيع وقتاً ".

كان حال تفكيرها، أن كل علاقة وشيجة وصلت إلى نهايتها: كل قوتها الآن يجب أن توجه نحو النجاة من قبضة كانت ترتعش من وطأتها.

الفصل الحادي والستوم
التهادي بعيداً عن الشاطئ

في اليوم الثامن عقب تلك الليلة المشهودة كانت رومولا تقف على حافة البحر الأبيض المتوسط تراقب خفقان البحر الصيفي اللطيف في مكان يقع تماماً أعلى ما كان وقتئذ قرية فياريجيو الصغيرة التي تعيش من صيد السمك. (1)

مرة أخرى هربت من فلورانسة، وهذه المرة لم يدعُها للعودة أي صوت يستحوذ على انتباهها. مرة ثانية ارتدت ثوب الراهبة الديني الرمادي. وهذه المرة، وهي المريضة في الفؤاد، لم تأبه لكونه ثوباً تنكرياً. لقد تصاعدت بداخلها ثورة جديدة، يأس جديد.لم َ يتوجب عليها أن تحرص على ارتداء شارة بعينها دون غيرها، أو على أن ينادوها باسمها الخاص؟ لقد يئست من العثور على أي واجب متسق ينتمي لذلك الاسم. أي قوة يخلق لها وجودها ذلك الدافع المنور بهالة غير عادية، ما يدعوه الناس واجباً , إلا تلك التي تخلو من أي وجود

داخلـي يقيّـد صـاحبها اللهمّ إلا مـن خـلال شـكل مـا مـن أشـكال الحـب المؤمن؟

لقـد انقصـفت كـل روابـط المحبـة القويـة. فـي زواجهـا، وهـو الأسمى بين كل الروابط، كفت عن أن ترى الاتحاد الصوفي والذي هو ضمانته الوحيدة التـي تدرأه من التفكك، بـل كفت عن أن تـرى الالتزام المتأتي عن ميثاق (عهد) اختيـاري: ألم تبـرهن علـى أن الأشـياء التـي رهنت نفسها لها كانت مستحيلة؟ لقد عاد الحافز بداخلها علـى تحرير نفسـها لينـهض مـن جديـد بقـوة طغـت علـى كـل مـا عـداها. ومـع ذلـك فالحريـة لا يمكـن أن تكـون سـوى مقايضـة للمصـيبة. لـيس هنـاك مـن تعويض للمرأة التـي تشعر أن العلاقة الرئيسة في حياتها لم تكن أكثر مـن غلطـة. لقـد فقـدت تاجهـا. لقـد همـس السـر الأعمـق، سـر البركـة الإنسانية نصف همسة لها، ومن ثم تجاوزها للأبد.

والآن فقد فقدت رومولا أفضل معين لها في ظل حزن المرأة الأسمى ذاك. إن رؤيا أي هدف نبيل، أية غاية في الوجود، يمكن أن تضفي نبلاً على طاقة التحمل وتسمو بالأفعال العادية لحياة مضطربة عن طريق الحماس الإلهي، قد انكسف الآن نورها كلية بالنسبة إليها بسبب الشعور بالتشوش الذي أصاب الأشياء البشرية والذي أحال كل جهد مجرد جرجرة لخيوط متشابكة، وكل أخوة، سواء لأجل المقاومة أو المناصرة، مجرد استئثار وانتفاء للعدالة. ماذا كان، بعد كل هذا وذاك، الإنسان الذي مثّل لها أسمى بطولة: بطولة ليست هي بطولة التحمل الصلب الكابح للذات، بل بطولة المحبة الراغبة المضحيّة بالذات؟ وما

هي القضية التي كان يناضل من أجلها؟ لقد فقدت رومولا ثقتها بسافونا رولا، فقدت ذلك الحماس الثاوي في الإعجاب الذي جعلها لا تتوقف عند ضلالاته(سافونا–م)،وتتنبه فقط للمنحنى الجليل في مداره. والآن بعد أن وضعها شعورها القوي دعماً لعرابها في عدائية مع الراهب فقد رأت كل التفاصيل المنفرة والمتطوحة في تعاليمه بوضوح مؤلم ضخّم من أبعادها. وفي المرارة الناجمة عن خيبة أملها قالت إن سعيه المكدود وراء تجديد الكنيسة والعالم كان سعياً وراء اسم ليس إلا، لم يكن يعني أكثر من عنوان كتاب: اسم قد أصبح المقصود منه من الناحية العملية الإجراءات التي سوف تقوي من مكانته في فلورانسة. لا، غالباً أفعال وكلمات مشكوك بأمرها، من أجل ألا يتأثر نفوذه من جرّاء الأخطاء التي يرتكبها. وذلك الإصلاح السياسي الذي بعث ذات يوم اهتماماً جديداً في حياتها بدا الآن يتضاءل ليؤول إلى مكائد ضيقة الهدف منها سلامة فلورانسة، في تناقض يدعو للازدراء مع المجاهرات المتبدلة للثقة العمياء بالعناية الإلهية.

كان لا مفر من أن تحكم على الراهب بصورة غير عادلة في مسألة تخص مكابدة فردية نظرت إليها هي (مشددة) بعيني الحنان الشخصي، وهو (مشددة) بعيني الإيمان النظري. في إعلانه ذاك، بأن قضية حزبه كانت قضية مملكة الله، لم تسمع سوى رنة الأنانية. ربما لم يُنطق بتلك الكلمات إلا نادراً من دون أن تشوبها تلك الرنّة الأكثر خسة ودناءة. لكنها تبقى الصيغة الضمنية لكل إيمان قوي. وإذا كان هناك خطر من أن يتحول مثل هذا الإيمان القوي، في سعيه وراء

هدف عظيم وبعيد، إلى عبادة شيطان فيها المتحمس للقضية يدع ابنه وابنته يعبران النار باستعداد قلما يبدو كتضحية، فإن الشعور الأخوي الحنون تجاه الأقرب إلينا له مخاطره أيضاً، وهو عرضة لأن يكون حيياً وشكاكاً تجاه الأهداف الأكبر التي لا يمكن للحياة بدونها أن ترقى لتصير دِيناً. على هذا النحو كانت بصيرة رومولا المسكينة معميّة بدموعها.

وليس من أحد عرف يوماً ماهية هكذا حالة يفقد فيها المرء الإيمان بإنسان من أبناء جلدته أحبه ووقّره بعمق سيقول بكل استخفاف إن الصدمة يمكن أن تترك الإيمان بالخير اللامرئي صامداً لا يتزعزع. ومع تدنّي الثقة البشرية العليا فإن كرامة الحياة تتدنّى أيضاً.نحن نكف عن الإيمان بذاتنا الأفضل ما دام ذلك أيضاً جزءاً من الطبيعة المشتركة التي تدنت مرتبتها في تفكيرنا. وكل الدوافع الأكثر جمالاً في الروح يعتريها التبلد. لا بل شعرت رومولا أنه حتى ينابيع ما كان يوماً حدبها النشط قد غاضت، تاركة إياها للتشكي الأناني المجدب. ألم يكن لها هي (مشددة) أحزانها الخاصة بها أيضاً؟ والقليلون من الناس شملوها برعايتهم، بينما كانت هي تشمل برعايتها الكثيرين. لقد فعلت ما فيه الكفاية. لقد جاهدت وراء المستحيل، وسئمت من هذه الحياة المزدحمة الخانقة. تاقت إلى تلك الراحة الثاوية في الإحساس المجرد والتي حلمت أحياناً بها في المساءات الخانقة (من الحرارة والرطوبة معاً –م) في مقتبل صباها، عندما تهيأ لها أنها تعوم كالحورية (2) على الأمواه.

بدت الأمواج الصافية تدعوها: تمنت لو كان باستطاعتها أن تغفو عليها وتعبر من النوم إلى الموت. لكن لم يكن بوسع رومولا أن تسعى إلى الموت مباشرة. إن نضج حياة الشباب بداخلها حال دون ذلك. لم يكن باستطاعتها أن تتمنى سوى أن يأتي الموت إليها.

وفي البقعة التي توقفت عندها كان الشاطئ ينعطف بشكل حاد، وفي تلك البقعة كان يرسو قارب شراعي صغير. وفي توقها للانزلاق على الأمواه التي كانت تتحول ذهبية بفعل أشعة الشمس المستوية فكّرت بقصة لبوكاتتشيو كانت من بين الأشياء التي أحبّت دائماً أن تركز عليها (3)، كان ذلك عندما غفا والدها وانسلت هي من مقعدها لتجلس على الأرض وتقرأ " الديكاميرون ". كانت قصة تلك الجميلة كوستانزا التي رغبت، عندما تخلى حبيبها عنها، أن لا تعيش بعدئذ، لكن دون أن تمتلك الشجاعة للتعرض لحياتها الشابة، وضعت نفسها في قارب ودفعت به إلى البحر. ثم، وهي ترقد في القارب، لفت رداءها حول رأسها آملة أن يتحطم قاربها بشكل لا ينفعها خوفها من الإفلات من الموت. بقيت الذكرى مجرد فكرة في رأس رومولا، دون أن تتبرعم لتصير رغبة واضحة. لكنها الآن، بعد أن توقفت مرة أخرى عن السير هنا وهناك، رأت قارباً آخر وشخصاً واحداً بداخله ينزلق أسود على خلفية الذهب الأحمر وينزلق صوب الانعطاف في خط الشاطئ حيث كان يرسو القارب الأول والأصغر. وعندما استأنفت سيرها ثانية شاهدت الرجل يترجل أخيراً، ويسحب قاربه باتجاه الشاطئ، ويبدأ بتحميل شيء منه. لعله صاحب القارب الأصغر أيضاً: ولسوف يسافر

حـالاً، وفرصـتها سـتذهب معـه – فرصـتها فـي شـراء ذلـك القـارب الأصغر. لم تكن حتئذ قد اعترفت لنفسها بأنها كانت تنوي استعماله، لكنها شعرت بشوق مفاجئ لتأمين تلك الإمكانية، الأمر الذي كشف عن نمو فكرة بصورة تكاد تكون لاشعورية،وصلت إلى حد الرغبة.

" هل ذلك القارب الصغير ملكك أيضاً "، قالت للصياد الذي نظر لأعلى، وقد ارتعد قليلاً لرؤيته القامة الدكناء الطويلة وأبدى توقيراً لهذه الأخت القديسة التي تطوّف على هذا النحو بشكل غامض في هذه العزلة المسائية.

لقد كان فعلاً قاربه. قارب عتيق يكاد لا يصلح للإبحار لكن يستأهل الإصلاح بالنسبة لأي إنسان يروم شراءه. وببركة سان أنطونيو الذي كان معبده في القرية هناك كانت تجارته في الصيد رائجة، وقد وفّرت له الآن قارباً أفضل كان يوماً لجياني الذي توفي. لكنه لم يبع القارب العتيق حتى الآن. سألته رومولا عن الثمن، ثم، بينما كان منهمكاً رمت بالثمن داخل كيس صغير ملقى على الأرض يحوي بقية زوّادته. وبعد ذلك راقبته يطوي شراعه وسألته كيف يرفعه إذا رام الإبحار، ثم انتظرت، بعد أن جالت في المكان،لتشاهده وهو يغادر.

أخذ تصورها لنفسها وهي تتهادى على المياه بعيداً في ذلك القارب على الأمواه التي كان يتعمّق سوادها يتنامى شيئاً فشيئاً ليصير توقاً، مثلما يصبح التفكير بجدول بارد في جو حار عطشاً مؤلماً. وكي تتحرر من عبء الاختيار عندما تهشمت كل الدوافع، لتستودع نفسها، وهي نائمة، في يد القدر الذي سيجلب إما الموت أو ضرورات جديدة

قد تبتعث بداخلها حياة جديدة! – كانت فكرة أومأت إليها أكثر لأن هواء المساء الرخي جعلها تتوق للراحة في هدأة العزلة بدلاً من العودة إلى ضجيج القرية وقيظها.

وأخيراً جمّع الصياد المتمهل كل أمتعته وأخذ يبتعد عن المكان. وسرعان ما أخذ الذهب ينحسر ويتعمّق الغسق بحراً وسماءً، ولم تعد ترى أي كائن حي، أو صوت بل الرتابة المهدهدة للأمواج المتلاطمة التي يلحق بعضها بركاب بعض. في هذا البحر ما كان ليوجد أي مدّ يعين في حملها بعيداً إذا انتظرت جزره. لكن رومولا خالت أن نسيم البر أخذ ينشط قليلاً. دخلت القارب وأفردت الشراع وثبتته كما كانت تعلمت في ذلك الدرس الأول الموجز. رأته وقد التقط النسيم الخفيف، وكان هذا كل ما كانت تحرص عليه. ثم فكت القارب من مرساته وحاولت أن تستحثه بمجذاف إلى أن أصبحت بعيدة عن البر، وأصبح البحر أسود حتى في جهة الغرب، والنجوم بانت مثل حياة مختلجة فوق السماوات العراض. وإذ ارتاحت أخيراً خلعت غطاء رأسها، وبعد أن خلعت المنديل تحته الذي طوق شعرها، جمعت الاثنين تحت رأسها مشكلة وسادة على أحد أضلاع القارب. لم تبارح الرأس الأشيب فتوته وكان بإمكانه تحمل وسادة قاسية.

وهكذا استلقت وهواء الليل الرخي يهب بنسيماته عليها بينما كانت تتهادى على المياه وتراقب الهدأة المتعمقة للسماء. كانت الآن وحيدة: لقد أعتقت نفسها من كل التكاليف، أعتقت نفسها حتى من عبء الاختيار ذاك الذي ينوخ بثقله أكثر فأكثر عندما ترخي التكاليف

قبضتها الهادية.

هل أنها عثرت على شيء أشبه بحلم صباها؟ لا. فالذكريات تدلت من حولها مثل ثقل أجنحة مكسورة لم يكن رفعها ممكناً – ذكريات التعاطف الإنساني الذي يخلّف حتى في أوجاعه عطشاً لم يكن لدى الأم الكبرى حليب يطفئه. شعرت رومولا باليتم في شساعات البحر والسماء تلك . لم تتبيّن أية رسالة حب لها في تلك الكتابة السماوية النائية والرمزية، وبنشيج عظيم تمنت لو أنها تتهادى إلى أن تلج الموت.

سحبت الغطاء على رأسها مرة ثانية، وغطت وجهها مؤثرة الظلمة على ضوء النجوم التي بدت لها بمثابة النور القوي لعينين نظرتا إليها دون أن ترياها. وفي الحال شعرت بأنها داخل اللحد، لكن دون أن تمكث هناك: أخذت تلامس أيدي الموتى الأحباء بجانبها محاولة أن توقظهم.(4)

الفصل الثاني والستون
منح البركة

حوالي الساعة العاشرة من صباح السابع والعشرين من شباط (1) يممت حشود المشاة المتدفقة شطر دير سان ماركو. كان ذلك آخر صباح من أيام الكرنفال، وكان الجميع يعلمون بالترتيبات الجارية لإضرام نار أخرى في العراء لحرق أدوات الزينة التافهة أمام القصر

القديم. لكن الواضح أن مركز الاهتمام الجماهيري في هذه الساعة كان يتركز في مكان آخر.

كانت ساحة سان ماركو تغص بحشود لم تبد حراكاً سوى ما نجم عن ضغط الوافدين الجدد الذين حاولوا أن يشقوا طريقهم للأمام من كل الفرجات: لكن الصفوف الأمامية كانت متراصة ملتزة من قبل وصمدت أمام الضغط. كانت تلك الصفوف تنتظم حول حاجز شبه دائري أمام الكنيسة، وكان قد تجمع داخل هذا الحاجز أخوة سان ماركو الدومينيكان.

لكن المنبر الخشبي المؤقت المنتصب فوق باب الكنيسة كان ما يزال خالياً. وكان سيدخل إليه عما قريب الرجل الذي كان أمر البابا قد أبعده عن المنبر الكنسي، ومنع كهنة فلورانسة الآخرين من التواصل معه، ومنع المواطنين من سماعه تحت التهديد بعقوبة الحرم الكنسي. كان هذا الرجل قد قال: " إن البابا الشرير غير المؤمن الذي فاز بكرسي البابوية عن طريق الرشوة ليس يمثل المسيح. لعناته هي سيوف مكسورة: إنه يقبض على مقبض بدون نصل. أوامره مناقضة للحياة المسيحية: وعصيانها لا يخرج عن نطاق القانون – لا، بل إن إطاعتها ليست من القانون في شيء ". ولم ينفك الناس عن الاحتشاد لسماعه وهو يكرز في كنيسته في دير سان ماركو، رغم أن البابا كان يهدد فلورانسة بالويل والثبور إذا لم تنبذ المنشق الوبائي وترسله إلى روما لتتم " هدايته " – ومع ذلك فهم يقبلون، كما فعلوا في هذا الصباح، الاعتراف من يديه المحرمتين كنسياً. إذ كيف لو أنه تسنى

لهذا الراهب حقاً سلطة على الصواعق الإلهية أكبر من سلطة ذاك الخليفة الرسمي لسان بيتر؟ لقد كانت مسألة خطيرة، وهي بالنسبة لحشود المواطنين لا يمكن أن تحسم أبداً عن طريق الاختبار النهائي للراهب، ألا وهو، ما الشيء الذي يتعارض أو لا يتعارض مع القانون الروحي الأعلى. لا: في قضية كهذه، إن كان الإله قد اختار الراهب كنبيّ له لتقريع الكاهن الأكبر الذي ارتدى الثياب الروحية عن غير وجه حق فإنه سيبرهن على اختياره بوساطة إشارة واضحة لا لبس فيها. وطالما لم يحمل الإيمان بالنبي أية نُذُرٍ لمصيبة خارجية، بل بالحري الأمل الأكيد بالسلامة الاستثنائية، فلم تكن هناك حاجة لأية إشارة: فوعظه كان موسيقى شعر الناس نحوها بأنهم سائرون على الطريق التي رغبوا أن يسلكوها. لكن ذاك الإيمان كان يعني الآن ضربة مباشرة لتجارتهم، واهتزاز موقعهم بين الدويلات الإيطالية، وحُرْماً على مدينتهم، مما لم يترك أي مناص من أن يطرح السؤال " أية أعجوبة أنت تبديها؟ " وببطء أولاً، ثم بتسارع أكبر فأكبر، كان ذلك المطلب الخطر يتفاقم في أذن سافونارولا، باعثاً على إجابة، تتمثل خارجياً في الإعلان أنه في الوقت المناسب ستأتي الأعجوبة، وداخلياً في الإيمان – الذي لم يسلم من الاهتزاز، إذ أي إيمان هو هذا الإيمان؟ – أنه إذا ما مسّت الحاجة إلى أعجوبة فإن العمل الذي ينتظره هو أعظم من أن تتركه القدرة الإلهية يتوقف. إيمانه تأرجح، لكن ليس كلامه:إنها قسمة كل إنسان يترتب عليه أن يتكلم إرضاءً للجمهور، يترتب عليه أن يتكلم غالباً على ضوء إيمان البارحة، على

أمل أنه(الإيمان) سيعود غداً.

كان تحضيراً لمشهد شكّل استجابة حقيقية للتوق الجماهيري الذي يلحّ في طلب ضمانة غير عادية لرسالة النبي ما حدا بأن ينصب المنبر الخشبي فوق باب الكنيسة. لكن بينما كان الرهبان العاديون بثيابهم السود يدخلون ويهيؤون أنفسهم، فإن وجوه الحشود لم تكن بعد متوجهة بلهفة صوب المنبر: كان الشعور أن سافونارولا لن يظهر آنئذ، وكان هناك شيء من الاهتمام حدا لفرز شتى الرهبان، بعضهم ينتمي إلى العائلات الفلورانسية الراقية , كثيرون منهم لهم آباء، وأخوة، أو أبناء عمومة وخؤولة بين الحرفيين وأصحاب الحوانيت الذين شكلوا غالبية الجمهور. ولم يقل الناس لبعضهم : " لا بد أن الأخ جيرولامو آت الآن " إلى أن انتهى تقوّل الرهبان، وإلى أن خفقوا بكتبهم وبدؤوا بالإنشاد.

كان ذلك الأمل، أكثر من أي سحر يصدر عن الإنشاد النادب المعتاد للمزامير، هو الذي جعل الصمت والترقّب يبدوان في انتشارهما مثل ضوء مهيب شاحب فوق حشود الوجوه المشرئبّة للأعلى، وكانت كلها الآن موجهة نحو المنبر الخاوي.

في اللحظة التالية لم يعد المنبر خالياً. ذلك أن شخصاً مغطى من الرأس حتى أخمص القدمين بقلنسوة وثوب أسودين كان قد دخل، وأخذ يركع، محني الرأس، مشيحاً بوجهه للجهة الأخرى. بدت فترة مرهقة بالنسبة للناس المتلهفين بينا ركع الشخص الأسود وطفق الرهبان ينشدون. لكن الصمت لم يخرق، ذلك أن مناسبات لقاء الراهب

مع السماء كانت مشحونة برهبة كهربائية بالنسبة لذاك الحشد المختلط، حتى إن أولاء الذين كانت لديهم الرغبة في رجمه شعروا بعدم مطاوعة أذرعهم لهم.

وأخيراً حدث مرج وسط الحشود ، إذ بدا كل واحد وكأنه يلمس جاره لمسة مؤقتة راعشة، كما عندما يرى الناس الذين يراقبون السموات بحثاً عن شيء ما الشيء المتوقع يميط اللثام عن نفسه بصمت. كان الأخ الراهب قد نهض والتفت إلى الناس، ودفع بقلنسوته جزئياً إلى الخلف. كانت الأصوات النادبة المنشدة للمزامير قد توقفت، وبدا لأولئك الواقفين جانب المنبر كما لو أن الأصوات التي ضجّت للتو في آذانهم قد اختلطت فجأة مع شدة البأس التي وسمت نظرة سافونارولا المشعة عندما أخذ ينظر حوله في هدأة الصمت. بعدها مدّ يديه اللتين بدتا، في نعومتهما الفائقة، وقد تحولتا من عضو حي يستعمل للإمساك إلى وسيلتين للحساسية تتسمان بقوة شديدة لا تحتاجان معها إلى أي تماس فظ: يدين جاءتا مثل كلام معجب من ذلك الجزء من روحه الذي توارى خلف قناع وجهه القوي المشحون بالعاطفة، المرتسم عليه الآن حول الفم والجبين خطوط أعمق من تلك التي رسمتها أربع وأربعون سنة من الحياة العادية (2).

ولدى أول بسط للأيدي جثا بعض الحشود في الصفوف الأولى على ركبهم، وفي شتى أرجاء المكان على مبعدة فعل تلميذ متعبد الشيء ذاته. لكن الغالبية العظمى وقفت راسخة كالطود، بعضها يقاوم الدافع للجثو أمام هذا الشخص المحروم كنسياً (ألن تسقط على

رأسه دينونة كبرى حتى في عمل النعمة الإلهية هذا؟) – وآخرون جأروا بأصوات ازدراء وكراهية لهذا الخدّاع الطامح الذي كان يركّب هذه الكوميديا الجديدة التي شعروا أمامها، رغماً عن ذلك، بأنهم عاجزون، كما أمام انتصار الزي أو الموضة.

وإذ بالصوت يأتي، واضحاً وخفيضاً في المبتدأ ناطقاً بكلمات الغفران – "Misereatur vestri "(3) وجثا عدد أكبر على ركبهم: وعندما تعالت نبرته، إنما بصفاء أكبر، تضاءلت الرؤوس المشرئبة شيئاً فشيئاً، إلى أن استحال، عند الكلمات " Benedicat vos omnipotens Deus"(4) صرخة مدوية، كما لو أنه يجأر بقوته لمنح البركة وهو يرزح تحت قبضة شيطان أراد أن يخمده: صدح مثل بوق حتى وصل إلى أطراف الساحة، وبفعل تأثيره انحنت كل الرؤوس.

وعلى أثر النطق بتلك البركة جثا سافونارولا نفسه على ركبتيه وأخفى وجهه المرهق لفترة مؤقتة. شكّلت تلك الدفقات العظيمة من الانفعال جزءاً ضرورياً من حياته. هو نفسه كان قال للناس منذ أمد بعيد: " بدون وعظ لا يمكنني أن أعيش ". لكنها كانت حياة هشمته.

بعد بضع دقائق كان بعضهم قد نهض واقفاً لكن عدداً أكبر منهم بقي راكعاً، وكانت كل الوجوه تراقبه باهتمام. كان قد تناول بين يديه إناء بلورياً يحوي خبز القربان المقدس وكان على وشك مخاطبة الناس.

" تذكرون، يا أبنائي، منذ ثلاثة أيام سعيت وراءكم عندما

توجب علي أن أحمل هذا القربان المقدس في يدي أمامكم جميعاً، وأن أتضرّع بحماس للأسمى من الكل قائلاً إنه إذا لم تكن فعلتي هذه من لدنه، فإنه سيرسل ناراً ويحرقني، وأنني قد أختفي في الظلمة الأبدية بعيداً عن نوره الذي خبأته بريائي. مرة أخرى أتوسل إليكم أن ترفعوا تلك الصلاة، وأن ترفعوها ***الآن*** ".

كانت لحظة حبست فيها الأنفاس: ربما لم يصلّ أحد حقاً، إن كان بعضهم تدفعه روح الطاعة الورعة قد قام بمجهود للصلاة. كل شعور قد استحوذ عليه بصورة رئيسة الإحساس بأن سافونا رولا كان يصلي، بصوت غير مرتفع، لكنه مسموع بوضوح في السكون الشامل.

" يا رب، إن لم أكن أعمل بروح صادقة، وإن لم تك كلمتي صادرة عنك، اضربني في هذه اللحظة بصاعقتك، ودع نيران غضبك تحاصرني ".

توقف عن الكلام، ولبث صامتاً دون حراك، والسر المقدس في يده، وعيناه مرفوعتان وانفعال راعش يعتري كامل كيانه. كل شخص آخر وقف أيضاً ساكناً لا يريم دون أدنى حركة بينما رسم نور الشمس، الذي بقي طيلة ربع الساعة الأخير يخترق الغبش الرمادي في أكثر من مكان، خطوطاً متقطعة عبر جدار الدير، جاعلاً بعض الحاضرين الذين أصابتهم الرهبة يجفلون بوجل. لكن سرعان ما حدثت فرجة أوسع، وبسرعة لطيفة، كما الابتسامة،تدفق تيار من نور باهر على الأصيص البلوري، ومن ثمّ انتشر فوق وجه سافونا رولا بجلال ناعم لطيف.

دوت على الفور صرخة في أرجاء الساحة، " هوذا الجواب ! "

هزّت نشوة الألق الدافئ كيان سافونارولا، وكذا فعلت الصرخة. كانت اللحظة الأخيرة لانتصاره الذي لم يكدّره شيء، وقد شعر في وثوقيته المستبشرة أنه حُمل إلى مشهد أكثر جلالاً لم يأت بعد، أمام جمهور يمثل كل المسيحية، جمهور سيترسخ هو في حضوره أيضاً كرسول للحق الأعلى، ويشعر أنه مشحون تماماً بالقوة الإلهية. ولم تكن سوى لحظة استطالت في شكل تلك الرؤيا المسبقة. وبينا كانت الصرخة لا تزال تصدح في أذنيه انسحب وتوارى داخل الكنيسة شاعراً بتوتر هو أكبر من طاقته على التحمّل .

لكن عندما توارى الأخ الراهب، ولم يعد يسم نورَ الشمس في ضيائه وألقه أي شيء خاص، بل كان ينتشر خلواً من أي شيء (بحيادية)فوق كل الأشياء الطاهرة والدنسة، انطلقت، جنباً إلى جنب مع الحركة العامة للجمهور، جلبة أصوات بدا واضحاً، من جرّاء النغمات شديدة التنافر والمستويات المتفاوتة من الضحك فيها، أن روح العدائية والازدراء قد وقعتا على مضض، أثناء الصمت والسجود الشامل السابقين، تحت تأثير سحر لحظي.

قال تيتو، الذي كان يرقب المشهد باهتمام من شرفة عليا في أحد البيوت قبالة الكنيسة: "يبدو لي أن التصفيق والاستحسان يخليان السبيل للانتقاد. ومع ذلك فقد كانت لحظة مثيرة، إه، يا سيد بيترو؟ فالأخ جيرولامو هو شخص يجعل المرء يفهم أنه مرّت فترة كان فيها رداء الراهب يشكل رمزاً لسلطة تملّكت عقول الرجال أكثر منه مفاتيح

خزائن النساء ".

قال بيترو سينيني: " بالتأكيد، وإلى أن أرى الدليل على أن إيمان الأخ جيرولامو بأحكام الله قد ضعف أكثر بكثير من إيمان السواد الأعظم من الناس، بدلاً من أن يكون أكبر بما لا يقاس، فإنني لن أصدق بأنه سيتجرّأ على تحدّي السموات على هذا النحو إذا كانت روحه مثقلة بكذبة هو على دراية بها ".

الفصل الثالث والستون
خطط آخذة بالنضوج

بعد مضي شهر على ذلك الكرنفال، وفي أحد الصباحات حوالي نهاية شهر آذار كان تيتو ينزل على الدرج الرخامي في القصر القديم، متوجهاً في مهمة حبلى بالمعاني إلى ديرسان ماركو. ولسبب ما لم يشأ أن يسلك الطريق المباشر، والذي كان يبتدئ من القصر القديم بخط منعرج قليلاً. لقد آثر أن يلتف حول ساحة سانتا كروتشه (بياتزا دي سانتا كروتشه) حيث سيخرج الناس من الكنيسة زرافات ووحدانا غبّ عظة الصباح الباكر.

في الكنيسة الكبيرة لسانتا كروتشه دون غيرها اجتذبت عظة الصوم الكبير اليومية مؤخراً العدد الأكبر من الجماهير. ذلك أن صوت سافونارولا لم يعد يسمع حتى في كنيسته في دير سان ماركو، بعد أن فرض السينوريا المعادي عليه التزام الصمت إذعاناً لخطاب

جديد من البابا، مهدداً المدينة بحرم فوري إذا لم تمنع هذه " الحشرة البائسة " و" المعبود القبيح " من الوعظ ويرسل ليطلب الصفح في روما. وعقب سماع الأخ جيرولامو نفسه كان الانشغال الأكثر إثارة في فترة الصوم الكبير يتمثّل في سماع الجدل الدائر ضده وتشويه سمعته. وقد كانت هذه الإثارة ستتمّ في سانتا كروتشه حيث كان الراهب الفرانسيسكاني المعين ليكرز بعظات الصوم الكبير Quaresimal Sermons(1) قد عرض أن يثبت حججه عن طريق السير عبر النار مع الأخ جيرولامو. ألم يقل ذلك المنشق الدومينيكاني إن معتقده النبوي سيبرهن عليه بأعجوبة في الوقت المناسب؟ هوذا، إذن، الوقت المناسب. دع سافونارولا يسرْ عبر اللهب، وإذا ما خرج سالماً غانماً فإن الأصل الإلهي لمعتقده سيكون قد برهن عليه. لكن إذا ما قضت عليه النار فسيظهر رياؤه جلياً. ولئلا يكون لديه أي عذر لتفادي التجربة فقد أعلن الراهب الفرانسيسكاني نفسه أنه راغب في أن يكون ضحية لهذا المنطق السامي، وأن يحرق لأجل تأمين المقدمة الضرورية الصغرى (2)

وجرياً على عادته لم يلق سافونارولا بالاً لهجمات المنبر هذه. لكن اتفق أن واعظ سانتا كروتشه المتحمس لم يكن سوى الأخ الراهب فرانشيسكو دي بوغليا، الذي كان منهمكاً في براتو لسنة خلت في تحدٍّ مماثل مع مريد سافونارولا المتحمس الأخ الراهب دومينيكو، لكنه أمر بالعودة إلى موطنه من قبل رؤسائه عندما كانت الحرارة مجرّد حرارة خطابية. وعليه فإن الأخ الراهب الأمين دومينيكو، والذي كان يكرز

بعظات الصوم الكبير على النسوة في فيا ديل كوكوميرو لم يكد يسمع بهذا التحدي الجديد حتى انتضى الحسام دفاعاً عن سيده، وأعلن عن جاهزيته للسير عبر اللهب مع الأخ الراهب فرانشيسكو. وكان الناس قد أخذوا يبدون اهتماماً عظيماً في ما بدا لهم طريقة نقاش مبتسرة وسهلة (بالنسبة لأولئك الذين سيتمّ إقناعهم)، عندما أمر سافونارولا، وهو واع جداً للمخاطر الكامنة في مجرد نقاش القضية، الأخ الراهب دومينيكو بأن يسحب قبوله التحدي ويتخلى عن المسألة. وقد أعلن الراهب الفرانسيسكاني أنه راض: فهو لم يكن قد وجه تحديه إلى أي مرؤوس، بل للأخ جيرولامو نفسه.

عقب ذلك، كان الاهتمام الشعبي بعظات الصوم الكبير قد تراخى قليلاً. لكن هذا الصباح، عندما دخل تيتو ساحة سانتا كروتشه (بياتزا دي سانتا كروتشه) وجد، كما توقع، أن الناس كانوا يتدفقون من الكنيسة بأعداد كبيرة. وبدلاً من التفرق فقد احتشد الكثيرون منهم ليتوجهوا صوب بقعة محددة بالقرب من مدخل الدير الفرانسيسكاني، وتيتو من جانبه سلك الوجهة نفسها، شاقاً طريقه بحذر وسط الجمهور، ومتخذاً سيماء اللامبالاة والارتياح، لكن عينه لا تني تراقب بحذر مدخل الدير ذاك، كما لو أنه كان يتوقع خروج شخص مثير للاهتمام منه.

لم يكن مثل هذا التوقع ما شغل الجمهور. فالشيء الذي كانوا يحرصون عليه قد ظهر لهم من قبل في شكل يافطة كبيرة عُلّقت بأمر من السينوريا، حيث غطتها كتابة رسمية واضحة جداً. لكن الفضول قد

أُحبط نوعاً ما بحقيقة أن الكتابة كانت في معظمها باللاتينية، ورغم أن كل شخص تقريباً كان يعرف ماذا كان على اليافطة إلا أنه كان يتوق إلى معرفة أكثر دقة، ما أعطاه إحساساً مغيظاً لجهل جاره الذي تمثّل في عدم القدرة على تفسير لغة العلم والمعرفة. ذلك أن الإلمام السماعي بالعبارات اللاتينية، والتي قد يلتقطها غير المتعلمين من اقتباسات المنابر التي لا ينفك الواعظ عن تفسيرها، لم تساعدهم إلا قليلاً عند مشاهدتهم للاتينية في شكلها المكتوب. فحروف اللغة الحديثة نفسها كانت تعاني من عدم الانتظام والاختلاط بالنسبة لغالبية الناس الذين أمكنهم القراءة والكتابة(3)، بينما لم يكن غالبية الناس الذين تجمعوا أقرب ما يكون إلى اليافطة واقعين في الورطة الخطرة، ورطة امتلاك ذلك الإلمام الضئيل.

قالت تلك الشخصية الكبيرة الشعبية غورو الذي اتفق وأن كان وسط المحدقين الأوائل: " إن معتقدات الأخ الراهب هي ما يتوجب عليه إثباته عن طريق حرقه. لقد أخذ السينوريا القضية في يده، والقصد من الكتابة هي إتاحة المعرفة لنا . ذلك ما كان الأب يقوله لنا في عظاته ".

قال حانوتي دمث متعاطفاً: " لا، يا غورو. لقد أدخلت ساقيك في جورب ملفوف بقولك هذا. فالأخ الراهب عليه أن يبرهن على معتقداته بعدم (مشددة) الاحتراق: عليه أن يمشي وسط النار ويخرج من الجانب الآخر سليماً معافى ".

قال نحات شاب كان يرتدي قلنسوته المخططة ومئزره بشكل

أنيق:" أجل، أجل.لكن الأخ جيرولامو يعارض السير عبر النار. فلأنه سليم معافى من قبل فهو لا يرى سبباً يوجب عليه السير عبر النار ليخرج كما هو تماماً دون أن يمسّه ضير. فهو يترك مثل غرائب الأفعال والمقاصد هذه للأخ دومينيكو ".

قال غورو بصوت صافر عالي النبرة: " عندئذ أقول إنه يحجم مثل جبان. اختناق! ذلك كان ما فعله في الكرنفال. لقد حشدنا جميعاً في الساحة لمشاهدة الصاعقة تضربه، ولم يحدث شيء من ذلك. "

" توقف عن ذلك الكلام الأحمق "، قال حذّاء طويل القامة كان قد تقدم ليسمع قسماً من الموعظة، ورزمة صنادل معلقة فوق كتفيه، واستطرد : " يبدو لي، يا صديقي، أنك حكيم بحكمة عجل صغير يغمر الماء دماغه. لن يحجم الأخ الراهب عن أي شيء: لعله لن يفوه بأي شيء مسبقاً، لكن عندما تحين اللحظة سيمشي عبر النار دون أن يطلب رفقة أي قفطان رمادي(4). لكنني مستعد أن أعطي ربطة حذاء مقابل أن أعرف كنه كل هذه الكتابة اللاتينية ".

قال الحانوتي: " هناك الكثير منها. وخلاف ذلك فإنني ماهر تماماً في الحزر" . وأضاف قائلاً بشيء من القرف: " أما من رجل مثقف هنا؟"

حدث التفات شامل في الرؤوس ما جعل المتحدثين يلمحان تيتو وهو يقترب وراءهما.

قال النحات الشاب مبتسماً ورافعاً قبعته: " هوذا أحدهم ".

" إنــه سـكرتير العشـرة: هـو ذاهـب إلـى الـدير، دون ريـب. افسحوا الطريق لـه "، قال الحانوتي، رافعاً قبعتـه أيضـاً رغم أن إشارة الاحترام تلك نـادراً مـا تبدّت عن الفلورانسيين اللهم إلا للرسميين ذوي المناصب العليـا. والحـق أن التـوقير الاسـتثنائي جـاء مـن الروعـة والكياسة اللتين أطلّ بهما تيتو، ما جعل رداءه الأسود بإبزيمه الذهبي (5) يبدو كرداء ملكي، وقلنسوته المخملية السوداء العادية كغطاء رأس استثنائي تماماً.أما تصلّب وجنتيه وفمه، والذي كان التغير الرئيس الذي اعترى وجهه منذ قدومه إلى فلورانسة، فقد بدا للنظرة السطحية وقد أسبغ على جماله طابعاً أكثر ذكورية. وعلى الفور رفع قبعته وقال –

" شكراً، يـا صـديقي، لـم أرغـب سـوى مـا رغبـت أنـت، أعنـي مشاهدة الشيء في أسفل اليافطة –آه، إنـه كما توقعت. لقد بُلّغت أن الحكومة تسمح لأي واحد يريد أن يسجل اسمه كمرشح لدخول النار– وهذا عمل ليبرالي يليق بالسينوريا العظيم – محتفظـاً بـالطبع بحـق الانتقـاء. ودون ريـب سـيكون كثيـر مـن المـؤمنين متلهفـين لتسـجيل أسمائهم. إذ لـم الخـوف مـن دخـول النـار بالنسبة لمن إيمانـه راسـخ؟ فالإنسان يرهب النار لأنه يعتقد أنها تحرقه. لكنه إن كان يؤمن بعكس ذلك؟ "– هنا رفع تيتو كتفيه وعمد إلى توقّف خطابي – " ولهذا السبب لـم أكن يومـاً ممن يشكون بـالأخ الراهب عندما قال إنـه سيدخل النـار ليبرهن عن معتقده. إذ لو كنتم مكانه واعتقدتم أن النار لن تحرقكم فأي منكم، يا أصدقائي، لن يكون مستعداً لدخولها مثلما أنتم على استعداد للسير على المهاد الجاف لنهر

الموغنون؟ (6)

بينا كان تيتو يتطلع حواليه أثناء هذه المناشدة اعترى تغير ما بعض مستمعيه كمثل ما يعتري كلب متلهف عندما يُدعى لتشمم شيء حرّيف. ونظراً لأن مسألة الاحتراق قد نحت نحو الجانب العملي فلم يكن كل واحد مستعداً لأن يعرّض نفسه من دون تروٍّ لأي مشهد عام يجسّد العلاقة بين العقيدة والنار. ولعل المشهد كان سيكون أكبر من أن تتحمله رصانة هي ليست تحت السيطرة كما رصانة تيتو .

قال النحات الشاب: " إذن، أيها السيد السكرتير، يبدو لي أن الراهب فرانشيسكو هو البطل الأعظم، ذلك أنه يعرض دخول النار استجلاء للحقيقة، رغم أنه على يقين أن النار سوف تحرقه".

قال تيتو بدماثة: " لست أنكر ذلك. لكن إذا ما ظهر أن الراهب فرانشيسكو على خطأ فإنه سيكون قد احترق من الجانب الخطأ، ولم تعتبر الكنيسة قط مثل هؤلاء الضحايا شهداء. يجب أن نعلّق حكمنا إلى أن تحدث التجربة فعلاً ".

قال الحانوتي بنفاد صبر مكبوت: " هذا صحيح، أيها السيد السكرتير، لكن هلا أسديت لنا خدمة بترجمتك العبارات اللاتينية؟ "

قال تيتو: " بكل تأكيد، فهي إنما تعبّر عن الاستخلاصات أو المعتقدات التي يعلّمها الراهب، على وجه الخصوص، والتي ستبرهن تجربة النار أنها إما صحيحة أو خاطئة. دون شك هي مألوفة لديكم. أولاً، أن فلورانسة – "

قال الحذّاء الذي أدمن الاستماع إلى الأخ الراهب جيرولامو:

" فلتعطنا العبارات اللاتينية واحدة واحدة، ومن ثم أخبرنا ما معناها ".

" بكل سرور، " قال تيتو مبتسماً. " عندئذ ستحكم إذا ما أعطيتك المعنى الصحيح ".

قال غورو: " أجل، أجل. هذا عدل " .

" Ecclesia Dei indiget renovatione، أي أن كنيسة الله بحاجة إلى التطهير أو التجدد ".

قالت عدة أصوات في الحال: " هذا صحيح".

قال الحذّاء: " ذلك يعني أن الكهنة ينبغي عليهم أن يعيشوا حيوات أفضل. ليس هناك حاجة لأعجوبة للبرهنة على ذلك.هذا ما لم يتوقف الأخ الراهب عن ترداده دائماً ".

أضاف تيتو: "Flagellabitur، أي سوف تنزل بها النائبات. Renovabitur، سوف تطهر. Florentia quoque post flagellam renovabitur: فلورانسة أيضاً، بعد أن تُبلى بالنائبات سوف تطهر وسوف تزدهر ".

قال الحانوتي: " هذا يعني أننا سنسترد بيزا ثانية " .

قال رجل طاعن في السن، معتمراً قبعة راهب عتيقة الطراز كان حتى الآن يخلد للصمت: " وآمل أن نحصل على الصوف من إنجلترا كما درجنا (7). لقد ابتلينا بما فيه الكفاية مع تراجع التجارة ".

في هذه الأثناء خرج من باب الدير رجل طويل القامة يعلو رأسه ريش أحمر وتبادل مع تيتو نظرة تنمّ عن عدم الاكتراث. وبعد أن قذف البيشيتو بلا اكتراث فوق كتفه الأيسر، استأنف تيتو قراءته من

جديد، بينما تراجع الواقفون بدافع الوجل أكثر منه الاحترام ليفسحوا الطريق للسيد دولفو سبيني.

" Infideles convertentur ad Christum "، أردف تيتو القول، " أي، الشياطين سيتحولون إلى المسيح ".

قال الحانوتي دون تحامل: " أولئك هم الأتراك والمغاربة. حسن، لا اعتراض عندي على ذلك ".

" Hœc autem omnia erunt temporibus nostris: وكل تلك الأشياء سوف تحدث في زماننا ".

قال غورو: " ياه، أي نفع لها غير ذلك؟ "

" Excommunication nuper lata contra Reverendum Patrem nostrum Fraterm Hieronymum nulla est: الحرم الذي صدر مؤخراً ضد أبينا المحترم، الأخ الراهب جيرولامو باطل. :Non observantes eam non peccant : أولئك الذين يتجاهلونه لا يرتكبون إثماً".

قال الحانوتي: " سأعرف بشكل أفضل كيف أرد على ذلك عندما نفرغ من تجربة النار ".

قال تيتو: " والتي دون ريب ستجلو كل شيء . هذا كل اللاتينية–كل الاستخلاصات التي سيثبت صحتها من خطئها من خلال التجربة . والبقية التي ترونها هي ببساطة إعلان من السينوريا باللغة التوسكانية الجيدة، يدعو أولاء الذين يتلهفون للسير عبر النار،

للقدوم إلى القصر وتسجيل أسمائهم. هل يمكنني أن أخدمكم أكثر؟ وإذا لا–"

رفع تيتو،عندما ابتعد، قبعته وانحنى قليلاً بكل ارتياح بشكل بدت معه هذه البادرة باعثاً طبيعياً للاحترام.

عندما غادر الساحة غذّ الخطا، وبعد منعطفين أو ثلاثة توقف في شارع هادئ أمام باب قرع عليه قرعاً خفيفاً وخاصاً. وقد فتح من قبل امرأة شابة قام بلكزها تحت ذقنها أثناء سؤاله لها عما إذا كان ال Padrone(8) في الداخل، ثم عبر دون مزيد من الاحتفالية عبر باب آخر على يده اليمنى كان موارباً. وقد أفضى به إلى غرفة جميلة لكن يعوزها الترتيب حيث كان دولفو سبيني يلعب مع كلبة جميلة لصيد الأيائل كانت تتشمم بين حين وحين سلة فيها جراء وتلعق يديه بذلك التجاهل المحبب لأخلاقيات سيدها ما اعُتقد أحياناً أنه إحدى السمات الممتعة لبنات جنسها. رفع بصره عند دخول تيتو لكنه استمر في لعبه، يحدوه ببساطة ذلك الميل للمثابرة في عمل غير مناسب يبدو معه الناس الشهوانيون البليدون أنهم يتصرفون بشكل مستمر ضد أهدافهم. تحلّى تيتو بالصبر.

" إنها bracca (9) جميلة تلك "، قال بهدوء وهو يقف وإبهاماه في حزامه. وأضاف في الحال،مستخدماً تلك النغمة العذبة التي بدت رخيّة، لكنها لافتة للانتباه: " عندما تنتهي من تلك المداعبات التي لا يمكن على الأرجح تأجيلها، يا عزيزي دولفو، سنتحدث في العمل، إذا أمرت. وقتي، والذي أتمنى أن يكون في

خدمتك للأبد، ليس ملكي تماماً هذا الصباح ".

" انزلي، أيتها المؤذية، انزلي! " قال سبيني بفظاظة مفاجئة، " اللعنة! " أضاف بفظاظة أكبر مبعداً الكلبة عنه، ثم، منطلقاً من مقعده، قام وجلس قرب تيتو، ووضع يداً على كتفه بينما بادره بالكلام.

" آمل أن ترى بصيرتك النافذة كل هذه الدخلات والخرجات التي ينطوي عليها هذا العمل، يا عزيزي الساحر، إذ يبدو لي أنها ليست أوضح من قاع كيس ".

"ما هي مشكلتك، يا عزيزي الفارس؟ "

" هؤلاء ال Frati Minori (الأخوة الأقلية) اللعينون في سانتا كروتشه. إنهم ينسحبون الآن. الأخ فرانشيسكو نفسه يبدو خائفاً من الالتزام بتحديه. تدور أحاديث مفادها أنه من المرجح أن النبي سيستخدم السحر ليركّب أعجوبة مزيفة – يعتقد أنه نفسه قد يُجرّ إلى داخل النار ويحرق، والنبي يمكن أن يخرج دون أن يمسّه شيء بفعل السحر، والشيء نفسه يمكن أن ينطبق على الكنيسة. ومن ثم، بعد كل حديثنا، ليس هناك أفضل من أخ عادي مبارك يعرض نفسه ليكون قرين تلك الغنمة الورعة الأخ دومينيكو ".

قال تيتو: " إنه الغباء الخاص للرأس الحليق ما يمنعهم من رؤية كيف أنه لا فرق سواء احترقوا أو لا " هل أقسمتَ لهم بالأيمان المغلظة بأنه لن يكون هناك خطر من دخولهم النار؟ "

قال سبيني مستغرباً: " لا، لأن واحداً منهم سوف يجبر على الاشتراك مع الأخ دومينيكو الذي يعتقد أن تجهيز العصي سيستغرق

ألف عام ".

" لا إطلاقاً. الأخ دومينيكو نفسه لا يُحتمل أن يشترك. لقد أخبرتك مسبقاً، يا عزيزي دولفو، وحده عقلك القادر لن يتأثر من دون تكرار يربو عما يكفي الأجلاف –لقد قلت لك بأنه عليك الآن التوجه إلى السينوريا لتولي هذه المسألة ومنعها من أن يعتّم عليها من قبل الأخ جيرولامو، ليس هناك ما هو أكثر ضرورة من وجوب تحضير الوقود في الساحة ذات يوم واحتشاد الناس على أمل أن يروا عظيم الهول. وإذا، عقب ذلك، غادر النبي الساحة دون أدنى ظهور لأعجوبة من جانبه، فستتدمر سمعته لدى الشعب: سيكونون على أهبة الاستعداد لرجمه وطرده خارج المدينة، سيجد السينوريا من السهولة بمكان نفيه عن البلاد، وقداسته (أي البابا – م) يمكن أن يفعل به ما يحلو له. لذلك، يا عزيزي Alcibiades(10) اقسم أمام الفرانسيسكانيين بأن أرديتهم الرمادية لن تقترب إلى مسافة تسفعها النار منها ".

فرك سبيني مؤخرة رأسه بإحدى يديه، ونقر باليد الأخرى بسيفه على ساقه، ليحرّض قدرته على رؤية هذه المجاميع المجرّدة.

قال من فوره وهو يرفع بصره ثانية للأعلى: " لكن، اللهم إلا إذا ارتمينا عليه في الساحة، عندما يكون الناس في هرج ومرج، ووضعنا حداً له ولأكاذيبه آنئذ وفي ذلك المكان، فإن فالوري وأبناء عائلتي السلفياتي والألبيتزي(11) سيمتشقون السلاح ويفتعلون معركة لأجله. أعلم أن هذا كان مدار بحث عندما حدث الهرج والمرج في أحد

الصعود. وقد يعود الناس ثانية: ربما تُلَفَّق قصة عن الملك الفرنسي من جديد، أو مصادفة لعينة أخرى، لصالح المنافق. لن تكون المدينة آمنة إلى أن يخرج منها ".

" ولسوف يكون خارجها عما قريب، دون أن تجشم نفسك عناء أي شيء سوى هذه الملهاة الصغيرة المتمثلة في تجربة النار.النبيذ والشمس سيصنعان خلاً دون حاجة للصراخ طلباً لإعانتهما، كما يقول حكماؤك الفلورانسيون. ستشعر بأتمّ الرضى لتخليص مدينتك من كابوس عن طريق مكيدة متمكنّة، بدلاً من المجازفة بأخطاء الطعن بالسيوف ".

" لكن هب أنه تسنّى له فعلاً السحر والشيطان ليساعداه، ويعبر النار بعد كل هذا وذاك؟" قال سبيني بتجهم ناوياً أن يخفي خجلاً معيناً عن طريق التخندق على هذه الأرض من التخمينات.واستطرد: " كيف لك أن تعرف أن تلك الأشياء لا تنطوي على أي شيء؟ كثير من رجال العلم والمعرفة يؤمنون بها، وهذا الأخ على درجة من السوء تكفي ليفعل أي شيء ".

قال تيتو رافعاً كتفه: " أوه، بالطبع توجد مثل هذه الأشياء: لكن لدي أسباب خاصة لمعرفة أن الأخ ليس على مثل هذا الوفاق مع الشيطان، مما يمنحه أي ثقة في هذه المسألة. السحر الوحيد الذي يعتمد عليه هو مقدرته الشخصية ".

قال سبيني: " مقدرة! هل تدعوها مقدرة وضع فلورانسة في مواجهة مع البابا وكل القوى في إيطاليا – كل ذلك لتستمر الإشارة إلى

الملك الفرنسي الذي لن يأتي أبداً؟ يمكنك أن تنعته قادراً لكن أنا أنعته منافقاً يريد أن يكون سيد الجميع ويسعى إلى أن ينصّب بابا ".

" أنت تحكم بنفاذ بصيرتك العادي، يا عزيزي الكابتن، لكن رأيينا لا يتصادمان. إن الراهب الذي يريد أن يصبح سيداً، وينفّذ مشاريعه ضد البابا، بحاجة إلى دعم (رافعة حرفياً –م) قوة خارجية ويتطلب أن تكون فلورانسة نقطة ارتكاز للرافعة.اعتدت أن أرى فيه متعصباً ضيق الأفق، لكنني أعتقد الآن أنه شخص ذكي طموح يعرف هدفه ويوجه هدفه بالمهارة التي توجه أنت فيها كرة عندما تلعب الـ maglio (12)

قال سبيني بمودة حارة: "أجل، أجل، يمكنني أن أسدد كرة ".

قال تيتو برصانة دمثة: " هذا صحيح، وما كان يجب أن أزعجك بملاحظتي التافهة عن مقدرة الأخ الراهب إلا لترى كيف أن هذا سيرفع من رصيد نجاحك ضده في روما وفي ميلانو، مما سيخدمك، على اليقين، خدمة جيدة عندما تعمد المدينة إلى تغيير سياستها ".

" حسن، أنت عفريت صغير ماهر ولسوف يكون أجرك مغرياً " قال سبيني بلهجة الراعي. وعلى أثر ذلك اعتقد أن من الطبيعي أن يبتسم المغامر الإغريقي المفيد علامة على الرضى عندما قال –

" بالطبع، أية مصلحة لي تعتمد كلية على مصلـ – "

قاطعه سبيني، بهزة رأس ذات دلالة وتربيتة كتف ودية: " سنتناول عشاءنا في قصري هذه الليلة، وسأوسع الخطة الجديدة

لتشملهم جميعاً ".

قال تيتو: " المعذرة، يا راعيَّ الرائع. الخطة بقيت على حالها منذ البداية–لم يطرأ عليها أي تغيير إلا في مخيلتك. هل أنت متأكد أنك ممسك بها جيداً حالياً؟ ".

قال بينما كان تيتو يسرع مبتعداً: "شيء واحد آخر. هناك ذلك الكاتب بالعدل المدبب الأنف، السير سيتشوني. لقد أصبح دمثاً أخيراً. قل لي، أنت يا من ترى شخصاً يطرف بعينه عندما تكون أنت وراءه، هل تعتقد أن باستطاعتي أن أواظب على الإفادة منه؟ "

لم يجرؤ تيتو على قول " لا ". كان يعرف زميله حق المعرفة ما حال دون أن يأتمنه على نصيحة عندما لا يشترك كل ما لدى سبيني من خيلاء ومصلحة شخصية في إخفاء الناصح.

أجاب في الحال: " دون شك. لا اعتراض عندي على سيتشوني ".

تلك الإيماءة إلى العلاقة الحميمة بين الكاتب بالعدل وسبيني سببت لتيتو وخزة عابرة، معترضة رضاه المستمتع بالنجاح الذي استعمله ليستعمل الشخص الذي تهيأ له أنه راعٍ كأداة. ذلك أنه كان خائفاً نوعاً ما من السيد سيتشوني. فطبيعة تيتو جعلته يقظاً بشكل خاص للظروف التي قد تؤول في غير صالحه. وذاكرته لم تبرحها تلك الاحتمالات دافعة إياه لاستخدام الحيل والألاعيب التي يمكن له بوساطتها أن يدرأها. ولم يكن محتملاً أن ينسى ذلك الصباح من شهر تشرين الأول لأكثر من عام مضى عندما ظهرت رومولا فجأة أمامه

عند باب صالون نيلو، وأجبرته أن يعلن عن يقينه بأن الأخ جيرولامو لن يتجاوز مداخل المدينة. إن حقيقة أن السير سيتشوني كان شاهداً على ذلك المشهد، إلى جانب إدراك تيتو أنه لسبب أو لآخر كان محط كراهية الكاتب بالعدل قد اكتسبت أهمية جيدة من جرّاء الانعطاف الأخير للأحداث. إذ بعد تورطه في مؤامرات الميديتشيين، وبعد أن وجد أنه من المستحسن نتيجة ذلك أن ينسحب إلى الريف لبعض الوقت , فإن السير سيتشوني قد ربط نفسه، منذ ظهوره الثاني في المدينة، بالأرابياتي*[1] واستثمر رعاية دولفو سبيني. والآن فإن رئيس الكومباناتشيين كان مدمناً، عندما يكون في صحبة المقربين، على الحديث الخصوصي عن أعماله بالذات، وعما إذا كانت قدرات السير سيتشوني في الجمع بين الجزئيات قد ازدادت رهافة بسبب العداء، عله يجمع بعض المعرفة التي يمكن أن يستخدمها ثانية ضد تيتو مما سينجم عنه نتائج شنيعة جداً.

من المؤسف أن يُحبط المرء في خططه المحبوكة جيداً من قبل كاتب بالعدل ضئيل الشأن، وأن يعرج بفعل لسعة حشرة كان قد أزعجها دون أن يدري. " لكن "، قال تيتو لنفسه، " لن تكون كراهية هذا الرجل لي أعمق من الاستياء الذي يعتري كلباً لا طعام لديه. سأتغلب على

---

[1] الأرابياتي : حزب الميديتشيين، وتعني بالإيطالية " الحانقون " . حيكت مؤامرة لمساعدتهم وأعدم خمسة من المتهمين عقب ذلك . وقد اتهم سافونارولا على أثرها بضلوعه فيها . وفي 23 أيار 1498 أعدم وحرق مع راهبين اثنين (م)

ذلك إذا تمكنت من أن أحسّن حاله ". ولقد كان مسروراً جداً من فرصة عرضت يمكن له فيها أن يقدم للكاتب منصباً مؤقتاً من قبيل cancelliere أو سكرتير للسجلات إضافي في خدمة العشرة، معتقداً أنه بهذه الرشوة وتوقع المزيد لا بد أن يخلد الجرو الزنبوري للهدوء بعد أن يبلى تماماً من نزعة الميل لعضّه.

لكن التخطيط المثالي يتطلب كلية المعرفة، وكانت غيرة الكاتب بالعدل قد استثيرت لتصبح كراهية بفعل أسباب كان تيتو غافلاً عنها. ذلك المساء، عندما كان تيتو عائداً من لقائه الحاسم مع المجلس الخاص، كان قد ارتطم أثناء هبوطه الدرج بشكل طفيف بالسير سيتشوني، الكاتب بالعدل، الذي عاد من بيستوجا، وعلم بالقبض على المتآمرين منذ فترة وجيزة فحسب، وكان في مهمة بدت على تشابه متواضع مع مهمة تيتو. وهو أيضاً، ودون أن يتخلى عن سيماء الحماس الشعبي، كان يراهن أيضاً على الحظ الميديتشي. وكان أيضاً مطلعاً بشكل سري على المؤامرة التي لم تنفذ، وكان راغباً في أن يقول كل ما عرفه، لكن ما كان يعرفه ويريد إفشاءه كان أقل بكثير. كذلك كان على استعداد للمضي في مهمات خيانية، لكن عميلاً أكثر أهلية قد أحبط مساعيه. وقد استقبلت فرضياته ببرود. فالمجلس، على ما قيل له، كان على علم مسبق بالمعلومات اللازمة، وحيث إنه كان مشغولاً على هذا النحو بالتحريض على الفتنة فسيكون من الأفضل له أن ينكفئ بعيداً عن طريق الأذى، وإلاستكون الحكومة مكرهة على أن تضعه تحت دائرة اهتمامها. لم يكن السير سيتشوني بحاجة لدليل

يجعله يعزو فشله إلى تيتو، وازدادت ضغينته مرارة لأن طبيعة القضية أجبرته على أن يلزم الصمت حيال هذا الأمر. كما لم تكن هذه كامل الضغينة التي كان يغلّها ضد ميليما المطرد النجاح. وعند الخروج من مخبئه، وربط نفسه بالأرابياتي فقد استحق أجراً دفع له باعتباره واحداً من الجواسيس الذين قدموا تقارير عن الشؤون الفلورانسية إلى البلاط الميلانيزي. لكن أجرته كانت ضئيلة بالرغم من مساعيه الدؤوبة لكتابة رسائل كاملة، وقد علم مؤخراً أن أخباره لا تعدو أن تكون نسخة متأخرة وغير مكتملة لما كان معروفاً من قبل. وفي هذه الأثناء لم تكن تتوافر للسير سيتشوني أية معرفة قاطعة بأن لتيتو صلة خفية مع الأرابياتي وبلاط ميلانو، لكنه كان يحتضن شكاً كان يجترّه بإحساس قوي بالنكهة كما لو أنه كان شيئاً حقيقياً.

هذا الكره القوي المكتمل النضج أمكنه أن يبتلع المخدر الضعيف الناجم عما أسداه تيتو من خدمات، ويكون نشطاً كما أي وقت مضى بعد ذلك . ما الداعي الذي يدعو السير سيتشوني لأن يحبّ ميليما أكثر جرّاء إسدائه خدمات له؟ دون ريب كانت للسكرتير الدمث غاياته الشخصية التي يعمل على تحقيقها، وأي حق له في تقلّد المنصب العالي الذي كان يتيح له أن يسدي خدمة؟ لكنه ما دام حوّل صوته للتقريظ فإن السير سيتشوني سيرفع عقيرته بالدرجة نفسها، وبقي أن تتم معرفة من سيفوز في لعبة التنافس في الذكاء.

ويبدو أن امتلاك عقل ملطف (مزيّت – م) جيداً بذلك النوع من المحاجة الذي يحول دون أي ادعاء بفهمها يبدو ملائماً أحياناً

بشكل غير مسبوق. فقط يمكن أن يصبح الزيت موضع اعتراض عندما نجده يدهن عقولاً أخرى نود أن نقيم مرتكزاً عليها.

أما تيتو، وهو الذي لم يكن كليّ المعرفة تماماً، لم يشعر الآن سوى بوخزة عابرة من عدم الارتياح عندما أوحي له أن سير سيتشوني كان قادراً على إلحاق الأذى به. ولم يدُم اكتراثه الكبير بالابتعاد عن الشبهات والعدائية إلا لفترة ضئيلة. كان الآن يلعب لعبته الأخيرة في فلورانسة، والمهارة التي كان يدرك أنه يستعملها جعلته يستمتع بها حتى وإن كان ذلك بمعزل عن احتمالات الفوز المتوقعة. والمهمة إلى سان ماركو التي اضطلع بها كانت خبطة كان يشعر فيها بالكثير من الثقة حتى أنه قد أطلع العشرة على رغبته بالاستقالة من منصبه في فترة غير محددة في غضون الشهر أو الشهرين التاليين، وحصل على الإذن بالتقدم بهذه الاستقالة فجأة , إذا اقتضت شؤونه ذلك، مع العلم بأن نيقولو مكيافيلي كان سيكون بديله المؤقت، إن لم يكن خليفته. كان يتصرف على أسس افتراضية، لكن هذا هو نوع العمل الذي كان يستهويه عقله الديبلوماسي بشكل كبير. ومن الجمع بين المعرفة العامة فيما يتعلّق بمقاصد سافونارولا وبين التفاصيل التي تم رصدها بعناية فقد كوّن تخميناً كان على وشك التحقق منه عن طريق هذه الزيارة إلى سان ماركو. وإذا ثبت أنه كان مصيباً فإن لعبته سيكون قد فاز بها وقد يدير ظهره في وقت قريب لفلورانسة. لقد نظر بشغف صوب ذلك التحقق، ذلك أن الكثير من الظروف، إلى جانب سأمه من المكان، قد أنبأه بأن وقت رحيله قد أزف.

الفصل الرابع والستون
النبي في حجيرته

تم الإعلان عن زيارة تيتو إلى دير سان ماركو مسبقاً، وقد اصطحبه على الفور الأخ الراهب نيقولو، سكرتير سافونا رولا، على السلم الحلزوني وصولاً إلى الممرات الطويلة التي اصطفت الحجيرات على جانبيها– حيث فيها أجفلت الأعمال الفريسكو للأخ أنجيليكو (1)، الرهيفة كما قوس القزح على السحابة المتلاشية، في غير مكان العين التي لم تألف المنظر، كما لو أنها (أعمال الفريسكو) كانت انعكاسات فجائية سقطت من عالم أثيري، حيث جلست السيدة العذراء متوجة بمجدها النوراني، والطفل الإلهي ينظر للأمام بوعد دائم.

كان الوقت وقت استرخاء في الدير، وكانت معظم الحجيرات خالية.لم يسقط النور المتسرب من النوافذ الضيقة إلا على الجدران العارية، والمفرش الحقير القاسي والصليب.وحتى خلف ذلك الباب،في نهاية ممر طويل، في فرجة حجيرة داخلية من غرفة أمامية حيث اعتاد أن يجلس رئيس الدير إلى مكتبه، أو يستقبل الزوار الخصوصيين، لم يسقط الدفق الأكبر للنور إلا على شيء واحد آخر بدا في الدير منظراً مألوفاً كما الجدران العارية والمفرش الحقير القاسي. لم يكن سوى ظهر شخص بالرداء الدومينيكاني الأبيض الطويل والكشحية، جاثياً محني الرأس أمام الصليب. كان يمكن أن يكون أي راهب عادي اسمه

جيرولامو لم يكن عنده ما يعترف به أسوأ من التفكير بالإساءات عندما كان ينشد in coro(1)، أو الشعور بفرحة مشوبة بضغينة عندما أسقط الأخ بينيديتو الحبر فوق صوره الصغيرة في كتاب الصلوات اليومية الذي كان يسلط النور عليه – راهب لم يكن يحتضن فكرة أسمى من فكرة الصعود بأمان إلى الجنة متسلقاً السلّم الضيق، سلم الصلاة، والصوم والطاعة. لكن تحت هذا الرداء الأبيض الخاص كان يثوي قلب يدق بشعور عصي على فهم الراهب العادي، ولربما عصي على فهم أي شخص لم يصل إلى المعرفة الذاتية من خلال حياة داخلية مضطربة: شعور فيه الأخطاء والزلاّت عن الصدق والتي لا رجعة عنها جد متشابكة بالأهداف النبيلة والاعتقادات الصادقة، التي فيها النفعية ذات التبرير الذاتي متشابكة جداً مع نسيج عمل نبيل بدا الكائن بأكمله عاجزاً عن التخلي عنه كما أن الجسم عاجز عن التخلي عن التوهج والارتجاف أمام الأمل والخوف ما قد يجعل الوجدان عاجزاً، ومهما كان السبيل المتّبع، عن أن ينعم براحة تامة.

لم يكن سافونارولا يتخذ وضعية الصلاة فحسب، فقد كانت هناك كلمات لصلوات لاتينية على شفتيه، ومع ذلك فلم يكن يصلي. كان قد دخل حجيرته، وجثا على ركبتيه، وانطلقت من شفتيه غزيرةً عبارات التضرع، ساعياً بهذه الطريقة نحو فيض من الهدوء سيكفل له أن ما تلح عليه الأفكار والعواطف المحتشدة من مقترحات لن ينتزعه بعيداً عن الدعم الإلهي. لكن الحدوس والدوافع التي كانت تنشط بداخله طيلة الساعة الماضية كانت جد مستبدة. وبينما ضغط بيديه

على وجهه، وبينما كانت شفتاه تنطق بصوت مسموع بعبارات " Cor mundum crea in me" (2) كان ذهنه لا يزال ممتلئاً بصور الشرك الذي أعدّه أعداؤه له، كان لا يزال منشغلاً بالحجج التي يمكنه بوساطتها أن يبرر ذاته أمام ملاماتهم واتهاماتهم.

لم يكن سافونارولا مضطراً للدفاع عن نفسه ضد خصومه فحسب. هذا الصباح توفر له برهان جديد على أن أصدقاءه ومريديه كانوا، كما أعدائه، يرغبون في حثّه على ولوج تجربة النار: راغبين ومتوقعين ضمناً بأنه هو ذاته يمكن أخيراً أن يقبل التحدي ويستحضر المعجزة التي طال انتظارها والتي كانت ستبدد الشك وتحقق الانتصار على الخبث. ألم يقل هو إن الله سيتجلّى في الوقت المناسب؟ وقد بدا حسب فهم الفلورانسيين البسطاء المتلهفين لتسوية المسائل الحزبية أن لا وقت أنسب من هذا الوقت. وبالتأكيد إذا مشى الأخ دومينيكو عبر النار دون أن يمسه أذى، فإن تلك (مشددة) ستكون معجزة، وكان الشعور بإيمان وحماسة ذلك الأخ الطيب أشبه بتنبؤ أو كهانة مستحبة. لكن سافونارولا كان يشعر بقوة أن توق مريديه الضمني لرؤيته يقبل التحدي لم يتبدد بفعل أية أسباب قدمها تبريراً لرفضه.

على أنه كان مستحيلاً عليه أن يرضيهم، وقد رأى الآن بمرارة كبيرة أنه يستحيل عليه أن يقاوم لفترة أطول من ذلك مواصلة التجربة في حالة الأخ دومينيكو. ليس الأمر أن سافونارولا كان ينطق ويكتب كذباً عندما أعرب عن إيمانه ببرهان مستقبلي فوق عادي على عمله، لكن عقله كان مكوّناً بحيث أنه بينما كان سهلاً عليه الإيمان بمعجزة،

والتي لكونها نائية ومبهمة،كانت محجوبة خلف الأسباب القوية التي رآها توجب حدوثها، بل أسهل عليه الإيمان بمعجزات داخلية من قبيل الوحي النبوي الذي يأتيه والحدوس الإلهية الصنع. في الوقت ذاته كان صعباً عليه جداً الإيمان باحتمال حدوث معجزة، كهذه المعجزة التي سيعبر فيها النار دون أن يمسه أذى، والتي كانت تضغط بكل تفاصيلها على تفكيره وتتطلب ليس الإيمان فحسب بل عملاً خارقاً.

كانت طبيعة سافونارولا من ذلك النوع الذي تتعايش فيه الميول المتعارضة بقوة متساوية تقريباً: شدة الحساسية التي، دون أن تصبر على فكرة محددة، تغمر كل فكرة بالعاطفة وتتحو نحو النشوة التأملية، كانت تتناوب بداخله مع الإدراك الحاد للوقائع الخارجية والحكم العملي الناضج على الناس والأشياء. وفي هذه القضية، قضية تجربة النار، تم تحريض هذه الخصائص الأخيرة لتكتسب فعالية غير عادية عن طريق حساسية بدنية حادة تعطي قوة طاغية لمفهوم الألم والدمار باعتباره نتيجة تالية ضرورية للوقائع التي كانت من قبل أسباباً للألم في خبرتنا. إن الاستعداد الذي به يقبل الناس لمس الحديد الساخن حتى الاحمرار (4) بإصبع مبلل لا تقاس بقبولهم النظري باستحالة أن يحرقهم الحديد: إن الإيمان العملي يعتمد على ما يتمثل في العقل بأكبر قوة في لحظة بعينها. ومع بنية مثل بنية الأخ الراهب، عندما ألحت تجربة النار على ذهنه كمطلب فوري، كان مستحيلاً عليه الاعتقاد بأنه هو أو أي شخص آخر يمكنه السير عبر اللهب دون أن يمسه أذى – مستحيل عليه الاعتقاد بأنه حتى لو صمّم على إتيان الفعل لن يحجم في

اللحظة الأخيرة.

لكن من غير المحتمل أن يجري الفلورانسيون هذه التمييزات الدقيقة. بالنسبة لعامة الجنس البشري كان يبدو دائماً برهاناً على الحيوية العقلية أن يجد المرء المسائل الأخلاقية سهلة، ويحكم على السلوك وفاقاً لبدائل مختصرة. وما من شيء قد يبدو أبسط من أن يكون إنسان أعلن مرة أن الله لن يتركه دون أن يكفل له حدوث معجزة، ومع ذلك ينسحب عندما يقترح عليه أن يختبر إعلانه، قد يكون تفوّه بما لم يؤمن به. ألم يكن الأخ دومينيكو والأخ ماريانو وعشرات غيرهم من جماعة البيانونيين مستعدين لأن يدخلوا النار؟ ما السبب الكامن وراء شجاعتهم الفائقة إن لم يكن إيمانهم السامي؟ وما كان باستطاعة سافونارولا أن يشرح سلوكه بشكل مقنع لأصدقائه حتى ولو كان قادراً على شرحه بشكل وافٍ لنفسه. وهو لم يكن قادراً. إن مشاعرنا المجردة تتعجل إلباس نفسها باقتراحات قريبة منا نأخذها من بين مخزون آرائنا، وإن إعطاء وصف صادق لما يعتمل في داخلنا يتطلّب شيئاً آخر إلى جانب الصدق، حتى عندما يكون الصدق نقياً من كل شائبة. في هذه اللحظات بالذات عندما كان سافونارولا جاثياً يصلي بصوت مسموع كفّ عن أن يسمع الكلمات على شفتيه. فقد غطّت عليها الأصوات المتجادلة بداخله والتي شكلت أسبابها الموجبة شيئاً فشيئاً بالنسبة لمستمعين خارجيين.

" إن مناشدة السماء من أجل معجزة عن طريق القبول المتهور لتحدٍّ هو مجرد شرك أُعدّ لي من قبل أعداء حقيرين، سيشكل

تجربة لله، ولن تستجاب المناشدة. فليأت ممثل البابا، فليأت السفراء من كل القوى العظمى ويعدوا بأن دعوة المجلس العام وإصلاح الكنيسة سيتوقفان على المعجزة، أنا على استعداد لأدخل اللهيب المستعر، مؤمناً بأن الله لن يحجب بَصمتَه عن ذلك العمل العظيم. وإلى أن يحين ذلك الوقت أحتفظ لنفسي بواجبات أسمى ملقاة مباشرة على كتفي: ليس مسموحاً لي أن أقفز من العربة لأجل المصارعة مع كل متبجح عالي الصوت. لكن حماس الأخ دومينيكو الذي لا يردّ للدخول في التجربة قد يكون إشارة إلى دعوة إلهية، قد يكون عهداً بأن المعجزة ـــ "

لكن لا! عندما اقترب عقل سافونارولا من المشهد المحفوف بالمخاطر في الساحة وتخيل جسداً بشرياً يدخل النار تراجع إيمانه ثانية. لم تكن حادثة يمكن لخياله ببساطة أن يراها: شعر بها والرجفة الراعدة تصل إلى أطراف أصابعه الفائقة الحساسية. لم يكن ممكناً أن تحدث المعجزة. لا، التجربة نفسها ما كانت لتحدث: لقد أجيز له أن يقوم بكل ما بوسعه لمنعها. قد يكون الوقود جاهزاً في الساحة، وقد يكون الناس مجتمعين، والشكليات التحضيرية قد تكون انتهت: كل هذا لربما أصبح الآن لا مناص منه، ولم يعد باستطاعته مقاومته دون أن يجلب العار على – نفسه؟ أجل، وبالتالي على قضية الله. ولكن لم يكن يُقصد حقاً أن يدخل الراهب الفرنسيسكاني النار، وبينا توقف هو (مشددة) بالذات وأحجم فلن تُعدم الوسائل لمنع دخول الأخ دومينيكو. وإذا حدث الأسوأ، إذا أُكره الأخ دومينيكو على الدخول فإنه سيحمل

القربان المقدس معه، وبذلك السر في يده ستكون هناك ضمانة لتوقع منع حدوث الآثار العادية للنار، أو، الاحتمال الأكبر، سيواجه هذا المطلب مقاومة، وبالتالي يكون عقبة أخيرة أمام التجربة.

لكن لم يكن بالإمكان التصريح بهذه النوايا: يجب أن يظهر علانية أنه ينتظر التجربة، وأنه يثق بنتيجتها. ذلك الاختلاف بين الواقع الداخلي والمظهر الخارجي لم يكن البساطة المسيحية التي سعى وراءها أثناء سنوات شبابه ونضجه، والتي كرز بها كونها ثمرة رئيسة من ثمار الحياة الإلهية. وفي شدة وطأة النهار وحرارته، والوجنات تشتعل، والصرخات تصمّ الآذان، من هو الذي حلّت عليه البركة بشكل يتذكّر معه لحظات التوق التي خبرها في الصباح اللطيف الهادئ ويعرف أنه لم يخلف بوعده معهم؟

" أوه، يا إلهي، إنه لأجل خاطر الناس – لأنهم عمي – لأن إيمانهم يعتمد علي. إذا ما ارتديت ثوباً من الخيش وألقيت بنفسي وسط الرماد، من سيستلم الراية ويقود المعركة؟ ألم أُقَدْ عبر طريق لم أعرفه إلى حيث العمل الذي ينتظرني؟

كان الصراع من النوع الذي لا نهاية له، وفي السعي عن طريق المناشدة بالصلوات فإن العقل البشري المضطرب غسل لوعته باستمرار بالأفكار عن عظمة ذلك العمل الذي ما كان إنسان آخر لينفذه لو تخلى هو عنه. لم يكن شيئاً عادياً أن يوحى إلى الإنسان بالرؤيا والجرأة اللتين أشعلتا ثورة مقدسة.

حتى كلمات الصلوات تلاشت. استمر في سجوده، لكن عقله

كان ممتلئاً بصور النتائج التي ستشعر بها كل أرجاء أوربا، والإحساس بالصعوبات الداهمة أخذ يضيع في وهج تلك الرؤيا، عندما أفصح القرع على الباب عن الزيارة المنتظرة.

سحب سافونارولا رداءه عليه قبل أن يغادر حجيرته، كما درج أن يفعل عندما يستقبل زواراً. وبتلك الاستجابة الفورية لأية مناشدة من الخارج، والتي تعود إلى طبيعةٍ محبة للقوة تعودت أن تجعل الشعور بقوتها يتم عن طريق الكلام، قابل تيتو بنظرة قوية وواثقة كما لو أن نهوضه جاء من عزم وتصميم وليس من صراع تناهبه.

لم يركع تيتو بل بادر ببساطة بتحية تنم عن احترام عميق تلقاها سافونا رولا بهدوء بدون أية كلمات كهنوتية. وبعد أن رغب إليه أن يحتل مجلسه، قال على الفور –

" إن مهمتك لخطيرة، يا ولدي، ما تعذر نقله عبر آخرين؟ "

" بالتأكيد، يا أبت، وإلا ما كنت تجرأت على طلبها. لن أتعدى على وقتك بأية قصيدة شعرية. لقد استخلصت من ملاحظة السيد دومينيكو ماتزيني أنه سيسرك أن تفيد من الرسول الخاص التالي المرسل إلى فرنسا ومعه رسائل من العشرة. لا بد أن أتوسل إليك لتصفح عني إذا ما كنت فضولياً أكثر من اللازم، لكن ما دام السيد دومينيكو في هذه اللحظة في فيلته بعيداً عن هنا فقد رغبت في أن أعلمك أن رسولاً يحمل رسائل هامة على وشك المغادرة قاصداً ليون عند فجر الغد ".

وضعت عضلات وجه الأخ جيرولامو بشكل بارز للعيان تحت

السيطرة، كما ينبغي أن يحدث مع كل الناس المتمتعين بشخصية قوية. وفي كلامه المتروّي كان حذراً كطبيعته، لا يأتمن أحداً على نواياه دونما داعٍ. لكن بفعل أي مثير نفسي قوي كانت عيناه تنحو نحو التوسع وتكتسب بريقاً إضافياً، وهذا ما تعجز عن السيطرة عليه أية قوة في الإرادة. نظر مباشرة إلى تيتو ولم يعط جواباً على الفور، كما لو أنه كان مضطراً لأن يدرس ما إذا كانت المعلومات التي سمعها للتو تلائم أياً من مراميه.

أما تيتو، الذي لم يبد عليه قط أن عينيه تراقب أي شيء، إنما من دون أن يفوتها أي شيء، قد توقع بالضبط ذلك التوسع والبريق المفاجئ في عيني سافونا رولا اللذين كان لاحظهما في مناسبات أخرى. لقد شاهدهما، وعلى الفور، انهمك في ترتيب إبزيمه الذهبي الذي انزاح من مكانه، وبذا بدا أنه كان ينتظر جواباً بصبر.

والحقيقة أن سافونارولا كان يتوقع أن يتلقى هذا التلميح من دومينيكو ماتزيني، أحد العشرة، وتلميذ متحمس من تلامذته كان قد استخدمه من قبل لكتابة رسالة خصوصية إلى السفير الفلورانسي في فرنسا، ليمهد الطريق أمام رسالة إلى الملك الفرنسي نفسه بخط يد سافونارولا، والتي كانت الآن جاهزة في درج المكتب بجانبه. كانت رسالة تناشد الملك أن يساعد في دعوة المجلس العام، والذي قد يصلح الإساءات التي تحصل في الكنيسة،بادئاً بإقالة البابا ألكسندر الذي لم يكن بابا بحق لكونه ملحداً ملعوناً جاء انتخابه بطريقة فاسدة وكان يحكم عن طريق شراء المناصب.

هذه الحقيقة لم يكن تيتو يعلمها، إنما قادته موهبته البناءة، يرشدها في ذلك مؤشرات خفية، إلى حزرها والأمل (5)بتحققها.

قال سافونارولا بهدوء: " صحيح، يا ولدي – صحيح أن لدي رسائل سيكون من دواعي سروري أن أرسلها سراً عن طريق وسيلة آمنة إلى سفيرنا. وكما تعلم إن جماعتنا في سان ماركو لها شؤونها في فرنسا لكونها مسؤولة، من بين أشياء أخرى، عن دين تجاه ذلك الحكيم الاستثنائي والفرنسي، السيد فيليب دي كومينيس (6) الخبير في شؤون مكتبة الميديتشيين (7) التي اشتريناها. لكن على ما فهمت قد يعود دومينيكو ماتزيني نفسه إلى المدينة قبيل المساء، وعلي أن أكسب مزيداً من الوقت لإعداد الرسائل إذا ما رغبت في وضعها بين يديه ".

" بالتأكيد، أيها الأب المبجّل، هذا سيكون أفضل من كل النواحي، باستثناء واحدة، وهي أنه إذا ما حدث أي شيء يمنع عودة السيد دومينيكو فإن إرسال الرسائل سيتطلب إما وجوب مجيئي إلى سان ماركو ثانية في ساعة متأخرة، أو أن ترسلها إلي عن طريق سكرتيرك. وأنا مدرك أنك ترغب في أن تحترس ضد الاستخلاصات الكاذبة التي قد يتم استنتاجها من اتصال متكرر جداً بينك وبين أي مسؤول في الحكومة ". وبطرحه هذه الصعوبة شعر تيتو أنه كلما أبدى الأخ الراهب عدم رغبة في الثقة به ازداد يقينه بما حدس به.

خلد سافونارولا إلى الصمت، لكنه بينا حافظ على إغلاق فمه، شعّ توهج خفيف في وجهه بفعل الانفعال المكبوت الذي كان يتنامى بداخله. ستكون لحظة حرجة – تلك التي يسلم خلالها الرسالة بيديه.

" من المحتمل جداً أن السيد دومينيكو سيعود في الوقت المناسب "، قال تيتو متظاهراً بأنه اعتبر تصميم الأخ الراهب وقد حسم، وبعد أن نهض من كرسيه وهو يتكلم، قال: " عن إذنك، هلا أعطيتني الإذن بالانصراف، يا أبت، لئلا أتعدى على وقتك عندما تنتهي مهمتي. لكن بما أنني لن أحظى بمقابلة أخرى فإنني أغامر بأن أستودعك – ما ليس معروفاً بعد للآخرين، باستثناء العشرة الكبار – أنني أفكر بالاستقالة من منصبي كسكرتير ومغادرة فلورانسة قريباً. هل أنا أتجرأ كثيراً على اهتمامك عندما أتحدث عما يتصل في معظمه بشخصي؟ "

قال الأخ الراهب : " استمر في الكلام، يا ولدي. أريد الاطلاع على آمالك المستقبلية ".

" وعليه أجدني أخطأت في مهنتي الحقّيقية بتركي لمهنة أدبية صرف، كنت قد ربيّت لأجلها. إن سياسات فلورانسة، يا أبت، تستأهل أن تشغل أعظم العقول – تشغل عقلك – عندما يكون الإنسان في موقع يستطيع معه تنفيذ أفكاره الخاصة. لكن عندما لا يمكنه، كما هو شأني، سوى أن يأمل بأن يكون مجرد أداة لتغيير الخطط فإنه بحاجة إلى أن يُحَث على العمل بفعل ارتباطات صغيرة لشخص فلورانسي المولد: كذلك فإن غربة زوجتي البائسة الناجمة عن إقامتها في فلورانسة منذ الحوادث المؤلمة لشهر آب تؤثر في بالطبع. وأنا أرغب في أن ألحق بها ".

أحنى سافونارولا رأسه علامة الموافقة.

" وعليه، أنوي أن أترك فلورانسة عما قريب لأغشى كبريات بلاطات أوربا، ولأوسع معرفتي برجالات الأدب في شتى الجامعات. سأقصد أولاً بلاط هنغاريا(6)، حيث يلقى الأدباء ترحيباً مميزاً. وربما انطلقت في غضون أسبوع أو عشرة أيام. لم أخف عنك، يا أبت، أنني لست متحمّساً للدين. أفتقر إلى حماسة زوجتي، لكن الغيرة الدينية، كما أرى، ليست شرطاً ضرورياً لكي يتم تقدير عظمة وعدالة آرائك فيما يتعلق بحكومة الأمم والكنيسة. وإذا ما تنازلت لتعهد لي بأية مأمورية قد تدعم العلاقات التي تود أن تقيمها فسيكون ذلك شرفاً لي. هل لي أن أطلب الآن الأذن بالانصراف؟ "

" ابق، يا ولدي. عندما تغادر فلورانسة سأرسل رسالة إلى زوجتك، والتي يسرني أن أتأكد من سعادتها الروحية، ذلك أنها تركتني مغضبة حانقة. أما بالنسبة للرسائل إلى فرنسا، مثلما ما هو جاهز لدي ـ "

نهض سافونا رولا وتوجه صوب مكتبه عندما فاه بهذه الكلمات. أخرج منه رسالة استطاع تيتو أن يلمح عليها، لكن دون أن يقرأ، عنواناً بخط يد الأخ الراهب الدقيق الحروف والفاخر، حيث لا زال يُشاهد مغطياً هوامش أناجيله (9).تناول صحيفة كبيرة من الورق، ووضع الرسالة في المغلف وأغلقه.

قال تيتو قبل أن يتسنى لسافونا رولا الكلام: " اعذرني، يا أبت، ما لم يكن ذلك نابعاً من رغبتك الراسخة فإنني أفضل ألا أتحمل مسؤولية نقل الرسالة. السيد دومينيكو ماتزيني سيعود دون شك، أو، إذا

لم يعد، يمكن للأخ نيقولو أن يوصلها إلي في الساعة الثانية مساءً عندما أضع الرسائل الأخرى بين يدي الرسول ".

قال الأخ الراهب صارفاً النظر عن تلك المسألة: " في الوقت الراهن، يا ولدي، أرغب إليك في أن تعنون هذا الطرد إلى سفيرنا بخط يدك والذي أفضّله على خط يد سكرتيري ".

جلس تيتو ليكتب العنوان بينما وقف الأخ بجانبه مصالباً ذراعيه، والضياء يعلو وجنته، وشفته ترتعش أخيراً. نهض تيتو وكان على وشك الانصراف عندما قال سافونارولا فجأة – " خذها، يا ولدي. لا فائدة ترجى من الانتظار. ليس مما يسرني أن يقوم الأخ نيقولو بمهمات لا داعي لها إلى القصر ".

عندما تناول تيتو الرسالة وقف سافونارولا يعتمل في داخله انفعال مكبوت حال دون مزيد من الكلام. يبدو أن هناك انبعاثاً خفياً صادراً عن طبائع عاطفية مثل طبيعته، ما يجعل حالات أمثاله النفسية تترك أثرها حالاً على الآخرين. وعندما يكونون شاردي الذهن ويعتمل بداخلهم الحماس يسود صمت في الجو المحيط.

انصرف تيتو بكل احترام ممكن والرسالة تحت معطفه.

سُلّمت الرسالة كما يجب إلى الرسول وأرسلت إلى خارج فلورانسة. لكن قبل أن يحدث ذلك كان رسول آخر، مستخدم سراً من قبل تيتو، قد أوصل المعلومات مشفّرة لتنقل بدورها عبر رسل عدة إلى عملاء لودوفيكو سفورزا المسلحين، دوق ميلانو، القائمين على الحراسة والمراقبة بهدف اعتراض الرسائل على حدود الأراضي الميلانوية.

الفصل الخامس والستون
تجربة النار

بعد ما يربو قليلاً عن الأسبوع، في السابع من نيسان، عرضت ساحة السينيوريا (بياتزا ديلا سينيوريا) مشهداً أغرب حتى من المشهد الشهير، مشهد حرق أدوات الزينة التافهة في الهواء الطلق. وكان قد تجمّع حشد لمشاهدته أكبر من أي حشد سعى في أي وقت مضى للعثور على مكان في الساحة الواسعة، حتى في يوم عيد سان جيوفاني.

كان الوقت قرابة الظهيرة، ومنذ الصباح الباكر احتشد الناس شيئاً فشيئاً عند كل زاوية مراقبة coign of vantage (1) مفيدة أو غير مفيدة توفّرها لهم واجهات المنازل وأسطحتها، وتلك المساحات من الرصيف التي أتيحت للجمهور. جلس الرجال على قضبان حديدية شكلت زاوية حادة مع الجدار الناهض، وكانوا يتكمّشون بأعمدة رفيعة بالأذرع والسيقان، ويجلسون منفرجي الساقين على أعناق التماثيل الخشنة الملامح التي اعتلت في غير مكان مداخل البيوت الأكثر فخامة، وكانوا يحاولون العثور على مقعد بعرض كف على كاهل البناء architrave (2)، وموطئ قدم على البروزات الخشنة في أركان البناء الحجري rustic stonework (3) بينما تمسّكوا بالحلقات أو الرزّات الحديدية القوية المثبتة في الجدران لصقهم.

والحق أنهم جاؤوا ليشاهدوا معجزة: فالأعضاء المتشنجة واللحم

المنكشط كانت منغصّات طفيفة أمام الحدث المرتقب. إن البشر العاديين يسمعون بالمعجزات،وبشكل أو بآخر يؤمنون بها، لكن الفلورانسيين كانوا الآن يتأهبون لرؤية واحدة منها. وعلى الأقل القليل سيشهدون نصف معجزة، ذلك أنه إذا لم ينفذ الراهب من النار سالماً غانماً فإنهم سيرونه يدخلها، ويخلصون إلى أنه احترق وسطها.

وقد بدا أنه ليس هناك من شك مقبول للعقل في أن النار ستضرم، وأن الراهبين سيدخلانها. إذ، أمام أعينهما ثوى المنبر الطويل، بعرض ثمانية أقدام، وطول عشرين ياردة، مع أجمة من الوقود مكومة بشكل يدعو للخوف، في أساسها وضعت أغصان عظيمة من شجر السنديان الجاف، وفوقها أشواك تطقطق، وخرق مدهونة جيداً بالزيت والمعروفة بسرعة اشتعالها في وسائل الإنارة الفلورانسية. امتد المنبر من زاوية الشرفة الرخامية أمام القصر القديم، قريباً من مارزوتشو، الأسد الحجري، الذي أطل بوجهه المعمّر العابس على أجمة الأغصان التي امتدت بشكل مائل عبر الساحة.

وإلى جانب ذلك، شوهدت ثلاث مجموعات كبيرة من المسلحين: خمسمائة من الجنود المستأجرين التابعين للسينوريا ومتمركزين أمام القصر، خمسمائة من الكومباناتشيين تحت إمرة دولفو سبيني، على الجانب القصي المقابل من الساحة، وثلاثمائة مسلح من نوع آخر تحت إمرة ماركو سالفياتي، صديق سافونارولا أمام شرفة الأوركاغنا Orcagna حيث كان مقرراً أن يجلس الفرنسيسكان والدومينيكان مع أبطالهم.

في هذا الموقع صرف الكثير من المال والجهد، وكان الأمر يتعلّق بكرامات رفيعة المقام. لم يكن هناك من شك منطقي بأن شيئاً جللاً كان على وشك الحدوث. وعلى اليقين فسيكون شيئاً عظيماً لو أن الراهبين ببساطة احترقا، إذ في تلك الحالة أيضاًسيكون الله قد نطق وقال بكل بساطة إن الأخ جيرولامو لم يكن نبيه.

لم يطل الانتظار ذلك أن الوقت قارب الظهيرة. كان نصف الرهبان قد احتلوا مواقعهم، وكان نصف الشرفة التي تقع قبالة القصر يغص بأصحاب القفاطين الرمادية. لكن النصف الآخر، المقسم بألواح، كان لا يزال خالياً من أي شيء عدا مذبح صغير. كان الفرنسيسكان قد دخلوا واحتلوا مواقعهم بهدوء. بيد أنه سمع في هذه الآونة، وعلى الجانب الآخر من الساحة، صوت إنشاد قوي من مائتي صوت، وكان هناك رضى عام يكتنف الجميع، إن لم يكن للإنشاد، فعلى الأقل لتوفّر الدليل بأن الدومينيكان قد جاؤوا. وكان الترداد الإنشادي المرتفع الوتيرة الذي يقول: " فلينهض الرب، وليتشتت أعداؤه "(4) يوحي على نحو غير سار لبعض الآذان غير المتحيزة بالرغبة في التبجح بالثقة واستثارة الهلع. وكذا كان الرداء المخملي ذو اللون الناري الذي كان يرتديه الأخ دومينيكو بينما كان يقود الموكب، والصليب بيده، وعقله البسيط منتشٍ حقاً بالإيمان، يحدوه الأمل الصادق بدخول اللهب تمجيداً لله وللأخ جيرولامو. ووراءه جاء سافونارولا في الثوب الكهنوتي الأبيض يحمل بيديه إناء يحوي القربان المقدس. وهو، أيضاً، كان ينشد بصوت مرتفع. هو، أيضاً، بدا قوياً وواثقاً، وعندما التفتت كل

الأعـين إليـه متلهفـة، يعتورهـا إمـا القلـق، أو الفضـول، أو الحقـد، مـن لحظة دخوله الساحة حتى ارتقائه درجات الشرفة ووضعه القربان على المذبح، برق على محياه نور وقوة متعاظمين استجابة لتلك المعاينة الدقيقة.

نحن مجبولون – ويكاد هذا ينطبق علينا جميعاً تقريباً– بحيث أن مظهر الرياء الذي فكرنا به بإحجام مؤلم عندما ألح علينا كضرورة في عزلتنا، سيتملك عضلاتنا ويحرك شفاهنا كما لو أنه ليس هناك إلا اليسير ما إن نقع تحت تأثير المثير النابع من العيون والآذان المترقبة. وبالنسبة لسافونارولا لا يمكن إلا بالكاد قياس قوة ذلك المثير بخبرة الحيوات العادية. ربما ليس هناك من إنسان تسنى له تأثير هائل على أقرانه دون امتلاك الحاجة الفطرية للسيطرة والهيمنة، وهذه الحاجة تصبح عادة أكثر تسلطاً نسبياً بقدر ما تجعل تعقيدات الحياة الذات عصية على الفصل عن هدف ليس هو بأناني. وعلى هذا النحو اتفق أنه في يوم تجربة النار، تحددت الازدواجية التي هي الإغراء الملحّ في كل مهنة عامة، سواء كانت مهنة الكاهن، أو الخطيب، أو رجل الدولة بشكل أقوى في وعي سافونارولا على أنها دور يجب لعبه، أكثر من أية فترة أخرى في حياته. لم يكن يناضل ضد الشهادة الوشيكة، بل ضد الدمار الوشيك.

لذلك بدا وتصرف كما لو أنه كان واثقاً تماماً، بينما كانت الهواجس تنوخ طوال الوقت بحملها الثقيل على قلبه، ليس فقط بسبب النتائج المحتملة لهذه التجربة، بل بسبب حادثة أخرى غَبَرتْ من قبل –

حادثة كانت تبثّ رضى هانئاً في نفس شخص كان ينظر للأسفل إلى النبي المضنى بالانفعال من نافذة في القصر القديم. وقد شكّلت منعطفاً عادياً تتناحى حوله تلك الحيوات المقسّمة بعمق، وهي أنه منذ أمسيتين خلتا أفادت الأخبار أن الرسول الفلورانسي للعشرة قد قبض عليه وسرقت منه كل رسائله، وعليه فقد أصبحت رسالة سافونارولا بحوزة دوق ميلانو، ولسرعان ما تصبح بين يدي البابا، وهذا لا يفاقم الغضب فحسب بل يعطي مبرراً جديداً لإجراءات صارمة. لم ينطو رضى تيتو ميليما على حقد: كان الابتهاج الشخصي المتواضع لشخص كسب لعبة تطلبت مهارة افتراضية، ليست تلك اللعبة التي تحرك العضلات وتهيّج الدماء. بالطبع تلك الرزمة من الرغبات والألاعيب المدعوة بالطبيعة البشرية عندما تصاغ في إهاب راهب واعظ بسيط الملامح، هو بشكل أو بآخر محتال، لم تكن مما يدعو للأسى بالنسبة لأديب واسع المعرفة حاد الذكاء كان يفهم كل شيء. رغم ذلك فإن هذا الجيرولامو الحليق الرأس ذا الأنف الشامخ والشفة السفلى الكبيرة كان راهباً حاد الذكاء يمزج مع خرافاته أو فبركاته السخيفة أفكاراً لافتة جداً عن الحكومة: ليس هو بثرثار بل هو شخص بإمكانه حفظ أسراره. لم يعد تيتو يغلّ ضغينة ضده أكثر مما يغلّ ضد القديس دومينيك. على العكس، كان وجود الأخ جيرولامو مريحاً جداً بالنسبة لتيتو ميليما، إذ زوده بتلك الدرجة من السلّم التي كان على وشك القفز منها إلى موطئ جديد ناعم، الشيء الذي يحبه قلبه.وكل شيء كان الآن جاهزاً لتلك القفزة: دع شمساً واحدة أخرى

تشرق وتغرب، وإذ بتيتو يأمل بمغادرة فلورانسة. لقد كان جد مثابر حتى إنه شعر بكامل الحرية ليسلي نفسه بكوميديا هذا اليوم، والتي ما كان ذاك الغبي دولفو سبيني ليصوغها إلا لصالحه.

لم يتوقف الإنشاد المرتفع العقيرة بعد، بل تفاقم بالحري إلى هدير يصم الآذان، بعد أن تولاه في كل أرجاء الساحة جماعة البيانونيين الذين حملوا صلبانهم الحمراء الصغيرة كعلامة، وقام معظمهم بإنشاد الصلاة مما شكل إرباكاً لأعداء الله آملين إعطاء جواب من خلال واسطة شخصيةٍ أكثر تميّزاً من الأخ دومينيكو. هذا الأخ الطيب بثوبه الصارخ اللون كان الآن يركع أمام المذبح الصغير الذي وضع عليه القربان المقدس بانتظار أن تُستجاب دعواته.

وعلى الجانب الفرانسيسكاني من الشرفة لم يكن هناك إنشاد ولا ألوان صارخة: فقط صمت وألوان رمادية. لكن كان هناك هذا الفارق في القوة الموازنة وهو أن الفرنسيسكان كان لديهم بطَلان: ما يدعى بالأخ جيوليانو مشكلاً زوجاً مع الأخ دومينيكو، بينما البطل الأصلي، الأخ فرانشيسكو قصر تحديه على سافونارولا.

وقد جال بخاطر الناس القابعين بشكل غير مريح على القضبان والعمد: " بالتأكيد يجب أن يكون الجميع جاهزين الآن. هذا الإنشاد قد يتوقف، ولابد أن نتمكن من رؤية أفضل عندما يتحرك الأخوة صوب المنصة ".

لكن لم يبد أن الأخوة قد بدؤوا تحركهم بعد. أخذت وجوه فرانسيسكانية شاحبة تنظر بقلق فوق السياج الخشبي نحو ذلك الرداء

الصارخ اللون. كان له منظر شرير ولربما أخذته الحال، حتى إن معجزة مزيفة قد يتم تنفيذها عن طريق السحر. راهبكم قد يخرج سليماً من النار، ومع ذلك قد يكون هذا من صنيع الشيطان.

وفي هذه الأثناء شوهد مرور من هذه الناحية أو تلك بين الشرفة الكبيرة والشرفة الرخامية للقصر، وخفّ هدير الإنشاد قليلاً، ذلك أن كل واحد غير قريب من المكان أخذ يراقب بتلهّف أكبر. على أنه سرعان ما ظهر أن الحركة الجديدة لم تكن بداية، بل عقبة أمام البداية. فالفلورانسيون المبجلون المعينون لترأس العرض كمحكمين عن كلا الطرفين كانوا يدخلون ويخرجون من القصر وبدأ نقاش حام مع الفرانسيسكان. لكن اتضح أخيراً أن الأخ دومينيكو، الذي ظهر جليّاً بلون ردائه الصارخ كان يؤتى به صوب القصر. ربما أضرمت النار من قبل – كان من الصعب أن يرى المرء على مسافة – والمعجزة كانت على وشك الحلول.

لا إطلاقاً. فقد اختفى الرداء الصارخ اللون داخل القصر. ثم أُحضر راهب دومينيكاني آخر، ولفترة طويلة جرى كل شيء كما في السابق – الإنشاد المرهق – والذي لم يكن عجائبياً – والأخ جيرولامو في ردائه الأبيض يقف تماماً في البقعة نفسها. لكن حدث أخيراً شيء ما: فقد شوهد الأخ دومينيكو خارجاً من القصر مرة ثانية، وعائداً إلى أخوته. لقد تبادل ملابسه كلها مع راهب آخر، لكن كان يحرسه على كلا الجانبين راهب فرانسيسكاني مخافة أن يُسحَر ثانية إذا ما اقترب من سافونارولا.

كان تفكير المتفرجين النائين، وهم أقل وعياً بقليل بالأعضاء المتشنجة والجوع " آه، إذن، الأخ دومينيكو ليس بصدد دخول النار. الأخ جيرولامو نفسه هو الذي يقدّم نفسه في نهاية المطاف. سوف نشاهد تحركه بعد قليل، وإذا ما خرج من اللهب فسيتسنى لنا أن نشهد منظراً جميلاً! "

لكن الأخ جيرولامو لم يتحرك إلا التحرك العادي المواكب للخطاب. كان الخطاب جريئاً وقوياً، وربما، ويا للمفارقة، احتجاجياً، مثل خطاب إيليا إلى كهنة بعل(4) مطالباً بالتوقف عن هذه التأخيرات التافهة. لكن الخطاب هو نوع الجدل الأكثر إغاظة لمن هم خارج مدى السمع، الذين تشنجت أعضاؤهم وفرغت معدهم. وأية حاجة دعت للخطاب؟ إذا لم تبدأ المعجزة فلن تكون غلطة أحد سوى الأخ جيرولامو الذي قد يضع حداً لكل الصعوبات بتقديمه لنفسه أما وأن النار قد أصبحت جاهزة، كما كان تجرّأ بما فيه الكفاية عندما لم يكن هناك أي وقود في مرمى البصر.

مزيد من التحرك في غير مكان، مزيد من النقاش. وبدا المساء ينصرم بسرعة أكبر لكن السحب كانت قد تجمعت وبدلت ألوان الأشياء قاطبة، وأرسلت قشعريرة في أوساط المتفرجين، الجياع جسداً وروحاً.

والآن جاء دور الصليب الذي أراد الأخ دومينيكو حمله إلى داخل النار والذي يجب ألا يسمح بتدنيسه على ذلك النحو. وبعد ممانعة طفيفة تخلى سافونارولا عن معارضته، وهكذا تسنى له تقديم

تنازل آخر، لكنه سرعان ما وضع الإناء الحاوي على القربان المقدس في يدي الأخ دومينيكو. وقد لازمت مخيلته كفكرة ممكنة أن وجود السر المقدس يمكن في أسوأ الحالات أن يبعد التأثيرات العادية للنار. لكن القضية التي عوّل عليها كانت من نوع أكثر إيجابية. قال وهو يرفع القربان بيديه بهدوء، كما لو أنه لم يكن يفعل سوى ما استلزم فعله منذ البداية –

" بما أنهم ليسوا راغبين في أن تدخل النار ومعك الصليب، يا أخي، فلتدخل ببساطة ومعك القربان ".

رعب جديد في أوساط الفرانسيسكان، حزم جديد لدى سافونارولا. " إنها لجرأة بعيدة عن الورع أن يحمل القربان إلى داخل النار: وإذا احترق فستكون الفضيحة عظيمة في أذهان الضعفاء والجهلة ". " لا إطلاقاً:حتى ولو احترق فإن الأعراض فقط ستحترق، أما الجوهر (5) فيبقى".

هي ذي مسألة يمكن المجادلة بشأنها حتى مغيب الشمس وتبقى مطاطة كما أي وقت مضى، ولا يمكن لأحد أن يقترح تسويتها بالتوجه إلى التجربة نظراً لأنها من الناحية الجوهرية مسألة أولية. وقد كان ضرورياً أن يبقى كلا الجانبين على ثباتهما – أن يستمر الفرانسيسكان في رفضهم السماح بحمل القربان إلى داخل النار، وأن يستمر الأخ دومينيكو في رفض الدخول بدونه.

في الآن ذاته أخذت السحب تزداد حلكة، والهواء يزداد برودة. حتى الإنشاد لم يعد يسمع بعد أن خلّى الساحة للنقاش غير المسموع.

والأصوات المختلطة للأحاديث من أرجاء الساحة بكافة التي أظهرت أن الانتظار كان يتراخى في كل الأمكنة، قد ساهمت في الهاجس المغيظ بأن لا شيء حاسماً سيحدث. وقد سمعت صيحة في أكثر من مكان، ثم صيحات أكثر تواتراً بدرجة متفاقمة من الازدراء.

" أضرموا النار وأدخلوهما فيها! " دعونا نشتم رائحة الشواء – نريد عشاءنا! " " هيّا أيها النبي، دعنا نعرف ما إذا كان أي شيء سيحدث قبل أن تتصرم الساعات الأربع والعشرون " أجل، أجل، ما هي رؤياك الأخيرة؟ " " أوه، يحمل دزينة منها بداخله، إنها (الفراطة) الصغيرة للمعجزة! " " أو-لا (6) يا أخ، أين أنت؟ لا تأبه لهدر الوقود! "

مازالت الحركة نفسها في أكثر من مكان بين الشرفة الكبيرة والقصر. ما زال الجدل نفسه، بطيئاً ومبهماً بالنسبة للحشود كما مخاطبات الحشرات لبعضها والتي تلامس قرون الاستشعار لغير ما تأثير جلي سوى الغدو والرواح. لكن الوقت لم يطل لتفسير المناقشات غير المسموعة التي كان الأخ جيرولامو المشارك الدائم فيها: فقد كان هو من يعيق التجربة، الجميع أخذوا يناشدونه الآن، وهو كان يتراجع.

وسرعان ما تعذّر تمييز الصيحات، وضاعت في صخب ليس هو ببساطة صخب الأصوات بل الضرب بالأواني والرفس بالأقدام . كانت اقتراحات الناس المنزعجين قد حركت الدوافع القديمة لدى دولفو سبيني وجماعته من الكومباناتشيين. بدت فرصة لا تفوّت لوضع حد للمصاعب الفلورانسية بالقبض على زعيم المنافقين، واندفع المسلحون

صوب الشرفة دافعين الناس إلى جانب، أو للأمام إلى رتل الجنود المتمركزين أمام القصر. وعند هذه الحركة توقف كل شيء لدى الرهبان والقضاة المرتبكين معاً باستثناء الترقب المضطرب لرؤية ماذا سيتمخّض عن العراك.

لكن الشرفة كانت محروسة جيداً من قبل الفرقة التي يقودها الشجاع سالفياتي. وقد ساعد جنود السينوريا في دفع الناس، وتحول الرفس بالأقدام والاندفاع نحو الوراء مرة أخرى صوب تيتو دي بيساني (7) عندما بدا اسوداد السماء يزداد حلكة في هذه اللحظة من الفوضى التامة. وبدأ المطر الذي شعر الناس به مسبقاً في شكل قطرات متفرقة يهطل بغزارة أخذت تتنامى بسرعة مبللاً الوقود ومتدفقاً في شكل سيول عن المنصة، ومبللاً الجياع المتعبين حتى جلودهم، ودافعاً قرف الجميع وحنقهم نحو الداخل ليتخمر هناك في الظلمة الرطبة.

الآن عرف الجميع أن تجربة النار لن تحدث. دون شك ابتهج السينوريا للمطر، كسبب واضح، أفضل من أية حجة، للإعلان عن وجوب مغادرة كلا الفريقين المكان. لقد كان الأمر الذي توقعه سافونارولا ورغبه، ومع ذلك فسيكون وصفاً سيئاً لما شعر به عندما نقول إنه كان مسروراً. ومع سقوط ذلك المطر، وانهماره على حافة الشرفة، ورشه المذبح وكل المعاطف والوجوه، عرف الأخ بأن الطلب إليه لدخول(8) النار قد انتهى. لكنه عرف أيضاً بيقين لا يقاوم،كما البرودة الرطبة التي اعترت كيانه، بأن مكيدة أعدائه قد تحققت، وأن شرفه لم ينقذ. كان يعرف أن عليه أن يشق طريقه إلى سان ماركو مرة

أخرى خلل الحشد الغاضب، وأن قلوب الكثير من الأصدقاء الذين كانوا مستعدين يوماً للدفاع عنه بأرواحهم ستنقلب الآن ضده.

عندما توقف المطر طلب حراساً من السينوريا، وقد لُبّي طلبه. هل قال إنه يرغب الموت في سبيل صنيع عمره؟أجل، وهو لم يكن كاذباً في قوله. لكن الموت مجللاً بالعار –وأن يكون محطّاً للازدراء كمنافق ونبي كذّاب؟ " يا إلهي! تلك(مشددة) ليست بشهادة! إنها محو حياة مثّلت احتجاجاً ضد الظلم. دعني أمت بسبب الجدارة التي تثوي بداخلي، ليس بسبب ضعفي ".

كان المطر قد توقف، وسقط النور من السحب المنقشعة على سافونارولا عند مغادرته الشرفة وسط حراسه، يمشي كما جاء سابقاً، والقربان بيده. لكن النور الذي سقط عليه في هذه الأثناء، كان خلواً من أي مجد أو أية ابتسامة سماوية: كان فقط ذلك النور الذي يواصل سطوعه بصبر وبحيدة، مُسوّغاً أو مُدِيناً عن طريق إبانته ببساطة كل الأشياء في تاريخ نضجها البطيء. لم يسمع أية بركة، ولا كلمات رثاء، بل فقط تهديداً ووعيداً.كان يعلم أن هذه كانت إرهاصة للمرارة القادمة، ومع ذلك ازدادت شجاعته في غمرة كل الهجمات الأخلاقية، ولم يُبد أية إشارة على الهلع.

قال تيتو، عندما هبط سافونارولا درج الشرفة. " " تفادٍ جيد، أيها الأخ! لكنني أخشى أن عملك في فلورانسة قد انتهى. ما رأيك، يا عزيزي نيقولو؟ "

قال مكيافيلي، برفعة كتف مؤسية: "ما يدعو للرثاء هو أن

رياءاته لم تكن جميعاً من النوع الحكيم. ومع وقوف الظروف في جانبه كما هي الحال مع الشؤون الكنسية، فقد كان بإمكانه أن يفعل شيئاً عظيماً ".

الفصل السادس والستون
قناع الأرواح المنتقمة

كان اليوم التالي أحد السعف(1)، أو أحد الزيتون، كما دعي بصورة رئيسة في فالدارنو المشهورة بزراعة الزيتون. سطعت شمس الصباح بصفاء أكثر عذوبة بسبب مطر الأمس. مرة أخرى اعتلى سافوناورلا المنبر في سان ماركو، وأبصر جمعاً حوله ممن لم تهتز ثقتهم به بعد. وفي هذا الصباح، أعلن بصدق مشوب بالسكينة والأسى، أنه مستعد للموت: فأمام كل الرؤى رأى مصيره الشخصي. مرة أخرى لهج لسانه بالبركة، وشاهد وجوه الرجال والنساء مشرئبة نحوه يملؤها حب قائم على الاحترام والتوقير. على أثر ذلك هبط درجات المنبر وغاب عن الأبصار للأبد.

والواقع أن فلورانسة كانت،قبل مغيب الشمس، في هرج ومرج. فالعواطف المهتاجة التي استثيرت اليوم الفائت كانت تحت الرماد أثناء ذاك الصباح الهادئ، وانفجرت من جديد الآن في شكل غضب لم تكن المكيدة ببعيدة عنه، ودون أن يخلو ذلك من التغاضي الرسمي في السرّ. وقد ابتدأ الهرج في الكنيسة في محاولة من بعض الكومباناتشيين لمنع عظة المساء التي احتشد البيانونيون لسماعها. لكن لم يكد دم الناس يفور وتصير الاضطرابات شغباً حتى تعالى الهتاف: " إلى سان ماركو! أضرموا النار بسان ماركو! "

وقبل أن تغيب شمس النهار بفترة طويلة كانت الكنيسة والدير

مطـوقين بحشـود مهتاجـة يتزايـد عـددها باسـتمرار. لـم يمـرّ ذلـك دون مقاومـة. ذلك أن الرهبـان، وكـانوا منذ فترة طويلـة، علـى درايـة بالعداء المتنـامي فـي الخـارج، كـانوا يتـوفرون علـى أسلحة داخل أسوار ديرهم، وبعضـهم قاتل بشجاعة وهم يرتدون أرديتهم الطويلـة البيضـاء كمـا لـو أنهم كـانوا من فرسان الهيكل (الداويـة)(2). وحتـى أمر سافونا رولا لـم ينجح في كبح الحـافز للدفاع الذاتي بـالأذرع التـي كانت مـا تزال قويـة العضلات تحت اللباس الصوفي الدومينيكانـي. وكان هناك أيضاً بعض عامة الناس الذين لم يشاؤوا أن يغادروا، وبعضـهم قاتل بشراسة: حدث إطلاق نار من المذبح المرتفع قريباً من الصليب، ورشق غزير للحجارة والجمـار الحـارة مـن سـطح الـدير، وفـي المعتكفـات الـتحم المتقـاتلون بالسلاح الأبيض. وعلى الرغم من بأس المهاجمين فقد استغرق الهجوم حتى ساعة متأخرة من الليل.

كانت مظاهرات الحكومة كلها موجهة ضد الدير. وفي مطلع الهجوم استدعي الحرّاس، ليس لتفريق المهاجمين،بل لأمر كل من هم بـداخل الـدير ليلقـوا أسـلحتهم، وكـل عامــة النــاس لمغادرتــه، ولأمــر سافونارولا نفسه بمغادرة الأراضـي الفلورانسية فـي غضـون اثنتـي عشرة سـاعة. ولـو أن سافونارولا قد غـادر الدير عندئذ لما أفلت مـن تمزيقه شرّ ممـزق. كـان راغبـاً فـي الرحيـل لكـن أصـدقاءه منعـوه. وقد كانـت مجازفـة كبرى، حتـى لبعض عامـة النـاس من ذوي السمعة الرفيعة، أن تكون المغادرة عن طريق سور الحديقة، لكن من بين أولئك الذين سلكوا هـذا الطريـق كـان فرانشيسكو فـالوري الـذي أمـل أن يجمـع النجـدة مـن

خارج.

في هذه الأثناء، في تلك الساعة المتأخرة من الليل – عندما لم يستمر العراك لوقت أطول إلا بالكاد، وكان الكومباناتشيون على أهبة دخول المكتبة شاهرين سيوفهم، حيث كان سافونارولا يصلي مع الأخوة الذين إما أنهم لم يشهروا السلاح أو ألقوه بناء على أوامر منه – جاءت كوكبة ثانية من الحراس، بأمر من السينوريا لطلب كل من: الأخ جيرولامو ومساعديه الاثنين، والأخ دومينيكو والأخ سالفيسترو.

وقد تعالى صراخ الكراهية المنتصرة عندما أظهر ضوء المصابيح الأخ الراهب وهو يخرج من باب الدير مع حارس لم يعده بأمان سوى أمان السجن. وقد كان العراك يدور الآن حول من سيكون الأول في أرتال الحشود الذين تدفقوا على الشارع الضيق ليشاهدوا النبي وهو يعود مجللاً بالخزي والعار إلى الساحة التي شهدت البارحة تحدّيه – من سيكون في أفضل موقع ليُسْمعه الإهانة، بل، إذا أمكن، ليصفعه ويركله. لم يكن هذا عسيراً على بعض الكومباناتشيين المسلحين الذين لم يُمنعوا من الاختلاط مع الحراس.

وعندما وجد سافونارولا نفسه يُجرّ ويُدفع وسط ذلك الجمع المطلق لصيحات الاستهجان، وعندما رُفعت المصابيح لترية الوجوه الهازئة، وعندما شعر أنه يُبصق عليه (3)، ويضرب ويرفس مع التفوّه بأبشع كلمات الإهانة بدا له أن أبشع مرارات الحياة كانت تعبر قريباً منه. وإذا حكم الناس بأنه مذنب، وأزمعوا على إهدار دمه، فما من شيء سينتظره إلا الموت. لكن أسوأ قطرات المرارة لا يمكن أن تُعصر

على شفاهنا من خارج: وأعمق أعماق التسليم والإذعان ليس يثوي في الشهادة.فذلك لا يوجد إلا عندما نغطي رؤوسنا بصمت ونشعر: " لست أهلاً لأن أكون شهيداً. الحقيقة سوف تزدهر، لكن ليس على يدي ".

لكن ذلك الانتصار الموجز غير المكتمل الذي تجلّى في إهانة الأخ الراهب، والذي سرعان ما توارى في مدخل القصر القديم، لم يكن إلا طعم الدم بالنسبة للنمر. ألم يكن هناك منازل لأصدقاء المنافق خليقة بأن تنهب؟ وكان قد تم استخدام نصف الحشود المسلحة، وكانوا بعيدين جداً في الخلف مما حال دون أن يشاركوا بفاعلية في حصار الدير، في العمل الأكثر ربحية ألا وهو مهاجمة بيوت الأثرياء، ليس برغبة غير مخطط لها للنهب، بل بذلك الاختيار التفريقي الذي يخص قادة البيانونيين، مما أظهر أن الشعب كان موجَّهاً، وأن الرعاع بما لديهم من العصي والهراوات كانوا تحت القيادة الماهرة للكومباناتشيين المتمنطقين بالسيوف. ألم يكن هناك – المجرم التالي للأخ الراهب – فرانشيسكو فالوري الطموح، المتهم بالرغبة في أن ينصّب نفسه، بمساعدة الأخ الراهب، لكي يكون Doge أو غونفالونياً مدى الحياة؟ والرجل الأشيب الذي رفع ذراعه وصوته، لثمانية أشهر خلت، مطالباً بشراسة بالعدالة لخمسة من مواطنيه، لم يفرّ من سان ماركو إلا ليختبر ما دعاه الآخرون(مشددة) عدالة – ليرى منزله محاطاً بحشود غاضبة متعطشة، وليرى زوجته وقد أطلقت عليها سهام الموت، وهو ذاته ليقتل بينما كان في طريقه إلى القصر استجابة لأمر استدعاء تلقاه، وذلك بسيفي شخصين يدعيان ريدولفي وتورنابوني.

على ذلك النحو تواصل تنفيذ دور قناع الأرواح المنتقمة، ما دعي بالشغب، في فلورانسة أثناء ساعات الليل والصباح الباكر.

لكن المديرالأكبر لم يكن يُشاهد له أثر: فقد كان عنده أسبابه الوجيهة لإصدار الأوامر من مخدع خاص، ذلك أن سمعته الرفيعة لم تسمح بأن تُشاهد ريشته الحمراء تلوح في غمرة كل الأعمال المقرر تنفيذها قبيل الفجر. كان المخدع هو البيت نفسه والغرفة نفسها في شارع هادئ بين سانتا كروتشه وسان ماركو حيث شاهدنا تيتو يقوم بزيارة سرية إلى دولفو سبيني. هنا جلس كابتن الكومباناتشيين أثناء هذه الليلة المشهودة، يستقبل الزوار الغادين والرائحين، بعضهم في ثياب كومباناتشيين مسلحين، وآخرون يلبسون ألبسة غير واضحة المعالم ودون أسلحة ظاهرة. شوهد على الطاولة كمية وافرة من الخمر، وإلى جانبها أقداح للزوار الذين يأتون بمحض المصادفة. ورغم أن سبيني كان يحترس من الشرب الزائد فإنه قد عبّ من وقت لآخر ما فيه الكفاية لرفع وتيرة الحماس الذي نشأ بفعل الأخبار التي كانت ترده باستمرار.

وبين الزوار المدّثرين ثياباً غير واضحة المعالم كان السير سيتشوني أحد المداومين، ومع تقدم الساعة نحو الغَلَس الصباحي فقد بقي الرفيق الملازم لسبيني، إلى جانب فرانشيسكو سي، الذي كان إذ ذاك يختبئ دونما حذر شديد في فلورانسة متوقعاً أن ينقض قرار نفيه عندما يُصبح إسقاط الأخ الراهب ناجزاً.

اشتعلت الشموع رويداً رويداً لتصير كتلاً معدومة الشكل،

وتميّزت الثقوب في النوافذ الخشبية للتوّ بضوء خارجي كامد عندما انفجر سبيني، الذي هبّ من مجلسه واقفاً وذرع المكان بخطواته وقد تضرج وجهه غضباً لما دار من حديث مع ذينك الرفيقين غير المسلحين قائلاً –

" فليبصقه الشيطان!(4) على أنه سيدفع ثمن ذلك. ها، ها! ستطبق المخالب عليه عندما لا يخطر له ذلك. ولذلك كان مقرراً أن يكون هو (مشددة) الرجل العظيم في نهاية المطاف! كان يتظاهر بأنه يقذف كل شيء صوب قبعتي، كما لو أنني كنت شحاذاً كفيفاً، وطوال الوقت كان يطرف بعينه ويملأ محفظته الخاصة. أشتهي أن أعلق جلوداً حوله وأطلق كلابي عليه! ولقد توفر على تلك الياقوتة الجميلة التي كانت ملكي، ولقد كنت أحمق بما فيه الكفاية عندما أعطيته إياها البارحة. اللعنة! وكان يضحك علي في سرّه منذ سنتين، ويفسد أفضل خطة سبق ووضعت. كنت أحمق عندما وثقت بوغد ما فتئ لمدة طويلة يحبك الألاعيب التي لا يعرف أحد المرمى منها إلا هو ".

قال فرانشيسكو سي الذي ظهرت على وجهه ابتسامة مرح خفيفة لغضب سبيني: " وإغريقي أيضاً حل في فلورانسة ومعه مجوهرات وافرة. لم (مشددة) تحسن اختيار مؤتمن أسرارك، يا عزيزي دولفو ".

قال سبيني ملتفتاً إلى شريكه تحدوه رغبة عامة ليُزعج أي شيء يعرض له: " إنه أكثر ذكاء ومكراً منك، يا فرانشيسكو، وأكثر وسامة أيضاً ".

قال سيتشوني: " بكل تواضع أرى أن عبقرية السيد فرانشيسكو الشعرية سوف تفوق – "

قاطعه سبيني الذي ثوت رعايته في معظمها في هذا النوع من الصراحة: " أجل، أجل، افرك يديك! إنني أكره حيلتك التي حبكتها ككاتب بالعدل. لكن هوذا تاديو، أو أحدهم: والآن حان الوقت! أية أخبار، إه؟ " تابع حديثه بينما دخل اثنان من الكومباناتشيين والغضب بادٍ في عيونهما.

قال أحدهم: " سيئ! لقد عقد الناس العزم على نهب بيت سوديريني، والآن بعد أن أحبطت مساعيهم سيرتدون علينا إذا لم نأخذ حذرنا. أشتبه بوجود بعض الميديتشيين المشاغبين وسطهم، وربما شاهدناهم يهاجمون قصرك فوق الجسر عما قريب، ما لم نجد طعماً يوجههم وجهة أخرى ".

" إنه معي! " قال سبيني، وبعد أن أمسك تاديو من زناره نحا به جانباً ليزوّده ببعض التوجيهات بينما واصل الآخر إعلام سي عن كيف أن السينوريا قد تدخل بخصوص منزل سوديريني.

" إكو! " صاح سبيني دافعاً تاديو قليلاً صوب الباب. " امض، وتصرّف بسرعة ".

الفصل السابع والستون
الانتظار بجانب النهر

حوالي الوقت الذي ذهب فيه الكومباناتشيان الاثنان في مهمتهما شوهد شخص آخر، على ضفة نهر آرنو المقابلة، كان أيضاً يخرج ويلج الشفق البارد الكامد. والواضح أن مهمته لم تكن على صلة بمهمتهما. كان يشق طريقه إلى حافة النهر عند بقعة لم تكن تطل عليها أية مساكن، رغم أنها داخل أسوار المدينة، بقعة لم تبد إلا وقد ازدادت عزلة وتوارياً عن البصر بسبب المستودعات والهري التي أدارت، عند مسافة قصيرة في الجهة الخلفية، كتفها للنهر. وكان هناك فسحة منحدرة نمت عليها أعشاب طويلة وسمّار (نوع من العشب –م) زاد في رطوبتها المزعجة قنوات تصريف عريضة صبّت مياهها في غير مكان في نهر الآرنو.

جذبت القنوات وعزلة المكان هذا الشخص للمجيء والجلوس وسط الأعشاب، والانكباب فوق المياه التي جرت متدفقة سريعة في المنحدر المقتّى بجانبه. ذلك أنه توافر له ذات مرة قطعة خبز كبيرة أحضرها له واحد من تلك الغدران الصديقة، وأكثر من مرة جزرة جافة وقشور تفاح. لقد كان انتظار مثل هذه المصادفات في مكان بعيد عن رؤية الآخرين مجزياً، وغالباً ما جاء، وهو في يقظته القلقة، ليراقب هذا المكان قبيل انبلاج الفجر، عسى أن يغنيه ليوم واحد عن حاجة الاستجداء الصامت تلك التي تمثلت في الجلوس على درج الكنيسة بالقرب من قارعة الطريق خلف بوابة سان فريديانو (بورتا سان فريديانو).

ذلك أن بالداسار كان يكره الاستجداء كثيراً بشكل بات معه

يؤثر الموت على أن يأتي مثل هذا الاستجداء الصامت، لولا سبب واحد جعله يتمنى العيش. لم يعد ذلك مجرد أمل. لم يعد سوى ذلك الاحتمال الذي يلازم كل فكرة تستحوذ على العقل بشكل تام: ذلك النوع من الاحتمالات الذي يجعل المرأة تراقب على لسان بر تنتظر سفينة تأتيها بعزيز، بالرغم من أن كل جيرانها كانوا متيقنين أن السفينة قد غرقت منذ سنوات بعيدة.بعد أن خرج من مستشفى الدير، حيث كان رهبان سان مينياتو قد تولوا العناية به طيلة مدة عجزه، وبعد أن ترقّب دون جدوى الزوجة التي كانت ستمد له يد العون، وبدأ يفكر أنها قضت بسبب الوباء الذي بدا أنه يملأ المكان بأكمله منذ الليلة التي افترق فيها عنها، كان عاجزاً عن تصور أية طريقة يمكن فيها للانتقام المقدس أن يشبع ذاته من خلال ذراعه. فخنجره فارقه، وكان ضعيفاً جداً من الناحية الجسدية ما حال بينه وبين أن يكسب واحداً آخر عن طريق الشغل، وضعيفاً جداً من الناحية العقلية، حتى ولو تسنّى له امتلاك خنجر، الأمر الذي حال دون أن يخطط كي يفي الخنجر بغرضه الأوحد. كان عجوزاً محطماً، مشوشاً، وحيداً، ومع ذلك فقد رغب في أن يعيش: كان ينتظر شيئاً لم تكن لديه رؤية واضحة عنه– شيئاً باهتاً، لا شكل له – يجفله، ويكون السبب في حدوث خلجات قوية بداخله، مثل ذلك الشيء المجهول الذي نبحث عنه عندما ننهض من النوم، رغم أن إيقاظنا لم يكن بفعل أي صوت أو لمسة. رغب بالداسار في أن يعيش، ولذلك فقد تسلل في ظل الضوء الشاحب، وجلس وسط العشب الطويل، وراقب المياه التي انطوت على وعد واهٍ.

في الآن ذاته كان الكومباناتشيون يواصلون العمل الذي بدؤوه. وكانت مجموعات المسلحين الشديدي البأس، والذين تُركوا لتنفيذ ما عزموا عليه بالقليل جداً من التدخل من سينوريا مرتبك إن لم يكن متغاضياً سراً، قد انقسمت إلى مجموعتين شقّتا طريقيهما، على الفور، من جهتين مختلفتين صوب نهر آرنو. فالمجموعة الأصغر كانت تتجه إلى جسر روباكونتي (بونت روباكونتي)، والأكبر نحو جسر فيتشيو (بونت فيتشيو). لكن في كلتا المجموعتين كانت الكلمات تنتقل من شفة إلى شفة على سبيل الإشارة، وكل شخص في الحشد تقريباً علم أنه كان ذاهباً إلى فيا دي باردي لينهب منزلاً هناك. ولو كان لا يعلم أي سبب آخر فهل كان يطلب واحداً أفضل من هذا؟

أما الكومباناتشيون المسلحون فكانوا يعلمون أشياء أكثر من ذلك، ذلك أن كلمة الأوامر الموجزة يتم تناقلها بسرعة، وكان قادة رتلي الرعاع الاثنين قد تفاهموا على أن يلتقوا أمام بيت محدد يقع على مسافة غير بعيدة ناحية الطرف الشرقي لفيا دي باردي حيث سيكون السيد، على الأرجح، نائماً في سريره، وبالتالي يؤخذ على حين غرّة أثناء نومه الصباحي.

لكن سيد ذلك البيت لم يكن لا نائماً ولا في السرير، فتلك الليلة لم يأو إلى فراشه. ذلك أن قلق تيتو لمغادرة فلورانسة قد استثارته حوادث اليوم الفائت: فالتحقيقات ستترى حيث ستتم مناشدته على أثرها ليؤخر رحيله: وأمام كل تأخير كان عنده إحساس قلق بوجود خطر ما. الرياء أفلح وتعاظمت قوته. لكنه نمّى معه الحياة التوأم، الخوف. فلم

يعد يرتدي درعه، لم يعد خائفاً من بالداسار، لكن من جثة ذلك الخوف الميت انبعث شبح –عادة(مشددة) الخوف التي لا تموت. شعر أنه لن يكون بمأمن حتى يكون خارج هذه الفلورانسة العنيفة، المضطربة، والآن هو جاهز للرحيل. كان مقرراً أن يسلّم ماسو منزله للمستأجر الجديد. وأحصنته وبغاله كانت بانتظاره في سان غالو. وتيسا والأولاد قد استقرّوا في مكان في الضواحي خارج أسوار المدينة لتمضية ليلتهم، وسيكونون لابسين ومتأهبين لامتطاء البغال والالتحاق به. هبط الدرج الحجري إلى الفناء، ومر عبر المدخل الوسيع، ليس تيتو عينه، بل تكاد تعلو محياه تلك الإشراقة يوم أن دخل المنزل لأول مرة وارتكب غلطة الوقوع في هوى رومولا. ولقد تم تصحيح الغلطة الآن: فالحياة السابقة ذهبت أدراج الرياح، ولسرعان ما تكون من الماضي.

انعطف بخطوات سريعة صوب ساحة موتزي (بياتزا دي موتزي)، مزمعاً على عبور جسر روباكونتي. لكن مع مضيّه في السير طرقت مسمعه بعض الأصوات الأمر الذي جعله يرتد على عقبيه ويسير بسرعة حتى أكبر من ذي قبل في الاتجاه المعاكس. هل كان أولئك الغوغاء يدخلون منطقة أولترانو؟ سبب له ذلك الشعور الانزعاج، ذلك أنه كان يفضل لو سلك الطريق الأكثر خصوصية. يجب عليه أن يسلك الآن الطريق بجانب جسر فيتشيو، وقد حملته بعض الأحاسيس غير المريحة على شد معطفه أكثر حول جسمه إمعاناً في التخفي، وعلى السير بأقصى سرعة. لم يكن أحد هناك ليراه في ذلك الغسق الكالح. لكن قبل وصوله إلى طرف فيا دي باردي وقعت على أسماعه

من جديد أصوات مشابهة، وهذه المرة كانت أكثر شدة وأكثر قرباً. أمن الممكن أن يكون ضحية خدعة حيكت خيوطها من قبل؟ لا بد أن الغوغاء يأتون من ناحية حسر فيتشيو. مرة أخرى غيّر طريقه، بدافع الخوف الذي أصبح الآن أقوى من التفكير المتروّي، لكن ذلك إنما جاء ليؤكد له أن الغوغاء كانوا بالفعل يدخلون الشارع من الطرف المقابل. وقد آثر ألا يعود أدراجه إلى منزله: في النهاية لن يقدموا على مهاجمته هو بالذات. ما زال معه بعض الأشياء الثمينة. وكل الأشياء ما عدا المنطق والنظام هي ممكنة الحدوث مع الغوغاء. لكن الضرورة تعمل عمل الشجاعة. تابع سيره صوب جسر فيتشيو، لكن الاندفاع ودوس الأقدام والأصوات المختلطة كانت تتزايد وتيرتها أمامه بحيث لم يعد يسمعها وراءه.

على أنه كان قد وصل إلى طرف الشارع، والتقى به الحشد المتدفق من الجسر عند المنعطف وسدّوا الطريق أمامه من كل الجوانب. لم يتسنّ له الوقت كي يتساءل عن كنه صرخة مفاجئة قبل أن يشعر أنه مطوق، ليس، في المقام الأول، برعاع غير مسلحين، بل بجماعة من الكومباناتشيين المسلحين. وكان إحساسه التالي شعوره بأن قبعته قد سقطت عن رأسه، وأنه دفع بعنف للأمام وسط الغوغاء، على طول المعبر الضيق للجسر. ثم ميّز الصرخات " بيانوني! ميديتشي! بيانوني! ألقوا به من فوق الجسر! "

تعرّض معطفه للتمزيق بجذب قوي كاد يخنقه لو لم ينقطع الإبزيم. ثم تعرضت محفظته للشد، لكنه بقي طوال الوقت عرضة للدفع

والجذب، لكن الجذب لم ينجح – فمحفظته بقيت معلقة على جنبه. وقد أصمّ أذنيه صراخ، وزعيق، وشتائم ليس لها سبب واضح، انتشرت حتى بين من لم يروه بعد، ولم يعلموا بأن هناك رجلاً يجب أن يشتم. كان هلع تيتو الأكبر يتمثّل في احتمال أن يتعرض للضرب أو الركل قبل أن يصل إلى القناطر المكشوفة التي تعلو منتصف الجسر . كان أمامه أمل واحد وهو أن يلقوا به من فوق الجسر قبل أن يجرحوه أو يضربوه حتى الإنهاك. وقد تجمعت كل روحه في ذلك الأمل الوحيد ورعبه المقابل.

أجل – لقد وصلوا فعلاً إلى القناطر. في تلك اللحظة توفرت لتيتو، ووجهه غير مدمى وعيناه متوسعتان، إحدى لحظات الإلهام الحافظة للذات التي تأتي في أوقات الشدة. فبمجهود مفاجئ يائس سيطر على إبزيم نطاقه، وقذف بالنطاق والمحفظة للأمام صوب فسحة خالية قبالة الحاجز، صارخاً بأعلى صوته –

" فيها جواهر! ذهب! "

وفي لحظة تراخى قبض الأيدي عليه واندفع الغوغاء صوب المحفظة. قذف بنفسه إلى الحاجز قفزة يائسة، وفي اللحظة التالية قفز – قفز في اليمّ الأسود تحت الجسر محدثاً رشاش مياه عظيماً.

لقد كانت فرصته للخلاص، وكانت فرصة طيبة. لقد أنقذت حياته مرة من قبل بفعل سباحته الماهرة وعندما صعد إلى السطح ثانية بعد غطسه الطويل داخله شعور بالنجاة. ناضل بكل الطاقة المتوافرة في شبابه القوي، وكذا ساعده التيار. لو فقط بإمكانه السباحة إلى ما

وراء جسر ألاّ كارارا(1) لكان حطّ في بقعة نائية من المدينة، بل ووصل إلى سان غالو. كانت الحياة ما تزال أمامه. وسيعتقد الغوغاء الأغبياء، الذين كانوا يطلقون الصيحات والزعيق على الجسر في الأعلى، أنه قد غرق.

وقد اعتقدوا ذلك بالفعل. فعند تحديقهم فوق الحاجز على طول النهر الأسود لم يتمكنوا من أن يروا على مبعدة السواد المتحرك للشعر العائم، والردنين المخمليين للمعطف.

ولم يتح رؤية وجه زيتوني اللون شاحب بدا أبيض فوق صفحة المياه السوداء إلا من الطرف الآخر: وجه لا يمكن أن ينساه حتى من لا يعره أي اهتمام، بجبهته المربعة، وقوس الحاجبين الطويل الواطئ، والعينين الواسعتين البراقتين كالعقيق. تابع الوجه تقدمه مدفوعاً بتيار النهر الأسود، بخيشومين مرتعشين متوسعين، وأوردة زرق متوسعة على الصدعين. جسر واحد تم اجتيازه–جسر سانتا ترينيتا. هل يجازف الآن بالنزول إلى اليابسة بدلاً من أن يثق بقوته؟ لا. لقد سمع، أو تهيأ له أنه سمع، صراخاً وصيحات تلاحقه. كان الذعر يضغط عليه أكثر ما يضغط من جانب مواطنيه: كان خوفه من المصادفات غير المعروفة أقل، وقد تابع سباحته، لاهثاً ومجهداً. لم يكن بالحيوية نفسها التي كان سيشعر بها لو أمضى ليلته في النوم.

رغم ذلك تم عبور الجسر التالي –الجسر الأخير (2). وقد شعر به، لكن في فورة دمه لم يستطع أن يشعر إلا على نحو غامض أنه بأمان ويمكنه النزول إلى البر. لكن أين؟ كان التيار يأخذه حيثما

يحلو له: صعب عليه أن يحدد موقعه: فالإنهاك كان يستحضر الحالة الحلمية التي تسبق فقدان الوعي.

بيد أن عينين في هذه الأثناء تمكنتا من تمييزه- عينين هرمتين، قويتين نسبة إلى المسافة. كان بالداسار بعد أن رفع بصره واتسمت نظرته بالخواء من جرّاء البحث في الجدول الذي لم يجلب له شيئاً، قد رأى شيئاً أبيض آتياً على امتداد المجرى المائي العريض. أيمكن أن تكون تلك فرصة حظ ما أتته؟ نظر وعاود النظر إلى أن اكتسب الشيء شكلاً: ثم مدّ رأسه للأمام والرعدة تعتريه بينما كان يجلس وسط السوق الخضراء الكثيفة، وبدت عيناه وقد اكتسبتا ألقاً جديداً. لكنه لم يفعل شيئاً سوى المراقبة – متخذاً وضعية الثبات وانعدام الحركة. شيء ما كان يأتي إليه.

في اللحظة التالية انطرح جسد إنسان بعنف على العشب على مبعدة ياردتين منه، وانطلق من فوره مثل فهد ممسكاً بقوة بالمعطف المخملي، في الآن نفسه انقضّ على الجثة مسدداً نظرة مباشرة على وجه الرجل.

ميت – هل هو ميت؟ كانت العينان متحجرتين. لكن لا، لا يمكن أن يحدث ذلك – العدالة هي التي أتت به. الناس يبدون موتى أحياناً، ومع ذلك تعود الحياة إليهم. لم يشعر بالداسار بالضعف في تلك اللحظة. كان يعرف تماماً ما بمقدوره أن يفعله. أنشب أظفاره الكبيرة داخل عنق الرداء وأبقى عليها هناك، راكعاً على ركبة واحدة بجانب الجثة ومراقباً الوجه. عمر قلبه أمل شديد الشراسة، لكنه كان

ممتزجاً بالارتجاف. في عينيه لم يكن يبين إلا الشراسة: كل ما تبقى من حياة بطيئة الاشتعال في داخله بدا وقد اشرأب في شكل ألسنة من لهب.

متحجرتان – ما تزالان متحجرتين. تلك العينان بالأجفان نصف المسدلة كانتا مقفلتين في وجه الانتقام. أمن الممكن أن يكون قد مات؟ لم يكن هنالك وسيلة لقياس الوقت: بدا الوقت طويلاً بما فيه الكفاية كي يتجمد الأمل ويصير يأساً.

من المؤكد أخيراً أن الجفنين كانا يرتعشان: لم تعد العينان متحجرتين. لقد انطوتا على نور مرتعش: انفتحتا على آخرهما.

" آه، أجل! أنت تراني – أنت تعرفني! "

عرفه تيتو، لكنه لم يعرف ما إذا كانت الحياة أو هو الموت الذي ساقه إلى حضرة والده المكلوم. ربما هو الموت– والموت قد يعني هذا السواد الذي تقشعرّ له الأبدان حيث وجه الماضي المرعب يتدلّى فوقه للأبد.

لكن خوف بالداسار الوحيد الآن كان يتمثل في أن تخونه جوارح الشباب القوية. ضغط بعقلات أصابعه على الحلقوم المستدير، وركع على الصدر بكل القوة الموجودة في كيانه الهرم. فليأت الموت حالاً!

مرة أخرى استمر في مراقبته للوجه. وعندما عادت العينان إلى تحجرهما لم يجرؤ على الثقة بهما. لن يرخي قبضته أبداً إلى أن يأتي أحد ويلقاهما. العدالة سوف تأتي ببعض الشهود، وعندها سيعلن

بالداسار أنه هو من قتل هذا الخائن، ذاك الذي كان أباً له في عهد مضى. ربما صدقوه الآن، وعندئذ سيكون مرتاحاً لكفاح العدالة على الأرض – عندئذ سيرغب في أن يموت وقبضته لا تزال متشبثة بهذا الجسد، ويلحق بالخائن إلى الجحيم علّه يقبض عليه بيديه هناك.

وهكذا فقد ركع، وهكذا فقد ضغط بعقلات أصابعه على الحلقوم المستدير دون أن يثق بالموت البادي إلى أن قوي سطوع الضوء ولم يعد باستطاعته الركوع أكثر من ذلك. عقب ذلك جلس على الجسد، دون أن يفلت عنق الرداء. لكن الساعات كرّت، دون أن يأتي أي شاهد. ولا عين لمحت عن بعد الجثتين الآدميتين المنطرحتين بين الأعشاب الطويلة بجانب النهر. كانت فلورانسة منهمكة بشؤون أكثر خطورة، وبتحضير مأساة أعمق.

بعد فترة وجيزة من تمدد تلك الجثتين وسط العشب كان سافونارولا يتعرض للتعذيب، ويصيح في ألمه وعذابه: " سأعترف! "

بقي الأمر على ما هو عليه إلى أن مالت الشمس نحو المغيب وجاءت عربة يجرها ثور رمادي متوسط الحجم إلى الضفة المعشوشبة للنهر، وبينما كان السائق ينحني ليجمع الحجارة المدورة التي تراكمت في كومة بانتظار أن تنقل بعيداً لمح شيئاً أرعبه ملقى بين الأعشاب. كان الشيخ قد سقط للأمام، وقبضته الميتة على رداء الآخر. تعذّر فصلهما عن بعضهما: لا، الأفضل أن يوضعا داخل العربة وينقلا وهما على هذه الحالة إلى داخل الساحة الكبيرة عسى أن يُعلِم أحدٌ ما مجلس الثمانية.

بينما دخلت العربة الشوارع التي يرتادها معظم الناس واكبها حشد متنام وهي تحمل حملها الغريب. لم يتعرف أحد على الجثتين لفترة طويلة، ذلك أن الوجه الهرم قد سقط للأمام نصف مغطّ للوجه الأكثر شباباً. لكن قبل أن ينقلا بعيداً عن الأنظار أمكن التعرف عليهما.

شهد بييرو كوسيمو قائلاً: " أعرف ذلك العجوز. لقد رسمت صورته ذات يوم. إنه السجين الذي قبض بيديه على ميليما على درج الكنيسة ".

" لعله عين العجوز الذي ظهر في حفلة العشاء في جنائني " قال برناردو روسيلي، أحد الثمانية. " لقد نسيته. اعتقدت أنه مات في السجن. لكن ما من سبيل لمعرفة الحقيقة الآن ".

من سيضع إصبعه على صنيع العدالة ويقول " هي ذي هناك "؟ العدالة مثل مملكة الله – إنها ليست خارجنا حقيقة واقعة، إنها بداخلنا توق عظيم.(3)

الفصل السابع والستون
استفاقة رومولا

في زورقها انتقلت رومولا من الحلم إلى سبات طويل وعميق، ومرة أخرى من السبات العميق إلى زحمة الأحلام حتى شعرت أخيراً بأنها تمد ذراعيها في محكمة السجن (البارجيللو) حيث بدا اللهب المرتعش

لفتائل الشموع يكتسب قوة تدريجية إلى أن طمس الضوء المشهد الظلامي. انفتحت عيناها وإذا هو نور الصباح. كان زورقها لا يزال راسياً في خور صغير، وعلى يمينها يمتد البحر المتوسط الصافي بلون الياقوت الأزرق، وعلى يسارها مشهد من تلك المشاهد التي كانت وما تزال تتوالى فصولاً مثل إيقاع عذب، على شطآن ذلك البحر الأجمل من كل البحار .

وفي منعرج عميق في الجبال انبسطت شساعة من أرض خضراء محجوبة بمنحدرات وادعة تظللها الأشجار وتميل نحو المرتفعات الصخرية. وفي قمم هذه المنحدرات يمكن للمرء أن يشاهد في غير مكان ممراً وامضاً بين ذرى الأشجار يوصل إلى كتلة صغيرة غير منتظمة من مبان بدت وقد تسلقت على عجل سفح الجبل، واحتلت بصعوبة موئلها هناك كي تفسح في المجال ليبدو برج الكنيسة السامق منظراً جميلاً لبيوت القرية المبعثرة والمجمّعة تحت. سقطت أشعة الشمس التي بزغت منذ هنيهة بصورة مائلة على قرن هذا الركن شبه الهلال المتجه غرباً: وكل ما عدا ذلك كان يرقد في ظلال ندية. لم يخرق صمت المكان أي صوت. فالمياه ذاتها بدت وكأنها طوّقت لتخلد للراحة.

سقطت أشعة الشمس الرخية على رومولا وأنعشتها برفق كأنها تداعبها. رقدت رومولا ساكنة قلما ترقب المشهد، بل تشعر ببساطة بوجود السكينة والجمال. عندما لم يفارقنا عمر الشباب بعد تأتينا دائماً، أوائل استيقاظنا، لحظات يكون فيهامجرد الوجود السلبي نفسه كنهر

Lethe(1) عندما تخلق روعة الإحساس الرخيّ المبهم سعادة تخلو من الذاكرة وتخلو من الرغبة. وعندما نفذ الدفء اللطيف إلى جوارح روملا الفتية، وعندما استقرت عيناها على هذا الترف المنعزل عن العالم بدا أن الماضي المضطرب قد انسل مبتعداً مثل ذلك المشهد الظلامي في البارجيللو، وأن أحلامها المسائية أيام الصبا قد عادت إليها حقاً. للحظة أو اثنتين لم يعكر صفو النسيان أي شيء. بل لم يجل بخاطرها أن بإمكانها أن تستريح في هذا المكان للأبد، لم تشعر سوى أنها مرتاحة . ثم وعت بشكل واضح أنها ترقد في الزورق الذي أقلّها فوق صفحة المياه طيلة الليل. وبدلاً من أن يقلّها إلى الموت كان بمثابة مهد لحياة جديدة يهدهدها بلطف. وبالرغم من قنوطها المسائي كانت مسرورة لأوبة الصباح من جديد: مسرورة لأنها كانت تستريح في ضوء الشمس الذي ألفته وليس في بقاع الموت المجهولة. أيتعذر (مشددة) عليها الاستراحة في هذا المكان؟ لن يصل أسماعها أي صوت من فلورانسة. لكن النسيان قد أخذ يتكدر صفوه. فمن وراء الغبش الذهبي كانت تثوي القباب والأبراج والأسوار يقسمها نهر وتحيط بها التلال الخضر.

نهضت من وضعية الاضطجاع واستوت جالسة في الزورق وهي ترغب، إن استطاعت، في مقاومة دفق الأفكار التي فرضت نفسها وأيضاً تخمين المسافة التي يمكن أن يكون قد قطعها القارب. ما الداعي لأن تهتمّ بهذا الأمر؟ فالمكان كان ركناً مخفياً حيث البقعة مسكونة ببسطاء القرويين الذين لن يمسوها بأذى. يمكنها، على الأقل،

أن تستريح ولا تنشغل باتخاذ قرار من أي نوع.عما قريب ستنطلق وتؤمن لنفسها بعض الخبز والحليب، ثم تركن للراحة في الهدوء الأخضر، وتشعر بأن هناك فترة سكينة في حياتها. التفتت لتراقب الوادي الهلالي الشكل علّها تسترجع الإحساس بالهدوء والجمال الملطّف للنفس، ذاك الذي أتاها في مستهل إفاقتها.

لم يمض على هذه الوضعية من التأمل الصامت أكثر من بضع لحظات حتى انطلق بكاء اخترق السكون. لم يكن بكاء قصيراً بل بكاء متواصلاً ازدادت وتيرته شيئاً فشيئاً. كانت رومولا على يقين أنه بكاء طفل في ضيق لم يهب لنجدته أحد. نهضت من فورها ووضعت قدماً على حافة المركب جاهزة لتقفز إلى الشاطئ، لكنها لبثت مكانها وأرهفت السمع: لا بد أن أم الطفل غير بعيدة عن المكان، لا بد أن يتوقف البكاء على الفور. لكنه تواصل، ولم تستطع رومولا مقاومة التوجه إلى موقعه بعد أن بدا ذلك لها مدعاة للرثاء بسبب جو الهدوء الذي سبقه، ما حدا بها للقفز إلى الشاطئ والسير خطوات ليست بالقليلة قبل أن تقف على الوجهة التي يتعين عليها سلوكها. وقد خمّنت أن البكاء مصدره بعض النباتات المتشابكة في حديقة على بعد عدة ياردات على يمينها حيث لمحت كوخاً نصف خرب. تسلقت سياجاً حجرياً واطئاً متهدماً وشقت طريقها عبر مساحات من المحاصيل الخضراء الزاخرة بالأعشاب الضارة والقمح الناضج لكن المهمل. غدا البكاء أكثر وضوحاً، وبعد اقتناعها بصوابية توجهها غذّت الخطا صوب الكوخ. لكن حتى مع ذلك السير العجل شعرت بتغير في الجو

يبعث على الضيق عندما خلفت البحر وراءها. هل كانت هناك وصمة تقبع وسط الكثافة الشجرية التي شكلت ملاذاً لطيفاً من حرارة اليوم القادم؟ في هذه الأثناء ظهرت أمامها فتحة الكوخ، وأخذ البكاء يخترقها سريعاً كالألم. في اللحظة التالية كانت قد حطت قدمها في المدخل لكن المنظر الذي رأته في الضوء الشاحب استوقفها بعد أن شعرت بصدمة نجمت عن الرهبة والهلع . إذ تمددت على القش المنتثر على الأرض ثلاث جثث، واحدة لرجل طويل القامة، وواحدة لفتاة تناهز الثامنة، وواحدة لامرأة فتية تمسّك بشعرها جاذباً إياه طفل ما زال على قيد الحياة – الطفل الذي كان مصدر البكاء الذي أصمّ الآذان. على أن خبرة رومولا بالموت والمرض، عندما يحوّم في مكان ما، جعلتها تفكر وتتصرف بسرعة: رفعت الطفل الصغير الحي، وفي محاولتها تهدئته على صدرها لبثت منكفئة للأمام ناظرة إلى الجثث لترى ما إذا كانت ميتة بحق. وقد جعلها نوع العرق الذي بدا بوضوح شديد على ملامحهم، ولباسهم الغريب،تخمّن بأنهم كانوا يهوداً إسبان أو برتغاليين ربما طرحهم على الشاطئ وتركهم هناك، بعض البحارة اللصوص حيث وقع ما يملكونه ضحيةً لجشعهم. مثل هذه الأشياء كانت تحدث باستمرار لليهود الذين أُكرهوا على ترك بيوتهم بفعل محاكم التفتيش (2): فقساوة الجشع قذفت بهم من البحر، وقساوة الخوف من المجهول قذفت بهم إليه.

فكرت رومولا: " لكن مؤكد أنني سأعثر على امرأة ما في القرية لن يدعها قلب الأم بداخلها ترفض رعاية الطفل القاصر – إن

كانت الأم الحقيقية قد قضت حقاً ".

لازمها هذا الشك، ذلك أنه بينا بدا الرجل والفتاة هزيلين، وكذا ظهر عليهما ما يبين أنهما قضيا منذ فترة، فقد بدت المرأة أكثر صلابة ولم تزايلها تماماً القوة البادية في تماسك الشكل. جثت رومولا وأوشكت أن تضع يدها على القلب، لكن ما إن رفعت رقعة القماش الصوفية الصفراء التي كانت تغطي الصدر حتى شاهدت البقع الأرجوانية التي ميّزت الوباء المعهود. ثم خطر لها أنه إذا علم القرويون بهذا الأمر فإنها ستواجه صعوبة أكبر مما كانت توقعت في حملهم على المساعدة. ربما سيحجمون عنها وهي تحمل الطفل بين ذراعيها. لكنها كانت تتوفر على المال لتعرضه عليهم، وبالتالي لن يرفضوا إعطاءها بعض حليب الماعز مقابل ذلك.

انطلقت من فورها صوب القرية وتفكيرها منصب الآن على تهدئة المخلوق الصغير الداكن اللون، ومسائلة نفسها كيف ستتمكن من إيجاد امرأة تحنو عليه. كان يراودها أمل لم تستطع كبحه بأن تحظى ببعض المهابة التي لاحظت أن ظهورها بثيابها الدينية من دون أن يعرفها أو يتوقعها أحد يوحي بها. وعندما اجتازت بقعة أرض محروثة لاحظت باستغراب أن مساحات صغيرة من القمح مختلطة مع غيرها من المحاصيل قد تركت ليفوت أوان نضجها دون أن يمسها منجل، وأن تفاحات ذهبية وثمار تين قاتمة اللون قد تركت على الأرض المعشوشبة لتتعفن. وفي مرمى البصر كانت هناك مساحات عشبية، لكن لا بقر أو أغنام أو ماعز. بدأ السكون يدخل الرهبة في نفس

رومولا. غذّت الخطا صوب تجمّع البيوت على أمل أن تلقى عدداً أكبر من الأحياء الذين سترجوهم أن يقدموا يد العون لصالح الحي القاصر الذي حملته بين ذراعيها.لكنها كانت قد التقطت ثمرتي تين وقضمت قسيمات صغيرة من اللب الحلو لتهدئة الطفل بها.

دخلت بين صفين من المساكن. لا بد أن القرويين قد انطلقوا لقضاء أشغالهم منذ فترة ليست بالقصيرة، لكن لم يكن أحد ليُرى في مرمى البصر. أخذ الجو يصبح خانقاً أكثر فأكثر، وقد تعبّق، كما بدا، ببعض القذى المزعج جداً. شاهدت باباً مفتوحاً. نظرت إلى الداخل وإذا بها تشاهد خواء كئيباً. باباً مفتوحاً آخر، ومن خلاله شاهدت رجلاً يرقد ميتاً مرتدياً كل ملابسه، ورأسه مسنود بالعرض على قبضة مجرفة، وفي يده إبريق من الفخار، كما لو أنه سقط بغتة.

شعرت رومولا برعب يستولي عليها. هل كانت في قرية الموتى الذين لم يجدوا أحداً يدفنهم؟ أرادت أن تسترق السمع علّها تسمع أي صوت ضعيف، لكن الطفل أخذ يبكي من جديد عندما توقفت عن إطعامه، وأصمّ النحيب أذنيها. وأخيراً لمحت شخصاً يزحف ببطء خارجاً من أحد البيوت، وانكفأ على الفور للوراء وجلس مستنداً إلى الحائط. أسرعت نحوه، كانت امرأة شابة في كرب عظيم، وكانت بدورها تحمل إبريقاً في يدها. ومع اقتراب رومولا منها لم يبد عليها أنها ذُعرت، فقد كانت الحاجة الوحيدة تستغرقها بحيث لم تترك مجالاً لأن تؤثر فيها أية فكرة أخرى.

أخذت تنادي بصوت كالأنين: " ماء! إليّ بقليل من الماء! "

انحنت رومولا لتتناول الإبريق، وهمست في أذنيها بحنان: " سيكون لك الماء، أيمكنك التأشير صوب البئر؟"

رُفعت اليد صوب الطرف الأبعد من الشارع الصغير وانطلقت رومولا من فورها بأقصى سرعة استطاعتها في ظل صعوبة حمل الإبريق وإطعام الولد. لكن الكائن الصغير كان قد بدأ يشعر بالرضى أكثر فأكثر مع تكرر لقيمات لب التين الحلو وكف عن التسبب في مزيد من كربها بنحيبه، بحيث تمكنّت من إيلاء اهتمام أكبر للأشياء من حولها.

كان البئر على مبعدة عشرين ياردة أو أكثر خلف نهاية الشارع، وبينما كانت رومولا تقترب منه توجهت عيناها إلى المنحدر الأخضر المقابل أسفل الكنيسة مباشرة. ذلك لأنها لمحت في القمة، في بقعة عشبية بين الأشجار، بقرة وزوجاً من الماعز، وحاولت أن تتقفى خطاً لدرب قد يوصلها قريباً من ذلك المنظر المفرح، ما إن تنجز مهمتها إلى البئر. وإذ كانت منهمكة على هذا النحو لم تفطن إلى أنها كانت قريبة جداً من البئر، وأن شخصاً يقترب منه من الجانب الآخر قد سلط عليها زوجاً من العيون المندهشة.

من المؤكد أن مرأى رومولا في تلك اللحظة وفي ذلك المكان ما كان ليمر دون توقف ووجيب في القلب. إذ من المحتمل جداً أنها بتحديقها المركّز على المنحدر النائي، والخطوط الطويلة لردائها الرمادي السميك التي أسبغت صفة المرور الخاطف على مشيها السريع، وشعرها المرتد للخلف والمنوّر على الجانب اليساري بأشعة

الشمس، والطفل الزيتوني اللون على ذراعها اليمنى – وكان الآن ينظر بعينين بلون الكهرمان الأسود – من المحتمل جداً أنها دبّت الرعب في قلب ذلك الشاب الذي ناهز الخامسة عشرة، والذي درج على مرجحة المبخرة في حضرة عذراء أقل جمالاً وروعة من هذه.

" إنها تحمل إبريقاً في يدها – لتجلب الماء للمرضى. إنها الأم المقدسة جاءت لتعتني بالناس المبتلين بالوباء ".

كان منظراً يدخل الرهبة في النفس: ربما ستغضب من أولئك الذين أحضروا ماء لأنفسهم فقط. رمى الشاب إناءه خوفاً ورعباً، ورومولا التي انتبهت الآن لوجود أحدهم بجانبها لمحت المخلوق بالألوان البيضاء والسوداء يطير طيراناً، وكأنه كان يخاف على حياته الغالية، صوب المنحدر التي كانت تتأمله للتو. لكن عند تذكرها المريضة الظمآنة ملأت الإبريق لنصفه وقفلت عائدة بسرعة.

وعند دخولها البيت لتبحث عن فنجان صغير شاهدت لحماً مملحاً ووجبة طعام: لم ترَ ما يدل على العوز في البيت. وبحركة خفيفة رشيقة أجلست الطفل على الأرض، ورفعت فنجان ماء للمريضة التي شربته بلهفة. على أثر ذلك أغمضت عينيها وردّت رأسها للخلف مستسلمة، كما يبدو، للإحساس بالارتياح. وفي الحال فتحت عينيها، وعند النظر إلى رومولا، قالت بوهن وفتور –

" من أنت؟"

قالت رومولا: "جئت من البحر. لقد جئت لتوي هذا الصباح. هل كل سكان هذه البيوت قضوا؟"

" أعتقد أنهم جميعاً مرضى الآن – كل من لم يقض بعد. أبي وأختي يرقدان ميتين في الطابق العلوي، وليس هناك أحد ليدفنهما: وعما قريب سأقضي أنا ".

قالت رومولا: " آمل ألا يحدث ذلك. لقد جئت لأعتني بك. أنا معتادة على الوباء. أنا لست خائفة. لكن لا بد أن هناك أشخاصاً لم يبتلوا بالمرض. لقد رأيت فتى يركض نحو الجبل عندما قصدت البئر ".

" لا أعرف. عندما حلّ الوباء رحل العديد من الناس، وساقوا أبقارهم ومعزهم. ناوليني المزيد من الماء! "

وبعد أن خمنت رومولا بأنها إذا قصدت الاتجاه الذي سلكه الفتى في هروبه الخاطف فإنها قد تعثر على بعض الرجال والنساء الذين كانوا لا يزالون محتفظين بصحتهم وقوتهم، صممت على البحث عنهم في الحال علّها تكسب ثقتهم بالعناية بالطفل مما سيعطيها حرية في العودة وتبيّن كم من الأحياء بحاجة للمساعدة، وكم من الأموات بحاجة لمواراتهم الثرى. ركنت إلى قدرتها على الإقناع لتفوز بمساعدة الخائفين، ما إن تعرف ما الذي يتوجب فعله.

وبعد أن وعدت المرأة المريضة بأنها ستعود إليها رفعت الطفل الصغير الداكن اللون ثانية وانطلقت صوب المنحدر. لم تشعر الآن بعبء الاختيار، ولا بالتوق للموت. كانت تفكر في كيف ستتوجه إلى المرضى الآخرين كما كانت ذهبت إلى تلك المرأة المحمومة.

لكن لم يكن سهلاً عليها، والطفل على ذراعها، أن تتسلق

المنحدر كما دأبت، وبدا الوقت طويلاً قبل أن يوصلها الدرب الالتفافي إلـى حيث البقر والماعز. بدأت هي نفسها تشعر بالوهن من جرّاء الحرارة، والجوع، والعطش، وعندما وصلت إلى منعطف مزدوج توقفت لترى ما إذا كان من الأجدر الانتظار قرب البقرة التي كان من المحتمل أن يأتي أحدهم ويحلبها في الحال، على أن تتجشم عناء الصعود إلى الكنيسة قبل أن تنال قسطاً من الراحة. وبعد أن رفعت بصرها لتقيس مسافة الانحدار لمحت وجهاً مستديراً عريضاً يسترق النظر بين الأغصان على بعد لا يزيد عن خمس ياردات يراقبها باهتمام، وفي مكان أخفض الطرف الأسود لرداء كاهن، ويد تمسك بدلو. لبثت صامتة تراقب، والوجه، أيضاً، ظل على سكونه. كم من المرات شهدت رومولا القوة الطاغية للخوف في حالات الوباء، وعليه فقد أخذت حذرها.

وبعد أن رفعت صوتها في لهجة توسل لطيف قالت: " لقد جئت من البحر. أنا جائعة وكذا الطفل. هلا أعطيتنا بعض الحليب؟ "

حدست رومولا ببعض الحقيقة، لكنها لم تحدس بما كان يشغل ذهن الكاهن الذي شحن كلماتها بدلالة غريبة. منذ فترة وجيزة لا أكثر جاء مساعد الكاهن بأخبار للأب الكاهن بأنه قد شاهد العذراء ومعها الطفل تحضر ماء للمرضى: كانت بطول شجرات السرو، وهالة أحاطت بهامتها، ولقد رفعت بصرها إلى الكنيسة. لم يكن إصغاء راعي الأبرشية خلواً من الشك: لقد مضى على وجوده في العالم خمسون عاماً دون أن تحضره أية رؤيا للعذراء، وقد حسب أن الفتى ربما أساء

تفسير الظهور المفاجئ لإحدى القرويات. لكنه لم يشعر بالارتياح، وقبل المغامرة بالنزول وحلب بقرته تلا تكراراً السلام عليك يا مريم. وخزه ضميره قليلاً: كانت تعتريه الرعدة لهول الوباء، لكنها اعترته أيضاً عندما فكر بالعذراء الوديعة الوجه، شاعراً أن الرحمة غير المرئية قد تطلب شيئاً منه أكثر من الصلوات و"السلام عليك يا مريم ". وهو على هذه الحالة من التفكير – ودون أن يقوى على طرد الصورة التي وصفها الفتى عن العذراء وقد أحاطت بها هالة المجد وكانت تتولى العناية بالمرضى – نزل الكاهن ليحلب بقرته، ولمح فجأة رومولا وقد توقفت عند مفترق الطرق. وعوضاً عن أن تقدم كلماتها المتوسلة، بما شابها من نقاء غريب في اللهجة والنبرة ، تفسيراً فقد كان لها وقع غير عادي عليه. ورغم ذلك لم يصدق تماماً بأن ما رآه كان العذراء: اعترته حالة من التردد المشوب بالذعر. إذا كان ما يحدث شيئاً عجائبياً فقد شعر بأنه لم ينهض أي دليل ظنّي قوي بأن المعجزة ستكون في صالحه. لم يجرؤ على الهرب، لم يجرؤ على التقدم.

قالت رومولا بعد فترة صمت: " انزل، لا تخف. عليك بالأحرى أن تخاف من حرمانك الجياع من الطعام حين يطلبونه منك ". بعد برهة أُبعدت الأغصان، ووقفت هيئة مكتملة لكاهن مكتّل الجسم ذي وجه عريض لا يوحي بشرّ، وقفطان أسود بدا عليه جلياً الاهتراء والتراب. وقف والدلو بيده ينظر إليها بوجل، ومحافظاً على مسافة منها وهو يتوجه نحو البقرة في صمت. لحقت رومولا به وراقبته دون أن تتكلم ثانية، بينما جلس هو قبالة البقرة المربوطة، وسحب بعصبية

بعض الحليب وناولها إياه في كأس نحاسي كان يحمله في الدلو. وعندما قربت رومولا الكأس من شفتي الطفل المتلهف، وبعد أن أصابت هي نفسها قليلاً منه لبث الأب يراقبها من مقعده الخشبي بوجل تغيّر طابعه قليلاً. تعرّف على الطفل العبري، كان متأكداً أن من كان يقف أمامه هي امرأة حقيقية، لكن بقي شيء غريب لا يمكن تفسيره في وجود رومولا في هذه البقعة، ونشأ لدى الأب شعور داخلي بأن الأحوال معه كانت آيلة إلى التبدل . إضافة لذلك كان ذلك الطفل العبري مرتبطاً على نحو مرعب بالهلع الذي واكب الوباء.

ورغم ذلك، عندما ابتسمت رومولا للطفل الذي كان يمص شفتيه الحليبيتين، ومدت ذراعها ثانية بكأس الحليب قائلة: " أعطنا المزيد، يا أبتاه الطيب " فقد أذعن بعصبية أقل مما سبق.

ومن جانبها لم تكن رومولا تعدم المراقبة، وعندما تم احتساء الوجبة الثانية من الحليب نظرت لأسفل إلى الرجل صاحب الرأس المستدير، وقالت بعزم رقيق –

" والآن، قل لي يا أبتاه كيف حل هذا الوباء، ولم تركت رعيتك تموت بدون تقدمة القربان ودون دفن. ذلك أنني جئت من البحر لمساعدة أولاء الذين بقوا على قيد الحياة – وأنت، أيضاً، ستقدم لهم يد المساعدة الآن ".

قص عليها قصة الوباء: وبينا كان يقص عليها القصة، عاد الفتى الذي هرب من قبل وأخذ يسترق النظر ويقترب تدريجياً، إلى أن لبث مكانه أخيراً وأخذ يراقب المشهد من وراء شجيرة مجاورة.

ثلاث عائلات من اليهود، ما مجموعه عشرون نفساً، طرحت على الشاطئ منذ عدة أسابيع، بعضهم ابتلي بالوباء من قبل. وبالطبع – تابع الكاهن – رفض القرويون تقديم المأوى للأوغاد، إلا في كوخ ناءٍ، وتحت أكوام من القش. لكن عندما قضى الغرباء في الطاعون، وتمّ قذف الجثث في البحر، أعادها البحر ثانية عند هبوب عاصفة شديدة، وأصيب الجميع بالهلع. وقد حفرت مقبرة وتم دفن الجثث، لكن بعدئذ ضرب الوباء المسيحيين، وقصد العدد الأكبر من القرويين الجبال ومعهم ماشيتهم النزرة ومؤؤنتهم. أما الكاهن فلم يهرب، فقد بقي وصلى لأجل الشعب، وقد حمل الفتى جاكوبو على البقاء معه، لكنه اعترف بأن خوفاً مميتاً من الطاعون قد تملّكه، ولم يجرؤ على النزول إلى الوادي.

قالت رومولا بلهجة مشجعة، لهجة من يملك سلطة: " لن تخاف بعد الآن، يا أبتاه. ستنزل معي، وسنرى من لا يزالون على قيد الحياة، وسنبحث عن الموتى لمواراتهم الثرى. لقد جلت لعدة أشهر حيث ضرب الوباء، وكما ترى، فأنا في كامل قوتي. وأضافت وهي تشير إلى الولد المتلصص الذي تقدم ببطء من وراء أجمته الدفاعية كما لو أن خيوطاً خفية كانت تجرّه:

" وجاكوبو سيأتي معنا ".

" تعال، يا جاكوبو، " قالت رومولا ثانية وهي تبتسم له. " أنت ستحمل الطفل نيابة عني. انظر! ذراعاك قويتان وأنا تعبة ".

كان ذلك اقتراحاً أرعب جاكوبو والكاهن معاً، لكن كليهما

وقعا تحت تأثير قوة غريبة حملتهما على الإذعان. لقد تلاشى الشك بأن رومولا كانت شبحاً غير عادي، لكن خياليهما امتلأا عوضاً عن ذلك بأقوى شعور بأنها كانت آدمية أرسلها الله من البحر لقيادتهم.

أردفت رومولا قائلة: "والآن سننزل بالحليب إلى تحت ونرى ما إذا كان أي شخص بحاجة إليه ".

وهكذا نزلوا جميعاً إلى أسفل المنحدر، وذلك الصباح شهد المرضى اليائسون الغوث يأتي إليهم. لم يتبق إلا بضعة أحياء من مجمل سكان الوادي، لكنهم جميعاً تعزوا، وأنقذ الكثيرون منهم، وتم مواراة الموتى الثرى.

على هذا النحو انصرمت الأيام، والأسابيع، والشهور، مع رومولا إلى أن استأنف الناس حراثتهم وزراعتهم من جديد، والنسوة ابتسمن لها عندما حملن أباريقهن الكبيرة على رؤوسهن إلى البئر، والطفل اليهودي صار مسيحياً يدرج ويهوي مترنحاً إلى الأرض. وبعد أن سمي بينديتو تم تعميده في الكنيسة على سفح الجبل. لكن بحدود ذلك الوقت أخذت هي نفسها تعاني من الإرهاق والونى الذي لا بد يأتيان بعد إجهاد مستمر للنفس والجسد. وقد اتخذت سكناً لها أحد البيوت التي هجرها أصحابها والذي كان يقبع منعزلاً على مبعدة من شارع القرية. وها هنا وعلى كومة سميكة من نظيف القش – ما شكل سريراً مريحاً لأولئك الذين لا يحلمون بالزغب – شعرت بالسرور لرقودها بهدوء معظم ساعات النهار، يتولى عنايتها هي وبينيديتو الصغير امرأة ترمّلت من الوباء.

كل يوم كان الأب وجاكوبو والرهط الصغير من سكان القرية الباقون على قيد الحياة يأتون لزيارة هذا الكوخ ليلتقوا بالسيدة المباركة، ويقدموا لها النفيس على سبيل النذور– عسلاً، وفطائر طازجة، وبيضاً، وعصيدة ذرة. لقد كان مشهداً يستعصي نسيانه على أي واحد منهم، مشهداً أخذوا يقصونه عندما شاخ بهم العمر – كيف أن السيدة الرائعة والمقدسة بوجهها الجميل، وشعرها الذهبي، وعينيها البنيتين اللتين ثوت بداخلهما البَرَكة، استلقت تعبة من كدها بعد أن جاءت من البحر لمساعدتهم في شدتهم، وكيف اعتاد بينيديتو الصغير الداكن اللون والغريب الأطوار أن يدرج على القش بجانبها ويطلب كل ما كان يؤتى به إليها، وكانت دائماً تعطيه بعضاً مما أخذت، وتقول لهم إنهم إذا كانوا يحبونها فيجب أن يحنوا على بينيديتو.

كثيرة هي الروايات التي أعقبت تلك الحادثة في الوادي عن السيدة المباركة التي وفدت من البحر، لكنها كانت روايات قد يعرف كل من سمعها أنه في غابر الأيام قامت امرأة في تلك البقعة بأفعال كريمة حانية هناك، وأنقذت أولئك الذين كانوا على وشك الهلاك.

الفصل التاسع والستون
صوب البيت(1)

في سكون تلك الساعات الشتوية عندما كانت روملا تستريح من تعبها، وتفكيرها يستعرض الماضي، ويرنو عبر بُعْد المستقبل المبهم،

شاهدت كل الأشياء من موقع جديد. فخبرتها منذ لحظة إفاقتها في القارب أمدّتها بفعالية تعادل في قوتها أثر الختم الجديد في الشمع الذائب. كانت قد شعرت بأنها متحررة من كل قيد، ومن كل دافع، وأنها غارقة في شكوى أنانية صرفة من أن الحياة لا يمكن أن تجلب لها أية راحة، مع شعور بحقها في أن تقول: " لقد تعبت من الحياة، أرغب في الموت ". تلك الفكرة نشجت بداخلها عندما غفت، لكن منذ لحظة إفاقتها عندما جذبتها صرخة البكاء، لم تفكر مجرّد تفكير، كما درجت أن تفعل في فلورانسة، بسعادتها في الحياة كونها استطاعت أن تخفف من الأسى – لقد عاشت ببساطة يحدوها دافع قوي للمشاركة في الحياة من حولها، ولتستجيب لنداء العوز والحاجة والقيام بالعمل الذي صرخ عالياً طلباً للإنجاز، حتى إن أسباب الحياة، والتحمل، والكد، لم تتخذ قط شكل المحاجة.

كانت الخبرة بالنسبة لرومولا أشبه بمعمودية جديدة. في فلورانسة تشابكت، بالنسبة إليها، الصلات الأبسط للكائن البشري بمواطنيه مع كل الروابط الخاصة بالزواج، والدولة، والتتلمذ الديني. وعندما خيبت هذه الأشياء ثقتها، بدا أن الصدمة قد هزتها نائية بها عن الحياة وصعقت شعور التعاطف لديها. لكن لسان حالها كان يقول الآن: " لقد كانت دناءة مني أن أشتهي الموت. إذا كان كل شيء آخر مشكوكاً به فإن هذه المعاناة التي يمكنني أن أمد لها يد الغوث لهي مؤكدة. إذا كان مجد الصليب وهماً، فإن الحزن هو الأكثر صدقاً. وما دامت القوة تكمن في ساعدي فإنني سأمده للضعفاء، وما دام النور

يغشى عينيَّ فإنهما ستسعيان بحثاً عن المنبوذين ".

وعلى أثر ذلك بُعث الماضي أمامها مسربلاً بجاذبية جديدة. فعملها في هذا الوادي الأخضر قد أُنجز، والعواطف التي انفصلت عن الناس المحيطين بها مباشرة عادت واندفعت من جديد داخل الأقنية العميقة السابقة، أقنية الفائدة والمحبة. ولقد جعلتها تلك الاحتمالية النادرة من التأمل الذاتي التي تأتي في أي انفصال تام عن حياتنا المعتادة تحكم على نفسها كما لم تفعل من قبل: فوخز الضمير الذي يستحيل فصله عن طبيعة متعاطفة مع الآخرين تعي بشكل حاد خبرتهم المحتملة بدأ يتحرك بداخلها بقوة متصاعدة. فقد ساءلت صوابية نتائجها التي استخلصتها، وصوابية أفعالها: لقد كانت مندفعة، متعجرفة، مستاءة جداً من أن الآخرين لم يكونوا طيبين بما فيه الكفاية، بينما هي نفسها لم تكن وفية لما رأته روحها يوماً أنه الأفضل. بدأت تستنكر هروبها: في النهاية إن هو إلا عناية جبانة بالذات، والحجج التي على أساسها أعادها سافونارولا إلى بيتها ذات يوم كانت أصدق، أعمق من الحجج التي ساقتها لتبرير هروبها الثاني. كيف لها أن تشعر بحاجات الآخرين دون أن تشعر، قبل كل شيء، بحاجات الأقربين؟

لكن عندها جاءت ردة الفعل على جلد الذات هذا. لقد علمت من ذكرى حياتها مع تيتو، والشروط التي جعلت اتحادهما الحقيقي مستحيلاً، بينما فرض اتحادهما الخارجي جملة من الواجبات المرائية عليها والتي كانت أساساً إخفاءً وجوازاً لما تمرد تفكيرها عليه، أن

هروبها كان موئلها الوحيد. كل العقول، باستثناء تلك التي سلمت من الشك عن طريق تبلد الإحساس، يجب أن تكون عرضة لهذا الصراع المعاود حيث حالت شروط الحياة الكثيرة الاعوجاج دون تنفيذ الرباط. ذلك أنه بدقة العبارة ليس هناك من استبدال للصلات: فوجود الجديد لا يلغي فشل وانتهاك القديم. لقد فقدت الحياة كمالها: لقد تشوهت، وإلى أن تندمل الجروح تماماً فإن الضمير لا ينـي يرمـي للوراء بنظرات شكاكة.

انكمشت رومولا مرتعبة من تجدد مجاورتها لتيتو، ومع ذلك لم تكن مرتاحة لوضعها نفسها بمنأى عن معرفة مصيره – لم تكن مرتاحة لأن اللحظة قد تأتي آن يحل به البؤس ويحتاج إليها. مع ذلك بقي بداخلها خيط من الألم، يشهد على كلمات الأخ جيرولامو، بأنها لا يمكنها أن تتوقف عن أن تكون زوجة. أيمكن أن يتوقف نهائياً بالنسبة إليها أي شيء امتزج يوماً مع دفق الدم في فؤادها؟

فلورانسة، وكل حياتها هناك قد عادت إليها كما الجوع. لا يمكن أن تتيه مشاعرها وراء المحتمل والغامض: فنسيج عيشتهما كان يستمد نسغه من ذكرى الأشياء المألوفة. وأصبح التفكير بأنها قد فصلت نفسها عن هذه الأشياء للأبد ملحاً أكثر فأكثر في هذه الساعات التي كانت خلواً من الفعل. وهب أن الأخ جيرولامو كان على خطأ؟ وهب أن الحياة في فلورانسة كانت شبكة من المتناقضات؟ أكانت، عندئذ، باعتبارها شيئاً أسمى، تنفض الغبار عن قدميها، وتقول: " هذا العالم ليس وفياً معي بما فيه الكفاية؟ " ولو كانت حقاً شيئاً أسمى لما

كانت فقدت كل ثقتها بهذه السهولة.

لم يعد حزنها الساخط على ما حدث لعرّابها يتملكها تماماً، وأخذ إحساسها بالدَيْن نحو سافونارولا يستعيد الهيمنة. ليس بوسع أي شيء ورد، أو سيرد، أن يستغني عن حقيقة أن هناك إلهاماً عظيماً في داخله، إلهاماً أيقظ حياة جديدة في داخلها. ومن،في كل ما تأتى لها من خبرة، بإمكانه أن يستدعي عرفانها بالجميل نفسه إلاّه؟ أخطاؤه – أليس من المحتمل أن تجلب المصائب؟

لم تقو على الراحة. لقد استعصى عليها أن تعرف فيما إذا كانت قوتها هي التي عادت مع الأوراق البازغة التي جددت نشاطها ثانية، أو أنه توقها الشديد للبقاء أقرب ما يكون من فلورانسة. لم تتخيل أنها يمكن أن تجرؤ على دخول فلورانسة، لكن الرغبة في أن تكون قريبة بما فيه الكفاية لتعرف ما الذي كان يدور هناك ألحت عليها بقوة استبعدت كل المرامي الأخرى.

وذات صباح من صباحات آذار تجمع سكان الوادي لوداع السيدة المباركة. كان جاكوبو قد أحضر لها بغلاً، وكان سيصحبها في طريقها الجبلي الذي ستسلكه. والكاهن، أيضاً، كان سيصحبها إلى أقرب بلدة، عسى أن يساعدها في معرفة أسلم الطرق التي يجب أن تسلكها للوصول إلى بيستوجا. كان ما معها من الحلى الرخيصة والمال، التي بقيت على حالها في الوادي دون أن تُمسّ، كافياً تماماً لسد احتياجاتها.

ولو كانت روملا أقل انجذاباً للشوق الذي كان يأخذها بعيداً،

لشعرت بأنها لحظة صعبة، لحظةَ سلكت طريق القرية للمرة الأخيرة بينما كان الكاهن وجاكوبو، ومعهما البغل، ينتظرانها بقرب البئر. وقد أعاق تقدمها عويل الناس، الذين ركعوا وقبلوا يديها، ثم تشبثوا بحاشية ثوبها وقبلوا الثنيات الرمادية صارخين: " آه، لماذا أنت راحلة، حين بدأ الموسم الجيد يحلّ علينا والغلال ستكون وفيرة؟ لماذا أنت راحلة؟"

قالت رومولا: " لا تحزنوا. أنتم الآن بخير، ولسوف أتذكركم. يجب أن أذهب وأرى ما إذا كان قومي بحاجة إلي ".

" آه، أجل، إذا ابتلوا بالوباء! "

" اشملينا برعايتك ثانية، أيتها السيدة الفاضلة! "

" أجل، أجل، سنرأف ببينيديتو الصغير! "

وأخيراً امتطت رومولا البغل الذي أسرج لها، لكن صراخاً قوياً من بينيديتو عندما رآها تبتعد عنه في هذا الموقف المستجدّ، كان مبرراً لكي يلحق الناس جميعاً بها ويلحوا على أن يركب على عنق البغل حتى سفح المنحدر.

على أن الفراق لا بد أن يأتي موعده أخيراً، لكن عندما واصلت رومولا الالتفات للوراء قبل أن تغيب عن مرمى البصر شاهدت الجمع الصغير يتلكأ في العودة لكي يتسنى لهم رؤية آخر تلويحة من يدها.

الفصل السبعون
اللقاء ثانيةً

في الرابع عشر من نيسان ألفت رومولا نفسها ثانيةً داخل أسوار فلورانسة. وعندما لم تقو على الاستراحة في بيستوجا حيث وصلتها تقارير متناقضة عن تجربة النار، تابعت مسيرها إلى براتو، وقد بدأ يداخلها تفكير بأنها يجب أن تواصل سفرها إلى فلورانسة بالرغم من هول ذلك، وإذا بها تقابل ذلك الراهب من سان سبيريتو الذي كان كاهن اعتراف عرّابها. ومنه علمت قصة القبض على سافونارولا بحذافيرها، ووفاة زوجها. كان هذا الراهب الأوغسطيني من ضمن حشد الناس الذين لحقوا بالعربة وعليها حمولتها المشؤومة إلى داخل الساحة، وقص عليها القصة المعروفة لعموم الناس في فلورانسة – أن تيتو قد نجا من غوغاء هاجموه بالقفز في نهر آرنو، لكنه اغتيل على الضفة من قبل عجوز حقد عليه منذ زمن طويل. لكن رومولا فهمت الكارثة أكثر من أي واحد غيرها. وعن سافونارولا أخبرها الراهب، بتلك اللهجة من التحيز البغيض الذي كان معروفاً عن الأخوة السود (Frati Neri) نحو الأخ الذي لبس الأبيض تحت ثيابه السود (1)، أنه قد اعترف بأنه كان يخدع الشعب.

لم تتريث رومولا أكثر من ذلك. في ذلك المساء حط بها الرحال في فلورانسة حيث كانت تجلس في سكون مضطرب في ظل الصيحات التعجبية، صيحات الفرح والعويل، الممتزجة بالسرد الوافر الذي سكبته على أسماعها مونا بريجيدا، والتي انكفأت إلى ارتداء شعر مستعار (2) في غياب رومولا، لكنها نزعته ثانية وأعلنت أنها لن تأبه

لرؤيتها شائبة الشعر، إذا كانت ابنتها العزيزة ستبقى معها.

تأثرت رومولا أيما تأثر للحوادث الجسام التي علمت بها قبل مجيئها إلى فلورانسة، ما جعلها بمنأى عن الاهتمام بالتفاصيل الناجمة عن الثرثرة المشكوك فيها والتي أضيفت أثناء سرد مونا بريجيدا للأحداث. لم تترك لها مأساة وفاة زوجها، واعتراف الأخ جيرولامو تحت وطأة التعذيب بالازدواجية أية قوة لفهم الظروف الصغيرة الشأن. فكل النشاط الذهني الذي أتيح لها تحت وطأة ذلك الحمل من الكرب المشبع بالرهبة والخوف قد استنفده هدفان لا بد أن يحلا محل كل هدف آخر، وهما السعي لمقابلة سافونارولا ومعرفة ما الذي حلّ بتيسا والأولاد.

قالت فجأة، عندما نأى لسان مونا بريجيدا تماماً عن المشاكل إلى مشاريع سكن رومولا معها:

" قولي لي يا ابنة عمي، هل شوهد أو قيل أي شيء منذ وفاة تيتو عن امرأة شابة لديها طفلان صغيران؟ "

جفلت بريجيدا، كوّرت عينيها ورفعت يديها للأعلى.

" يا يسوع! لا. ماذا! هل كان على هذه الدرجة من السوء، يا طفلتي المسكينة؟ آه، إذن، هذا سبب رحيلك، وتركك لي رسالة بأنك إنما ذهبت بمحض إرادتك. حسن، حسن. لو كنت علمت ذلك لما ذهبت بي الظنون إلى أنك غريبة الأطوار جداً ومتقلبة. ذلك أنني قلت حقاً لنفسي، رغم أنني لم أخبر أي شخص آخر: " ما الذي جعلها تهجر زوجها، تاركة إياه عرضة للأذى، ألأنهم فقط قطعوا رأس برناردو

المسكين؟ " وقلت: " طبع والدها عينه. هذا هو السبب ". حسن، حسن. لا توبخيني أبداً، يا ابنتي: كان باردو عنيفاً بحق، لا يمكنك أن تنكري ذلك. لكن لو أنك فقط أطلعتني على الحقيقة، وأعلمتني بوجود امرأة فاجرة وأولاد، لكنت فهمت كل شيء. أي شيء شوهد أو قيل عنها؟ لا، وكلما كان ذلك أقل كان أفضل. يكفي ما يتفوهون بالسيئ عنه دون حاجة للمزيد. لكن لمّا كان ذلك سبب رحيلك – "

قالت رومولا، مقاطعة إياها بشكل صارم: "لا، يا ابنة عمي العزيزة، أرجوك لا تتحدثي بهذا الشكل. أريد قبل كل شيء أن أعثر على تلك المرأة الشابة وولديها، وأن أعتني بهم. إنهم عاجزون تماماً. لا تتفوهي بشيء ضدهم. هذا هو ما أنوي فعله في المقام الأول ".

قالت مونا بريجيدا هازة كتفيها ومخفضة صوتها وقد ظهر على وجهها سيماء الانزعاج المشوب بالحيرة: " حسناً، إذا كان ذلك بيانونياً فما فتئت أعدّ الخرزات في صلواتي الربّانية. لا غرو، فالأخ جيرولامو كان وصل إلى درجة القول إن الأرامل حري بهن ألا يتزوجن ثانية. ضعي رجلك على العتبة وإذ الأمر خطيئة وعار، كما يبدو. لكن انزلي عبر المدخنة وإذا أنت وطئت سهلاً. ولدان (تشديد على المثنى – م) – سانتيديو! "

" يا ابنة عمي، لم تقترف المسكينة أي ذنب مقصود: إنها تجهل كل شيء. سأخبرك – لكن ليس الآن ".

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي توجهت رومولا إلى المنزل الذي يقع وراء سان أمبروجيو حيث كانت قد عثرت ذات يوم

على تيسا. لكنها علمت ما كانت تخشاه: كانت تيسا قد غادرت. وقد خمّنت رومولا أن تيتو قد أبعدها مسبقاً إلى بقعة كان ينوي أن يلحق بها إلى هناك، ذلك أنها لم تعتقد أنه سيفترق عن طيبة خاطر عن ذينك الولدين. لقد كان تخميناً مؤلماً لأنه إن كانت تيسا خارج فلورانسة فسيكون العثور عليها من الصعوبة بمكان، وقد تخيلت رومولا تلك المخلوقة الطفلة وهي تنتظر وتنتظر في بقعة على قارعة الطريق يكتنفها بؤس مشوب بالدهشة وانعدام الحيلة. أما الجيران فلم يخبروها بشيء باستثناء أن تلك العجوز الصماء ليزا قد رحلت منذ أسبوع مع متاعها، لكن لم يعرف أحد إلى أين ذهبت تيسا. لم تر رومولا أي سبيل للبحث المجدي مفتوحاً أمامها، ذلك أنها لم تتوفر على أية معرفة تنطلق منها في بحثها، وليس فقط تحفظها الفطري بل حساسية أكثر نبلاً ما جعلها تحجم عن اتخاذ موقف شهم في أعين الآخرين عن طريق إفشاء أمر علاقة تيسا بتيتو، إلى جانب رغبتها الخاصة في العثور عليها. انصرمت أيام عديدة في عجز قلق عن اتخاذ أية خطوة. حتى وهي تحت تأثير إغواء قوي من أفكار أخرى فقد ألفت رومولا قلبها يضرب إذا ما لمحت زوجاً من ساقين مستديريتين سمراوين، أو امرأة قصيرة القامة في ثوب فتاة ريفية.

لم تحدّثها نفسها قط ولو للحظة أن بطولتها أو إحساسها النبيل هو الذي يدفعها للسعي وراء هذه المخلوقات. لقد كانت بحاجة لشيء تلتزم خصيصاً بتولي أمر العناية به. تاقت إلى حضن الولدين وجعلهما يحبانها. على الأقل ستكون هذه نتيجة حلوة، للآخرين كما لنفسها،

تمخّضت عنها كل أحزانها الماضية.وقد تبين أن هناك الكثير من الممتلكات العائدة لتيتو يعود لها حق المطالبة بها، لكنها شكت في نظافة تلك الأموال، وصممت على تحويلها جميعها إلى الدولة، إلا ما يساوي ثمن مكتبة والدها. وهذا سيكفي كإعالة متواضعة لتيسا وولديها. لكن مونا بريجيدا لم تعط مثل هذا التخطيط الأولوية عن طريق تشديدها بشكل صاخب على أن رومولا يجب أن تقطن معها وأن لا تتركها إلى أن تطمئن على سلامتها في الجنة – وإلا لماذا أقنعتها بأن تتحول إلى بيانونية؟ – وإذا كانت رومولا ترغب في أن تربّي أولاد غيرها فإنها هي، مونا بريجيدا، يجب أن يكون لها حق تربيتهم أيضاً. إنما فقط يجب العثور عليهم أولاً.

شعرت رومولا بكامل قوة ذلك اللغز. لكن عدم تلبية الشعور القوي لن يسلم أبداً من المخاوف اللاعقلانية المرتبطة به، إما بدافع الأمل أو اليأس. أما مخاوف رومولا فقد كانت مخاوف الأمل: بشكل أو بآخر يجب أن تعثر على تلك الأم والولدين. وأخيراً فرض متجه آخر للاستقصاء المجدي نفسه. فقد علمت أن تيتو أمّن أحصنة وبغالاً لتنتظره في سان غالو. وعليه فقد كان ينوي مغادرة فلورانسة عن طريق بوابة سان غالو. وقد صممت، رغم ضعف ثقتها بالأمر، على أن تتأكد من حرّاس المداخل ما إذا كانوا لاحظوا أية امرأة تتطابق مع أوصاف تيسا، ومعها ولداها، قد اجتازت المداخل قبل صباح التاسع من نيسان. وبعد أن سلكت طريق فيا سان غالو وراقبت بيقظة وحذر ما حولها من خلال نقاب الأرملة الذي كانت ترتديه لئلا يفوتها أي شيء يمكن أن

يساعدها لمحت براتي يساوم أحد الزبائن. وقد جال بخاطرها: ذلك الجوّاب للآفاق ربما يساعدها: لن تبالي بالحديث عن تيسا معه بالذات. لكنها ما إن نحت نقابها جانباً، وعبرت الشارع متجهة نحوه، حتى رأت شيئاً معلقاً من زاوية سلته جعل قلبها يقفز بأمل أكبر بكثير.

قالت على الفور: " براتي، يا صديقي، من أين حصلت على ذلك العقد؟ "

قال براتي وهو يلتفت إليها بشكل متعمد جداً دون أن تستولي الدهشة على تفكيره: " خادمك، يا سيدتي. إنه عقد يساوي مبلغاً، لكنني لا أبغي سوى قليل من الربح، ذلك أن قلبي رقيق جداً، لا يصلح لأن يكون قلب تاجر. لقد وعدت أن أحتفظ به كرهن ".

" أرجوك، قل لي من أين حصلت عليه – من امرأة صغيرة تدعى تيسا، أليس كذلك؟ "

" آه! إذا كنت تعرفينها وأردت أن تفتديه بقليل من الربح وتعيديه إليها فسيكون هذا حسنة منك، ذلك أنها بكت عندما تخلت عنه – لو رأيتها لكنت اعتقدت أنها قد خاضت في جدول مائي. إنه ربح ضئيل ما أبغي تقاضيه منك. ستحصلين عليه مقابل فلورين واحد، ذلك أنني لا أريد أن أكون قاسي القلب ".

" أين هي؟ " قالت رومولا وهي تنقده المال وتفك حلقة العقد من السلة يعروها قلق محبب.

" خارج البوابة هناك، على الطرف الآخر من الضاحية، في منزل سيبيلا مانيتي العجوز: أي شخص سيدلك على البيت ".

طـارت رومـولا طيرانـاً وهـي تبـارك حادثـة الكرنفـال تلـك التـي جعلتها تحفظ منظر هذا العقد عن ظهر قلب. وسرعان ما وصلت إلى البيت الذي بحثت عنه. كانت المرأة الشابة والولدان في الغرفة الداخلية – وكان مقرراً أخذهم من المكان قبل أسبوعين وأكثر – لم يكن معهم مال، بل ثيابهم فقط، ليدفعوا لأرملة فقيرة لقاء طعامهم ومأواهم. لكن بما أن السيدة كانت تعرفهم – لم تنتظر رومولا لتسمع القصة كاملة بل فتحت الباب.

كانت تيسا جالسة على سرير واطـئ: كان بكاؤها قد استحال نشيجاً من دون عبرات، وكانت تنظر بعينين حزينتين مشدوهتين إلى الطفلين اللذين كانا يلهوان في زاوية مقابلة – كان ليلو يغطي رأسه بقميصه ويزأر في وجه نينا لإخافتها، ثم تبرز عيناه من تحت الغطاء ليرى كيف كان وقع ذلك عليها. كان الباب يقع إلى الوراء قليلاً من تيسا، ولم تلتفت عندما فُتح إذ اعتقدت أن تلك إنما كانت المرأة العجوز: كان الأمل موءوداً. كانت رومولا قد نحت نقابها جانباً وتوقفت للحظة ممسكة بالعقد على مرأى منهم. ثم قالت بذلك الصوت الصافي الذي اعتاد أن يفرح والدها –

" تيسا! "

هبّت تيسا واقفة ونظرت حولها.

" أترين "، قالت رومولا مشبكة حبات العقد على جيد تيسا، " لقد بعث الله بي إليك ثانية ".

زعقت المخلوقة المسكينة ونشجت وتشبثت بالذراعين اللتين

ثبتتا العقد. لم تقو على الكلام. جاء الولدان من ركنهما، وأمسكا بطرف فستان والدتهما، ونظرا للأعلى إلى رومولا بعينين وسيعتين.

في ذلك اليوم ذهب الجميع إلى منزل مونا بريجيدا، في ضاحية ديغلي ألبيتزي. وقد أعلمت رومولا تيسا بالتدريج أن نالدو لن يأتي إليها ثانية: ليس لأنه كان قاسي القلب بل لأنه توفي.

وقالت رومولا: " لكن فليهدأ بالك، يا عزيزتي تيسا. لقد جئت لأتولى العناية بك على الدوام. وهوذا معنا ليلو ونينا ".

انشدّ فم مونا بريجيدا في غمرة الصراع بين احترامها لرومولا والرغبة في التحدث بشكل لا يتلاءم والمناسبة.

وقد فكّرت: " فلندع الأمر في الوقت الراهن. لكن يبدو لي أنه سيمضي ألف عام قبل أن أخبر هذه الفلاحة الصغيرة التي يبدو أنها لا تعرف كم إصبعاً في يدها من هي رومولا. وسأخبرها يوماً ما، وإلا لن تعرف موقعها. هذا برمته جيد بالنسبة لرومولا – لن يجرؤ أحد على القول بأن روحه هي ملكه عندما تكون حاضرة، لكن إذا قيّض لهذه الوقحة أن تنزل في بيتي فيجب أن تكون وضيعة في خدمتها لي ".

ورغم ذلك فقد رغبت مونا بريجيدا أن تقدم للولدين الكثير من الحلويات عند العشاء واعترفت لرومولا كآخر شيء تقوم به قبل أن تأوي إلى فراشها بأنه سيكون من العار عدم الاعتناء بهذين الملاكين.

" لكن يجب أن توكلي إلي، يا رومولا، قليلاً من أمر إطعامهما وأشياء من ذلك القبيل. ذلك أنك لم ترزقي بطفل قط، وأنا لدي توأمان، لكنهما وياللمفارقة قضيا لحظة ولادتهما ".

الفصل الحادي والسبعون
الاعتراف

عندما أحضرت رومولا إلى البيت تيسا والولدين كان نيسان قد بدأ يقترب من خاتمته، والقلق الكبير الآخر الذي أثقل دماغها كان قد وصل إلى أوجه بفعل الطبعة التي نشرت عن محاكمة الأخ جيرولامو، أو بالأحرى الاعترافات التي انتزعها منه الفلورانسيون الستة عشر المكلفون باستجوابه. ولقد استجرّ ظهور هذه الوثيقة، الصادرة بأمر من السينوريا، تعابير قوية تنمّ عن الشك والاستياء بين عامة الشعب ما حدا إلى اتخاذ إجراءات رادعة وفورية لسحبها. بالطبع كانت هناك نسخ وصلت إلى غير مكانها المناسب بالمصادفة، وسرعان ما وصلت نسخة ثانية، ليس بأمر من السينوريا، إلى أيدي القراء المتلهفين.

أما رومولا التي بدأت تقنط من التحدث إطلاقاً إلى الأخ جبرولامو، فقد قرأت هذه البيّنة ثانية وثالثة بقصد الحكم عليها على ضوء وضوح يفوق وضوح الانطباعات المتناقضة التي كانت تتخذ شكل الادعاءات في أفواه الأنصار والأعداء معاً.

ولدى المريدين الأكثر إخلاصاً لسافونارولا فإن افتقاره إلى الثبات على الموقف وهو تحت التعذيب، ورجوعه عن دعاواه النبوية قد أحدثا هلعاً أعمق من أن يحل محله في الحال، كما حدث في نهاية المطاف، شك سرعان ما أصبح معلومة إيجابية حتى إن أية كلمات

نقلت عنه، وكانت تناقض بشكل عصي على التفسير إيمانهم به، لم تأت من شفتي النبي، بل من القلم التزويري للسير سيتشوني، ذلك الكاتب بالعدل السيئ السمعة الذي قدم ملخص الاستجواب. لكن وجد من الوقائع الواضحة ما ألقى على الفور ظلال الشك على الوثيقة المطبوعة. ألم تُشَكّل قائمة المستجوبين الستة عشر من ألد أعداء النبي؟ ألم يكن سيء الصيت دولفو سبيني أحد الثمانية الجدد المنتخبين قبل الأوان، كيما يتحكم برمية زهر النرد ضد إنسان بُتّ أمر تدميره من قبل الحزب المستلم للسلطة؟ لم تكن سوى جريمة مع بطء في الشكليات تلك التي ارتكبت في القصر القديم. لقد حزم السينوريا أمره على عقد صفقة رابحة مع البابا ودوق ميلانو عن طريق محوه الإنسان الذي شكّل مصدر إزعاج للمواطنين السيئين،والطغاة الغرباء الجشعين، وأيضاً رجال الكهنوت الفاسدين. لقد حكم على الأخ الراهب قبلئذ، والمسألة الوحيدة التي زُعم الآن أنها مطروحة هي ما إذا كانت الجمهورية، في مقابل السماح بفرض ضريبة على الممتلكات الكنسية، يجب أن تسلمه حياً إلى البابا، أو ما إذا كان البابا يجب أن يتخلى للجمهورية عما تتطلبه هيبتها – مزية شنق وحرق نبيها في ساحتها.

من، في مثل هذه الظروف، سيعطي كامل الثقة لهذا الاعتراف المزعوم؟ فإذا كان الأخ الراهب قد أنكر موهبته النبوية فلأن الإنكار قد انتزع منه عنوة بفعل ألم التعذيب الممضّ – ألم لا بد أن يسبب له سريعاً الهذيان بسبب حساسية بدنه. وهبْ أن هؤلاء المستجوبين الأشرار أعلنوا أنه لم يتلق سوى عذاب الحبل والبكرة ثلاث مرات، وفي

يوم واحد فحسب، وأن اعترافاته قد تمّت حين لم يكن خاضعاً لأي إكراه جسدي – هل كان ذلك سيصدق؟ لقد تعرض للتعذيب أكثر من هذا بكثير. كان تعرضه للتعذيب يتناسب طرداً مع الغمّ الذي أحدثته اعترافاته في قلوب محبيه.

أما الأصدقاء الآخرون لسافونا رولا الذين كانوا من الأنصار الأقل حماساً فلم يشكوا في صدقية الاعتراف في الجوهر، بيد أن ذلك يمكن أن يكون قد لحقه بعض التغييرات والإضافات من الكاتب بالعدل. لكنهم جادلوا ساخطين أنه لم يكن هناك ما يستوجب الإدانة بالموت، أو حتى العقوبة الجسيمة. يجب أن يكون واضحاً لكل الناس المحايدين بأنه إذا كان هذا الاستجواب يمثل الدليل الوحيد ضد الأخ الراهب فإنه سيموت، ليس بسبب أية جريمة، بل لأنه تسبب في إزعاج البابا بتصرفه، وأيضاً الدويلات الإيطالية الجشعة التي أرادت أن تقطّع أوصال جارتها التوسكانية، وأولئك المواطنين غير الجديرين الذين سعوا لإرضاء طموحهم الخاص بشكل يتعارض مع الصالح العام.

لم تثبت أية شبهة على جريمة سياسية ضده. لم يكتشف ما يشين سلوكه الخاص: وزملاؤه الرهبان، ومن بينهم واحد كان سكرتيره السابق لعدة سنين، والذي، بما لديه من ثقافة تفوق ثقافة زملائه المتواضعة، كان عنده ميل لانتقاد حكم الأخ جيرولامو كرئيس للدير، شهد حتى بعد حدوث الصدمة الناجمة عن تراجعه، على طهارة وثبات في حياته لا يمكن إدانتهما، الأمر الذي جعلهم يوقّرونه دون أي لبس. والبابا نفسه لم يستطع أن يتّهم الأخ الراهب بالهرطقة، إنما بعصيان

الأمر، والاستهانة بحكم الحرم الكنسي. كان من الصعوبة بمكان تبرير ذلك الخرق للنظام بالحجة، لكن عصياناً أخلاقياً نشأ في عقول الناس الرصينين ضد بلاط روما، والذي أدى إلى تشويش التفريق النظري بين الكنيسة ورجال الكنيسة، وتخفيف فضيحة العصيان.

شعر الناس الذين يتحلّون بالأخلاقية العادية وتأييد المصلحة العامة أن انتصار أعداء الأخ الراهب هو حقاً انتصار الاستباحة الفاضحة للمحرمات. وكان ممكناً جداً أن ترتسم ابتسامة غاضبة على الفلورانسيين المتحمسين مثل سوديريني وبييرو غوتشيارديني للصرامة التي تجاهلت كل القوانين في سبيل شنق وإحراق شخص عوجت فيه إغراءات المنصب العام دقة صدقه، ومن الأرجح أنهم سيعلقون أنه لو كان الأخ الراهب قد خلط خديعةً أعمق بكثير مع حماس ومقدرة أقل إزعاجاً للشخصيات الرفيعة لاعتبرت الخديعة زيتاً ممتازاً للعجلات الكنسية والسياسية.

ومع ذلك فقد أُكره هؤلاء الناس الحاذقون على الاعتراف بأنه مهما كان المظهر الضعيف الذي بدت عليه الحكومة الفلورانسية في ادعائها الأخرق بالمسوّغ القضائي لما كان بالفعل مقرراً مسبقاً كعمل من أعمال السياسة، فإن إجراءات البابا المتخذة ضد سافونارولا كانت إجراءات ضرورية للدفاع عن النفس. وكان عدم محاكمة، والتخلص من شخص أراد أن يحرّض مراكز القوة في أوربا لتتم دعوة المجلس العام للاجتماع ليقرر خلعه سيضيف نبوّاً (عدم لياقة) لفجوره. ليس ينكر أحد أن سافونا رولا كان متمرداً على ألكسندر السادس، و، ما هو

أكثر من هذا، متمرداً خطراً. كانت فلورانسة قد سمعته يقول، وفهمت جيداً قصده، بأنه لن يطيع الشيطان(مشددة). لا مفر من أن ذلك كان صراع حياة وموت بين الأخ الراهب والبابا. لكن ما كان أقل حتمية من هذا هو أن تنصب فلورانسة نفسها جلاّد البابا.

وعلى هذا النحو امتلأت أذنا رومولا بإيحاءات إيمان لا يزال يتقد حماسة تحت جراحه، وإيحاءات لقوة تمييز دنيوي، تحكم على الأشياء وفاقاً لمعيار جد متواضع لما هو متاح للطبيعة البشرية. ولم يكن ممكناً أن تكون راضية عن أي منهما. وقد أضافت إلى تأملاتها الطويلة في أمر تلك الوثيقة المطبوعة الكثير من الملاحظات المؤلمة، والمسجلة عن وعي بشكل أو بآخر أثناء سنوات تتلمذها، مما أوحى من طرف خفي بتوجّس مفاده أن رجوع سافونارولا عن دعاواه النبوية لم يكن مجرد مجهود أتى في نوبة تشنجية للإفلات من التعذيب. لكن روحها كانت، من الناحية الأخرى، تصرخ طالبة بعض التفسير لهفواته مما سيتيح لها الاعتقاد بأن الجهاد المهم في حياته قد كان نقياً وسامياً. وقد سببت الذكرى الأخيرة للامتعاض الأناني التي انتابتها مثل ريح صرصر، إضافة إلى فقدان ثقتها بالرجل الذي كان بالنسبة إليها تجسيداً لأسمى الدوافع، رد فعل يعرفه كثيرون بأنه نوع من الإيمان الذي نشأ لديهم من صلب أعماق يأسهم. لسان حالها الآن كان يقول إن من المستحيل أن تتأسس الأفكار السلبية الشكاكة التي جعلت روحها مجدبة خلو من أي خير، في حقيقة الأشياء: مستحيل ألا تكون روحاً حية، وليس ادعاء أجوف، ما نفخ الروح يوماً في كلمات الأخ

الراهب، وأضرم أوار حياة جديدة بداخلها(رومولا). وأياً يكن الزيف بداخله فقد كان سقطة وليس هدفاً، وربطة متدرجة خاض فيها صراعاً، وليست حيلة مدبرة أملاها النجاح.

وعندما نظرت إلى الاعترافات المطبوعة رأت الكثير من الجمل التي حملت سمات اختلاق أخرق: فقد كان فيها ذلك التأكيد والتكرار في اتهام الذات الذي لا يستخدمه إلا المنافقون الوضيعون جداً مع أبناء جلدتهم. لكن حقيقة أن هذه الجمل كانت تتعارض بشكل لافت، ليس فقط مع شخصية سافونارولا، بل أيضاً مع المنحى العام للاعترافات، قوّى الانطباع بأن بقية النص كان حقاً يمثل في معظمه ما ندّ عن شفتيه. ولم تكن أية كلمة تشين سمعته خلاف ما اتصل بتصريحاته النبوية. كان ثابتاً في إعلاته عن الأهداف التي سعى إليها لصالح فلورانسة، والكنيسة، والعالم. وبغض النظر عن اختلاط الزيف في ذلك الادعاء بالوحي الخاص الذي سعى من خلاله إلى الاستيلاء على عقول الناس فلم يكن هناك اعتراف بأنه استخدم وسائل وضيعة. وحتى في هذا الاعتراف، ودون حذف لتعابير الكاتب بالعدل الخبيثة، فإن الأخ جيرولامو قد تألق كرجل سعى حقاً وراء مجده، لكنه سعى إليه بالاشتغال الجاد لتحقيق أسمى غاية – الخير الخلقي للناس – ليس عن طريق المواعظ الغامضة بل بالمجاهدة لتحويل المعتقدات إلى طاقات تفعل فعلها في كل تفاصيل الحياة.

ورد في إحدى النصوص البارزة، والتي ربما لحقها بعض الحذف والإضافات: " كل شيء عملته فقد عملته بقصد أن أكون

للأبد مشهوراً في الأزمنة الحاضرة والمقبلة. وأن أحوز على الثقة في فلورانسة، وأن لا يتم فعل أي شيء خطير الشأن بدون موافقتي. وبعد أن أرسخ مكانتي على هذا النحو في فلورانسة، فسأفكر بالقيام بأشياء عظيمة في إيطاليا وخارج إيطاليا، عن طريق تلك الشخصيات الرئيسة التي عقدت معها صداقات ومشاورات في الشؤون الخطيرة، مثل هذا الشأن المتعلق بالمجلس العام. وبقدر ما تفلح جهودي الأولى سأتبنى مزيداً من الإجراءات الأخرى. وقبل كل شيء، وإذا ما تم التئام المجلس العام فقد نويت على تحفيز أمراء المسيحية، ولا سيما من هم خارج حدود إيطاليا، كيما يقمعوا الشياطين. لم يكن بنيتي أن أعمل على تنصيب نفسي كاردينالاً أو بابا، ذلك أنني عندما أنتهي من إنجاز العمل الذي وضعته نصب عيني فسأكون، بدون أن أنصب بابا، أول شخص في العالم يحوز على السلطة التي كان يجب أن أمتلكها، والاحترام الذي كان سيقدم لي. ولو نصبت بابا فما كنت لأرفض المنصب: لكنه بدا لي أنه إذا ما كنت على رأس ذلك العمل فسيكون شيئاً أعظم من تسلم البابوية لأن إنساناً خلواً من الفضيلة يمكن أن يكون بابا، لكن مثل هذا العمل الذي نويته يتطلب شخصاً يتمتع بفضائل ممتازة " (تشديد الجملة الأخيرة).

لم يشكّل ذلك المزج بين الطموح والإيمان بعلو كعب الخير أية نغمة جديدة لرومولا التي تعودت أن تسمعه في الصوت الذي صدح في أرجاء الكنيسة. كان من عادة عقل سافونارولا أن يميل إلى تصور الأشياء العظيمة، وأن يشعر بأنه كان الشخص الذي يجب أن يندب

لفعلها. يجب أن يُحط من شأن الجور والظلم، ويجب أن تنتصر قضية العدالـة، والطهـارة والمحبـة. ويجـب أن تنتصـر بفعـل صـوته، وبعملـه، وبدمـه. ودون شـك، ففـي لحظـات التأمـل البهـيج انصـهر الإحسـاس بالذات بالإحساس بالسمو الذي لا يوصف، وفي ذلك الجزء من خبرته كمنت عناصر الإذلال الصادق للنفس. لكن في حضرة أبناء جلدته الذين قرر أن يعمل لأجلهم، فقد بدا التفوق شرطاً ضرورياً من شروط حياته (1).

ولربما لم ينطو هذا الاعتراف حقاً، حتى عندما أتى على وصف ازدواجية متعمدة وشعورية، على ما هو أكثر من ذلك التأرجح في الإيمان المتصل بانطباعاته ودوافعه التي لا بد أن معظم الناس الذين ليس لديهم التحجر الغبي في الثقة بالنفس، سيكونون معرضين له في ظل تبدل ملحوظ في الشروط الخارجية (2). وفي حياة امتزجت فيها الخبرة بشكل مضطرب،كما لا بد حدث ذلك، في حياة الأخ الراهب، فأية إمكانية كانت مفتوحة لتبدل في الحكم الذاتي، عندما، وعوضاً عن العيون التي وقّرت والركب التي جثت، وبدلاً من عمل عظيم في طريقه إلى التحقق، وفي ازدهاره يدوس على العميل كأداة منتقاة، جاء الصياح والصفير والبصاق ولعنات الجماهير. ومن ثم جاءت وجوه الأعداء القاسية لتطلق الأحكام، ومن ثم التعذيب الرهيب، ومع التعذيب الصرخة التي تستعصي على الكبت: " هذا صحيح، ما الذي تريدون مني أن أقول: دعوني وشأني: لا تعذبوني ثانية: أجل، أجل، أنا مذنب. يا إلهي! لقد طالتني ضربتك! "

وبينما فكرت رومولا بالكرب الذي لا بد أعقب الاعتراف–سواء كـان الوجـدان، فـي عزلـة السـجن التـي تلـت، قـد رجـع عـن، أو أكـد، الكلمات الجالدة للذات– فقد بدا ذلك الكرب يضغط على قلبها ويحث باتجـاه ذرف العبـرات البطيئـة المرّة. كـل شـخص فـظ جاهـل بذاتـه فـي فلورانسـة كـان يـتكلم دون توقـف عـن صـفات هـذا الرجـل السيئة، بينمـا كـان هو(تشـديد الكاتبـة علـى الضـمير المنفصـل هـو) يكابـد عمقـاً مـن الأسـى المعلـوم فقـط للـروح التـي أحبـت وسـعت وراء الشـيء الأكثـر مثالية، ورأت نفسها تسقط .

لم تر إذ ذاك – ما رأته لاحقاً – الدليل على حالة الأخ الراهب النفسية بعد أن اضطر على هذا النحو إلى أن يمرغ فمه بالتراب. ومع انصرام الأيام، فإن التقارير عن استجوابات جديدة غير منشورة، والتي لم تستجرّ أي تبدل في الاعترافات، قد توقفت. ترك سافونارولا وشأنه في سجنه وسمح له باستخدام القلم والحبر لمدة وجيزة، بشكل يمكنه أن يستخدم للكتابـة، إن أراد، ذراعـه اليمنـى البائسـة التـي تعرضـت للـرضّ والعنت. كتب، لكن مـا كتبـه لـم يشكل دفاعـاً عن براءتـه، ولا احتجاجاً علـى الإجـراءات المتخـذة بحقـه: كانـت مناجـاة مسـتمرة لتلـك الطهـارة الإلهية التي سعى من خلالها إلى عودة الاتحاد التام. لقد كان دفقاً من إذلال الذات. كان صرخة طويلة مستمرة نحو التجدد الداخلي. لم تعد هناك أصداء متبقية من إثبات الموجودية القديم والقوي، " انظروا إلـى عملـي، إذ أنـه خيّر، وأولئـك الـذين وقفـوا ضـده هـم أبنـاء الشـيطان! " صوت الحزن يقول له: " الله وضعك في وسط الشعب حتى إنك بدوت

واحداً من الممتازين. على هذا النحو أنت علّمت الآخرين، وأخفقت في أن تتعلم أنت نفسك. أنت شفيت الآخرين: وأنت نفسك بقيت مبتلى بالمرض. لقد سما قلبك لجمال صنيعك، ومن خلال هذا فقد خسرت وحكمتك وفنّك يصبحان، وسيكونان للأبد، لا شيء... وبعد العديد من المزايا التي حباك الله بها فقد سقطت في أعماق البحر. وبعد الكثير من المواهب التي أسبغت عليك، قمت، عن طريق كبريائك وزهوك، بإلحاق الفضيحة بكل العالم. " وعندما يتكلم الأمل ويجادل في أن المحبة الإلهية لم تبارحه فإنه لا يقول الآن شيئاً عن عمل عظيم سيتم فعله، بل يقول فقط: " أنت لم تُترك وحدك، وإلا لماذا خشع قلبك كفارة وندماً؟ تلك أيضاً هي موهبة ".

ليس هناك ذرة من دليل يركن إليه على أن سافونارولا، من لحظة سجنه حتى اللحظة السامية، قد فكّر أو تحدث عن نفسه كشهيد. كانت فكرة الشهادة بالنسبة إليه عاطفة مشحونة تقسم حلم المستقبل عن طريق النصر الناجم عن رؤية عمله منجزاً. والآن، في مكان الاثنين، أتى تسليم بالأمر لم يطلق عليه هو أي اسم تمجيدي.

لكن تبعاً لذلك يمكن أن يطلق عليه بكل ما هناك من ملاءمة اسم شهيد من قبل أبناء جلدته ولكل الأزمان (3). ذلك أن السلطة ثارت ثائرتها ليس بسبب خطاياه، بل بسبب عظمته- ليس لأنه سعى إلى أن يخدع العالم، بل لأنه سعى لأن يجعله عالماً نبيلاً. ومن خلاله عظمته تلك فقد تحمل معاناة مزدوجة: ليس الشتم واللعن فحسب، والعذاب، وألم الاحتضار، بل معاناة الانحدار من رؤيا

الإنجاز الباهر إلى تلك الظلمة العميقة حيث لا يمكنه سوى القول:"لا أساوي شيئاً: الظلمة تكتنفني: ومع ذلك فالنور الذي رأيته هو النور الحقيقي ".

الفصل الثاني والسبعون
الصمت الأخير

بدت رومولا وكأنها سمعت، كما لو كانت صرخة، الكلمات التي رددتها على مسامعها شفاه عديدة – الكلمات التي نطق بها سافونارولا عندما استأذن أولئك الأخوة من ديرسان ماركو الذين أتوا ليشهدوا توقيعه على الاعتراف: " صلوا لأجلي، فالله قد سحب مني روح النبوة ".

هزتها تلك الكلمات بفعل ما أدخلته فيها من شكوك جديدة فيما يخص الطريقة التي نظر بها إلى الماضي في لحظات من رباطة الجأش التامة. ولبثت الشكوك تتعزز بأشياء تدعو لرثاء أكبر، سرعان ما وصلت إلى أسماعها.

أزف التاسع عشر من أيار، ومع طلوع شمس ذلك اليوم دخل إلى فلورانسة القاصدان الرسوليان يحملان تتمة محاكمة سافونا رولا. دخلا وسط تهليل الجماهير المنادية بإعدام الأخ الراهب. ذلك أن الصيحة الجماهيرية قد كانت الآن: " إن خداع الراهب هو الذي كان سبب كل مآسينا. فليحرق، وعندها ستتحقق كل الأشياء الخيّرة، وتنتهي

الشرور التي تحلّ بنا ".

في اليوم التالي شهد الجميع أنه حدث تعذيب ثان وثالث للبنية الحساسة المحطمة. والآن، عند أول مرأى للأدوات المريعة (1)، خرّ سافونا رولا وهو في حالة من الاضطراب التشنجي، على ركبتيه، وبعبارات موجزة مشحونة بالعاطفة ***تراجع عن اعترافه***، وأعلن أنه تكلم كلاماً غير صحيح عندما أنكر موهبته النبوية، وأنه إذا قاسى وعانى فإن ذلك يكون في سبيل الحقيقة – " الأشياء التي نطقت بها إنما هي من لدن الله ".

لكن رغم ذلك سيمَ العذاب، وعندما كان تحت وطأته سئل لماذا نطق بتلك الكلمات التي تراجع فيها عن اعترافه. في تلك الأيام لم يكن الناس شياطين، ورغم ذلك فلم يكن هناك أي سبب موجب للخلاص من التعذيب إلا ذاك المتمثل في الاعترافات بالذنب. وجاء الجواب: "قلتها علّي أبدو صالحاً. لا تمزقوا جسدي أكثر مما تفعلون، سأقول لكم الحقيقة ".

في هذه المحاكمة الجديدة كان هناك قضاة فلورانسيون، وسرعان ما انتشرت تلك الكلمات ذات التراجع المزدوج. لقد شحنت رومولا بشك مرعب.

وقد برق في ذهنها: " لكن ستأتي لحظة يتكلم عندها. عندما لا يحوم حوله أي خوف سوى خوف الكذب، وعندما يحضرونه إلى حضرة الموت، وعندما يرفع فوق الشعب، وينظر إليهم للمرة الأخيرة لا يمكنهم أن يمنعوه من النطق بكلمة حاسمة أخيرة. سوف أكون هناك ".

بعد ثلاثة أيام، في اليوم الثالث والعشرين من أيار عام 1498، نصبت من جديد منصة طويلة ضيقة عبر الساحة الواسعة، من قصر فيتشيو باتجاه تيتو دي بيساني (2). لكن لم يكن هنالك أجمة وقود كما في السابق: عوضاً عن ذلك كان هناك كومة عظيمة واحدة من الوقود موضوعة على المكان الدائري الذي شكّل نهاية المنصة الطويلة الضيقة. وفوق هذه الكومة من الوقود نُصبت مشنقة وعليها ثلاثة حبال، مشنقة بدت بذراعيها الاثنين أشبه بصليب، ما جعل بعض المتفرجين يشعرون بعدم الارتياح، رغم أن أحد الذراعين قد قطع لتفادي التشابه.

وعلى الشرفة الرخامية للقصر وضعت ثلاث منصات لهيئات المحاكم، واحدة بقرب الباب للأسقف، الذي كان سينفذ حفلة تشويه السمعة على الأخ جيرولامو والأخوين اللذين سيكابدان لكونهما من مريديه وشركائه، وأخرى للقاصدين الرسوليين اللذين سيصمانهم بالهرطقة والانشقاق، ويسلمانهم إلى السلطة العلمانية، وثالثة، القريبة من مارزوتشو، عند زاوية الشرفة حيث ابتدأت المنصة، لهيئة الغونفالونيين، والثمانية الذين سينطقون بالحكم بالإعدام.

مرة أخرى احتشدت في الساحة الوجوه المترقبة: مرة أخرى ستضرم نار عظيمة. وفي غالبية الحشود التي تدافعت حول المشنقة كان التوقع من ذلك النوع من الكراهية الشرسة، أو مجرد فضولية شديدة لرؤية منظر همجي. لكن كان هناك أيضاً العديد من المتفرجين الواقفين على الرصيف العريض، وعلى الأسطح، وعند النوافذ، أولئك

الذين، وهم وسط حزنهم المرير وتحملهم لإهانة تسمهم بأنهم بيانونيون منافقون، لم يكونوا خلواً من أمل متبقٍ، حتى في هذه الساعة الحادية عشرة، بأن الله سيتدخل، بعلامة ما، كي يظهر نبيهم المحبوب على أنه خادمه. وأيضاً كان هنالك كثيرون يترقّبون بتلهف راجف، كما فعلت رومولا، تلك اللحظة الأخيرة عندما يقول سافونارولا: " أيها الناس، لقد كنت بريئاً من تهمة الخداع ".

كانت رومولا تقف عند نافذة في الجانب الشمالي من الساحة، بعيداً عن الشرفة الرخامية حيث نصبت منصات المحاكم، وبالقرب منها، وأيضاً ينظر بشك مؤلم نحو الرجل الذي حاز على توقيره الأول، كان يقف شاب فلورانسي يناهز الثانية والعشرين، يدعى جاكوبو ناردي(3) الذي استحق لاحقاً التكريم كونه أحد القلة الذين بعد أن شعروا بمكانة سافونارولا الرفيعة، كتبوا عنه تحدوهم الرغبة البسيطة في أن يكونوا صادقين. كان قد قال لرومولا، بكل دماثة واحترام، عندما لحظ الصراع بداخلها بين هول المشهد وتوقها لمشاهدة ما قد يحدث في اللحظة الأخيرة –

" سيدتي، لا حاجة بك لأن تنظري إلى هذه الأشياء العنيفة. سأعلمك عندما يخرج من القصر. اركني إلي. أعرف ما الذي تودّين مشاهدته ".

غطت رومولا وجهها، لكن صيحات الاستهجان التي بدت أنها أبقت المشهد الشنيع مرئياً لم يكن بالإمكان إسكاتها. وأخيراً لمس أحدهم ذراعها، وسمعت كلمات تقول لها: " هوذا يأتي ". نظرت صوب

القصر، وشاهدت سافونارولا مقوداً في ردائه الدومينيكاني، وشاهدته يقف أمام القس، والرداء الأسود منزوع عنه، والوشاح الكتفي والرداء الأبيض الطويل، حتى وقف يستره لباس تحتاني صوفي ضيق لم يبد معه صاحب منصب مقدس، ولا رتبة. لقد تم تنزيل رتبته وقطع صلاته مع الكنيسة المحاربة (4)

يبتهج القسم من الحشد الأكثر نذالة لتسفيهه، بمعزل عن أية كراهية. إن ما يفهمونه أكثر من أي شيء آخر هو التهكم. انطلقت صيحة استهجان جديدة ابتهاجاً بالنصر عندما مر الرهبان الثلاثة المسفهون في طريقهم إلى منصة القاصدين الرسوليين اللذين كانا سيعلنان أنهم من المنشقين والهراطقة. ألم يبد النبي منشقاً وهرطقياً في هذه اللحظة؟ من السهل تصديق الحالة المستَنكرة لشخص يقف مجرداً من ثيابه ومهاناً.

ثم تم عبور المنصة الثالثة – منصة المسؤولين الفلورانسيين الذين كانوا سينطقون بالحكم، ووسطهم، حتى من مكان وقوفها، أمكن لرومولا أن تلمح الشخصية الكريهة دولفو سبيني مدّثراً بالقفطان الأسود المهيب كونه واحداً من الثمانية.

ثم خطا الأشخاص الثلاثة بثيابهم البيضاء الضيقة بحذاء المنصة وسط الزعيق وصيحات الإهانات المزعجة.

قال جاكوبو ناردي: " غطي عينيك يا سيدتي. سيكون الأخ جيرولامو الأخير ".

لم تمض فترة طويلة حتى رفعت الغطاء عنهما ثانية. كان

سافونارولا يقف هناك. لم يكن بعيداً عنها الآن. كان قد ارتقى الدرجات. استطاعت أن تراه يجول بنظره في أرجاء المكان حيث وقفت الحشود.

لكن في اللحظة عينها خبا كل أمل، ولم تشاهد هي سوى ما كان هو يشاهده – المشاعل تترامح لتضرم النار في الوقود تحت جثته الهامدة، ووجوه تتوهج بنور يفوق ذاك سوءاً. لم تسمع إلا ما كان هو يسمعه – صيحات ساخرة فظة، وتوبيخات، ولعنات.

دنت اللحظة. غُطّي وجهها ثانية، ولم تعرف سوى أن صوت سافونارولا قد تلاشى إلى صمت أبدي.

خاتمة

في مساء الثاني والعشرين من أيار من عام 1509 كان خمسة أشخاص ممن عرفنا شيئاً عن تاريخهم، يجلسون في غرفة علوية جميلة تطل على شرفة كانت تطل في ركنها الأيمن على امتداد بورجو بينتي، وفوق بوابة المدينة باتجاه فيسول، والمرتفعات المهيبة وراءها.

وعند أحد أطراف الغرفة شوهدت قنطرة تفضي إلى غرفة داخلية ضيقة لم تكن أكثر من ركن صغير حيث سقط النور من الأعلى على مذبح صغير مغطى بكتان أبيض جميل. وفوق المذبح علقت صورة، أمكن تمييزها على مبعدة، حيث جلست المجموعة الصغيرة على أنها مجرد صورة شخصية صغيرة بكامل طولها لراهب

دومينيكاني. ذلك أنها كانت مظللة من النور في الأعلى بأغصان وأكاليل أزهار مدلاة، وكانت الشموع الجديدة أسفلها غير مضاءة. لكن بدا أن زينة المذبح وركنه لم تكن مكتملة. ذلك أن جزءاً من الأرض كان عليه نثار فوضوي من الأزهار والأغصان الخضراء، ووسطها جلست فتاة ناعمة زرقاء العينين تناهز الثالثة عشرة تقذف بشعرها البني الفاتح المسترسل بعيداً عن عينيها، بينما كانت تنتقي أزهارها للأكاليل التي كانت تضفرها، أو تنظر للأعلى إلى شغل أمها من النوع نفسه، وتخبرها كيف ينبغي فعل ذلك على نحو بدت معه وكأنها تعطي قليلاً من التعليمات.

ذلك أن تلك الأم لم تكن ماهرة في ضفر الأزهار أو في أي عمل آخر. لم تكتسب أصابع تيسا مهارة أكبر بمرور السنين – فقط ازدادت ثخانة أكثر من السابق بكثير. واصلت عملها ببطء والتفتت برأسها مرّات كثيرة، وسألت عن رأي نينا بكثير من التوقير. ذلك أن تيسا لم تكف عن التعجب للحكمة التي اتصف بها ولداها. بقيت على ارتدائها لثوبها الريفي: كان فقط أعرض من سابقه، وكان هناك الدبوس الفضي في شعرها البني الأشعث المجعد، وحول جيدها العقد المشهور، وتحته خيط ثخين أحمر انتهى على نحو مبهم في صدرها. وقد ارتسمت على وجهها المدور نظرة رضى طفولي أكثر اكتمالاً مما ظهر أيام صباها: جميع من في العالم كانوا أخياراً، كذلك كان تفكير تيسا، حتى مونا بريجيدا لم تعد ترى بأساً فيها الآن، ولم تفعل شيئاً آخر غير النوم الذي كان ممارسة محبوبة عند كل إنسان، وممارسة راقت لتيسا.

كانت مونا بريجيدا تغط في سبات في هذه اللحظة، في كرسي مستقيم مسند الظهر، على مبعدة ياردتين. وظهر شعرها، المفروق للخلف تحت غطائها الأسود، بذلك اللون الأبيض الرائق الذي لا يشبه الثلج أو أي شيء آخر، بل هو ببساطة البياض المحبب للشعر الأشيب. أما ذقنها فقد تدلى على صدرها، ويداها استقرتا في كرسيها على مسند اليدين. لم تكن تضفر أزهاراً أو تفعل أي شيء آخر: كانت ترنو ببصرها كالعادة، وكالعادة غفت.

أما الاثنان الآخران فقد جلسا على مبعدة، عند المدخل الفسيح الذي أطل على الشرفة. كان ليلو يجلس على الأرض وظهره مسند إلى زاوية عضادة الباب، وساقاه الطويلتان ممدودتين على آخرهما، بينما استقر على ركبتيه كتاب كبير مفتوح، وأحياناً كان يهش بيده ذبابة فضولية، بنوع من الاهتمام أقوى من الاهتمام الذي ابتعثته نسخة أنيقة الطبع لبترارك أبقى عليها مفتوحة في أحد المواضع كما لو أنه كان يستظهر منها شيئاً ما.

جلست رومولا قبالة ليلو، لكنها لم تكن تراقبه. كانت يداها متصالبتين على حضنها وعيناها مسمرتين، لكن في شرود ذهن، على الجبال النائية: من الواضح أنها كانت غافلة عن أي شيء حولها. لقد تركت حياةٌ مفعمة رغبةً وحماسةً آثارها عليها: الوجنة الجميلة التكوين غارت قليلاً، وتاج الرأس الذهبي كان أقل ضخامة، لكن كان هناك سكينة في وجه رومولا لم تعرفها في صباها. لا يمكننا أن نعرف أكثر أحزاننا سوءاً سوى مرة واحدة، ورومولا كانت قد عرفتها عندما كانت

الحياة في مستهلها.

وبينما هي ساهمة على هذا النحو لم تفطن بدايةً إلى أن ليلو قد كفّ عن النظر إلى كتابه، وكان يراقبها بشكل ينم عن نفاد طفيف في الصبر، مما عنى أنه كان يود التحدث إليها، لكنه لم يكن متأكداً ما إذا كانت ترغب في هذه التسلية في هذا الوقت بالذات. لكن النظرات المثابرة لا بد أن تلقى الشعور بها أخيراً. فرومولا أشاحت بنظرها فعلاً عن المدى البعيد وتلاقت نظراتها مع نظرة ليلو السوداء الملحاحة بابتسامة تنامت إشراقتها شيئاً فشيئاً. وقد راغ في المكان على امتداد أرض الغرفة والكتاب لا يزال في حضنه حتى أصبح قريباً منها، ووضع ذقنه على ركبتها.

" ما الأمر، يا ليلو؟ " قالت رومولا، وهي تبعد شعره عن جبينه للخلف.كان ليلو ولداً وسيماً، لكن قسماته كانت آخذة بالتضخم أكثر وبالانتظام أقل من قسمات والده.كانت تجري في عروقه دماء الفلاح التوسكاني.

قال: " ماما رومولا، ماذا سأكون في المستقبل؟ " وهو مرتاح جداً لوجود أمل بإجراء حديث طويل يفوت معه الأوان على استظهار " روح نبيلة " (1).

" ما الذي تريد أن تكون، يا ليلو؟ يمكن أن تكون عالماً. أبي كان من رجالات العلم والمعرفة، كما تعلم، وقد علمني الكثير. هذا هو السبب في أنني قادرة على تعليمك ".

قال ليلو، بقدر من التردد: " أجل، لكنه عجوز وأعمى في

الصورة. هل حظي بمجد كبير؟ "

" ليس كثيراً، ياليلو. لم يكن العالم حانياً جداً عليه، وقد شاهد أشخاصاً على قدر كبير من الخسّة يتقلدون مناصب أرفع، لأنهم قادرون على المداهنة وقول الكذب. ثم خطر لابنه العزيز أن من الصواب أن يهجره ويصبح راهباً. وبعد ذلك، شعر والدي، وهو في عماه ووحدته، بالعجز عن القيام بالأشياء التي كانت ستجعل علمه أكثر فائدة للناس، بشكل كان معه سيبقى حياً من خلال مؤلفاته بعد أن يوارى الثرى ".

قال ليلو: " لا أحب ذلك النوع من الحياة. أريد أن أكون شيئاً يجعلني رجلاً عظيماً، وسعيداً أيضاً– شيئاً لن يحول دون أن أستمتع بقدر عظيم من السعادة ".

" ليس هذا سهلاً، يا حبيبي ليلو. إن هو إلا نوع بائس من السعادة ذاك الذي يتأتى عن حرصنا الشديد على مسراتنا الضيقة. يمكننا فقط أن نحوز على أعلى أنواع السعادة، مثل ما يواكب كون الإنسان عظيماً، عن طريق حيازتنا لأفكار عراض، والكثير من المشاعر نحو بقية العالم وأيضاً نحو أنفسنا. وهذا النوع من السعادة يواكبه دائماً الكثير من الألم، بشكل لا نميّزه عن الألم إلا من خلال كونه ما نرغب في اختياره قبل أي شيء آخر، لأن أنفسنا ترى فيه خيراً. هناك في العالم الكثير من الأشياء الخاطئة والعسرة، ما يحول دون أن يكون أي إنسان عظيماً – لا يمكنه أن يبقى بعيداً عن الخبث إلا بمشقة – ما لم يقلع عن التفكير كثيراً بالمسرات أو المجزيات،

ويكتسب القوة لتحمل الصعب والمؤلم. لقد سنحت لوالدي العظمة التي تتصل بالنزاهة. لقد اختار الفقر وعدم الشهرة مفضلاً إياهما على الرياء. وكان هناك الأخ جيرولامو – أنت تعلم لماذا الغد عندي هو دائماً مقدس: لقد تسنت له (مشددة)العظمة التي تعود لحياة قضاها في كفاح ضد الظلم الغاشم، وفي محاولته رفع الناس إلى أسمى الأفعال التي يقدرون عليها. ولذلك، يا حبيبي ليلو، إذا قصدت أن تسلك سلوكاً نبيلاً وتعرف أفضل الأشياء التي وضعها الله في متناول الناس، يجب أن تتعلم كيف تركز تفكيرك على تلك الغاية، وليس على ما سيحدث لك بسببها. وتذكر، إذا ما قيض لك أن تختار شيئاً أدنى، وأن تجعل أقنوم حياتك السعي وراء متعتك الخاصة وتفادي ما هو مزعج، أن المصيبة قد تأتي أيضاً في كل الأحوال. ولسوف تكون مصيبة نازلة على عقل وضيع، وهذا هو الشكل الوحيد للحزن الخالي من كل بلسم، ويمكن أن يحدو بالإنسان للقول: " ليتني لم أولد قط". سأقول لك شيئاً، يا ليلو ".

صمتت رومولا للحظة. كانت قد أخذت وجنتي ليلو بين يديها، وتلاقت عيناه الصغيرتان مع عينيها.

" كان هناك رجل كنت مقرّبة جداً منه، ما أمكنني أن أتبين قدراً كبيراً من حياته، إنسان جعل الجميع تقريباً مولعين به، ذلك أنه كان شاباً، وذكياً، ووسيماً، وكان سلوكه مع الجميع لطيفاً ودمثاً. أعتقد أنه عندما عرفته لأول مرة لم يخطر بباله أي شيء ظالم أو وضيع (2). لكن لأنه حاول أن يزوغ عن كل شيء يوجع الرأس، ولم يحرص

على أي شيء آخر بقدر حرصه على سلامته الشخصية، فقد شرع في نهاية المطاف يرتكب بعضاً من أحط الأفعال – تلك التي تشين سمعة الناس. فقد أنكر والده، وتركه يعاني البؤس. لقد خان كل ثقة استودعه إياها الناس لكي يحافظ على سلامته ويصير ثرياً وناجحاً. لكن المصيبة لحقت به " (3)

مرة أخرى صمتت رومولا. أخذ صوتها يفقد توازنه، وكان ليلو يرفع بصره إليها باستغراب مشوب بالرهبة.

" في وقت آخر، يا عزيزي ليلو – سأخبرك في وقت آخر. أترى، ها هما صديقانا القديمان بييرو دي كوسيمو ونيلو آتيان إلينا من ناحية بورجو بينتي، يجلبان إلينا أزهارهما. فلنذهب ونلوح بأيدينا لهما، حتى يعرفا أننا رأيناهما".

" كم هو غريب صديقنا القديم بييرو! " قال ليلو، بينما كانا يقفان في زاوية الشرفة، يراقبان الشخصين المقتربين. " إنه يلومك على ترتيب المذبح والتفكير كثيراً بالأخ جيرولامو، ومع ذلك يجلب لك الأزهار ".

" لا بأس "، قالت رومولا. " هناك الكثير من الناس الطيبين الذين لم يحبوا الأخ جيرولامو. ربما ما كنت تعلمت أن أحبه قط لو لم يساعدني عندما كنت في حاجة ماسة إليه ".

ملحق A

موجز عن الخلفية السياسية ل " رومولا "

يقال إنه عندما كان لورينزو العظيم يرقد في نيسان عام 1494 على فراش الموت في فيلته في كاريجي استدعى رئيس دير رهبنة سان ماركو الدومينيكاني في فلورانسة، جيرولامو سافونا رولا، والمعروف من قبل على أنه انتقادي لاذع لنظام الحكم الميديتشي. وحسب المصادر المتعاطفة مع سافونارولا، سعى لورينزو الذي تأكّله الندم على أفعاله الظالمة إلى الغفران على يد كاهن لم يرهبه ولم يحترم سلطته. وبعد أن تلقى اعترافه يقال إن الراهب سأل: " هل أنت مؤمن كامل الإيمان؟ ": رد لورينزو بالإيجاب. عندئذ طلب سافونا رولا: " هل أنت مستعد لبذل أقصى جهدك كي تعيد كل ما كسبته بطريقة غير شرعية؟ ". تردد لورينزو، لكنه، بعد فترة، وافق مرة ثانية. وأخيراً طلب سافونارولا إلى لورينزو: " هل أنت مستعد لتعيد فلورانسة إلى الحرية، وإلى نعمة الحكومة الشعبية كدولة ديمقراطية حرة؟" يقال إن لورينزو أشاح بوجهه بعيداً ولم ينبس ببنت شفة.

قد تكون مصداقية القصة مشكوكاً فيها لكنها تذكّر بالهم الأساسي الذي شغل جورج إليوت في (رومولا)، والصراع لإعادة الحكومة الشعبية في فلورانسة بعد ما يقرب من ستين سنة من هيمنة أسرة ميديتشي. لقد أعمى الاعتبار المهيب، والثقافة، والأثر الحميد لهذه العائلة الواحدة بصيرة الكثيرين من المعلقين على فلورانسة عصر النهضة في أن يتبيّنوا حقيقة أن الميديتشيين قد اغتصبوا، في واقع الأمر، الحريات العريقة للجمهورية وكانوا على وشك تحويل أنفسهم إلى

سلالة حاكمة دائمة. وقد بدت فلورانسة التي تجمّعت في الأزمنة السابقة حول صيحة " Popolo e Libertà " (أي الشعب والحرية – م) أنها تتقفى ميلانو في صيرورتها الممتلكات الخاصة لعائلة أحد مواطنيها. ولم تكن جورج إليوت أو قراؤها الفيكتوريون غافلين عن أهمية الإرث القروسطي من الحرية الفلورانسية بالنسبة لتقادير (حظوظ) إيطاليا القرن التاسع عشر. وكان مقدراً أن يشكل صراع سابق ضد الظلم كانت فلورانسة قد استعادت من خلاله استقلالها، مثالاً لأولئك الإيطاليين الليبراليين الذين كانوا يناضلون في سبيل توحيد بلدهم. تقع الأحداث الرئيسة ل(رومولا) بين عامي 1492، سنة وفاة لورينزو، وعام 1498، سنة إعدام سافونارولا، والذي يعتبره الكثيرون شهيداً من شهداء الحرية بقدر ما هو شهيد من شهداء الدين. تصف الرواية طرد ابن لورينزو وخليفته، بييرو، وتعرّج على التطورات السياسية الرئيسة للتجربة الديمقراطية التي استُلهمت من مواعظ سافونارولا. وقد تخطت الجمهورية محنة استشهاد الراهب قبل أن تتعرض من جديد للاضطهاد جزئياً على يد عصبة ميديتشية عام 1512 لتنتهي أخيراً بعودة الميديتشيين، الذين سيصبحون فيما بعد كبار أدواق تسكانيا بين عامي 1530 و1532

وكالعديد من المدن الإيطالية الوسطى والشمالية الأخرى كانت فلورانسة قد أسست نظاماً جماعياً (كوميونياً) مستقلاً في القرنين الحادي والثاني عشر. وباعتبارها مدينة تجارية وصناعية هامة فقد قاومت بنجاح الهيمنة الإقطاعية والكنسية معاً، ومدّت سلطتها تدريجياً

إلى الريف المجاور (الكونتادو). وفي النهاية شملت هذه السلطة المدن المجاورة، في البداية فيسول، ولاحقاً كورتونا، وأريتزو، وبيزا وليغهورن. وقد تم تنظيم المواطنين أصحاب المقامات في نقابات ذات أهمية شمولية – Arti– المنبع الرئيسي للسلطة السياسية في الجمهورية. ومن هذه النقابات كانت سبع منها Arti Maggiori ذات أهمية مطلقة، وكل واحدة منها جمهورية مصغرة بحد ذاتها لها قادتها الخاصون (حملة ألويتها) (gonfaloniere)، وموظفوها ومجالسها. وتشير أسماء هذه النقابات السبع الرئيسة إلى مصادر القوة الاقتصادية لفلورانسة في القرون الوسطى: كانت Arte di Calimala نقابة خياطي القماش الأجنبي، وArte della Lana نقابة الصوف، وArte dei Giudici e Notari، القضاة وكتبة العدل، و Arte del Cambio صرّاف العملة، وArte dei Medici e Speziali الأطباء والصيادلة، و Arte della Seta تجار الحرير، و Arte dei Vaiai e Pellicciai تجار الفرو.

هذا وقد حددت قوانين العدل (Ordinamenti della Giustizia) لعام 1293 أولاً طبيعة أعمال الدولة الفلورانسية. ولم يكن مؤهلاً لتولّي المناصب وعضوية السينوريا، الهيئة التنفيذية للدولة، عن طريق الانتخاب إلا أعضاء النقابات الإحدى والعشرين (السبع الرئيسة والأربع عشرة الأصغر منها). وكان السينوريا مؤلفاً من تسعة رؤساء أديرة (Priori)، يستلم كل واحد منصبه لشهرين فقط و Gonfaloniere di Giustizia (كبار قضاة العدل –م) الرأس

الفاعل للسينوريا والمسؤولون عن تنفيذ القوانين. وكذلك فقد خدم الـ Gonfaloniere لشهرين فقط. وكذلك جرت العادة على تعيين هيئات تنفيذية خاصة (balie) منوط بها مسؤولية الحرب أو الإصلاحات في الأصول الانتخابية والمالية. هذه الهيئات تعرف عموماً عن طريق عدد المندوبين في كل لجنة (" العشرة " الخ). وبموجب القوانين تم الاحتفاظ بمنصب الـ Podestà القديم. وعلى العموم يستلم المنصب شخص غير فلورانسي وذلك كسبيل لالتزام الحياد في النزاعات بين الأحزاب داخل المدينة. وقد كان ال Podestà يعمل كالقاضي الجنائي للجمهورية، لكنه كان أيضاً قائداً للجيش، وكان يمثل المدينة في تعاملها مع القوى الأجنبية. وقد تضاءلت أهمية المنصب في القرنين 14 و15.

وقد أبقي على هذا الدستور وطوّر طيلة تاريخ فلورانسة القروسطي المضطرب والمليء غالباً بالنزاعات. وقد تشكلت جمعيتان تشريعيتان، جمعية الشعب ال Poplo وجميعة الكوميون، وكلتاهما تختاران لفترة ستة أشهر، لكن لم يكن يسمح لأي جمعية بسن التشريعات، وهذه السلطة بقيت في يد السينوريا (وقد اختزل إلى ثمانية رؤساء أديرة والغونفالونيير بعد عام 1343)

وبين عامي 1382 و1434 حُكمت فلورانسة فعلياً من قبل الأوليغارشية النبيلة، وهذه أفلحت في الموازنة بين المصالح الجماعية والفردية. على أن من بين العائلات الكبيرة قامت عائلة الميديتشي بجمع ثروة ضخمة نتيجة نجاح أعمالهم المصرفية الدولية.وكان شعار

العائلة (" باسم الله والثروة الطيبة ") يجسد المزاوجة الفلورانسية أصلاً بين الشؤون الروحية وكسب المال. ورغم ثروتها قلما حاكت عائلة ميديتشي عادات الأرستقراطية الفلورانسية، وظهروا عوضاً عن ذلك على أنهم مناصرون ناشطون للفقراء والمعدمين. وشأنهم شأن الأحزاب ذات الطموحات السياسية منذئذ فقد تحركوا بحذر وأسسوا قاعدة نفوذ وسط أولئك الذين كانوا بأمس الحاجة للحماية، أو الذين لم يفيدوا إلا القليل من الوضع الراهن للأمور. وقد تأزمت الأمور في عام 1433 عندما نفي من فلورانسة رأس العائلة، كوسيمو، نتيجة صراع حازت فيه عائلة ألبيتزي سيطرة مؤقتة على السينوريا. وفي فترة نفيه القصيرة استقبل كوسيمو في بادوا والبندقية كأمير أكثر منه كلاجئ

(وهذا يعود بشكل رئيس إلى أنه كان يتوفر على دخل أميري وكان، بالتأكيد، مستعداً ليتصرف كالأمير). وبعد عام، ونتيجة ضغط الشعب، تم إلغاء النفي، وعاد كوسيمو وأقرباؤه إلى فلورانسة مكللين بالنصر، وفتحت الطريق أمامهم لتسلم سدة السلطة السياسية في المدينة.

كان كوسيمو سياسياً حاذقاً سعى لأن يحكم من خلال اللجان عن طريق السيطرة على عملية انتخاب هذه اللجان. ومن جانبه قلما تسلم أي منصب، بل اكتفى بالعمل كعضو غونفالوني لثلاث فترات كل منها مدتها شهران. وعن طريق إقراض السينوريا مبالغ كبيرة من المال فقد وضع، مع ذلك، الدولة تحت وطأة التزام أخلاقي ومالي تجاهه. وقد أصبح القصر الميديتشي مركزاً ثانياً للحياة الاجتماعية

والسياسية في المدينة، حيث اشتهر بحفلات استقباله الباذخة للضيوف الأجانب، ومركزاً للنشاط الدبلوماسي الجديد الذي عزز موقع فلورانسة كقوة أوربية. وقد كان كوسيمو النموذج الأعلى لـ " الزعيم " السياسي، رغم أنه عند موته في عام 1464 قام سينوريا تابع بتكريمه باسم الجمهورية، وأسبغ عليه بعد وفاته لقب " أبو الأمة " (Pater Patriae) وقد خلف كوسيمو دي ميديتشي ابنه بييرو، والمعروف ب " المنقرس " من المرض الذي أقعده جسدياً. ورغم الضرورة المزعجة الناجمة عن وجوب نقله على نقالة من فيلته إلى المدينة في زياراته النادرة، فقد توافر لدى بييرو من القوة ما يكفي للحفاظ على مكانة عائلته التجارية. وقد تم بسهولة سحق مؤامرة لتقويض سلطتها السياسية قادتها عائلة بيتي Pitti عن طريق التماس العاطفة الشعبية وقوة الغوغاء، لكن بييرو ترك بالتدريج الشأن العام في إدارته إلى ابنيه اللذين تلقيا تعليماً رصيناً، لورينزو وجيوليانو.

وقد كان لورينزو، والمعروف لخلفائه بـ: المعظم هو الذي استلم مقاليد الحكم عندما توفي والده عام 1469، وكان هو من قام في عام 1470 بتجريد مجلسي Popolo والكوميون من سلطتهما موظفاً عمليهما في " مجلس مائة " جديد، ضم حشداً من مائة من الأعضاء الميديتشيين الموالين. وفي العام التالي عمد لورينزو أيضاً إلى تعزيز هيمنته بوساطة ال balie، (هيئات تنفيذية خاصة –م) سهلة الانقياد، وفترة تستمر خمس سنوات. وفي عام 1480 تشكل " مجلس السبعين " وأعطي صلاحية أصبحت فيما بعد دائمة. ورغم مؤامرة الباتزي Pazzi

في نيسان 1478 التي هدفت إلى خلع الميديتشيين، والتي تمخض عنها اغتيال جيوليانو أصبحت شعبية لورينزو لدى الجماهير الفلورانسية هي العليا فعلياً، وعن طريق روعة وتميز رعايته للفنون كان من الصعب تجريده من لقبه " المعظم ".

وكان من سوء حظ العائلة أن خليفة لورينزو، ابنه بييرو، لم يرث حنكة أبيه السياسية. وقد تعثرت خطا بييرو في إدارة كل من المدينة والعائلة. وعند هذه المرحلة وفي نيسان من عام 1492 تبدأ رواية " رومولا " وتسرد الرواية أحداث سقوط بييرو ومحاولته الفاشلة لاستعادة السلطة.

وقد عجّل الملك الفرنسي تشارلز الثامن وجيشه الغازي من ارتكاب بييرو لأخطاء حاسمة لكن ما إن تحررت فلورانسة من الميديتشيين حتى اضطر المواطنون المستقلون حديثاً إلى التفاوض من أجل الصلح مع الملك الفرنسي. كذلك أتت الرواية على وصف ديبلوماسية بييرو كابوني، وقوة هدفه، وحضور بديهته كمفاوض فلورانسي رئيسي، لكن الحال استمر حتى حلول 28 تشرين الثاني 1494 حين قام تشارلز بالسير جنوباً إلى نابولي حاملاً معه لقب " المسترد والحامي لحرية فلورانسة ". وقد غادرت قواته حاملة معها كل ما وقعت أيديها عليه مما غلا ثمنه، لكنها خلفت فراغاً أكبر في الحياة السياسية للدولة، التي تضررت سمعتها بخسارة بيزا واستسلام الحصون الساحلية الحيوية. ذلك الفراغ كان ملؤه سيتم على يدي سافونا رولا، وهو من قبل قوة يحسب لها حساب في حياة فلورانسة الأخلاقية،

وسرعان ما أصبح أيضاً مرشدها السياسي الخاص. وقد عاد النظام الجديد إلى التقاليد الجمهورية القديمة، وشكل هيئة تشريعية جديدة، المجلس الكبير ويتألف من ثلاثة آلاف عضو ينعقد مرة كل ثلث لفترة ستة أشهر. وكان هذا المجلس الكبير ينتخب مجلساً آخر من ثمانين عضواً يتم تغييرهم كل ستة أشهر، وكان السينوريا ملزماً باستشارته. وقد أضيفت قاعة فسيحة لاستيعاب المجلس الجديد إلى قصر السينوريا من قبل سيمون ديل بولايولو. وفي فترة سافونارولا بقيت جدرانها عارية، لكن إلى هذه القاعة، قاعة المجلس الكبير، أوكل إلى مايكل أنجلو وليوناردو دا فينتشي عام 1503 و1504 رسم الصورتين المشهورتين والعظيمتين لمعركتي كاسينا وأنغياري، دون أن تكتمل أية واحدة منهما.

وقد عاشت الجمهورية الفلورانسية بعد سقوط سافونارولا أربعة عشر عاماً آخر (تاريخ الخاتمة الموجزة لـ " رومولا " هو عام 1509). هذا وتصور الرواية بمهارة الصراعات المستمرة، ونزاعات الفلورانسيين وعقليتهم الدموية. لكن مما تجدر ملاحظته أن انتخاب بييرو سوديريني ك: غونفالوني دائم عام 1502 قد وسم الفترة الأخيرة من هذه التجربة النهضوية النبيلة في الحكومة الشعبية، حتى وإن كانت فترة حكمه تفتقر إلى الحماس التطهري (البيوريتاني) لنظام حكم سابقه.

ملحق ب

عبارات التصدير غير المستعملة في رواية " رومولا "

إن أحد أهم الأشياء التي ورثتها جورج إليوت عن السير والتر سكوت هو استخدامها لعبارات التصدير في رواياتها الأخيرة أو، كما كانت تفضل أن تطلق عليها، " شعارات "، لكل فصل. فرواياتها الأولى " آدم بيد" (1859)،" الطاحونة على الجدول" (186.) و" سايلاس مارنر "(1861) لها شعارات ذات صلة بالرواية ككل، لكنها لا ترقى إلى الاقتباس من طائفة واسعة من الكتّاب، إضافة إلى اقتباسات للمؤلفة ذاتها، وهي معاً تشكّل تعليقاً متواصلاً على الفصول في " فيلكس هولت " (1866)، وميدل مارش " (1871–2) و" دانييل ديروندا(1874–6)

في صورتها الطباعية قد تبدو " رومولا " استثنائية من حيث أنها لا تتوفر لا على شعار أحادي، ولا على شعارات الفصول كما في روايات جورج إليوت اللاحقة. على أن مخطوطة الرواية تبين أن الروائية قد عزمت أصلاً على وضع اقتباس في رأس كل فصل، أو سلسلة من الاقتباسات من مؤلفين لاتين وطليان. وحيث لم توضع أية اقتباسات في رأس الفصول الأولى من الرواية فقد تركت لها مساحات حتى الفصل التاسع ضمناً. ولاحقاً يبدو أن جورج إليوت قد أقلعت عن التجربة، لربما بسبب متطلبات الظهور المتسلسل القادم ل " رومولا " في مجلة "كورنهيل ماغازين ". وحيث إن من المحتمل أن عبارات التصدير التي اختارتها ستكون كذلك غير مألوفة لجمهور غير ضليع باللاتينية والإيطالية كما المؤلفة ذاتها فمن الممكن أنها رأت أن الحكمة تقضي ألا تضع عبئاً آخر من اللوذعية على قراء مثقلين من قبل.

وعليه فقد كانت " رومولا " الأولى من بين روايات جورج إليوت التي صدرت فصولها بعبارات اقتباس، وهذا عامل يقدم مزيداً من الدلائل على طموحات الروائية إزاء هذه القصة بالذات. هذا، وإن كل اقتباس وقع عليه اختيارها يلائم التطورات الأولى في الحبكة، وهو مستقى من مصدر مناسب لثيمة الرواية وموضوعها. ليس هناك شعار للمقدمة حيث كان من الممكن أن نتوقع الإفصاح عن موضوعة (ثيمة) عامة رغم ترك مساحة خمسة سطور خالية لوضع اقتباس. على أن الفصل الأول يتصدره اقتباس من مكيافيلي تم محوه واستبدال عنوان الفصل به. ثم أعيد استعمال الاقتباس في الأسفل جنباً إلى جنب مع نصوص من الكاتب الإنساني الأول فرانشيسكو فليلفو (" فيليلفوس ") ومن المؤرخ بينيديتو فارتشي. وقد برز هؤلاء الكتاب الثلاثة في أبحاث جورج إليوت عن خلفية " رومولا "، ويكاد يكون من غير المستغرب أبداً أنها اختارت أن تستخدمهم هنا. وقد كان القصد من هذه الاقتباسات الثلاثة تعريفنا بالتنوع، والتناقض، والثرثرة التي سادت في فلورانسة عصر النهضة، وهذه جوانب يتجاوب معها تيتو نفسه باعتباره " الغريب " المنفتح "الذي تحطمت سفينته " كما ورد في عنوان الفصل.

هذا، وإن الاقتباس الأول، عبارة (فلورانسة، المدينة المتلهفة للكلام ") يعزى إلى مكيافيلي رغم أنني لم أتمكن من قفوه في مصدره المذكور " التاريخ الفلورانسي ". ويلحق به عبارة من رسالة لاتينية من فليلفو إلى نيقولاس، كاردينال بولونا (أيلول1432) ويمكن ترجمتها إلى الآتي: " العقل الفلورانسي ثاقب جداً ومن كل النواحي نشيط وعالي

الهمة ". ويبدو أن جورج إليوت توفرت بسهولة على نسخة من رسائل فليلفو، ذلك أن العمل معلّم بعبارة " في البيت " في سلسلة من المراجع المنسوخة عن دفتر ملاحظات خاص ب " رومولا " في المكتبة البريطانية. وقد أعيد استخدام هذه المقبوسة مع التهجئة الصحيحة للكلمة acerrima (كذا)في الفصل 17 من الرواية. والمقبوسة الثالثة مأخوذة من " Storia Fiorentina" لفارتشي، وهو عمل أدرج على أنه " في البيت " في دفتر ملاحظات جورج إليوت. وقد وفّر " Istorie delle guerre della Repubblica Fiorentina " (تاريخ الحرب في جمهورية فلورانسة) إذا ما كنا لنعطي التاريخ عنوانه الكامل، وفر للروائية تفاصيل هامة عن الحياة اليومية في عصر النهضة، لكنها لم تختر هنا سوى عبارة تكمّل عبارات مكيافيلي وفليلفو وترجمتها " والحق أنه من دارج القول إن عقول الفلورانسيين لا تعرف نقطة وسطى بين أقصيين، ولذا: الأغبياء هم جد أغبياء، والعقلاء هم جد عقلاء ".

في الفصل الثاني – فطور لقاء الحب " – نرى تيتو في سوق (ميركاتو) فيتشيو بحثاً عن شيء يأكله. هنا يلتقي تيسا، التي يستميلها بسهولة عن طريق ابتسامته، لأول مرة، حيث تقدم له كوباً من الحليب. وقد اختارت جورج إليوت تصدير الفصل بمقبوسة من دانتي (المطهر XXXIII، 130–32) والتي توحي بسرعة التأثر لدى تيسا :

Com'anima gentil che mon fa scusa,
Ma fa sua voglia della voglia altrui,
Tosto com'è per segno fuor dischiusa

ويمكن ترجمتها بالإنجليزية " باعتبارها روحاً لطيفة لا تعمد للتبريرات، لكن تصنع إرادتها من إرادة غيرها، حالما تظهر للعيان بفعل إشارة خارجية " (لاحقاً وقّر دانتي أيضاً لجورج إليوت عبارتين للتصدير لروايتها "ميدل مارش " واثنتين لروايتها " دانييل ديروندا ".

لا يوجد شعار للفصل3، " صالون الحلاق " رغم ترك مساحة أيضاً لإدخال لاحق، لكن الفصل 4 " انطباعات أولى) مصدّر بمقبوسة من لويجي بولتشيMorgante Maggiore (النشيد XIX,26)يوجهنا للانتظار قبل إصدار الحكم. وكما في هذا الفصل حيث نلتقي لأول مرة بييرو دي كوسيمو بتشككه الغريزي، لكن قلّما يظهر للعلن، بتيتو فإنه أيضاً تصدير ملائم.

تنص المزدوجة:

Lascan (Cascan?) le rose,e restan poi le spine
Non giudicar nulla innanzi alla fine."

ومن الواضح أن جورج إليوت تقتبس من الذاكرة، ذلك أن السطرين من بولتشي هما كالتالي

Cascon le rose,e reston poi le spine
Non giudicate nulla innanzi al fine."

وترجمتها بالإنجليزية: " الورود تذبل وتموت، فقط الأشواك تبقى. تريث حتى النهاية قبل أن
تحكم ".

الفصل 5 هو آخر الفصول التي تتصدرها شعارات، لكن حيث

إن جورج إليوت تقدم رومولا ووالدها في هذا الفصل الهام فإنها أيضاً دققت في الاختيار. الشعار الأول لها، وهو مقبوسة محرّفة من تاسيتوس تنطبق بوضوح على باردو. لقد كتبت الروائية "Novissima omnium cupido gloriae" – " الرغبة في الشهرة هي آخر شيء يبقى "– ونسبته فقط إلى تاسيتوس، لكن هذه ربما تذكّر بالسطور من Histories (IV,vi) – Etiam sapientibus cupido gloriae nivissima exuitur "– " الرغبة في الشهرة هي آخر شيء يجرد منه حتى الفلاسفة أنفسهم ". على أن جورج إليوت قد اختارت لرومولا المقطع المعبر من النشيد الخامس عشر من Morgante Maggiore للويجي بولتشي:

Era tutta cortese,era gentile,
Onesta,savia,pura,e vergognosa,
Nelle promesse sue sempre virile,
Alcuna colta un poco disdegnosa
Con un atto magnalmo e signorile
Ch'era di sangue e di cor generosa.

هذه الأبيات مأخوذة من وصف مفصل ل: Antea، ابنة السلطان، التي وقعت في غرام المحارب المسيحي، رينالدو. ويمكن ترجمتها كالتالي:

كانت جد دمثة، كانت لطيفة،
شريفة، عاقلة، طاهرة ومحتشمة،

مثل رجل دائماً تفي بالعهود،
أحياناً كانت تتعالى
تتخذ وضعية عظيمة ونبيلة
ذلك أنها كانت شهمة من كل قلبها ودمها.

حواشٍ

بما أن "رومولا" رواية تاريخية أحداثها وقعت في إيطاليا القرن 15 فإن الحواشي للطبعة الحالية تتصف بشمولية أكبر من حواشي روايات جورج إليوت الأخرى في مكتبة بنغوان الإنكليزية. حتى الكاتبة شعرت بأنها مضطرة لإضافة حواشٍ توضيحية إلى نصها، وهذه أدرجت هنا، ووقّعت بالحرفين (ج.إ.) بين مزدوجين. لقد أضفتُ حواشي تكميلية تتعلق بالشخصيات التاريخية التي ظهرت، أو ذكرت ببساطة، في معرض السرد، أوكلمات أو تسميات أو عبارات قد تكون غامضة، واختلافات بين نصوص الرواية. أنا مدين بشكل خاص لطبعة " رومولا " التي أعدت عام 1916 من قبل C.B.Wheeler (أكسفورد)، وإلى كتاب Maria Toscello : " La Fonti Italiane della 'Romola' di George Eliot (تورين، 1956).

استهلال

1- ملاك الفجر: في نص الرواية التي نشرت في مجلة " كورنهيل ماغازين " عام 1862 وردت هذه العبارة هكذا: " نحن متأكدون أن ملاك الفجر المطفئ النجوم.. " " مطفئ النجوم " حذفت من الطبعة الأولى (1863) ومن الطبعات اللاحقة بكافة.

2- المشرق إلى أعمدة هرقل. المشرق هو الجزء الشرقي للبحر المتوسط. "أعمدة هرقل " هي الصخور الواقعة على جانبي مضيق جبل طارق في المدخل الغربي للمتوسط

3- مرفأ بالوس. بالوس مرفأ صغير بالقرب من هويلفا في الأندلس منها أبحر كولومبوس في 3 آب 1492

4- لوتشو..... بيتشيتو: اللوتشو lucco كان رداء خاصاً بالفلورانسيين في تلك الفترة بالرغم من أنه ليس دائماً من الحرير. وال becchetto ، والذي عرف في إنكلترا القرن الخامس عشر ب: liripipe كان يتدلى من القبعة ليُمسك باليد، ويحشر في الزنار، أو، كما تنوّه جورج إليوت، يُلف حول العنق.

5- رغم افتقاده للأبراج السبعين أو يزيد... هُدمت الأبراج في عام 1527. والأسوار نفسها دُمّرت وحل محلها شوارع عريضة (بولفار) مباشرة بعد نشر "رومولا" خلال الفترة الموجزة التي كانت فيها فلورانسة عاصمة إيطاليا الموحدة.

6- (ص 45)لكن سانتا كروشه كانت تعدم المسلة آنئذ. كنيسة سانتا كروتشه حيث دفن فيها العديد من كبار الفلورانسيين شرع بالعمل فيها المعمار أرنولفو دي كامبيو عام 1294. لم تتم إضافة برج أجراسها حتى 1842-4 وتم التنويه عنها كالتالي " صرح ينطوي على ذائقة سيئة " في " دليل موراي عن شمالي إيطاليا "

7- الكوندوتييري الجشعون. كان الكوندوتييري قادة المجموعات العسكرية التي تكونت في معظمها من المرتزقة، واستخدمتها الدولة الفلورانسية. وكان الأكثر نجاحاً بينها السير جون هوكوود (جيوفاني أكوتو) الذي توجد جدارية قبره التذكارية من صنع Ucelloفي الكنيسة.

8- الأخوية الصغيرة " الفرنسيسكان " (ج.إ.)

9- فيليبو برونيلليتشي أو ميتشيلوتزو. بورنيليتشي (1377-1446) كان مصمم قبة الكاتدرائية في فلورانسة، لكنيستي سان لورينزو وسان سبيريتو، ومعبد باتزيا في سانتا كروتشه، ومشفى اللقطاء. ميشيلوتزو دي بارتولوميو (1396-1472) كان المهندس المعمار لدير سان ماركو وقصر عائلة ميديتشي. في المخطوطة وردت الجملة هكذا "... كان فيليبو أو ميشيلوتزو سيستنبط شيئاً مغايراً في الزي عن هذا – شيئاً بعظمة برج أجراس سان سبيريتو " وقد تم تغيير الجملة إلى صيغتها الحالية في نص "مجلة كورنهيل "

10-هضبة أو ربوة بوغولي " الآن بوبولي "(ج. إ.) تفاصيل مقلع الحجارة التي منها شيد قصر بيبي ورُصفت بوبولي ورد تنويه عنهما في حاشية ل "رومولا" والتي هي الآن في المكتبة البريطانية

11- ال Priori (رؤساء الأديرة) انظر ملحق أ

12- ال Orcagna's Loggia. اللوجيا دي لانزي، كذلك سميت على اسم مصممها، أندريا أوركاغنا، شيدت إلى جانب قصر (بالاتزيو) فيتشيو عام 1376. وكان الهدف منها إقامة الاحتفالات العامة لكنها استخدمت أيضاً كغاليري منحوتات

13-بشأن حكومة فلورانسة في هذه الفترة انظر ملحق أ

14-truncis naribus. ربما عودة بالذاكرة إلى " truncis naribus auribusque voltus لمارشال (" وجه من دون أنف وأذنين ")

15- ذلك الرائع هوميروس. ظهرت الطبعتان الشهيرتان لهوميروس في مجلدين عام 14880 وكانتا من تحرير المنفي الأغريقي ديمتريوس تشالكونديلاس. وهذه هي الطبعة التي امتحن فيها بالداسار في الفصل 39 من الرواية.

16- قد يكون لوكريتوس مصيباً.... لويجي بولتشي. لوكريتوس شاعر روماني من ق 1 ق.م تأثر كثيراً بمبادئ أبيقور واعتقد أن طبيعة العالم يمكن تفسيرها بدون اللجوء إلى التدخل الإلهي. لويجي بولتشي (1432-84) كان شخصية مركزية في دائرة لورينزو العظيم، وكان مع بوليتزيانو معلماً لأولاده.

17-عُمّد في سان جيوفاني أي في معمدانية يوحنا المعمدان التي تقع أمام الكنيسة. هنا تم تعميد كل الفلورانسيين.

18-البابا أنجيليكو. لقد اعتُقد في العصور الوسطى أن " بابا ملائكي " رأس مثالي للكنيسة سيأتي كمجدد للعالم.

19- Iddio non paga il Sabato " الله لا يدفع يوم السبت " (ج.إ.)

20- الأخ بريديكاتوري، حرفياً تعني " الأخ الواعظ" عضو في الأخوية الدومينيكانية. الإشارة هنا إلى سافونارولا , رئيس دير سان ماركو في فلورانسة.

21-يلعب دور رهبعام. رهبعام كان ابن وخليفة سليمان. وقد سبب تهديده الناس بحكم استبدادي تسلطي على إسرائيل انشقاقاً في مملكته (انظر الملوك (1) XII

22–التركي العظيم، أي، السلطان.

23– the Regno " يطلق الاسم على نابولي في معرض تمييزها عن الدويلات الإيطالية(ج.إ.)

24– on the marmi…… trade in the Calimara. ال مارمي هي أرصفة رخامية وبالتأكيد تقصد جورج إليوت التسمية التي جاءت من نقابة خياطي القماش الأجنبي.

الكتاب 1

الفصل 1

1– QUI NACQUE IL DIVINO POETA " هنا ولد الشاعر الإلهي " البيت الذي يفترض أن دانتي ولد فيه عام 1265 يقع في فيا دانتي أليغيري

2– 9 نيسان 1492، أي اليوم التالي لموت لورينتزو دي ميديتشي

3– براتي فيرافيتشي. براتي الذي تذكر جورج إليوت أنه توفي " ثرياً جداً " اشتق اسمه من صرخته في الشارع (انظر حاشية 8 أدناه). فيرافيتشيو بالإيطالية تعني تاجر خردة. شارع فيرافيتشي، والذي لم يعد له وجود، كان يفضي إلى سوق(ميركاتو) فيتشيو.

4– ذات عيد سان جيوفاني. عيد القديس يوحنا المعمدان، القديس الشفيع لفلورانسة (24 حزيران، يوم منتصف الصيف)

5– وجه السيد سان ميشيل. يبدو كسان ميشيل (ميخائيل) كبير الملائكة.

6- لا يستطيع معرفة الصنارة من العلاّقة أو الكلاّب (شكل حرف S) يرسمهما الطفل عند تعلمه الكتابة

7- ميركاتو فيتشيو... الباديا. الميركاتو فيتشيو، أو السوق القديم هدّم في 1889-1917 لفتح طريق إلى ساحة فيتوريو إيمانويل، الآن ساحة الجمهورية. الباديا كان أكثر الأديرة الفلورانسية ثراء في فلورانسة في القرون الوسطى، رغم أن الكنيسة الحالية أعيد تصميمها عام 1625

8- " من يريد أن يبادل الخرق البالية، والزجاج المكسور، أو الحدائد العتيقة " (ج.إ.)

9- كانت ريدولفي إحدى العائلات الفلورانسية العريقة. الباترنوستر تعني هنا السبحة.

10- جرت العادة على مكافأة أول جالب للأنباء الطيبة إلى فلورانسة بإعطائه جورباً. أشير ثانية إلى هذه العادة في الفصل 43

11- القماش الرمادي ضد القماش الأصفر. كان اليهود في فلورانسة وغيرها من أنحاء أوربا يجبرون على ارتداء قطعة قماش صفراء كعلامة فارقة على ثيابهم. " القماش الرمادي " إشارة إلى " الأخوة الرماديين " أو الفرانسيسكان.

12- كان يعتقد أن ثروة فلورانسة الحديثة قد تأسست على يد اللاجئين من المدينة الأكبر فيسول، التي دمرت عام 1125

13- أنطونيو بوتشي (1309-1388؟) كان مؤلف سوناتات هزلية وقصائد تصف الحياة الشعبية الفلورانسية.

14 – بالنسبة ل: آرتي Arti انظر ملحق أ

15– " وكان بالإمكان مشاهدة رجل يتنفس وهو يلهث لهاثاً عظيماً، ويُشتم ويده على فكه، ويتلقى ويسدد العديد من اللكمات " من قصيدة بوتشي La Proprieta di Mercaro Veccio

16– " القرية المسورة " (ج.إ.)

17– تمثال دوناتيلو حطّم واستبدل بواحد من نحت النحات فوجيني عام 1721. لا يزال العمود قائماً في ساحة الجمهورية.

18–جبنة حليب الغنم وتصنع في شهر آذار (مارتزو)

19– " ثياب على الموضة "

20– mi pare "يبدو لي"

21–" Palle– سلاح الميديتشيين (ج.إ.) ويشمل ست كرات حمراء على خلفية من الذهب

22– صورة مقدمة كنذر تصور لورينزو، مصنوعة من الشمع، كانت معلقة في كنيسة أنانزياتا كان يعتقد أنها سقطت يوم وفاته.

23– Ebbene " أوه حسن ".

24– أخوية السيرفيت. الكنيسة ودير سانتيسيما أنانزياتا من أملاكهم.

25– Che miracolo " يا لها من معجزة! "

26– تعني غياب الحرمان من التأهل. Spechio(مرآة) كانت التسمية المعطاة للسجل الرسمي للفلورانسيين الذين لم يسددوا ضرائبهم وبالتالي حرموا من التأهل للمشاركة في الحياة العامة.

27- كما أن سفورزا قد أسرج ولجم ميلانو. تمت السيطرة على ميلانو منذ وفاة آخر الأدواق الفيسكونتيين على يد عائلة سفورزا.

28- بلعام أمر من قبل بالاك، ملك مؤاب، ليلعن الإسرائيليين الغزاة. وبينما كان مسافراً إلى بلاط بالاك، راكباً على حمارة، اعترضه ملاك. رأت الحمارة الملاك وتوقفت عن سيرها، لكن بلعام لم يره. وعندما ضرب بلعام الحمارة تكلمت إليه موبخة إياه على غضبه وظلمه لها (انظر رقم 23)

29- الأخ دومينيكو دا بونزو كان راهباً فرانسيسكانياً بارزاً وخصماً لسافونارولا. سان دومينيك (مؤسس الرهبنة التي ينتمي إليها سافونارولا) يزأر " هذا صحيح " في أذن نيلو، بينما يصرخ سان فرانسيس " هذا كذب " في أذنه الأخرى. مونيغيبيللو هو الاسم الآخر للبركان، جبل إيتنا، في صقلية. الإشارة إلى " عدد من الحنازير التي ألقت بنفسها على رؤوسها في البحر " إلى أولئك من بلد الجرجيسينيين الذين أدخل فيهم يسوع الشياطين التي حرر منها أولئك الذين أبرأهم. انظر متى 8، 28-32، مرقس 5، 1-13، لوقا 8، 26-33

30- توجد أعمال فريسكو لجيرلانـدايو(1449-94) في الأوغنيسانتي، في معبد ساسيتي في سانتا ترينيتا، وفي جزء الكنيسة المخصص للمرتلين في سانتا ماريا نوفيلا في فلورانسة.

31- سابقاً موقع دير الأوغسطينيين في سان غالو.

32- Sia " وليكن "

33- مارزوتشو " الأسد الحجري، شعار الجمهورية (ج.إ.)

34- جواشيم من فيور (توفي 1202)، رئيس دير فلوريس (سان جيوفاني في فيور) في كالابريا، اعتقد أن تاريخ العالم مقسم إلى ثلاثة أدوار. دور الأب الذي انتهى بالتجسد، ودور الابن الذي استمر حتى منتصف ق 13، ودور الروح القدس سيبدأ عام 126.. ورغم تأثيره الواسع ما إن مر عام 126. بدون حدوث شيء، كان لا بد من انفراط عقد مريديه.

35- انظر ملحق أ

36- نقابة ألبسة الصوف الفلورانسية (Arte della Lana) كان مقرها بالقرب من كنيسة أوغنيسانتي.

الفصل 2

1- abolus an عملة فضية، ولاحقاً برونزية، من إغريقيا القديمة، قيمتها ضئيلة.

2- في المخطوطة " ضفائر بنية طويلة " رغم أن المؤلفة تشدد لاحقاً على أن شعر تيتو " أسود " لكنها بقيت دون تصحيح حتى ظهور طبعة كابينيت عام 1878

3- Va via " امش في طريقك "

4- عندما سئل ديموستين ما هو أول شرط للخطابة في الجمهور أجاب " العمل "، والثاني " العمل " والثالث " العمل " أيضاً. الحادثة سجلها شيشرون في كتابه " بروتوس " (38، 142)

5- يشير نيلو إلى ديميتريوس تشالكونديلاس (1424-1511)، منفي من القسطنطينية عين أستاذاً لليونانية في فلورانسة. كان محرر "

ذلك الرائع هوميروس " الذي أشير إليه في الاستهلال. غادر ديميتريوس إلى ميلانو عام 1492

6- Orsu! " هيا تعال "

7- bello giovani " الشاب الجميل "

الفصل 3

1- تقول الرواية إن سان بارثولوميو استشهد عن طريق سلخه حياً. وغالباً ما يتم تصويره في الفن حاملاً جلده ، وخاصة في " الدينونة الأخيرة " لمايكل أنجلو في كنيسة سيستين.

2- بيركليس حكم أثينا من 46. ق.م. حتى وفاته في 429 ق.م. في عهده وصلت أثينا إلى أوج قوتها وبني البارثينون والبروبيليا.

3- بشأن كالكونديلا انظر الفصل 2، حاشية 5. تارشانيوتا مارولوس كان منفياً وزميلاً له من القسطنطينية. تزوج أليساندرا سكالا " المثقفة والجميلة "، ابنة بارتولوميو سكالا، سكرتير جمهورية فلورانسا. وهما يظهران بشكل موجز في الفصل 7

4- في طبعات الرواية الأول وردت العبارة كالتالي " الواقع حري بي أن أدعى غراكولوس وليس إغريقياً ". باري، عاصمة مقاطعة أبوليا، تقع على الساحل الإيطالي للبحر الأدرياتيكي قبالة اليونان. كان فيها سكان خليط من اليونان والطليان منذ الأزمنة الكلاسيكية. بدأت تجارة الحرير في فلورانسة في عقد عشرينيات القرن الخامس عشر وشجع عليها بشكل كبير لورينزو دي ميديتشي عن طريق زراعة شجر التوت على أملاكه. اسم ثمرة الدراق مشتق من اللاتينية persicum

malum وتعني " التفاحة الفارسية ". يجادل تيتو في أنه(هو) استيراد أجنبي راسخ تأقلم مع إيطاليا.

5- المعنى الذي يقصده تيتو هو أن الراهب الأوغسطيني قد أعطى النصيحة الخطأ، على النقيض من إلهة الحكمة والفنون، منيرفا

6- Gnaffè! " " حقاً، صدقاً! "

7- بالنسبة لبرناردو روسيلي انظر فصل 38. ألامانو رينوسيني (1426-1504) كان مؤرخاً وأديباً فلورانسياً من الأفلاطونيين المحدثين.

8- bel erudito الأديب اللوذعي الجميل

9- أي اتخذ خطوة حاسمة. الروبيكون، نهر صغير في لومباردي، كان الحد الفاصل بين إيطاليا ومقاطعة سيزالبين غول. وعن طريق عبوره بجيشه عام 49 ق.م. كان يوليوس قيصر في الحقيقة قد أعلن الحرب على بومبي ومجلس الشيوخ الروماني.

10- سيد أنجيلو " أنجيلو بوليتزيانو " (أو بوليتيان) (1454-94) كان أستاذ البلاغة في فلورانسة ومعلماً لأولاد لورينزو ميديتشي. كان شاعراً مجيداً في الإيطالية وغيرها من اللغات الكلاسيكية.

11- Contadina فتاة من الريف (الفلورانسي)

12- sgherro " وحشي "

13- بييترو كرينيتو، خليفة بوليتيان كأستاذ للبلاغة في فلورانسة توفي حوالي 1505

14- vino di sotto خمر من درجة دنيا

15- bella zazzera - خصلات الشعر الياقوتية

16- جيوفاني بيكو، أمير ميراندولا (1463-94) لربما كان أعظم الكتاب الإنسانيين الفلورانسيين في ق 15. ذاع صيته في إيطاليا لثقافته الواسعة حتى سمي " فينيق عصره " من قبل معاصريه. حوالي نهاية حياته القصيرة تأثر بيكو بسافونارولا.

17- برج جرس الكنيسة بني على غرار تصاميم غيوتو بين 1334-1359 رغم تغيير التصميم بعد وفاته. كذلك أنجز غيوتو ثلثي واجهة الكنيسة نفسها سنة وفاته 1337 لكن هذا العمل دمّر عام 1558 لإفساح المجال لتصميم جديد لم ير النور. استؤنف العمل على الواجهة مرة أخرى عام 1636

18- قبة الكاتدرائية التي يفاخر بها نيلو بناها فيليبو برونيليشي، لكنها لم تنته تماماً عام وفاته في 1446

19- هذا ينطبق أيضاً على برناردو روسيلي الذي رفض، عندما التقى إيرازموس في البندقية، أن يتحدث سوى بالإيطالية، بالرغم من إيرازموس نفسه " كان لا يعرف من الإيطالية أكثر مما يعرف من الهندية " .

20- دومينيكو بورتشييللو، الذي توفي عام 1448 كان حلاقاً وشاعراً فلورانسياً مشهوراً.

21- في الأسطورة اليونانية تريبتوليموس هو مخترع المحراث ومعلم البشرية في فنون الزراعة. يشير نيلو إلى أن حرفته يجب أن يكون توافر لها مبدع أسطوري مشابه، رغم أن ذلك أفضل لو تم على

يد أبولو منه على يد ديميتر

22- adytum كان أقصى جزء جواني من المعبد. مختلى أو معتكف نيلو الجواني هو غرفة خصوصية يلتقي فيها الأدباء.

23- بييرو دي كوسيمو. تستقي جورج إليوت جلّ معلوماتها عن " الغريب، ذو الأطوار الغريبة " بييرو من وصف فاساري له.

24- إبيقوروس (341-270 ق.م.) اعتبر غياب الألم الخير الأسمى، ونظراً لأن الفضيلة تعطي راحة نفسية تبعد الألم فإن الفضيلة تستأهل أن يسعى الفيلسوف وراءها.

25- السيد دومينيديو " الإله الرب " تعبير فلورانسي شائع. حتى دفاتر التجار آنئذ تحوي مقطعاً عنوانه " حساب الله " فيه توقف الأموال لأغراض خيرية.

26- كتابة Virgilب i أو e. نوقشت كتابة اسم فيرجيل مطولاً في الرسائل المتبادلة بين بوليتيان وبارتولوميو سكالا

27- نيقولو مكيافيلي الشاب. مكيافيلي كان عمره ثلاثاً وعشرين سنة عام 1492

28- حرفياً أن يجد " الشعرة في بيضة "، يجد الثغرات في الأشياء.

29- كانت البندقية أنئذ، كما اليوم، مشهورة بزجاجها. Nosce teipsum " اعرف نفسك " – قول فلسفي شائع منذ عصر الفيلسوف الإغريقي الأول تاليس.

30- Pian piano " رويداً، رويداً "

31- a Tedesco: ألماني

32- يشير نيلو إلى الفروقات الليتورجية والثيولوجية بين الكنيستين اليونانية والرومانية. في الكنيسة اليونانية الخبز المخمّر بالخميرة يستعمل أثناء القداس مقابل الرقاقة المدورة غير المخمّرة المخصصة في القداس في الغرب. سبب الخلاف أن اليونانيين اعتقدوا أن الروح القدس جاء " من الآب " وليس " من الآب والابن ". يبدو أن نيلو، أو ربما جورج إليوت، خلط بين التسميتين هنا.

33- من هجائيات جوفينال " حاضر البديهة، ذو قحّة يائسة، حاضر العبارة، ومهذار أكثر من أزيوس ".

34- يوانيس أرغيروبولوس (1404-74)، منفي إغريقي، عرّف فلورانسة به كوسيمو دي ميديتشي عام 1459. أحد أعلام الثقافة الإغريقية في إيطاليا. من بين طلابه لورينزو دي ميديتشي وبوليتيان.

35- intaglio حجر كريم ينقش فيه الرسم. cameo حجر فيه طبقتان من لونين مختلفين. ينقش الرسم البارز في الطبقة العليا بينما تشكّل الطبقة السفلى خلفية له.

الفصل 4

1- oimè! " وا أسفاه! "

2- برناردو سينيني، كما تنوّه جورج إليوت أدخل فن الطباعة الجديد إلى فلورانسة من ألمانيا.

3- فرانشيسكو فيليلفو (1398-1481) عُيّن أستاذاً للبلاغة في بادوا وهو في سن ال 18.

4- الكاتب الإنساني الأول وجامع المخطوطات غوارينو دا فيرونا (1374-1460) درس في بادوا والقسطنطينية. درّس في فلورانسة، والبندقية وفيرونا وفيرارا. أصبح كتابه Regulae كتاب النحو اللاتيني القياسي في عصر النهضة.

5- عندما تظاهر الإغريق بأنهم أقلعوا عن حصار طروادة تركوا وراءهم الحصان الخشبي مملوءاً بالمسلحين. أُخذ سينون، ابن سيسيفوس، أسيراً برغبته وأقنع برايام، ملك طروادة، أن يُدخل الحصان إلى المدينة. وعندما جنّ الليل أطلق سينون الإغريق المسلحين بداخله والذين تمكنوا من الاستيلاء على طروادة. يترادف اسمه مع المخادع أو الخائن.

6- سيباستيان، ضابط في الحرس البريتوري، استشهد في عهد الإمبراطو ديوكليتيان الذي أمر بأن تطلق السهام على ذلك القديس حتى الموت. هذا الاستشهاد لقي رواجاً لدى فناني عصر النهضة الذين تمكنوا من تصوير جسده شبه العاري في سياق مسيحي.

7- onyx (العقيق اليماني)، أو بالأحرى nicolo. Nicolo نوع من العقيق اليماني فيه طبقة تميل إلى الأزرق متوضعة فوق أخرى سوداء.

8- sigils (الأختام).

9- ليوناردو دا فينشي. لوحته " يوحنا المعمدان "وتوجد الآن في اللوفر تعود لما بعد 1506.

الفصل 5

1- كما يذكر دانتي في " الجحيم " (الكتاب 13، 143-4) " جئت من المدينة التي حولت أول شفيع إلى المعمداني. على أن تمثالاً لمارس (إله الحرب) كان لا يزال، في زمن دانتي، منتصباً على جسر (بونت) فيتشيو في فلورانسة ، كما يذكر في " الفردوس " (الكتاب 16، 145)

2- popolani الطبقات الدنيا في فلورانسة مقابل ال grandi طبقة الميسورين.

3- " التاريخ العالمي " و" كروناكا فيورينتينا " أشهر أعمال فيلاني. كان موظفاً لدى عائلة باردي. توفي عام 1348

4- الغونفالون هي رايات تتدلى من قضيب مستعرض

5- " القصور والأبنية الكبيرة "

6- الدليل على أن مثل هذه المقارنات كانت شائعة في فلورانسة هو أن سان أنطوان، رئيس دير سان ماركو، أسس جمعية (رجال سان مارتن الأخيار) لمساعدة الفقراء من العائلات الكريمة. في سجلات عائلة Panciatichi الشهيرة نجد شخص اسمه جيرولامو في هذا القرن آل إلى فقر مدقع اضطر معه إلى أن يأخذ الصدقات لكي يقيم أوده، بالرغم من أن أفراد العائلة الآخرين كانوا أثرياء.

7- في مخطوطتها سمّت جورج إليوت خادم باردو " أمبروجيو "، ثم عدلت عنه إلى " ماسو " ثم ألغته وسمته " توتو " لتعود أخيراً إلى ماسو وهي في منتصف الفصل 6

8- أطلق الاسم على المستعمرات الإغريقية في جنوب إيطاليا،

وأخيراً تم غزوها من قبل الرومان في 272–271 ق.م.

9– هذه الكتابات المتنوعة تضم مقالات عن الفلسفة، وفقه اللغة، والنقد نشرت عام 1489 وكان لها تأثير واسع . ترجمة القطعة لجورج إليوت.

10– نونوس كان شاعراً ملحمياً إغريقياً أواخر القرن 4 وأوائل القرن 5 م . كتابه الذي اقتبست الحادثة منه هو " دايونيسياكا "، ملحمة من ثمانية وأربعين كتاباً تصف حملة إلى وعودة من الهند قام بها دايونيسوس .

11– " the mens divinior" العقل الأكثر شبهاً بالإله "

12– الكتاب سابق الذكر في حاشية 10 لنونوس

13– Lamiae وحوش خرافية لها أجساد نساء يقال إنها كانت تفترس الكائنات الآدمية وتمص دم الأطفال

14– فرانشيسكو بترارك (1304–74) الأديب والشاعر الإيطالي العظيم يشار إليه كأول الكتاب الإنسانيين. اشتهر خارج إيطاليا لسوناتاته. يمكن ترجمة المقبوسة من رسالة إلى أخيه " الكتب تمتع أكثر ما تمتع الأنفس الجوانية، فهي تتحدث إلينا، وتتصحنا، وهي تتحد معنا بنوع من الصداقة الحية والصافية ".

15– لعله جيوفاني كريسولورا، ابن أخ مانويل كريسولوراس، سفير الإمبراطور مانويل بالاكولوغوس إلى إيطاليا ومعلم الإغريقية في فلورانسة منذ 1396

16– في إغريقيا القديمة الباليسترا (مسرح المصارعة) كان

يكرّس لتعليم ومزاولة المصارعة والرياضات. والبنتاثلوس كانوا يشاركون في المنافسات الرياضية المؤلفة من خمسة تمارين (القفز، الركض، رمي القرص، رمي الرمح والمصارعة)

17- an energumen من يسكنه الشيطان

18- أنطونيو بيكاديلي (1394-1471)، ويعرف ب بانورميتا من مسقط رأسه، باليرمو (باللاتينية بانورموس) كان شاعر بلاط دوق ميلانو. دخل فيما بعد في خدمة ألفونسو الخامس في نابولي وأسس الأكاديمية النابولية (البونتانيانا).

بوجيو براسيوليني (1380-1495) دخل في الخدمة البابوية بعد أن درس الآثار الكلاسيكية العظيمة في فلورانسة. عاد إلى المدنية عام 1452 كمستشار ومؤرخ للجمهورية. يحتمل أن يكون كتابه Liber Facetiarum، مختارات من القصص والنكات الذكية هدفاً لانتقاد باردو.

19- هو توماس بارينتوشيلي (1389-1455) انتخب بابا عام 1447 وتلقّب ب: نيقولاس الخامس. كان أحد أدباء عصره الكبار ويمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للمكتبة الفاتيكانية. ومما له دلالة أن باردو لا يستخدم لقبه الحبري.

20- the Pandects، مجموعة قوانين مدنية رومانية من خمسين كتاباً أمر بجمعها جوستينيان في القرن 6. وقد أوكل لورينزو دي ميديتشي إلى بوليتيان التعليق عليها.

21- مارسيليو فيسينو (1433-99) ابن طبيب عائلة ميديتشي

تعلّم على نفقة كوسيمو وأصبح معلماً لأولاده. ترجم "محاورات أفلاطون " إلى اللاتينية ومنه نفور باردو الأدبي. كان فيسينو أيضاً مؤمناً شديد الإيمان بعلم النجوم وفنون السحر.

22- الخواتم التي تضم أحجاراً كريمة قديمة كان يعتقد أنها تبعد الأمراض.

23- نيقولو نيقولي. ابن تاجر ثري كرّس ثروته لجمع المخطوطات، والنقود والميداليات، وترك العديد من المخطوطات لكوسيمو دي ميديتشي.

24- parentado (أبوة) الاسم المستعمل لزواج أعد مسبقاً.

25- اشتهرت كاساندرا المولودة في البندقية حوالي 1465 بثقافتها وعلمها. وقد استخدمتها الدولة البندقية كخطيبتها للغة اللاتينية، وهو شرف نادر بالنسبة لامرأة. عندما تحاول رومولا مغادرة فلورانسة في الفصل 36 كانت تصبو إلى الذهاب إليها لتسألها كيف يمكن لامرأة متعلمة أن تعيل نفسها في حياة الوحدة هناك .

26- الأولولاريا- قدر الذهب - هي إحدى المسرحيات الباقية للشاعر الروماني الهزلي بلوتوس. يمكن ترجمة المقبوسة الخطأ من المسرحية " ليس هناك من امرأة جيدة حقاً، رغم أن الواحدة قد تكون أسوأ من الأخرى ". أما أبيات بلوتوس فهي " ليس هناك من شيء من قبيل انتقاء المرأة الأفضل: لكن الواحدة أسوأ من الأخرى، يا أخي ".

27- " عذب، جرسي، صاف، نقي، يشق الهواء، ويقدح الأذن " من كتاب كونتيليان Institutio Oratoria

28- جيوفاني بوكاتشيو (1313-75) بالرغم من أن صيته ذاع كمؤلف لل " ديكاميرون " كان أيضاً جامعاً متحمساً وناسخاً للمخطوطات. أوصى بمجموعته لتوهب لدير سان سبيريتو في فلورانسة.

29- ألدو مانوتزيو (والأفضل أن يعرف باسمه اللاتيني ألدوس مانوتيوس) كان مؤسس الأكاديمية البندقية. توفي في البندقية عام 1515.

30-جبل هياميتوس في أتيكا كان مشهوراً في العالم القديم بعسله.

31- المدونة هي مجلد مخطوطة في مقابل رقّ أو ملف المخطوطة

32- جيوفاني بونتانوس (1426-1503) خلف بانورميتا كرئيس للأكاديمية النابولية

33- aes triplex " نحاس من ثلاثة أطواق ". العبارة مأخوذة من " أناشيد " هوراس(I,iii,9)

34- الاقتباسات من ال " Enchiridion"، وهي مجموعة من المبادئ السلوكية من الفيلسوف إبيكتيتوس، الفيلسوف الرواقي في القرن الأول

35- باردو يقبس من " رسائل " هوراس " بعضهم ممن لا يمتلكونها (ألوان الترف)، بينما هناك آخر لا يريد أن يمتلكها ". يرى باردو أن هوراس " يتردد " ويحاول أن يؤيد جانبي القضية عن طريق

محاولة التوفيق بين فلسفة زينون الرواقية ومبادئ إبيقور الأقل تشدداً.

الفصل 6

1- غالباً ما يصوّر الإله باخوس وهو يرتدي جلد نمر (أسد أمريكي) أو فهد. وكإله للخمرة فإنه يحمل أيضاً thyrsus، قضيب في رأسه مخروط صنوبر وإكليل من اللبلاب أو العنب. من الواضح أن جورج إليوت تفكر بتيتو على أنه باخوس أو دايونيسوس يثير إحساساً جديداً وشهوانياً في رومولا

2- الكلمة اللاتينية opicus تعني: الكثيف، الفظ، أو الغبي وبتوسيع المعنى، البربري. هكذا كان الرومان بالنسبة لباردو مقارنة باليونانيين

3- باللاتينية تعني " قصير النظر "

4- نابوليا، أو نابوليون كان الشاعر القديم لآرغوس وعاصمة أرغوليس

5- العبارة تعني " حلاقاً غير ماهر "، مأخوذة من هوراس " الرسائل "

6- " سامحني إذا كنت مخطئاً: فليفهم لغتي الدارجة بمساعدة اللاتينية من يسمعني أتكلم " من

" مورغانتي " لبولتشي

7- cicalata " الهذر أو البربرة " – حرفياً " مثل زيز الحصاد "

8- باللاتينية تعني " الجندب أو الجراد الصغير "، وقد حوّلها

بليني الأكبر إلى أنواع من الشخوص الهزلية أو الكاريكاتورية.

9- هو كريستوفور لانديـنو (1424-98) وكـان شخصـية بـارزة في الدوائر الإنسانية النزعة في فلورانسة وعضواً في أكاديمية فيسينو.

10- damigella بالإيطالية تعني الفتاة الشابة أو العذراء

11- جيوفـــاني اوريســـبا (1376-1459) كـــان تلميـــذاً لكريسولوراس. قادت رحلاته إلى اليونـان إلـى اكتشـاف أعمـال لـم تكـن معروفة في الغرب.

12-سيرياكو دي فيليبو بيزيكولي (1390-1450)سافر كثيراً فـي البحـر المتوسـط وخاصـة فـي اليونـان بحثـاً عـن جـذور الحضـارة الكلاسيكية

13- يوروتـاس هـو النهـر الـذي تقـع عليـه مدينـة اسـبارطة. Mycenae، عاصمة أغاممنون، تقع على بعد 9 أميال شمالي آثار المدينة القديمة أيضاً Tyrins في أرغوليس.

14- بونـديل مونتـي، كـاهن فلورانسـي، أرسـل مـن قبـل كوسـيمو دي ميديتشـي إلـى اليونـان بحثـاً عـن مخطوطـات لمختاراتـه ووصـف رحلته في ال "Isolario" التي أشار إليها باردو. أمبروجيو ترافيرساري (1386-1439) كـان راهبـاً مـن كامالـدولين . وكـدارس لليونانيـة قـام بترجمة الأعمال الثيولوجية إلى اللاتينية وشجع الدراسات الهيلينستية.

15- Setine تشنيع تركي لاسم أثينا

16- حسب ما ورد في الأعمال قام فيليب بتعميد الحبشي على الطريق بين أورشليم وغزة. تظهر الملاحظة جهل تيتو بالتوراة بقدر ما

تظهر ازدراءه للرهبان

17- تم تحويل البارثينون إلى كنيسة مسيحية ربما في عهد جوستينيان الأول، وإلى مسجد بعد سقوتط أثينا في يد العثمانيين عام 1456

18- وصف بوسانياس صروح إغريقيا القديمة في كتابه Periegesis، وهو وصف لسفراته التي سجلها في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس. بليني الأكبر له وصف موجز لليونان في كتابه " التاريخ الطبيعي ".

19- كان جبل هيليكون في بويوتيا مقدساً بالنسبة لعرائس الفن. وقد تفجر نبع هيبوكرين على الجبل عندما رفس بيغاسوس الأرض برجله.

20- عندما استولى الصليبيون على القسطنطينية عام 1204 أنشأوا إمبراطورية لاتينية في اليونان مقسمة إلى دوقيات صغيرة وحكمها الفرسان الفرانكيون والإيطاليون

21- مارغيتس " الأبله " هو بطل ملحمة هزلية يونانية مفقودة يرى فيها أرسطو مصدر الشعر الهزلي.

22- abnormis sapiens " رجل حكيم على نحو غريب ". العبارة مأخوذة من " هجائيات " هوراس.

23- " بنظرة قالت بصمت، " صه "، من " المطهر " لدانتي.

24- بارتولوميو سكالا كان سكرتيراً لجمهورية فلورانسة.

25-بليني الأكبر يتحدث عن فاعلية الجواهر في " التاريخ

الطبيعي "، كتاب 37

26- ترأست عائلة أوبرتي عصبة الغيبيلين في فلورانسة القرن 13. عندما اقترح في المجلس الكبير الذي عقد في عام 1260 في إمبولي أن فلورانسة يجب تدميرها عارض فاريناتا الفكرة بشدة وحزم معلناً أنه سيدافع عنها ما دام فيه رمق من الحياة، ولو كان ذلك بمفرده.

الفصل 7

1-" القصر الجميل " الواقع على بورغو بينتي بني عام 1478 من قبل جيوليانو دا سانغالو، وعاد واتخذ اسم بالاتزو ديلا سكالا.

2- جوزيف جوستوس سكاليغر (1540-1609)، ابن الأديب يوليوس قيصر سكاليغر قضى معظم حياته في فرنسا. كان ناقداً ومعلماً محترماً. أصبح أستاذا في ليدن.

3- هذا الشعر مؤلف من أبيات من أحد عشر مقطعاً. اللعب على الكلمات ثقيل هنا نوعاً ما بخصوص التفعيلة (وهي بالانكليزية فوت = قدم) والتي لها أصابع .

4- الكلمة اللاتينية culex-" بعوضة " كلمة مذكرة، رغم أنها قد تكون أحياناً مؤنثة.

5- الفيلسوف الإغريقي القديم تاليس (ولد حوالي 624 ق.م.) اعتقد أن كل الأشياء نشأت في الماء.

6- كان يعتقد سابقاً أنه من أعمال فيرجيل في شبابه، وهذا ما لم يقبل به معظم الأدباء المحدثين.في البيت 183 من القصيدة

البعوضة يشار إليها ب " humoris alumnus"

7- " لم تصب مرماها ".

8-مقبوسة بوليتيان هي من الأبيات 312-13 من الكتاب 9 من " الإلياذة "

9- " ولد بين قذارات المطحنة، وبالتأكيد يلائم تماماً المطحنة ". الإشارة تشير إلى واقعة كون سكالا ابن طحان، " حيوان نخالة " "monstrum furfuraceum"

10- " يبدو أنه " هي نهاية بيت سداسي التفعيلة. كأسلوبي لاتيني فضّل شيشرون النهاية " esse videatur" التي تكسر الإيقاع من أجل جملة نثرية.

11- " أولاء القادمون من وراء البحر "

12- " نزوة الطبيعة "

13- " حجر اليهودي " هو شكل بلوري من كبريتور الحديد، ويعرف أيضاً بماركازايت.

الفصل 8

1- تيودوليندا كانت ملكة اللومبارديين في أواخر القرن السادس. البابا سيلفيستر (314-35 م) يقال إنه جعل الإمبراطور قسطنطين يعتنق المسيحية.

2- مأخوذة من صفة استخدمها هوميروس ل: آريس – بروتولويغوس – " دمار الإنسان " في الإلياذة V,31والأوديسا 0VIII,115

3- كـــان الجويلـــف والغيبيللـــين(Ghibellines & Guelfs)عصـبتين معارضـتين بشـدة لإيطاليـا القروسـطية. وقـف ال Guelfs على العموم بجانب البابا، أما ال Ghibellines فقد وقفوا بجانـب الإمبراطـور. السـود والبـيض (Bianchi e Neri) كـانوا عصـبتين فـي فلورانسـة القـرن 14 تـم علـى أثـر نـزاعهم نفـي دانتـي. Paterini كان لقباً غير تقريظي أطلق على فرقة من ال Cathars، وأصلها من ميلانو والذين كان يُعتقد أنهم يؤمنون بمبادئ مانـي.

4- فـي النهايـة استولت فلورانسـة علـى بيـزا وأخضـعتها لحكمهـا عام 1406 بعد منافسة طويلة.

5- " العنصر الخامس ". البابا الذي كان مولعاً بالحكم البارعة كان بونيفاس الثامن الذي نوّه في اليوبيل الأول عام 1300 أن ما لا يقل عن اثنتي عشرة دولة أوربية قد بعثت بفلورانسيين كممثلين لها.

6- بخصـوص العمـل العجـائبي " العـذراء غيـر المرئيـة " فـي إمبرونيتا انظر الفصل 43 اللاحق.

7- فرانشيسكو دانجيلو، والمعروف ب: إل سيكا (1447-88) كان مشهوراً كمهندس وكمصمم مشاهد مبدع.

8- بيترو فانوتشي (حوالي 1445-1523) يعرف ب: بيروجينو مـن إقامتـه فـي بيروجيـا. عملـه المصـنوع مـن الفريسـكو الـذي يصـور الصلب وحوله القديسون موجود في سانتا ماريا مادالينا دي باتزي في فلورانسة.

9- بـدئ ببنائـه عـام 1255 كـان البـارجيللو فـي البدايـة قاعـة

بلدية فلورانسة وسجناً. من عام 1261 أصبح قصر البوديستا، لكن في عام 1574 أصبح مقر إقامة البارجيللو أو رئيس الشرطة

10- " مسرحية على اسم الدومينيكان (Domini Canes) قبلوا هم بها، وقد تم تصويرها في لوحة فريسكو رسمت لهم من قبل سيمون ميمي ".(ج.إ.)

11-هذا العمل لفرانشيسكو سي نشر في فلورانسة عام 1503. هو الان أقل شهرة مما تزعم جورج إليوت. سي ولد في فلورانسة عام 1471 وتوفي حوالي 1505. وقد عارض بشدة حزب سافوناورلا.

12-سيمون ديل بولايولو (1457-1508) ويعرف ب " إل كروناكا " من عادته في سرد القصص، كان المهندس المعمار لقصر بالاتزو ستروتزي وكنيسة سافوناورلا أل مونتي في فلورانسة.

13- " سلوك ألماني ".

14- السفراء

15- منافسة أو مقارعة

16- النعنع الفلورانسي

17- الشيطان

18- الصورة العجائبية لل، نانزياتا اشتهرت بأنها أنجزت على يدي الملائكة، ومنه الإشارة إلى " capo d'opera " الملائكية أو " الرائعة ".

19- كان ال peplos رداء خارجياً تلبسه النساء في اليونان القديمة، لكن الإشارة هنا إلى ذلك الذي كان ينسج سنوياً لتمثال أثينا

(مينيرفا) في أثينا.

20– هذه العبارة وردت في الطبعات السابقة بكافة هكذا: " وأصلها يرجع ربما إلى تجمّع عشوائي من عربة انتصار شكلها كالبرج استعارها الرومان من الإتروسكيين، ولها قطع مكافئ من الشمع الفعال لكل الأغراض، وكانت تدعى أيضاً ceri"

21– " فلتبل بوباء ".

22– " دين الله ".

23 سان أنطوني رئيس الدير، الناسك من القرن الرابع، غالباً ما يصور ومعه خنزير كرمز على التغلب على خطايا الجسد. كذلك هو القديس الشفيع لقطعان الخنازير، بالرغم من أن سي يبدو أنه يعتبر كل الرهبان خنازيراً.

24– في كل الطبعات السابقة تبدأ هذه الجملة كالتالي: " ولتوضيح هذا التعجب من قبل سي، يجب أن يُفهم أن عربة Zecca أو Mint كانت في الأصل برجاً خشبياً ضخماً..."

25– في " الفردوس XXV,5, دانتي يشير إلى فلورانسة كزريبة غنم تعودت أنا أنام فيها (Il bello ovil,dov'io dormii)

26– the eidolon، صورة أو صنم.

27– " نقابة كاليمارا. arte في هذا الاستعمال مرادفة لشركة (ج.إ.). مرة أخرى تستخدم الروائية " كاليمارا " بدلاً من " كاليمالا " كما جرت العادة.

28–ديوجين الكلبي يقال إنه طاف العالم بشمعة مشتعلة بحثاً

عن إنسان شريف.

29- تمثال " جوديث وهولوفيرنيس " نفذ في الأصل لقصر عائلة ميديتشي. وقد نقل إلى لوجيا (شرفة مسقوفة) دي لانزي عام 1506. السيد فايانو وقروده يعاودان الظهور في الفصل 10.

30- لعب على اسم " Medici " - (ميديتشي) وتعني بالإيطالية " الأطباء ". هذه العبارة لا تظهر في مخطوطة الرواية.

31- " الناطق باسم أو رئيس الجلسة ".

32- في المخطوطة أضيفت هذه الجملة في هذا المقام (لا تظهر في نص مجلة كورنهيل) " آه السكرتارية هي عش مريح، والسيد بارتولوميو مكث فيه طيلة العشرين سنة - ليس كرؤساء أديرتنا والبقية الذين لم يكد " يسخن تحتهم " (كما نقول في العامية -م) في نهاية الشهرين حتى اضطروا ليخرجوا إلى البرد ثانية ".

33- الباكتولوس، نهر في ليديا، كان يُعتقد بأنه غني بالذهب لأن ميداس قد غسل لمسته الذهبية في مياهه.

34- سيلين، إلهة القمر، وقعت في غرام الراعي إنديميون بينما كان نائماً على جبل لاتموس

35- " من اليوم الذي أصابني فيه الحب بسعاره أصبحت من خلالها نبيلاً ودمثاً ". من " مورغانتي " ل: بولتشي.

الفصل 9

1- هذه العبارة وردت في نص عام 1863 " بساطتها الملوكية أو المهيبة تلك ". من اللافت أن جورج إليوت تحذف الكلمة " ملوكية

أو مهيبة " هنا وفي الفصل 12، الفقرة الأولى، حيث العبارة الأخيرة من الجملة السادسة هي في الأصل: " رغب فيها كزوجة ملوكية، وجميلة ومحبة ".

2- " مبلغ يعطى من قبل العريس إلى العروس في اليوم الذي يلي الزواج " (ج.إ.)

الفصل 10

1- ragazza " فتاة "

2- جورج إليوت تستخدم التسمية القديمة مكان الشائعة اليوم " زوج الأم ".

3- " شيء صغير تافه ".

4- علامة الوشاح الأصفر. أكرهت العاهرات على ارتداء إشارة ظاهرة تدل على مهنتهن

5- " Nencia da Barberino" للورينزو دي ميديتشي يحكي قصة حب فلاح شاب، فاليرا، لحبيبته Nencia. ثيوكريتوس، الشاعر اليوناني من القرن الثالث ق.م. أسس في "رعوياته " لأسلوب الشعر الرعوي اليوناني واللاتينني اللاحق.

8- معطف قصير يغطي الكتفين، في هذه الحالة جزء من الرداء العادي لراهب دومينيكاني.

الفصل 11

1- وردت في المخطوطة جملة محذوفة: " لنيل أفضل نتيجة من قبل سعيد الحظ – هب أن التضحية انتهت بأقصى خير ممكن

يحظى به بالداسار، فما مقدار ذلك الخير أو السعادة بالمقارنة مع إمكانيات السعادة المتوافرة لتيتو. لقد كان خياراً بين نبتة نثرت بذورها ونبتة تنتج مائة رأس ".

2- nidus- باللاتينية " عش ".

3- جورج إليوت ترجمت هذه المقطوعة من " يومينيدس(II,517 وما يلي) " لأسخيلوس.

الفصل 12

1- وردت مقطوعة في المخطوطة حذفت هنا " بكل الكياسة التي تعود لفطنة طبيعة ومكتسبة، مع محبة العشرة الجاهزة وغير المؤذية والتي تنتمي لطبيعة رائقة المزاج، كان ما يزال لديه..."

2- باردو يشير إلى هوراس في " هجائياته ". العبارة palma non sine puluvere " لا نخيل بدون غبار " أو " لا مكافأة من دون تعب " – ذهبت مضرب المثل.

3- المقبوسة هي من مقطوعة صغيرة للشاعر اليوناني القديم هيسيود.

4- أطروحة ملحقة بعمل أدبي.

5- دوميتزيو كالديرينو (حوالي 1447-78) كان أستاذ البلاغة في روما ومحرراً مشهوراً للنصوص الكلاسيكية برغم أن ثقافته قد تعرضت لانتقادات بوليتيان.

6- كان فالا، رغم عدائيته الإنسانية النزعة للكنيسة، تحت حماية الكاتب الإنساني الكبير البابا، نيقولاس الخامس، وعين أخيراً

سكرتيراً رسولياً. وقد تركز عمله في هذا المنصب على ترجمة ثوسيديدس إلى اللاتينية. والحكمة التي تقبسها جورج إليوت عن فالا طبعت عام 1494

7- scholia " حواش أدبية "

8- Niello يتشكل من حفر على قاعدة ذهبية أو فضية، وملء النموذج المحفور بخليطة من الرصاص، والفضة، والنحاس، والكبريت. وعندما يجري تلميع التركيب يظهر النموذج ذو اللون الأسود بوضوح على خلفية ساطعة.

9- cieli! أيتها السماء!

10- Piagnoni " الحزانى في مأتم: حزانى مدفوعات الأجر بالشكل اللائق (ج.إ.)

11- ينزوتشيرا " أخت من مرتبة الكهنوتية الثالثة لرهبنة سانت فرانسيس: راهبة لا تعزل نفسها في دير (ج.إ.)

12- كان ساتشيتي شاعراً وقاصاً فلورانسياً معروفاً في أواخر القرن 14

13- O misericordia! الرأفة بنا!

14- " يطلق الاسم على الشخوص القبيحة ذات الوجوه السود التي كان يعتقد أنها تمثل المجوس، وكانوا يطوفون بها أو يضعونها في النوافذ في الليلة الثانية عشرة: محرفة عن كلمة Epifania " (ج.إ.)

15- fu tutt'uno " كلها في وقت واحد "

16- " ابنتي الصغيرة ".

الفصل 13

1- Mora أو morra تُلعب عادة بلاعبين، إذ يحزر أحدهما كم إصبعاً خبأ الآخر. ويبدو أن جورج إليوت لم تكن واضحة في إشارتها إلى هذه اللعبة الإيطالية الرائجة.

2- " ما أجمل الشباب في ريعانه!
سريعاً يفر – أبداً يفر،
أي من ابتغى المرح – فليكن له!
فالغد غير مضمون."

أنشودة كارنفال للورينزو دي ميديتشي

(ج.إ.)

3- ينسب نيلو شعراً بجناس استهلالي إلى أحد شعراء التروبادور (un Trovatore)

4- دانتي في " المطهر " (XXI,37) " وعن طريق سؤاله لي فقد أدخل الخيط في سمّ إبرة رغبتي "

5- ابن لورينزو الثاني، جيوفاني، رُسم في عمر السبعة وأصبح كاردينالاً في عمر الثلاث عشرة. انتخب بابا ولُقّب ب: ليو العاشر عام 1513

6- برناردو (1470-1520) ساعد بوليتيان كمعلم للصبي

جيوفـاني دي ميديتشـي. وعنـدما أصـبح الأخيـر بابـا عـيّن برنـاردو كاردينـالاً من قبل تلميذه السابق. صورته من رسم رافائيل أشير إليها في الفصل 20

7- Admetus، ملك Pherae، فاز ب Alcestis كزوجة له عن طريق الوصول إلى بلاط أبيها استجابة لتحدٍّ، في عربة يجرها أسد ودب.

وكانت ال Pleiads بنـات أطلس السبع وتحـولن إلـى السماء كنجمات بعد موتهن.

8- " المعرض الصغير " (ج.إ.)

9- ربما هذه إشارة إلى النبيـة حنـة التـي تنـاهز الرابعة والثمانين من العمر والتي ذكرها القديس لوقا(II,V.36) أكثر مما هي إشارة إلـى القديسة حنة التي كانت والدة مريم العذراء.

الفصل 14

1- البيرلينغوزو هي كعكة حلقية الشكل

2- " الله معك " أو، ببساطة أكثر " يوماً سعيداً لك "

3- كـلا السيد فايـانو والروائيـة يسـخران بشـدة فـي تلميحهمـا بـأن رودريغو بورجيا انتخب بابا عام 1492 " نظراً لورعه الفريد ".

4- acolyth الآن شـائعة ك " acolyte "، مسـاعد الكـاهن، أوالقندلفت

5- الموريون " الخوذة العالية " هي خوذة بدون واقية أو لفاع

6- فقط اثنتـان من لوحـات الفريسكو فـي Chiostrino del

Voti فـي s.s.Annunziata هما فـي الواقـع من رسـم أنـدريا ديـل سارتو- " رحلـة المجوس " من عام 1511 و" ولادة العذراء " من عام 1513 إلى 1514. وقد سقف الرواق بالزجاج عام 1833

7- رقية الحظ السعيد، هنا المرجانة التي أعطاها تيتو إلى تيسا في الفصل 10

8- the boto هي تقدمة يوفى بها كنذر

الفصل 15

1- كـان هـذا لا يـزال مطبقـاً عنـدما زارت جـورج إليـوت وج.هـ.لويس الدير أيار 1860. كل أوصـاف جورج إليوت لدير سان مـاركو مبنيـة علـى ملاحظـات قدمها لـويس فـي المكـان، ونسخت فـي دفتـر الملاحظـات الخـاص ب " رومـولا "، وهـو الآن فـي المكتبـة البريطانيـة. أصـبح الـدير علمانيـاً عـام 1869 وهـو الآن متحـف سـان ماركو

2- الجملـة تستمر هنا فـي المخطوطـة " ومدّثر بردائـه الأبـيض والمسبحة السوداء تتدلى على جانبه والرداء الأسود يحيط بـه من كل جوانبه " (محذوفة)

3- "شعور قوي في طبيعة رومولا " محذوفة في المخطوطة.

4- سـان بينـديكت مـن نورسـيا (حـوالي 408-547) بطريـرك الرهبانية الغربية، يقال إنه كبح الإغراء عن طريق التدحرج عارياً وسط الأشواك.

الفصل 16

1- a sbirro: شرطي

2- " ليس خطيباً، بل فلاحاً "، العبارة لفيليلفو

3- الإشارة إلى " مورغانتي XXVII,101" لبولشي

4- إشارة تهكمية لحصان الأسكندر الأكبر

5- في قصة بوكاتشيو، سيمون هو طبيب مختال لكن ثري يتعرض لمقالب عملية لعبها عليه الفلورانسيون الشباب. وأخيراً يلقى به في خندق للصرف الصحي (ديكاميرون، اليوم الثامن، الرواية 9)

6- " عليه المديح والتقريظ! "

7- مرض يصيب الجياد

8- batrachian من فصيلة الضفادع

9- أنطونيو بينفيني (1443-1502) طبيب فلورانسي مشهور وكاتب في المسائل الطبية.

10- الطبيب اليوناني أبوقراطHippocrates (حوالي 460-377 ق.م.) يعتبر غالباً " أبو الطب " ومن مبادئه في أخلاقيات الطب نشأ ما يعرف ب " قسم أبيقراط ". والطبيب اليوناني – الروماني Galen (130-200 م) كتب خمسمائة مقالة طبية بقي منها مائة وثمانون. وقد ترك عمله تأثيراً كبيراً على طب القرون الوسطى. أبو علي الحسين بن سينا (980-1037)، الطبيب العربي العظيم، كان له تأثير أكبر حتى على كل من أبيقراط أو جالين في السنوات الخمسمائة بعد وفاته

11- سان ستيفين، شهيد المسيحية الأول، رجم بالحجارة في

أورشليم. كان القديسان كوزماس وداميان أخوين وطبيبين استشهدا في آسيا الصغرى في عهد ديوكليتيان. هما شفيعا الأطباء وبالتالي عائلة ميديتشي.

12- lasso! وا أسفاه!

13- فرانشيسكو ستابيلي، ويعرف ب: داسكولي من مسقط رأسه، (1269-1327) درّس علم النجوم في بولونا حتى طرده من المدينة عام 1324. التجأ إلى فلورانسة لكنه أوغر صدر أعدائه واتهم بالهرطقة وأحرق. قصيدته L'acerba هجوم حاد على"كوميديا" دانتي

14- tussis ، باللاتينية " سعال ".

15- bimbo " طفل "

16- وفقاً لملاحظة لجورج إليوت في دفتر ملاحظاتها على " رومولا " في المكتبة البريطانية، اخترعت النظارات من قبل سالفينو دارماتو. ومن المعتقد عموماً أن النظارات كان بالفعل منشؤها في فلورانسة، دون أن يعقد اللواء لمخترع واحد بعينه.

17- " الحصان! " الشيطان! "

18- راية تمنح للفائز في سباق للأحصنة في فلورانسة.

الفصل 17

1- الصوفية. منهج فلسفي يبني معرفته عن الطبيعة على افتراضاته المتعلقة بطبيعة الله.

2- " ذهن الفلورانسي ثاقب جداً ". تيتو يقبس من رسالة لفيليلفو إلى كاردينال بولونا عام 1432.

الفصل 18

1- " إذن " أو " حسن "

2- السكارسيلا " محفظة أو جزدان "

3- كثير من نزوات بييرو الغريبة مستقاة من وصف فاساري لحياته

4- انظر " المتحولات " III,660,ff. في الواقع يعقد زواج باخوس وأريادن في الكتاب VIII، لكن جورج إليوت تدمج بين قطعتين بما لا يخلو من دلالة، الأولى تعالج انتصار الإله على المتاجرين بالرقيق الأبيض في البحر.

5- Maenads كن معبودات باخوس اللواتي امتلكهن الإله. وحسب الأسطورة سانت مارغريت ابتلعها التنين (رمزها في الفن). لكنه تقيأها عندما رسمت إشارة الصليب.

6- هذه الصورة يصفها فاساري. ويكاد يكون من المؤكد أنها على منوال صورة بوتيشيلي عن نفس الموضوع في الغاليري الوطني، لندن، رغم أنه لا يوجد أرنب في صورة بوتيشيلي.

7- انكفأ أوديب الذي أصيب بالعمى مع ابنته أنتيغون إلى كولونوس في أتيكا. بعد موت والدها عادت أنتيغون إلى طيبة.

8- كلمة غامضة ربما تعني " إنك تمزح " أو " لا إطلاقاً ".

الفصل 19

1- Agnolo Firenzuola (ولد في فلورانسة عام 1493)

2- الشياطين

الفصل 20

1- هذا الفصل عنون سابقاً " إخفاء الصليب " لكن جورج إليوت استبدلت به العنوان الحالي في المخطوطة

2- برناردو دوفيزي، رسم كاردينال دا بيبينا من قبل ليو العاشر، يظهر أولاً في الفصل 13 (انظر حاشية 6). رسم رافائيل لصورته موجود في بيتي غاليري في فلورانسة.

3- بني جسر روباكونتي، الآن يعرف بجسر ألي غرازي، عام 1237 من قبل البوديستا الميلاني روباكونتي دا مانديلا. دمرت المنازل والمعابد التي زينت الجسر فيما مضى عندما تم توسيعه عام 1870. وقد تم نسف الجسر نفسه عام 1944.

4- غرفة الاستقبال

5- مايكل إنجلو، الذي اسم عائلته بوناروتي، كان عمره 18 في عام 1493

6- " يا مليكتي "

7- ليوناردو بروني، وليس برونو، (1370-1444) عين مستشاراً لدى الجمهورية الفلورانسية من قبل كوسيمو دي ميديتشي، واشتهر لترجماته اللاتينية لأفلاطون، وأرسطو، وديموستين، وبلوتارك. واشتهر لمؤلفه " تاريخ فلورانسة ". تعني جورج إليوت بكلمة " بينيدكت " رجل متزوج حديثاً ". التسمية مشتقة من بينيدك لشكسبير في " جعجعة بلا طحن "

8- الخطيبان

9- واحد من المزامير التكفيرية، وبشكل خاص المزمور 51 والذي يبدأ بعبارة " ارحمني، ياالله "

10- وصف قناع الزمن والموت مشتق من وصف فاساري للطوافات الرائعة المصممة للكارنفال الفلورانسي من قبل بييرو دي كوسيمو.

الكتاب الثاني

الفصل 21:

1- أي قصر الميديتشيين، الآن في قصر ميديتشي – ريكاردي. فيا لارجا تعرف الآن ب: فيا كافور

2- نوع قديم من البنادق المحمولة.

3- اعتبر المؤرخون الفلورانسيون الأوائل، وخاصة فيلاني، شارلمان أنه أعاد بناء فلورانسة في القرن 9 بعد تدميرها من قبل القوط الغزاة.

4- سايروس الأكبر، إمبراطور بلاد فارس، سمح لليهود المنفيين بالعودة إلى أورشليم لإعادة بناء المعبد بعد أن غزا بابل عام 538 ق.م. وهذا مسجل في كتاب عزرا.

5- الملك المسيحي الأول: منح هذا اللقب ل: لويس الحادي عشر الفرنسي من قبل البابا بولص الثاني عام 1469 واستعمله كل خلفائه.

6- ذاك الذي يمثله النموذج أو الرمز

7- سافونارولا يقبس من التكوين 6، 17، تحذير الله لنوح قبل

أن يبعث بالطوفان.

8- إشارة إلى بابا بورجيا، إلكسندر السادس

9- في مخطوطتها حذفت جورج إليوت الجملة التالية: " وقد رأى إيمانه معكوساً في الرؤى، والإيمان الذي نشأ بداخله كان بحد ذاته دعوة لإعلان الحريق القادم، ودعوة الناس للتوبة "

10- استلمت عائلة سفورزا مقاليد السلطة في دوقية ميلانو عام 1447. أول دوق من العائلة، فرانشيسكو، خلفه عام 1466 ابنه غاليتزو الذي اغتيل عام 1476 وخلفه بدوره ابنه ذو السبعة أعوام جيان غاليتزو. وهذا سلبه حكمه عمه الطموح لودفيكو عام 1479. هدد فردريك، ملك نابولي، بالتدخل المسلح لصالح جيان غاليتزو. ورداً على ذلك ناشد لودفيكو سفورزا ملك فرنسا الذي كان له مطامع وراثية في العرش النابولي، كي يؤكد حقوقه في إيطاليا الجنوبية. وعليه ففي عام 1494، كما تصف الرواية، عبر تشارلز الثامن جبال الألب.

11- جيوليانو ديلا روفر، فيما بعد البابا يوليوس 2

12 -حذفت مقطوعة في المخطوطة.

13- ضرورة توبة نينوى وعظ بها بدون رغبة النبي يونان

14-توجد في المخطوطة عبارة إضافية " لكن هنا، ورغم أن الإيمان بدعوته السامية كان أقوى من أي مكان آخر..."

15- هذا التصرف الغريب قام به قيصر بورجيا.

الفصل 22

1- المشهد الذي وُصف في الفصل 1

2-Galli. اللعب القديم بالكلمات على الكلمة Gallus التي يمكن أن تعني شخصاً من بلاد الغول، وديكاً صغيراً.

3-خارت البقرة العجوز " La vacca muglia" كانت العبارة لقرع الجرس الكبير في برج قصر فيتشيو (ج.إ.)

4- " حسناً! "

5- الحرفيون المتصلون بتجارة الصوف

6- كان لورينزو، وهو عضو في الأسرة ذات النفوذ المتصلة عن طريق الزواج مع الميديتشيين، كما تسرد القصة، قد أعدم مع برناردو ديل نيرو عام 1497 بعد كشف مؤامرة إعادة الميديتشيين.

7- رغم أن نابولي كانت تحت الهيمنة الاسبانية في فترة طفولة تيتو، فقد احتفظ الكثير من النبلاء النابوليين بثقافتهم الفرنسية.

8- أضيفت هذه العبارة فيما بعد إلى المخطوطة.

9- حذفت هنا جملة في المخطوطة فحواها: " أصبح أكثر ألقاً نتيجة النظرات الرصينة التي كانت تتركز عليه. لكن عندما وصلت المجموعة... "

الفصل 23

1- مقاطعة شمالية سابقة من توسكاني

2- أضيفت جملة هنا في المخطوطة، ثم حذفت، وفحواها: " إلى هذا المأزق آل تيتو عن طريق اختياره السهولة الأنانية التي كانت بدت منذ ثلاث سنوات خلت مبررة جداً. كان بإمكانه أن يفكر برضى بالبؤس الحاد الذي شاب قسمة الرجل الذي أعزّه ".

الفصل 24

1- في الطبعات الأولى للرواية وصفت جورج إليوت على نحو خاطئ سافونارولا بأنه " راهب دومينيكاني "

2- Shekinah أو Shechinah هي الكلمة العبرية للتجلي المرئي للجلال الإلهي، وخاصة للنور الذي ثوى بين الشيروبيم فوق " مقعد الرحمة " – الغطاء الذهبي للفلك (سفينة نوح) – في معبد سليمان.

3- انظر آموس .3,v,7

4- Phinehas & Hophni، الولدان المستهتران ل Eli، ذبحا في معركة Ebenezer عندما استولى الفلسطينيون القدماء على الفلك الذي كانا يحرسانه (انظر 1 صاموئيلv,ii, 4)

5- في أيام تدمير أورشليم حدثت هدنة. في عام 66 م في عهد الإمبراطور نيرون، انتفض اليهود ضد روما. وقد نجح فيسباسيان الذي أرسل لقمع الانتفاضة، في إخضاع معظم فلسطين في غضون 18 شهراً، باستثناء أورشليم وبعض المعاقل النائية. وقد سببت وفاة نيرون، واعتلاء فيسباسيان سدة الحكم فيما بعد تأخيراً في الحملة. لم تسقط أورشليم حتى نيسان سنة 70 م. عندما دمرها تيتوس.

6- جملة محذوفة في المخطوطة تنص هنا: " في هذه الكلمات الأخيرة ارتفع صوت سافونارولا إلى أقوى نبرة ".

7- سافونارولا يلمح إلى يشوع 7 حيث يتحدى بعض الإسرائيليين الحظر المفروض على جلب البضائع من المدينة الملعونة

مدينة أريحا إلى داخل المعسكر وبالتالي يستحضرون اللعنة على أنفسهم 8- العظة هنا ليست ترجمة بل تصويراً حراً لوعظ الأخ جيرولامو في أشد لحظاته عاطفية (ج.إ.)

الفصل 25

1- لوحة " انتصار باخوس " التي أوصى عليها تيتو. بينما كان بييرو منشغلاً أيضاً في رسم رومولا كأنتيغون فإنه يلمّح بشكل دال إلى عدم ملاءمة زواج يعقد بين باخوس وأنتيغون. تظهر ملاحظته بعض الاستبصار في شخصيتي تيتو ورومولا والمستقبل الذي ينتظر زواجهما.

2- توماسو دي سير جيوفاني دي مون لقب ب " ماساتشيو". وعلى المؤكد فإن جورج إليوت تفكر بلوحات ماساتشيو الفريسكو في معبد براناتشي في سانتا ماريا ديل كارمين في فلورانسة.

3- أي ينظر بعض الفلورانسيين إلى سافونارولا ككاهن ومشّرع معاً

4- باولانطونيو سوديريني (1448-99) عمل كديبلوماسي لصالح لورينزو دي ميديتشي. كان نصيراً بارزاً لسافونارولا ومدافعاً عن الحكومة الشعبية في فلورانسة.

5- عمل كابوني، شأنه شأن سوديريني، ديبلوماسياً لدى لورينزو دي ميديتشي، لكن بعد وفاة لورينزو دافع بقوة عن الجمهورية ضد مطالب الميديتشيين. جوابه الجسور على تشارلز الثامن مسجل في الفصل 29. مات بييرو في قتاله ضد ثوار بيزا عام 1496

6–فرانشيسكو أكورسو (أو باسمه اللاتيني أكورسيوس)1182–1260) كان أستاذاً للقانون في بولونا. كتابه المشهور " البريق العظيم " هو تعليق على القانون الروماني.

7– لوقا كورسيني (1462–1511) محام وأحد أفراد عائلة فلورانسية بارزة، كان متحمساً ضد الميديتشيين. وقد اختير ليقرأ الخطبة اللاتينية التي ترحب بتشارلز الثامن المذكورة في الفصل 21.

8–باتشيو ديلا بورتا (1475–1517) يعرف بشكل أفضل من اسمه الديني، الأخ بارثولوميو. بعد القبض على سافونارولا وإعدامه نقل ليلتحق بالأخوية الدومينيكانية. إشارة جورج إليوت هي لصورة الفريسكو التي تمثل العذراء والطفل في معبد سافونارولا في سان ماركو والتي نوه ج.هـ.لويس بأنها تمثل " طفلاً أكثر حياة ونبلاً من أي طفل آخر باستثناء أطفال رافائيل في كنيسة سيستين ".

9– بينيفييني، ولد عام 1452، كان، كما تذكر الروائية، صديقاً لبيكو وشاعراً دينياً. دفن في سان ماركو بجانب بيكو وبوليتيان.

10– ريدولفو سبيني كان قائد الكومباناتشيين Compagnacci (" الصحبة الأشرار ")، وهم عصبة عنيفة من الحزب الأرستقراطي الذي كان معادياً للميديتشيين ولسافونارولا. سيظهر لاحقاً في حظوظ تيتو اللاحقة.

الفصل 26

1– يمكن ترجمة العبارة: " كان منظراً رائعاً "، وهي مأخوذة من " التاريخ " لكاتب اليوميات القديم جيوفاني كامبي.

2- وفقاً للتقارير الباقية عن المناسبة الخطاب المرتجل بالفرنسية ألقي من قبل غادي. على أنه من المثير أن جورج إليوت تستخدم الحادثة لتوحي بمهارة تيتو في ارتجال خطاب وعدم حرصه الأخرق عندما سمح لأن يأخذ غادي السمعة الحسنة لذلك.

3- نيقولو غروسن، ويعرف بكابارا، اشتهر لمهارته كحداد.

الفصل 27

1- الجملة في الأصل كانت " لم يكنّ بالزوجات القليلات أولئك اللواتي تطلب حضور أبيهن تضحيات مستمرة " (حذفت من المخطوطة)

2-تشير إلى حق الحجز على الممتلكات ريثما يتم دفع الدين

3- Pnyx هي هضبة تقع غرب الأكروبوليس، وكانت مكاناً للاجتماع العام في أثينا القديمة شأنها شأن الساحة العامة forum في روما القديمة

الفصل 28

1- حلويات أو سكاكر

2- "روح من يقطع وعداً ولا يفي به لا تفلح أبداً "

3- لم أستطع الحصول على مصدر لهذا " الدب في المثلproverbial bear ". " بيضة الإوز" هي نوع من الكمثرى pear.

الفصل 29

1- بوليتيان توفي في أيلول 1494 وبيكو في ت2 من العام

نفسه. ال Malebolge ("حفر الشر" (بالإيطالية) تشكل الدائرة الأدنى في جحيم دانتي. (انظر الجحيم XVIII-XXX)

2- رومولا تقابل المتعصبة كاميلا في الفصل 52

3- " حسن " أو " حسناً فعلت " باليونانية ثم باللاتينية

4- حسب الأسطورة عندما هربت ديدو من صور إلى شمالي أفريقيا وافق الملك إيارباس على بيعها من الأرض ما يستطيع جلد ثور أن يحيط به. قطّعت ديدو جلداً في شرائح رقيقة وعن طريق ربطها ببعض أحاطت بما يكفي من الأرض لإشادة القلعة التي ستصبح قرطاجنة.

5- حسب لوقا 23، 7-12) بيلاطس أرسل يسوع إلى هيرودس وقد ارتاح لأن أبناء الجليل ينضوون تحت سلطة هيرودس. أما هيرودوس، وقد خاب أمله لأنه لم يجد شيئاً خطيراً على يسوع، فقد أعاده إلى بيلاطس. يعني المواطن أن كابوني لا يعرف كيف يتحمل شك وتردد الأمراء.

6- رفقاء بييرو كابوني المبعوثون، الذين أرسلتهم الجمهورية الفلورانسية إلى الملك الفرنسي تشارلز الثامن

الفصل 30

1- جملة محذوفة في المخطوطة تنص هنا: " هلا يقول أي من درسه بعناية " يحتمل تماماً أنه يهذي؟ "

2- تاجر حصر وسجاجيد بالية

3- Oltrano ضاحية من ضواحي فلورانسة إلى الجنوب من

نهر آرنو (حرفياً " على الضفة الأخرى لنهر آرنو ")

الفصل 31

1- " السيدة كبرياء "

الفصل 32

1- من مريدات باخوس الإناث

2- أي حزب سافونارولا الجمهوري، والميديتشيون، والأرابياتي الذين عارضوا الحزبين السابقين

3- وافق الفلورانسيون على دفع 00 0120 فلورين ذهب إلى الملك الفرنسي مقابل إعادة القلاع الثلاث التي استولى عليها وللمساعدة في الحملة التي شنت لاستعادة السيطرة على بيزا. وقد حدث أن تشارلز لم يحترم ما تعهد به في الاتفاق.

4- جملة محذوفة في المخطوطة تنص: " شَعَرتْ بصدمة دهشة واستغراب جعلتها تصير باردة تماماً ".

5- تعني جورج إليوت هنا اسم العائلة أكثر من اسم والدها الأول. لقد صححتُ الاسم ليصبح "باردي "

الفصل 33

1- وصفت جورج إليوت في مخطوطتها هذا القول بأنه " ذهب كمثل "

2- الفصح

3- عيد ميلاد مريم العذراء، في 8 أيلول

4- يسوع

الفصل 34

1- فيليبو ليبي (حوالي 1406-69) أصبح من أخوة الكارميليت عام 1421 لكن رغم نذوره كان له ابن، فيليبينو، من راهبة تزوجها فيما بعد. وكذلك شب فيليبينو ليصبح رساماً. ليبو هو موضوع أحد أجمل مونولوجات براوننغ المسرحية.

" الملائكة الشغوفة " يمكن أن تعني أولئك اللواتي يظهرن في " تتويج العذراء "، وهي صورة ذكرها فاساري وقد تكون جورج إليوت قد شاهدتها في الأكاديميا ديل بيل آرتي (أكاديمية الفنون الجميلة) في فلورانسة.

الفصل 35

1-انظر " الليلة الثانية عشرة " II، 3، 114-17

سير توبي: هل تظنّ أنه لسبب أنك فاضل لن يكون هناك المزيد من الكعك والجعة؟ "

المهرج: أجل، وحق سانتا آن، وسيكون الزنجبيل حاراً في الفم أيضاً "

2- " Se vi pare che io abbia ditto poche cose,non ve ne maravigliate,perche le mie cose erano poche e grandi." (ج.إ.)

الفصل 36

1- في الأصل paean كانت أنشودة نصر تنشد لأبولو لكنها أصبحت بصورة أكثر عمومية أغنية أو صيحة ابتهاج

2- في المخطوطة جملة تقع هنا نصها: " قوانين الجواهر هي غالباً غير ملائمة، نحن نرتكب خطأ طفيفاً بإزاء الجرار والبوتقات، شيء ما خفيّ يفلت، ذاك الذي كان لينا ومطواعاً يصبح صلداً كالصخر... "

الفصل 38

1- جيوفاني برناردو روسيلي (1448-حوالي 1514) كان تزوج نانينا دي ميديتشي ببهرج وأبهة عام 1446. وبعد الحفل أُولم 170 ضيفاً في صحاف من الذهب والفضة على طاولات وضعت في لوجيا روسيلي، ووضعت خيمة باذخة على الساحة المجاورة لحماية الراقصين من الشمس.

" الكتاب الممتاز والمفعم بالعلم " المذكور من قبل جورج إليوت هو (De Urbe Romana" لبرناردو روسيلي

2-الأوسونيون Ausonians هم قاطنو إيطاليا الوسطى والسفلى. على أن الصفة الشاعرية اللاحقة " أوسونيان " استخدمت لتدل على الثقافة الرومانية والإيطالية.

3-- انظر ملحق أ

4- وتعني الفصل الثاني والعشرون من الكتاب الرابع (الذي يصف شعب ميسين في البيلوبونيز) من كتاب Periegesis من المؤرخ والرحالة في القرن الثاني، بوسانياس.

5- وفقاً لبوسانياس، كان أرستقراط ملكاً آركادياً وقد تحالف مع أهالي ميسينا ضد إسبارطة. وقد تمت رشوة أرستوقراط من قبل

الاسبارطيين ، وعندما فر من ساح المعركة جلب الهزيمة المنكرة لحلفائه. وعندما انكشفت خيانته بعد عدة سنوات ثار شعبه ضده ورجموه حتى الموت، ورموا بجثته خلف الحدود. وقد نصبوا لوحة منقوش عليها " الحق أن الزمن قد أعلن العدالة على ملك غير عادل وبمساعدة زيوس انكشف بسهولة خائن ميسين. صعب على إنسان أقسم يميناً كاذبة أن يختبئ من الله. سلاماً، أيها الملك زيوس، ولتحفظ آركاديا من كل شر ".

إن القصة بتشديدها على العدالة المنتقمة لا بد أنها استهوت جورج إليوت كثيراً، ومما له دلالة أن يقع بالداسار على قطعة تتطرق إلى الثأر الذي ينزل بخائن.

6- hecatomb أضحية كبيرة

7- تستمر المخطوطة على هذا المنوال " الحظ واتاه. وعند وقوفه تحت لوجيا أوركاجنا يراقب مغادرة تيتو للقصر سمع بعض السياسيين يناقشون إجراءات الحزب. كان حديثهم يدور بقوة ضد الميديتشيين وكان قاسياً على نحو خاص بحق العشرين المنتخبين المشتبه بأن لهم ميولاً ميديتشية ."

الفصل 39

1- في الأصل عنونت جورج إليوت الفصل " عشاء سياسي في جنائن روسيلي "، لكنها حذفت في المخطوطة الكلمة " سياسي ".

2- " سيدتنا سيدة الاحتفالات والقديس خمر جيد "

3- هناك خلط في التاريخ، ففي صفحة 22 حدثت احتفالات الأكاديمية الأفلاطونية في 13 ت2، وفي صفحة 37 تنوه بميلاد ووفاة أفلاطون بأنهما في 7 ت2

4- المهندس المعمار الفلورانسي المشهور ليون باتيستا ألبرتي (1404-72)

5- عادة الأكل بالشوَك يبدو أنها نشأت في إيطاليا أواخر القرن 15

6- أنطونيو بينشي، ويعرف ب: بولايولو (حوالي 1431-98) وأخوه بييرو يعتقد أن كليهما عملا كرسامين.

7- ماتيو فرانكو (1447-94) شاعر توسكاني ساخر انخرط في أشعار تهجم فيها على لويجي بولتشي وقد شجعه راعيه، لورينزو دي ميديتشي.

8- dithyramb هي بالأصل أنشودة كورالية يونانية على شرف دايونيسوس، لكن المصطلح يستعمل عموماً لوصف أنشودة، أو قصيدة أو خطاب عاطفي جداً

9-أبيسيوس: ماركوس غابيوس أبيسيوس كان ذوّاقة طعام وشراب رومانياً شهيراً عاش في عهد تايبيريوس.

نوهت جورج إليوت إلى ظهور " طاووس مسلوق بريشه " في دفتر ملاحظاتها على "رومولا".

10- اقتبس تيتو من هوراس. ربما الهجائيات II,ii,27 حيث يشير هوراس إلى حماقة الاعتقاد بأن الطيور الغريبة مذاقها أفضل. "

ترجمة نص هوراس: " أتستطيع أن تأكل ذلك الريش الذي تعجب به أيما إعجاب؟ هل يمكن إعطاء التكريم نفسه إلى (طاووس) عندما يكون مطبوخاً؟"

11- رؤساء الأديرة (انظر ملحق أ)كانوا ينتخبون بالاقتراع بحبات سود وبيض.

12- يكون الشخص شاغلاً لرتبة كنسية in commendam عندما يكون نظرياً في حكم المستقيل حتى يتم العثور على شاغل دائم للمنصب. وعملياً كان هذا يعني غالباً أن إنساناً عادياً، أو كاهناً مستفيداً من دخل رتبة كنسية كان يحتفظ بدخل ثان مدى الحياة دون أن يتسلم مقاليد المنصب.

13-كل الطبعات السابقة للرواية تقول هنا " وأن يتصرف المرء مرة واحدة بنبل ليبدو سبباً يجعلنا جميعاً نسعى لأن نكون نبلاء "

14- نبيذ من منطقة مونتبلوسيانو، جنوب فلورانسة.

15- " دع الجميع يتبعوك، يا باخوس. باخوس باخوس، هورا، هورا! " (هذه صيحة فرح-م)

16- عقيق شديد الاحمرار.

17- " أكبر سجن في فلورانسة " (ج.إ.)

الفصل 40

1- كانت جورج إليوت قد استعملت الكلمة " علوي، سماوي " بدلاً من " متعالٍ "

2-لا ترد هاتان الكلمتان في المخطوطة.

الفصل 41

1- الصحيح سيلفيسترو. من أقرب مساعدي سافونارولا غير المحبوبين، وقد كتب له أن يقاسي مع سافونارولا والأخ دومينيكو عام 1498.

الكتاب الثالث

الفصل 42

1- ابن تشارلز الثامن، تشارلز أورلاند، توفي في ربيع 1496

2- في المخطوطة تنص الجملة الافتتاحية لهذه الفقرة: " كان الثالث عشر من الشهر، ومع ذلك ففي الوقت الحاضر لم يكن هناك أية علامات على الإغاثة ".

3- ال braccio الفلورانسي بلغ..583 م. المقابل الإنكليزي له قد يكون " ثلاثة أو أربعة أقدام ".

4- نبيذ أبيض مزّ.

5- الواقع أن سان فرانسيس هو من وعظ على الطيور. يقال إن سان أنطوني من بادوا قد وعظ على السمك، بعد أن أخفق في التأثير في هراطقة ريميني.

الفصل 43

1- عُنون الفصل مؤقتاً " الأم غير المرئية "، وحلت محلها الكلمة " مادونا =السيدة العذراء " في المخطوطة

2- عبارة محذوفة في المخطوطة تنص هنا: " التي آلت إلى امتلاك الكنيسة الكبيرة ودير أنانزياتا برغم أنها تأسست بطريقة

متواضعة جداً ".

3- سان زينوبيوس الذي توفي عام 424 م كان رئيس أساقفة فلورانسة، وأحد القديسين الشفيعين للمدينة. وساد الاعتقاد أن صلوات زينوبيوس قد أنقذت فلورانسة من القوط عام 405. ووعاء المدخرات الدينية الذي يحوي رأس القديس يحفظ عادة في الكنيسة.

4- انظر الفصل 1، حاشية 10

5- كما في الفصل 26 تُظهر جورج إليوت تيتو يرفض أن يقبل ثناء يسبغ عليه لقاء عمل بارز يمس المصلحة العامة، ويدع شخصاً اسمه مدوّن من قبل المؤرخين المعاصرين يظهر عوضاً عنه.

الفصل 44

1- جملة في المخطوطة تنص هنا " كان مستحيلاً على طبيعتها أن تكون غير عاطفية وكل عاطفتها الآن تركزت في إحساسها بالمصير المشترك الذي شاركت فيه ".

2- المقبوسة من " رسائل " سان جيروم يمكن ترجمتها كالتالي: " الصوت الحي فيه قوة كامنة، ويصدر قوياً من فم المتكلم إلى أذني تلميذه."

الفصل 45

1- كل الطبعات السابقة تورد ما يلي: " برناردو لم يكن عنده شيء واضح يزعمه.."

2- جملة محذوفة في المخطوطة تنص: " لا بد أن لا أحد يستطيع أن يبرهن أنه في اليوم الذي عاد فيه من بيزا سعى إلى لقاء

خاص مع أي شخص بعينه ".

3- شعر طويل

4- إشارة إلى صورة العذراء في " الصلب " للأخ أنجيليكو في حجرة كابيتولو في دير سان ماركو في فلورانسة، واحدة من اللوحات القليلة في الدير التي سمح لجورج إليوت أن تراها. الأخ جيوفاني من فيسول (حوالي 1400-55) يعرف عموماً بالأخ أنجيليكو (انظر كذلك فصل 64، حاشية 1). في صحيفتها وصفت جورج إليوت مجموعة العذراء، والقديس يوحنا والشهيدين ب: " الذين لا يضاهوا ".

5- في عام 1374 رفض غريغوري الحادي عشر طلب الفلورانسيين للحبوب كجزء من خطته لضم المدينة إلى الولايات البابوية . تحالفت فلورانسة مع ثمانين مدينة أخرى في رفض السلطة البابوية، وبالتالي جلبت على نفسها حرماً كنسياً. لم يرفع الحظر حتى عام 1378 عند دفع 200 000 فلورين إلى خليفة غريغوري.

6- انظر " الجخيم " لدانتي، النشيد XX

7- ترجمة جورج إليوت ل: " maremma " مفككة. وهي تعني عموماً : أرض سبخة.

8-والد دومينيكو سينيني برناردو أدخل الطباعة إلى فلورانسة (انظر فصل 4 حاشية 2).

9- ربما " الجحيم، النشيد 0IV,2 "... يرسم على وجهي تلك الشفقة التي تحسبها خوفاً."

10- هذه الجملة لا تظهر في المخطوطة

11- " مزاميره في كيسه " (أي خالي الوفاض) هو قول ذهب كمثل سائر في إيطاليا. Capo d'Oca تعني " رأس الإوز ".

الفصل 46

1- كل النصوص السابقة في الرواية نصها كالتالي: "... مما يفترض معه نسيان خلافاتهما ".

2- تتابع الجملة في هذا الموقع في المخطوطة: " من فرقة الإمبراطور التعيسة من الجنود مما يتلاءم وكوندوتييري من الدرجة الثالثة، والاحتمال الضئيل في أنه سيتابع مشروعه، بعد أن رأى أن الفينيسيين والميلانويين الذي اعتمد مشروعه عليهم كانوا شديدي الغيرة ما يحول دون أن يستمروا في قتالهم من أجل هدف مشترك.

" ولذلك أعتقد أنه حري بك أن تنشدي مسبقاً " تقريظة "، يا عزيزتي رومولا".في تلك اللحظة كانوا قد وصلوا قريباً جداً من إحدى الشرفات.... "

3- ورد في المخطوطة هنا: " لن نصل (في الأصل استعمل الاسم: وصول) إلى البيت بدون أن نتبلل بالمطر.

4- " السيد حاذق " أو " السيد عارف كل شيء ".

5- نبيذ إيطالي أبيض

6- " يا إلهي "

7- " وحش " أو " حيوان "

8- نائب رئيس الأساقفة، المسؤول الكهنوتي عن الشؤون

القانونية في الأسقفية الفلورانسية

9- " يا روحي "

10- ورد في المخطوطة هنا " منذ انكشاف الحقيقة بشأن المكتبة... "

<u>الفصل 47</u>

1- اسم سيتشوني الكامل لا يظهر في مخطوطة الرواية عند هذه النقطة.يرد المزيد عن " سوء سمعته " في الفصول التالية من "رومولا".

الفصل 48

هاتان الجملتان وردتا في طبعة كورنهيل ولا تردان في المخطوطة.

الفصل 49

1- ورد في المخطوطة هنا " وجدت نشرات إعلانية مبللة طريقها من المطبعة إلى فيا ديل غاربو في الساعات الحالكة وشوهدت مثبتة ومجففة جيداً في زوايا الشوارع في الصباح الباكر تطلب من كل الفلورانسيين الذين أحبوا مدينتهم أن يستخدموا نفوذهم لصالح برناردو ديل نيرو. كف الميديتشييون عن أن يكونوا سلبيين: كانوا يحمّسون أنفسهم لكي تتوافر لهم حكومة تلائمهم بشكل خاص ولم يكن بجانبهم أحد له خبرة وشخصية برناردو ديل نيرو. أخذ الحزب الشعبي ينزعج: فالناس العاديون الذين أمّوا دير سان ماركو وكانوا يثرثرون بشكل خفيف عن السياسة مع كاهن اعترافهم الأخ سالفيسترو قالوا بتشديد

متنام إنهم كانوا يخشون أن يكون لهم " سينوريا سيء ". أما المحبون الآخرون للحكومة الشعبية فلربما تعزّوا قليلاً للانزعاج المحتمل لفرانشيسكو فالوري المتعجرف عندما رؤوا أن الرجل الذي كانوا يكرهونه كثيراً قد انتخب خليفة له، وبعض النسوة اللواتي توافرت لهن استنارة داخلية شعرن بأنهن يتلقين التعليمات من الملائكة فيما يخص أفضل الطرق لتحديد نسبة الحبات السود والبيض في مواجهة الميديتشيين ".

2 – ورد في المخطوطة هنا " ومع ذلك ففي المساء "اليوم " الأخير من الكرنفال كان مقرراً أن يعرض في الساحة الكبيرة مشهد من نوع جديد وأخاذ لا بد أن يرغب كل شخص، سواء كان بيانونياً أو لا، في رؤيته. وبعد الساعة العاشرة صباحاً مباشرة خرجت رومولا وفقاً للوعد واتجهت صوب كورسي ديغلي ألبيتزي لإحضار ابنة عمها بريجيدا عسى أن تستعد كلتاهما للانطلاق من فيا دي باردي إلى الساحة في ساعة مبكرة من العصر وتحتلا مكانيهما عند إحدى النوافذ التي كان تيتو قد حجزها لهما. " هذه الجملة لا تظهر في طبعة كورنهيل.

3– كل طبعات " رومولا " التي ظهرت في زمن جورج إليوت تخطئ في كتابة هذه العبارة

Orgagna's Loggia رغم أن التهجئة الحالية تظهر في الاستهلال. لقد قمت بتصحيحها هنا وثانيةً في فصل 65

4– Anathema" الحرم الكنسي " من الكلمة اليونانية التي تعني في الأصل " شيء مكرّس "، لكن في الاستعمال اللاحق توسع

المعنى ليصبح " شيء مكرس للشر " أو " شيء شرير "

5- " dead hair ". الكلمة الإيطالية capelli morti – " "false hair" شعر مستعار

6- سقطت الجمهورية الفلورانسية أخيراً بيد الميديتشيين بعد حصار طويل عام 1530.

7- لورينزو دي كريدي (حوالي 1456-1537) كان متدرباً عند Verrocchio في ذات الوقت الذي كان فيه ليوناردو دا فنشي. أحرق لورينزو الكثير من لوحاته في إحدى مناسبات حرق الأشياء في العراء التي أمر بها سافونارولا.

" باتشيو الشاب " هو باتشيو ديلا بورتا، وقد اشتهر باسمه الديني الأخ بارتولوميو (انظر فصل 25، حاشية 8 "

8- لاورا كانت المخاطَبة في قصيدة الحب المشحونة بالعاطفة التي نظمها بترارك

9- سانتا كاترينا المصرية هي سانتا إلكساندريا التي يُعتقد أنها عاشت في عصر الإمبراطور ماكسينتيوس، ويقال إنها أفحمت خمسين فيلسوفاً وثنياً. وعليه فهي القديسة الشفيعة للفلسفة المسيحية. لوحة رافائيل التي تمثل سانتا كاترينا أصبحت من ممتلكات الغاليري الوطني في لندن عام 1839

الفصل 50

1- " بابو " " بابا "

2- polenta مهلبية كستناء

3- أي في إحدى أشغال الموزاييك التي تزيّن قبّة المعمودية في فلورانسة

4- !Addio , piccina" وداعاً، أيها الصغير "

الفصل 51

1- حرفياً " في حالة جيدة " (en bon point) لكن ترد غالباً ككناية عن " امتلاء الجسم "

2- في المخطوطة وردت جملة نصها " لم تدع الحاجة لكي تقلع عن الحماقة الآن، ذلك أنها جُرّدت من.... " لا تظهر هذه في طبعة كورنهيل.

3- "Deh! Ah!" أو " وا أسفاه "

الفصل 52

1- في كل الطبعات السابقة تبدأ هذه الجملة: " رومولا، التي عزفت باشمئزاز شديد عن الحماس الصارخ لتلك النسوة المستنيرات... "

2- وردت في المخطوطة جملة محذوفة تقول: " لكن في هذه الزيارة إلى كاميلا روسيلي اقتربت بشكل خطير من حد العيف والكراهية بل والذي يمكن أن تصل إليه انطلاقاً من ثقتها بسافونارولا.

3- في مخطوطتها كتبت جورج إليوت أولاً " الأخ Lippo Lippi's... " لكنها صححتها لاحقاً. عهد بلوحة " رؤيا سان برنار" إلى دير كامبورا بالقرب من فلورانسة. والحق أنها لم تنقل إلى ال: Badia حتى عام 1529 لأجل حمايتها أثناء حصار فلورانسة.

4- شاؤول أبقى على أجاج، ملك عماليق متحدياً أمر الله له. وبعد توبيخه شاؤول على خطيئته قام صاموئيل " بتقطيع أجاج أمام الرب في الجلجال " صموئيل الأول، إصحاح 15).

5- وردت جملة في المخطوطة هنا تقول: " إن أكثر المثيرات فعالية للمحاججة التي تقول بأن هرطقة ما ليست ملعونة هو عيف قوي عن التصديق بأن الهرطوقي العزيز سوف يلعن ". هذه الجملة لا تظهر في طبعة كورنهيل.

6- وردت جملة في المخطوطة هنا تقول: "طاقة رومولا الوافرة كان لها مقابلها من عوز الاكتمال والمثالية: فرغم أن تمييزها الفكري قوي إلا أن تأثيره قد تعزز بوساطة القناة العميقة لعاطفتها الطاغية وفي ظل عيف شديد لحكمها على الأمور. تبدو مثل هذه النتيجة لدى الكائنات الوضيعة وضاعة مفاقمة، لكن عن طريق مثل هذا التركيز الضيق فقط ترتفع الطبيعة البشرية، سواء كانت لدى الفرد أو المجموع، بما فيه الكفاية بالنسبة للأعمال البطولية أو حركات المشاريع والإصلاحات التي تهز الأرض. وما إن تستثيط رومولا غضباً لرؤى كاميلا... هذه الجملة لا تظهر في طبعة كورنهيل.

الفصل 54

1- بعد أن سمع بانتخاب برناردو ديل نيرو، الميديتشي، غونفالونياً لشهري آذار ونيسان من عام 1497 كتب بييرو دي ميديتشي إلى برناردو يعلمه بنيّته العودة إلى فلورانسة. وقد أجاب برناردو ناصحاً له أن يؤجل مثل هذا العمل المتسرع، لكن بييرو رغماً

عن ذلك سار إلى فلورانسة على رأس 300 1 من رجاله. وقد وصل إلى المدينة قبيل الفجر بتاريخ 28 نيسان، لكن عند وجوده المداخل موصدة في وجهه انتظر عبثاً حتى المساء ثم سار جنوباً إلى روما.

الفصل 55

1- في الواقع نُشر البيان البابوي الذي يعلن الحرم الكنسي على سافونا رولا بتاريخ 18 حزيران في أديرة وكنائس الباديا، وأنانزياتا، وسان كروتشه، وسان ماريا نوفيلا وسان سبيريتو.

2- هذه العبارة أضيفت إلى النص في طبعة الكابينيت.

3- في المخطوطة تبدأ هذه الفقرة " في الوقت ذاته فإن إيمانها الذي لا يتزعزع ببقية ما كشفه بالداسار... "

الفصل 56

1- السيد سان ميشيل San Michael هو سان ميشيل رئيس الجند السماويين. في مخطوطتها كتبت جورج إليوت في هذا المقام " Saint Michael "، لكن هذه هي واحدة من الحالات النادرة التي غيّرت فيها التعبير الإنجليزي إلى تعبير إيطالي، ربما لأنها اعتبرت العامية الإيطالية ملائمة لتيسّا.

2- Lamberto dell' Antella، نبيل فلورانسي، سجن عام 1494 لدعمه الفاعل للقضية الميديتشية. بعد فراره من السجن في فلورانسة التحق بببيرو دي ميديتشي في روما لكن سرعان ما فقد الحظوة لديه. عاد لامبرتو إلى فلورانسة عازماً على الأخذ بثأره.وقد قبض عليه وبحوزته رسالة. وقد أكّد أمام السينوريا محتوياتها

التصالحية وكذلك مزيد الأدلّة على المؤامرة. كذلك تعرض لامبرتو للتعذيب بهدف اختبار صدقه. ونتيجة المعلومات التي كشف عنها، وكما تبين الرواية، قبض على خمسة من الفلورانسيين البارزين وهم: برناردو ديل نيرو، نيقولو ريدولفي، لورنزو تورنابوني، جيانوتزو بوتشي، جيوفاني كامبي.

الفصل 57

1- تتابع هذه الجملة في المخطوطة: "...كان لديهم الميل، الذي اشتهر به السياسيون الدينيون في الأعصر بكافة، ليداعبوا ملحداً كان يقف إلى جانبهم في الإجراءات العامة، وليعتبروا لينه ترتيباً إلهياً ليتم تبيان أن مجرد الفطنة الدنيوية، إذا كانت تتسم فقط بالقوة الكافية، تؤدي إلى أن يشيل الميزان في صالحهم ". (محذوفة)

2- " الخيانة تسرّ الجميع، لكن الخائن لم يسرّ إلى الآن أي شخص ". من " Morgante XVII,69 " لبولتشي.

3- تقول جملة وردت في هذا المقام في المخطوطة " إذا اتفق أن طلب أناس لهم خطط متعارضة، وكل واحدة منها لا طائل منها كما الأخرى، عن خدماته فإنه يقدمها لهم وينال أجره: وعندما تفشل خططهم ينتهي عمله. لم يقصد أن يقدم معلومات ضد صديقه كما لم يقصد من قبل أن ينكر أباه. فالظروف هي التي أملت ذلك السبب عليه ".

4- (Giovanni Pontano) (1426-1503)، محط رعاية ألفونسو الثاني وصديقه، رحب بقدوم تشارلز الثامن إلى نابولي كملك

عام 14950. وعندما عاد ألفونسو إلى مملكته احتفظ بونتانوس رغم ذلك بحظوته لديه.

5- تقول جملة وردت في هذا المقام في المخطوطة: " كريه، أجل. لم تكن الأشياء على هذه الدرجة من الليونة بين يدي الأذكياء كما كان سيؤمّل ويُرغب. أحياناً كانت العداوة تجبر الإنسان على ارتداء درع غير ملائم، والهسيس، حتى وإن كان من أجل مبلغ صغير، يبدو أحياناً أسوأ من خنجر، ذلك لأنه لا يقاوَم بشراء درع ".

الفصل 58

1- عندما أعيدت صياغة الدستور الفلورانسي في كانون الأول عام 1494 كان سافونا رولا قد اقترح بأن يستمع مجلس الثمانين لاستئنافات أحكام الإعدام. وقد عارض هذا الاقتراح بشدة الحزب الأرستقراطي الذي صوّت رغم ذلك بأن يعمل المجلس الكبير، وهو هيئة أكبر، عمل محكمة استئناف عليا – أملاً بأن ينجم عن ذلك فوضى تلائم مقاصدهم. بشأن هذه الهيئات المختلفة انظر ملحق A

2- جورج إليوت تلعب على الكلمات فيما يخص طريقة الاقتراع المتبعة في فلورانسة.

3- تقول جملة وردت في هذا المقام في المخطوطة: " في هذا الاجتماع تولّد الكثير من النزق من جانب، والكثير من الوجل من جانب آخر. لكن الثمانية لم يجدوا مناصاً من وضع حباتهم الحاسمة، وقد خرجوا بأغلبية ستة أصوات بتأييد الحكم بالموت. في هذه اللحظة الخالية من كل أمل لم يكن هناك إلا ملاذ واحد لأولاء الذين رغبوا في

إنقاذ السجناء: لقد طلبوا أن يستأنف الحكم إلى المجلس الكبير. وهذا يولّد اضطراباً جديداً،وتردداً جديداً. انفض الاجتماع ليتم النظر من جديد في المسألة في الحادي والعشرين حيث سيؤيد المجلس الاستئناف أو يحجبه ".

بعد ذلك قررت جورج إليوت أن تترك جلّ هذه المعلومات لتيتو كي يبلغها لاحقاً لرومولا في موقع تال في الفصل.

4- " يسعى أحدث، وفي كثير من النواحي، أفضل كاتب لسيرة حياة سافونا رولا، السنيور فيلاري، لأن يبين أن قانون الاستئناف الذي سنُ أخيراً، وهو أوسع من القانون الذي فكّر به سافونا رولا أصلاً، كان مصدر إزعاج شديد له باعتباره وسيلة استخدمها الحزب الأرستقراطي كي يلصق بإجراءات الحكومة الشعبية النتائج الضارة لهذه الإجازة. لكن، باعتناقه هذه الرأي، ضاعت من كاتب السيرة المحترم حقيقة أن سافونا رولا، ليس فقط في عظاته بل في كتاب أعد عمداً (وهو: Compendium Revelationum) وقد كتب بعد مدة طويلة من صيرورة الاستئناف قانوناً، يحصي بين الفوائد التي تأمنت لفلورانسة " الاستئناف من الأصوات الستة، والذي نال تأييدي، لأجل ضمان أمن أكبر للمواطنين " (ج.أ.)

وقد نشر كتاب (Storia di Girolamo Savonarola e de' suoi tempi في فلورانسة أعوام 1859-61. وقد شكل أحد المصادر الرئيسة لرواية جورج إليوت.

الفصل 59

1- Andrea Cambini (حوالي 1455-1527)، تلميذ سابق لكريستوفورو لانـدينو، عمـل كديبلوماسـي تحـت إمـرة لـورينزو دي ميديتشـي. وبعـد أن خـاب أملـه بشخصـية ومطـامح بييـرو، أصـبح كامبيني وثيق الصلة بالقضية الشعبية، وبخاصة بسافونارولا وفالوري. في عام 1498، زمن سقوط سافونارولا، تعرض منزله للنهب على يد الرعاع الفلورانسيين ودخل كامبيني نفسه السجن. وبعد إطلاق سراحه تخلى عن لعب أي دور سياسي.

2- نشر كتاب سافونارولا " Trionfo della croce di Cristo " انتصار صليب المسيح " بالإيطالية واللاتينية عام 1497

3- فـي طبعـات الروايـة الأولـى ورد هـذا الـنص كالتـالي : " الكلمات التي بدت في هذا الترجيع للشعور على أنها ذات تنافر غريب مؤلم... "

الفصل 60

1- يقـارن فـاليري بالبطـل الجمهـوري الصـارم، مـاركوس بورسـيوس كـاتو (95-46 ق.م.)، والمعـروف ب " Uticensis"مـن مكـان انتحـاره. وغالبـاً اعتبـر الكتـاب اللاحقـون كـاتو عنـوان الفضـيلة والإنكـار الـذاتي الرومـاني. وقد أدى عزمـه الـذي لـم تلـن لـه قنـاة دفاعـاً عـن الحريـة الجمهوريـة القديمـة إلـى دعـم شيشـرون فـي إصـراره علـى

إعدام المتورطين في مؤامرة كاتيلين، والمعارضة القوية للقائد الطموح يوليوس قيصر.

2- novelty = Novità الجِدّة

3- اختلاف هنا بين نص طبعة كابينيت الذي يورد ببساطة" into court" والطبعات الأولى التي تورد بدقة أكبر عبارة " into the court" – أي فناء البارجيلو. لقد أبقيت على الأولى.

4- في الطبعات الأولى للرواية وردت هذه الجملة كالتالي " تهيّأ لرومولا أنها وسط بحر ضربته العاصفة، لم تأبه للعاصفة لكن فقط لرفع شارة حتى تكف العين التي سعت إليها عن البحث عنها ".

الفصل 61

1-تقع Viareggio على الساحل الإيطالي المتوسطي على بعد حوالي ثلاثة عشر ميلاً شمال مصب نهر آرنو. كانت إبان نشر رواية " رومولا " منتجعاً ساحلياً سريع النمو ، وقد نوّه Murray في كتابه " دليل شمال إيطاليا " لعام 1853 أنها " كانت مقصد المستحمين في البحر أيام الصيف".

2- كانت ال naiads في الميثولوجيا الإغريقية حوريات البحيرات، والأنهر والينابيع.

3- قصة " كوستانزا " الجميلة وردت في " ديكاميرون "، اليوم الخامس، رواية 2

4- تقول جملة إضافية في المخطوطة هنا: " لم تكن تنحدر

نحو الموت بل نحو النوم "

وقد قامت جورج إليوت على نحو معقول بالإقلاع عن هذه الجملة الأخيرة المفرطة الوضوح في مسلسل الرواية في مجلة " كورنهيل "، مما ترك عنصر تشويق في نهاية الفصل الأخير من الجزء XII

الفصل 62

1- 27 شباط عام 1498

2- في الواقع كان سافونا رولا الذي ولد في أيلول 1452، خمساً وأربعين إبّان هذا الوقت.

3- Misereatur vestri " عسى أن يرحمك ".

4- " عسى أن يباركك الله العلي القدير "

الفصل 63

1- Quaresimal = الصوم الكبير

2- في المنطق يتألف القياس من مقدمتين، الكبرى والصغرى، والنتيجة. في المحاججة الفرانسيسكانية المقدمة الكبرى هي: " ليس من واحد تحرسه العناية الإلهية يمكن أن تؤثر فيه النار " والنتيجة هي: " ولذلك فسافونا رولا ليست تحرسه العناية الإلهية ".

3- " يورد كتّاب اليوميات حروفهم السواكن بإيلاء الاهتمام بالكمية أكثر من الموقع، وقد تمثل هذا النموذج في Ragnolo Braghiello(Gabriello Angolo) ل " Ferondo " شخصية

بوكاتشيو " (ج.إ.)

في " ديكاميرون "(اليوم الثالث، الرواية 8) يتحدث الأحمق فيروندو عن وحي تمّ " بفم الملاك جبريل " (Angolo Gabriello)

4- فرانسيسكاني، وقد جاءت التسمية من لون لباسه

5- شبكة أو دبوس أو بروش للزينة

6- نهر رافد يصب في نهر آرنو غرب مدينة فلورانسة القديمة بالضبط

7 في العصور الوسطى كانت فلورانسة منتجاً كبيراً للأقمشة الصوفية، لكن قيوداً صارمة فرضها على تصدير الصوف من إنكلترا إدوار الرابع وهنري السابع بغية حماية النساجين الإنكليز من المنافسة.

8- Padrone= سيد

9- bracco هو كلب صيد إيطالي مدرب. تصف ج.إ. كلب سبيني أعلاه بأنه " سلوقي الوعول ".

10- Alcibades(حوالي 450-404 ق.م.) كان قائداً وسياسياً أثينياً موهوباً لكنه خليع تربى في بيت قريبه، بيركليس. بالرغم من أنه كان صديقاً لسقراط ومعجباً به إلا أنه لم يكلف باتباع تعاليمه الأخلاقية. وبالرغم من عدم جدارته بالثقة، وطموحه وتقلبه السياسي فقد كسبAlcibades ثقة الفرِق المختلفة التي كان عندها من القلق ما يكفي لاستغلال مواهبه الكافية والحقيقية.

مقارنة تيتو لسبيني ب Alcibades هي تقريظ نبيه لكنه ليس تاماً بأي شكل.

11- عائلتان فلورانسيتان بارزتان معارضتان للميديتشيين.

12- اختصار ل pallamaglio (الكلمة الإنجليزية pall-mall أو pall-mall) وهي مشتقة من ""balla- كرة - و" maglia " = mallet " مدقّة. وقد كانت اللعبة تتألف من دفع كرة من خشب البقس خلال حلقة حديدية معلقة على ارتفاع من الأرض في ممر طويل.

الفصل 64

1- عمل الأخ أنجيليكو في دير سان ماركو من حوالي 1437 حتى مغادرته فلورانسة إلى روما عام 1445. وربما ترقى لوحات الفريسكو على الطابق العلوي للدير إلى عام 1441. وتوجد ثلاثة منها في الممر (يسوع المصلوب المعبود من القديس دومينيك، عيد البشارة، والعذراء والطفل مع قديسين)، وهناك ثلاثة وأربعون تبين مشاهد من حياة المسيح، في الحجيرات الخمس والأربعين.

لم تستطع ج.إ. مشاهدة هذه اللوحات بنفسها، ذلك أن النساء لم يسمح لهن تجاوز المبنى الملحق بالدير (حيث، رغم ذلك، استطاعت أن تعجب بلوحة الأخ أنجيليكو " الصلب ". انظر فصل 44، حاشية 4). وقد نوّه ل.هـ. لويس في صحيفته عدد 22 أيار 1860: "... قصدنا دير سان ماركو، وبقيت بولي في غرفة حيث أمكن مشاهدة لوحة – الصلب – للأخ أنجيليكو العظيم من قبل السيدات بينما تجولت أنا في أنحاء الدير ودوّنت ملاحظات نيابة عنها. في الحجيرات شاهدت العديد من لوحات الفريسكو من تنفيذ أنجيليكو، بينها صورة

المسيح الطفل ذات الجمال المثالي، وفي أخرى عذراء (في تتويج العذراء) تفوق كل شيء تعيه ذاكرتي من حيث رشاقة الوضعية وانسياب الثوب".

2- in coro حرفياً " في الجوقة "، لكن بمعنى أكثر توسعاً " في الكنيسة "

3- " اخلق فيَّ قلباً نظيفاً " المزامير 51، آية 10

4- في الطبعات الأولى للنص وردت هذه الجملة هكذا "... وكنتيجة لازبة عن الوقائع التي تم الشعور بها مسبقاً كأسباب للألم. فالاستعداد الذي يحدو الرجال للموافقة على لمس الحديد الساخن جداً... "

5- في الطبعات الأولى للنص وردت هذه الجملة هكذا: " هذه الحقيقة لم تكن هي التي يعرفها تيتو، لكنها حقيقة قادته موهبته المفترضة التي تنشئ الوقائع من أدلة خفية، إلى أن يخمّن ويأمل ".

6- Philippe de Comines أو de Commynes(1447-1511) اشتهر الآن ل " مذكراته " وهي أحد أجمل أعمال التاريخ المعاصر التي بقيت من العصور الوسطى. وقد كتب الجزء الأول الذي يتطرق إلى حكم لويس الحادي عشر في فرنسا بين عام 1489 و1491. أما الجزء الثاني، الذي يصف غزو تشارلز الثامن لإيطاليا فقد جمع من 1495 حتى 1498 وكان مصدراً هاماً للمعلومات عن الفرنسيين في إيطاليا في رواية " رومولا". هذا، وقد أثرت صورة لويس الحادي عشر لكومينيس في رواية Quentin

Durward للسير والتر سكوت والتي يظهر فيها المؤرخ نفسه كشخصية ثانوية.

7- عندما توفي لورنزو دي ميديتشي عام 1492 كان واضحاً أن مصرف الميديتشيين كان يعاني من صعوبات مالية لفترة من الوقت. ونتيجة لذلك عرضت مكتبته الثمينة للبيع كي يفي ديونه ولعب سافونارولا دوراً فعالاً في شرائها من قبل دير سان ماركو.

8- Matthias I Hunyadi والمعروف ب Matthias Corvinus(1440-1490)، ملك هنغاريا، كان واحداً من أقوى الملوك وأكثرهم استنارة في أوربا. كان بلاطه مركزاً كبيراً لعلوم عصر النهضة، وكان الملك نفسه عالماً وجامعاً شرهاً للكتب. وعلى الرغم من تأثيره الحضاري فلم يكن له إلا تأثير محدود على أمته ككل، وبعد وفاته تلاشى الكثير من إنجازاته. وقد ثبت أن خليفته، Waldislaus Jagiello كان غير قادر على ضبط أنانيات الأقطاب الهنغاريين الكبار، وكان تيتو سيتلقى استقبالاً بارداً نسبياً في البلاط الهنغاري عام 1498.

9- أحد أناجيل سافونارولا الزاخرة بالحواشي في مكتبة ريكارديانا في فلورانسة، وهناك إنجيل آخر في المكتبة الوطنية.

الفصل 65

1- coign of vantage، مكبث، I، vi,7

2- الجائز هو أخفض ثلاثة أجزاء في كاهل البناء entablature، أو بتوسع أكبر، يمكن أن يكون الإطار المسبوك في

باب أو نافذة.

3- بتعابير الهندسة المعمارية " "rustication" يستلزم قطع البناء في شكل كتل ضخمة، تفصلها عن بعضها مفاصل عميقة، معطية بذلك قواماً باذخاً لجدار خارجي. وقد تم تنفيذ هذا النوع من العمل على قصر روسيلي، والطابق الأسفل من قصر الميديتشيين.

4- الآية الافتتاحية في المزمور 68

5- تحدى إيليا علانية الأربعمائة وخمسين كاهناً التابعين لبعل لاختبار قدرة إلههم. وقد قتل البعليون ثوراً، ومددوه على كومة من الحطب ودعوا بعل ليرسل ناراً من السماء. لكن لم يستجب أحد. وقد سخر إيليا منهم بمناداته " اصرخوا بصوت مرتفع: ذلك أنه إله، فإما أنه يتحدث أو يصيد، أو في رحلة، أو بالمصادفة هو نائم، ويجب إيقاظه ". وعندما دعا إيليا الرب ليرسل ناراً على أضحيته هو كانت هنالك استجابة فورية لا لبس فيها (الملوك الأول 18)

6- في الثيولوجيا السكولاستية الأعراض هي الإشارات الخارجية اللامتغيرة للخبز- لونه، مذاقه، رائحته، شكله. لكن " جوهره " يصبح رغم ذلك ومن خلال الاستحالة الجوهرية substantiation (انقلاب الخبز والنبيذ الذي يقدم في الكنيسة إلى جسد المسيح ودمه –م) الجسد الحقيقي للمسيح.

7- Olà " هاي يا من هناك "

8- the Tetto dei Pisani سطح بارز منخفض بناه الأسرى البيزانيون (من بيزا) بعد هزيمتهم عام1364 وكان يقع قبالة قصر

فيتشيو، على الجانب الغربي للساحة. وقد هدّم عام 1866 واستعيض عنه عام 1871 بالبناء المعروف حالياً بقصر Palazzo delle Assicurazioni Generali di Venezia

9- في الطبعات الأولى للرواية وردت هذه الجملة على هذا الشكل "... الطلب إليه أو طلبه هو دخول النار.. "

الفصل 66

1- أي 8 نيسان 1498

2- فرسان الداوية Knights Templar نظام عسكري أسس حوالي 1118 لحماية طرق الحج إلى الأرض المقدسة. وقد قمعوا في فرنسا عام 1307، وفي بقية أوربا العام الذي تلاه، نتيجة الضغط على البابا كليمينت الخامس من قبل فيليب الرابع ملك فرنسا

3- في الطبعات الأولى وردت هذه الجملة هكذا "شعر أنه بُصق عليه ".

4- في المخطوطة وردت عبارة " اختناق " هنا.

الفصل 67

1 – جسر ponte alla Carrara الصحيح ponte alla Carraia بني عام 1218 وأعيد بناؤه عام 1559. أما الجسر الحالي فهو بناء شيّد بعد الحرب.

2- تيتو يسبح باتجاه مصب النهر. وقد اجتاز جسر S.Trinità، والآن جسر alla Carraia. حتى عام 1837 كان حقاً " الجسر الأخير ". هذا، وقد استعيض حالياً عن جسر حديدي

معلق عند مسافة أبعد من ذلك باتجاه مصب النهر (Ponte di Ferro alle Cascine) والذي لا بد أن ج.إ.عرفته بجسر أمريكو فيسبوتشي عام 1957

3- كتبت ج.إ. في صحيفتها عدد 16 أيار 1863 " انتهى الجزء 13. قتل تيتو في مشهد هياج عظيم ".

الفصل 68

1-Lethe نهر في العالم السفلي استجرت مياهه نسيان الماضي لدى أولئك الذين شربوها.

2- أسست محاكم التفتيش في أسبانيا عام 1480 بناء على طلب فرديناند وإيزابيلا للتعامل مع مشكلة الغش لكنها غالباً ما أكرهت المسلمين واليهود على التحول إلى المسيحية. وأخيراً في عام 1492، وتحت ضغط محاكم التفتيش، طردت الجالية اليهودية المتنفذة التي تبقت بعد نقصان عددها من إسبانيا. في عام 1497 امتد الطرد إلى البرتغال حيث التجأ العديد من اليهود الإسبان.

3- bantling طفل صغير

4- ال pievano " كاهن الأبرشية " (ج.إ.)

الفصل 69

1- ليس هناك من فاصل لفصل مستقل في المخطوطة.

الفصل 70

1- يرتدي الرهبان الأوغسطين لباساً أسود وكساءً خارجياً بلا كمين، أما الدومينيكان، فيرتدون رداء أبيض وسدلة طويلة توضع على

العاتق وتتدلى إلى الكعبين يغطيها قفطان أسود وغطاء رأس.

2- وردت هذه العبارة في الطبعات الأولى " مونا بريجيدا، التي ارتدت إلى الشعر المستعار... "

الفصل 71

1- وردت في المخطوطة هنا مقطوعة محذوفة تقول: " ولم يغب عن بصيرة رومولا تماماً ذلك الجزء من اعترافه، والذي أعلن فيه أنه قد بدأ يعظ عن السعير القادم والتجدد بدون الإشارة إلى الرؤى أو إلى أية تعاليم فوق طبيعية، لكن فقط من اعتقاد تأسس على المحاججات، المستقاة من التوراة والمنطق. وإذ ألفى عقيدته تستحوذ على عقول الناس فقد سعى إلى تشديد قبضتها عن طريق التأكيد على دليل أسمى مما كان بحوزته. وقد جعل احتكاك رومولا الاعتيادي مع العقول التي تنتقد الأخ الراهب باستهزاء حساسة جداً لما بدا أنه مسوّغ لانتقادهم. شعرت المرة تلو المرة بالانزعاج، عندما كان يعظ، إما أدركت أنه كان يُدفع دفعاً إلى مقولات مرتجلة، وحتى عندما روى رؤياه العظيمة عن السيف الإلهي المتدلي من السماء، والذي لم تشك أنه كان أصلاً رؤيا، كانت تشعر دائماً بأنها ترغب في إغلاق أذنيها عندما مضى يضخّم هذا الأمر بمرافقة مستفيضة من أصوات واضحة التلفّظ ".

والواضح أن هذه قد حذفت لأنها كثيرة الانتقاد لسافونارولا عند مرحلة في القصة تستلزم تعاطفنا وتعاطف رومولا معه.

2- وردت في المخطوطة هنا مقطوعة محذوفة تقول: " تذكرت

رومولا كيف أنها هي نفسها تعرضت لتغيرات مستمرة عند معاينتها دوافعها وسلوكها في السنوات التي عاشتها مع تيتو. وفي مرات كثيرة إذا ندد بها أحد ما، فإن ذلك التنديد كان سيخلّ بتوازن الميزان، وتعمد إلى القول، " لقد كنت مسوقة بالكبرياء والغضب أكثر من أي شيء أفضل من ذلك ".

3- هذه الجملة لم تكتب بخط مائل (بغية توكيدها -م)

الفصل 72

1- الطبعات الأولى تقول هنا: " والآن، عند أول تهديد وأول رؤية للإجراءات المريعة..."

2- في كل طبعات الرواية كتبت ج.إ. " Tetta de' Pisani " في هذا المكان، رغم أنها تكتب اسم البناء بشكل صحيح في الفصل 65. " Tetta" لسوء الحظ تعني " وحش " أو " حلمة الثدي "، Tetto " سطح " وقد قمت بتصحيح الغلطة.

3- Jacopo Nardi (1476-1563) كان تلميذ سافونارولا، وتقلد مناصب شتى في عهد الجمهورية الفلورانسية. لعب دوراً فعالاً عام 1527 في هزيمة القوات الميديتشية المهاجمة لقصر السينوريا. وعندما قضى الميديتشيون في النهاية على الجمهورية عام 1530 التجأ Nardi إلى البندقية. وقد نشر عمله الأدبي الكبير Istorie della Città di Firenze والذي يغطي السنوات ما بين 1494 و1532 بعد وفاته عام 1582.

قرأت ج.إ. كتاب ناردي " تاريخ.." في ت1 عام 1861

واستقت الكثير منه في وصفها لفلورانسة إبان تلك الفترة.

4- فـي تنزيلـه رتبـة سـافونارولا نطـق الأسـقف بالكلمـات " Separo te ab Ecclesia militante atque triumphante "– " أنـا أسـلخك عن الكنيسـة المحاربـة والمنتصـرة ". ويقـال إن سـافونارولا أجاب بهدوء " Militante, non triumphante;hoc enim tuum non est" – " من الكنيسة المحاربـة لكن ليس الكنيسـة المنتصـرة، ذلك ليس بمقدورك أن تفعله ".

خاتمة

1- (spirito gentil) الكلمـات الافتتاحيـة فـي canzone (أنشــودة إيطاليــة –م) لبتــرارك (مرقمــة LIII فــي معظــم طبعــات الأرجوزة):

" أيتها الـروح اللطيفـة، الحاكمـة لتلك الجوارح التـي بداخلها، فـي رحلته (في الحياة) يعيش إنسان شجاع، حاد البصر، حكيم ".

هذه الأنشودة موجهة إلى رجل دولـة يتطلـع إليه بترارك للبعث المستقبلي لروما وإيطاليا. من المناسب تماماً أن يقرأ ليلو هذه القصيدة بعينها، ذلك لأنها تقود إلى النقاش التالي عن العظمة الحقيقية. كذلك نظر العديد من القراء الفيكتوريين إلى القصيدة على أنها ترهص بقادة النهضة الإيطالية.

2- فـي الطبعـات السـابقة تقـول هـذه الجملـة: " أعتقـد، عنـدما عرفته أول مرة، لم يكن يفكر بفعل أي شيء ظالم أو دنيء ".

3- تقول المخطوطة هنا: " ومع ذلك فقد حلّت به الكارثة ". وقد

أدخلت الجملة الحالية بتوكيدها المختلف في طبعة " كورنهيل ".

– انتهى –